العربي

فيتنام
شعب التحديات

النفط
والتنمية
والبيئة
في الكويت

عمان
عين على
التاريخ
وأخرى
على
المستقبل

مع العدد هدية مفكرة عام ١٩٨٩
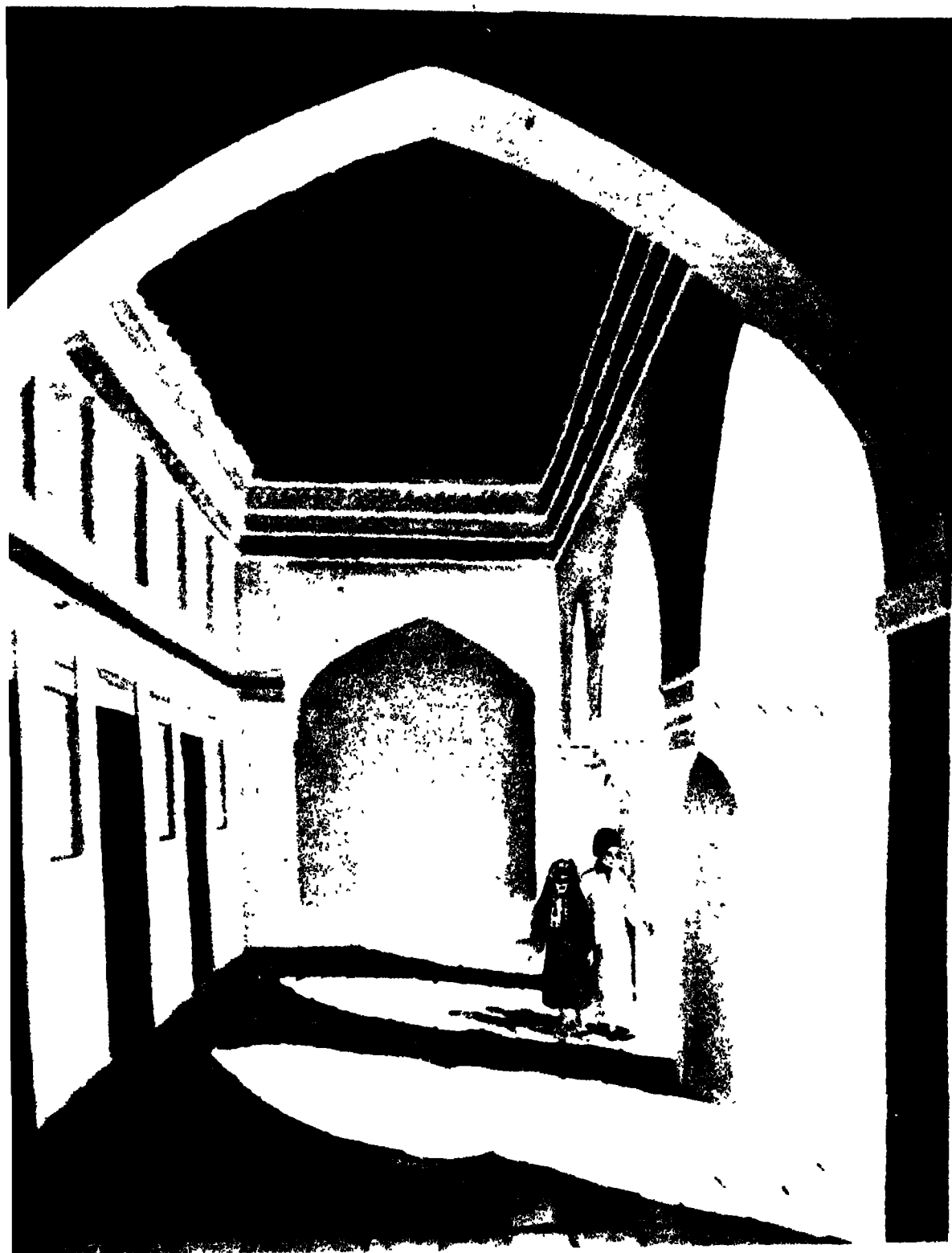
متحف الكويت (بي

للفنان محمود

العـــدد ٣٦٢ السـنة الثانيـة والثلاثون ينـاير ١٩٨٩

مجـلة ثقـافيـة مصـورة
تصدر شهـريًا عـن وزارة الإعـلام بـدولـة الكويت
للوطـن العـربي ولكل قـارئ للعـربيـة في العـالـم

رئـيس التحـريـر
د. محمـد الرميـحي

عنـوان المجـلة
العـربي
ص.ب. ٧٤٨ - الصفـاة
الرمـز البـريـدي 13008 الكـويـت
تـلفـون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٢٦١٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
بـرقـيـا "العـربي" - الكـويـت
تـلفون فاكسمي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تـلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات بـاسـم رئـيس التحـريـر

AL - ARABI
Issue No. 362 Jan. 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

تُرسل الطلبـات إلى: قسـم الاشـتراكات - المكتب الفـني
وزارة الإعـلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
عـلى طالب الاشـتراك تحـويـل القيمة بموجب حوالـة
مصرفيـة أو شيك بالدينـار الكويـتي باسـم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

الكـويـت ٣٠٠ فلس	تـونـس ٥٠٠ مليم	سـوريـا ١٥ لـيرة
العـراق ٤٠٠ فلس	الجـزائـر ٥ دنانير	الامـارات ٧ دراهـم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغـرب ٥ دراهـم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبـيـا ٥٠٠ درهـم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطـر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصـر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فـرنسـا ٢٥ فرنكًا
السـودان ٢٥ قرشًا	لبـنان ٥٠ لـيرة	أمـيركا ٣ دولارات

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

● النفط والتنمية والبيئة في الكويت .... ص ١٠٠

أدب وفنون :

منتدى العربي :

تربية وعلم نفس :

● عُمان . . عين على التاريخ
وأخرى على المستقبل ص ١٦٤

وجها لوجه :
د. مصطفى طلبة ص ١٢٩

اجتماع :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

صورة الغلاف

كانت « العربي » أول مطبوعة تستطلع فيتنام التي واجه شعبها التحديات والذي انتصر بالصبر حتى على الفقر .. بعد سلسلة حروب دموية متلاحقة .. من أجل اعادة البناء .

[طالع الاستطلاع ص ٣٦]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

على طريق استشراف المستقبل العربي

كل عام وأنت بخير ، نستهل عامنا الجديد للسنة الثانية والثلاثين من مجلة العربي وعيوننا على المستقبل ، لم يعد يفصلنا عن القرن الواحد والعشرين إلا بضع سنوات لاتزيد عن عقد إلا بقليل ، والعالم من حولنا يتغير بعمق وبسرعة ، والبشرية مقدمة على مشارف مرحلة جديدة ، ليست مادية فقط ولكن معنوية أيضا .

في إطار الثقافة سوف نضاعف جهدنا في « العربي » باتجاه استكشاف واقع الثقافة العربية ومستقبلها ، وسوف نسبر واقع الرواية العربية ، وواقع الشعر العربي المعاصر ، وواقع القصة القصيرة ، وواقع المسرح ، وما يتفرع من هذه النشاطات الإنسانية ، وما يجاورها ، حتى نعرف على وجه الدقة واليقين ماذا عن حالتنا الثقافية الراهنة .

وسوف تتابع « العربي » بداية من هذا العدد استشراف المستقبل العربي في مجالاته المتعددة ، فلم نعد قادرين على أن نشاهد التحولات الكبرى وهي تجري في العالم ولا نرصد نتائجها علينا نحن العرب .

العالم يتغير استراتيجيا ، فالقوتان العظميان تكادان تصبحان قوة واحدة باتجاه تأمين مصالحهما المشتركة ، وقوى جديدة تبرز على الساحة العالمية ، كالقوة الصفراء مثل الصين واليابان وغيرهما ، وهي قوة شرقية لها بعدها الحضاري القديم وطموحها المشروع ، لتتبوأ مركزها في العالم ، وهي غير متأثرة بتعقيدات الارتهان مع القوى الغربية ، ولها موقفها المتوازن بالنسبة لقضايانا العربية ، لها مصالح محددة وتنظم نفسها باتجاه هذه المصالح بوضوح ودون تردد ، وتشكل علاقاتها الدولية على هذا الأساس ، فما موقفنا نحن العرب من كل ذلك ؟

العلم والتقنية في تغير جذري ، فثورة المعلومات التي كنا نتحدث عنها منذ زمن هي بين أيدينا الآن ، واحتكار هذه المعلومات واستخداماتها تعني احتكار المستقبل . فالمعلومات تهيء للأشخاص والمؤسسات والدول قدرة على التحرك طرديا مع حجم هذه المعلومات ، والخبراء يتوقعون ألا تقتصر التقنية في استخدام « الكمبيوتر » فقط لتخزين المعلومات وتحليلها ، بل سوف تتضاعف عشر مرات من الآن حتى مطلع القرن الواحد والعشرين ، وسوف تتضاعف مائة مرة من الآن حتى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين .

إن المستقبل يحمل في طياته الكثير من عناصر التقدم للبشرية ، وعلينا أن نسبر هذه العناصر ونتعرف عليها عن قرب و « العربي » ستحاول جاهدة أن تفعل ذلك .

« المحرر »

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

قراءة في أحداث عقد مضى

نحن الآن في يناير ١٩٨٩ ، ولم يبق سوى احد عشر شهرا ويمضي عقد الثمانينات بكل ما حمل من سلبيات وإيجابيات للعالم بعامة ، ولنا في الوطن العربي بخاصة . لندخل في العقد الأخير من القرن العشرين ، مشرفين على قرن جديد هو القرن الواحد والعشرين.

لقد شهد هذا العقد تحولات جوهرية على الساحة العالمية . والتحولات العالمية ـ وكما هي التحولات في الحياة الانسانية ـ لا تأتي من فراغ ولا تبرز فجأة ، ولكنها تبدأ مثل أي شيء آخر ـ من جراء تفاعلات صغيرة غير مرئية ، تتكثف كي تحول التغير الكمي البسيط وغير المنظور إلى تغير كيفي وهائل ، يفاجأ به السذج والبسطاء من الناس ، ويعرفه أهل الدراية والخبرة والعلم .

لقد نضجت بعض التحولات في العلاقات الدولية في السنوات الأخيرة ، وشهد عقد الثمانينيات ـ الذي يكاد يذهب ـ مجموعة من تلك التحولات التي ستصبح ذات تأثير كبير طويل المدى على قضايا كثيرة في العالم ، وعلى قضايانا نحن العرب أيضا

■ ماهي صورة العالم الجديد الذي نوشك أن ندخله ؟

ولكن كيف يمكن رصد جذور هذه التغيرات ؟ وماهي احتمالات مساراتها على العلاقات الدولية وعلى الدول والمجتمعات المختلفة ؟

لو قررنا أن نبسط أسباب هذه التحولات والتغيرات ، ونسبر نتائجها على العالم وعلينا ، ترى بماذا نبدأ ؟ وماهي نقطة الانطلاق ؟

بادىء ذي بدء ، لابد من النظر إلى عقد الثمانينيات على أنه العقد الذى بدأ فيه تطبيق (العقلانية الجديدة) في العلاقات الدولية . بدأ العقد المذكور بشيء أشبه مايكون بالصراع السياسى الحاد على الساحة الدولية ، ثم انتهى أشبه مايكون بوفاق لم يؤثر فقط على القوتين العظميين ـ طرفى هذا الصراع اللتين بدأتا الوفاق بعد ذلك ـ بل أثر أيضا على قضايا كثيرة في هذا العالم المشبع بالصراعات الإقليمية ، والاختلاف في الاجتهادات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ولكن لو أردنا أن نلخص نتائج هذا الصراع ثم الوفاق ، فماذا عسانا قائلين ؟

زمن آخر . وعصر آخر :

قد نقول : إن هنا فهماً أعمق لإحلال (التعاون) محل (المواجهة) التي صبغت العلاقات الدولية فترة طويلة ، وقد نقول : إن هناك تحولات هيكلية أساسية في العلاقات الدولية والإقليمية ، وقد نقول : إننا مقدمون على حضارة عالمية جديدة لها مواصفات جديدة تدخل بنا القرن الواحد والعشرين ، وأننا سنصبح كلا متكاملاً على هذا الكوكب بدلاً من أجزاء متناثرة .

إذا كانت تلك هي النتائج فما هي الأسباب ؟ وكيف وصلنا إلى تلك النتائج خلال عقد واحد فقط من السنين ، وكان الوفاق قبل ذلك أبعد من الممكن ، وخارج التفكير المستقيم ؟

حجر الزاوية وجوهر العلاقة في النظام الدولى الجديد تلك التفاعلات المستجدة بين كل من واشنطن وموسكو ، وقد أخذ هذا التفاعل يعكس نفسه بشدة على قضايا أخرى مهمة في الشرق الأوسط وفي أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى ، في أماكن التماس والصراع الكامن أو المشتعل ، وقد تغيرت هذه العلاقة أيضا إبان عقد الثمانينيات من علاقات متنافرة تصادمية كانت قمتها وصف الرئيس رونالد ريجان ـ رئيس الولايات المتحدة في معظم سنوات الثمانينيات ـ للاتحاد السوفيتي بأنه «امبراطورية الشر» ، ومالبث في النصف الثاني من العقد أن وجد نفسه يعقد حسنة اجتماعات مع جورباتشوف . . وتوجت هذه الاجتماعات في ربيع العام الماضي ، بسير الزعيمين معاً على الأقدام في الساحة الحمراء في موسكو ، حيث تناول جورباتشوف أحد الأطفال السوفيت من أمه الواقفة مع آلاف المواطنين السوفيت يحيون الرئيس ووضعه بين يدي الرئيس ريجان وقال له :

أدرك العملاقان أن الحربَ النوويــة لايمكن كسبُها ولاينبغي خوضُها

سلم على جدك رونالد ! بعد ذلك بفترة قصيرة سأل أحد الصحفيين المشاغبين رونالد ريجان بعد عودته من تلك الجولة إلى مقر إقامته : هل مازلت تعتقد أن الاتحاد السوفيتي هو (امبراطورية الشر) ؟ قال ريجان : لا ، كنت أتكلم عن زمن آخر وعصر آخر . . !

لقد بدأ عقد الثمانينيات كما رأينا والدولتان العظميان أبعد ماتكونان في المواقف ، وبعد خمسة لقاءات قمة ـ بدأت بجنيف في نوفمبر ١٩٨٥ وانتهت أو قل كان آخرها في نيويورك في ديسمبر ١٩٨٨ مروراً بريكافيك وواشنطن وموسكو ـ تمخضت هذه اللقاءات عن مجموعة كبيرة من القرارات الوفاقية بدءاً بنزع أنواع من السلاح النووي ـ القصير والمتوسط ـ وجعل أوربا خالية تماماً من هذا السلاح المدمر ، وانتهى العقد بالاتفاق كما نصت إحدى الوثائق على (البحث الدائب عن الحلول التي سوف تطور استقلال الشعوب وحريتها وأمنها) ، وذكرت بعد ذلك مناطق الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى كمناطق لها أولوية في بحث القوتين العظميين عن استقرار فيها !

ولقد شاهد العالم بعد ذلك بعثات عسكرية وفنية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، قادمة من إحداهما إلى الأخرى ، لمشاهدة عملية تدمير الصواريخ والتفتيش المتبادل على أكثر الأسلحة تطوراً وتعقيداً ، تأكيداً لعزم العملاقين على أهداف نزع السلاح .

الوفاق بين القوتين العظميين أسمع وأيقظ أيضاً أطرافاً أخرى شاهدت الطريق فبدأت تسير عليه باتجاه الاعتماد المتبادل . فقد شهد عقد الثمانينيات تجمع اوربا الجديدة «أوربا الموحدة» ، وكذلك شهد هذا العقد ظهور قوة اقتصادية منيعة في جنوب شرق آسيا مركزها اليابان . وحتى الصين تبعت هذا الطريق فأوفدت في الأيام الأخيرة من سنة ١٩٨٨ وزير خارجيتها في زيارة إلى موسكو بعد قطيعة امتدت ثلاثين سنة ، من أجل بناء جديد للعلاقات ولقاء قمة جديد في القريب العاجل بين الأصدقاء الأعداء ولأول مرة في التاريخ الحديث والمعاصر تظهر قوة هي القوة الصفراء القادمة من الشرق تنافس القوة البيضاء الغربية المسيحية التي سيطرت على العالم في الأربعمائة سنة الأخيرة .

إنه عالم جديد يتكون كما تنبئنا أحداث الثمانينيات . هذا العالم سيتحقق في التسعينيات مع انتهاء القرن العشرين ، ويؤثر سنوات طويلة على بداية القرن الواحد والعشرين ، وهو عالم يختلف عن الشكل التقليدي الذي ألفناه ، فقد ظهرت فيه قوى جديدة ومراكز ثقل لم تكن موجودة من قبل . . فما هي منطلقات وركائز هذا العالم الجديد الذى نوشك أن نلجه ؟

الحقيقة غير مسلحة :

الحقيقة لاتحتاج إلى سلاح كى تؤكد وجودها ، وهكذا هو التغير العظيم الذي نشهده اليوم ، فالعالم يتجه إلى إحلال (التنمية) بكل ماتعنيه لسعادة الانسان وتقدمه مكان الإنفاق على السلاح ، ولم يتوصل الانسان إلى هذه الحقيقة طوعاً ، فلم تعد لعبة سباق التسلح لعبة يمكن الاستمرار فيها دون تضحيات تفوق قدرة أي دولة بما فيها الدول العظمى على خوضه وتحمل تبعاته الاقتصادية والسياسية . لقد فرض عدم الاستقرار الاقتصادي على الشعوب والقادة نوعاً من التفكير الجديد ، فلم تعد فكرة (عسكرة العلاقات الدولية) بقادرة على العيش والاستمرار ، وواجهت عقبات كأداء لامخرج منها . لقد أصبح سباق التسلح مركز أعصاب العالم ، وتراكمت حوله مجموعة مشكلات في معادلة صعبة الحل بين استراتيجية التسلح والهاجس الأمني من جهة ، وبين المشكلة الاقتصادية المعيشية من جهة أخرى . فالإنفاق على الأول يعني تقليص الإنفاق على الثاني .

وسباق التسلح ، مثله مثل أى ظاهرة اقتصادية أو سياسية أخرى ، يظهر في زمن ويعطى فوائده المعقولة عند نقطة ما ، ثم يصبح لاحقاً مفرغاً من أي فائدة ، بل مضراً ، وإذا استمر فلابد من البحث عن بديل له .

وهذا ماحدث بالضبط لسباق التسلح في العالم ، ويرجع البعض نقطة ظهور فكرة سباق التسلح إلى مابعد الحرب الفرنسية البروسية في الثلث الأخير من القرن الماضي (١٨٧١) . بعد تلك الحرب دخلت فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا وروسيا سباق تسلح كبير فيما بينها من أجل تكديس أنواع مختلفة من الأسلحة ، لأجل التفوق على أعدائها المحتملين ، ليس من حيث حجم السلاح فقط ، ولكن من حيث تقنيته وتطويره أيضا . ومنذ ذلك الوقت ارتبطت القوة العسكرية للدولة بالقوة الاقتصادية لها ، فكلما كانت الدولة متطورة تقنياً واقتصادياً ، كانت ملكيتها للسلاح الأكثر فعالية أقرب إلى الممكن . وكلما تقدمت تقنية السلاح وإبدال جيل منه بآخر ، أدخل المجمع العلمي والتقني في المجتمع في دورة إنتاج السلاح ، لذلك أمست السيطرة على العلم والتقنية ، وبالتالي تطوير السلاح لدولة ما ، ضرورة مسبقة لفرض سيطرة تلك الدولة على العلاقات الدولية .

من هنا كان الصراع الدولي على المستعمرات في بداية هذا القرن مصحوباً دائماً بالتفوق في هذا السباق .

هكذا كان الأمر حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، لقد كان هناك توازن دقيق بين الكم والكيف في سباق التسلح ، إلا أن هذا التوازن انقلب رأسا على عقب فبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبح (الكيف) هو نقطة الانطلاق خاصة بعد تفجير القنبلة الذرية الأمريكية الأولى سنة١٩٤٥ .

■ التفوق التقني والعلمي سمة للعصر وهو أداة للسيطرة وسبب للتبعية

لقد أصبح التفوق التقني والنوعي - بما يعنيه من بحث علمي واسع وإنفاق أموال طائلة ، وتحويل مصادر الثروة إلى هذا الاتجاه - هو العلامة البارزة للتفوق ، ودخل سباق التسلح بدءاً من «القنابل الذرية» وحتى حرب النجوم في طريق يحتاج إلى إمكانيات اقتصادية وبشرية هائلة لم تعد في نطاق حدود وإمكانيات الاقتصاديات القائمة ، لا في الولايات المتحدة ولا في الاتحاد السوفيتي ولا في دول أوربا الغربية . إنه طريق تبين أنه مسدود . وأصبحت الشعوب المرفهة من جهة أخرى هي الشعوب التي لا تنفق على شراء السلاح أو تطويره - كما حددته اتفاقيات ما بعد الحرب الثانية لكل من ألمانيا الغربية واليابان - وبدأت الشعوب الأخرى تعي أن الإنفاق على السلاح لم يعد مقبولاً اقتصاديا ، كما لم يعد متسامحاً معه سياسيا واجتماعيا .

في وقت ما ، كان هذا الإنفاق الكبير على سباق التسلح يُبرر للشعوب بأشكال مختلفة ، منها على سبيل المثال أن البحوث العلمية في الشؤون العسكرية يمكن تطبيق نتائجها على الصناعات المدنية . كان ذلك صحيحا في بداية الأمر ، ولكن صحة ذلك القول بدأت تتقلص وتنعدم حيث أصبح ما يحتاج إليه في الصناعة العسكرية ، لا يُحتاج إليه في الصناعة المدنية ، فقد أصبحت للتطبيقات العسكرية خصائص ليس لها بالضرورة علاقة بالنشاط المدني ، كما أصبح البحث العلمي فيها بحد ذاته باهظ الثمن .

في وقت ما ظهرت نظرية أخرى تقول : إن تجارة السلاح مهمة في التجارة الدولية ، إلا أن هذه النظرية سرعان ما تضاءلت لسببين : الأول أن تصدير السلاح لا يكون مربحاً إلا إذا تم إنتاجه بكميات كبيرة - وذلك مقدور عليه نظرياً - والثاني وهو الأهم أن ما ينفق على البحث العلمي من أموال فادحة يصبح تصديره بعد ذلك إما غير اقتصادي أو ضارا بالأسرار التقنية للبلاد المصدرة .

لماذا سباق السلاح ؟

ثمت ذيول اجتماعية واقتصادية عديدة بدأت تظهر وتؤثر سلباً على السباق المحموم لتكديس السلاح ، بجانب الأموال الضخمة التي تحرم منها قطاعات المجتمع المختلفة كي تذهب إلى إنتاج سلاح جامد . ظهرت أضرار اجتماعية جانبية منها على سبيل المثال انتقال العقول أو هجرة العقول إلى الصناعة العسكرية ، فقد قدر أن ٣٠٪ من المهندسين في الولايات المتحدة و ٣٠٪ من خريجي الجامعات يعملون في الصناعة العسكرية . من هذه الحقائق وأمثالها بدأت برامج الإنفاق على الصناعات العسكرية تلقى مقاومة شديدة من المؤسسات التشريعية ، وذوي الرأي ، في الوقت الذي تعاني فيه قطاعات كبيرة من هذه المجتمعات من العوز ومن نقص في الغذاء والسكن والعلاج . وفي الوقت الذي

بدأت فيها صيحات تقول : لماذا نريد أن نحطم العالم أكثر من مرة ؟ لدينا قوة تدميرية الآن لنسف العالم كله رأساً على عقب !

هذا النوع من التفكير تصادف مع مجموعة من المتغيرات الاستراتيجية ، على رأسها أن الوضع العالمي الجديد لا يحتاج إلى (قوات) لاحتلال (أراضٍ) كما حدث في القرن الماضي وبداية هذا القرن ، فهذه القوات لا تستطيع بالضرورة أن تبقى هناك في الأرض المحتلة إلى الأبد دون مضايقة ، كما شاهدنا في فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة ، وفي أفغانستان بالنسبة للاتحاد السوفيتي ، وقد نشاهدها في أماكن أخرى ، وفي الوقت الذي تصورت فيه وسائل الهيمنة الاقتصادية والايديولوجية التي تصمم التبعية دون تدخل عسكري !

تلك هي بعض النقاشات التي تقال وتقال بشكل واسع أيضاً ضد سباق التسلح على النطاق العالمي ، ولكن هذا النوع من التفكير ينسحب على القوى العظمى وحلفائها ، ولا ينسحب على كثير من دول العالم الثالث ، فلا زالت تلك الدول في سباق ، ولكنه سباق سلاحف ، باتجاه جمع السلاح وتخزينه قلنا سباق سلاحف على أساس أن مصدر هذا السباق التقنية والصناعية ليست من داخل تلك الدول ، إلا أن ما يتفق عليه الكبار قد يفرضونه على الصغار ، وهذا ما تم في مناطق اشتعال كثيرة في العالم .

المسؤولية الجماعية والمفاهيم الجديدة :

بقي ان نعرف أن الاتحاد السوفيتي وكذلك الصين ، هما الأكثر حاجة لتخفيف سرعة هذا السباق ، حيث أن الغذاء والمسكن والخدمات الصحية - وهي الحاجات الأولية لسكان هذين البلدين العملاقين - من أكثر الحاجات إلحاحا ، إلا أن مبدأ تخفيف أو تخفيض الإنفاق على السلاح يجد آذانا صاغية لأسباب موضوعية ومصلحية لمجموعة الدول الكبيرة في الغرب أيضاً .

لذلك نسمع مفاهيم تردد مثل « الاعتماد المتبادل » و « المسئولية الجماعية » على كل المستويات ، وتقدم أطروحات كثيرة تدعم هذا النوع من التفكير ، تبدأ بأهمية الانفتاح والاندماج ، وتنتهي بالتخويف من نفاد مصادر الطاقة والمواد الخام في بعض البلدان ، بل ومن نفاد صبر الجماهير على العنت وشظف العيش . كل ذلك يصب في النهاية باتجاه محاولات تحجيم الضرر الذي يسببه سبق التسلح على الاقتصاد العالمي وعلى رفاهية شعوب الدول الكبرى والمتقدمة ، ففي مؤتمر نيويورك الذي عقد في اغسطس / سبتمبر ١٩٨٧ تحت شعار « نزع السلاح والتنمية » وشارك فيه عدد كبير من دول الشمال ، قرر المؤتمرون في وثيقته النهائية أن (سباق التسلح كابح للتطور الاقتصادي والاجتماعي) ، كما قالت تلك الوثيقة المهمة : (إن استخدام مصادر الثروة المتاحة للانسان اليوم للانفاق على تصنيع
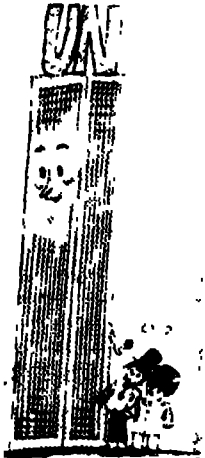
السلاح ، يقلل بشكل خطير استخدام هذه المصادر للانفاق على المناشط المدنية الأكثر أهمية لبقاء الإنسان).

أما الأرقام التي قدمتها تلك الوثيقة فهي مذهلة ، بعضها يقول : إن تزايد الانفاق على صنع السلاح منذ الحرب العالمية الثانية قد ارتفع إلى خمسة أمثاله (تزايد حقيقي) وأنه يمثل ٦٪ من الانتاج العالمي .

باختصار لم يعد بالإمكان التسامح بتفاقم وازدياد الانفاق على السلاح بأرقام فلكية ، وإن كان لابد من وضع حد لكل ذلك ، فلابد أن « تتفاهم » و « تتعاون » الدولتان الكبيرتان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وكذلك حلفاؤهما ، لوضع حد لهذا السباق الجنوني .

هذا التفاهم والتعاون له صدى في أماكن أخرى ، له صدى عند هذه الشعوب داخلياً ، وله صدى في أماكن الصراع العديدة في العالم ، والتي مثلت بشكل أو بآخر نقاط التنافس الدولي حتى هذا الوقت .

من التسرع والبعد عن الواقعية ، بل من الخطورة بمكان القول : إن الخلافات السوفيتية / الأمريكية سوف تتلاشى من عالمنا ، إن اختلاف الخبرة والفلسفة الاقتصادية والاجتماعية ومخلفات الحرب الباردة سوف تبقى على بعض الخلافات ، ولكن الواقعية الجديدة دفعت الطرفين لانتهاز الفرص المتاحة لردم هوة الخلاف ، عندما وصل الطرفان إلى اتفاق لا يمكن التفكير خارجه ، وهو أن الحرب النووية لا يمكن كسبها ولا ينبغي خوضها .

الغائب دائماً مخطئ :

■ إعادة الاعتبار إلى الأمم المتحدة يُحيي قرارات جُمّدت لعشرات السنوات

الغائب عن هذا الوفاق الدولي سوف يكون هو المخطيء ، فنتائج هذا الوفاق الذي تمخضت عنه السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات الذي يكاد ينصرم ظاهرة للعيان ، فهناك تعاون مفتوح بين الدولتين الكبيرتين في المجالات العلمية والفنية والزراعية ، التي كانت قد فرضت عليها قيود في بداية العقد ، وأصبحت العلاقات الاقتصادية بين دول الكتلة الغربية والكتلة الشرقية علاقات قريبة إلى الاعتماد المتبادل ، فحجم التبادل التجاري تجاوز تسعين بليون دولار في السنوات الأخيرة لصالح الغرب ، والتفكير بإغلاق هذا المجال يعني على أقل تقدير اضطرار الدول الصناعية الغربية إلى إعادة هيكلة صناعتها مما يعني احتمال ظهور مشكلات اقتصادية واجتماعية جديدة .

وفي المجال الدولي يتضح الوفاق أو الواقعية الجديدة بشكل أفضل . ففي جنوب غرب أفريقيا - التي كانت منطقة بلا سلام مدة عقدين من السنين ، فمن جهة جنوب افريقيا العنصرية ومصالح الدول الاستعمارية البيضاء ، ومن جهة أخرى أنجولا والتدخل الكوبي المساند من الاتحاد السوفيتي ، وفي وسط المشكلة

■ الانفراج الدولي يمتد من تدمير الصواريخ إلى الرياضة

استقلال ناميبيا ـ كانت هذه المنطقة جرحاً ينزف ويحتمل إمكانية الصدام بين القوتين ، وفجأة يشهد العام الماضي إنهاء مشكلة انجولا ، والاتفاق على خروج الكوبيين منها ، وبرمجة استقلال ناميبيا في منتصف هذا العام ، فعلى أي قاعدة تم كل ذلك ؟

كل ذلك تم على قاعدة قرار لمجلس الأمن وضع قبل عشر سنوات تقريبا (١٩٧٨) يحمل رقم (٤٣٥). لقد كان القرار الذي يضع قاعدة لإحلال السلام في ذلك الإقليم المضطرب قائماً منذ عشر سنوات . ولكنه كان قراراً فاقداً الروح ، تم إحياؤه مرة أخرى ، وانتعشت فيه الروح بسبب الوفاق الدولي الجديد .

وعندما نلتفت إلى منطقة أخرى ، هي أفغانستان ، نرى هذا الوفاق متجسما بشكل أوضح ، فقد كانت الادارات الامريكية المتعاقبة الى وسط الثمانينيات ، لا تعتقد مهما جنح بها الخيال ، أن الآلة العسكرية السوفيتية يمكن أن تخرج من ذلك البلد المنكوب ، ولكن الوفاق الجديد يسارع بالأحداث إلى نتائج كان من الصعب تخيلها ، وهي خروج القوات السوفيتية من ذلك البلد ، وفي غضون فترة وجيزة . ومن المفروض أن يخرج آخر جندي سوفيتي من الأرض الأفغانية بعد أشهر قليلة . هذا الاتفاق يبدو أن البعض من اللاعبين الثانويين حاولوا العبث به ، وذهبوا بعد ذلك ضحية ذاك العبث في تطور غير متوقع أيضاً .

هذه الأحداث ، مروراً بحرب الخليج ، التي شهدت طلقاتها الأخيرة قبل انقضاء الصيف الماضي ، ومروراً بما حدث ويحدث في باكستان والسودان وتطورات القضية الفلسطينية ، بل بما يحدث في داخل حدود الصين والاتحاد السوفيتي نفسه . كل هذه المشكلات قبل سنوات قليلة لا تجد حلولا في الأفق ، وأكثر الاجتهادات واقعية حولها كانت تتوقع الاستمرارية والتدهور بدلاً من التوقف والخروج بحلول مرضية .

إن أعمق ما يحدث من جراء هذا الوفاق في تقديري هو إعادة الهيكلة الاقتصادية والسياسية وحتى الايديولوجية في الاتحاد السوفيتي وفي الصين . سوف تكون الانتخابات في الاتحاد السوفيتي في المستقبل بالطريقة السرية ويختار الناخبون ممثليهم من بين أكثر من مرشح ، وسيكون للاتحاد السوفيتي رئيس يتمتع بصلاحيات تشابه صلاحيات رئيس الولايات المتحدة ، مروراً « بحرية الأديان » ، وسيكون هناك مؤتمر خاص قريب للقوميات ، وتغير في هيكل النظام القانوني ، بل إنه لأول مرة في الاتحاد السوفيتي تنشر خريطة لهذه الدولة الكبيرة وعليها بالضبط الأماكن والأنهار كما هي في الواقع ! حيث كانت هذه المواقع حتى فترة قريبة تحور على الخريطة عن مكانها الصحيح حفاظاً على الأمن القومي !!

ولا يمكن لمراقب أن تفوته ملاحظة أن هذا الانفراج أثر حتى في الرياضة ، فلأول مرة منذ السبعينيات يشارك هذا العدد الكبير من اللاعبين في اولمبياد سيول

١٩٨٨ ، فقد شاركت فيه ١٦١ دولة ، أكثر بدولتين من عدد الدول المنتمية للأمم المتحدة ، وأكثر من ٢١ دولة من أي دورة أولمبية سابقة .

ولعلنا نقول فقط للتذكير : إن اولمبياد ١٩٧٦ في مونتريال قاطعته دول افريقية ، واولمبياد موسكو ١٩٨٠ قاطعته أكثر من خمسين دولة بما فيها الولايات المتحدة ، واولمبياد ١٩٨٤ في لوس انجلوس قاطعته أكثر من ثلاثين دولة بما فيها الاتحاد السوفيتي . إن الانفراج والاعتماد المتبادل والواقعية الجديدة في نهاية الثمانينيات قد وصلت الى كل الأنشطة بما فيها الرياضة .

العلاقات الأوروبية / الأوروبية :

عند ذكر ظهور قوى جديدة ـ خارج إطار العملاقين الدوليين الكبيرين سابقا ـ نجد أن اوربا الموحدة هي إحدى تلك القوى ، فلقد اصبحت الخطوات التي تتخذ باتجاه « اوربا التسعينيات الواحدة » خطوات غير قابلة للتراجع ، بعد سنوات قليلة فقط سوف نجد نتائج الجهود التي بذلت في الثمانينيات في اوربا بارزة للعيان ـ اوربا موحدة ابتداء من سنة ١٩٩٢ . وسوف يجري بعد ذلك تحرك للبضائع والمال والبشر في داخل إطار اثنتي عشرة دولة اوربية وكأنها دولة واحدة ، مع احتمال التفكير في عملة واحدة وبنك مركزي واحد ـ انها دولة الولايات الاوربية المتحدة ان مجمل العائد من الانتاج القومي هذه الدول الاثنتي عشرة الموحدة يساوي الدخل القومي الامريكي ، ويزيد عن الدخل القومي لليابان ودول جنوب شرق اسيا الصناعية . المجموعة الاوربية الجديدة كقوة عظمى تداعب خيال الاقتصاديين الاوربيين ، إن لم نقل السياسيين حتى الآن ، وبمجموع مستهلكين يقدر بحوالي ٣٢٠ مليون نسمة ، ومع دخل مثل الدخل الاوربي فمن يستطيع ان يعارض فكرة القوة العظمى . هذه الكتلة كمجموع توثق علاقتها في مرحلة الوفاق الدولي مع جانبين ، مع السوق الاوربية للدول الاشتراكية (كوميكون) وكذلك مع الولايات المتحدة .

■ القوة الصفراء القادمة من الشرق بدأت تنافس القوة البيضاء !

وتجتمع بعض الدول الاوربية الغنية مع اليابان والولايات المتحدة في نادي الأغنياء ، والمكون من خمس دول بجانب امريكا واليابان والرئيس الاداري للسوق الاوربية المشتركة . هذه الاجتماعات تعقد بشكل دوري للتنسيق الاقتصادي والسياسي ، وكان قد اتفق في آخر اجتماع لهم في تورنتو في شهر يوليو الماضي على برنامج التنسيق فيما بينهم للسبع سنوات القادمة !

وهناك قوة جديدة أخرى تبرز في جنوب شرق أسيا وتتعاضد أيضا في حلقات مستقلة بشروط الوفاق الدولي والانفراج من أجل دفع مصالح شعوبها إلى الأمام ، إنه العملاق الأصفر الذي أخذ يتثاءب ويكسر احتكار القوة الغربية في أكثر من مكان ، على رأس ذلك تصدير السلاح الجديد الذي شهدت منطقتنا

بعض العينات منه . . !

وفي هذا الوفاق يبرز دور المنظمات الدولية وفاعليتها ، فقد لعبت الأمم المتحدة دورا حيويا ـ عندما أريد لها أن تلعبه ـ بعد اتفاق الجبارين ، فأحيت مجموعة من مناشطها لحفظ السلام الدولي أو لتطبيق قرارات كانت قد اتخذتها في أوقات سابقة ، بل لقد نشط دور الأمم المتحدة الثقافي والطبي والاجتماعي والانساني من خلال مجموعة من البرامج المعلنة . لقد أعادت الواقعية الجديدة الأمل في إحياء الجهود الجماعية في مواجهة المشاكل المشتركة ، وذلك أهم دروس الثمانينيات .

العقلانية الدولية الجديدة . ماذا تحمل بالنسبة لنا نحن العرب ؟

من الواضح حتى الآن أن ما خلفته الثمانينيات من وفاق على المستوى الدولي ليس بالضرورة أن ينعكس كله خيرا وبركة لصالحنا ، صحيح أن بعض المشكلات التي تم التغلب عليها نتيجة ذلك الوفاق قد أفادتنا أو قد تفيدنا في المستقبل ، ولكن بدون أن يكون لنا واقعيتنا الجديدة العربية مع الاستفادة من كل المتغيرات حولنا ، فقد يكون بعض هذا الوفاق بغير جدال على حسابنا .

فالجروح العربية المفتوحة ، بجانب كونها عربية هي أيضاً دولية ، تهتم بها الدول الكبرى . . وإذا لم يكن لنا رأي واقتراحات وأفعال لالتئام هذه الجروح بالطريقة التي نقبلها . قد يفرض علينا دواء له مرارة العلقم .

أول الجروح هو الجرح الاقتصادي ، ويتمثل في مشكلة أسعار المواد الخام ـ وخاصة النفط ـ التي يعتمد معظم شعبنا العربي من أدناه إلى أقصاه بشكل مباشر أو غير مباشر على مداخيلها ، إن الخلافات العميقة في هذه المشكلة هي بيننا كعرب وكمسلمين في الأساس ، وبدون واقعية جديدة تقدم فيها الحلول من عندياتنا واضعين مصالحنا على قمة الأولويات ، قد تفرض علينا حلولا لا نرضاها ولكن لن نستطيع رفضها .

ولعل المشكلة الأخرى التي تواجهنا هي الانفراج الداخلي ، والاجابة عن سؤال مهم ما هو شكل الهياكل الاقتصادية والسياسية التي نرتضيها وتشكل طموحات شعبنا ، والتقلصات من حولنا كثيرة أساسها اقتصادي وتعبر عن نفسها بأشكال ايديولوجية وسياسية كثيرة ؟ سؤال مركزي علينا الإسراع في الاجابة عنه .

على المستوى العربي ، لا يستطيع منصف أن يتجاهل المحاولات العربية الجادة لوقف التدهور في النظام العربي . ولعل أهم هذه المحاولات في السنوات الأخيرة من العقد الماضي هو مؤتمر قمة عمان ١٩٨٧ . والذي بدأ بشكل مؤسسي سلسلة عودة العلاقات العربية المصرية ، لقد كانت العقلانية العربية الجديدة تبذر بذورها في الثمانينيات ولكن ببطء ، لعل أهمها وأكثرها ملاحظة هو إنشاء مجلس التعاون الخليجي في بداية ذاك العقد ، والذي طرح صيغة للتعاون « مؤسسية » من جهة « ومرنة » من جهة أخرى ، هذه الصيغة بدأ التفكير في نقلها الى دول

■ مجلس التعاون الخليجي ثمرة من ثمار العقلانية العربية الجديدة

المغرب العربي التي تحتاج هي أيضاً لصيغة تحتوي الخلافات الثنائية الجانبية .

إن أهم ما ظهرت به العقلانية العربية الجديدة هو أن الصراعات العنيفة في الوطن العربي - بين قطر وآخر - قد تحولت الى مواقف عبثية لا طائل من ورائها غير صرف المجهود العربي والموارد العربية بعيداً عن الأهداف الحقيقية ، هذه الموارد التي أصبحت أكثر ندرة بمرور الوقت ، بل أصبحت بعض الأقطار العربية غارقة في الديون ، وتستقطب منطقتنا حوالي ٥٠٪ من تجارة السلاح الى العالم الثالث وتزيد ديوننا وتوترنا !

وفي قراءة سريعة للوضع الاقتصادي والاجتماعي العربي في نهاية الثمانينات نخرج بصورة لا تسر الخاطر ، إنها صورة قاتمة ، فقد توجهت الاقتصاديات العربية بشكل متسارع نحو ما يصفه التقرير الاستراتيجي العربي الذي نشره مركز الدراسات الاستراتيجية في الاهرام إلى « التكيف السلبي » ، وارتكز هذا الاقتصاد إلى خانة (المفعول به) على حد تعبير التقرير .

لقد زادت تكلفة الغذاء والسلاح والمواد الأولية القادمة لنا من الخارج بشكل عكسي مع تدني أسعار موادنا الأولية وعلى رأسها النفط ، وجرت مجموعة من التقلصات الشعبية الشديدة ، في هذا القطر العربي أو ذاك من جراء ذلك ، خرجت في بعضها القطاعات الشعبية الأكثر تضرراً الى الشارع ، باحثة عن حل .

لقد بدأت تأثيرات الإنفاق الواسع من جراء حقبة الرخاء النفطي في السبعينات تسمع صداها السلبي في الثمانينات على مجمل الوضع العربي . فالتوسع في التعليم وخطط التحديث الطموحة وبرامج الإسكان قد خلقت قوى اجتماعية جديدة وطموحات جديدة لم يكن الاقتصاد القطري بقادر على تلبيتها بالنجاح الذي كان قد حققه في السابق .

وبعد . . . .

دروس الثمانينات تقول لنا بوضوح : إن عقلانية جديدة يجب أن تسود بيننا نحن العرب ، عقلانية تضع مصلحة المواطن العربي على قمة خياراتها ، وبالتالي يصبح التعاون والوفاق مطلباً حياتياً ، ويتحول الاعتماد المتبادل بين العرب إلى حقيقة غير قابلة للنقض .

أعوام قليلة ويطل علينا القرن الجديد ، وستحمل إلينا السنوات القليلة الباقية من قرننا هذا كثيرا من التغيرات . وإذا لم نكن جميعاً على وعي بهذه التغيرات وقادرين على التعامل معها ، فسيطوينا القرن الذي سيمر كما طويت حضارات كثيرة ، ولم تخلف أثراً ولا ذكراً ، فهل ستحملنا عقلانية عربية جديدة إلى العصر الجديد ، أم سنظل أسرى العقل الجامد ، والأفق الضيق والمصالح الضائعة ، والإمكانيات المهدرة ! ؟

بقلم : الدكتور زكي نجيب محمود

ذات يوم في أواخر شهر ديسمبر (كانون أول) من سنة ١٩٥٣ ، قصدت إلى مكتبة كبرى في مدينة نيويورك ، لأجول بالبصر فيما استحدث من كتب ، لعلي أقع بينها على شيء مما أهتم به ، وكنت عندئذ أقضي العام الجامعي استاذا زائرا في جامعات الولايات المتحدة ، فما كدت أدخل المكتبة حتى وقع البصر على قائمة خشبية مستقلة بذاتها عن سائر الرفوف ، رصت عليها مجموعة منوعة من مجلات فيما يرد على خاطري وما لا يرد ، كانت بينها مجلة اسمها « اداب أجنبية » وألقيت نظرة على محتواها ، فإذا هي تشتمل على موضوعين مترجمين عن الأدب العربي ، أحدهما مأخوذ عن طه حسين ، والآخر مأخوذ عن توفيق الحكيم ، فاشتريت المجلة مصمما على العودة بها إلى حيث أقيم ، لأقرأ الموضوعين قبل أن أستأنف نشاط النهار ، وقد كنت حينئذ أقضي عطلة عيد الميلاد في مدينة ناطحات السحاب ، لكن فرحتي بأن أجد اشعاعا لشيء مما يكتبه أدباؤنا ، غلبتني حتى اقتضت تلك اللهفة على القراءة قرأت الموضوعين ، فدارت في رأسي خواطر كثيرة تلاحقت تلاحقا سريعا ، منبثقة كلها من وقع الترجمة الإنجليزية لما جرت به أقلام عربية ، وإني لأذكر جيدا كيف كان الانطباع العام عندي ، شعورا بالغرابة ، وكأنني كنت أقرأ شيئا مبتور الصلة بحياتي وثقافتي ، على أن « الغرابة » لم تكن من نوع واحد في الموضوعين ، فغرابة الموضوع المترجم عن طه حسين ، وأظنه كان ذا صلة بالنقد الأدبي ، فوجه الغرابة فيه هو أنني - بكل بساطة - لم أجد طه حسين ، وإلا فأين ذهبت تلك الحلاوة والطلاوة التي تحدث النشوة عند قارىء طه حسين ؟ أين ذهب ذلك السلسبيل السلس المتدفق المنغوم ؟

إنك في الترجمة الانجليزية أمام سرد بارد تحس إزاءه أنه في مستطاع الأواسط من حملة الأقلام . إذن فلا عجب أن أحسست بشيء من خيبة الأمل ! وأما الموضوع الثاني وهو المترجم عن توفيق الحكيم ، فكان خاصا ببيعة أبي بكر الصديق تحت السقيفة ، فوجه الغرابة فيه هو أن المترجم قد وجد نفسه مضطرا لشروح مستفيضة في الهوامش ، يبين فيها لقارئه الخلفية التاريخية والثقافية الكامنة وراء اللفظ الوارد في العبارة المترجمة . وإلا لما سهل على القارىء أن يتابع المعنى .

كان أول خاطر عندي بعد القراءة هو أن من

نتجهل « خصوصية » الثقافة لشعب معين ، يكون كمن أسقط من حسابه روح الإنسان ونفسه وتاريخه ، ولم يبق منه إلا بدنا كالذي يوضع على منضدة التشريح ، وهنا تذكرت الجاحظ في تلك الصفحات القليلة من المجلد الأول في كتابه الموسوعي « الحيوان » وأعني الصفحات التي أورد فيها رأيه في ترجمة الثقافة المعينة من لغتها الاصلية إلى لغة أخرى . وكان ذلك حين انتقل الجاحظ من البصرة الى بغداد في اوائل القرن الثالث الهجري ، وهناك وجد عصبية الترجمة عن اليونان قائمة على قدم وساق في بيت الحكمة . فتساءل الرجل عن القيمة الحقيقية لأية ترجمة من هذا الطراز . وهنا فرق بين موضوع وموضوع ، قائلا ما معناه إنه ربما كانت ترجمة المأثور اليوناني ممكنة ، لكن ماذا نقول عن المأثور العربي إذا اراد شعب اخر أن يترجمه إلى لغته ؟ إنه إذا تميز اليوناني « بالكتاب » وهذه هي الكلمة التي يستخدمها . ولعله يقصد بها الافكار العقلية . فان العربي يتميز « بالشعر » ، وإنه لضرب من المحال ان يترجم الشعر إلى غير لغته ويظل شعرا . ومعنى ذلك عند الجاحظ هو أنه لا أمل في أن يعرف الغرباء حقيقة العربي ؟ ولقد صدق الجاحظ . فتعريف الشعر عند « فروست » الذي هو من أعظم الشعراء في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلث الأوسط من هذا القرن ، هو أنه الجزء الذي تستحيل ترجمته من أي تركيب لغوي . وأشرح ذلك قليلا فأقول إن الجملة الواحدة في اية لغة ، حتى إذا كانت مما تعد ممكنة الترجمة ، فهي كذلك تحتوي على أجزاء تقتضيها لغتها الاصلية ، ولا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى ، لأنها على الأرجح تشير إلى حالة باطنية عند قائلها ، لا إلى مرئي أو مسموع مما يتلقاه كل إنسان على السواء . ومثل هذه الأجزاء المستعصية على الترجمة هي أدخل في باب الشعر لخصوصيتها ، وخذ مثلا هذه الجملة « إن السماء صافية » فكلمة « إن » هنا لا ترجمة لها إلى الانجليزية اللهم إلا إذا شرحت مضمونها في عبارة مستقلة ، فالمترجم إذ ينقلها إلى الانجليزية ، يكتفي منها بالجزء القائل السماء صافية ، وأما كلمة « إن » فتضيع ، مع أن قائلها العربي قد أراد بها بيان ما يشعر به في باطنه من « يقين » بصدق ما يرويه .

هنالك - اذن - في كل لغة مزيج من أجزاء مستطاعة الترجمة الى لغات أخرى ، وأجزاء أخرى مستحيلة أو مستعصية ، ومن نسج النوعين معا تجري اللغة أيا كانت ، إلا أن اللغات ربما تفاوتت في النسبة بين النوعين ، وأرجح الظن عندي هو أن اللغة العربية تزيد فيها نسبة الأجزاء التي تشير إلى الحالة الباطنية عند قائلها ، ومن ثم تكون - بصفة عامة - أعسر في الترجمة الى غيرها ، من ترجمة غيرها إليها ، فما أيسر أن يقول العربي - مثلا - « لقد عاقب الوالد ولده عقابا شديدا » ، فإذا ترجمتها إلى الانجليزية سقط منها جزءان هما « لقد » و « عقابا » وهما جزءان مهمان في قوة التعبير العربي لكنهما يستعصيان على الترجمة ، بل إن الثاني منهما . وهو المفعول المطلق « عقابا » مستحيل نقله إلى لغة أخرى مما نعرفه من اللغات الأوروبية ، وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه ، ينشأ لنا سؤال له خطورته في حاضر الثقافة العربية هو ترى إلى أي حد تمنعنا هذه الخصوصية الثقافية من نقل ثقافة الآخرين إلينا ، ومن العمل على عرض ثقافتنا على الآخرين ؟

والجواب عندي هو أن مالا يدرك كله لا يترك كله - كما يقال - فعلى الرغم من تلك الخصوصية التي تجعل ثقافة الشعب معبرة عن شخصيته بحيث يتعذر قبولها كاملة عند شعب اخر له شخصية أخرى ، فإن ما يمكن نقله حتى وإن قل ، له فائدته عند المنقول إليه ، نتيجة للتفاعل مع الثقافة المحلية ، وما عساها تؤديه من خصوبة وغنى . وإلا لما أحدث ما نقل من الأدب العربي إلى أوروبا (وحسبنا أن نذكر منه ألف ليلة وليلة) ما أحدثه من روائع الفن هناك ، والعكس وارد كذلك ، فكم أحدثه ما ترجمناه من أدب الغرب الى اللغة العربية من اضافة إلى الأدب العربي ، ويكفينا أن نشير إلى أجناس أدبية بأسرها أضيفت الى أدبنا ، كالرواية والقصة والمسرحية عموما ، والمسرحية الشعرية خصوصا

على هذا النحو جرت خواطري ، عندما صدمتني غرابة ما وجدته في قطعتين من أدبنا العربي الحديث ، مترجمتين إلى الانجليزية ،لكنها غرابة لا تزيل فرحتي بأن يتلقى العالم الخارجي شعاعا مما يكتبه المبدعون منا . فبعد أن يضيع منه ما يضيع سيبقى ما يكفي . □

الحب والحنين سمتان بارزتان في شعر ابن زيدون: حبه لولّادة بنت المستكفي التي هام بها في مطلع صباه، وحبه لقرطبة المدينة التي أنبتته وقضى فيها أهنأ أيام عمره، ثم حنينه الشديد إليهما بعد فراقهما. لقد تجلت عبقريته الشعرية، وأصالته الفنية في قصائد حبه وحنينه التي بوأته مكان الزعامة بين شعراء الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي.

ابن زيدون

شاعر الحب والحنين

بقلم: سلمى الحفار الكزبري

إن لشعر ابن زيدون الغزلي صبغة رومنسية، لأن الطبيعة أثارت أشجانه، وحركت لواعجه، إبان جولاته في ربوع الأندلس العامرة، وهو هارب من السجن في قرطبة، وملتجيء الى بني عبّاد في اشبيلية، حيث كان يرسل للحبيبة الأميرة ولقرطبة الأثيرة مناجيات وجدانية، أبدع فيها أيما إبداع. لقد بدا في تلك المناجيات متحدا مع الـ[illegible] مشاهدها، فتخيل أن الرياض البهية، والنسائم العليلة، والمياه المترقرقة، تشاطره اللوعة على فراق من يُحب، لا سيما عندما توقف في مدينة الزهراء، عقب فراره من السجن وأنشد يقول:

إني ذكرتك بالزهراءِ مشتاقاً
والأفق طلقٌ ومرأى الأرضِ قَدْ رَاقا

وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
كأنما رَقَّ لي فاعْتَلَّ إشْفَاقا

والروضُ عن مائِهِ الفضي مبتسمٌ
كما شَقَقْتَ عن اللَّبّاتِ أطواقا
كأنّ أعْيُنَه اذ عايَنَتْ أرقي
بَكَتْ لِما بي فَجَال الدمعُ رَقْراقا !

الحب الأسطورة

كانت غربة ابن زيدون عن قرطبة وولّادة حافزاً قوياً لمناجاتها ولتصوير عواطفه المشبوبة نحوهما ، وشوقه المبرّح إليهما ، بأسلوب سلس تفرّد به ، واتسم بجرس موسيقي عذب ، وديباجة رشيقة ، مما حدا بمعاصريه - ومنهم ابن بسام صاحب «الذخيرة» - إلى تشبيهه بالبحتري. في حين أن الاستاذ كامل الكيلاني الذي حقق ديوان ابن زيدون ونشره في مصر سنة ١٩٣٢ ، قدمه للقراء بدراسة قيّمة ، فشبه شعره بشعر العباس بن الأحنف والشريف الرضي ، ومجنون ليلى ، فقال :

« الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعده بمحاكاته ، والانضواء تحت رايته ».

وإني لأذكر بالمناسبة معارضة أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة ابن زيدون الخالدة في الوداع :

ودَعَ الصبر محبٌّ ودَّعك
ذائعٌ من سره ما استَودَعك
يقرعُ السِنَّ على أنْ لَمْ يكُنْ
زادَ في تلك الخُطا إذ وَدَّعَكَ
يا أخا البدر سناءً وسنىً
حفظ الله زماناً أطلَعَكْ
إن يطلْ بعْدكَ ليلي فلكم
بتّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ

وهي قصيدة جميلة ، لحنها الأستاذ محمد عبدالوهاب ، وغنّاها ، ومطلعها :

رُدَّتْ الروحُ على المُضنَى مَعَكْ
أحسنُ الأيامِ يومٌ أرْجَعَكْ

وقد أضحى حب ابن زيدون لولّادة أسطورة في تاريخ أدبنا العربي ، مازالت تحث الكتاب والشعراء في المشرق والمغرب على استلهامها وسواء أكانت ولّادة حبَّهُ الأوحد في حياته أم لم تكن ، فلا ريب في أن حبه الكبير لها كان الجذوة التي أججت عواطفه ، وفجّرت موهبته ، وأوْحَتْ إليه روائع شعرية ، لا تمل قراءتها ، ولا يصعب حفظها . ومن أجودها وأشهرها قصيدته النونية :

أضْحَى التَّنائي بديلاً مِنْ تدَانينا
ونابَ عَنْ طيبِ لقيانا تَجَافينا
مَنْ مُبْلغ المُلبسينا بانتزاحِهِمُ
حُزْناً مَعْ الدَّهْر لا يَبْلى ويُبْلِينَا
أن الزَّمَانَ الذي مازال يضحكنا
أنساً بقربهم قد عادَ يُبْكِينا ؟
غِيظَ العِدا مِنْ تَساقينا الهَوى فدَعوا
بأن نغصَّ ، فقالَ الدَّهْرُ آمينا
فانْحلّ ما كانَ معقوداً بأنفسِنَا
وَانْبَتّ ما كانَ موصولاً بأيدينا
وقد نكونُ وما يُخْشَى تفرقُنا
فاليومَ نحنُ وما يُرْجَى تَلاقينا
لم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُم إلاّ الوفاءَ لكم
رَأياً ، ولم نتقلّدْ غيرَهُ دِينا
بِنْتُم وبِنّا ، فما ابتلّتْ جوانِحُنا
شوقاً إليكم ، ولا جفّتْ مآقينا
نكادُ حينَ تُناجيكم ضمائِرُنَا
يَقْضِي علينا الأسَى لولا تَأسِّينا

وهذه القصيدة آية من آيات الشعر العربي ، بل والعالمي ، ولو لم يكتب ابن زيدون غيرها لاعترف له مؤرخو الأدب بالابداع سبكا ولغة وإلهاما ، وهي ليست قصيدة حب وحنين فقط ، بل هي لوحة وجدٍ وشوق ، ومن أشهر القصائد التي تناقلتها المحافل الأدبية منذ ولادتها ، فلقد ذكر المقري في «نفح الطيب» بأن حفظها كان من شروط التحلي بالظرف والأدب عند الأندلسيين ، إلى جانب التختّم بالعقيق ، ولُبس البياض ، والتفقه للشافعي ، ودراسة أدب الجاحظ .

ومما يسترعي الانتباه في شعر ابن زيدون الوجداني طابع الحزن واللوعة ، لأن أيّام الصّفاء في حبه لولادة لم تدم طويلا . ولو لم يحصل الجفاء بينهما ، ومن ثم الهجر والفراق ، لما حظينا بتلك الروائع التي بثّ فيها ألمُه وعتبه، ووجده وشكواه . وأنا لا آتي بشيء جديد إذ أقول : إن افتراق العشاق كان ومازال يفجر مواهب الأدباء والشعراء مهم في تاريخ الأدب العالمي ولقد ترجم التونية المستعرب الاسباني الأستاذ « اميليو غارثيا غوميث » ونشرها في كتاب قيّم أعده عن شعراء الأندلس ، فوجدها ملائمة للذوق الغربي ، وعلق على البيت التالي منها

حـالتْ لفقـدكم أيـامُنـا فغـدتْ
سـوداً وكـانت بكم بيضـا ليـالينا

تكتب مايلي : (يحيل إليك وأنت تُمعن النظر في هذا البيت أن ابن زيدون جالس أمام رقعة شطرنج ، يتصرف بتحريك حجارتها البيض والسود ، وكأنه يخوض شوطا يائسا حيال حبه العظيم)

ما الحـــــب ؟

الحب في رأي ابن زيدون عاطفة نبيلة ، والخضوع فيه للمحبوب عز ، وليس إذلالا ، ومع أنه كان ينحدر من قبيلة بني مخزوم القرشية فقد وجد نفسه دون حبيبته الأميرة الأموية شرفا في النسب ، وأكد لها أن حبه الكبير ، وكل حب عظيم ، يزيل الفوارق بين المحبين .

ماضرّ إنْ لمْ نكُنْ أكْفاءهُ شرفاً
وفي المودّة كافٍ منْ تكافينا »

ضمعا في استمالتها إليهم ، ومن هذه المناجيات المؤثرة نذكر مخاطبته لها عندما بعث إليها بالأبيات

يُوحشُني الـزمـانُ وأنتِ أُنسي ؟
ويُظْلمُ لي النهـارُ وأنْت شمسي ؟
وأغْـرسُ في مَحبَّـتـكِ الأمـاني
فأجني الموت مِنْ ثمَراتِ غـرسي
لـقـد جـازيت غـدراً عـن وفـائي
وبـعْـتِ مـودّتي ظـلـماً بـبـخْس
ولـو أنّ الـزمـان أطـاعَ حُكْمِي
فـديْتُـكِ مِنْ مكـارِهِـه بنفسي

كما أن حسن اختياره للأوزان الخفيفة والقو... الجزلة من أهم مزايا تلك المناجيات ، و...

ولادة في غربته عنها ... لة ، ومن أهمها

متى أبثُّكِ مـا بي
يـا راحتي و...
مـا البـدرُ شفّ سَنـاهُ
عـلَى رقيق الـ...

إلا كـوجـهـك لَمـا
أضـاء تحـتَ الـنِّـقـاب

قصائد الحنين

أما قصائد حنينه لقرطبة بعد نزوحه عنها فإننا نجد فيها لوعة الذين يغتربون عن أوطانهم وأحبّتهم ومرابع طفولتهم . فالإنسان خُلق ألوفا ، ولا أحسب أن شيئا يضنيه أكثر من فراق الأرض التي أنبتته ، والأماكن التي قضى فيها صباه . إذ مهما امتد به العمر يظل حبها متأججا في ضلوعه ، ويبقى حنينه إليها مشتعلا في قلبه لقد عاش ابن زيدون نصف عمره في الغربة ، ولقي كل حفاوة وتكريم في بلاط بني العباد باشبيلية كما هو معروف ، وتولى الوزارة فيه . كما أحيط برعاية بالغة في زياراته المتعاقبة لملوك الطوائف وأمرائها . أمثال بني الأفطس في بطليموس ، والامير إدريس بن المظفر في ملقة . ولكن المجد الأدبي والمناصب الرفيعة لم تنسه حبه الأول ، وهيامه بقرطبة . فظل ينشد القصيد تلو القصيد . دامي القلب ، دامع العين

يا دمعُ صُبَّ ما شئت أنْ تصوبا
ويـا فـؤادي آن أنْ تـذوبـا
قـد مـلأ الشـوقُ الحشا نُـدوبا
في الغـرب إذْ رحتُ بـه غـريـبا
عـليـلُ دهـرٍ سـامني تـعـذيـبا
أدنى الضّني إذْ أبعـد الـطبيبَـا !

وعندما طالعه العيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى المباركان . وهو في ضيافة الأمير العالم المظفر بن الأفطسْ أنشد قصيدةً عبَّر فيها عن حنينه الشديد ، هذا مطلعها .

خليـليَّ لا فـطْرٌ يَسُرُّ ولا أضْحى
فما حالُ مَنْ أمسى مَشوقاً كما أضْحى ؟

كما أن له مخمسة رائعة صب فيها هيامه بديار صباه ، وشوقه لموطن هواه . وضمنها وصفا لتلك الديار ، اطلّعنا بفضله على ماكانت عليه قرطبة من بهاء وازدهار ، فذكر مواقع ومنتزهات كانت عامرة في عصره ، منها الرصافة ، وهي المنتجع الصيفي الذي بناه الخليفة عبدالرحمن الثالث بجوار قرطبة ، حيث ولد شاعرنا ، ومنها العقيق ، وعين شهدة ، أما العقيق فقد كان جدولا ضمن بستان ، يقع بالقرب من أحد أبواب قرطبة الواقع في شمالها . وأما عين شهدة ، فقد كانت ينبوعا ثرًّا ينبجس من سفح الجبل المجاور لقرطبة ، يقصده الناس للتنزه والسمر في الليالي المقمرة . ولابد من الإشارة إلى أن المخمسة التي ذكرها تكاد تكون ملحمة في شعر الشوق والحنين ، ومطلعها :

أقرطبةُ الغراءُ هل فيـك مطمـعٌ ؟
وهـل كبِـدٌ حرَّى لبَيْنـك تنقـعُ ؟
وهـل لليـاليـك الحميـدة مرجـعُ ؟
إذ الحسنُ مَرأى فيك واللهوُ مَسْمعُ
وإذ كنفُ الـدنيا لـديك مُـوطّـأ ؟

وقبل أن توافيه المنية ببضعة أشهر قرّت عين ابن زيدون بالرجوع إلى قرطبة مظفراً بصحبة حملة عسكرية أرسلها المعتمد بن عباد لإنقاذها من هجوم جيش ملك طليطلة عليها، المأمون بن ذي النـون سنة ٤٦٤هـ ولكن الحظ لم يسعف شاعـرنـا إذ اضطر للعودة إلى اشبيليـة بأمر من المعتمد بن عباد للإسهام في إخماد فتنة شبّت فيهـا كـان مـريضـا حينـذاك فاشتـدت به العلة ومـات ودفن غريبـا عن مسقط رأسه، وهو دون السبعين من العمر. فقـد ولد سنة ١٠٠٣م، وتوفي سنة ١٠٧٠م.

كان نبوغه في الشعر مواكبا لنهضة أدبية وفنية كبيرة في الأندلس ، ومع أنه لم يكن شاعر الحب الأوحد في القرن الحادي عشر الميلادي فيها ، فقد كان المجلّي في ميدانه ، لأنه أبدع قصائد رائعة ، نابعة من تجربته العاطفية المثيرة ، ومعاناته الصادقة في الاغتراب عن مدينته الأثيرة قرطبة ، ولولا تفرده بعذوبة السبك ، وجزالة الأسلوب ، ورقة النبرات وصدقها لما كُتب الخلود لشعره في الحب والحنين الذي مازال يطربنا ويشجينا بعد انقضاء تسعة قرون على زمن إنشاده . □

الإسلاميون المعاصرون وثقافة الغرب

بقلم : الدكتور فؤاد زكريا

يناقش الكاتب توجهات بعض ملامح الخطاب الإسلامي المعاصر تجاه القضايا المعاصرة المطروحة ، وفي الوقت الذى يقر بعض ما جاء في ذلك الخطاب ، إلا أنه يقف أمام إشكالية رأي هذا الخطاب في العلم الغربي الحديث .

مهما كانت المواقف مختلفة ، إلا أن الموضوع الذي يطرح هنا يستحق إعمال الفكر والتأمل فيه ، فما هو الموضوع ياترى ؟

لا تكتفي الحركة الإسلامية المعاصرة بالدعوة إلى مبادئها التراثية والأصولية الخاصة ، وتأكيد مزاياها ، وترغيب الناس في قبولها ، وإنما تبذل قدرا كبيرا من طاقتها في الصراع مع الخصم الذي تراه عدوها اللدود ، وهو الحضارة الغربية بكل جوانبها . فمسار هذه الحركة الإسلامية المعاصرة يمكن أن يُعد مسارا جدليا ، لأنها تشق طريقها من خلال معركة مع (الضد) ، ذلك (الضد)الذي يقدم في مجتمعاته الخاصة نموذجا ناجحا للتقدم والعصرية ، يغري الكثيرين في المجتمعات الإسلامية بالسير على نهجه ، فيصبح لزاما على أي دعوة إسلامية جادة أن تواجهه في معارك فكرية لاتنقطع ، وتكتسب لنفسها الأنصار ، لا عن طريق اجتذابهم إلى تعاليمها فحسب ، بل عن طريق *إبعادهم عن النموذج الآخر في الوقت ذاته .*

وهذا معناه أن الصراع ضد الغرب والتغريب ، بوصفه الخصم الأكبر ، أداة رئيسية من أدوات الدعوة في الحركة الإسلامية المعاصرة . ويمتد هذا الصراع إلى كافة ميادين الحياة والفكر : فهو لا يقتصر على التنديد بسياسة الغرب وتاريخه غير المشرف في التعامل مع شعوب العالم الثالث ، والشعوب الاسلامية بوجه خاص ، وإنما يمتد إلى مهاجمة الغرب في أسلوب حياته ، وطريقة تنظيم مجتمعه ، ونوع القيم السائدة لديه . لكن جانبا لايستهان به من هذه المعركة الفكرية ضد الغرب يدور على ساحة العلم . فالعلم الغربي متهم لدى الإسلاميين المعاصرين ، بأنه الأداة الكبرى التي أتاحت للأوربيين استعباد شعوب العالم وفرض السيطرة الاستعمارية عليها ، بعد أن سخّره أصحابه *لاختراع الأسلحة الأشد فتكا ، التي تغلبت بها أوربا*

بسهولة على مقاومة الشعوب المسالمة في كافة أرجاء العالم ، مما أتاح لأوربا أن تصبح ، منذ القرن السادس عشر ، أقوى مراكز الحضارة في العالم الحديث .

العلم الغربي في الميزان الإسلامي

ليس من شك في أن هذا الرأي جانبا من الصواب ، غير أن الصواب الجزئي الذي يغفل كثيرا من عناصر الصورة الكلية ، كثيرا ما ينزلق إلى مستوى الخطأ ، ذلك لأن تجاهل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تحول الغرب نحو السيطرة ، وتوسيع نطاق استعماره للعالم الثالث ، منذ أوائل العصر الحديث حتى أواسط القرن الحالي على الأقل ، يؤدي إلى تحميل العلم فوق طاقته ، وتوجيه الاتهام إليه كما لو كان هو المذنب الأكبر في ظاهرة السيطرة والاستعمار ، مع أنه ليس إلا أداة توجهها القوى المتحكمة في أي اتجاه تشاء .

والأمر الذي نود التركيز عليه في هذا كله أن الحركة الإسلامية المعاصرة ، في صراعها المستمر ضد ثقافة الغرب ، تخوض معارك كثيرة ضد العلم الغربي ، وتبذل في مهاجمة هذا العلم جهدا لايقل أحيانا عما تبذله في الدفاع عن تراثها الإسلامي . ومثل هذا الموقف يستلزم إلماما واسعا بالعلم الغربي ، ودراسة متمكنة له ، واطلاعا دائما على أحدث تطوراته ، وإلا لكانت هذه الحركة تقيم دعاواها على أسس واهية ، وتوجه سهام نقدها الحادة إلى خصم لا تعرف حقيقته ، فتكون المحصلة النهائية لهذا الهجوم على العلم ، بغير سلاح من العلم ، في صالح الخصم الذي تسعى إلى مهاجمته .

ومع ذلك فإن الغالبية الساحقة مما يكتبه الإسلاميون المعاصرون عن ثقافة الغرب ، وبخاصة في ميدان العلم ، لا يعدو أن يكون قشورا سطحية ، وتعبيرات محفوظة مكررة ، ومعلومات مغلوطة ، وقوالب تنقل بحذافيرها من كتاب إلى كتاب ، ومن خطيب إلى خطيب ، ومن شيخ إلى مريد ، دون أن يكلف أحد نفسه عناء مراجعتها أو نقدها أو تجديدها : وإني لأجزم بأننا لا نكاد نجد داعية واحدا من الإسلاميين المعاصرين قرأ نصاً واحدا ، بلغته الأصلية ، لأولئك الغربيين الذين لايمل الحديث عنهم باستخفاف وازدراء . فهل يعقل أن تخوض الحركة الإسلامية المعاصرة معركة حاسمة ضد ثقافة نشطة متجددة كثقافة الغرب، بمثل هذه الأسلحة المتهالكة ؟

فلنتأمل ، على سبيل المثال ، ذلك التناقض الصارخ بين مهاجمة العلم الغربي ، واتهامه بالمادية والإلحاد ، وبخدمة أهداف الاستعمار ، وبين ما تنادي به مدرسة « التفسير العلمي للقرآن » . إن المدرسة الأخيرة التي ظهر روادها منذ أول عهود اتصالنا بالثقافة الغربية في القرن الماضي ، والتي تزايد ممثلوها تزايدا هائلا في السنوات الأخيرة ، تسعى إلى أن تثبت أن جميع الحقائق الرئيسية التي أثبتها العلم الحديث لها أصل في القرآن ، وتبذل جهدا شاقا لاستنباط الآيات القرآنية التي تشير إلى أحدث النظريات في مختلف فروع العلم الحديث . أما التناقض فيكمن أنه لو كان العلم الغربي بالفعل ماديا الحاديا يستهدف تخريب ديار المسلمين وإخضاعهم لسيطرة أعدائهم ، فكيف أشارت الآيات القرآنية إلى أحدث نظرياته ، وأضفت على هذا العلم بالتالي ضمانا إلهيا ؟ وبعبارة أخرى ينبغي لكل من يوجهون أبشع الاتهامات إلى العلم الغربي ، وهم في الحركة الإسلامية المعاصرة كثيرون ، أن يتوصلوا إلى تفاهم مع أولئك الذين يجدون في الآيات القرآنية إشارات إلى أهم النظريات العلمية الحديثة ، وهم أيضا كثيرون في الحركة الإسلامية المعاصرة ، لأنه لو كان أي من الفريقين على صواب لوجب أن يكون الفريق الآخر على خطأ .

الداروينية كمثال

لكن المشكلة الأشد خطرا ، في موقف الإسلاميين المعاصرين من الثقافة الغربية بعامة ، والعلم الغربي بوجه خاص ، هي ضحالة المعلومات والأخطاء الفادحة التي ترتكب عند تقديم الأفكار العلمية

والفلسفية الغربية إلى القراء ، توطئة لمهاجمتها .
وتحت يدي الآن نموذج واضح ، يمتاز أولا بأن كاتبه مفكر إسلامي بارز ، هو الدكتور محمد عمارة الذي يتمتع بقدر كبير من الاستنارة الفكرية ، وإن كان قد أخذ يجنح في السنوات الأخيرة إلى تبني شعارات أقرب إلى الطابع التقليدي المحافظ من تلك التي كان يدافع عنها في مراحله الفكرية السابقة . كما يمتاز هذا النموذج بأنه حديث العهد ، لأنه ظهر في إبريل (نيسان) عام ١٩٨٨ ، وذلك في مقال نشرته مجلة « الهلال » المصرية بعنوان « الداروينية في ميزان الإسلام » . وقد اخترت هذا النموذج لأن كاتبه ـ كما قلت ـ باحث مدقق ، يتوقع منه المرء ألا يعرض الرأي الذي ينقده إلا بعد استيعاب عميق ، ولأنه في موقع أفضل من معظم كتاب الحركة الإسلامية المعاصرة من حيث علاقته بالثقافة الغربية ، وأخيرا لأن هذا الكاتب نفسه هو الذي كان ـ ومايزال ـ يدعو إلى أن تكون ثقافة الداعية الإسلامي شاملة ، أي أنها ـ على حد تعبيره هو ذاته ـ يجب ألا تقتصر على الأمور الفقهية ، بل تمتد لتشمل العلوم الإنسانية والكونية . (جريدة الأهرام المصرية ـ عدد ٢/٥/٨٨) .

فلنتأمل إذن إلى أي حد تحقق هذا المطلب في المقال الذي أشرنا إليه .

إن عنوان المقال ذاته يثير إشكالا : الداروينية في ميزان الإسلام ، أي أن نظرية علمية نشأت أصلا في ميدان البيولوجيا ، تتعرض للاختبار والنقد بمقياس دين سماوي . ولا شك أن هذا العنوان وحده يوحي بوجود منافسة بين الاثنين ، وبأن من مهام الدين السماوي أن يختبر النظريات العلمية ويقيسها بميزانه ، وهذا رأي خطير يعبر عن الانحياز لصف أولئك الذين يرون القرآن كتابا يحوي رأيا نهائيا في كافة المسائل العلمية ، ولا تقتصر مهمته على هداية البشر ، وهو رأي لايوافق عليه كثير من المشتغلين بأمور الدين ، فضلا عن معظم المشتغلين بالعلم .

ولكن الأخطر من ذلك أنه يعيد إلى الذاكرة عهد التنافس بين العلم والدين في عصر النهضة الأوروبية ، فقد كان الأساس الذي بنت عليه محكمة التفتيش البابوية إدانتها « لجاليليو » ، هو اعتناقه نظرية كبرنيكوس الفلكية التي تؤكد أن الأرض تدور ، وأنها ليست مركز الكون . وقد حدثت المحاكمة والإدانة لأن الكنيسة نظرت إلى «الكبرنيكية» بميزان المسيحية » . ومن ناحية أخرى فإن الدعاة الإسلاميين المعاصرين لا يكفون عن تنبيهنا إلى الفارق بين تاريخ المسيحية وتاريخ الاسلام : فالمسيحية عارضت العلم ، واضطهدت العلماء في مطلع العصر الحديث ، أما الإسلام فلم يعرف شيئا من ذلك . وهم يستنتجون من هذا أن العلمانية ، أي فصل الدين عن الدولة ، كان لها مايبررها في أوربا المسيحية ، لأن رجال الدين فيها حاولوا الوقوف في وجه التطور العلمي ، أما في الإسلام فلا مبرر للعلمانية ، لأن رجال الدين لم يخوضوا معركة ضد العلم ، ولم يعترضوا طريق تقدمه . هذه هي الحجة التي يكررها الدعاة الإسلاميون المعاصرون بلا انقطاع ، ويعدونها تفنيدا حاسما لفكرة العلمانية . ولكن ألسنا نرى الآن أن وضع الداروينية في مواجهة الإسلام ، وقياسها بميزانه ، لا يختلف كثيرا عن قياس الكبرنيكية بميزان المسيحية ، وما ترتب عليه من اضطهاد وتعسف . . ؟ أليس المبدأ واحدا في الحالتين ، وهو مواجهة نظرية علمية بدين سماوي ؟ فكيف نصدق إذن أن العلمانية لم يكن لها مايبررها إلا في ظروف أوربا وحدها ، إذا كان الإسلاميون المعاصرون يكررون الأساليب نفسها التي قامت العلمانية من أجل تجنبها وتصحيحها ؟

ولنترك عنوان المقال جانبا ، ولننتقل إلى مضمونه . إن الكاتب ـ الذي لا أشك في أنه من أكثر الدعاة الإسلاميين المعاصرين استنارة ومن أوسعهم

ثقافة - يقع في أخطاء مذهلة عن « الداروينية » ففي رأيه أن « الداروينية » زعمت أن قانون الحياة والأحياء هو صراع الأضداد على البقاء ، وأن البقاء في هذا الصراع ، ومن ثم الارتقاء ، هو للأقوى . لأن هذا الأقوى هو الأصلح . فكان أن أعطت هذه الفكرة الداروينية للحضارة الغربية في عصر الكشوف الجغرافية والمد الاستعماري التبرير والمشروعية لكل ما مارسه الغرب ضد الأمم والحضارات التي ابتليت باستعماره من قهر ونهب . . « فاذا استرق الغرب الشعوب الملونة استرقاقا جماعيا ، فأقام رخاءه المادي على جماجمهم . . فذلك مشروع لأنه هو الأقوى ، فهو الأصلح للبقاء . وفقا لهذا القانون « العلمي » الذي زعمته الداروينية « فالقوة هي الصلاح ، والقوي هو الأصلح والأجدر بالبقاء » لقد منحت هذه النظرية المشروعية لقانون الغابة » .

في جميع هذه الاقتباسات نجد فهما عجيبا للداروينية ، يؤكد أنها نظرية تُبنى على القوة ، بحيث أن الكائن الأقوى هو الذي يكتب له البقاء ، لأن الأقوى هو الأصلح ، والبقاء للأصلح . ومصدر العجب هو أن « الداروينية » من حيث هي نظرية علمية ، لم تقل كلمة واحدة عن القوة . ولم تزعم قط أن الأقوى هو الأصلح ، وإنما قالت أن الأقدر على التكيف مع البيئة والظروف الطبيعية هو الأصلح ، وهو الأقدر على البقاء . ولكي ندرك الفارق الشاسع بين فهم كاتبنا للداروينية وبين ما تقوله النظرية نفسها ، يكفينا أن نشير إلى ذلك المثال المشهور الذي تستشهد به معظم الكتب حين تتناول هذا الموضوع ، وهو مثال الديناصور . فقد كان الديناصور في عصره أضخم الكائنات الحية ، وكان يفوق في قوته أي نوع نعرفه الآن أضعافا مضاعفة ومع ذلك فقد انقرض لأنه كان على الرغم من قوته عاجزا عن التكيف مع البيئة ، بينما استمرت حشرات ضعيفة ، ضئيلة الحجم ، لأنها كانت أخف حركة ، وأقدر على الانتقال والتلاؤم مع الظروف المحيطة . هذا هو المثل « الكلاسيكي » الذي تشير إليه الكتب ، لكي تؤكد أن كلمة « الأصلح » في الداروينية لا تعني « الأقوى » بأي حال من الأحوال . ومع ذلك فقد كان هذا الفهم الواضح البطلان هو محور مقال كاتبنا بأكمله

وعلى أساس هذا الفهم الباطل يشيد الكاتب بناءه ، فينظر إلى « الداروينية » على أنها الفلسفة التي أعطت المبرر للاستعمار الأوروبي . ويقتبس أقوالا لمؤلفين غربيين برروا المشروع الفرنسي الاستعماري في شمال أفريقيا ، ومحاولة فرنسا صبغ الجزائر الاسلامية بالصبغة المسيحية ، مؤكدا أن الداروينية هي التي بررت لهم « إفناء الإنسان الأقوى للأضعف ، وبررت لهم ذلك أيضا في « صراع الحضارات » ، ومع أن الداروينية لم تكن قد عرفت إلا بعد ظهور الكتابات التي يشير إليها ، والتي يرجع تاريخها إلى عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، بوقت طويل (لم يظهر كتاب « أصل الأنواع » الذي يتضمن أول عرض للداروينية إلا عام ١٨٥٩) .

ولا بأس أن نشير في هذا الصدد إلى أن مفهوم « البقاء للأصلح » لم يرد على لسان دارون نفسه ، وإنما كان الذي أشاعه هو الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الذي تحمس لآراء دارون ، وحولها من نظرية في علم الأحياء إلى مذهب شامل ، يسري على تطور المجتمعات والنظم الأخلاقية والتعليمية ، الخ ، لا على التطور « البيولوجي » للكائنات الحية فحسب . ولا بأس أيضا من أن نشير إلى أن بعضا من أشهر الداروينيين ، وعلى رأسهم هكسلي ، يؤكدون ضرورة التمييز بين ما يحدث في الطبيعة وما يحدث في الميدان الاجتماعي والأخلاقي ، ويرون أن للميدان الأخير قوانينه الخاصة التي لا تخضع لمبدأ الصراع من أجل البقاء .

ما يجب الاحتجاج عليه

إن الفكر الغربي ، وبخاصة في القرن الماضي ، حافل بالنماذج العنصرية والاستعمارية البغيضة التي تطفح أنانية وكراهية للشعوب المسالمة . والهجوم على هذا الفكر وفضحه واجب على كل مثقف جاد في العالم الثالث . ولكن ارجاع هذه النزعة العنصرية الاستعلائية لدى الأوربيين إلى تأثير الداروينية ، واستغلال كراهية القارىء العربي للعنصرية والاستعمار من أجل مهاجمة نظرية علمية ، تتهم بأنها المحرض الأكبر على كافة الرذائل السياسية والعسكرية الأوربية ، هو الأمر الذي ينبغي أن نرفع صوتنا احتجاجا عليه . وليس معنى ذلك أبدا أن الداروينية منزهة عن الخطأ . فقد تعرضت النظرية ، وما تزال ، للكثير من الانتقادات ، وفي وسع أي عالم أن يوجه إليها من الاعتراضات ما يشاء ، بشرط أن يدعم انتقاداته بالحجج العلمية الكافية ، ولا يستخدم السياسة أو الدين ميزانا في نقد نظرية علمية .

والمشكلة الكبرى في هذا النقد ، إلى جانب أخطائه الداخلية ، هي أنه يتجاهل العوامل الرئيسية ، ويمسك بتلابيب عامل ثانوي . فحتى لو سلمنا من أجل الجدل وحده ، بأن « الداروينية » تشجع على استخدام القوة للسيطرة على الضعفاء ، فإن من حق المرء أن يتساءل : هل كانت هذه النظرية وحدها كافية لإحداث المد الاستعماري الجارف في القرن الماضي ؟ ألم يكن السبب الرئيسي لهذا المد هو التوسع الاقتصادي المترتب على الثورة الصناعية في أوربا ، وحاجة البلاد الصناعية الكبرى إلى مواد خام ، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها ؟ إن المتأمل لأوضاع أوروبا في القرن الماضي يدرك بسهولة أنها كانت ستسير في الطريق الاستعماري حتى لو لم تكن الداروينية قد ظهرت ، وأنها ما كانت لتعجز عن إيجاد مبرر آخر لتوسعها على حساب الشعوب الضعيفة . وعلى أية حال فإن ما يحسم هذا الموضوع على أرض الواقع نفسه ، هو أن أهم الغزوات الاستعمارية الأوروبية للبلاد الأفريقية والآسيوية قد حدثت قبل أواسط القرن التاسع عشر ، أي قبل أن يعرف العالم شيئا اسمه نظرية التطور ، وقبل أن يظهر الكتاب الرائد الذي شيدت عليه الداروينية .

من أضرار المعرفة الناقصة

أعود في نهاية هذا المقال إلى ما قلته في بدايته ، وهو أن الإسلاميين المعاصرين في حاجة ملحة إلى معرفة إنجازات الحضارة الغربية معرفة وثيقة ومباشرة ، ومستمدة من مصادرها الأصلية ، لأنهم يشعرون دائما بأن دعوتهم الخاصة لن تنجح إلا إذا مهدوا لها الأرض بمهاجمة ذلك الخصم العنيد الآتي من الغرب . أما المعرفة الراهنة التي ترتكز على قشور ومعلومات مغلوطة فإنها تضر بقضية الإسلاميين إضرارا بالغا . (هل يصدق القارىء أنني ، مع كل مجموعة جديدة من طلابي ، أبذل جهدا كبيرا لإقناع المنتمين إلى الحركة الإسلامية منهم ، بأن دارون لم يكن يهوديا ، لأنهم يسمعون كل يوم في منتدياتهم عن مؤامرة يهودية لتخريب عقول الناس في العالم أجمع ، أبطالها هم الثلاثي : دارون وماركس وفرويد !)

إننا لا نكف في السنوات الأخيرة عن مهاجمة المستشرقين ، متهمين إياهم بتشويه تراثنا والجهل بخصوصية حضارتنا . ولو قارنا أخطاءنا في فهم الحضارة الغربية بأخطائهم في فهم الحضارة الإسلامية لما كانت المقارنة في صالحنا على الإطلاق . ذلك لأن معظم أخطاء المستشرقين تفسيرية واستنتاجية ، بينما نخطيء نحن في معرفة أبسط الحقائق عن حضارتهم

فكيف كنا سنحكم على المستشرقين ، لو قال قائل منهم ان الحج يكون في رمضان ، أو أن الغزالي من شعراء الجاهلية ؟!□

التعليم الفني وقضية التقنية

بقلم : الدكتور عبدالعظيم أنيس

في هذه الأيام تطرح قضية التعليم الفني في البلدان غير النفطية - وفي مقدمتها مصر - بإلحاح شديد ، ويتم التأكيد على أهميته وضرورة التوسع فيه على حساب التعليم العام الذي يوصل إلى الجامعة ، وفي ظاهر الأمر يبدو هذا الإلحاح مرتبطا بتأكيدات السياسات العليا في تلك الأقطار على زيادة الانتاج والتصدير ، لأنها الطريق الصحيح لحل مشاكل تلك الأقطار ، فضلا عن أهمية تطوير تقنية الانتاج .

وصلت الأمور بوزارة التعليم المصرية إلى حد إعادة فتح المدارس الاعدادية الفنية التي تعلم التلاميذ بعض الحرف ، مع أن هذا النظام كان قد سبق الغاؤه منذ سنوات عديدة لأنه مناقض لمبدأ ديمقراطية التعليم ، ولأهمية دعم الوحدة الوطنية من خلال التعليم .

ولا جدال في أهمية التعليم الفني في أي مجتمع يتطلع إلى تطوير إنتاجه ، وتحقيق قدر أكبر من الاستقلال الاقتصادي والاعتماد على الذات ، ولا جدال أيضا في أن توافر تعليم فني صحيح هو أحد الشروط الضرورية - وإن كانت غير كافية - لاستزراع تقنية محلية ، ولفتح آفاق الابداع الوطني في الصناعة والزراعة . وانما المشكلة الاساسية هنا هي أهمية المعالجة المنهجية للموضوع ، قبل الدخول في عديد من التفاصيل التي يمكن ان تغرق أي باحث فيه .

فلنبدأ أولا بالسؤال : لماذا هذا الالحاح من جديد ، بل في بلد مثل مصر على قضية التعليم الفني ؟ هناك أسباب مباشرة وأسباب قديمة .

وفي مقدمة الأسباب المباشرة أن كثيرا من الأقطار العربية غير النفطية - ومنها مصر - مثقلة بخدمة دين خارجي كبير ، بحيث ان خدمة هذا الدين من فوائد وأقساط ترهق الأداء الاقتصادي للبلاد ، وتقتطع نسبة كبيرة من حصيلة الصادرات ، وفي كثير من الأحيان تعجز هذه الأقطار عن ملاحقة كل هذه الأعباء ، فتتوقف عن السداد ، وتطالب الدائنين بإعادة جدولة خدمة الدين ، لكن هذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاتفاق مع المؤسسات المالية الدولية (أساسا صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) على ما يسمى سياسة للاصلاح الاقتصادي المحلي ، أي اتباع « روشتة » الاصلاح الاقتصادي التي يضعها الصندوق لدول العالم الثالث ، وفي مقدمتها خفض

الانفاق الحكومي على الخدمات . ومن هنا يبدأ الحديث عن سياسة تضييق القبول في الجامعات ، وفي التعليم الثانوي العام ، وفتح أبواب التعليم الفني على مصراعيها ، تحت وهم أن التعليم الفني أقل تكلفة من التعليم العام ، وأن خريجي المدارس الفنية لايواجهون مشكلة البطالة التي يواجهها خريجو الجامعات

أما الاسباب القديمة فتتعلق بقضية تخلف التقنية المحلية ، وتزايد الاعتماد على التقنية الاجنبية التي قد لا يلائم بعضها ظروف الانتاج المحلية وخصوصياته

لقد بدأت مصر في المرحلة الناصرية نهضة صناعية ، كانت تبشر بحل قضية التقنية ، إلا أن التعليم الفني ظل في تلك المرحلة قاصرا عن مواجهة الاحتياجات ولم تستطع تباشير تلك النهضة أن تغوص بالتقنية الملائمة في أعماق التربة المصرية ، بحيث تصبح سمة دائمة من سمات النشاط الوطني الصناعي والزراعي . والسؤال هنا : لماذا لم تنجح ، بينما نجحت دولة مثل اليابان منذ أيام حكومة « الميجى » في القرن التاسع عشر في تحقيق هذا الإنجاز ؟

ربما كانت هناك أسباب عديدة لذلك ، لكن في مقدمتها في رأيي غياب النظرة المنهجية لقضية التعليم الفني ، وتطوير التقنية المحلية . وأود أن أطرح في هذا المقال بعض الأفكار المنهجية العامة التي أعتقد أنه من الضروري أن يتأملها المسئولون بمزيد من الاهتمام والتفكير

أولا : من رأيي أنه لابد من وجود مرحلة واحدة من التعليم الأساسي ، يلتحق بها كل أبناء القطر من بنين وبنات دون استثناء ، وتكون فيها المناهج موحدة ، وتركز على ما يتعلق بالوطن من تاريخ وجغرافيا وخواص البيئة المحلية فضلا عن اللغة والحساب . وهذه المرحلة هي السنوات التسع الأولى (المرحلة الابتدائية والاعدادية) ، بحيث لا يتفرع التعليم في تلك السنوات إلى تعليم ديني وتعليم مدني أو فني وتعليم أجنبي كما يحدث في عديد من الأقطار العربية ، ومنها مصر .

فإن هذا التوحيد في سنوات التعليم الأساسي ضروري في دعم الوحدة الوطنية المحلية ، وخلق ثقافة وطنية ، وفي ايجاد أساس صحيح للتشعيب بعد ذلك . وقديما قال نابليون : إن الوحدة الوطنية في فرنسا تتدعم من خلال المدرسة والجيش . ولقد ألح طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » عام ١٩٣٨ على هذه القضية ، وبدا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد عام ١٩٥٢ أننا نتجه فى هذا الاتجاه ثم ها بنا نعود اليوم إلى فتح المدارس الفنية الاعدادية ؟

ثانيا : أن قضية تطوير تقنية ملائمة في أي مجتمع مرتبطة بوجود مشروع وطني عام للتقدم الاجتماعي والسياسي والاستقلال الاقتصادي ، وبوجود فئات اجتماعية حاكمة ، راغبة في هذا التطوير ، وحريصة عليه خصوصا في ميدان الصناعة

إن هذا هو ما حدث في اليابان مثلا ، فالابداع الوطني الياباني نشأ على الأخص من خلال هذا المشروع الوطني الذي قادته حكومة الميجي لمواجهة التهديد الغربي لليابان بالغزو ، وقد أمكن تعبئة كل الطاقات الوطنية في هذا الميدان بفضل أشياء عديدة ، في مقدمتها التقاليد اليابانية العتيقة التي تمثلت في قدسية العرش الامبراطوري سليل الشمس ، وفي نشأة حكومة قامت على أنقاض الاقطاعيين عام ١٨٦٨ .

ثالثا : أن المشاركة النشيطة لكل الفئات والشرائح الاجتماعية في المجتمع في جهود تطوير التقنية ذات أهمية قصوى في تحقيق النجاح . ومعنى هذا أن قضية التعليم الفني وتطوير التقنية ليست مسألة تخص فقراء المجتمع وحدهم دون الفئات والشرائح الأخرى

إنني أشير بهذا إلى أن التعليم الفني في مصر - في الغالب الأعم - قدر ونصيب لأبناء الفقراء الذين لم يحصلوا على درجات كافية في امتحان الاعدادية . وهذا الفقر ليس من الناحية الاجتماعية فقط ، وإنما من الناحية العلمية أيضا ، مع أن التعليم الفني في حاجة إلى تفوق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء على وجه الخصوص .

لقد تطوع العلماء اليابانيون بأعداد كبيرة بتدريب « الأسطوات »على التقنية الغربية الجديدة ، وكانت أول مدرسة ذات برامج متكاملة لتدريب « الاسطوات » هي « مدرسة تدريب عمال طوكيو » التي أنشأت عام ١٨٨١ ، وتحولت بعد خمسين سنة إلى « معهد طوكيو للتكنولوجيا » . وقد لعبت هذه المدرسة دورا أساسيا في إيجاد تطبيق أوسع للتقنية وفي تحسينها ، وقام خريجو هذه المدرسة بالتدريس في عشرات المدارس المماثلة التي أنشئت على نفس الطراز بطول البلاد وعرضها .

إن قضية تطوير التقنية في اليابان كانت جهدا قوميا موحدا ، شارك فيه اثرياء المجتمع قبل فقرائه ، وأساتذة جامعاته قبل تلاميذه ولهذا تحقق النجاح .

رابعا : أن جذور التقنية في المجتمع تصبح أقوى بكثير إذا استخدمت اللغة الوطنية وسيطا في التعليم ، سواء أكان هذا التعليم متوسطا أم عاليا ، فإن هذه القاعدة التي وضحت صحتها في تجارب البلدان المختلفة تطرح بطبيعة الحال قضية التعريب في هذا الميدان الذي مازلنا متخلفين فيه بشدة ، ومع الأسف الشديد ، مازال هناك أساتذة في الجامعات العربية يقفون ضد التعريب ، مع أنه لا أمل في تطوير التقنية الملائمة دون جهد كبير وطني وعربي كحل هذه المشكلة .

خامسا . أن المصادر المحلية في المهارات والمعرفة المتراكمة لدى أي شعب لا يمكن أن تستغل لخدمة عملية التطوير التقنية بالكامل إلا عن طريق مهندسين وفنيين وطنيين لا أجانب .

لقد أجرت جامعة الأمم المتحدة دراسة مهمة حول موضوع التقنية في الدول النامية ، مسترشدة بالتجربة اليابانية . واشترك في هذه الدراسة ١١٤ باحثا ، وقامت الجامعة بنشر ملخص لهذه الدراسة في مجلتها بعدد يونيو سنة ١٩٨٤ ، وكانت هذه النقطة على الأخص محل تأكيد التقرير .

إننا لسنا ضد الاستفادة من الخبراء الأجانب من ناحية المبدأ ، لكن جهل هؤلاء الخبراء بالظروف والخبرات المحلية ، فضلا عن اللغة ، يقف عقبة أمامهم في القيام بأي دور أساسي في تطوير التقنية المحلية ، وإثرائها على النطاق الوطني .

سادسا : أن التعليم الفني في حقيقته (سواء المتوسط أو العالي) أعلى تكلفة من التعليم العام ، هذا إذا أردنا تعليما فنيا حقيقيا ، يدفع الصناعة والزراعة دفعات حقيقية .

وفي تجربة مصر توضح الاحصاءات أن مايقرب من ثلثي تلاميذ التعليم الفني هم الملتحقون بالتعليم التجاري ، وهو تعليم لا يمت للانتاج الصناعي والزراعي بصلة ، كما يوضح تقرير اللجنة المصرية الامريكية عن التعليم ، الصادر عام ١٩٨٠ ، أن طالب التعليم الصناعي يكلف الوزارة سنويا في المتوسط ١٢٢ جنيها ، وطالب التعليم الزراعي ١٥٦ جنيها ، بينما يكلف طالب الثانوي العام ١٠١ جنيه . ومعنى هذا أن التعليم الفني - في مستواه المتواضع الحالي - أكثر تكلفة من التعليم العام . ولقد قدرت وزارة التعليم عام ١٩٧٩ أنها في حاجة إلى ٢٠٠ مليون جنيه لتطوير التعليم الثانوي الفني بالأسعار القائمة آنذاك ، وهو مايصل إلى أكثر من ٥٠٠ مليون جنيه بأسعار اليوم .

وهذه الحقائق توضح أن تصور التعليم الفني حلاً لمشكلة الحد من الإنفاق في التعليم - وفق نصائح صندوق النقد الدولي - هو بمثابة الجرى وراء أوهام .

تلك بعض الأفكار والمبادىء العامة التي أعتقد أنها أساسية في مواجهة هذه المشكلة التي تطرح بإلحاح في العديد من الأقطار العربية غير النفطية ، وفي مقدمتها مصر ، التي تدعو في رأيي المسئولين عن التعليم الفني إلى مراجعة موقفهم وتوجهاتهم الحالية ، وهذه الأفكار والمبادىء العامة يمكن أن تفيد أيضا المسئولين عن التعليم الفني في الأقطار العربية الأخرى .

وأخيرا فإنني أنتهز هذه الفرصة لمناشدة الجامعة العربية منح هذه القضية المزيد من الاهتمام، من خلال ندوات عربية مشتركة ، إذ أن كل جهد في اتجاه التكامل الاقتصادي العربي يصبح ناقصا إذا لم نواجه ضمن إطاره مسألة التعليم الفني وتطوير التقنية . □

شعر : يعقوب السبيعي

أديــري وَجْهَـكِ الحـاني إلَيْـنَـا ... وَمُـدّي نَـحْـوَنَـا قـلبـاً بـعـيْنـا
تَــرَيْنَ العِشْقَ في الأحـداقِ دَمْـعـاً ... سـعيـداً في تمـيمـتِـه غـنـيْـنـا
تُـنَـادِي ظِـلّكِ الـنـادِي دُرُوبٌ ... بهـا اشتبكتْ أصـابـعُ ، حـتـيْـنـا
تسـابقتِ الجهاتُ إليـكِ شـوقـاً ... لتحمـلَ خَـطْوَ مَنْ تمشي بشـوقـو
أعِـيـدي نـظرةً في مـا تَـولّى ... تَـرَيْـنَ عـليـكِ لـلعشـاقِ دَيْـنـا

* * *

هـي الأيـامُ تَـطْغَى إنْ تَـشَـكّـى ... بهـا الأحبـابُ مـاَ مِنْـهُ اشتكيـنـا
فَـذاكَ الصبـرُ يَـأبَى إنْ رضـينـا ... وهـذا الحـزنُ يَـرْضَـى إنْ ابيْـنـا
تُـعَـانِـدُنَـا الليـالي فَـهْي جَمْـرٌ ... نَـضِيـجٌ في تـطاوُلِـهِ اكـتـوينَـا
أزيحي بِـابتسـامَتِـكِ الـلـيـالي ... لِـنُبْصِـرَ مـا تَـبَقّى في يـديْـنـا
لقـد كـانَ الفـراقُ ومـا افـترقنـا ... وقـد حـانَ اللقـاءُ ومـا التقيـنـا
رمـاديُّ الصـدودِ مَضَـى وهـذا ... رمـاديُّ الـوصـالِ أتى إلـيْـنـا
سَلِمْتِ حبيبتي مِنْ كُـلِّ مـاضٍ ... وآتٍ ، إنْ مَـضَيْـنـا أوْ أتَـيْـنـا

* * *

أديـري وَجْهَـكِ الحـاني لنـدري ... أضِـعْنَـا في الحيـاةِ أم اهتـديْنَـا
أيَجْـنَـا الجفـافُ لـديـه ظمْـأى ... وهـذا الخصبُ والسُّقيـا لـديْـنـا
وفي صـدري وصـدركِ عنفـوانٌ ... يُـذَلّـلُ كُـلَّ مـا استعصى عَلَيْنَـا
فـهـيّـا نمـلأ الأعـوامَ حُـبّـاً ... ونـبـدأُ بـالهـوى حيثُ انتَهَيْنَـا

استطلاع : سليمان مظهر

تصـــوير : سليمان حيدر

شعب التحديات :

فيتنام

على إمتداد ألف ميل، من الجبال الغارقة وسط أمواج السحب بطول الحدود الصينية، إلى السهول الخضراء المنبسطة في دلتا نهر «الميكونج»، تستلقي فيتنام، أجمل الدول في شبه جزيرة الهند الصينية. وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً من الحروب المستمرة، لم يكن من الممكن للسائحين والزائرين التجول في المدن والقرى. ومع ذلك، فمنذ أواخر عام ١٩٧٥، وبانتهاء الحروب الدموية المتلاحقة، بدأت فيتنام تتجه - بخطوات بطيئة حذرة - إلى العالم الخارجي.

وكانت «العربي» أول مطبوعة عربية تخترق حدود جمهورية فيتنام الاشتراكية، تستطلع بالعدسة والقلم، حياة شعب واجه التحديات وانتصر، وأغمد السيف دون أن يلقيه، متحديا بالصبر كل شيء حتى الفقر، من أجل إعادة البناء.

قال لنا وهو ينحي المذراة جانباً، ويطيل النظر إلى الفلاحات والفلاحين المنتشرين في حقول الأرز الواسعة الممتدة كبساط أخضر يغطي وجه الأرض

- أنتم تبالغون حين تصفوننا بالشعب المعجزة، فلسنا أكثر من فلاحين بسطاء، نحرث الأرض لنزرعها، ونحمل السلاح لنحميها

قلنا له: ذلك هو منبع الإعجاز فيكم، ومبعث الاعتزاز بكم، وما زلنا في أوطاننا نتعلم منكم كيف يكون الصمود الصلب والمقاومة التي لا تلين.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة شبه ساخرة، وهو يقول

- أتتعلمون من الفلاحين. وفيكم العلماء والمخترعون وغزاة الفضاء؟!

ابتلعنا سخريته ونحن نجيب.

- لولا الفلاحين ما كان كل هؤلاء، فكلهم مثلكم ابناء الأرض

- ولكنهم يدمرون الحياة، بينما نحن نصنع الحياة

قال ذلك وهو ينقل نظره بين مجموعة من بقايا المدافع والدبابات المحترقة، وبين أكوام من حصاد الأرز!

كانت المفارقة واضحة، ألزمتنا الصمت، ومد الفلاح يده الى مدراته يداعب أسنتها المشطية ثم فجأة، أدار قصبة المذراة، فإذا في الطرف الآخر سكين يشبه «سونكي البندقية» وقال باعتزاز

- هكذا كان سلاح الفلاحين، بأحد الطرفين يحصدون زرعهم، وبالطرف الآخر يقتلون عدوهم..!

تساءلنا وقد زال عنا الاستغراب

- ألهذا كانت جماهير الفلاحين في فيتنام على استعداد دائما لحمل السلاح والثورة ضد الفرنسيين والأمريكيين؟!

سمعنا الاجابة من «تران فوك تش» مساعد مدير إدارة الصحافة:

- بل ضد كل المعتدين، فالمسألة ليست حديثة عهد، فطوال الاحتلال الصيني كان الفلاحون يحاربون ويقاومون سيطرة الاقطاعيين الصينيين، بل إن الاقطاعيين الفيتناميين الذين كانوا يستندون على العون الصيني لقهر الشعب، كانوا ينضمون الى الفلاحين من أجل التحرر والاستقلال.

التضحية سمات الشعب

إن جموع الفلاحين كانت هي المحرك الحقيقي للتاريخ الفيتنامي، فهي إذ تساق الى الموت جوعاً كلما ساءت حال المحصول، لم يكن امامها سوى أن

تندفع قدماً في الطريق الوحيد المفتوح أمامها، طريق الانتفاضة المسلحة ومن صفوف الفلاحين خرج هؤلاء الجنود والمناضلون الذين خاضوا من أجل التحرير ورد عدوان الغزاة عديداً من المعارك البطولية المعجزة. . وكانت التضحية هي أبرز سمات الفلاحين. . بل والشعب الفيتنامي كله فالتضحية بالنفس والحياة ليست غريبة على الشعب الفيتنامي حتى في أيامه الحاضرة.

ولم يكن غريباً على هذا الشعب أن يواصل التحديات حتى بعرق جبينه، فلم يجد ما يمنعه من مشاركة حكومته للوفاء بديون البلاد الخارجية. وقد كان ذلك بأسلوب جديد لم تقم به دولة أخرى من قبل. فمع استجابة الفيتناميين لما قررته حكومتهم، اندفع ٦٣ ألفا من العاملين للسفر الى الدول الدائنة ليؤدوا الأعمال المطلوبة منهم لسداد بعض ديون الدولة، وخاصة للاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية، وكانوا يدركون أنهم يعملون دون أن يتقاضوا سوى جزء ضئيل من المرتبات المقررة، على أن تذهب بقية الأجور لسداد ديون فيتنام للدول التي يعملون بها!

هل هناك تضحية أكثر من هذه التضحية، يسدها الفيتنامي عن قناعة ورضا من أجل تحرير بلده هذه المرة أيضا من الدين الخارجي؟ أوليس مثلا يجب أن تحتذيه الدول المدينة الغارقة في الديون؟!

المكان والزمان والإنسان

تمتد فيتنام من الشمال إلى الجنوب بطول ١٧٥٠ كم، وباتساع من الشرق إلى الغرب يتراوح بين ٦٠٠ و ٥٠ كم، وتحدها الصين من الشمال ولاوس وكمبوديا من الغرب وتطل من الشرق على بحر الصين الجنوبي ومن الجنوب الشرقي على خليج سيام. وتنقسم فيتنام ثلاثة أقسام: «باك بو» وهو القسم الشمالي الذي كان يطلق عليه قبل الوحدة اسم فيتنام الشمالية، ويشكل مع دلتا النهر الأحمر منطقة غنية بالامكانات الزراعية والصناعية، ثم «نام بو» وهو القسم الجنوبي الذي كان يطلق عليه اسم فيتنام الجنوبية، ويشكل سهلا غرينيا تشقه فروع نهر الميكونج، وهو منطقة صالحة للزراعة على الأخص، أما القسم الثالث فيسمى

موقع فيتنام

«ترانج بو» في وسط فيتنام، وهو حزام ضيق طويل من الأرض، يصل بين الشمال والجنوب.

وعندما يصف الفيتناميون شكل بلادهم يتذكرون صورة مألوفة لديهم: صورة قصبة على كتف في أقصى طرفيه سلتا أرز.

أرض فيتنام تمتد على مساحة تقرب من ٣٣١ ألف كم٢، يعيش عليها من السكان حوالي ٦٣ مليون نسمة، حسب تعداد ١٩٨٧ لا يتجاوز دخل الفرد فيها أكثر من ١٥٠ دولاراً في السنة، حسب تقديرات عام ١٩٨٦. أما أهم المدن فهي العاصمة هانوي وسكانها حوالي ثلاثة ملايين نسمة، ومدينة هوشي منه التي كانت تحمل اسم سايجون قبل التحرير وسكانها ٣.٥ ملايين نسمة، وهايفونج وسكانها مليون و٣٧٠ ألف نسمة، بالإضافة إلى دانانج، ونام دنه، وهوى.

الوجه الحقيقي للشعب

إن وجه أي بلد يبدو من خلال وجوه أبنائه وحين كنا نتنقل بين مدن فيتنام وقراها كنا

بائعة الاناناس .. وابتسامة تحاول بها
إخفاء معالم المعاناة التي تعيشها الفا -
وهن يمارسن بيع ثمار الفاكهة ، بينما
يكتفين بوجبتهن من الأرز المسلوق .

وجبة الفلاح
الفيتنامي واحدة فقط
في اليوم مع كثرة عدد
الأبناء ، وبعد انتهاء
العمل في حقول
الأرز تنشغل الفتيات
بالأشغال اليدوية ،
بينما الصغار يلعبون
أمام البيوت البسيطة
المقامة من البوص
وسعف النخيل وقش
الأرز

يعجب تحدي المغامر ... مظاهر السكان وملامح حياتهم. وكنا كلما نتجه جنوباً أو شمالاً أو إلى الشرق أو الغرب ... في شوارع هانوي وهوشي منه، أحسسنا ... نتنقل بين عدة بلاد بعاداتها القومية وتعابير أديانها المتباينة.

عمال صاعدون في سياراتهم الواسعة من القش عائدين إلى بيوتهم على دراجات هوائية مستهلكة، أطفال يتضاحكون حاملين حقائبهم وهم ينطلقون في فرح عائدين من المدرسة، طالبات يسرن حاملات ... مزيج من الجد والعبث، جنود يتحركون نشاطاً في ثيابهم التي تتراوح ألوانها بين مختلف درجات اللون الأخضر، فلاحات ينطلقن في أرديتهن المتشابهة ... بنطلونات رمادية اللون وسراويل زرقاء فضفاضة، تحمل كل واحدة منهن على كتفها سلتين من القش المشغول، تتدليان بحبالهما من طرفي قصبة الخيزران، بينما تسير نساء أخريات في أزياء حديثة، وملابس مرفهة، هن بعض الموظفات أو العاملات في شركات ومؤسسات حكومية أو دولية.

آلاف من الوجوه متشابهة الملامح، لكنها كلها تحمل سمات المعاناة، وشيء ما ينصح في خطوط التجاعيد حول الفم، أو الحزن المستقر في العيون المتزاحمة الجفون. إنها تبدو علامات تركتها سنوات حرب، ونضالات المقاومة على وجوه الفيتناميين.

إن وجه فيتنام هو وجه النضال والكفاح، وجه الخسائر والمكاسب، وجه معاناة اليوم وآمال الغد.

ومع ذلك ... شهدنا هنا وهناك وفي كل مكان، إن «فيتنام» و«هوشي منه» وجهان لعملة واحدة، ففيتنام هي بلاد هوشي منه، وهوشي منه هو رمز فيتنام، وقد كان عنوان «لا يوجد شيء في الوجود أعز من الحرية والاستقلال».

وبتقدير جهود هوشي منه، وارتباط اسمه بفيتنام الحرة المستقلة، لا تكاد تخلو مدينة من نصب أو رمز أو متحف يحمل اسم الزعيم ويحيي ذكراه. أشهر هذه النصب التذكارية ذلك الذي رأيناه يتوسط ميدان «بادين» في هانوي، حيث الضريح الفخم الذي أقيم مكان الموقع الذي كان يضم بيته، وهو مزار للمواطنين والسائحين. يضم غرفة مكتبه وحديقته الصغيرة، والحجرة التي كان يتمتع بمائها

يرصدونها، بعد أن طالما خاض معارك التحرير القاسية. للنصب التذكاري واجهة مرتفعة، قائمة على أعمدة رخامية ستة في كل واجهة، بينما تغمر الزهور الضريح في الداخل، وتمر من أمامه طوابير الآلاف من المواطنين لتحيي البطل العظيم.

هانوي ... مدينة الصبر

حين وصلنا مطار هانوي كان الوقت ليلاً، وقطعت السيارة بنا المسافة بين المطار والمدينة في أكثر من ساعة، على الرغم من أنها لا تزيد على أربعين كيلومتراً. فالطريق ضيق، والمطر ينهمر، والسيارات واللوريات والدراجات وعربات النقل التي تجرها الثيران تنطلق بلا قيود، وهي تسير في الظلام الذي لا يقطعه سوى أضواء كشافات السيارات بين حين وآخر. وحين بلغنا المدينة كانت الأضواء الخافتة الضئيلة تلقي بصيصاً من الضوء على جوانب الطرقات. قال لنا مرافقنا:

- إننا نعيش مشكلة الطاقة، وذلك هو سر ضعف الإنارة في الطرقات والبيوت، وإذا كان ذلك يجعل هانوي في الليل تبدو لكم قاتمة، إلا أنكم سترونها على حقيقتها في ضوء النهار.

ونزلنا في فندق «تونجات»، أكبر فنادق المدينة، ورواده من ممثلي هيئات الأمم المتحدة ولجانها العاملة والسائحين، وأغلبهم من الدول الاشتراكية وبعض أهل البلاد الذين اغتربوا في الخارج ويجيئون للزيارة بين الحين والآخر. أسقف الغرف يزحف عليها عشرات «الأبراص» وقال مرافقنا:

- لا تضيركم الأبراص، ولا تحاولوا أن تؤذوها، فهي تربي لتلتهم البعوض، وبسببه لن تستطيعوا النوم إلا في ظل «الناموسية» التي تغطي الفراش.

كان مطعم الفندق قد أغلق أبوابه قبل وصولنا، وقد عادت السيارة التي أقلتنا من المطار أدراجها. قال صاحبنا:

- لا بأس، سآخذكم إلى أكبر وأنظف مطعم في هانوي.

وتزاحم حولنا قادة «الركشو»، فلا وجود لسيارات أجرة في المدينة. وركبنا الركشو ويسمونها «السايكو» وهي دراجة ذات عجلات ثلاث. يقودها صاحبها من الخلف، وأمامه بين

العجلتين الأماميتين صندوق له مقعد يغطيه غطاء من البلاستيك لحماية الركاب من رذاذ المطر الذي لا ينقطع.

كان الرجل يدفع الركشو ونحن نستشعر مدى التعب والمعاناة التي يعانيها وهو يدفعها في الظلام والمطر يهمي على رأسه وجسده دون أن يحميه شيء. قال مرافقنا ونحن نتخاطب وكل واحد منا في الركشو الذي يستقله:

- لا تضيقوا مما يعانيه الرجل، فقد تعود على هذا. وهو جد صبور. فقد كان وأمثاله يعملون أكثر من ذلك في ميادين الحرب المفتوحة طوال سنوات وهم يخوضون المستنقعات والأنهار، ويزحفون على سفوح الجبال تحت الأمطار والقنابل والرصاص.

قلت ونحن نريد التوقف. ومغادرة الركشو:
- الأمر ليس سهلاً. وهم يرتعدون تحت المطر.
- قال: يكفيهم أنهم يجدون عملاً بدلاً من البطالة.

في الصباح رأيت هانوي على حقيقتها:
مدينة من أكثر المدن جاذبية في جنوب شرق آسيا. شوارع واسعة تظللها الأشجار الاستوائية على الجانبين. البيوت ومباني الحكومة والمؤسسات لا تتجاوز طابقين أو ثلاثة. وهي مبنية من الحجر مطلية باللون الأصفر البرتقالي، كما كانت منذ أيام الاستعمار الفرنسي.

البحيرات التي تتوسط المدينة بشواطئها المظللة ومقاعدها الحجرية. تضفي عليها جمالاً وجاذبية حيث يسهر الناس لياليهم على الرغم من العتمة، مكتفين بانعكاسات نجوم السماء، وخاصة في الليالي المقمرة على صفحة الماء.

مدينة التنين الطائر

تاريخ هانوي يبدأ بعام ١٠١٠م حين كان الملك «لي ثاي تو» يبحث عن مكان يشيد فيه عاصمته ويقال أنه عندما بلغ جانب النهر الأحمر، شاهد تنيناً يطير في السماء، مضفياً على صفحتها نوراً متلألئاً.

وقرر الملك أن يبني عاصمته في هذا المكان المقدس. وأطلق عليها اسم «ثانغ لونج» ومعناه «مدينة التنين الطائر». ومع مرور السنين راحت العاصمة تنمو لتصبح مركزاً سياسياً وثقافياً في البلاد، ثم تحول اسمها بعد ذلك إلى «هانوي».

تضم هانوي معابد تاريخية وطبيعية كثيرة. تكاد تكون هي المتعة الوحيدة للأهالي البسطاء والترويح عنهم. خاصة وأنهم مغرمون برواية الحكايات والأساطير حول هذه المعابد. وهم يجلسون أمام هيكل «الباجودا ذات العمود» ويحكون أن الإمبراطور «لي ثاي تون» الذي تولى الحكم في القرن ١٢م قد حلم ذات ليلة بأن الإلهة الأم «كوان ام» كانت تجلس هناك وهي تدعو إليها الراغبين في الحصول على الاستنارة الروحية التي بلغها بوذا.

وقرر الملك أن يشيد هذه الباجودا في هيئة بوذا جالساً وسط زهرة اللوتس في نفس المكان. وأقام مهندسوه الهيكل على عمود من صخرة واحدة، تعوم وسط البحيرة. ويمثل العمود ساق الزهرة بينما تمثل المياه المحيطة آلام الإنسانية. وعند انسحاب الفرنسيين دمروا الهيكل المقدس، لكن الحكومة أعادت إصلاحه وترميمه.

أما جسر «هيو» المعروف بجسر «شعاع الشمس» فيربط شاطئ بحيرة «السيف العائد» مع معبد «باجودا السلحفاة». المقام في وسطها. أبسط البسطاء من سكان هانوي وأطفالها يعرفون قصة المعبد. تقول الحكاية الشعبية: إنه خلال سيطرة حكم أسرة مينج الصينية. كان أحد الصيادين من رجال الجنرال الوطني «لي لو» يرمي شباك صيده في البحيرة. وبدلاً من أن تخرج الشباك مليئة بالأسماك وجد داخلها نصلاً محفوراً على أحد جانبيه عبارة تقول: «أطع أوامر السماء». ولفت النصل أنظار القائد الوطني الذي لم يدرك معنى العبارة إلا حين رأى في اليوم التالي شيئاً لامعاً يتدلى من غصن إحدى الأشجار المطلة على البحيرة. وحين تأمله وجده مقبض سيف بدون نصل، وأمسك القائد بالمقبض والنصل فإذا بهما متطابقين، يشكلان سيفاً صلباً. وأصبح السيف في يد القائد الوطني سلاحاً خارقاً، أرعب به الأعداء، وشتت صفوفهم، ومزق شملهم حين استخدمه في مواجهتهم، وبمساعدة هذا السيف الخارق في يد القائد الوطني انتصر الفيتناميون. وحرروا أرضهم من الغازي الصيني المحتل، ونصبوا بطلهم ملكاً عليهم. وذات يوم

شوارع هانوى باتساعاتها وأشجارها وظلالها الوارفة ، حيث وسيلة الانتقال الرئيسية هي الدراجات الهوائية والراكشو ، بينما الفلاحة تنطلق الي السوق وعلى كتفها قصبة البامبو تتدلى من طرفيها سلتان مليئتان بالفاكهة والخضراوات وعلى رأسها قبعة القش لباس الرأس التقليدى البسيط

بينما كان «لي لو» يستقل قاربا في ماء البحيرة، رفعت سلحفاة ذهبية رأسها من وسط الماء وقالت له: «يا صاحب الجلالة.. لقد حان الوقت لتعيد السيف الى ملك التنانين». وقرر لي لو أن يعيد السيف. فأقام «باجودا السلحفاة» وسط البحيرة، وعلق بداخل الهيكل السيف الخارق. وسميت البحيرة تبعا لذلك بحيرة «السيف العائد».

وتوالت القرون وظلت بحيرة «السيف العائد» شاهدا على عديد من الحروب والمعارك والانتصارات. وفي يوم انتصار الثورة الفيتنامية خرجت جموع الشعب في طوابير طويلة تسير على شاطيء البحيرة أمام الباجودا لتهاجم مقر الحاكم الفرنسي. وفي المناسبات الوطنية تقام مسابقات التجديف في مياه البحيرة، بينما تنطلق الألعاب النارية، ويسعد سكان هانوي المحتفلون بذكريات انتصاراتهم المتوالية على الغزاة الصينيين والفرنسيين والأمريكيين.

ومن أحب ما شاهدناه في هانوي سمة أهميته عند الشعب الفيتنامي الذي يفتخر بأبطاله.. ففي معبد «الشقيقات» القائم في شارع «ترونج ساهان» وقفنا أمام الباجودا التي أقيمت إحياء لذكرى «الأخوات ترنج» اللاتي تمكن بقيادة الثوار من هزيمة الصينيين عام ٤٠ ميلادية، فقد خاضت الشقيقات حربا من أكثر الحروب شهرة ضد سيطرة الإقطاعيين الصينيين، وشاركت الأخوات زوجات لبعض حكام دلتا النهر الأحمر، وحين تمكن الصينيون من الثورة - وحتى لا يقعن في أسر الأعداء - انتحرت الشقيقات اللاتي عدهن الفيتناميون من أبرز أبطال الشعب، حتى أن شو إن لاي رئيس وزراء الصين عندما زار فيتنام عام ١٩٥٦ حمل في برنامجه زيارة معبد «الأخوات ترنج» ووضع إكليلا من الزهور لإبراز الروابط القديمة بين الصين وفيتنام.

ديان بيان فو

لعل أبرز مظاهر التضحية والفدائية هي بعض ما شهدناه في المتحف الحربي في هانوي، حين زرناه لنشاهد المعروض عن معركة «ديان بيان فو»، وجئنا خلال ساعاتنا بين أعداد كبيرة من أبناء الشعب وتلاميذ المدارس، الذين لم يعيشوا فترة المقاومة فجاءوا ليطلعوا على ماضي بلادهم القريب، ومدى ما عاناه الآباء وعاشوه من أجل التحرير.

كان في خطتنا أن نلتقي بالجنرال نيجوين فون جياب، الرجل الأسطورة، الذي هزم جحافل الفرنسيين بجيش من رجال العصابات الحفاة، ووضع نهاية للاستعمار الفرنسي في موقعة «ديان بيان فو». لكن حين وصلنا كان جياب في زيارة لكوبا، وعوضنا عن عدم وجوده لقاء أحد رجال قيادته الذين شاركوا في المعارك، وهو الميجور جنرال «تران كون مان» الذي يرأس الآن تحرير المجلة العسكرية «كوان ديهان».

من خلال اللقاء وبعد زيارة المتحف الحربي خرجنا بتفاصيل كثيرة عن المعركة التي دارت على مسافة ٦٠٠ كم غربي هانوي بين شتاء ١٩٥٣ وربيع ١٩٥٤.

وأمام نموذج كبير مجسم للساحة وعليها تفاصيل مجسمة بالتماثيل والصور والرسوم، رحنا نسترجع ما حدثنا عنه القائد العسكري لاحدى أشهر ملاحم التاريخ، وهو انتصار أسهم إسهاما حاسما في نجاح مؤتمر جنيف الذي أعاد السلام إلى الهند الصينية، واستخلص العالم منه درسا لخصه الزعيم هوشي منه في كلمات قليلة: «إن الأمة الضعيفة الصغيرة، تستطيع بتضامن الشعب والجيش للنضال والقتال في سبيل الحرية والاستقلال، أن تدحر أي قوة معتدية مهما تعاظمت، مادامت تملك الإيمان والإصرار على القتال حتى النصر».

اللوحات تحكي تفاصيل كثيرة. مقاتلون يزحفون تحت وابل قنابل الطائرات ونيران المدفعية ويحفرون عبر الجبال والغابات طرقا تصلح لسير الشاحنات.. آلاف الحمالين يكدحون وهم يسحبون بأذرعهم وعضلاتهم وفوق ظهورهم الأسلحة والإمدادات وينقلون المدافع عشرات الكيلومترات، من موقع الى موقع، للصعود الى القمم عبر السفوح. فلاحون يحفرون الخنادق الطولية وهم منبطحون على الأرض ليتحاشوا القنابل وقذائف المدفعية. مناضلون يفاجئون في ظلام الليل وفي وضح النهار قوات العدو المحصنة ويردون الهجمات المضادة ويحكمون الطوق على العدو.

ومن خلال اللوحات نشهد بعض قمم الفدائية والتضحية.

الفتى «توفنه دبين» يلقي جسمه تحت عجلات مدفع ليمنعه من الانزلاق الى الخلف فيموت ليستمر التقدم. الفدائي «فان دنه» يرمي نفسه فوق فوهة مدفع فرنسي فيخرسه. وحدات الإمدادات تزحف أكثر من مائتي كيلومتر بين سلاسل الجبال، لتشارك في القتال. طوابير متراصة من الفلاحين تعمل على بعد مئات الكيلومترات لتأمين إمدادات الأطعمة والذخائر على الرغم من قذائف المدفعية والطائرات. سائقو الشاحنات وراكبو الدراجات يقضون عشرات الليالي بلا نوم، متحدين الصعوبات، متوصلين المؤن. حتى الطهي والتطبيب تشارك فيه النساء والرجال في قلب الخنادق وتحت قصف المدافع ولهيب النيران.

مثل هذه التضحيات نتصر الفيتناميون وتقررت الهزيمة المذلة على الفرنسيين وهي الصورة التي أكدتها لنا إطلالتنا المبهورة على نموذج ميدان المعركة، وماشاهدناه في الساحة الخارجية للمتحف الحربي، حيث ماتزال بقايا المدافع والدبابات المحروقة والطائرات محطمة مدمرة، وبينها حطام عدد من الطائرات والمدافع الأمريكية التي ضربت خلال المعارك التالية مع الأمريكيين، في معركة التحرير بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٥ التي انتهت بسقوط سايجون وانسحاب القوات الأمريكية من فيتنام كلها.

هكذا تجري الحياة

وانطلقنا بعيداً عن هانوي، لنخترق القرى والمدن والمزارع الجبلية في فيتنام على امتداد كل هذه الأرض الشاسعة أدركنا كيف تجري حياة الأغلبية الساحقة كيف يعيشون ويأكلون ويشربون، كيف يمارسون حياة الفقر والتخلف من خلال الأزمات الخيالية القاسية ونقص الاقتصادي والمعيشي والافتقار الى الغذاء الكافي في ظل بطالة وبصحتهم لا بشمل الريف وحده، بل حتى المدن الكبيرة بما فيها العاصمة.

الفلاحون الفيتناميون يعيشون في مجموعات متناثرة وتتراوح الأسرة المتوسطة مابين ستة أفدنة واثنى عشر فدانا من الأرض أغلبها يزرع أرزا.

ودخلنا بعض بيوت الفلاحين

البيوت مقامة على دعامات من الطين. وإطارها من الخشب أو فروع الشجر. يغطي سقفه النخيل أو قش الأرز. وقد لا يضم بيت الفلاح الفقير أكثر من حجرة أو حجرتين. كما تستخدم حجرة الطعام وحجرة المعيشة في الغالب غرفا للنوم أيضاً، وهناك مطبخ خارجي صغير، يلحق بالبيت ومخزن صغير تخزن به أدواتهم، وقد يوضع فيه ثور أو أنواع قليلة من الماشية والخنازير والبط والدجاج. وقد توجد في البيت ألواح خشبية توضع فوق دعامات من الحديد تستخدم فراشا للفلاح وأسرته. وبه منضدة خشبية غير مصقولة، وبعض مقاعد بغير مساند وقد يكون هناك دولاب. وذلك هو كل أثاث البيت المتوسط للفلاحين.

الأرز أولا.. والأرز دائما

ترتبط دورة حياة فلاح الأرز ارتباطا وثيقا بالمناخ الاستوائي، خاصة حين تغير الرياح اتجاهها لتهب من الجنوب الغربي. في ذلك الوقت يعد الفلاح شتلات أرزه، ويستخدم ثوره ـ اذا كان هناك ثور ـ لحرث جزء صغير من حقله. ويستخدم فأسه وفئوس زوجه وأبنائه في شق الأحواض شقا دقيقاً، ثم يبذرون البذور. وفي مدى خمسة وأربعين يوما تغرس الشتلات في الحقل. والارض والمناخ والأمطار لها تأثيرها على محصول الارز وزراعته ومع نفس هذه الظروف الثلاثة يستطيع الفلاح الحصول على ثلاثة محاصيل في السنة.

بين السهول والجبال

حياة الفلاح العادي تتركز كلها في اسرته وفي حقل ارزه. وقد لا يزور الفلاحون، لاسيما النساء، المدينة الا مرة واحدة، ويكون في الغالب زيارة العمر. وكثير من الفلاحين يملكون دراجة. أما الذين يعيشون الى جوار النهر فقد يملكون زوارق خفيفة، ذات أحجام متباينة. وقد يملك الفلاح الميسور الحال جهاز تسجيل أو «راديو ترانزستور»!

تجري ذلك في مناطق السهول، اما المناطق التي يسكنها الجبليون فيبدو ان بعضهم مرتبط ببعض

مشاهد من مدينة «هوشي منه» في بانوراما واسعة تبين المدينة الزاخرة بالمعالم والبنايات التاريخية والحديثة والشوارع الواسعة . وغير بعيد من الميدان تقوم كاتدرائية نوتردام التي تم إنشاؤها منذ حوالي مائة عام . بينما تقوم «باجودا» اكساتوى المقامة بطرازها الهندسي الحديث أمام المعبد البوذى الكبير الذى يتميز بديكوراته وزخارفه من الزجاج الملون والبورسلين ، ويقوم على خدمته عدد من الرهبان الذين يؤمنون بأن الابتسام هو أول الطريق إلى «النيرفانا»

في حاجات شبه قبلية. وهم يرتعدون نصبا إرتياحا وثقيا بحراهم وعلى الاخص بقسور أجدادهم القرية. وقد انشأ الحبليون أسوارا حجرية عالية حول مواقع تجمعاتهم حواجز تمنع غارات النمور المتجولة

في مدينة هوشي منه

كل هذه الصور التي شهدناها لواقع حياة الناس في هانوي والقرى والمرتفعات. رأينا بدلا منها شيئا مختلفا تماما في مدينة «هوشي منه» التي كانت تسمى سايجون قبل التحرير واعادة توحيد البلاد

هنا تتضح المفارقة الغريبة بين الشمال والجنوب. وعلى الاخص بين مدينة هانوي العاصمة التي كانت من قبل عاصمة فيتنام الشمالية. واستمرت عاصمة للجمهورية الموحدة ومازال حالها قائمة تعيش آثار الحروب المدمرة التي لا تتيح لها التطور والنهوض والإعمار إلا في السنوات الأخيرة وبين هوشي منه التي كانت - وهي عاصمة للجنوب قبل التحرير - تحظى بالاغداق الامريكي من خلال الاستثمارات والمساعدات وملايين الدولارات الامريكية لتشجيعها على التمسك بالتقسيم. والوقوف في وجه الشمال الاشتراكي مما جعلها تكتسب صورة اخرى من خلال التطور بالتقنية المتقدمة والاعمار والانفتاح على الغرب مع بعض صور الانحلال والصخب الليلي الذي يصاحب عادة الوجود الامريكي بقواته ودولاراته وبدحه المخطط المرسوم

ولعل ذلك هو ماجعل أحد السياح العربيين ونحن في فندق «كولونيج» بمدينة هوشي منه يقول لنا وقد علم أننا قادمون من هانوي.

- هل صحيح أن العاصمة هانوي هي الوجه القاتم لفيتنام. بينما مدينة هوشي منه هي الوجه المشرق؟ لقد علمت أن سكان هانوي في الشمال ممنوعون من زيارة هوشي منه خوفا عليهم من الاحباط اذا شهدوا ما تتمتع به المدينة الجنوبية من حياة متفتحة صاخبة مرحة وقيل إنه لا يصرح لأحد من أهل العاصمة بالقيام بهذه الزيارة الا بتصريح خاص من وزارة الداخلية. وهذا لا يحدث الا فيما ندر. وفي حالة الضرورة التي لا مفر منها ولم نكن نعرف ذلك. فكل معلوماتنا أن فيتنام قد توحدت. فلا شمال ولا جنوب ولا وسط. فكلها ضمن جمهورية واحدة منذ التحرير عام ١٩٧٥. لكنها كانت الحقيقة التي عرفناها بالفعل فيما بعد وتذكرنا لماذا لم يستطع مرافقنا في هانوي الذهاب معنا الى هوشي منه

مدينة هوشي منه تبدو جميلة متطورة نظيفة بشكل عام. وسكانها يبدو على وجوههم علامات الراحة. بعكس مارأيناه في هانوي الناس متجهمون لايكاد أغلبهم يستشعر بقايا المآسي التي مر بها الشعب الفيتنامي خلال الحروب الطويلة حفلات المرح تعقد في الشوارع والبيوت. أما ليل هوشي منه فصاخب. خاصة في الشوارع المضيئة وفي صالات الغناء والموسيقى والرقص في الفنادق التي تسهر طوال الليل. وروادها يرتدون أحدث الملابس وبخاصة النساء. بينما رقصات الديسكو والفانس مستمرة حتى ساعة متأخرة من الليل

بانوراما زاخرة بالمعالم

من شرفة الطابق الثاني عشر لفندق «دوسيج حوي» المطل على الشارع الممتد أمام الجمعية الوطنية. ألقينا نظرة شاملة على المدينة. بعد أن زرنا بعض معالمها قبل أن نطل عليها من هذا الارتفاع الشاهق

بانوراما المدينة تبدو واضحة زاخرة بالمشاهد الجميلة للمعالم والبنايات التاريخية التقليدية والحديثة. مركز المدينة يطل على الجانب الغربي لنهر سايجون، ويمتد الى الجنوب الغربي على طول الشاطىء الغربي لقناة «بن ينه» حتى الحي الصيني المسمى «كولون» الفنادق الرئيسية ترتفع في شوارع تودو ونجوبان هيو المتدين متوازيين كاتدرائية نوتردام صورة طبق الأصل من «نوتردام دي باري» إحدى المعالم البارزة في المدينة تقوم في نهاية تودو منذ إنشائها عام ١٨٨٣ وعبر الطريق الى الشمال يقع مكتب البريد العام ببنائه الذي يمتد عمره الى مائة عام مضت وغير بعيد يقع قصر جيالونج وقاعة المدينة في شارع لوي وعند ملتقى شارعي لي ليو وتودو تقع الجمعية الوطنية وكانت من قبل هي المسرح الوطني. وعلى مسافة قصيرة تبدو ساحة السوق المركزي القريب من محطة السكة الحديد

غير بعيد في أقصى الشمال تبدو المدينة الشقيقة لهوشي منه «كولون» التي أحسست ونحن نستطيع أنحاءها وطرقها الضيقة أنها أكثر صوضاء وازدحاما وأقل جمالا وبخاصة مع ذلك التزاحم من الباعة والمشترين الذين يجيئون من جميع أنحاء المدينة وضواحيها وقراها للشراء من المتاجر أو السوق الشعبي الذي يعرض كل أنواع المصانع والملابس والمأكولات والخضراوات والفاكهة بأثمان لا تتجاوز نصف أسعارها في محلات المدينة. ذلك هو الحي الصيني حيث مجموعة كبيرة من المعابد، أبرزها معبد «مارشال لي فان دويت» الذي يضم ضريح الشطر العسكري الذي كان في خدمة امبراطور بيحوين «جيالونج». وهو يقع على بعد حوالي ميلين من قلب مدينة هوشي منه

عندما زرنا هذا المعبد أثار إعجابنا بواجهته المميزة بالديكورات والزخارف من الزجاج الملون والبورسلين. وبما يحتويه من الآثار المعروضة في القاعة الرئيسية. هذا المعبد قد دمره الامبراطور مين مان عام ١٨٣١، ثم أعاد خلفه «ثيونري» بناءه. وفي كل عام يشهد هذا المعبد احتفالات عيد «تيت»، حيث يحضر الجميع ليس للعبادة ولكن لرؤية المشهد الكبير الذي يعطي منظرا جميلا للثقافة التقليدية الفيتنامية للأجداد. وفي ساحة المعبد تقدم الاطباق التقليدية، وأهمها فطيرة من الارز والخضراوات واللحم المطبوخ، ملفوفة في ورقة من أوراق النباتات المائية

في قلب معبد «ان ميو» لفت نظرنا موائد القرابين. تومض بالألوان الحمراء والذهبية. ان كلا منها قد أعد لعبادة احد أرواح الأسلاف

والتقينا عجوزا في زي رمادي يضيء شموعا، ويشعل أعوادا من البخور عند موائد القرابين، وتابعناه فهمس لنا كمن يحدث نفسه.

ـ عندما نضيء الشموع، فاننا ندعو أرواح أسلافنا لتكون بيننا

قالت مرافقتنا الجامعية «هي آن» التي صحبتنا في مدينة «هوشي منه»:

ما تزال في أعماق الكثيرين معتقداتهم القديمة. فأغلبية الفيتناميين، سواء المتعلمين أو غير المتعلمين، يعتقدون تماما ـ وبخاصة في مدينة هوي العاصمة الامبراطورية في وسط فيتنام ـ بما كان يعتقد به الأساطرة. انهم يؤمنون بتعاليم كونفوشيوس الأخلاقية وهم مازالوا في خوف من غموض البوذية. وفوق كل ذلك فهم يحترمون ذكر الأرواح سواء أرواح أسلافهم أو أرواح الأبطال الأقدمين وأرواح مظاهر الطبيعة والسماء والحقول والاشجار والحيوانات سواء كانت خيرة أو شريرة أو بين بين. وفي كل شئون الحياة المهمة وفي حياتهم الشخصية وهم يستشيرون المنجمين والعارفين بالغيب والسحرة والمشعوذين في كل شيء.

وقد شاهدنا في جولتنا ان اغلب البيوت القديمة التي يتمسك أهلها بالتقاليد لا تخلو من هياكل أو موائد للقرابين، تتوسط قاعة الجلوس، وعليها انواع مختلفة من الاطعمة التي يتقربون بها الى أسلاف العائلة. وقد قال لنا أحدهم شارحا الامر.

. كما ترون نحن مازلنا نعتقد أن أرواح أجدادنا مازال تعيش بيننا. وبالنسبة لنا فذلك ليس من قبيل الخرافة بل انه حقيقة نؤمن بها. فالمستقبل المشرق والسعادة والرخاء داخل الاسرة تعتمد على ان أرواح الاسلاف سعيدة راضية

تحرق نفسها في سبيل المبدأ

في ساحة احد المعابد البوذية على اطراف مدينة سايجون القديمة حيث كان مقر حكم الدكتاتور «ديم» الذي كان يأتمر بأوامر الامريكيين ويهاجم البوذيين الذين كانوا يعارضون سياسته أبصرنا أمام الباجودا صورة فتاة صغيرة في عمر الزهور الصورة تحكي قصة لعلها تمثل طبيعة الشعب الفيتنامي وإيمانه بالمثل العليا والحرية والتضحية. فلا قيمة لاي شيء حتى الحياة اذا كان في الأمر ما يتصل بالمبادىء. كانت هناك مائدة للقرابين امام الباجودا البوذية، امتلأت بأكوام من الزهور والورود والاواني المليئة بالارز والفاكهة. وعلى جدار الباجودا علقت صورة الطالبة الجامعية ذات الثمانية عشر ربيعا

قال لنا الراهب البوذي الذي يقف أمام الباجودا.

ـ كان اسمها «نيحوين تيمان»، طالبة في الجامعة. وقد صبت على جسدها صفيحتين من

الامطار الموسمية تسقط فجأة بغزارة فتملأ الشوارع ، ولا يعبأ الناس بهطولها ويواصلون سيرهم سواء على الأقدام أو وهم يركبون دراجاتهم الهوائية . ويتحى الفتيان العاطلون ليمارسوا ألعاب الورق على جوانب الطريق ، غير بعيد من « جسر هوى » الذى شهد معارك طاحنة خلال حرب التحرير وتبادل الامريكيون والفيتناميون تدميره عدة مرات لقطع الامدادات (الصور الى اليمين) أما الصورتان الي اليسار فالعليا لرقصة شعبية تؤديها فتيات القبائل . والسفلى لفتيات الجيل الجديد علي طريق التعليم من أجل مستقبل أفضل

الجازولين، واشعلت في نفسها النار. كانت حكومة ديم في سايجون تضطهد البوذيين، مما ادى الى ثورتهم. حينئذ قررت الفتاة ان تعلن احتجاجها بطريقة لا يمكن ان يتجاهلها احد، أحرقت نفسها حية في سبيل مبادئها.

ورحنا نتأمل صورة الفتاة في صمت. انها رقيقة كالنسيم، جميلة كالزهرة اليانعة، يطل من عينيها بريق يوحي انها مازالت حية، واستغربنا كيف لم يمنعها احد من احراق نفسها، وقد ادرك الراهب البوذي ماتساءلنا عنه فقال وهو يهز رأسه:

- لم تكن وحدها، حاول كثيرون ان يفعلوا مثلها، لكننا منعناهم. حاولنا منعها هي ايضا. لكن الامر كان قد خرج من ايدينا.

وأشار الراهب الى ثوب ابيض مرفوع كأنه العلم في الساحة. ذلك هو ثوبها ما زلنا نحتفظ به تخليدا لذكراها. ومن ثوبها الآن يرون المكان كل يوم فيقف هناك عرب الشوب، يتذكر ولا يبكي. وهو يحاول النسيان ليس نسيانها هي، ولكن نسيان الحرب عنها. فهي رمز لا تمكن ان ينسى.

ان هذه الفتاة في الحقيقة مثل رائع لفتيات فيتنام المتمسكات بالمبادئ والتقاليد، العاشقات لزهور اللوتس رمز النقاء، حتى انهن يغلين أوراقها مع الشاي، ويطحن بذورها مع الأرز.

الفن والحياة

الآن عادت فتيات فيتنام وفتيانها يعيشون حياة طبيعية، بعيدا عن أجواء الحرب وذكرياتها. حتى لم يعد لديهم ما يمنعهم من ممارسة كل ما هو معبر عن جمال الحياة واشراقات الأمل. عادوا الى عالم الثقافة والفن، بكل أشكاله التقليدية التي عرفوها طوال مئات السنين. ثم طوروها بالأشكال الحديثة المتطورة في مختلف المجالات.

ابرز ما عادوا الى ممارسته الاشتغال بالصناعات اليدوية التي كانت ذات يوم أجمل ما ينتجه الشعب الفيتنامي. كصناعة القبعات القمعية العريضة من القش. وهو لباس الرأس التقليدي للرجال والنساء في المدن والقرى. وصناعة السلال وادوات المطبخ واثاث المنزل من اسرة ومقاعد وفرش وصناديق وحوانات حفظ الملابس وخزين الطعام. وهم يستغلون في ذلك المواد المتاحة لهم من قش الارز وقشور البامبو والفخار والخزف وأخشاب الشجر.

فالشعب الفيتنامي كما شهدناه لم يعد يعيش غارقا في معاناته على طول الخط. والفنون الشعبية ترتبط عادة بالاعياد والمناسبات التي يفرح الشعب خلالها عن نفسه، فيتبادل باقات الورود والزخارف الورقية ويجهز عربات مواكب الزهور، وهي كلها عامل مشترك في الاحتفالات الوطنية والدينية، وعلى رأسها «عيد تيت» رأس السنة القمرية، حيث تعد الورود والزهور وتتفنن في تشكيلها وابراز مواكبها تعبيرا عن البهجة والتمنيات الطيبة بالعام الجديد. واروع المهرجانات التي يشارك فيها الشعب بالزهور والغناء والموسيقى واطلاق البالونات والالعاب الورقية والعاب العرائس ومسارح الطفل. هو الاحتفال الكبير بعيد الاستقلال وانتصار الثورة. وفي مهرجان هذا العام الذي اقيم في ميدان «بادن» شاركت قوات الجيش وطوابير العمال والفلاحين وصفوف طويلة من الطلاب والطالبات في مواكب زهور اطلقت خلالها آلاف من حمائم السلام طوال المسيرة.

الشعب الفيتنامي بالرغم من المعاناة يمارس كل أنواع الفنون فهو يؤمن بأن الفن للحياة. والفنون الشعبية والعاب الأكروبات والرقص التقليدي والتمثيل على المسرح وتقديم الأوبرا التقليدية والحديثة، أمثلة بارزة للمظاهر الثقافية التي مازالت الجماهير تتمسك بها وتمارسها.

الفخار والخزف من اهم الأعمال اليدوية التي يتم انتاجها للاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي. وتنتشر مصانع الخزفيات المختلفة الأحجام داخل المدن وخارجها ويستفيد أغلبها من وسائل الانتاج العريقة. غير أننا لاحظنا بالمقارنة ان الصناعات الخزفية الفيتنامية لا ترقى الى مستوى الخزف والبورسلين الصيني. فنوعية الفخار والخزف تتوقف على ماهية الصلصال المستعمل في صناعته. ولذلك فصناعاتها تختلف أيضا من منطقة الى منطقة. وقد تم تطوير الصناعات الخزفية خلال السنوات الاخيرة اذ أصبح هناك نظام كامل لصناعة الخزفيات عبر جهود مضنية لضمان حسن نوعية الصادرات. وتوجد مجموعة كاملة من المرافق من

شأنها إنجاز عمليات المسح الجيولوجي واستخراج الموارد الخزفية ومعالجة المواد وتشكيل الأواني والتماثيل وحرقها داخل القمائن، كما ان هناك مؤسسات من شأنها صناعة أو معالجة ما يحتاج اليه الانتاج الخزفي من الآلات والمواد الكيماوية وقوالب الخزف الجصية

فنون اللاك . . !

نوع اخر من أعمال الفن اليدوي الإبداعي شهدناه في مدينة «هوشي منه»، روعها للوحات المرسومة والمصنعة باللاك والأصداف

في معرض خاص بهذا الفن الراقي يديره الفنان المتخصص «هوين تان نهان» تجولت بمساعدته ومنته «هوين» ورائح بين أنحاء المعرض الذي تملأ لوحاته قاعات طوابق ثلاثة في مبنى كبير، يكاد يكون متحفا راقيا للفنون الجميلة. هنا شاهدنا أعمالا فنية رائعة من لوحات مرسومة باللاك ولوحات تدعم باللاك والأصداف الملونة والقشور العاجية والأواني الخزفية، تمزج بين القديم والحديث، من عمل الفنان «بي شان» وغيره من كبار الفنانين. لوحات اللاك تتخذ انواعا كثيرة متميزة. بعضها استخدمت فيه عروق اللآلئ الملبسة بين مسطحات اللاك الأسود، والبعض الاخر استخدمت في رسومه الأصداف البحرية البيضاء والملونة. ويضم المعرض أنواعا من الأثاث الخشبي الملبس بقشور أصداف السلاحف والعاج. هذا اللون من الفنون تجد سوقا رائجة بين السائحين والمستوردين الأجانب وبخاصة في هوشي منه التي يوجد بها أكثر من ٣٠ مركزا كبيرا للفنون، وما لا يقل عن الفين من الفنانين هم مقصد محبي الفنون من السياح الذين يبلغ متوسط عددهم السنوي حوالي ٦٠ الف سائح

ثقافة مسرحية وسينمائية

عن الألوان الأخرى من الثقافة وجدنا أن المسرح الفيتنامي الذي يمتد تاريخه الى حوالي ألف سنة مازال يمارس مهمته بنشاط كبير. واذا كانت المسرحيات التقليدية قد لعبت باستمرار دور انتصار الضعفاء على الأقوياء، إلا ان المسرح الحديث يمزج بين القديم والجديد والأصالة والمعاصرة. ذلك هو مالاحظناه عندما حضرنا على مسرح «كونونج» بها سوى مسرحية تحمل اسم «لبس بالأرز وحده» كانت المسرحية تمجد البطولة على الانهزامية، والقلوب الخيرة على الشريرة، والأعمال الطيبة على الوحشية. وهي تقدم القصة في شكل أوبرالي يعتمد على الأساطير القديمة التي تعمل على احياء ذكريات الماضي مع اسقاطها على الحاضر

الأجمل من ذلك مسرحيات «العرائس» التي تقدم بعد الظهر وتتخذ سطح ماء البحيرة مسرحا لها. يختفي محركو «العرائس» وراء ستار أسود من خيوط الخيزران وبأعواد البامبو يحركون ممثليهم بينما المتفرجون يستمتعون بالمشاهدة، وهم جلوس على الارض عند جوانب البحيرة. أغلب العرائس مصنوعة من البلاستيك وبعضها من الطين المحروق بحيث يمكن ان يطفو على سطح الماء أثناء العرض. [illegible] لنا مرافقنا ان هذا الفن يمارسه الفيتناميون منذ مئات السنين ويوجد اليوم حوالي ثلاثين مسرحا للعرائس في مختلف أنحاء البلاد

للسينما ايضا ميدان اخر من ميادين الفن الفيتنامي. وقد ذكر لنا المخرج ونحن نشاهد احدى اللقطات التي كان يتم تصويرها في الشارع انه خلال السنوات العشر الماضية أنتجت استوديوهات سينما الدولة ٢٥٠ فيلما. وفي مختلف أنحاء البلاد يوجد أكثر من ألفي دار عرض سينمائي. ولكن أغلب هذه الافلام من النوع الوثائقي. وهي تحكي انتصارات المقاومة على جيوش الغزاة الامرياليين، وتستند في أحيان كثيرة على لقطات حية تم التقاطها أيام الحرب، وبعضها ماخوذ من الأفلام الأجنبية التي اخرجت عن فيتنام. وهي بالفعل وثائق حية لأن أغلبها كان يتم تصويره برؤى محايدة

أمريكا تغرق في الوحل

عندما زرنا «جامعة الطب» في هوشي منه وقفنا نتابع الفتيات الريفيات القادمات من مختلف المدن والقرى، وهن يواصلن التعليم والدراسة بعد أن تركن جانبا عملهن الشاق في حرث الحقول وزراعة الأرز. إنهن بنات الأمهات اللاتي جعلتهن الحرب يتركن مدارسهن ويهجرن أعمالهن اليدوية التي اشتهرن بها، من إنتاج القبعات وحقائب اليد من

قش الخيزران، وينسين نزهاتهن اليومية على شاطيء النهر وتحت أشجار جوز الهند والأماكن الخلوية التي تحيط بمدينتهن. من أجل ان يقفن وراء قوات جبهة التحرير الفيتنامية وقوات فيتنام الشمالية، وهي تقاوم المعتدين الأمريكيين وحكام سايجون وربما ليس من أجل ذلك فقط، بل لأن الأشجار وزهور اللوتس أيضا قد دمرت وماتت، اقتلعتها نيران الحرب، وقتلتها القنابل والمدافع التي لم ترحم ولم تفرق بين جماد وبشر، أو بين شجرة وامرأة. في تلك الأيام اختفت البنات من الشوارع. اختفين بملابسهن الجميلة وزيهن التقليدي الذي يسمى «اوداي» والمنسوج من الحرير المفتوح من الجانبين وتحته سروال من الحرير الأبيض، ليواجهن مع الفلاحين الثائرين هؤلاء الذين جاءوا ينشرون الموت، ويحولون البلاد الى خرائب ويقضون على كل مظاهر الحياة، ويدمرون المباني والبيوت.

حول ذكريات تلك الحرب ضد الأمريكيين حدثنا «هون نجوك آن» رئيس مكتب العلاقات الصحفية في هوشي منه، وكان واحدا من المناضلين في صفوف ثوار الجنوب وقوات التحرير «الفيتكونج»:

- لقد خاض الثوار حربا لا هواده فيها على القوات الأمريكية المعتدية حتى أتموا تحرير أرضهم في الجنوب من الغاصبين الأمريكيين، بعد أن حررها «الفيت منه» في الشمال من الفرنسيين

قضت اتفاقية جنيف التي وقعت في ٢١ يوليو ١٩٥٤ بتقسيم الهند الصينية الى فيتنام ولاوس وكمبوديا وبالنسبة لفيتنام تم تقسيمها بخط عرض ١٧ الى «شماليه» مع زعيمها هوشي منه، وسكانها البالغ عددهم ١٤ مليون نسمة، والى «جنوبية» ومعها زعيمها الكاثوليكي، الألعوبة الأمريكية نجو دينه ديم عدو الشيوعية وخصم البودية، وتحت حكمه ١١ مليونا من السكان.

ومضى هوشي منه يثبت مكانة فيتنام الشمالية واستقلالها بالاصلاح الزراعي، ومضى ديم يثبت مكانة فيتنام الجنوبية بدستور يجعل منه حاكما مطلقا ويجعل من بلاده محمية من محميات الولايات المتحدة وعلى الرغم من أن اتفاقية جنيف قد قضت باستفتاء فيتنام شمالها وجنوبها في مسألة

ثلاثة مشاهد تبرز تمسك الشعب الفيتنامي بتراثه الثقافي (إلى اليمين) مسرح العرائس حيث تقدم مسرحيات الطفل فوق سطح البحيره . (وإلى اليسار) من أعمال اللاك تعرضها العاملة هوين تي أورانج . (وفي الصورة السفلى) ثلاث فتيات يقدمن مشهدا على مسرح الأوبرا لقصة أسطورية تقليدية

ضمهما في دولة واحدة، الا أن دييم رفض أن يكون هناك استفتاء. وبلغة اخرى رفض الامريكيون وبدأت موجات من الصدامات بين قوات حكومة سايجون مع البوذيين الذين احتجوا وتظاهروا. واطلقت الشرطة الرصاص عليهم في الوقت الذي كان الامريكيون قد بدأوا مرحلة جديدة من مراحل تدخلهم، وهي مرحلة الاستعداد للحرب.

قصة الفيتكونج

القصة فيما نكمله سمعنا احداثها في المتحف الوطني في هوشي منه، الذي يحكي بالصور تفاصيل الاحداث ففي ظل حكومة دييم عاد الاقطاع واغتصب حقوق الفلاحين الذين بدأوا يسقطون بالآلاف وهم يحاولون الاحتفاظ بالأرض التي كانت قد اعطيت لهم فلأول مرة في التاريخ يظهر قانون للاصلاح الزراعي من ابتداع دييم يرضي كبار الملاك الاقطاعيين على حساب الفلاحين وتعاونت حملات القمع والارهاب التي نظمتها حكومة سايجون في عملها كل ما عاناه الشعب أثناء الاحتلال الاستعماري الفرنسي.

وخاضت جبهة التحرير الوطنية معارك بغير هوادة على حكومة دييم ومساعديهم الأمريكيين الذين بدأوا يدخلون الحرب بشكل سافر في عام ١٩٦٥ بأوامر من الرئيس ليندون جونسون ثم بأوامر من الرئيس نيكسون ولسقط الامريكيون على مدى عشر سنوات في نفس الوحل الذي سبقهم اليه الفرنسيون.

وسيطرت حكومة هانوي على الجنوب بسقوط حكومة سايجون في ٣٠ أبريل ١٩٧٥ وخلال عام واحد جرى الاستفتاء من أجل وحدة الشمال والجنوب في يوليو ١٩٧٦، وأعلن بنتيجتها وحدة فيتنام في دولة واحدة باسم جمهورية فيتنام الاشتراكية.

لقد أحدثت القنابل والقذائف الامريكية ما يزيد على ١٠ ملايين حفرة، وهي حفر كبيرة عميقة أحدثت آثارا هائلة، كما ضربت شبكات الري في البلاد، وامتلأت بالمياه الجوفية، وأصبحت مستنقعات هائلة تملأ الجو بالبعوض، وفرشت الارض بالأعشاب الضارة التي ماتزال أرض فيتنام متأثرة بها على الرغم من مرور اكثر من عشر سنوات على وضع حد لهذه الحرب المدمرة، مما كان له تأثيره الذي لا يمكن إنكاره في المعاناة الاقتصادية التي يعيشها الناس حتى الآن في البلاد.

السلام والسنوات الصعبة

صعوبة الحياة التي يعانيها الناس في فيتنام ترجع الى المعاناة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، وهي تحاول أن ترفع رأسها خلال السنوات الثلاث عشرة الاخيرة بعد انتهاء الحروب الرهيبة التي قصمت عمر الاخضر واليابس كانت الحكومة تحاول إدارة عجلة الانتاج، سواء الزراعي او الصناعي وكانت الأرض المحروقة المحروثة المليئة بالحفر العميقة لا تستطيع أن تعطي كمية الحاصلات التي تضمن الاكتفاء الذاتي وتنتج ما يمكن البلاد من التصدير في مقابل المساحات الاستيراد ولم تكن هناك مصانع سليمة قائمة إلا ما ندر بعد التدمير تحت وابل القنابل الامريكية الرهيبة، كما ان إنتاجها لا يستطيع ان يحقق المستوى المطلوب بسبب التدني التقني والعلمي لدى العمال، سواء القدامى الذين شغلتهم الحرب عن إمكانية الابداع والتطوير، أو الجدد الذين لم يبدأ تدريبهم وجهدهم العملي إلا مع بداية السلام، بمعدات وآلات مجهدة، يفتقر أغلبها الى قطع الغيار.

وكان لابد من تعويض هذا التدهور الاقتصادي باللجوء الى الديون الخارجية التي يصعب سدادها حتى تجاوزت ٧ آلاف مليون دولار أمريكي. وأمكن حل جزء من المشكلة من خلال تلقي المعونات الاقتصادية والمساعدات الغذائية من الدول المجاورة والبعيدة، بما في ذلك فرنسا وانجلترا وأوروبا الشرقية والغربية، بل حتى من ثلاثي الصين والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.

الآن، وخلال العامين الاخيرين، بدأت بوادر جديدة لسياسة إصلاحية، تمثلت في قرارات الزعيم «فان لينه» القاضية بزيادة مساحة الأراضي الزراعية، وتوزيع أراض إضافية على الفلاحين، وإتاحة الفرصة أمام النشاطات الخاصة والفردية وبعض الملكيات وبدأت الجهود الجديدة في المدن تثمر لتخفيف الحياة الصعبة وحدة البطالة والارتفاع ما أمكن بمستوى الانتاج.

نجيب محفوظ

رحلة الحارة من المعاناة إلى المسرّات

بقلم : الدكتور سليمان الشطي

أخيرا جاء دور العرب للحصول على جائزة نوبل في الأدب . هذه الجائزة التي أرسيت دعائمها منذ بداية هذا القرن ، والتي توزعت على كتّاب من جنسيات وقوميات وشعوب مختلفة استنادا إلى اعتبارات عديدة . وابداع نجيب محفوظ الروائي والقصصي لاشك أنه يتجاوز في قيمته أعمال عشرات ممن منحوا هذه الجائزة قبله ، لكن اعتبارات عديدة كانت

في البدء يحسن أن نستعيد سؤالا قديما تفصلنا عنه سبعة وأربعون عاما ، ففي أغسطس - اب سنة ١٩٣٩ نشرت (المجلة الجديدة) دراسة كان عنوانها . « جائزة نوبل العالمية ، وهل تنالها مصر يوما ؟ » . وفي العدد التالي مباشرة سبتمبر - ايلول من السنة نفسها ، خصصت المجلة عددا كاملا لنشر رواية نجيب محفوظ الاولى « عبث الأقدار » ، فهل هذه كانت مصادفة قدرية ؟

من المؤكد أن تلك المجلة لم تكن تبعثر أمامها الرمال باحثة عن الحظ ، ولكنها خطت أولى خطوات الوصول الى الجائزة باحتضانها هذا الكاتب المبدع المتميز الذي كان وقتها أحد كتابها شبه الدائمين وها نحن ، بعد هذه السنوات ، وقبل أن تكتمل دائرة نصف القرن نشهد كاتبنا وهو يسجل اسمه بين الرواد الذين حفروا مجدهم بأيديهم ، وأهم من هذا كله أن ظفرت المكتبة العربية بأضخم انتاج روائي أهداه أديبنا لها .

ولعل السؤال القديم وجد جوابه أخيرا !

مدخل لجنة الجائزة

إن احتياز الباب الاول للدخول في عالم نجيب محفوظ يمكن أن يبدأ من القمة السامقة التي تواجه فضاء المعرفة حيث الرؤية أشمل وأعظم . ولتأتي من تلك المقومات التي رأت فيها لجنة جائزة نوبل مدخلا لتقول كلمتها وهي تعلن اسمه على دنيا البشر « لقد رأت فيه مطورا للغة في الأدب والثقافة العربية » وأضافت ، مستدركة « ان أعماله تتحدث الى العالم كله ، أما أدبه فمنذ المرحلة التاريخية وهو يومىء الى المجتمع الحديث ، فكانت رواياته مصورة للبيئة الشعبية ، فزقاق المدق مسرح يجمع حشدا متباينا من الشخوص ، أما الثلاثية فقد تناولت أحوال وتقلبات اسرة مصرية ، جامعة بين العناصر الذاتية ، وارتباط تصوير الاشخاص بالظروف والفكرة الاجتماعية والسياسية . وتقدم (أولاد حارتنا) البحث الأولي عن القيم الروحية ، بينما قدمت (ثرثرة فوق النيل) محاورات فنية

ميتافيزيقية على حافة الحقيقة والوهم ويأخذ النص شكل تعليق على المناخ الفكري في البلاد » .

ويشيد البيان بالكاتب الذي نقل عنه . أن الكتابة حياته ، وعند التوقف عنها يكون الموت أمنية له .

إن هذا مدخل أولي يحاول أن يوجز ما يستعصي على الايجاز ، لأن وراء هذا كله رحلة كبرى ، امتدت زمنا فأوشكت أن تلامس الستين عاما . واقتربت من حيث الكم الى الخمسين كتابا ، أما الصفحات فقد دخلت حيز الآلاف ، وشخصيات بالعشرات تحركت على الورق فأصبحت خلقا ينبض ويتحرك ويقول ويوحي .

ليس هذا فقط !

لقد حملت هذه الرحلة معها أمورا ، وقدمت نقلة نوعية ضخمة في مسار الرواية العربية ، فقد أسهم في اعطائها مكانة متميزة وأدخلها في صلب التيار الأدبي العربي المعترف به ، فانتقلت من كونها نشاط هامشي في حياة الأديب ـ وفي أحسن الظروف تكون جانبا من جوانب عدة ـ الى البؤرة لتصبح محور الحياة بأسس كاملة . لقد كتب فن القصة قبله ومعه ادباء كثيرون في مقدمتهم محمد حسين هيكل صاحب رواية (زينب) وكذلك طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور نعيمة والعقاد الذي دخل قصة وحيده . ولكن أحد هؤلاء وأسس تفكيرهم ، لم يكن يشغله تأصيل هذا الفن فهمومهم تتنازعها مجالات أخرى

وحده ، نجيب محفوظ ، الذي نقل الهمّ الروائي من الهامش ليجعله محور حياته كلها ، ولم يكن اختيارا عشوائيا . ولكنه اختيار عقلاني . فقد كان وقتئذ يكتب بعض الدراسات بل يستعد لتقديم رسالته الماجستير في الفلسفة . وفي لحظة صفاء وحسم أنهى كل هذا جانبا وملك شجاعة تحدي الحيرة وتلك المفاصلة هي التي حددت سلوكه وطريقة تعامله مع الحياة من حوله ، لم يكن مغامرا أو متحديا يقف على أرض تعتاد ، ولكنه الوعي الذي أكده بتلك الحياة المنظمة التي عبر ته ، ومكنت اصابعه من أن تخط هذا التراث العظيم

ليس هذا فقط . فالاختيار وحده لا يصنع ادبا أو يخلق التميز . ولكن ومن تحصيل الحاصل أن نقول الموهبة اذا لم تصل الى هذا الاخلاص الواعي لقد تضافرت هذه كلها لتجعل منه المعبر الدقيق عن وجدان هذه الأمة في نصف قرن ، لقد رصد وعايش وشكل تصويره لهذه التغيرات السياسية والأزمات الفكرية والنفسية والقضايا الاجتماعية . لقد كان مؤرخا من نوع خاص ، ولو أراد أحد أن يكوّن صورة واضحة وحيّة عن هذه المرحلة ، واستعرض لهذه الغاية كل الصحف والمجلات وعاد الى السجلات المدونة ، لو فعل هذا لما خرج بفكرة دقيقة لنبض الحياة المتكاملة تساوي ماتقدمه اعمال نجيب محفوظ اقول هذا وفي الذهن تلك الكلمة التي قالها (بلزاك) ذلك الروائي الاول الذي أراد أن يضع بيانا بالرذائل والفضائل لعله يستطيع كتابة التاريخ الذي نسيه كثير من المؤرخين ، « تاريخ الطباع »

لم يكتب نجيب محفوظ « تاريخ الطباع » ، كما كان يريده (بلزاك) ، ولكنه أحسن تجسيده ومزجه بشيء من ذاته . وراقب ما حوله بهدوء وتؤدة ، وكانت هذه المراقبة الفاحصة واقعية متفاعلة ومستحضرة معها تجارب كثيرة مختزنة ، واستطاع أن يتنقل في مراحل تطوره من جسم التاريخ حتى وصل الى روح جزئيات الواقع ، واصلا معها الى مرحلة التأمل لقد صور البيئة ووعى قضاياها ، وتمثل ملامحها البشرية بعد مشاركة صحيحة ، وتمكن بدقته وحساسيته أن يصل الى نقل النكهة الخاصة التي تميز تلك البيئة ، وعندما نقول عبق التاريخ فإن هذا التعبير يصدق على أدبه الذي اذا اقبلنا عليه شعرنا أن هذا المؤلف راقب الطبقة الوسطى مراقبة فاحصة دقيقة ناقدة . فتوغل في قضاياها ورصد مرحلتها وحدد صلاتها وتطلعاتها وأزماتها وسقوطها . وربطها بالحارة التي راح يحدث عنها ، فأدخلنا أزقتها ، وحملنا نصائح شخصياتها ، ونطرب لتعبيراتها ونستطعم فكاهتها ونشاركها همومها وفي الوقت نفسه ، قدم لنا فكرا مستشرفا يرسم ويوحد جزئيات المعالجة واصلا بها الى كلية الفكرة

لاشك أنها كانت رحلة طويلة مضنية ومتعددة في مساراتها ، يصعب أن نحصرها في حيز ضيق من الحديث . ولكن ثمة وجهين يطلان علينا بوضوح يمكن أن تكونا دالة للمجتهد الذي يريد أن يصل الى الخطوط الاولى

الوجه الأول للرحلة :

ان كلمات من نجيب محفوظ نفسه قد تكون أفضل وأصدق مدخل لهذه الرحلة ، نجدها في مفتتح روايته « رحلة ابن فطومة » (١٩٨٣) ، التي يشير فيها الى الحياة والموت ، الحلم واليقظة

ومحطات الروح الحائرة يقطعها مرحلة بعد مرحلة ، ولكن « مهما نبا بي المكانُ فسوف يقطر ألفة ، ويسدي ذكريات لا تنسى ، ويحفر أثره في شغاف القلب باسم الوطن سأعشق ما حييت نفثات العطارين والقباب ، والوجه الصبيح يضيء الزقاق ، وبغال الحكم وأقدام الحفاة ، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب ، . . » . . .

نحن ، اذن ، مع انسان في حالة التجربة ، ومتابعة الجانب النابض بالحياة ، القلق المتألم والدافيء ، مجاورة الواقع والاكتواء به ، التطلع الى الأعلى ولحظة الاطمئنان الممكنة الحدوث ، ويبقى بعد ذلك العشق المستمر الذي حوله معشوقه الى ملموس محسوس .

إن تلمس خطوط هذا النوع من الرحلات والجري وراءها يحتاج الى مرافقتها منذ البداية ، وانها لبداية حديرة بأن ينظر اليها ، ويمعض الغبار عنها لتكون مدخلا أوليا وهاديا . فالبذرة الفكرية بدات معه منذ أن أمسك قلما وأسقط نقطة فوق حرف . ففي تلك اللحظة البعيدة في أوائل الثلاثينيات ، سعى الى الدخول من بوابة المعرفة ، [illegible] الى [illegible] الدراسة العلمية في حقل الفلسفة [illegible] وقد مرس الاثنين [illegible] فكتب لذلك عن [illegible] هو التقاء [illegible] في شعور [illegible] وحده عامة [illegible] الارض وطبقات السماء ، [illegible] والفلسفة ،

[illegible]

[illegible]

ويؤكد هذا المدار ، أو هذا الهم الذي يشغله و مقالتين كتبهما في يناير ومارس ١٩٣٦ في المجلة نفسها ، حيث يستعرض مشكلة السماء ونظرات الفلسفة الاجتماعية والصوفية المناقشة لفكرة الالوهية ، وجاء تعليقه الأخير كاشفاً ومنبئا عن دخيلته وموقفه حينما رأى أن البراهين العقلية - مع حسنها - لا تبلغ بالانسان الى درجة الاعتقاد الحقيقي ، وإنه ، اي نجيب محفوظ ، بعد الاطلاع عليها ظل كما هو أو حيث كان من القلق والاضطراب ، أما الرأي الصوفي فإن الانسان يقف حياله مكتوف الأيدي لأنه حالة لا يشعر بها إلا من يحياها ، ولكن تجربته - أي الصوفي - تشمل الحياة بأسرها ، وهي أعز من أن يجازف بها وستجد ، بعد ذلك ، أن (الحمزاوي) في ختام رواية (الشحاذ) سيغيب تماما في هذا العالم باحثا أو منسالا وراء تجربته ، مضحيا بحياته ، وهو الثمن الذي حدده نجيب محفوظ لهذه المعرفة . ولعل حيرة (كمال) آتية من كونه وقف عند الدليل العقلي

وفي ختام تلك المقالة يؤكد أن الله فوق كل برهان ، ولا دليل ولا حيلة للانسان في الايمان أو الانكار له ، ولكن يبقى ايماننا الطبيعي الذي يجعلنا نقدس ونقدر كل جليل وجميل في النفس والكون

لقد قال نجيب محفوظ هذا سنة ١٩٣٦ ، ليهجر الكتابة المباشرة الى الابداع ، ولكنه كانت [illegible] ترافقه وتسكنه في رحلته . وتندس في خلايا أعماله التي أصبحت ذائعة شائعة . لقد كانت [illegible] أساسية يُفهم من خلالها . بجانب [illegible] الحمزاوي في رواية (أولاد [illegible] والطريق ، وغيرهما ، دون أن [illegible] القصص القصيرة [illegible] الجبلاوي في [illegible] لا نهاية [illegible] . . .

[illegible] والعلم [illegible]

[illegible]

على أول الطريق . أو أنها تصور لحياة آتية في المستقبل . وانما يقدم شهادة وهو على قمة رحلته . ففي رسالة يخاطب فيها الباحث الدكتور محمد حسن عبدالله (مجلة البيان ـ مارس ١٩٧٣) يقول مشخصا رحلته الباحثة عن طريق (إن قلبي يجمع بين التطلع لله والايمان بالعلم والايثار للاشتراكية » . إن هذه الثلاثية التطلع لله والايمان بالعلم وايثار الاشتراكية . تقدم المرتكز الفكري الذي يجهز لنا المفتاح الذهبي للدخول في حيز الفهم الدقيق لاعماله . لقد دار حول هاتين القضيتين الأساسيتين اللتين تحدان حياة الانسان . الأرض بمشكلاتها . وقد جسدتها كل أعماله الواقعية . ونزوع الانسان نحو المطلق . وتجوهرت في أعماله الاخرى . ولا يعني هذا أن هذين متجاوران . ولكنهما متداخلان بشكل لا يمكن الفصل بينهما . ويتحدان أحيانا في النص الواحدة . (سعيد مهران) في (اللص والكلاب) وصابر في (الطريق) على سبيل المثال لا الحصر

إن هذه الهموم جسدها في شخصيات وأحداث . ورصد معها التاريخ المتحرك ولذلك لنا أن نضيف مستشهدين بقول اخر له مؤكد لما سبق قبل أن نتابع الرحلة معه . فقد أكد في حديث له (جريدة المساء ١٩٦٢/١٠/٢١) انه مهتم بالمواطن المحلي والانساني . وتشغله القيم الاجتماعية . وثمة نزوع نحو الميتافيزيقية . ومحاولة التوفيق بين المعنى المطلق والقيم الاجتماعية

إن هاتين الركيزتين يمكنهما تسهيل مهمة النظر في أدب نجيب محفوظ والوصول الى دقائقه . وتصبح الرؤية اليه ليست محصورة في المسار التاريخي الذي سنتحدث عنه في السطور القادمة . ولكن في تمثل الأرضية الفكرية التي سار عليها . واني تجاورت في هذه المراحل كلها . واذا كانت القضية الاجتماعية كانت هي الأبرز والأوضح في الشطر الكبير من مسيرته الفنية وظلت راسخة باقية فيما تلاها . فإن الوجه الآخر والمكمل والمتعلق بالقضية الميتافيزيقية كان متواجدا يتوارى قليلا ولكنه لا يتلاشى . ويطل برأسه حتى وهو غارق في خضم الواقع

الوجه الثاني للرحلة

ثمة تقسيمات معروفة حددها الناظرون في أدب نجيب محفوظ . فميزوا بين محطات ذات خطوط واضحة . وقد جرت العادة على هذا وليس من حاجة لنقضها مادام الحديث ينزع نحو التعريف ورسم الاطار الأولى

وهذه التقسيمات كانت تلاحظ أنه بدأ كتابته الروائية من استيحاء التاريخ . فكانت رواياته · عبث الأقدار ـ رادوبيس ـ كفاح طيبة . وحولها بعض قصص المجموعة الاولى . « همس الجنون » . وهذه الروايات كانت تستحضر التاريخ القديم لتأكيد الشعور الوطني . وتدعو للحرص على الروح العامة . وهذا المنزع لافت للنظر في الرواية الثالثة ـ كفاح طيبة ـ التي ركزت على فكرة تحرير الارض . وهو الهم السياسي الأول في تلك الفترة ـ أواخر الثلاثينيات ـ وكان له صداه الاجتماعي والنفسي . فنجد في هذه الرواية اشارات

واضحة تبدو امامنا عندما نسمع خطاب العزاة وهم يعرضون شروط الاستسلام على المصريين ، فقد قالوا . نحن بيض وانتم سمر ونحن سادة وانتم فلاحون . فالعرش والحكومة والامارة والارض لنا » ويتابع بعد ذلك عرضه لكفاح طيبة حتى يحقق النصر

الواقعية . . . كموضوع واطار

وينتقل من الجو التاريخي الى الواقع في صورته المباشرة ، وتبدأ مرحلة الواقعية موضوعا واطارا ، فقد كانت اولى روايات هذه المرحلة هي (القاهرة الجديدة) (١٩٤٥) ، تقدم المقابل الحديث للعالم القديم ، فالتسمية ليست فقط عنوانا لهذه الرواية وحدها ، ولكنها دالة على المرحلة الجديدة ، فالمدينة الكبيرة كانت ميدانا لرواياته الاخرى خان الخليلي ، زقاق المدق ـ بداية ونهاية ـ ويكتمل العقد ، بالعمل الضخم (الثلاثية)

قدمت (القاهرة الجديدة) ثلاثة من الجيل الجديد ، وهم ايضا من الطبقة الوسطى التي أخذت تحث لها عن طريق ، وهم لا يواجهون المحتل فقط ولكنهم يقدمون طبقة اجتماعية ازاء طبقة ويحملون معهم فكرة النضال الاجتماعي والسياسي . فتواجه المتقابلون فكرا ، الاشتراكي والاسلامي ـ ومن حولهم نلمح المتساقطين بحكم الوضع الاجتماعي المعقد محجوب عبد الدايم ، والفتاة احسان ، ومعهم كذلك الذين تتذبذب مع قيمهم . إن هذه النماذج وهذه الهندسية في ترتيب الاحداث ورسم الشخصيات ثم وضعها في أتون الواقع ستكون ركيزته التي سيعتمد عليها وهو يقدم أوسع وأعمق تجربة في الرواية العربية .

في « خان الخليلي » (١٩٤٦) ، يركز عدسة الرؤية مختارا من المدينة الكبيرة أحد أشهر احيائها القديمة ، ومن نماذجها أحمد عاكف ابن الطبقة الوسطى ، الموظف الذي سحقه واقع المدينة الكبرى ، فلاذ بالحي الشعبي ، وهناك يتحرك فيه من جديد نبض الحياة من خلال حبه للفتاة نوال ، ولكن انطوائيته تجعله لا يخرج عن حيز السلبية ، وتكون النتيجة أنه تاه في وهم قراءة لا فائدة منها تماما كما أن اعتكافه وانطوائيته أضاعا عمره

واذا كانت سلبيته وانحساره واستسلامه للضغوط غالبة عليه فان نغمة اليأس والموت تخطت جو الرواية بينما كان ايقاع الحرب العالمية يمثل اطارا لها .

تقدم رواية (بداية ونهاية) ١٩٤٩ حلقة من حلقات معالجة الواقع وتشخيص علله وأمراضه فنحن مع مأساة أسرة كامل أفندي الموطف الذي مات فجأة وترك اسرته لتخوض معركتها منفردة في هذه المدينة الكبيرة ولم يؤمن لها شيئا يساعدها على الاستمرار ، وتبدأ بداية ونهاية هذه الأسرة من خلال اتجاهين متناقضين ، هبوط وارتفاع في واحد ، كانت الأم وابناؤها يصارعون للبقاء على وجه الأرض ، وبينما كان الابن الاصغر يرتفع الى الاعلى ، كان الأخ الاكبر والأخت ينحدران الى قاع الاجرام والرذيلة ، لقد كان الضابط اللامع يدينا ببدلته الرسمية لمومس وتاجر مخدرات .

بدايتها موت ونهايتها انتحار : ولكن لماذا ؟ ان المقدمة المنطقية تؤدي الى هذه النتيجة ، فمجتمع مثل هذا خليق بالنقد والتعرية ، وهذا الجانب المأساوي اشارة للخطر يرفعها المؤلف محذرا ، لذلك حق لنا أن نؤمن على تشخيصه لأدوائه حينما اشار الى أنه ناقد للطبقة الوسطى ووسائلها ، مؤكدا أن الفرد الضائع لا يصنع مجتمعا متماسكا ، والواقع البشع والفقر يقودان الى الهاوية ، فهو يريد أن يضع اليد على الجرح ، ويدعو الى صمان الحياة الشريفة حتى لا يكون السقوط مصيرا محتما

ضاق المكان واتسعت الرؤية

وفي (زقاق المدق) ١٩٤٧ تبرز لنا الطبقة الشعبية ، يلقي نظرة على مجتمع زقاق كامل ، لقد ضاق المكان واتسعت الرؤية وكبرت دائرة الشخصيات لتشمل سكان هذا الزقاق الذي كاد يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها

لتبع هذا احكام سيطرته على ما حوله .

وفي « قصر الشوق » متابعة للجيل الثاني ، حيث تبرز شخصية الأبناء بوضوح وخاصة كمال ، إنه جيل متوتر وقلق لا يملك الثبات والتوازن الذي تحلى به الجيل السابق . فكمال يغوص في دروب الفكر والعاطفة ويظل حاضعا لحيرته التي عكست لنا مراحل الانفعال الحادة

ويأتي الثبات والوضوح ، أو على الاقل تبرز بعض الطرق الواضحة مع الجيل الثالث في (السكرية) ، لقد تحرر هذا الجيل من سيطرة الماضي ، وتجاوز القلق الفكري والتذبذب الاجتماعي ، ومنه يخرج الجيل السياسي في المسارين الأساسيين الديني والاجتماعي

إن ثمة مستوى آخر لهذه المتابعة ، فالرابطة واضحة بين الأحداث ، التي تمر بالأسرة وخارجها . فالرواية تابعت احداث المجتمع العامة ، وأقامت موازاة دقيقة بين الاثنين ، وأهم من هذا أنها عمقت تلك الرابطة العاطفية الجامعة بين الاثنين ، والكاتب كان يعتمد في اثراء هذه الرابطة على المحصول الثقافي والمعايشة الممكنة لحوادث هذا التاريخ الحديث ، وأقام رابطة حميمة بين أحداث الرواية الداخلية والخاصة ، ومعاناة الشخصيات والتطورات من حولها . نلمس هذا من اهتمام الأب بمتابعة الاحداث السياسية ، وهذه المتابعة كانت تشغل حيزا من حياته ولكنها لا تستغرقها ، وأول حديث بينه وزوجته يشير الى كابوس الاحتلال ومضايقة الجنود له ، ولكن هذه النظرة الهامشية يقف بجانبها تلهف الابن فهمي الذي سيكون ضحية بعد ذلك،وتأملات كمال في النفس الثاني تعطي وتتفاعل مع الحركة العامة . ولكننا نجد أن الجيل الثالث لا يكتفي بالمشاهدة او التعاطف او المعاناة النفسية ، إنه يصنع الاحداث السياسية

إن الثلاثية عالم زاخر لا يُلخص ولكنه يُعايش ، ولا يشار اليه ولكن يحتاج الى الاقتراب منه ، والاحساس المباشر بما تحمله أو تقدمه لنا ، فعظمتها تأتي وتتضح من تكامل تلك الجزئيات الكثيرة جدا والدالة ، فالحركة السياسية والاجتماعية والعاطفية تعاضدت لترتبط بالقضايا الكلية بالحياة والموت ، بالزمن وتقلباته وحركته ، الصعود بالهبوط ، الخيبة بالنجاح ، الضياع بالامل ، إنها حياة تتحرك وتمشي وتؤثر .

كانت الثلاثية تاريخا في الرواية والرواية أصبحت تاريخا .

نقلة جديدة :

إن انجاز عمل مثل هذا كان يستدعي التوقف ؟ ويستحث على الصمت والتأمل ، وخاصة بعد أن تغيرت طبيعة الحياة السياسية مع ثورة ١٩٥٢ وكانت تلك الروايات معنية بالحياة الممتدة ما بين الحربين ، وآثار الحرب الاخيرة على مصر . وقد أعقب هذا كله واقع جديد يتطلب تفهما ومواكبة ، بل وطريقة جديدة .

وهذا ما حدث فعلا ، فبعد صمت بدأت الانطلاقة التالية التي لم تتوقف الى يومنا هذا ، وفيها دفع الى السطح الجانب الآخر المكمل للقضية العامة التي ظلت ترافقه وتساكنه ، فإذا كانت الروايات السابقة قد طرحت الموضوع الاجتماعي فإن ما لحقها يستكمله بالمشكلة الميتافيزيقية ، ان الفكر الذي تشكل مع دارس الفلسفة يبرز بوضوح ممتزجا ومقدما وجها من وجوه الصراع الانساني .

إن رواية « أولاد حارتنا » ١٩٥٩ التي اشارت اليها لجنة جائزة نوبل في بعض حيثياتها مثلت انعطافة في طريقة المعالجة ، وفي الزاوية التي التقطها الكاتب فتكون محلا لروايته ، لقد عاد مرة اخرى الى التاريخ ولكنه تجاوز الجو المعهود للروايات التاريخية ، لقد التقط رؤية التاريخ والمساحة الكبيرة التي تمنحها له ومزجها بنكهة الواقع . فاستعار جو الحارة جاعلا منها مستودعا واطارا لمستوى العرض التاريخي . ان قارىء الرواية يحس أن زمنها ليس حاضرا ، ولكنه ايضا ليس ماضيا مفصولا عنا ، فهو لم يغادر أو يبتعد عن دنيا الحارة الماثلة أمامنا ، على الأقل في ماضيها

لقد ... حد ... وا ... لوقت نفسه حولت هذه الحرب ... نفسه ... مكانا غير مقيد جهة معينة

وحده ... حيث محفوظ الحارة الى هذا المستوى ... تمكن من تقديم رؤيته لنا لتتابع ... من خلال ممثل التاريخ الديني . ... بمعاندة . سدمج في الختام ، حيث ... القيم العليا نهضة العلم ... حدث

... الساكن في لبيت نكر هو ... الذي يريد له هذه الحارة . وانسانية ... لادارة ... الا ان ... لا عا ... ولكن ... الحكمة ... ولذلك ... الرواية ... هؤلاء كان ... معادلة ... الا اذا ... ذات ... كانت ... رفاعة الذي ... الى اصلاح النفس ... القيم المنفردة ... للتحاور لا حقة عالما ناصعا متفاعلا . لذلك ... فاسم ، ثالث الثلاثة ، يحمل معه فكرة التكامل او النظرة الشاملة الجامعة بين ... وحولها

لقد كان الثلاثة يتداولون وينتهون عند الجبلاوي ، لأنهم كانوا يسعون الى (غاية ، هي ترسيخ القيم العليا ، اما رابع ابناء هذه الحارة فهو يبدأ بداية مختلفة ، إن (عرفه) الذي حمل معه فكرة (العلم) أراد أن يقدم لنا (الوسيلة) التي اذا ملكها أهل هذه الحارة (الدنيا) ، سعدوا ، لقد أراد أن يجعل كل الناس سحرة (علماء) ، ورغب في القضاء على كل الطقوس والخرافات .

والتخلص من ذلك الحلم المتعلق بالجبلاوي أحد الخوانب التي حاولها ويقتحم المنزل الكبير رغبة في معرفة الوصية ، وتكون النتيجة اعلان موت الجبلاوي

ان رضى الجبلاوي كان يمثل مرحلة ختام كل جهد يبذله ابناء الحارة المتميزون وحتى (عرفه لدى اتهم بانه قاتل الجبلاوي يحظى بهذا فقد قالت له الخادمة ان جده مات وهو راض عنه

لقد حاول نجيب محفوظ في هذه الرواية الكبيرة ان يجسد هذه الرحلة الشاقة التي خاضتها البشرية ، وهي لم تكن رحلة تتحدث عن الماضي ، لأن الحوار حول القيم والعلم أصيل من صوت الثقافة المعاصرة . لقد جسد بصورة من خلال هذه القصة . وكانت المأساة الكبرى ان الانسان الحديث قد خرج بمشكلة كبرى ، هي تلك التي سيمثلها ويتابعها بنضج في اعماله التالية ، نلاحظه في بعد ... (دنيا الله) ، (زعبلاوي) ويجوهر ... لبحث في رواية (الطريق) فبطلها صابر مثله معنى بالعثور على والده سيد سيد الرحيمي ، هو لفكرة السامية التي ستنقذه من قاع الحرية ، والجبلاوي في (الشحاذ) تستبد به لحظة استنقاط ... باحثا عن معنى فيوصله بحثه الى غيبوبة التصوف . وكان سعيد مهران في (اللص والكلاب) واحدا من الذين افتقدوا اطراد القيم العليا في الحياة

واقعية جديدة

ان ... ور وسيطرة (الفكرة) وجوهرها لتكون المحور الأساسي في هذه المرحلة اثره الواضح على طبيعة التناول الفني . فقد دخلت في واقعيته سمات جديدة تعتمد على الرمز والاختزال وحذف التفاصيل الدقيقة مع الالحاح على جانب واحد في الشخصية ، وجعلها مسيطرة على الجو العام ، فسعيد مهران ، مثلا ، هو الأبرز والأوضح ، تلاصقنا شخصيته الداخلية ، ليس فقط لأن البطل هو الذي يرويها لنا ، أو لأننا نرى بعينه ، ولكن كل شيء تلون بلونه ، الكلمات والعبارات

والعصور . كلها تدل على سمة واحدة . عالمها الداخلي وموقفه مما حوله . وأصبحت الفكرة واحزانها [illegible] ولنا هنا [illegible] شخصية [illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible] الأشياء [illegible] [illegible]

[illegible] من شخص واحد [illegible] واحد منهم . ثم [illegible] حالتها الواحد [illegible] الشخص [illegible] من وجهه [illegible] [illegible] مع الحياة سلوكا ومعاناة ورؤية

ان هذه هي الواقعية الجديدة التي أدركت تلقيه الفكر عند الشخصية الانسانية [illegible] توحدا أو [illegible] لآخرين فقد [illegible] هذه الواقعية التيارات الأدبية الحديثة . و[illegible] لواقع بالرمز واستخدمت اللغة التعبيرية . تلك اللغة التي تصل الى حد الصوفية وتكررت شخصياتها ولغتها في عدد من اعمال هذه المرحلة (كالجنيدي) في (اللص والكلاب)

انقطاع السلسلة !

وقدر لهذه المرحلة المتماسكة أن تنقطع سلسلتها . ففي سنة ١٩٦٧ اهتزت الأمة كلها . فمن الطبيعي أن يهتز معها هذا الخط المتصاعد . فالنكسة . وفي يوم واحد . عزلت عالمين عن بعضهما . وكان من البديهي ان يصل هذا الى نجيب محفوظ . فاذا كانت الحروب العالمية حين حطمت التماسك العقلي قد افسحت المجال لتهشيم البنية الفنية الواضحة وضوح المنطق العقلي . فان أدب نجيب محفوظ لا يخرج عن هذه القاعدة . فالأعمال التي أعقبت النكسة . وخاصة المجموعات القصصية (تحت المظلة) و (حكاية بلا بداية ولا نهاية) و (شهر العسل) . جاءت لتقدم لنا عالما محددا . اللغة واضحة . ولكنها غير مفهومة . إنه قد يعود الى بعض قضاياه الاجتماعية والفكرية السابقة . ولكن من خلال هذا العالم المربك . لقد اختفت عبارات الشرح والتعليق وحل محلها الحوار . بل وصل فيها الى كتابة الشكل المسرحي . وكأن المؤلف يشعرنا أن حاجة ملحة تدعو الى المكاشفة .

ولعل اهم ما تميز هذه المرحلة أنه قدم فيها قمته الثالثة (ملحمة الحرافيش) ١٩٧٧ إنها عودة الى جو الحارة الممتزج بالتاريخ يطل علينا من جديد بعد (اولاد حارتنا) ولكن من منظور آخر . تلاقي بعض الخطوط . فالخلاوي في الأولى تقابله في الثانية عاشور الناجي . الأول يتصل بالفكرة السماوية والثاني جاء من العدم . لتبيط سور المجد . إن التساؤل الذي تصدر رواية (اولاد حارتنا) يحدد مسار المشكلة . فالاشارة دائما الى (الوقف) الخاص بالأبناء . إن البيت الكبير كما يقولون هو بيت جدهم وجميعهم من صلبه وهم مستحقون اوقافه . فلماذا نجوع وكيف نضام ؟

والروايتان تحكيان قصة الأبناء الذين تشتت بهم السبل . واذا كانت الأولى نلمح فيها بوضوح تطور الفكرة الدينية . فان الثانية تستكمل هذا مركزة على تقلبات الانسان في الحياة . وصراعه مع القوة والبطش . وتطلعه الى العدل والسعادة معتمدا في هذا على افكاره النابعة منه :

براءة الاطفال وطموح الملائكة

هذه أطراف من رحلة عظيمة . تتابعت مراحلها التي نجد من اللازم التأكيد على أنها لم تكن حلقات تتواصل فيما بينها تواصل تلامس أو مجاورةٍ أو أن بعضها يُسلم الى الآخر . ولكنها تتداخل وتتمازج لأنها خصائص وتوجيهات بدأت معه ونمت ونضجت فقدمت لنا نظرة شاملة ومتكاملة .

ولا نجد في الختام تحية مناسبة نسوقها اليه خيرا من كلماته التي ختم بها روايته الحرافيش .

« وانتفض ناهضاً ثملاً بالالهام والقدرة . فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة » .

وأظنه قد انفتح !□

الصعلكة والهمبتة تشابه واختلاف!

بقلم . مبارك الصادق

حروج عن الجماعة ومألوفها ظاهرة معروفة في المجتمعات كافة ، لكن مجتمع الجزيرة العربية تميز بظاهرة الصعاليك المتمردين على نمط حياة قبائلهم ، وكانوا ينشدون بعض العدل الاجتماعي المفتقد بأخذهم من الغني لمساعدة الفقير ، وكان منهم الموهوبون في صياغة الشعر الجيد الذي خلدهم في التاريخ . والهمبتة ظاهرة سودانية تشبه الصعلكة في تمردها وخصائصها ، وحبها للشعر .

الهمباتة هم جماعة من البدو كانت تمارس السلب والنهب في بوادي السودان ، وعلى وجه الخصوص في باديتي كردفان بأواسط غرب السودان . والبطانة التي تمتد من أواسط السودان حتى نهر العطبرة شمالا . وشرقا حتى الأصقاع المتاخمة لحدود السودان مع أثيوبيا .

وكردفان والبطانة هما منطقتان ممرعتان واسعتان ، تقطنهما قبائل عربية مختلفة ، تتخذ من الرعي وتربية الماشية أسلوبا لحياتها ، ولا يقيمون وزنا كبيرا للزراعة ، حيث انهم يحصلون على ما يحتاجون اليه من حاصلات زراعية عن طريق الشراء .

وإذا ما أجبرت الظروف بعضهم على امتهان الزراعة فإنهم سرعان ما يملونها ويتركونها غير آسفين ، ذلك أنهم يرون أن العمل في الحرث والبذر أمر غير مجد ، فيما الماشية ترعى الكلأ في السهول المنبسطة ، وتعطي عائدها من أوبار وألبان ودهون ،

فضلا عن نموها وتكاثرها ، وبالجملة فإن الماشية هي أساس الثروة البدوية ، ولهذا يستهجنون الزراعة وامتهانها . وفي هذا المعنى قال أحد شعراء الهمباتة :

عقدنا الشوره صدرْ القوز قصاد القاعهْ
نبكره النملنيها الطلقة والطبّاعه
شن عينتن فيها وسيبك من هموة وزراعه

ن .ننا تشاورنا بجوار القاعة « مكان بعينه » ، رو د .رنا على « البكار » الابل الموسومة « بالطلقة ر نضعة » أوساه قبائل معروفة . فهي أسلوب معيشتنا ومالنا والزراعة وهمومها ؟؟

أصل التسمية

شهد همباتة يعرفها « قاموس للهجة العامية في السودان » لمؤلفه د . عون الشريف قاسم بقوله :

همبتة طريقة في الحياة ، تقوم على سلب أموال الاغنياء ، كما كان يفعل صعاليك العرب . ومفردها همباتي ، والجماعة همباتة . وهي تطلق على من يتخذ منه الحرفة ، وخاصة سرقة الجمال . وهناك قبائل في وسط السودان وفي غربه مشهورة في وصف همبته . ولعل اللفظة من نهب قلبت من جهبته الى همباته ، أو لعلها من كلمة الهمتة العربية الفصحى وهي الأمر الشديد والداهية »

والى جانب كلمة همبتة وهمباتي فإن هنالك مسميات اخرى للجماعة نفسها ، تختلف من إقليم الى آخر ، فاصل كلمة همباتة مثلا من غرب السودان ، وفي البطانة علاوة على استعمالهم للفظة همباتي فإنهم يستعملون أيضا كلمة (المهاجرة) . وفي القاموس نفسه المشار إليه آنفا يجيء تعريفها :

المهاجرة أو المهاجراوي والمهاجراوي هو الذي يهاجر طلبا للسلب والنهب . كذلك يطلقون عليهم لفظة « السُّراجة » وهم لصوص الابل ، لأنهم يركبون السرج دائما . ويقولون عنهم « السروجية » . واللفظ مشتق من السرج وهو الرحل . قالت المغنية الحمرية (من قبائل حمر) :

نباري السّرّاجة
كانْ مُتْ مِشْ حاجة

وأخيرا يطلقون عليهم لفظة « النهاض » ، ومصدرها « النهض » أي القيام لسفر أو لغارة .

خلاصة القول أن هنالك أسماء شتى لجماعة واحدة وبفعل واحد هو سلب الابل ونهبها ، فتارة يطلقون عليهم الهمباتة ، وتارة المهاجرة ، واخرى السراجة أو النهاض ، على أن أشهر تلك الألفاظ دون شك هو لفظ الهمباتة . ولعل لأجهزة الإعلام الضلع الأكبر في ذلك ، لأنها درجت على استعمال ذلك اللفظ دون غيره .

الصعلكة والصعاليك :

إن تاريخنا العربي يعص ويمتلىء بحكايات الصعاليك والشطار والزعار والدعار ، على ان حديثنا هنا سوف يكون مقصورا بشكل خاص على طائفة الصعاليك التي ظهرت في المجتمع العربي الجاهلي ، لما نراه من أواصر ووشائج تجمع بينهم وبين جماعة الهمباتة ، وذلك لتشابه الظروف الموضوعية ، والبواعث التي أدت الى نشوء تلك الجماعات ، سواء كانت تلك الظروف والبواعث بيئية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها . صحيح ان الدوافع قد تكون مختلفة متباينة في كثير من الحالات بين جماعة واخرى ، إلا أنه في النهاية تبقى ثمة اصرة قوية تربط بين الجماعتين ، وهي أنها تتخذان من السلب والنهب دون غيره وسيلة لحياتها .

والصعلكة في مفهومها اللغوي كما يرى د . يوسف خليف أنها « الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ، ويظهره ضامرا هزيلا بين الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمّنهم » ، كما يرى د . يوسف خليف أيضا أن الصعاليك :

(هم أولئك المغيرون ، أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة ، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والهدوء) .

نخلص الى أن الجماعتين تعتمدان على السلب

والنهب والإغارة على الآخرين ، وسلب مالهم ، وتلك وسيلتهم الوحيدة لكسب العيش

البيئة

إن البيئة البدوية في الجزيرة العربية عرفت بتقلب مناخها ، وبالتناقض الضدي الذي يكتنفها ، من حر وقر ، وجفاف وخضرة

فبادية شبه جزيرة العرب شديدة الحرارة ، شديدة البرودة ، شديدة الجفاف ، كثيرة الخضرة ، والماء فيها كثير جدا وقليل جدا ، كما أن عيشها رغد جدا وشظف جدا

وهذه صفات بوادي السودان المختلفة ، سواء كانت في سهل البطانة أو بادية كردفان ، ولهذا وجد العرب النازحون الى الديار السودانية هذا التطابق في البيئتين ، فطاب لهم المكان .

من هنا يبدو أن ثمة تطابقا في الظروف المناخية بين بادية السودان حيث نشوء الهمباتة وبين بادية شبه الجزيرة العربية مكان نشوء ظاهرة الصعلكة والصعاليك ، أي أن مسرح الأحداث في الحالتين هو البادية بظروفها الرعوية وبعدها عن الحضر ، ووعورة دروبها ومسالكها ، وترامي أطرافها ،

وسهولها الشاسعة . ولما توفره من فرص الابتعاد والتوغل والتنائي عن موقع الحدث ومكان الخطر ، حتى يتم تأمين المسلوب والمنهوب بعيدا عن طلبة الفزع الساعي وراءه .

البواعث والأسباب

ينقسم المجتمع العربي الجاهلي الى وحدات قبلية مختلفة ، وقد وفد العرب الى السودان وهم يحتفظون بنفس تلك الوحدة القبلية العشائرية التي تربط بين الفرد وبين القبيلة .

ولكي يظل ذلك الشخص يتمتع بدفء العشيرة وينعم ببسط حمايتها عليه فإنه ينبغي والحالة كذلك ألا يخرج عن أعرافها وتقاليدها ، وبما أن الهمبتة كما جاء في تعريفها هي « طريقة في الحياة تقوم على السلب والنهب » فما هو موقف القبيلة من تلك العملية ، وما هي نظرتها للهمباتي ؟

الواقع أن الهمبتة اعتبرت في المجتمع البدوي السوداني ضربا من ضروب الشجاعة والفروسية ، وقوة الشكيمة والجسارة ، وأن من لا يمارس الهمبتة لا يعد فارسا ، وفي بعض المجتمعات القبلية في البادية كانت الهمبتة هي السلوك الذي يبرهن به الفرد على بلوغه قدر الرجال .

ولهذا تنظر القبيلة العربية في السودان للهمباتي نظرة إعجاب وتقدير ، وترى فيه بطلها المغوار وفارسها الذي لا يشق له غبار . وهذا على نقيض نظرة القبيلة العربية في العصر الجاهلي للصعلوك الذي هو في الأصل ليس في حالة تصالح مع الهيئة الاجتماعية والسياسية ، بل من المتمردين عليها والخارجين على أعرافها ، ولهذا خلعتهم قبائلهم وتخلت عنهم

وبما أن الصعلكة هي الفقر وضيق ذات اليد فقد ظل الدافع المادي والاقتصادي هو أحد الدوافع المحركة للسلب والنهب ، سواء كان بالنسبة للصعاليك أو الهمباتة .

كما أن هنالك عوامل أخرى ، منها البطولة وحب المغامرة ، والخروج على رتابة الحياة الرعوية

الماشية أو المال ، كما أنهم لا يسلبون (الزاملة أو الهاملة) ، أي الجمل الوحيد لدى صاحبه ، أو الجمال السارحة بعيدا عن صاحبها (هاملة) . ولاقتصارهم على نهب الابل وحدها أسبابه الموضوعية ، حيث أن الابل هي الأغلى ثمنا ، والأشد قوة وتحملا ، والأقدر على قطع المسافات الطويلة دون كلل ، وهي الوسيلة الوحيدة للابتعاد بالمسلوب والمنهوب عن « الفزع » في طلبته . فيما لا يجعل صعاليك الجاهليات نهبهم وقفا على الابل ، بل كانوا يسلبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وينهبون كل من تقوده ظروفه الى مواقع ترصدهم .

الشجاعة

مما ورد عن الصعاليك أنهم يسلبون وينهبون عنوة واقتدارا ، ويفخرون بقوتهم وشجاعتهم . وقد سئل قديما أحدهم : أتسرق بالنهار ؟؟ فرد بقوله

« معاذ الله أن أسرق بليل . ولكني أحاهر بالنهار »

ولعله يرى أن سرقة الليل لصوصية وجبن ، فهو إذن يهب في وضح النهار ، وعلى رءوس الأشهاد ، معتمداً على قوة زنده ، وشجاعة قلبه . وكذلك الهمباتي الذي قلنا عنه لا يهب إلا الابل التي يحرص عليها أصحابها ، ويضربون عليها سياجا قويا ، ويبنون لها حظائر من أغصان الشوك التي يصعب اختراقها إلا بمشقة ، والحظائر عادة محروسة بأصحابها وأعوانهم

والحظيرة أو « الزريبة » كما يطلقون عليها تبنى بشكل دائري ، ويكون لها مدخل واحد ، يسد بشجرة كبيرة تسمى الكبرة . قال الطيب ودضحوية

وازمنْ هجْري يا امْ شلاّخ بَنوكْ في العَبْره
لَمّا انظر السادراتْ ضربْ لي جَبْره
ولا السيدها في الدنْدر مقوى الكبْره

الشعر

لعل مما يلاحظ بالنسبة للصعاليك أو الهمباتة أنهم إما أن يكونوا شعراء وإما أن يكونوا من الحفظة الرواة لأشعار غيرهم .

ومن خصائص شعر الصعاليك أنه جاء ترجمانا لحياتهم ، وما أحاط بتلك الحياة من قلق وعدم استقرار ، وجاء نفثة لما في صدورهم من معاناة وضيق من حياة العوز والمسغبة ، كما جاء معبرا عن التمرد والخروج عن الأعراف . ومن خواصه كذلك أنه جاء قصيراً مبتوراً خال من التطويل ، والمقدمات الطللية ، والتشبيب وكل صنوف الشعر السائد حينذاك .

وقد علل بعضهم أن أسباب ذلك هو طبيعة الحياة التي يعيشها الصعاليك ، تلك الحياة التي تنحو نحو السرعة والاختلاس ، وتفتقر الى التأني والانتظار ، ومن الطبيعي أن تنميق الشعر وتزويقه بحاجة الى وقت ، وبحاجة الى نظر وتمعن ويمكن القول انهم إنما كتبوا بتلك الطريقة بوعي وتصميم ، إمعانا في الخروج والتمرد على كل ما هو سائد ، وبنفس مستوى خروجهم على القبيلة . وكل ما ذكرناه لا يتعارض مع قول د . يوسف خليف الذي يرى فيهم أنهم (رواة القصة الشعرية في الأدب العربي)

كذلك فيما يتعلق بشعر الهمباتة فإنه يلاحظ خلوه من النمط السائد حينذاك في بوادي السودان ، مثل المسادير الطويلة ، والمسدار هو القصيدة الطويلة التي يصف فيها الشاعر رحلته في الزمان والمكان لديار المحبوبة ، ويجنح للتطويل ، ووصف كل معاناته وما يلاقيه في سبيل الوصول الى ديار المحبوبة ، كما في قصائد الشاعر البدوي الفحل (الحاردلو) .

لقد اقتصر شعر الهمباتة على الدوبيت والرباعيات ، ومع ذلك كان يعبر عن حياتهم تعبيرا صادقا أمينا ، يتحدثون فيه بصدق عن نجاحاتهم واخفاقاتهم دون مداراة أو خوف .

وإجمالا ، ذلك ما عنّ لنا الوقوف عنده من ملامح الشبه والاختلاف بين الصعلكة والهمبتة . وغني عن القول ان المجموعتين لم يعد لهما وجود في حياتنا المعاصرة ، وإن كانت سيرتاهما ستظلان باقيتين بما خلفتاه في المجتمع من أثر وقيم وأدب جدير بالدراسة والبحث □

النفايات السامة والصفقات المشبوهة

بقلم : الدكتور سمير رضوان

تستثمر شركات غربية - عاملة في مجال تخزين النفايات السامة - فقر بعض دول العالم الثالث ، فتعقد معها صفقات مشبوهة ، تستقبل الدول الفقيرة بمقتضاها النفايات في مقابل ترضية مادية متواضعة.ولن تقتصر المخاطر الناجمة عن هذه السياسة القصيرة النظر على الدول الفقيرة ، بل سوف تشمل كوكب الأرض برمته .

تواترت الأنباء في الشهور الأخيرة عن فضائح تتعلق بتخزين النفايات الخاصة في بعض دول العالم الثالث . ولهذه الفضائح جذور تمتد إلى سنوات مضت فعلى سبيل المثال كانت الصحف الغربية قد أوردت في منتصف السبعينيات أخبارا مفادها أن الرئيس المصرى - في ذلك الوقت - أبدى استعداده لتخزين نفايات الغرب المشعة في الصحارى المصرية ولاشك أن الرئيس السابق كان يسعى من وراء ذلك لكسب تعاطف العالم الغربي - وهو مقبل على مفاوضات صعبة مع الجانب « الاسرائيلي » ، ولا يعلم إلا الله مدى جديته في هذا العرض . على أن هذه الأخبار أثارت الرأي العام المصري في ذلك الوقت ، فلم يكرر الرئيس المصري عرضه بعد ذلك قط .
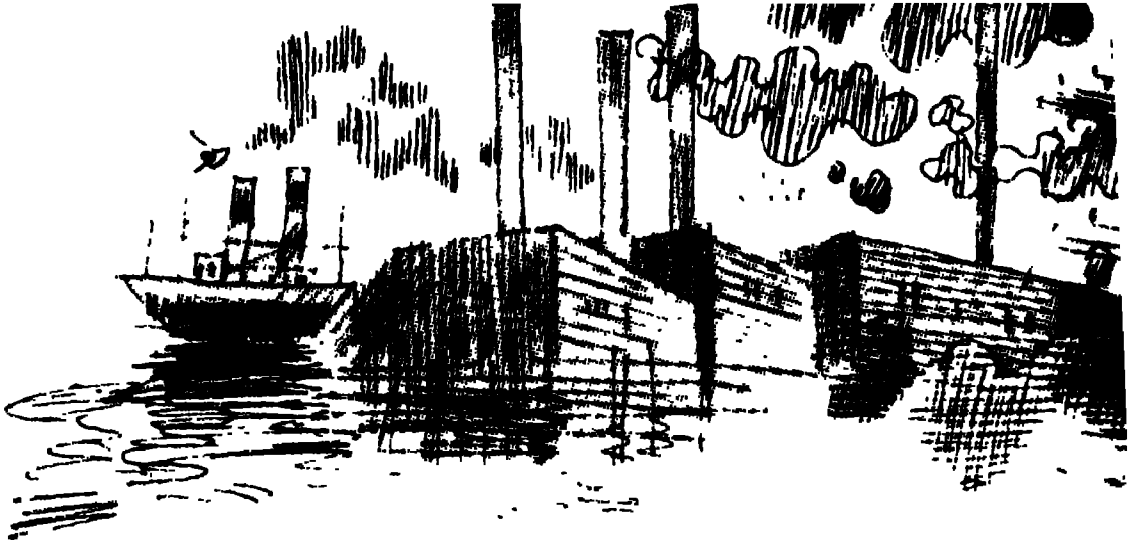
حجم النفايات الخاصة في تزايد

لقد أردت بالاشارة إلى وقائع السبعينيات أن أدلل على أن مشكلة تسريب النفايات الخاصة في الدول الغنية ليست « بنت الساعة ». لقد نمت هذه المشكلة وشبّت في كنف التقدم الصناعي الجبار الذي تحقق في العقود الأخيرة. وإذا أردت أن نعرف حجم النفايات في دولة ما فما عليك إلا أن تستعلم عن مدى التقدم الصناعي فيها. ولقد أصبح حجم النفايات في الدول الصناعية الغنية يؤرق الحكام والمحكومين فيها على حد سواء، ويتردد التساؤل باستمرار: إلى أين بكل هذا الكم الهائل من النفايات ؟ وأصبحت تعقد حول هذه المشكلة صفقات ومزايدات ومضاربات دولية. هناك اتفاق مبرم بين حكومة المانيا الغربية والحكومة الفرنسية يقضي بأن تجمع الدولتان نفاياتهما المشعة معا لخزنها في إحداهما لفترة زمنية، تنقل النفايات بعدها إلى دولة أخرى. وقد ظلت النفايات المشعة حتى اليوم مخزونة في الأراضي الفرنسية. وكلما حان موعد نقلها للأراضي الالمانية نشطت سوق المساومة بينهما، وفي كل مرة ترضى المانيا بدفع ترضية مالية أكبر من سابقتها مقابل أن تبقى النفايات في الأراضي الفرنسية. وقد دخل الاتحاد السوفيتي مؤخرا في هذه المضاربة، وقدم عرضا للحكومة الالمانية في شهر أغسطس الماضي باستعداده لخزن النفايات الالمانية المشعة مقابل ترضية مالية. ومازال هذا العرض محل دراسة في المانيا

النفايات الخاصة تعبير حديث، يستعمله المعنيون بالبيئة، ويقصدون ضربا من النفايات على جانب كبير من الخطورة وهي تكتسب خصوصيتها من صفتين أساسيتين أولاهما أنها تستعصي على التحلل البيولوجي، أو هي تتحلل ببطء شديد، فتتراكم في البيئة يوما بعد يوم. وثانيتهما أنها مواد ذات سمية عالية، تفضي إلى الأمراض والموت إذا تسربت إلى أجسام بني الإنسان والحيوان. لذلك وجبت الحيطة الشديدة عند التخلص من هذه النفايات الخاصة، إذ أنها إذا ألقي بها في البيئة مباشرة فهي سوف تصل حتما إلى مصادر طعام الإنسان وشرابه، فتلوثها، متسببة في كوارث محققة.

ومعظم النفايات الخاصة غير مشعة، والقليل منها يصدر إشعاعا. أما النفايات غير المشعة فتنجم عن أعمال التنقيب في المناجم ومعالجة المجاري، ومن مخلفات البناء، ومن المصانع التي تنتج مبيدات الأعشاب والحشرات، والادوية والأنسجة، ومواد الصباغة والدهان وغيرها. وهذه القائمة يصعب حصرها لفرط طولها، أما النفايات المشعة فتعد أخطر النفايات الخاصة على الإطلاق، لذلك سوف نسهب في الحديث عنها بعض الشيء.

تحتوي الكرة الأرضية بطبيعتها على قدر من العناصر المشعة. وكان العالم الفرنسي بيكاريل هو أول من اكتشف ظاهرة الإشعاع في خام يحتوي على الراديوم عام ١٨٩٦ م. والإشعاع صورة من صور الطاقة، لذلك فبمجرد الاعلان عن هذا الكشف

جديد وجه العلماء جهودهم [illegible] لاستثمار طاقة الإشعاع [illegible] ينصب اهتمام العلماء [illegible] تحويل العناصر عن [illegible] الموجودة على الأرض [illegible] عناصر مشعة لا [illegible] إلا على كميات محدودة . وقد كانت [illegible] كوري التي [illegible] تحولها للإشعاع . هي أول من [illegible] عنصر مشع من [illegible] غير مشع . وذلك [illegible] ١٩٣٠ م [illegible] وكميات المواد المشعة [illegible] . وقد نجحت السيدة كوري في تحويل عنصر

التفاعلات [illegible] . بل إنه [illegible] جديدة مشعة وغير مشعة . فتنتج عناصر جديدة وتحرر نيوترونات جديدة ، وقدر جديد من الطاقة وتعاود النيوترونات المحررة فعلها في كل مرة بصورة أقوى وأعنف . ويرافق ذلك كله تحرر قدر جديد من الطاقة الكامنة في الذرات ، فإذا لم يسيطر الإنسان على هذه الطاقة ، وتركها تفعل فعلها في البيئة دون [illegible] أو ربط ، كانت هذه الطاقة قوة تدمير . مركبة . وهذا هو الأساس العلمي الذي بنيت عليه فكرة القنبلة الذرية ، أما إذا تمكن الإنسان السيطرة على هذه الطاقة ، وروضها ووجهها وجهة

● الباخرة السورية « زنوبيا » ظلت سابحة عاما كاملا بين موانئ أوروبا وهي محملة بحوالي ١٥٠٠ برميل من النفايات السامة

البورون غير المشع الى نيتروجين مشع بضرب ذراته بما يسمى « جسيمات الفا » وارتبط هذا التحول بتحرر نيوترون واحد من كل ذرة بورون . ولم يكن أحد يحسب حساباً لطبيعة التفاعلات النووية التي تنشأ من مثل هذه المعالجات . وأصبحنا نعلم اليوم أن التفاعلات النووية ذات طبيعة سلسلية ، بمعنى أن نواتج المعالجة تستحث تفاعلات جديدة بصورة ذاتية وهذه تستحث بدورها تفاعلات جديدة وهكذا دواليك فالنيوترون الذي تحرر في التفاعل المذكور لايقف خاملا ، كما هي الحالة في معظم

محسوبة بدقة ، بمعدلات بطيئة ، أصبح في مقدوره اختزان الطاقة المتحررة ، وتحويلها إلى صور أخرى من الطاقة المقيدة ، وهذا هو الأساس العلمي الذي تعتمد عليه المفاعلات النووية ، من أجل تحويل الطاقة الإشعاعية إلى كهرباء . وما يهمنا هنا هو أن كل هذه التطبيقات التي أصبحت يومية في حياة الإنسان المعاصر ، قد أفرزت أعداداً أو كميات متزايدة من النفايات المشعة ، وأصبح من اللازم التخلص منها بأسلوب يجنب البيئة والإنسان مخاطرها ، وهي جمة .

ونوجز بعض مخاطر الإشعاع على الإنسان فنذكر أنه يهاجم كل خلايا الجسم بلا استثناء ويدمر مكونات [illegible] خاصة [illegible] بنخاع العظام ، حيث تتولد هذه الخلايا . كما يدمر الطحال والعقد اللمفاوية [illegible] وسرطان الدم [illegible] يؤدي إلى [illegible] وتشويه الأجنة ، وخور [illegible] وبذلك ما ينتهي في النهاية إلى موت [illegible]

معالجة النفايات الخاصة وخزنها

على ضوء ما أوجزناه عن خصوصية النفايات المشعة وغير المشعة يمكن للقارئ أن يستنبط أن [illegible] مدروسة [illegible] وأن [illegible] وتمثل هذه [illegible] وجهود مضنية عبر دراسات وبحوث [illegible] ولا تتوافر مثل هذه التقنية إلا لعدد محدود من الدول الصناعية [illegible] متطورة مشروعة تتلخص في تركيز هذه النفايات بأساليب شتى ، وتحويلها إلى صور صلبة . ثم حقنها في جوف الأرض في طبقة جيولوجية معروفة بجفافها وثباتها ويا حبذا لو كانت غنية بملح الطعام لضمان الجفاف عبر عشرات الألوف من السنين ولزيادة الأمان تلجأ بعض المؤسسات إلى عزل هذه النفايات المركزة بصب غلاف من الأسمنت أو غيره من المواد حولها بإحكام . وذلك قبل حقنها في جوف الأرض

ومن الواضح أن مثل هذه التقنية مكلفة للغاية ، خاصة مع ازدياد كميات النفايات بصفة مستمرة . آخر الأرقام التي نشرت في الصيف الماضي في بروكسل عن حجم النفايات الخاصة لدول السوق الأوربية المشتركة وحدها تقول إن هذه النفايات بلغت ١١٠٠ مليون طن في العام الواحد ولا يشمل هذا الرقم ما ينتجه عملاقان صناعيان هما الولايات المتحدة واليابان . إضافة إلى دول الكتلة الشرقية الصناعية

خزن النفايات في قارة [illegible]

[illegible] الأخبار [illegible] في [illegible] هذه الأخبار [illegible] بالصفقات [illegible] الأوربية [illegible] مركزة [illegible] الدول [illegible] التي [illegible] هذه القارة خلال العقود الماضية [illegible] الاستعمار . [illegible] بالإنسان الإفريقي في سوق [illegible] المعاصرة [illegible] كما كان في الماضي [illegible] الغرب [illegible] شائع أن [illegible] قد [illegible] في [illegible] الأمريكية كأحد أساليب الحرب البيولوجية . فما أرادوا تجربته على الإنسان الإفريقي فقدوا السيطرة عليه تماما وقد لا يتوافر الدليل أبدا على صدق هذه الادعاءات . بل قد تكون مختلقة من أساسها ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون المعنى الكامن وراءها صادقا كل الصدق . ويؤيد ذلك أن لدى البشرية الآن الأدلة الدامغة على تورط الغرب الصناعي في تلويث القارة السوداء بالنفايات لتحقيق مكاسب مادية . وكثيرا ما كررت صحف الغرب خلال الصيف الماضي تساؤلات حول « هل تصبح افريقيا سلة قمامة للدول الغنية ؟ » وقد تزامنت هذه التساؤلات مع تكشف أبعاد الفضيحة التي تورطت فيها شركات ايطالية وبريطانية والمانية غربية وأوربية أخرى ، المتمثلة في تفريغ شحنات من النفايات السامة في نيجيريا وقد بلغ الأمر بالشركة الايطالية التي تصدت للعملية نيابة عن الشركات الأخرى أن زورت أوراقا تموه فيها على كنه هذه النفايات التي بلغت حوالي ٣٠٠٠ طن ، معبأة في علب صفيح رقيق ، وضمنها مواد مسرطنة وأخرى مشعة . وأفرغت الشركة الايطالية عبوتها السامة في إحدى المزارع في قرية كوكو الساحلية ، بعد ترضية مالية متواضعة لصاحب المزرعة ، ولم تحاول الشركة

حتى مجرد دفن هذه النفايات السامة تحت التربة ، بل تركتها عرضة للأمطار والرطوبة وعبث صغار القرية والمنازل لا تبعد إلا عشرات الأمتار عن مزرعة السموم هذه ولقد أسهمت الصحف النيجيرية في الكشف عن هذه الفضيحة . فتدخلت الحكومة النيجيرية ، وطلبت من الشركة الايطالية سحب نفاياتها من أراضيها

وأبدت السلطات الايطالية استجابة فورية . وذلك تحت أنظار الصحافة الغربية . وأرسلت سفينة شحن ألمانية عربية اسمها « كارين ب » سحب شحنة النفايات بالكامل من كوكو . وكان من المتوقع أن تعود السفينة لتفرغ حمولتها من النفايات في ايطاليا ، أو في أي دولة من الدول الاوربية المشتركة معها في الفضيحة . كي تعالج هذه النفايات وتحفظها طبقا للتقنية المكلفة التي تهربت منها في البداية ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظلت السفينة بشحنتها تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، تتنقل من ميناء أوربي إلى آخر . ثم أعلن أخيرا أنها رست في أحد المواني الايطالية بعد طول المراوغة ، وأن مجلس الوزراء الايطالي ـ وبالعجب ـ مازال يتدارس تفريغ شحنة النفايات لمعالجتها في ايطاليا. وعلى ذكر ايطاليا نشير إلى أن السفينة السورية « زنوبيا » المحملة بحوالي ١٥٠٠ برميل فيها نفايات سامة ، قد ظلت أيضا سائحة بين مواني أوربا على مدى عام كامل ، قبل أن تسمح لها السلطات الايطالية بالرسو في ميناء جنوة ، حيث انتظرت شهرين كاملين قبل أن تتكرم الحكومة الايطالية بالموافقة على تفريغ جزء من هذه الحمولة لمعالجته وحفظه في ايطاليا

قمة جبل الثلج

ولا يحسبن أحد أن فضيحة نفايات نيجيريا كانت الفضيحة الوحيدة في القارة الافريقية ، بل هي في الواقع لا تعدو أن تكون قمة جبل الثلج الهائل الذي مازال معظمه خافيا . على أن فضيحة نيجيريا حثت الصحفيين والمهتمين بشئون البيئة في الدول الغربية على التنقيب والبحث ، حتى توافرت لديهم أدلة

● تزايدت في السنوات الأخيرة أعداد السفن المحملة بالنفايات التي ترفض الدول تفريغ حمولتها في موانيها

وقرائن مذهلة ، تشير إلى أن شركات أمريكية وأوربية قد أبرمت عقودا مع ما لا يقل عن ١٧ دولة افريقية أخرى لتفريغ النفايات الخاصة بها . وغني عن الذكر أن هذه الشركات تمارس أعمالا غير مشروعة ، بعد أن أضفت عليها ستارا مصطنعا من الشرعية ، من خلال التعاقد مع المسئولين في الدول الافريقية . وتحصل هذه الشركات أجورها بالكامل من المؤسسات المتعاقدة معها ، مقابل أن تخلصها من نفاياتها السامة . وكل ما تفعله بعد ذلك هو أنها تلقي بالفتات من هذه الأموال لدول افريقيا الفقيرة . وقد نشرت صحيفة « وست أمريكا » في الصيف الماضي أن دولا مثل الكونغو وغينيابيساو وغينيا الاستوائية وبنين قد تعهدت فيما بينها على استقبال حوالي عشرة ملايين طن من النفايات الخاصة سنويا . ولكن لا يعلم أحد حتى اليوم حجم ما استقبلته هذه الدول حتى الآن من نفايات . وقد أدت مشاكل الفقر المدقع والديون المتراكمة إلى تكثيف حجم هذه الصفقات المشبوهة ، وذلك خلال العامين الماضيين . ومما يوضح بجلاء مدى الظلم الواقع على الدول الفقيرة ، أن الشركات المذكورة ، تدفع حوالي ١٠٠٠ دولار لكل طن من النفايات إذا هي أنجزت عملياتها في أوربا ، بيد أن شركتين

بريطانيين وشركة سويسرية لا تدفع لغينيا بيساو - طبقـا للعقـود المشبـوهـة - إلا ٤٠ دولارا للطن الواحد ، ومع ذلك فهذا المبلغ المتواضع ينجم عنه مضاعفة الدخل القومي لهذه الدولة الفقيرة ، كما يمثل عشرة أضعاف دخلها من التصدير ، لذلـك فقد التزمت غينيا بيساو أمام هذه الشركات بأن تستقبل ١٥ مليون طن من النفايات الخاصة على مدى ٥ سنوات وهناك من الدول الافريقية الفقيرة من ترضى بأقل من هذا السعر بكثير ، إذ أن شركة « سيسكو » - ومقرها في جبل طارق - لاتدفع لحكومة بنين إلا « ٢٫٥ » دولارين ونصف للطن الواحد ، إضافة إلى نصف دولار « بقشيشا » بنص العقد ولقد كافأت الحكومة الفرنسية بنين على هذه الصفقة بأن ضمنت لها معونات اقتصادية على مدى ٣٠ عاما مقبلا أما إحدى المؤسسات البريطانية فقد دفعت لحكومة غينيا الاستوائية مقدما ١٫٦ مليون دولار ، مقابل أن تحظى بترخيص يسري مدة ١٠ سنوات ، ويخول لها تخزين ما مجموعه ٥ ملايين طن من النفايات السامة في جزيرة « أنوبين » وطبقا لصحيفة « افريكان بزنس » لا تصلح أرض الجزيرة المذكورة جيولوجيا لتخزين هذه النفايات السامة ، إذ أنها تتكون من صخور مسامية وتساور المعنيين بالبيئة مخاوف جمة من أن تتسرب السموم إلى المحيط الهادي ، فتتسبب في كوارث بيئية لايمكن التكهن بأبعادها

فضائح أخرى عبر أفريقية

إن كـانت الشركات الغربيه التي تعاقدت مع الدول الافريقية قد اصمت على أعمالها قدرا من الشرعية الزائفة ، وذلك بعقود مشبوهة ، فكثيرا ما تلجأ شركات أخرى إلى أساليب غير مشروعة للتخلص من النفايات الخاصة وسازالت فضيحة السفينة « بترسبيرج » ماثلة في الأذهان ، وهي سفينة المانية ، استأجرها إحدى الشركات النمساوية في الصيف الماضي ، وحملت عليها حوالي ١٣٠٠ طن من مخلفات بعض الأبنية التي تهدمت ولم تكن هذه أبنية عادية ، والا لما نشأت هناك مشكلة ، لكنها - وهذا ما أخفته الشركة النمساوية في البداية - كانت بقايا لمؤسسات صناعية كيميائية . وقد أبحرت السفينة عبر نهر الدانوب من النمسا يوم ١٨ مايو الماضي في طريقها إلى تركيا ، حيث كان من المفروض التخلص من هذه النفايات هناك . وفي الميناء التركي اكتشفت السلطات أن الشحنة ملوثة بالإشعاع ، بمقدار ١٤٠ بيكاريل لكل كيلو غرام ، فامتنعت عن تفريغ هذه الشحنة ، وأمرت السفينة بمغادرة المياه الإقليمية التركية ، ومنعتها من الرجوع مرة أخرى إلى الدانوب .

وثمة فضيحة أخرى قريبة منا فقد قامت إحدى الشركات الايطالية بنقل نفايات خاصة إلى الأراضي اللبنانية منذ شهور ، ثم اكتشفت السلطات اللبنانية بعد ذلك أن الشحنة غير مرغوب فيها ، فطالبت الشركة الايطالية باسترجاعها ، وبعد مفاوضات استجابت الشركة لمطلب السلطات ، وأرسلت السفينة « جانبونز ست » فحملت الشحنة ، وأبحرت من لبنان . وقد حذرت السلطات اللبنانية بأن السفينة قد تسعى إلى التخلص من الشحنة في البحر بصورة غير مشروعة . وتحققت مخاوف المسئولين اللبنانيين ، إذ سرعان ما أوردت الصحف نبأ اشتراك ست وزارات مصرية في منع السفينة المذكورة من إغراق شحنتها السامة أمام السواحل المصرية ، وذلك بعد أن فشلت السفينة في محاولات مشابهة أمام دول أخرى من دول البحر المتوسط .

وبعد ، فهذا بعض مما كشفت عنه التقارير الصحفية ، وينم عن ان المشكلة قد بلغت أبعادا مخيفة ، والضحية - للوهلة الأولى - دول العالم الثالث ، الشديدة الفقر ، إلا أن النظرة المدققة سرعان ما تدرك أن الخطر في الواقع يتهدد الكرة الأرضية برمتها ، فحينما تتسرب السموم ، ويتسرب الاشعاع إلى المياه والهواء والتربة ، فسوف يعود التلوث حتى إلى مصدريه في عقر دارهم ، وذلك على هيئة أطعمة وأشربة ومواد أولية . ولك الله ياكوكب الأرض . □

قطع غيار حيوانية للإنسان

بقلم :
الدكتور محيي الدين لبنيه

اتسمت العقود الثلاثة الأخيرة بالابتكارات العلمية المبهرة وتطبيقاتها ، حيث تمكن الانسان من تحقيق كثير من أحلام الأسلاف . واستبدال الأعضاء التالفة من جسم الانسان ، ببدائل حيوانية ، وهو واحد من الإنجازات العلمية التي مايزال العلماء والأطباء يسعون لتطويرها وتحسينها ، لتصبح في متناول الجميع .

منذ أمد بعيد راودت العقل البشري فكرة زرع أعضاء حيوانية في جسم الإنسان ، وكان الطبيب العربي أبو القاسم الزهراوي الملقب بأبي الجراحة (٩٣٦م ـ ١٠١٣م) أول من حاول زراعة أسنان بعض الحيوانات في الفم ، وجرب استعمال غضاريف حيوانية كحاجز أنفي . واستمرت عملية زرع قطع غيار حيوانية في الإنسان مجرد أمنية وحلم ، إلى أن تهيأت للعلماء حديثا معلومات دقيقة عن تركيب الخلية الحية ، ووظائفها ، وعن الجهاز المناعي ، وآلية عمله في الجسم ، ناهيك عن التطورات الكبيرة في الأجهزة والأدوات الجراحية . وقد أصبح ممكنا الآن أن يعيش الإنسان بأعضاء تنقل إليه من بعض الحيوانات من رتبة الثدييات كالأبقار والكلاب والخنازير ، وتهيأت طرق خاصة لتحضير قطع الغيار الحيوانية بشكل يناسب استعمالها ثم تخزينها في ظروف مناسبة حتى تحين الحاجة لزراعتها في الجسم .

● طبيب بمستشفى الملك فهد بالمدينة المنورة

تفاعلات الجسم

درس العلماء الظواهر الخاصة برد فعل الجسم ضد الأجزاء الحيوانية المزروعة فيه ، ولاحظوا أن قطع الغيار الحيوانية باستثناء عضلة القلب تتصف بأنها ليست ذات قدرة على الحياة بعد زراعتها في جسم الإنسان ، وأنها خاملة حيويا ومناعيا أي لايؤدي وجودها في الجسم إلى تكوين أجسام مضادة لها ، بل يتقبلها جسم الإنسان دون ظهور أعراض رفض لزراعتها ، كما لايؤدي وجودها في الجسم إلى حدوث التهابات حادة في مكان زراعتها نتيجة غياب رد فعل مناعي ضدها ، بل يمتص الجسم تدريجيا مركب الكولاجين السائل في صورة زيدرم عند حقنه في الجلد

ولكن قد تحدث أحيانا تفاعلات حساسية بسيطة لدى بعض المرضى عند حقن الكولاجين الحيواني السائل لأنه بروتين غريب عن الجسم . كما يتكون نسيج ليفي متين في منطقة زرع شرائح مخصرة من الكولاجين الحيواني في الجراحة الترميمية

ويستخدم العلماء في تجاربهم لزراعة قطع حيوانية في جسم الإنسان الجلد ، وقرنية العين ، وعظام وغضاريف ، وعضلة القلب ، وأوعية دموية ، ودسامات القلب (يسميها العامة صمامات القلب وهو اسم غير دقيق) ، وأغشية جنينية من الأبقار ، وخيوط جراحية مخصرة من الأمعاء الدقيقة للأغنام ، ومستخلصات بروتين الكولاجين من الجلد . وسنتناول بعض هذه الاستخدامات بالتفصيل .

جلد حيواني

أحيانا يستعمل أطباء قسم علاج الحروق طعوما من الجلد الحيواني ، غطاء حيوياً لسرير الجروح ، في حالات الإصابة بالحروق الواسعة ، ذات السماكة القليلة ، عندما لا يوجد غطاء كاف لها من جلد المريض نفسه ، أو من أحد أقاربه . وتعمل الطعوم الجلدية المستعملة غطاء مؤقتاً ، وهي تنفصل تلقائيا إذا لم تستبدل ، ويفيد استعمالها في تقليل معدل فقد السوائل المحتوية على بروتينات ، وأملاح معدنية ، وماء من جسم المريض ، ويكون لها تأثير وقائي ضد حدوث الجفاف فيه ، لكنها لا تقلل من حدة الإصابة الميكروبية التي تحدث قبل زرعها . وقد استخدمت جلود الخنازير - من نوع غيانا - والكلاب ، بعد معاملتها كيماويا بطرق خاصة ، ثم تجفيفها بعد تجميدها . وحظيت الجلود المأخوذة من الخنازير بمعظم اهتمام الأطباء ، ويوجد منها تجاريا شرائح جافة ، تعامل بطريقة خاصة ، في ظروف معقمة ، قبل زراعتها في سرير الجروح المتخلفة عن الحروق .

عظام وغضاريف

كان أبو القاسم الزهراوي أول من حاول زراعة أسنان مأخوذة من الخراف في فم الإنسان ، وجرب أيضا استخدام غضاريف حيوانية في تشكيل حاجز أنفي . وعلى نطاق تجريبي قام فريق من الأطباء بزراعة بعض العظام الحيوانية المأخوذة من عجول صغيرة السن ، بعد ان تصبح جافة ، وعرفت هذه الزراعة بطعوم كييل ، نسبة إلى مكتشفها ، واستعملوها في إصلاح إصابات بعض عظام الجسم ، كما جرب علماء آخرون زراعة غضاريف مأخوذة من الثيران لإصلاح عيوب في الأنف .

وجرب العلماء حديثا مصدرا آخر للطعوم العظمية ، وهو جثث الموتى ، وكانت نتائجها أفضل ، وخاصة عند حفظ عظام الموتى معقمة ، قبل زرعها في جسم الإنسان ، خلال فترة لاتزيد على ثلاثة شهور . وتتركز حاليا جهود الأطباء على زرع طعوم عظمية مأخوذة من جسم المريض نفسه ، بأخذ عظم صغير ، أو جزء من عظم ، أو غضروف لإصلاح عيوب عظمية ، أو غضروفية في عمليات الجراحة التجميلية الترميمية ، وهي أفضل الطرق ، ونتائجها جيدة .

قطع غيار للقلب وأوعيته

قام الجراح هاردي،عام ١٩٦٤ ، بأول عملية نقل قلب قرد (من نوع شمبانزي) إلى رجل مريض عمره ٦٨ سنة ، ثم أجرى الطبيب الجراح كريستان

برنارد عام ١٩٦٧ أول عملية زرع قلب بشري في جسم مريض . ثم أنجز الأطباء عام ١٩٦٨ خلال موجة الحماس التي واكبت نجاح أول عملية زراعة للقلب ، ما يزيد عن مائة عملية زرع ، وتكررت عملية زرع قلب حيوان للإنسان ، قبل سنوات قليلة ، حين قام فريق من الأطباء بزراعة قلب مأخوذ من قرد ـ من نوع البابون ـ في جسم طفلة ، لإنقاذ حياتها المهددة بخطر الموت ، ولم يكن أمامهم في ذلك الوقت خيار آخر ، لعدم وجود قلب بشري يناسبها .

ولسوء الحظ لم تحقق عمليات زراعة قلب حيواني في جسم الإنسان نتائج جيدة ، بسبب وجود خاصية عدم التوافق النسيجي بين الإنسان والحيوان ، ومن ثم رفض الجسم للعضو المزروع فيه . كما أن القلب البشري لا يعمل فقط كمضخة للدم ، وإنما له وظائف حيوية أخرى ، فقد اكتشف العلماء حديثا أن القلب يفرز هرمونات تلعب أدوارا في حياة الإنسان .

ولقد جرب بعض العلماء ، زرع طعوم أوعية دموية مأخوذة من الحيوانات ، بدائل للأجزاء التالفة من بعض الأوعية الدموية في جسم الإنسان ، لكن جهود الأطباء تركزت حاليا على استعمال طعم وريدي من جسم المريض نفسه ، مثل الوريد الصافن ، أو الوريد الثديي الداخلي . ولقد تأكدت فوائد تلك الطعوم ومزاياها على الطعوم الأخرى ، كما ظهرت حديثا في الأسواق طعوم وعائية مصنوعة من اللدائن ، يمكن استعمالها في إصلاح التلف الذي قد يصيب أي وعاء من الأوعية الدموية الكبيرة في الجسم .

كما نجح العلماء في زرع دسامات (صمامات) مأخوذة من الأبقار أو الخنازير في قلب الإنسان ، واستخدمت على نطاق واسع الدسامات المأخوذة من الخنازير ، ونجحت في علاج أمراض دسامات القلب . ولها مزايا عديدة على الأنواع الأخرى من الدسامات الصناعية . وتقوم حاليا مصانع متخصصة بإنتاج دسامات من الخنازير ، وهي مرتفعة الثمن .

ويؤدي زرع الدسام الحيواني إلى انخفاض معدل تكوين الصمامة الخثرية فيه ، كما يمكنه العمل ـ جيدا ـ في السنوات الخمس الأولى من زرعه ، ثم تتناقص قدرته تدريجيا على أداء عمله بعد ذلك لدى المرضى الذين تزيد أعمارهم عن ٣٥ سنة .

الأغشية والأمعاء من الحيوانات

إن استعمال الأغشية الرقيقة المحيطة بأجنة الأبقار في التغطية المؤقتة للجروح المتخلفة عن الحروق ، قد حظي حديثا باهتمام عديد من العلماء ، الذين جربوا زراعة تلك الأغشية في سرير الجروح ، بهدف تقليل فقد مصل الدم ، بما يحتويه من عناصر غذائية . وتقليل فرصة حدوث الالتهابات الجرثومية في الجروح المكشوفة ، إلى أن تتوافر طعوم جلدية من جسم المريض نفسه ، تقوم بالتغطية الدائمة للجروح . واستعمل الباحثون الطبقتين الرقيقتين المحيطتين بالجنين داخل المشيمة بعد فصلها من البقرة عقب الولادة ، ومعاملتها كيماويا بطريقة خاصة

١ ـ طبقة الأمنيون وهو الغشاء الداخلي المبطن للمشيمة .

٢ ـ طبقة الكوريون وهو الغشاء المحيط بالجنين .

منذ زمن طويل استخدمت أمعاء الخراف في تجهيز الخيوط الجراحية ، وذلك بأن تعامل الأمعاء الدقيقة بطريقة خاصة لسحب الألياف العضلية منها ، ثم حفظها بالتجفيف بعد التجميد حتى حين استعمالها ويستطيع جسم الانسان امتصاص تلك الخيوط تدريجيا ، مما لا يستدعي إزالتها بعد شفاء الجروح

الكولاجين المستخلص من جلد

تمكن العلماء حديثا من فصل مركب الكولاجين من جلد بعض الحيوانات كالأبقار والخنازير ، ثم عولج كيماويا بطرق خاصة لاعداده للاستعمال البشري . والكولاجين هو بروتين خامل حيويا ، لا يسبب وجوده تفاعلات حساسية في الجسم ، وتتحمله الأنسجة الحية ، تحملا جيداً والكولاجين سهل التشكيل ، مما يهيء مجالات واسعة لاستعمالاته . ويستخدم سائلا وجافا . □

في الذكرى العاشرة لوفاة

آرام خاتشاتوريان

صوت القوقاز الموسيقي

بقلم : الدكتورة سمحة الخولي

بعد عشر سنوات من وفاة خاتشاتوريان الموسيقي السوفيتي الشهير :

هل انحسرت شعبية موسيقاه ؟ وهل هو

حقا لسان حال أرمينيا الموسيقي أم القوقاز كلها ؟

في أي بقعة في العالم تقيم فيها جالية أرمينية يحاط اسم خاتشاتوريان بهالة من التمجيد والإعزاز ، فهو عندهم « بطل قومي » ، وليس مجرد مؤلف موسيقي محبوب .

لموسيقا خاتشاتوريان رصيد طيب لدى المستمع العربي ، فهو يقبل عليها مستسيغا طابعها الشرقي الشجي المزخرف ، لكن هذا المستمع العربي لا يعرف إلا القليل عن جذور خاتشاتوريان ونشأته ، ولا يعرف عن حقيقة علاقته بأرمينيا ، ولا المصادر التي استقى منها عناصر التلوين الفولكلوري الذي أضفى على موسيقاه طابعها المحبب ، ولا كيف عاش وأنتج في ظل « الاشراكية الواقعية » في الموسيقا في بلاده ولعل المستمع العربي الذي طرب لموسيقا باليه « جايانيه » يجد في السطور التالية ما يقربه من خاتشاتوريان وموسيقاه ، وما يقدم له مزيدا من المعرفة بأسلوبه الموسيقي الخاص الذي تزيده الأعوام انتشارا ورسوخا .

مولده ونشأته :

على الرغم من أن ارام خاتشاتوريان من أسرة أرمينية فانه لم يولد في أرمينيا — عكس الفكرة الشائعة — بل ولد في عام ١٩٠٣ ، ويحتمل أن يكون مولده في عام ١٩٠٤ بمدينة تبليسي ، عاصمة جمهورية جورجيا التي تشكل مع أرمينيا وأذربيجان الجمهوريات الاتحادية التي يضمها القوقاز ، فقد كان والده يعمل بها مجلدا للكتب ، لكن تلك الأسرة الفقيرة كانت غنية بمواهب فنية ، أغدقتها الطبيعة على أبنائها ، وكانت الموسيقا والرقص الشعبي يؤنسان حياة الأسرة ، مما أذكى الموهبة الطبيعية للطفل آرام ايليتش ، فأخذ يعلم نفسه عزف البيانو « بالسماع » ، ثم في المدرسة التجارية الثانوية في تبليسي ، وظهر حبه للموسيقا عندما تعلم عزف آلات النفخ النحاسية ، ليشارك في الفرقة النحاسية للمدرسة

وكان أخوه الكبير يتمتع بموهبة مسرحية ، وقد سافر إلى موسكو ، وهناك بدأ يسهم في إنشاء قسم للدراما بقصر الثقافة الأرمني في العاصمة و[illegible] السلطات السوفيتية بانتخاب مجموعة [illegible] « الكوادر » الفنية الشابة ، من جمهور [illegible] القوقاز لتدريبها في موسكو في مجالات الفنو[ن] وكان أخوه آرام من بينها وهكذا سافر الفتى [إلى] موسكو ، وبدأ أول دراسة حقيقية للموسيقا في سن متأخرة جدا ، فقد كان في التاسعة عشرة [عندما] التحق سنة ١٩٢٢ بمعهد جنيسين ، وكان عليه [أن] يختار الآلة التي يرغب في تعلمها ، فاختار تشيللو ، دون أن تكون لديه أدنى فكرة ع[نها]

وسايرت دراسة الموسيقا دراسته بجامعة موس[كو] (البيولوجيا والرياضيات) ، ولكنه لم يوفق [في] الجامعة ، فتركها ، وقرر أن يكرس نفس[ه] للموسيقا ، فدرس التأليف في فصل ميخائي[ل] جنيسين نفسه وكانت محاولاته الأولى في التأليف تنطق بشغفه بالموسيقا الشعبية القوقازية ، ولعل موهبته اهتمام أستاذه ، فعاونه على الدراسة بكونسرفوار موسكو سنة ١٩٢٩ ، وهناك درس التأليف على جنيسين نفسه مدة عام ، ثم انضم لفصل نيكولاي مياسكوفسكي - وهو من المؤلفين السمفونيين السوفييت الذين اشتهروا بغزارة الانتاج (٢٥ سيمفونية) وهو يكتب بأسلوب عاطفي أقرب لتشايكوفسكي ويشاطره بعض نزعاته التشاؤمية - وقد لمس موهبته المبتكرة ، فترك له بعض الحرية في وجهته ، وفي تكوين أسلوبه الموسيقي الشخصي . وبدأ خاتشاتوريان يستكشف آفاقا موسيقية أرحب ، واجتذبته موسيقا الانطباعيين Impressionists ، وبخاصة رافيل ، وبهرته كتابات بروكوفييف ، العائد من الغرب إلى وطنه ، واهتم ببعض تجديدات سكريابين الهارمونية . وقد بدأ أسلوبه يتبلور منذ سنوات الدراسة ، وكان شغفه بالتلوين « الفولكلوري » من أبرز ملامحه ، وهو ما سنعود إليه فيما بعد

ونقش اسمه ، عند التخرج ، في لوحة الشرف سنة ١٩٣٤ . وظل يتابع دراسته العليا للتأليف على مياسكوفسكي ، وعمل مساعدا له في التدريس مد[ة]

ثلاث [illegible] قصيدة [illegible]
ماكارود [illegible]

وقد [illegible] نجاح كونشرتو
البيانو [illegible] سنة ١٩٣٦ [illegible]
الموسيقي [illegible] في روسيا
السوفييتية [illegible] صورته
المتميز [illegible]
بالموسيقا [illegible] الدهش
وتلوينه [illegible] وحماس
السلطات [illegible]
تأكيد [illegible] لتشجيع التعبير
الموسيقي [illegible] العديدة التي
تقطن [illegible]
السياسة [illegible]
الموسيقى [illegible] السوفييتي
لتشييد [illegible] باسلوب
متطور [illegible] قادر على التعبير عن
معان [illegible] خاص شعب
الفنية [illegible] من الحسابات
العديدة [illegible] وهكذا بدأ تسليط
الأضواء على خاتشاتوريان ، بعده مؤلفا قوميا
أرمنيا

خاتشاتوريان وأرمينيا .

وجد خاتشاتوريان نفسه موجها نحو أرمينيا ، وأصبحت أصوله الأرمينية موضع اهتمام مركز ، ولعله لم يكن يقصد ذلك في أول الأمر ، فهو لم يكن حريصا على استخدام اسمه الاصلي ، بصيغته الأرمينية ، بل كان يسمى نفسه عندما ذهب إلى موسكو « كلوموف » ، وقد ذكر هذا الاسم في برنامج حفلة العزف الأول لكونشرتو البيانو بقاعة الكونسرفتوار ، حيث أعلن أن الكونشرتو تعزفه بيرتا كازيل وأليكس كلوموف ، وكان هو نفسه الذي يعزف البيانو الثاني ، المصاحب للبيانو الانفرادي الذي يحل أحيانا محل الاركسترا ، وفي مجال آخر ذكر اسمه في صيغة أكثر روسية ، هي

خاتشاتوريان .

بعد نجاح كونشرتو البيانو قد لعب دورا في توثيق صلة خاتشاتوريان بأرمينيا التي لم تطأها قدماه لأول مرة [illegible] إلا وهو في سن السادسة والثلاثين . [illegible] على كل [illegible] موسيقا ذات طابع [illegible] قومي لمهرجان الموسيقا الارمنية موسكو سنة ١٩٣٨ وكتب نشيد السعادة وهكذا بدأت صلته بأرمينيا تتخذ شكلا رسميا ، وبدأت تلك الجمهورية تحتفي به ، وتغدق عليه [illegible] تشعر به عن [illegible] جورجيا التي ولد ونشأ فيها وهكذا اصبح اسم خاتشاتوريان مرتبطا بأرمينيا في أنحاء العالم . ولذلك تعتز به مواطنوه الأرمن كأحد أبطالهم القوميين

حياته العملية ومؤلفاته

مارس خاتشاتوريان حياة المؤلف الموسيقي ممارسة كاملة ، فكان يقود الأركسترا في عزف مؤلفاته (وكان قائدا ممتازا لها) سواء في الاتحاد السوفيتي او في الخارج وعندما توطدت مكانته دوليا ، بعد كونشرتو البيانو وكونشرتو الفيولينة وباليه جايانيه ، كثرت أسفاره إلى الخارج ، وأصبح من أنجح « سفراء » الموسيقا السوفيتيه في العالم الغربي . فقد كانت موسيقاه تجد طريقها إلى الغرب ، وتستقبل بكثير من الحفاوة والاعجاب وانهالت عليه الدعوات لزيارة أمريكا اللاتينية بصفة خاصة ، وقد كان يقود أعماله فيها بنجاح متصاعد وفي عام ١٩٦٨ زار الولايات المتحدة ، في جولة كبيرة ، قاد فيها ست عشرة اركسترا من أهم اركستراتها في ولايات مختلفة (وهذا رقم يكاد يكون قياسيا له دلالة عميقة على مدى انتشار موسيقاه) ودعته وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٦١ لزيارة القاهرة ، حيث قاد اركسترا القاهرة السيمفوني (بدار الأوبرا القديمة) ، في حفلات غاية في النجاح ، ثم سافر على رأس هذا الاركسترا المصري إلى بيروت ، حيث قاد بها بعض حفلات من مؤلفاته .

وليس معنى هذا النجاح الدولي أن حياة خاتشاتوريان الفنية قد كانت دائما محفوفة بالورود . فقد تعرض كغيره من كبار المؤلفين السوفييت لنقد لاذع من « الحزب » ، بسبب اتجاهات سماها جدانوف (المتحدث باسم اللجنة المركزية سنة ١٩٤٨) اتجاهات رجعية غربية منحلة . تدل على ابتعاد هؤلاء المؤلفين عن الشعب وتقليدهم « موضات » الغرب الموسيقية المناقضة للاشتراكية الواقعية السوفيتية ومن المؤلفين الذين وجه إليهم هذا النقد العنيف عام ١٩٤٨ شوستاكوفتش ، وبروكوفييف . وخاتشاتوريان . ومراد يلي . وبوبوف ، وغيرهم .

وكان الهجوم عليه هو على الأخص بسبب عمل ألفه سنة ١٩٤٧ بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة . وهو « القصيد السيمفوني » للاركسترا والأرغن والنحاسات الذي استخدم فيه خمس عشرة آلة طرمبيت في مزيج غير مألوف من الأرغن والنحاسيات والاركسترا . والذي أمعن فيه في « التنافر » وعند عزفه للمرة الأولى كان هناك إجماع على استهجانه ولذلك ربما كانت تهمة « الشكلية » التي ووجه بها خاتشاتوريان لأول مرة في حياته الموسيقية غير منافية للحقيقة . فقد صرح في مجال الاعتذار عن المنحى المتطرف الذي اتخذه في ذلك العمل . بأنه أراد فيه أن يكون « عالميا » . فابتعد أكثر مما ينبغي عن جذوره السوفيتية وعن جمهوره . وأعرب عن نيته في مراجعة اتجاهه الجمالي في أعماله المقبلة .

ومن حسن الحظ أن تلك الأزمة الشهيرة لم تترك في نفسه آثارا غائرة ، مثل تلك التي خلفتها عند شوستاكوفتش ، إذ سرعان ما استعاد توازنه النفسي . ومكانته الرسمية والفنية . لكن انعكاس تلك الأزمة قد ظهر في تحوله . بكل طاقاته ، في أوائل الخمسينيات نحو الموسيقا التصويرية للمسرح والسينما (ولعله وجد فيها مجالا خصبا للإبداع « الوظيفي » الذي يربطه بأرض الواقع ويقربه للجمهور) . فكتب موسيقا لعدد من مسرحيات شكسبير . ولوبيزدي فيجا . وليرمونتوف الذي ألف الموسيقا التصويرية لمسرحيته « ماسكاراد » وأعد منها متتابعة ناجحة للاركسترا . أما للسينما فقد كتب موسيقا لعدد من الأفلام ، منها فيلم بيبو ، وصراع ستالينجراد ، وفيلم لينين الذي ضمت موسيقاه نشيدا جنائزيا « إلى لينين » ، انتشر جماهيريا على نطاق واسع في الاتحاد السوفيتي لما فيه من استخدام بارع لعدد من الألحان المستمدة من مناطق مختلفة (من القوقاز وأوكرانيا وازبكستان الخ .

وفي الخمسينيات كذلك بدأت صلته بالتدريس لأول مرة . فعاد إلى كونسرفتوار موسكو . ومعهد جنيسين ، استاذا للتأليف الموسيقي بهما ، كما اسندت إليه عمادة معهد جنيسين .

وقد تناولت مؤلفات خاتشاتوريان كل أنواع التأليف للآلات والاركسترا . ولكنه لم يؤلف أوبرات ولم يؤلف أيضا للغناء . ومن مؤلفاته الاركسترالية نشيد لسيمفونيته الثانية (وكانت الأولى منها عملا كتبه للتخرج) . وقد قلد فيها رنين الأجراس ، ويسود فيها جو تفاؤلي ، أراد به رفع الروح المعنوية إبان الحرب العالمية (١٩٤٣) . كونشرتو البيانو سنة ١٩٣٦ الذي انتشر في الغرب . بعد تأليفه بقليل ، وجلب لمؤلفه شهرة عالمية ، ثم أتبعه سنة ١٩٤٠ بكونشرتو الفيولينه والاركسترا ، وهو من أوسع كونشرتات الفيولينه في هذا القرن انتشارا ، أما الثالث وهو كونشرتو التشللو (سنة ١٩٤٧) فهو أقل الثلاثة انتشارا . لكن المجال الأكبر لنجاح خاتشاتوريان الذي وجدت فيه مواهبه فرصتها الحقيقية للانطلاق هو بلاشك موسيقا الباليه . وقد كانت أولى جولاته في هذا المجال باليه موسيقا بعنوان « السعادة » ، ألفها خصيصا في عام ١٩٣٨ لتقدم في مهرجان الموسيقا الأرمينية بموسكو ، وقد استخدم فيها عددا من الالحان والايقاعات الشعبية القوقازية ، وأعد من هذه الموسيقا متتابعتين للاركسترا . وألف بعد ذلك باليه « جايانيه » واختتم أعماله للباليه بموسيقا

سبارتاكوس ، لكن أعظمها وأصدقها تمثيلا لأسلوب خاتشاتوريان الناضج هو باليه جايانيه الذي نما وتطور بصورة شيقة تستحق أن يخصص لها بعض السطور لطرافتها .

باليه جايانيه :

كانت قصة باليه السعادة بسيطة ، تدور في مزرعة جماعية ، يشتبك فيها البطل أرمين مع المهربين في معركة يصاب فيها ، لكنه يعود للمزرعة ليتزوج حبيبته ، ويعيشان سعيدين في المزرعة . لكن المؤلف لم يقنع بهذه القصة الساذجة ، فعاد لمراجعة موسيقا هذا الباليه ، بالتعاون مع كاتب القصة درجافين ، وقاما بتوسيع القصة وتطويرها ، لتبرز مزيدا من عناصر الصراع الدرامي ، ومن معاني الوطنية (أثناء الحرب العالمية الثانية) . وقد ألف أيضا عددا مهما من الفقرات والرقصات الجديدة للباليه الذي اطلق عليه بعد تطويره . اسم « جايانيه » أما تصميم الرقصات فقد قامت به الراقصة انيسيموفا التي أدت دور البطولة فيه أثناء عرضه للمرة الأولى سنة ١٩٤٢ في الاورال ، وقد استقبل بحماس هائل ، وعده النقاد والجمهور عملا وطنيا جماهيريا ممتازا ، ومنح المؤلف بهذه المناسبة جائزة ستالين للمرة الثانية

وأغرت خاتشاتوريان الامكانات الموسيقية والمسرحية التي يقدمها هذا الباليه ، فعاد مرة أخرى لمراجعة موسيقاه ، وأضاف إليها ما يوازي ثلث المدونة ، بعد تعديل القصة وتوسيعها مرة أخرى وقد عرض الباليه الموسع ، بعد هذه المراجعة ، في لينينجراد سنة ١٩٥٢ بنجاح كبير ، لكنه عندما أعد للعرض على مسرح البولشوي بموسكو لأول مرة سنة ١٩٥٧ كان المؤلف قد راجع الموسيقا مرة رابعة وهكذا تمت موسيقا باليه جايانيه على مراحل ، امتدت من عام ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٥٧ وقد ألف أيضا متتابعتين للاركسترا ، من أشهر رقصات باليه « جايانيه » مازالتا من أحب أعماله وأوسعها انتشارا في كل مكان ، حتى أن رقصة السيوف الشهيرة أصبحت تعزف في أنحاء العالم في « صور » مختلفة ، منها ما هو للبيانو أو لآلات الايقاع أو للجاز .

قصة الباليه :

تدور أحداث قصة هذا الباليه بعد أن استقرت بعد كل هذه التعديلات في مزرعة جماعية أرمينية قرب حدود تركيا ، مما يتيح الفرص لمشاركة جنسيات عديدة في القصة ، تقوم بينها صلات عاطفية متشابكة ويرتفع الستار عن مشهد « جني القطن » وترقص الفتيات رقصة القطن ، ونرى البطلة « جايانيه » جالسة مستغرقة في التفكير في زواجها التعس من جيكو السكير القاسي ، وعندما يدخل للمسرح يسيء لزوجته فيتصدى له أخوها أرمين ، وفي هذه اللحظة يدخل ضابط حرس الحدود كازالوف . ومعه جنوده فيختبيء جيكو ويعود الفلاحون لاحتفالاتهم ، وترقص « جايانيه » ابتهاجا بلقائها بكازاكوف وفي المشهد التالي في المساء ، نرى جايانيه وفتيات المزرعة وهن يعملن في نسج السجاد الملون ، ويحضر والدها ويرقص معهن ، فتصحو طفلتها على الضجة . فتهدهدها جايانيه في رقصة « أغنية المهد الرقيقة » . وفي الليل تسمع جايانيه زوجها ، وهو يتآمر مع ثلاثة من المهربين ، على حرق مخزن القطن بالمزرعة ، فتثور وتطارد المهربين فيتصدى لها زوجها بعنف فتسقط على الأرض ثم يرتفع الستار في المشهد التالي ، في الفجر ، في معسكر الأكراد في الجبال ، حيث تجلس « عائشة » ابنة الراعي جال ، وعندما تشرق الشمس ترقص عائشة ، وينضم اليها الأكراد ، وبعد قليل يصل آرمين المفتون بعائشة (ويسمع اللحنان الدالان عليه وعلى عائشة في الموسيقا) ، ولكن اسماعيل ، غريمه في حبها ، يريدها أن تتخلى عن آرمين ، فتغضب الفتاة وتقوم مشادة بين الغريمين ، يسحب فيها اسماعيل خنجرا فتحاول عائشة فض المشاجرة ، وهنا يتدخل والدها ليأخذ الخنجر ويعطيه لأرمين ليعاقب اسماعيل على خرقه

لتقاليد الضيافة ، ولكن أرمين يقذفه بعيدا فهو لا يريد معاداة اسماعيل

وبعد رقصة « الشبان الأكراد » المتدفقة حيوية ، يقبل المهربون بعد أن ضلوا طريقهم ، فيحتجزهم آرمين ويرسل بخبرهم لحرس الحدود ، ويسارعون بمغادرة المعسكر طالبين دليلا يرشدهم ، فيتطوع آرمين لذلك ، ولكن جمال يرسل وراءه اسماعيل ومعه راعيان ويهاجم المهربون آرمين ، وفي هذه اللحظة يصل جنود الحرس فيلقون القبض عليهم ، وتسمع أجراس الانذار ، وعندما تتعالى ألسنة النيران من مخزن القطن ، يهرع الجنود والمزارعون لاخماد الحريق ، بينما يظهر جيكو قرب المبنى المحترق ، مسارعا بدق الاجراس ، وتقبل جايانيه ومعها طفلتها وتوجه الاتهام الى جيكو أمام الحاضرين فيندفع اليها محاولا قتل الطفلة ولكنه يصيب جايانية ، ويحاول الهرب ، وعندئذ يصل ارمين والحرس ويقبضون عليه

وفي المشهد الأخير يظهر الفلاحون عند شاطيء البحيرة ، بعد إعادة بناء المزرعة وتظهر جايانيه مع كاراكوف ، بعد أن سمحت لهما الظروف باعلان حبهما وخطبتهما وتبدأ احتفالات ضخمة ، تقدم فيها كل مجموعة « قومية » مختلفة (الأرمن والأكراد والروس الخ) رقصاتها القومية الشيقة ، ومن بينها « رقصة السيوف » الشهيرة ويختتم الباليه ختاما براقا منعشا فخما (كعادة أغلب الأعمال السوفيتية المتفائلة)

ومن أجمل رقصات هذا الباليه « الأداجيو » الناعمة العاطفية ورقصة « هدهدة الطفلة » ورقصة عائشة ، ورقصة الشبان الاكراد ، ورقصة السيوف ، ففيها جميعا يتألق اسلوب خاتشاتوريان في أجمل صوره التي حقق فيها اندماجا فنيا موفقا للعناصر اللحنية والايقاعية الشعبية المتنوعة ، في نسيج هارموني دسم ، وتلوين اركسترالي فريد في بريقه وتنوعه .

وفي هذا الباليه تجلت أهم ملامح أسلوب خاتشاتوريان التي سوف نعرض لها فيما بعد ولكن لا تفوتنا الاشارة خاصة لمؤلفاته للبيانو ، فمع تمكنه من هذه الآلة وفهمه لها ، قد استطاع أن يكتب لها أعمالا محدودة العدد ، ولكنها بارعة في استغلال امكانات آلة البيانو ، منها مجلده من المقطوعات الوصفية التعليمية السهلة للأطفال ومنها كذلك مقطوعة التوكاتة (ويعتمد هذا النوع من المقطوعات على لمسات سريعة بارعة ، ويتطلب عزفا لامعا) . وكان لآلة الفيوليز حظ في كتاباته إذ كتب لها عملا مبكرا سنة ١٩٢٩ اهداه للآشوج .

وهم طوائف من الرواة والشعراء المنشدين الذين قاموا بدور هام في الحفاظ على التقاليد الشعرية والموسيقية للقوقاز ، وهم ينشدون أشعارا كلاسيكية باسلوب أقرب لشاعر الربابة عندنا في ارتجاله ، ولكنهم يصاحبون أداءهم بآلات وترية وايقاعية ، وقد تأثر خاتشاتوريان تأثرا ملحوظا بالاسلوب الارتجالي المسترسل لانشاد هؤلاء الفنانين الشعبيين المنتشرين في القوقاز (وخاصة في أذربيجان) ليس في أعمال الفيوليز فقط ، بل وفي صميم اسلوبه اللحني والبنائي . □

* أن العالم الفلكي « جاليليو » استكشف أهم استكشافاته بواسطة التلسكوب وهو شيخ في التاسعة والستين !

* وأن « فولتير » نشر روايته المشهورة « أيرين » وهو في سن الثمانين !

* وأن « فيكتور هوجو » ألف كتابه « تاريخ جريمة » الذي يعد تحفة تاريخية وهو في السادسة والسبعين !

بقلم · محمود المراغي

وبعضهم يتقدّم إلى الخلف!

مليونا عام ١٩٩٠) ، يتمتعون بقدر وفير من الموارد .

وفي تقدير صندوق السكان التابع للامم المتحدة أن الدول الصناعية التي لايصل تعداد سكانها إلى ربع العالم تستهلك ٧٥٪ من الطاقة المستخدمة في العالم كله ، كما تستهلك ٨٥٪ من خشب العالم و٧٢٪ بالمائة من حديده . وذلك ينعكس على مستوى الناتج المحلي الذي ينمو بأربعة أضعاف معدل نمو السكان ، كما ينعكس على الاستهلاك ومستوى المعيشة .

وتسجل الأرقام أن ١٠٢٪ من الأطفال في سن المرحلة التعليمية الابتدائية يدخلون المدرسة ، وأن نسبة الذين يصلون للمرحلة الثانوية ٩٢٪ من المجموعة العمرية المعنية .

والشيء نفسه بالنسبة للخدمات الأخرى كالصحة ، بينما يبلغ نصيب كل (٤٩٤٠) مواطنا في الدول المتوسطة الدخل طبيبا واحدا ، ويهبط هذا المتوسط إلى (٥٥٠) مواطنا في الدول الصناعية .

وهكذا في كل نواحي الحياة ، إنسان الشمال أكثر حظا ، إنه يأكل ويتعلم ويلقى رعاية صحية وخدمات ترفيهية وحياة ثقافية أفضل ، إنه يحقق إنسانيته في كل مظاهرها المادية ، وكثيرا من مظاهرها المعنوية أيضا ، إنه الأكثر ثراء ، والأكثر قدرة . أحد أسباب ذلك أعداد السكان الذين يعيشون في هذا الجزء من العالم .

** ووجهه السلبي :

لكن الأكيد أن هناك الوجه السلبي لذلك ، والعاجل من الأمر هو ما تنبهت له منظمات البيئة ، من أن هذا النمط من الحياة لايمكن أن يستمر ، مع التقدم ، ومع استخدام هذا المعدل المرتفع من الطاقة ، يزداد التلوث وتزداد مخاطر البيئة .

في أرقام إجمالية يسجل صندوق السكان أن أوربا وأمريكا الشمالية وحدهما تفقدان (٣١) مليون هكتار من الأرض الخضراء كل عام ، أما السبب فهو تلك الأحماض التي تتزايد في الجو والتربة بسبب الصناعة .

والحديث عن أخطار ما يسميه رجال العلم « تناقص الأوزون » في الطبقات العليا من الجو ، وحدوث ثقب تعبر منه اشعاعات ضارة تقتل كل شيء ـ حديث لايتوقف ، وأساسه نمط الحياة التي يعيشها هذا القدر المحدود من السكان .

لكن المشكلة السكانية التي ستفرز في المستقبل القريب شيئا آخر هو نقص العمالة المتاحة .

بين عامي ١٩٦٥ ، ١٩٨٠ ، كانت القوى العاملة بالدول الصناعية تنمو بنسبة (١,٣) بالمائة سنويا .

لكن في خمسة عشر عاما أخرى (١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠) من المتوقع أن تهبط نسبة نمو القوى العاملة إلى نصف بالمائة ، بل وتتراجع في بلد مثل المانيا الاتحادية بنسبة نصف في المائة تحت الصفر .

معنى ذلك أن التحدي أمام أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا واليابان ما زال قائما ، لما زالت لديها رحلة جديدة لانتاج تقنية أكثر تقدما ، لتلعب دورين في وقت واحد :

** الأول : لتستخدم قدرا أقل من الأيدي العاملة .

** والثاني : لتنتج قدرا أقل من التلوث .

لذلك ليس غريبا أن تكون الثروة المتزايدة في هذه الدول هي التقنية وحق المعرفة ، وليس غريبا أن تكون معظم القيمة في بعض الصناعات ـ مثل الحاسوب « الكمبيوتر » ـ ناتجا عن « سر الصنعة » ، وليس ناتجا عن كمية الخامات أو كمية العمل اللذين دخلا في العملية الانتاجية .

ومنذ سنوات والدول الصناعية تختار الصناعة والفنون الانتاجية الأكثر تقدما .

** هذا المستقبل ؟

حول المستقبل ، وفي ضوء هذه الحقائق ، لابد أن يثار عدد من القضايا المهمة .

إن عددا أقل من السكان ، وعددا أقل من العمالة الجديدة ، وقدرا أكبر من التقدم التقني لابد

أن تصبح بعيدا مناسبة
سوف يزيد دون شك مستوى المهارة ، ونزيد الحاجة للفنيين ولمراكز العلمية ، وسوف نزيد الحاجة لتعليم وسوف يقل الحاجة للعمال اليدويين العصر

ومع تركيب السكان الذي تتزايد فيه نسبة الأولاد فيه بنسبة في حال بنسبة (٤) بالمائة فانه من الطبيعي أن تطرح قضية المرأة ، وان تصبح فكرة الارتداد في البيت ، وهو ما بدا ؛ بعض المجتمعات فكرة تناقض احتياجات المجتمع ، بل وتصبح مضعف من تزايد تسهيلات العمل وإغراءاته بالنسبة للمرأة ، تماما كما تماما ؛ سوق العمل . حدما لاحتياج الاقتصادي لها ، بما يشجعها حجم لصغر للأسرة ، بعد ان دواعي معدل الانجاب

لا بد أن تاريخ لعلاقات الصناعية سوف يسجل صفحة جديدة تتوازن جديد بين قوى العمل وقوى رأس المال

. بطبيعي أن تتزايد نثاقة رأس المال . وان تنشأ مشروعات ذات لتكلفة العالية والعمالة القليلة . ومن الطبيعي أن تتغير صيغة هذه العمالة فلن يصبح عمال الفحم وعمال الصلب او عمال الموانيء هم صفوة ، يفرضون شروطها ، وان تصبح علاقات العمل فيها هي بين حال . وإن كان السؤال الذي يثار يهم سيحسب الجولة ، رأس المال يتزايد تدبره وتغير حجم العمالة التي يستخدمها وطبيعتها ، أم يكون الفوز لقوى العمل بعد ان أصبح العامل « نصف الهندسي » مطلوبا على نطاق واسع ؟

■

لأبناء سوف تحسم ذلك ، لكن على نطاق آخر ، هو عالمنا الثالث ، فإن التغيرات سوف تأخذ مسارا آخر

أن تقدم فنون الانتاج في الشمال لايعني الاستغناء عن الأكثر تخلفا أو الأكثر تلوثا بالكامل ، ولكن قد يعني تصدير ذلك الى دول الجنوب .

سوف يعاد - وهو ما يحدث من فترة ايضا - تقسيم العمل الدولي ، فبدلا من أن يكون العالم دولا تنتج الخامات ، وأخرى تنتج المواد المصنوعة ، سوف تكون هناك دول تنتج الصناعات المتقدمة ، وأخرى تنتج الصناعات المتخلفة أو الملوثة للبيئة

على غرار ما حدث طوال القرن الماضي فإن الدول النامية سوف تزيد تبعيتها التقنية للعالم المتقدم ايضا ، وقد تلهث - كما حدث - وراء الأكثر تقدما

هنا تطرح القضية . فإذا كان للتقدم التقني صنعه في الغرب بما يصاحبها التطور ويعرضها قضية السكان والعمالة ، فهل نحتاج القدر نفسه من الأساليب الانتاجية في ظل تزايد السكان والعمالة ؟ بعبارات أخرى هل سيعودنا التطور الى محنة الصينيين أنفسهم . بين طبيعة مشكلتنا هي عكس ما يجري في العالم المتقدم ؟ وهل يكون هناك حل حضاري واحد لمشكلتين متناقضتين ؟

ذلك هو السؤال . وتلك هي التداعيات للحقيقة البسيطة السكان في الشمال يزحفون للأمام ببطء شديد وبعضهم يزحف أو يتقدم الى الخلف إنها أمم تنكمش سكانيا وإن تعاظم شأنها اقتصاديا . ◻

• أفضل أن يموت المرء واقفا على قدميه . . على أن يعيش جاثيا على ركبتيه (اميليوزاباتا)

• فيا وطني لقيتك بعد لأيٍ . . كأني قد لقيتُ بك الشبابا . (شوقي)

في ذكراه المئوية

بقلم الدكتور علي شلش

لم يقتصر تأثير ت. س. إليوت في الشعر والنقد على أدباء جيله ومن تلاهم من أجيال في أوربا وامريكا.

بل تعدى ذلك الى أدباء العالم الثالث أيضا ، ومن بينهم الأدباء في وطننا العربي ، خصوصا بعد أن ترجمت معظم أعمال إليوت الى العربية وعلى رأسها قصيدته المشهورة « الأرض الخراب »

في ذكرى مرور مائة عام على ولادته .. هذه بعض الأضواء على مراحل من حياته والمؤثرات البارزة التي لعبت دورها فيها .

في ٢٦ سبتمبر الماضي احتفلت بريطانيا بذكرى مرور مائة عام على ميلاد الشاعر توماس ستيرنز إليوت ، المعروف باسم ت. س. إليوت . مع أنه ولد وتعلم في امريكا فقد أنتج كل أعماله الناضجة بعد هجرته الى بريطانيا قبيل الحرب العالمية الاولى . ومن خلال هذه الاعمال امتد تأثيره الى كثير من بلدان العالم ولغاته ، بما في ذلك امريكا نفسها

ومع حلول الذكرى المئوية لميلاد إليوت أخرجت دور النشر الانجليزية بعض الكتب والدراسات المهمة حول حياته وأدبه . وكشف الباحثون النقاب عن بعض الجوانب الغامضة في تاريخه . ولم يبق شيء من أعماله غير منشور سوى جزأين من رسائله الخاصة إلى أهله وأصدقائه ، سيصدران في العامين القادمين على التوالي ، بعد أن ظهر الجزء الأول بالفعل . وكذلك لم يبق سوى رسائله الخاصة الى صديقته الأمريكية إميلي هيل التي أوصى بعدم نشرها قبل مرور ٥٠ عاما على وفاته ووفاتها ، أي في عام ٢٠٢٠ .

أول سيرة شاملة

يأتي على رأس هذه الكتب والدراسات الجديدة عن إليوت كتابان مهمان أولهما يضم سيرة إليوت من تأليف الشاعر والقاص الانجليزي الباحث بيتر

ـد . والآخر يضم رسائل إليوت الشخصية
ـ وأصدقائه ومعارفه من إعداد زوجته الثانية
ـ إليوت التي كانت سكرتيرة له قبل زواجهما
١٩٥٧

؛ سيرة إليوت فتكتسب أهميتها من كونها أول
ـ سافية شاملة تؤلف عنه . فمن المعروف أنه
ـ السير ، ولا يهتم بوضع سيرة لحياته حتى
ـ هذه السيرة ذاتية بقلمه . ومن المعروف
ـ أنه كان يفصل بين حياة الأديب وإنتاجه ، ولا
ـ الأدب حرءا من حياة منتجه ، بل يرى
ـ ساع هروبا من شخصية مبدعه . ولذلك بذل
د وبد مجهودا مضنيا في سبيل جمع مادة هذه السيرة
لأنبوتة ، فتنقل بين بريطانيا وأمريكا ، ونقب في
لاف الأوراق ، وقلب في عشرات الكتب
والصحف ، وقابل الباقين على قيد الحياة من أهل
ـوت وأصدقائه ومعارفه ، حتى خرجت السيرة في
ـوب محكم ، بعد ان استكملت عدتها من البحث
والاستقصاء

ويتبين من هذه السيرة أن إليوت عاش ٧٧ عاما (١٨٨٨ - ١٩٦٥) توزعت بين مراحل وأطوار مختلفة . فقد قضى الثلث الأول من حياته في نعيم وهناء بين أسرة ثرية ، وفرت له أفضل أنواع التعليم ، وألحقته بجامعة هارفارد التي تخرجت فيها الصفوة ذات النفوذ في أمريكا ، وأعدته - حسب استعداده وميوله - لدراسة الأدب والتاريخ والفلسفة ، ليكون استاذا جامعيا بعد ذلك ، بل سرت له السفر الى أوربا ، وقضاء عام دراسي في فرنسا قبل إنهاء الماجستير . ولكن حرفة الأدب كانت قد أدركته . ومع أن أمه كانت تنظم الشعر ، وترعى محاولاته المبكرة في كتابته ، فقد كان يهمها ـ يصبح استاذا في الفلسفة ، وأن يكتب الشعر في وقت فراغه . ومع أنه أبدى تفوقا في دراسته الجامعية ، وأنهاها في ثلاث سنوات بدلا من أربع ، ثم يعقه ذلك عن الاستمرار في كتابة القصائد ، ـلا عن قراءة أصعب شعر كتبه الفرنسيون قبل ولادته وبعدها ، وهو الشعر الرمزي المحفوف بالغموض في الصور والمعاني . وفتح له هذا الشعر نافذة هبت عليه منها ريح الاصرار على تتبعه واستكناه أغواره . وكان العام الذي قضاه في باريس (١٩١٠ - ١٩١١) تجربة لا تنسى ، أتقن خلاله الفرنسية حتى كتب بها شعرا . واطلع على مالم يطلع عليه من شعرها وشعر الإيطالية والألمانية ، وعرف شابا من أذكى شباب جيله كان يدرس الطب ويكتب الشعر ، وهو جان فيردينال الذي اهدى اليه بعد ذلك ، قصيدته المشهورة « اغنية حب ج . الفرد بروفروك » وقد قتل فيردينال وهو يطبب الجرحى على إحدى جبهات القتال أثناء الحرب الاولى .

ولكن أهم ما خرج به إليوت من تجربة تلك « السنة الرومانتيكية » كما سماها ، هو أنه عقد العزم على أن يُخلص للشعر ، وأن يستجيب لذلك الطُعْم » الاوربي الذي تسلل الى أعماقه ، ولم يمض عليه في هارفارد بعد عودته ثلاثة أعوام ، حتى هبطت عليه فرصة ذهبية ، حين عرضت عليه الجامعة منحة دراسية لإعداد اطروحة دكتوراه عن فلسفة ف . هـ . برادلي (١٨٤٦ - ١٩٢٤) الفيلسوف الانجليزي الذي تأثر بأسلوبه . وكانت المنحة تقضي بالسفر الى جامعة اوكسفورد لمدة سنة قابلة للتجديد ، فسافر على الفور . وفي انجلترا أو في لندن على وجه التحديد ، قابل محرك الحداثة في عصره الشاعر الناقد عزرا باوند . وكان يكبر إليوت بثلاث سنوات فقط ، وقد سبقه الى عالم النشر بخمسة دواوين من الشعر ، فضلا عن أنه ضاق بأمريكا والتعليم في الجامعة ، وجاء مهاجرا يسعى وراء المغامرة والحيوية اللتين تميزت بهما اوربا في ذلك الوقت .

مضت السنة الاولى بإليوت في انجلترا دون أن يكتب اطروحته ، فلما تجددت المنحة سنة أخرى بدأ في كتابتها . ولكنه كان قد وقع تحت تأثير باوند الذي أعجبه شعره ، وشرع في السعي الى نشره . وحين انتهى إليوت من اطروحته كان قد قرر البقاء والهجرة النهائية ، فأرسل الاطروحة الى الجامعة ،

وبقي هو . وعندما جاءه حبر تبوب الجامعة لبحثه ودعوتها اياه للعودة والانتظام في سلك التدريس ، كان قراره بالبقاء أقوى من أي إغراء .

وهنا تبدأ مرحلة أخرى تستغرق الثلث الأوسط من حياته ، وتستمر حتى اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩

في هذه المرحلة يتحول الامريكي للذوات» الأمريكي في «كادح» انجليزي يحاول أن يكسب عيشه بعرق جبينه من الكتابة للصحف والتعليم بالمدارس . وبعد دمار الحرب وانتشار البطالة في انجلترا وينشر بعض شعره سأكر . ويتزوج من فتاة انجليزية ولكن هذه الزوجة الاولى تنغص عليه حياته بأمراضها المتعددة المزمنة التي انتهت بها الى الجنون ويضطر الى العمل بأحد البنوك لمدة تسع سنوات . وفي عام ١٩٢٠ ينشر كتابا نقديا ناجحا بعنوان «الغابة المقدسة» . ثم ينشر اهم قصائده واطولها بعد سنتين ، بعنوان «الأرض الخراب» وفي عام ١٩٢٥ يترك البنك ليعمل مستشارا ومديرا للنشر بدار نشر وبير Faber & Faber ثم يضطر الى الانفصال عن زوجته .

ويعيش بمفرده تارة ، او مع بعض اصدقائه تارة أخرى ويكتسب الجنسية البريطانية . ويتحول الى الكنيسة الانجليزية ، ويبدو بانه كلاسيكي في الأدب ، ملكي في السياسة . نحو كاثوليكي في الدين من يصبح متعصبا للدين . وضروريا في تطهير حياة الفرد وقيم المجتمع . ولكنه يصبح ايضا على رأس شعراء عصره وأكثرهم نفوذا . ويؤسس لنفسه مكانة مرموقة في النقد والشعر على السواء ، وهي مكانة أسهمت في ترسيخها مجلة ادبية اسمها «المعيار» Criterion وكان قد أسس هذه المجلة عام ١٩٢٢ بتمويل من سيدة محبة للأدب ، ثم نقلها الى دار النشر التي عمل بها . وعن طريقها - مع دار النشر - قدم العديد من الأصوات والمواهب الشعرية الجديدة .

وقبل أن تنتهي تلك المرحلة الثانية ، كان إليوت قد نزل إلى ميدان التأليف المسرحي الذي استمر على ساحته الى النهاية ، مثلما استمر في عمله بدار النشر ومع بداية الحرب العالمية الثانية . تبدأ المرحلة الأخيرة في حياته . وفيها توقفت مجده المرموقة ، وازداد إقبالا على الشعر المسرحي وإقلالا من الشعر الغنائي . وفي عام ١٩٤٧ ماتت زوجته بإحدى المصحات وأصبح شيخا شبه محطم على مشارف الستين ولكن سرعان ما تجددت حيويته فور فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٤٨ . وصار يتلقى النياشين وشهادات الدكتوراة الفخرية التي انهالت عليه من جامعات امريكا واوروبا . وازدادت تنقلاته وأسفاره . ولا سيما الى امريكا . بعد زواجه الثاني . وعن طريق هذا الزواج وجد السعادة الشخصية لأول مرة ، وعوض نفسه عن تعاسة زواجه الأول وظل مقبلا على الحياة حتى وفاته وقبيل موته عام ١٩٦٥ اوصى بإحراق جثته ، ودفن رماده سرية «ايست كوكر» الانجليزية الصغيرة التي خرج منها جده الأكبر مهاجرا الى امريكا في القرن السابع عشر

ملامح وحصاد

من هذه المراحل الثلاث في حياة إليوت يخرج قارىء سيرته ببعض الملامح البارزة في شخصيته وأدبه على السواء . فقد غرست فيه تربيته الصارمة الكثير من الانضباط والنظام والشدة على النفس وإذا كانت هذه من خصائص المشتغلين بالفكر والعلم لا الشعر ، فقد أنتجت كتاباته النثرية والنقدية ، ولكنها لم تقض على حساسيته الأصيلة التي كانت وراء ابداعاته الشعرية ، فضلا عن أن نقده كان نوعا من التبرير النظري لشعره من جهة ، ومحاولة لفهمه وتطويره من جهة أخرى . ومع ذلك فشعره من النوع العادي اليسير على الفهم والاستجابة الفورية ، ففيه طبقات فوق طبقات من المعاني والاشارات ، وفيه أيضا تيار من الفكر والوعي بالتراث الانساني ، يسري في أوصاله فيكسبه فرادة وعمقا . ولولا أن حساسيته بعيدة الغور ، لما استطاع أن يفلت من قبضة العقل

مريد الفلسفة .

وقد كان من أهم الاتهامات النقدية التي وجهت شعر إليوت أنه عقلاني تطغى عليه الثقافة ، وهو اتهام سبق أن فنده مريده الشاعر الناقد ستيفن سبندر ، وعلق بأن أصحابه ظنوا ان العقل بارد بالضرورة ، وأضاف : « لو كان إليوت باردا لما انسقنا وراءه » وأشار الى غنى قصيدة « الأرض الخراب » بالموسيقا واللغة الطيعة ، مما يندر وجوده في الشعر ، الأمر الذي يجعل شعر إليوت قريبا من العواطف .

واذا كان إليوت حاول كثيرا في حياته الشخصية وكتاباته النقدية أن يفصل بين الأديب وإبداعه ، وأن يتخفى ويتكتم ، فلم يكن شعره منفصلا عن حياته ولا كان نقده منفصلا عن شعره . وهذا ما تظهره سيرته بجلاء . ولو أخذنا « الأرض الخراب » كمثال ، وطابقناها على ظروفه الشخصية وأحوال عصره ، لوجدناها من غرس هذه الظروف وتلك الأحوال . فقد كانت حياته خلال السنوات التي سبقتها ـ منذ انتهاء الحرب الأولى عام ١٩١٨ على الأقل ـ جحيما من المنغصات والأزمات والأمراض كما كانت انجلترا ـ بل كانت أوربا بأسرها ـ خراباً روحياً فوق الخراب المادي . وفي هذا وذاك خرجت « الأرض الخراب » لتعبر عن حالة خاصة وأخرى عامة سواء بسواء .

تظهر في السيرة ـ بعد ذلك ـ مجموعة من الخصال التي تميز بها إليوت نفسه ، وأهمها القلق ذو السطح الهادىء إذا صح التعبير ، أي ذلك القلق الداخلي المثير للإبداع والتأمل ، حتى حين ركن الى الدين كنوع من الخلاص على المستوى الشخصي ، لكن هذا القلق المبدع الذي يميز كبار المبدعين كان مصحوبا بالتناقض أحيانا في السلوك والأقوال ، مثلما كان مغلفا بضبط النفس والكتمان والتحفظ . وإذا تناقض هذا كله مع الوفاء للأصدقاء والسعي لتشجيع الشباب فذلك هو التناقض المحبوب على أي حال فقد كان إليوت وفيا لأصدقائه لا سيما عزرا باوند الذي وقع في مشكلته المشهورة مع

● ت . س . إليوت

بلاده ، بسبب آرائه الفاشية ومناصرته لموسوليني ، وكاد يتعرض للإعدام بتهمة الخيانة الوطنية ، لولا سعي الكثيرين وعلى رأسهم إليوت الذي ظل يدافع عنه ، ويتوسط له ، ويزوره حتى آخر حياته . وكان إليوت أيضا حفيا بالمواهب الشابة الجديدة ، ولم يدخر وسعا في سبيل تشجيع أصحابها ونشر أعمالهم في مجلته ودار النشر التي عمل بها . ولعل أبرز هؤلاء الشباب ـ في جيله ـ ثلاثة ، هم ستيفن سبندر وويستان هيو أودن ، ولويس ماكنيس ، الذين وجدوا في تشجيعه وعطفه عونا على الظهور والتقدم في ساحة الشعر .

الرسائل مثل النشرات

وأما رسائل إليوت الشخصية الى أهله وأصدقائه التي جمعتها زوجته الثانية فتلقى أضواء كثيرة على

ـ الى الفوضى والعدمية ، وأن الديموقراطية لم ... صالحة لحفظ النظام الاجتماعي ، وأن المسؤولين ... يهود مثل آل روتشيلد يمثلون شرا اجتماعيا ... خطيرا ، وأن اليهود أنفسهم خطرون لأنهم ... وضعوا ثقافتهم ـ منذ رس الكتاب المقدس ـ على ... أساس مبدأ المساواة مع البشر ، وهو مبدأ سام ... وبسبب هده الأفكار التي لم تكن جريئة في عصره شكل مورا حرب « العمل الفرنسي » اليميني المعادي لليهود . وساند حكومة بيتان التي تعاونت مع هتلر اثناء الحرب الثانية ، وحكم بالسجن عند انتصار الحلفاء ولم يكن مورا وحده في هدا الموقف التكري من اليهود والنازية ، فقد شاركه بعض أدباء جيله ومفكريه مثل لوي فردينان سيلين وجورج سوريل كما شاركه بعض أدباء انجلترا من أصدقاء إليوت بعد ذلك . ولا سيما الشاعر الرسام ويندم لويس ولكن أثر مورا في إليوت ... كان أقوى وكان قد سبق إليوت بثلاثيته التي أعلنها عام ١٩١٣ حول « الكلاسيكية والكاثوليكية والملكية »

كان يكره الذكرى المئوية

روى ستيفن سبندر في ذكرياته عن إليوت عقب وفاته عام ١٩٦٥ ، انه تلقى منه رسالة في مارس ١٩٣٢ ، أثناء الاحتفال بذكرى مرور مئة عام على وفاة الأديب الألماني جيته وفي هذه الرسالة علق إليوت على الذكرى بقوله . « لست أكره لجيته سوى أن تقام له ذكرى مئوية فأنا دائما أكره أي شخص عند الاحتفال بذكراه المئوية » وها هو الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد إليوت قد مر دون ضجيج في وطنه الأول ووطنه الثاني معا ، فهل يأتي الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته وقد نسيه الناس ، وربما كرهوه ؟ يبدو أن ما سيبقى منه هو الشعر الذي نجح ـ بموهبته وثقافته ـ في جعله دكرى لعذاب القلب والروح ، ولغة للتفاهم بين القلب والعقل أما نقده فسيبقى منه انضباط الرؤية ، ودقة التحليل ، ووضوح المصطلح وأما صيته الذي انحدر في السنين الأخيرة ولا سيما في أوساط الشباب ، فينطبق عليه تعليل الناقد دربك ترافرسي في مقدمة كتابه « ت س إليوت القصائد الطويلة » الصادر في لندن عام ١٩٧٦ يقول ترافوسي

« لاشك أن هذا (الانحدار في الصيت) رد فعل طبيعي ـ الى حد ما ـ للاعجاب المبالغ فيه ، وعبر النقدي ، الذي حظي به انتاجه بين قراء كثيرين مند ثلاثين سنة أو اكثر ولاشك أن شعر إليوت له ضعفه الذي يستمر قراء المستقبل في الوعي به على الأرجح . ومع دلك فالحق أن معظم الأدباء المهمين تقريبا في عصرنا ، قد عانوا من الانحدار المؤقت في صيتهم ، خلال السنوات التي أعقبت وفاتهم » . □

■ مادام لك ركن فى القلب فستجد لك ركنا فى البيت . (انيتا اكبرج)

■ لا تناقش غبيا لأن الناس لن يعرفوا أيكما الغبى (سلفادور دالي)

■ يبدو لنا عمل غيرنا دائما أسهل من عملنا . وكلما أحسن غيرنا القيام به بدا لنا أكثر سهولة . (والت ديزنى)

■ أعطنى عددا قليلا من الشرفاء ، وأنا أحطم لك جيشا من اللصوص (جان جاك روسو)
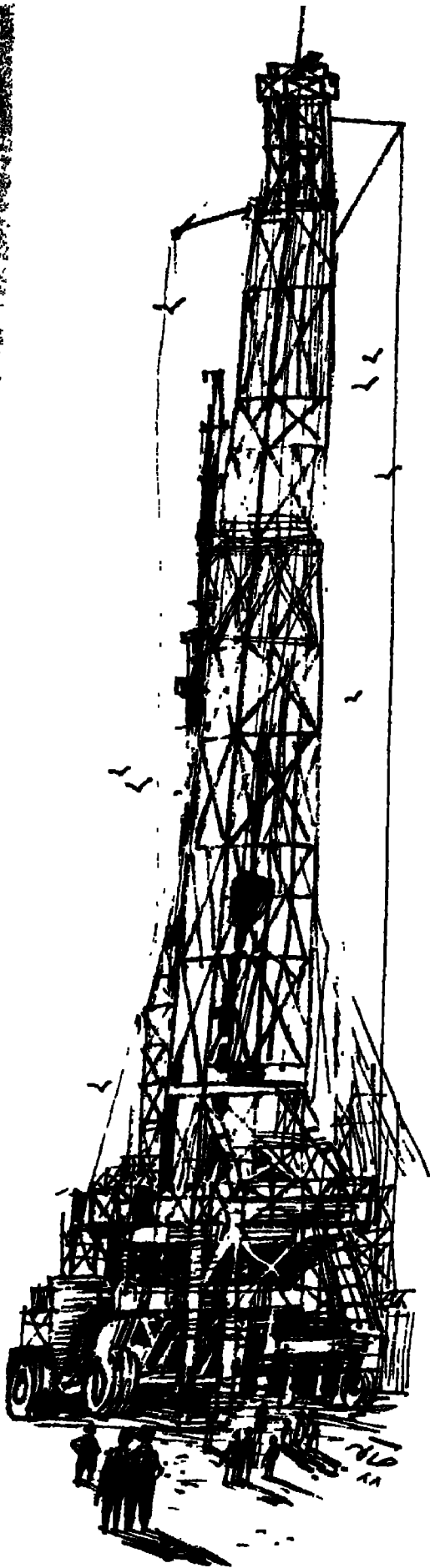
النفط والتنمية والبيئة في الكويت

بقلم :
المهندس حامد شعيب *

« أصبحت قضيتا البيئة والتنمية من أكثر قضايا العالم إلحاحا ، وشُغِلَ العالم كله بحل التناقض بينهما ، كيف يمكن استمرار التنمية دون أن يؤثر ذلك على سلامة البيئة ؟
وفي الكويت كانت التنمية تحديا حقيقيا ، وحاجة لا خياراً .
وهذه قصة مسيرة حافلة بالتحديات والتوازن بين أهداف التنمية وسلامة البيئة » .

* رئيس جمعية حماية البيئة الكويتية

● المخلفات الصناعية من النفط ومشتقاته مصدر تلوث كبير ، علينا مكافحته ، والبحر أيضا كمصدر غذاء ووسيلة مواصلات وترفيه تلوثه يشكل خطرا على المجتمع .

ـدات النفط في تنفيذ خطة شاملة للتنمية ـطوير . وقد ترتب على ذلك زيادة سريعة في عدد ـكان المحليين والوافدين حيث ارتفع العدد من ٢٠٦,٠٠٠ عام ١٩٥٧ الى ما يربو على مليون ونصف المليون عام ١٩٨٥ . وكان من أصعب الأمور التى نتجت عن التنمية الحاجة الى توفير ماء يكفي لتلبية حاجات الأعداد المتزايدة من السكان . وكان الكثير من الماء المتوافر يعتمد على فصل الامطار ، وعلى طرائق بدائية لجمع ماء المطر وخزنه . أما كمية مياه الأمطار التى كانت تخزن في برك) تحت الارض بعد جمعها من اسطح المنازل فلم تكن تفي بحاجة السكان طوال العام . ولذا كان يتم استغلال مياه جبيع (الفلبان) المعروفة . وفي بعض الأماكن كان يتم بناء سدود لتجميع اكبر قدر ممكن من المياه في كل مرة تهطل فيها الامطار . وأما نقل الماء الى المدينة فكان يشكل معضلة اخرى ، نظرا لعدم توافر وسائل نقل غير الجمال والحمير . وقد تغلب اسطول السفن الشراعية الكويتي في بادىء الأمر على هذه المشكلة فقام بنقل الماء العذب الى الكويت من مصب شط العرب في البصرة . وكانت الرحلة تستغرق نحو ثلاثة ايام كحد أدنى ذهابا وايابا عندما تكون الرياح مؤاتية

غير ان الكويت وجدت في نهاية الأمر حلا لمشكلة نقص المياه لديها . فتفاوضت في عام ١٩٥٣ على اقامة المحطة الأولى لتقطير مياه البحر وانتاج الطاقة الكهربائية . وقد بلغت الطاقة القصوى لانتاج هذه المحطة من الماء نحو مليون جالون امبراطوري يوميا ومنذ ذلك الحين بدأت الكويت في زيادة تسهيلات انتاج المياه العذبة بشكل منتظم الى حد تمكنت معه في عام ١٩٨٦ من انتاج ١٦٠ مليون جالون يوميا من أصل ٢١٥ مليون جالون ممكن انتاجها

وفي نفس الوقت فإن مشروعات البحث عن المياه الجوفية التى بدأت منذ الخمسينيات ، أسفرت عن اكتشاف مخزون كبير من المياه عالية الملوحة في منطقة الصليبية الى الغرب من مدينة الكويت ، حيث تم سحب هذه المياه واستخدامها في الاغراض غير المنزلية . ثم اكتشف بعد ذلك في الروضتين والشقايا مستودعان آخران كبيران لنوعية أفضل من المياه الصبيبية (تضاف الماء الصليبي الى المياه المقطرة بنسبة ١ الى ٩ وذلك لجعل ماء الشرب سائغ المذاق) واكتشفت مياه عذبة في المنطقتين السابقتين وقد بلغ منتوج المياه الجوفية نحو ٩٦ مليون جالون يوميا أما مشروع استثمار أهم مصدر للمياه من شط العرب الذي يبعد بضع مئات من الكيلومترات فقط عن مدينة الكويت فهو مازال قيد الدراسة

ضبط التنمية

بذلت حكومة الكويت منذ الأيام الاولى لاستثمار النفط جهودا ملحوظة لضبط عمليات التنمية الطبيعية في البلاد فقد سعت الحكومة الى تحديث اقتصادياتها فاتجهت الى استثمار عائدات النفط في مشاريع الاسكان ، والخدمات الصحية ، والتعليم . وفي تحسين البنية التحتية للبلاد وقد

أدرك حاكم الكويت آنذاك المغفور له الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ومجموعة من المستشارين الوطنيين المرموقين ، الحاجة الى هيئة خاصة لإقرار ومتابعة تنفيذ خطط التنمية المبنية على ما هو متوافر من مصادر . وعلى وضع الخطط التي تلبي حاجات المستقبل ومتطلباته

وقد مرت عملية ضبط التنمية في الكويت بثلاث مراحل بدأت المرحلة الاولى منها بإنشاء (مجلس الانشاء) وكان برئاسة المغفور له الشيخ فهد السالم الصباح ورؤساء عدة ادارات (التعليم ، والصحة ، والمالية وسواها) علاوة على بعض الخبراء

● الزحف الصحراوي مشكلة تهدد التنمية العمرانية والبيئة في الكويت كما تبين الخارطة والمناطق المحمية تبقى خضراء طوال العام حتى بدون مطر ، وإلى (أقصى اليسار) نوع من نباتات البيئة المحلية وهي غذاء للماشية ومصدر للوقود وتعمل على تثبيت التربة .
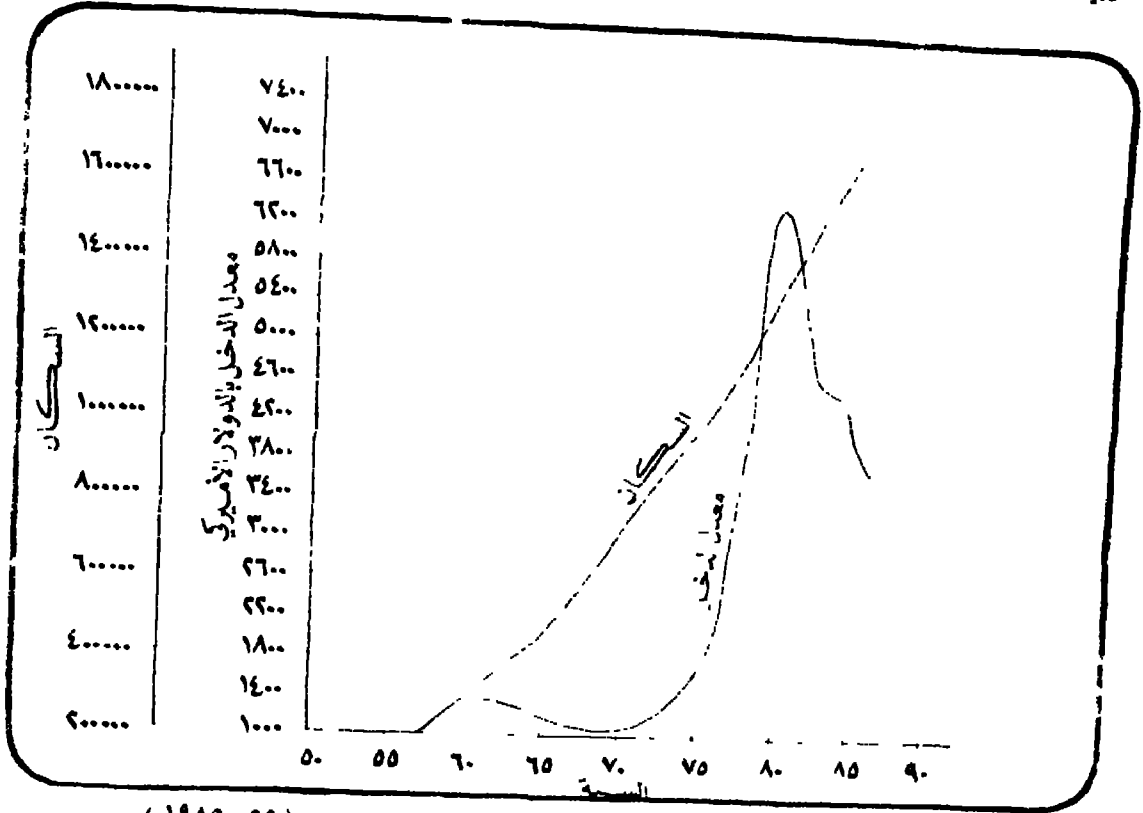
● تطور زياده سكان دولة الكويت بالمقارنه مع معدل دخل الفرد سنوي (٥٥ ـ ١٩٨٥)

من الخارج . وذلك في عام ١٩٥٢ . وكانت المهمة الرئيسة للمجلس هي الاشراف على التنمية الطبيعية لمدينة الكويت ، وضواحيها ، وسواها من المناطق السكنية الاخرى

وقد أقر المجلس الخطة الهيكلية الرئيسة لعام ١٩٥٢ وهى الخطة التي شكلت فيما بعد الاساس لخطط التنمية التى تلتها . وفي عام ١٩٦٠ صدر مرسوم بإنشاء هيئة اخرى للتخطيط تحت اسم مجلس الانشاء والتعمير الذى تشكل من ستة أعضاء وثلاثة مستشارين ليس لهم حق التصويت علاوه على رئيس مهندسي وزارة الاشغال العامة

أما المرحلة الثانية من الخطة فبدأت بإنشاء مجلس التخطيط في عام ١٩٦٢ . وهو المجلس الذي حظي بسلطات اوسع كثيرا من الهيئتين السابقتين . ثم حظي بمشاركة شعبية أوسع . وفي عام ١٩٧٠ شهدت الخطة تعديلا ازدادت بموجبه المشاركة الشعبية . واكتسب القطاع الخاص دورا مساويا لدور الحكومة في التخطيط . وأما المرحلة الثالثة من الخطة الرئيسة فقد بدأت مع انشاء وزارة التخطيط في عام ١٩٧٦ التي ضم اليها مجلس التخطيط . وأصبحت مسئولة عن جميع عمليات التخطيط الاقتصادى . والاجتماعي . والعمرانى

وبعد ذلك تشكل في مايو من عام ١٩٨٧ المجلس الأعلى للتخطيط برئاسة سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء لتلبية هدف الحكومة الجديد المتمثل في اشراك القطاع الخاص في خطط التنمية

لقد اضطلعت الكويت منذ استحداث خطة التنمية الوطنية الرئيسة عام ١٩٥٢ بدور طليعي رائد في منطقة الخليج من حيث ضبط التنمية واخضاعها للسيطرة بهدف المحافظة على البيئة . وكان ذلك يتم بمراجعة الخطة وتعديلها مرة كل خمس سنوات تقريبا لكي تتمشى مع النمو السكاني السريع ، ومع تزايد الأنشطة الاقتصادية حيث كان التعديل يعتمد على بيانات حول النشاطات السكانية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ومتطلباتها المستقبلية

ولقد جاءت الخطة الهيكلية الوطنية الأخيرة ، التى اعتمدت في عام ١٩٨٣ لتغطي جميع أرجاء الكويت . وتواجه التنافس على طلبات استغلال

...بمة الأرض المتوافرة ، بحيث أصبحت مساحة الأرض المخصصة اليوم للنفط والغاز الطبيعي وما يتصل بهما من نشاطات ، تزيد على خمسين بالمئة من مساحة البلاد

اثار خطط التنمية على البيئة

إذا نظرنا الى القضايا البيئة ، والأضرار الملموسة في البيئة ، وجدنا صناعة النفط مسئولة عن معظم حالات التلوث الشديد سواء على اليابسة أو في الغلاف الجوي ، أو في البحر حيث تشكل هذه الصناعة تحديا متزايدا للبيئة ولذا فهناك حاجة ملحة الى المزيد من السيطرة والتحكم بأمور البيئة ، ولعل ارتفاع تكلفة حلول مشكلات التنمية التي تؤثر على البيئة هي التي تؤخر اتخاذ اجراءات ضبط وقائي فعال ويعد تلوث مياه البحر والمناطق الساحلية من أخطر القضايا في هذا الشأن ، حيث أنه من الأهمية بمكان الإبقاء على مياه البحر بعيدة عن التلوث لا لحماية الثروة السمكية وأماكن الترويح فحسب ، بل لحماية مياه البحر التي تؤخذ من المناطق القريبة جدا من أماكن القاء مخلفات المصانع أو من محطات تصدير النفط لتقطيرها وتحويلها الى مياه صالحة للاغراض المنزلية

دور القطاع الخاص

قام المؤتمر الأول للبيئة البشرية الذى عقدته الامم المتحدة في ستوكهولم عام ١٩٧٢ بغرس بذور الوعي البيئي في العالم كله . وقد أدرك عدد من الكويتيين المهتمين بقضايا البيئة حينذاك حاجة المعاهد والمؤسسات الحكومية الى دعم القطاع الخاص للمساعدة في تحقيق وتنفيذ السياسات المتعلقة بحماية البيئة . وقد استهلت هذه المجموعة التي ضمت وزراء وأطباء ورجال تخطيط ومهندسين وعلماء نشاطها بإنشاء جمعية حماية البيئة الكويتية ، التي تم اشهارها رسميا من قبل الحكومة في عام ١٩٧٤ .

وكان من ضمن أهداف الجمعية توعية الجمهور وحثه على حماية البيئة وتشجيع الجهود الجماعية لحل المشكلات البيئية الحالية والمستقبلية ، علاوة على تنمية التفكير العلمي ، وسن القوانين ، وارساء

المعايير الادارية حول سلامة البيئة . وحماية موارد الكويت الطبيعية من أجل خير ورفاهية الأجيال في الحاضر والمستقبل . ولقد نادت الجمعية ـ من منطلق التأكيد على مسئوليتها في صيانة البيئة الطبيعية والحفاظ على ميراث الحياة البرية بحيواناتها ونباتاتها ـ بأن حماية البيئة هي مسئولية كل مواطن

وفي عام ١٩٨٧ اختار برنامج الأمم المتحدة للبيئة الجمعية الكويتية عضوا في مجموعة الخمسمائة النخبة ، وكان ذلك تشريفا لعمل الجمعية المميز في المساعدة على حماية البيئة وتطويرها

وفي العام نفسه منحت المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية الجمعية جائزتها السنوية ، وتنظم الجمعية التي تضم اليوم في عضويتها أكثر من ٦٠٠ عضو بما في ذلك ٦٠ منظمة أو هيئة حكومية وغير حكومية ، ندوات ومحاضرات ومعارض حول موضوعات بيئية محلية ، وقد شرعت الجمعية في عام ١٩٨١ باصدار مجلة شهرية (البيئة) لابراز نشاطاتها كما أصدرت كتيبا بعنوان « قضايا بيئية » مرة في كل شهرين ، وأصدرت كذلك ابتداء من عام ١٩٨٥ سلسلة من كتيبات الاطفال ضمت حتى الآن خمسة اعداد

مبادرات القطاع العام

في عام ١٩٨٠ أنشأت الحكومة « مجلس حماية البيئة » (مرسوم قانون حماية البيئة رقم ٦٢ لعام ١٩٨٠) لتطبيق قانون حماية البيئة وقد تمثلت في هذا المجلس الوزارات المعنية بالتنمية الاقتصادية ،

والصناعية ، والعمرانية ، كما تمثل القطاع الخاص فيه بجمعية حماية البيئة الكويتية ، ويرأس المجلس وزير الصحة العامة ، وقد تمثل في المجلس أيضا بلدية الكويت ، ومنطقة الشعيبة الصناعية ، ومعهد الكويت للأبحاث العلمية

ويقوم المجلس بإعداد استراتيجيات حماية البيئة ، ويشرف على تنفيذها ككل ، كما يعد تقريرا سنويا عن حالة البيئة في الكويت ، ويقترح السياسة العامة لحماية البيئة بما في ذلك الشروط الصحية للتنمية الصناعية ، والمناطق السكنية ، واستخدامات الموارد الطبيعية ، هذا ويبادر المجلس ، تشجيعا للمواطنين على المشاركة في حماية بيئتهم ، الى تثقيف العامة واعداد برامج التدريب حول طرائق وأساليب الحماية البيئية كما أنه يعد أيضا النظم والتشريعات ويساعد في اتخاذ القرارات المتعلقة بمشاركة الكويت في الاتفاقيات البيئية الاقليمية والدولية

وكنتيجة اخرى لقانون حماية البيئة لعام ١٩٨٠ - وللحاجة الى مؤسسة فنية متخصصة في الحماية البيئية - تم انشاء ادارة حماية البيئة في وزارة الصحة العامة وتقوم هذه الادارة بتنفيذ توصيات مجلس حماية البيئة ، وبتنسيق العمل بين مختلف الهيئات المعنية بحماية البيئة ، وهي تدرب كذلك الكوادر الفنية الحكومية وتنجز برامج التثقيف الجماهيري

لقد وضعت ادارة حماية البيئة معايير بيئية للمشروعات العمرانية والصناعية الجديدة ، وذلك للحد من الملوثات ومنع حدوث اي تغير بيئي قد يضر بصحة المواطنين او بالاتزان البيئي ككل ولمجلس حماية البيئة الحق ، بعد دراسة تقارير الادارة في أن يوقف العمل في أية مؤسسة أو يحظر استخدام اية أداة أو آلة ، أو مادة تهدد سلامة البيئة كما قد يطلب المجلس اتخاذ اجراءات علاجية أو وقائية خلال فترة التأجيل ، ويستطيع مستعينا بالقضاء ، جعل أي توقيف قرارا دائما اذا لزم الامر

ولقد أقامت ادارة حماية البيئة حتى الآن ثلاث محطات مراقبة دائمة في المناطق السكنية لقياس التلوث في الهواء ، وقياس تأثيره في صحة الانسان والبيئة وقد زودت كل محطة بأجهزة حساسة

● النفايات الشخصية لا تقل خطرا على البيئة من النفايات الصناعية ، كذلك الشواطيء الطبيعية من الضرورة المحافظة عليها كمركز حيوي للترفيه . (وإلى أعلى) نجد آثار تلوث البحر واضحة بالعين المجردة ، وكذلك النبات الصحراوي مصدر غذاء رئيسي لتنمية الثروة الحيوانية (إلى اليمين) .

نقيس باستمرار كميات ثاني اكسيد الكبريت ، وأكاسيد النيتروجين ، وايدروكربونات ، والاوزون ، وأول اكسيد الكربون ، كما تعمل قياسات الأرصاد في الوقت نفسه على قياس سرعة الرياح واتجاهها ، ودرجات الحرارة ، والرطوبة النسبية ، والضغط الجوي . وهناك عدة مختبرات متنقلة ، ومجهزة لأخذ قياسات مماثلة ، تستخدم للقيام بأبحاث خاصة او للتحقيق في الشكاوى والتأكد من صحتها ، وهناك أيضا مختبر خاص يستخدم لدراسة مستويات الضجيج ، وآخر لقياس التحولات الحرارية

أما هيئة منطقة الشعيبة الصناعية ، وهي هيئة حكومية تشرف على ادارة المشروعات الصناعية الكبيرة في المنطقة وتقرها ، فتقوم بمراقبة مآخذ مياه التحلية وترفع تقاريرها الى حماية البيئة وقد نظمت الهيئة أيضا برنامجا لفحص العينات وقياس مستوى الملوثات النفطية وغير النفطية في الماء

ومن المؤسسات الحكومية التي تساعد مجلس حماية البيئة وغيره من المؤسسات المعنية بالمشكلات البيئية ، معهد الكويت للأبحاث العلمية الذي تأسس سنة ١٩٧٣

اسهام علمي

ويقدم المعهد الدراسات العلمية في مجال البيئة البحرية ، وتحديد مقدار الملوثات وتغيراتها المستمرة ، وأثر ذلك على البيئة البحرية وقد طور المعهد نموذجا رقميا للتنبؤ بتحركات بقع الزيت في المياه الساحلية على المدى البعيد والمدى القريب وهناك دراسات تحت الاعداد حول مقدار التلوث بالزيت في أعماق البحر ، وتأثير ذلك على المياه والثروة السمكية

كما أسهمت نشاطات الهندسة البيئية في المعهد بدراسة حول أثر تدفق مياه المجاري الصحية في الكويت على البيئة

ولأن مشكلة الرمال المتحركة في الكويت من المشكلات ذات الأهمية العظمى ـ حيث إنها تؤثر في المنشآت العمرانية ، والصناعية ، والدفاعية والزراعية ـ فهي تحظى باهتمام متزايد من قبل المعنيين في الكويت ووفقا لدراسة قامت بها منظمة الصحة العالمية ، وشملت ٤١ مدينة في العالم ، تبين ـ على مدى خمس سنوات ـ أن في مدينة الكويت أعلى مستوى من المواد المعلقة المحمولة حزنيا بفعل العواصف الترابية والرملية .

هذا ، وقد قام معهد الكويت للأبحاث العلمية بانجاز مشروع علمي كبير حول عوامل مكافحة الرمال المتحركة وتثبيتها ، اشتمل على حساب معدل هجرة الكثبان الرملية وانتقالها . كما قام المعهد كذلك بتقييم الاساليب المستخدمة لمقاومة الرمال المتحركة في البلدان الاخرى ـ بما في ذلك الأساليب الميكانيكية ، والبيولوجية ، وتثبيت السطح ـ وبتشجيع التخطيط المتكامل للتحكم في هذه الظاهرة وضبطها في الكويت . ويدرس المعهد حاليا قابلية موارد التربة للتآكل والترسيب في المناطق المعرضة للتعرية ، ويبحث في استخدام أنواع مناسبة من النباتات بما في ذلك الأعشاب ، والشجيرات ، والأشجار لتثبيت الكثبان الرملية .

وقد تم انجاز مشروعين في مجال مكافحة تلوث الهواء ، تناول المشروع الاول دراسة وتقييم الدخان المنبعث من الشاحنات والحافلات التي تستخدم الديزل كوقود ، بينما تناول المشروع الثاني محاولات القضاء على تلوث الهواء في منطقة الشعيبة الصناعية .

ويجري المعهد أيضا ضمن برامج مشروعاته البيئية بحثا حول مشكلة الرعي الجائر ، وتشتمل مشروعاته كذلك على انماء الغطاء النباتي ، واقامة متنزه وطني ومحميات ، علاوة على حماية ورعاية الحياة البرية مع اجراء التجارب على النباتات لأغراض التجميل ، واعادة تخضير البلاد . كما تشتمل كذلك على تطوير الانتاج الحيواني والنباتي ، ومدى التحمل البيئي ، والمحافظة على التربة ومصادر المياه .

النشاطات الاقليمية

وتبذل الكويت نشاطا اقليميا ملحوظا في مجال حماية البيئة ، كما تلعب من خلال بعض المنظمات كمجلس التعاون الخليجي ، والجامعة العربية ، والمنظمات العالمية ، دورا طليعيا في انشاء المعاهد والمنظمات ، وابرام البروتوكولات التي تهدف الى

ـمريـز الحـماية البيئية ، ففى عام ١٩٧٣ ـ بعد عام حد من انعقاد مؤتمر الامم المتحدة في ستوكهولم ـ ـرعت الكـويت في منـاقشـات مكثفـة مع الـدول لاخـرى المحيـطة بالخليـج العـربي لانشـاء منـظمة اقليميـة لحماية البيئة . وكانت جميع هذه الدول من البلدان المنتجـة للبترول التى تعتمد على هذا الخليج الضيق شبه المغلق لشحن بترولها وأحيانا لاستخراجه من ميـاهـه . كما أن معـظمهـا لديـه على شواطىء الخليـج مناطق صناعية ومحطات تقطير للمياه ، بل وتستغـل نفس الميـاه لاغـراض الصيـد ، والنقـل ، والترويح

لهذا فقد عقد المؤتمر الاقليمى الاول في الكويت عام ١٩٧٨ لبحث الصـلاحيات اللازمة لحماية البيئة البحـريـة والمنـاطق الشـاطئية وتنميتهـا وقد تبنى المؤتمـر حطة عمـل لحمايـة البيئـة البحـرية والمناطق السـاحلية وتـطويرها ، كما تبنى بروتوكولا للتعاون الاقليمى في حالات الـطوارىء لمكـافحـة التلوث النـاتـج من النفط وغـيره من المـواد الضـارة وتم الاتفاق كذلك على انشاء منظمة اقليمية للتنسيق فيما يتعلق بحماية البيئة البحرية في منطقة الخليج

وبـالفعـل أنشئت المنـظمـة الاقليمية لحماية البيئة البحـريـة بالكـويت في يوليو من عام ١٩٧٩ ، وفق اتفاقية تم اقرارها في المؤتمر الاقليمى لعام ١٩٧٨ ، وقـد ضمت المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية في عضـويتهـا ثماني دول هي البحـرين ، وايـران ، والعـراق ، والكـويت ، وعُـمان ، وقطر ، والمملكة العـربيـة السعـوديـة ، والامارات العربية المتحدة ، وتم تعيـين وزيـر الصحـة العـامة الكويتى سكرتيرا عامـا للمنـظمـة ، هذا وتضـطلع المنـظمة الاقليمية لحمايـة البيئـة البحـريـة بتنظيم الامور المالية المتعلقة بحماية البيئة البحرية ، وترد على استفسارات الدول الاعضـاء ، وتعـد التقارير وتوزع أحدث النصوص والتعـديلات في القوانين الدولية المتعلقة بحماية البيئة البحـريـة . كما وتقـدم المنـظمـة أيضـا مساعدة فنية لمخـططات التشريعات البيئية الوطنية ، وتشرف على ادارة برامـج التـدريب لمسـاعـدة الدول الاعضاء في تنفيذ سياساتها البيئية .

وقـد تم اعـداد خطة عمل ، عرفت بخطة عمل الكـويت ، لمواجهـة الحـاجـات البيئيـة ، وتعـزيـز قدرات الحـمايـة البيئـية للدول الاعضـاء في المنـظمة الاقليميـة لحماية البيئـة البحـريـة من خلال برامج التعاون الوطنية والاقليمية ، وقد عدّت الخطة حماية البيئـة البحـريـة من أهم اولـويـاتهـا ، واعتبـار النهـوض بمستـوى الصحة العامة للانسان ، وتوفير الـرفاهية له غاية نهائية تسعى الخطة الى تحقيقها كما هدفت الخـطة ايضا الى تقييم حالة البيئة بما في ذلـك نشـاطـات التنميـة الاجتـماعية والاقتصادية ، وحـاحـات المنطقـة بغـرض مسـاعدة الحكومات في مواجهة المشكلات البيئية وخاصة تلك المتعلقة بالبيئة البحـريـة كما أنها تقدم الارشادات المتطورة حول النشـاطـات التى لها تأثير على التوعية البيئية أو على الحمـايـة ، والاستخـدام الـدائم للمـوارد البحـريـة المتجـددة ، وتقـدم تعليمات حول الأدوات القانونية اللازمة لتوفير اطار من التعاون لحماية وتطوير المنطقة على اسس ثابتـة ، وتـدعم الاجـراءات المتعلقـة بالـترتيبـات المالية الوطنية والاقليمية ، وبالمؤسسات التي يتطلبها انجاز خطة العمل بنجاح .

مركـز المسـاعـدة المتبـادلـة

قامت المنـظمـة الاقليمية لحمايـة البيئـة البحرية ـ نتيجة لبروتوكول عام ١٩٧٨ حول التعاون الاقليمى لمكافحة التلوث البحرى في الحالات الطارئة ـ بإنشاء مركـز المسـاعـدة المتبـادلـة للطوارىء البحـريـة في البحرين عام ١٩٨٢ ، وقد هدف المركز الى مساعدة الـدول المتعـاقـدة في تطويـر قدراتها الوطنية لمكافحة التلوث بالنفط والمـواد الضارة الاخرى ، وفي تنسيق تبادل المعلومات والتعاون التقني والتدريب . وهناك هدف اضـافي تمثـل في تشجيـع البـدء بعمليـات مكـافحـة التلوث على المستـوى الاقليمى ، وقـد اضـطلع المـركـز بدور رائـد في مكافحة بقعة الزيت اثنـاء كارثة تسرب النفط من حقل (نوروز) في عام ١٩٨٣ ، وكـارثـة تسرب النفط ايضـا مـ احـدى الناقلات عام ١٩٨٥ .

والمـركـز معـد ـ بشكل خاص ـ لجمع المعلومات المتعلقـة بالخـطط البحـريـة المحتملة في الحـالات الطارئة ، وتوزيعها على الدول الاعضاء من جهة ، ولاقامة نظام اتصالات لتبادل المعلومات الفورية فيما يتعلق بالمجـالات البحـريـة الطارئة من جهة ثانية ،

● (إلى أعلى) أحد الطيور المهاجرة التي تمر بالكويت في مواسم الربيع . (وأسفل) أحد مظاهر الربيع الزاهية

وفي محاولة لمساعدة الدول المتعاقدة في الاعداد لخطط المحتملة ، يقوم المركز باعتماد اجراءات يتم موجبها نقل الكوادر البشرية ، والمعدات والمواد المطلوبة في الحالات البحرية الطارئة من الدول واليها وعبرها ، كما ويشجع برامج التدريب الخاصة بمكافحة التلوث . ويعد المركز كذلك قوائم بالهيئات ، والمواد ، والسفن والطائرات المتوافرة وغيرها من المعدات المتخصصة اللازمة في الحالات البحرية الطارئة .

ولقد قامت سكرتارية المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية منذ عام ١٩٨٢ بانجاز عدة برامج لحماية البيئة البحرية من التلوث ، كما نظمت هذه المنظمة دورات تدريبية جماعية ، وورش عمل وندوات للدول الأعضاء بهدف زيادة القدرات العلمية والتقنية لدى شعوب المنطقة . وقد تدرب حتى الآن اكثر من ٥٠٠ متدرب في مجالات عدة مثل أخذ العينات الملوثة بالنفط وغير الملوثة ، وتحليلها ومثل تداول المعلومات ، وصيانة المعدات ، علاوة على مكافحة التلوث البحري وضبطه ومعالجته ، وعلى تشغيل معدات مكافحة التلوث بالنفط ، وصيانتها ، وتخزينها .

ضمان اقتصاد ثابت

واذا كان العالم اليوم من خلال برنامج الامم المتحدة لحماية البيئة ، يطرح سؤالا هاما مفاده ماذا بعد الموارد الطبيعية ؟ وبدأ مفهوم التنمية المستمرة يلح على ذهن العالم بمعنى دراسة الموارد والثروات لضمان استمرار التنمية واستمرار الحياة في البلدان التى تعتمد على نوع واحد من الثروات الطبيعية كالبلدان التي تعتمد على الآبار فقط كمصدر للمياه ، او بلدان النفط .. الخ . وينظم المجتمع الدولى حملة علمية تحت اسم التنمية المستمرة لتوصيل هذا المفهوم ، والاهتمام بموارد الثروة والحياة ، فإن الكويت قد بدأت ـ منذ وقت مبكر جدا ـ في طرح سؤال ماذا سيحدث للاقتصاد والبيئة عندما ينضب النفط والغاز الطبيعي ؟ تشير التقديرات الى أن موارد النفط والغاز الطبيعى سوف تدوم اكثر من ٢٠٠ سنة اذا استمر الانتاج على معدله الحالى . أما المعدل الحالى لانتاج البترول فيقدر بنحو ٧٥٠,٠٠٠ برميل يوميا ويقدر معدل انتاج الغاز بنحو ٥٠٠ مليون قدم مكعب في اليوم ، حيث يصدر ٤٠ بالمائة من النفط على هيئة بترول خام و ٦٠ بالمائة على هيئة بترول مكرر ، كما ويضخ الى الكويت فائض الغاز من الحقول العراقية المجاورة لاستخدامه فى انتاج الطاقة حيث انه يغطى ثلاثين بالمائة من الاستهلاك المحلى

هذا وقد وسعت الكويت قدر استطاعتها من استثماراتها في محطات تكرير البترول وتوزيعه في الخارج في محاولة منها لايجاد أسواق جديدة لتصدير نفطها . كما قامت باستثمارات واسعة في صناعات البتروكيماويات على المستويين المحلى والخارجي وتم استثمار جزء من عوائد النفط من قبل هيئة للاستثمار تدر اليوم على الكويت دخلا يوازى ، بل ويفوق أحيانا الدخل السوى من موردى النفط والغاز الطبيعيين . والحكومة تشجع أيضا القطاعين ـ الخاص وشبه الخاص ـ على الاستثمار لجعل الكويت مركزا للاستثمار والتجارة في المنطقة

ومن المؤمل التحكم بالتأثيرات البيئية الناتجة من الاستثمارات المتزايدة للنفط والغاز ، ومن الاستثمار في الصناعة ، وفي التوسع العمرانى ، وذلك عن طريق التخطيط الفعال والمناسب للتنافس على استخدام الارض لأغراض شتى مثل التوسع العمرانى ، والانتاج الزراعى ، وأماكن الترويح والاستجمام ، وعن طريق سن تشريعات وأنظمة عصرية لحماية البيئة . ولقد ازداد الوعى العام بهذه المسائل منذ انشاء مجلس حماية البيئة ، وجمعية حماية البيئة الكويتية ، ومنذ بدأ التعاون بين القطاع العام والقطاع الخاص لتحقيق هدف مشترك .

ووفق تقارير الأمم المتحدة فإن الكويت بفضل سياستها الاقتصادية العاقلة والرشيدة سوف تتمكن من الصمود ـ حتى لو نضب النفط ـ دون أن يتأثر مستوى الحياة غير أنها ستظل تواجه مشكلات بيئية خطيرة على اليابسة وفي المناطق البحرية خارج حدودها . ولذا يتعين على دولة الكويت العمل مع جيرانها لتحقيق مزيد من السيطرة الاقليمية على البيئة ، وذلك من خلال خطة شاملة تقوم بتنفيذها المنظمات الاقليمية والدولية (٢)

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

الفن الجميل

إنما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين إلى الحياة . . فلا يقال عن دين انه يحيي الفنون الجميلة أو يتقبل إحياءها إذا كانت له نظرة زرية إلى الحياة وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية ، وإلى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال .

ولا يقال عن دين انه يزدري الفن الجميل إذا كان الجمال من مطالبه وكانت نعمة الحياة مقبولة في شرعة المتدين به بل واجبة عليه

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها .

وغيره من الأديان بين اثنتين · فإما السكوت عن التحريم والايجاب معاً أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم . .

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله بالجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده . .

ففي خلق الأرض زينة وفي خلق السماء زينة . .

(إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملاً) .

(سورة الكهف)

وكل من حرّم هذه الزينة على الناس فهو آثم لا يقضي في تحريمه بأمر الدين . .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ) .

(سورة الاعراف)

والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة في محراب العبادة كأنها قربان إلى الله حيث لا قربان في الإسلام . .

« يَابَني آدَم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

(سورة الاعراف)

والسنّة النبوية فيما روي عنه عليه السلام وفيما أثر عن حياته مرددة كاما لمعاني الآيات القرآنية في ترك نعمة واباحة الزينة والنهي عن تحريم الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا والتعبد لله بتعظيم محاسن خلقه ومحبة آيات الجمال في أرضه وسمائه . . قال عليه السلام . ان الله جميل يحب الجمال .

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى : « وَيَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ »

انه هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن . وقال . من له شعر فليكرمه .

وقال : ان الله يحب كل جيد الريح ، كل جيد الثياب

وأخبره بعض أصحابه أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له : « لا تفعل . . صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً . . »

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث في الأثر واختلفت فيها الروايات ولكنها لم تختلف قط في معناها ومؤداها . لأن حياة النبي الكريم كلها مصداق للإيمان بحق الجسد مع حق الروح . .

والدين الذي ينظر إلى الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريماً لشيء من الفن الجميل أو نهياً عن شيء يجمل الحياة ويحسن وقعاً في الأبصار والأسماع . وإنما سبقت الظنة إلى هذا الخطأ لتشديد الاسلام في منع عبادة الأوثان ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والأنصاب . ولم ترد في الكتاب كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل . ولم يثبت عن النبي عليه السلام قول قاطع في تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة إليها في نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها .

روى الأزرقي في أخبار مكة : « أن النبي عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : يا شيبة . . امح كل صورة فيه إلا ما تحت يدي . قال فرفع يده عن عيسى بن مريم وأمه . »

وهذه الرواية يقابلها ان النبي عليه السلام لم يدخل الكعبة الا بعد أن أزيلت منها الصور القائمة فيها أو المنقوشة عليها ، فان صحت الرواية وصح انه عليه السلام قد ترك بعض الصور وأمر بازالة بعضها فليس في ذلك تحريم للصور على اطلاقها ، وان صحت الرواية الاخرى وكانت الصور قد أزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دخوله اليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التي تقضي بها ضرورة الحيطة في أوائل كل دعوة تخشى فيها النكسة إلى ما سلفها من دعوات محظورة . وما من دعوة في عصرنا هذا تستغني عن مثل هذه الحيطة الواجبة فيما تحذره من نكسات العهود الغابرة . .

والقاعدة العامة في الاسلام انه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر . فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم ، لأنه فوات للمصلحة ونهيٌ عن المباح . .

ولا نعلم أحداً من المسلمين خاصتهم وعامتهم يزوي وجهه أمام تحفة من تحف الفن حيث تؤمن النكسة إلى العبادات الوثنية ، وقد كان الشيخ محمد عبده ـ الامام المصلح المجتهد ـ يزور معاهد الفن ويكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها النادرة وتحفها النفيسة لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الانسانية .

على ان شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر الى فن السماع ـ أو فن الغناء والموسيقا ـ لأنه من الفنون التي لا غبار عليها ولا تحريم لشيء منها الا ما كان ممتزجاً بالخلاعة أو مثيراً للشهوات ، فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها ، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يقال ان هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام ، ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه . .

عباس محمود العقاد

من كتاب (التفكير فريضة اسلامية)

قصة قصيرة
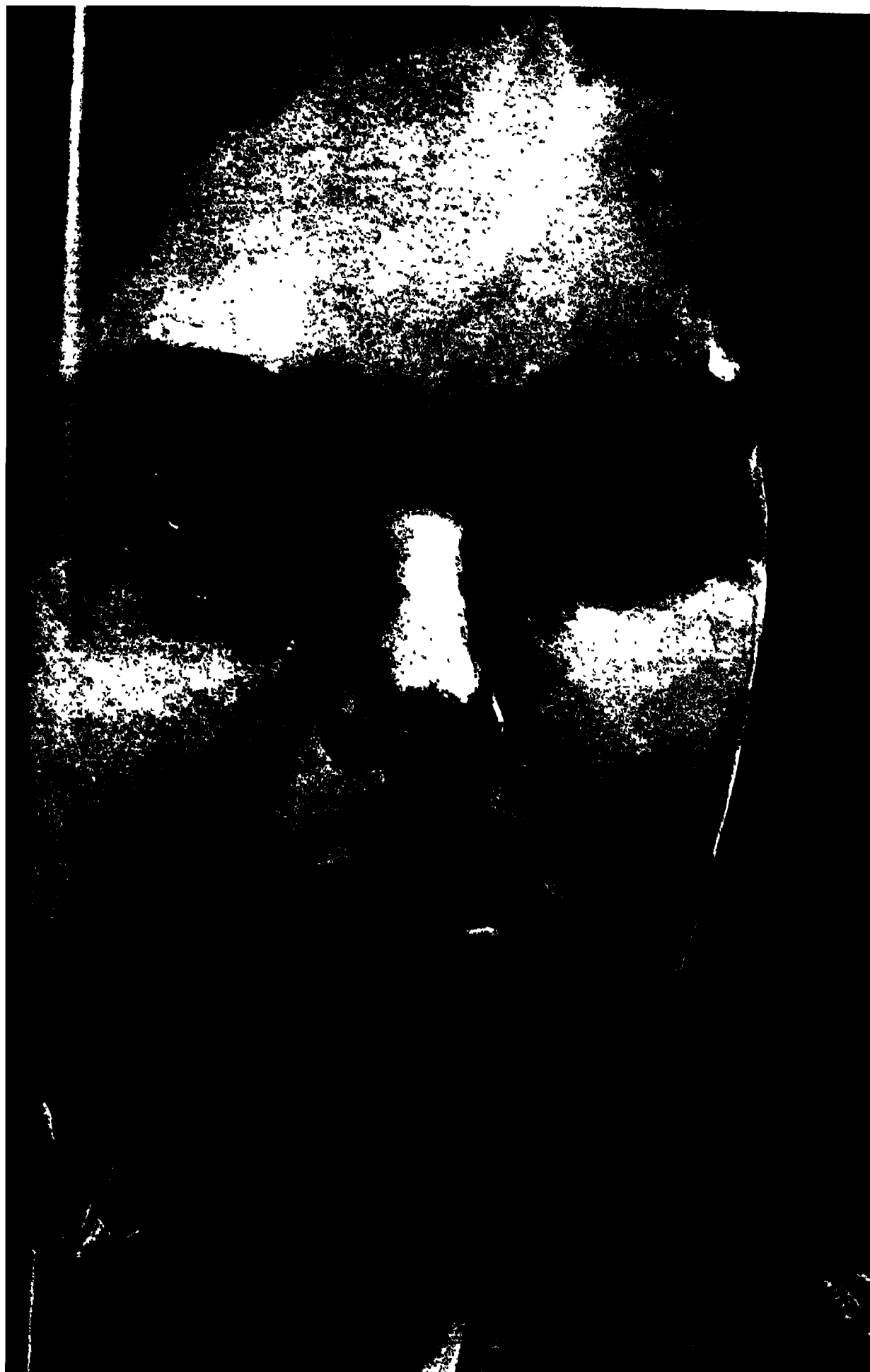
الشيطان ليس بيننا

بقلم : هاديا سعيد*

[illegible] وقال :

[illegible] أرجو اعفائي من حكاية « الأخوة »

[illegible] !!

[illegible] الصداقة ، الحنان ، الـ .. أي مصطلح آخر يحل بينها بغموض في ذلك المكتب الضيق والشركة الصغيرة .

[illegible] ثلاثة : نبيل وكمال وصالح . لكنهم لم [illegible] أكثر من ثلاثة أشهر ، [illegible] بينها وبينهم .

[illegible] الجموح .

[illegible] بابتسامة ، [illegible] مشبوهة ، [illegible] إلى

المكتب ، ينبغي أن تمتحن وتؤدب في المعارك الخفية والمنزلقات .

فكرت ، يحدث هذا كل يوم ، كل يوم ، بألف شكل وألف عبارة . وألف وجه ، مستعد للتشكل حسب اللحظة والظروف . المكتب صارم والعمل صارم وكل شيء صارم ، حتى الشهادة علمية وصارمة : أوراق تزدحم بالقياسات والأرقام ، ومناضد ومساطر ومثلثات وانكباب مسئول فوق بيوت ومنادق وعمارات وإدارات من ورق .

تعبت حتى وصلت إلى هنا . البلد يسبح بالبطالة ، وشهادتها العالية بامتياز في الهندسة ، انتظرت أعواما وأهوالا لأن عينها كانت بصيرة ويد أهلها قصيرة !

لكنها حصلت على المنحة ، وعاشت مثل غيرها سنوات السفر والغربة ، وعادت لتتعب في خطوبة فاشلة وانتظار حزين ، ثم جاءت الى ذلك المكتب بثوب ريفي وابتسامة طفلة وعد بدأ تعرف مدى الشجن .

لا يهمهم هذا ، وجهها يكفي ، ثوبها يكفي ، رشاقتها أو اكتنازها يكفي صمتها أو فرحها يكفي ، أسئلتها البريئة أو الغامضة تكفي . يكفي أن تكون الوحيدة أو العاشرة أو الألف ، حتى تشن الحروب عليها بتدبير أو بارتجال .

وحاولت ، تحاولت ألا ترى الشيطان بينها وبينهم .

قالت : « الشيطان ليس بيننا . من يضعه بيننا ؟ وأنا أجيء الى المكتب محملة بحكمة أب وسماحة أم وحنان أخوة يقطر فرحه دمعا ؟ أجيء طيبة ، مؤدبة ، دمثة . . »

تجيء هكذا ، فيدخل صالح :

- أوه ، الجو جميل ، ما رأيك في قهوة ؟ نزهه ؟ سهرة ؟

ويجيء نبيل :

- يا للهول ! . . هل بقي من الراتب شيء بعد كل هذه الأناقة ؟!

ويجيء كمال ، صامتا فترتاح لكنه يقتنص أي سهو أو تأخير في تسليم تصميم ليشيح برأسه ويهمس بصوت مسموم :

- الجماعة عقلهم في مكان آخر ، لماذا ؟

قالت : اليوم ، سأفاجئهم :

ستقول لهم كل هذا ، وستطالبهم أن يكونوا أكثر عدلا وأكثر براءة ، لماذا لا تكون أختهم ؟ لماذا لا تكون القريبة ؟ لماذا تُراقب وتُتهم وتُنصب لها فخاخ الكلام والنظرات ؟

ستنتظر احر ساعة من الدوام وتبدأ . ستتحدث ببساطة عن العمل ومفاهيم الرمالة والأحلاق ، ستحكي عن سعد . . .

سلوك حصار

بامكانه ألا ،

نصبح صديقة لأخته وأمه ، وهذا لا يعني أبدا أ- تخطط للزواج منه .

وستُفهم صالحا أن من يفكر في الزواج بأكثر م امرأة يهلك ، ومن الضروري أن يفهم كمال أ- ابتسامتها لا تعني أبدا ميوعة أو خفة ، وأن سماحها له بتحيتها خارج المكتب لا يؤكد اصابتها بمرض الاجنبيات المنطلقات .

ستكمل قياس أعمدة هذا الجزء من التصميم ، وتطلب منهم بلطف وأدب أن يقتربوا قليلا من مكتبها ويصغوا إليها . هذا اليوم مناسب جدا لمثل هذا الحديث ، سيكون محطة مهمة لتحويل مسار نظراتهم وكلامهم . ستبدأ بكلام جديد مليء بمشاعر الأخوة والود . هذا يوم دافيء ، الشمس في زيارة ودية ، ربما سيجيء نبيل مبتسما بقميصه الأزرق الهادي ، وربما ارتدى صالح سترته القطنية التي حاكتها له زوجته بعد صلحهما الأخير .

ويا ليت صمت كمال يكون اليوم أقل تجهما ، هذا يوم معقول للتفاهم . الراتب ما يزال طازجا في الجيوب ، والخرائط جديدة لم ترتفع بالأعمدة والزوايا ، ولم يحن وقت التوتر خوفا من الأخطاء الصغيرة . لسعات البرد الخفيفة تحفز الكلام وتدعو لانسجام وتقارب ، هذا سيساعدها أن تتحدث اليهم بغير ارتباك . بهدوء ، بأدب ، ولكن بحزم أيضا . فهي في النهاية تريد أن تستفيد من خبرتهم ، من اطلاعهم ، تريد حديثا ببساطة ، بلا نوايا ولا تأويل .

ستبدأ بلا مقدمات ، لا داعي لأن تتحدث عن السفر وتلك البلاد المتحضرة ، فسوف يجدها نبيل مدعية ومستعرضة ، وسوف يقود صالح الحديث ليعرف معلومات أكثر عن البنات هناك والفنادق ،

..رف يهز كمال رأسه ويسخر من معرفتها الهزيلة !
..فضل أن تبدأ الحديث مباشرة وتذكرهم
..صرفاتهم الأخيرة وتنتقدها ببساطة . ستقول
..سالح : صحيح أنها تجاهلت تلميحاته كلها عن
..زوجة المناسبة والاختيار المتسرع الخاطىء لكن
الصحيح أيضا أنه لم يحك لها عن خلافاته مع زوجته
إلا وفي ذهنه نصب فخ جديد يبدأ بالشكوى ،
ويتصاعد إلى مشاعر الود والارتياح ! أما نبيل
فينبغي عليه ألا يحسب اهتمامها بأمه ـ عندما زارته
قبل أسبوعين ـ سعيا للتقرب منه . وهو بنفسه
حاول ذلك في الفترة الأولى من التحاقها بالمكتب ،
ثم عدل بعد أن سئم وسمع بأنها خطبت وفشلت
خطوبتها .

وينبغي لهم أن يفهموا أنها تود ببساطة شديدة أن
تكون قريبة منهم ومحترمة . تفضل أن تكون أختا
على أن تكون مشروعا غامضا لنزواتهم ، يسرها ألا
تسمع كلمة اطراء كاذبة أو ملغومة . فلماذا
لا يكونون جميعا في تلك الساعات الجميلة من
العمل الجميل عائلة ؟؟ لماذا لا يكونون إخوة لها
وأقارب ؟ لماذا يُسكنون الشيطان بين أعينهم
وطلتها ؟ لماذا يطالبونها بصمت أن تعود إلى بيتها
لكي تحظى بنظرات التقدير والتكريم ؟ لماذا
لا تكون محترمة وكريمة إلا عندما تقبع معطلة داخل
البيت ؟ لماذا يحولون هم وغيرهم الشارع إلى مسرح
بغيض ؟ والرصيف إلى مقهى لعيونهم وتعليقاتهم
ومراقبتهم لها ولغيرها كأنهن فضائح ؟ !!

من قال لهم ان أباها قادر بعد على ملء سلة
العشاء ؟ ومن قال لهم أن أمها قادرة على أن تصبر
على جوع إخوتها الصغار ؟ وكيف لا يخطر على
..الهم أن أختها تحلم بفستان العيد ، وأن أخاها
..طفل يتمنى لعبة طالما سرقت فرح عينيه في
..واجهات الزجاجية ؟ وأنه لولا راتبها لنامت عائلة
.. عشاء ، وازدادت آلام المفاصل المزمنة لأمها ،
..ذا ينبغي أن تشرح لهم أن راتبها يصلح نافذة الدار
..والحنفية ويجعل من « البيت المستور » حقيقة
لا كلاما فارغا يقرأ في القصص ؟!
لماذا يفترضون أن مستقبلها سيضيئه بيت بقفل

عليها ؟ أو رجل مثلهم يخاصم زوجته أو يتصل
بصديقاته أو يتحرش بزميلته أو يشتم الدنيا وما
فيها ؟؟

مر المدير قبل وصولهم . توقفت للحظة ،
تأهبت لتحيته بابتسامة وجلة ، فرد تحيتها مشجعا
بضحكة ونكتة عن الغائبين الذين يغادرون المكتب
قبل الحضور اليه ! ثم ألقى نظرة على ثوبها الجديد
وابتعد .

منذ ثلاثة أشهر وهي تنوي شراء هذا الثوب ،
تصادقت بعيونها والعارضة التي ترتديه في واجهة
المحل . أربع مرات كانت تبادله التحية كل يوم ،
وتتفق أن ينتظرها وأن توفر . و . . وعدها بالصبر
ووعدته بالوفاء ، بالأمس أطلقت البائعة سراحه من
سجن الزجاج واليوم ارتدته وفرحت واتجهت به الى
المكتب كأنها في عيد .

لا بد وأنهم سينتبهون وسيعلقون ، لكنها اليوم
تتمتع بصفاء وقدرة على التسامح . الثوب لها ، لم
تستعره من أمل أو غيرها . جديد . سيبقى فوق
أكتافها وفي خزانتها : جديد مثل أول أسابيع لها في
هذا المكتب ومثل ابتسامة أخيها الصغير .

لن ترفض أن يعلقوا قليلا على الثوب ، ولن
تتردد في سرد حكاية صبرها وتوفيرها ، وكم تتمنى
لو أن الأمر يتوقف عند هذا الحد ولا يمتد إلى
الاحتفال به ، وتقديم الدعوات عبر إشارات
وغمزات ، صحيح أن عالمها يصغر حتى يصبح ثوبا
جديدا لكنها أيضا قادرة أن تقرأ وتسمع وتناقش .
فكيف يحدث أن تذكرهم بحادثة أو تواصل معهم
نقاشا أو تعلن رأيا أو . . أو . . فيصل حديثها
باردا سمجا في الوقت الذي تلمع فيه العيون
ويندفع الحماس حين تبدأ تفاهات مثل الأسرار
الخاصة والرجل المجهول والنميمة على الزميلات .

طيب طيب ستنتظرهم بالتأكيد ، وستحكي كل
هذا ، وما قد يستجد من كلام .

*عندما دخلوا ، كانت مستعدة أن تبدأ كالتالي :
زملائي الأعزاء : إليكم أقصر خطاب في
العالم : « الشيطان ليس بيننا ، فمن يضعه
بيننا ؟ » □*

العربي - العدد ٣٦٢ - يناير ١٩٨٩ م

في المغـــــرب:
واقـــــع ومســـــتقبل

بقلم : علاء الدين محسن

LA PEINTURE
NAÏVE
AU MAROC

● امرأة من زمور « أحمد الورديغي »

الابداع بالفطرة الذي يتجسد في لوحة لاتتناسب مقاييسها وألوانها وخطوطها ، مع مقاييس الفن بنظرياته المعروفة ، هل له مكان في ساحة الابداع الانساني ؟ هذه هي مشكلة جماعة الفنانين التلقائيين في القطر المغربي ، وهي مشكلة فنية عامة ، أثارت في تاريخ الفن كثيرا من المناقشات والقضايا .

يطلق المغاربة على الرسوم التي ينتجها رسامون لم يتلقوا دراسة فنية تشكيلية، ويرسمون بتلقائية، وبالفطرة، اسم «الرسم الساذج»، وهي تسمية تقابل في المشرق العربي تسمية «الرسم الفطري».

والرسم الساذج في المغرب، هو أحد المواضيع الاكثر إثارة للجدل، والاختلاف في الرأي، عند مناقشة وضع الحركة التشكيلية المغربية، فالرسم الساذج اتجاه حاضر بقوة في هذه الحركة، إلى جانب الاتجاه التشكيلي المعاصر الذي يتبنى المدارس الفنية الغربية المعروفة اليوم. والاختلاف حول الرسم الساذج يتمحور حول القيمة الفنية لاعمال الرسامين الفطريين المغاربة، وتأريخ هذا الاتجاه، والطريقة التي ظهر فيها ليحتل مكانة على الساحة، وكذلك آفاقه.

مواقف ثلاثة

ويمكن تحديد ثلاثة مواقف من هذا الاتجاه كما تتجلى في الكتابات النقدية التشكلية في المغرب:

فهناك موقف يرفض كلية عد الاعمال المدرجة ضمن اتجاه الرسم الساذج متضمنة لأي قيمة فنية تستحق الذكر، على أساس أن وجود هذه الاعمال اليوم هو من مخلفات المرحلة التي كان يعيش فيها المغرب تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي شجع هذا الاتجاه في الرسم بقوة، وتبناه، لأنه أراد تقديم المغرب على أنه مجرد متحف لاشكال بدائية متخلفة في التعبير، ولا يرى من يتبنون هذا الموقف ــ بالتالي ــ أي ضرورة للحديث عن مستقبل هذا الاتجاه، على اعتبار أن المغرب، وظهور الحركة التشكيلية المعاصرة فيه وتناميها من شأنه أن يؤدي إلى التلاشي الحتمي لاتجاه الرسم الساذج. ولا يفوتهم هنا الاشارة إلى أن معارض الرسامين الفطريين لم تعد تقدم بالزخم نفسه الذي كانت عليه قبل الاستقلال «١٩٥٦» أو خلال السنوات الاولى التي تلته.

وثمة موقف ثان، مخالف تماما للموقف السابق، يرى أنه كيفما كانت الطريقة والاسبا[ب] التي ساعدت على ظهور الرسم الساذج [في] المغرب، فلا يمكن اليوم تجاهل كونه أ[حد] الاتجاهات الحاضرة بقوة على الساحة التشكيلية وأن الحد الادنى من الجدية يفرض التعامل مع «هـ[ذا] الواقع» دون حساسية مفرطة، وأن الموقف المضـ[اد] للاستعمار الفرنسي، وسياسته الثقافية، عبر[...] البريئة، ينبغي أن لاينعكس بصيغة موقف مضاد للرسم الساذج، وهو في النهاية جزء من الثقافة الشعبية، له جذوره، وامتداداته في فنون شعبية أخرى، لها طابع بصري، كنقوش السجاد، والرسم على الخشب، وتزويقه التي تشكل في مجموعها جزءا مهما من الهوية الثقافية المغربية

وهناك موقف ثالث يتبنى بحماس اتجاه الرسم الساذج، ويعده الممثل الحقيقي الصادق للحركة التشكيلية المغربية. ويرى المدافعون عن هذا الموقف أن هذا الاتجاه لو كان مجرد وهم أعده المستعمر لما أمكنه الاستمرار بعد الاستقلال دون أن تضعف جذوته. ويلاحظون أن معارض الرسم الساذج قد قلت بعد الاستقلال، لكن هذا لايعني أن الرسامين توقفوا عن الانتاج، إضافة إلى أن الجمهور يتواصل مع لوحاتهم البسيطة الخالية من التعقيد، والغموض، والادعاء، أكثر من تواصله مع أعمال الفنانين التجريديين المغاربة الآخرين و إقباله عليها ويختتمون دفاعهم بالاشارة إلى الشهرة العالمية التي حظي بها عدد من الرسامين الفطريين المغاربة.

معرض وكتاب

الواقع أن القوة والضعف يتساويان في المواقف الثلاثة السابقةمما يجعل قبولها أو رفضها غاية في الصعوبة، ولعل هذا هو ما يجعل النقاش والاختلاف حول الرسم الساذج محتدما بقوة كلما كانت هناك مناسبة لمناقشة الوضع التشكيلي المغربي.

كانت آخر مناسبتين صدور كتاب بالفرنسية لمؤلف مغربي، هو «عبد السلام بو طالب» بعنوان

.. سم الساذج في المغرب » ، عن دار « جون .. ت » التي تصدر اسبوعية سياسية بالاسم نفسه .. ريس ، وتنظيم معرض بالرباط لأحد رواد هذا .. عاد ، وهو « محمد بن علال » ، بعد سنوات .. لة انقطع خلالها عن قاعات العرض.

، الكتاب الجديد له أهميته من عدة نواح .. رها · أن هناك قلة ملحوظة في الكتب والمراجع .. تي تتناول الفن التشكيلي المغربي بعامة ، فليس .. هناك سوى أربعة أو خمسة مؤلفات في هذا الميدان ، .. حنها بالفرنسية ، وصدور كتاب يتناول أحد .. لاتجاهات في الحركة التشكيلية في هذا البلد فيه .. غناء للمكتبة الفنية المغربية ، هذا من ناحية ، أما .. من الناحية الاخرى فالكتاب الجديد يتبنى موقف .. الدفاع عن اتجاه الرسم الساذج ، بعد سنوات .. طويلة ، لم يظهر خلالها سوى كتابات تناولت هذا .. لاتجاه بالنقد .

وقبل أن نتعرض بتفصيل للكتاب الجديد نجد أنه من الضروري تقديم لمحة عن بدايات الاتجاه الذي يشكل موضوعه ومحوره ، وكذلك عن بدايات الحركة التشكيلية الحديثة في المغرب ، لعلها تقدم صورة عن خلفيات هذا الخلاف في الموقف من .. الرسم الساذج» ، بين «قبول ورفض وتحفظ» .. لذي حددنا معالمه بالتلخيص السابق .

مدرستان فنيتان

يمكن وضع الرسم الساذج بأنه الأب غير .. شرعي للتشكيل المغربي المعاصر ، ونقول : غير .. شرعي من زاوية الرفض الذي قوبل به هذا الاتجاه .. من طرف النقاد والفنانين الذين ظهروا بعد .. ستقلال المغرب .

.. فوفقا لعديد من الكتابات التي أرخت للفن .. شكيلي المغربي المعاصر تعود أقدم اللوحات التي .. جزها الرسامون المغاربة إلى عام ١٩١٠ ، بيد .. ام فطري هو «بن على الرباطي» الذي يوصف .. موره بأنه كان نتيجة تشجيع من إحدى العائلات .. يطانية في الخليج العربي . والكتابات حول هذا .. سام قليلة ومبتسرة ، لاتسمح برواية تاريخه ، وحياته الفنية بدقة . وقد كرمته الحكومة المغربية بإصدار إحدى لوحاته على طابع بريدي

ويلاحظ « محمد أديب السلامي في كتابه التشكيل المغربي بين التراث والمعاصرة ـ دمشق ١٩٨٣ » أن جميع الرسامين المغاربة الذين ظهروا في فترة ١٩١٠ ـ ١٩٤٠ كانوا تلاميذ لرسامين أجانب ، وفدوا مع الاستعمار ويقدم بهذا الصدد مثالين أحدهما من شمال المغرب الذي كان تحت الاستعمار الاسباني ، والآخر من جنوب المغرب الذي كان تحت الاستعمار الفرنسي .

ففي الشمال كلفت الحماية الأسبانية مواطنها الرسام « بيرطوتشي » بالاهتمام بالفنون الجميلة ، فأسس مدرسة الفنون الجميلة بتطوان ومدرسة الفنون الاسلامية .

ومن مدرسة تطوان تخرجت مجموعة من الاسماء الفنية في ميداني الرسم ، والنحت ، مازال معظمها يرفد الساحة الفنية بعطاء ، في حين أحيت مدرسة الفنون الاسلامية فنون الحفر على الخشب والمعدن والجبس والفسيفساء .

وفي جنوب المغرب قام الرسام الفرنسي « ماجوريل » بمراكش برعاية عدد من الرسامين المغاربة ، شكلوا فيما بعد الصورة النهائية للاتجاه الساذج في الرسم المغربي .

ومنذ تنظيم أول معرض تشكيلي في المغرب عام ١٩١٨ حتى السنوات الأولى بعد الاستقلال في ١٩٥٦ كان حضور الرسم الساذج طاغيا على الساحة التشكيلية ، نظرا للتشجيع الكبير الذي كان يلقاه رسامو هذا الاتجاه من الفرنسيين ، والاسبان ، والأجانب عموما .

لكن هذا العهد الذهبي للرسم الساذج لم يستمر طويلا ، فقد خضع للمراجعة ، وإعادة التقييم ، والنقد بعد الاستقلال ، مثلما خضعت مخلفات أخرى للاستعمارين الفرنسي والاسباني في إطار تعزيز الدولة الفتية لمقومات أصالتها وشخصيتها الوطنية . وكانت حصيلة المراجعة الرفض الكامل .

● المسجد الصغير، أحمد الورديغي

● أحلام السيدة فاطمة حسن

فالدكتور « حسن المنيعي » ، وهو أحد ابرز النقاد المغاربة المعروفين بتعدد اهتماماتهم ، يرى « أن هذا الاتجاه قد بقي تشجيعا من لدن الاستعمار الاجنبي ، لأنه عده حصلة مكسبات فنية تقليدية ، تعبر عن انهماكات مجتمع خامل . ولهذا فقد نظر الاستعمار بازدراء الى [illegible] الفني ، حتى يجعله منضغطا في جوانب عميقة ، لاتتعدى التزويق الذي كان ميزة الرسوم الفطرية التي عرفتها أوروبا خلال العصور الوسطى » (من مقالة للدكتور المنيعي ضمن وثائق معرض السنتين العربي الذي أقيم في ١٩٧٦)

هذه النبرة الرافضة بحزم نجدها أيضا لدى « محمد شبعة » أحد الوجوه المتميزة في الحركة التشكيلية المغربية اليوم ، يقول . « إن ظاهرة الرسم الساذج ـ في المغرب ـ تطابق تخطيطا ثقافيا استعماريا متعمدا ، يرمي إلى التأكيد بأنه ليس بإمكان بلد متخلف سوى أن ينتج فنا متخلفا ، وأنه لن يتأتى للفنان في هذا البلد ـ المغرب ـ أن يشارك أو يسهم في الحركات التشكيلية العالمية . أو أن يتوفر على راد ثقافي ، وتكون له انهماكات « استتيكية » معاصرة » (من كتاب السلاوي السالف الذكر)

الرباط ليس فطريا

كتاب « الرسم الساذج ـ أو الفطري ـ في المغرب » لعبد السلام بو طالب ، الصادر حديثا في باريس ، له موقف مختلف عن موقف المنيعي ، وشبعة ، لأنه يقف إلى صف هذا الاتجاه ، وحقه في أن يكون حاضرا على الساحة التشكيلية ، ومتفاعلا مع اتجاهاتها الاخرى

والكتاب ـ ١٢٨ صفحة من الحجم الكبير ـ أشبه « بألبوم » يقدم متعة بصرية . لايمكن تجاهلها . لأنه يتضمن مقدمة قصيرة ، ويعرفنا بعشرة رسامين فطريين . مع نماذج ملونة لأعمالهم ، وإحاطة بتاريخهم الفني ، ومعارضهم بطباعة راقية

ومؤلفه ليس ناقدا فنيا [illegible] للرياضيات ، اهتم منذ السبعينيات بالرسم الفطري في بلاده وحرص على اقتناء ما يقع بين يديه ، من لوحات تتدرج ضمن هذا الاتجاه ، كما امضى وقتا طويلا في دراسة هذه اللوحات ومقارنة الرسم الفطري بالمغرب بالرسم الفطري في أقطار عربية وأجنبية ، وسافر كثيرا ليلتقي بعدد من الرسامين المغاربة الذين أصبحوا يعملون بصمت بعيدا عن قاعات العرض ، بعدما رفضتهم الساحة الثقافية . واكتشف في النهاية أنه أصبح يملك من المعرفة والمعلومات ـ إضافة إلى اللوحات الأصلية التي اقتناها ـ ما يؤهله لتقديم هذا الكتاب

ويتفق « عبد السلام بوطالب » مع الكتابات التي سبقت ظهور كتابه ، والتي أعادت ظهور الرسم الساذج في المغرب إلى سنوات العشرينيات والثلاثينيات ، لكنه يعد سنوات الخمسينيات و [illegible] شهدت ازدهار هذا الاتجاه . أما ما كان [illegible] فيصفه بأنه مجرد محاولات

أما « بن علي [illegible] » [illegible] مغربي [illegible] طالب [illegible] مدة طويلة [illegible] فطريا [illegible] لاشتغاله [illegible] حق رسما شخصيا

ويرجع أسباب ازدهار الاتجاه الساذج [illegible] الخمسينيات . والسنوات الأولى بعد الاستقلال ، وبروز تيارا واضح المعالم ، إلى تأسيس مشغل لتعليم فن الصباغة « ما بين ١٩٥٥ و ١٩٥٦ [illegible] مدينتي الرباط ومراكش ، أشرفت عليهما وزارة الشبيبة والرياضة [illegible] ومن هذين المشغلين ظهرت [illegible] نساج ، شكلت الأسماء [illegible] [illegible] لاتجاه إلى اليوم .

[illegible] « الرباط [illegible] » التزوي » و « فاطمة حسن » [illegible] « وحسن المروج » ، و « مولاي [illegible] العلوي » و « المرسم الراحل [illegible] » [illegible] وحق هذه المجموعة « الناصري » و « الحسن [illegible] » وفاطمة ابنة

[illegible]يحي » .
[illegible] مجموعة مراكش التي رعاها الفنان الفرنسي
[illegible] فقد قدمت « محمد بن علال » و « مولاي
[illegible] الادريسي » ، و « وآيت يوسف سعيد »

[illegible]رات عائلية

وهناك عوامل مشتركة بين هؤلاء الرسامين ، [illegible] بهم إلى اكتشاف الرسم واحترافه ، فقد كانوا [illegible] على صلة وثيقة برسامين أجانب ، فمحمد بن [illegible] كان طبيبا لدى الرسام الفرنسي « أزيما » ، [illegible] حمد الادريسي كان نادلا في مقهى ، وقد [illegible] مجموعة من السويسريين على الرسم ، [illegible] عن بعد على العرض والسفر إلى فرنسا [illegible] آيت يوسف سعيد فكان لديه ابن [illegible] حلاق وجوده في الحرب الصينية [illegible] آيت يوسف تأثر بأزيما وتوجه [illegible]

وبعض هؤلاء الرسامين الفطريين أثروا على [illegible] وبناتهم ، ودفعوهم للرسم ، فابنة [illegible] تسحب [illegible]سامة ، ومولاى علي العلوي [illegible] الخشب وتأثر به أحد الصناع [illegible] أصبح بعد ذلك رساما معروفا [illegible] فاطمة حسن » التي تحمل اسم [illegible] حسن [illegible] و[illegible] الفطري . [illegible] نعيمة

[illegible] هنا عاملا اقتصاديا سهم في [illegible] نحو احتراف الرسم [illegible] فقد كان الاجانب المقيمون بالمغرب ، [illegible] السياح ، يقبلون على شراء اللوحات [illegible] بوطالب ، [illegible] تشابه العوامل [illegible] الرسامين إلى ولوج ميدان الرسم [illegible] ميزات مشتركة تطبع أعمالهم ، غير [illegible] في إطار الرسم الساذج ، فمجموعتا [illegible] ومراكش قد تبادلتا التأثير احداهما على [illegible] ، اضافة إلى تأثر رسامي مجموعة على [illegible] أخرى ضمن مجموعتهم

فاللوحات الأولى لفاطمة حسن والكزولي تتشابه وأعمال « الناصري » تقارب أعمال أستاذه مولاي علي ، وألوان ابن علال تقارب ألوان آيت يوسف سعيد ، إلا ان ذلك لاينفي ـ يستدرك بو طالب ـ وجود خصوصية لأعمال كل من مجموعتي الرباط ومراكش ، تتجلى في التفاصيل الصغيرة التي تنهض عليها لوحات الرسامين .

ويتساءل المؤلف عمن هو الرسام الفطري ، ويجيب بأن من الصعب اليوم إعطاء تعريف دقيق للفن الفطري بصفة عامة . ولهذا فهو يفضل الحديث عن المقومات والخصائص التي تميز هذا الاتجاه عن الاتجاهات التشكيلية الأخرى ، ويرى أن أبرز هذه الخصائص تتمثل في اختيار الفنان الفطري مواضيعه من واقعه البيئي ، فمواضيع كالمسجد والحمام والعرس والختان وكناوه ـ رقصة شعبية مغربية ـ وأضرحة الاولياء الصالحين ، هي الاكثر شيوعا لدى الفطريين المغاربة . ويضيف بأن الرسامين الفطريين يرسمون دون شك بتأثير هواجس غامضة ، تتجلى أحيانا في تلك المسحة السريالية التي تطبع أعمالهم ويقدم أعمال فاطمة حسن مثالا واضحا على هذا ، فتكويناتها اللونية ، وطريقة توزيعها تقدمان عالما لايمكن اخضاعه لمنطق بصري مألوف ، على الرغم من أن موضوعها داخل عامة في الألفة و الاعتيادية ، فهي ترسم باستمرار دون أن تثير الملل لدى المشاهد باعمالها خاصة لدى بنات جنسها من النساء

ويلاحظ « بوطالب » أن جزءا من أهمية أعمال الرسامين الفطريين المغاربة يتمثل في كونها قد قدمت توثيقا لعادات وتقاليد اندثرت في الواقع ، وظلت حية في لوحاتهم

ألوان زاهية

إنهم رسامون يرسمون بتلقائية وبساطة البيئة المحيطة بهم ، بألوان زاهية نقية ، نادرا ما تخضع للمسات احترافية من الخلط والتركيب والمؤلف يلفت انتباهنا إلى مفارقة تتمثل في أن أعمال

● الطلبة « آية يوسف سعيد » .

الرسامين الفطريين المغاربة على الرغم من أنها تعبر عن رغبة في نقل الواقع وتصويره ، إلا أنها ليست أعمالا واقعية ، والسر وراء هذه المفارقة يكمن في أن هؤلاء الرسامين يعانون من مشكلة التعامل مع المنظور الذي لايجيدون استعماله حسب القوانين الهندسية المعروفة ، وعندما يهملون المنظور ، ويقدمون رؤيا مستوية للمشاهد التي يرسمونها تظهر أعمالهم غير واقعية ، بل قريبة من السريالية ، إلا أنهم ينجحون على الرغم من ذلك في إعطاء أعمالهم توازنا ، يجعلها لاتخدش البصر ، وهنا تكمن مهارتهم . ويستغرب « ابو طالب » من حالة التجاهل التي أصبح يعيشها هذا الاتجاه بعد الاستقلال ، ورد فعل المثقفين تجاهه ، ويذكر بهذا الصدد أن الاهتمام بالفن الفطري في أوروبا قد بدأ في أوائل القرن العشرين وابرز من اهتم بهذا الاتجاه في العالم هو الناقد السويسري « وليم أود » الذي ناضل ــ على حد تعبيره ــ من أجل إدخال لوحات الرسامين الفطريين إلى المتاحف . وقد حرصت أقطار كثيرة في العالم بعد استقلالها على الاهتمام بالفن الساذج ــ عكس المغرب ــ لعده جزءا لايمكن تجاهله من ثقافتها الشعبية . وفي الوطن العربي مثلا لايواجه الرسم الفطري في العراق ومصر وتونس بنفس ما يواجه به في المغرب من انتقاد ومعارضة وتجاهل .

ويقول : ان اسماء قليلة في المغرب قد لحقت بالاسماء التي كان لها دور الريادة في هذا الاتجاه . إن كتابه يهدف الى طرح تساؤل حول مصير الفن الساذج في المغرب بعد وفاة هؤلاء الرواد . □

■ إننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف التسليم في حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا .
(محمد فريد)

■ يهب الله كل طائر رزقه ، ولكن لا يضعه له ، في عشه !!
(جولاند)

■ الرجل لايبكي إلا مرة واحدة ، ولكن دموعه تكون حينئذ من دم !!
(بلشفيلد)

■ حسبك من السعادة في هذه الدنيا ضمير نقي ، ونفس هادئة ، وقلب شريف ، وان تعمل بيدك !
(مصطفى المنفلوطي)

مصطفى المنفلوطي

« في العشرين عاماً الأخيرة ازداد الحديث عن البيئة ومشكلاتها ، وبدأت تتوالى أبحاث العلماء عن المخاطر التي تهدد البيئة ، وبدأ العالم كله يسمع عن المخاطر التي تهدده ، والتي تصل إلى حد فناء الحياة البشرية » .

والمسئول الأول عن حماية البيئة عالم عربي مصري ، يشغل منصب وكيل السكرتير العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ، ومنذ فترة طويلة كانت « العربي » تحاول أن ترتب معه موعداً ، حتى تم الاتفاق معه في نيروبي ، حيث مقر برنامج الأمم المتحدة ، وجرى اللقاء في الكويت . وعندما جاء الرجل طلبت « العربي » من الصديق العالم الخليج د أسامة الخولي أن يدير الحوار مع الرجل ، فكل من المتحاورين عالم وله سمعة علمية طيبة ، ولديه كثير مما سيطرحه في هذا المجال .

* اعتقد أن أفضل مدخل للحوار مع المسئول الأول عن البيئة في العالم هو الحديث عن التطورات التي حدثت عبر السنين الماضية لمفهوم البيئة ، وتحديدا من قبل مؤتمر استكهولم .. حتى ظهور برنامج الأمم المتحدة خمسة عشرة سنة ، لأنه في تصوري لو استطعنا اجتياز هذه الفترة فإنه يعد مدخلاً لتفاصيل أكثر خصوصية وأهمية في مجال البيئة

أعتقد أن هذا الاقتراح هو الأكثر مناسبة لحديث حول البيئة ، وإذا تحدثنا عن بداية ظهور ما يسمى بفكر البيئة فإننا نلحظ أن هناك اتجاهين محددين هما :

أولاً أنه لم يبدأ في الدول النامية ، لكنه بدأ في الدول الصناعية المتقدمة في أواخر الستينيات

ثانياً أنه لم يبدأ من الحكومات ، لكنه بدأ من الشعوب ، ممثلة في الجمعيات غير الحكومية ، والتجمعات الشبابية ، وغيرها من المعبرين عن مشاعر الناس وكانت المشاعر وقتئذ تتمحور حول الأخطار التي تهدد صحة الانسان من عمليات تلوث البيئة ، سواء تلوث الهواء أو الماء بما لهما من اثار ضارة على صحة الانسان وكفاءة الحياة .

في ذلك الوقت ، في أواخر الستينيات ، وتحديدا في عام ١٩٦٩ تقرر نتيجة لضغط الشعوب إقامة مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية . وحدد عام ١٩٧٢ موعدا لعقده في استكهولم عاصمة السويد ، وقد أصبح بعد ذلك يعرف باسم مؤتمر استكهولم تاريخياً ، فيقال ما قبل استكهولم وما بعد استكهولم .

في ذلك الوقت كانت الدول النامية - غالبيتها تحديداً - قد بدأت في الأخذ ببرامج التنمية ذات الأنشطة الصناعية ، وكانت التنمية الصناعية تمثل تحدياً حقيقياً للدول النامية للخلاص من أسر التبعية ، ولذلك عندما قالت الدول الصناعية المتقدمة إن التلوث الناتج من التصنيع يعد خطراً على البيئة الانسانية ، نظرت المجتمعات النامية إلى الدعوة للمؤتمر بريبة شديدة ، وأن المقصود هو ابقاؤها في حالة تبعية عن طريق مهاجمة مشروعاتها الصناعية ، وحرمان الدول النامية من حق التصنيع ، وقد بدأ في ذلك الوقت يتوالد لدى الدول النامية إحساس

ـ من المؤتمر ، وبدأ يتبلور اتجاه لعدم حضور
ـ ، إلى أن بدأ التطور في الغرب من خلال
ـين على المؤتمر أنفسهم الذين بدءوا نتيجة لهذا
ـف الذي اتخذته الدول النامية التفكير بأن
ـول النامية مصالح أخرى ، وأن القضية ليست
ـرد تلوث ناتج عن دخان المصانع فقط ، فبدأ
لتفكير في البيئة على أنها مفهوم شامل ، فما هي
البيئة ؟ هل هي الهواء والماء وما يحدث فيهما من
تلوث ، أم هي مفهوم أوسع من ذلك ؟ وتوصل
القائمون على المؤتمر لحسن الحظ إلى ربط عملية
التنمية باستغلال مكوناتها ، وهي البشر والمال
ومصادر الثروة الطبيعية . وتبلور الفكر على أن البيئة
ليست قضية منفصلة ، لكنها قضية متكاملة ، من
خلال ربط هدف التنمية ـ وهو الانسان ـ بعملياتها
ومكوناتها ، وأن هذا لا يمكن أن يتم بمعزل عن قضايا
البيئة . وكان هذا هو المدخل الكبير الذي دخل من
خلاله العالم النامي إلى مؤتمر استكهولم ، وانتقلت
الصورة من الحديث عن تلوث الماء والهواء إلى
الحديث عن استغلال مصادر الثروة الطبيعية
وحمايتها ، وأصبح هذا المفهوم هو القضية
الأساسية ، وللأسف ما زال هناك تصور لدى
كثيرين في البلدان النامية بأن البيئة هي المحافظة على
الماء والهواء من التلوث والمحافظة على الحيوانات
البرية والحياة الطبيعية ، أو التصور الخاطيء الآخر
الذي يرى أن الحفاظ على البيئة هو إيقاف عمليات
النمو . وفي الحقيقة أن كلا التصورين خاطئان ، لا
يعكسان فهما سليما لقضية البيئة .

العالم الثالث اهتمام أكثر :

* هذه النقطة تأخذنا مباشرة إلى أن نسأل : هل ترى ـ من خلال موقعك ـ أن موقف الدول النامية قد تغير تجاه قضية التلوث ، خصوصاً بعد بعض الحوادث ، مثل حادثة بوبال في الهند ، وما يبدو في السنوات الأخيرة من تراجع عن المفهوم الشامل للبيئة وعودة إلى التركيز على مشكلة التلوث حتى في الدول النامية ؟

ـ أرى أن هذا السؤال يثير نقطتين : ـ
النقطة الأولى : هل تغير مفهوم الدول النامية عن البيئة ؟
والنقطة الثانية : هل هناك عودة للوراء ، خاصة بعد الحوادث التي تشير إليها ؟ وهنا أستطيع أن أقرر أن هناك تغيراً واضحاً في مفهوم الدول النامية حول قضية البيئة وعلاقتها بالتنمية ، وهو واضح تماماً من مؤشرين :
المؤشر الأول : في مؤتمر ستكهولم عام ١٩٧٢ كان عدد الدول التي لديها وزارات أو مجالس أو أجهزة للبيئة ١١ دولة فقط في العالم كله ، ولم تكن بينها دولة واحدة نامية . أما اليوم فهناك ١١٢ دولة لديها أجهزة لحماية البيئة ، سواء وزارات أو أجهزة أو مجالس .
والمؤشر الثاني : في عام ١٩٧٢ عندما كانت المنظمات غير الحكومية المهتمة بقضية البيئة ٢٥٠٠ منظمة غير حكومية ، ولم يكن في العالم النامي غير ثلاث منظمات أو أربع ، أما اليوم فهناك أكثر من ٢٠٠٠ منظمة غير حكومية في العالم النامي وحده ،

وهذان مؤشران يوضحان ... في النظر إلى مفهوم البيئة وارتباطها بالتنمية

* إذا أذنت لي دعني أوضح ما أقصده من النقطة الثانية في السؤال قبل الاجابة عنه . أقصد بالتحديد أن الدول النامية اليوم نتيجة لتسارع عمليات التصنيع فيها قد أصبح لديها اهتمام ملحوظ بقضية التلوث .

ـ هذا صحيح تماماً . فقد حدث تنبه شديد في الدول النامية ، خاصة أن في غالبيتها اليوم عمليات تصنيع ، وقد بدأت عمليات التصنيع هذه قبل ظهور مفهوم حماية البيئة ، وهي للأسف مصانع تفتقر إلى القدر الكافي من معدات الحماية ، وبعضها يستخدم طرق تصنيع قديمة ، ولها آثار سلبية على البيئة والانسان تفوق آثارها الايجابية .

* في ضوء هذا المهم ، هل هناك اختلاف في مفهوم البيئة بين العالم النامي والعالم الصناعي ؟

ـ في العالم الصناعي لا يدور الحديث عن استخدام مصادر الثروة الطبيعية على أنها قضية رئيسية للبيئة ، لكن الحديث والهم الحقيقي هو الملوثات . لماذا ؟ لأن العالم الصناعي بدأ يربط بين عملية التلوث وعمليات الإنتاج في الدولة ككل . دعني أضرب مثالاً لذلك ، حادثة وقعت مؤخرا في إحدى المصانع السويسرية التي تتخصص بالانتاج الكيمائي ، فقد طفحت من مواسير التصريف بالشركة كمية من السوائل السامة ، وتسربت إلى نهر الراين ، لم تكن المسألة أن النهر تلوث ، لكن أصبحت المسألة أن النهر يستخدم مصدرَ مياه شرب ، ومصدر مياه للزراعة ، ولم يتوقف الخطر على حدود سويسرا فقط ، بل امتد فشمل المانيا الغربية وفرنسا وهولندا ، وثارت أزمة هددت العلاقات بين هذه الدول ، وحدث خلاف شديد حول تحديد المسئولية ، وتحديد الطرف الذي سيتكفل بدفع التعويضات للمتضررين ، و... سيتكفل بتنقية النهر ومعالجته . ثم اتجاه آخر في الـ... الصناعي ، وهو بداية التفكير في المواد الكيماو... السامة ، التي تستخدم في حفظ الأغذية مثلاً وغيرها من الصناعات الوثيقة الصلة بالاستخدامات البشرية ، وما أثير أن هذه المواد تسبب الإصابة بمرض السرطان ، وبدأت المخاوف من إنتاج هذه المواد ، وانتقالها من بلد إلى بلد ، وهي مصابة بهذه الملوثات ، وآثار هذه الأغذية على صحة الإنسان ، ثم آثارها على إنتاجية الانسان ، ثم الآثار المترتبة على إصابة الإنسان ، والأموال التي ستنفق على علاجه ، وأنه من الممكن توفير هذه النفقات العلاجية ، وتوجيهها إلى قطاع خدمات آخر ، أو إلى تمويل عمليات تنموية .

هم بلا حدود

* الواقع يقول الآن إن الأمر البيئي لم يعد أمراً داخلياً يخص دولة بعينها ، لكنه أصبح أمراً له بعد عالمي ، فالبيئة لا تعرف حدوداً ، وأصبح لزاماً على دول المجتمع الدولي أن تتعامل خارج إطار الحدود والأطر السياسية . والنقطة المهمة هنا أن شركات الإنتاج الضخمة ، لكي تضع الأضرار التي تصيب البيئة في حسبانها ، فإن ذلك يستتبع أن تعيد النظر في نظم إنتاجها بالكامل ، مما يعني تكلفة كبيرة ، والشركات الكبرى ورأس المال عموماً بلا قلب ، فما حل هذه الإشكالية ؟

هذا صحيح ، فالشركات الكبرى العالمية لا تهتم بالبلدان النامية ، ولا بالاضرار التي قد تصيب هذه البلدان ، لكن اتضح الآن أن عملية حماية البيئة من الممكن أن تتم بإعادة استخدام ما كان يسمى

بالنفايات ، وأصبح هناك مفهوم جديد لكلمة النفاية ، فبدأ النظر إليها على أنها مادة أولية ، موجودة في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ ، فإذا استخدمت هذه المادة في المكان المناسب ، وفي الوقت المناسب ، فإنها تتحول إلى رأسمال ، فأصبحت عملية إعادة تدوير النفايات ، ومن ثم استخدامها مادة أولية ، تدر على الشركات عائداً اقتصادياً يعوضها الإنفاق الذي أنفقته على تعديل النظم في فترات لا تتجاوز ٣ ـ ٤ سنوات ، وبعد ذلك تحصل على عائد صافٍ ، وهناك أمثلة عديدة عن الشركات الكبرى ، منها مثلاً إحدى الشركات الأمريكية التي استعادت ما أنفقته على تعديل النظم في ٤ سنوات فقط ، فقد حققت في العام الماضي أرباحا صافية قدرها ٢٠٠ مليون دولار من إعادة تدوير واستخدام ما كان يسمى نفايات .

والأمر الثاني هو ما حدث في عام ١٩٧٣ ، فبعد تفاع سعر النفط أصبحت تكلفة الصناعة في ـلدان المتقدمة عالية جداً مما أدى إلى رفع أسعار جاتها على المستهلك الداخلي أو الخارجي ، فبدأت الشركات تسعى لتخفيض استهلاكها للطاقة ، ضطرت إلى تعديل وتغيير في تقنية الإنتاج ، بحيث بح استخدام هذه التقنية الجديدة لإنتاج الكم نفسه من المنتجات يستهلك كميات أقل من الطاقة ، وكان الحافز في هذا هو الضغط الاقتصادي الذي حدث على حسابات التكلفة ، وبالتالي عجز المستهلك عن أن يقتني هذه السلع ، مما هدد هذه الشركات بكساد منتجاتها . وانتهت المسألة بتغيير مفهوم شائع وقديم ، وهو أن مقياس النمو والمدنية والتحضر بارتفاع معدل استهلاك الفرد والمجتمع ، وكان معدل استهلاك الطاقة في المجتمعات مؤشراً من المؤشرات الكمية لقياس النمو ، هذا المفهوم تغير تماماً . وهنا دعني أوضح هذا الأمر ، فقد كان من المتعارف عليه أن أي بلد يريد أن يحقق نمواً في الدخل القومي مقداره ١٪ عليه أن يرفع معدل استهلاك الطاقة بمعدل ٢٪ ، مع ما يعنيه ذلك من إيجاد خطوط إنتاج جديدة ، ومصانع ، وعمالة ، وإنتاج . أما الآن ، وبعد الضرورة الاقتصادية التي عاشها العالم بعد ارتفاع أسعار الطاقة فقد أصبح المعدل ممكناً ، لكن بنسبة ١ : ١ ، بل لقد استطاعت ألمانيا الغربية مثلاً أن تصل إلى زيادة في الدخل القومي بنسبة ١٪ مقابل ٠,٨٪ زيادة في معدل استهلاك الطاقة . والرسالة التي نوضحها هنا أن الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها لا يعني وقف عمليات التنمية ، بل يعني عائدا اقتصاديا واجتماعيا واضحا ، من الممكن أن يحس به ، ويرصد ، نتيجة عمليات الإقلال من الأضرار بالبيئة المحيطة بالإنسان .

عن البيئة والتنمية

● برنامج الأمم المتحدة يؤكد دائماً مفهوم التنمية المتواصلة أو المستمرة . في تصورك ما التطور الذي تتوقعه في فكرة الترابط بين البيئة والتنمية في نظرة مستقبلية ؟

ـ دعني أوضح لك بمثال : عندما ذهبت إلى زيارة أوغندا اصطحبونا إلى البلدة التي دمرت بالحرب

الأهلية ، وبدءوا يطلعوننا على برنامج إعادة الإعمار الذي يتم باشراف رئيس الدولة ورعايته ، وعندما وصلت إلى هناك قال لي المحافظ بسعادة بالغة وهو يشير إلى بئر ماء : . هو البئر رقم ٢٤٣ . ثم أخذ يشرح لي كيف يخططون لحفر مزيد من الآبار لتسكين أكبر عدد من المواطنين في هذه البلد بعد أن دمرت ، فشكرت المحافظ ، ثم سألت وزير البيئة : هل لديكم معلومات عن مقدار الماء الجوفي الموجود الذي يتم سحبه ؟

فقال الوزير : لا ، وطرحت نفس السؤال على رئيس الجمهورية بعد ذلك ، وقلت له : المأزق الآن أنكم تروجون لهذا البلد ، لإعادة إعمارها ، وتستقدمون لها المواطنين الذين ـ من المفترض ـ سيقيمون فيها ، ويزرعون أرضها ، وسوف يتم إنفاق أموال ضخمة في البناء والاستثمار ، ثم إذا اتضح بعد خمس سنوات مثلاً ، وبعد كل هذا البناء والاستثمار والقروض أن المخزون الجوفي من المياه قد انتهى ، فما الذي سيحدث وقتئذ ؟ كان من البديهي أن يسأل رئيس الجمهورية عن الحل ، فقلت له : الحل هو قياس مستوى المياه الجوفية وحجمها .

وبعيداً عن التفاصيل الفنية التي دارت بعد ذلك ، فإن ما أريد قوله من ذكر هذه الواقعة هو أنه من الطبيعي جداً لأي إنسان أن يعرف مصادر الثروة الطبيعية الموجودة ، وظروف . الثروة ، ومقدارها ، وإلى أي مدى يمكن استخدامها ، لكي نضمن استمرار عملية التنمية وضمان الاستقرار .

فالهدف الأساسي الذي نركز عليه أن دراسة البيئة ليست عملاً منفصلاً عن جهد التنمية ، وليست عملية استعراض علمي ، لكنها دراسات مرتبطة ارتباطا عضويا بالتنمية ، ومرتبطة باستمرار الحياة نفسها ، وهذه هي الصورة التي ت..ط فيها بين التنمية والبيئة ، وهذا هو التغير الذي حدث في مفهوم البيئة في العالم ، ولم يعد الأمر متوقفاً على الهواء الملوث أو المياه غير النقية ، بل أصبح الأمر أن الحياة نفسها مرتبطة بالبيئة .

ثمن الرفاهيــــة

* استطراداً في الحديث عن المستقبل ما هي الاهتمامات الحديثة في مجال البيئة ؟ وما التغيرات التي حدثت في مجال البيئة وأبعادها التي أصبحت شبه كونية ؟

ـ الاهتمامات الحديثة كلها تكاد تكون منصبة على الجو ، على مستوى العالم كله ، بمفهوم أن كل فرد منا ، فوق سطح الأرض وتحت هذه الشمس ، يتأثر ويدفع الثمن ، ولا فرق بين دول الشمال أو دول الجنوب ، فالكل سوف يدفعون ثمناً غالياً ، وتحديداً فالاهتمام بالجو يدور حول محورين :

المحور الأول : المواد الكيماوية التي تستخرج لتستخدم في عمليات التنمية والانتاج الصناعي والتي أصبح استخدامها ضرورة من ضرورات العصر ،

فلا أتصور مثلاً أن هناك في أقطار الخليج العربي ، ذات المناخ الحار والامكانيات المادية الجيدة ، رجعة عن استخدام مكيفات الهواء ، وذلك لكي يستطيع البشر أن ينتجوا ويفكروا ، وهذا ليس نوعاً من الترف ، ولا رجعة الآن عن استخدام ثلاجة تحفظ المأكولات ، فلا يكاد يخلو منزل منها ، ومعظم النساء الآن عاملات ، وحاجتهن للثلاجة أكثر ، لأنهن لا يستطعن طهو طعامهن يومياً ولا رجعة عن عملية حفظ الأغذية وتعليبها ، ولا رجعة عن أجهزة التلفاز والفيديو والمذياع وكل هذه الأدوات والمنتجات تستخدم في صناعتها مواد كيماوية خطيرة تؤثر تأثيرات ضارة في الغلاف الجوي .

وهذه المواد الكيماوية التي تسمى « كلورو فلورو

ربونات » متعددة ، بيد أن هناك خمسة أنواع من هذه العائلة تسبب تآكل طبقة الأوزون في الجو التي خلقها وأبدعها الله سبحانه وتعالى ، على ارتفاع يتراوح بين ١٠ كم و ٥٠ أو ٦٠ كم أو أعلى ، والتركيز الأكبر منها على ارتفاع من ٢٠ إلى ٤٠ كم ، وقدرة الخالق العظيم أنه جعل كميات صغيرة جداً من هذا الغاز منتشرة هكذا ، وهذه الكميات لو افترضنا جمعها وضغطها بمكبس لوجدنا حجمها ٥ - ٦ سم مكعب ، نعم من خمسة إلى ستة سنتيمترات فقط ، وهذا سمكها كله ، لكنها هي التي تحجب عنا الأشعة الكونية القادمة من الشمس ، وبخاصة الأشعة فوق البنفسجية ، وهناك نوع من الأشعة فوق البنفسجية قاتل ، أي أنه لو تعرضت له الأرض لقتل الزرع والضرع والإنسان ، لكن طبقة الأوزون تحجب هذا النوع القاتل من الأشعة بالكامل .

وهناك نوع آخر من الأشعة فوق البنفسجية لو زاد تأثيره عن حد معين فإنه يسبب إصابة العيون بالكاتراكت (المياه البيضاء) ، ويسبب الإصابة بسرطان الجلد ، ونقص المناعة المكتسبة في جسم الإنسان كالايدز ، ونقص الانتاج في المحاصيل . وتأثيره أشد وضوحاً في كثير من المحاصيل المهمة مثل الذرة لا سيما الذرة الصيفية ، وفول الصويا والقمح .

الخطر القــادم

لقد تأكد العلماء من خلال الأبحاث العلمية التي تمت منذ أواخر الستينيات أن هناك علاقة بين هذه المواد الكيماوية وبين تآكل طبقة الأوزون ، وقد ظللنا مدة عشر سنوات ندق جرس الإنذار ، ونثير الانتباه ، خاصة أن كل الدراسات قد أجمعت على أنه إذا نقصت طبقة الأوزون بمعدل ١٪ فإن الأشعة فوق البنفسجية ستزيد بمعدل ٢٪ ، ونسبة ٢٪ هذه تؤدي إلى ٤٪ زيادة في معدل الإصابة بسرطان الجلد ، وأضافت التقديرات أنه إذا استمر انتاج هذه المواد الكيماوية بنفس المعدل والكم الحادثين ، فإنها تصعد إلى ارتفاعات ٣٠ - ٤٠ كم ، ولا تتكسر ولا تتحطم بل تبقى قروناً ، وتتجمع بنفس التركيب الكيماوي وتسبب تكسير طبقة الأوزون .

والقلق العالمي قد بدأ عندما ارتبط هذا بالحديث عن السرطان ، فكلمة « السرطان » ما زال لها وقع الانذار والرعب لدى البشر كافة ، وعندما ارتبطت هذه القضية بالسرطان بدأ الناس يطالبون بإجراء ما ، وزاد الاهتمام أكثر عندما شاعت لدى العامة آثار فقدان المناعة « الايدز » ، وأدركوا أنه من الممكن أن يصابوا بالسرطان ، وبفقدان المناعة إذا تعرضوا للأشعة فوق البنفسجية .

العالم قد تأكد الآن أن هناك فجوة فوق القطب الجنوبي مصابة بنقص في كمية الأوزون ، وتتضح هذه الفجوة أكثر في شهور الربيع (سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر) في القطب الجنوبي ، بما مقداره من ٤٠ إلى ٥٠٪ من الكمية المفترضة ، وقد استغللنا هذه الفرصة ، وبدأنا نتفاوض مع الدول لوضع اتفاقية دولية ، يتم بمقتضاها وقف إنتاج المواد الكيماوية التي تسبب تحطيم مادة الأوزون واستهلاكها ، وبدأنا في مفاوضات ، ولم يحدث خلاف إطلاقاً حول خطورة الأمر وعلاقته بصحة الإنسان وبالكون وبالحياة نفسها ، لكن عندما دخلت المفاوضات إلى مجال الحديث عن وضع اتفاقية لتنظيم ذلك انتقلت القصة من حوار حول الآثار البيئية والواجب الإنساني لحماية الحياة إلى معالجة القضية الاقتصادية .

* سؤال عرضي : أليس ممكناً تخليق غاز الأوزون ؟

- معملياً لا يمكن ، لكنه يتخلق كونياً باتحاد ذرتي أوكسجين ، ثم تتدخل ذرة أوكسجين ثالثة ، فيتكون الأوزون (ببساطة) ، وهذا المركب يتكسر

بأشعة الشمس ، لكن العناية الإلهية جعلت معدل التكسير مساوياً لمعدل التخليق ، لكن عندما تدخلت هذه المواد الكيماوية حدث خلل هائل ، إذ أصبح معدل التكسير أكبر من معدل التخليق ، واختل بذلك النظام الكوني الموضوع للحفاظ على حياة البشر .

ولذلك عندما ناقشنا دقة المفهوم العلمي والآثار السلبية لهذا الأمر وأهمية الحفاظ على البيئة وحياة الانسان ، لم يختلف معنا أحد ، لكننا اصطدمنا بالشركات الكبرى التي تنتج هذه المواد الكيماوية ، وهي مجموعة شركات يبلغ حجم انتاجها من هذه المواد ٢٠٠٠ مليون دولار سنوياً (ألفي مليون دولار) فقط ، هي قيمة انتاج هذه المواد الكيماوية ، لكن لو حسبنا إجمالي تكلفة الإنتاج الذي تدخل أو تستخدم هذه المواد في صناعته (كالثلاجات والتلفازات وأجهزة المذياع والفيديو) لفوجئنا برقم يصل إلى آلاف آلاف الملايين من الدولارات ، وتكاد تكون كل صناعات العالم مرتبطة به .

وأصبحت القضية : كيف نجد البديل ؟ وهل نوقف الصناعات ؟ وبدأ الخلاف بين الدول والشركات على الأسواق ، بمعنى لو توصلت شركة ما أو دولة ما إلى بديل ، وسبقت بذلك شركة أخرى منافسة ، فإن الشركة التي توصلت إلى البديل ستستغل السوق الذي كان يبيع فيه الطرف الآخر . وأصبحت المفاوضات حول التجارة ، وليس حول مصير الكون ، إلى أن توصلنا إلى صيغة تقدم حلاً مرضياً لكل الأطراف ، وتضمن لكل طرف حقوقه ، لكن بقيت مشكلة الدول النامية ، التي رأت أنها لو أوقفت الانتاج أو قللته ، فإنها لن تستطيع إنتاج أي سلعة تدخل فيها هذه المواد الكيماوية أو أن تحصل عليها . وقد تغلبنا على هذا بأن أعطينا الدول النامية في الاتفاقية مهلة عشر سنوات ، كما اشترط أن تقدم الدول الصناعية المنتجة قدراً من الإنتاج إلى الدول النامية في حالة عدم توصلها الى بديل .

وبعد ذلك أعددنا صياغة الاتفاقية ، واشترطنا أن لا تدخل الاتفاقية مرحلة التنفيذ إلا بعد أن يوقع عليها عدد من الدول التي يكون حجم استغلالها لهذه المواد الكيماوية لا يقل عن ٦٧٪ من إجمالي ما ينتج عالمياً ، وهذا ضمان لكي لا توضع الاتفاقية موضع التنفيذ دون أن يكون الكبار قد وقعوا عليها ، لأن أكبر المستهلكين في العالم هو دول السوق الأوروبية المشتركة (٢٨٪) ، الولايات المتحدة ٢٩٪ ، الاتحاد السوفيتي ١٠٪ ، اليابان ١٠٪ ، وكان لا بد أن يكون كل هؤلاء في دائرة التنفيذ في وقت واحد لأنهم كبار المنتجين ، وبالتالي فان الاتفاقية مطبقة على كل من ينتج ، ولن يحقق أحد مكسباً على حساب الآخر .

واشترطنا أيضاً أن تدخل الاتفاقية نطاق التنفيذ ابتداء من يناير ١٩٨٩ ، وقد وقعت أمريكا ، وصدق الكونجرس الأمريكي في خلال ستة أشهر فقط ، ووقعت دول أوربا الغربية ، وصدقت برلماناتها ، وكذلك اليابان والاتحاد السوفيتي . وفي تقديري أن الاتفاقية حاولت أن تنقذ العالم ، وحققت انجازاً مهماً في وقت قصير ، فقد دخلت حيز التنفيذ بعد عام ونصف عام فقط بعد إعلانها ، وهي سابقة في مثل هذه الاتفاقات الدولية .

عالم أكثر سخونة

المحور الثاني هو ارتفاع درجة حرارة الجو المستمر الذي يعرف علميا بتأثير الصوبة (Greenhous effect) وهناك شبه إجماع في الدراسات العلمية على أن العالم سيشهد في خلال ٣٠ ـ ٤٠ سنة القادمة (وأؤكد أن ذلك سيحدث خلال هذه السنين وليس في نهايتها) ارتفاعاً في درجة حرارة الجو ، مقداره من درجة ونصف إلى أربع درجات ونصف ، ونتيجة لهذا ستتغير أنماط الرياح والأمطار في مختلف أجزاء

ـعالم . والأمر غير المؤكد لنا علمياً ـ حتى الآن ـ هو ـدة التأثير في الأمطار كمّاً وموعداً ومكاناً . . الخ ، ـكن الدلائل المرصودة خلال العشرين عاماً الماضية ـؤكد هذا ، فأفريقيا مثلاً في خلال العشرين عاماً لماضية قلت فيها نسبة الأمطار بانتظام ، بينما ازدادت في أوربا الغربية بالمعدل نفسه . أما درجات الحرارة فهناك تقديرات مبدئية تقول إنها سوف تزيد في البلدان الواقعة حول خط الاستواء بمعدل ١,٥ ـ ٢,٥ ، بينما ستزيد في الشمال بمعدل ١٠ ـ ١٥ درجة ، إذن نحن أمام تغيرات حادة في الرياح والأمطار ، ستسبب اختلالاً خطيرا في حياة العالم ، مثل اختلاف نوعي في المحاصيل ، وتوقف إنتاج أراض . . الخ .

والأمر الآخر أن ارتفاع درجة الحرارة إذا لم يتسبب في ذوبان الجليد الموجود بالقطبين فإنه سوف يؤدي إلى تمدد المياه في المحيطات ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا المعدل ١,٥ درجة إلى ٤ درجات أمر هين ، لا يمثل خطورة ما . ولتوضيح حجم الخطر أشير إلى حقيقة علمية ، هي أن عصر الجليد السابق ـ عندما كان العالم كله تحت الجليد ـ كان معدل درجة حرارة العالم أقل من المعدل الحالي بخمس درجات فقط . ومن هنا يمكننا أن نتخيل ماذا يمكن أن يحدث لو ارتفعت درجة حرارة العالم خمس درجات فقط عما هو موجود الآن . سوف يحدث تمدد في حجم المياه الموجودة في المحيطات فيؤدي ذلك إلى ارتفاع سطح المياه في البحار والمحيطات بدرجة تتراوح بين ١٢٠ و ١٤٠ سم ، والمعدل المتوقع للزيادة المتفق عليه بالنسبة لكل العلماء هو في حدود متر واحد ، وهو ما تجمع عليه الدراسات .

ماذا يعني ارتفاع سطح المياه في البحار والمحيطات بمقدار متر واحد ؟ يعني هذا أننا في دولة مثل مصر لو ارتفعت المياه بمقدار متر فسوف تغرق الدلتا ، وتهدد بفقدان ١٠ ملايين شخص ، وتهدد في بنجلاديش بفقدان ١٥ مليون شخص ، وستختفي جزر المالديف من الخريطة ، إذا ارتفع الماء مقدار نصف متر فقط . ونتيجة لهذا يتبادر إلى الذهن أن العالم مطالب بوضع حواجز على المدن الساحلية والنهرية ، لحمايتها من الأخطار المحتملة . لكن حساب التكلفة يقول إن تنفيذ مشروع حماية المدينة الواحدة من ارتفاع سطح الماء بمقدار ٨٠ سم إلى متر سيكلف ٢٠٠٠ بليون دولار (ألفي بليون دولار) .

إذن ما هو مصدر الخطر ، أو ما هو السبب في طرح هذه الاحتمالات ؟

السبب ببساطة هو ارتفاع درجة الحرارة الذي تتلخص أسبابه في الانتاج الصناعي والمداخن الصناعية ، وعوادم السيارات والغازات الناتجة من هذه العوادم ، وبعض الغازات التي قلنا سابقاً إنها تؤدي إلى تآكل طبقة الأوزون ، وتأثير السحب التي تحولت إلى حاجز يمنع انتشار حرارة الشمس عندما تنعكس من الأرض ، فتوقف هذا التسرب المفروض للحرارة ، فتزيد درجة حرارة الأرض ، وثاني أكسيد الكربون وحده يسبب ٥٠٪ من زيادة درجة الحرارة .

ومن الخطأ التصور أن بمقدور أحد بمفرده أن يقوم بعلاج هذه الظواهر ، فهي فوق قدرة أي عالم أو مجتمع أو دولة أو منظمة ، لأنها تحتاج إلى جهد العالم كله ، ولذا فإن ريجان وجورباتشوف عندما التقيا في العام الماضي كان من أحد الموضوعات التي اتفقا عليها ـ وقد أعلنا هذا رسمياً ـ هو تضافر جهود البلدين وتنسيقها في مجال ظاهرة تغير الجو . كبحوث مشتركة بين الدولتين العظميين ، لأن الوسائل المتاحة محدودة الأثر ، ومحصورة في تقليل استخدام هذه الغازات ، وهو أمر يؤثر على الانتاج الصناعي العالمي ، وقد كان مطروحا للعمل على استخلاص هذه الغازات من الجو ، ثم تذويبها في المحيط . لكن ما تأثير هذا على المحيط ، وعلى الكائنات البحرية ؟

حتى الآن لا توجد إجابة محددة ، لكن هذا حل مطروح لكسب الوقت .

والمطروح عالمياً من وسائل التحكم في أسباب ارتفاع درجة حرارة الجو هو الاستغلال الرشيد للطاقة ، وهناك تجربة في السويد ، وهي أن كل مصنع لديهم يعيد تدوير كل النفايات عما فيها الحرارة ، بحيث لا يخرج في النهاية عادم على الإطلاق ، ولا حتى نفايات .

ومطروح أيضاً التقليل من استخدام السيارات بتشجيع استخدام المركبات العامة بدلاً عن السيارة الفردية ، والعودة إلى وسائل نقل عامة تعمل بالكهرباء مثل « الترام » لتقليل وجود العوادم ، وتجريب أنواع جديدة من الطاقة كالطاقة الشمسية أو طاقة الرياح أيضاً

وهكذا فإنه علينا بحكم الضرورة الملحة أن نعرف تأثير ارتفاع درجة الحرارة ، وارتفاع مستوى سطح المياه على المناطق الجغرافية المختلفة ، خشية أن يحدث هذا التغير فجأة ، وبالتالي على الإنسان أن يخطط لحياته ، وماذا سيفعل لو حدث هذا في خلال ١٠ ـ ١٥ سنة ، وليس ٣٠ ـ ٤٠ سنة ؟ ولدينا برنامج في المنظمة لبحث هذا الأمر مع بعض البلدان في مناطق جغرافية متنوعة ، بحيث نفكر معاً في مستقبل الإنسان في ظل هذا التغير البيئي الحاد لو حدث ، ومع استمرار جهودنا لمحاولة وقف حدوثه .

*** إذا كانت قضية الأوزون قد تم حسمها على المستوى العلمي ، وإذا كانت الدول ستكف عن استخدام المواد التي تسبب اغتيال طبقة الأوزون ، فما البدائل ؟**

ـ لم تكن الصناعة غائبة عن متابعة تطورات قضية الأوزون ، ولعلك تذكر أن أول اجتماع أثير فيه موضوع الأوزون كان في عام ١٩٧٤ ، ثم في اجتماع للحكومات في عام ١٩٧٧ ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت المجموعات الصناعية تحرك علماءها وأجهزة البحث فيها للبحث عن البدائل ، وفي الفترة من ابريل إلى سبتمبر ١٩٨٧ ـ وهي فترة ما قبل توقيع اتفاقية الأوزون ـ التقيت بممثلي كل الشركات المنتجة لهذه المواد ، وقلت لهم ما توصلنا إليه ، وسألتهم عن موقفهم الحقيقي ، وقد أجابوا بجواب موضوعي مفاده أن معامل أبحاثهم قد توصلت الى بدائل ، وأن هذه البدائل ستكون متاحة للانتاج بشكل تجاري في الأسواق العالمية خلال فترة (من ٧ ـ ٨ سنوات) ، فصدرت الاتفاقية في ضوء هذا الموقف ، حيث تقضي الاتفاقية بتجميد الانتاج بعد دخول الاتفاقية عامها الأول ، وخفضه بمقدار ٢٠٪ بعد عامين ، وبمقدار ٥٠٪ بعد ست سنوات (أي بعد انتهاء كل المدة وهي ٨ سنوات ، الشاملة للمدد التي طلبتها الشركات الصناعية) والهدف من هذا التسلسل إعطاء الصناعة إشارة واضحة بأن عملية الانتاج الصناعي ستصبح مهددة ، لأن المصنع الذي كان ينتج عشر وحدات سيجد نفسه مطالباً بعد فترة بانتاج خمس فقط ، وهي عملية غير مجدية بالنسبة لحسابات التكلفة . وقد فوجئت بعد خمسة شهور فقط من توقيع الاتفاقية أن الأمر على غير ما كنت أتوقع ، ففي أثناء اجتماع عقدناه مع ممثلي الشركات الصناعية المنتجة لهذه المواد سألناهم عن وضع البدائل ، فسمعناهم يذكرون كماً من البدائل الجاهزة لديهم معملياً ، وقد أخبرونا أنهم يتوقعون قبل مرور خمس سنوات أنهم سيتمكنون من الانتاج التجاري والتصدير وتشغيل مصانع أخرى ، أي قبل المدة التي كنا نتوقعها من قبل ، وهي ٧ ـ ٨ سنوات .

وهذه الخبرة في التعامل توضح لنا موقف العلماء من القضايا البيئية ، وكيف أن المجمع الصناعي العالمي عندما يشعر بجدية الضغوط الواقعة عليه فإنه يطلق باحثيه لسبق الزمن والتعامل مع المتغيرات . ■

بقلم : الدكتور سامي عزيز

بعد فترة من العمر ، يحل الضعف بالكائنات الحية ، وينتهي بها الحال إلى الموت . حول التغييرات التي تحدث في الجسم ، وتتسبب في حدوث الشيخوخة ، تجري محاولات العلماء والباحثين لتحديد كنهها ، ومعرفة الوسائل الطبية لتأخير سن الشيخوخة ، والحد من متاعبها .

فإلى أي مدى وصلت هذه المحاولات العلمية ؟

تشير الأبحاث التي أجريت مؤخرا إلى أن عديداً من التغيرات الكيميائية التي تحدث في خلايا الجسم المختلفة تعد المسئول الأول عن حدوث الشيخوخة ، فالخلايا لدى متقدمي العمر تكتفي فقط بالعمليات المهمة التي تهيىء الجسم للقيام بوظائفه اليومية ، مثل : تمثيل الغذاء ، والعمليات الإخراجية ، وتصنيع البروتينات وغيرها ، لكنها تتوقف عن القيام بعديد من العمليات الحيوية الأخرى التي كانت تقوم بها في فترة الشباب .

ويؤكد علماء طب المسنين أن هذه الحالة يمكن تسميتها « الفشل الخلوي » ، وهي في ذلك تماثل الفشل الكلوي ، أو الفشل الكبدي ، ولكن نظرا لأننا في أول الطريق ، ولا تتوافر لدينا حتى الآن الفحوصات الدقيقة للكشف عن تفاصيل هذا الخلل الخلوي ، فإننا نستطيع أن نقول : إن معظم النظريات المتوافرة حاليا تنقصها الأدلة العلمية

المؤكدة لها ، ومن هذه النظريات المعروفة حاليا :

(١) نظرية التمزق والبلى ، وهي تفترض حدوث عطب في المادة الوراثية P.N.S ، مع تقدم العمر ، مما يؤثر على بروتينات الخلية ، وبالتالي على وظائف الخلية المختلفة .

(٢) نظرية الجينات . وهي تفترض حدوث اضطراب في جينات الخلية ، مما يؤدي إلى تصنيع بروتينات ضارة داخل الخلية . فتضطرب وظائفها المختلفة

هل مادة P.N.S هي السبب ؟

إحدى النظريات - كما أشرنا - تفترض أن السبب يكمن في بعض التمزق والبلى الذي يحدث مع تقدم العمر للمواد الوراثية التي تتحكم في تصنيع بروتينات الخلية - مادة P.N.S - ومع تكرار هذه العيوب ومواضع الخطأ في هذه المادة عدة مرات ، نتيجة تعرض الخلايا للإشعاعات وبعض المواد الكيماوية السامة ، تقل كفاءة الخلايا في تأدية وظيفتها

ولكن هذه النظرية - مع الأسف - أهملت قدرة خلايا الجسم على إصلاح أي إصابة تحدث فيها . والمؤكد لنا الآن أن الخلايا البشرية تستطيع أن تعيد بناء أي عطب يصيبها ، وذلك بتكوين قطع غيار بديلة ، وإعادتها إلى موضعها الأصلي داخل الخلية ، مما يجعلها تقوم بنفس الوظائف التي كانت تقوم بها دون أي تأثر

ويؤكد البروفيسور « تاكاتوشي اسكارا » ، رئيس معهد السرطان بطوكيو باليابان ، قدرة خلايا الجسم على إصلاح أي خلل يحدث فيها ، فيقول . « تقدر عدد الإصلاحات التي تحدث في خلايا الجسم عند بلوغ سن السبعين بأكثر من ١٢٨ بليون عملية إصلاح ، وهذا الرقم دون شك يفوق كل تخيل !!

من هنا يتضح لنا أن النظرية التي تفترض أن تحطم جزيء P.N.S داخل الخلية مسئول عن ظهور الشيخوخة مع مرور العمر نظرية غير مقبولة ، فالجزيء منها يصلح نفسه ، ويستعيد تركيبه الأصلي بملايين المرات

الجديد الذي يطرحه البروفيسور سترهلر - الباحث المعروف في علوم بيولوجيا الخلية - في هذا المجال يختص بجينات الخلية . يقول : « ربما تحدث الشيخوخة نتيجة فقد بعض جينات الخلية أو إصابتها ببعض الخلل ، ففقد إحدى الجينات مثلا قد يعطل إنتاج بعض أنزيمات الخلية ، وبالتالي يحدث الاضطراب الخلوي » .

وهذا الخطأ الخلوي المميت - كما يلقبه العلماء حاليا - قد يؤثر بالتالي على إنتاج بروتينات الخلية مع مرور العمر وتشير الأبحاث التي قام بها البروفيسور « روبرت جراس » ، من جامعة شمال تكساس بأمريكا ، إلى إمكانية حدوث ثلاثة اضطرابات في أنزيمات الخلية عند حدوث الشيخوخة :

(١) نقص القدرة على الثبات

(٢) نقص الكفاءة .

(٣) نقص الكمية المنتجة

والجديد في الموضوع أن هذه التغيرات في الجينات وأنزيمات الخلية ربما لا تؤثر على جزيء P.N.S ، بل يحتمل أن يكون تأثيرها بطريقة أخرى مختلفة تماما .

ويؤكد ذلك البروفيسور « جيمس سميث » ، عالم الفيروسات بجامعة بيلور بهيوستون بأمريكا ، فهو يرى أن الجينات المصابة قد تنتج بعض البروتينات الضارة بالخلية ، مما يؤثر على انقسامها ، ويعجل حدوث الشيخوخة . أما آخر الأبحاث في هذا المجال فتشير إلى أن بعض المواد الكيماوية الموجودة في الجسم قد تعجل ظهور الشيخوخة ، وأهم هذه المواد : (١) مادة الليبوفيوسين (تنتج عن تحلل المواد الدهنية) . (٢) مادة السكر .

المعروف أن مادة « الليبوفيوسين » تنتج عن تحلل المواد الدهنية ، وتزيد مع تقدم العمر ، وهي تنتج داخل خلايا الجسم المختلفة ، وربما يؤدي وجودها بكميات كبيرة إلى تعطيل بعض العمليات الحيوية ، وبالتالي إلى ظهور الشيخوخة .

أما مادة السكر فتمثل - حسب ما يرى معظم العلماء حاليا - المسئول الأول عن الشيخوخة . يؤكد ذلك البروفيسور « ريتشارد بوكلا » ، من جامعة

ركفلر بنيويورك الذي توصل إلى أن جزيء الجلوكوز - أحد أنواع السكر - يؤدي إلى إصابة بروتينات الخلية المختلفة بعديد من الأعطاب ، مما يؤثر على كفاءة الخلية في القيام بوظائفها المختلفة .

والمؤكد حاليا أيضا أن الجلوكوز يعمل على ارتباط ألياف الكولاجين بعضها ببعض ، وحدوث هذا الارتباط معروف مع تقدم العمر منذ عدة سنوات ، لكن التفسير العلمي لهذه الظاهرة لم نتوصل إليه إلا بعد اكتشافات البروفيسور بوكلا .

وبالإضافة إلى ذلك ثبت حاليا أن جزيء الجلوكوز يمكن أن يتحد مع جزيء P.N.S ، مما يؤدي إلى خداع الجهاز الوراثي ، ودفعه لإنتاج بروتينات غريبة ، قد تكون ضارة بالخلية .

هل يمكن إطالة العمر ؟

المؤكد لنا حاليا أن الشيخوخة في جوهرها مشكلة على مستوى الجزيء الكيميائي ، وأن الشق الحر الذي يقوم بدور المادة الغروية - كما شرحنا - هو أحد أساسيات المشكلة !

لذلك يفكر العلماء حاليا في مجموعة من المواد الكيميائية ، تعرف باسم « مضادات التأكسد » ، وهذه المواد من شأنها معادلة التأثير السام للشق الحر ، وجعله أكثر ثباتا ، وأقل نشاطا كيميائيا . ففيتامين E مثلا يأتي في مقدمة المواد المضادة للتأكسد ، وكذلك مادة الكاروتين التي تتحول في الجسم إلى فيتامين « أ » . فهل يمكن باستخدام فيتامين E أو مادة الكاروتين القضاء على زحف الشيخوخة وإطالة العمر ؟

والوسيلة الأخرى التي يبحثها العلماء حاليا لإطالة العمر هي الصيام المتقطع ، فالصوم يحد من نسبة تركيز الشق الحر بالخلية ، وبالتالي يزيد متوسط عمر الخلايا . يؤكد ذلك العالم الشهير « ولفرد » الذي توصل إلى أن إنقاص السعرات الحرارية في الغذاء المقدم لحيوانات المعمل بنسبة ٣٠٪ إلى ٤٠٪ يصاحبه زيادة في متوسط العمر تصل إلى ٤٠٪ ، وهذه التجارب قد ثبتت صحتها أيضا في جامعة تكساس ، وبالتحديد في المركز الصحي التابع لهذه الجامعة بسانت أنطونيو ، إذ بعد تجارب عديدة ، قادها البروفيسور « إدوارد ماسورو » ، تبين أن عدم الإسراف في الغذاء ، وإنقاص السعرات الحرارية ، يطيل عمر حيوانات المعمل .

هرمون الموت :

تساؤلات جديدة تثيرها الأبحاث الطبية حاليا في موضوع الشيخوخة : هل الموت الخلوي يحدث نتيجة برنامج زمني محدد ، أم أنه عملية اعتباطية ، لا تتبع أي نظام أو ترتيب ؟ وما الذي يحدد لحظة موت الخلية ؟ وهل هي إشارات خاصة من الخلية نفسها أم من الجهاز العصبي أم منهما كليهما ؟ وهل التوقف عن الانقسام يعني موت الخلية ، أم أن ذلك عملية بيولوجية ، تحدث قبل توقف الخلية عن الانقسام ؟

يؤكد الدكتور « دونر دنكل » ، رئيس قسم الكيمياء الحيوية السابق بجامعة كامبريدج ، أن موت الخلايا يحدث نتيجة إفرازات خاصة ، تخرج من الغدة النخامية ، أطلق عليها اسم « هرمون الموت » ، وهذه الإفرازات تبدأ في الظهور مع سن البلوغ ، ويستمر إفرازها بكميات متفاوتة فيما بعد . وقد تمكن دونر من استخلاص « هرمون الموت » سنة ١٩٨٠ ، وعند حقن حيوانات المعمل بهذه المادة بدأت علامات الشيخوخة في الظهور عليها بصورة مبكرة .

وحتى يؤكد « دونر » دور الغدة النخامية في إفراز هرمون الموت ، المتهم الجديد في حدوث الشيخوخة ، قام بإزالة الغدة النخامية من بعض الحيوانات ، وحقنها بالهرمونات البديلة ، حتى تستمر الحياة فيها ، وقد تبين أن هذه الحيوانات عاشت فترات أطول من الحيوانات الأخرى التي لم تجر عليها هذه العملية ، مما يؤكد دور الغدة النخامية في تفجير موت الخلايا وحدوث الشيخوخة

وتؤكد الأبحاث الحديثة أن موت الخلايا يسير حسب برنامج زمني محدد . وأنها عملية مرتبة ولا تسير بطريقة اعتباطية ، وأن هناك عوامل كثيرة ، تتحكم في هذه العملية ، لكن الصورة الكاملة لها مازالت غير واضحة المعالم .

الاقتصاد « الفسيولوجي »

تحدثنا عن هرمون الموت ، ودور الغدة النخامية ، في حدوث الشيخوخة ترى هل توجد مراكز أخرى تتحكم في هذه العملية ؟ وهل الشيخوخة تعود إلى أسباب وراثية . أم أنها تعود بالدرجة الأولى إلى العوامل البيئية ؟

يجيب عن هذه الأسئلة الأستاذ الدكتور « كالب فينس » ، أستاذ طب الأعصاب بالمركز الأمريكي للشيخوخة ، بقوله . « هناك عوامل كثيرة متداخلة ، تؤدي إلى تغير الخلية ، وظهور علامات الشيخوخة فيها ، لكننا لا نستطيع ـ حتى الآن ـ أن نتهم عضوا معينا بالجسم بتفجير هذه العملية ، فخلايا الجسم تصاب بالشيخوخة على مراحل مختلفة ، كما أننا لا نستطيع أن نبرىء عاملا معينا من المشاركة في هذه العملية » .

لقد أشارت بعض التجارب إلى وجود علاقة بين الغدة النخامية والمبيض ، فعند إزالة الغدة النخامية من فئران التجارب تبين أن الشيخوخة تصيب خلايا المبيض في وقت متأخر . ومن هذه النتائج قام العالم « فينس » بافتراض نظريته الجديدة التي أطلق عليها اسم « الاقتصاد الفسيولوجي » ، وهذه النظرية الجديدة تفترض

(١) وجود أكثر من مركز في الجسم للتحكم في عملية الشيخوخة .

(٢) أن خلايا الجسم المختلفة تصاب بالشيخوخة على مراحل ، وليس هناك عمر ثابت لها .

(٣) أن هناك خطة محكمة تسير على ضوئها عملية الشيخوخة ، وهذه الخطة تتأثر بالوضع الفسيولوجي للجسم ، والتغيرات الباثولوجية (المرضية) التي يواجهها .

(٤) تمثل هذه الخطة أعلى مستوى للاقتصاد ، بمعنى أن الجسم يعمل على تأخير شيخوخة خلايا بعض أعضائه لمواجهة بعض التحديات التي يتعرض لها .

من هنا يتضح لنا أن الغدة النخامية ليست وحدها المتهم الأساسي في حدوث الشيخوخة ، بل إن هناك مراكز أخرى كثيرة ، تشارك في اكتمال هذه العملية ، وأن نظرة العلماء حاليا تؤكد وجود خطة محكمة ، تسير على أساسها مراحل الشيخوخة ، وهذه الخطة تمثل أرقى مستوى للنظم الاقتصادية التي تهدف أولا وأخيرا إلى قيام خلايا الجسم المختلفة بوظائفها الأساسية ، وتأخير شيخوخة بعض الأعضاء لمواجهة خطة ليست ثابتة ، لكنها تختلف باختلاف الظروف التي تواجهها أعضاء الجسم

في النهاية نحب أن نقول : إن العلم ـ في وقتنا الحالي ـ لا يستطيع أن يصف لنا إكسيرا معينا ، يعيد لنا الشباب ، أو مضادًا يساعدنا على وقف زحف الشيخوخة . فنحن حتى الآن لم نفك ألغاز الشيخوخة ورموزها ، وهدف العلماء حاليا ليس إطالة العمر بقدر ما هو رفع مستوى الصحة ، فليس المهم كم من السنوات عشت ، بل كيف كانت حياتك على الأرض

لذلك فأبحاث طب المسنين لن تتوقف ، ولكن على العكس ، فالمنتظر أن تأخذ نصيب الأسد بين الأبحاث الطبية الأخرى خلال العشرين سنة القادمة . ويرى العلماء أن هذه الأبحاث ستكرس ليس لمعرفة أسرار الخلود ، وكيفية إطالة العمر ، بقدر ما ستكرس لتحسين مستوى الصحة عند المسنين □

التساؤل عن أسباب الهوة المتعاظمة بين البلدان المتقدمة والمتخلفة تساؤل غدا مكرورا ، والجواب عنه أخذ مائة شكل وشكل ، وملأ من صفحات الورق مايكاد يفضي إلى الغرق . ومع ذلك يظل التساؤل قديما أبدا ، جديدا أبدا ، مادام التخلف قائما ومادام البون بينه وبين التقدم متعاظما . وليس يصح أن نقول في هذا المجال قولة الشعراء العرب القدامى : « ماترك الأول للآخر » أو أن نقول مع الكاتب الفرنسي لابروبير : « وكل شي قد قيل ونحن لانعدو أن نلملم بقايا ما خلَّفه الأقدمون وما تركه البارعون من المحدثين » .

تلك الهوة بين التقدم والتخلف !

بقلم : الدكتور عبدالله عبدالدائم

على أننا منذ البداية نود أن ندحض ظنا قوامه أن البحث عن مصدر الهوة بين التخلف [و الت]قدم يعني البحث عن العلة الأولى ، على حد تعبير [...]سطو ، وأن القول بأولوية العامل التنظيمي [...]ى على نحو ما نود أن نذهب إليه في هذه الكلمة [...]ي ضربا من تبسيط الأمور ، ورد الظواهر المعقدة [المت]شابكة إلى خيط رائد وحيد .

ذلك أننا ننكر التفسير الأحادي للأمور ، [و]لانقول بالصلة « الخطية » بين الأشياء ، بحيث [يغ]دو تاليها معلولا لسابقها . ومنهجنا هو المنهج العلمي الذي يأخذ بالصلة الدائرية بين الأشياء ، بحيث يرى في كل منها سببا ونتيجة في آن واحد ، وبحيث يدرسها في ترابطها وتكاملها وتعانقها . وحكايتنا مع الحقيقة ليست على أي حال حكاية الأعمى والفيل ، ونحن ندرك تمام الإدراك أن التخلف جملة من العوامل المتداخلة ، منها التاريخي ومنها الاجتماعي ومنها الثقافي ومنها الاقتصادي ومنها ما فوق ذلك .

لكن وجود العوامل العديدة التي تفسر التخلف أو تفسر أي ظاهرة لا ينفي أن يختلف وزن كل منها

ودوره في توليد ذلك التخلف أو تلك الظاهرة ، كما أن علاج التخلف ، وإن يكن من اللازم أن يكون شاملا ، لا ينفي أن يحتل علاج بعض عوامله مكان الصدارة ، وأن تكون له أولوية على سواه . وإلا كان من المتعذر أن نخرج من دائرة التخلف .

وما نزعمه هو أن ثمة عاملا من عوامل التخلف له مثل هذه الصدارة ، وينبغي أن تكون له مثل هذه الأولوية في علاج التخلف ، ونعني به عامل الإدارة والتنظيم الإداري ويدلنا معظم ما كتب حول التخلف وعوامله على أن هذا العامل قد أهمل شأنه إلى حد كبير ، ولم يمنح ما يستحق من عناية ، لاسيما في الأقطار العربية وفي البلدان النامية بوجه عام .

ولا أدل على ذلك من أننا كثيرا ما نرى لدى الباحثين في عوامل تخلفنا الناشدين لدروب خلاصنا ، من بين المربين بوجه خاص ، دعوة إلى تفتيح إمكانات الفرد العقلية والجسدية والخلقية ، وعناية خاصة بتفتيح قوى الخلق والإبداع والابتكار لديه ، والاهتمام بتكوين المواقف والمهارات والتريث عند ضرورة رعاية الحكم والمحاكمة وسوى ذلك .

ولسنا ممن ينكر دور مثل هذه الجهود في تفتيح العقول وتهذيب النفوس ، غير أن عجبنا ينصب على ما نراه في مقابل ذلك ، من إهمال المربين وسواهم لتكوين القدرات الإدارية والتنظيمية على الرغم من شأنها الكبير في عصرنا الحديث .

الأزمة التربوية والعلاج الإداري

لقد تحدث في الغرب وسواه من تحدث عن الأزمة التربوية أيام اشتداد هذه الأزمة (وقوامها تقصير الموارد المالية والبشرية عن الوفاء بحاجات التوسع الكبير في التعليم والتزايد المتسارع في أعداد الطلاب) . وفي علاج الأزمة ظهرت صيحات تقليدية ، وظهرت إلى جانبها صيحات نراها مجددة حقا، ترى في تطوير الإدارة التربوية وزيادة نجعها وفاعليتها السبيل الأول للخروج من الأزمة ، وتدعو فيما تدعو إليه إلى الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، بل ذهب بعضهم إلى حد القول : إن ما نحتاج إلى من أجل الإصلاح ليس هو العقل وحده ، فالعقل على حد تعبير ديكارت أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، أما الابداع كل الابداع فهو وليد التنظيم

وتحدث منذ سنوات جان سرفان شريير (في كتابه الأول الشهير : التحدي الأميركي) عن الهوة بين أوربا وبين الولايات المتحدة في شتى المجالات، لاسيما في مجال الاقتصاد والتصنيع والعلم والتقنية . فرد ذلك بحق إلى هوة إدارية تسييرية ، وصاح بصوت عال : ليست الهوة بين التقدم والتخلف تفاوتا في مستوى المادة الرمادية (الدماغ) ، وإنما الهوة هي التفاوت في الإعداد والتنظيم .

الأتمتة والثورة الإدارية

و « جان سرفان شريير » وأمثاله ينطلقون في هذا من ظاهرة حديثة مهمة تسم العصر الحديث ، وهي حلول الآلة (والآلة المؤتمتة) أكثر فأكثر محل الإنسان . وحلول الآلة محل الانسان - في الثورة العلمية التقنية ، بل في ثورة ما بعد الصناعة ، يحمل معنيين يتصلان اتصالا وثيقا بالشأو الجديد للإدارة والتنظيم :

فهو يعني أولا أن تضطلع الآلة المؤتمتة بالأعمال الآلية التي كان يقوم بها الانسان مرغما ، والتي ليست من طبيعته ، نعني الأعمال التي تعتمد على الجسد ، والتي تجعل العامل جزءا من الآلة ، يسير بإيقاعها (كما في نظام تايلور الشهير) . ونتيجة ذلك تحرير الإنسان من الاعمال « الروتينية » الآلية اللاإنسانية واشتغاله بما هو أقرب إلى طبيعته كإنسان ، وترجمة هذا فيما يتصل بالإنتاج الصناعي بوجه خاص ، انصراف الانسان إلى المرحلة السابقة على الإنتاج (البحث العلمي ، تخطيط الانتاج وتنظيمه ، البحث عن وسائل زيادة مردوده وتجويد مخرجاته إلخ) ، وإلى المرحلة التالية على الانتاج (تسويق الانتاج ، استخلاص الدروس اللازمة بعد بيعه ، إقامة العلاقات الضرورية مع الشركات الأخرى والبلدان الأخرى إلخ) . وهذا كله كما نرى يحتاج أولا وقبل

...ي، إلى مجهود إداري تنظيمي .

...لمعنى الثاني لحلول الآلة محل الإنسان هو ...ستخدامها من أجل تجويد العملية الإدارية ...تنظيمية ، وينطبق هذا بوجه خاص على الحاسبات الالكترونية التي تلعب دورا أساسيا في إدارة الإنتاج وإدارة التنمية بوجه عام التي يتعاظم دورها بمقدار ...زيد جودتها وكفاءتها . وهكذا لم يعد من الغريب أن تقاس قوة الدول بمقدار ما تملكه من الحاسبات الألكترونية ومن أجيالها المتعاقبة التي بلغت الجيل الخامس في السنوات الأخيرة (بعد جهود اليابان في هذا السبيل منذ عام ١٩٨٥) .

على أن تجويد العملية الإدارية لا يقتصر على الاستعانة بالحاسبات الالكترونية أو بالآلات بوجه عام بل يتسع ليشمل كل ما يعرف باسم التقنيات الإدارية الحديثة ، وهي ليست جميعها تقنيات آلية ، بل أكثرها تقنيات منطقية (كطريقة بيرت وطريقة دلفي وكالتنظيم العلمي للعمل) .

نمو العاملين في قطاع الخدمات

من هنا ندرك معنى ما نجده في البلدان الأكثر تقدما من تناقص نسبة القوى العاملة في قطاع الزراعة ، وفي قطاع الصناعة (مع زيادة الإنتاج في كليهما) ، ومن تزايد نسبة العاملين في قطاع الإدارة . وتدل الإحصاءات على أن نسبة القوى العاملة في الزراعة في البلدان المتقدمة قد تناقصت من ٣٨٪ من جملة القوى العاملة عام ١٩٥٠ إلى ١٠٪ عام ١٩٨١ ، وأن نسبة القوى العاملة في الصناعة قد تناقصت بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨١ من ٣٨٪ إلى ٣٠٪ وأن نسبة القوى العاملة في قطاع الخدمات الإدارية بالدرجة الأولى) قد تزايدت بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٨١ ، من ٣٢٪ الى ٣٦٪ . وقد ...ول قائل إن نسبة العاملين في قطاع الزراعة في ...لبلدان النامية (ومنها الأقطار العربية) قد تناقصت ...صا ، وأن نسبة العاملين في قطاع الخدمات قد ...يدت بدورها . ولا حاجة إلى القول إن التناقص نسبة العاملين في الزراعة لم يرافقه ارتفاع في الإنتاج (كما في الدول المتقدمة) ، بل رافقه هبوط واضح فيه ، أما قطاع الخدمات فلا حاجة إلى القول إن تزايد نسبة العاملين فيه ليس نتيجة من نتائج النمو الاقتصادى وانتشار الآلة والأتمتة ، وإنما هو على العكس ظاهرة مرضية تشير إلى أن قطاع الخدمات أصبح مستودعا للعمالة الفائضة والطفيلية (كما هى الحال في كثير من الأقطار العربية) .

من تجارب الماضي

حتى إذا تركنا تجربة العصر التي ولدت من خلال بنيتها الجديدة مزيدا من الحاجة إلى الإدارة والتنظيم ، وعدنا أدراجنا إلى الماضى وجدنا أمثلة كثيرة تشهد على دور الإدارة والتنظيم في تقدم الشعوب (أو في زيادة ثروتها حسب التعبير الذي شاع منذ أيام «آدم سميث») . وحسبنا للتدليل على هذا مثالان تاريخيان يذكرهما مؤرخو الاقتصاد . مثال الدنمارك في الثلاثينيات من هذا القرن ، ومثال اليابان بعد عصر « ميجي » الشهير بدءا من عام ١٨٦٨ . أما الدنمارك فقد استطاعت أن تتخلص من أزمة القمح التي اجتاحت أوربا كلها في الثلاثينيات (بسبب غزو القمح القادم من العالم الجديد) عن طريق حل إداري تنظيمي قبل أن يكون أي شيء آخر

وذلك بأن غيرت نمط إباحها كله وانتقلت سريعا من زراعة القمح إلى صناعة الألبان وغدت متفوقة فيها[١] .

أما اليابان في عصر « ميجي » فمن أهم عوامل تقدمها السريع تنظيم نقل الصناعة الغربية إلى اليابان . عن طريق البعوث العلمية العديدة التي أرسلتها إلى الغرب بشكل منظم مدروس ، مصحوب بمتابعة إدارية دقيقة ، وعن طريق جلب مجموعة من الخبراء الأوربيين في ميدان الصناعة بخاصة وإلحاقهم بالمؤسسات الصناعية القائمة في اليابان وتنظيم إفادة اليابانيين منهم عن طريق خطط للتدريب محكمة الربط .

الثورة العلمية والوطن العربي

وبعد ، إذا تريثنا بوجه خاص عند الأقطار العربية ، كفانا للتدليل على دور الإدارة والتنظيم في تجاوز تخلفها مثالان اثنان (من بين أمثلة كثيرة) ، أولهما يتصل بدخول الأقطار العربية عصر العلم والتقنية . ولقد قيل في هذا كثير . ومع ذلك فما تزال الأقطار العربية عاجزة في هذا الميدان عن أن تبلغ الشأو الذي بلغته بعض الدول النامية (مثل كوريا وتايوان والهند والصين والبرازيل وسواها) وقد يحسب بعضهم أن المسألة مسألة زمن ، وأن علينا أن ندع للزمن زمنا وقد تكون المسألة مسألة زمن إذا نحن وضعنا الآلية اللازمة لسير القطار . لكن هذه الآلية مفقودة . وهي في جوهرها آلية إدارية تنظيمية قبل أي شيء آخر . وحسبنا للاقتناع بذلك أن نلخص ما قاله مايكل سمبسون[٢] حول متطلبات التقدم العلمي التقني ، إذ ردها إلى متطلبات أربعة أولها وجود قوة اجتماعية (طبقة أو نخبة) قادرة على تحديد أهداف تقنية واقعية ، وتنظيم الموارد البشرية والمادية للقطر ، من أجل تحقيق هذه الأهداف وثانيها الوصول إلى جمهرة فاعلة (حشد كـ نسبيا) من العلماء ، ومن قوة العمل الماهرة . وثالث أن يمتلك البلد موارد كافية ، مالية أو على شكل مو خام . ورابعها أن تتوافر سوق لمنتجات التقنـ المتقدمة .

وواضح أن المطلبين الأولين (على الأقل) مطلبـ تنظيميان إداريان في جوهرهما ، وقد يكون من نافلة القول أن نضيف بأن المطلب الأساسي لتطوير العلـ والتقنية في الأقطار العربية هو التنظيم المؤسسي . ولا أدل على ذلك من أن السياسات المتصلة بالعلـ والتقنية لايقوم تنسيق كاف بينها وبين السياسات الاقتصادية والانتاجية وبينها وبين السياسات المتصلة بالقوى العاملة إلخ ، ولقد جرت محاولات عديدة في الأقطار العربية لربط التربية بالعلم والتقنية . لكن هذه المحاولات ظلت يتيمة . لأن التربية تركت وحدها في الساحة . ولم يتوافر التنظيم الإداري الذي ينسق ويربط والذي يقدم لنظام التربية من الشروط المادية ما ييسر نجاح مهمتها هذه

مشكلة التربية العربية

وهذا ينقلنا توا إلى المثال الثاني الذي نود من خلاله أن نبين أهمية الإدارة والتنظيم في مسيرة التقدم العربية المنشودة :

لقد قيل الكثير عن أهداف التربية وعن فلسفتها . وقد زين لبعضهم أن علة النظم التربوية في الأقطار العربية غياب الفلسفة التربوية الواضحة . وعندنا أن قوانين التربية وخطط التربية والسياسات التربوية في الأقطار العربية لا تشكو من نقص في الأهداف الكبرى ، بل قد تشكو من توالدها وتكاثرها . ومسألة المسائل هي أن تترجم هذه الأهداف الكبرى إلى خطط تربوية ، وإلى مشروعات وبرامج ، وأن نحيلها إلى مناهج وطرائق

---

(١) ذهب عالما الاقتصاد الانكليزيان بيي وفيشر في الربع الأول من هذا القرن إلى أن من أهم أسباب ثروة الشعوب اتقانها دوما إعطاء وجود ، وفي الوقت المناسب ، من شكل من أشكال الإنتاج إلى شكل آخر

(٢) مايكل سمبسون في « العقد العربي القادم ، المستقبلات البديلة » منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة دورهام ـ تأليف صور في بيروت/ ١٩٨٦ (الفصل التاسع) .

مدرسية ، بحيث نجعلها في النهاية تصل إلى جنب في غرفة الصف ، وبحيث يمتصها الطالب في اتجاهاته ومواقفه وقدراته ومعارفه ويتمثلها فعلا . هذا النقل للأهداف الكبرى إلى واقع الحياة المدرسية على مستوى الطالب والصف هو سمة الإدارة التربوية أولا وقبل كل شي .

وما يقال عن الأهداف التربوية الكبرى ، وعن الحاجة الملحة إلى ترجمتها عن طريق الإدارة والتنظيم إلى مناهج وأساليب وحياة تربوية ، يقال عن الخطط التربوية وأهدافها ومراميها الكمية والنوعية . ولا نغلو إذا قلنا ان الخطط (تربوية كانت أو غير

تربوية) تنقلب غالبا إلى مراجع قلما يرجع إليها ، بينما يقود العمل الإداري العملية التربوية على شاكلته دون أن يعبأ غالبا بأي خطة .

بل إن المسألة في ميدان التربية أعمق من هذا وأدهى ، فالنظم التربوية في العالم وفي الأقطار العربية في حاجة إلى تجديد . والتجديد في حاجة إلى إدارة مجددة . أما ما يحصل في الأقطار العربية غالبا فهو أن الإدارة أقرب إلى أن تكون إدارة « تسيير » منها إلى أن تكون إدارة تطوير ، وأنها ما تزال تعمل بالوسائل اليدوية والحرفية القديمة في عصر الحاسبات الالكترونية ، وأنها لم تعرف التقنيات الحديثة في الإدارة إلا لماماً ، وأخطر من هذا كله أن الصلة تكاد تكون مفقودة داخل هذه الإدارة التقليدية بين الإداريين والفنيين .

على أن الادارة التربوية جزء من الإدارة العامة للدولة ، ولابد أن يسير تطوير الإدارة التربوية (أو سواها) جنبا إلى جنب مع تطوير الإدارة العامة في أي بلد . ومن هنا تأتي أهمية الجهود التي بذلتها دولة الكويت منذ عام ١٩٨٤ من أجل تحديث الجهاز الإداري ، والتي كان من أهم نتائجها صدور تقرير اللجنة العليا لتطوير الجهاز الاداري وتحديثه عام ١٩٨٧ .

مشكلة الإدارة

ويشط بنا الحديث إن نحن تريثنا عند هذه الأمثلة وسواها . وما قصدنا إليه هو أن ندرك حقيقة قلما نمنحها شأنها ، وهي أن أهم أسباب التخلف في الأقطار العربية وسواها التخلف في الإدارة والتنظيم ، وأن المشكلة الأم التي ينبغي أن نتصدى لمعالجتها في أي موقع هي إحكام التنظيم والعمل الإداري إحكاما يؤدي إلى أن تصل القرارات والسياسات والخطط إلى مستقرها ، ويزيد فاعلية الجهود التي تبذل في سبيل التنمية في شتى الميادين ، ويقلل الهدر والضياع ، بل الضلال ، فيما نرسم ونعمل ، على أننا نعود فنستدرك مرة أخرى دفعا لأي لبس ، فنقول : إننا ندرك أن مجابهة مشكلة الإدارة في الأقطار العربية لاتتم في معزل عن مواجهة مشكلات التخلف الأخرى ، وأن من أسباب عجز الإدارة ، البنية الاجتماعية المتخلفة ، والبنية الاقتصادية الضعيفة ، والبنية السياسية المقصرة عن الشأو المطلوب ، والبنية الثقافية التي تشكو الكثير من الجمود ، وفي هذه المجالات كلها لابد من أهداف وخطط وتنظير ، فهذه كلها صوى تهدينا عبر الطريق ، لكننا لن نقوى على أن ندخل الطريق ، وسنقف دونه عاجزين مقعدين إن لم يحملنا عمل تنظيمي وإداري فاعل ، يحيل الأهداف والخطط والأنظار واقعا حيا . وقديما قال بيكون : « إن تجربة واحدة من تجارب الطبيعة تعدل عندي ألف دليل عقلي » ، واليوم نقول نحن : إن فكرة واحدة تجد سبيلها إلى التطبيق وتسري إلى أرض الواقع خير من ألف فكرة لاتجد من يحملها ويبلغ بها منتهاها . □

ليست الأعمال الأدبية مرايا للعصور التي كتبت فيها فقط

بل للعصور التي قرئت فيها أيضا .

وشخصية المرابي اليهودي شيلوك في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير هي المثال الذي

يختاره الكاتب ليتابع تطور نظرة النقاد إليه عبر عصور مختلفة .

محاولة لتبييض وجه شيلوك !

بقلم: الدكتور أمين العيوطي

في بداية النصف الثاني من عام ١٩٨٨م أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب أحدث ترجمة بقلم أ . د . محمد عناني لمسرحية شكسبير الخالدة « تاجر البندقية » . والترجمة تثبت بلا شك أنه في مجال الترجمة ، كما في فنون الأدب الأخرى ، هناك دائما مجال لاضافة جديدة ، مهما تعددت الترجمات السابقة للنص نفسه . فهنا إضافة جديدة حقا

إن د . عناني يثير في المقدمة التي صدّر بها ترجمته قضية شديدة الحيوية والأهمية ، تستحق منا أن نتوقف عندها . ففي تفسيره للمسرحية على أنها ليست من « كوميديات » شكسبير السعيدة ، يقدم تفسيراً جديداً لشخصية المرابي اليهودي ، أو « أحدث نظرة لليهودي والربا في المسرحية في ظل الاطار التاريخي الواقعي » ، فيذهب مع كريستوفر باري في رأيه الذي صدّر به طبعة دار ماكميلان للمسرحية في عام ١٩٧٦ ، إن شكسبير لا يعد شيلوك شراً مطلقا ، بل إنسانا به من العيوب والمحاسن ما بباقي شخصيات المسرحية ، وأن شكسبير كان يقدم شيلوك لنا إنسانا إلى أبعد الحدود ، إنسانا يجمع بين براءة الطفولة في تعلقه بأشيائه الثمينة ، وبين اليهودي الذي تحركه ميول الشر الكامنة فيه . فهو كما يقول باري : « إنسان مثلنا تماما ، يعاني مثلما نعاني ، ويفكر مثلما نفكر » .

والحقيقة أن مثل هذا التفسير ليس حديثا كل الحداثة ، فهو لا يرجع فقط الى ١٩٧٦ ، بل يرجع إلى أبعد من ذلك في الخمسينيات على وجه التحديد ، بل ويمتد إلى العشرينيات . وقد كان تفسيراً وليد ظروف تاريخية محددة . وسوف نستعرض فيما يلي بعض هذه التفسيرات ، قديمها

ـيثها ، قبل أن نتعرض للظروف التاريخية التي ـ إليها ، ونتعرف على مدى صحتها من خلال ـتعراض بعض الأعمال التي ظهرت في الفترة ـسها التي كتب فيها شكسبير مسرحيته ، وتناولت ـخصية اليهودي .

أكثر من مدخل :

وقد اتخذت هذه التفسيرات مداخل مختلفة في طرح هذه الرؤية . فكان هناك مدخل تاريخي ، أو مدخل إنساني ، أو عرقي ، أو ديني . بين هذه المداخل ينحو كريستوفر باري منحى تاريخيا في تفسيره لشخصية اليهودي على هذا النحو في قوله :

وكانت شرور اليهود مألوفة لجمهور شكسبير ، مع أنه لم يكن يعيش في إنجلترا في وقت كتابة المسرحية - بين منتصف عام ١٥٩٦م ومنتصف عام ١٥٩٨ - إلا عدد قليل من اليهود . إذ أن الملك ادوارد الأول كان قد طردهم رسميا من البلاد عام ١١٩٠ . ولكن بضع مئات من اليهود (من أصل أسباني وبرتغالي) كانوا يعيشون في لندن ، ويعتنقون الدين المسيحي اعتناقا اسميا لتفادي الوقوع تحت طائلة قوانين الاقامة . وكان هؤلاء يعيشون ويعملون في سلام ، وبصفة عامة يحظون بالاحترام لأنهم ينتمون الى المجتمع . أما العداء للسامية بالتحديد فلم تشتعل ناره إلا مرة واحدة في عام ١٥٩٤ عندما حُوكِم الدكتور رودريجو لوبيز . وكان لوبيز طبيبا يهوديا من البرتغال ، استطاع أن يحقق لنفسه نجاحاً كبيراً في مهنته على مدى عشرين عاماً ، عين بعدها طبيباً خاصاً للملكة . وربما كانت الضجة المثارة حول التهم الموجهة إليه ترجع إلى أسباب سياسية ، منها تهمة الشروع في دس السم لصاحبة الجلالة ، ولكنه أدين على أي حال بتهمة الخيانة العظمى ، وأدت محاكمته إلى إثارة العداء لليهود بصفة عامة ، بعدّهم أشراراً يتآمرون في الخفاء على إيذاء المسيحيين . ولم تكن هذه الكراهية قائمة في عقول العامة على أسس الحقائق الواقعية ، بل على المخاوف والمواقف المتوارثة ، والخلفية الثقافية التي تتضمن الأساطير والقصائد الشعبية (البالادات) والقصص ، وإلى حد ما عددا من المسرحيات التي تصور اليهود في هذه الصورة .

وعلى الرغم من محاولة باري نفي كراهية الانجليز لليهود ، إلا أنه يقع في كثير مِنْ المتناقضات ، فهو يعترف بمَعْرِفَة جمهور شكسبير لشرور اليهود ، وأنهم طُرِدوا رَسْميا من انجلترا في آواخر القرن الثاني عشر ، وأن فئة منهم اضطرت الى اعتناق المسيحية اسميا لتضمن حق الإقامة ، وأن نار العداء للسامية استعرت في عام ١٥٩٤ ، وهي الفترة التي كانت « يهودي مالطة » لكريستوفر مارلو تحظى فيها بجماهيرية منقطعة النظير . كما أنه لا ينفي تماما كراهية العامة لهم ، وإن كان يعزو ذلك الى الأعمال الفنية التي طبعت صورتهم الشريرة

في أذهان الناس ، وهو تبرير يلغي تماماً حقيقة أن الأعمال الفنية لا تجد صدى لدى الجماهير ما لم تمس عصباً حقيقياً في بنائها العاطفي والفكري .

عموماً ، لم يكن كريستوفر باري أول من خرج بهذا التفسير ، ولا بمحاولة تغيير صورة شيلوك في أذهان الناس ، فقد سبقه الى هذا كثيرون ، تورد طبعة اكسفورد وكيمبريدج لمسرحية شكسبير آراءهم في مقدمة الكتاب . وفي تناوله لهذه النقطة ينحو كاودن كلارك منحى إنسانيا في تفسيره قصد شكسبير من كتابة مسرحيته فيقول :

« يبدو أن الشاعر ، في تصويره لشخصية شيلوك ومسلكه ، كما في تصويره لخصومه المسيحيين ، قد أعطى بحكمته الواسعة موعظة من الظلم الواقع على كل طائفةوفئة ،من أصحاب الأديان ، بقوة ووضوح حجة ، وبمعرفة بالطبيعة البشرية بتعصباتها السوداوية أيضا ، حتى أن نزاهته وتوزيعه للعدالة ، كما تتكشف للعيان في هذه « الدراما » ، تضعه ـ في رأيي ـ في مكانه سابقا لعصره بقرون وإن كان لدى أي قاريء شك في حس الشاعر بالعدالة تجاه القبيلة التي لحقت بها أسوأ معاملة ، فليقرأ الأعمال الأخرى التي كتبها كتاب آخرون في الفترة التي قدمت فيها شخصية اليهودي ، صحيح أن شيلوك قد ناله العقاب من أجل دافعه الى الانتقام ـ وبحق ، ولكن من ذا الذي لا يتعاطف مع شيلوك في نهاية الأمر ؟ من ذا الذي يستمد أي رضا ، وهو يدين بالأفكار الأكثر اعتيادية عن الصواب والخطأ ، من خروج انطونيو منتصرا عن طريق ليّ عنق القانون ، وهو قانون ظالم ، حكم بتدمير كل ثروة اليهودي وممتلكاته ؟ لقد أثبت شكسبير قضية لصالح شيلوك ـ ولابد أنها كانت قضية مروعة حقا للعامة في زمنه . »

أما أ ح . هيلز فيدخل مدخلاً عرقياً الى هذا الموضوع في تحليله لشخصية شيلوك ، فيقول :

« إن المسيحي الذي ينظر بصراحة وأمانة إلى هذا العمل لن يجد فيه أمراً يدعو إلى الابتهاج أ السخرية ، ولكن أمراً يدعو الى الشعور بالعا والحزن . فقد جعل القهر القاسي الذي دام طويلا من شيلوك ، ذلك المخلوق القاسي ، الوحشي ، العديم الشفقة الذي نراه . فقد ورث طبيعة ذاقت مرارة قرون من الإهانة والإساءة ، وزادت تجربته التعسة نفسها من حدة مرارتها . ولقد كان الشقاء ومايزال ، الشارة التي تميز قبيلته كلها ، وكأنه شارته المميزة . إن شكسبير يمقت هذا المخلوق البشع بحق ، لكننا نراه يتأمل كيف أصبح على هذا النحو . لقد كان يوما ما رجلا وكانت يوما ما ـ على الأقل ـ سلالته بشرية . وحين تعرف شكسبير في اليهودي على إمكانيات وطاقات رائعة ،في حدود معرفته بهذه السلالة ، أسيء استخدامها وانحطت ، إلا أنه كان مبهورا بشخصية لها مثل هذه القوة المتميزة والقومية التي لا يمكن استئصالها »

ويخاطب ناثان دريك حس القراء الديني . فعلى الرغم من أنه يرى في شيلوك تجسيداً للشيطانية وللشر نفسه ، إلا أنه يمضي إلى قول :

« غير أن تصوير هذه الشخصية الشيطانية كان تصويراً بالغ القوة والبراعة ، كما أنه كان بالغ التناغم الى زمن قريب مع تعصب العالم المسيحي ، الى حد أنه لا توجد بين مسرحيات شكسبير مسرحية نالت قدرا أعظم من النجاح الجماهيري . ولحسن الحظ أن الوقت قد حان حيث يستطيع المسيحي واليهودي أن يلتقيا ، وقد أحاطت بهما كل المشاعر الإنسانية ، وهي حالة اجتماعية نحسب أنها قادرة ، أكثر من غيرها ، على تحقيق ذلك التحول الذي يضرع من أجله ، بكل تأكيد ، كل من ينتمي الى ديننا المبارك » .

مثل هذه النبرة الجديدة في الدراسات النقدية لمسرحية تاجر البندقية لم تكن بهذه الدرجة من الوضوح إلا بعد الحرب العالمية الثانية على وجه

الخصوص ، حين تحرك ضمير أوروبا لما نال اليهود على أيدي النازية ، فراحت أوروبا تتسابق الى محو وصمة العداء للسامية من على جبينها ، وتبرئة لنفسها من الاضطهاد الذي تعرض له اليهود ، سواء في روسيا القيصرية أو في أوروبا أو في انجلترا قرونا طويلة . ومثل هذه التفسيرات لا تأتي إذن لتبيض وجه شيلوك ، فكلها لا تنكر شيطانية الرجل ، بقدر ما هي محاولات لتبييض وجه أوروبا ، ونفي تهمة العداء للسامية عنها ، وتبرئة ضميرها . ولكن هل كان شكسبير يقصد هذا حقا في تصويره شخصية شيلوك ؟ وللاجابة عن هذا السؤال لابد أن نرى مسرحية شكسبير في سياق ...ال فنية أخرى ، ظهرت في الفترة نفسها ، كما ... أن نلقي نظرة على القيم الأخلاقية التي يلقي بها ...سبير في خضم الصراع الذي يجري في المسرحية ...ها .

الحقيقة أننا لو عدنا الى القرن السادس عشر في ...را لوجدنا أعمالا فنية أخرى ، تتناول ...صية اليهودية ، من منطلق العداء للسامية ، ...راهية للجنس اليهودي . فقد شهدت البدايات المبكرة جدا للرواية الانجليزية رواية توماس ناسن « المسافر السيىء الحظ أو حياة جاك ويلتون » ١٥٩٠) التي يعدها الناقد الانجليزي وولتر الن « أكثر الروايات الخيالية النثرية الاليزابثية إمتاعا » .

الحكاية هنا ليست إلا واحدة من عدة حكايات مشابهة ، تكشف شرور إيطاليا في عصر النهضة . ومنها شرور اليهودي . وهي تكشف في ثناياها عن نظرة الى اليهودي بصفته شرا مطلقا ، يتلذذ بالتآمر والتعذيب والقتل ، ولاشك انها كانت تجد صدى لدى القاريء الانجليزي ، لأنها كانت تمس في أعماقه وتر كراهية اليهود وعدهم شرا مطلقا .

على هذا الوتر نفسه عزف كريستوفر مارلو في مسرحيته « يهودي مالطة » ، وهي أحد المصادر التي أخذ عنها شكسبير رائعته « تاجر البندقية » .

ولم تكن شخصية باراباس في مسرحية مارلو من نسج الخيال . وقد حدد ل . كيلنر المصدر الذي أخذ عنه مارلو مسرحيته . فهي ترتكز على مغامرات يهودي برتغالي ، اكتسب سمعة سيئة في القرن السادس عشر ، وذاعت شهرته في مختلف بلدان أوروبا التي كانت ترى فيه خطرا عليها .

بين شيلوك وباراباس :

ولا شك أن شيلوك شكسبير يختلف عن باراباس مارلو ، كما تختلف « تاجر البندقية » عن « يهودي مالطة » في فنيات البناء والنظرة الإنسانية الأوسع والأعمق والأحلى . فقد أضاف شكسبير الى الحبكة قصة بورشيا والصناديق المغلقة التي استلهمها من مصادر فارسية وبيزنطية وعربية وأوروبية متشابهة ، وربط بينها وبين فكرة الجشع والطمع وحب المال والانخداع بالمظهر البراق ، كما حذف الخلفية التاريخية منذ الحرب بين الأتراك والمالطين التي استغلها باراباس مارلو لصالحه في التآمر على الاثنين معا ، حتى وقع في الشراك التي نسجها للجانبين ، وكذلك الكراهية بين الأديان الثلاثة ،

مع الإبقاء على الكراهية بين اليهود والمسيحيين . فشيلوك منذ البداية يكشف عن خبيئة نفسه ، وعن الحقد الذي يأكل قلبه تجاه أنطونيو ، وهو حقد يقوم على أساسين : الملة والمال .

وتواتيه الفرصة حيث يطلب منه أنطونيو قرضاً لصديقه باسانيو ، فيمكر به مكرا أسود حين ينص في العقد على رطل من لحمه إن لم يوف له الدين في حينه ، وهو شرط بكل المقاييس خبيث شيطاني ، ينأى به عن كل المشاعر الإنسانية ، ويحيله سفاحا يأكل قلبه روح الحقد . والحقد الذي يأكل قلبه ينبع أيضا من جشعه وحبه للربا الذي يحرمه منه أنطونيو ، إذ يقرض الناس قرضا حسنا . إن كل هم شيلوك حين يسمع عن هرب ابنته مع لورنزو هو ما حملته معها من جواهر ، وحين يسمع عن مصير تجارة أنطونيو وأنه سينال منه أخيرا ، ويخلص منه البندقية ليعقد الصفقات كيفما يشاء .

وفي مشهد المحاكمة الشهير يضع شكسبير القيم الإنسانية النبيلة التي ينطق بها أنطونيو والدوق من محبة ورحمة وشفقة أمام قسوة القلب والتعطش للدماء . فالدوق ـ كما يقول أنطونيو ـ لا يمكنه إلا أن يطبق القانون : « إذ أنا إن أنكرنا حق الغرباء فلسوف نحطم قيم العدل السمحة في هذه الدولة ». والدوق لا يجد مفراً من تنفيذ القانون ، فالخصم ذو قلب كالصخر ، لا يعرف معنى الإنسانية والشفقة والرحمة . وفي المقابل نجد شيلوك مدفوعا بما يمليه عليه مزاجه وميوله الفطرية التي توجه دفة إحساسه نحو المقت والبغض . واستدرار الرحمة والشفقة أمر مستحيل ، والضراعة لا تنفذ لفؤاد قُدّ من صخر ، بل حتى استرداد أمواله مضاعفة لا يرضيه لم يبق إذن إلا الحقد الأعمى كقيمة إنسانية منحطة وحين تكون قيم الحب والرحمة وقيمة الحقد الدنيء في كفتي ميزان في عمل فني طرفين يجري بينهما الصراع ، فإن ما ينزل بشيلوك على يدي بورشيا ليس فيه ، كما يقول كاودن كلارك « لي عنق القانون ، وهو قانون ظالم ، حكم بتدمير كل ثروة اليهودي وممتلكاته . فالرحمة لا تنزل إلا بمن يستحقها . وكيف يمكن أن نفسر سماحة أنطونيو ودرجة عفوه عن اليهودي ، وعودة تجارته سالمة من البحر ؟ هل يمكن أن تكون هذه عدالة شعرية ، أو نتهم شكسبير الشهير في نزاهته في سبيل أن يدغدغ مشاعر جمهوره ؟ إن المشهد ينتصر للمشاعر الإنسانية السمحة التي خلا منها قلب شيلوك ، إلا إذا كان كلارك يرى أن يعقد النصر للغل والحقد والبغض والتعطش للدماء . بل إن ناثان دريك حين يدعو إلى الحب والتسامح اللذين يجب أن يجمعا المسيحي واليهودي لا يملك إلا أن يرى في شيلوك تجسيداً للشيطانية والشر نفسه . وقد تكون قبيلة شيلوك قد تعرضت للمذلة والإهانة . وقد يكسبنا هذا فهما لطبيعتها ، لكنه لا يمكن أن يكسبنا تعاطفا معها .

لم يكن شكسبير في الحق يصور شخصية إنسانية بها جانبان متناقضان من براءة طفولية وحقد دموي ، ولا أن يجعل من شيلوك في نظرنا إنساناً إلى أبعد الحدود ، كما يذهب إلى ذلك باري . فليس معنى أن شيلوك يختلف عن سائر شخصيات المسرحية في أنه يتجه إلى الجمهور ليكشف عن خبيئة نفسه أن شكسبير أكسبه مسحة إنسانية ، يتميز بها عن باقي الشخصيات ، وإلا لكان ياجو عُطيل وأدموندلير ، وهما مثالان آخران على الشر ـ يتوجهان إلى الجمهور على الدوام بخبيئة ضميريهما العفنين ـ موضع تعاطفنا .

ويبقى في النهاية سؤال : إذا كانت أوروبا اليوم مدفوعة إلى أن تبرىء ذمتها وضميرها من كراهية اليهود وإضطهادهم ، في حين كانت الأمة العربية هي الأمة الوحيدة التي أحسنت معاملة اليهود على امتداد التاريخ ، فما الذي يدفعنا نحن اليوم إلى اعتناق تفسير مشبوه ؟ ألتبرىء « إسرائيل » من دم العرب ؟ ولماذا الآن ؟ □

« العتب على النظر »

مجموعة قصصية من تأليف يوسف ادريس

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

تضم هذه المجموعة ست قصص قصيرة ، هي أحدث ما كتبه الكاتب الكبير يوسف ادريس في السنوات الأخيرة ، وهي بترتيبها في المجموعة : « العتب على النظر » ، « أمه » ، « الخروج » ، « الختان » ، « الرجل والنملة » ، « أبو الرجال » . ولست أشك في أن عشاق أدب يوسف إدريس قد تلقوا هذه المجموعة بلهفة المشوق إلى إبداع كاتب طالت غيبته عنهم ، فكلنا يعرف أنه قد آثر في السنوات الأخيرة كتابة المقالات المتفجرة التي تستجيب لمشكلات اجتماعية أو سياسية آنية وحادة !

بغض النظر عن التفسيرات التي قدمها يوسف ادريس في العديد من تصريحاته الصحفية عن ...ب ايثاره كتابة المقالات في الفترة الأخيرة ، فإن ...ىء هذه المجموعة الأخيرة سوف يجد نفسه ـ ربما ... قصد ـ يتساءل وهو يتأمل القصص التي ...نها : هل ثمة علاقة ما بين قلة إنتاج هذا الكاتب ...ـة القصيرة وبين نوعية التجارب التي يرى الآن أنها وحدها تستحق الكتابة في القصة القصيرة ؟!

بعبارة أخرى : هل أصبحت كتابة القصة القصيرة عند يوسف ادريس نوعا من البحث عن لؤلؤة نادرة ، مهما اقتضى البحث من جهد وزمن ؟!

من المعروف أن تطور الكاتب ـ أي كاتب ـ يأخذ مسالك متعددة ، فقد يكون في صورة ارتياد مواقع جديدة على خريطة المجتمع أو النفس أو الحياة ، وقد

يأتي ثمرة طبيعية لتنامي الخبرة والمعرفة، وما يعنيه ذلك من تغير في طريقة إدراك الخبرة الإنسانية وتمثلها وصياغتها فنيا، ولو كانت على المواقع القديمة نفسها!

فما الجديد الذي تحمله لنا مجموعة «العتب على النظر» مهما يكن طريفه ؟! وهل يقدم ذلك نوعا من التفسير لقلة إنتاج الكاتب للقصة القصيرة، وهو الذي بنى مجده الأدبي على إبداعه فيها ؟!

ملامح عامة لرحلة متميزة:

يمكن لمن تابع رحلة يوسف إدريس القصصية التي بدأت بمجموعته «أرخص ليالي» في الخمسينيات، ثم تطورت خلال مجموعات متميزة، من أهمها:

«حادثة شرف»، «آخر الدنيا»، «العيب»، «لغة الآي آي»، «النداهة»، «بيت من لحم»، «اقتلها» .. إلخ أن يلاحظ أن الرؤية الفنية لديه التي بدأت من شعوره القوي المتفجر بعمق تأثير المشكلات الاجتماعية على سلوك أبطاله وتحديد مصائرهم، قد اتسعت افاقها في بقية المجموعات فأسفرت عن تأثير المشكلات النفسية والكونية على سلوك هؤلاء الأبطال، وتطورت بالتالي تقنيته من التحليل الصارم للمشكلات الاجتماعية المعتمد على رؤية فيها قدر كبير من اليقين، إلى تقنية تنأى عن هذه الدرجة من اليقين فأمام مشكلات النفس الغائرة والرؤى الكونية والفكرية الكبيرة أصبحت هذه التقنية تؤثر أن توحي وتشف وتومىء، وتستخدم لغة الصور والرموز أحيانا دون أن تخرج بذلك كله عن الرؤية الواقعية الملتزمة إذا صح التعبير!

وأتوقع لمن تابع هذه الرحلة، سواء في قصص يوسف ادريس القصيرة أو مسرحه أو رواياته، وهي رحلة واحدة مهما تنوعت أشكالها، أن يشعر أمام ثراء الرحلة واتساع مداها وعمقها بخطورة التحدي الذي يواجه كاتبا يريد دائما أن يتجاوز نفسه في كل عمل جديد يقدمه! فهل وقع يوسف إدريس في مأزق هذا التحدي ؟! هل وجد نفسه في كل مرة يهم بكتابة قصة جديدة أو يقترب من لحظة قصة جديدة يتذكر أنه قد كتب مثل هذه القصة أو اقترب من مثل هذه اللحظة بشكل أو بآخر ؟!

هل شعر في لحظة أن كل القصص الجيدة قد تمت كتابتها، سواء كتبها هو أو غيره ؟! وأن البحث عن ينابيع جديدة في أعماق النفس أو في آفاق المجتمع أو الكون أو الطبيعة هو مأزق شبيه بذلك المأزق الذي واجه بطل قصته الرائعة في هذه المجموعة «الخروج» ؟!

يقول الكاتب عن بطل هذه القصة.

«من زمن طويل والاحساس عنده بالحياة لم يعد مرادفا للاحساس بالسعادة، منذ زمن بعيد جدا حدث هذا بعد أن ذاق كل أوليات الاشياء، أول نجاح، أول جنيه، أول نظرة حب. أول ليلة مع امرأة».

«ذات مرة كان أقصى أحلام حياته أن يكون ايراده الشهري مائة وخمسين جنيها، حين أصبح يصرف مثلها في اليوم أصبح الهدف خمسة آلاف، أن يخلف ولدا، أصبحوا ثلاثة وبنتا، أن يتعلموا ويتخرجوا، تخرجوا، وأصبح الهدف جديدا، أن يتزوجوا، أن يكون له أحفاد..»

وكان له كل ما أراد، لكن لم يعد الاحساس عنده بالحياة مرادفا للاحساس بالسعادة، «كان يستطيع أن يواجه الدنيا بجيب ليس به سوى قروش، الآن يرعبه لو نقص الحساب رقما، حين كان يهدد أن يترك البيت كان يفعل هذا بإحساس من هو على يقين مطلق أنه يستطيع من جديد أن يبدأ حياة جديدة، الآن يرعبه مجرد أن يبتعد عن البيت»

هذا هو المأزق الوجودي الخطير الذي واجه بطل «الخروج»: كيف يسترد رجل تجاوز الخمسين من عمره قدرته على الاحساس بالدهشة والثقة في الوقت نفسه ؟ فخلف كل جديد يختبره ويعيشه يختفي شيء القديم، ويتعلم الدرس من فرخ ينقر جدا بيضته، إنه ينقر، يواصل النقر من فرط ضيقه بما هو فيه، دون أن يعلم أن وراء هذا السجن الضيق

الذي يحيط به من جميع الأقطار كونا فسيحا هائلا مذهلا ! وينجح البطل في اتخاذ قراره حين يدرك أنه لن يلتقي بهذا الجديد المدهش ، حيث يصبح الاحساس بالحياة مرادفا للإحساس بالسعادة ، إلا حين يكون قادرا على أن يستجيب لهذا النداء الداخلي الذى استجاب له الفرخ ، فيواصل النقر حتى يكسر جدران السجن ، سجن الأسرة ، أو سجن المجتمع ، أو حتى سجن الطبيعة ، حين تصبح الطبيعة سجنا !

لست أدرى لماذا استبد بي ، وأنا أقرأ هذه القصة ، شعور قوى بأن الكاتب في كل قصص هذه المجموعة يقف عند الحدود القصوى للأشياء ، ينقر جدران المستحيل ، بحثا عن فرجة على هذا الكون الهائل الفسيح ، حيث يصبح الاحساس بالحياة مرادفا للإحساس بالسعادة ! لست أزعم أنني أعرف سر انقطاع كاتب كبير عن الكتابة بعض الوقت ، بل .. سر الكتابة نفسها ، ومع ذلك فلنحاول أن نلقي ..رة شاملة على قصص هذه المجموعة ، لنرى هل ول الكاتب حقا في هذه القصص أن ينقر جدران ..تحيل ، وأن يقف عند بدايات الأشياء أو ..اتها ، بحثا عن الدهشة أو عن فرجة تطل على .. هائل فسيح ، لانكاد نراه ، مع أنه لايفصل بيننا وبينه سوى قشرة ، يجب أن نحطمها ، فأنت لن تكسب كل شيء إلا إذا كنت قادرا في لحظة الحسم على أن تضحي بكل شيء !

تجارب غير عادية :

في قصة « العتب على النظر » يلتقي الراوى بصديقه الفلاح القديم الذي يطلب منه المساعدة لعمل نظارة لحماره ، لأن نظره قد ضعف ، والمسألة التي تبدأ مزحة تنتهي بحقيقة ، فمن الناحية النظرية البحتة يمكن للحمار الضعيف النظر أن يرى أفضل لو أمكن تثبيت منظار مناسب على عينيه ، ولكن من الناحية العملية كيف يمكن تحديد درجة ضعف نظر الحمار بدون علامات وحوار بيننا وبينه ؟ هنا مربط الفرس أو مربط الحمار لافرق ، وينبع الحل من قلب المشكلة ، فالسبب الذي جعل صاحب الحمار يدرك ضعف نظر حماره أنه أصبح لايستجيب لرؤية حمارة جاره ، كما كان يفعل في الماضي ، ولو أوقفنا الحمار على مسافة من حمارة الجار ، وبدأنا في تجريب أحجار النظارة أمام عيني الحمار فإن الحجر المناسب هو الذي يبدأ عنده الحمار بالاستجابة لرؤية الحمارة ! وطبعا يحدث هذا كله أمام حشد من الصغار والكبار في القرية ، وهكذا يستدرجنا الكاتب من خلال تطور هذه القصة التي تبدأ مزحة ممعنة في الغرابة إلى اكتشاف لحظة تفجر الجنس بشكل تلقائي ليس لدى حيوان لاعلاقة له بمواضعاتنا الاجتماعية حول الجنس فقط ، بل لدى الحشد نفسه . يقول الكاتب وهو يرصد تأثير المفاجأة على الحشد :

« الطبيعة بصراحة وبلا خجل تتكلم بأعلى صوت ، تضع في أجسادنا الزلازل ، وداخلنا تفجر البراكين ، لحظة اختلال كون أم انتظامه ، منتهى عقله أم منتهى (جنانه) ، (يقصد جنونه) ، الاجساد ثائرة فائرة تدفق رحيقها بكل بدائية تفجرات الشمس ، ومد القمر ، ووحشية الإعصار » .

ـ مادامت نظارات الانسان تنفع الحمير ، ياترى نظارات الحمير تنفع « البنى آدمين » ؟

والكاتب هنا ينقر جدران المواضعات

الاجتماعية ، ليفتح ثغرة على ... الجنس الفسيح ، إنه يقف عند الحدود القصوى بين اجتماعية الانسان وطبيعته ، والسؤال في عمقه متى فقد الانسان الاجتماعي بكارة الاحساس بالجنس ، ولماذا ؟ ولكن يبقى سؤال آخر . أو سؤالان : هل كان اختيار هذه الحادثة الغرائبية لتبليغ رسالة هذه القصة أمرا لامفر منه لغير الفكاهة ؟ وهل كانت اللهجة العامية التي كتبت بها القصة أمرا لاغنى عنه لتجربة تقف على الحدود القصوى بين اجتماعية الانسان وطبيعته !؟

« أمه » :

في هذه القصة نقترب من لحظة نادرة في علاقة غير عادية بين صبي مشرد وشجرة ، فقد الصبي أباه ، ثم فقد أمه حين تزوجت رجلا آخر ، ولم يكن الجوع ألد أعدائه ، فدائما كان يجد في صناديق القمامة مايسد جوعه ، كان أقسى الأعداء ليل الشتاء الطويل البارد الممطر ، حيث كان يطرد من كل مكان يأوى إليه ، فكل مكان له صاحب ، حتى عربات السكك الحديدية الصدئة المتروكة كان يطرده منها رجال الشرطة ، إلى أن التقى ذات ليلة بهذه الشجرة ، اسمها أم الشعور ، وهي شجرة ضخمة غير مثمرة ، تتدلى فروعها الطويلة لتلتحم في أسفلها صانعة جذعا للشجرة ، ومن طبيعة هذا الجذع أن تكون به فتحات ، وأن يكون مجوفا من الداخل . فأوى إلى هذا التجويف الداخلي ، واكتشف أنه ليس لهذه الشجرة صاحب يطرده منها ، فأصبح هو صاحبها ، وأصبح له بيت في المدينة الكبيرة ، وربما لو كتب يوسف ادريس هذه القصة ، في الخمسينيات لاكتفى بالتصوير الرائع لمأساة طفل مشرد ، وقدم لنا بذلك قصة ممتازة ، ولكن هذه المأساة تأتي هنا في هذه القصة مجرد خلفية ، أما القصة الحقيقية فتبدأ حين يشعر الصبي أن الشجرة أصبحت أيضا صاحبته ، كأنها كانت أما بلا أطفال ، ثم وجدت طفلها ، كان يخشى أن يعود ذات ليلة فيجد شخصا آخر يحتل مكانه في جوفها ، فأزالت عنه الشجرة هذا الخوف حين تدلت فروعها الجديدة لتخفي الفتحة التي يمكن أن ير... غيره ، كانت تدفئه بقدر ماكانت تستدفىء بأنفاسه ، لأن جوفها بارد ، وتحولت النتوءات الحادة في داخ... إلى براعم ، لتصبح مخدعا ناعما يتلمس الكاتب ... العلاقة النادرة بين طفل وشجرة . ذلك التواصل الأخاذ بين مستويات الحياة المختلفة ينم عن أواصر القربى بين هذه المستويات . ينمو الصبي ويشتد عوده ، حتى تضيق به الفجوة ، فيخرج إلى المجتمع ، بعد أن أصبح قادرا على مجادلته . يصبح له بيت وعمل ، ويمر ذات يوم بالشجرة ، فيجدها قد جفت وذبلت أوراقها ، فيقف أمامها لحظات يبكي أمه !

إننا هنا أيضا نقف عند حافة مجتمع ، لامكان فيه لصبي عاجز عن حماية نفسه . وينقر الصبي فينفتح ثقب في جدار الطبيعة ، عن كون فسيح من الحنان ، كان يختبىء في جوف شجرة !

أبو الرجال :

هذه القصة هي درة المجموعة إذا كانت قصة « الخروج » الرائعة تمثل مفتاحها ، إنها قصة رجل يبدأ من القاع ، ليصل إلى قمة لم يكن يحلم بها ، وكانت كلمة السر في هذه الرحلة هي قدرة الرجل على التحدي واتخاذ القرار . وطوال الرحلة التي تجاوزت الخمسين عاما « كان يمضي كالمهر الأصيل

ولايكل ، لا من أجل هدف محدد وضعه . بل مُضّيٌ وكأنما للمضى ذاته ، لا المال كان ، ولا الطموح السياسي كان محركه ، ولا ... في التاريخ يطمع فيها ، قد يأتي بعض ذلك أو كـ نتيجة لدأبه وإصراره من أجل أن يكون مجتمعه عادلا لايمتلىء بمظلومين لايمتلك الواحد منهم سوى جلباب واحد مثل أبيه » .

متى بدأ أول انكسار في حياته ؟ « لايذكر الوقت ، المؤكد كان هناك وقت لايتذكره الآن ، وكان هناك رجل ، وكانت هناك استغاثة ، يدرك صاحبها أنه لم يتوجه إلى الانسان الخطأ ، وكان لابد أن يتخذ قرارا في ومضة ، وفي لاوقت يكون قد حسبها وحسمها ، الحكمة عنده لم تكن التصرف الوقور المتزن ، وإنما أحيانا أكثر القرارات جنونا وخروجا عن المألوف إذا كان الواجب يقتضي ذلك » .

« كان العدوان قد حدث أمام الملأ ، وكأن من قاموا به مجانين ، فقد كان الكل يعلم أن الرد سيكون فوريا وقاسيا » .

ومع ذلك ولأول مرة طال سكوته ، وكثرت في داخله الحسابات ، وبدلا من زعقته الشهيرة خرج صوته واهنا : « أنا رأيي أن نرضخ هذه المرة ، ونختار نحن بعد ذلك وقت المواجهة ومكانها الصحيح ، مع أن الجميع يعلم ، وهو على رأسهم ، أن هذه الساعة من الظهيرة بالذات ، وقد تذكرها الآن تماما ، هى أنسب وقت ، والاحتشاد للمواجهة لحظتها هو أقوى احتشاد » .

كيف حدث ما حدث ؟ أيام وليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه ، ويخبث يستدرج محدثيه ، ليعرف لماذا فعل ما فعل في رأيهم ؟

لنترك الآن ذلك السؤال الذى كان يشكل العصب ...حوري في القصة ، لنتابع رحلة السقوط . لقد ...ط درجات من القمة التي وصل إليها ، فبعد أن ...ن زعيما على مستوى العاصمة الكبيرة عاد ...طان ، وهذا هو اسمه ، إلى مسقط رأسه ، ...بح مجرد « أبو رجال » زعيما أصغر لعصابة من رجال أقل شأنا ، عصابة خارجة على القانون ، ولكن وجودها من حوله كان كافيا على الاقل للمحافظة على الهيبة ، وعلى مظهر الزعامة .

ثم تأتى السقطة العظمى في قريته ، بين أهله وعزوته ، فالتحدى هذه المرة يأتيه من شاب صغير ، لايكاد يعرفه ، ولايعرف شيئا عن أسطورة قوته وجبروته . رفض الشاب أن يعيره سلطان بعمه الذى تلوك سمعته ـ كرجل شاذ ـ ألسنة الناس في القرية ، فاشتبك مع سلطان ، كانت المعركة محسومة هذه المرة ، فهي بين شاب في العشرين ورجل فوق الخمسين ، وطرحه أرضا ، ووضع طرف منجله الحاد فوق عنقه ، وأقسم ألا يتركه إلا حين يعترف أمام الناس بأنه امرأة . . ! وأنه سوف يغرس المنجل في عنقه لو اقترب أحد منه !

ثم تأتى النهاية ، أو فلنقل بداية القصة ، حين نجد سلطان يتحول ـ ربما تحت تأثير اعترافه المعلن لينقذ حياته ـ إلى نوع من النساء ، ولايجد أقرباؤه وسيلة للتخلص من فضائحه سوى قتله .

بناء القصة :

كيف قدم يوسف ادريس هذه القصة التي تكاد تروى قصة حياة كاملة ، رحلة صعود وهبوط في قصة قصيرة ؟ لقد بدأها من النهاية ، من اللحظة التي بدأ فيها سلطان يلامس الحضيض ، من بداية شعوره بالرغبة في أن يصبح بالفعل نوعا من النساء ، من اكتشافه لهذا الشعور المزلزل أمام أكثر شباب الأسرة افتتانا بشخصية عمه سلطان ، كان سلطان يدعوه بالثور ، لما فيه من قوة وعنفوان ، وحين دعاه في تلك الليلة لم يكن يعرف لماذا ؟

وجلس الشاب قبالة عمه في صمت ، بانتظار مايأمره به . وأحداث القصة تبدأ في هذه الجلسة وتكاد تنتهى فيها ، حيث يقاوم سلطان مشاعره المهلكة ، ومن خلال حركة المد والجزر لهذه المشاعر ، وعلى ايقاع هاتين الحركتين يقوم بناء القصة . . !

فمع حركة المقاومة لمشاعره الشاذة نعيش لمحات مع لحظات صعود سلطان ، ومع حركة الاستسلام

نعيش لحظات الهبوط ، نتأمل أسرارها كما يراها سلطان نفسه ، وكما يبثها يوسف ادريس بمهارة فائقة ليرى القارىء ، ربما أبعد مما يرى سلطان نفسه في مأساة سقوطه . . !

مغزى السقوط :

شخصية سلطان هى شخصية الدكتاتور النبيل أو المستبد العادل الـذي تصعد بـه إلى القمة قـوة تمرد هائلة ، ولأنه قادم من القاع ، ولأن الرحلة طويلة وشاقة لم تكن أمامه أية فرصة لالتقاط الانفـاس أو النظر لمن حوله . نقطة الضعف الأولى القاتلة أن قوته لم تتحاور مع ضعفه ومخاوفه ، ولم تتحاور مع قوة من حوله ومخاوفهم ، ولم تتحاور مع التفاصيل الصغيرة والاهداف المرحلية ! كانت فقط مندفعة إلى الأمـام « كأنما المضي للمضي وراء هدف بعيد غامض اسمه العدالة » .

نقطة الضعف الثانية أنه استراح للقوة النابعة من أسطورة قوته ، وليس من قوته الداخلية التى أنهكها الاعتماد على الذات وإلغاء الآخرين ، وحين ووجه لأول مرة بمن اعتقد لحظة أنهم لايرهبون أسطورته ، بل بمن توجس أنهم يرون داخله المنهك المرعوب ، سقط سقطته الأولى ، وفشل في اتخاذ القرار .

بعد السقطة الأولى لم يعد ذلك الدكتاتور النبيل أو المستبد العادل ، بل أصبح مجرد دكتاتور يدارى قبحه الداخلي بإهانة شاب بريء بما لاذنب له فيه حين يعيره بشذوذ عمه !

بعد السقطة الثانية أدرك أنه تعرى تماما ، ولم يعد أمامه سوى أن يعاقب نفسه ، عقابا عادلا تماما ، بأن يصبح مثل العم الذى سخر منه وأظهر سوءته !

بين خروجين :

ألم تكن رحلة « سلطان » « أبو الرجال » هى أيضا نوع من الخروج من القاع إلى القمة ؟!

لماذا نجح بطل قصة « الخروج » باتخاذ قرار بالخروج من سجن الأسرة ، ومن دور الأب ،الذي اكتشف فجأة أنه لم يعد أبا ، ولم يعد له دور حقيقي ، وفشل خروج سلطان ، وعاد إلى ما دون القاع الذى خرج منه ، ربما لأن بطل « الخروج » - مع أنه شخصية عادية - كان طول الوقت يسمح لنفسه بنوع من الحوار ، تارة مع نفسه ، وتارة مع من حوله ، وحين وقعت الواقعة لم تكن مفاجئة له تماما ، كان يلمح بوادرها من قديم ، وكان يتحاور معها ، ولم تكن قواه قد أنهكت إلى حد الإعياء ، « فخرج » لينال أثمن جوائز الحياة - وهو أيضا فوق الخمسين - حيث يصبح الإحساس بالحياة مرادفا للاحساس بالسعادة .

أما سلطان فقد آثر « كدكتاتور » أن يتحمل وحده عبء الصعود ، أو الخروج ، فأبهظه العبء ، وكانت انتصاراته الأولى التى كان ينال غارها وحده تمنحه قوة استثنائية ، وحين حدث أول انكسار وجد نفسه - منطقيا - يتحمل العار وحده ، فناء بثقله ، وبدأت رحلة السقوط ، ثم دفعته محاولاته لتغطية ضعفه إلى إظهار ضعف الآخرين والزراية بهم ، حتى ولو لم يكونوا مسئولين عن هذا الضعف ، (سخريته من ابن شقيق الطحان) ففجر - دون أن يدرى - القوة الكامنة في الشاب البريء - وهي شبيهة بالقوة التي كانت فيه - وفجرتها سخرية الناس من أبيه في طفولته ، فسقط في حضيض لم ينقذه منه سوى قتله بيد أقرب أقربائه ! . □

■ الكلام كالدواء ، إن قللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل .

(عمرو بن العاص) .

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

لعل الأجهزة والآلات أكثر مايبهرنا من المخترعات ، فهي تبهرنا إلى حد نكاد نغفل معه عما يبتكره العلماء من مواد أولية وخامات ، على الرغم من أهمية هذه وخطورة تلك .

خشب مبتكر جديد

فقد شهدت شهور الصيف الماضي (١٩٨٨) ظهور خشب جديد مصنع نجحت في تطويره إحدى شركات الأحراج والأخشاب في كندا ، بعد عشرين عاما من البحوث والتجارب وقد صرفت الشركة على أعمال التطوير هذه ٤٢ مليون دولار ، فظفرت لابتكار هذا الخشب سنة ١٩٨٧ بجائزة والنبرغ السويدية التي تمنح سنويا لأصحاب المستجدات في صناعة الأحراج والأخشاب.

على أن الخشب المبتكر ، ويسمونه بارللام (Parallam (Psl ، ليس مبتكرا بالمعنى الدقيق ، فهو مصنع من الخشب الطبيعي ، خشب الشجر الذي نعرف ، وقوامه القشرة الخشبية التي تغطى بها سطوح قطع الأثاث الخشبي ، بقصد التزيين ،فالخشب المبتكر الجديد لايعدو كونه مجموعة من رقائق القشرة المذكورة ، يلصق بعضها ببعض بصمغ خاص ، ثم تعالج بالموجات القصيرة المتواصلة لتلتحم وتصبح كلا واحدا قويا .

فالخشب المصنع الجديد أقوى من الأخشاب الطبيعية المألوفة ، من هنا كان استعماله مفضلا في صناعة البناء ، وثمة عامل آخر يحمل المهندسين والبنائين على تفضيله في أعمال الطرق والانشاءات ، إذ أن في الامكان الحصول عليه بمقاييس كبيرة جدا ، لانتاج الخشب الطبيعي ، كأن تبلغ الشجرة من العمر مئات السنين ، وتبلغ من الأبعاد مايجعلها بحق شجرة عملاقة . فالعوارض الخشبية التي يمكن صنعها من الخشب الجديد قد تبلغ ١٧×١٢ بوصة ، بطول ٦٦ قدما !

ويتميز الخشب المصنع أيضا بالانتظام والتناسق اللذين يفتقر إليهما الخشب الطبيعي ، ثم إنه غير قابل للتقوس والانثناء أو الانطواء كالخشب الطبيعي ، أضف إلى ذلك أن صنع الخشب المصنع لايستهلك من خشب الشجر إلا القليل ، أقل بكثير مما يستهلكه صنع الخشب الطبيعي ، ويقدر هذا بحوالي ٥٠٪ .

والظاهر أن قشرة خشب السوح هي الخامة المفضلة لصنع الخشب الجديد ، علما بأن قشرة سائر أنواع الخشب الأخرى تصلح لتصنيعه .

■■□□

بطارية القرن الواحد والعشرين

مارأيك في بطارية لسيارتك يطول عمرها أكثر من سنتين أوثلا
سنوات ، بل أكثر من عشر سنوات ، تعمر مائة سنة كاملة ؟ إنها تع
أكثر من السيارة نفسها ، ولابد أن يتوارثها الخلف عن السلف ، وتنقل
السيارة القديمة البالية إلى السيارة الجديدة ، أي من سيارة إلى أخرى
ولاعجب ، فهي بطارية نووية أو ذرية ، قوامها ذرات البلوتونيوم ٢٣٨ المشعة
بالطاقة ، وهي تحتوي على ٧٨٠ كليواط / ساعة ، أي مايعادل ١٦٠٠ ضعف
الطاقة التي تحتوى عليها بطارية السيارة العادية التي تزن ٣٠ رطلا أو أكثر

أمامخترعها فاسمه بول براون ، كان طالبا من طلاب الفيزياء في جامعة بركلي بكاليفورنيا في السبعينيات ، حين تسنى له العمل في تطوير بطاريته . وقد استكمل صنعها واستوفى تجربتها ، وتقدم في الصيف الماضي بطلب الحصول على براءة اختراعها .

على أن هذه ليست البطارية الذرية الأولى ، فثمة بطارية ذرية أخرى أقدم منها ، تستعمل في سفن الفضاء ، إلا أن الفرق كبير بين البطاريتين من حيث الفاعلية ، فالطاقة المتوافرة للبطارية القديمة لاتزيد على ٥٪ من الطاقة الكامنة ، ولاتعادل أكثر من ١٠٠ شمعة ، ويعزى ذلك إلى مبدأ العمل ، فالبطارية الأولى تعتمد على الكهرباء لتوليد المجال المغناطيسي ، وتستغل الحرارة التي يولدها الارتطام بين الجزيئات ذات الشحنة الموجبة — وهي بروتونات ونيوترونات — والجزيئات ذات الشحنة السالبة — وهى الكترونات — وتستعمل المزدوجات الحرارية لتوليد التيارات الكهربائية ، تبعا للفروق في درجات الحرارة ، فالبطارية إذن عبارة عن مولد حراري كهربائي .

وعلى النقيض من ذلك فبطارية براون لا تستغل مايولده الارتطام بين الجزيئات من حرارة ، لكنها تستفيد مما يؤدي إليه من مجالات مغناطيسية منهارة وقد نجح براون حيث فشل غيره من العلماء ، وتمكن من التحكم في المجالات المنهارة أثناء انهيارها ، وتوجيهها في اتجاه واحد بدلا من تبعثرها على غير هدى ، وإلغاء بعضها لبعض آخر ، ونجح بالتالي في تحويلها إلى كهرباء . أما كيف استطاع التحكم في المجالات المنهارة حتى نجح في تحويلها إلى كهرباء فهذا هو السر الذي لايبوح به المخترع في الوقت الحاضر على الأقل .

ولا يخفى أن مجالات استعمال بطارية براون كثيرة ، لاتقف عند السيارات ، فهناك سفن الفضاء والأقمار الصناعية ، وهناك الهواتف والغواصات ، فهذه كلها وأمثالها تنتظر هذه البطارية بفارغ الصبر .
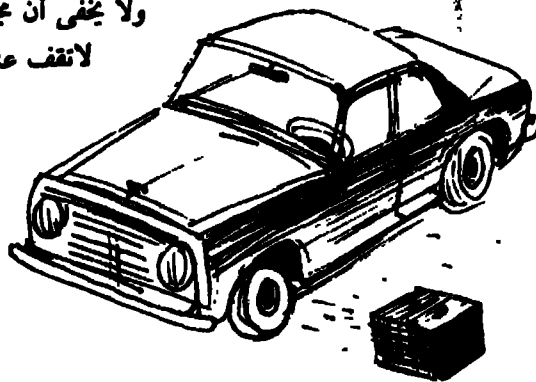
إن المرض الخبيث هو مرض السكري وليس السرطان . فهو المرض الذي يصيب الانسان خلسة ، ومن حيث لايدري ، ويفتك به خلسة أيضا ، قبل أن تتاح له فرصة اكتشافه ، ناهيك من معالجته . ولعل مرضى السكر الذين يجهلون أنهم مصابون أكثر عددا من الذين يعرفون ، ولعل هؤلاء الذين يعرفون قد اكتشفوا إصابتهم به بطريق الصدفة ، كأن تدفعهم آلامهم الروماتزمية أو سواها إلى إجراء التحاليل الشاملة الضرورية ، فلا تلبث هذه أن تفاجئهم بأن نسبة محتويات السكر في دمائهم تبلغ ٣٠٠ ملغم أو أكثر .

على أن خبث مرض السكرى ومكره لايقفان عند ذلك الحد ، فحتى الذين اكتشفوا إصابتهم به في الوقت المناسب ، ومضوا في تناول الانسولين بانتظام ، والتزموا بالحمية وفق تعليمات الطبيب ، حتى هؤلاء قد لاينجون من شر مرض السكري ، فلطالما فتك ببصر بعضهم أو شل أعصاب بعضهم الآخر أو أتلف الكلى في بعض ثالث ، على الرغم من تناول الأنسولين المناسب الذي يحقنون به مرة في اليوم أو أكثر .

لكن الأطباء لم يغفلوا عن أن العلة في كثير من هذه الحالات إنما نعزى للانسولين على الأخص ، فهو بطيء الامتصاص ، قد لايصل إلى مجرى الدم إلا متأخرا . فلو حقن المريض به قبل الوجبة الدسمة بنصف ساعة لما أمكن وصوله إلى الدم وبلوغه المستوى المطلوب فيه إلا بعد مضي ٧٠ — ٨٠ دقيقة ، على تلك الوجبة ، وعندئذ يكون وصول الانسولين متأخرا ، إذ أن حاجة الجسم إليه تبلغ أقصى الحاحها بعد تلك الوجبة بنصف ساعة فقط وهذا التفاوت في التوقيت هو الذي يؤدي في كثير من الحالات إلى مضاعفات مرض السكري السالفة الذكر . من هنا كان حرص العلماء على تصنيع صنوف من الأنسولين ، تكون أسرع امتصاصا ووصولا إلى الدم من الأصناف المتاحة .

والظاهر أن علماء إحدى الشركات الدانمركية قد نجحوا في تصنيع الأنسولين المطلوب ، بل لعلهم نجحوا في تصنيع أصناف عديدة منه مختلفة ، حسب الطلب ووفق حاجة الجسم .

ونذكر من تلك الأصناف صنفا يشبه الأنسولين الطبيعي الذي يفرزه البنكرياس ، وهو أنسولين بطيء الامتصاص لاريب ، لكنه يتميز بالمفعول التدريجي المتواصل ، والحاجة إليه ماسة بسبب المضخات الصغيرة التي تمد الجسم بحاجته من الانسولين ، وذلك حسب التحليل الذي تجريه المضخة من محتويات السكر في دم المريض . هذه المضخات تعلق على بطن المريض ، وتزرع ابرتها الدقيقة في جسمه ، وتقوم بتحليل الدم ، وبمده بالأنسولين المطلوب ذاتيا .

أما كيف نجح هؤلاء العلماء في تصنيع الأنسولين السريع الامتصاص الذي سبق الحديث عنه فحسبنا الاشارة إلى جزئياته التي تتكتل بطبيعتها لتكون مجموعات سداسية ، أوشبه جزئيات . بيد أن أصناف الأنسولين الجديدة لم تخرج بعد من مرحلة التجارب الميدانية ، علما بأنها تجاوزت مرحلة التجارب المخبرية وقد يمضي وقت قبل أن تصبح متاحة للبيع والاستعمال . ■■□□
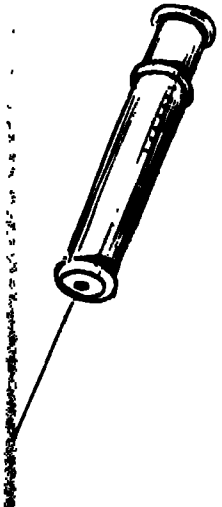
سلامة البشرية في سلامة البيئة

معركة ضارية تشهدها القارة القطبية الجنوبية

مما يثير العجب التعارض الطبيعي القائم بين التنمية الاقتصادية والتصنيع واستثمار الموارد من جهة ، وبين حماية البيئة ومكافحة التلوث وتوفير الموارد والمحافظة على الكائنات البرية من جهة أخرى ، فالمعركة كانت ومازالت ضارية بين الشعارين ، شعار التنمية ، وشعار البيئة ، على أن الساحة التي ستبلغ تلك المعركة ذروة ضراوتها عليها هي — دون أدنى ريب — القارة القطبية الجنوبية ، فقد أثبتت الأبحاث والدراسات الأخيره وجود ثروات خام خيالية في تلك القارة . واتجهت الدول مؤخرا إلى الأخذ بسياسة استغلال تلك الثروات ، خلافا للسياسة التي التزمت بها منذ اكتشاف القارة حتى الآن .

أما ثروات القارة القطبية الجنوبية فتشمل البلاتين والكروم وعددا من المعادن الأخرى ، في المناطق الغربية منها وهي تشمل أيضا ماهو أهم من ذلك كله ، النفط والغاز ، تحت الرف القاري . تلك هي نتائج الأبحاث الميدانية التي قامت بها سفينة الأبحاث المعروفة (جلومار) ، منذ مطلع السبعينيات . وقد عثرت تلك السفينة على الاثيلين والإثين في قاع بحر روس ، ووجودهما غالبا يدل على وجود النفط في موقع قريب من موقعهما . وقد بلغت كميات الزيت الخام حسب تقدير هيئة المسح الجيولوجي (في الولايات المتحدة) ٤٥ ألف مليون برميل في غرب القارة وحده .

لاعجب إذن إن شهدت ولنجتون عاصمة نيوزيلندة في الأسبوع الأول من شهر حزيران الماضي (١٩٨٨) التوقيع على اتفاقية القطب الجنوبي الجديدة وتنص هذه الاتفاقية التي وقعتها ٣٣ دولة على استغلال نفط القارة الجنوبية ومعادنها وقد جاءت مناقضة للاتفاقية السابقة التي وقعتها ١٢ دولة (سنة ١٩٥٩) ، والتي نصت على عدم استثمار القارة اقتصاديا ، والوقوف عند حدود النشاط العلمي ، وإقامة محطات للابحاث والتجارب العلمية فيها .

ومما يذكر أن بعض الدول اعترضت على الاتفاقية الجديدة ، وطالبت بوضع ثروات القارة في عهدة هيئة الأمم المتحدة .

أما هيئة (الجرينبيس (Greenpeace) فقد أوفدت إلى ولنجتون فريق عمل ، راقب المؤتمر ، وتابع أبحاثه ومناقشاته عن كثب ، في الوقت الذي انطلقت فيه حملتها الخاصة تطوف المنطقة طوال أربعة شهور ، من أجل الدعوة إلى تحويل القارة القطبية الجنوبية إلى حديقة عالمية ، محظورة على كل أعمال التعدين وحفر الآبار ، من الآن وإلى الأبد . ■□□

قضايا بيئية في ساحة القضاء

قبل نحو عشر سنوات ، وعلى مقربة من شواطيء بريتاني ، في شمال فرنسا ، تحطمت ناقلة النفط العملاقة (اموكو كاديز) وتدفق من الناقلة مالايقل عن ٦٨ مليون جالون من النفط الخام ، وأدى ذلك إلى تلوث الشواطيء ، ثم الى الحاق أضرار بالغة بالثروة السمكية وبالمواسم السياحية في تلك المنطقة . وتظلم صيادو الأسماك وأصحاب الفنادق والمطاعم إلى حكومتهم — الحكومة الفرنسية — فلجأت إلى القضاء ، ورفعت الدعوى في المحاكم الأمريكية — محكمة (شيكاجو) بالتحديد — على شركة (اموكو) الأمريكية التي تملك الناقلة

وصدر قرار المحكمة في النصف الثاني من شهر يناير الماضي (١٩٨٨) ، أي بعد إقامة الدعوى بعشر سنوات وقد حكمت المحكمة على شركة (اموكو) بدفع غرامة قدرها ٨٥,٢ مليون دولار .

ورحب البيئيون بالحكم ، وقد عدّ بحق أكبر حكم صدر في قضية بيئية على الاطلاق ، لكن الحكومة الفرنسية لم تكن راضية ، فقد طالبت بغرامة أكبر بكثير مما حكمت به المحكمة ، طالبت بألف مليون دولار ، لتعويض جموع المتضررين من الفرنسيين لا عجب إذن إن قررت حكومة باريس الاستئناف .

■□□

للاقلاع عن التدخين

ابتكر العلماء السويديون علكة تساعد المدخنين على الاقلاع عن التدخين ، أو هذا هو مايؤكده الامريكيون ، فالعلكة وإن كانت سويدية الصنع فإنها امريكية الاستعمال والانتشار

ومع أنها انتشرت في ٤٠ بلدا من بلدان العالم فإن مبيعاتها في الولايات المتحدة أضخم بكثير من مبيعاتها في غيرها ، وهي في ازدياد وقد بلغت نسبة تزايدها ٣٠٪ خلال الشهور الستة الماضية (من فبراير إلى يوليو ١٩٨٨) .

اسم هذه العلكه (نيكورت) (Nicorette) ولايعرف إن كان المقصود بالتسمية الاشعار باحتواء العلكة على مادة النيكوتين أم الاشعار بأنها ضمان للتخلص من طغيانه .

ومهما يكن من أمر فالاحصاءات الامريكية تؤكد أن هذه العلكة قد ساعدت حوالى (١,٠٠٠,٠٠٠) مليون مدخن أمريكي على الاقلاع عن التدخين ، وهذا إنجاز ضخم ، وخاصة في الولايات المتحدة التي يزداد عدد المدخنين فيها بحوالى (١٠٠,٠٠٠) مدخن جديد شهريا بالمتوسط .

أما المدة التي يحتاجها المدخن ، بل تحتاجها العلكة لمساعدته على الاقلاع عن لتدخين فستة شهور ، على أن يمضغ العلكة بمعدل ٨ مرات يوميا ، أو يمضغ نطعة واحدة منها كل ساعة من ساعات اليقظة . ويشترط أن توضع العلكة بين اللثة والخد حينا ، وتمضغ حينا آخر . والغريب أن شراءها يتطلب وصفة طبية ، لكنه من الممكن بل السهل دون وصفة ، لاسيما أن ثمن العلبة « الباكيت » (٨ قطع) يتراوح بين ٢٥ — ٣٥ دولارا .

■□□
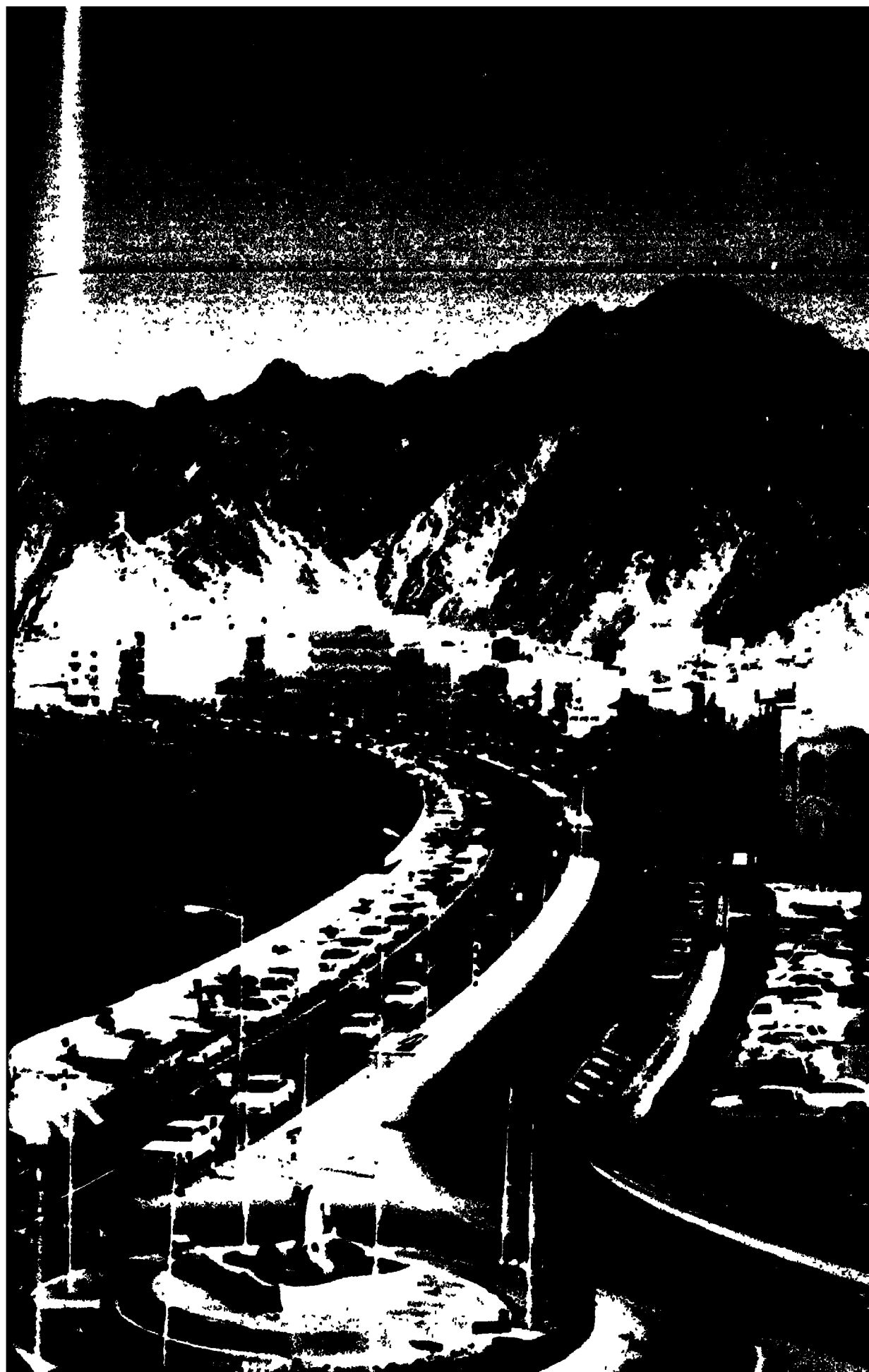
عُمان..

عين على التاريخ وأخرى على المستقبل

استطلاع : علي عثمان/تصوير : سليمان حيدر
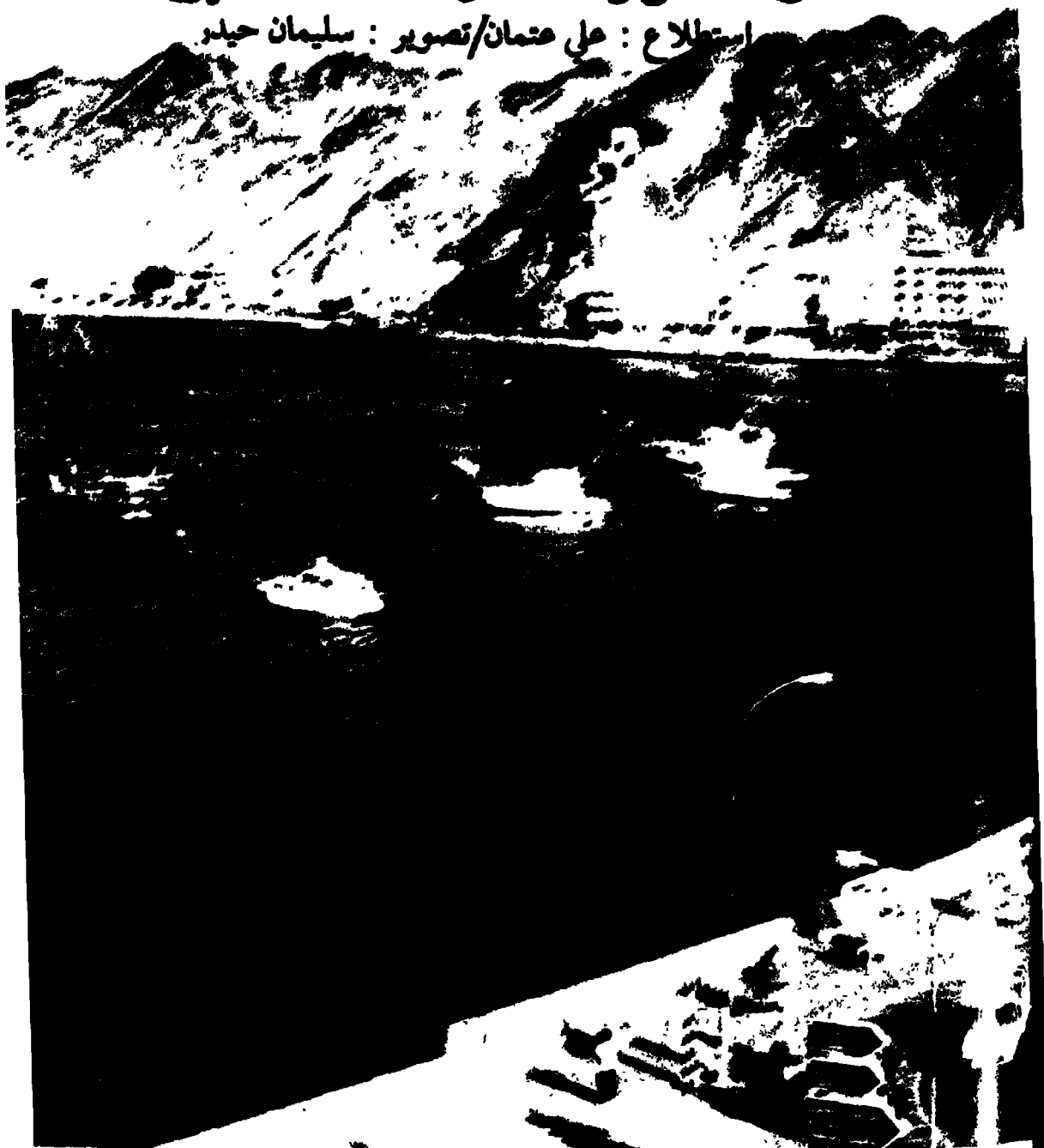
عُمان بلاد المفارقات تمتلىء وديانها بالخصوبة والأساطير ، وجبالها التي تشكل مع الصحراء معالم تضاريسها ، تجمع بين الوعورة والنماء ، وتحفل شواطئها المشرعة على العالم بالانتصارات والانكسارات . امتدت حركتها الى العالم المعروف قديماً ، وأقامت ممالك على غير أرضها عددا من القرون ، ثم انحسر نفوذها ، فكمنت في حدودها تصد الطامعين . تتداخل على أرضها المناخات ، فتكسبها تنوعاً فريداً .

وبعد عزلة طويلة تنهض متلمسة طريق المستقبل ، بعفوان الرغبة في الحياة .

أفصحنا عن رغبتنا في الالتقاء بنماذج من الجيل العُماني الجديد ، فأشاروا علينا بزيارة النادي الثقافي كبداية ، حتى يهيئوا لنا زيارات لمواقع أخرى

× سألنا وأين مكانه ؟

ـ في ضاحية القرم ، وهي ضاحية حديثة جميلة .

في مساء ليلة من شهر أغسطس كنا في مكتب المسئول عن النادي ، قدمنا له أنفسنا ، وشرحنا له مهمتنا ، فرحب بنا ثم قال . « سأصحبكم في جولة داخل النادي ، لتتعرفوا على أنشطته ، وتلتقوا مع من تشاؤون من الأعضاء الموجودين ، وكنا نأمل أن تكون زيارتكم متزامنة مع موسم نشاط النادي ، لأن معظم الأعضاء ، وأعضاء مجلس الإدارة ، خارج عُمان لقضاء إجازتهم السنوية ، ولذلك فنشاطنا الآن محدود »

× قلنا : لابأس ، سنحاول الاستفادة من الموجودين

صورة أولى :

النادي الثقافي هو الوحيد بمسقط ، وليس له نظير بعُمان ، افتتح عام ١٩٨٤ على الرغم من أن تكوينه أسبق من هذا التاريخ ، فقد كان اسمه « النادي الجامعي » لأن عضويته كانت مقصورة على خريجي الجامعات ، والنادي بتكوينه ونشاطاته وعضويته يكاد يكون مرآة للثقافة الحديثة في عُمان ، بكل تياراتها وأجيالها ورموزها . ويقام في النادي ، بالإضافة إلى المحاضرات والندوات ، أنشطة تعليمية مختلفة ، وتعقد فيه ندوة شهرية باسم « ندوة الثلاثاء » .

وفي جولتنا بالنادي رأينا قاعة للمحاضرات ، ومكتبة ، ومرسماً يمارس فيه محبو الفنون التشكيلية من أعضاء النادي هواياتهم ، وقاعة موسيقية ، ومثلها للتدريب والتعليم على الحاسوب (الكمبيوتر) ، أبرز علوم العصر .

في المرسم شاهدنا فتاتين مستغرقتين في توقيع الألوان بدرجاتها المختلفة وتداخلاتها على أرضية اللوحة ، الفتاة الأولى تكمل بفرشاتها ملامح وجه صياد ، يستعد بشباكه وأدواته للعمل . أرضية اللوحة تحمل درجة مياه البحر الزرقاء بأمواجه الهادئة ، إنه البحر الذى دفع العُمانيين إلى الانفتاح على العالم قديما وحديثا ، والذى أطمع فيها الغزاة . طافت بذهني حكايات السندباد البحري في ألف ليلة وليلة ، وهو يبدأ رحلاته السبع من عُمان ، ببحارة عُمانيين ، ويجذب السندباد من الذاكرة التاريخية أحمد بن ماجد البحّار العربي الشهير الذي استفاد من صحبته وكتبه « فاسكو دا جاما » في وصوله إلى الهند ، وابن ماجد عُماني . وتتدافع الصور ، والأخيلة ، والمعلومات التي زخرت بها كتب التاريخ عن الدور البحري العُماني في سنوات القوة والصعود بمراحلها المختلفة ، كالوصول بتجارة اللبان قديما

ـناء كانتون الصيني ، واستيطان شرقي أفريقيا
ـقرن الثامن الميلادي حتى استقلال زنجبار عام
. وهـزيمة البـرتغـاليـين في منتصف القـرن
ـع عشر ، بعد احتلال دام ١٤٠ عاما .
ـها سيمفونية البحـر الذى تملك عُمـان ١٧٠٠
ـيومتر من الشواطيء المطلة عليه ، كما أنه عنصر
ـ أهم مكونات اللوحة العُمانية ، منذ فجر التاريخ
ـتى اليـوم ، توظفـه فتاة في لـوحة ، تـوحي بمدى
الارتباط بين الإنسان والطبيعة بعناصرها المختلفة .

وعـدت من خواطـري لأستأذن الفتـاة في حوار قصير ، فتوقفت عن مزج الألوان ، ورفعت رأسها مرحبة ، وكذلك فعلت الفتاة الأخرى

أجابت « ياسمين بنت محمد سـالم » رئيسة قسم المختبرات بوزارة التـربية التى لم تتجـاوز الخامسـة والعشـرين : « تخـرجت في كليـة العلوم بجـامعـة كراتشي ، وقد بـدأت هوايتي في الـرسم منذ كنت طالبة بالمرحلة الإعدادية ، ولم تتـوافر لي إمكـانات الدراسة المنهجيـة للفنون ، لكنني أستعـين بالخبـرة والإحساس والممارسة المستمرة في تطوير أعمالي . معرضي الأول نـال إقبـالا كبيـرا ، وبيعت جميـع لوحاته ، بعضها اقتنته أجهزة حكومية ، وبعضهـا الآخر اشتراه أفراد . هناك نشاط كبير في مجال الفنون التشكيليـة في عُمان ، لكننـا نحتاج إلى مـزيـد من التشجيع والاهتمام » .

وفي قاعة التدريب والتعليم على الحاسوب توحي صورة العُمانيات اللائي يتعلمن دروس الحـاسوب بالاشتراك مع زملائهن الشبـاب ، بمقارنـة موحيـة مهمـة ، بين واقـع كان متخلفـا ، وحـاضـر ينمـو ويتطور ، ففي عام ١٩٧٠ لم يكن موجودا بعُمـان ـلها من المدارس إلاّ ثلاث فقط تضم ٩٩٠ طالبا ، ـما في العام الدراسي ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ فقد بلغ عدد ـدارس على اختلاف مستوياتها ٦٦٩ مدرسة تضم ـ ٢٥٠,٠ طالبا ، منهم ١٠٠,٨٤٧ طالبة ، هذا ـا كلية عُمان الفنية الصناعية ، وجامعة السلطان ـوس ، والبعثات التعليمية الموفدة إلى دول العالم ـختلفـة . إنها صـورة أولى من المشهـد العُمـاني ـديث .

● خريطة تبين موقع سلطنه عُمان

انطباعات سريعة :

خرجنا ـ أنا وزميلي المصـور ـ نتفرس في وجـوه المستقبلين في صالة المطار ، الوجوه توحي بالألفة ، فأشعر أني التقيت بها في غير هذا المكان . أين ؟ ـربما في بغداد ، أو القاهرة ، أو الكويت ، أو دمشق ، معظمها وجوه شابة ، ترتـدي الزي العُمـاني الذي يشتـرك مع الـزي الخليجي في اللون والتفصيـل ، ماعدا الـربطة المتـدلية من العنق التي عَـرفتُ ـ فيما بعد ـ أنها تُضمخُ بالعطور والطيب ، حتى يستعين بها صاحبها في التغلب على ما يصادفه من روائح كريهة ، وهذا تقليد قديم مستمر . ويعلو الـرؤوس الغطاء العُماني بألوانه الزاهية ، ونماذجه المتعددة .

في الطريق إلى الفندق ـ والسيارة تطوي الشوارع الواسعة النظيفة ، وعبـارات الترحيب من مـرافقنا تمسـح عنّا عنـاء السفر ـ رحنـا عبر زجـاج السيارة نحـاول اكتشاف مـايتـاح لنـا من معـالم العـاصمـة مسقط ، مدخلنا الى عُمان .

● « على اليمين » عماني يفتح الأبواب على المستقبل ـ « على اليسار » جزء من حي القرم بالعاصمة مسقط ـ « تحت يمين » برج الصحوة ، في الطريق إلى مطار « السيب » وعلى جوانب قاعدته رسوم تحكي صورا من التاريخ العماني ـ « تحت يسار » فتاة عمانية تضع لمساتها الأخيرة في لوحة الصياد بالنادي الثقافي .

الشوارع الخالية من الحركة ، تمتد بانسياب رقيق ، تعلو وتهبط حسب تضاريس المكان ، منبسطة في الأودية والسهول ، ملتوية كحركة الثعبان عند التفافها حول المرتفعات ، أو اختراقها للجبال التي شُقّت « بالديناميت » ، ومُهدت للطرق ، بقدر محسوب ، صنع من جوانبها المتدرجة رأسيا أمكنة لزراعة النباتات المتسلقة والأشجار ، تجميلا لها وللنظر .

حاولنا ـ على طول الطريق ـ استيعاب ملامح الطبيعة المحيطة التي تُكسب مسقط شخصيتها المتميزة ، وإنجازات الإنسان في تطويع هذه الطبيعة والسيطرة عليها حسور تمتد فوق الأودية استكمالا للطرق المزدوجة الاتجاه ، مبان متعددة الطوابق ، «فيلات » على سفوح المرتفعات ، نُصُبٌ مختلفة الرموز والدلالات مقامة في الميادين ، جُهد بشري ومقدرة فائقان وانتزعنى صوت مرافقنا من نهمي الشديد للرؤية على الرغم من سرعة السيارة وخفوت الأضواء حول الأماكن البعيدة التي تنسج حولها هالة من الغموض المحببّ الأليف .

ـ هذه المباني حديثة جدا ، أقدمها بُني منذ خمسة عشر عاما فقط ، وهذه ضاحية « القرم » ، وهذا ميناء « الفحل » بمصفاته لتكرير النفط ، نحن الآن في « مطرح » الكبرى

وأدركنا كما يدرك كل زائر لعُمان أن مسقط العاصمة مدينة شابة ، بشوارعها الحديثة ، ومبانيها ، وأشجارها ، فكل مكوناتها تجسّم دفقة الشباب بانطلاقته وحيويته ونضارته ولكن اندفاعاتها الشبابية محكومة بالموقع الجغرافي ، بتضاريسه الجبلية ، وبالتاريخ ، وكلا العنصرين لهما حضور قوي ودائم ، تستشعره من الوهلة الأولى ، ويصاحبك أينما حل بك الترحال في أرجاء عُمان .

وحضورهما هذا يمثل للإنسان العُماني المعاصر وأجياله القادمة تحدّيا ، يتوقف نجاحه في مواجهته والتغلب عليه على مقدرته في استغلال غنى الموقع « الاستراتيجي » ، وتعدد تضاريسه ، ومناخه ، وكذلك استخدام عناصر التاريخ الحية والكامنة في الواقع والمتفاعلة معه .

فعُمان بلاد المفارقات . النور الحارق والظلال الساكنة ، صخور ناتئة جرداء ، تحيط ببحر زاخر بالأسماك ، وقمم شاهقة ، تطل على وديان منحدرة ، حيث الينابيع التي لا تتوقف عن التدفق لتمنح الحياة للبساتين ومزارع النخيل ، وجبال منتشرة هنا وهناك ، تترامى وراءها رمالٌ بلا نهاية .

تحتل عُمان معظم الركن الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، وهي أشبه ما تكون بجزيرة من الجبال ، لكنها جزيرة تسيطر على أقدم الطرق التجارية البحرية في العالم ، وهو الطريق البحري بين الخليج والمحيط الهندي ، وتتحكم في مضيق هرمز عند مدخل الخليج ، حيث يمر نصف نفط العالم .

سلطنة عُمان الدولة الثانية في المساحة بمنطقة شبه الجزيرة العربية تبلغ مساحتها حوالي ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع من الأراضي الشديدة التباين التي تغطي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة ، وتمتد سواحلها ١٧٠٠ كيلومتر ، ويغلب على المنطقة الداخلية وجود الجبال الوعرة التي يطلق عليها اسم « حجر » ، ويبلغ أعلاها ارتفاعا ٣٠٧٥ مترا ، وهو الجبل الأخضر المدرج بين السهول والبحر ، أو الهضاب والكثبان الرملية في الداخل .

وهناك الأراضي البور التي يغلب عليها طابع الأزقة البحرية في المناطق المطلة على مضيق هرمز في الشمال ـ حيث شبه جزيرة مسندم ـ الى سهل الباطنة الخصب تجاه مسقط ، ومن صحراء الربع الخالي الشاسعة عبر الجبال إلى سهل صلالة الأخضر ، شبه الاستوائي ، في الجنوب حيث منطقة ظفار .

وجه من وجوه التاريخ :

في المتحف الوطني الذى اقترح علينا الأستاذ محمد بن سالم المرهون ، مدير الإعلام بوزارة الإعلام ، أن نبدأ رحلتنا بزيارته ، كنا نعيش بالصورة واللوحة والمجسمات ، والنماذج مشاهد من تاريخ عُمان .

في البداية نلمح تأثر تصميم المبنى من الخارج بنمط العمارة المستخدمة في تصميم القلاع والحصون ممزوجا بمفردات العمارة الإسلامية ، وبخاصة الأقواس والعقود التي في أعلى فتحات الأبواب والنوافذ ، والمبنى مكون من طابقين ، ويتميز ببساطة تذكرنا بحياة الصحراء والبداوة ، ولقد تم افتتاحه في العيد الوطني لعُمان عام ١٩٧٤ .

عند المدخل استقبلنا الأخ إبراهيم بن صالح بن أحمد مسئول المتحف بزيه العُماني والخنجرُ معلق بالحزام في وسطه ، وصحبنا في جولتنا بالمتحف معلّقا على مقتنياته : الطابق الأرضي يضم التاريخ القديم والأسلحة ونماذج مجسدة لطبيعة الأرض والإنسان . وتحدثنا الصخور وبقايا الآنية الخزفية عن الوجود العُماني القديم ، والصور واللوحات عبرت عن التاريخ المسجل المعروف لعُمان ، ومازالت بعثات التنقيب عن الآثار تكتشف الجديد : مدافن حجرية كُشفت في مدينة (بات) القديمة ، يقدر أنّ بناءها قد تم في فترة ٣٢٠٠ ـ ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، ونقوش حجرية عثر عليها في جبال (فنجة) ووادي (سمائل) ـ في وسط عُمان ـ تعود الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

وتابعنا معه مسار رحلة اللبان والبخور في العصور القديمة التى اشتهرت بها منطقة ظفار في الجنوب ، حيث كانت ترسو السفن في موانئها المزدهرة آنذاك التى لم يبق منها إلاّ بعض الأطلال ، كميناء سمهرم ، المعروف الآن باسم « خور روري » ، وميناء ظفار (البليد) ، لتقل منها حمولتها ، وتتجه بها الى الصين شرقا ، وروما شمالا .

وتعرفنا على الأفلاج التى تشكل عماد نظام الري الذي تشتهر به عُمان ، ومن أشهرها فلج (دارس) بنزوى ، إحدى عواصم عُمان القديمة ومركزها الدينى ، وصور لقلعة من قلاع عُمان ، وفي عُمان ما يربو على خمسمائة قلعة وبرج دفاعي ، وعلى سفن الصيد القديمة المسماة « الشاشة » وهي قوارب تقليدية لصيد السمك ، تصنع من سعف النخيل ، يطفو القارب منها ونصفه غارق في المياه .

وشرعنا نستكمل جولتنا في الطابق الثانى الذى يضم صورا ونماذج من العمارة والفنون والأسلحة ، فرأينا بعض الفخار من إنتاج « بهلا » المشهورة بصناعة الفخار .

وجذبنا صوت الدليل الى نماذج من الأزياء العُمانية التى تختلف باختلاف المناطق في التفاصيل والألوان ، ويغلب على ملابس النساء الألوان الصريحة الزاهية ، وعلقت : إن في هذه الألوان تأثيرات وافدة من الهند وشرقي إفريقيا ، حيث كان للعُمانيين حضور كثيف ، عن طريق التجارة مع الهند ، والإقامة الدائمة والحكم في شرقي إفريقيا .

دلالة السيوف والخناجر :

وعند جناح الأسلحة البيضاء ، طلبنا من مدير المتحف أن يزيد الشرح حول هذه الأسلحة واستخداماتها ، حتى نستجلي ظاهرة تمسك العُمانيين باستخدام الحزام المعلق به خنجر على لباسهم الخارجى في وسط الجسم ، وبخاصة في المهام

● مسجد الزواوي بالخوير نموذج من العمارة الاسلامية التي تميز العاصمة مسقط .

● بهو الاستقبال في فندق قصر البستان ، ويبدو تأثر تصميمه ، بلمساته الفنية ، بالعمارة الاسلامية (أعلى) وإلى اليمين ، الواجهة الرئيسية لمبنى وزارة الخارجية العمانية التي نالت جائزة اليونسكو في التصميم المعماري لعام ١٩٨٧ .

الرسمية والاجتماعية وهذه الظاهرة لا يشاركهم فيهـا إلا اليمنيـون ، وإن اختلفت نـوعيـة الأداة المستخدمة عنـد كلٍّ منهم ، واستخـدامهم لها الآن يقتصر على مدلولها الرمـزي أكثر من استخـدامهم العملي لها

إن لدلالتها عندهم أهمية بالغة ، بدليل اختيارها شعـارا للسلطنة « سيفين متقـاطعين يتـوسـطهـا خنجر »

قال مسئول المتحف : « لقد كان الإنسان العُماني يعيش ويتجـول في الجبال والـوديـان والبـراري ، يصطاد الحيوانات ، فكان لابد له أن يستحدم أداة أو سلاحا يـدافع بـه عن نفسه ، حتى أصبـح السلاح مـلازما لـه ، وجـزءا متمـا لحـاجـاتـه الشخصيـة الضرورية »

وأضفتُ استكمـالالحـديثـه ـ إن القـلاقـل والاضـطرابات والصـراعات فيـها بـين القبـائـل ، بالإضافة إلى الغزو الخارجي الذي تعرضت له عُمان على مدى تـاريخها الـطويل ، أجبـر الأفـراد عـلى استخدام السلاح المتاح لهم انذاك ، فكانت السيوف والخناجر والسكاكين التي قامت لها في عُمان صناعة حرفية ، ماتزال بقاياها موجـودة في « نزوى » وإن كان الاستيراد من الخارج قد هيأ منافسة حادة لها ، لأنه أسهل وأرخص

وقال : « إن السيوف لابد أن تكون مستقيمة ، وحادة النصل من الجهتين ، وتتميز بالرهافة الى حد الاهتزاز قبل القطع بها ، ولها مقبض إما من الجلد أو من الفضـة ، وأغمـادُ السيـوف مكسـوّة بـالجلد ، وعليها زخارف مختلفة ، محلاة بالخيوط الفضيـة أو الذهبية »

أما الخناجـر فمعقوفـة ، حادة النصـل ، ولكل منطقة طابع خاص بالخناجر ، ويوجد منها نوعان الأول هـو الخنجـر السعيـدي ، ويـرمـز للعـائلة السعيدية ، ويـرخرف بنقـوش كاملة أمـا النوع الثاني ـ العادي ـ فله تسميات مختلفة ، ولا يحمل أي نقوش ، ويُصنع من العظم المستورد من إفريقيا ، وأغلى انواعه عظم الزرافة ويصنع جانب من مادة الشمع .

وثمن الخنجر ـ حاليـا ـ يتراوح مـا بين ألف ا. ألفين من الريالات العُمانية (الريال العُماني يساو ما يقرب من ٢,٦ دولارين وستـة أعشار دولار ولـذلك يقتصـر استخدام هـذا النوع عـلى الأسر الميسورة الحال

والحزام الذى يعلق به الخنجر إما من القماش أو الفضة ، والموروث من السيوف والخناجر تحتفظ به العائلة كإرث تتفاخر به ، ولا يباع . وحتى يتعوّد الصبيةُ استخدامَ الخناجر عندما يشبون عن الطوق يعطون خنجرا من الخيوط الصوفيـة ، لأن الصبى عندما يبلغ سن الرشد يطلب الخنجر والعروس .

رؤية للتاريخ :

وفي الأماكن التى زرناها بعُمان شعـرنا بخـطى التـاريخ تـدب عـلى أرض الحـاضـر ، من خـلال نشاطات وزارة التراث القومي والثقافة ، الـوزارة الوحيدة في الوطن العربي المنشأة للعناية بالتراث ، حيث تجعـل له الأقـطار العربيـة إدارة تختص به في إحدى الوزارات ، ولكن التراث في عُمان له أهمية بالغة ، لذلك تسعى وزارة التراث القومي والثقافة .

بخطة متعددة المسارات ، للكشف عن هذا التاريخ من خلال تحقيق المخطوطات ونشرها ، والعُمانيون يملكون منها الكثير ، وترميم الأبنية الأثرية والحصون والقلاع المنتشرة في ربوع عُمان وصيانتها ، أو جمع الفنـون الشعبيـة من أغـانٍ وأهـازيـج ورقصـات وأزياء ، وهي كثيرة ومتنوعة . وتعكس ـ بوجه من الوجوه ـ مكوّنات الإنسان في عُمان في مـاضيه وفي حاضره ، وكذلك تـدعيم الصناعـات التقليديـة ، كصناعة السيوف والخناجر والمشغولات الفضيـة ، وصنـاعـة الفخـار ، أو تكثيف عمليـات التنقيب والبحث عن الآثـار خـلال العصـور التـاريخيـة المختلفة

إنه عشق مشبوب للتـراث كملاذ يُحتمى بـه من تأثيرات الأفكار والسلوكيات الوافدة التى تـدافعت بقوة الى الداخل بعد الانفتـاح على العـالم منذ عـام

١٩ ، ولأنه من أهم مقوّمات الشخصية الوطنية تسعى إلى تأكيد ذاتها في عالم اليوم .

وفي مبنى وزارة التراث القومي والثقافة سألت الأستاذ مال الله حبيب مستشار الوزارة عند لقائنا به : من المعروف أن تفاعل عناصر التاريخ مع الحاضر يؤدي الى إحدى نتيجتين ، إما أن يضغط على الحاضر فيوقف تطوره ، ويجذبه للانزواء والتقوقع . وإما أن يدفعه إلى اقتحام آفاق المستقبل ، فماهي فلسفة استخدامه في نشاطات الوزارة ؟ .

ـ فقال : « إن من الميزات التى تتمتع بها عُمان ـ بحكم كونها شبه جزيرة يعزلها البحر عن المناطق النائية الأخرى ـ بقاء القيم والتقاليد والعادات الشعبية على أصالتها ، على الرغم من الغزو الحضاريّ المعاصر ، لأنني أظن أن معظم بلاد العالم التي جرى فيها الانفتاح على العصر الحاضر قد دفعت ضريبة من عاداتها وقيمها وتقاليدها ، لتكتسب الميزات والخصائص الجديدة ، الآتية مع الغزو الحضاري وانتشار المدنية ، بينما نرى هذه الظاهرة السلبية أقل نفوذا وانتشارا في المناطق العُمانية ، لذلك يضع المسئولون نصب أعينهم الحفاظ على الأصالة والقيم بجميع ما يحفظونه بمشاريع عمرانية وثقافية ، ولقد أنشئت وزارة التراث القومي والثقافة في عام ١٩٧٦ بهدف تعميق مالدى العُمانيين من معرفة بتراثهم الثقافي وتاريخهم العريق » .

وغادرنا مبنى وزارة التراث لنرى مشهدا آخر من مشاهد عُمان الحديثة .

التمدد في حضن الجبل :

وخرجنا من رحاب التاريخ الذى سيظل باسطا بصمته على كل مكونات الحياة في عُمان ، بعد أن ستأدناه في دخول الحاضر بحيويته ، وسخونة ساعاته ، فاحتوتنا العاصمة « مسقط » بمعالمها ، وشخصيتها المتميزة .

أخذت من العاصمة القديمة اسمها ، وتركت لها موقع والبداية وبعض الآثار التاريخية ، بعدما حطمت السور الذي كان يعزلها وسكانها عن داخل عُمان ، حيث لم يكن يسمح لهم الاتصال بالآخرين حتى عام ١٩٧٠ إلا بإذن خاص .

كانت العامة تسميها قديما « مسْكد » ، ولكنها اشتهرت باسمها الذي عرفت به « مسقط » ومعناه مكان السقوط

العاصمة مدينة تتمدد في حضن الجبال التى تحيط بها من جهات ثلاث ، تاركة لها الجهة الرابعة « الشرق » تعانق منها البحر بمياهه الزرقاء ، وهى إن اشتركت مع العاصمة القديمة في النمط الدفاعي الذي فرضته الأطماع الخارجية والنزاعات الداخلية ـ فأقيمت القلاع والأبراج على قمم مرتفعاتها ـ ولكنها تختلف عنها في الامتداد والاتساع والتنوع

فمسقط الحديثة تبدأ من قصر البستان جنوبا ، حتى قصر السيب السلطاني شمالا ، وتضم بين جنباتها العديد من الضواحي الحديدة التى تنهض على سفوح المرتفعات أو في الأودية . مدينة قابوس ، والخوير ، والوطية ، والوادي الكبير ، إلى جانب القرى القديمة التى نمت وتطورت مع النمو الحديث الذى تشهده سلطنة عمُان . كقرية « القرم » التي تحولت إلى ضاحية رائعة الجمال بخضرتها الزاهية ، وتصميمات مبانيها ، وقرية مطرح بأسواقها القديمة ، وقلعتها الشهيرة التى فقدت مكانتها القديمة كمركز مالي وتجاري لصالح الحي التجاري الجديد « رُوي » بأسواقه الحديثة ، ومبانيه المرتفعة . وتضم العاصمة كذلك ميناني قابوس ، والفحل ، بالإضافة إلى المنطقة الصناعية في « الرسيل » غرب « السيب » بمصانعها العديدة .

وعند تجوالنا في أحياء العاصمة وضواحيها ، لفت نظرنا نظافتها ، وهدوؤها ، على الرغم من ازدحام طرقاتها بالسيارات ، وخلوها من التلوث ـ وعُمان هو القطر العربي الوحيد الذى أنشأ وزارة لحماية البيئة ـ كما أن مبانيها التى يغلب عليها اللون الأبيض أو الترابي الخفيف تصنع لوحة متناسقة الألوان ، وتشكل الجبال بألوانها البنية المتدرجة خلفية رائعة لها .

وتمتاز «مسقط » بشبكة طرق حديثة ، تربط

● على شاطىء « مرباط » بظفار المشهورة بشواطئها الجميلة ، وأسماكها المتنوعة ، عماني يتطلع للبحر آملاً في استعادة الأمجاد البحرية لعمان .
« الصورة العليا » جزء من شاطىء صلالة .
شجرة اللبان وعماني يقطع لحاءها ليستخرج اللبان .

أقصاها بأقصاها ، متجاوزة الموانع الطبيعية التي كانت تجعل الحركة بين أجزاء العاصمة صعبة ؛ فالجبال شقت ومُهدت للطرق ، وعلى الأودية أنشئت الجسور ، وزُوّدت الطرق المزدوجة الاتجاه بكل الإمكانات التي تجعلها مأمونة الاستخدام ، ففيها حواجز على الجانبين ، وإشارات ضوئية تساعد على انسياب الحركة ، ومسارب لمياه الأمطار من المرتفعات إلى الأودية ، ولذلك فالحوادث المرورية في عُمان أقل من البلاد الأخرى بسبب انضباط السائقين ، والصرامة في تطبيق القانون .

وعلى جوانب الطرق وفي قلب الميادين تنتشر الأشجار والزهور ، فتبسط للرؤية منظراجميلا . إن شبكة الطرق الحديثة ، بالإضافة إلى أنها ربطت أطراف العاصمة ، ويسرت الحركة فيها ، مكنت الحركة الإنشائية والعمرانية من التمدد والانتشار ، بحيث تحولت الأراضي المهجورة الى صواح تعج بحركة الإنسان وحيويته

جائزة من اليونسكو :

من السمات التي لاحظناها في مسقط العاصمة غلبة نمط العمارة الإسلامية بخطوطها المنسرحة ، وأقواسها ، وعقودها « المخموسة » والنصف دائرية « البيكار » أعلى فتحات الأبواب والنوافذ والمنمنمات ذات الوحدات المتكررة ، المنفذة على الخشب أو الألمونيوم أو الجص في الواجهات والأسوار والقلائد « الكرانيش » وأسلحة المباني ، ويبدو المشهد المعماري في غالب المناطق - والحديثة منها بوجه خاص وعلى جوانب الشوارع - كأنه لوحة مجسمة من خطوط معمارية منسابة بليونة ، وانطلاقة ، وشاعرية ومثّل كل مبنى وحدة متناسقة مع باقي الوحدات في إطار اللوحة الكلية التي توشيها الأشجار والنباتات بنضرتها الزاهية ، وتكسبها الأضواء المبعثرة نيلا حرماً من الضوء والظلال ، فتكمل عناصر اللوحة التشكيلية الفائقة الجمال ، التي تمثل الطبيعة بعناصرها المختلفة من بحر وجبال ، وهضبات ها.

ولقد جذبت هذه اللوحة انتباهنا ليلة وصولنا مسقط ، فسألنا مرافقنا : « هل التكرار والتشابه في المباني ، حكومية وخاصة ، اختيار حر من أصحابها أم هو التزام بنمط معماري فرضته الجهات المختصة ؟ » .

فأجابنا : « إنه مزج بين الاثنين ، لأن إدارة « الإباحة » في بلدية العاصمة قدمت للملاك وشركات المقاولات ، نماذج مستوحاة من العمارة الإسلامية في عُمان ، للاسترشاد بها عند تصميم مبانيهم ، وتركت لهم حرية الابتداع » .

وأكد لنا المهندس عبد الله بن عباس نائب رئيس الديوان للشئون الفنية هذه المعلومات عندما التقيناه في مبنى بلدية العاصمة بمنطقة « رُوي » : « نعم إننا مهتمون بضرورة الالتزام بالنمط المعماري الإسلامي في كل تصميمات الأبنية الحديثة ، حكومية أو خاصة ، حتى لا تضيع ملامح شخصيتنا التي تحددت معالمها على مدى تاريخنا الطويل ، في الفوضى المعمارية والإنشائية التي يجلبها الأفراد بتأثرهم بالعمارة الأوربية على وجه التحديد ، وكما نراها في أغلب المدن العربية ، ونحن حريصون على الاستفادة من كل التجارب العربية - وغيرها - التي سبقتنا منذ مدة طويلة

ولذلك وُجّه إلى كل القطاعات الإنشائية ، والمكاتب الاستشارية الهندسية ، في مطلع ١٩٨٥ كتيبٌ يتضمن أنماطا من العمارة الإسلامية في عُمان ، ليتم الاسترشاد بها عند تصميم أي مبنى ، وبخاصة الواجهات والأسوار والأبواب ، ولعلك تعرف أن لعُمان شهرة في فنون الزخرفة والنقوش التي مزجت مع فنون العمارة الإسلامية وعناصرها»

على عتبات العصر :

وفي الطريق إلى جامعة السلطان قابوس تذكرت صبيا لم يتجاوز عمره الثانية عشرة ، كان يبيع لنا ثمار النارجيل (جوز الهند) على قارعة طريق بين مزارع « صلالة » في منطقة ظفار ، وهو يجيب عن سؤالي - بعدما عرفت أنه طالب - عما يتمناه لنفسه إذ قال

سأكون مهندسا ؟ فسألته - وكيف ؟ رد بسرعة : سألتحق بجامعة السلطان قابوس في مسقط ، لحظتها قلت لنفسي . إن هذا الصبي بتفكيره وطموحاته يقدم ملمحا مُهمّا من ملامح تكوّن الإنسان الجديد في القطر العُماني .

وتذكرت حواراً دار بيننا وبين السيد مهدى عبد القادر ، مدير عام التخطيط بمجلس التنمية ، حول قطاع التعليم ومكانه في الخطة الخمسية الثالثة ٨٦ - ١٩٩٠ ، فقد قال : « إن المسئولين العُمانيين يولون هذا القطاع أهمية متزايدة ، لأن التعليم هو البداية الصحيحة لمواكبة العصر ، والإمساك بطريق المستقبل الوعر ، وحتى نعوض آثار العزلة الطويلة ونتائجها السيئة ، ولذلك فالتعليم الابتدائي والإعدادى إجباري ، ومنذ الخطة الخمسية الأولى أرسيت قاعدةُ تنوع التعليم والاهتمام بالتعليم التطبيقي الذي يوفر العناصر الفنية الماهرة ، حتى نتمكن من الوفاء باحتياجات خطة التنمية من العناصر البشرية المدربة ، وتطبيق سياسة التعمين » ، أي إحلال العمالة الوطنية العُمانية محل الوافدة ، ولقد بلغت تقديرات الخطة الخمسية الثالثة ٨٦/ ١٩٩٠ للإنفاق على قطاع التعليم بجميع مستوياته - بما فيه الجامعة - ١٧٦ مليون ريال عُماني ، بنسبة ١١,٥٪ من إجمالى توزيع تقديرات إنفاق الخطة » .

وفي الكتاب الإحصائي نقرأ أن عدد مدارس التعليم العام بجميع مستوياتها قد بلغ ٦٦٩ مدرسة حكومية وخاصة في عام ١٩٨٧ ، وهناك ثلاث مدارس فنية ثانوية ، وتسع مدارس للتدريب المهنى للمرحلتين الإعدادية والثانوية ، بالإضافة إلى معهد للعلوم الصحية ، وآخر للعلوم المصرفية ، وهناك كلية عُمان الصناعية الفنية .

وجاء افتتاح جامعة السلطان قابوس في ١٩٨٦ ليكمل هيكل التعليم بالسلطنة ، ففي منطقة « الخوض » على بعد ٤٥ كيلومترا غربي مدينة مسقط ، أنشئت الجامعة على مساحة ١٢ كيلو مترا مربعا .

ووصلنا الجامعة ، الواجهةُ الخارجية تجمع بين المهابة والنعومة ، والرصانة والانطلاق ، واجتزنا الممرات ، وتنقلنا من مبنى الى آخر بسهولة ويسر ، وجذب انتباهنا الاتساع ، والجمال ، والهدوء ، والترابط بين عناصر الجامعة ووحداتها والتقينا بالشاعرة سعيدة بنت خاطر ، وهى شخصية نسائية معروفة في عُمان ، من خلال أنشطتها المتعددة ، بجانب موقعها كمساعدة عميد الجامعة لشئون الطالبات .

وطرحنا عليها تساؤلاتنا حول نظام الدراسة بالجامعة ، وعدد الطالبات ، والهيئة التدريسية ، فقالت : « لقد بدأت الجامعة عامها الدراسى الأول ٨٦/ ١٩٨٧ بخمس كليات فقط ، هى الطب ، والهندسة ، والعلوم ، والزراعة ، بالاضافة إلى كلية التربية والعلوم الإسلامية ، وهي - كما هو واضح - كليات عملية ، وكان القصد من هذه البداية ، تلبية حاجة المجتمع من خريجي هذه الكليات ، وليس إضافة أعداد جديدة إلى حاملي الشهادات ، فنحن نعاني نقصا شديدا في العناصر العُمانية المؤهلة والمدربة في القطاعات التى تخدمها هذه

● يعبر العمانيون عن مشاعرهم في مناسباتهم الاجتماعية والوطنية بالرقص والغناء - العريس بين أهله وأصدقائه متجهون إلى بيت العروس بالرقص والأهازيج ، الصورة العليا يمين ، ، أعلى يسار ، نافخ المزمار ، تحت يمين ، ضارب السوبحر ثم رقصة الموت المصاحبة للعريس - ، تحت يسار ، إيمان الحميدي ممثلة عمانية واعدة

التخصصات ، كقطاع الصحة والمجالات الهندسية المختلفة والعلمية ، وقطاع التدريس ، ولذلك فنحن نستعين بالخبرة الوافدة في هذه المجالات وفي العام الدراسى الثانى ٨٧/ ١٩٨٨ أضيفت الكلية السادسة ، وهي كلية الآداب ، بفروعها المختلفة » .

وأضافت : « ولقد روعي عند التخطيط لإنشاء الجامعة أن تتوافر لها كل الإمكانات البشرية والمادية ، لمواجهة احتمالات التوسع في القبول مستقبلا » .

ونعرف أن للجامعة مراكز علمية مساندة ، وهى مركز اللغات ، ومركز الحاسوب (الكمبيوتر) ، ومركز التقنيات العلمية ، بالإضافة إلى مكتبة ضخمة ، تضم ٢٠ ألف عنوان من الكتب ، وتتسع لحوالي ٢٥٠ ألف عنوان ، والمكتبة مزودة بحاسوب (كمبيوتر) ، ومتصلة بالقمر الصناعى الذي يربطها بمكتبة الكونجرس في واشنطن

كما أن بحوث الجامعة توجه لخدمة البيئة العُمانية ، ولذلك فكلية الزراعة مرتبطة بثلاثة مراكز للبحوث بالتنسيق مع وزارة الزراعة والأسماك ، ولها مزرعة خاصة بها ، ملحقة بالجامعة ، وهناك مستشفى تعليمى مرتبط بكلية الطب

وهيئة التدريس في الجامعة تعتمد على أساتذة مصريين وسودانيين وأردنيين ، وبريطانيين وأساتذة من أمريكا وكندا ، واستراليا ، والدراسة فيها باللغة الانجليزية ماعدا الدراسات الإسلامية والعربية

جنة المناظر الخضراء :

دفعني الفضول إلى النظر من نافذة الطائرة وهى تقترب من مطار « صلالة » عاصمة المنطقة الجنوبية « ظفار » فأحسست أننا نعوم فوق أمواج كثيفة من السحب التي يتحول لونها بالتدريج ـ كلما قلّلت الطائرة ارتفاعها تمهيدا للهبوط ـ من اللون الأبيض الناصع إلى اللون الرمادي الداكن إنها تمطر بالتأكيد . وستكون نسبة الرطوبة مرتفعة وفجأة اقتحمت الخضرة اليانعة المسطحة على مساحة الأرض تحتنا قلب المشهد ، مرتفعاتُ ومنخفضات متد[illegible] الحدود والمعالم في اللون الأخضر . وتداخ[illegible] الأحاسيس من المتعة والدهشة إلى الرغبة في س[illegible] الوصول إلى هذه الأماكن للاقتراب منها تكوين[illegible] وتاريخا ، وحضارة

وفي طريقنا إلى الفندق ، كان يشدنا صوت شجي بكلمات ممزوجة بشجن آسر منساب من مذي[illegible] السيارة .

«يا أرض اللبان اشربي من دموع السحايب
ذكّريني بأهلي بعد ذكرى الحبايب
تَحْلىَ سفوحك يا أحقاف
شواطيءِ فيك وأرياف
ظفار ربي سقاها ، والخير غطّى رباها
تاج الخليج المرصع ، يا عروس الجزيرة »

وجعلتني كلمات الأغنية أتشوق إلى معرفة بداية اكتشاف تلك المنطقة التي تحدث عنها كثير من الرحالة ، ومن جنسيات مختلفة : ماركو بولو الرحالة الشهير ، ابن بطوطة الرحالة العربي العظيم ، ووصفها « ويندل فليبس » « بأنها جنة المناظر الخضراء »

أما « برترام توماس » فقد وصفها في كتابه « البلاد السعيدة » بقوله : « إذا كانت هناك منطقة في شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية ـ البلاد السعيدة ـ إذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية ، فهي بحق المنطقة التي تسمى « ظفار » التى تشكل في مجموعها خميلة من الغابات الخضراء » ، ثم قال : « في هذه البلاد ـ كما جاء في سفر التكوين ـ حدّد الرب العالَم ذاكرا أنها تبدأ من جبل سفار (أى ظفار) ، وإلى هذه البلاد جاء المصريون القدماء ، بحثا عن اللبان ، ليستعملوه في تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمدة النبي سليمان مدفونة في مكان ما بهذه المنطقة ، هذا إذا لم تكن ظفار هي نفس الجنة التى ورد ذكرها في التوراة » .

عندما وصلنا صلالة في شهر أغسطس كانت درجة الحرارة ٢٤ درجة مئوية ، الضباب يغطي المدينة والجبال المحيطة بها ، نسبة الرطوبة مرتفعة الى

ما ، رذاذ خفيف يستقبلنا ، سألت مرافقنا :
. ينتهي موسم الأمطار ؟ فأجاب : لا ، تنقطع
مطار مع نهاية موسم الخريف ، في منتصف شهر
.. تمبر (أيلول) ، ثم أضاف : « لا تندهشا لكون
مصل الصيف عندكم ، وفي معظم الوطن العربي ،
هو فصل الخريف عندنا ، لأن الرياح الموسمية التى
تهب علينا من المحيط الهندى ، في أواسط شهر يونيو
(حزيران) إلى أواسط شهر سبتمبر (أيلول) ،
سبب سقوط الأمطار التي يستمر هطولها حتى
منتصف سبتمبر ، كما يتكون الضباب الكثيف الذي
تشاهدونه اليوم ، وتحتجب الشمس في معظم أيام
هذه الفترة ، لذلك نسميه الخريف »

ووصلنا الى الفندق ، واسترحنا قليلا ، ثم ألقينا نظرة على الشاطىء برماله البيضاء الناعمة ، ثم بدأنا جولتنا في الجبال على جانبي الطريق ، مزارع صلالة المشهورة بأشجار النارجيل السامقة (جوز الهند) التى تتخللها أشجار الموز المثقلة بثمارها ، والخضراوات ، وأشجار (الفافاى) .

وخرجنا من دائرة المدينة إلى الجبال ، وكانت السيارة تصعد المرتفعات ، والأشجار والخضرة النضرة الرائعة الجمال تنبسط على المرتفعات والأودية ، كأن الأرض قد فرشت بسندس أخضر ، منظر خلاب أينما يمتد بك البصر ترى اللون الأخضر بدرجاته مندمجا مع ألوان ما يظهر من أرضية وصخور الجبال البنية بدرجاتها المختلفة ، والضباب تحركه الرياح فتظهر أجزاء من المرتفعات ثم تأتي طبقات منه لتخفيها عن النظر ، وتخفي معها الأودية ، ولا تبقى إلا درجات اللون الرمادي المحملة ببخار الماء الذى يتحول إلى رذاذ من المياه يغمر الطرق والنبات .

وواصلنا الصعود ، وأوقف السيارة قطيعٌ من الأبقار كان يعبر الطريق على مهل ، ويجبرنا على الانتظار ، ثم ذهبنا إلى قرية « حجيف اتين » في منطقة الجبل الأوسط الخصب التربة ، الكثيف الأشجار ، ومنها إلى مركز « قيرون حيرتي » ، طلبنا زيارة عين من العيون ، فيضيع الطريق من ..انتى لندخل الصحراء في الغرب ، وترتفع درجة الحرارة قليلا ، وتبرز الشمس ، وتصبح الألوان شديدة الوضوح ، ونعود مرة ثانية إلى الجنوب ، حيث مرتفعات « غيز » . العُمانيون وبعض الأسر الخليجية تنصب خيماتها على سفوح المرتفعات ، وفي الأودية ، ترتمي في حضن الطبيعة ، حيث الهدوء ، والصفاء ، ونقاء الهواء ووضوح الرؤية وتوقفنا عند وادى « غيز» فغمرنا الضباب ، وغمت الرؤية ، وغادرنا المكان الذي كنا نود الا نبرحه

شجون سياحية :

وظفار التى يقال إنها منطقة الأحقاف التى ورد ذكرها في القرآن الكريم ، مساحتها ثلث مساحة عُمان (١٢٠ ألف كيلو متر) وتقع في الجزء الجنوبي الغربي فى سلطنة عمان ، وتحدها من الشرق سهول عمان الوسطى ، ومن الغرب جمهورية اليمن الديمقراطية ، ومن الشمال المملكة العربية السعوديه (صحراء الربع الخالي) ، ومن الجنوب بحر العرب ، وقبالة ساحلها تقع جزر « كوريا موريا »

ويسودها مناخ معتدل طوال العام ، ولاتتعدى درجة الحرارة ٣٣ درجة مئوية في فصل الصيف . وبها إمكانات رائعة لصناعة السياحة الطبيعة الخلابة ، المناخ المعتدل ، الشواطىء الجميلة برمالها الناعمة النظيفة ، عيون ومنتزهات رائعة (عين أرزات ، عين حمران ، عين حرزيز ، عين صحفوت) ، طرق حديثة سهلت الحركة ، آثار قديمة مثل آثار مدينة (البليد) ، وميناء (سمهرم) الذى اشتهر بتصدير اللبان عند (خور روري)
وبها كذلك قبور الأنبياء هود ، وأيوب وصالح .

وشاهدنا في الفندق ، والجبل ، وشوارع مدينة صلالة عددا من الأسر الخليجية التى جاءت للسياحة ، ولكنها ماتزال أسرا محدودة ، ولم تدخل إلا العام الماضي ، بعدما ألغيت تأشيرات الدخول عن أبناء مجلس التعاون لدول الخليج العربية

ولقد أثارت هذه الإمكانات الكثير من الشجون : لماذا يذهب العرب للسياحة في أوربا صيفا ، ولا يستمتعون بهذه الطبيعة ؟ ولماذا لا يستغل العُمانيون هذه المنطقة بتوفير متطلبات صناعة

السياحة لتجذب العرب إليها ؟ .

طرحت هذه التساؤلات ضمن استفساراتنا عن التنمية في « ظفار » أمام السيد مسلم بن علي البوسعيدي ، وزير الدولة ، ووالي ظفار ، عندما قابلناه في مكتبه ، فقال : « إن السياحة في المنطقة الجنوبية تمثل موضوع الساعة ، من حيث تطويرها واستيعابها في الاقتصاد العُماني كقطاع اقتصادي جديد .

فلقد أدى إلغاء تأشيرات الدخول لمواطني دول مجلس التعاون إلى توافد الكثيرين من الأشقاء من تلك الأقطار للاستمتاع بالطبيعة الفريدة للمنطقة الجنوبية ، خلال موسم الخريف ، ولقد تم رصد ٨ آلاف أسرة دخلت خلال العام المنصرم ، لاعتدال الجو ، واكتساء الجبل والسهل - بفعل رذاذ الخريف - بغطاء سندسي ، لا يستطيع وصفه إلا من شاهده

ومع ازدياد موجات المد السياحي إلى المنطقة ، صار واجبا على كل الجهات المعنية تهيئة وتطوير السبل الكفيلة بتمكين السائح الأجنبي من الاستمتاع ، ليس بالمناظر الطبيعية فقط ، بل وبتراث هذا البلد العريق وثقافته أما الآن فتتوافر الفنادق الراقية ، والوحدات السكنية المفروشة ، الجاهزة لاستقبال سياحة الأفراد وسياحة العائلات ، كما تم إنشاء العديد من المطاعم السياحية ، والاستراحات الجبلية ، وتُخطط الجهات المعنية ، بوزارة التجارة والصناعة ، لانشاء المزيد من المتنجعات في الجبل والسهل ، وعلى الشواطيء الممتدة ، كما تتأهب مؤسسات القطاع الخاص الآن للاستثمار المكثف في قطاع السياحة المزدهر بالمنطقة ، وهناك مخططات لإنشاء المزيد من الحدائق والمتنزهات ، وتنظيم المهرجانات الشعبية والعروض الفنية والموسيقية ، ومعارض الحرف التقليدية ، وسباقات الجمال كل ذلك خلال الموسم السياحي »

وأضاف : « وعلينا أن ندرس كل شيء قبل الإقدام على مامن شأنه تطوير هذا القطاع الحيوي ، ذي الكفاءة العالية في تنمية الدخل ، لكنه مثلما تعلم قطاع حساس »

● فلاح عُماني يهيء مياه الفلج لري أرضه

جولة في صلالة :

في الطريق إلى قلب مدينة « صلالة » ، قرأنا لوحة أمام منطقة مسورة تحمل اسم « البليد » ، سألنا دليلنا عنها ، قال : « إن هذا السور يحيط بالآثار الباقية من مدينة « ظفار » التي كانت قائمة في العصور الوسطى في محيط مدينة « صلالة الحديثة » ، وكانت البليد - نطق جبّالي لكلمة البلد العربية - أحد موانيء تصدير اللبان ، والمنطقة الجنوبية أخذت اسمها « ظفار » من هذه المدينة القديمة » .

ودخلنا سوق « الحصن » ، أحد أسواق المدينة الأربعة : محلات تبيع العطور التي تشتهر بها ظفار ، ويقبل على شرائها أبناء الخليج ، لرائحتها النفاذة المركزة التي تذكرنا بعالم ألف ليلة وليلة ، ومحلات لبيع البخور واللبان .

وهذه محلات لبيع الخضراوات والفواكه ، وهي من نتاج البيئة المحلية ، كجوز الهند ، والجوافة .

والدناى ، ثمرة شبيهة إلى حد ما بثمار المانجو ولكنها أكبر في الحجم .

في السوق صدمتنا ظاهرة سيطرة الهنود والباكستانيين على حركة البيع والشراء ، وغياب العنصر العُماني تماما ، إلا إذا كان مشتريا ، وهذه الظاهرة نفسها صدمتنا في جميع أسواق العاصمة مسقط ، وسألنا : لماذا يتعالى التاجر ، مالك المحل ، عن ممارسة دوره الذى اشتهرت به عُمان طوال تاريخها الطويل ، كموقع يتوسط طرق التجارة ؟ وهل تَفَجّر النفط من باطن الأرض يدفع المواطنين إلى الاعتماد على العمالة الأجنبية في كل الأعمال بما فيها تجارة التجزئة ؟ ونعرف أن المسئولين قد فطنوا لهذه الظاهرة . قال الأخ محمد بن سالم المرهون ، مدير وكالة أنباء عُمان بالوكالة : « لقد كان العام الماضى عام الحرفيين ، حيث رصدت جوائز للحرفيين الذين لا يستعينون بعمالة وافدة » ، ولكن ظاهرة تكاثر العمالة الوافدة ماتزال في حاجة إلى علاج حاسم .

في أحد الشوارع شاهدنا جمعا من الرجال والنساء ، قال سائق السيارة : هناك حفل زواج الليلة ، فأثار فضولنا ، وتوقفنا لنتفرج ، الرجال يرتدون ملابسهم البيضاء ، وبعضهم يلبس (البشت) ، والجميع يتمنطقون بأحزمتهم التي تتدلى منها الخناجر ، وفي أيدي بعضهم البنادق أو السيوف ، فعلقت : هل هذا استعراض للقوة أمام أهل العروس ؟ فضحك الحاضرون ، وقال السائق : إنه تكريم لأهل العروس ، الجميع يتحركون بإيقاع راقص على أنغام الموسيقا ذات الإيقاع الخاص ، وينشدون أهازيج يرددها الجميع ، يتحركون على هيئة صفوف ، في الصف الأول يحيط بالعريس أهله ، وأصدقاؤه . قال السائق : إن هذه الرقصة اسمها « الهبوت » ، وتقدم زميلي المصور ليلتقط لهم بعض الصور ، فدعانا صديق العريس لحضور عقد القران الذي لا تختلف إجراءاته عما هو متبع في الأقطار العربية الأخرى .

وأثار العرس مناقشة كنا قد بدأناها مع مرافقينا في مسقط حول مشكلة المهور التى تمثل للشباب العُماني من الجنسين مشكلة حادة ، لأن زيادة وتنوع الأدوات والأنماط الاستهلاكية المصاحبة للطفرة النفطية ، دفعت بالمهور إلى التصاعد ، حتى وصلت في بعض المناطق ـ وبخاصة الجبل ، حيث مايزال للعلاقات القبلية آثارها ، وفي الشمال كذلك ـ إلى أربعة عشر ألفا من الريالات العُمانية (الريال العُماني يساوى ٢,٦ دولارين أمريكيين) ، هذا بالإضافة لإعداد المسكن الذي يتكفل به العريس ، وأدنى مهر ثلاثة آلاف ريال عُماني ، مما أعجز الشباب عن الإقبال على الزواج .

وهناك دعوة من المسئولين ـ على رأسهم السلطان ـ لتخفيض هذه الأرقام ، لتصبح ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة ريال عُماني في صلالة وفي مسقط ، وأكثر من ذلك في مناطق الداخل . قال مرافقنا : « إن تحديد المهر تحكمه عوامل كثيرة ، ولا يمكن أن يكون مُوحّدا » ، ولكن الجميع يدرك آثار هذه المشكلة التى لم تنته كما يقول الشباب .

ودعانا أهل العريس لحضور حفل المساء ، وكنا هناك في الموعد المحدد ، الحفل يقام في أرض فضاء بين البيوت ، المدعوون يجلسون على الأبسطة والحُصُر ، جلسنا بينهم نتطلع إلى الوجوه ، نتابع فقرات الحفل ، لا يختلف عن أي حفل في أي قطر عربي ، إلا في الرقصات التي يؤديها الشباب بالتوالى ، وفي أيديهم الخناجر ـ جزء من التراث ـ والمصحوبة بالغناء على العود . ولاحظنا أن الكثير من المدعوين يتفاهمون بلهجة صعبة على إدراكنا ، فأنصتنا لنفهم مفرداتها ، ضحك مرافقنا من محاولاتنا وقال : « إنها اللهجة الجبُالية » ، وهي لغة قديمة ، يقال : إنها لغة الحميريين ، وموطنهم اليمن ، وهذه اللهجة مستخدمة في المنطقة الجنوبية وحدها .

وفي صلالة ومدينة « طاقة » الواقعة على البحر شرقي « صلالة » لاحظنا وجود كثافة من العُمانيين ذوي البشرة الأفريقية السمراء ، فأطل علينا التاريخ ليذكرنا بالامبراطورية العُمانية في شرق أفريقيا ، وزنجبار (المملكة التى كانت) . □

من الحشرات المفترسة المهمة . الحشرة المسماة (أم علي) أو (أم عمر)

حشرات تأكل حشرات !

بقلم : الدكتور خالد رويشدي*

تشكل الحشرات ثلثي الكائنات الحيوانية الحية ، وهذه الكائنات تتكاثر بشكل خيالي ، لكن أعدادها مع ذلك تبقى ضمن ما يعرف بالتوازن الطبيعي للكائنات الحية ، إذ تهلك منها أعداد كبيرة ، وتأكل أعداداً من هذه الحشرات حشرات أخرى كما سنرى في هذا المقال

* [illegible]

. تشكل الحشرات أحد أكبر صفوف المملكة الحيوانية ، إذ تزيدأعدادها عن ثلثي الكائنات الحيوانية من أبقار وأسماك وطيور وديدان و يرها . وتعيش الحشرات في أماكن ومواطن مختلفة من العالم ، فهي تستطيع أن تعيش في أي مكان يتوافر به الغذاء ، لما لها من قابلية كبيرة على التكيف مع البيئات المختلفة ، فقد وجد أن لبعضها قابلية المعيشة في الثلوج ، وبعضها الآخر يعيش على أملاح خالصة أو على خل وحده . والأغرب من ذلك ما وجد في ولاية كاليفورنيا الأمريكية ، وهو أن بعض الحشرات تعيش على النفط فقط .

وبسبب هذا الانتشار الواسع للحشرات وقدرتها الفائقة على التأقلم مع مختلف البيئات ، فقد لازمت الانسان منذ أن وجد ، فأثرت وتأثرت بوجوده . ومن هنا نرى أن الحشرات تعد إحدى المكونات المهمة لبيئة الانسان . ويختلف تأثير الحشرات على الانسان بحسب مجاميعها ، فالعديد منها يهاجم صرعه وزرعه ، ويحدث الكثير من الأضرار والخسائر ، إلى حد أنه يحرمه من جزء مهم من قوته ، بل يقضي عليه تماما في بعض الأحيان . فكلنا يسمع بغزوات الجراد الصحراوي للمنطقة العربية وما تحدثه من ويلات للمزروعات التي تمر بها . ولا يخفى على أحد الأضرار الأخرى التي تسببها الحشرات ، فعديد منها ينقل المسببات المرضية . ومن أشهر الأمثلة على ذلك حشرات البعوض الناقلة لأمراض الملاريا ، وذبابة التسي تسي الناقلة لمرض النوم ، وغير ذلك . ولا يقتصر نقل الحشرات على مسببات أمراض الانسان ، بل يتعداه إلى تلك التي تصيب الحيوانات الأليفة منها والبرية ، وكذلك التي تصيب النباتات . ناهيك عن الازعاج المباشر للحشرات .

الكائنات والتوازن الطبيعي

وتمتاز الحشرات بقدرة فائقة على التكاثر بأعداد كبيرة جدا ، فلو تهيأت الظروف الملائمة لتزاوج ذكر وأنثى من الذباب المنزلي Musca في بداية شهر نيسان (أبريل) ، وأمكن لنتاج هذا التزاوج أن يحيا بأكمله إلى شهر آب (أغسطس) ، لأصبح عدد الذباب خلال هذه الفترة (١,٩١ × ١٠^١٩) فردا ، وهذه الأعداد تكفي لتغطية سطح الأرض بارتفاع ٤٧ قدما . ويمكن لأنثى واحدة من حشرات المن (Aphidae)أن تنتج عدة آلاف من الحشرات في مدة شهر واحد ، وعدة ملايين في شهرين ، وعدة مليارات في ثلاثة أشهر .

ولكن لم يحدث أن وصلت أعداد إحدى الحشرات إلى هذا العدد ، بسبب وجود عوامل طبيعية تحول دون ذلك ، أي أن هناك ما نسميه بالتوازن الطبيعي للكائنات الحية ، ويعد العالم الانكليزي تشارلز دارون من أوائل الذين أشاروا إلى حدوث هذه الظاهرة في كتابه (أصل الأنواع) ، حيث يقول : إن لكل كائن حي قدرة على إنتاج نسل بأعداد كبيرة يمكن أن تغطي سطح الأرض ، إذا لم تعقه عقبات تحول دون ذلك .

ترى ما الأسلحة التي تستخدمها الطبيعة للحد من تكاثر الحشرات ومنع زيادة أعدادها إلى هذه الحدود المخيفة ؟ هنا لابد من النزول إلى أرض الواقع ، والتأمل والتحليل الدقيقين . هناك أولا العوامل البيئية الفيزياتية : من حرارة ورطوبة ورياح و غيرها ، فمن المعروف أن أعدادا كبيرة جدا من الحشرات تهلك خلال فصل الشتاء بسبب درجات الحرارة المنخفضة ، كما أن موجة من الحرارة العالية صيفا يمكن أن تؤدي إلى موت أعداد كبيرة من حشرات المن وغيرها ، وكذلك الحال بالنسبة للرياح القوية والأمطار وغيرها . لكن هل تقتصر أسلحة الطبيعة على ذلك ؟ كلا ، هناك سلاح آخر قوي وفعال ، إنه مجموعة الكائنات الحية التي تهاجم الحشرات وتتغذى عليها ، وهنا نجد (لكل كائن حي أعداؤه) ، ولربما هذا ماعبر عنه الشاعر العربي عندما قال :

ولِكُلِّ شيءٍ آفةٌ مِنْ جِنْسِهِ
حتى الحديدُ سَطَا عليهِ المِبْرَدُ

فالانسان مثلا يتعرض لمهاجمة عديد من المسببات المرضية ، والحيوانات الشرسة ، بالاضافة لعدوانية

مصائد لاصقة في تجمع حشرات المن حيث تسقط حشرات المن وتلتصق بالورقات (الصورة العليا) [illegible]
حدة

حشرة فرس النبي تتغذى
على احدى الحشرات الضارة

مهاجمة حشرات من شجرية لاحدى نبتات ضارة

أخيه الانسان . والحشرات كائنات حية تهاجمها عديد من الكائنات الحية الأخرى . ومن المسببات المرضية البكتريا ، والفطريات ، والفيروسات ، ووحيدات الخلية ، وغيرها ، ومن الحيوانات العديدة التي تهاجم الحشرات وتتغذى عليها القطط والطيور والزواحف والأسماك والضفادع والخفافيش وغيرها . والحقيقة أن من أشد أعداء الانسان هو الانسان نفسه ، ومن أهم أعداء الحشرات هي الحشرات نفسها . والحشرات التي تتغذى على الحشرات الضارة نسميها الحشرات المفيدة ، التي تقصر غذاءها غالبا على الحشرات ، ولا تحدث أضرارا للنباتات ، وتلعب بذلك دورا مهما في التوازن « البيولوجي » للحشرات الضارة . ولو دققنا النظر جيدا في مستعمرات حشرات المن ، وبخاصة في الربيع ، لوجدنا بينها حشرات أخرى تتغذى عليها ، ومن أشهر تلك الحشرات المفيدة الحشرة التي يطلق عليها اسم (أم علي) أو (أم عمر) أو (أم العبد) ذات اللون الأحمر الزاهي مع بعض البقع السوداء ، التي يمكن لكل واحدة منها أن تلتهم عشرات من حشرات المن وغيرها . ويلفت انتباهنا أيضا ما نسميه حشرات « أسد المن » Chryso-pidae ، ذات اللون الأخضر والعيون الذهبية اللامعة التي تضع بيضها غالبا قرب مستعمرات المن والحشرات القشرية وغيرها ، ويمتاز بيضها باللون الأخضر ، وبوجوده على طرف خيوط حريرية . وهذا البيض يفقس عن يرقات ذات قدرة فائقة على اصطياد الحشرات الضارة ، فهي مسلحة بفكوك قوية حادة قادرة على اختراق جسم الفريسة مهما كان صلبا بما تفرزه من مواد كيماوية تذيب جدار جسم الفريسة ، وتقطع ما قد يحيط بها من أنسجة حريرية ، كما تساعد في تخديرها ومنعها من الحركة ، مما يسهل السيطرة عليها .

فرس النبي والحوريات

ومن المناظر الممتعة جدا في الطبيعة أن نراقب ما نسميه حشرة (فرس النبي) Mantidae التي تفترس الحشرات الأخرى ، وهي تمتاز بأرجلها الأمامية الطويلة المتحورة للقنص ، وبرأسها القادر على الحركة في كل الاتجاهات ، وقد تقف هذه الحشرة عدة ساعات دون حراك بانتظار فريسة ، فاذا ما عبرت انقضت عليها وأمسكتها بأرجلها الأمامية . ثم تبدأ بالتهامها رويدا رويدا . ولمعرفة شراسة هذه الحشرة المفترسة يكفي ملاحظة ما يقع تحتها من بقايا الحشرات المصطادة كالأرجل والأجنحة وغيرها

ومن خلال تجوالنا على جوانب السواقي يمكن ملاحظة حشرات ذات ألوان جميلة زاهية تسمى الرعاشات OdOnata ، وهي تلاحق حشرات الذباب والبعوض وغيرها لتصطادها وتتغذى عليها ، وتساعدها على ذلك عيونها المتطورة جدا . وما تمتاز به من حقل واسع للرؤية . وتعيش صغارها (الحوريات) داخل المياه ، حيث تتغذى على يرقات البعوض وغيرها . ومن منا لا يلاحظ في البراري تلك المصائد المعروفة التي تهيئها يرقات الحشرات المسماة أسد النمل Myrmeleonidae ، حيث تعيش اليرقة في التربة أسفل حفرة على شكل قمع مكون من التراب الناعم ، وهكذا اذا ما اعترضت هذه المصيدة طريق نملة فان الأخيرة تقع ضمن القمع ، حيث تنتظر اليرقة المفترسة التي تتلقاها بمخارزها القوية الحادة ثم تمتص محتويات جسمها . ولنراقب الدبابير العادية ، فهي على الرغم من مهاجمتها للانسان وللثمار الناضجة فإنها تهاجم عديداً من الحشرات الضارة ، وتصطاد حشرات الذباب خلال طيرانها ، ثم تأخذها إلى عشها ، بعد أن تخدرها بإفرازاتها ، وبيضع ضربات بالفكوك تقطع رأس الفريسة وأرجلها وأجنحتها وبطونها ، و لاتحتفظ إلا بالصدر الغني بالعضلات الذي تقدم منه غذاء لصغارها .

الحشرات المفيدة التي تحدثنا عنها والتي تسمى الحشرات المفترسة Predators تتغذى على الحشرات الضارة مباشرة ، لكن ثمة مجموعة أخرى من الحشرات المفيدة تسمى الحشرات الطفيلية Parasites وهي تهاجم الحشرات الضارة بوضع بيضها على أجسامها أو بجوارها ، ويفقس بيضها عن يرقات

. . ـان) تتغذى على محتويات جسم العائل ، مما
يؤ. ـ موته في النهاية . وتمتاز الحشرات المتطفلة
بقـ فائقة على اكتشاف مكان وجود الحشرة
العـ ـ ، لما تحمله من زوائد حسية على الرأس
، قرو ـ الاستشعار) ، فهي تكتشف بيض الحشرات
ـ ة جدا ، وتضع بيضها في داخله ، مما يؤدي
ـ موت بيض العائل ، ونمو المتطفل على حساب
محتوياتها وتستطيع الطفيليات أن تحدد بدقة فائقة
مكان وجود يرقات الحشرات الضارة داخل الثمار أو
ـ حل الفروع النباتية ، والوصول إليها باستخدام ما
ـ آلة وضع البيض ، وهذه (الآلة) قاسية
حـ ، وحادة في طرفها ، بحيث تستطيع اختراق
طبقات الخشب بسهولة لتصل إلى أعماقها حيث
توجد يرقات العائل . ولو عدنا إلى مستعمرات المن
لوجدنا عديدا منها قد بدا بشكل متنفخ ، وبلون
نحاسي دون حراك ، وهذه الأفراد نسميها الموميات
Mummies ، وهي تضم الطفيل بداخلها ، وهو
الذي قد قتلها وجعلها بالشكل واللون المميزين لها .
ولو وضعنا ورقة نباتية تحمل عديداً من هذه الموميات
ضمن أنبوب زجاجي وأغلق بقطعة من القطن ،
للاحظنا بعد عدة أيام خروج حشرات صغيرة جدا
ذات لون مسود غالبا ، وهذه هي الحشرات
المتطفلة ، وستذهب لتبحث عن حشرات المن
وتتطفل عليها ، وهكذا . ولدى تجولنا في حقول
الملفوف ـ مثلا ـ يلفت نظرنا وجود عديد من الديدان
الصغيرة المعلقة بيرقات (أبو دقيق الملفوف) Pierris
التي تتهم بشراهة أوراق هذا النبات ، وهذه اليرقات
الصغيرة طفيليات أتمت حياتها داخل جسم العائل ،
والتهمت محتوياته ، ثم تخرج منه لتتحول إلى طور
العذراء في شرانق بيضاء أو صفراء ، ثم تصبح
حشرات كاملة تبحث عن يرقات آفة الملفوف .

المكافحة البيولوجية

تنتشر الحشرات المفيدة في كل الأوساط الزراعية والحراجية والبرية ، وتقوم بدور فعال في الحد من انتشار الآفات الزراعية الضارة . وقد حاول الانسان تفهم طبيعة حياة هذه الكائنات المفيدة وأقلمتها وإكثارها في المختبرات ، ودراسة احتياجاتها البيئية والغذائية ، ومن ثم زيادة أعدادها في الطبيعة ، وهو ما نسميه المكافحة البيولوجية وهو السائد في كثير من بلدان العالم . لكن من المؤسف أن نشير إلى أن تدخل الانسان قد أساء كثيرا إلى دور هذه « الخامات الثمينة » ، وخاصة بما يستخدمه من سموم ومواد كيماوية لمكافحة الحشرات (المبيدات Pesticids) ، فهذه المواد إضافة إلى تأثيراتها على البيئة والانسان والحيوان والنبات ، فإنها تؤدي إلى هلاك الحشرات المفيدة ، وخاصة أنها أكثر حساسية لهذه السموم من الحشرات الضارة ، نظرا لرهافة أجسامها ، وعلى ذلك يخطيء كل من يعتقد أن كثرة استخدام المبيدات الزراعية يفيد في مكافحة الآفات ، بل إنه يزيد أعدادها بتحريض المناعة لديها من جهة ، وقتل أعدائها من جهة أخرى ، ناهيك عن التكاليف الباهظة لمثل هذه الكيماويات ، وما أحدثته من نكبات صحية . □

عجائب الحب :

ـ ـ جورج صاند : اعطاني الأول عقدا من اللؤلؤ يعدل مدينة
ـ معابدها ، وعبيدها ، وقصورها .
ـ الثاني من اجلي ديوانا من الشعر قال فيه : ان شعري اشد سوادا
ـ . . . وأن عيني اصفى من زرقة السماء . . . اما انت . . يامن
ـ . فلم تعطني شيئا . . . ولم تقل لي شيئا . . ولست جميلا . .
ـ ت الذي احبك .
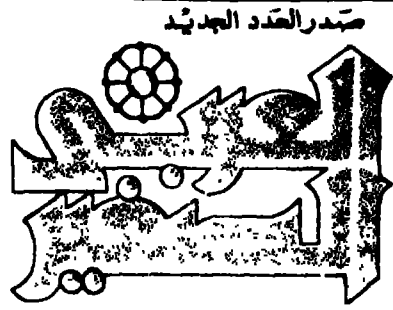
صدر العدد الجديد
العربي الصغير
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
يناير
١٩٨٩
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
في هذا العدد
الكويت في حلتها الخضراء.
مسلسل "همام في عيد ميلاده".
دعوة مفتوحة لزيارة "باريس".
المسلسل التاريخي "هدى شعراوي".
"الفراولة" من أساطير الهنود الحمر.
استطلاع عن مهرجان راية السلام.
إضافة للأبواب الثابتة
اسلاميات
كمبيوتر
٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
دائرة معارف العربي الصغير
نتيجة مسابقة العدد ٣٤

البيت العربي

■ حتى لا تتمزق صورة العرس !

■ طفل بلا شهية.

حتى لا تتمزق صورة العروس

بقلم : نجوى قلعجي

إن كان الزواج هو الختام المنطقي لأي قصة حب ، فإنه في الوقت نفسه لحظة الحقيقة ، فكثيرا مايكتشف الزوجان أن علاقتهما كانت قائمة على كثير من الخيال وقليل من الحقيقة ، مما يؤدي في كثير من الأحيان الى فشل الحياة الزوجية .

ذات يوم شتوى لمح الكاتب الفرنسي الكبير ستاندال ، في حديقة سالزبورغ ، غصنا غطته الثلوج ، فبدا مثل ثريا من البلور ، ثم مر في يوم مشمس فرآه أجرد يابسا ، فاتقد خيال الروائي الكبير مؤلف «الأسود والأحمر» ، فشبه الحب بهذا الغصن قائلا «إن عين الحب تحمل الحبيب كما يحمل الثلج هذا الغصن»

ومن هذا التشبيه ننطلق لننظر في مسألة الشحوب الذي يصيب العلاقة الزوجية ويهددها بالانهيار أو بالكدر . فللخيال كما يبدو أثر كبير في تكوين الحقيقة ، وفي طمسها أيضا ففي بدء الحياة الزوجية يضفي الخيال على الآخر أو على الزواج توهجا بلوريا ، يشحب تدريجيا مع الأيام ، ليظهر الآخر كما هو مجردا من كل تزويق ، وليظهر أن الحياة الزوجية مثقلة بالمسئوليات ، وليست شهر عسل طويل ، وسفرا على هالة قوس قزح وتحت وهج الأحلام الوردية يتغاضى في البدء الشريكان . ويتسامحان ، ويغفر كل منهما عثرات صاحبه وأخطاءه ، وبعد حين يبدأ كل واحد منهما بمحاسبة الشريك على أقل هفوة ، وربما - بل غالبا - على نظرة لايقصد بها التجريح ، وعلى حركة عفوية يستنتج منها لامبالاة أو تحقيرا . فأين يكمن الخطأ ؟

نادرة كل امرأة

لعل ذلك نابع من الانجراف مع الأحلام ، وعدم تقدير مسئوليات الحياة الزوجية ، وعدم رؤية الآخر كما هو ، دون تنميق وتزويق خيالي ، وعدم قبوله ومحبته كما هو ، دون زيادة أو نقصان ، ويعد ترك الأمور الحياتية للمزاج خطأ كبيرا ، يعقد المشاكل ، ولايحلها ، ويبهت الحياة ولايلونها . ويحول أغنية الفرح الى مجرد طنين . والذي يحدث

.. أن لدى كثير من المتزوجين الجدد أحلاما
.. صورات تبالغ في محاسن الآخر وقدراته ، كما
.. يحملون توقعات عن الحياة الزوجية غالبا ما يكون
.. الآخر عاجزا عن تحقيقها لكونها خيالية ومن عالم
.. النوادر نقتطف هذه الكلمة الطريفة التي تعبر بشكل
« كاريكاتيري » عن هذا الوضع : ، تقول
النادرة : « كل امرأة تعرف رجلا أكثر ذكاء من
اينشتاين ، وأكثر جاذبية من كلارك جيبل ، وأكثر
لباقة من برنارد شو ، وأغنى من أوناسس ،
وروجها يعرف هذا الرجل لأنها تحدثه عنه دائما ،
فهو الرجل الذي خطبها قبله » ولكن الأمر ليس
على هذه الصورة « الكاريكاتيرية » على الرغم من
أنه أحيانا لايبتعد عنها كثيرا بل يزيد لكن ..
يصح قوله ان ثمة مبالغات في توقعات الحياة
الزوجية التي لايصيبها الكدر إلا لأن توقعاتها كانت
مبالغات خيالية ، بعيدة عن حاجات الحياة
الواقعية ، وعن معنى الألفة السليم .

فماذا نقول ، وهل من علاج إلا وقاية أولية حسبما اجتهد ، فإن على الانسان ان لايرتفع كثيرا في خياله ، حتى لايهبط بأجنحة متكسرة ، لأن مشكلة الخجل في العلاقة الزوجية تبدأ دون وعي منذ أول يوم ، وذلك عندما يتغاضى أحدهما أو كلاهما عن زلات الآخر ، ويظل يتعامل مع صورته الوهمية ، فيكتم غيظه أو غضبه أو اشمئزازه ، إلى .. يأتي يوم لايتأخر كثيرا فيذوب فيه الثلج البلوري .. غصن « سالزبورغ » ، لرفض الشريك أ.. .. يتعامل مع شريكه كما هو . وليعلن خيبة أمله ، ليحاسبه على أنفاسه كما يقال فهل خيّب الآخر .. حقا ؟

.. صورة وهمية

الواقع أنه لم يره أصلا كما هو ، ولم يعرفه بصفاته .. واقه وآرائه كما هو ، بل تعامل مع صورة

وهمية ، صنعها حبه ولهفته للحياة الجديدة ، فهل ثمة طريقة للحفاظ على صورة العرس دون تمزيق لإطار جميل دافىء ؟ لعل الأمر لايحتاج الى كثير من النقاش ، بل الى قليل من المحبة واللباقة ، فالحياة الزوجية تحتاج الى الثقة لا الى الأحلام ، فلم لايتصارح الزوجان منذ البداية بما يرضي كلا منهما ، حتى لاتتراكم أسباب النفور فتصبح سدا يصعب تجاوزه ؟

وهذا لايعني الفجاجة والنقد الجارح ، فبوسع الشريكين أن يعبرا عن تذمرهما دون مس كرامة الآخر وجرح كبريائه ، كأن يقول أحدهما للآخر : « إن زوج صديقتي أفضل منك ، يأخذها كل مساء الى نزهة » ، « أنت لاتفهمني » ، « أنت مقصرة في ترتيب المنزل » ، « ليتك تكونين نظيفة كأمي » ، « لاتبدين جميلة في هذا الثوب ، هيا بدلنه الخ » .

يكفي أن يقول أحدهما مايحب ويكره دون أن يبقى طلسما للآخر ، ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، فإن المعالجة الذكية السمحة لكل سوء تفاهم وازعاج تبعد شبح المناقشات العقيمة التي تنمو بشكل كبير في الحياة الزوجية ، فتحطم إطار الألفة ، وتحطم إطار صورة العرس ، حيث يقف العروسان متكاتفين معا ، ينظران الى الأفق بأمل . تقول المرأة غالبا : « لقد فعلت هذا بقصد ازعاجي » ، فيرد عليها : « بل انك تتكلمين هكذا وتريدين فتح شجار بقصد الانتقام مني وازعاجي لأنني لم أحضر ماطلبته بالأمس » .

الصراحة راحة

سوء التفاهم الذي ينفجر،المناقشات والمشاجرات العقيمة ، إعلان خيبة أمل ، التذمر في وجه الآخر والأهل والأصدقاء الذي يهدد إن لم يكن بانهيار الحياة الزوجية فبكدر دائم ، ليس الا نتيجة عدم رؤية الآخر كما هو ، وقبوله كما هو منذ البداية ، وعدم ادراك حقيقة معنى الحياة الزوجية ومسؤولياتها نتيجة لعدم الصراحة في الحوار المفيد منذ البداية . فهذه الصراحة التي تعرف أحدهما على

روميو وجوليت

وغالبا مايكون أحد الطرفين ضحية هجوم عدائي من شريك متضخم الخيال ، يحول الحبة الى قبة فيتصور محبوبته « جوليت » ، وهو « روميو » ، فيبادر الآخر الى رد فعل خاطىء ايضا ، فيطلب من الآخر مالا يستطيع أن يعطيه ، أو يحاسبه على مالم يفعله ، أو مالايقدر عليه ، فيشعر بخيبة امل ، وينطوي على نفسه ، ويزول كل جو حميم ولعل المحبة والتفاهم ، وإدراك المسؤوليات من أساسات العلاقة الزوجية . كما ان تضخيم المحاسن يقود الى تضخيم المساوىء ، وينقلب حلم السعادة الى كابوس مرارة لذا فانه يجب على كل زوج أن يبذل جهدا لاقامة لقاء عميق ، وهذا يستوجب نضوجا نفسيا وعاطفيا وعقليا . واذا ماكانت الجاذبية أو التوافق الجسدي والنفسي ضرورة ، فان الصداقة بين الزوجين هي وحدها القادرة على انماء الحياة الزوجية ، وانقاذ الحب والألفة من الرتابة والصعوبات اليومية . في البدء ، يكون الحب جميلا ، لكن الصعوبات تبرز في الحياة ، والأزواج الذين لم يبالغوا كثيرا في أحلامهم يمكنهم أن يقيموا حياة زوجية سوية ، فيها مشاكلها وخلافاتها ، لكنها المشاكل والخلافات العادية التي يمكن امتصاصها وعلاجها ، وجعلها وسيلة خبرة لتفادي مشاكل مشابهة أخرى قد تأتي بها الأيام .

الآخر ذوقا وفكرا وطبعا ، بالتعبير المجدي منذ البدايات ، حينما يكون الحب شمسا ، وكل كلمة ونظرة وحركة شمعة ، وليس عندما يصبح الحب غروبا ، وكل كلمة دمعة ، وينتقل الفكر من ظن الى ظن ، ومن توهم الى توهم ، فيكبر الشجار ، بحيث لايعود في اشجار جنة الحب الا الحطب ، ان اللوم والتقريع والنقد الجارح الذي يأتي بعد فترة شهر العسل حيث الموافقة والثناء والاطراء انما يدل على تهور وسلوك أحمق . ومن أهم الأخطاء الفادحة في الحياة الزوجية توجيه اللوم والتقريع الى الشريك ، وغالبا ماتكون الانتقادات مضخمة جدا ، وليس هناك أجمل من علاقة يشعر فيها احد الزوجين بأن الآخر محق في شكواه ويعترف له بخطئه ويعده بإصلاح الأمر بالحسنى .

* ...نا لن ندرك روعة الجمال في الطبيعة الا اذا كانت النفس قريبة من ...لتها ومرح الطفولة ولعبها وهذيانها . (مصطفى صادق الرافعي)
* ...ن عظائم الأمور تتطلب إما الصمت والسكون ، أو التحدث عنها ...اء ونقاوة وبراءة . (نيتشة)

جلد الطفل في شهوره الأولى

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

عندما يولد الطفل يواجه عالما غريبا عليه ، فهو خلال تسعة أشهر قضاها في بطن أمه لم يتعرض للأضواء أو تقلبات الطقس وعليه أن يواجه ظروفا لم يألفها ، وأحداثا لم يعرفها ، وعلى جسمه الصغير أن يتكيف مع هذه الظروف الجديدة . ولعل جلد الطفل هو أكثر أعضاء الطفل المولود تفاعلا مع ظروف البيئة الجديدة ، بل إن على جلد الطفل أن يواجه تحديا مستمرا خلال الشهور الأولى من عمره .

ينفرد الطفل البشرى بخاصية تميزه عن صغار بقية الحيوانات عند ولادتها ، فالطفل البشري يولد ضعيفا عاريا ، ينتظر من أبويه العناية الشديدة ، فبدون هذه العناية لايكتب له في الغالب أي حياة . والطفل البشري في الوقت نفسه يولد بأعضاء ناقصة في تطورها ، تتطور خلال الشهور والأعوام التالية لمولده . وهذا التطور ضروري وحيوي لملاءمة الحياة التي تختلف - دون شك - عن الحياة في بطن الأم ، والجلد أحد هذه الأعضاء التي تتغير على مدى الأيام التالية للولادة ، فالطبقة السطحية من جلد المولود تتقشر وتنسلخ عن الجسم ، لتبرز الطبقة الأكثر عمقا من الجلد ، لتحتل مكانها على السطح ، وهذه الطبقة ناعمة ، وهذا ما يميز جلد المولود ، وعلى مدار السنة الأولى أو السنتين الأوليين من عمر الطفل يظل جلده ناعما رقيقا ، ثم يزداد سمكا وخشونة بعد ذلك مع النمو .

هذا الانسلاخ الذى يحدث لجلد المولود في الأيام الأولى من عمره عملية حيوية ، لأنه يتيح للطبقة

..ن تحتل سطح الجلد ، وهي قادرة على التكيف
.. نمو السريع الذي يصادف الطفل في عاميه
.. سين .

وإذا نظرنا إلى طفل قد ولد تواً في حجرة الولادة ..ا سنلاحظ أن جلده يكاد يكون شاحبا ، يميل قليلا إلى زرقة خفيفة خاصة لحظة ولادته ، ويرجع ..لك إلى قلة كمية الدم والاكسجين التي تسري في ..وعية جلده الدموية ، وبعد لحظات قليلة مع بداية تنفسه تنفسا طبيعيا يبدأ جلده في اكتساب اللون ..لوردي الدافيء ، كما يلاحظ أن جسمه عند الولادة ..معطى بمادة لزجة بيضاء واقية ، هي خليط من خلايا جلدية منفصلة ، وإفراز دهني من غدد موجودة بجلده .

والآن قد أصبح المولود كائنا حيا يصرخ ويتحرك أمام أبويه ، وهما يتطلعان إليه بلهفة وشوق كشوق العائد من رحلة طويلة قضاها في ظلمات ثلاث ، ثم كان عليه أن ينهي رحلته بعنائه ليقول للجميع : إن ..لحياة جميلة ، تستحق كل هذا العناء وكل هذه ..لمعاناة

إن الشيء الذي قد يلفت الانتباه أن جلد المولود ليس ورديا كله ، وأن هناك بقعاً ملونة ، قد تظهر هنا وهناك ، وأن هذه البقع قد تثير الخوف لدى ..لأبوين ، وقد يدور في خلديهما سؤال حول هذه ..البقع وهل وجودها دليل مرض قد أصاب الصغير ؟

..حقيقة أن هذه البقع الملونة لاتظهر عند كل الأطفال ..حديثي الولادة ، لكن من الممكن أن تظهر أعراض ..أعراض جلدية لدى بعض الأطفال في الشهور الأولى أعمارهم ، مما يجعلنا نلقي بعض الأضواء على الموضوع الذي يهم الكثيرين ، والذي نعرف أنه .. في طياته بعضاً من قلق وبعضاً من حيرة .

بقع على جلد المولود

ينظر الأبوان بشيء من الخوف إلى طفلهما إذا ما بدا لهما أن هناك شيئاً غريبا يظهر على جلده ، وقد يصل بهما الخوف إلى الاسراع إلى أقرب طبيب لاستشارته . فما حقيقة هذه الأعراض ، أو فلنقل هذه البقع التي يمكن أن تصيب الصغير عقب ولادته مباشرة ؟

الحقيقة أن الولادة ليست عملية سهلة ، بل هي في حد ذاتها حدث له دلالاته ، ويعتقد بعض علماء النفس - فرويد في مقدمتهم - بأن لحظة الولادة نفسها التي يطلقون عليها « صدمة الولادة » هي الاساس النفسي لكل ما يصيب المرء بعد ذلك ، من خوف وقلق ، والمهم أن لحظة الولادة هذه قد تنتج عنها أعراض جسمية نتيجة بعض العنف - إذا جاز التعبير - والضغط الذي يتعرض له المولود أثناء الولادة يأخذ في أغلب الأحيان صور أعراض جلدية ، فجلد المولود الرقيق قد يتعرض للضغط والجذب مما قد يؤدي إلى تمزق بعض الشعيرات الدموية ، أو بروز جزء من الجلد ، أو تجمع بعض الخلايا معا ، مما يؤدي إلى ظهور بقع لونية . وفي كلمة قصيرة نتناول بعض هذه الأعراض بتفصيل أكثر :

١ - الأورام الدموية : وهي تجمعات دموية في شكل لطع أو بقع ، تختلف في حجمها ، وتظهر على الرقبة أو الرأس أو أعلى الأنف ، وهي بقع حمراء مسطحة أو مرتفعة قليلا فوق سطح الجلد ، وبعضها عميق يمتد إلى الداخل ، لكن معظمها لايسبب أي ضرر ، وقد يختفي في الشهور الأولى من عمر الطفل . بدون أي علاج ، فتدفق الدم يتوقف من الشعيرات الممزقة ، كما يتم امتصاص ما نزف منه دون أي تدخل طبي .

٢ ـ النمش والكلف : وهما يتشابهان مع ما يسمى « الشامة » ، وكلاهما عبارة عن تجمع خلوي ، يكتسب صبغة لونية ، تزداد عند التعرض للشمس ، وأكثر ذلك لا يحتاج إلى أي علاج ، ما عدا ما قد يستمر إلى ما بعد فترة الطفولة . ويكون الهدف من التدخل الطبي التجميل في المقام الأول .

٣ ـ البقع المنجولية : وهي بقع لونية تظهر أسفل الظهر ، ويميل لونها إلى الأزرق الرمادي ، وتظهر في مجموعات يتراوح عددها بين واحد وخمسة ، ومساحة الواحدة منها حوالي سنتميترين ، وتختفي غالبا مع الوقت ، ولاتحتاج إلى أي علاج أيضا .

٤ ـ بروز الجلد ، يحدث هذا البروز في جلد الجذع أو عند انثناءات الجلد تحت الابط مثلاً . ولايتسبب هذا البروز غالبا في حدوث أي ألم أو ضرر للطفل ، وإذا لم يزل تلقائيا فإنه قد يحتاج إلى ازالته جراحيا ، ويتم ذلك باستخدام التخدير الموضعي لمكان البروز ، ويتم ذلك عادة عندما يكبر الطفل ويشب عن الطوق

هذه الأعراض التي يمكن ملاحظتها على جلد المولود عقب ولادته أعراض مؤقتة ـ كما ذكرنا ـ يزول معظمها تلقائيا ، دون أي علاج ، بيد أن هناك ظواهر جلدية أخرى يمكن أن تتحول إلى أمراض حقيقية إذا لم تتسلمها يد الرعاية الصحيحة .

الطفح الجلدي لمؤخرة الطفل

يظهر هذا الطفح بين الشهر الثاني والخامس عشر من عمر الطفل ، وبه يصبح الجلد متهيجا محمرا ، ويكون [illegible] راحة الطفل ، وصراخه المستمر ، [illegible] إلى التهاب جلدي يستمر [illegible] وقتا طويلا

الطفح فهو ترك حفاظات الطفل المبللة مدة طويلة ملامسة للجلد دون تغيير ، مما يؤدي إلى تحلل البول ، فتظهر مادة النوشادر التي تعمل على تهييج جلد الطفل . كما يحدث هذا الطفح أيضا نتيجة ترك بقايا الصابون أو المنظفات الصناعية على الحفاظات أثناء غسلها . إن آثار الصابون أو المنظفات الصناعية المتبقية على الحفاظات يمكن أن تهيج جلد الطفل وتؤدي في نهاية الامر إلى ظهور الطفح .

إن العلاج بل الوقاية في المحافظة على النظافة والإسراع في تغيير حفاظات الطفل كلما ابتلت ، مع غسل المنطقة التي بين الفخذين وحول فتحة الشرج بالماء الفاتر ، ثم تجفيف الجلد بعد ذلك جيدا ، وقبل تغيير الحفاظات يجب وضع قليل من « البودرة » الملطفة على المنطقة المصابة بالطفح ، كما يمكن استخدام زيت اللوز أو زيت الزيتون لترطيب الجلد هذا وتقليل تهيجه .

وبصفة عامة إذا لم يصاحب هذا الطفح ارتفاع في درجة الحرارة فإن ذلك يعني أن شبح الالتهاب الجلدي ما يزال بمنأى عن الطفل ، وهذا هو الأمر الذي يجب على الأبوين فيه بذل المزيد من الجهد للتخلص من هذا الطفح وتجنب حدوثه .

كيف يصاب الطفل بالاكزيما ؟

إن « اكزيما » الأطفال الرضع من أكثر الأمراض الجلدية انتشارا في مرحلة الطفولة المبكرة ، تظهر أعراضها خلال الشهر الثاني من عمر الطفل ، لكنها نادرا ما تظهر بعد الشهر التاسع . وتلك الأعراض غير ثابتة في شدتها ، فتارة تأتي خفيفة ، وتارة أخرى تكون شديدة . وتستمر حتى تختفي تماما في نهاية الشهر الثامن عشر إلى نهاية السنتين تقريبا . وتختفي فجأة كما ظهرت فجأة . وقد تحير الأطباء في معرفة الأسباب الحقيقية لإصابة الاطفال الرضع بالاكزيما ، بيد أن هناك فروضا ترجع بعض الأسباب إلى تغذية الطفل نفسها .

فقد لوحظ أن حالات الإصابة بالاكزيما تزداد عندما تكثر الدهنيات أو البروتينات الحيوانية في غذاء الطفل ، سواء كان الطفل يتغذى طبيعيا من ثدي أمه أو بالرضاعة الصناعية ، بينما دأب بعض الأطباء على الربط بين حدوث الإصابة بالاكزيما وبين العوامل الوراثية التي يرثها الطفل عن أبويه أو عن أحدهما . إذن فهذه كلها مجرد فروض لاترقى إلى حد اليقين . وبعيدا عن أسباب حدوث المرض نتساءل عن أعراضه ، وكيف يمكن تجنبها ؟

وبداية نقول : إن الاكزيما مرض غير معد ، فلا خوف إذن من أن يتلامس الأطفال المصابون مع أطفال آخرين من نفس الأسرة . وأعراض الاكزيما عند الطفل تبدأ باحمرار الجلد ، وسرعان ما يتحول إلى بثور وحويصلات وقشور ، وعادة تبدأ هذه الأعراض في الوجه ، ثم تمتد إلى فروة الرأس وبقية الجسم والأطراف ، وعند ظهور الاكزيما يأخذ الطفل في حك جلده بشدة ، مما يحرمه من النوم وينهك قواه . وأعراض هذا المرض الجلدي قد تكون مصحوبة في الوقت نفسه بأعراض حساسية تصيب الجهاز التنفسي ، مما يجعل الطفل عرضة لضيق التنفس وهو ما يعرف « بالأزمة » .

ان الاكزيما وإن كانت تترك الأبوين فريسة للخوف إلا أنها ليست بالحالة الخطيرة أو التي تستدعي كل هذا الخوف ، فعلاجها يكمن أولا في العناية بجلد الطفل الرضيع ، والاهتمام المستمر بنظافته ، ثم يأتي بعد ذلك الإقلال من الدهنيات . وفي هذا المقام نود أن نقول : إن من المفضل إعطاء الطفل المواد النشوية كالبطاطس المهروسة ، والارز ، ابتداء من الشهر السادس من عمره ، وإقلال كمية الرضاعة . وقد قام بعض الأطباء بحقن الطفل تحت الجلد في المنطقة المصابة بلبن من ثدي الأم بمعدل مرتين أو ثلاث كل أسبوعين ، وقد أتت هذه الطريقة بنتائج إيجابية ، أما العلاج الدوائي فيقوم على إعطاء الطفل المصاب الأدوية المضادة للحساسية . □

●

شهادة ميلاد

لكل بقرة في سويسرا شهادة ميلاد ، وتسجل في دفاتر الحكومة كما يسجل الناس ، واذا حدث لها حادث تولت الحكومة التحقيق فيه . بالضبط كما يحدث في حالات الأفراد من أبناء آدم !

هو.. وهي

مشكلة بلا حل!

لا أدري كيف بدأت المشكلة. لكن ذلك سؤال ثانوي لا أهمية له. فهناك مشكلة، وكفى

قبل زواجنا بقليل كان زوجي يحدثني كثيرا عن نفسه. وعن حياته. وعن عائلته، وأصدقائه ولأنه كان - وما زال - محدثا بارعا فقد رسم لنفسه صورة فيها كثير من الإثارة عن حياته السابقة للزواج، وعن نشاطاته، واهتماماته. وعن أصدقائه، الحميمين الكثيرين الذين ما زال يحتفظ بعلاقات حميمة معهم

وعندما حدثني عن أصدقائه رسم لكل منهم صورة مثيرة للإعجاب. فهم مثقفون. أذكياء. ناجحون في أعمالهم. موضوعيون في أحكامهم. يستثمرون وقتهم استثمارا جيدا وهذا أمر لم أجد ما ينقصه. ولم أكتشف عكسه خلال الشهور الأولى من زواجنا. لكن الاكتشاف الذي تحول إلى مشكلة جاء فيما بعد

فبعد أقل من سنة من زواجنا بدأ زوجي يتغيب عن المنزل فترات أطول من المعتاد. وكنت كلما حاولت معرفة المكان الذي يذهب إليه أثناء غيابه اكتشفت أنه يقضي معظم الوقت مع أصدقائه. وقد حاولت أن أتذكر إن كنت أسأت التصرف معه في شيء أو قصرت في بعض واجباتي ليتركني ويقضي وقته في صحبة أصدقائه. لكنه عندما يعود فإنه يعود دون أن تبدو عليه آثار غضب أو انزعاج. فتهدأ نفسي، وأشعر بالراحة

لكن عندما تكرر غيابه، وكثرت زياراته لأصدقائه، أصبح الغضب يستبد بي. وما كان يغيظني أكثر هو أنني كلما فاتحته بالمشكلة أبدى دهشة كبيرة، وتساءل عن أي مشكلة أتحدث، وعندما أخبره بأمر أصدقائه. والوقت الذي يقضيه معهم، يبادر إلى القول بأن تلك ليست مشكلة، ثم يبدأ محاولته في تحويل الأمر إلى مجرد طرفة كبيرة. وتتردد على لسانه عبارات فيها كثير من الظرف، لكنها لا تحل مشكلتي التي يزعم أنها ليست مشكلة. إنني أعترف أنني أفكر أحيانا بالأمر فأجده بسيطا، فزوجي لا يخونني، ولا يهملني، ولا يقصر في واجبات البيت، ويكرم معاملتي، ويحترم أهلي، ويمنحني حرية فعل ما يرضيني، ويخصص لي ولأبنائنا وقتا للخروج والزيارة والنزهة، لكنني مع ذلك كله لست راضية، وكثيرا ما أفكر بأن أهدده بأن عليه أن يختار بيني وبين أصدقائه، لكنني أخشى دائما أن يحول الأمر إلى طرفة، ثم تبقى المشكلة بلا حل

..هي

حل بلا مشكلة

● عجيب أمر النساء ، بعضهن مضطهدات ، وبعضهن مزعجات ، وأحريات رائعات ، وعبرهن طيبات وساذجات . لكنهن جميعا فيما يبدو لا ستغنين عن المشاكل ، لذا فإن بعضهن يخلقن المشاكل إن لم تكن موجودة ، وتلك هي حالة زوجتي التي أعدها من النساء الرائعات .

فأنا مثلا أعد نفسي رب عائلة جيدا ، وزوجا ناجحا ، وأبا مثاليا ، وحتى أقطع الطريق على أي ظن بأنني أبدي في نفسي رأيا متحيزا فإنني أبادر قائلا إن هذا هو رأي زوجتي أيضا ، بل ورأي أهلها كذلك فأين المشكلة إذن ؟

المشكلة هي عدم وجود مشكلة على الاطلاق ، فلدى زوجتي ـ سامحها الله ـ فكرة ليست صائبة صوابا تاما ، إذ أنها ترى أن الزواج نهاية مرحلة في الحياة وبداية مرحلة أخرى ، نهاية مرحلة كان فيها للشاب حياته واهتماماته وعمله وأصدقاؤه ، أما بعد الزواج فللشاب حياته الجديدة واهتماماته الجديدة ، وله عائلته . صحيح أن للأصدقاء نصيبا من اهتمامات الشاب الذي أصبح زوجا ، لكنه نصيب محدود بسيط ، لذا بدأت تفتعل المشاكل ، لأنني ما زلت على علاقة طيبة حميمة بأصدقائي في مرحلة ما قبل الزواج ، وحين أسألها إن كان اهتمامي بأصدقائي قد أثر على واجباتي الزوجية أو على حياتنا العائلية تصمت مغلوبة على أمرها ، فهي ليست من النوع الذي يجادل في الحق ، وحتى لا تتحول ـ زارا ـ هذه إلى جدل فانني أنهي المسألة بقولي مازحا إن الصداقة نوع من أنواع الحب ، إلا أن حب الرجل للمرأة « ينتهي » بالزواج ، أما الصداقة فهي خالدة لا تنتهي . وعند ذلك يعلو وجه زوجتي عبوس لا يزول إلا إذا وعدتها بوضع حد للمشكلة التي لا أعتقد أبدا أنها مشكلة . □

هو ..

طبيب الأسرة
قضايا منزلية

طفل بلا شهية

بقلم: الدكتور حسن فريد أبو غزالة

أمران يسعدان الأمهات لأنهن يتوهمن أنهما معيار الصحة والعافية، أولهما: أن ترى إحداهن طفلها مقبلا على التهام الطعام دون حدود. وثانيهما: أن ترى إحداهن طفلها بدينا سمينا يزيد وزنا وحجما عن أقرانه.

ربما كان الحديث عن السمنة لا يحتاج الى جدل يطول، أو نقاش يحتدم، حول أخطار البدانة، أو حول تأكيد أن الطفل البدين سيكون بعد سنين إنسانا بدينا، يعاني من قائمة أمراض، يتصدرها مرض السكر وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والمفاصل وغيرها.

أما الحديث عن الشهية فلابد أن نتناوله ببصيرة علمية، فالشهية ليست مرضا بقدر ما هي عرض يصاحب أمراضا عدة، منها الحميات والالتهابات التي تصاحبها غالبا أعراض وعلامات تهدي الطبيب الى التشخيص السليم، ثم الى العلاج الأنسب.

أما العلاج لفتح الشهية فأمر سطحي، لا يجوز في عرف الطبابة الحديثة. بعض الأمهات قد يتوهمن أن عدم إقبال أطفالهن على الطعام ظاهرة خطيرة، لا مفر من علاجها بما يقويها ويفتحها، وقد يجدن من يتجاوب معهن فيصف لأطفالهن المقويات والمشهيات وأشربة الفيتامينات.

وربما تلجأ بعض الأمهات الى إجبار الطفل بالتهديد تارة أو بالإغراء تارة أخرى لتناول مزيد من الطعام، وكأنهن يمارسن الرشوة المقنعة على الأطفال مما يغريهم بابتزاز عواطف الأم والأب عندما يلمحون الإلحاح المصحوب بالقلق والتوتر، فيطلبون أشياء لا حاجة لهم بها.

بعض الأمهات لديهن قناعة أن الطعام هو ما كان في مواعيده المحددة ، متغافلات أو متناسيات ما يتناوله الأطفال بين الوجبات من العصير والمياه الغازية والشوكلاته والآيس كريم مما لا يترك في المعدة فراغا ، ولا يعطي للشهية فرصة .

لهذا لا غرابة أن يعزف الأطفال عن تناول وجبات الطعام في مواعيدها المحددة ، مما تترجمه الأمهات على أنه فقدان للشهية .

يقدر أهل الاختصاص أن الطفل في شهوره الثلاثة الأولى يزداد وزنا بمعدل يتراوح بين ١٧٠ جراما ، و ٢٠٠ جرام في كل أسبوع وهو على هذا يكون ذا شهية مفتوحة ، يستوعب الطعام اللازم لهذه الزيادة المطردة .

غير أن هذه المعدلات في زيادة الوزن تتراجع فيما بعد تدريجيا ، حتى تصل الى حوالي ٧١ جراما في الأسبوع الواحد ، بين الشهر التاسع من العمر وتمام السنة الأولى منه ، وعلى هذا يكون طبيعيا أن تقل الحاجة الى الطعام ، وبالتالي تقل شهية الطفل دونما مرض أو علة ، لكن قناعة الأم التي لا تقوم على العلم سوف توحي لها بأن وراء تراجع شهية ابنها مرضا كامنا حتى لو لم تظهر له أعراض أو يشكو طفلها من علة .

ومن هنا تعود الأم الى التلويح بالعقاب تارة أو بالإغراء والترغيب تارة أخرى ، وهنا تتملك الطفل نوبة من عناد ، تدفعه الى الإقلاع عن الطعام ، وذلك لسببين :

أولهما : سلبية الأطفال التي يتميزون بها بين عمر تسعة شهور وثلاث سنوات ، إذ نجد الطفل لا مباليا سلبيا غير مستجيب .

ثانيهما : أنه إذا ارتبطت دعوة الطفل الى الطعام بتهديده بالعقاب فإن مواعيد الطعام ترتبط في ذهنه بتجربة غير سارة ، فيصبح الطفل شخصا كارها للطعام ، لا يطيق رؤيته ، فكيف يتناوله ! .

عندما يبدأ الطفل محاولاته لإطعام نفسه بنفسه دون اعتماد على أمه في العمر بين ٩ شهور و ١٨ شهرا يبدو كأنه يعبث بالطعام ويلهو ، وهذا ما قد يوحي للأم أنه غير جائع ، وأنه عديم الشهية ، فتبدأ حلقة جديدة من الصراع الذي يتأرجح بين التهديد والإغراء .

من الظلم أن يقارن طفل بآخر مادام الناس مختلفين طبعا وتركيبا ، ومن الواجب أن تتجنب الأم مقارنة هذا الطفل بذاك ، وإلا أصبح ذلك ظلما وعدوانا على طبائع البشر .

إن الطفل النحيف أكثر إقبالا على الطعام ، وأقوى شهية من الطفل البدين ، لهذا فإن المقياس العادل للشهية هو ملاحظة نشاط الطفل وحيويته فذلك يتناسب طرديا مع الشهية على الأغلب .

من المفيد أن تعلم الأمهات أن بعض العقاقير تثبط

الشهية ، مما يؤدي الى عزوف الطفل عن الطعام كما هو الحال مع العقاقير الكابحة للشهية وقد لوحظت هذه الظاهرة نفسها مع البنسلين وفيتاميني (م) و (د) . إن شعور الطفل بالاصطهاد ، وبالمعاملة غير العادلة بينه وبين إخوته ، وبانعدام الشعور بالأمن أمور تسبب معاناة نفسية ، تتجسد في صورة فقدان للشهية والأمهات اللواتي يبحثن عن العقاقير القوية الفاتحة للشهية المنشطة يبحثن عن سراب وسط صحراء ، وينفقن المال سدى ، ويضيعن الوقت دون طائل

على ضوء التجربة تبين أن غالبية الأمهات القلقات على شهية أطفالهن هن من الأمهات اللواتي رزقن بالأطفال بعد طول انتظار ، أو هن من اللواتي رزقن بطفل وحيد

ومن هنا تكون النصيحة أن يترك الطفل دون إجبار على تناول الطعام ، ودون إغراء بتناوله وإذا ما كان هناك مرض قد أدى الى فقدانه شهيته ، فعلاج المرض له الأولوية قبل علاج الشهية الضائعة □

ردود سريعة

● السيد علي حرب الشقيرات ـ الشوبك ـ الأردن

عرق النسا له أكثر من سبب ، ولا بد له من فحص دقيق واختبارات ، ولعل أفضل من تستشيره هو طبيب مختص في الأعصاب لاكتشاف السبب وعلاجه

● السيد بدوي أحمد محمد ـ سوهاج ـ جرجا ـ مصر

من الأفضل أن تستشير طبيبا مختصا في الأمراض الجلدية لفحص رأسك ، حتى يتبين السبب ويعالجه

● السيد ص ع . ج . ز . م ـ المغرب

لماذا لاتستشير اختصاصيا في التغذية بالإضافة إلى جراح تجميل ؟

● السيد م . ع . ف ـ خميس مشيط ـ السعودية

ما ذهبت إليه في رسالتك ليس صحيحا أبدا ، فالأمر مجرد فورة عابرة ، تهدأ عند اكتمال البلوغ ، فلا تقلق

● السيد هاني صيرفي ـ حلب ـ سوريا

تشققات اللسان قد تكون أمرا خلقيا أو قد تكون ظاهرة مرضية ، ولهذا لابد من فحص وكشف طبي لدى اختصاصي الأمراض الباطنية

● الأخت ر . م ر ـ ادلب ـ سوريا

رسالتك لا تحتوي على أي تفصيل يمكن به الاستدلال على طبيعة مشكلتك ، لكنها تبدو لأول وهلة مشكلة بسيطة ، لا خطر منها ، لكن حسم الأمر يكون باستشارة طبيب أمراض النساء المختص الذي يمكنه تشخيص المرض بعد الفحص الطبي والتحليلات أو الأشعة اللازمة .

● السيد ي . هـ . ـ مصر

لو كنت مكانك لاستشرت جراح تجميل مختص للفحص والنصيحة .

عزيزي القارىء : إننا نجد في بعض الأوقات حرجاً في نشر كل الأسئلة الموجهة « للباب » ، خصوصا الشخصية منها ، فالرجاء من الإخوة والأخوات كتابة الاسم والعنوان كاملين بوضوح ، حتى يتسنى لنا مخاطبتهم مباشرة والإجابة عن أسئلتهم .

مساحة ود!

نهاية وبداية

ها نحن في عام ١٩٨٩ ، في السنة الأخيرة من عقد الثمانينيات . هي مسألة عقد من السنين إذن ويلملم القرن العشرون نفسه ، ويسلم كشف حسابه للتاريخ ، ويمضي دون رجعة ، كما مرت من قبله القرون والسنون والأيام التي تشكل بمجموعها ذلك الشيء الغامض الساحر الذي يسمى الزمن .

في نهاية كل عام أستسلم لحالة من الحزن الوديع ، وأتساءل حول تلك الاحتفالات التي تقام في نهاية كل عام ، هل هي وداع للعام الذي مضى بكل ما فيه من مآس وويلات وانتصارات وانجازات وخيبات أمل ، أم هي احتفاء بالعام الجديد الذي سيكون له سجله الجديد ، وهو سجل لن يختلف كثيراً عن سجل العام الذي مضى وانقضى ، أم أن تلك الاحتفالات تعبير عصري عن حالات الخروج الجماعي للناس قديماً لرصد ظاهرة من ظواهر الطبيعة الكثيرة غير المرئية ، أم هي امتداد لطقس قديم ، ما زالت ذكراه تبث فينا سحراً جماعياً لا نستطيع رده ، ولا عدم المبالاة به ، ولا الاستسلام له ، فنخرج لنكون كمن خرج ليشهد على نفسه وعلى حياته وعلى حزنه وأمله وفرحه ؟. إن للبشرية سنيها التي تمضي دون رجعة ، ونحن أيضاً لنا كأفراد سنواتنا الخاصة التي تمضي بالألم والحزن وبالفرح والانتصار ، لكنها لا تبقينا هكذا مجردين من انتصاراتنا وأفراحنا وآلامنا . إنه السحر الكامن في فكرة الزمن ، وما السنة سوى تكثيف للزمن وللحياة ، وما الحياة الخاصة لكل فرد منا سوى إحدى المكونات الصغيرة للزمن الذي احتوانا بخلوده ، فحاولنا احتواءه بتقسيمه إلى قرون وسنين وشهور وأيام ، فمن الذي انتصر ؟ ومن احتوى من ؟

أسئلة لا إجابة عنها ، تضاف إلى تلك الأسئلة المتعلقة بالاحتفال الذي يقام في نهاية كل عام ، وهي أسئلة خالدة خلود الزمن ، منذ كان سنين وأشهراً وأياماً ، أسئلة لا تنقطع مع قدوم كل عام ، وسوف تظل تتكرر ، وستستمر الحياة ، وتستمر الأفراح والأحزان والهزائم والانتصارات التي تأخذ قيمتها من الزمن وبه ، وسوف تمضي السنون وتستمر الاحتفالات برأس السنة وغيرها ، فنحن أخيراً لا نملك إلا أن نكون شهوداً عليها . □

صلاح حزين

شعر :
عبدالرحمن الوزير*

الْمَدِينَةُ تَرْسُمُ تَأْرِيخَ وَجْهِي الآخر
ما غَابَ مِنْهُ ، وَمَا سيجيء
الْمَدِينَةُ وَجْهِي
وَقُبَّةُ نَجْوايَ

وَدَمْعَةُ أَزْمِنَةٍ تَتَلألأُ بِالبُؤْسِ والْعِشْقِ
سَالتْ قَدِيماً ، ولَمَّا تَقِفْ بَعْد
ظَلَّتْ تُقَاوِمُ عُمْرَ انكساراتها
ببهاءٍ مِنَ الْقَلْبِ

مِنْ أولِ الْنَزْفِ حتى حوافِّ الخُلودِ
الْمَدِينَةُ تُحْفَةُ فَنِّ الْعَذابِ الْفَرِيدِ
وَوَشْمُ الضلوعِ الأسيرةِ
ظَلَّتْ بوجهِ الحصاراتِ
تُشْرِعُ أبْوابَها وَنَوافِذَها كالمدى
وَتُقَهْقِهُ للرعبِ والْموتِ وَالْقُبْحِ
تَمْتَدُّ قَامَتُها الْعَربيةُ

وَعداً ، وحريةً ، وجمالاً
تَصُوغُ الْجُنونَ قَصائدَ
والانتظارَ نقوشاً ، مواويلَ ،
دوراً مُجَنحةً ، وَقَناديلَ ،
حُزناً ، نبيلاً يَلِيقُ بِسَاحاتِها
هذي الْمَدِينةُ طولَ المدى
لاتُبدِّلُ عَادَاتِها :

* شاعر و كاتب من القطر اليمني

ن مَطْلعِ فَجْرٍ تَفِيقُ
سِيرُ بِدأبٍ إلى ذاتِها
تقمَّصُ هَيئةَ شَيْخٍ جَليلٍ
رُ خِلالَ الأزِقَّةِ
طوي ظِلالَ مَنازِلها المطمئناتِ
صَوبَ نِداءِ الأذانِ
وَكُلَّ نَهارٍ تُعيدُ المَدِينَةُ بعد
اكتشافَ المَدِينَةِ

تَخْرجُ في صورةِ امرأةٍ ذاتَ عَيْنَيْنِ ساحرتينِ
تُفَتِّشُ في زحمةِ السوقِ
أحجارَ كُلِّ العَقيقِ اليمانيِّ
تَبْحَثُ عَنْ لَونِ أيامِها
تتخَيَّرُ لَوْناً :
تُضِيفُ لِمعنى المَدينةِ مَعْنى
وَفي كُلِّ أُمْسِيةٍ
تَتلاشى المدِينةُ خَلْفَ صباباتِها ،
تَتَسَلّلُ حَافِيَةَ القَدَمينِ إلى البَحرِ
تَشْكُو إليه الفِراق
وَتَسمَعُ مِنْه وَجِيبَ مُنَاجَاتِها
يا مَدينةَ عِشْقِي المُموجِ

تاريخُ وَجْهي ، مفاتيحُ عِشْقِي
مَخبوءةٌ فِيكِ مُذْ كُنْتِ
لَكِنّي لا أزالُ أحِسُّكِ كاللغزِ
أو كسؤالٍ مديدٍ يُسَافِرُ في زَمَنِ الأرْضِ
في زَمَنِ الشِّعْرِ
يا زهرةَ الاغترابِ المُسيّجِ
ألفٌ وألفٌ مِنَ السنواتِ الطويلةِ
ناءٍ ، وعريانُ
كالأبديةِ ، كالريحِ
ما بَيْنَ مدٍّ وجزرٍ عُذوبَتِكِ الأمِّ
والقَلْبُ مَازالَ كالسائحِ المُتفرِّجِ

خَلْفَ شُقوقِ التَواريخِ والشَمسِ والدَمِ
أبعد مِنْ أنْ يَراكِ كَمَا كُنْتِ
أوْ مِثْلَما سَتكونينَ
أيَّتُها المُسْتَحِيلةُ حتى عَلى الحُلُمِ
مَازِلتُ لا أجِدُ الكَلِمَاتِ ،
وَلاَ قَاعَ صَوْتِكِ
حَتى أُغَنِّيَ فِيكِ المَدِينَةَ !
لَوْ كَان لِي عُنْفُوانُك ،
عُمْقُ التَوحُّدِ بالبَحر
أو كَان لي يامَدِينةُ
بَعْضُ الذي لَكِ مِنْ قُوّةِ الحُبِّ وَالصَبرِ ،
لَوْ أنّ لي شاعريةَ صمتك
مأساة ، روعة وقتك
إذن لامْتَلَكْتُ مَدى البَوحِ
لامَسْتُ سِرَّ القَصِيدةِ
لَوْ كَان لي مثْلَمَا لَكِ
قَلْبٌ خفيٌّ مِنَ الحَجَرِ الحَيِّ
قاسٍ ، حَنُون
وَذاكرةٌ تتوغلُ في الطين والدمعِ حتى
النهايات
ذاكرةٌ لا تَخُون
إذَنْ لَتَعرَّفْتُ بعد
إلى ألمِ الأنبياءِ
إلى الحُلُمِ الشاسعِ المُتَناثِرِ
كَيْفَ يُشَادُ ، وَكَيْفَ يُضاءُ
وَلكنني لا أزالُ بَعِيداً
وَرَاءَ رُكامِ الزَخَارِفِ وَالزيفِ
تَحجبُني عَتَمةُ اللَيلِ وَالخَوفُ عَنْكِ ،
فكيف تكون القصيدة
إن لم أكُنْكِ أنا يا مدينةُ
كَيْفَ أكُونُ ؟

صفحة لغة

بقلم : د . حسن عباس

عودة إلى جابر والرتيلاء

كنا قد نشرنا في العدد ٣٥٧ (أغسطس ١٩٨٨) مقالا بعنوان « جابر والرتيلاء ». وقد أثار المقال اهتمام عدد من القراء الذين بعثوا إلينا بردود ومناقشات ، نرى أنها تثري الحوار ، وتجعل منه مادة نافعة ، وتقيم جسرا بين « العربي » وقرائها الكرام كانت أولى هذه الرسائل قد جاءتنا من العميد الركن عبد القادر رينل التحافي من بعداد في العراق ، وثانيتها من الأستاذ سالم علي سالم ، كبير مستشارين قانونيين في شركة نفط الكويت بالأحمدي ، وثالثها من الاستاد لحسن بنلفقيه بسيدي بنور في المغرب وقد أجمع الكتاب الأفاضل على أن كلمة رتيلاء تعني « ضربا من العناكب » يقول الاستاد لحسن بنلفقيه في هذا الصدد « والمعروف عندنا في المغرب عند الخاص والعام هو أن الرتيلاء نوع من العناكب أو العنكبوت ، وكلمة الربيلاء شائعة الاستعمال حتى عند ربات البيوت والمزارعين والرعاة ، وعند سكان القرى والمدن ، ولا يختلف اثنان في مدلولها وكلمة الرتيلاء كلمة عربية ، ذكرتها كتب اللغة والحيوان والطب وغيرها ، وعرفتها جميعها على أنها نوع من العناكب ، وهي من الحيوانات السامة ، ويقال لعضتها « نهشة الرتيلاء » عند الأطباء أمثال جابر وغيره

وكان كاتب المقال قد ذهب إلى أن الرتلاء هي بالضبط Rattlesnake وهي نوع من الأفاعي السامة ، وأن الحجمل العسكري المدجج بالسلاح والآليات يسمى « رتلا » ويتساءل الكاتب عن هذا الاستنتاج بقوله « وهنا يمكن إثارة أكثر من نقطة جوهرية ، تتعلق بأصل Rattle فهل أخذه الانجليز عن العرب كما هي ، علما أن جابر بن حيان كان قد عاش في القرن الثاني الهجري (أي قبل أكثر من اثني عشر قرنا) ولا من مصدر يؤكد بداية استعمال الانجليز لهذه الكلمة ؟ »

ويرد العميد التحافي على ذلك بقوله « ... توفيقه بين كلمة Rattle الانجليزية و رتل الجندية » ، والحجمل العسكري ، فلي فيه مقال لم أجد مصطلح (الحجمل العسكري) فيما بين أيدينا من معاجم الجندية ، لاسيما في العراق ، ولم أسمع به منطوقا ، ولكن جاء في معجم المصطلحات

الحية ذات الأجراس

.. عسكرية للجيش العراقي (ط بغداد دون تاريخ) .. عند الكلام على تنظيمات الجيش : .. Brigadegr جحفل لواء .. وجاء في المعجم العسكرى الموحد : grouping الجحفل .. ولم ألحظ في أي من المراجع المذكورة انفا بما يشير إلى وجود مصطلح يدعى التجحفل العسكري » .

وينكر الاستاذ سالم علي سالم أن تكون الحية ذات الأجراس قد عرفت في العالم القديم ، فلم تعرف .. إلا مع اكتشاف أراضي أميركا في القرن السادس عشر ، وكان أول نص مأثور في الانجليزية ورد فيها اسمها يعود في التاريخ إلى سنة ١٦٣٠ م (معجم اكسفورد) و « يستحيل أن يكون ماأشار إليه جابر بن حيان باسم « الرتيلاء » هو الحية الأمريكية ذات الأجراس

ثم يقول في موضع آخر : « فكلمة الرتيلاء معروفة في العربية قبل أن تعرف الحية ذات الأجراس بقرون عديدة ، ولم أعثر في أي من المراجع المتاحة على غير وزن التصغير (رتيلاء) إطلاقا ، أو على وزن المذكر (أرتل) اسما لأي من الهوام عامة أو ذكور الحيات على التحصيص واستعمال جابر بن حيان كلمة الرتيلاء في معرض حديثه عن سمها لا يعني أنه بنفسه استعار الاسم ووظفه لنوع من الأحياء معروف في زمانه بسمه دون اسمه ، بل الأرجح أنه اسم معروف مستقر المعنى قبله » وينفي أن تكون تسمية « الجحفل العسكرى المدجج بالسلاح والآليات » من معاني كلمة Rattle الانجليزية .

وفي الوقت الذي نقدر فيه ماذهب إليه قراؤنا الكرام ، فإننا نود أن نعقب على تلك التعقيبات بقولنا :

نوع من العناكب

ـ إن الدكتور عدنان الظاهر لم يكن يجهل المعانى التي وردت أعلاه ، ولكن الذى شجعه على القول بأن كلمة رتيلاء تشير إلى نوع من الأفاعي السامة ورود هذه التسمية في كتاب لجابر بن حيان مازال مخطوطا ، وهو بعنوان « كتاب التجميع لأبي موسى جابر بن حيان الصوفى الطوسي الأزدي رحمه الله »

ـ عندما وجد هذه التسمية في المخطوط المذكور حاول الربط بينهما وبين ما شاهده من الأفاعي السامة ذات الأجراس التي تكثر في ولاية كاليفورنيا الامريكية .

ـ أغراه التشابه الظاهر بين كلمة « رتيلاء » العربية و Rattle الانجليزية ولعله اطلع على بعض المراجع الأخرى مثل المنجد الذي أوردها بوصفها اصطلاحا عسكريا يعني صفاً من الجنود عميقا ومتراصا ، وأضاف المنجد أن رتل السيارات : مجموعة من السيارات تسير في صف

ومهما يكن من أمر فقد اجتهد الدكتور عدنان الظاهر ، ولكل مجتهد نصيب من صواب أو خطأ . □

■ أرى الرجل فيعجبني ، فإذا قيل : لاصناعة له ، سقط من عيني .
(عمر بن الخطاب)

■ خداع القلوب يظهر من كلمة على اللسان أو نظرة فى العين
(لقمان الحكيم)

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الأدباء

في وَصْف الإيوَان

للبحتري

ضِنْتُ نفسي عمّا يُدنسُ نَفْسِي … وتَرفَّعتُ عن جدا كلِّ جِبْسِ (١)

وتماسكتُ حين زعزعني الدهـ … ـرُ التماسًا منهُ لتعسي ونَكسي (٢)

بَلَغٌ من صبابة العَيش عِندي … طفَّفتْها الأيامُ تطفيفَ بَخْس (٣)

وبعيدٌ ما بين واردِ رَفْهٍ … عللٍ شُرْبُهُ، وواردِ خِمْسِ (٤)

وكأنَّ الزمان أصبح محمولاً … هواهُ مع الأخَسِّ الأخَسّ

واشترائي «العراقَ» خطة غبنٍ … بعد بيعي «الشآم» بيعةَ وكْس (٥)

لاتـرُزْني مزاولاً لاختياري … بعد هذي البلوى فتنكرَ مَسّي (٦)

وقديما عهدتني ذا هنات … آبيات على الدنيّات شُمْسِ (٧)

وإذا ماجُفيتُ كنتُ جديراً … أنْ أرى غيرَ مُصبحٍ حيثُ أُمسي

حضرتْ رحلي الهمومُ فوجّهتُ … إلى «أبيضِ المدائنِ» عَنْسي (٨)

أتسلَّى عن الحظوظ، وآسى … لِمَحلٍ من «آلِ ساسان» دَرْس

أذكرَتْنيهُمُ الخطوبُ التوالي … ولقد تُذكِرُ الخطوبُ وتُنسي

وهمُ خافضون في ظلِّ عالٍ … مشرفٍ يَحسِرُ العيونَ ويُخْسي (٩)

فكأنَّ «الجرماز» من عدم الأنسِ … وإخلالهِ بنيَّةُ رَمس (١٠)

لو تراهُ علمتَ أنَّ الليالي … جعلتْ فيهِ مأتماً بعدَ عُرْس

وهو ينبيك عن عجائب قوم … لايشابُ البيانُ فيهم بلَبْس (١١)

وإذا مارأيت صورة «انطا … كيةَ» ارتعتَ بينَ رومٍ وفرْس (١٢)

والمنايا مواثلٌ، وأنوشر … وانَ يُزجي الصفوفَ تحتَ الدِّرَفْس (١٣)

في اخضرارٍ من اللباسِ على أصْـ … فرَ يختالُ في صبيغةِ وَرْس (١٤)

ـراكَ الـرِّجـال بينَ يديْـه	في خفوتٍ منهم وإغماضِ جرْس (١٥)
ـمُشيـحٍ يَهـوي بعـامـلِ رمـحٍ	ومـلـيـحٍ من الـسـنـان بِتُرْسِ (١٦)
ـفُ الـعـينُ أنّهـم جدُّ أحـيـا	ءٍ لهم بيـنـهـم إشـارةُ خُرْسِ
ـتـلي فيـهـمُ ارتـيـابيَ حتّـى	تـتـقـرّاهُـمْ يـتـداي بلمْسِ

تكشف هذه الأبيات التي اخترناها من قصيدة البحتري السينية الطويلة عن مقدرة عظيمة على الوصف والتصوير، يكاد لايدانيه فيها شاعر غيره. ونظرا لطول القصيدة فقد اقتصرنا على موقفين اثنين: أولهما موقف يصف فيه الحال المزاجية التي رافقته في زيارته إلى إيوان كسرى، وثانيهما وصفه للايوان نفسه وصفا بلغ ذروة الإبداع.

يستهل القصيدة بالتنوية بمآثره، ومنها ترفعه، وتوقيره لنفسه، وتماسكه، وثباته أمام النوائب والخطوب، فالزمان لم يتح له رفه العيش، بل إن كل ما أتاح له بلغ من صبابة، أى قليل منه يقيم الأود ولا يزيد. ولقد ذهب إلى العراق أملا في نفع يصيبه أو مكانة يصبو إليها، فلم يظفر بها كان يأمل، وبخاصة بعد مقتل المتوكل، فأدرك أن البقاء في دمشق كان أجدى، ولكن هيهات، فقد كان بعض الناس يحول بينه وبينها.

في زحام الهموم التي كانت تغشى نفسه، وجه ناقته إلى إيوان كسرى، ليأسى ويتسلى عن سوء الحظ. فالشاعر والايوان كلاهما قد أصابه من الدهر غير قليل، فلعل رؤية مصائب الآخرين

---

١ - الحدا العطاء، الجبس الجبان اللئيم

٢ - النكس انقلاب الرجل على رأسه

٣ - البُلغ: جمع بُلغة، وهي ماتبلغ به في العيش ولايفضل منه شيء، الصبابة البقية من الماء، التطفيف النقص في الوزن والتقدير.

٤ - الرفه طيب العيش، الخمس إظماء الابل

٥ - الوكس النقصان والخسارة

٦ - راز الشيء. جربه

٧ - هنات. خصال الشر، الشِّمس العنيدة

٨ - العنس الناقة القوية

٩ - خافضون. ناعمو العيش، يحسر العيون، ويحسي يرد البصر كليلا.

١٠ - الجرماز تعريب لكلمة كرمازى الفارسية، ومعناها الايوان

١١ - اللَّبْس. الغموض.

١٢ - انطاكية: مدينة عربية سورية هي الآن جزء من تركيا

١٣ - الدرفس: العلم الكبير، والمعركة التى يشير إليها، وهي مسجلة على جدران القصر، وقعت بين الروم والفرس سنة ٥٤٠م

١٤ - ورْس: نبت أصفر باليمن، وتقول المعاجم: ثوب وارس. أي أحمر.

١٥ - جرْس: الصوت.

١٦ - المشيح: الحذر المجد، عامل الرمح: صدره المليح. الخائف الحذر، السنان نصل الرمح الترس صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف.

تخفف من شدة الوطء عليه،أليست المصائب تجمع المصابين ؟ ولكن كيف حال الايوان بعد أن هجره أهله قرونا طويلة ؟ إنه أشبه بالقبر الذي يرين عليه صمت عميق ، على أن مظهر الايوان ينبيء من يراه أن ساكنيه كانوا قوما يحفل زمانهم بالعجائب ومن عجائب ذلك الزمان - فضلا عن أشياء كثيرة أخرى - روعة التصوير فهذه صورة انطاكية على جدران القصر تحكي قصة المعركة التي دارت بين الفرس والروم سنة ٥٤٠م والصورة - لفرط اتقانها - تكاد تنطق بما يعجز اللسان عن الافصاح عنه

هاهو أنوشروان وأمامه صفوف المقاتلين ، وهم يقاتلون في ظل العلم ، ويرتدون ملابس تتراوح ألوانها بين الأصفر والأحمر . إنك لتحسب أنهم أحياء يديرون العراك بينهم بصوت خافت ، فهذا حذر ، وذاك خائف يرفع الترس في وجه عدوه ، يتقي به ضربة سيفه !

ولاتملك العين إزاء ماترى إلا أن تخدع ، فتعتقد أن الرجال أحياء يرزقون يتبادلون بينهم - في حمأة القتال - إشارة كتلك التي يشير بها الخرس ، وتبلغ دقة الوصف ذروتها حين يقول الشاعر :

ويغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس

فقد استسلمت العين للخداع ، ولم تعد ترى فيه يعرض لها إلاحقائق وأناس من لحم ودم ، فيعمد الشاعر إلى أداة أخرى من أدوات الحس وهي اليد فيمر بها على الرسم ، ليوقن من أنه أمام صورة على جدار ، وليس - كما توهم العين - أمام رجال أحياء يستعر بينهم قتال .

هل كانت رحلة الشاعر إلى الايوان لتسرية النفس فحسب ؟ كلا ، بل اتخذ الشاعر من الايوان وما آل إليه حاله مثالا شبيها يعكس عليه بعض حزنه . ويعرب - بوصفه له - عن بعض مايكدر صفوه يقول الدكتور خليفة الوقيان في كتابه عن البحتري : « ويخرج الشاعر في رحلة صوب المدائن ليرى إيوان كسرى ثابتا على الزمن فتنعكس صورة حياته على الايوان ، وتعكس صورة الايوان على نفسه ، وتتآلف الصورتان » وهذا صحيح ، فقد كان الايوان شامخا ، لم تنل منه أحداث الزمن ، وكان الشاعر وقورا مترفعا متماسكا أمام الشدائد وقد توالت الخطوب على الايوان والشاعر معا ، وكان كل منهما يعيش خافضا مترفا في زمن مضى وهذه بعض أوجه الشبه في الحالين

ويطول الحديث في شرح هذه القصيدة وتحليلها . ولكن هذه العجالة لاتسمح بأكثر مما أوجزنا □

لنكولن

■ احبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما . (علي بن ابي طالب)

■ لأن أموت عطشا أحب إليّ من أن أخلف موعدا . (المثنى بن حارثة)

■ عندما ينتزع الراعي عنزة من براثن ذئب تعده العنزة بطلا ، أما الذئب فيعده دكتاتورا . (لنكولن)

■ العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . (ابو الحسن البصري)

■ إن الذين لايذكرون الماضي مكتوب عليهم أن يجربوه مرة أخرى . (سانتيانا)

مكتبة العربي

تأليف : أحمد الحسن ودونالد هيل

عرض : د. محمد عيسى صالحية

إن كان لكل عصر تقنيته الخاصة، فقد كان للعصور القديمة مثل هذه التقنية، وإن كانت لكل حضارة تقنيتها، فقد كانت للحضارة الإسلامية تقنيتها التي تضمنها هذا الكتاب.

كتاب الشهر

بالتعاون بين منظمة اليونسكو ومطبعة جامعة كمبردج ، صدر كتاب التقنية عند المسلمين ، لمؤلفيه أحمد الحسن ودونالد هيل ، سنة ١٩٨٦ . وقد أسند العمل لاثنين من المتخصصين في حقل العلوم عند المسلمين ، حيث جاء الكتاب جامعا لجهود علماء الإسلام من القرن الأول الهجري حتى نهاية العصور الوسطى في مجالاته التقنية ، ووسائل انتقالها إلى الغرب وطرق ذلك .

يعد هذا الكتاب بحق متميزا في بابه ، لتنوع الموضوعات التي طرقها ، وتعدد المصادر التي اعتمد عليها ، وجدية الدراسة التي اتسم بها ، والملاحظات التي سجلت على فصوله وأبوابه .

يقع هذا الكتاب في ٣٠٤ صفحات من القطع الأكبر من العادي . وقد ضم أكثر من ١٤٠ منمنمة ، انتقاها المؤلفان من المخطوطات العربية والفارسية والتركية ، المحفوظة في المكتبات العربية والأجنبية ، وأرفقا ذلك بنماذج لجوانب من التقنية عند المسلمين . وقد بني الكتاب على أحد عشر فصلا

تناول الباحثان مفهوم التقنية وانتقالها من الأمم السابقة على المسلمين ، وبخاصة عند اليونانيين ، حيث عرضا لأهمية الحقائق العلمية التقنية التي عرفها المسلمون من خلال اطلاعهم على العلوم عند اليونان في الهندسة المدنية والميكانيكية وآلات النفخ والزمر والساعات المائية . وأشار الباحثان إلى الابتكارات والابداعات في التقنية عند المسلمين ، والترابط بين مجالاتها المختلفة ، حتى في الصناعة والفلاحة ، ونوه الباحثان بالمناخ العلمي الذي كان يسود بلدان الإسلام بفضل العقيدة التي حركت كوامن الابداع عند العلماء ، ثم سياسة الدولة ونجاحها في نشر اللغة العربية ، وجعلها لغة العلم ، فاستوعبت المنجزات الحضارية للأمم السابقة ، من آرامية ويونانية ولاتينية وفارسية وسنسكريتية ومصرية قديمة وغيرها . وقرر الباحثان بأن المؤسسات الإسلامية قد نجحت في جعل التواصل الحضاري بين حضارة الإسلام وغيرها أمراً واقعا ، تمثل في إنشاء العديد من المدارس والمراصد والمكتبات ، مثل بيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، إضافة إلى دور المساجد الكبرى التي تحولت إلى جامعات ، كالأزهر في القاهرة ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع القرويين في فاس . وذهب الباحثان لمناقشة دور الخلفاء والسلاطين والأمراء في رعاية العلماء ، ليكرس العلماء جل وقتهم للبحث والدراسة .

وأنهيا الفصل الأول بعرض موجز لتطور العلوم الطبيعية من مرحلة النمو ، مرورا بالبحث التجريبي ، حتى الابداع . وقدر الباحثان أهمية حركة النقل والتفسير ثم الترجمة عن اللغات الأخرى . وكان تركيزها واضحا على علوم الرياضة والفلك والفيزياء والكيمياء .

وعرض الفصل الثاني من الكتاب لأهمية المياه في الأقطار الإسلامية ، ومصادرها ، والآلات التي ترفع المياه ، كالشادوف والساقية والناعورة . وأفرد المؤلفان مكانا للآلات التي وصفها الجزري في كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » ، والآلات التي وردت في كتاب « الحيل في الحروب وفتح المدن وحفظ الدروب » لمجهول ، و « الحيل » لبني موسى ، و « ميزان الحكمة » لعبد الرحمن الخازني .

كما أفرد الفصل الثاني للساعات المائية والساعات الميكانيكية التي زخر بها كتابا « الساعات والعمل بها » ، و « الهيئة السنية في الآلات الروحانية »

..لك « الالعاب الاوتوماتيكية » التي جاءت في ب « الحيل » لبني موسى ، والفوارات والينابيع ..رها من الآلات التي وردت في كتاب « مفاتيح علوم » للخوارزمي .

يرى مؤلفا الكتاب في الفصل الثالث أن النماذج ..دالة على دقة تقنية البناء عند المسلمين ماتزال دائمة ، مبثوثة في مختلف أقطار الإسلام ، في القدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة ، وفي دمشق في الجامع الأموي ، وكذلك في الأندلس ، مثل قصر الحمراء وجامع قرطبة ومدينة الزهراء ، ومباني ابن طولون في القاهرة ،وغيرها في الهند . وأشار الباحثان إلى تنوع المواد المستخدمة في البناء من أحجار خشنة وآجر وخزف وتتك وأخشاب ، وتناولا كيفية البناء بالترصيف مع مراعاة المظهر الخارجي ، والرقابة المفروضة على المهندسين والبنائين من قبل المحتسب ، وقدما نماذج إنشائية لجسور وطرق وقنوات وآبار وسدود ، حيث كانت الأخيرة لجمع المياه ومعالجة الخراب بسبب الفيضانات .

الفروسية برسم الجهاد

مهد الباحثان بمقدمة ممتعة عن المقالات والمؤلفات التي اتصلت بالتقنية الحربية ، اقتطفا إشارات من المعارك التي وصفها كل من البلاذري في « فتوح البلدان » ، والطبري في « تاريخ الأمم والملوك » ، ونوها بحاجة المسلمين للتأليف المقتصر على الفنون الحربية غداة الهجمة الصليبية الأوربية على أقطار العالم الإسلامي ، وعرضا لمقالات الفروسية ، وقدما تلخيصا لمقالة « الفروسية برسم الجهاد » ، و « نهاية السؤل والأمنية » ، و « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب » ، و « التذكرة الهروية في الحيل الحربية » . وتناولا صناعة السيوف وسنها وتجليخها ، وصناعة الرماح وأجزائها والأسهم والأقواس ، وعرجا على أدوات الحصار ، المناجيق بأنواعها الافرنجي والسلطاني والرومانى ، والحصون وشروط بنائها وكيفيتها ، والخنادق والقلاع والأبراج والرباطات والخانقات ، والقنابر الحارقة (القنابل) ، والمدافع ، والبارود ووصوله إلى المسلمين ، وتطوير استعمالاته باستخدام القوى الدافعة ، وكذا تقنية الاتصالات بين المركز (العاصمة) والجيوش المنتشرة في مختلف أقطار العالم ، وذلك عن طريق وسائل البريد . وبعرض موجز تناولا السعاة والحمام الزاجل ومراكز التدخين ، كوسائل للاتصال ، والأخيرة تحتاج إلى دراسة أوسع .

تضمن الكتاب أفكاراً حول صناعة السفن وهي حرفة مهمة لبناء المراكب التجارية والسفن الحربية وسفن الشحن التي تحمل مواد البناء بأنواعها ، وقد بين الباحثان في فصل منه امكانيات الاقطار الاسلامية في إنشاء تلك الصناعة ، مستفيدة من شواطيء الأنهار والبحار ، وبخاصة في مصر والخليج والجزيرة ، وأشارا إلى المراكب الشراعية الصغيرة ذات المجداف ، والمراكب الحربية التي تحمل أكثر من ألف وخمسمائة رجل*، ثم بينا مزايا كل نوع من المراكب المشار إليها ، وفوائد الاشرعة التي كانت تستعملها ، كالشراع المثلث ، وعرضا إلى دور الصناعة في الأُبلة والبصرة وشط العرب وصُحار ، وقررا اعتمادا على المراجع التي استخدماها بأن سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م شهدت إنشاء أول حوض لبناء السفن ، وكان ذلك في جزيرة الروضة المصرية ، وأن أدوات البناء كانت تصل من عكا وصيدا ، ثم توسع المسلمون في بناء السفن في موانيء الاسكندرية ، ودمياط ، والفسطاط ، وطرابلس ، وتونس ، واشبيلية ، والمرية . وناقشا مسائل استعمال المسامير والأشرعة والمراسي وأدوات الوثق في الميناء . وحللا بموضوعية جهود المسلمين في تدعيم تلك الصناعة ، وبخاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م .

وجاء الفصل السادس جامعا في بابه ، حيث تناول فيه المؤلفان جهود العلماء المسلمين في الصناعات الكيماوية والنفطية والعطور والاصباغ

والاحبار والسكر والزجاج وغيرها . ودرسا مآثر كل من جابر بن حيان ، والرازي ، وابن سينا ، والكندي، العلمية ، وكدليل على مآثرهم ، فقد نظما جدولا بعمليات الرازي الكيماوية التي وردت في كتابه « سر الأسرار » من تدبير وصهر وتسخين وتقطير وتصعيد واستنزال وتشوية (من الشواء) .

وعمليات الطبخ والتلغيم والغسل والتشميع والتحليل (حل المواد) والتخريج والعقد ، وقرنا ذلك بما ورد عند الكندي من خلال كتابه (كيمياء العطور والتصعيدات) . وذكر الباحثان جملة من الأدوات التي وقع تكوينها لأشغال الكيمياء ، مثل الكور والمنفاخ والبوتقة والمسحاة والمغرفة والامبور والقرعة والقارورة والمكبة والتنور والمستوقد والكانون وغيرها .

ولما كان التقطير مهما في بابه فقد درسه المؤلفان لأنه وسيلة لانتاج العطور وماء الورد والزيوت الأساسية والكحول وتحول الباحثان إلى النفط واستخداماته عند العلماء ، وأماكن وجوده ، ونوعيه - الأسود والأبيض - مقتبسين إشارات بشأن النفط ، وردت عند الكندي ، وعند داود الانطاكي في « التذكرة » ، ثم درس المؤلفان بعض المواد التي أنتجها العلماء المسلمون كيميائيا ، كالاحماض بأنواعها ، والقلويات ، والنطرون ، والصابون ، والزجاج ، بل وتتبعا مراحل الزجاج ، والسيراميك والحبر والاصباغ .

الكاغد

وفي فصل آخر من الكتاب درس المؤلفان خيوط النسيج ، من صوف وقطن وكتان وحرير ، ودور الطراز في العالم الإسلامي ، وتأثيرها على الغرب .

وقد عرضا للعمليات التي تسبق تهيئة الخيوط للغزل أو النسج .

أما الورق (الكاغد) وصناعته ، فقد تباينت الآراء حول مكان معرفته ، لكن صناعته في بلاد الإسلام تظل علاقة بارزة في تاريخ الانسانية . وقد نجح الباحثان في تتبع رحلة الورق وصناعته من سمرقند إلى دمشق وطبرية والجزيرة وطرابلس وافريقيا وصقلية وبلنسية ، وانتقاله إلى ايطاليا ، ووصفا أنواعه ، من بغدادي وشامي وحموي وطلحي ، وغيرها من الأنواع .

وكانت للباحثين وقفة عند الجلود ، وبخاصة المصنعة في الطائف ، واستخدامها في تسفير الكتب وتجليدها . وقد انتقيا معلوماتها عن التجليد من كتابي « تسفير الكتب وحل الذهب للسفياني » و « عمدة الكتاب » للمعز بن باديس .

وقد تتبعا ثورة الفلاحة عند المسلمين ، منذ القرن الأول الهجري ، التي شملت الفلاحة والاقتصاد وتوزيع القوى العاملة والطعام والمحاصيل ، ثم عرضا للمحاصيل الزراعية ، من أرز وحبوب جافة وسكر وقطن وقصب سكر وبطيخ وباذنجان وسبانخ وذرة وفواكه وخضراوات وورود . وركزا على توسع تلك الزراعات والخبرات الحقلية الجديدة وانتشارها في ظل الإسلام التي اقترنت بأساليب جديدة للفلاحة ، شملت فصلي الشتاء والصيف ، فغدا المسلمون يستغلون الأرض في أربع دورات زراعية .

المعادن والتعدين

درس الباحثان حاجة العالم الاسلامي للمعادن ، وبخاصة الذهب والفضة والنحاس لسك النقود ،

الحديد والفولاذ لصناعة الأسلحة ، وقدما عرضا لمصادر التراثية التي أشارت إلى تلك المعادن ، وبخاصة في المكتبة الجغرافية العربية التي عرفتنا بأماكن وجود تلك المعادن . كما تتبع الباحثان أماكن وجود المعادن الأخرى ، من رصاص وتنك وحجارة كريمة .

أما تقنية المعادن فقد قدما عنها وصفا يوضح كيفيتها ووسائلها ، من حيث التفتيش عنها في الحصى والتراب المجروفة بفعل عوامل التعرية والانهيارات ، ووصفا طرق البحث عن المعادن ، كما وردت في بعض المصادر التراثية ، وبخاصة مؤلفات ابن حوقل .

وقد ذكر المؤلفان عدداً من آلات التنقيب والتعدين ، مثل المنقار والازميل والمجرفة والاسفين والروافع والبكرات .

ونوها عن وسائل العلماء المسلمين لمعالجة مسألة التهوية في أعماق الأرض عند الحفر .

ودرسا طرق استخراج الدر واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة بطرق الغوص ، وفصلا في أنواع المعادن الأخرى ، مثل القصدير والتنك والبرونز وأنواع الحديد .

كما درس الباحثان عددا من المصادر والمراجع ، مثل كتاب « مفاتيح العلوم » و « إحصاء العلوم » . و « رسائل إخوان الصفا » ، و « الفهرست » لابن النديم ، واستنتجا من ذلك أن العلماء المسلمين قد ثمنوا التقنية كفرع من العلوم المعتمدة على التجارب والخبرة العملية ، ووازنا بين مواصفات كل واحد منها ، وزودانا بأسماء عدد من المهندسين . وحين انتقلا لبحث الصناع توسعا في شرحها بدراستهما لتشكل نقابات الصناع أو الأصناف ، حيث أشارا إلى دور حركة الفتوة والصوفية في تشكيل النقابات ودرجات تعلم الصنعة ، وترجما فصلا من كتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » متعلقا بالنجارين والبنائين والدهانين والمبيضين والجباسين ، والجيارين ، كما درسا أدوات النجارة والحدادة ، وتجارة المعادن وأهميتها في الحروب ، والرقابة عليها من قبل المحتسب .

وقد جاء الفصل الأخير من هذا الكتاب دعوة لإعادة النظر في منجزات التقنية عند المسلمين ، حيث أشار المؤلفان إلى عوامل النقص التي اعترت هذا الجانب من قبل الباحثين الغربيين ، وحاولا تبيان مراحل انتقال التقنية من العالم الإسلامي إلى الغرب ، ومن ثم أسباب تدني التقنية عند المسلمين ، ومستقبلها . وكان للباحثين اجتهاد حول معوقات التنمية ، وآفاق المستقبل ، حيث دعا المؤلفان في خاتمة الفصل إلى ضرورة توحيد الطاقات الاسلامية ، والمادية والبشرية ، وإيجاد نوع من التعاون والتكامل بين أقطار العالم الاسلامي . ومنها على سبيل المثال تكوين سوق عربية مشتركة ، وتمتين الروابط الاقتصادية والسياسية ، مما يسهم في دفع حركة التقدم في العالم الإسلامي .

لقد بذل الباحثان جهدا طيبا لإنجاز هذا العمل المتميز في موضوعه ، ومصادره ، وهو بمثابة دراسة جادة ، لجانب علمي مهم من تاريخ أمتنا ، يتناسب مع مكانة هذه الأمة العظيمة التي استحقت بجدارة قيادة ركب الحضارة الإنسانية . □

* ليس أمري وأمركم واحدا . اني أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم . (علي بن أبي طالب)

* التأخير في العدالة نوع من الظلم (لاندور)

* خير لي أن أكون عبدا أطالب بحريتي . . . من أن أكون حرا أساوي العبيد . (غاندي)

يصدر في ١٥ يناير ١٩٨٩
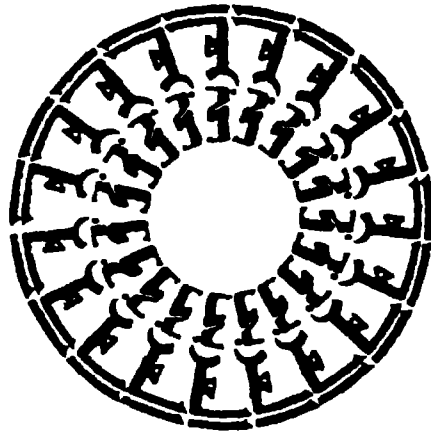
كتاب العربي

الثاني والعشرون

الإسلام والعروبة

في عالم متغير

بقلم الدكتور عبد العزيز كامل

كتاب العربي مرآة العقل العربي

تأليف : سعد شعبان /عرض وتقديم : رءوف وصفي

الكون هوة مروعة لاقرار لها ، محيط تبصر فيه بلايين النجوم والمجرات والسدم ، راقب الانسان ظواهره في دهشة دون أن يستطيع تفسيرها ، فروى الأساطير والحكايات الخرافية عن رحلات خيالية تشق نسيج الفضاء، ولقاءات مع مخلوقات غريبة فوق كواكب أخرى.

ويأتي عصر الفضاء ، ويطلق الانسان الصواريخ ، والأقمار الصناعية ، وسفن الفضاء ، فى محاولة للتعرف على الأسرار التي ظلت مغلقة عليه قرونا طويلة . وتتكشف له حقائق مذهلة عن الكون ، ويخضع العقل البشرى للقدرة الالهية مبدعة هذا النظام الكوني المتكامل .

شهدت العشرون سنة الماضية أحداثا فضائية مثيرة ، بلغت ذروتها بالهبوط فوق القمر ، وإرسال مركبات فضائية الى كواكب المجموعة الشمسية ، وانطلاق مكوك الفضاء ، والتخطيط لبناء محطات الفضاء الدائمة .

إن كتاب « أسرار الفضاء » للمهندس سعد شعبان الصادر عام ١٩٨٨ أحدث كتاب بالعربية يجيب عن أهم الأسئلة التي قد تتبادر إلى الأذهان حول الفضاء ، وأهم الانجازات التي تمت حتى الوقت الحاضر ، ويعد إضافة متميزة للمكتبة العلمية العربية .

يقع كتاب « أسرار الفضاء » في ٤٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم أربعين موضوعا حيويا عن الفضاء ، تمثل في مجموعها موسوعة كونية ، بالإضافة إلى العديد من الصور الملونة عن أهم إنجازات الإنسان في الفضاء .

سفن الفضاء وأسرار الكواكب

دخل العالم عصر الفضاء عام ١٩٥٧ عندما أطلق أول قمر صناعي ، فانفتحت في الفضاء نوافذ جديدة ، لا تعتمد على الرؤية بالعدسات ، ولكن بالرصد بأجهزة مستحدثة في سفن الفضاء وعندما تحقق النصر التاريخي بالهبوط على سطح القمر في يوليو ١٩٦٩ انفتحت حلبة اخرى في الصراع بين الدول الكبرى إلى الفضاء الفسيح بين الكواكب .

يسرد المؤلف بأسلوب مشوق تاريخ إطلاق سفن الفضاء ، والتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في هذا المجال ، فقد أطلقت امريكا سفن الفضاء من طراز مارينر وفايكنج وفوياجير ، بينما أطلق السوفيات سفن الفضاء فينوس وفيجا ومارس بهدف التعرف على أسرار كواكب المريخ والزهرة والمشترى وزحل واورانوس ونبتون ، والتقطت آلاف الصور « الفوتوغرافية » الدقيقة التي أضافت كثيراً إلى معلومات علماء الفلك عن كواكب المجموعة الشمسية .

يشير المهندس سعد شعبان إلى أهم هذه السفن الفضائية (فوياجير) التي أطلقتها الولايات المتحدة في عام ١٩٧٧ ، وقد حملت سفينتا الفضاء (فوياجير(١)) و (فوياجير(٢)) أجهزة حديثة ، لم تشهدها سفن الفضاء الأخرى ، وتتمثل في مولدات القوى الكهربائية النووية ، ذلك أن المسافات الكبيرة التي تقطعها السفينتان حول الكواكب الأربعة ـ المشترى وزحل واورانوس ونبتون ـ تجعل عملية الاعتماد على الخلايا الكهروضوئية التي استعملت في سفن الفضاء السابقة أمرا متعذرا ، فضلا عن احتوائها على ستة حواسب الكترونية ، وأحد عشر جهازا للقيام بعمليات التصوير التلفزيوني والبانورامي ، كما تحمل السفينتان أجهزة إرسال واستقبال لاسلكية ذات حساسية فائقة ، لتستطيعا ارسال الصور المأخوذة لأسطح الكواكب الكترونيا إلى محطات المتابعة الأرضية .

ويتناول المؤلف أهم الاكتشافات الفلكية المذهلة التي اكتشفتها سفينتا الفضاء (فوياجير) ، والتي أذهلت علماء الفلك ، وبدلت عديداً من المفاهيم الفلكية التي سادت مئات السنين . كما تمثل سفينتا (فوياجير) حلقة من حلقات البحث عن وسيلة لمخاطبة أي عقلاء أو أذكياء أو ذوى حضارات على كواكب المشترى وزحل واورانوس ونبتون ، ومن ثم فقد انطلقت السفينتان وفوق متنهما تسجيلات صوتية متعددة وطريفة ، لكي تذاع في أجواء هذه الكواكب ، لعل بعض العقلاء هناك يسمعونها ، وتكون حافزا لهم على مخاطبة حضارتنا الأرضية .

الحياة داخل سفينة الفضاء

يقرر المؤلف أن غياب الجاذبية في سفينة الفضاء المأهولة لا يعني صعوبة الحركة وحدها ، لأن الأهم من ذلك أن السرعات العالية جدا التي تتحرك بها السفينة نفسها تشكل إجهاداً يقع على جسم رائد الفضاء . ومن ثم تكون ملابسه عبارة عن طبقات بعضها فوق بعض للحفاظ على الحرارة ، وللوقاية من الإشعاعات الكونية ، ولتوفير المكان لدفع أجهزة القياس التي يلتصق بعضها بأجسام الرواد ، وبخاصة المتعلق منها بالأجهزة الطبية . كما تخضع عملية انتقاء أطعمة رواد الفضاء لقواعد علمية

صحية ، من أهمها توفير سعرات الحرارية اللازمة يتحملونه من جهد بدني ، كما تخلو هذه الأطعمة من الألياف السليولوزية التي يتخلف عنها كثير من الفضلات .

يؤكد المؤلف أن الركيزة الأساسية في حرب الفضاء المقبلة هي إقامة منصات فضائية ، يمكن منها توجيه أشعة الليزر (التي أطلق عليها أشعة الموت) إلى الأقمار الصناعية أو الصواريخ المعادية العابرة للقارات ، لمنعها من تحقيق الوصول إلى أهدافها وأشار المؤلف كذلك إلى الخواص الفريدة لأشعة الليزر ، من حيث تركيزها الشديد ، وقدرتها الخارقة على اختراق كتلة من الحديد الصلب وثقبها خلال ثوان وقد تمكن العسكريون من استغلال هذه القدرة لليزر في استخدامه سلاحا قادراً على تدمير الاقمار الصناعية العسكرية .

وقام المؤلف بعرض أسلحة حرب الفضاء ، كسلاح الليزر الكيماوي ، وسلاح المرايا العاكسة لأشعة الليزر ، وشعاع الجسيمات المشحونة بشحنات كهربائية عالية ، يمكن أن تحدث ما تحدثه الصواعق الطبيعية ، وسلاح المضخات النووية ، حيث تحدث انفجارا نوويا محدوداً ، تصدر عنه حزمة من الأشعة السينية ، توجه بواسطة شعاع الليزر نحو القذائف المعادية لتدميرها . كما بدأت الاستخدامات العسكرية للاقمار الصناعية في حقبة الستينيات ، وتوالت بعد ذلك ، وتعددت ، وكثرت مجالاتها ، حيث أمكن لها التقاط العديد من الصور لأدق التفاصيل الطبوغرافية فوق سطح الأرض ، وبالتالي أمكن تصوير كل المعدات الحربية ، ولم يعد بالامكان إخفاء المعدات العسكرية المعدنية أمام العدسات الدقيقة للأقمار الصناعية .

يصف المؤلف مكوك الفضاء بأنه مركبة ومجموعتين من الأجهزة : المجموعة الأولى تتمثل في صاروخين صغيرين ، يعملان بالوقود الجاف ، يشتعلان في الدقائق الأولى للمرحلة ، ولا يستغرق اشتعالها غير دقيقتين ، ثم يهبطان إلى الأرض ثانية بمظلات نجاة من ارتفاع يقارب ٤٦ كيلو مترا ، ويمكن انتشالها واعادة استخدامها مرة أخرى . أما المجموعة الثانية فتتمثل في مستودع ضخم الحجم ، مملوء بالوقود السائل ، يتعلق به جسم المكوك في وضع رأسي عند الإطلاق . وهذا المستودع يحوي قدرا هائلا من الوقود السائل ، يتكون من الهيدروجين والاوكسجين المسيل تحت ضغط عال ، وهذا القدر الكبير من المواد المشتعلة يجعل المكوك يتسارع إلى مدارات عالية في الفضاء ، خلال ما يقارب عشر دقائق للاحتراق داخل محركات المكوك ، فإذا انتهى بلوغ المكوك للمدار العالي في الفضاء انفصل عنه ليبدأ المكوك دورانه بسرعة منتظمة ، ثم يعود إلى الارض كأي طائرة عادية .

العرب وتقنية الفضاء

يؤكد المؤلف بأن التاريخ سيشهد أنه في عام ١٩٨٥ لحق العرب بركب تقنية الفضاء بحدثين مهمين ، فقد انطلق القمر العربي الأول للاتصالات (عربسات ـ ١) في الثامن من شهر فبراير من هذا العام بصاروخ دفع من طراز آريان . وانطلق الثاني (عربسات ـ ٢) بتقنية أخرى في شهر يونيو من نفس العام ، وكان انطلاقه من فوق متن مكوك الفضاء الامريكي . ويضيف المهندس شعبان بأنه أهم من هذين الحدثين طيران أول رائد فضاء عربي على متن نفس المكوك ، ومشاركته في عملية إطلاق القمر الصناعي ، وقد نال هذا الشرف الامير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز ، ومن المهام التي انجزها رائد الفضاء العربي رصد هلال شهر شوال المبارك وتصويره وإجراء التصوير الفضائي لمنطقة البحر الأحمر وبعض الاراضي السعودية من أجل اظهار طبيعة التكوينات الجيولوجية في منطقة حوض البحر الأحمر وقام كذلك باجراء تجارب عن تأين الغازات في الفضاء ، وتأثير ذلك على نقل الاشارات إلى الاقمار الصناعية . وتجارب أخرى عديدة .

انتقلت تقنية الفضاء من مرحلة البحث العلمي

واستكشاف المجهول في أغوار الفضاء إلى مجالات تطبيق كثيرة . ويلعب الدور ، الأساسي في هذا المضمار سيل منهمر من الأقمار الصناعية ، تقوم بالاتصالات والرصد الجوى والتصوير الدقيق المرئي للتفاصيل الطوبوغرافية فوق الأرض ، والتصوير الاشعاعي الذي يستعان به في اكتشاف المعادن والكنوز والآثار المطمورة تحت سطح الأرض .

ويشير المؤلف إلى أن التزاوج بين الحواسب الالكترونية والانجازات الفضائية قد وضع البشرية أمام عصر جديد ، تمثل فيه وفرة المعلومات كل معاني المدنية والتقدم ، ويعطي أمثلة كثيرة للتقدم في تقنية الفضاء ، منها التنبؤ الجوى من الفضاء بالأقمار الصناعية المتنوعة التي تتخذ لها مدارات عالية جدا خارج كل طبقات الغلاف الجوي ، لكي لا تحترق بالاحتكاك بالهواء . وتلتقط هذه الأقمار صوراً للسحب المحيطة بالكرة الأرضية من هذه الارتفاعات الشاهقة بآلات تصوير غاية في الدقة ، مزودة بعدسات بصرية أو بآلات تصوير تلفازية . ويستطيع المتنبئون الجويون تمييز أنواع السحب التي توضحها صور أقمار التنبؤات والاستدلال على الطقس المصاحب لها .

ويتطرق المؤلف إلى علم الفلك اللاسلكي الذي يعتمد على تحليل الأصوات المنبعثة من النجوم وأجرام الكون الأخرى التي تضاربت الأقوال في تعليل سببها . وأولى هذه النظريات تقول : إن هذه الاصوات سببها البقع الداكنة التي تظهر فوق قرص الشمس المضيء ، والتى عرف أن عددها يتزايد في دورات زمنية ، مدة كل منها ١١ عاما ، ولوحظ ان نشاطاً كهرومغناطيسياً غير عادى يصاحبها ويصدر من الشمس . ومن شدته عرف باسم (العواصف المغناطيسية) . وتقول ثاني هذه النظريات . إن غاز الهيدروجين في الفضاء تصدر عنه إشعاعات كهرومغناطيسية أما ثالث النظريات فترى أن الاصوات تصدر عن اصطدام بعض المجرات ببعضها

ويضيف المؤلف بأننا نجد في الوقت الحاضر على سطح الأرض ، وفي بقاع شتى فوق كل القارات ، عددا كبيرا من التلسكوبات اللاسلكية ، تلعب دورا متعاظما في الكشف عن الأجرام السماوية ، وقياس الاصوات الصادرة عنها ، وقد تمكنت من التغلغل إلى اعماق الكون مسافة تعادل ثلاثة أمثال ما كان متيسرا للتلسكوبات البصرية .

طاقة من الفضاء

يوضح المهندس شعبان أن العلماء يبحثون عن مصادر طاقة بديلة ، حيث إن مخزون النفط يتناقص في كثير من بقاع العالم ، ومن أهم هذه المصادر الطاقة الشمسية . ويعود الفضل للخلية الكهروضوئية التي تحول الطاقة الشمسية إلى كهرباء . وهي تصنع من وحدات من مواد تعرف باسم (أشباه الموصلات) التي لها القدرة على القيام بهذه التحويلات ، وأهمها مادة السليكون . وخلية السليكون غالبا ما تكون على شكل شرائح رقيقة دائرية الشكل ، بسمك رقيق قد لايزيد عن نصف ملليمتر . وتوضع الخلايا الكهروضوئية في

ـفوفات متصل بعضها ببعض كهربيا على التوالي على التوازى ، حسب الغرض المطلوب .
ـتوقف الطاقة الكهربائية المأخوذة من هذه الخلايا على عدة عوامل ، أهمها زاوية سقوط أشعة الشمس عليها ، ولذلك غالبا ما توضع مصفوفاتها بحيث تكون مائلة بزاوية خط عرض المكان الموجودة فيه لضمان سقوط أكبر قدر من أشعة الشمس عليها ، وبالتالي أخذ قدر من الطاقة الكهربائية المتولدة عنها .

ويضيف المؤلف أن أغلب أراضي الوطن العربي تتمتع بأشعة الشمس الساطعة لذلك يصبح استخدام الطاقة الشمسية مسألة مهمة . وقد نجحت التجارب في عدد من الاقطار العربية ، منها الكويت والمملكة العربية السعودية ومصر والأردن ، لانتاج الطاقة الكهربائية ، وإيجاد الأفران الشمسية ، وتحلية المياه ، وتجفيف المنتجات الزراعية ، وتكييف الهواء بالتبريد والتسخين ، وفي أجهزة الاتصالات الالكترونية بديلا عن البطاريات الكهربائية .

تغير مناخ الكرة الارضية

طرأ على الطقس تغيرات لاعهد للبشرية بها ، سواء في التوقيت أو الشدة أو المظاهر . هذا التبدل قد زحف على حياتنا في بطء ، ولم يكن محسوسا منذ سنوات . ويرجع الكاتب أحد أسباب التغير في مناخ الكرة الأرضية إلى ازدياد نسبة ثاني اكسيد الكربون في الغلاف الجوى ، نتيجة لما تنفثه السيارات والمداخن والمصانع ، لأن ذلك يخل بالقدر المتوازن الذى يتبادل فيه النبات مع الإنسان كلا من غازي الاوكسجين وثاني اكسيد الكربون ، مع تعاقب الليل والنهار .

وحول نتائج هذا التغير في المناخ ، يقول المؤلف : إن الزيادة المطردة في درجة الحرارة لها آثارها التي بدأت منذ عدة سنوات . ولعل أهمها هو ذوبان ثلوج كبيرة في المناطق القطبية المتجمدة ، وبالتالي ارتفاع مستوى المياه في المحيطات ، واختلال التوازن المتبادل بين السطوح المائية والشواطىء في كثير من البلاد الساحلية ، وازدياد الفيضانات .

كما أشار المؤلف إلى الثقوب التي اكتشفت في طبقة الاوزون التى تحمي الكرة الارضية من الأشعة فوق البنفسجية التي تصدر عن الشمس ، وأرجع أسباب الثقوب إلى تكرار صعود الطائرات النفاثة وهبوطها وطيرانها عبر طبقة الاوزون ، وهذا الأمر يعرضها كل ساعة للتمزق وعدم الإلتئام ، بالإضافة إلى ما تحدثه الصواريخ التي تحمل الاقمار الصناعية وسفن الفضاء ، وكذلك بعض الغازات التي تستعمل في العلب المعبأة تحت ضغط والغازات المستخدمة في التبريد ، حيث إن لها قدرة على الصعود إلى أعالي الغلاف الجوى حيث طبقة الاوزون ، فتتفاعل معها ، ثم تتكون الثقوب التي تسبب سرطان الجلد للإنسان بسبب نفاذ الأشعة فوق البنفسجية إلى كوكب الأرض . □

* ليس في مقدور أية امرأة أو رجل أن يعرفا ماهو الحب الكامل قبل مضي ربع قرن على زواجهما . (مارك توين)
* أعظم اهانة تلحقها امرأة برجل .. قولها له : إنها تزوجت منه شفقة عليه .. لاحبا فيه . (جبران خليل جبران)
* الحب قبل الزواج : رواية .. وبعد الزواج : تاريخ . (صبحي الشاروني)

مختـــارات

اسم الكتاب : الخروج من الدائرة
اسم المؤلف : خليفة الوقيان
الناشر : شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت
عدد الصفحات : ١٢٦ صفحة من القطع الصغير .
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعر جديد للشاعر د . خليفة الوقيـان ، يقدم فيه أحدث إنتاجه . ففيه عشر قصائد جديدة ، تتسم كلها بمستوى جمالي وفكري عال، وتتنوع فيه القصائد من الشعر التأملي إلى الوجدانيات ، إلى الشعر الوطني ، وعلى الرغم من تعدد الموضوعات والأغراض إلا أن قصائده كلها تعبر عن معاناة الشاعر وتفاعله مع قضايا وطنه وأمته ، ذلك التفاعل الخلاق الذي عبر عنه برصانة الموقف المحمل بالحس الساخر .

اسم الكتاب/الغرف الأخرى
المؤلف/جبرا ابراهيم جبرا
الناشر/المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت
عدد الصفحات/١١٢ من القطع المتوسط
سنة النشر/١٩٨٦ م

هذا الكتاب هو أحدث إنتاج للكاتب الكبير جبرا ابراهيم جبرا ، وهو رواية جديدة يمتزج فيها العقل بالجنون ، والواقع بالخيـال ، والحلم باليقظة . ويطرح الكاتب في روايته في قالب فني بالغ التشويق أفكارا شديدة الثراء عن أزمة الانسان المعاصر . وعلى الرغم من جدية أفكار الرواية إلا أنها نوع من أنواع الكوميديا السوداء ، وهي رواية من روايات النفس الواحد ، حيث لا يستطيع القارىء أن يتركها بعد أن يبدأ قراءتها إلا بعد أن يتمها .

اسم الكتاب/سياسات الاتصال في دولة الكويت
المؤلف/د . حسين أبو شنب
الناشر/مطابع الرسالة - الكويت
عدد الصفحات/١٦٨ من القطع الكبير
سنة النشر/١٩٨٧

يقسم الكاتب دراسته التي تضمنها الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، الأول يختص بدراسة السياسة الاعلامية لدولة الكويت ، والثاني يعرض فيه المؤلف تطور الاذاعة والتلفـزة وسياستهـا الاعلامية ، ودراسة تحليلية لبرامجها ، أما الثالث الأخير فخصصه لدراسة صحافة الكويت ، نشأتها وتطورها وخصائصها ، والعوامل المؤثـرة في سياستها ، وقد اشتملت هذه الدراسة على استعراض سريع لتطور وكالة الأنباء الكويتية ، وتطور الحركة المسرحية ، وإدارة الصحافة بوزارة الخارجية . وفي نهاية الدراسة استعراض لاهتمام الكويت بالقضية الفلسطينية خلال نشاط مكتب الاعلام الفلسطيني بالكويت ، لما لهذه القضية من أهمية بين القضايا الإعلامية المطروحة .

الكتاب/دراسات معمقة في الفقه الجنائي

[illegible]

المؤلف/د . عبدالوهاب حومد

الناشر/المطبعة الجديدة بدمشق - سوريا

عدد الصفحات/٨٣٢ من القطع الكبير

سنة النشر/١٩٨٧

دراسة قانونية فقهية مهمة ، يقدمها المؤلف في أبواب ثلاثة ، يناقش فيها عددا من القضايا الفرعية ، ويقدم في النهاية تصورا متكاملا ، يمثل اضافة حقيقية إلى المكتبة القانونية العربية ، ففي الباب الأول مناقشة لظاهرة الجريمة ومقاومتها خلال عرضه لتفاقم الإجرام في المجتمعات المعاصرة ، ثم الدفاع الاجتماعي ، ثم التعاون الدولي لمكافحة الجريمة ، وأخيرا عقوبة الإعدام وأزمة العدالة الجزائية . وفي الباب الثاني يناقش المسئولية الجزائية خلال تطور مفهوم المسئولية الجزائية ، ثم يعرض النظرية السببية في الفقه الجنائي ، فالمسئولية بفعل الغير ، والمسئولية الطبية الجزائية . وفي الباب الثالث يناقش الكاتب تطبيق القانون الجنائي ، فيعرض لأصول تفسير القوانين الجزائية ، ثم رقابة القضاء الجزائي على سلامة النصوص ، ثم السبب التلقائي في محكمة النقض ، وأخيرا القضاء الجزائي الاستثنائي .

اسم الكتاب/في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة

المؤلف/د . أحمد درويش

الناشر/مكتبة النهضة المصرية

عدد الصفحات/٢٠٤ من القطع الكبير

سنة النشر/١٩٨٨

يقدم الكاتب دراسات حول القصيدة العربية المعاصرة ، خلال نماذج شعرية مختلفة لعدد من شعراء العربية ، دراسة عن الصراع المحكم في قصيدة « مرثية لاعب سيرك » لصلاح عبد الصبور ، ودراسة عن الرمز والبناء في قصيدة « الخيول » لأمل دنقل ، و « ديوان الدائرة المحكمة » لفاروق شوشة ، وقصائد عدد آخر من شعراء العربية ، مثل محمد ابراهيم أبو سنة ، وحامد طاهر ، وعبدالفتاح شهاب الدين ، وناجي عبد اللطيف . والكتاب بدراساته المختلفة أنموذج جديد للنقد التحليلي للقصيدة العربية ، خلال دراسات محدودة لنماذج شعرية .

اسم الكتاب/البحر المتوسط في العالم المعاصر . دراسة في التطور المقارن

المؤلف/د . سمير أمين - د . فيصل ياشير

الناشر/مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت

عدد الصفحات/١٢٠ صفحة من القطع الكبير

سنة النشر/١٩٨٨

يعرض الكتاب لثقافة منطقة البحر المتوسط ، شمالها الأوربي ، وجنوبها العربي والتركي في النظام الرأسمالي العالمي ، فيرصد التطورات المتنافرة التي حدثت على ضفتي المتوسط ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذه الطفرة المتقدمة التي حققتها دول الشمال ، والواقعة في جنوب أوربا ، وذلك التراجع في منطقة الجنوب ، في الدول الواقعة في شمال أفريقيا ، مما أدى الى تعميق الفجوة بين بلدان منطقة البحر المتوسط . ويشتمل الكتاب على ثلاثة فصول أساسية ، تناوب المؤلفان على كتابتها ، فكتب الفصل الأول د . أمين عن شروط الاستقلالية في منطقة البحر المتوسط ، وتناول فيه موضوع الجذور التاريخية ونظر في طبيعة التحديات لدوله ، وكتب الفصل الثاني الدكتور فيصل ياشير عن شروط الرأسمالية الحديثة في جنوب أوربا ومستقبلها ، وكتب الفصل الثالث الدكتور فيصل أيضا وعرض فيه لتركيا والوطن العربي من الدولة الى الرأسمالية وناقش فيه مصير التنمية الرأسمالية في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط .

العدد ٣٦٢

يناير ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الاجابات على العنوان التالي

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٢ » . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ فبراير ١٩٨٩

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٢

عبد الرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي اسمان لامعان في تاريخ سورية الحديث . اشتغل الأول في السياسة والثاني في العلوم ، ولكنهما اشتغلا أيضا في الصحافة ، فما اسم الصحيفة التي أسسها عبد الرحمن الكواكبي في حلب سنة ١٨٧٧ ؟ وما اسم الصحيفة التي أصدرها محمد كرد علي في دمشق سنة ١٩٠٨ ؟

أي الصحف التالية أكثر توزيعا في العالم ؟
* برافدا السوفياتية .
* يوميوري شمبان اليابانية .
* ازفستيا السوفياتية .

كان صدور أول جريدة أو نشرة إخبارية ظهرت في أوربا في سنة ١٤٧٠م . ترى في أي البلدان التالية صدرت ؟
* في لندن .
* في باريس .
* في كولن في ألمانيا .

جريدة الوقائع المصرية صدرت عام ١٨٢٨ ، وهي بحق من أقدم الصحف العربية إن لم نقل أقدمها . ترى برعاية من صدرت هذه الجريدة ؟
* نابليون بونابرت .
* محمد علي باشا .

درجت إحدى الصحف اليومية التالية على إصدار أعداد يومية ضخمة جداً . وقد بلغ أحد الأعداد اليومية التي أصدرتها

نحو ألف صفحة ، نعم ، ألف صفحة .
فأي صحيفة تلك ؟
* تايمز اللندنية .
* نيويورك تايمز .
* برافدا .

أي الدول التالية هي الأولى من حيث مجموع النسخ التي توزعها صحفها فيها يوميا ؟ وأيها تأتي في المرتبة الثانية ؟ وأيها تحتل المرتبة الثالثة ؟
* الولايات المتحدة .
* المملكة المتحدة .
* اليابان .

صحف الجدران ليست مقتصرة على العصور الحديثة ، ولا على بلاد الصين ، فقد ظهرت في القرن الأول قبل الميلاد ، وكانت تكتب باليد ، وتعلق في الأماكن العامة ، ليطلع على محتوياتها الجمهور . ترى في أي المدن التالية ظهرت هذه الصحف القديمة ؟
* في رومة .
* في أثينا .
* في الإسكندرية .

صور القمر التي التقطها رواد الفضاء في رحلة أبوللوا (١١) مالبثت الصحف العالمية أن نشرتها في غضون ساعات من التقاطها . ترى كم استغرق من الوقت نقل أخبار معركة الطرف الأغر (نقول الأخبار ولا نقول الصور) ، وهي معركة وقعت في ١٨٠٥/١١/٧ ، حتى نشرتها كبريات الصحف البريطانية ، علما بأن المعركة المذكورة كانت معركة مهمة وحاسمة جداً ؟
* اسبوعا واحداً .
* اسبوعين ونصف أسبوع .
* خمسة أسابيع .

جائزة نوبل لا تشمل الصحفيين ، فأي جائزة تشملهم ؟
* جائزة اوسكار .
* جائزة بولِتزر .
* جائزة إنريكو فرمي .

ما العامل المشترك بين جريدة المقطم التي صدرت في القاهرة ثم احتجبت وبين مجلة المقتطف التي ظهرت أول ما ظهرت في بيروت ؟

جريدة « مرآة الأحوال » هي الجريدة العربية الأهلية الأولى ، وقد أصدرها رزق الله حسون الحلبي سنة ١٨٥٥ . ترى أين أصدرها ؟
* في اسطنبول .
* في باريس .
* في دمشق .

أي المجلات التالية أكثر توزيعا ورواجا في العالم ؟
* ناشيونال جيوغرافك
* لايف .
* ريدرز دايجست .

- من كتاب أطواق الذهب في المواعظ والخطب للزمخشري .

- يقال في المكر والخلابة ، قال الشاعر :

إذا أراد امرؤ مكراً جنى عِللا
وظل يَضربِ أخماسا لأسداس

- ٢٨ يوما لا ثلاثون .. فقد تسلقت آخر ثلاث أقدام في اليوم الثامن والعشرين وبلغت القمة .

- إنه جورج برنارد شو الكاتب المسرحي الايرلندي الشهير بأسلوبه الساخر الذي عاش بين ١٨٥٦ - ١٩٥٠ .

- مجموع شجر البستان (١٥) شجرة لا (١٩) هذا اذا تجنبت الخطأ ولم تكرر تعداد شجر الزوايا مرتين .

- القائل هو الكسندر جراهام بل مخترع الهاتف ، فالعبارة اذن أول عبارة نقلها الهاتف في التاريخ ، أما واطسون فكان مساعدا لجراهام بل وقد سجل اختراع الهاتف باسم الكسندر جراهام بل سنة ١٨٧٦ علما بأن ايطاليا باسم انطونيو مونتشي ، كان قد سبق جراهام بل إلى الاختراع بنحو ١٠ سنوات !

- تروي الأساطير الهولندية قصة بحار هولندي لعنته الآلهة ، وحكمت عليه بمواصلة ركوب البحر إلى الأبد دون السماح له بالتوقف عند أرض يابسة أبدا ، وتؤكد الأساطير أن أي بحار يرى البحار الهولندي الطائر يلقى حتفه لا محالة . ومما يذكر أن ريتشارد فاجنر لحن اوبرا كاملة على أساس هذه الاسطورة ، وقد أطلق الاسم (الرجل الهولندي الطائر) على هذه الاوبرا وعلى سفينة الأشباح التي نتحدث عنها .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٩ أكتوبر ١٩٨٨

الجائزة الأولى : [illegible]

الجائزة الثانية : [illegible]

الجائزة الثالثة : [illegible]

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ [illegible]
٢ ـ [illegible]
٣ ـ [illegible]
٤ ـ [illegible]
٥ ـ [illegible]
٦ ـ [illegible]
٧ ـ [illegible]
٨ ـ [illegible]
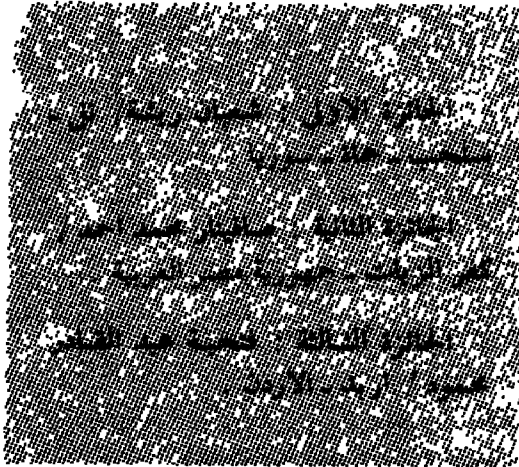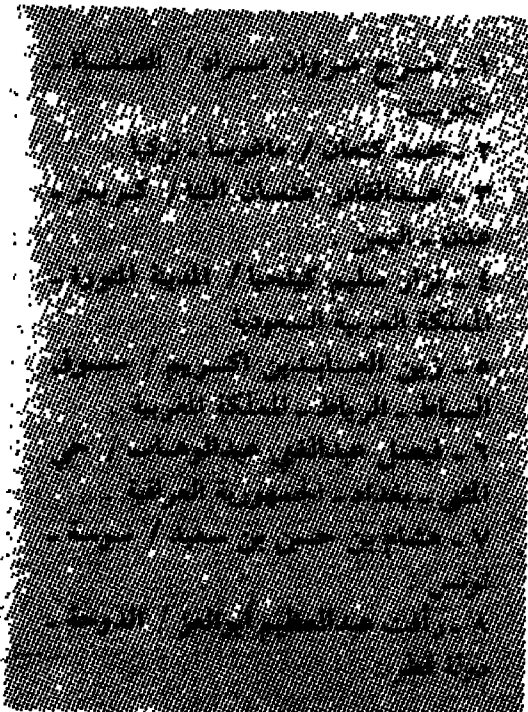
ـ في مدينة البندقية طبعا ، فهذا القارب المتميز يحل في تلك المدينة محل السيارات والعربات والباصات ، وذلك نظراً لأن الأقنية والممرات المائية تحل محل الشوارع والطرق اليابسة في البندقية .

ـ سفينة ماري سلست هي السفينة المقصودة .

ـ أهل الصين هم الذين اكتشفوا النار ، وذلك قبل نحو ٤٠٠,٠٠٠ سنة ، فقد عثروا سنة ١٩٢٠ وبالقرب من بكين على بقايا مخلوق يشبه الانسان وعثروا على ما يدل على استعماله النار .

ـ المسألة بسيطة حقا ، فالمرأة هي أم الشاب ، ذلك أن أمه ابنة أمها هي ومعنى هذا أن الشاب ابن المرأة التي أمامه أو ابن اختها ، ولما كانت المرأة ابنة امها الوحيدة ، أي بلا أخوات ، كان الشاب ابنها لا محالة .

ـ الصفدي ملغزاً في الخمرة .

□□□

من الأحداث الشطرنجية المهمة التي جرت في الاتحاد السوفييتي منذ أواخر شهر يوليو الماضي بطولة الاتحاد السوفييتي الخامسة والخمسون للشطرنج ، ويتصدر كوكبة الأبطال الدوليين الكبار المشاركين في هذه البطولة بطل العالم الحالي جاري كاسباروف ، وثلاثة من أبطال العالم السابقين ، هم أناتولي كاربوف (١٩٧٥ - ١٩٨٥) ، وفاسيلي سميسلوف (١٩٥٧ - ١٩٥٨) ، وميخائيل تال (١٩٦٠ - ١٩٦١) ، ناهيك عن كبار أبطال الاتحاد السوفييتي ، والعديد من المرشحين لملاقاة بطل العالم للشطرنج أمثال أندريه سوكولوف ، وارتور يوسوبوف ، وميخائيل فاغانيان ، وكثير غيرهم من كبار اللاعبين .

قام بدور الرئاسة في تحكيم الدورة واحد من أهم مشاهير الشطرنج في العالم ، نعني ميخائيل بوتفينيك الذي حاز على بطولة العالم للشطرنج ثلاث مرات : ١٩٤٨ - ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، والذي قال معلقاً على هذه الدورة الفريدة : « لم نعهد مثل هذه المنافسة الحامية على بطولة الاتحاد السوفييتي للشطرنج منذ أمد بعيد » .

وكان أول الطامحين للفوز بتاج البطولة لهذه الدورة بطل العالم الحالي جارى كاسباروف الذي لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق أن فاز بهذه البطولة عام ١٩٨٠ ، وكان الطامح الثاني للفوز ببطولة الدورة هو بطل العالم الأسبق أناتولي كاربوف الذي سبق أن حاز بطولة الاتحاد السوفييتي للشطرنج مرتين ، الأولى في عام ١٩٧٦ ، والثانية في عام ١٩٨٣ . ومن الطامحين للفوز بهذه البطولة أيضا الكسندر بليافسكي الذي فاز بها في العام السابق . وقد فاز بالمركز الأول في هذه الدورة أناتولي كاربوف ، وفاز بالمركز الثاني فيها جاري كاسباروف .

والدور التالي الذي اخترناه لكم من هذه البطولة بين بطل العالم الحالي (أسود) والأستاذ السوفييتي الكبير غوريفيتش (أبيض) .

□ غوريفيتش	■ كاسباروف
١) د ٤	ح - و ٦
٢) ح - و ٣	ز ٦
٣) جـ ٤	ف - ز ٧
٤) ح - جـ ٣	د ٥
٥) و - ب ٣	د × جـ ٤
٦) و × جـ ٤	ت
٧) هـ ٤	ح - أ ٦

مربع سيء للحصان عادة ولكنه هنا يخدم استراتيجية كاسباروف

٨) ف - هـ ٢	جـ ٥
٩) د ٥	هـ ٦
١٠) ت	هـ × د ٥
١١) هـ × د ٥	ر - هـ ٨
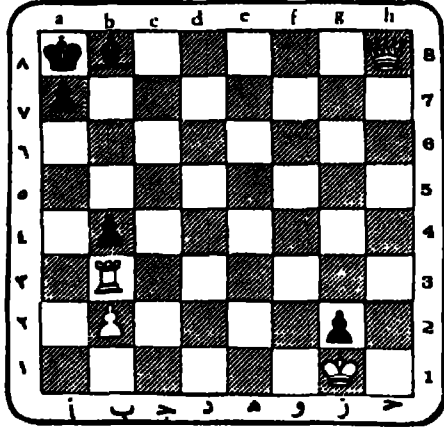
٢ ب - و ٤ | ف - و ٥
٣ (أ) - د ١ | ح - هـ ٤ ! (رائعة)
٤ ب - د ٣ | ف × جـ ٣
٥ ب × جـ ٣ | ب ٥
١٦ و×ب ٥ (مضطرا) | ح × جـ ٣
١٧ و × أ ٦ | ف×د ٣ !
١٨) و × د ٣ | ح- هـ ٢ +
١٩) م- حـ ١ | ح × و ٤
(ويخرج بقطعة زائدة)
٢٠) و - جـ ٤ | و - د ٦
٢١) ر (و)- هـ ١ | ر×هـ ١ +
٢٢) ح × هـ ١ | ر - ب ٨
٢٣) أ ٣ | ر-ب ٢ !
٢٤) و ٣ | و-هـ ٥
تمهيداً لتثليث الهجوم على ز ٢
٢٥) و - هـ ٤ | و - ز ٥
٢٦) ز ٣ | و - حـ ٥
٢٧) حـ ٤ (مضطرا) | ح - هـ ٢
٢٨) و - هـ ٨+ | م - ز ٧
٢٩) د ٦ ؟ | ح×ز ٣+
(على أمل الترقية)
٣٠) م - ز ١ | ح- هـ ٢+
(ليس باليد حيلة !)
٣١) م - و ١ | و - و ٥
٣٢) و × هـ ٢ | و - حـ ٣+
ويستسلم الأبيض . □■□

مسألة العدد

ســات ٣

من إهداء القـ ـرىء بسام عقيل (سوريا)

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٩ - اكتوبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . أشرف وليام شرقاوي ـ المنيا/ ج . م . ع
٢ . والفي عبد الفتاح ـ سطات/ المغرب
٣ . شرف بشير ـ بيروت/ لبنان
٤ . محمد ياسر الحمدو ـ أدلب/ سوريا
٥ . يوسف محمد يوسف ـ مكة المكرمة/ السعودية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . مرتضى حسين ـ صنعاء/ الجمهورية العربية اليمنية
٢ . ماجد أحمد محمد ـ عمان/ الأردن
٣ . محمد أيمن أبو التوت ـ قونيه/ تركيا
٤ . محمد أحمد لحتر ـ حضرموت/ اليمن الديموقراطي
٥ . فهد العبيدي ـ تونس/ الجمهورية التونسية

حل مسألة عدد نوفمبر ٨٨ العدد رقم (٣٦٠)

١) ف - جـ ٦ ثم يأتي الوزير لتعزيز الفيل والتمهيد لكش مات في النقلة الثالثة

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

عزيزي القارىء :

كل عام وأنتم بخير .

مع بداية عام جديد ، نزف إليكم تهنئة ، شاكرين لكل من كتب لنا فرسائلكم هى احدى المؤشرات المهمة التي نعرف من خلالها نتائج أعمالنا هنا في العربي .

نحن لا نهمل أية رسالة تردنا ، لكننا لا نستطيع أن ننشر كل ما يردنا لأسباب لا تخفى عن اللبيب ، منها المساحة والموضوع ، بعضكم طلب كتبا أو مراجع أو عناوين شخصية ، كل ذلك نستجيب له بقدر طاقتنا على المستوى الشخصى ، وبعضكم اقترح أبوابا جديدة أو استطلاعات جديدة ندرسها بعناية .

□■□

رسالة الفكر والأدب

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● تحية إعجاب وإعتزاز وتقدير ،

إنني سعيد كل السعادة حين ألتقي بمجلتكم الغراء « العربي » في مطلع كل شهر ، حاملة معها رسالة الفكر والأدب والثقافة إلى أقطار الوطن العربي للناطقين بلغة الضاد ، وتزداد فرحتي كلما برق في الأفق معين ثقافي جديد ، لقد أصبحت « العربي » و « كتاب العربي » و « العربي الصغير » معين ثقافة وعلم لكل أبناء العروبة والناطقين بلسانها .

القارىء : طه حسين سليمان

عابدين - القاهرة

□■□

العربي والوحدة العربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● أنا أقرأ « العربي » منذ صدور العدد الأول ومازلت كذلك ، وأنا أجد فيها دائما جديدا ، ولعل استمرار المجلة حتى هذا اليوم وبهذا المستوى الراقي يعود الى مراعاتها أذواق القراء والتغيرات التى تطرأ على العالم ، والى محافظتها على الجوهر

والأصل . في العدد (٣٥٧) اغسطس ١٩٨٨ قرأت كلمة المحرر بتمعن ، ولمست الخيوط الجديدة في بعض المقالات ، وكذلك معالجتها موضوع « الوحدة العربية » ، والواقعية التي يعتمدها كتاب العربي . ونحن أحوج ما نكون الى ذلك في هذه الأيام ، كما أني أدركت أن « العربي » تقدم مقالاتها ومواضيعها بعيدا عن المغالاة والخيالات المجنحة ، إنني أرجو أن تتابع هذه المجلة نهجها ، وأن تستقطب الأفكار الجديدة النيرة .

القارىء : إسماعيل دنوسي
سلمية ـ الجمهورية العربية السورية

□■□

الوسواس القهري هل يزول ؟

● قرأت في عدد العربي رقم ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨ موضوع « الوسواس القهري هل له علاج ؟ » بقلم الدكتور دري حسن عزت ، وقد تفضل بتزويدنا بمعلومات نافعة وواقعية وصريحة ، استطاع خلالها الوصول إلى فكر القارىء بسهولة وإني أشكر المجلة على طرح مثل هذه الموضوعات المهمة ، لكن لدي سؤال أوجهه الى الدكتور دري حسن ، وهو : ماالذي يثبت أن للوسواس القهري علاجا ؟ وهل زواله مؤكد أم لا ؟

القارىء : أحمد ناصر بلخدر
الاحساء ـ المملكة العربية السعودية

□■□

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● لقد لفت نظرى كما لفت نظر العديد من القراء مقال نشر في العربي عدد (٣٥٨) سبتمبر ١٩٨٨ عنوانه « حرب الظواهر الخارقة » بقلم محمد حسن بيرقدار ، واستغربت أن مثل هذه المواضيع التي تدخل تحت بند ما يسمى الباراسيكولوجى ، أو علم ماوراء النفس البشرية مازال يروج له في بعض الأوساط العلمية ، وأنه يمكن للإنسان أن يستخدم بعض القدرات الخارقة في الحروب حسبما جاء في المقال . وكما أعلم فإن هذه الاطروحات قد أقيم الدليل على عدم مصداقيتها من قبل العلماء التجريبيين على الرغم من تورط بعضهم في تأكيد وجود أناس

حوار القراء

يملكون قوى خارقة خارج نطاق الحس .

كما أن المقال قد ذكر أن الاتحاد السوفيتي أول دولة بدأت البحث الجدى في كل « الظواهر الخارقة » ، وان هناك أدلة تقول : إن لدى السوفييت مجموعة من الناس الذين يتمتعون بقوى خارقة ، وأعتقد أن هذا غير صحيح لأنهم في الاتحاد السوفيتي لا يعتقدون بوجود الخوارق والغيبيات . كما أن عددا من العلماء العرب قد كتبوا ينفون هذه الظاهرة ، ومنهم د . عبدالمحسن صالح ، وهذه الأفكار المستوردة التي تبدو ظاهريا علمية يرفضها العقل والعلم .

القارىء : عبد السلام سالم عبد الله
مدينة خور مكسر/ جمهورية اليمن الشعبية

□■□

قفصة تبحث عن العربي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● تحية عربية صادقة وثناء وفير من أرض الجمهورية التونسية الى أسرة مجلة « العربي » على الجهد الذى تبذله لخدمة القارىء في الوطن العربي الكبير ، فمجلتنا هذه تقدم للقارىء العربي مواضيع مختلفة ، علمية وثقافية وسياسية واقتصادية ، بأسلوب رفيع بسيط يسهل على كل قارىء أن يفهم مغزاه ، إننا في تونس وبالتحديد في ولاية قفصة « نعاني » من قلة نسخ أعداد مجلتنا ، وهذا ينسحب أيضا على عاصمة الجنوب « صفاقس » ، ومن هذا المنطلق أناشدكم أن تضاعفوا نسخ الأعداد التى ترسلونها الى تونس .

القارىء : عبد الملك بن على المكى
ولاية قفصة ـ الجمهورية التونسية

□■□

"العربي" في ليبيا

● فقدنا منذ فترة مجلتنا المحبوبة ، هنا في ليبيا ، وغابت عنا الجهود المتواصلة الرائعة التي جعلت مجلة العربي في أوج مجدها وفي موقعها الصحيح الذي نتمناه لها طوال الزمن .

فمنذ تسعة أشهر والمجلة تغيب عن القاريء العربي في ليبيا ، وغيابها في رأينا يسبب نقصا ثقافيا وفكريا واعلاميا لنا نحن القراء ، وقد فشلت جميع محاولاتنا في الحصول عليها عن طريق المراسلة . فهل هناك نية لإرسالها إلينا مرة أخرى ؟

القارىء / صلاح أحمد لساعدي
درنة / ليبيا

العربي

ـ نشكرك على الاهتمام والحس القومي بهذا الصرح الثقافي ، ونود أن نزف بشرى للقراء الأعزاء في ليبيا ، بأن الإشكال الذي حدث مع الموزع في طريقه للحل خلال الشهور القادمة ، وأن المجلة ستعود الى سابق عهدها مع القراء الأعزاء في كل مكان من الوطن العربي .

□■□

هل العرب غير معترف بهم عالميًا ؟

● كم حزنت وأنا أتابع مع الملايين ـ عبر الأقمار الصناعية ـ حفل الختام لدورة سيول الأولمبية ، وبقدر إعجابي وانبهاري بروعة حفل الختام وجماله الا أنني حزين جداً ، ليس لأن العرب لم يحققوا شيئا يذكر ، لكن لأنه لم تردد عبارات التحية والشكر في الختام باللغة العربية ، في الوقت الذى رددت فيه تلك العبارات بلغات كالانجليزية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات ، وهذا يعني أن اللغة العربية غير معترف بها ، في الوقت الذى تمثل فيه أقطار الوطن العربي بسكانها ثقلا سياسيا واقتصاديا وبشريا له أثر كبير على سكان كثير من بقاع الكرة الأرضية ، هذا فضلا عن أن العرب قد شاركوا مشاركة فاعلة بكل الألعاب في هذه الدورة .

القارىء : حسين ابراهيم بيومي
السويس ـ جمهورية مصر العربية

العربي

ـ إن عدم إذاعة عبارات التحية والشكر في حفل الختام باللغة العربية ، يرجع الى أن العربية ليس معترفا بها على صعيد اللجنة الأولمبية الدولية ، وهذه مهمة ملقاة على عاتق قياداتنا الرياضية التي نأمل أن تجعل العربية لغة رسمية ضمن اللغات المعترف بها من قبل هذه اللجنة .

□■□

الإسلام والشعر

● لقد قرأت مقال الدكتور مصطفى رجب « حقيقة موقف الإسلام من الشعر » في عدد ٣٥٧ اغسطس ١٩٨٨ ، وقد أعجبني كثيراً لأنه يبين أخطاء كثيرة انتشرت حول موقف الإسلام من الشعر ، وقد أتى باستشهادات كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة . كنت أود أن تتضمن المقالة موقف الخلفاء الراشدين من الشعر وقد جاء ذكر موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المقال لكنه بأسطر قليلة ، ومما يجدر ذكره أن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أكثر الخلفاء الراشدين الذين ينسب إليهم الشعر ، وفي النهاية أشكر الدكتور مصطفى على هذا الموضوع الجيد ، وأتمنى أن يكتب مقالاً آخر تكملة للموضوع .

القارىء : خالد ابراهيم أحمد محمد
الإسماعيلية/ جمهورية مصر العربية

□■□

● وردنا من السيد عمر همدر الطالب في كلية الزراعة في حلب رسالة مؤرخة ٨٨/٧/١٠ ، تتضمن تعقيبا مهما على موضوع الثورة الزراعية المرتقبة على الأبواب (باب البيئة العدد ٣٥٦) ، ويطيب للعربي أن تقدم لقرائها

حوار القراء

مقتطفات من رسالته .

الثورة الزراعية التي أشرتم اليها ، وقوامها بذور مهجنة لنباتات جديدة تتميز بغزارة الانتاج ، ومقاومة الحشرات ، وما إلى ذلك . وهذه الثورة ليست الوحيدة في هذه الأيام ، فهناك ثورات زراعية أخرى عديدة ، أود أن أذكر واحدة منها .

فقد أنتجت بعض الشركات العالمية في السنوات السابقة مبيدا حيويا يعرف باسم (Agrobacterium radiobactor 584) ، وهو عبارة عن بكتيريا أو جراثيم عرضت للأشعة ففقدت حيويتها . وقد استعمل هذا النوع من البكتيريا في بعض الحالات لعلاج المرض البكتيري المعروف (التدرن التاجي) ، وهو مرض يصيب الأشجار المثمرة كالتفاح والعنب ، ويصيب عددا كبيرا من النباتات الحولية كالطماطم .

ومما يذكر أن هذه الجراثيم ـ عند رش الأشجار بمحلولها ـ تدخل إلى الأنسجة النباتية وتتكاثر داخلها ، وبالتالي تنافس البكتيريا المنطلقة المسببة للمرض ، فتحل محلها ، وبما أنها فقدت حيويتها فإنها لا تفرز أي مواد سامة أو ضارة ، فلا تتضرر الأشجار باستعمالها ، فضلا عن أنها تكتسب الوقاية من البكتيريا المتطفلة الخبيثة باستعمال هذه الجراثيم الحميدة .

□■□

ردود قصيرة

* القارىء عدنان كامل كيلاني من حلب بالجمهورية السورية يبدى إعجابه (بحديث الشهر) لرئيس التحرير الذى يلمس فيه المتعة الشيقة والمفيدة .

* القارىء حسنى مرسى من محافظة سوهاج من جمهورية مصر العربية يستفسر عن كيفية إرسال أجوبة مسابقات المجلة ، وكيفية ارسال جوائز الفائزين الى البلاد الأخرى من الكويت ، نقول له : إن ارسال الإجابات عن اسئلة المسابقة لابد أن يرفق مع « كوبون المسابقة » ، أما الجوائز فإنها ترسل بشيك صادر عن وزارة الإعلام ، أما الاشتراكات فإنها ترسل من المجلة الى المشتركين مباشرة .

* القارىء حسين محمد الهدار من البيضاء في الجمهورية العربية اليمنية أرسل إلينا يقول : لقد قرأت ما قامت به المجلة من الاستطلاع الخاص عن مدينة زنجبار في العدد رقم ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨ وما كتب عن تلك القلعة التاريخية ، وما قامت به من أدوار عظيمة أسهمت بها في تاريخنا العربي والاسلامى . وبما أن كثيرا من القراء يجهلون مثل هذه الأدوار التاريخية لأمتنا فإننا نتوجه بالشكر الى الأخ الدكتور رئيس التحرير والإخوة العاملين بالمجلة على إبراز مثل هذا العلم للتعرف على ماضينا المجيد .

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية

١ . عاصمة قارة تابعة للكومنولث ، نجم
٢ . عاصمة دولة افريقية متاخمة للسودان الشقيق
٣ . عاصمة ألمانية مبعثرة ، أهل
٤ . عاصمة دولة أطلسية الى الغرب من بريطانيا ، محصول زراعي شعبي مقلوبة .
٥ . مركز صناعي فرنسي مهم ، الوليد مبعثرة .
٦ . مناطق مستنقعية في دولة عربية ، من أواخر حروف الهجاء العربية .
٧ . مختف ، حرفان متشابهان ، عكسها بحر
٨ . أداة استفهام ، مدينة مقدسة من مدن العراق
٩ . تجدها في شوط ، نهر عربي كان مسرحاً لمعركة إسلامية فاصلة
١٠ . شنقيط مبعثرة ، عاصمة عربية الى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية

كلمات رأسية

١ . عاصمة دولة إسلامية متاخمة لروسيا ، عاصمة دولة عربية من أقدم مدن التاريخ .
٢ . فعل أمر بمعنى اقترب ، صفة لنوع مشهور من البرتقال .
٣ . عاصمة دولة كبرى في جنوب القارة الآسيوية .
٤ . بمعنى كفى ، كانون غير مرتّبة .
٥ . يأكل للجمع ، رطل مبعثرة .
٦ . سيّد ، عاصمة افريقية على المحيط الهندي .
٧ . أحرف متشابهة ، ثعلب الصحراء مبعثرة .
٨ . مركز تجاري مهم في شمال الجزائر ، البارحة
٩ . تجدها في حاد ، القوباء مبعثرة
١٠ . جمع عشيرة ، حرفان متطرفان من كلمة طيرك

● حل مسابقة العدد الماضي ـ ديسمبر ١٩٨٨

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

يناير ١٩٨٩ م

العالم المعاصر
والصراعات الدوليّة

تأليف

الدكتور عبد الخالق عبد الله

الكتاب ١٣٣

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

العربي

■ يوغسلافيا
رياح التغيير
ومخاوف المستقبل

■ مدن الصحراء الليبية
أساطير وحقائق

رولكس
الأناقة والتحمّل

الصحراء او التي تعرف بالارض غير المضيافة، هي من اصعب بقاع العالم سواء للعيش او للعمل.

منذ اقدم العصور، عاش العرب في تلك الاصقاع واعتادوا على الاقامة والعمل فيها وحولوها للارض المضيافة التي اصبحت بفضل كرمهم وشجاعتهم، اول منطقة صحراوية آهلة بالسكان في العالم اجمع. والتي استمدت العائلة [illegible] من جيرانها

في سنين القحط لصاحبة، التي تحولت بفضل جهودهم الدائبة وفي اقسام كبيرة منها الى حدائق غناء. كان العزم والمثابرة والاصرار اهم الصفات التي ساعدتهم على العيش في مثل الظروف الصعبة

في الازمان الغابرة كان العرب يعرفون الوقت بواسطة علم الفلك اي بواسطة النجوم والشمس والقمر. اما اليوم ومع التطور التكنولوجي فقد قدمت لهم رولكس افضل آلة توقيت يمكن الاعتماد عليها في حرارة الصحاري اللاهبة اثناء النهار او البرودة القارسة اثناء الليل. ساعة لا يدخلها الغبار والرمال اطلاقا وذلك بفضل علبة الاويستر وفصل السلامة المثبت بإحكام على هيكل الساعة الصلب المصنوع من كتلة معدن واحدة سواء من الذهب عيار ١٨ قيراطا او من الفولاذ الذي لا يصدأ.

رولكس داي ديت دايتة المل، من الذهب الاصفر عيار ١٨ قيراطا مرصعة بالماس.

العـــدد ٣٦٤ السـنة الثانيـة والثلاثون مـــارس ١٩٨٩

مجـــلة ثقـــافيـة مصــورة
تصـدر شهـريًا عـن وزارة الإعــلام بـدولـة الكـويت
للوطن العربي ولكل قـارئ للعـربيـة في العـالـم

رئـيس التحـريـر
د. محمـد الرميحي

عنوان المجلة

العــربي
ص.ب: ٧٤٨ ـ الصفـاة
الرمز البريدي 13008 الكـويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا: "العـربي" الكـويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI
Issue No. 364 Mar . 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الاعلانات

الاشتراكات: ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشا	سلطنة عمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

● مدن الصحراء الليبية .... ص ١٣٢

أدب وفنون :

المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

صورة الغلاف :

تعيش يوغسلافيا أياما عصيبة في تاريخها. وتعاني من كثير من الصعاب والأزمات التي تهدد تاريخها. العربي كانت هناك تتابع وترصد.

[طالع الاستطلاع ص ٦٨]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

الكويت .. والقضايا الصعبة !

منذ مطلع هذا العام ، أخذنا على أنفسنا أن نتحدث عن المستقبل ، ليس حديث الرجاء وإنما حديث العلم . فالمستقبل يصنع الآن ، أو على الأصح توضع خطوطه الرئيسية . ومستقبل الأمة العربية مرهون بوفاقها وإعلاء ماهو مشترك بين أقطارها فى مواجهة التحديات وهى كثيرة . ولعل أهم تحد يواجه هذه الامة هو موقفها من القضية الأم ، قضية شعبنا وأهلنا في فلسطين الذين مازالوا يناضلون في الداخل والخارج من أجل مكان كريم تحت الشمس يضمهم ويجمع شملهم .

والقضية الأخرى التى مازالت تنال جهداً كبيراً أيضاً ـ وهى قضية لها علاقة بالمستقبل العربي ـ هي القضية اللبنانية ، ولقد لعبت الكويت ـ ومازالت ـ الدور الأساسي في البحث عن حلول لهذه المشكلة التى طالت وأرقت الأمة ، ونزفت على ساحتها دماء غزيرة ، وما اختيار الكويت لرئاسة اللجنة العربية المكلفة بالاتصال بالأطراف المعنية ، ورئاسة الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي إلا توكيد للدور الفاعل للكويت كسياسة ، وللرجل كشخصية دبلوماسية دءوبة ، لها ثقلها عربياً وعالمياً ، تسعى جاهدة لتوفير حلول لكثير من قضايانا الصعبة

وتلعب « العربي » الدور الثقافي المكمل للسياسة السابقة منذ أن صدرت حتى الآن ، فتذهب إلى الواحات الليبية في هذا العدد ، تستقصى حياة الناس ومعيشتهم ، ومن القضايا العالمية الساخنة تكتب عن يوغسلافيا ، البلد الصديق للعرب الذى يتعرض لتغيرات جديدة

أما « مائدة » الثقافة والأدب والعلوم في هذا العدد فهى متنوعة عامرة يقدم لنا فيها الدكتور محمد عمارة موضوعا أزليا معروفا ، من زاوية جديدة ، وهو علاقة الرجل بالمرأة . . أهى علاقة تنافس أم تكامل ؟ وعن رحالة عربي منسي هو أبو حامد ، يكتب لنا الاستاذ فارس المنصورى عن تفصيلات رحلاته واكتشافاته ، ويكتب لنا الدكتور محمد موفاكو عن « رحلة الفجر عبر التاريخ » ، ويتناول الدكتور سمير رضوان موضوع الساعة الذى يشغل أوساطاً كثيرة في العالم ، نعنى به موضوع البيئة والسموم التى تُلقى في الأنهار فتسبب أمراضا وعاهات للناس . ونقدم في « وجها لوجه » حديثاً مع الشاعر العربي نزار قبانى ، يقول فيه مالم يقله من قبل .

وفي العدد كثير من الموضوعات الطبية والعلمية والثقافية الأخرى التى تمثل زاداً دسماً مع إطلالة الأيام الأولى من فصل الربيع الذى نرجو فيه ـ وفي الأيام التى تليه ـ للامة العربية تحقيق الكثير من أمانيها ، فإلى العدد . □

« المحرر »
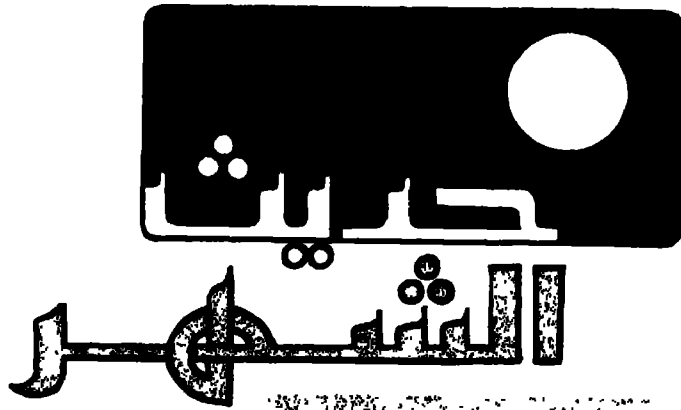
بقلم الدكتور
محمد الرميحي

ألا يوحي هذا العنوان بالتناقض ؟ فكيف يمكن أن نكتب تاريخاً وفي الوقت نفسه يكون هذا التاريخ للمستقبل ؟

أليس التاريخ هو الأحداث التي مرت بالإنسان في السابق ؟ وأليس المستقبل في علم الغيب لا يعرفه أحد ؟ إذن كيف يمكن أن نعرف ماذا سيتمخض عنه المستقبل من حوادث وأحداث ؟

ولكن محاولة لقراءة تاريخ المستقبل قد تكون ذات فائدة ، إلا أن هذه القراءة تبدو صعبة ، بل مستحيلة ، ولكنها محاولة ، ما يزال الإنسان يدأب أبداً ليكشف كنهها ويسبر أغوارها .

في الماضي القريب كانت قراءة المستقبل ، أو التأريخ للمستقبل ، من ضروب التخمين ورجم بالغيب ينبيء عنه أناس كثيرون ، بل كانت صناعة للمنجمين والمخمنين وقراء الطالع والكف ، يؤمن بها العامة ويتطير منها الخاصة ، ولم يلبث - نتيجة اشتداد شغف الانسان لمعرفة

قــــراءة المســتقبل أصـــبحت ضـــرورة مـــن ضـرورات التـخطيط

ستقبل ـ أن أصبح علماً ، أو كاد ، ثم تحول إلى ضرورة من ضرورات حتمعات التي تريد أن تنهض وتلحق بالركب .

فلم تعد قراءة المستقبل موضوعا للتندر ، أو مرحلة تشوق الناس رفة ما تحمله وما تخفيه ، بل أصبحت ضرورة من ضرورات خطيط ، فأنت إن لم تعرف ما سوف تتطور اليه الحياة الحالية من واقعها دي والمعنوي قد تفاجؤك هذه التطورات وأنت غير مستعد لها . ولقد جئت شعوب كثيرة بتطورات في المستقبل جعلتها تنقلب رأساً على عقب ي معاشها ومعيشتها .

وقديما ألبس الناس أثواب الولاية والكرامة ، بل والمعجزات ، لمن كان يخبرهم عن أمور كانت خافية عنهم ، وكان أهل الكرامات هؤلاء مقدرين مبجلين لدى شعوبهم ، يلجأ الناس إليهم إن استعصى عليهم أمر أو تعقدت عندهم ظاهرة .

أما اليوم فقد أصبح للتنبؤ قواعد وقوانين ، فهو لا ينبع من فراغ ، وقد حل المخطط والعالم المجرب والاقتصادي محل المنجم وضارب الودع .

والتنبؤ هنا ، أو قراءة المستقبل ، تعني قراءة مستقبل الشعوب وليس الأفراد ، وكما هي الحال في بعض مناطق العالم المتقدم أصبحت قراءة تاريخ المستقبل علماً وعلماء ، وأصبح لها معاهد خاصة تضع التصورات المستقبلية أو الخيارات المختلفة أمام المخططين والمسؤولين والسياسيين فيمضون قدماً في سياسات تؤدي الى نتائج محسوبة ، وقد قمنا في الوطن العربي بنفس المحاولات ـ على قلتها وعدم دقتها ـ كي نقرأ المستقبل أو نؤرخ له . وكانت هناك دراسات متفرقة هنا وهناك ، في تقديري أن كثيراً منها لا يقدم أي فائدة ، لأنها في الأساس لا تعتمد على معطيات وحقائق ثابتة أو معروفة .

في الغرب أصبح أشخاص مثل آلن توفلر ، صاحب كتاب صدمة المستقبل وبعده .. الموجة الثالثة » ، ومثل بول أردمان صاحب تاب « أيام امريكا الأخيرة » ، أصبح مثل هؤلاء الكتاب من أشهر ناس ، لأن كتبهم التي كتبوها عن المستقبل جرى تداولها وقرأها ملايين قراء ، أما ما كتبناه نحن ـ على قلته ـ فلم يعرفه أحد خارج دوائر سيقة .

ولكن السؤال يظل حياً وحيوياً : ماذا عن المستقبل ؟

هناك دراسات متفرقة تحاول أن تستكشف المستقبل العربي . معظمها وضع له هدف زمني هو سنة ألفين ميلادية ، وهي سنة لا يفصلها عنا سوى عقد من الزمن منذ الآن . وكانت هناك دراسات عن العرب في الثمانينيات ، وأخرى تحمل اسقاطات قديمة أيضا عن سنة ألفين خاصة بهذا القطر العربي أو ذاك . بعض هذه الدراسات أو المقالات بجانب جدتها لا تخلو من الطرافة ، ولا تخلو من مفارقات سوف أشرك القاريء معي في النظر إليها من جديد ، ومقارنة ما كتب فيها بما نحن فيه الان

أهل الكهف وأهل الصحافة

العبرة الكامنة في قصة أهل الكهف أنهم بعثوا في زمان غير زمانهم ، وقد تغير عليهم كل شيء بعد ذلك ، المأكل والملبس والناس والمعاملات ، وباختصار فهم لم يستطيعوا التكيف مع الزمن الجديد وفضلوا العودة الى كهفهم أو الى موتهم .

ومن ضمن محاولات الصحافة العربية ـ المبكرة والقليلة لإعادة قصة أهل الكهف من جديد ـ ما أصدرته مجلة الهلال القاهرية سنة ١٩٥٠ . فقد أصدرت عدداً خاصاً عن سنة ألفين ، كتب فيه مجموعة كبيرة من الكتاب تراوحت كتاباتهم بين الهزل والجد ، ولكن بعض فقرات مما كتبوه تثير خيال القاريء وتجعله يفكر من جديد فيما يعنيه « تاريخ المستقبل » .

من المقالات الملفتة للنظر ما كتبه المرحوم فكري أباظة ، وهو الكاتب والسياسي الساخر ، كان يتخيل أنه يكتب في أول يناير سنة ٢٠٠٠ ، بعد أن حصل على دواء سماه (الخلوديوم) من صيدلي سويسري صديق ، هذا الاكسير الذي يضيف سنوات طويلة على عمر الإنسان كما تخيل الكاتب يومئذ .

فقد تخيل فكري أباظة قيام ما سماه « الاتحاد المصري العربي » فقال : (إن الاتحاد المصري العربي الذي يضم مصر والسودان وأوغندا وأرتيريا والحبشة وشمال افريقيا والحجاز وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن والعراق ، يعاني الآن أزمة سياسية ضد الاتحاد السوفيتي ، ولكن بارك الله في العلماء المصريين الذين اخترعوا القنابل الطائرة من غير محرك

ماهي المفاجأة التي ستدهش أهل الكهف إذا عادوا من جديد؟

ولا قائد . وانني نصل الى مسافات شاسعة ، ولا ننتظر أن يكون الروس قد وصلوا الى مثل هذه الاكتشافات أو الى ما يقاومها ويقضي عليها !

ويقول : (أتصور مصر زعيمة هذا الكيان العظيم « الاتحاد المصري العربي » وقد تأهلت لهذه الزعامة بتضاعف عدد سكانها حتى بلغ ٤٠ مليونا من النفوس !) . الآن في الثمانينيات أصبح عدد سكان مصر خمسين مليون وأكثر !!

ثم يقول : (نحن الآن في موسم السياحة ، واكتظت الفنادق المنتشرة على طول جبل المقطم بالسياح ، والاقبال شديد على المقاهي والكباريهات والمسارح ودور السينما المنتشرة في غابات المقطم الأخضر اليانع) .

أما أظرف ما كتبه المرحوم فكري أباظة في هذا الخصوص فقوله : (أعارض أشد المعارضة في القرض الذي اعتزمت حكومة مصر أن تقرضه لبريطانيا فالمبلغ جسيم ، وحقيقة أن ميزانية الدولة بلغت خمسمائة مليون من الجنيهات ، وبلغ الاحتياطي مئتي مليون ، إلا أن أمام مصر مشروعات خطيرة لتعمير الاقليم الجنوبي حتى خط الاستواء ، فضلاً عن أن الضمانات التي عرضتها انجلترا ضمانات ضعيفة غير موثوق بها . .) .

وبالمناسبة فإن اجمالي الدخل القومي المصري في موازنة ١٩٨٨ - ١٩٨٩ قد بلغ ما يقرب من ٢٤ ملياراً من الجنيهات !!

مصر تقرض بريطانيا ... ولكن ضمانات السداد ضعيفة غير موثوق بها .. !

وصول الإنسان إلى القمر

المرحوم الدكتور محمد عوض محمد كتب سنة ١٩٥٣ عن الأرض كما يراها سنة ٢٠٠٠ ، فقال : (وقد بدأ الناس يتحدثون عن امكان وصول الانسان الى القمر ، وأن هذا الحلم الذي كان وهماً سيغدو حقيقة مؤكدة في عشرات السنين المقبلة).

ويقول في موضع آخر : (وسكان العالم اليوم يتجاوزون ألفين من الملايين وقد يصلون في سنة ٢٠١٣ إلى ضعف هذا العدد).

لقد وصل الإنسان الى القمر عام ١٩٦٩ أي قبل التاريخ الذي حدده الكاتب بعشرات السنين ، وكذلك تجاوز عدد سكان العالم التوقع الذي قال به فوصل إلى خمسة مليارات نسمة ، ونحن ما نزال في عام ١٩٨٩ ..!

ونشرت الهلال لأحد الكتاب الانجليز سنة ١٩٥٠ مقالا بعنوان « العالم بعد نصف قرن » نقتطف منه ما يلي : (وسوف يكون التلفزيون بعد خمسين عاماً شيئاً قديماً وشائعاً شيوع الماء والكهرباء في الوقت الحاضر ، وستكون بعض أجهزته من الصغر بحيث يستطيع المرء أن يحملها معه في نزهاته ، هذا الى أن أكثر الناس سوف يحملون في جيبهم أنابيب صغيرة في حجم السيجار يستعملونها للاتصال التليفوني في بيوتهم أو مكاتبهم ..).

ويقول في موضع آخر : (إن أحفادنا سينظرون إلينا نظرة رثاء ، وسوف يندهشون حينما يطالعون الكتب ويقفون على أحوالنا الاجتماعية ، ومن الأشياء التي ستثير دهشتهم أن الفقر كان يخيم على كثير منا ، وأن بعضنا ماتوا جوعاً بينما الطبيعة من حولنا حافلة بالخيرات ، وسوف يرثون لحال آلاف من موتانا متأثرين بأمراض أصبح قهرها ومقاومتها عندهم من أبرز الأشياء ، كما يرثون لحال كثير منا وقفوا مكتوفي الأيدي أمام دمامتهم وعاشوا حتى ماتوا بأجساد مشوهة ، وآذان كآذان الحمير .. وعيونهم وأنوفهم تثير سخرية الناظرين !).

أما محمد العشماوي باشا ـ وزير المعارف المصري آنذاك ـ فقد افتتح عدد الهلال الخاص لسنة ٢٠٠٠ بمقال عن ثقافتنا سنة ٢٠٠٠ ، توقع فيه أن يدفن آخر رجل أمي في مصر في ذلك العام !

وزير معارف عربي يتوقع دفن آخر رجل أمي في عام ٢٠٠٠ !

هنالك جرأة في طرح التوقعات المستقبلية.. وجرأة في الإجابة عنها

هذا غيض من فيض من كتابات الهلال في عددها لينابر ١٩٥٠ ي كان مخصصا للحديث عن سنة ألفين ، أما عددها لينابر ١٩٥٣ فقد صص جزء منه للحديث عن مصر والعالم بعد ستين سنة .

على الرغم من خيال الكتاب ، الجامح في بعض تصوراتهم ، فإن وقائع التي نعرفها الآن قد اختلفت كل الاختلاف ، ولقد كان مطلوباً ن يضع بعضهم تصوره حتى نتمكن الآن من الحكم عما إذا كان ذاك التخيل قريبا من الواقع أم بعيداً عنه ، لقد حكم التفاؤل ذاك الخيال وجاءت الوقائع مختلفة وقاسية . ولكن المحاولة في ذاتها مطلوبة ومرغوبة ، فلولا الخرائط التي رسمها جغرافيو العالم في العصور الوسطى ، والتي كانت أبعد ما تكون عن الدقة وملأى بالأخطاء ، لولا تلك الخرائط ما تمكن معظم الرواد والمكتشفين بعد ذلك أن يعرفوا العالم الذي عرفناه .

ولو قدر لهؤلاء الكتاب الذين توقعوا سنة ألفين بتصورات وردية ورسموا صورا مشرقة لمدن وقرى ومواصلات ومستشفيات حديثة ، لو قدر لهم الخروج من مثواهم الاخير ، كما حدث لأهل الكهف ، هل تراهم يدهشون بما يرون ، أم يعتقدون فترة من الزمن أن ما تركوه كان أفضل ؟

"العربي" وتوقعاتها

ولنا في « العربي » خبرة أخرى جديدة وطريفة لقراءة المستقبل . ففي يناير ١٩٨٠ طرحت العربي أربعة أسئلة عامة على ستة من الكتاب العرب ومعهم واحد أجنبي ، وكانت الاسئلة هي : هل تقوم الدولة الفلسطينية في الثمانينيات ؟ هل تقوم وحدات عربية ما ؟ هل تقوم حرب عربية اسرائيلية جديدة ؟ هل تنشب حرب عالمية ثالثة ؟

وكان الكتاب السياسيون هم : الدكتور مراد غالب وزير خارجية مصري سابق ، وميشيل جوبير وزير خارجية فرنسي سابق ، وجورج طعمة استاذ جامعي ومندوب سوريا في الامم المتحدة سابقاً ، وميشيل أبو جودة ، ومايكل آدمز ، ومنح الصلح .

وقد اتفق الجميع على أن لا حرب عالمية ثالثة في الثمانينيات ، واختلفت الاجابات فيما بعد ذلك جزئياً ، فقال مراد غالب بوضوح : (أعتقد أن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية) ، وفضل ميشيل

حوبير أن يكون هناك دولتان . وقال جورج طعمة : (إن هناك جملة مؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية) وكذلك اعتقد مايكل آدمز ، أما منح الصلح فقد أفاض في الموضوع بقوله (وقد يوافق المجتمع الدولي على مبدأ وجود دولة فسطينية ، ولكنه سيرفق الموافقة على هذا المبدأ بإصراره على تحقيق ضمانات فلسطنية وعربية دولية «لاسرائيل» مما سيعمل على تأجيل قيام الدولة الى أواخر الثمانينيات ، لأن الضمانات ستكون من النوع الثقيل على العرب . .) .

لقد أوشكت الثمانينيات على الانقضاء ، وحتى الآن - وعلى الرغم من التفاؤل في اكثر من مكان - لم تقم الدولة الفلسطينية على أرض فلسطينية ، ومن الجسارة أن نتحدث عنها في التسعينيات أيضا ، وهذا مثال اخر على جرأة طرح التوقعات المستقبلية وجراة الاجابة عنها أيضاً

الوطن العربي القادم

تعتبر الأدبيات التي تتحدث عن المستقبل في الوطن العربي - كما قلت - أدبيات حديثة وقليلة في الوقت نفسه ، وبعضها يحمل سيناريوهات متعددة ومختلفة . ولعل المحاولة الأهم بهذا الخصوص هي ما نشره مركز دراسات الوحدة العربية ، الذي صدرت عنه في نهاية العام الماضي تلك الدراسة الضخمة التي يجب أن يعي بها كل مفكر وقائد رأي عربي ، وان تلخص التلخيص الوافي لمتحدي القرار ، وأن تضع أمام أعيننا الخيارات وتوضح العقبات الكأداء إن نحن تجاهلنا ما يدور حولنا أو تركنا الحبل على الغارب وجعلنا شعارنا « اليوم خمر وغداً أمر »!

وقد سميت الدراسة « مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي » وقد عني به مركز دراسات الوحدة العربيه ، ونشر في نهاية العام الماضي تقريره النهائي بعنوان « مستقبل الأمة العربية . التحديات والخيارات » في سفر ضخم وأتبعه كتابين كبيرين عن محورين من محاور المشروع ، هذا عدا نشره عددا من الدراسات الفرعية التي استندت إليها دراسة محاور المشروع الذي استغرق ما يقرب من سبع سنوات . وجاءت نتائجه محصلة لدراسات ومناقشات حادة خصبة ساهمت فيها عقول عربية مفكرة في مختلف التخصصات ومن مدارس فكرية متنوعة .

ولأن المستقبل ليس قدراً محددا مسبقا ، أو تحدده قوى غير معلومة وغير قابلة للتطبع والتشكيل ، فقد هدف المشروع الى تحقيق عدد
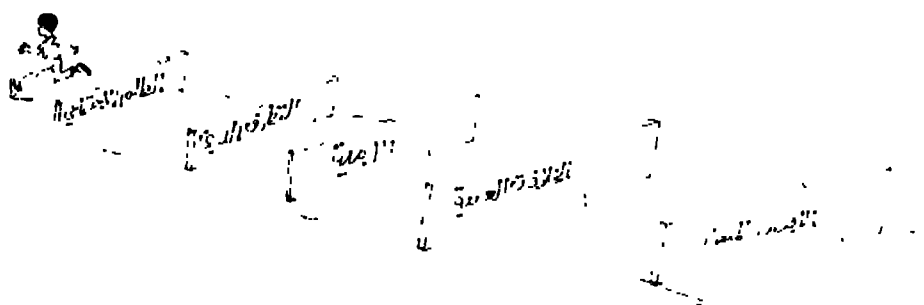
من الأغراض المباشرة وغير المباشرة هي :

تحديد الاختيارات والمسارات المستقبلية للوطن العربي وذلك « باستطلاع مسارات بديلة لمستقبل الوطن العربي ، انطلاقا من دراسة الواقع العربي بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية ، وبالقدر الذي يخدم إمكانية التوصل الى الوضع المرغوب في أوائل القرن الواحد والعشرين ». وكانت سنة ٢٠١٥ بالتحديد هي المدى الذي اختار فريق البحث التوقف عنده لاعتبارات حاكمة .

بدائل وخيارات

والمشروع يسعى الى تبيان أن « الواقع العربي الحالي ، بكل سلبياته ، ليس قدراً مكتوباً لا يمكن الفكاك منه ، وأن هناك بدائل مختلفة للمستقبل العربي ، وهناك خيارات ، وأننا نستطيع أن نحدد مستقبلنا معا لارادتنا وقدرتنا ورغبتنا في دفع الثمن المطلوب للمستقبل المرغوب ».

وبالاضافة الى دراسة الواقع تأتي محاولة استخدام أفضل المنهجيات العلمية المتاحة للحصر وللدراسات البديلة للمستقبل العربي « بهدف الوصول الى منهجية عربية للاستشراف ، تساعد ، في توظيفها وتطويرها ، مستقبل دراسات مماثلة ».

واستهدف المشروع أيضا أن يخلف وراءه قاعدة بيانات ، ومعلومات ، ومناهج وأساليب للتنبؤ ، وللتشابكات الشاملة ، يمكن أن يستفاد منها في جميع أغراض التحليل والتقويم المختلفة ، وبناء مشاهد أخرى إضافية . وتساعد هذه القاعدة العلمية في تزويد الباحثين العرب بما كان يصعب عليهم الحصول عليه من قبل ، والى خلق الاهتمام

وتوسيعه بالدراسات المستقبلية بين المفكرين وصانعي القرار في الوطن العربي ، حيث تساعدهم هذه الدراسات ـ والدارسات المناظرة ـ في معالجة الازمات التي تعاني منها أقطارهم في إطار أوسع وأرحب .

لذلك يتوجه فريق البحث بنتائج الدراسة ، بالاضافة الى المواطن العربي العادي أيا كان موقعه ، الى ثلاث قوى يعتقد أنها معنية بالأمر بدرجة أكبر من غيرها ، أولاها « المواطنون العرب » وقواهم المنظمة التي تسعى الى خلق مستقبل أفضل ، والثانية « النخبات الحاكمة والقائمون على إدارة المؤسسات الرسمية في الوطن العربي بهدف التبصير والترشيد والعقلانية في ادارة الملك وشئون الرعية » .

وتحقيقاً لهذه الأهداف فقد اختار فريق البحث منهجاً ، حاولوا فيه أن يكون متسما بالشمول وبمحاولة الوصول الى تنبؤات مشروطة بعيدة المدى ، والى تصورات متباينة للمشاهد الممكنة والمحتملة للمستقبل العربي خلال الفترة الزمنية للبحث ، بحيث يمكن أن تساعد العقل والوعي العربي في تصوراته لبرامجه المستقبلية ، وعلى الحسم في الخيارات المتاحة أمامه .

ولأن عملية استشراف المستقبل بالنهج الذي سار عليه فريق البحث ليست « اصدار نبوءات » لأن النبوءة تستند الى فكرة سائدة « بأن المستقبل أمر محدد سلفا والمطلوب هو الكشف عنه ، وهذا مجاله الاقتناع والممارسات الفردية وليس البحث العلمي الذي يرى مظاهر الحياة متشابكة ومتراكمة » .

وهي ليست « بتخطيط طويل المدى » لأن التخطيط هو تدخل واع للصياغة والتوجيه من قبل إرادة بعينها تملك إمكانات التسيير وخلق الظروف المواتية .

لذلك كان لجوء فريق البحث الى مجموعة تنبؤات مشروطة أو مشاهد مستقبلية (سيناريوهات) تفترض الأكثر توقعا تارة ، والمأمول فيه تارة أخرى ، بحيث يتم تشريح كل جزئيات المجتمع (القطري أو الاقليمي أو العربي) في فترة زمنية قصيرة كمجتمع حالي أو مأمول فيه كخطوة أولى ، ثم التعبير عن هذا النسق الشامل في صورة أنساق فرعية (اقتصادية واجتماعية وسياسية) بظواهرها الحالية والمستقبليات والتفاعلات بين هذه الأنساق الفرعية ، ثم تأتي الخطوة الاخيرة وهي استخدام هذا النسق للوصول الى التداعيات المستقبلية لكل مشهد .

مشاهد مستقبلية بديلة

وقد شملت خطة البحث المكونات التالية :

١ ـ المحاور المضمونية : وتتكون من ثلاثة محاور : المحور الأول المجتمع والدولة ، وهو يبحث في مضمون الكيان الذي يراد الاستشراف بشأنه بمكونيه الاساسيين المجتمع والدولة . والمحور الثاني التنمية العربية ، ويعنى بالدوافع المحركة للمحور الاول ، أما الثالث فيعنى بموقع هذا الكيان ضمن الاطار العالمي ومجموعة العلاقات التي تربطه ، وتغطي هذه المحاور جميع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

٢ ـ النمذجة : وتنطوي على صياغات كمية وكيفية لشبكة التفاعلات بين متغيرات كل محور ، والمحددات الحاكمة في ظل بدائل مختلفة (المشاهد) .

٣ ـ صياغة مشاهد بديلة لمستقبل الوطن العربي : وتعتمد هذه الصياغة على مزيج من الاساليب الحدسية التي تسترشد بخبرة الماضي وتجربة الحاضر والآفاق المعروفة للمستقبل عالمياً ، والقدرات العربية الظاهرة أو الكامنة ، والمطالب والأمال التي تتطلع اليها الأقطار العربية ، وما يتصوره المثقفون العرب كبدائل مطروحة أو محتملة ، وأهداف القوى الصديقة أو المعادية للأقطار العربية وقدراتها ، وتمثل حصيلة الصياغة هنا لحظة البدء (أو فتح الستار) بالنسبة لكل مشهد ، أما امتدادات كل مشهد وتفريعاته ، وكذلك المزيد من اختبار أنساقه ، فيتم من خلال المكونين السابقين.

وتم اختيار ثلاثة مشاهد مستقبلية بديلة للوطن العربي انطلاقا من شكل العلاقة فيما بين الأقطار العربية :

الأول : مشهد التجزئة ، ويفترض استمرار الاوضاع الراهنة ، وهو يمثل المشهد الحالي .

الثاني : مشهد التنسيق والتعاون ، وهو يمثل المنهج الاصلاحي ، الذي يقوم على أشكال وسيطة من التنسيق والتعاون بين كل أو معظم أقطار الوطن العربي ، تفوق ـ كما وكيفاً ـ حالات التعاون في المشهد الأول ، بهدف الاستخدام الرشيد والأمثل للموارد العربية المتاحة في إطار المعطيات السياسية الراهنة .

ويمكن أن يأخذ هذا التنسيق شكل التجمعات الاقليمية ، أو تنسيق عربي عام وظيفي في بعض المجالات المرتبطة بالأمن العربي أو بين أنشطة قطاعية معينة .

الثالث : مشهد الوحدة العربية التي تأخذ شكل الوحدة الاتحادية « الفيدرالية » ، وتتضمن توحيد مركز صنع القرار السياسي مع احترام التعدد الاجتماعي والثقافي القائم في الوطن العربي ، وتم الربط في هذا المشهد بين الوحدة الاتحادية وبين الديموقراطية والمشاركة الشعبية ، وبينها وبين الاستقلال ورفض التبعية ، وبينها وبين احترام الأصالة الحضارية والثقافية للأمة .

تتوقع تلك الدراسة ثلاثة مسارات رئيسية للوطن العربي في المستقبل : أن يستمر كما هو الآن ، أو أن يتوجه الى شكل من أشكال التعاون واضعاً نصب عينيه المصلحة العليا المشتركة ، أو أن يذهب في التعاون الى درجة أبعد من درجات الوحدة التي تفضلها الدراسة وتعتقد أنها المخرج الوحيد لاجتياز عنق الزجاجة ، والمأزق العربي الحالي . وتتحدث الدراسة عن المخاطر الكثيرة الكامنة في نسيج المجتمع العربي ، أو التي تتشكل الآن به .

○○

إن هذه المساهمة العلمية الجادة ـ مع غيرها من مساهمات سابقة ـ يجب أن يعي بها كل المفكرين وقادة الرأي في وطننا العربي ، كما يجب أن تكون تحت نظر متخذي القرار في أقطارنا العربية حتى يسترشدوا بنتائجها عند إصدارهم قراراتهم .

إن هذه الدراسة ـ وغيرها ـ تؤكد حقيقتين لا أظن أن أحداً يختلف مع تلك الدراسات حولها ، أولاهما أن الوضع العربي القائم هو وضع متردٍ حداً ، لدرجة ربما لم يسبق لها مثيل منذ أن حصلت الدولة القطرية على استقلالها ، وثانيهما أن هناك إمكانيات واقعية لتغير هذا الوضع إلى ما هو أفضل ، قبل أن يتحول إلى ما هو أسوأ .

إن مسئولية جيلنا في حدها الأدنى هي وقف هذا التردي ، ومسئولية جيلنا في حدها المتوسط هي أن نتجاوز هذه العقبات . إن الامكانيات وكذلك الاحتمالات غير محدودة ، وعلينا فقط أن نقرأ تاريخ المستقبل قراءة واعية . □

محمد الرميحي

في البدء كان الكتاب

بقلم: عبد العزيز حسين

منا من تتاح له الفرصة ، وهو في مطلع شبابه ، أن يمد بصره إلى المستقبل ، فيرى طريقه فيه ، سواء كان طريق سهلا ممهدا ، أو طريقا وعرا تنتظره فيه العقبات والصعوبات ، ولكنه على الحالين مدرك خطواته التالية ، عاقد العزم على السير قدما خلالها ، نجح أو فشل . ومنا من تتحكم في مسيرة حياته ظروف لا شأن له بها ، فإذا به يجد نفسه حيث لم يتوقع ، فينصاع راضيا أو كارها لتيارات لا يقدر على صدها . وينعطف مع الأحداث الطارئة ، لكي يبدأ طريقه من أوله ، وعلى حين غرة يجد نفسه في موقع جديد ، يحتاج منه إلى تخطيط جديد ، وعزم جديد ، ورؤية مستقبلية جديدة .

وعندما أسترجع اليوم مسيرتي منذ الصغر ، فإنني لا أجد عاملا مشتركا في كل مراحل الحياة التي مررت بها ، إلا عاملا واحدا ، هو الرغبة في التعلم ، وازدياد المعرفة ، سواء من فوق مقاعد الدراسة ، أو من خلال الكلمة المكتوبة ، أو من الملاحظة والتأمل ، أو احتكاك الآراء • وربما كان الكتاب أهم مؤثر في تشكيل حياتي ، فقد نشأت قريبا من كتب الدين واللغة والأدب التي يعتز بها ويرعاها والدي ، وينظر إليها كل من في البيت نظرة إجلال واحترام . وكان لي حظ المشاركة في ترتيبها وصيانتها ، كما كان لي حظ مطالعة العديد منها ، ولا زلت أحتفظ بكراسات دونت فيها مختارات من الشعر والنثر راقت لي ، وكنت إذ ذاك في المرحلة الابتدائية من الدراسة كما لا زلت أذكر استضافتنا لشاعر من الأحساء ، قدم لنا ديوانه مخطوطا ، فطلب مني والدي أن أنسخه ، وأثناء قيامي بهذه المهمة راجعت الشاعر في بيت قلت له : إنه مكسور ، لا يستقيم مع تفاعيل القصيدة ، وكانت ملاحظتي هذه أمام عدد من الحضور ، فنهرني بشدة قائلا : كيف تعرف أيها الولد البيت المكسور من سواه ، اكتب ما هو أمامك . فرجعت خجلا حسيرا ، وعندما انتهيت من نسخ الديوان ، وقدمته إليه ، استدعاني بعد أيام أمام نفس الحضور ، واعتذر

اليّ قائلا : إن البيت مكسور فعلا بسقوط إحدى الكلمات ، وأثنى على حسي الشعري ، مما أغراني بعد ذلك بمحاولة نظم الشعر ، ولكنني لم أرض قط عما نظمت ، فأتلفته ، واكتفيت بتذوق الشعر دون نظمه ، ولا زلت .

إلى جانب الكتاتيب المنتشرة في الكويت خلال الثلاثينيات كانت هناك مدرستان تحاولان تقديم مناهج دراسية حديثة لطلابهما ، هما مدرستا المباركية والأحمدية ، وكنت في المباركية عندما فوجئنا بالمدرسة تقسم الطلاب إلى فئتين ، وتختار المتميزين منهم ـ وكنت في رأيها أحدهم ـ فتنقلهم إلى الأحمدية ، وتعلنها مدرسة ثانوية من ثلاثة فصول ، وعندما وصلت إلى الفصل الأخير ، بعد سنوات ثلاث ، وتخرجت فيها لم يكن هناك مجال للدراسة في فصل أعلى ، فأعدت السنة فيه مع عدد من الطلاب ، فطلبت منا إدارة المدرسة أن نساعد المدرسين في تعليم الطلاب المستجدين ، مما أعان على إبعاد الملل عنا ونحن نعيد ما سبق أن درسناه . وقد أدرك ناظر المدرسة المربي الكبير عبدالملك الصالح حرج الوضع ، فخصنا بدروس خارج الدوام المدرسي ، كما أنني كنت أتلقى دروسا خاصة على المصلح الشيخ يوسف بن عيسى ، مرتين في الاسبوع بعد الظهر ـ وربما كان ذلك من أسباب اختياري ضمن أول بعثة إلى دراسة جامعية بمصر . وكان ذلك انعطافا في حياتي ، ما كان واردا أبدا في تفكيري ، وتحولا ما كان في البال .

وأطوي صفحات سنوات مليئة بالذكريات والأحداث ، قضيتها بمصر طوال الحرب العالمية الثانية ، ثم عملي بالمكتب الثقافي بمصر الذي سميناه بيت الكويت ، والذي ترك بصماته العميقة على تاريخ التعليم والثقافة . وأجد نفسي وأنا على وشك إنهاء دراستي بمعهد التربية العالي بجامعة لندن ، أمام برقية تستدعيني للعودة فورا إلى الكويت ، لتولي إدارة المعارف (وزارة التربية الآن) . كان ذلك عام ١٩٥٢ ، وقد بدأت الكويت مرحلة ما بعد النفط ، بكل فيها من شئون وشجون . كان ذلك انعطافا جديدا غير متوقع .

فوجئت في أول يوم أبدأ فيه عملي الجديد ، بأن كل من يعمل في المعارف وكل من يهتم بالتربية والتعليم ، قد تضافر على جمع كل شئون المعارف ومشكلاتها ومتطلباتها ووضعها في رزمة هائلة الحجم أمامي .

كان للمعارف رئيس تقدمي النزعة ، واسع الصدر ، مؤمن بالتعليم ودوره في تطوير المجتمع ، هو الشيخ عبدالله الجابر ، وكان يشرف على شئونها مجلس مكون من اثني عشر عضوا منتخبا من بين وجهاء الكويت . فقد كان النظام يسير على أساس قيام مجلس منتخب ، وأحيانا معين ، على كل إدارة ـ وهي تسمية الوزارات إذ ذاك ـ وكان انتخاب هؤلاء يتم من خلال قائمة محددة ، يعتمدها أمير البلاد ، لا يتجاوز أعضاؤها المئتين ، يدعون لكي ينتخبوا من بينهم مجلسا لكل إدارة . وإذا قام ما يدعو لحل هذا المجلس أو ذاك ، ولجأ الأمير للتعيين ، فإنه قلما يخرج عن هذه الفئة من المواطنين . وسواء انتخبوا أو عينوا فإنهم لا يتقاضون بدلا ماديا عن مناصبهم ، وبعضها يستهلك الكثير من وقتهم ، فمجلس المعارف مثلا يجتمع مرة كل أسبوع على الأقل ، ويشارك بعض أعضائه في عديد من اللجان المالية والإنشائية والإدارية ، ويتحملون أمام المجتمع مسئولية أعمالهم . هؤلاء صنف من المواطنين انقرض ـ للأسف الشديد ـ اليوم .

كانت استجابة المجلس للأفكار الجديدة والرؤى الحديثة للتعليم ايجابية إلى مدى بعيد وكان الحوار هو السبيل للوصول إلى القرار ، وقد حمدت للمجلس عدم تدخله في الشئون الفنية للتربية ، واعتبارها من اختصاص المربين المؤهلين لهذا العمل .

كان أمامنا أهداف يجب أن تتحقق من خلال

ـرات سريعة وحاسمة ، كان لابد من إعادة
ـر في المناهج ، فاستدعيَ الخبراء للنظر فيها ،
ـن أمامنا وضع « كوادر » جديدة للمعلمين ،
ـئة الكتاب المدرسي المناسب ، وإنشاء
ـشرات من المدارس في كل أنحاء البلاد ، فتم
ـك في كثير من اليسر . ولكن كان الأهم من
ـك أن إدارة المعارف أصبحت بؤرة التحرك
ـتطويري في كل الاتجاهات . لقد كان منتظرا
ومفهوما أن يعمل المسئولون عن التعليم على
الاهتمام بتعليم الفتاة، وعلى إنشاء رياض
الأطفال ، وعلى البدء بمشروع التغذية الصحية
لجميع طلاب وطالبات المدارس ، وعلى توحيد
الملابس ، وتشجيع التذوق الفني ، والتوسع في
البعثات من الجنسين ، وغير ذلك ، مما قفز
بالتربية والتعليم إلى مكان الصدارة في المجتمع .
ولكن الجديد أن هذه الإدارة ـ وقد شعرت أن
التزاماتها الاجتماعية ترتبط بالتطور التكاملي في
البلاد ـ أنشأت إدارة للشئون الاجتماعية ، هي
البذرة التي أنبتت وزارة الشئون الاجتماعية ،
وأسست إدارة للزراعة ، تعنى بحدائق
المدارس ، وهي البداية التي أضحت الآن هيئة
الزراعة ، وكان ضمن تلك الإدارة قسم لتربية
الدواجن ، باعتباره من وسائل إيضاح العلوم .
ووضعت خطة للنشاط الثقافي العام ، تتضمن
موسما ثقافيا ، يدعى للمحاضرة فيه كبار رجال
العلم والتربية والفكر في الوطن العربي ، ولا
زالت مجلدات هذه المواسم تحتل موضعا كريما في
المكتبة العربية ، ودعت إلى مؤتمرات ، لعل
أبرزها مؤتمر الأدباء الذى ناقش البطولة في
الأدب العربي ، وحضره الأدباء البارزون من
شتى الأقطار العربية . كان مجلس المعارف متقبلا
لأي نشاط يرى فيه عائدا على المجتمع . كما كان
المجتمع يستقبل بالرضا كل ما تقوم به هذه
الإدارة من نشاط ، وإن لم يكن من صميم
اختصاصها أو من مسئولياتها .

لقد كانت الأعوام من ١٩٥٢ إلى ١٩٦١
أعوام التغييرات الجذرية في الكويت ، وهي في
الوقت نفسه الأعوام التأسيسية الممهدة لعهد
الاستقلال الذي أعلن صيف ١٩٦١ .

كنت ذلك الصيف في القاهرة ، أتفق مع
الحكومة المصرية على البعثة التعليمية للعام
الدراسي الجديد ، وأتعاقد مع معلمين جدد
لذلك العام ، وكان ذلك ضمن جولة لهذا
الغرض تشمل الأردن وسوريا ولبنان ، عندما
وجدت نفسي منشغلا بما أثاره قاسم العراق من
أزمة مفتعلة مع الكويت ، لم تمنعني من السفر إلى
جنيف لحضور اجتماعات مكتب التربية
الدولي . وهناك تلقيت رسالة عاجلة من الأمير
المرحوم الشيخ عبد الله السالم ، للتوجه إلى
نيويورك ، لتمثيل الكويت فى اجتماعات مجلس
الأمن . . . ألم نَقُل إن النظرة إلى إدارة المعارف إذ
ذاك تتجاوز اختصاصاتها في التربية والتعليم ! ؟

هذا انعطاف جديد وحاد في حياتي ، فمنذ
تلك الرسالة أصبحت المعارف ذكرى لا تنسى ،
وتاريخا لا ينضب معينه . العمل في التعليم هو
العمل الوحيد الذي يلوِّن حياة المرء ، ويبقى معه
طول حياته . ومهما انغمس الإنسان في عمل جاد
آخر ، أو تحمل من مسئوليات في ميدان مختلف ،
فإن عمله في مجال التعليم يبقى لصيق وجدانه
وموطن ذكرياته . وكما يذكر الإنسان رفاق
الدراسة مهما طال الزمن ، فإنني لا أنسى رفاق
العمل في التربية على اختلاف مواقعهم ،
فبفضلهم تحقق الكثير ، وتحقق بصمت وإنكار
ذات كبيرين .

هل يقدر الإنسان أن يخطط لحياته كما يريد ،
أم أن الأحداث هي التي تفرض إرادتها عليه ،
فتوجهه إلى حيث لم يحسب ؟ لقد فرضت
الأحداث على مسيرتي أن أسلك منعطفا
جديدا ، لم يكن في تقديري . وما بقي من
الثوابت إلا ما أشرت إليه في صدر حديثي :
الكلمة المكتوبة والملاحظة والتأمل واحتكاك
الآراء . □

أبو جهاد

إلى روح شهيد الثورة الفلسطينية

شعر : فاروق شوشة

كان يريقُ عمرَهُ على مساحةِ الخطرْ
فتكتسي الحجارةُ الصماءُ سحنة البشرْ
وتنبري الحياةُ في سنبلةٍ على الهشيم تحتضرْ
كان يريق عمره .
كي لا تخيبَ السماءُ وعدها مع المطرْ
فالكرمةُ التي جفَّتْ ضروعُها تئنّ
والغورُ السحيقُ يابسٌ
والبحرُ ميت ولا سفينْ
حتى الضفائر الصغيرة المحدولة الخنوط
تلتف من حول الرقاب حبل مشنقة
تشدها دراع أخطوط
يدوس عاتيَ القدم
فترحل الدموع في سحابة الوجه الحنونْ
كان يخوض في الردى مسابقا دقات قلبه
توقا لحلم منتظر
محلقا كالنسر ،
منقضا على مشارف القمم
عيناه تسبحان في توهج السنين
الكرمل البعيد قبلته
والقدس في قرار قلبه الحزين
والحرف فنه ولعبته
وعشقه الوحيد أن يجاوز التخوم،والمدى ويقتحم
وكلما ترفقت به الخطا
أبى ،
وهز رأسه العنيد ، وابتسم
كان يريق عمره لا يعرف الحذر
لكنه يدري مسار خطوه لأين
ولا يبوح بالذي يجيء القدر !

* * *

يا كم ترى جازفت حينما اِمْتَت
حتى أتى اليوم الذي لا تنفع المجازفة
انطرح الوجهُ الوضيء في فجاءة الألم
مضرجا في لحظة الصدام . والمكاشفة
منسكبا على جذوع التين والزيتون
وموغلا في شجر الخليل والجليل
وراسما بدمك الذي يسيل
وجهدك الذي استحال غيمة ونجمة
حارطة للوطن المضمخ البعيد
والتمعت في جلوة الشهاب والظلم
عينان طفلتان غاصتا معك
أطل فيهما ،
عينا صغيرة تحلم أن تراك يوم عرسها
أبا ، مؤانسا ، ومتّكا
وسندبانة ، وليلكا
وفارسا يضيء برقة سنابكا
وساحة حفية ،
وراية ، وسارية
تحملها ، مبهورة الفؤاد ، تعبر الممالكا
تجوب فوق صدرك الحنون ، عالم الرؤى الوثير
مزهوة بحلمها الأثير

ـ كل فتاة بأبيها معجبة ـ
ـانت هناك ، في انتظار يوم قادم تراك
ـ لوجهها المطل في السنين
حين انجلت صحيفةُ المكاشفة
ـوتف العمر بها في لحظة مدببة
ـلى قلوبنا مصوبة
ـلى المخادع التي يأوى إليها الحالمون
ـلواهمون بالأمان والسلام
حتى يميقوا ذات يوم
عـلى دوي العاصفة !

* * *

ـمعن ـ كلما أضاء طيفك النبيل ـ
ـعصر؛ لأبناء الأفاعي الوالغين في لحومنا
ـمارقين من ثيابنا
ـمن جلودنا
ـآكلين ملحنا وخبزنا
ـلشاربين من مياه نيلنا
ـمعنه ، ونلمح البشارة
ـانت عصر « قادم »
ـلغضب الذي انفجر
ـهذه بداية الشرارة
ـسكل الذي أقيم من جماجم البشر
ـمز تحت قبضة الصغار ، حين يدعون
يبتنون من دماء ذكرياتهم
ـادة القدر . . !

نظام العقوبات في الإسلام هل يناسب عصرنا الحاضر؟

بقلم : الدكتور أحمد شوقي الفنجري

ترتفع منذ عدة سنوات أصوات عالية في أنحاء العالم الإسلامي ، مطالبة بالتطبيق الفوري للشريعة الإسلامية بجانبها العقابي .

السؤال : هل توافرت في مجتمعاتنا القائمة شروط تطبيق الحدود ؟ وما هذه الشروط ؟

أصدرت منظمة العفو الدولية نداء إلى الدول الإسلامية التي طبقت نظام العقوبات الإسلامية في بلادها تشجب فيه هذا النظام وتطالب بإيقافه ، كما طالبت أطباء تلك البلاد بالامتناع عن المشاركة في عمليات بتر الأيدي أو الأرجل ، لأن ذلك مخالف للقسم الطبي الذي يقسمونه . وإلى جانب ذلك فهناك كثير من المفكرين في أوربا ، وأيضا هناك مفكرون في العالم الإسلامي ، يرون أن نظام العقوبات في الإسلام بالغ القسوة والشدة ، وأنه غير عملي لعصرنا الحاضر . ويقول هؤلاء : إن العالم المتحضر يتجه اليوم إلى إلغاء أي نوع من العقوبات البدنية ، بل هناك دول تمنع حتى الضرب في السجون ، وأن العلم الحديث ينظر إلى اللص على أنه أحد شخصين : الأول محتاج واضطرته الحاجة إلى السرقة ، وهذا النوع في الواقع ضحية إهمال المجتمع ، وعلاجه أن يتعلم حرفة أو صنعة في مدة سجنه تعينه بعد قضاء عقوبته .

والثاني منحرف لأسباب نفسية ومرضية أهمها تعاطي السكر والمخدرات ، وهذا يحتاج إلى التوعية والعلاج النفسي والطبي .

وبهذا يمكن أن يتحول اللص إلى مواطن صالح وتغفر له أخطاؤه . أما إذا قطعنا يده فإن في ذلك القضاء التام على كل أمل له في الصلاح والحياة الشريفة .

يزان حساس

ويهمنا هنا أن نناقش هذه الآراء بمنطق ادىء ! وبالحجة العلمية والعملية .

الواقع أن أصحاب هذا الاعتراض معهم ل العذر ، لأنهم ينظرون إلى هذا التطبيق سيىء المشين الذي تنفذ به بعض الدول لإسلامية حدود الله . فبعض الحكام كان ستغل الدين لأغراضه السياسية ولكسب أصوات بعض الأحزاب . وليس إرضاء لوجه الله تعالى . فأصدر بين يوم وليلة قوانين غير مدروسة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأخذ يصدر أحكاما بالرجم والجلد وقطع الأيدي والأرجل على فقراء الأمة والمستضعفين الذين تضطرهم الحاجة إلى الانحراف . وما أن انتهت فترة حكمه حتى كان عدد المعوقين في الأمة عدة مئات . وهذا قطعا ضد الإسلام ولا يرضى به الله ورسوله .

ما التطبيق السليم ؟

لكي نفهم روح الإسلام وحكمته في الحدود ، فلابد أن نعلم شروط الحد . فالحدود هي آخر ما يطبق من نظام الحكم في الإسلام ، ولا يجوز البداية بها . فلابد من إقامة مجتمع إسلامي مثالي أولا ، بحيث يكون متكاملا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما أن تُطبّق الحدود ويهمل كل ما سوى ذلك من أركان الإسلام ونظامه ، فمعناه هدم للإسلام وإساءة بالغة إليه ، وفشل وخزي في الدنيا والآخرة ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بعْض . فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ منكم إلا خزى فِي الحياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَة يُرَدُّونَ إلىٰ شَدِّ العَذَاب » (البقرة ٨٥) . والحكمة في ك أن نظام الحكم في الإسلام أشبه بالميزان دقيق الحساس ، ففي إحدى كفتيه توضع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها كل فرد في الرعية ، وفي الكفة الأخرى توضع الواجبات والحدود التي تنطبق على أي فرد منهم . وبقدر ما نجد الإسلام شديد السخاء فيما يعطيه من حقوق وامتيازات لأبنائه ، فهو بالتالي يطلب منهم أعظم التضحيات وأقصى الجهد ، ويوقع على المذنب منهم أشد العقاب . ومن قوانين الطبيعة والعلم أنه لا يمكن أبدا لأي ميزان أن يعمل بكفة واحدة . وإلا اختل وتحطم .

فلا يمكن أن تسقط جانب الحقوق والامتيازات ، ثم تطالب الناس بالجهاد ، أو تطبق على المنحرف حدود الشريعة ، فهذا بلا شك فيه ظلم وإجحاف . ومن هنا نجد أن الإسلام يرفض بكل شدة أن يطبق منه جزء ويترك جزء آخر ، ويعد من يفعل ذلك بالويل والعذاب .

قبل تطبيق العقوبات

وقد وضع الإسلام شروطا لإقامة المجتمع الإسلامي تسبق تطبيق العقوبات وهذه الشروط هي : **أولاً : أن يطبق ركن الشورى :**

فلا يجوز للحاكم أن ينفذ النظام الذي يحاسب الناس ويسقط أو يهمل النظام الذي

يحسه شخصيا إذا أهمل في إيصال الحقوق إلى الرعية . فالحكم السليم هو الصمام الأول لمنع كل أنواع الجرائم والانحرافات . ويحضرنا هنا قول عمر بن الخطاب حين جمع الولاة وسأل أحدهم : « ماذا تفعل إذا جاءك السارق أو الناهب ؟ » فقال الوالي : « أقطع يده » فرده عمر قائلا : « إذن فلتعلم أنه إذا جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك . هذا . إن الله تعالى قد كرمنا بهذه الأيدي لنعمل . فإذا لم تجد لها في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية » . ثم وجه الخطاب إلى سائر الولاة قائلا :

« إن الله استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ، ونستر عوراتهم ، ونوفر لهم حرفتهم . فإن أعطيناهم هذه النعمة تقاضيناهم شاكرين .

وهذا هو المفهوم الصحيح الحق لشريعة الله وحدها .

ثانيا : الشرط الثاني هو إصلاح الاقتصاد :

ويدخل في ذلك رفع مستوى الدخل وإيجاد عمل لكل فرد في الرعية ، بحيث يصل بالمجتمع إلى حد الكفاية ، أو ما يصطلح الفقهاء (بحد الغنى) . ومعناه أن يكون لكل فرد مسكن يحميه من البرد والمطر ومن الشمس والحر ، وأن تكون له الكفاية في مأكله وملبسه وعلاجه ، فلا يضطر أحد إلى السرقة بسبب الفقر والجوع ، ولا يضطر شاب إلى الزنا بسبب عدم مقدرته على الزواج ، ولا تضطر امرأة إلى الانحراف لكي تعول نفسها وأسرتها .

وفي عام الرمادة أوقف عمر الحدود ، لأن أحد الشروط الرئيسية لم يكن متوافرا ـ وهو حد الكفاية ـ بسبب ظهور المجاعة . والعالم الإسلامي اليوم يمر بما يشبه عام الرمادة ، ولكنها مجاعة لم تنجم عن القحط وقلة الموارد ، بل بسبب سوء الإدارة والتسيب والانحراف في أجهزة الحكم ، وبسبب سوء توزيع الثروة والتدخل وإهمال المشروعات النافعة .

ثالثا : الشرط الثالث هو

إقامة المجتمع الإسلامي النظيف الخالي من كل مسببات الانحراف كالخمر والمخدرات وبؤر الفساد والفتنة والإثارة الجنسية ، بحيث لا يضطر أحد إلى الخمر والمخدرات لأنه لن يجدها في المجتمع كله . ولن يجد من يتاجر في هذه السموم أو يغريه بها .

رابعا : التربية الدينية منذ الصغر فهي التي تعصم الشباب من الزلل

شغل أوقات الفراغ بالجهاد في سبيل الله عن طريق عمل الخير وخدمة المجتمع إلى جانب التربية الرياضية والبدنية .

استثناء من القاعدة

خلاصة القول أن نظام العقوبات في الإسلام لا يجوز تطبيقه إلا في مجتمع إسلامي مثالي متكامل . وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ في صنعه ، فقد مضى ثلاثة وعشرون عاما على المجتمع الإسلامي السليم . ثم لم يبدأ في تطبيق العقوبات إلا في أواخر دعوته وحكمه ، وبعد أن أقام هذا المجتمع .

والآن قد يقول قائل : إن معنى ذلك أنه إذا قام حكم إسلامي في أي دولة فلن يستطيع تطبيق العقوبات إلا بعد عمر طويل حتى يحقق كل هذه الإصلاحات ونقول لهؤلاء : علام الاستعجال ؟

لقد عاش العالم الإسلامي مئات السنين والعقوبات موقوفة ، فماذا يضيرنا أن نوقفها سنوات أخرى ولو كانت عشر سنوات ، إلى أن يتم إصلاح المجتمع ، ونعمل بهمة في هذه الأثناء على إنجاز هذه الإصلاحات ، فهذا الانتظار خير ألف مرة من ظلم مسلم واحد ، قطع طرف من جسمه في جرم اضطرته ظروف المجتمع إلى ارتكابه .

ومع دلك ، فلنا هنا استثناء من هذه القاعدة يجب أن يوضع في الحسبان ، وهى الجرائم العامه التي تتعلق بالأمن العام للرعية وسلامة المجتمع . فمثل هده الجرائم يجب أن تطبق عليها الحدود الاسلامية فورا ودون تردد أو انتظار ، ودلك لأن مرتكبيها ليس لهم أي عذر من حاجة أو اضطرار لارتكابها ، إنما هم قوم استهانوا بالقوانين الوضعية ، ووجدوا فيها من اللين والضعف ما يشجعهم على تحدي أمن المجتمع : ومن أهم هذه الجرائم هتك العرض بالسلاح ، وتجارة المخدرات والرشوة واختلاس الأموال العامة .

ومن كثرة ما روع هؤلاء المجرمون العتاة أمن المجتمع وخربوا اقتصاده ، أصبح المجتمع الإسلامي كله يطالب من الآن بتطبيق الحدود الإسلامية عليهم ، فهي وحدها الكفيلة بردعهم .

لقد كثرت حوادث اغتصاب النساء البريئات في الطريق - في مصر على سبيل المثال - وتكررت بصورة بشعة تهدد أمن كل أسرة مسلمة ، حيث يجتمع جماعة من الشبان العاطلين ويتناولون الخمر أو المخدرات ، وقد يشاهدون فلما من أفلام الجنس ، ثم يخرجون في حالة هياج كأنهم قطيع من الذئاب الكاسرة يختطفون أي امرأة ولو كانت تسير مع زوجها أو أخيها أو أبيها ، ثم يتناوبون على اغتصابها . وقد صرخ الرأي العام مطالبا لهم بأشد العقوبات ، وقد صدرت ضد بعضهم أحكام بالإعدام ونفذ بعضها ، ومع ذلك فقد كانت وما تزال حوادث الاغتصاب تتكرر . والسبب في ذلك أن الذي يتم إعدامه إنما نفعل به دلك في غرفة مغلقة ، فلا يدرى به أحد ولا تتم الموعظة المطلوبة ، ومن هنا كانت مطالبة مفتى مصر أن يتم الإعدام علنا ويعرض على الناس . وفي رأيي أن العقوبة الإسلامية في مثل هذه الحالة قد تكون حد المحاربة (أي قطع الطريق) وهي تنص على « أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » . وبذلك يظل هؤلاء مثلا حيا وعبرة لغيرهم ، ودرسا حيا لا ينساه أحد ، أما موتهم في الخفاء فلن تكون فيه موعظة لأحد .

ومن هذه الأمثلة أيضا تجار المخدرات الذين يقدمون هذه السموم لضحاياهم طمعاً في الثراء والغنى على حساب خراب الأمة . لقد عجز القانون الوضعي عن ردعهم ، وأصبحوا كلما قضوا فترة العقوبة في السجن عادوا منه أقوى مما كانوا ، بل إن معظمهم يسيِّر أموره ويواصل تجارته وهو داخل السجن . وقد طالب الشعب لهم بالإعدام دون جدوى . والحل الاسلامي هو تطبيق عقوبة بائع الخمر وصانعها ، وهي الجلد ثمانين جلدة علنا وفي جمع من الناس ،

منهم أهله وجيرانه ، فإذا عـاود تكون عقوبته القتل .

ومن هذه الأمثلة أيضا جريمة اختلاس أموال الدولة وجريمة الرشوة . فهذه الجرائم التي كثرت بسبب استهتار هؤلاء القوم بالعقوبات الوضعية يجب أن يطبق عليهم حد السرقة وهو قطع اليد ، لأن الاختلاس والرشوة من أخطر أنواع السرقة لأموال الرعية .

كانت هذه أمثلة من عقوبات يمكن أن يبدأ الحاكم بها إذا أراد تطبيق الشريعة منذ بداية حكمه ، وذلك لأنها تتعلق بجرائم كبيرة تمس الأمن العام واستقرار الحكم .

لكل عقوبة شروطها

والإسلام دقيق كل الدقة ، حريص كل الحرص في تطبيق العقوبات ، فلكل عقوبة شروطها التي بغير توافرها لا يمكن إقامة الحد . ومن أول هذه الشروط انتفاء الشك في وقوع الجريمة ، فأدنى شك يرفع الحد عن المتهم ، وإذا اتهمه أحد دون دليل قاطع وشهود يمكن أن يوقع عليه حد القذف ولو كان هو الحاكم نفسه .

ـ وحد السرقة يوقف إذا كان المسروق أقل من النصاب ، أو كان السارق جائعا وسرق لحاجته ، أو كان خادما لقوم ويحرمونه حقوقه .

ـ وحد الزنا لا يطبق إلا إذا أقسم الشهود أنهم رأوا العمل الجنسي كما يُرى المِرْوَدُ وهو يدخل في المكحلة ، وهو أمر مستحيل عمليا . وإذا ثبت أن هؤلاء الشهود قد دخلوا البيت من غير بابه أو خلسة من أصحابه أو تجسسا عليهم بطلت شهادتهم .

ـ والاسلام في نظام العقوبات لا يهدف أبدا إلى الانتقام والتنكيل أو إلى التشفي من المذنب بقدر ما ينظر إلى العبرة والموعظة لغيره . ولا يهمه عقاب المذنب بقدر ما يهمه توبته .

ـ فمن حكم الإسلام أن المذنب إذا تاب من نفسه ، وقبل أن يقدر عليه الحاكم ، وجاء من نفسه مقرا بذنبه دون أن يخبر عنه أحد ، يسقط عنه الحد وذلك لقوله تعالى : « إلا الذِينَ تَابُو مِن قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (المائدة ٣٤) وهذا دليل على جانب الرحمة في الحدود وعلى الحرص على الإصلاح لا الانتقام .

● ومن حكمة الإسلام أيضا أن من ينكر الجريمة فلا حد عليه ، إلا بأربعة شهود ، وإذا اعترف رجل بأنه زنا بامرأة وأنكرت هي الحادث يوقع عليه الحد ولا يوقع الحد عليها ، لأن العبرة بالاعتراف الطوعي دون إكراه .

ـ ومن حكم الإسلام أيضا أن تكون العقوبة علنية ، وأن يحضر تنفيذها عدد من المسلمين وذلك لقوله تعالى « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ » (النور ٢) والقصد من ذلك العبرة والموعظة . ومنع تكرار حوادث الانحراف .

الخلاصة أن العقوبات والحدود في الإسلام إذا طبقت في مناخ إسلامي وبالشروط الاسلامية فليس فيها أي إجحاف ، بل هي القصاص العادل الذي لا بد منه لمن ينحرف بعد كل ما يقدمه له الإسلام من كفالات للحياة الشريفة والمستقيمة .

ويكفي دليلا على ذلك أن عقوبة قطع اليد لم تنفذ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة واحدة . وعهد الخلفاء الراشدين جميعهم لم يشهد سوى بضع مرات تعد على الأصابع مما يدل على أن العقوبة إذا طبقت في مناخ إسلامي ، فلن تكون هناك حادثة واحدة نحتاج إلى استعمالها . ويحضرنا هنا كمثل بسيط عندما أصدر الاتحاد السوفيتي قرارا بعقوبة الإعدام للمرتشي ، وعندما تقابل الزعيم الأمريكي بالزعيم السوفيتي قال له :

ـ « إن هذه العقوبة القاسية تدل على أن الحياة الانسانية عندكم لا قيمة لها » ، فقال له الزعيم السوفيتي : « حقيقة إنها عقوبة قاسية ، ولكن منذ أصدرناها لم تحدث لدينا حادثة رشوة واحدة ولم نحتج إلى تطبيقها » . □

تزاوج الأجناس في أدب البحر العربي

بقلم : يوسف الشاروني

كثيرا ما ترددت في تراثنا الشعبي وكتابات رحّالينا العرب قضية تزاوج أجناس، كما ترددت عند شعوب أخرى كالإغريق والهنود، فقد ساد عقول القدماء وأهل القرون الوسطى فكرة إمكان اجتماع مخلوقات من سلالات مختلفة ينتج عنه أنواع وسط بين نوعي الوالدين.

في كتاب عجائب الهند الذي جمع فيه المدعو «بزرك بن شهريار» الناخذاه الرام هرمزي أخبار وقصص الرحالة والمسافرين الخليجيين من ساحل أفريقيا شرقا والصين غربا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن أحد الرحالة قدم له أحد الملوك طعاما يأكله، فيه ألوان مطبوخة برؤوس وأيد تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم. يقول راوي القصة: فعافت نفسي ذلك الطعام، ورجعت عن أكله بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن الملك لذلك فأمسك. فلما كان الغد حضرت عنده، فكلم أصحابه بشيء، فأحضروا سمكا لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدف، ما شككت في أنه (بني ادم). فقال لي الملك: الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا،

وهو أطيب سمكنا وأعذبه وأخفه ضررا قال: فكنت آكله بعد ذلك

سمك يشبه الإنسان

وفي قصة أخرى يعلل أصل هذا السمك الشبيه بالإنسان، ويخرج بذلك من التخصيص إلى التعميم على بقية أنواع الحيوان فيقول: وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه ابن ادم، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل، وأن الصيادين المتغربين الفقراء، المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك، المعاجين فيها طوال أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالد بينهم نسل شبيه لبني ادم يعيش في الماء والهواء وربما كان الأصل في هذا السمك من بني ادم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم، ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة كما يجتمع الادمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسانيس وغير ذلك مما يشبه ابن ادم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس فتكون منها الفيلة، وكما تجتمع الكلاب والمعيز فتكون منها الخنازير، وكما تجتمع الحمير والخيل فتكون منها البغال (هذه الأخيرة هي وحدها الصحيحة)، ولو دهنا نعدد ما ينتج من اجتماع الأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارئ

ونقرأ قصة ثالثة في كتاب العجائب عن قردة عشقت بحارا فوضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني ادم وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود. وأن البحار هرب خجلا من فعلته بينما رمى زملاؤه القردة وأولادها من المركب

المرأة السمكة

ولعل أطرف قصص الكتاب عن تزاوج الأجناس المختلفة هو ما قصه ابو الزهر البحري الناخذاه عن خال له يسمى ابن انشرتو قال: حدثني خالي عن أبيه - وهو جد البرحتي لأمه - قال: أسريت في مركب كبير طالبين جزيرة منصور فدفعنا الريح الى خليج أقمنا فيه ثلاثة وثلاثين يوما في ركود لاريح فيه الى أن أدخلنا التيار بين جزائر فأرسينا المركب على واحدة منها على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن فأنسن بهن. فلما اقتربنا تهاربن في الجزيرة، وجاءت رجال لم نفهم لغتهم، فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا.

وبعد أن تبادلوا السلع أشاروا ما اذا كان عندهم بضائع أخرى، فقالوا لهم: ما عندنا الا الرقيق. ويستطرد راوي القصة بأنهم أتوهم برقيق ضحوك يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا. غير أن رؤوسهم صغار وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة. فقلنا: ماهذا؟ فتضاحكوا وقالوا: أهل هذه الجزاير كلهم كذلك. وما عليكم من ذلك، وأشاروا الى السماء، أي أن الله تعالى خلقنا كذلك. فأغضينا عن ذلك وقلنا: هذه فرصة. ورأيناها غنيمة. فاشترى كل منا بمقدار ما عنده من الأمتعة ومعظمه. وكلما اشترينا شيئا جاءونا بما هو أنظف منه وأحسن. فشحنا المركب بخلق ما رأى الراءون

...سن منه ولا أجمل. فلما حان وقت السفر ...عونا وقالوا لنا: تعودون لنا مرة أخرى إن شاء .. وطمعنا وطمع ربابنا في العودة بمركبه وحده ...ر تجار. فكان ليله كله هو ورجاله أن يوقفهم ...ى النجوم ويعرّفهم على أماكن الكواكب جهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء ... نعودة.

وفرحنا غاية الفرح، وسرينا من الجزيرة ...ريح عاصف من أول النهار، فلما غابت الجزيرة ...كى بعض الرقيق الذي معنا، فضاقت صدورنا على بكائهم. ثم قام بعضهم لبعض وقالوا: تكون لأي شيء؟ قوموا بنا نرقص ونغني، فقام ...لرقيق جميعه يرقصون ويتضاحكون فأعجبنا ذلك منهم، وقلنا: هذا أصلح من البكاء. واشتغلنا كل واحد منا بشأنه. فما أن أصابوا منا عملة حتى تطايروا والله في البحر تطاير الجراد، والمركب يجري في موج كالجبال، كالبرق الخاطف، فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب نحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون، فعلمنا أنهم مافعلوا بنفوسهم ذلك الا لقدرتهم على هول ذلك البحر. ولم يمكنا الرجوع إليهم، ويئسنا منهم، فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج (قمرة السفينة) ...بير. فلما مضى هؤلاء نزل الى محلها فوجدها تريد أن تنقب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقيدها. وسرنا الى أن دخلنا بلاد الهند، فبعنا الأزواد التي كانت معنا، وتقاسمنا أثمانها، فصح لكل واحد عُشر رأس ماله. فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير التي كنا فيها، وكان قد أخذ منها صغيرا وبقي في الهند الى أن هرم. فقال لنا: أنتم وقعتم الى جزائر تسمى جزائر الحوت وهي بلدي، ونحن قوم ...نزل رجالنا على إناث حيوان البحر، واضطجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر، ونتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلائك، ...لك منذ قديم الدهور، فأصبحنا نصبر على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا

وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثماني عشره سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزايري الذي أخبرنا عن سر الذي فيهم قد قال لوالدي: لا تحل عنها قيودها فتطرح نفسها في البحر وتمضي فلا تراها أبدا فنحن لا صبر لنا عن الماء ففعل بها كذلك.

ولما كبرنا وتوفي والدنا ـ وكنا نلومه على تقييدها ـ ماكان لنا بعد من عمل إلا أن أطلقناها من القيد رحمة لها وبرا وحنوا عليها، فخرجت كأنها الفرس في الساق، وانطلقنا خلفها فلم ندركها. فقال لها بعض من كان قريبا منها: تمضين وتتركين أولادك وبناتك؟ فقالت: انشرتوا. ومعناها: وماذا أعمل لهم؟. وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق الباريء المصور، تبارك أحسن الخالقين.

تزاوج حيوان البحر بحيوان البر

ولكن التزاوج بين الأجناس لا يكون فقط بين الإنسان والحيوان، بل يمكن أن يكون أيضا بين الحيوان والحيوان. على نحو ما نقرأ في الحكاية الأولى من حكايات السندباد حين كان التزاوج بين حيوان البر وحيوان البحر. فبعد أن نجا السندباد من الغرق، واسترد عافيته، سار على غير هدى حتى وصل الى سهل منبسط، فرأى فيه عن بعد فرسا مربوطا فدنا منها، لكنه سمع صيحة عظيمة ارتعب منها وأراد أن يعود، وإذا برجل من تحت الأرض صاح عليه أن يتبعه وهو يسأله من هو ومن أين جاء وما سبب وصوله الى هذا المكان. فقص السندباد عليه قصته. فلما سمع كلامه أمسك به من يده ونزل معه في سرداب تحت الأرض حيث أجلسه في قاعة، وجاء له بشيء من الطعام.. وبعد أن

أكل السندباد سأله بدوره عمن يكون، فأجابه: اعلم أننا جماعة متفرقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سياس الملك المهرجان وتحت أيدينا جميع خيوله. وفي كل شهر عندما يكتمل القمر بدرا نأتي بالخيل الجياد ونربطها في هذه الجزيرة في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل ويطلع على البر فلا يرى أحدا، فينزو عليها ويحاول أخذها معه فلا تقدر أن تسير معه بسبب الرباط، فيضربها برأسه ورجليه ويصيح فنسمع صوته ونعلم أنه أتم مهمته، فنخرج صارخين عليه فيخاف وينزل البحر أما الفرس فتحمل وتلد مهرا أو مهرة تساوي خزنة، ولا يوجد له أو لها نظير على وجه الأرض، وهذا وقت طلوع الحصان.

وبينما هما يتكلمان جالسين في السرداب اذ سمعا صيحة الحصان، فأخذ السايس شيئا بيده وطلع من باب السرداب، وهو يصيح على رفاقه، فجاءت جماعة بالرماح صارخين فجفل منهم الحصان ونزل في البحر مثل الجاموس وغاب تحت الماء.

حلم البشرية

تلك نماذج للقصص التي كانت تعبّر عن الاعتقاد الذي شاع قديما في إمكان تزاوج مختلف السلالات. ويرى الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» أنه مما كان يدعم هذا الاعتقاد الإيمان بفكرة وجود كائنات تتوسط مختلف أنواع الموجودات. ولعل أحسن عرض لهذه الفكرة جاء في كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للدمشقي. المتوفي عام ٧٢٨هـ. فهو يقول: والمرجان حجر نباتي و... حجري، متوسط في خلقه بين النبات والمعد... فهو واسطة بينهما، واقف في آخر المعادن وأ... النبات (يقول العلم الحديث أن المرجان لا ... بالنبات ولا بالمعدن بل هو حيوان)، وكوقو... النحل والوقواق متوسطا في آخر النبات وأول الحيوان، وكالقردة.. والببغاء وشيخ البحر (الفقم أو الدولفين) بالتوسط بين الحيوان والإنسان، وهم في آخر الحيوان وأول البشرية وكتوسط الغول بين الإنسانية والجان والحيوان، وكتوسط السحاب بين الهواء والماء، وكتوسط الزئبق بين الماء والمعادن، وتوسط الدخان بين النار والهواء، وكتوسط الحلزون والصدف بين المعدن والحيوان، وتوسط الإنسان بين الملك والحيوان.

ويعلق الدكتور حسين فوزي على هذه الفكرة قائلا: وهكذا نجد أن الفكرة لا تقف عند التوسط بين كائن وآخر، بل تذهب الى حد التوسط بين الجمادات والأحياء، وبين الحيوان والنبات، والملائكة والحيوان، بل بين الإنس والجن والحيوان.

* * *

ولا شك أن هذه القصص الشعبية تعبّر عن حلم البشرية في تحقيق التزاوج بين مختلف السلالات لإيّجاد أنواع جديدة، ولعل اختلاط الخيل بالحمير وإيجاد نوع ثالث ـ وهو الاستثناء الوحيد وان كان له تفسيره العلمي ـ هو الذي جعلهم يعتقدون بامكان تحقيق هذا الحلم. لكن كل ما وصل إليه العلم الحديث الآن هو أن يتم التزاوج بين أصناف من النوع نفسه لهدف مثل هدف تحسين النوع. □

كن حريصا

● قال الحلاق للعامل الجديد الذي يتدرب على الحلاقة عنده: كن حريصا وأنت تحلق للناس حتى لا تجرح نفسك.

أنهار السموم
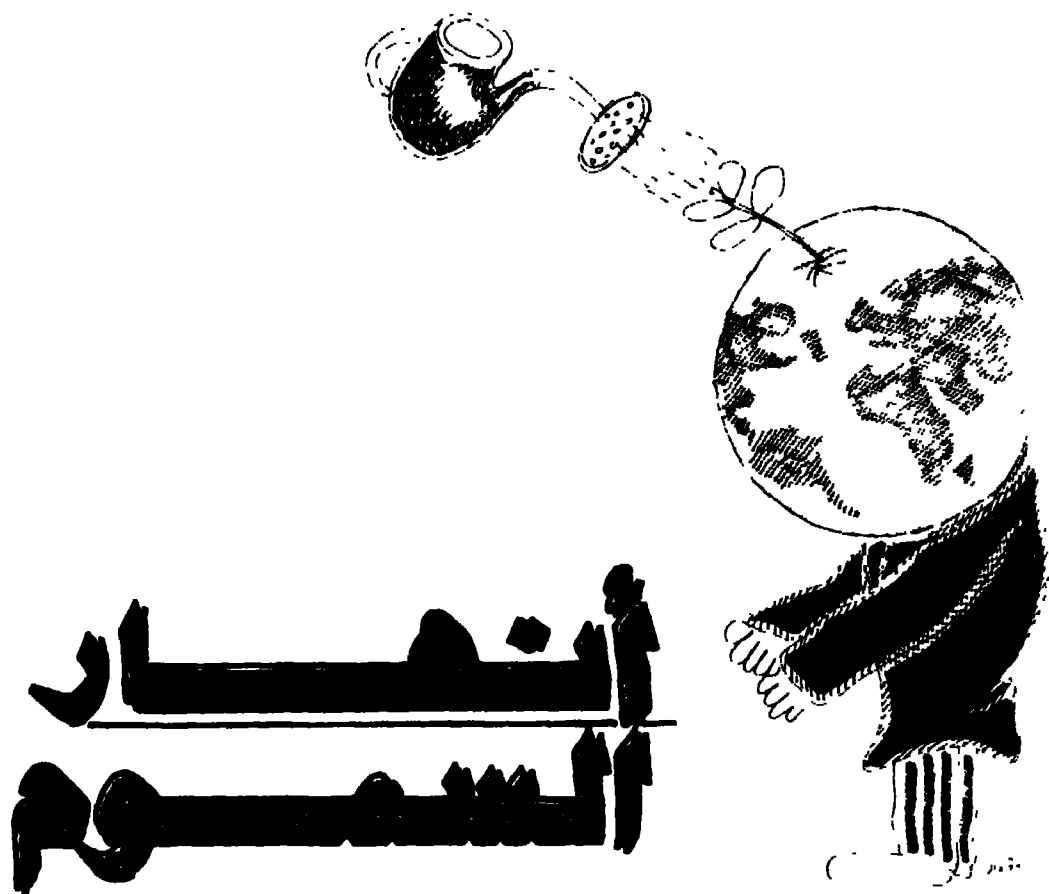
بقلم : الدكتور سمير رضوان

كما « مات » البحر الميت فإن هناك أنهارا تموت . والموت هنا هو موت الكائنات الحية التي تعيش في الأنهار ، بفعل المواد السامة التي تلقى فيها .

فكيف يموت النهر ؟

يبدو أن لكلمة التلوث في نفوسنا وقعا يختلف عن وقعها في نفوس أبناء الأمم الصناعية . ونحن نتفق بلا شك معهم في أن التلوث هو إحدى أخطر ظواهر الزمن الحديث ، لكننا في الغالب لا نعي مثلهم مدى عمق هذا الخطر ، لذلك كثيرا ما يصادف من يتصدى للكتابة عن هذه الظاهرة في أمتنا قدرا من اللامبالاة بين القراء ، وربما وصف بالنزوع إلى التشاؤم وتشويه صورة الحياة الجميلة . ولا شك أن هناك أسبابا لهذه اللامبالاة ، فالمواطن العربي تلهيه قائمة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، قل أن تجتمع مثيلاتها لمواطن الأمم الصناعية . ومن ثم فلابد لمشكلة مثل مشكلة التلوث أن تأتي بموقع متأخر من اهتماماته . أضف إلى ذلك أن أولي الأمر والنهي في وطننا العربي نادرا ما يوفرون للمواطن حقائق كاملة عن حجم مشكلة التلوث في أقطارنا ، بل هم يعالجون هذه المشكلة وشبيهاتها وكأنها من أسرار الدولة العظمى ، لذلك كثيرا ما يراود مواطننا الاحساس ، بل يصور له أن ظاهرة

التلوث هي مشكلة العالم الصناعي في المقام الأول ، ثم إنها بعد ذلك مشكلتنا في المقام الثاني أو الثالث . وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا القول صحيح ، إذ أن التلوث مرتبط فعلا بالتصنيع والتقدم ، على أن ظاهرة التلوث - بغض النظر عن المتسبب فيها - تكتسب باطراد أبعادا عالمية . فإذا لوثت دولة صناعية نهرا أو بحرا ، أو لوثت الغلاف الجوي ، أصبح من قبيل الغفلة الظن أن هذا التلوث يعنيهم هم ولا يعنينا بنفس القدر . وهو في الواقع يعني كوكب الأرض برمته .

أجدادنا حفظوا للأنهار قدرها

جرت الأنهار بالمياه على الأرض قبل أن يهبط الإنسان إليها ، بل وقبل أن يبعث الله فيها أبسط صور الحياة ، منذ حوالي ثلاثة آلاف مليون سنة . ولم يعد بين أنهار اليوم نهر ظل على حاله منذ خلق ، فقد أخذت القشرة الأرضية تتقلب وتتبدل ، ولا تلبث على حال واحد ، فغمرت مناطق كانت يابسة ، وطفت قيعان كانت مغمورة بالأمواه . وللأنهار على الإنسان فضل لا يمكن حصره في مقالة واحدة ، فالأنهار - في كثير من مناطق الأرض - هي التي حملت التربة الزراعية الخصبة وبسطتها على وجه الصحراء الجرداء ، فهيأت بذلك للإنسان حين خلق بقاعا ما كان لعيشه أن يصلح فيها لولا الأنهار . وتربة مصر الزراعية مثال نمطي لذلك ، فقبل إنشاء السد العالي كان طمي النيل يرصد من الطائرات أيام الفيضان بلونه الضارب إلى الحمرة ، مخترقا زرقة البحر المتوسط إلى أعماق تبلغ مئات الكيلومترات . وقد أثبت علماء تحليل التربة أن طمي النيل قد حملته المياه ، وألقته على شواطىء فلسطين ولبنان ، بل وعلى شواطىء اليونان في شمال البحر المتوسط . ولقد كانت الأنهار على الأرض ، وما زالت ، عوامل تلطيف مهمة للمناخ ، إذ تتبخر المياه من مسطحاتها فترطب الجو الجاف ، عـ أن أكبر فضل للأنهار على الإنسان يأتي من واقـ أنها هي التي ربطته بها منذ عشرات الألوف مـ السنين ، ليزرع وديانها الخصبة ، ويرتوي مـ مياهها ، ويروي حيواناته ، وكان قبل ذلك دائم الترحال ، في مرحلة عمره التي تعرف بمرحلة الصيد . وباستقرار الانسان في وديان . وبتعلمه حرفة الزراعة خطا أولى خطواته على طريق حضارته التي انتهت به إلى ما هي عليه اليوم . ومن هنا كان قول الباحثين إن « الحضارة » نشأت على ضفاف الأنهار . وعبر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذا المعنى وهو يخاطب النيل :

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ونباتها حسن عليك مخلّقُ
ولدت فكنت المهد ، ثم ترعرعت
فأظلها منك الحفيُّ المشفقُ

وقد عرف الإنسان القديم فضل الأنهار . وحفظ لها قدرها ، إذ شعر بفطرته أنه مدين لها بحياته ، فكان يحافظ عليها ويحميها . يروى أن المصري القديم كان إذا حضرته الوفاة ، يدعو أدعية كثيرة ، ويسجل حسناته في حياته ، ومن ضمنها أنه لم يلوث ماء النيل أبدا . ويبلغ تقدير الإنسان القديم للأنهار أن ألّهها ، فقد عبد قدماء المصريين النيل .

وكان القدماء يقدمون لهذا الإله في كل عام عروسا عذراء قربانا لكي يرضى ويفي بوعده ويفيض ، ثم حلت دمية محل العروس الآدمية ، حتى أوقف عمرو بن العاص هذه الطقوس . ومن الغريب أن الالمان كانوا يحتفلون أيضا بنهر الراين ، ويلقون في أحضانه دمية .

أما نحن فقتلنا الأنهار

أما إنسان القرن العشرين ، وعلى وجـ التحديد إنسان العقود القليلة الأخيرة منه ، فقـ

تلوث الهواء

لوث كل ما حوله ، بما في ذلك البيئة النهرية ، فقضى على شتى صور الحياة في بعضها ، حتى أصبح علماء البيئة يتحدثون اليوم عن « أنهار » ميتة ، وعن أنهار ماتت ثم بعثت مرة أخرى . وسوف تقتصر الأمثلة القليلة في هذه المقالة على أنهار الدول الصناعية ، حيث لا يتردد أولو الأمر لحظة في الإعلان عن واقع الحال ، مهما كان محزنا ، وذلك عملا بحرية النشر . وعدم استعانتي بأمثلة من بلادنا سببه الوحيد كما ذكرت أن التلوث وغيره من الكوارث تعالج في الغالب وكأنها من أسرار الدولة .

أما الأنهار التي قد ماتت فمن أمثلتها معظم أنهار وسط الجزيرة البريطانية . وللأنهار التي ماتت ثم بعثت مرة أخرى أذكر مثالين نمطيين : « التيمز » في بريطانيا ، ونهر « الراين » في القارة الأوربية . أما الأول فأعلن موته في الخمسينيات ، لكن المسئولين أولوه عناية مركزة - سوف أتعرض لطبيعتها - حتى أثمرت جهودهم ، وبعثت الحياة فيه مرة أخرى . أما الثاني فقد ماتت منه قطاعات كبيرة في فرنسا والمانيا الغربية وهولندة ، ثم أعلن المسئولون أن الحياة بعثت فيه أيضا بعد معالجات مكثفة .

وثمة جدل محتدم الآن في بريطانيا حول نهر « ديرفند » الذي أغلقه المسئولون في وجه النشاط الإنساني ، خشية أن يموت كما ماتت أنهار أخرى . وصاروا لا يسمحون حتى للقوارب أو هواة الرياضة بالاقتراب منه ، كما لا يسمحون أن تنشأ مصانع على شاطئيه كي لا تلوثه نفاياتها . ويشعر قطاع كبير من الشعب البريطاني بالضرر من هذا الخطر ، ويتساءلون في استنكار : « هل النهر للإنسان أم للحيوان ؟» يقصدون الحيوانات التي تحيا في مياهه . ولم يحسم هذا الجدل حتى الآن . ومما يميز الأنهار البريطانية أنها تنبع وتصب في دولة واحدة . أما معظم أنهار الدنيا فتخترق عددا من الدول ، مما يعني أن تلويث النهر في دولة لابد أن تتحمل عواقبه الدول الأخرى . وكثيرا ما تتبادل الدول الاتهامات حول نصيبها من

التلويث . مثال ذلك ما تردده ألمانيا الغربية دائما من أن نهر « الإلبه » لا يدخل أراضيها إلا وقد ملأته تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية بالسموم والنفايات .

كيف تموت الأنهار وتبعث ؟

يقصد العلماء بموت النهر موت الأحياء الراقية ، خاصة الأسماك التي تستوطنه . والبيئة النهرية من الناحية « البيولوجية » لا تختلف عن بيئة اليابسة إلا في نوعية الأحياء فحسب . وتعيش في الأنهار ، كما تعيش على اليابسة ، مجموعة من النباتات والحيوانات والميكروبات التي يعتمد بعضها على بعض ، ومن ثم فهناك قدر من التوازن بين أعدادها . وتقوم الطحالب في الأنهار مقام النباتات على اليابسة ، فهذه الأحياء الخضراء هي التي توفر المادة العضوية

كي لاتموت الانهار والاشجار

الأولية عداء للأحياء الأخرى في البيئتين ، حيث لها القدرة على صنع المادة العضوية من ثاني أكسيد الكربون والماء وطاقة الشمس خلال عملية التمثيل الضوئي . وتشبه ميكروبات النهر ميكروبات اليابسة إلى حد كبير ، إذ تتكون من أعداد كبيرة من البكتيريا والحيوانات الأولية وحيدة الخلية ، أما حيوانات النهر الراقية فتسود فيها الأسماك . ويموت النهر إذا ألقينا فيه مباشرة مواد سامة ، فهي تقتل الأسماك على الفور . وهنا يقال : إن النهر قد مات . أما إذا ألقينا كميات كبيرة على غير العادة من مواد عضوية غير سامة في النهر فسوف تتغذى البكتيريا على هذه المواد وتتضاعف أعدادها بصورة مذهلة . فيختل الميزان السائد بين أعداد الأحياء في النهر . وهنا يقال : إن النهر مريض . وينجم عن تكاثر البكتيريا بصورة غير عادية مشاكل جمة ، قد تفضي إلى موت الأسماك أيضا ، ولكن ببطء ، إذ قد تلتصق الخلايا البكتيرية الكثيرة على خياشيم الأسماك ، فتعوق تنفسها وتخنقها . وهناك أنواع من البكتيريا لها القدرة على إنتاج سموم الأحياء الراقية . ثم إن البكتيريا تتنفس فتستهلك معظم الأكسجين في الماء ، مما يعرض الأحياء الأخرى للخطر . تلوث النهر إذن لا يحدث ـ بالضرورة ـ من القاء مواد سامة فيه ، إنما من إلقاء أي مواد عضوية وغير عضوية تخل بالموازين السائدة بين أحياء النهر ، فلو ألقينا بأطنان من السكر مثلا ـ وهو مادة غذائية مثالية ـ فنحن في الواقع نسمم النهر أيضا بما قد يفضي إلى موته على غرار ما ذكرنا .

أما بعث النهر الذي مات فلا يتحقق إلا بتخليصه من المواد التي ألقيت في مياهه . وقد توصلت بحوث المختصين إلى أن مثل هذه المواد يمكن أن تتحلل إلى ثاني أكسيد الكربون والماء وغازات أخرى ، من خلال أنشطة البكتيريا في الماء ، شريطة أن تضخ كميات هائلة من الهواء في مياه النهر ، تكفي حاجة هذه الميكروبات من

ضحايا تلوث الأنهار

الأكسجين ، ثم يترك النهر زمنا ـ يمثل فترة نقاهة ـ كي تستقر أعداد البكتيريا فيه ، بعد أن تعود إلى سيرتها الأولى . وكثيرا ما يستدعي الأمر بعد ذلك زراعة النهر بالأسماك ، بغية الوصول إلى الميزان الحيوي الطبيعي مرة أخرى .

الصناعة مصدر السموم

تندرج السموم التي تلقى في الأنهار كنفايات صناعية تحت أربعة أقسام ، يشمل القسم الأول مركبات تغير درجة حموضة الماء في النهر ، ومن أمثلتها الأحماض غير العضوية ، كحمض الكبريتيك ، والأحماض العضوية ، وهذه تتسبب فيما يعرف علميا بخفض الأس الأيدروجيني للماء ، أي تزيده حموضة . ويخل هذا العامل بالميزان السائد في الماء ، وهو متعادل ، إخلالا عظيما . إذ تقضي الحموضة على معظم البكتيريا ، مما يشجع على ازدهار ميكروبات أخرى غير مرغوبة ، وهي الفطريات . وينبغي أن نتذكر هنا أن البكتيريا في الواقع غذاء للحيوانات الأولية التي تمثل مع الطحالب معظم غذاء الأسماك . ويعني ذلك أن نقص البكتيريا عن أعدادها في الميزان الطبيعي يفضي بالضرورة إلى نقص الأسماك أيضا . وكثيرا ما تلقى مصانع السماد بالنشادر في الأنهار ، فيرفع قلوية الماء ، مما يخل أيضا بالميزان الحيوي في النهر . أضف إلى ذلك أن الأمطار الحمضية التي تهطل بغزارة على الأنهار في الدول الصناعية تفضي إلى خلل مشابه أيضا .

والقسم الثاني من السموم يشمل النفايات الصناعية المحتوية على معادن ثقيلة ، مثل الزئبق والرصاص والكادميوم ، وهي سموم تفتك بالأحياء الراقية والميكروبات في النهر على حد سواء . في إحصائية نشرت عام ١٩٨٦ عن تلوث أنهار ألمانيا الغربية بالمعادن الثقيلة تبين أن كمية المعادن التي لوثت نهر « الإلبه » في هذا العام وحده بلغت ٣٤٦٢ طناً ، بمعدل ١٥٪

من الجرام لكل متر مكعب من الماء . وبلغت الكمية التي لوثت نهر « الفيزر » ٨٩٤ طناً (٨٪ من الجرام للمتر المكعب) ، والتي لوثت نهر « الراين » ١١١٨٩ طناً (١٤٪ من الجرام للمتر المكعب) . وقد جاءت هذه الكميات الكبيرة كنفايات من مصانع قائمة على ضفاف الأنهار .

أما القسم الثالث من السموم فهو مضادات الأعشاب والحشرات التي أصبحت ترش بغزارة في الحقول للقضاء على الآفات ، فتذيبها الأمطار ، وتنقلها إلى المصارف والأنهار ، وهناك تقتل الأحياء الراقية كالأسماك على وجه الخصوص . ومعظم هذه المركبات ليس سوى مشتقات نفطية ، أي هيدروكربونات ، تحتوي على ذرات الكلور أو الفلور . وتسبب هذه المواد قائمة من الأمراض للإنسان والحيوان ، من ضمنها الحساسية والسرطان . ولكي يتصور القارىء حجم المشكلة نذكر أن ألمانيا الغربية وحدها ترش سنويا في حقولها حوالي ٣٠٠٠٠ طن من هذه المواد التي تمثل حوالي ٣٠٠ مركب مختلف . ولم يبتكر الباحثون بعد طرقا لتحليل مثل هذه المواد ، باستثناء ١٠٠ مركب منها فقط . معنى ذلك أن ثلثي هذه المواد لم تتوافر بعد الطرق المخبرية لمجرد اختبار وجوده في مياه الأنهار . وتقدر الإحصائيات المنشورة أن المدينة الأوروبية المتوسطة الحجم يمكن أن يرصد بالقرب منها في المتوسط ٣٠٠٠ مصنع أو مؤسسة أو هيئة تشارك في تلويث المياه بهذه المواد ، ومن أمثلتها محطات الوقود النفطي ، وورش إصلاح السيارات ، ومحطات التنظيف بالكيماويات ، والمطابع ، وأعداد كبيرة من مصانع الكيماويات المختلفة . وفي أحد التقديرات تحتوي النفايات الصناعية المختلفة على مالا يقل عن مائة ألف مركب كيميائي مختلف تصب يوميا في أنهار العالم .

وتندرج تحت القسم الرابع الأخير من السموم المواد المشعة التي قد تتسرب من المفاعلات النووية القائمة على ضفاف الأنهار وتضخ هذه المفاعلات كميات هائلة من ماء النهر للتبريد ، ثم تعيدها إليه مرة أخرى محملة بقدر من الإشعاع ، إضافة إلى أن حرارة الماء ترتفع إلى قرب درجة الغليان ، مما يؤثر على أحياء النهر . وقد تكون كمية الإشعاع المتسرب ضئيلة ، على أن الأحياء النهرية قد تختزن في أجسامها منها كميات محسوسة مع الزمن . فتصبح بذلك غير آمنة على الإطلاق .

والزراعة مصدر آخر للتلوث

أشرنا إلى مضادات الآفات الزراعية ، كأحد أقسام المواد السامة التي تنتجها الصناعة ، أما الأسمدة فلا يكمن خطرها في أنها مواد سامة ، بل يكمن في أنها تسمد المياه في الأنهار ، فتزداد خصوبة ، فتنمو فيها الطحالب بغزارة مخلة بالميزان الحيوي السائد ، مما يفضي في النهاية إلى

.وت الأسماك أيضا ، فالماء الذي يحتوي على أعداد غفيرة من الخلايا الطحلبية قد يخنق الأسماك ، كما تفعل أعداد البكتيريا الكثيرة ، أي من خلال الالتصاق بالخياشيم ، وتنتج بعض الطحالب سموما تقتل الأسماك . ولا تظهر هذه في البيئة النهرية إلا حينما يختل التوازن الطبيعي السائد . والأسمدة التي ترش في الحقول مركبات نيتروجينية ، تؤكسدها بكتيريا التربة إلى أملاح النترات الشديدة الذوبان في الماء ، فتغسلها الأمطار في مياه النهر عند المناطق الزراعية الملاصقة للشاطيء . والنترات تسمد الماء ، مما ينجم عنه نمو الطحالب بغزارة فيه ، لذلك فهناك اتجاه اليوم في كثير من دول أوربا إلى إلزام المزارعين بعدم رش الأسمدة في المناطق المتاخمة للشاطيء بعمق خمسة أمتار على الأقل .

وسكان المدن لوثوا الأنهار

ولسكان المدن أثر مشابه لأثر الأسمدة على مياه النهر ، فلقد أصبحنا نسمع اليوم عن مدن كثيرة ، يبلغ عدد سكانها عدّة ملايين ، ولم يكن الأمر كذلك منذ عقود قليلة من السنين ، ومعظم المدن الواقعة على الأنهار تصب مجاريها الصحية فيها ، ولم تكن هذه مشكلة تذكر فيما مضى ، حينما كانت أعداد السكان معقولة ، فقد كانت البكتيريا الموجودة في النهر كفيلة بتحليل مكونات المجاري العضوية ، دون إخلال كبير بالموازين الحيوية في النهر . أما وقد بلغت أعداد السكان عدّة ملايين في كثير من هذه المدن فقد أصبحت المجاري تمثل مشكلة كبرى . فلو سمح للمجاري المنزلية الخاصة بهذه المدن أن تصب في الأنهار مباشرة ، دون معالجة مسبقة ، فالنتيجة الحتمية هي اختلال موازين الأحياء ، وعندئذ سوف تكتسح البكتيريا كل الأحياء الأخرى في النهر ، فهي الوحيدة القادرة على استهلاك مخلفات المجاري كغذاء . لذلك فقد أصبحت مخلفات المجاري في المدن الكبيرة تعالج لخفض محتواها من المواد العضوية ، قبل صرفها في مياه الأنهار . وتتلخص هذه المعالجة في جمع المجاري في أحواض ضخمة ، وتركها زمنا ساكنة كي ترسب إلى القاع المواد الصلبة التي تتكون من مواد عضوية تصلح غذاء شهيا للبكتيريا . ثم تصرف السوائل ، وهي ما زالت غنية بالمواد العضوية الذائبة ، إلى أحواض أخرى ، حيث تقلب بشدة ، وتضخ فيها كميات هائلة من الهواء . وهدف هذه المعالجة تنشيط البكتيريا لكي تتغذى على المواد العضوية وتحللها . وبعد ذلك تصرف المجاري المعالجة في الأنهار . وقد ظن العلماء أنهم قد انتهوا من المشكلة بالتخلص من مواد المجاري العضوية ، ولكن تبين فيما بعد أن بكتيريا المجاري تحول المواد العضوية النيتروجينية أثناء المعالجة إلى أملاح النترات .

أضف إلى ذلك أن المجاري المنزلية تحتوي على قدر كبير من أملاح الفوسفات ، ومصدرها مساحيق الغسيل . وعلى ذلك فسوائل المجاري المعالجة غنية بأملاح النيتروجين والفوسفور غير العضوية . فإذا ما صرفت في الأنهار كانت غذاءا مثاليا للطحالب ، فتتكاثر في مياه النهر بغزارة . ولقد أحصى العلماء ان نهر « الراين » مثلا يستقبل سنويا من مجاري المدن من المواد النيتروجينية ما يمكن أن يملأ ١٤٠٠٠ عربة قطار ، ومن أملاح الفوسفور ما يمكن أن يملأ ١٥٠٠ عربة . إذن فقد عالجت التقنية مشكلة فنشأت منها مشكلة أخرى . وهناك بحوث تجري الآن لحل هذه المشكلة الجديدة . أما أملاح الفوسفات فيتم التخلص منها الآن من خلال إنتاج مساحيق للغسيل خالية من الفوسفور . أما أملاح النترات فهناك تجارب تجري مرة أخرى على أسلوب معالجة سوائل المجاري . أعلن مؤخرا أن تهوية هذه السوائل ينبغي أن يتبعها مباشرة حفظها قبل صرفها تحت

ظروف لا هوائية لزمن محدود ، تستطيع أثناءه أنواع من البكتيريا اللاهوائية اختزال أملاح النترات إلى غازات نيتروجينية تتصاعد إلى الجو . وواضح أن هذا ليس حلاً مثاليا . فسرعان ما سوف تذوب هذه الغازات المتصاعدة في مياه الأمطار وتعود مرة أخرى إلى التربة والأنهار

ماذا يخشى من تلوث الأنهار ؟

يخشى الكثير . فالأنهار مصادر لمياه الشرب في كثير من بقاع الأرض ، وغني عن الذكر أن مياها مليئة بالسموم لا تصلح شرابا للبشر . وهذه مشكلة أصبحت ساخنة في السنوات الأخيرة ... أن محاصيلنا الزراعية تروى بمياه الأنهار ، ونحن نأكل هذه المحاصيل في النهاية ، ونقدم منها علفا لماشيتنا ، والمياه الملوثة تنتج محاصيل زراعية ملوثة وقد أثبت الدارسون حديثا أن ألبان الماشية مثلا قد أصبحت تحتوي على قائمة من مضادات الآفات الزراعية ، بل والمواد المشعة . أضف إلى ذلك أن الأنهار هي أحد أهم مصادر الأسماك التي أصبحت تمثل جانبا مهما من غذاء الإنسان . ومع ازدياد أعداد البشر على الأرض باطراد ينبغي المحافظة على هذه الثروة وتنميتها لا تسميمها وقتلها . لقد أصاب التلوث أسماك الأنهار بأمراض لا حصر لها ، وليس السرطان إلا أحدها . وتحرم كثير من الدول الصناعية اليوم استهلاك الأسماك النهرية ، لأنها لم تعد آمنة مما تحويه من ملوثات . ثم إن الأنهار تمتد مسافات قد تبلغ آلاف الأميال ، وتسري مياهها من دولة إلى أخرى . وتلويث الأنهار يعني توزيع التلوث على كوكب الأرض بالتساوي وأخيرا فالأنهار تصب في البحار . وتنقل إليها سمومها وملوثاتها وتتبخر المياه في البحار مما يفضي إلى تركيز السموم فيها يوما بعد يوم . حتى أصبحت بحار اليوم ما بين مريضة وميتة □

ماذا تعرف عن:

● ناطحة السحاب امباير ستايت؟

● يبلغ ارتفاع ناطحة السحاب «امباير ستايت» التي بنيت عام ١٩٢٩ في نيويورك ٤٤٨ مترا.

● تتكون من ١٠٢ مائة وطابقين. وبها ٦٥٠٠ نافذة و ٧٢ مصعدا.

● يبلغ عدد الاشخاص الذين يعملون في مكاتبها ٢٠ ألف شخص. ويزورها ١٣٠٠٠ سائح يوميا، يصعدون إلى برجها حيث يمكن الرؤية إلى مسافة ٧٠ كيلومترا.

● تكلف بناؤها ٢٤ مليونا و٧٠٠ ألف دولار، وبيعت عام ١٩٦١ بمبلغ ٥١ مليونا و٥٠٠ ألف دولار.
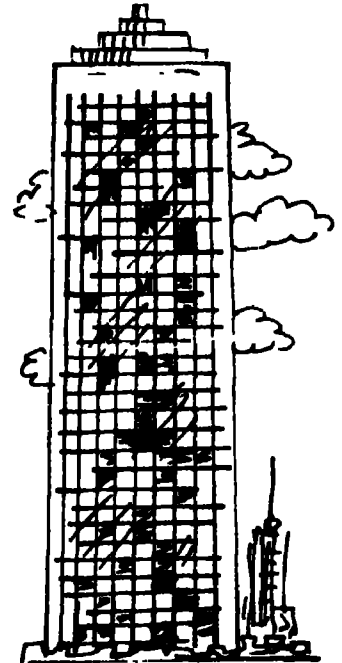
التهاب الزائدة الدودية وعلاقته بالأغذية الحديثة

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

هل هناك ارتباط بين الأغذية الحديثة ومرض التهاب الزائدة الدودية المزمن ؟ هذا مايراه بعض الباحثين عند تفسيرهم لظاهرة ارتفاع معدل الإصابة بهذا المرض بين سكان دول العالم الثالث ، حيث شاع تقليد الغرب في نوعيات غذائه وعاداته الغذائية . فما هي أعراضه ، وكيفية العلاج منه ؟

يتناقل بعض الأطباء قولا شائعا ، يؤكد ان لاشيء أسهل من تشخيص التهاب الزائدة الدودية الحاد ، ولا شيء أصعب منه ، وعلى الرغم من أسلوب المبالغة في هذا القول ، فإنه يشير إلى حقيقة طبية معروفة ، وهي سهولة تشخيص هذا المرض أحيانا ، وصعوبة تشخيصه في أحيان أخرى . ومصدر الصعوبة في ذلك هو اختلاف موقع «الزائدة الدودية» من شخص لآخر ، ووجود أمراض كثيرة تسبب ألما حادا في البطن ، وهو العرض الرئيسي لالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، كما ان على الطبيب أن يعتمد اعتمادا شبه كامل على الأعراض والفحص السريري ، ذلك ان التحريات المختبرية والصور الشعاعية قليلة الفائدة في التشخيص .

الأعراض

تبدأ الأعراض بهيئة ألم حاد مفاجيء في وسط البطن «في منطقة المعدة» ، ويرافق الألم غثيان ، وربما تقيؤ . وبعد عدة ساعات ، يتحول الألم إلى الجهة اليمنى من أسفل البطن ، وبعد ان كان الألم في وسط البطن ، بهيئة ألم متقطع ، أو مغص ، فإنه يغدو في أسفلها ألما مستمرا شديدا ، ويشتد الألم عند أية حركة يقوم بها المريض ، فيضطر إلى الاستلقاء مثنيّ الساقين .

وتختلف شدة الإلتهاب من شخص لآخر ، ففي بعض الحالات ، سرعان ما تصاب الزائدة «بالغرغرينا أو الموات» فيتآكل جزء منها ، وهو ما يسمى أحيانا بانفجار الزائدة ، ويلتهب الخلب أو «البريتون» ، وهو غشاء رقيق يبطن تجويف البطن والحوض ، ويغلف ما فيهما من أحشاء . إن هذه المضاعفات ، قد تحصل خلال «١٢» ساعة فقط من بداية ظهور الأعراض ، وفي حالات أخرى لا تحصل هذه المضاعفات أو يتأخر ظهورها ، فقد استؤصلت الزوائد الدودية لبعض المصابين بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فوجدت سليمة إلا من الالتهاب الذي لم يسبب تلك المضاعفات .

وبالفحص السريري ، نجد ازدياد معدل النبض ، وارتفاعا غير شديد في حرارة الجسم ،

«٣٩ درجة مئوية أو اقل» ، فإذا كانت الحمى شديدة «٤٠ درجة مئوية أو أكثر» ، فمن غير المحتمل ، انها ناشئة عن التهاب حاد في الزائدة الدودية ، بل يرجح أن تكون ناشئة عن التهاب حاد في الجهاز البولي أو التنفسي . ونجد أيضا اللسان مكسواً بطبقة خفيفة بيضاء ، ورائحة الفم كريهة . وفي كثير من الحالات ، لا نجد أي علامة من هذه العلامات ، مما يقلل من قيمتها التشخيصية .

وعند الضغط باليد على أسفل البطن من الجهة اليمنى يزداد الألم ، وكذلك عند سحب اليد منها . وعلى الرغم من ان هذه منطقة الزائدة الدودية في معظم الحالات ، فانها قد تكون في مكان آخر فوق ـ أو دون ـ المكان المعهود ، ولهذا يكون الألم إلى الأعلى «في الخصر» ـ أو إلى الأسفل «قرب المثانة» . ومن طريف مارواه البروفيسور «هارولد أليس» أستاذ الجراحة في مدرسة «ويستمنستر الطبية» ، أنه شاهد مريضين مصابين بإلتهاب الزائدة الدودية الحاد ، وكان كل منهما يمينيّ القلب يساريّ الزائدة !! .

فبمرور الوقت ، يمتد الالتهاب إلى «البريتون» ، مما يجعل الألم ينتشر ليشمل كل البطن ، ولا يقتصر على مكان الزائدة ، ونتيجة لإلتهاب البريتون تتصلب البطن وتتشنج ، ويبدو المصاب متعبا خائر القوى .

التحريات المختبرية :

لابد من فحص الدم مجهريا لحساب عدد كريات الدم البيضاء ، الذى يزداد لدى «٧٥٪» من المصابين بالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، فيغدو أكثر من (١٢,٠٠٠) في كل مليمتر مكعب من الدم (بدل العدد الطبيعي الذى يتراوح مابين ٤,٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠) . أما بقية المصابين «٢٥٪» فإن العدد يظل طبيعيا ، أو يزداد زيادة طفيفة .

كما يجب فحص البول كيميائيا ومجهريا في أى حالة من حالات ألم البطن الحاد ، فإذا وجدنا فيه «الجلوكوز» فمن المرجح أن يكون سبب الألم ، هو داء السكر وليس التهاب الزائدة . وإذا وجدنا فيه الدم والقيح ، فمن المرجح أن يكون سبب الألم هو التهاب في الجهاز البولي .

ويجب تصوير البطن بالأشعة السينية العادية«أو غير الملونة» ، وذلك من أجل تشخيص بعض أمراض الجهاز الهضمي التي تسبب ألما حادا في البطن ، ومن هذه الأمراض ثقب قرحة المعدة أو الاثنى عشر ، ونتيجة لهذا الثقب تتسرب الغازات إلى تجويف البطن ، ويمكن رؤيتها بالأشعة . وقد نجد بالفحص الشعاعي حصاة في الحالب .

عقبات في الطريق :

وعلى الرغم من سهولة تشخيص المرض ، فإن هناك حالات ، خاصة تجعله أقل يسرا وأكثر عسرا ، ومن هذه الحالات عدم دقة وصف المريض لحالته ، والأعراض التي يشعر

● زائدة دودية ملتهبة وقد صورت بعد استئصالها والأرقام أسفل الصورة تمثل وحدات قياس بالسنتيمتر .

بها ، ومكان الألم وغير ذلك . وكذلك الأمر حين يكون المريض مفرط السمنة . إذ تقوم الشحوم بإخفاء أهم علامتين يعتمد عليهما الطبيب في تشخيص التهاب الزائدة ، وهما الألم عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج البطن ، وشيء مشابه لهذا يحدث عندما تكون الزائدة ممتدة خلف الأمعاء ، فلا تظهر العلامات الرئيسية .

ويصعب تشخيص المرض لدى صغار السن وكباره ، وعلى الرغم من عدم شيوع المرض لدى الأطفال دون عمر سنتين ، فإنه حدث لأطفال رضع في عمر عدة أيام فقط . ويعتمد الأطباء في التشخيص على حصول الألم أو «بكاء الطفل» عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج هذا الجزء من البطن . أما لدى كبار السن ، فقد أثبتت الدراسات أن هناك تأخيرا في التشخيص ، بل ان حالات كثيرة لاتشخص إلا بعد انفجار الزائدة . ويعتقد ان من أسباب هذا التأخير ، الحالة الإجتماعية الخاصة لكبار السن ، وقلة شكواهم وعدم اهتمامهم بالألم حتى يشتد .

ويصعب التشخيص أيضا لدى الحوامل ، فإذا أحست الحامل بألم البطن في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، فإن أول تشخيص يفكر فيه الطبيب هو الحمل خارج الرحم أو الإسقاط المهدد . وحتى الغثيان الذي يرافق التهاب الزائدة له تفسيره الخاص لدى الحوامل ، على انه الوحام ، وكذلك الأمر مع التقيؤ . وبمرور أشهر الحمل ، يكبر الرحم ويدفع الزائدة الدودية إلى الأعلى والجانب ، وإذا التهبت هذه الزائدة فإنها تسبب ألما في غير المكان المعهود للزائدة - في وسط البطن تقريبا - فيصعب التفريق بين التهاب الزائدة والتهاب حوض الكلية أو التهاب الصفراء .

التدقيق في التشخيص

يقصد بالتشخيص التفريقي : دراسة الأمراض المشابهة في أعراضها لالتهاب الزائدة ، وتعيين أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين هذا المرض . وقد كنا فى السنة الأخيرة من دراستنا الطبية ونحن على وشك التخرج ، نعجب من الأمراض الكثيرة جدا التي توضع تحت عنوان «التشخيص التفريقي لالتهاب الزائدة الدودية» ، بل كان بعضنا ، يسخر من تلك القائمة الطويلة ، زاعما انه يستطيع تشخيص التهاب الزائدة وهو مغمض العينين ! غير أن الممارسة العملية أثبتت لنا جميعا ضرورة ذلك التفريق في التشخيص ، بسبب وجود أمراض كثيرة تشابه أعراضها أعراض التهاب الزائدة ، وأدركنا الواقع الملموس وهو أن بعض الزوائد الدودية تستأصل من أجسام أصحابها وهي

سليمة لامرض فيها . ومثل هذا الخطأ ـ بنسب غير كبيرة ـ أمر مقبول عند الوقوف بين الشك واليقين أمام التشخيص ، فهو أفضل من عدم إجراء العملية والانتظار حتى تنفجر الزائدة في جسم صاحبها .

أما الأخطاء التي لا تغتفر ، فهي استئصال الزائدة من شخص يشعر بألم البطن الحاد ، لابسبب التهاب الزائدة ـ وإنما بسبب داء السكر أو التهاب غشاء الجنب ، فالعملية الجراحية تزيد الطين بله . أو عدم إجراء العملية لمريض مصاب بالتهاب الزائدة ، نتيجة التشخيص الخاطىء بأنه «التهاب المعدة والأمعاء» أو غيره من الأمراض التي لاتحتاج عملية جراحية ، وهكذا تترك الزائدة حتى تظهر عليها «الغرغرينا» وتنفجر مسببة مالا تحمد عقباه . ونحمد الله على أن هذه الأخطاء القاتلة نادرة جدا .

العلاج

يتم العلاج باستئصال الزائدة الدودية جراحيا في أسرع وقت ممكن ، وذلك لمنع حصول المضاعفات . غير ان هناك حالات خاصة توجب تأخير العملية الجراحية ، وأهم هذه الحالات مايلي :

أولا : إذا كانت حالة المريض الصحية سيئة جدا ، بسبب الالتهاب الشديد في «البريتون» ، فيجب علاجه بالطرق الطبية في بداية الأمر ، وذلك بإعطائه السوائل عن طريق الوريد ، وإعطائه المضادات الحيوية لعلاج الالتهاب ، ثم تجرى له العملية الجراحية .

ثانيا : عندما يتأخر المريض عدة أيام ، فإن التهاب الزائدة قد يؤدي إلى تكوّن ورم في منطقة الزائدة نتيجة تكوّم الأحشاء المجاورة «وهذه وسيلة دفاع طبيعية تحدّ من إنتشار الالتهاب» . وفي هذه الحالة لايجوز إجراء العملية ، بل يوضع المريض تحت المراقبة الطبية الدقيقة ، ويمتنع عن الطعام ، ويعطي السوائل عن طريق الوريد ، حتى يزول الورم ، ثم تجرى له العملية الجراحية بعد شهرين أو ثلاثة . وهذه العملية الجراحية تتم على الرغم من شفاء المريض ، لأنه أكثر عرضة للإصابة بالتهاب الزائدة مرة أخرى ، أي انها عملية وقائية .

ثالثا : إذا كان المريض قد أتى بعد زوال الأعراض ـ أي أنه أصيب بالتهاب الزائدة ثم شفي تلقائيا ـ فلا ضرورة لإجراء عملية جراحية عاجلة ، ولكن يفضل إجراء العملية في وقت آخر وقاية من التهاب الزائدة مرة أخرى .

رابعا : في المناطق النائية التي لا تتوافر فيها الخدمات الجراحية ، وحيث لا يمكن نقل المريض إلى مستشفى آخر «بسبب انسداد الطرق نتيجة الثلوج أو أي سبب آخر» ، فليس أمام الطبيب إلا تخفيف الألم بالعقاقير المسكنة كالمورفين مثلا ، وإعطاء السوائل بالوريد والمضادات الحيوية ، ويؤدي هذا العلاج إلى شفاء بعض الحالات . □

* قال عبدالملك بن مروان : «أربعة لا يستحى من خدمتهم : الإمام والعالم والوالد والضيف» .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

وداعاً للحياة .
كل أربع دقائق

الأطفال دائما ..
هكذا تقول منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة ، والمعروفة باسم «اليونيسيف» .

فعندما تنشب الحرب ، أو تشتد الأزمة الاقتصادية ، وتلقي بظلالها على كل شيء ، ابتداء من العناية بالصحة والتغذية ، وامتداداً للقسط المتاح من التعليم . عندما يحدث ذلك يكون في مقدمة الضحايا : البراعم الصغيرة التي لم يشتد عودها .

ينصرف الاهتمام عادة إلى الآثار المباشرة لهذه الأزمة أو تلك ، ولهذه الحرب أو تلك . وفي العادة تهتم الدراسات والتقارير بعدد القتلى والجرحى ، وحجم الانفاق العسكري ، ومقدار الانكماش الاقتصادي ، وتأثر مرافق الانتاج ، وزيادة حجم التضخم ، إلى آخر هذه المؤشرات التي تعكس وطأة الأزمات والمشاكل ، وخروجا على هذا السياق ، تأتي الأرقام التي تذيعها «اليونيسف» هذه المرة لتشرح حالة بعينها : تأثير التمييز العنصري والحروب والاضطرابات على أطفال البلدان التسعة المجاورة لجنوب افريقيا الذين تأثروا بشكل غير مباشر .

البلدان التسعة كما هو معروف : انجولا ، بتسوانا ، ليسوتو ، مالاوي ، موزمبيق ، سوازيلاند ، تنزانيا ، زامبيا ، وزيمبابوي . أما عدد الأطفال الذين تأثروا ـ طبقا لتقرير صادر عام ١٩٨٨ ـ فهو : خمسة عشر مليون طفل .

والآثار عديدة : الوفاة ، والمرض ، والاصابة بسوء التغذية ، التخلف عن التعليم ، الحرمان من معظم أسباب الحياة . بالأرقام أيضا يقول التقرير إن وفيات الأطفال في بعض هذه البلدان قد ارتفعت بنسبة ٧٥٪ .

الدمار

في السبعينيات استقلت انجولا وموزمبيق عن البرتغال ، ولكنهما تعرضا للقتال ، والاقتتال ، والغزوات ، والضغوط الاقتصادية ، واستنزاف الموارد .

وكأي بلد حديث الاستقلال كان الالتفات واسعا لتحسين معيشة الفقراء ، وتحسين المستوى الاقتصادي ، والعناية بالصحة بما فيها صحة الأم والطفل ، وتوفير الدواء ، والتحصين والعلاج ، والمياه الصالحة للشرب .

لكن مع صعود الأحداث في الثمانينيات انتكست كل هذه الجهود ، وفي بلد واحد هو موزمبيق تم تدمير ٥٨٥ مركزا للصحة ، وهو ما يعادل نصف المراكز على وجه التقريب . كذلك تم تدمير أو تهجير ثلث المدارس ، ويبقى نصف مليون تلميذ بالمرحلة الابتدائية بلا تعليم !

وفي التفاصيل نجد الارهاب الجماعي قد ...سبح أسلوبا متبعا ، فتهجم القوات لتحرق ...زارع والمحاصيل ، وتنهب المدارس والعيادات ...لكنائس والمساجد والمخازن والقرى ، وتدمر ...سبكات المواصلات ، وتسمم الآبار بإلقاء جثث ...لقتلى فيها ، وتنزل الرعب بالتلاميذ والمدرسين ...وموظفي الصحة والموظفين الذين يقدمون ...لمعونات الأجنبية وامدادات الدواء والغذاء .

نفس الشيء بالنسبة للمرافق الاقتصادية : المصانع ومنشآت النفط والمناجم وحقول الشاي .

إنها حرب بربرية ، وحشية ، لا تعرف أي معنى من معانى الانسانية .

وهذه الخسائر الضخمة :

في صراحة ووضوح تقول منظمة « اليونيسيف » : نعم ، كانت خسائر الحرب الاقتصادية والعسكرية بسبب سياسة التمييز العنصري في جنوب افريقيا ، خسائر ضخمة وغير عادية .

وفي محاولة لحصر هذه الخسائر منذ عام (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) نجد هذه الأرقام المفزعة :

* خسائر انجولا سبعة عشر مليارا من الدولارات .

* خسائر موزمبيق (٥,٥) خمسة مليارات ونصف مليار دولار .

* خسائر الدول السبع الأخرى المحيطة بجنوب افريقيا : خمسة مليارات من الدولارات .

أما الخسائر البشرية فهي مائة ألف قتيل في دولتين فقط هما:انجولا وموزمبيق ، ومع ذلك فإن معظم الوفيات ليست ناجمة عن الحرب بشكل ...ساشر ، لكنها ناجمة عن سوء التغذية ، ...لاسهال ، والالتهابات التنفسية الحادة ، وعن ...راض كان التحصين منها أمراً ميسورا ولا يكلف ...ـة دولارات للفرد الواحد .

لكنه الخراب ، ذلك الذي دفع بقوى عنصرية غاشمة ، وقوى دولية طاغية لتفترس ذلك الجزء البعيد من القارة الأفريقية ، ليس في ساحة حرب شريفة ، وإنما في ساحة حرب قذرة امتدت إلى الطفل الرضيع ، والطفل الذاهب إلى مدرسته ! .

لقد كان الهدف في الدولتين الأكثر تأثرا (انجولا وموزمبيق) الانخفاض بمعدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة ، وبينما كان المعدل (٢٠٠) طفل بين كل ألف ، أصبح المعدل بسبب الحروب والاضطرابات والتدمير وحرب التجويع : (٣٢٥) بين كل ألف ولادة . ! أي أنه من بين كل ثلاثة أطفال يرحل واحد عن هذا العالم ، أو : بحساب آخر يموت طفل كل أربع دقائق ، ومات (١٤٠) ألف طفل عام ١٩٨٧ في انجولا وموزمبيق .

ربما يكون الأمر قد تكرر بصورة أو بأخرى في مناطق التوتر الأخرى في العالم ، في الخليج أو لبنان أو جنوب السودان أو أجزاء من شبه القارة الهندية ، وربما تركت الأزمة الاقتصادية آثارها على أفريقيا جنوب الصحراء حيث الجفاف والتصحر ونقص الغذاء والدواء ، وربما تأثر أطفال الدول النامية بشكل عام بذلك الجبل من الديون التي ترزح تحتها شعوبهم ، بل ربما يتأثر الأطفال بسبب سياسة صندوق النقد الدولي ، كما أثبتت دراسة علمية لأستاذة الاقتصاد الدكتورة كريمة كريم .

ربما يحدث ذلك في هذا المكان أو ذاك من العالم ، وربما قلنا : الأطفال ، شهداؤنا الأبرياء ، إنهم المعذبون بلا ذنب ، ولكن أليس الجنوب الافريقي حالة خاصة ؟ .

أظن ذلك ، وأظن أننا قد وضعنا يدنا على دليل إدانة إضافي للتمييز العنصري ، وموقف الدول الاستعمارية التي تعبث في الجنوب ، وإن كان السؤال : ماذا بعد التغيرات السياسية الأخيرة ؟ . □

معايير قيمة العمل عند ابن خلدون

بقلم : الدكتور فاروق النبهان

على الرغم من فيض الدراسات الحديثة عن ابن خلدون وفكره فإن الدارسين مازالوا يجدون فيها الكثير مما يستوجب تحليله ودراسته ، وهذه لمحة من لمحات ابن خلدون مقارنة بمثلها للإمام الغزالى ، وهماشاهدان من شواهد العبقرية العربية ، عندما كانت تبدع وتضيف للفكر الإنساني . فهل يتمكن الخلف من تطوير ما أبدع السلف ؟

■ والصناعة هي إحدى وجوه المعاش ، لأنها عمل إنساني ، والكسب هو قيمة ذلك العمل الذي يبذله الأفراد في الصنائع المختلفة ، ذلك أن الكسب لا يتم إلا عن طريق السعي والجهد ، وهذا السعي والجهد هو العمل ، والأجر هو قيمة ذلك العمل ، وهو مايسمى بالرزق ، وكلمة الرزق أعم من الأجر ، ذلك أن الرزق يطلق في نظر ابن خلدون على المال المنتفع به الحاصل عن طريق الكسب ، سواء كان معاشا أو متمولا ، ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته ، من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا . وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه وحاجاته ، فلايسمى بالنسبة إلى المالك رزقا ، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا ، وهذا مثل التراث

به يسمى بالنسبة إلى المالك كسبا ولا يسمى رزقا» (مقدمة ابن خلدون ص ٦٧٩) .

«والرزق بهذا المفهوم ليس هو الكسب ، إذ الكسب يشمل ما يكسبه الإنسان نتيجة عمله ، سواء عن طريق السعي أو بغير سعي ، ذلك أن الانسان محتاج إلى الكسب للإنفاق على نفسه ، إذ لا يمكنه الإنفاق بغير كسب ، إلا أن الإنسان قد ينفق جميع مايكسبه ، وقد ينفق أكثر منه أو أقل منه ، فإن أنفق أقل من كسبه استطاع أن يدخر جزءاً من دخله ، لكي ينفقه فيما بعد في مواطن أخرى ، وإن كان كسبه لايلبي جميع حاجاته ومطالبه اضطر للاقتراض أو للاعتماد على مصادر أخرى ، لتغطية العجز الناتج عن زيادة الإنفاق عن مقدار الكسب . وبعض العلماء يطلق كلمة الرزق على الكسب الذي ينتفع به صاحبه ، وبعضهم - كالمعتزلة - لا يطلق كلمة الرزق إلا على المال الذى يَصِحّ تملكه ، وما لايتملك عندهم فلا يسمى رزقا ، وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا» (المقدمة ص ٦٧٩) .

الكسب قيمة العمل

والكسب في جميع الأحوال لايتصور إلا عن طريق العمل الإنساني ، لأنه قيمة لذلك العمل ، ولا يمكن للعمل أن ينتج كسبا ، ذلك أن الإنسان لايمكن أن يبذل جهدا دون قيمة ، لأنه محتاج إلى تلك القيمة ، لكي ينفقها على نفسه ، ولهذا فلا بد أن تكون قيمة العمل معادلة لحجمه ، من حيث المقدار ، والحد الأدنى الذي يحدد قيمة العمل هو مقدار الحاجة ، إذ لايمكن لقيمة العمل أن تقل عن الحاجة ، لأن العمل هو وسيلة للمعاش ، ولا يتحقق المعاش إلا بكمال الكفاية ، ولا تكون الكفاية إلا بأن تكون قيمة العمل مساوية على الأقل لتلبية حاجات الإنسان الضرورية ، من غذاء وملبس وسكن ، يكفيه ويكفي من تلزمه نفقتهم من أفراد أسرته .

وتؤكد الآية الكريمة هذا المعنى : «فابتغوا عند الله الرزق» والرزق يتم بالعمل ، والعمل يجلب الرزق ، والرزق هو مايكفي الإنسان ، فإن كان ابتغاء الرزق عن طريق العمل لا يوفر كمال الرزق الضروري ، فإن من المؤكد أن قيمة العمل كانت منقوصة ، ولا بد في هذه الحالة من إعادة النظر في قيمة العمل لكي يكون رزقا كافيا ، لأن الآية القرآنية عندما طلبت ابتغاء الرزق عن طريق العمل والسعي ، أشارت إلى أن ذلك الابتغاء يوفر الرزق ، أي أن العمل يحقق الكفاية .

هذه نقطة جديرة بالاهتمام والدراسة ،وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يشر إليها صراحة ، إلا أنها يمكن أن تكون مستفادة من آرائه في قيمة العمل ، وهي قضية - في رأيي - منطقية وسليمة ، إذ لايمكن تصور قيمة العمل إلا من خلال ربط ذلك العمل بمفهوم الذى يدخل ضمن متطلبات المعاش ، وموجبات العيش ، ولو كانت قيمة العمل أقل من متطلبات العيش ، لما دعا القرآن الكريم إلى ابتغاء الرزق عن طريق العمل ، إذ ليس من العدل أن يحصل الابتغاء ، ولا يحصل الإنسان على كمال الرزق الضرورى المحقق للحد الأدنى من الحاجة .

أهمية تحديد قيمة العمل

ان تحديد قيمة العمل أمر ضروري ، لأن التوازن بين العمل وقيمته يحصل به ، وبه يمتنع الظلم ، لأن العمل محدد ، وقيمته غير محدودة ، والشيء الوحيد الذي يحدد تلك القيمة هو الحاجة ، وبهذا المفهوم تصبح قيمة العمل خاضعة لقيم الحاجات السائدة في الأسواق ، لأن النقد ليست له قيمة محددة ، وإنما يحدد قيمته حجم أثره في المجتمع ، ولهذا فإن قيمة النقد تختلف باختلاف المكان والزمان ، وترتبط بمقدار الأثر الذي يوفره ذلك النقد ، ولهذا فإن من المنطقي أن تكون قيمة

العمل في المدن الكبيرة أكبر من قيمة العمل في المدن الصغيرة ، لارتفاع قيم الحاجات الأخرى .

ويعبر ابن خلدون عن ظاهرة ارتفاع النفقات الضرورية في المدن بقوله : «المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه ، وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف ، وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها ، فتنقلب ضرورات ، وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة ، والمرافق غالية ، بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف ، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات ، وتعتبر في قيم المبيعات ، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ، ويعظم خرجه ، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله ، في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم» . (ص ٦٤٩) .

ولهذا الاعتبار فإن قيمة العمل ليست محددة ، ولا يمكن أن تكون محددة ، لأن التحديد يخرج بها عن مفهوم الابتغاء لأجل الرزق ، والرزق لايتجزأ ، فالابتغاء لتحقيق بعض الحاجة لايحقق كمال الرزق كما قلنا ، ووفقا لهذا المفهوم فإن قيمة العمل تتزايد في مجتمعات الترف ، وفي ظل عوائد الترف ، لأن ذلك الواقع يجعل أسعار الضروريات مرتفعة ، ويجعل مطالب العيش متعددة أيضا ، إذ أن مفهوم الضرورة لايمكن أن يكون واحدا في كل من مجتمع المدينة ومجتمع القرية ، لأن مطالب القرية المنعزلة ليست هي مطالب المدينة ، فالإبل والغنم والبقر والدجاج والخيل والأرض قد تكون أشياء ضرورية في مجتمع القرية ، لأنها توفر وسائل العيش الضرورية ، كاللحم واللبن والحليب والبيض والزرع ، وفي المقابل فاننا نجد أن حياة المدينة تتطلب أشياء أخرى ، ليست هي مطالب القرية نفسها ، فالبيت والتأثيث ، ووسائل النقل ، والكهرباء . والمذياع والتلفاز والثلاجة هي مطالب ضرورية لحياة المدينة ، إذ لايمكن لمجتمع المدينة أن يقبل قيمة للعمل لاتوفر هذه الحاجات الضرورية

ويرى ابن خلدون أن النفقات تكثر مع زيادة العمران ، لارتفاع الأسعار في المرافق والأقوات ، وبالتالي فإن قيمة العمل تتزايد مع ازدياد العمران ، لكي تلبي جميع الحاجات الضرورية . وكلمة الحاجات الضرورية لاتقتصر على الغذاء والأقوات والملابس الضرورية ، وإنما تتعدى تلك الحدود لكي تكون معبرة عن معنى الكفاية المادية لحياة إنسانية سليمة ، يعيش الإنسان فيها من غير قهر أو ذل أو حاجة .

معيار تحديد قيمة العمل

معيار تحديد قيمة العمل عند ابن خلدون يرجع إلى العوامل التالية :

العامل الأول : مقدار العمل :

والقدر هنا هو قدر مادي وكيفي ، وهذا القدر يعتبر عاملا أساسيا في عوامل تحديد قيمة العمل ، ويمكن أن يحدد ذلك العمل من خلال الزمن ، باستعمال المعيار الزمني ، وهو عنصر أساسي في تحديد قيمة العمل ، لأن العمل الذي يستغرق يوما كاملا لايمكن أن تكون قيمته مساوية للعمل الذي يستغرق ساعة أو بعض ساعة ، ولا يعني هذا أن تكون قيمة الساعة الزمنية أقل من قيمة اليوم الكامل ، ذلك أن هناك عوامل أخرى ، لاتقل أهمية عن المعيار الزمني ، كالمعيار المادي ، إذ أننا نجد أحيانا أن قيمة عمل الساعة الزمنية في بعض الأعمال والصناعات تفوق قيمة عمل يوم كامل من صناعات أخرى أقل أهمية وأقل ندرة .

وإذا كان المعيار الزمني عاملا من عوامل التحديد ، يؤخذ به في مجال تقويم قيم

الأعمال ، فإن ذلك يكون في إطار العمل الواحد ، أو المتماثل في المكانة والترف والندرة ، فأجر الساعة بالنسبة لعامل البناء لايمكن أن يعادل أجر يوم كامل لعامل بناء آخر ، في نفس الكفاءة وفي نفس المدينة والزمان ، ولكن ذلك المعيار لايمكن الأخذ به في مجال تقويم قيمة العمل بالنسبة ليوم عمل لعامل بناء ، ويوم عمل لمهندس مختص بالبناء ، لاختلاف طبيعة المهمة ، وحجم أثرها في ميدان العمل ، فالساعة الزمنية للمهندس المعماري تعادل أضعاف قيمة الساعة الزمنية لعامل بسيط ، لأن حجم إسهام المهندس أكبر وأكثر ندرة ، فضلا عن أن المهندس قد صرف وقتا طويلا في الإعداد ، لكي يتمكن من أن يكون عطاؤه خلال الساعة الزمنية متجاوزاً حدود العمل اليدوي البسيط .

العامل الثاني : شرف العمل . والمراد بشرف العمل أن يكون موطن العمل وموضوعه شريفا ، كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب ، وهذه صناعات شريفة ، وهناك صناعات أخرى أقل شرفا ، كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة .

وأعتقد أن معيار الشرف في تحديد طبيعة الأعمال لايمكن إخضاعه لمعيار دقيق ، ذلك أن ذاك المعيار معيار نسبي ، يحدده المجتمع ، وقد تتغير نظرة المجتمع إلى صناعة من الصناعات ، فتنتقل تلك الصناعة من صناعات غير شريفة إلى صناعات شريفة ، أو العكس من ذلك .

وقد عبر ابن خلدون عن شرف الصناعات فقال :

«اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة ، لكثرة الأعمال المتداولة في العمران ، فهي عديدة بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد ، إلا أن منها ماهو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع .. فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة ، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب» (المقدمه ص ٧٢٢) .

ويفهم من كلام ابن خلدون أن ماهو ضروري في العمران ليس صناعة شريفة ، وهذا معيار لايمكن التسليم به ، ولا أظن أن استعمال كلمة «الشرف» بالنسبة للصناعات مما يحسن استعماله ، ويمكن استبدال كلمة الشرف

بكلمات أخرى أكثر دلالة عن معنى التخصص والدقة ، مما يتطلب معه كفاءات عقلية رفيعة ، فالطب مثلا ليس أكثر شرفا من البناء ، ذلك أن معنى الشرف يدل على معان عدة ، قد يكون في إطلاقها على العموم ما ينافي قيم الشرف والفضيلة ، ولكننا نستطيع القول بأن مهنة الطب تتطلب كفاءة عقلية متفوقة ، وجهدا علميا كبيرا ، وإعدادا طويلا ، ولهذا فإن قيمة العمل في الطب أكثر من قيمة العمل في البناء ، ولا يمكن التسليم أيضا بأن ماكان موطنه الصحة أو الإنسان ، هو أكثر مما كان موطنه الأرض أو الجماد أو النبات ، فالحجامة مهنة ليست شريفة ، مع أن موضوعها الصحة وموطنها الإنسان ، وفي المقابل فإن صناعة الذهب مهنة شريفة مع أن موضوعها المعدن ، والمعدن مهما كان نفيسا وغاليا لايمكن أن يكون أشرف من الإنسان .

مفهوم الشرف عند الغزالي :

تحدث الإمام الغزالي عن مفهوم الشرف خلال كلامه عن فضيلة العلم ونفاسته ، وأشار إلى أن الفضيلة مأخوذة من الفضل ، وهو الزيادة ، وليس المراد أي زيادة ، من حيث الكم المادي ، وإنما المراد الزيادة المؤدية إلى الكمال ، فقد تكون الزيادة فضيلة في شيء ولا تكون كذلك في شيء آخر ، كالعدو ، فهو فضيلة في الفرس ، وقد يكون كذلك بالنسبة لسائر الحيوانات ، لأن من فضائل الفرس العدو لأنها معدة للكّر والفّر ، وقد لاتكون سرعة الجري فضيلة على الاطلاق .

ومعيار الشرف أن الأشياء النفيسة المرغوب فيها تنقسم إلى اقسام :

- ماهو مطلوب لذاته .
- ماهو مطلوب لغيره .
- ماهو مطلوب لذاته ولغيره .

وما يطلب لذاته أشرف مما هو مطلوب لغيره ، فالدراهم مطلوبة لغيرها ، لأنها أداة لقضاء الحاجات ، وليس لها شرف ذاتي ، لأنها مجرد معادن ، قد ترمى عند إهمال التعامل بها ، بخلاف سلامة البدن ، فهي مطلوبة لذاتها ولغيرها ، فالصحة فضيلة بحد ذاتها ، ومطلوبة لذاتها ، وهي في الوقت نفسه مطلوبة للتوصل بها إلى تحقيق الحاجات والمآرب .

والعلم مطلوب لذاته ولغيره ، فهو لذاته لذيذ ومطلوب ، وهو في الوقت نفسه وسيلة للسعادة الأخروية ، ولذلك فصناعة العلم صناعة شريفة .

وتنقسم الصناعات عند الغزالي إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ أصول لاقوام للعالم دونها ، وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم ، والحياكة وهي للملبس ، والبناء وهو للسكن ، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

٢ ـ صناعات خادمة للأصول ومهيئة لها ، كالحدادة فهي صناعة خادمة للزراعة .

٣ ـ صناعات متممة للأصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، والقصارة والخياطة للحياكة .

وأشرف الصناعات في نظر الغزالي ، أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتاليف والاستصلاح ، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات» (الأحياء ص ١٣) .

معيار الشرف عند الغزالي :

ويرى الغزالي أن معيار معرفة الشرف أمور ثلاثة :

ـ الأول : بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها ، كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع .

ـ الثاني : بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة

على الصياغة .

ـ الثالث : بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة ، إذ محل إحداهما الذهب ومحل الأخرى جلد الميتة (الأحياء ص ١٣) .

ولا يمكننا أمام هذا التحليل العلمي الدقيق الذي يقدمه الإمام الغزالي لمفهوم الشرف والمعايير الموضوعية التي يعرف بها ، إلا أن نسلم بدقة الغزالي ، وعمق منهجه العلمي ، وقدرته على الاقناع المنطقي ، ذلك أن معايير الشرف في رأيه تعرف من خلال الغريزة الفطرية ، أو عموم النفع أو ملاحظة المحل ، وجميع تلك المعايير يمكن السيطرة عليها ، وإدراكها بسهولة ويسر ، لأنها مما يمكن الاقتناع به .

ولاشك أن معيار النفع جدير بأن يكون معيارا في ميدان الصناعات ، يحدد به شرف الصناعات ومكانتها ، ذلك أن النفع هو الذي يحدد قيمة الصناعة وشرفها ، إذ لايمكن أن نعطي لمفهوم الشرف معنى ذاتيا بعيدا عن حاجة الإنسان .

وكيف يمكن أن يكون الغناء أشرف من الفلاحة ، مع أن الغناء يمثل حاجة كمالية ، يمكن الاستغناء عنها ، ولا يتأثر المجتمع بذلك ، بخلاف الفلاحة فهي من الأصول ؟ ولهذا فقد اعتمد الإمام الغزالي تقسيم الصناعات من حيث الحاجة إليها إلى ثلاثة أقسام ، واعتبر الصناعات التي «لا قوام للعالم دونها» ، هي الأصول ، واعتبر الفلاحة من الأصول ، كما اعتبر من الأصول كلا من الحياكة والبناء والسياسة ، وتلك هي أشرف الصناعات .

ولعل سبب الاختلاف بين نظرة ابن خلدون والغزالي ، أن ابن خلدون ينظر لمفهوم الشرف من خلال صلة ذلك بالسلطان والعمران أولا ، ومن خلال تميز أصحاب الصناعات بالكفاءة العقلية ، وهو ما يسميه بالملكة .

ونظرة ابن خلدون ذات طبيعة حضارية ، ذلك أنه ينظر للشرف ليس من معيار الحاجة ، وإنما من معيار التفوق العقلي والذهني ، ولهذا فإن صناعتي الفلاحة والبناء ليستا من الصناعات التي تحتاج إلى تفوق ومران .

وعلى الرغم من اعتراف ابن خلدون بأهمية صناعة الفلاحة ، وحاجة الناس إلى الأقوات ، فإنه يعتبرها من الصناعات التي اختص بها البدو ، وهي صناعة بدوية ، لايعرفها الحضر ، ولا يقومون بها ، لأن حياتهم في المدن مانعة لهم من الانصراف إلى صناعة الفلاحة .

وفي الوقت نفسه يرى ابن خلدون أن بعض الصناعات ، كالكتابة والوراقة والغناء ، تنال صفة الشرف ، لأنها مما يساعد على مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها ، وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب (المقدمة ص ٧٢٣) .

وهذه نظرة قد تكون سائدة في عصر ابن خلدون ، ذلك أن الشرف في معظم معانيه هو ما يجعل صاحبه في موطن الاعتزاز والفخار به ، والصناعة الشريفة هي الصناعة التي تجعل صاحبها في موطن التفوق والاعتزاز ، وهي بهذا الاعتبار تخضع لقيم المجتمع وتصوراته ، والصناعات ذات الصلات بالفكر والثقافة هي صناعات شريفة ، لأنه لا ينالها إلا أصحاب التميز الثقافي والعقلي ، كما أن الصناعات التي تساعد صاحبها على مخالطة الملوك تعتبر صناعات شريفة ، وهذه نظرة خلدونية ، ذلك أن ابن خلدون كان من المغرمين بمخالطة الملوك والأمراء ، ويرى في ذلك شرفا وتميزا ، ولذلك فلا غرابة أن يجعل تلك المخالطة مما يدعو للشرف .

العامل الثالث : حاجة الناس إليه

ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل المؤثرة في تحديد قيمة العمل ، وإذا كان العاملان الأولان وهما : مقدار العمل وشرفه ، من العوامل التي

تتحدد على أساسها قيمة العمل ، فإن حاجة الناس إلى ذلك العمل تعتبر عاملا أكثر أهمية في تحديد قيمة العمل .

ومن هذا المنطلق ، وهو منطلق الحاجة ، ترتفع قيم بعض الأعمال إذا كانت ضرورية ، وبخاصة فيما تشتد الحاجة إليها ، ولهذا فإن ابن خلدون يخصص فصلا خاصا للحديث عن أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ، ونحو ذلك ، لاتعظم ثروتهم في الغالب ، والسبب في ذلك أن الكسب - كما قدمناه - قيمة الأعمال ، وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران ، كانت قيمتها أعظم ، وكانت الحاجة إليها أشد ، وأهل هذه الصنائع الدينية لاتضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ماعندهم الخواص ممن أقبل على دينه ، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر (ص ٧٠١) .

وهذا النص يؤكد مذهب ابن خلدون في قيمة العمل ، وهو حجم الحاجة إليه ، فإذا كانت الحاجة إلى العمل كبيرة كانت القيمة كبيرة ، وإذا أمكن الاستغناء عن ذلك العمل لقلة الحاجة إليه كانت قيمته بحسب الحاجة ، والحاجة قضية نسبية ، فقد تكون الحاجة في وقت دون آخر ، وقد تكون في زمن دون آخر ، لأنها مما يخضع لمعيار نسبي ، وشخصي ، فقد تكون حاجة شخصية أو اجتماعية .

وإن قيم الأشياء بشكل عام ، وليس فقط قيم الأعمال ، تخضع لمقدار الحاجة ، وكلما اشتدت الحاجة إلى شيء ارتفع سعره ، وكذلك بالنسبة للأعمال ، فالأعمال التي تشتد حاجة المجتمع إليها تكون قيمها مرتفعة ، وتزداد ارتفاعا كلما نقص عدد القادرين على القيام بتلك الأعمال ، وتدخل عندئذ ضمن قانون الندرة ، وقانون العرض والطلب .

وأهل الصنائع الدينية في الغالب لاتعظم ثروتهم ، لعدم الحاجة إلى تلك الصنائع ، ولعدم حاجة معظم الناس إلى الاستعانة بهم ، ويستثنى من ذلك فئة من الخواص المقبلين على دينهم ، ويبدو أن ظاهرة الاستغناء عن العلماء كانت من مظاهر ذلك العصر ، ولهذا فإن ابن خلدون قد سجل ذلك ، واستشهد بهذه الظاهرة للحديث عن قيم الأعمال ، وأن تلك القيم تحدد من خلال حاجة الناس إليها .

وهناك سبب آخر أشار إليه ابن خلدون ، ولعله السبب الأهم ، وهو أن العلماء «لشرف بصنائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة ، المشتملة على أعمال الفكر والتدبر ، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا ، لشرف صنائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك» (المقدمة ٧٠٢) .

معايير متحركة

ولاشك أن العوامل الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون وهي : مقدار العمل ، وحاجة الناس

. ، هي التي تحدد قيمة ذلك العمل ، ولهذا
ف قيم الأعمال بحسب تلك الاعتبارات ،
يجعل تلك القيم خاضعة لمعايير متحركة ،
سب بحسب التطورات الزمانية والظروف
كانية والحاجات الاجتماعية ، ولاعجب في
ن هذا الواقع أن يقع الاستغلال بشكل بشع
و تحديد تلك القيم ، ذلك أن الطرف الأقوى
قدر على استغلال الطرف الأضعف ، وفرض شروطه بطريقة لاتترك حرية الاختيار للطرف الآخر ، مما يجعل الأجور خاضعة ليس لمعيار القيمة الحقيقية للعمل ، وإنما تخضع للظروف العامة التي تحيط بذلك العمل ، من حيث القدرة التفاوضية لأطراف عقد العمل .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث عن مقدار العمل وشرفه وحاجة الناس إليه كمعايير دقيقة لتحديد قيمة العمل ، فانه لم يتحدث عن عامل خارجي لايمكن إنكار أثره في تحديد قيمة العمل ، وهو التنافس في تحديد قيمته ، والتنافس يضعف القدرة التفاوضية لأحد أطراف العقد ، وهو الجانب الذى يجد نفسه مضطرا للقبول بقيمة للعمل أقل من القيمة الحقيقية ، بسبب كثرة العاملين ، وتنافسهم عليه ، مما يجعلهم في وضع استسلام للقيمة المعروضة .

وقد تحدث ابن خلدون في موطن آخر عن قيمة العمل ، واعتبر أن اغتصاب قيمته كله أو جزء منه ، يدخل ضمن الظلم المؤذن بالخراب . ذلك أن العمل هو وسيلة الكسب ، فإذا انتقص حق الإنسان بطل كسبه ، وإذا بطل كسبه وقع الظلم عليه ، وانتقص بذلك العمران البشري ، لأن العمران مرتبط بالمعاش ، وسلامة المعاش هو وسيلة العمران ، ولذلك فإن انتقاص قيمة العمل يعتبر من الظلم الذي يؤدي إلى عواقب سيئة .

وقال في صدد ذلك :

«فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك . فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم ، واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم ، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو تمولهم ، فدخل عليهم الضرر .» □

زوج يغار من الفئران:

● طلب الطبيب الأمريكي رونالد جراي الطلاق من زوجته ماري، قال لقاضي محكمة لاس فيجاس:

- إن زوجتي يا سيدي مغرمة بتربية الفئران البيضاء، لقد أخفت عني هذه الهواية عندما تزوجتها، ولكني فوجئت بعد ذلك بفئرانها البيضاء في كل ركن من أركان المنزل، في غرفة النوم، على منضدة الطعام، تحت الوسادة، وقد تحملت ذلك كله، ولكن عندما شاهدتها تقبل فئرانها كل مساء قبل أن تأوي الى الفراش لم أعد أتحمل هذه الحياة!! . وردت الزوجة، فقالت: إن زوجها يغار من الفئران.

ولم يقتنع القاضي بهذه الحجة فأصدر حكمه بالطلاق.

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

بين اليأس والرّجاء

صوتان لا بد أن يرتفعا في كل أمة ، ويجب أن يتوازنا ، حتى لا يطغى أحدهما على الأخر ، صوت يبين عيوب الامة في رفق وهوادة ، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معا اذا اعتدلا كونا موسيقا جميلة منسقة تحدو الأمة الى السير الى الامام دائما ، هي موسيقا الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتمنى بالنصر والظفر ، فان بغى أحد الصوتين كانت موسيقا مضطربة تهوش النفس وتدعو الى الفوضى والارتباك ، واذا كان « الدور » في الموسيقا يكون منسجما كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بدور » كله « نشار » ؟

مما يدعو الى الأسف أن صوتا في الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات وأحبها الى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطب فيهم ليسوا مؤمنين حقا ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الأثام ما أخرجهم عن الايمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الارض ، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع في قالب ، وكل القوالب تختلف أشكالها ، ويتحد معناها ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس . وانقطع به الرجاء ، الا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون في أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ، وأن الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك في الأدب العربي ، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبي ولغة أجنبية ، والا ظل أعمى ، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق في لغته وأدبه الى الغرب في لغته وأدبه ، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تله به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر ، فليس في الشرق كله ما يسر ، قد جرده الله من كل حسن ، . طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو الى الاعجاب ، والقمر في ب أشد نورا منه في الشرق ، والبحر الابيض قد جمل منه مالامس الغرب ، وقبح ما لامس ق ، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس ، وينفر منها الطبع ، وعلى الحملة و تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جمع الحسن كله في ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، و ع القبح كله في ناحية وقال له كن الشرق فكان . وهم اذا لم يقولوا ذلك كله جهارا آمنوا به إ. نا ، وصدرت عنه أفعالهم ، واتجهت اليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربي إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للذر ، وماذا فيها الا تخريف أو تحريف ، قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث - ومالي وللسياسة ودعاتها فلأهربن منها اتقاء لنارها - ومجالسنا صدى لهذا الصوت ، فاذا استثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن في حياة الشرق ، وتهجم على حال امتهم ، وتجهم لكل ما يصدر منهم . وقلّ أن تسمع صوتا ينطق بمدح أو يعجب ببطولة ، أو يتعنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجنى على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، وتوجهات قومية تدعوها الى الفخر والاعجاب .

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لانكارها ، فاعتقد الغباوة في طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل ما فيه من ذكاء ، وأعلن أنه ذكي وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ما عنده من عقل . وفي المثل الانجليزي « دَعَوا الكلب عقورا فشنق » يعنون أنهم اعتقدوا في كلب سوءا وسموه عقورا وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتله .

اذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، وأخذت بيده لانتشاله ، كفّر عن سقطته وعاد الى حاله ، وان أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح انسانا استمر يسقط أبدا . وكثير من الساقطين والساقطات لو أحسوا في الناس استعدادا لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم في صدورهم لعدلوا عن سقطتهم ، ونهضوا من عثرتهم .

* * *

وبعد ، فليس الشرق بدعا من الخلق ، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه ، وان كان لكل أمة غربية محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وان كانت مساوي الغرب لم تمنعه من نهوضه فلم تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم .

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التي لا توقع الا نغمة واحدة بغيضة ، واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طَبٌّ بأدواء النفوس عليم ، وأكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو الى العمل ، وتزيد الحياة قوة ، ولا تشهروا برذيلة الا إذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعول ، إلا اذا أريتمونا حجر البناء .

الدكتور أحمد أمين

مجلة الرسالة العدد السادس عشر أول سبتمبر ١٩٣٣

يصدر في ١٥ أبريل ١٩٨
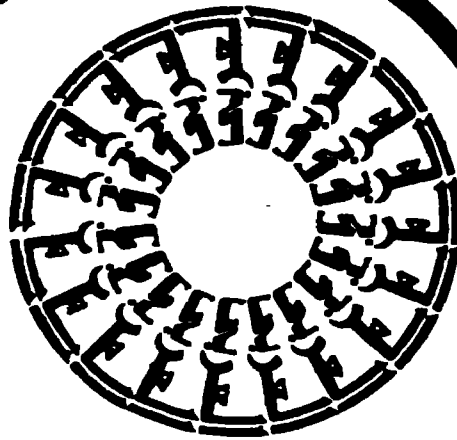
كتاب العربي

الثالث والعشرون

الطفل العربي والمستقبل!

بقلم: مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي

المرأة ندّ للرجُل أمْ مكمّلة له ؟

بقلم : الدكتور محمّد عمَارة

ماتزال قضية المرأة ومكانتها في المجتمع وعلاقتها بالرجل ، تثير النقاشات الحادة ـ وبخاصة في العقدين الأخيرين ـ وتحاول بعض القوى والتيارات تفسير الدين الاسلامي وأحكامه في اتجاه سلب المرأة حقوقا حصلت عليها مع أن الرؤية المدققة للنهج الاسلامي تؤكد غير ما يذهبون إليه .

من أصدق وأدق المصطلحات وأشملها في التعبير عن صنيع الاسلام وإنجازه الذي أحدثه ويحدثه بالنسبة للإنسان ، مصطلح : « الإحياء »! فالإسلام إحياء كامل وعميق ودائم لكل من استجاب لدعوته ، والتزم بمنهجه وسلك سبيله في خاصة نفسه وخدمة أمره ، وسائر ما تشتبك به شئونه من علاقات . وصدق الله العظيم إذ يقول (يأيُّها الذينَ آمنُوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحُولُ بَينَ المرءِ وقَلْبِهِ وأنّهُ إليهِ تُحشَرونَ) (الأنفال ـ ٢٤) .

لقد تضمن هذا « الإحياء الإسلامي » ضمن ما تضمن ، إخراج الذين اهتدوا بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وكذلك تحرير الإنسان المسلم مما كان يثقل ظهره ويقيد خطوه ويشل طاقاته ، من القيود والأصفاد . « فالتحرير الإسلامي » مهمة من مهام « الإحياء الإسلامي » بالنسبة للإنسان ، (الذينَ يتبعونَ

حديث الآية التي تقول : (وَلَهُن مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمَعْروُف ، وللرجال عَلَيْهِنَّ درجة والله عزيز حكيم) (البقرة : ٢٢٨). فالعرف - وهو متغير ومتطور - هو معيار ميادين المساواة في الأعمال والوظائف الحياتية ، لكن تظل الدرجة - درجة القوامة - قائمة في ميادين بعينها لارتباطها بـ « الثابت » ، وهو « الرجولة » و « الأنوثة » اللتان تمايزان دائما بين الرجل والمرأة واللتان ينعكس تمايزهما في ميادين بعينها .

وإذا كانت درجة القوامة هي القيادة التي تؤهل الرجولة الرجل لها في ميادين بعينها - (الرجال قوامونَ على النساءِ بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النساء - ٣٤) فان الاسلام لم يحرم المرأة من هذه « القوامة » - القيادة - حيث تؤهلها لها أنوثتها ، فالراعي هو القائد - القوّام - والحديث النبوى يحدثنا عن نصيب المرأة في ميدان القوامة والرعاية والقيادة ، فيقول الرسول - ﷺ - : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

المنهج الإسلامي لتحرير المرأة

وإذا كان المنهج الاسلامي قد تميز بهذا الوضوح في تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الانسانية ، وفي التكاليف ، حقوقا وواجبات وحسابا وجزاء ، وفي حصر التمايز بما يقتضيه تميز الأنوثة عن الذكورة ، وفي كل منهما امتياز لجنسه يحرص على الحفاظ عليه العقلاء ، لأنه قاعدة وسر تكاملهما ، المحقق لسعادتهما جميعا ، فإن وضوح هذا الموقف الإسلامي قد ازداد عندما تجسد فكره هذا في التجربة الإسلامية الأولى ،

فلم يعد مجرد فكر نظري ، وإنما غدا واقعا يحياه الرجال والنساء .

* فبيعة العقبة التي هي عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى قد شاركت فيها امرأتان ، فكان للمرأة المسلمة نصيب في « الولاية السياسية » منذ ذلك التاريخ .

* وفي بيعة الرضوان - تحت الشجرة - التي كانت على « الحرب والقتال » ، شاركت النساء وشملهن - مع الرجال - قول الله سبحانه وتعالى : (لقدْ رَضي الله عنِ المؤمنين إذ يبايعونَكَ تَحتَ الشجرةِ فَعَلم ما في قُلُوبهمْ فأنزلَ السكينَةَ عليهمْ وأثابهُمْ فتحاً قريباً) (الفتح : ١٨) ، (إن الذينَ يُبايعُونَكَ إنما يبايعونَ الله يَدُ الله فوقَ ايديهم فَمَن نكَثَ فإنما ينكُثُ على نَفْسه ومن أوفى بمَا عاهدَ عليْهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما) - (الفتح : ١٠) .

* وحديث النساء الغازيات في غزوات الإسلام الأولى ، والمقاتلات والمداويات والمساعدات في المعارك ، شائع في مصادر السنة والسيرة والتاريخ .

* والتطبيق الاسلامي لوصايا القرآن بالأمومة ووصايا النبي بالنساء ، ولتحديد القرآن أ التنوع في الأنوثة والذكورة هو آية من آيا. الله ، به تتحقق السعادةالتمثلة في « السكن « المودة » و « الرحمة »بين الزوج وزوجه (وم

ياته أن خَلَقَ لكُم منْ أنفسكُمْ أزواجا لتسكنوا ليها وجَعَلَ بينكُم مودة ورحمة ، إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) (الروم : ٢١) وتجسد هذه المعاني القرآنية في كثير من نماذج الواقع المعاش منذ ذلك التاريخ .

إن دور خديجة بنت خويلد في حياة النبي ودعوته ، ودور عائشة في الدين والدنيا ، ودور الصحابيات اللاتي ملأت تراجمهن مجلدا في تراجم « ابن الأثير » لصحابة رسول الله - ﷺ - ودور أسماء بنت أبي بكر في رحلة الهجرة - هجرة النبي وأبي بكر - وفي منزل زوجها الزبير بن العوام ، وفي حقله ، وفي رعاية فرس قتاله ، ودورها في معاركه الحربية وغزواته ، وكذلك دورها في جهاد واستشهاد ابنها عبدالله بن الزبير ، وتصديها يومئذ لجبروت الحجاج بن يوسف الثقفي . إن دورها هذا - بل أدوارها - وهي في شموخ المرأة المسلمة العابدة المقاتلة العاملة التي تزدان بالحشمة الإسلامية ، فلا تكشف سوى الوجه والكفين ، ولا تلبس ما يشف ولا مايصف ولا ما يفتن ، إن هذه النماذج إنما تترجم عن واقع جسّد فكر الإسلام في هذا الميدان .

وإذا كنا لاننكر - بل نبرز - أن تاريخنا الاجتماعي قد سادت في كثير من حقبه معالم « واقع » تنكر للكثير من « المثل » التي جاء بها الإسلام في « العلاقة الجامعة - والمميزة - بين الرجل والمرأة » ، حتى لقد أصاب المرأة المسلمة من المظالم أكثر مما أصاب الرجال ، وحملت من القيود أثقل مما حمل الرجل ، الأمر الذي جعل ويجعل حريتها وتحريرها واحدة من مهام الاسلاميين ، وإذاكنا لاننكر ذلك - بل نبرزه ونتبه إليه وندعو له - فإننا ننكر ونستنكر أن يتبنى المسلمون المناهج غير الإسلامية في فلسفة تحرير المرأة ، وفي نموذج هذا التحرير .

فالمنهج الإسلامي الذي قام على مساواة الرجل والمرأة في الانسانية ، وتكاملهما في وظائف الحياة ، يرفض مساواة « تماثل الأنداد » التي سادت الدعوة إليها في إطار الحضارة الغربية ، وفي فكر وواقع التغريب ببلادنا الإسلامية ، فلا الرجل السوي يسعده تساويه بالمرأة كأنثى ، ولا المرأة السوية يسعدها مساواتها بالرجل ، في الرجولة ! ومن هنا تميزت وتتميز في المنهج الإسلامي ، فلسفة « التحرير الإسلامي للمرأة » بالانطلاق من الوسطية الجامعة - والمميزة في الوقت نفسه - بينهما ، كشقين متكاملين ومتساويين ، فمع التساوي في الانسانية تتمايز الطبيعة ، من حيث الأنوثة والذكورة ، تمايز وظيفة ودرجة ، لاتمايز سيطرة واستبداد وخضوع !

وإذا كانت فلسفة « التحرير » التي اعتمدت « تماثل الندية » قد جعلت صورة المرأة المتحررة - في المجتمعات التي طبقت تلك الفلسفة - هي صورة : « المسترجلة الاسبرطية » ، أو « الغانية الرومانسية » ، أو « إعلان السلعة وسلعة الإعلان الرأسمالية » ، فإن منهج الإسلام في هذا المقام يقول لنا : نعم ، لتحرير المرأة ، لكن ليس هذا هو نموذج التحرير ! □

قيل لحكيم : أي الرجال أفضل؟

قال : الذي إذا حاورته وجدته عليما، وإذا اخبرته وجدته حكيما، وإذا غضب كان حليما، وإذا ظفر كان كريما، وإذا منح منح جسيما، وإذا وعد وفى، وإن كان الوعد عظيما، وإذا اشتكى إليه وجد رحيما.

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ سورة المنافقون ٥ ـ ٨

نزلت بعد غزوة بني المصطلق سنة ٥هـ/ ٦٢٧م في عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين

قال زيد بن أرقم :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، وكان معنا بعض الأعراب . ثم كان أن اختلف أعرابي مع رجل من أصحاب عبدالله بن أبي ، فرفع الأعرابي خشبه وضرب بها رأس الرجل ، فأتى الرجل عبدالله فأخبره ، فغضب ابن أبي وقال : لا تنفقوا على من عند محمد ، حتى ينفضوا من حوله ، ويتركوا المدينة . ثم قال لأصحابه : « إذا رجعتم إلى المدينة ، فليخرج الأعز منها الأذل . (يعني أن المنافقين سيطردون محمد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذا ما فعلتم بأنفسكم .

[illegible] بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . [illegible] أمسكتم عنهم فضل الطعام [illegible] رقابكم . ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد »

وكنت حاضرا أسمع كلامه ، فقلت له أنت والله الذليل القليل ، ومحمد في عز من ربه ، ومودة من المسلمين . والله لا أحبك بعد كلامك هذا

فقال عبدالله : اسكت ، فإنما كنت ألعب (أي أن كلامه لم يكن على محمل الجد) . غير أني مشيت إلى رسول الله (ﷺ) فأخبرته الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال عمر : دعني أضرب عنقه يارسول الله . قال النبي : إذن ترعد له أنفٌ كثيرة بيثرب ، (أي سيغضب لقتله أنصاره في المدينة . فقال عمر : فإن كرهت يارسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين حتى لا تغضب الأنصار) ، فمر سعد بن عبادة ، أو محمد بن مسلمة ، أو عبادة بن بشر (من الأنصار) فليقتلوه . فقال : إذن يتحدث الناس

ان محمدا يقتل أصحابه ، وأرسل رسول الله إلى عبدالله بن ابي فأتاه ، فقال له : أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني ؟ فقال عبدالله : والذي أنزل عليك الكتاب ، ما قلت شيئا من هذا قط ، وإن زيدا لكاذب .

وكان عبدالله في قومه شريفا عظيما ، فقال من حضر من الأنصار يارسول الله : « إنه شيخنا وكبيرنا ، لا تصدق عليه كلام غلام من الغلمان ، عسى أن يكون وهم في حديثه فلم يحفظ » فكان أن عذره النبي وصدقه وكذبني .

ولامني الأنصار على ما ذكرته لرسول الله وكذبوني . وجاء إليّ عمي فقال : « كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وكرهوك » فوقع علي من الغم مالم يقع على أحد قط ، واستحييت بعد ذلك أن أدنو من النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما وافى رسول الله المدينة عائدا من الغزوة ، جلست في البيت لما بي من الهم والحياء . فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديقي وتكذيب عبدالله . فلما نزلت أتاني رسول الله فضحك في وجهي ، وأخذ بأذني وقال : « إن الله تعالى صدقك وأوفى بأذنك » (أي أظهر صدقك في إخبارك عما سمعت أذنك) . فما كان يسرني أن لي بها الدنيا ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين على الناس .

ولقي النبي أسيد بن حضير ، فقال له رسول الله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم عبدالله بن ابي ؟ قال أسيد : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال أسيد : فأنت يارسول الله والله تخرجنه إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ولكن ، رفق به يارسول الله ، فوالله ، لقد جاء الله بك إلى المدينة ، وقومه ينظمون له تاجا من الخرز ليتوجوه ملكا عليهم ، وإنه ليحقد عليك ، إذ يرى أنك قد سلبته ملكه .

وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه . فإن كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله قد علمت الخزرج أنه ما بها رجل أبر بوالديه مني ، غير أني أخشى ان تأمر به غيري ، فيقتله ، فلا تسمح لي نفسي ، بأن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : بل نحسن صحبته ما بقي معنا .

ولم يكن عبدالله بن أبي قد وصل بعد إلى المدينة . فلما بلغها وأراد أن يدخلها ، جاء ابنه عبدالله ، ومنعه من ذلك ، وقال : وراءك ! قال : مالك ويلك ؟ قال : لا والله لا تدخلها أبدا ، إلا بإذن رسول الله ، ولتعلم اليوم من الأعز من الأذل .

وبلغ النبي الخبر ، فأرسل إلى عبدالله بن عبدالله بن أبي ، أن خلّ عن أبيك حتى يدخل . فقال : أما إذ جاء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم ، وسمح لأبيه بالدخول .

والتف أصحاب عبدالله بن أبي حوله يقولون : ياأبا حباب قد نزلت فيك آيات شداد ، فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك . فلوى ابن أبي رأسه واستكبر وأبى أن يعتذر . فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ﴾ الآية □

واحة العربي

● الانسان لايذهب بعيدا جدا إلا عندما لا يدري أين يذهب.
(تاليران)

● لما كان السياسي لا يعتقد بما يقول ، فإنه يدهش كثيرا عندما يصدقه الآخرون .
(ديغول)

● الحرب شأن خطير جدا ، ولذلك لا ينبغي تركه للعسكريين .
(كليمنصو)

● ألف رجل مسلح لا يستطيعون تجريد رجل عار .
(مثل تركي)

ديغول

من القلب

■ ذاكرة قويـــة

● بينما كان السائح في زيارة لإحدى القرى الأمريكية ، قدموه إلى هندى اشتهر بقوة ذاكرته فسأله السائح : ماذا كان إفطارك يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٤٩ ؟ فقال الهندى بيض ، وبعد عشرة أعوام توقف القطار الذى يقل السائح مرة أخرى في نفس القرية ، وشاهد نفس الهندي في المحطة . فذهب إليه وقال له في مرح : كيف ؟ فقال الهندى : مقليا .

□□□

■ الحمد لله

● بعد أن كادت الزوجة تشرف على الغرق ، أسرع الزوج إلى رجل كان يقف على الشاطىء وسأله : هل تعرف السباحة ؟

أجابه الرجل : كلا ، فتنهد الزوج وقال : الحمد لله .

□□□

■ انتبـــه

● بعد ليلة عامرة بالشراب في إحدى الحانات ، عاد الصديقان في السيارة إلى منزليهما . وفجأة صاح أحدهما :

انتبه ، لقد كدت تصطدم بعمود الإنارة

فدهش الآخر وسأله : ماذا تقول ؟ ألست أنت من يقود السيارة ؟

ضحكات عالمية

□ نعم ، ولكن

● سئل العالم البيولوجي « حان روستان » : هل صحيح أن الدماغ البشري يحتوي على ١٢ مليار خلّة ؟

فأجاب : نعم ، هذا صحيح ، ولكن العطالة مازالت ضاربة أطنابها فيها

□□□

□ إن كان

● أراد برنارد شو أن يسحر مما عرف عن نفور تشرشل من الناس فأرسل له كتابا يدعوه فيه لحضور إحدى مسرحياته في ليلة الافتتاح ، وقد أرفق مع الكتاب بطاقتين وذيّله بالعبارة التالية « وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقا معك ، إن كان لك صديق » .

فرد عليه تشرشل بكتاب جاء فيه : « آسف جدا ، سأكون مشغولا في ليلة الافتتاح ، ولكني أعدك بأنني سأشهد العرض الثاني ، إن كان هناك عرض ثانٍ » .

برنارد شو — تشرشل

□ ارتجال ! !

● قال أبو المستهل : دخلت يوما على « سلم الخاسر » وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بعضها أم جعفر ، وبعضها جارية غير مسماة ، وبعضها أقواما لم يموتوا . وأم جعفر يومئذ باقية . فقلت . ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدث الحوادث ، فيطالبون بأن نقول فيها ، ويستعجلوننا ولا يحمل بنا إلا نقول غير الجيد . فنعد هذا قبل كونه فمتى حدث حدث أظهرنا ما عملناه فيه ... قيل في وقته

□□□

□ المشاركة في العمل

● استأجر أحد البلاء حطابا فاستكثر الأجرة ، فطمع في مشاركته في العمل لينقص من الأجرة ، فجلس يقول « هه » لكل ضربة يضربها الحطاب ، فلما انتهى أعطاه الأجرة فتخاصما إلى حاكم فقال : هات الأجرة اقسمها لكما ، فنقد الفتى درهما درهما على صندوق ويقول الدرهم للأجير وطنينه للمستأجر

يوغسلافيا

استطلاع : محمود عبدالوهاب
تصوير : طالب الحسيني

على مفترق طرق العالم ترقد، عند المفصل الحرج بين الشرق والغرب، كانت أراضيها دوما مسرحا دراميا للهجرات ولقوافل التجارة وسنابك خيل الغزاة ومدافعهم، يختلط فيها الشرق والغرب، تاركا بصماته على الحياة والعمارة والناس، وحتى المشكلات. ولأن الجغرافيا لا تصنع التاريخ فقط، فقد أثر موقعها على تاريخها وحاضرها، ومستقبلها أيضاً. وفي لحظة حرجة من لحظاتها هبطنا إلى يوغسلافيا لنرى ونسمع ونلاحظ.

السادسة والنصف صباحا، الضباب يلف المدينة، بقايا الليل ما زالت عالقة في السماء، دفقات من خيوط المطر الرفيعة تسقط، لسعة برد خفيفة تصل إلينا، والسيارة تخترق بنا الشوارع الخالية في الطريق من مطار بلغراد إلى قلب العاصمة اليوغسلافية.

كدفقات المطر تتوالى صور وأفكار في الذهن، يقطع تواصلها صوت مرافقنا وهو يشير إلى مبان غير واضحة من الضباب والظلمة، ويسميها لنا.

يوغسلافيا.. لا تخلو اليوم صحيفة أو نشرة أنباء من أخبارها اجتماعات، مناقشات، عمال يحتجون، إصلاحات اقتصادية، متاعب هنا وتوتر هناك. يقاطعنا مرافقنا ويقول: جئتم في وقت تغير الفصول وبدء هطول المطر. تتواصل الصورة: هل هو تغير في الفصول فقط أم أن هناك تغيرات أخرى أعمق وأبعد؟ من هنا سمع العالم قصص البطولة الخرافية لأبطال (الباراتيزان)، ومن هنا جاء تيتو وأعلن لأول مرة في العالم عن تكون كتلة عدم الانحياز التي تحولت الى تكتل سياسي له دور فاعل.

يقول مرافقنا. اليوم يوم الأحد، ولذا فلن نتصل بكم اليوم، ولكن في الغد لديكم موعدا في الثامنة صباحا تتوالى التساؤلات: من أين نبدأ؟ وعند أي جانب من الصور نقف؟ هل مر تجربة التعددية والقوميات، وكيف استطاعت هذه الشعوب أن تنسج حياة واحدة متناغمة، أم من مناطق التاريخ المشترك حيث عاش الأتراك المسلمون هنا خمسة قرون كاملة، وتركوا آثارهم واضحة للعيان، أم من يوغسلافيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منهكة، واستطاعت أن تقيم في أربعين عاما فقط صناعات متطورة تغزو أسواق العالم؟

تصل بنا السيارة إلى شوارع المدينة، يقول مرافقنا: هذا الجزء من المدينة كان في ما مضى جزءاً من امبراطورية النمسا وهنغاريا، منذ ستين عاما فقط قبل إنشاء يوغسلافيا في عام ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

عند باب الفندق نصحنا مرافقنا آخر نصيحة، قال لنا: «لتغيير العملة المصرف «البنك» هو الأفضل، فالسعر من خلاله - شديد الإغراء - ولا وجود للسوق السوداء، فقد انتهت بعدما خفضت الحكومة من سعر العملة» وتمنى لنا يوما طيبا، وانصرف ليتركنا ليوم كامل غرباء في مدينة غريبة.

«ساعات التجوال»

عندما فتحت باب الغرفة كانت المفاجأة، الغرفة شديدة الضيق، بالغة الصغر، أقرب ما تكون إلى ممر في أي بناية عربية، في منتصف الطريق بين غرفتي وغرفة زميلي المصور لقيته قادما في اتجاهي بعد أن صدمته هو أيضا مساحة

الغرفة . وعندما سألت موظف الاستقبال عن سر صغر حجم الغرف على الرغم من مساحة الفندق الكبيرة ، واتساع أبهائه قال لي بوضوح : نحن شديدو الواقعية والعملية . فماذا يريد النزيل من الغرفة أكثر من فراش نظيف وحمام نظيف ، وهي ليست إلا مكانا مناسبا للنوم . أما المساحات الكبيرة فإنها بلا معنى وغير اقتصادية ولا تستغل ، ونفضل الاستفادة من المساحات في أبهاء للجلوس وقاعات للطعام أكثر وذلك لجذب رواد غير المقيمين بالفندق . انطلقنا نجوب الشوارع .

وشأن كل مدن العالم تنقسم بلغراد إلى قسمين : الجزء الحديث حيث المباني عصرية الطراز ، ذات واجهات زجاجية ، وشوارع متسعة ، وأدوار شاهقة ، وأشجار على جانبي الطريق ، ومساحات خضراء ممتدة . والقسم القديم حيث التاريخ والمباني العتيقة ، فالشوارع أضيق ، وبالتالي زحام المرور أشد ، خاصة أن المنطقة التجارية تقع في الجزء العتيق من المدينة . في وسط المدينة تلفت الانتباه المباني القديمة ، مبنى فندق موسكو تحفة معمارية من الخارج ، والفندق بني عام ١٩٠٦ ، ويحمل كل ملامح التصميم المعماري لتلك الفترة ، الطوب القرميد وعقود الحلى الحجرية تحت النوافذ والشرفات ، والمقهى الممتد على الرصيف ، وغير بعيد عن الفندق مبنى البرلمان الاتحادي (بني في عام ١٩٢٩) ذو الأعمدة العالية ، والساحة الفسيحة ، ثم درجات السلم والتماثيل المعلقة على حواف المبنى . الشوارع في يوم الأحد هادئة ، عدد قليل من المارة يمسكون بمظلاتهم ، يتقون قطرات المطر الذي ينقطع ليعود منذ الصباح . في منتصف النهار امتلأت المقاهي بعض الشيء . الاقتراب من البشر بلا جدوى ، فلغة التخاطب - بخلاف لغة الإشارة - منعدمة ، فالناس يتحدثون « الصربوكرواتية » ، وقليلون الذين يتحدثون

خريطة توضح موقع يوغسلافيا الذي يتوسط قلب أوربا .

لغة أخرى غيرها .

في المساء كان المطر قد انقطع ، فسألنا موظف الاستقبال بالفندق : أين يذهب الناس مساء في بلغراد ؟ بعد أن أفاض في الحديث عن أثر المتاعب الاقتصادية على سلوك الأسرة وعاداتها ، وأن كثيراً من العائلات أصبحت تفضل الإقامة في المنازل ، أعطانا اسما لشارع من شوارع بلغراد ، وقال لنا : ستعودون خمسين عاما على الأقل للوراء ، فالشارع كل ما فيه قديم ، وأرضه قطع من البلاط الأسود الصغير ، وعلى الجانبين مقاه ومطاعم وبنايات كلها من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ، والبوابات والنوافذ ودرجات السلالم كلها وفق نمط البناء القديم من الخشب والطوب ، وفي وسط الشارع منصة خشبية تجلس عليها فرقة موسيقية تعزف الألحان الشعبية القديمة ، وعلى ناصية الطريق بائع متجول بالزي الشعبي القديم ، السروال الطويل الواسع ، والصديرية الحمراء المشغولة المطرزة ، وغطاء الرأس ، والحذاء ذو المقدمة الرفيعة المنثنية باتجاه القدم .

وتتفنن المطاعم والمقاهي في جذب الرواد ، مطعم يرتدي العاملون فيه الملابس التقليدية ، وآخر يقدم فرقة موسيقية تعزف الألحان القديمة . وتمتد المطاعم إلى خارج بواباتها ، وتنتشر المناضد في الطريق ، محاطة بسياج خشبي ، وفي وسط الطريق يتدافع الناس للتجوال والمشاهدة والجلوس على جانبي الطريق على المقاعد الخشبية المنتشرة ، للاستماع للموسيقا والتفرج على البشر .

« على مفترق الطرق »

تقع يوغسلافيا في الجنوب الشرقي من أوربا على الخط الفاصل بين الشرق والغرب ، وتشترك في حدودها مع اليونان من الجنوب ، وبلغاريا ورومانيا من الشرق ، وهنغاريا من الشمال الشرقي ، والنمسا من الشمال ، وإيطاليا من الشمال الغربي ، وألبانيا من الجنوب الغربي . وهي بموقعها هذا تدخل في نطاق ما يعرف بمنطقة البلقان ، باستثناء الجزء الشمالي الغربي ، فيدخل في نطاق أوربا الوسطى .

والبلقان منطقة جغرافية تحتل جنوب شرق أوربا ، وتشمل عدة كيانات سياسية هي بلغاريا ويوغسلافيا واليونان وألبانيا والقسم الأوربي من تركيا ، وبحكم هذا الموقع الجغرافي عند مفصل الحركة فإن هذه المنطقة كانت مسرحا للحروب والهجرات والخلافات الحادة حول الحدود بين الأقليات القومية ، وشاع في الأدبيات السياسية تعبير « البلقنة » الذي يعني عملية تجزئة ، تقوم على استغلال القوميات الصغيرة ، لتؤدي في النهاية إلى نشوء دول جديدة مستقلة ، وأصبح التعبير الذي ولد ليدل أصلا على تجزئة البلقان أكثر اتساعا ، ليشمل كل التجارب المماثلة .

ولأن الجغرافيا تصنع التاريخ في كثير من الأحيان فقد ساهمت العوامل الجغرافية المتعددة المتمثلة في الموقع والجيران في صنع تاريخ يوغسلافيا ، بدءا من موجات الهجرة المتوالية ، إلى استقرار القوميات المختلفة ، ثم قيام الجمهوريات والممالك القومية في الصرب . وكرواتيا . وظل صراع القوى العظمى حول يوغسلافيا ممتدا حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، وبعد الحرب توحدت الجمهوريات ذات القوميات المتعددة في اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية الاشتراكية ، وأصبحت يوغسلافيا اليوم تتكون من جمهوريات صربيا وعاصمتها بلغراد ، وهي في الوقت نفسه العاصمة الاتحادية ، وجمهورية (كرواتيا) وعاصمتها زغرب ، وجمهورية (سلوفينا) وعاصمتها لوبيانا ، وجمهورية (البوسنة) و (الهرسك) وعاصمتها سراييفو ، وجمهورية (ماكدونيا) وعاصمتها اسكوبيا ، وجمهورية (مونت نجرو) (الجبل الأسود) وعاصمتها تيتوجراد ، بالإضافة إلى منطقتي حكم ذاتي ، وهما كوسوفا وفويفوديا وعاصمتها نوفاساد . وتحت القيادة التاريخية لبطل حرب التحرير ضد النازية الماريشال جوزيف بروز تيتو استطاعت يوغسلافيا أن تحافظ على وحدتها . وأن تتجاوز هذه القوميات المتعددة ، على الرغم من البدايات الصعبة . وكان التحدي الذي واجهه اليوغسلاف أمام ستالين وحرصهم على عدم الرضوخ للسوفييت ، هذا التحدي الذي استمر حتى عام ١٩٥٦ كان دائما قويا ، ودعما للحلم القومي الذي جمع كل أبناء يوغسلافيا حول تيتو . وحوله التجربة لكي تنجح وكانت تجربة البناء والوحدة . ولكن قبل وصولنا إلى يوغسلافيا كانت تقارير الصحف تقول . إن بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي . ورأينا أن وصولنا لم يكن في موسم تغير الفصول فقط

تبلغ مساحة يوغسلافيا حوالي ٢٥٥,٨٠٤ كيلو مترات مربعة ، وعدد سكانها ٢٢ مليون نسمة تقريبا ، وهي بذلك تحتل المرتبة التاسعة من حيث المساحة ، والمرتبة الثامنة من حيث

عدد السكان في أوربا ، ومعظم أراضي يوغسلافيا هضبية ، فسبعين بالمائة من إجمالي مساحتها تزيد ارتفاعا على ٢٠٠ متر فوق سطح البحر . وتتميز الطبيعة اليوغسلافية بالتنوع والتباين الشديدين ، وتتعدد على امتداد يوغسلافيا الخصائص المناخية والجغرافية بين الأقاليم المختلفة ، بل حتى داخل كل إقليم ، مما أثر على توزيع الثروة الطبيعية والموارد ، ولذا فإن هناك أقاليم أكثر ثراء من أقاليم أخرى . وعلى مستوى آخر فإن الجمهوريات الأقرب إلى وسط أوربا التي تقع في الشمال الغربي أكثر تقدما من حيث التقنية والأداء الصناعي .

ولقد انطلقت يوغسلافيا عقب تأسيس الجمهورية ، وفيما بعد الحرب العظمى الثانية ، في سباق مع الزمن للتطور الاقتصادي ، وتحقيق خطط تنمية طموحة ، وكان خلاف يوغسلافيا مع الاتحاد السوفيتي يمثل تحديا حقيقيا ، وحتى اليوم ما زالت هذه التجربة ماثلة أمام العيان .

يقول لي محدثي ، وهو مدير إدارة الشئون العربية والشرق الأوسط بوزارة الخارجية : « نحن ربما نغفر ، ولكننا لا ننسى ، لأننا لو نسينا ضاعت قيمة الدرس ، وأصبح التاريخ هباء بلا معنى . نعم نحن نعلم هذه التجربة لأطفالنا ، ونشرحها لهم ، ونقول لهم : إننا أثناء التحرير أسدينا خدمة عظمى للاتحاد السوفيتي عندما أوقفنا زحف النازيين مدة أسبوعين كاملين بقصص بطولة لا تصدق ، ونقول لهم - لأطفالنا - : إن قادتنا - تيتو ورفاقه وحزبه - جاءوا إلى السلطة لأنهم دافعوا عن الوطن عندما فر الجميع ، ولقد رفضنا أن نقلد تجارب أخرى ، ورفضنا الدخول في دائرة العلاقة الخاصة المقفلة ، وآمنا بعلاقات مفتوحة مع جميع دول العالم ، وآمنا أن الاشتراكية هدف له أكثر من طريق . وقلنا إن مجرد كون دولة ما قوة عظمى لا يبرر أن تخضع لها كل الدول . ونقول لأطفالنا : لقد دفعنا ثمن هذه المواقف ، فنحن عندما دافعنا عن وطننا في الحرب العالمية الثانية لم يساعدنا أحد ، وعندما تفاوض الكبار حاولوا أن يتجاهلوا أهمية ما قمنا به في مكافحة النازية ، ونظروا إلينا كمناطق نفوذ ، وعندما بدأنا خطط التنمية عقب الحرب لتحرير اقتصادنا والنهوض ببلادنا لم يساعدنا أحد ، ولكننا بنينا وطنا وصنعنا تاريخا ، وهذا أهم ما يجب أن تدركه أجيالنا » .

إنجازات حقيقية

استطاعت يوغسلافيا على الرغم من صعوبات البداية أن تحقق نجاحا لا ينكره أحد ، وعلى مدى ٣٢ عاما ظلت يوغسلافيا تحقق معدل نمو في إجمالي الناتج القومي بمتوسط عام مقداره ٦٪ سنويا (١٩٤٨ - ١٩٨١) ، أي تضاعف الانتاج القومي سبع مرات خلال هذه السنوات ، وخلال الفترة نفسها بلغ معدل نمو العمالة ٥٪ سنويا ، مع ما يعنيه هذا من فرص عمل ، وقد طرأ خلال الفترة نفسها تعديل كبير في هيكل القوى العاملة ، فبينما كان يبلغ عدد السكان الزراعيين ٦٧٪ من مجموع السكان عام ١٩٤٧ انخفض في نهاية عام ١٩٨٢ إلى ٢٠٪ فقط ، كما تعدلت بنية التبادل السلعي ، فبعد أن كان ثلثا مجموع الصادرات عبارة عن منتجات أولية تقلصت نسبة المنتجات الأولية إلى ٦٪ من إجمالي الصادرات التي تبلغ قيمتها حوالي ٢٩ مليار دولار أمريكي ، منها ٦٦٪ سلع مصنعة تصنيعا تقنيا بالغ الدقة .

وبخلاف آثار هذا التطور في ارتفاع نصيب الأفراد من الدخل القومي ، وارتفاع مستوى المعيشة ، فإننا نلمس على مستوى العائلة والأسر الصغيرة أثر نجاح خطط التنمية خلال فترة ما بين ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ ، فلقد طرأ الآتي : ازداد عدد العائلات التي تملك ثلاجات كهربائية في منازلها من ٢٥٪ من عدد السكان إلى ٩٠٪ ، وأجهزة التلفاز من ٢٨٪ إلى ٨٥٪ ،

● إلى اليمين صورة لشوارع المدينة القديمة في دوبرفنيك .. وهي القلعة التي ما زال يقطنها السكان ويمارسون حياتهم اليومية بها ، الصفحة اليسرى بالترتيب من أعلى إلى أسفل الحي التجاري في بلغراد العاصمة ، ثم منصة الموسيقيين في الشارع القديم ببلغراد حيث يحافظ اليوغسلاف على طبيعة الشارع ، كما كان قبل مائة عام .. الصورة الأخيرة قارئة كف في أحد المقاهي بالزي الوطني القديم

والغسالات من ١١٪ إلى ٥٨٪ ، والسيارات من ٨٪ إلى ٣٦٪ .

وحتى ذلك الوقت كانت الحياة جميلة وهانئة والزمن رخاء ، ولا أحد يحس بنذر العاصفة القادمة ، وفجأة بدءوا ينتبهون إلى أنه مطلوب سداد القروض التي تم التوسع في خطط التنمية بواسطتها ، وأصبح تمويل التنمية مشكلة حادة ، تهدد صناعات بالتوقف ، وتهدد أقاليم وجمهوريات ـ خاصة تلك التي لا تتمتع بأي موارد طبيعية ، وتقوم كل صناعاتها على الاستيراد ـ بالأزمة الحادة ، وكما حدثني مسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي ، وأحد أبرز قادته : « كنا نقترض ، فكان كل شيء سهلا ميسرا والآن أصبح لزاما أن نسدد »

تبلغ قروض يوغسلافيا حوالي ٢٢ مليار دولار ، اقترضتها خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، لتمويل خطط التوسع في الاستثمارات وخطط التنمية ، وعندما احتاجت لقروض جديدة ناقش صندوق النقد السياسة الاقتصادية ليوغسلافيا ، واقترح خطط علاج واصلاح كشرط لمنح قروض جديدة ، وبدأت يوغسلافيا ، في تطبيق سياسات إصلاح اقتصادي ، ومع هذه السياسات بدأت الاضطرابات ، وأضرب العمال ، وبدأ الناس يشعرون بوطأة الحياة . لماذا ؟ هذا ما سننتقل إليه .

السمن والعسل

لم نصل إلى يوغسلافيا إذن في موسم تغيير الفصول فقط ، فرياح التغير تهب من كل الاتجاهات ، مظاهرها هي تلك التي نسمعها في نشرات الأنباء وفي الصحف والمجلات .

ولأن الأمر ليس مزعجا بالقدر الذي يبدو لبعض الناس فإن مدن يوغسلافيا وجمهورياتها تشهد تدافعا من المستثمرين الأوربيين لدراسة السوق ، والاستعداد للدخول بقوة . وقد أتاحت لي الظروف أن أستمع لجانب من الحرب السرية التي تدور بين شركة أمريكية كبرى وأخرى اسبانية مشتركة للفوز بمشروع مجمع زراعي ضخم ، تبلغ استثماراته ٤٥٠ مليون دولار ، ويستعد اليابانيون لإقامة مجمع سياحي ضخم في دوبرفنيك ، لؤلؤة الادرياتيك ، ومجموعة شركات المانية غربية وسويسرية تدرس الدخول في الاستثمار في قطاع صناعات الحاسوب « الكمبيوتر » وتجهيزات محطات الكهرباء التي تدار بالطاقة النووية ، وهكذا . وكما قال لي أحد رجال الأعمال الأجانب الذي التقينا به صدفة في بهو الفندق وتحادثنا ، فإن سوق الاستثمار في يوغسلافيا تمثل للمستثمرين الأوربيين طبقا من سمن وعسل ، لتوافر العمالة الفنية والكوادر العلمية المؤهلة تأهيلا عاليا ، والباحثين والقاعدة الصناعية المتطورة والسوق ، وماذا يريد المستثمر بعد ذلك ؟ قلت لمحدثي : ولماذا لا يقوم اليوغسلافيون بهذه المشروعات وحدهم ؟ ابتسم وهو ينهي حديثه : لأنه ينقصهم شيء واحد فقط ، هو عبارة عن بضع أوراق ملونة اسمها « بنكنوت » !!

سراييفو الفن والتاريخ والجمال

كنت أعرف أنها مدينة ذات تاريخ عريق ، وأنها تتميز بطابع معماري تاريخي فريد ، لكن لم أتوقع أنها بهذا القدر من الجمال والروعة . عندما هبطنا مطارها ذات مساء ، وصلت إليها محملا بتداعي التاريخ والجمال ، وخرجت منها بعد يوم ونصف نهار وأنا مفتون بها .

سراييفو جسر لجميع العهود الحضارية التاريخية التي ترك كل منها بصمته وطابعه ، مما جعلها متحفا حيًّا متنوعا ، يضم صور العظمة والمحنة ، تلتقي فيها وتلتحم آثار الشرق والغرب ، طبيعتها شديدة التنوع ، هضاب وجبال ، وسهول ، ومراع وحقول ، وخيوط فضية هي الجداول والينابيع والأنهار ، وجبال

مكسوة بغابات الصنوبر السامقة التي تلقي ظلالا كثيفة على أطراف السماء المنكسرة عند حط الأفق . لوحة لونية رائعة ، الأخضر هو اللون الغالب ، خضرة الأعشاب ، والحقول والمزروعات المحصودة بلونها الأصفر على القمة ، ويتدرج اللون الأصفر وفق درجة جفاف المحصول ، والسماء زرقاء عليها ظلال الطبيعة ، وخيوط الفضة تتقاطع على امتداد البصر .

على مفترق طرق البلقان كله تقع جمهورية البوسنة والهرسك التي تمثل سراييفو عاصمتها . مر من هنا التتار والبيزنطيون والرومان والأتراك والأوربيون ، وكانت طرقها معبرا للتجار والغزاة والقياصرة والسلاطين والدراويش .

وتمثل البوسنة والهرسك جمهورية ضمن الجمهوريات التي تكون يوغسلافيا ، وقديما كانت كل منها مملكة قائمة بذاتها ، وكانت البوسنة مملكة يحكمها آخر ملوك البوسنة ، « ستيبان توما شيفتش » ، وقد ظل الملك يتقهقر أمام جيوش السلطان « محمد الفاتح » من مدينة إلى أخرى ، ومن قلعة إلى أخرى ، حتى تحصن بعاصمة المملكة « يايتسي » ، و « يايتسي » مدينة مبنية على تل ، عندما تنظر إليها تبدو كشيخ أضناه السفر والزمن الطويل فتوكأ على تل ليستريح ، وفي أسفلها يجري نهران ، هما « فرباس وبليفا » ، ولأن مجري نهر « بليفا » تعترضه الصخور فإنه يبدو كأنه يقذف بالمياه إلى أعلى تكريما للشيخ ، ويبدو منظر المدينة والشلال تحتها كأنه إكليل من الزهور البيضاء .

وفي ذلك الوقت من عام ١٤٦٣م كان العالم كله ينظر إلى هذه المدينة ، وكانت الامبراطوريات تترقب ، فقد كانت درعا أمام الشرق ، أمام الأتراك ، ولو سقطت « يايتسي » ـ كان العالم يتساءل ـ ماذا سيسقط بعدها ؟ كانت عيون العالم تنظر إليها ، والصلوات تقام لتبقى « يايتسي » تقاوم ، والقيصر في فينا ، عاصمة امبراطورية النمسا وهنغاريا ، يصحو كل صباح ليسأل : هل ما زالت « يايتسي » تقاوم ؟ وما زالت « البوسنة » تقاوم ؟ ويرسل الهدايا لتتحسن المدينة ، إلى أن ذاع الخبر : « سقطت البوسنة » ، ولكن « يايتسي » تقاوم ، وارداد رعب أوربا وممالكها ، وقاومت « يايتسي » بعنف . كان الشرق والغرب يتحاربان ، وفي لحظة بين الحياة والموت سقطت المدينة ، وسقط رأس فارسها وملكها ، سقط بالغدر وليس بالحرب ، وأيقن العالم أن السيف الذي سقط لن يرتفع ثانية زمنا طويلاً ، فقد دعى الضباط الأتـراك الملك « ستيبـان » إلى سلطانهم للمفاوضات ، ولكن السلطان قال : إن الكلمة والأمان الذي منحه ضباطه لا يلزمه ، وارتفع السيف وسقط رأس الملك . بدأ التاريخ التركي في البوسنة ، وبعد أقل من عشرين عاما احتل العثمانيون الهرسك أيضا ، وطوال خمسة قرون أصبحت البـوسنة والهـرسـك جـزءا من الامبراطورية العثمانية . وفي عام ١٨٧٨ ، وبعد هزائم العثمانيين ، وبدء تدهور الامبراطورية العثمانية . قرر مؤتمر برلين أن يعهد لامبراطورية النمسا وهنغاريا (أسرة هابسبورغ) بالسيطرة على البوسنة والهرسك . وقد استمرت التبعية حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى بسبب البوسنة والهرسك ، عندما كان ولي عهد النمسا يزور سراييفو ، وفي موكبه أطلق « جافريل لابرنسيب » الرصاص على ولي العهد فقتله ، واتضح بعد ذلك أن جافريل عضو بمنظمة اسمها « بوسنة الفتاة » التي تهدف إلى تحرير « البوسنة والهرسك » . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تأسست عام ١٩١٨ ، في مؤتمر « فرساي » ، مملكة يوغسلافيا التي كان من ضمنها مناطق البوسنة والهرسك .

« طراز فريد »

طراز فريد من العمارة في « سراييفو » كلها ، فهي تضم في شوارعها أنماطا للعصـور المختلفة : بنايات من العصر التركي ، وأخرى

● سراييفو . . مدينة الجمال والتاريخ . . على الصفحة اليمنى الحي التركي القديم نمط خاص من العمارة ، وجمال من نوع فريد ، على الصفحة اليسرى (أعلى اليمين) الشارع التجاري في سراييفو ذات الأغلبية المسلمة .

و (أعلى اليسار) المسجد والمركز الاسلامي بزغرب حيث تأثير الحضارة الأوربية في شكل العمارة . الصورة السفلى مكتبة غازي خسروبك في سراييفو ، من الداخل عمرها قرابة ٥٠٠ عام ونمط العمارة نمط شرقي خالص

من عصر النمسا ، ومبان حديثة ، وكل مرحلة لها سماتها وملامحها المميزة . فقد ترك العثمانيون في البوسنة والهرسك الاسلام . وفيهما اليوم أكثر من مليوني مسلم من إجمالي المسلمين في يوغسلافيا ، وهم قرابة (٥ ملايين نسمة) . وكان من نتائج إقامة العثمانيين فترة طويلة هناك أن انتشرت المساجد والمدارس والتكايا والمكتبات . وقد تم بناؤها كلها وفق النمط السائد في التراث العثماني ، وهو طراز خاص ، يعتمد على التطابق الدقيق بين الخطوط العمودية وبين الأقواس الواسعة ، بينما يتميز الجزء النمساوي من مدينة سراييفو بالمباني المتأثرة بالهندسة المعمارية الأوربية السائدة في القرن التاسع عشر ، جماليات وتماثيل وإفراط في المساحات والارتفاعات .

احترنا فندقا في قلب المدينة ذات النمط التركي : الشوارع ضيقة ، خلف الفندق مباشرة الحي القديم ، محلات من الطوب وأسقف من الخشب كلها باللون الأحمر ، تكية قديمة مهجورة كانت مخصصة للدراويش ، فيها عرف نوم وعرفة طعام رئيسية ، كان يقدم فيها الطعام في مواعيد الوجبات بعد صلاة الفجر ، وعقب صلاة الظهر ، وبعد صلاة المغرب ، في وسط الحي التركي ينتصب المسجد الكبير ، ساحة فسيحة وسطها نافورة مياه ، تم مبنى المسجد ، منصتان على يمين باب الدخول ويساره ، طراز العمارة يعتمد على الأعمدة والأقواس ، والمسجد من الداخل تحفة فنية رائعة من الزخرفة والنقوش الإسلامية ، وقد بنى المسجد « غازي حسروبك » الذي كان واليا على البوسنة والهرسك بين عامي (١٥٢١ ـ ١٥٤١) ، وهو أكبر مسجد في يوغسلافيا كلها ، وقد وضع تصميمه وأشرف على بنائه مهندس اسمه « أسير علي » ، وقد بدأ في تشييده عام ١٥٣٠ وانتهى منه ١٥٣١م (٩٣٧هـ) .

وكان عهد « غازي خسرو » من أكثر عهود المنطقة ازدهارا ، فقد شهد عصره نهضة واسعة ، فابتنى بخلاف المسجد مدرسة ، ومد أنابيب المياه للبيوت ، وشيد مكتبة ، وخان حياة للمتصوفين ـ يؤويهم بلا مقابل ـ وبيتا للأقمشة ، « وكرفان سراي » أي بيتا للمسافرين ، وحماما ، وقد كان تعداد سراييفو في ذلك الزمن ٨ آلاف نسمة فقط ـ أصبح الآن ٥٤٠ ألف نسمة ـ وفيها ٧٣ مسجدا ، وفي مسجد غازي خسرو هذا تقام الصلوات الخمس ، وتتم قراءة القرآن من الحفّاظ ، وفي كل يوم جلسة توحيد وذكر بعد صلاة الظهر ، يقرؤون فيها جزءا من القرآن ثم يذكرون الله (لا إله إلا الله) ألف مرة . وتزدهر في سراييفو الصناعات اليدوية كالنقش على النحاس والفضة ، والحفر على الخشب ، كلها وفق الذوق الذي كان سائدا إبّان العصر العثماني مع بعض التطورات والإضافات .

وفي سراييفو كلية للدراسات الإسلامية ، وهي الوحيدة من نوعها في أوربا . يقول الشيخ « حافظ حسين موتيش » رئيس علماء يوغسلافيا : « لدينا في يوغسلافيا ٨٠٠ مسجد ومدرسة ثانوية إسلامية للبنين ، وأخرى للبنات ، وأربع مدارس دينية ، ولدينا ٣٥٠٠ إمام وواعظ وخطيب ، ونحن نبذل جهدنا في تعليم اللغة العربية ، وطبعنا معجمين (عربي ـ يوغسلافي) ، و (يوغسلافي ـ عربي) ، كما نقوم بنشاط في مجال الترجمة والطبع والنشر ، وقمنا بترجمة القرآن الكريم إلى اليوغسلافية . وتمويل المشيخة الإسلامية يتم من رسوم عضوية يسددها كل مسلم ، بالإضافة إلى الزكاة وصدقة الفطر ، وعائد بيع الأضاحي ، وعائد الأوقاف .

« لؤلؤة الادرياتيك »

على الرغم من أننا حاولنا ـ مدة أسبوع كامل الحصول على مقعدين في الطائرة المتجهة من سراييفو إلى « دوبرفنيك » إلا أننا فشلنا تماما ،

الرحلتان اللتان تقلعان يوميا لا مكان بهما مدة طويلة ، وأخيرا قالت موظفة الحجز في شركة طيران : إنه لا أمل ، فالضغط دائم على خطوط المدينتين ، فكلتاهما من ابرز المناطق السياحية في يوغسلافيا ، « ودوبرفنيك » واحدة من أكثر المدن قدما وفتنة في العالم (هكذا قالت) ، وعندما ارتفع حاجباي تعبيرا عن الدهشة قالت بحماس المحب : دوبرفنيك مدينة لا تضاهيها مدينة في العالم ، واقرأ ماذا يسميها الأوربيون وليس نحن ، إنهم يسمونها « لؤلؤة الادرياتيك » ، واليونسكو تضعها تحت حمايتها الفنية كأثر تاريخي نادر المثال ، واذهب لترى بنفسك . وأشاحت وجهها عنا . خارج المكتب قال لي زميلي المصور : لماذا تجاهلت أمامها ودفعتها بصمتك لأن تندفع في الحديث بحماس لتقول لنا ما تعرفه عن « دوبرفنيك » ؟ قلت له : يا صديقي دعنا نرى كيف يتحمس الناس لبلادهم ، ويتحدثون عنها بحب ، لنقارن كيف نحن في وطننا العربي لا يهتم كثير من الناس بما هو موجود لدينا من كنوز التاريخ

استقر رأينا على أن نستقل الحافلة من « سراييفو » إلى « دوبرفنيك » ، والمسافة كلها لا تتجاوز ٣٠٠كم . بحسابنا قلنا : إنها لن تزيد عن ثلاث ساعات . تحركت بنا السيارة في الثانية والنصف ظهرا ، لتصل دوبرفنيك في التاسعة والربع مساء سبع ساعات استغرقها الطريق ، قطعنا فيها ثلاثمائة كيلومتر عبر الجبال ، طرق صاعدة وهابطة ، ملتوية ودائرية . في البداية كنا نجلس على حواف مقاعدنا ، نرقب الطريق مع السائق خوفا ، ومع الوقت وبعد الاطمئنان لمقدرة السائق أدرنا وجوهنا لنرقب الطريق استمتاعا بالجمال ، وعبر الجبال تنوعت الطبيعة : قرى صغيرة تتمركز البيوت ذات الطابق أو الطابقين في منتصفها ، وتحيط بها المزروعات والحقول والحدائق ، في الأفق تبدو الطواحين التي ما تزال قائمة بالإضافة إلى أشجار الكروم والدخان الجبلي ، واللور الأخضر . في جزء آخر تأخذ شكلا مختلفا . ساحات متسعة من الحقول ، وعلى رأس كل قطعة أرض بيت صغير ، وفي الخلف تبدو الماشية ، ثم تمتد الأرض ، وتهبط بنا السيارة لتهبط قلوبنا معها ، ثم تعود لترتفع . وفى الطريق مررنا على مدينة « موستار » ـ لم يكن مقررا لنا الوقوف ـ فحدقنا من النافذة ، ومع حركة السيارة في الهبوط والارتفاع كان يبدو مسجدها معلقا في الهواء ، حيث شيد فوق جبل يحيط بالمدينة . كان الوقت غروبا وأشعة الشمس وبقايا ضوء النهار تنسكب عليه ، ويصنع الضوء والظل والجبل والسماء المفتوحة لوحة رائعة فاتنة .

وصلنا إلى دوبرفنيك أخيرا ، حيث تمتد المدينة على شاطيء الادرياتيك ، ومناخها يشبه مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والمدينة على سفح الجبل الممتد على شاطيء البحر عندما تقف على الشاطيء وترفع ناظريك إلى المدينة تفاجأ بالمدرجات المنحوتة في الجبل ، مستويات متعددة ، كأنها طوابق ، بيوت ومنازل صغيرة ، وأشجار وخضرة ، والسيارات تسير ، وتعدد الطوابق يجعل المنظر متتاليا في مستوى ما تمرق سيارة وخلفها حافلة سياحية ، ترفع عينيك إلى المستوى الذي يعلوه فتجد سيارات مختلفة ، وشكل البيوت والحدائق مختلفاً ، تهبط إلى مستوى أدنى فتتغير الصورة ، وهكذا .

عند شاطيء البحر تنتصب المدينة القديمة ، لكنها مدينة ليست ككل المدن ، إنها حياة من نوع شديد الخصوصية .

« المدينة القلعة »

قنطرة خشبية متحركة تفصل بين المدينة القديمة وما عداها ، ترتفع القنطرة ويغلق باب المدينة ، وتصبح قلعة حصينة ، ظهرها جهة الباب مؤمن تماما ، وسور عال شاهق الارتفاع يتجاوز ٢٢٠ متراً يحيط بها من كل جانب في

● الصورة العليا قرية شبلى حيث يقدم الأهالى يوما كاملا بالملابس الوطنية .. تجار وراقصون .. ومارة .. تمثيلية كاملة للسياح . إلى اليمين في دوبرفنيك درجات السلالم التي تنقل المارة من شارع إلى شارع ، الصورة اليسرى الباعة في قرية شبلي يعرضون بضائعهم وأفواج السياح يبتاعون للذكرى ، إلى اليسار شارع صغير داخل قلعة دوبرفنيك لؤلؤة الادرياتيك .

دائرة كاملة ، ولا منفذ بعد ذلك إلا المرفأ على البحر ، هنا كانت مملكة « دوبرفنيك » القديمة ، تتحصن هنا ، ولا يصبح أمام الغزاة منفذ للدخول ، وداخل القلعة مدينة كاملة ، حياة بأسرها ، سوق ، محلات ، منازل ، مقاهٍ ، أربعة آلاف نسمة ما زالوا حتى اليوم يمارسون حياتهم داخل المدينة القلعة ، التي يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادي . وازدهرت فيها حياة كاملة ، أنشئت فيها أقدم صيدلية في العالم عام ١٣١٧م ، وفي بدايات القرن الرابع عشر أقيم بها ولأول مرة في أوربا كلها ملاجيء أطفال ، ودور رعاية للعجزة ، وفي المدينة كنيسة بناها الملك « ريتشارد » قلب الأسد ، هدية منه للمملكة عندما مر عليها عقب عودته من حملته الفاشلة على القدس ، وفي الكنيسة بعض آثار الملك ريتشارد وهداياه الثمينة التي منحها للكنيسة ،ومنها تمثال لصقر أحضره من القدس .

والمدينة بالداخل شارعان رئيسيان عريضان ، عرضهما يتجاوز الاثنى عشر متراً ، أرضيتهما من الطوب الصخري الأسود ، وبين الشارعين تتواصل حارات صغيرة عديدة ، ممر صغير فيه أبواب البيوت والمقاهي والبارات في الدور الأرضي ، ثم درجات سلم لتنتقل إلى حارة أخرى بالنمط نفسه . وفيها درجات سلم أخرى تسلمك إلى حارة جديدة ، وهكذا تتوالى مدرجات ، وتتفرع حارات . خلف نوافذ البيوت وعلى الشرفات أصص الورد والنباتات الخضراء ، واللبلاب يمتد ليكسو الجدران ، والمقاهي ممتلئة بالبشر سائحين ومواطنين ، والشوارع شديدة الازدحام : وبشر يتجولون وآخرون يتفرجون على البشر ، وصنف ثالث يسير جيئة وذهابا بلا هدف ، نبض كامل ودفء ،وازدحام بلا مشاكل ، فالمدينة لم تعرف من المدنية إلا الماء والكهرباء والصرف الصحي ، أما عدا ذلك فلا سيارات ولا دراجات ولا ضجيج ، إلا أصوات البشر وهدير موج البحر .

في الميناء ترسو القوارب الصغيرة ، والمراكب التي تمخر عباب الادرياتيك ، في رحلات منظمة للجزر المحيطة « بدوبرفنيك » ، وحول الميناء مقاهي الرصيف التي لا تخلو أبدا من البشر ، نهارا يذهبون في رحلات للجزر ، أو في انتظار موعد إبحارهم ، وفي المساء يستمتعون بمنظر البحر الذي تنعكس عليه الأضواء من مدرجات الجبال ، ومدرجات الحارات ، فتنة كاملة . لا ينقطع السياح عنها طوال أشهر الربيع والصيف ، من نهاية مارس وأول ابريل حتى أوائل اكتوبر ، وفي الشتاء يلف الهدوء المدينة ، ويبقى فيها ساكنوها ، وتهدأ حركة المقاهي ، ويتركها عدد من أرباب المهن الخدمية عائدين إلى القرى المحيطة بها ، بعد أن ينتهي موسم الذروة والعمل ، شأن كل المدن التي تبيع التاريخ والسياحة للقادمين .

« العرض الجماعي »

كان وصولنا إلى دوبرفنيك مساء يوم الجمعة ، وموعد مغادرتها عصر الأحد ، وعندما سألنا عن أقرب القرى المحيطة لنرى صورة نمطية للقرية اليوغسلافية ، قالوا لنا : عليكم بزيارة قرية « شبلي » صباح يوم الأحد ، حيث سترون نموذجا للقرية التقليدية في هذه المنطقة كلها . الوصول إلى القرية كان مشكلة ، فسيارات الأجرة لا تعمل وفق نظام العداد الآلي ، ولكن بالاجتهاد الشخصي ، وكم من مسافة قطعناها بسيارتين مختلفتين ، وفي كل مرة ندفع أجرا مختلفا ، ولذا فقد استقر رأينا على أن نستقل الحافلة . تحركنا من « دوبرفنيك » في الثامنة صباحا ، وصلنا إلى « شبلي » في العاشرة إلا ربعاً . عند هبوطنا وجدنا عشرات الحافلات السياحية التي تنقل أفواج السياح . طريق القار « الاسفلت » - الطريق العام - يشق القرية

نصفين ، إلى اليسار المزارع وحقول الكروم ، وإلى اليمين ساحة القرية الرئيسية ، حيث مبنى الكنيسة ، والمقاهي والمتحف ومبنى المدرسة ، وبعض بيوت السراة ، ومحلات تجارية . فور عبور طريق القار « الاسفلت » ، على الجانبين يقف أهل القرية لبيع منتجاتهم : مشغولات يدوية ، (مفارش) للمناضد ، قمصان للنساء مشغولة باليد ، أحذية خفيفة مبطنة بالوبر للاستخدام المنزلي ، عنب ، ملابس نسائية ، تحف خشبية ، وزحام من البشر ، وكل أهل القرية يرتدون الملابس الوطنية القديمة نساء ورجالا ، وعجائز وشبابا ، حتى الأطفال . على درجات السلم العريض المتسع أمام الكنيسة تراصت أفواج السياح جلوسا ، بينما انطلق بعض الناس إلى المقاهي ، وتدافع آخرون في زحام كثيف لتجربة مجانية للنبيذ المنتج في القرية ، (كانت الساعة قبل الحادية عشرة صباحا) ، ويدخل بعضهم إلى الكنيسة لتأدية صلاة يوم الأحد ، وآخرون يقفون أمام المعروضات للمساومة وأحيانا للشراء .

كلما اقترب عقربا الساعة من الحادية عشرة أصبح الزحام شديداً ، والكل يتجه للساحة المواجهة للكنيسة ، وخلف الكنيسة والساحة تمتد مزارع الكروم ، وفي مقهى جانبي جلس بعض المواطنين من سكان القرية ، في ثياب يوم الأحد النظيفة ، يتحادثون ، ويشاهدون التلفاز ، ويحتسون النبيذ (ما زال الوقت صباحا) ، وقبل الحادية عشرة بعشرة دقائق بدأت الحركة في الساحة : أجهزة صوتية ، آلات موسيقية . وفي الحادية عشرة تماما بدأ رجال ونساء بالملابس الوطنية القديمة في تقديم الرقصات الشعبية والغناء الشعبي ، عرض مدته نصف ساعة (اختتموه برقصة مشتركة بين الحضور والراقصين ، رجل من الحضور مع فتاة من الراقصات ، والعكس ليؤديا رقصة مشتركة ، الرقصات بها ملامح من رقصات شرقية ، الدبكة اللبنانية تحديدا ، والموسيقا بها نغمة وإيقاع من الشرق) .

وفي نهاية الرقص شكرت الفرقة جميع الحضور (لتشريفهم) قريتهم . ولخوفي من الازدحام الذي بدأت ملامحه تتجمع وتتضح على مخرج طريق واحد ، درت وزميلي من خلف مبنى الكنيسة وخلف المتحف لنخرج إلى الطريق العام ، لنجد البائعين الذين كانوا وقوفا بالملابس الوطنية يفضونها عنهم ، لتظهر من تحتها ملابسهم المدنية الحديثة ، فقد انتهت المسرحية ، وانتهى العرض الجماعي الذي شاركت فيه القرية كلها ، لتبيع للسياح رائحة الماضي ، وتأخذهم في رحلة إلى تاريخ قديم . وبعد ذلك عرفت من أحد موظفي شركات السياحة في المدينة أن شركات السياحة مجتمعة هي التي نظمت هذه المسرحية بالاتفاق مع أهل القرية . والمنافع في النهاية تعم على الجميع .

« تترقب »

في طريق عودتنا من القرية كانت الشواطيء الجبلية قد امتلأت بالرواد ، الكل يغسل همومه في مياه البحر ، وعديد من الفنادق تنتشر على طول الطريق ، فيوغسلافيا واحدة من أهم بلدان أوربا للسياحة ، وفي العام الماضي فقط سجلت أكثر من ١١٠ ملايين ليلة مبيت ، وزارها أكثر من مليوني سائح للإقامة ٣ أيام فأكثر ، دفعوا ٣,٥ مليارات دولار أمريكي ونصف مليار ، وتنوع طبيعة يوغسلافيا وثراؤها التاريخي سببان مهمان في كونها منطقة جذب سياحي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن انتشار العيون والحمامات الطبية التي تستخدم مياهها في علاج كثير من الأمراض أوجد نوعا خاصا من السياحة ، وهو السياحة العلاجية ، ولذلك فإنهم على الرغم من كل المتاعب يخططون للارتفاع بعدد الأسرة من مليون و٣٥٠ ألف سرير إلى (٢) مليوني سرير في أول الموسم السياحي الصيفي القادم ، خاصة أن يوغسلافيا لا ينقطع عنها السياح صيفا وشتاء ، ففي الشتاء

● الصفحة اليمنى صورتان من زغرب المدينة الأقرب إلى أوربا الغربية وتأثرها بها شديد الوضوح ، الصفحة اليسرى مبنى فندق موسكو في قلب بلغراد ما زال محتفظا بجماله على الرغم من أن تاريخ بنائه يعود إلى عام ١٩٠٥

للتزلج على الجليد ، أو للصيد الشتوي في الجبال . ويأمل المسئولون عن السياحة أن يزداد الإقبال بعد تخفيض قيمة العملة ، فالدولار الواحد يساوي (٣٢٠ دينارا) تقريبا ، أي أن المائة دولار تساوي ٣٢٠ ألف دينار ، ولتقريب صورة الأسعار ذهبنا في المساء بعد يوم عمل طويل لم نذق فيه طعاما ، إلى مطعم في أفخم فنادق بلغراد ـ لم نكن نقيم فيه ـ وتناولنا وجبة طعام فاخرة ، ودفعنا عن شخصين ٥٥ ألف دينار ، وصحيح أن التضخم قد ألهب الأسعار ، ولكن للأسف فإن هذا لا يستشعره ويكتوي بناره إلا المقيمون أبناء البلد ، خاصة مع تدني المرتبات ، فمثلا نائب رئيس مجلس إدارة لأحد أكبر المجمعات الزراعية الصناعية يبلغ مقدار مرتبه مالا يتجاوز ٢٥٠ دولاراً ، ووزير اتحادي في الوزارة مرتبه في حدود ٣٥٠ دولارا . صحيح أن المرتب وحده ليس مقياسا ، فهناك خدمات ورعاية تقدمها الدولة ، ولكن ما يعنينا هنا أن مسئولي السياحة يراهنون على زيادة عدد السياح ، ويترقبون مواسم أكثر ازدحاما ، علها تبعث الرواج في الاقتصاد الذي يعاني من مشكلات التغير .

رياح التغيير

في مبنى أنيق شاهق الارتفاع ، كان لقاؤنا في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي ، وهو أكبر وأوسع منظمة سياسية واجتماعية في يوغسلافيا (١٤ مليون عضو فقط !) يلخصون المشكلة بقولهم : نعم لدينا مشكلة اقتصادية ، وبداية الحل دائما صعبة ،

كسوات البداية التي ما زلنا نذكرها ، ولكن الإصلاح ضروري ومهم ، والأزمة أن بعض القوى البيروقراطية استغلت مناخ الظروف الاقتصادية ، ولرغبتها في التمسك بالحكم والسلطة السياسية بدأت تغذي تيارات الانفصال ، فبدأت ترتفع نغمات لا معنى لها

جمهورية تقول : نحن أكثر غنى وتقدما من جمهورية أخرى ، أو نحن نصدر للخارج نصف صادرات يوغسلافيا . ولذلك فإلى جانب الاصلاح الاقتصادي فإن السياسات والاجراءات الجديدة تهدف إلى فصل الاقتصاد عن السلطة السياسية في الجمهوريات ، أي نزع أظافر القوى البيروقراطية التي تخمش بها تجربة الوحدة .

في الطريق لمقابلة وزير الاقتصاد الاتحادي أخذ ذهني يرتب نقاط الأزمة كالتالي ـ قروض ـ عجز في ميزان المدفوعات ـ عجز في السيولة النقدية والعملة الصعبة ـ كثير من الصناعات التي تستورد موادها الأولية مهددة بالتوقف ـ خفض قيمة العملة أدى إلى ضعف قوتها الشرائية . فجأة صرخ سائق السيارة ومرافقنا كأنما اشتعلت النار فجأة في ثيابهما . سألت : قال مرافقنا : إن عرض أنباء الثالثة الذي كان يذاع في تلك اللحظة أفاد أن تقريراً رسميا لوزارة الاقتصاد يقول : إن معدل التضخم اقترب من ٢٢٠٪ ، نعم مائتان وعشرون بالمائة . !

عدت لورقة ملاحظاتي ، أضفت إليها الخبر الأخير ، معنى ذلك أن تكلفة الحياة اليومية أصبحت أكثر ارتفاعا ، وسط هذه الأزمات الاقتصادية الخانقة ـ ما زلت أسجل في دفتر ملاحظاتي ـ ترتفع أصوات قوى سياسية داخل بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي .

مع « رادوسلاف بوهينتس » وزير الاقتصاد الاتحادي حاولت في الوهلة الأولى أن أفهم ، وقلت له : ماذا يحدث بالضبط في يوغسلافيا ؟

ابتسم الرجل وقال : هذه بداية جيدة ، فالكل يأتي ويبدأ في طرح آرائه ، قليلون الآن الراغبون في الإنصات ، ما يحدث هو أننا نطبق سياسة إصلاح اقتصادي جديد ، تعتمد على مفهوم الحرية في الأسعار ، وترك تحديد السعر

قوى السوق ، والحرية في الاستيراد ، وحرية سعر الصرف ، وعلى الرغم من أننا بدأنا في هذه السياسات إلا أن استجابة الناس لها ليست بالدرجة الكافية ، ولكن المؤشر الإيجابي أن سوق العملات الأجنبية يسير بشكل مرضٍ ، وما حققته سياسة سعر السوق الجديد من آثار ـ تمثلت في ارتفاع حصيلة الدولة من العملات الأجنبية ـ مؤشر جيد ، يرتبط بهذا ارتفاع معدل التضخم ، ولكن التضخم موجود في كل الاقتصاديات ، وفي كل النظم الاقتصادية ، وفي تقديري أنه مؤشر ارتفع ، ولكنه سيعود للهبوط والاستقرار ، عندما يتوازن سعر التكلفة مع سعر البيع ، وبعد أن تؤتي هذه السياسات الجديدة ثمارها . وما نحتاجه هو مزيد من الوقت ، خاصة أن هذه الاجراءات مقدمة لتعديلات جوهرية في دستور البلاد ، وستتيح هذه التعديلات اطلاق حد ملكية الأفراد في القطاع الزراعي من ١٠ هكتارات للفرد إلى ٣٠ هكتاراً للفرد ، وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية ، وحق فتح الحساب في المصارف بالعملات الاجنبية للأجانب ، وبذلك حق استيراد العملة وإخراجها من البلاد . وباب الاستثمارات مفتوح في كل الميادين والقطاعات بلا حدود ، اللهم إلا في قطاعي التعليم والتأمين فقط .

وفي تقديري أن هذه السياسات ستحقق استقراراً للسوق ، وتفتح الباب للاستثمارات ، تحسن من وضعية الاقتصاد .

قلت لوزير الاقتصاد الاتحادي : ألا تلاحظ الشبه بين ملامح هذه الإجراءات وبين سياسات إعادة التكييف التي يصرحها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ؟ وألا يعد هذا تراجعا عن السياسات الاشتراكية ؟.

بهدوء أجاب الوزير : نعم هناك بعض التوافق بين هذه الاجراءات وسياسات الصندوق والبنك ولكننا نراعي ظروف بلدنا وطبيعتها ، أما عن التجربة الاشتراكية فأعتقد أن الفرق هو : من يصنع القانون في المجتمع ؟ ومن المالك ؟ في مجتمعنا المالك هو العمال ، وهم أولئك الذين يصنعون القانون ، ولذلك لا خوف على التجربة الاشتراكية .

ما زلت أبحث عن تفسير أوضح . نعود مرة ثانية لمسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي اليوغسلافي فيقول : نحن واعون بأننا ندخل مرحلة جديدة ، والنتائج لا يمكن التكهن بها كلها ، ولكن بدون مخاطرة لا يتم التقدم والتطور .

هل تقاوم ؟

ونحن نغادر بلغراد أخذت أتسلى وأقطع الوقت بحساب المسافة والزمن بينها وبين العواصم الأوربية ، وتأكد لي أنها من جراء وقوعها في موقع وسط ، بالغ الحرج والدقة والأهمية ، فقد عانت طوال تاريخها ، ولم يتركها العالم أبدا كي تهدأ ، وتتفرغ للبناء والتنمية والانطلاق ، وكانت المشاكل والتحديات هي قدرها . واستطاعت في مدة سنوات طويلة بإرادة ابنائها وبقيادة تاريخية ، أن تحقق الحلم الذي عذب أجيالا مضت ، استطاعت أن تبني وطنا ، وتصوغ حياة أفضل ولكن الزمن الان ليس رخاء . والرياح تهب وتعصف . والسفينة بلا قبطانها الذي حرر وجمع ووحد . والتحدي حرج وكبير ، وبذلك فعندما عدنا وطوال وقت إعداد الموضوع كنت كقيصر النمسا ، أصحو كل صباح وأسأل هل ما زالت تقاوم ؟ ولكنني لا أملك هدايا أرسلها لكي تتحصن ، بل ما أملكه مع كل العرب ـ اصدقاء يوغسلافيا ـ قدر من الحب والمواقف المشتركة ، والتاريخ المتشابه ، ونتمنى لها أن تظل تقاوم ، وألا يسقط السيف من الفارس الذي يتوسط البلقان . □

أضواء على داء اللشمانيا

بقلم : الدكتور عبد العزيز منصور الخواجة ●

هل سمعت عن داء اللشمانيا ؟ إنه داء عرفه الأقدمون . بما فيهم علماء المسلمين الأولين ، ومن بينهم العالم العربي ابن سينا . فقد وصفه وعالجه القدماء منذ القرن العاشر الميلادي ، ولكن سبب المرض وطريقة انتقاله إلى الإنسان لم تكن معروفة آنذاك . فماذا عن علاجه اليوم ؟

يعد مرض اللشمانيا من ضمن الأمراض الطفيلية الحيوانية المصدر ، يصاب به الإنسان عن طريق لدغ أنثى نوع من البعوض تسمى حشرة الرمل SANDFLY ، وهذه الحشرة صغيرة الحجم ، وليس لها صوت عند طيرانها أثناء المساء ، على ارتفاع منخفض من سطح الأرض ، وتعيش في الحفر الخاصة بالأرض ، [illegible] نشاطها يزداد في فصل الصيف ، وتتغذى على دم الإنسان أو الحيوان ، وعندما تمتص دم إنسان أو حيوان مصاب ، مثل الكلاب أو الثعالب أو حرابيع حيث تعد هذه الحيوانات مستودعا طبيعيا للمرض ، يكون هذا الدم [illegible] بطفيل مرض اللشمانيا ، الذي يتكاثر في معدة الحشرة ثم ينتقل [illegible] . وعند لدغها [illegible] حيوان سليم [illegible] هذه الطفيليات في جسمه مسببة [illegible] ، وتنقل حشرة الرمل طفيليات مرض اللشمانيا إما من شخص إلى آخر أو من حيوان إلى إنسان . وهناك نوع من اللشمانيا يسمى «الكلازار الهندي» قد ينتقل من إنسان إلى إنسان . وحديثا تم اكتشاف حالات لشمانيا كان سببها نقل الدم من أشخاص حاملين للمرض.

ويمكن تقسيم المرض من ناحية أعراضه إلى ثلاثة أنواع متميزة ، اللشمانيا الحشوية ، واللشمانيا الجلدية ، ولشمانيا الأغشية المخاطية ، وسنستعرض الأعراض والسمات لكل نوع من هذه الأمراض على حدة.

اللشمانيا الحشوية

هذا النوع من المرض يعرف باسم «الداء الأسود» أو «الكالازار» . وله انتشار واسع في مختلف مناطق العالم ، فقد وجدت حالات في كل

● أستاذ مساعد [illegible] جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية

● لشمانيا الأغشية المخاطية سبب تشويه في منطقة الأنف

● اللشمانيا الجلدية في القدمين

● سيدة مصابة باللشمانيا الجلدية

الوجه ، وهذه التشوهات غير مرغوب فيها ، خصوصا إذا كان المصاب أنثى . ولتجنب حدوث ذلك يجب أن يبدأ العلاج للإصابة بأسرع وقت ، قبل أن تتقشر التقرحات ، ويلزم التخلص من الإصابة البكتيرية الثانوية سريعا .

أما بالنسبة للاصابة باللشمانيا الحشوية فإنها قد تؤدي إلى موت المصاب إذا ما تركت دون علاج ، وكما ذكر سابقا فإن سبب الوفاة غالبا ما يكون الإصابة العارضة بمرض آخر . وأحيانا تعود الإصابة مرة أخرى بعد الشفاء التام بالمعالجة ، وهذه الانتكاسة تحدث حتى بعد سنتين من فترة العلاج . ولكن معظم حالات اللشمانيا الحشوية تستجيب جيدا للعلاج .

وتجدر الإشارة إلى أن وسائل العلاج المتوافرة حاليا عديدة ، ففي حالة الإصابة باللشمانيا الجلدية ، إذا لم تكن التقرحات شديدة ، فإنه يمكن معالجتها موضعيا بالحرارة ، أو تعريضها للأشعة ، أو الأشعة تحت الحمراء ، أو بالتبريد أو بحقن مركبات الأنيموني الخماسية موضعيا في داخل التقرح .

وقد استخدمت مركبات الأنيموني الخماسية ، مثل ستيبو جليكونات الصوديوم (البنتوستام) ، أو ميجلمين أنتيمونيت (جلوكنتام) لعلاج جميع أنواع اللشمانيا ، وذلك بحقنها في العضل أو الوريد . أما الحالات التي لا تستجيب لهذا النوع من المعالجة فيمكن استخدام عقاقير أخرى مثل بنتامدين أيزثيونيت ، أو أمفوتراسين ب ، أو زرقات الويبورينول .

ولابد من توافر ثلاثة عناصر رئيسية في المناطق التي يستوطن فيها المرض ـ وهي :- مستودعات الطفيل في الحيوان ، وحشرة الرمل الناقلة للمرض ، والإنسان المصاب . ولمكافحة هذا المرض يمكن اللجوء إلى القضاء على مخازن طفيل اللشمانيا (الكلاب أو الثعالب أو الجرابيع) ، أو التخلص من حشرة الرمل ، وذلك برشها بالمبيدات الحشرية . أما بالنسبة للإنسان فيمكن حمايته إما برش المنازل بالمبيدات الحشرية أو تغطية نوافذ الغرف في المنازل بالسلك ، أو باستعمال الناموسية التي لا تسمح بدخول الحشرة من خلالها . ومن المعروف أن الشخص إذا أصيب باللشمانيا فإنها تعطيه مناعة دائمة ضد المرض ، فقد تم حديثا ، استنادا إلى تلك الملاحظة ، التفكير في تطوير نوع من اللقاح لكي يستخدم في تطعيم الأشخاص الذين يعيشون في المناطق الموبوءة . وستشهد السنوات القادمة تقدما ملموسا في طرق الوقاية من داء اللشمانيا في هذا الاتجاه . □

نزار قباني و جان الكسان

القصيدة عملية استشهاد على الورق، وليست للتطريب أو التخدير

قصائدي عن المقاومة الحجارة لم أكتبها أنا.. بل كتبها أطفال فلسطين

القصيدة العربية الحديثة خرجت من بيت الطاعة واكتشفت صوتها الخاص

في حالة الحب لا يلجأ الرجل المثقف الى الحاسوب الكمبيوتر بل الى [illegible]

أريد للمرأة العربية أن تظل عربية. وأن تتوازن مع العصر

اختلفت في القصيدة الحديثة موضوعات النفاق الاجتماعي واستعاد الشعر كبرياءه

تمتد مسيرة الشاعر نزار قباني مع الشعر على مدى أربعة عقود من الزمن ، أنتج خلالها خمسة وثلاثين كتابا ، في الشعر والنثر ، منذ بداية الخمسينيات حتى أواخر الثمانينيات . وهي تجربة حافلة ، تتميز بنوع من الاستثناء في تاريخ الشعر العربي المعاصر ، من حيث الموضوعات التي يثيرها في شعره ، والتصريحات التي يطلقها في أحاديثه ، والزوابع التي أثيرت حول شعره ، بدءاً بإحدى جلسات البرلمان السوري في الخمسينيات التي طالب فيها النواب بطرده من السلك الدبلوماسي بسبب قصيدته « خبز وحشيش وقمر » ، وانتهاء بقصائده الثلاث الأخيرة عن انتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة ، ومرورا بقصائده الصدامية التي أشعلت النيران حوله خلال آراء بعض النقاد الذين استثارهم شعره للنقاش سلبا أو إيجابا .

وإذا كان « أرشيف » الشاعر يشتمل على مئات المقابلات والحوارات التي عقدت معه على مدى أربعين عاما ، فإنه يبقى في جعبته الحافلة ما يقوله حول موضوعات ثقافية ، وأدبية وحياتية أساسية في واقعنا الراهن ، أو تطلعنا المستقبلي ، كما في هذا الحوار .

وقد أجرى الحوار معه الكاتب جان ألكسان :

* في الأحاديث التي أدليت بها ، والحوارات التي عقدت معك على مدى أربعين عاما كان لك في الشعر أكثر من تعريف . نذكر منها على سبيل المثال :

ـ الشعر عملية صدامية .

ـ الشعر عملية استشهاد على الورق .

ـ الشعر هو الناس ، وهو الشارع .

ـ الشعر حزب معارضة وليس حزب موالاة .

ما التعريف الذي تطرحه الآن للشعر ، بعد هذه المسيرة الطويلة مع القصيدة ؟

ـ أطرح جميع هذه التعريفات ، مفصلة ومجتمعة ، وأرفض التعريفات المعاكسة التي يقول أصحابها إن القصيدة مجرد عملية تطريب أو تخدير ، يسمعها الإنسان العربي في أمسية ، ثم يعود إلى حالته الأولى ، فالشعر في حقيقته ـ كما أقول دائما ـ عملية صدامية ، بل وعملية استشهاد على الورق ، ووظيفة الشعر أن يحرض الانسان على نفسه ، ولا شعر حقيقي دون تحريض .

الشاعر يجب أن يكون دائما في قلب المعركة ، في قلب التاريخ . ومن هنا فإن الشعب العربي لم يعد يخدع بالشاعر الهامشي الذي يستسلم للطمأنينة ، ويطلب « بوليصة » تأمين على شعره ، إن الشعب العربي لايقبل الدجل ، ولا يقبل الغش ، ولا يقبل شاعرا يدلس عليه . فهو يكشف زيفه بإحساسه العفوي الأصيل

الحقيقة كلها أو لاشيء

*** هل كنت دائما صادقا مع قرائك وجمهورك ، أي ألم تضطرك ظروف معينة لأن تقول نصف الحقيقة ؟**

ـ أنا لا أُدَجل على قرائي وجمهوري ، كنت صادقا معهم على مدى أربعين عاما دون انقطاع ، كنت أعايشهم في همومهم الصغيرة وقضاياهم الكبيرة ، ولو لم أكن كذلك لما استطعت أن أقف على قدمي أربعين سنة وأنا أتنقل من منبر إلى منبر ، وتزداد جماهيريتي يوما بعد آخر .

وفي جميع مراحل هذه المسيرة كنت جزءا من التاريخ العربي ، بعواطفه ، بحنسه ، بقوميته ، بوحدته .

« شاعر وحدوي ، وشاعر قضية »

*** هل تعد نفسك إذن شاعر قضية ؟**

ـ أجل ، أنا شاعر قضية ، وأنا شاعر وحدوي وقومي ، وضد جميع أشكال التحزبية والفئوية والمذهبية .

*** هل يعني هذا أنك ترفض الألقاب التي أطلقت عليك : شاعر الدانتيل ، شاعر المرأة**

ـ لا أكترث بما يطلقون عليّ وعلى شعري من نعوت ، فأنا لم أقل في شعري سوى الحقيقة ، إنني لا أحترف الإثارة ، لكنني رسمت حبي بالكلمات على أشجار الحدائق العامة ، وأعطيت الناس الحق في أن يشموا أريج هذا الحب .

« المرأة الوديعة ليست مهزومة »

*** ألا نفاجيء القاريء أيها الشاعر عندما نقول له : إن المرأة في شعر نزار قباني ليست قضية ؟ وما رأيك في التهمة المطروحة حول هذه الفكرة ، وهي أن المرأة في شعرك كانت مجرد هوية للعبور إلى الجماهير والاستيلاء على انبهار الناس ؟**

ـ قد تكون المرأة وردة في ثوب سترتي ، لكنها تتحول أيضا إلى سيف يذبحني ، المرأة عندي أرض خصبة ، ووسيلة من وسائل التطوير والتحرير ، وأنا أربط قضيتها بقضية التحرير الاجتماعي للرجل وللمرأة على السواء ، لقد قلت لك . إنني شاعر قضية ، والمرأة جزء من القضية ، ثم إن أنوثة المرأة ليست مرادفا للضعف ، هناك معادلة يجب الا تتجاوزها المرأة ، الضعف الإنساني ، والضعف الجسدي ، وليس الضعف النفسي ، فوداعة المرأة شيء يختلف عن كونها امرأة مهزومة أو مسحوقة ، وأنا أريد من المرأة العربية أن تظل عربية ، عربية في خفرها وحيائها ، وأن تظل محتفظة بكل ملامح أصالة المرأة الشرقية ، لكنني أريد لها أيضا أن تكسر وتدمر عالم الحواري ، أريدها أن تتوازن مع العصر

وقد قلت في جميع أحاديثي دائما ، وأكرر ذلك اليوم : إنني حولت المرأة في شعري من ذبيحة ، من منسف يؤكل بالأصابع ، إلى زهرة فواحة في حديقة المجتمع .

*** وماذا عن المرأة التي ليست منسفا وليست زهرة ، المرأة العاملة مثلا ؟**

ـ ومن قال : إن المرأة العاملة ليست زهرة فواحة ، إنني على الرغم من كل القهر الذي فرض على المرأة ، متفائل بحاضر المرأة العربية ومستقبلها ، ولا يمكن تحرير مجتمع والمرأة فيه جارية .

« الحب في عصر الخراب »

*** والحب ؟**

ـ الحب في عصر الخراب العربي هذا لم يعد

ممكنا ، لقد سقطت الجماليات تحت إطار هده البشاعات ، لقد قلت في إحدى قصائدي :

إذا كانَ عصري ليس جميلا
فكيف تريدينني أن أجمّل عصري ؟
وإن كنت أجلس فوق الخراب ،
وأكتب فوق الخراب ،
وأعشق فوق الخراب ،
فكيف سأهديك باقة زهرٍ ؟
وكيف أحبك
حين تكون الكتابة رقصاً
على طبق من نحاس وجمر ؟
وإن كانت الأرض مسرح قهر
فكيف تريدينني أن أصالح قهري ؟
يريد المماليك أن يملكوني ،
وأن يشربوا من دمائي وحبري ،
يريدون رأس القصيدة كي يستريحوا
وللشعر والحب فوضت أمري .
أحبك برقا يضيء حياتي
وقنديل زيت بداخل صدري
فكوني صديقة حريتي
وكوني ورائي بكل حروبي
*وسيري معي تحت أقواس نصري

. . . . .

إذا كان شعري لا يتصدى
لمن يسلخون جلود الشعوب
فلا كان شعري

*** أنت قلت لي مرة في أحد أحاديثنا : إن الحب تحول إلى حب سياسي .**

- هدا صحيح ، وأنا لا أستطيع أن أحب امرأة لا مبالية تجاه هموم الوطن وقضايا الأمة ، لا تهتم بقراءة الجريدة ولا تتابع أنباء ثورة الحجارة ، وبالمناسبة فإن وراء أطفال الحجارة نساء صامدات ، أخوات ، وبنات ، وزوجات وأمهات ، وحبيبات

« ثورة الحجارة تعيد كتابة تاريخنا »

*** مادمنا في حديث ثورة وانتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة ، مادا تقول في هذه الانتفاضة ؟**

- قلت مقولتي في ثلاثية أطفال الحجارة التي صدرت مطبوعة في المدة الأخيرة ، وهي تضم ثلاث قصائد : أطفال الحجارة ، الغاضبون ، دكتوراة شرف في كيمياء الحجارة ، وقلت أيضا : إن هذه القصائد الثلاث كتبها أطفال الحجارة بأصابعهم الصغيرة النحيلة الدامية ، ولم أكتبها أنا ، هم الذين كتبوا ، وهم الدين ألموا ، وهم الذين نزفوا ، وهم الذين أمروني فأطعت ، وحرضوني فصرخت ، ولابد لنا من الاعتراف أن أسيادنا وأسياد الأدب العربي في هذه المرحلة هم أطفال الحجارة ، فهم الذين بعثروا أوراقنا ، ودلقوا الحبر على ثيابنا ، وطردونا من وراء مكاتبنا المكيفة الهواء .

إنجازات الشعر الحديث

*** ننتقل إلى الشعر الحديث ، ما أهم الإنجازات التي حققها هذا الشعر في رأيك ؟**

- حقق عدة إنجازات أهمها :

١ - هندسة القصيدة العربية ، إذ حولها من قصيدة مسطحة تعتمد على التوازي والتناظر في تركيبها إلى قصيدة ذات أبعاد ثلاثة .
٢ - اعتمد طريقة التأليف « السيمفونية » في كتابة القصيدة ، أي طريقة النغم المركب لا النغم البسيط الذي يعيد نفسه كدقات الساعة من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها
٣ - أنهى استقلال البيت عن بقية أجزاء القصيدة وانفصاله التام عنها ، وبهذا استعادت القصيدة العربية وحدتها العضوية بعد أن كان كل بيت فيها قائما بذاته
٤ - خفف الشعراء كثيرا من غلواء القافية وقسوتها ، فلم تعد ذلك الجدار الذي يقطع أنفاس الشاعر ويدمي جبينه .
٥ - لم تعد القافية لافتة مرور حمراء تصرخ في وجه الشاعر : « قف » وهو في ذروة اندفاعه وانسيابه ، لكنها أصبحت واحة في الطريق يمكن للشاعر أن يقصدها أو لا يقصدها حسب مزاجه ومخطط رحلته
٦ - احتفت في الشعر مواضيع النفاق الاجتماعي كالمديح ، والهجاء ، والتكسب والوصولية عن طريق الكلمة ، وهكذا استردت القصيدة العربية كبرياءها .
٧ - تغيرت نظرة الشاعر العربي إلى الأشياء ، فلم يعد يحوم حول قشرتها الخارجية . وإنما صار يتسرب إلى ضميرها ويطعمها ببذور ثقافته ووعيه وتجربته الإنسانية .

الحاسوب « الكومبيوتر » لا يكتب قصيدة

*** ما رأيك في عصر الحاسوب « الكومبيوتر » الذي نعيشه ؟**

- « الكومبيوتر » لا يحل قضايا ، فهو أعجز من أن يكتب قصيدة أو رسالة غرام ، وإنسان العصر مهما سافر في غابات العقلانية فإنه عائد حتما إلى حالة الطفولية ، إلى الرومانسية ، إلى الشعر ، وهذا مطلب في عصر حضارة تغتال نفسها بنفسها وتلتهم منجزاتها .

*** هل هي إذن دعوة للرجوع إلى عصر الرومانسية ؟**

- (الرومانسية والروحانية) تعنيان أنه يجب أن تظل منطقة ما خارج حدود الاكتشاف لا تصل إليها يد العقل والمنطق ، نحن حين نحب يصغر عقلنا ونتصرف كالأطفال ، في حالة الحب لايلجأ الرجل المثقف إلى « الكومبيوتر » ، بل إلى قارئة الفنجان .

« القصيدة خرجت من بيت الطاعة »

*** نعود الى القصيدة العربية ، هل نستطيع أن نقول : إن الأرض التي مشت عليها هذه القصيدة خمسة عشر قرنا ، قد ضربها زلزال مفاجىء فغير تركيبها العضوي والبيولوجي تماما ؟ .**

- القصيدة العربية انفصلت عن شجرة العائلة وهربت من « بيت الطاعة » ووصاية الأسلاف ، اكتشفت صوتها الخاص ، بعد أن كانت مجموعة من العادات اللغوية والبلاغية أخذت مع مرور الزمن شكل المسلمات التي لا تقبل الجدل أو النقاش ، باستثناء الأصوات المتفردة ، فإن غالبية القصائد العربية كانت في حقيقتها قصيدة واحدة ، تنقل من نموذج محفوظ في الذاكرة وسابق للتجربة ، وبموت العصر

● الحب لم يعد ممكنا في عصر الخراب العربي والبشاعات التي اغتالت الجماليات

العباسي دخل الشعر في العدمية المطلقة وصارت القصائد موتا مكتوبا .

ولقد استمرت القصيدة - الموت - متمددة على حياتنا خمسة قرون لايجرؤ أحد على دفنها ، وحين خرج الإنسان في مطلع العشرينيات من غرفة التخدير وبدأ يستعيد وعيه الوجودي والسياسي ، ويسترد تفكيره المحجور عليه ، أدرك أن وضعه الجديد يحتاج إلى كلام جديد ، وأن الخروج من عصر الانحطاط لايكون إلا بالخروج من ثياب عصور الانحطاط ، وعقلية عصور الانحطاط ، وقبل كل شيء من لغة عصور الانحطاط ومفرداتها .

« قارة لم تكتشف »

* عودة ثانية إلى المرأة ، هل تستطيع أن تقول : إن رحلتك في عالم المرأة قد جعلتك تكتشفها ؟

- الادعاء بأنني اكتشفت المرأة ادعاء فارغ ، قلت هذا منذ حوالي ثلاث عشرة سنة لإحدى المجلات المصرية ، وأقوله اليوم ، أنا لا أريد أن أرتكب هذه الحماقة ، أعتقد أن وهم المرأة أجمل منها ، وأن الاقتراب منها كثيرا مؤذ للحلم ، الإضاءة المبالغ فيها تقتل الحلم ولهذا يجب أن تبقى المرأة في منطقة وسط ، بين الإضاءة والتعتيم .

« أرفض جميع النقاد »

* سؤال أخير مختصر : لماذا تخاصم النقاد ؟

- باختصار أجيب : ان النقاد العرب لم يضيئوا زاوية من الشعر العربي ، فقد كان الشعر العربي كعمل إبداعي سابقا لكل عمل نقدي ، أما بالنسبة لي فعبر مسيرتي الطويلة هذه على مدى أربعين عاما لم أستفد من كلمة نقد واحدة ، يترك الناقد شعري ويتناول سيرتي الشخصية وشؤوني الصغيرة الخاصة ، وأنا أفضل أن أقدم نفسي للقاريء كما أنا ، وليس بالصورة التي يكونها الناقد على مزاجه . □

مروءة سقاء

● يقول القطب الصوفي الكبير ذو النون المصري : من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاء بغداد . فقيل له : وكيف ؟

فقال : لما حملت إلى بغداد ، رمي بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل أنيق الهندام ، بيده كوزان ، فسألت : أهذا سقاء السلطان ؟

فقيل لي : لا ، هذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أن اسقني ، فتقدم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة المسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه دينارا ، فدفعه إليه ، ولكنه رفض قائلا : لن آخذ منك شيئا . فقلت له : لم ؟ فقال : أنت أسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئا وأنت في موقفك هذا .

قضايا جماليات دستوفسكي لميخائيل باختين

بقلم : غالب هلسا

اكتشاف الناقد باختين في السبعينيات جاء كالصدمة في الاتحاد السوفيتي والغرب . كيف خفي عليهم واحد من أكبر نقاد وعلماء الجمال وفلاسفة ولغويي هذا القرن ، إن لم يكن أكبرهم ؟ لقد استمر يكتب أكثر من خمسين سنة دون أن ينتبه أحد لوجوده ، ثم يصبح فجأة وبسرعة خاطفة مالىء الدنيا وشاغل الناس ، فيقال عنه : « إن كتابه عن تفسير جماليات دستوفسكي يمكن مقارنته بفن الشعر لارسطو ، ولكنه يختلف عن ارسطو الذي يتحدث عن عمل (مغلق) ، في أنه يقدم مفهومات جمالية لنص (مفتوح) » . فما هو تفسير هذا الغياب والظهور المفاجيء ؟

ولد باختين في عام ١٨٩٥ ، وتوفي عام ١٩٧٥ ، بدأ يكتب عن دستوفسكي في عام ١٩٢١ ، وفي عام ١٩٢٢ كتبت صحيفة تصدر في بطرسبورج خبرا بأن باختين ينوي نشر كتابه ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر إلا في عام ١٩٢٩ ، وقد أثار الكتاب عند صدوره ضجة إذ كتب عنه أناتولي لوناتشارسكي الذي كان وزيرا للتعليم آنذاك ، مقالا طويلا يمتدح فيه الكاتب .

في هذه السنة ١٩٢٩ ، تم اعتقال باختين لسبب غير مفهوم ، ووضع دستوفسكي في قائمة المحرمات . وبسبب صحته المعتلة (إذ كان يعاني مرضا في العظام أدى إلى بتر ساقه) اكتفى بنفيه إلى كازاخستان .

لثلاثين عاما عاش « باختين » ، وكتب في ظل النسيان ، وفي خمسينيات هذا القرن ، اكتشف عدد من دارسي الأدب الشبان في موسكو كتاب باختين عن دستوفسكي ،

ولدهشتهم الشديدة اكتشفوا أن المؤلف ما زال حيا ، ويرأس قسم الأدب الروسي والعالمي في جامعة سارانسك . أخذ هؤلاء الشبان يلحون على باختين ليصدر طبعة ثانية من كتابه ، تلكأ طويلا ، ولكن الشبان لاحقوه فصدرت الطبعة الثانية من الكتاب في عام ١٩٦٣ ، ثم توالى صدور كتبه الكثيرة التي لم يحاول نشرها من قبل « نشر له بعض الكتب قبل ذلك بأسماء مستعارة » .

الشكل « البوليفوني »:

« البوليفونية » مصطلح موسيقي يعني تعدد الأصوات في إطار وحدة عضوية ، وقد وصف بها « باختين » الشكل الروائي الذي ابتدعه دستوفسكي وتمايز به عن غيره . يقول باختين : نعتبر دستوفسكي واحدا من أعظم المجددين في مجال الشكل الفني ، لقد ابتدع في رأينا نمطا جديدا كلية ، أسميناه النمط « البوليفوني » هذا النمط من الفكر الفني تجسد في روايات دستوفسكي .

حتى يتضح ما يعنيه باختين « بالبوليفونية » علينا أن نشرح هنا الشكل الروائي الآخر الذي يسميه باختين برواية الصوت الواحد ، التي يمثلها تولستوي وكل الروائيين في العالم ، باستثناء دستوفسكي .

رواية الصوت الواحد مصاغة بمفهوم الوحدة العضوية الأرسطي ، منقول من المسرح إليها ، يمكننا تفسير ذلك بايجاز ، إن الرواية تشبه الجسد الحي ، حيث كل عضو من أعضاء الجسد له وظيفة محددة ، وتتحدد هذه الوظيفة من علاقته بالجسد الحي ككل . ولهذا لا يمكن لأي عضو من الأعضاء أن يستقل بوظيفته عن الجسد ، ولا أن يكتسب معناه إلا بهذه العلاقة .

ففي رواية الصوت الواحد تتخذ الشخصيات والأحداث والمواقف كامل دلالتها من خلال اندراجها في سياق الرواية ككل ، إذا فصلنا أي عنصر من هذه العناصر عن جسد الرواية فقد معناه ، وأصبح كعضو ميت انفصل عن الجسد ، وألقي بعيدا ليذوي ويموت .

وإذا افترضنا أن العضوية تكتسب خصائصها من وجود الحياة في الجسد ، فإننا نستطيع القول إن الحياة هي صوت الجسد ، الحاكم المطلق الذي يخلق العضوية ، ويحدد مسارها ، وتفاعل أجزائها . الحياة هنا هي صوت المؤلف الذي يسيطر على شخوص روايته ، ولا يتيح لهم التحرر من (مونولوج) المؤلف نفسه ، وفي هذا النمط من الرويات ، قلما يتاح للشخصيات أن تتحرر ، وتصبح حيوات كاملة ، تروى حكاياتها ، إذ هي في الغالب أدوات يستعملها المؤلف لتحقيق مطالب معدة مسبقا .

وإذا مضينا أبعد من ذلك في المقارنة بين الجسد الحي ورواية الصوت الواحد قلنا إن هذا النمط من الرواية سوف يصاب بداء خطير إذا استقل عضو من أعضائه ومارس حياته الخاصة . فللشخصية في داخل الرواية وظيفة محددة ، إذا تم تجاوزها ، أو تغييرها ، أصبح البناء الروائي مهددا بالسقوط ، وهذا يعني أن خضوع الشخوص الروائية لديكتاتورية المؤلف ضرورة حياتية ، تضمن عافية الرواية ، وتحافظ على منطقها الداخلي .

على هذه الخلفية نستطيع أن نحدد الجديد في الرواية « البوليفونية » كما كتبها دستوفسكي .

يحدد باختين الخطوط العامة لرواية دستوفسكي فيقول : إن قراءة هذا الكم الكبير من أدب دستوفسكي تخلّف انطباعا يختلف عن قراءة أي أديب آخر . نتبين أننا لسنا أمام مؤلف واحد يكتب الروايات والقصص ، بل في مواجهة العديد من الأفكار الفلسفية التي أطلقها مفكرون متعددون ، من أمثال يشكن في (الأبله) ، وستافروجن في (الشياطين) ، و راسكيلنكوف في (الجريمة والعقاب) وإيفان كارامازوف والمفتش الأكبر في (الأخوة

كارامازوف) وغيرهم . لهذا السبب تم تجزيّء دستوفسكي إلى سلسلة من المواقف الفلسفية المتمايزة والمتناقضة ، يدافع عن كل منها إحدى شخصياته .

أين يقف المؤلف من هذا الخليط ؟

يقول باختين : « من بين هؤلاء نجد وجهات نظر المؤلف الفلسفية ، ولكنها لا تحتل بأية حال المكان الأول . . إن الشخصية الروائية في أعماله تقدم نفسها كشخصية مستقلة وذات سلطة ، ولهذا تبدو الشخصية الروائية وكأنها ليست أداة لخطاب المؤلف ، بل شخصية قائمة بذاتها حاملة لخطابها الخاص بها » .

ويضيف باختين أن الوزن الكبير لشخصيات دستوفسكي الروائية قد حطم المستوى المونولوجي للرواية ويقول :

« إن دستوفسكي مثل بروميثيوس جوته ، لا يخلق عبيدا لا صوت لهم ، بل بشرا أحرارا قادرين على الوقوف جنبا إلى جنب ، وعلى الاختلاف معه ، وقادرين حتى على الثورة عليه »

وعي المؤلف ووعي الشخصية :

لكن ما تقدم قد يجعل البعض يعتقد أن وعي المؤلف لهذا النمط من الرواية سوف يكون سلبيا . إنه يبدو كحاكم لا سلطة له ، ولا معرفة بتوجيه أمور رعيته ، إذ كل انسان يقول ويفعل ما يعن له ، فهل هذا صحيح ؟

يقول باختين : « من المناسب هنا أن نؤكد مرة أخرى الصفة الايجابية والفاعلة للموقع الجديد لمؤلف الرواية « البوليفونية » . إنه لأمر مضحك الظن بأن وعي المؤلف لا يجد تعبيرا عنه في روايات دستوفسكي ، إن وعي المبدع في الرواية « البوليفونية » موجود دوما وفي كل موضع في الرواية ، وهو وعي فاعل إلى الحد الأقصى . ولكن وظيفة هذا الوعي وأشكال فعله تختلف في هذا النمط من الرواية ، عنه في الرواية ذات الصوت الواحد : فوعي المؤلف لا يحيل وعي شخوصه إلى أدوات ، ولا يضفي عليها تحديدات مستهلكة وحاسمة ، إن وعي المؤلف يدرك ويقبل وعي الآخرين بأنه وعي لا حدود له ، وعي منفتح ، كوعي المؤلف نفسه إنه لا يعيد خلق عالم من الأدوات والوسائل ، بل وعي الآخرين وعوالمهم ، يعيد خلقهم بانفتاحهم الحقيقي الذي لا يصل أبدا إلى حالة التحدد والانغلاق . (وهذا في نهاية الأمر هو جوهرهم الحقيقي) »

الحوار العظيم :

بعد تحديد الملمح الأساسي للرواية « البوليفونية » ، وهو استقلال الشخصيات عن ايديولوجية المؤلف ، ما هي السمة الأساسية « لمونولوج » هذه الشخصيات الذي تعبر به عن نفسها ، سواء اتخذ هذا « المونولوج » صفة الحديث إلى النفس أو الحديث إلى الآخرين ؟

يجيب باختين أنه الحوار الذي لا ينقطع مع الأخر ، مع مخاطب حاضر أو مفترض ، وانطلاقا من مفهومه للحوار يقيم نظريته في اللغة ، وفي الانسان .

ما الذي يعنيه باختين بالحوار (Dialogue) ؟

الحوار يتخلل اللغة عندما تصبح قولا ، كلاما منطوقا ، وبهذا يصبح القول هو الطاقة التي تربط بين وعي الانسان الداخلي والعالم الخارجي عندما نتحدث أو نكتب ، فذلك لا يشير إلى أفكارنا فقط ، بل يدلنا على كيفية تفاعلنا ، واسلوب تفاعلنا هو الحوار مع الذات ومع الأخر ، إن اختفى الأخر ، انتهى الحوار وانتهت الذات .

يقول باختين : « في الحوار يصبح إلجام الخصم ، وإسكاته قضاء على منطقة الحوار التي يحيا الخطاب فيها » .

يقوم الحوار على سوء فهم متبادل اكثر مما يقوم

على التطابق المتبادل في الفهم ، إن تعدد اللغات ، كما يقول يحرر الانسان ، لأن هذا التعدد يقيم فجوة بين الشيء وبين الكلمة التي تدل على ذلك الشيء ، ولهذا السبب كانت الرواية أكثر حرية من الملحمة ، لأن أبطال الرواية لا يرتفعون إلى مستوى الموقف الذي يتم وضعهم فيه . هذا الاخلال في التوازن بين اللغة ومدلولاتها ، بين الأبطال الروائيين والمواقف الروائية ليس مدعاة لليأس ، بل دافعا للحياة ، إن تفاعل نظامين في الفهم مختلفين ومتمايزين هو الوسيلة الوحيدة لخلق حدث روائي .

بهذا يقيم باختين « كونا ثنائيا مبنيا على الحوار الدائم » كما تقول مترجمة كتابه الأمريكية كارلي امرسن . ويتحدث باختين طويلا عن علاقات الحوار ، وسوف نحاول هنا أن نوجز قوله إلى الحد الأقصى

حوار المساكين

دعونا نتابع الآن كيف نقل باختين مفهومه عن الحوار إلى دستوفسكي .

كانت رواية « المساكين » هي أول رواية كتبها دستوفسكي ، وقد كتبت على شكل رسائل ، والسمة المميزة للرسالة هي الشعور الحاد لدى كاتبها بوجود طرف آخر يحاوره ، وهو ـ هنا ـ الشخصية التي كتبت لها الرسالة

والرسالة ، كأحد أساليب الخطاب ، محملة باحساس قوى يأخذ في الاعتبار ردود فعل المخاطب ، وكذلك استجاباته المتوقعة .

هذه العلاقة بالطرف الآخر للحوار ـ وهو هنا طرف غائب ـ تتسم بالحدة ، وهذه الحدة عند دستوفسكي تبلغ حدها الأقصى .

ومنذ روايته الأولى هذه أنشأ دستوفسكي اسلوبا في الكتابة ، جعل عمله الابداعي بكامله ، يتسم اساسا بالتوقع الملهوف والحاد لرد الطرف الآخر ، إن دلالة وابعاد هذا الأسلوب في أعماله اللاحقة كانا كبيرين : فأهم اعترافات أبطاله مفعمة ومتخللة بحساسية قصوى نحو ما سيقوله الآخرون عنهم ، ولردود فعل الآخرين نحو حديث هذه الشخصيات إلى نفسها وعن نفسها .

لا يقتصر هذا التوقع على تلوين وأسلوب الكلام ، بل يمتد إلى بنية اللغة نفسها ، نتبين ذلك عندهم كلهم ابتداء من تحفظات وخداع النفس المشحونين بالتوتر عند عوليادكن (بطل المساكين) ، وانتهاء بالجموح الأخلاقي « والميتافيزيقي » لدى ايفان في رواية (الاخوة كارامازوف) . وفي رواية (المساكين) يبدأ دستوفسكي في تجريب اسلوب الانسان المسحوق في الحديث عن نفسه ، وهو محمل بخشية وخوف وخجل من استجابات الآخرين . إنه يتقدم بخطابه وهو يلقي « نظرة جانبية » وجلة ومعتذرة ، نحو الآخر ولكن هذا الحديث يحمل ، في الوقت نفسه ، تحديا كامنا .

مثال ذلك : أسكن في المطبخ ، أو على الأصح وحتى أكون أكثر دقة ، هنالك حجرة قرب المطبخ (ومطبخنا ـ علي أن أقول لك نظيف ـ ومضيء ولطيف جدا) حجرة صغيرة ، ركن متواضع ، أو على الأصح أن المطبخ حجرة كبيرة ، لها ثلاث نوافذ ، وهنالك حاجز يتخلل الجدار الداخلي ، مما يجعلها تبدو كأنها حجرة أخرى ، مسكن إضافي ، إنها واسعة ومريحة ، وهنالك نافذة وكل شيء ، في الواقع كل ما أحتاجه . حسنا ، هذا هو ركني الصغير لهذا لا تتصوري يا حبيبتي أن هنالك شيئا آخر يتعلق به ، أي دلالة غامضة تتصل به : « إنه يعيش في المطبخ ! » حسنا إذا أعجبك ، فإنني فعلا أعيش في المطبخ ، خلف الحاجز ، ولكن ذلك لا أهمية له . أعيش مستقلا تماما ، بعيدا عن أي شخص آخر ، بهدوء وراحة . وفي الحجرة سرير ومائدة وكرسيان وخزانة ، وقد علقت

أيقونة كذلك . هنالك مساكن أحسن ، ذلك مؤكد . وقد تكون هذه المساكن أحسن كثيرا ، ولكن الشيء المهم هو الراحة ، لقد رتبت كل شيء بنفسي للحصول على أكبر قدر من الراحة ، كما تعلمين ، وعليك ألا تتصوري شيئا خلاف ذلك » .

يعلق باختين على هذا النص المأخوذ من رواية « المساكين » بقوله . « يكاد ديفوشكن يلقي بعد كل كلمة نظرة جانبية على الطرف الاخر الغائب من الحوار : يخشى أن تظن أنه يشكو ، لهذا فهو يسعى منذ البدء أن يحطم ذلك الانطباع الذي تثيره أخبار السكن في مطبخ ، فهو لا يريد أن يتعسها وما شابه

إن تكراره لكلمات بذاتها كانت نتيجة لمحاولته تأكيدها ، ومنحها معاني إضافية في ضوء استجابات الطرف الآخر من الحوار المتوقع »

بالإضافة إلى هذا فإن ديفوشكن يتوقع عبر خطابه استجابات شخص اخر ، شخص غريب عنه ، يصف هذا الغريب في إحدى رسائله الموجهة إلى حبيبته :

« أتوقع أنك لم تعرفي بعد كيف يكون الغرباء ، الأفضل أن تسأليني وسوف أحكي لك كيف يكون الغرباء ، أعرفهم يا حبيبتي ، اعرفهم بشكل جيد جدا ، إذ كان عليّ أن آكل خبزهم . إنهم حقودون يا فارنكا ، حقودون ، حقودون إلى حد مدمر ، سيعذبون قلبك باللوم ، واختلاق الأخطاء ، والنظرات الشريرة »

إنه يشعر دوما بالنظرات الشريرة التي يوجهها الشخص الآخر إليه ، وهي نظرات إما أن تكون لائمة ـ أو أن تكون ما هو أسوأ من ذلك في نظره ـ أو أن تكون ساخرة ، لأن الأشخاص الذين يتسمون بالكبرياء ، يشعرون أن أسوأ نظرة يمكن توجيهها إليهم هي نظرة الاشفاق .

تحت سطوة نظرة الآخر . لهذا فإن ديفوشكن دائم التلصص ، والتنصت على ما يقوله الآخرون عنه ، إنهم يقولون خلف ظهره . « المسكين موسوس له نظرة مختلفة لدنيا الله ، اذ ينظر بتساؤل ويلقي نظرات قلقة حوله مراقبا كل كلمة تقال ، ويتساءل هل يتحدثون عنه »

وعي الشخصية متأثر بوعي الآخر لها :

إن تكيف الشخصية الروائية لخطاب ووعي الشخص الآخر ، هي في جوهرها السمة الأساسية لكل أعمال دستوفسكي ، إن موقف الشخصية الروائية من نفسها يرتبط بشكل كامل بموقفه من الآخر ، وبموقف الاخر منه . إن وعيه لنفسه يمر عبر خلفية وعي الاخر به ـ أي « أنا من أجل نفسي » موضوعة على خلفية « أنا من أجل الآخر » ولهذا فإن كلمات الشخصية عن نفسها تصاغ تحت التأثير الدائم لكلمات الشخص الاخر عنه

إن هذه السمة قد تم تطويرها في أعماله المختلفة عبر أشكال متنوعة ممثلة بمضامين متعددة ، وعلى مستويات روحية مختلفة . في رواية (المساكين) يتفتح الوعي الذاتي للرجل المسكين على أرضية وعي موجه له ، ومضاد احتجاجيا له . إن تأكيده لنفسه يظهر لنا كصراع خفي أو حوار مختف مع شخص اخر ، حول شخص صاحب الخطاب

في أعمال دستوفسكي المبكرة ، تجد هذه السمة تعبيرا بسيطا ومباشرا فالحوار لم يستقر في داخل الشخصية ، ولم ينفذ إلى ذرات فكره وتجربته ، إن عالم شخصياته في هذه الأعمال ما زال صغيرا ، ولم يتحول أبطاله بعد إلى ايديولوجيين إن تدني مستواهم الاجتماعي ، وبؤسهم جعل نظرتهم الجانبية الداخلية وصراعهم الداخلي مباشرا ومحددا . لم تمتلك بعد هذه الشخصيات ذلك الغليان الداخلي

الذي يتطور في أعمال دستوفسكي الأخيرة إلى أبنية ايديولوجية متكاملة . إلا أن الطابع العميق للعلاقات الحوارية لوعي الذات وتأكيدها موجود هنا بأقصى درجة من الوضوح .

يورد باختين نصا آخر من رواية (المساكين) يقول ديفوشكن في إحدى رسائله : « منذ يوم أو يومين قال يمستا ايفانوفتش في حديث خاص ، إن أهم فضيلة يتمتع بها المواطن هي الحصول على النقود ، وقال مازحا (أنا أعلم أنه كان يمزح) إن الخلق الفاضل يعني أن لا يكون الانسان عبئا على الآخرين حسنا أنا لست عبئا على أحد ، لقمة خبزي ملكي أنا . صحيح أنها حاف وقد تكون حافة أيضا ، ولكنني حصلت عليها بمجهودي وقد كرستها لاستعمال شرعي ليس فيه ما ألام عليه لماذا ، وما الذي أستطيع فعله ؟ أنا أعرف أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ ، رغم ذلك أنا فخور أن أعمل وأحصل على خبزي من عرق جبيني وماذا في ذلك في أن أكون ناسخا بعد كل شيء ؟ أي ضرر في كوني ناسخا بعد ؟ يقولون « إنه ناسخ » ولكن ما المهين في ذلك ؟ أرى الآن أنني ضروري ، أنني لا غنى عني . وأنه ليس هنالك من داع لأن أقلق نفسي بهذا الهراء حسنا ، فلأكن فأرا ، إن كان ذلك يعجبكم ما دمتم ترون تشابها بيني وبين الفأر ، ولكن هذا الفأر ضروري ، هذا الفأر مفيد ، ولكنكم تعتمدون على هذا الفأر ، ولكنكم تمنحون مرتبا لهذا الفأر . إذاً فهذا هو الفأر الذي تتحدثون عنه !

يكفينا حديثنا عن هذا الموضوع ، رغم أنه يخصني ، لم أقصد أن اتحدث عن ذلك مطلقا ، ولكنني انفعلت بعض الشيء ، بالاضافة إلى هذا فإنه أمر ممتع أن يقوم الانسان بين آن وآخر بإنصاف نفسه » .

وفي حوار أكثر حدة يتكشف وعي ديفوشكن نفسه ، عندما يتعرف على نفسه في رواية غوغول « المعطف » إنه يقرأ الحكاية ويتصور أنه هو شخصيا المقصود بها ، فيسعى لدحضها من خلال نقاشه لها . باعتبارها هجوما عليه

ولكن دعونا نتوقف قليلا . ونعاين عن قرب البنية التي تتشكل عبر « الكلام المترافق مع نظرة جانبية » .

إن غالبية عبارات النص المقتبس تم اختيارها حتى تعكس وجهتي نظر . رؤية المتحدث التي يريد للآخرين أن يقتنعوا بها ، ورؤية الآخر .

إن تضمين عبارات الآخر في حديث ديفوشكن يبدو أكثر وضوحا في النص المقتبس الثاني . إن عبارات الآخر المضخمة موضوعة داخل قوسين : « إنه ناسخ » في السطور التي سبقت هذه العبارة تتكرر كلمة (ينسخ) ثلاث مرات . وفي كل مرة من هذه المرات الثلاث ، نتبين جرس كلمة الآخر (ينسخ) مقالة ضمنا ، ولكن جرس ديفوشكن يقمعها ، ان جرس الآخر هنا يتصاعد بالتدريج :

« أنا اعلم أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ وماذا في ذلك . . . في أن أكون ناسخا ؟ أي ضرر في كوني ناسخا؟ (إنه ناسخ) . »

الصوتان حاضران في هذا النص ، لا يغيب أحدهما للحظة واحدة .□

● دعك من الكسل فهو الصدأ الذي يلصق بألمع المعادن
● العبودية أثقل من الحرب .
● الرجاء هو البستاني الذي يحرث القلب .

● التزلج في روسيا في القرن الماضي

الرّحالة العربي المنسي

بقلم : فارس المنصوري

تمتلىء المكتبة العربية بكتب وموضوعات الرحالة العرب الذين جابوا الأرض من أدناها ـ المعلوم في أيامهم ـ الى أقصاها . وتشهد لهم آثارهم التي ضمنوها مشاهداتهم عن الطبيعة والبشر باللماحية والذكاء ، فاستحقوا التخليد والشهرة ، إلا أن بعضهم لم ينل حظ أقرانه من الشهرة ، منهم الرحالة أبو حامد الذي يتناوله الكاتب بالتعريف مستعرضا رحلاته في ثلاث قارات .

برز العرب فيما برزوا في القرون الوسطى بأدب الرحلات الذي كانوا فيه من السابقين والمبدعين ، ومازالت أسماء مشاهير الرحالة مثل ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم حية مثل الكتب التي ألفوها وأغنوها بالمعلومات والملاحظات المفيدة . على أن بين هؤلاء السياح القدامى رحالة غلب الظلام على ذكره طوال قرون ، واضمحل صيته بين الناس .

لكن ذكره اليوم أخذ ينبعث الى الوجود من جديد على صفحات الكتب والمجلات ، بفضل بعض المؤرخين والباحثين الذين فطنوا إلى ما في آثاره الأدبية من المشاهدات والملاحظات الثمينة ذات القيمة التاريخية والجغرافية ، مثل وصفه بعض الحيوانات المنقرضة وحديثه عن عظام الماموث المدفونة في شرقي روسيا ، وذكره لأصناف البضائع التي كانت القبائل الافريقية تتجر بها عبر الصحراء الكبرى . وأخيرا وليس آخرا ، وصفه الدقيق المفصل للتزحلق على الجليد (سكي) وللمعدات التي كان قاطنوا المناطق الثلجية يستعملونها للتنقل على الجليد في شرقي روسيا .

وقد نشرت مجلة انكليزية تختص برياضة التزحلق على الجليد مؤخرا نبذة عن هذا الرحالة الطلعة ، مبينة بأن وصفه المدون في القرن الثاني عشر الميلادي لمعدات التزحلق يعد الحلقة المفقودة في تاريخ التزحلق الجليدي في العالم .

نشأته

هذا الرحالة هو أبو حامد الذي وصلنا منه كتابين هما « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » و « المعرب عن بعض عجائب المغرب » ، ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان قد ألف غيرهما . وقد كتب هو نفسه في مؤلفه « المعرب » يقدم نفسه للقارىء : « مولدي بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس ، فيها أربعون مدينة ، ومولدي في مدينة تسمى غرناطة » .

واسمه الكامل هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الإقليشي الغرناطي ، ونسبه الأول الى قرية قيس القريبة من غرناطة ، أما نسبه الثاني ، الإقليشي فتدل على أن موطن أسرته الأصلي كان في بلدة اقليش التي تتبع اليوم مديرية كوينكا باقليم قشطلة الحديدة ، الواقع وسط أسبانيا . والمرجح أن أسرته هاجرت الى منطقة غرناطة بعد سقوط اقليش بيد الأسبان .

ـ لا نعلم شيئا عن نشأة أبي حامد في الاندلس ، لكنه غادر موطنه الى غير رجعة فيما يبدو وهو في حوالي السابعة والعشرين ، مدفوعاً بدافع السفر والسياحة ، وحبا في التعرف على الأقطار الأخرى . فطاف بأرجاء المغرب الأقصى الى أن بلغ مدينة سجلماسة ، وكانت يومئذ مركزاً تجاريا مهما على حافة الصحراء الكبرى ، حيث تلتقي القارة السوداء مع شطرها الأسمر . ومن هناك واصل ترحاله الى تونس ، فزار أهم معالمها ، ثم ركب البحر متجها الى الاسكندرية .

أبو حامد في مصر

وفي الاسكندرية لم يترك بقعة جديرة بالمشاهدة إلا وذهب ليزورها ، فزار فيها زار الفنار الشهير الذي كان يعد في عداد العجائب السبع في العالم القديم ، ووصفه وصفا دقيقا . بل لم يكتف بالوصف وإنما زاد عليه برسم بقلمه على هامش المخطوطة يمثل الفنار . وكمعظم معاصريه من العرب عزا أبو حامد بناء الفنار الى ذي القرنين ، وهو الاسم الذي عرف به الاسكندر الأكبر لدى العرب ، بينما في الواقع كان باني ذلك الصرح الذائع الصيت هو الملك بطليموس فيلاديلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق . م) أحد أجداد كيلوباترا من الملوك الهلينيين الذين حكموا مصر الى أن أسقطهم اغسطس قيصر روما في القرن الميلادي الأول .

وفي الاسكندرية أيضا زار رحالتنا معبد سيرابيوم الشهير ، كما دخل المغارات وجال في الأنفاق المعروفة بالكاتاكومب . ثم غادر المدينة قاصداً القاهرة ، فدخلها سنة ٥١٢هـ وفي كتابه نجد وصفا لمعالم العاصمة الفاطمية بمساجدها ومعابدها الفرعونية ، وللأهرامات ومسلة عين شمس ، ولمقياس النيل . لكنه لم يتحدث عن الجامع الأزهر ، ويبدو من اللمحة التي قدمها عن الوضع السياسي السائد في البلاد

أنه لم يكن من مؤيدي الحكم الفاطمي ، أو لعله اتخذ هذا الموقف لكونه ـ كما سنذكر في المقال ـ قد كتب كتابه « المعرب » وأهداه الى صديقه وولي نعمته الوزير العباسي ، ومن ثم كان عليه أن يحابي العباسيين على حساب الفاطميين .

بقي رحالتنا في مصر حتى سنة ٥١٥هـ ، ثم غادرها الى دمشق حيث درس الحديث الشريف في المساجد ، لكنه لم يفقد أبدا رغبته في السياحة والتفرج على معالم المناطق التي يحل فيها ، فقد انطلق غربا ليشاهد بعلبك ، وشرقا ليتعرف على تدمر ، ثم واصل ترحاله بعد فترة قاصدا بغداد ، فبلغها في ٥١٦هـ وأقام فيها نحو أربع سنوات .

صداقة مع وجيه بغدادي

وكان من حسن حظه أن تعرف في عاصمة العباسيين على رجل من أعيان المدينة ووجوهها وهو يحيى بن هبيرة الشيباني الذى تولى ـ فيما بعد ـ الوزارة في عهد الخليفة المقتفي وخلفه المستنجد ، ولقب بذي الوزارتين ثم أطلق على نفسه اسم عون الدين .

وتنعقد أواصر الصداقة بين الرجلين ، فيفتح الوجيه البغدادي بيته العامر للرحالة الغرناطي ، ويستضيفه ويضع تحت تصرفه مكتبته الغنية بشتى المؤلفات القيمة الثمينة ، ويعينه ماديا ليتفرغ للسفر والترحال . وبفضل هذه الرعاية يتمكن صاحبنا الأندلسي من اشباع نهمه في السياحة والتجوال ، فيتخذ من بغداد قاعدة ومحورا لأسفاره المتعددة شرقا وشمالا وغربا وجنوبا .

ويمكننا أن نتتبع خط تنقلاته مستعينين بالتواريخ التي يوردها في كتابيه . ففي ٥٢٤هـ ، أي بعد ثماني سنوات من نزوله بغداد ، نجده في أبهر بايران ، ونعلم منه أن تلك المنطقة كانت مركزا مهما لصناعة السلاح وتصديره الى الأقطار القريبة والبعيدة ، إذ يكتب : « بالقرب من دربندا (تقع في الطرف الجنوبي الغربي من بحر

● من مخطوطه « المعرب » بخط يده مع رسمه للوح السكي على الهامش

قزوين) جبل عظيم في أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زريه كاران (كلمة فارسية تعني صناع الجلود) يتخذون الآلات جميعا للحروب ، من الدروع والجواش والخوذ والسيوف والرماح والقسي والنشاب والخناجر (. .) جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخذون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين وهم أكثر الناس خيرا ومالا ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية » .

وقد شغف أبو حامد ببلاد خوارزم حتى أنه اجتازها ثلاث مرات ، وعبر منها الى بلاد البلغار ، علما بأن المقصود هنا هو موطن البلغار الأصلي ، وكان يقع في شرقي روسيا في ذلك العهد ، أي قبل أن يرحل البلغار الى بلادهم الحالية غربي البحر الأسود . ونعلم من رحالتنا أيضا أن البلغار كانوا في عهده يدينون بالإسلام وليست المسيحية .

أقام رحالتنا في مدينة تدعى سجسين ، وأهاليها هم مزيج من عدة قبائل تركية العنصر ، بينهم الخزر والغز والطور ، وهم جميعا من المسلمين وعلى مذهب الإمام الشافعي . ونفهم من حديثه أنه استطاب الإقامة في تلك البقعة النائية على الرغم من بردها القارص ، وبعدها عن مراكز الحضارة ، فتزوج وأسس لنفسه أسرة .

والمعروف الآن أن مدينة سجسين التي اندثرت فيما بعد ـ ربما بسبب تخريب المغول لها عندما غزوا روسيا ـ كانت تقع قرب مصب نهر فولجا ، ثم انبعثت فوق خرائبها مدينة جديدة تدعى اليوم استراخان .

كتب رحالتنا عن تلك البلاد التي يكسوها الجليد معظم أشهر السنة :ـ

« ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبر ولقد مات لي بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقي الميت كالحجر » .

حوار مع الملك

من أهم فصول كتاب « المعرب » هو ذلك الذي يدور حول مشاهدات رحالتنا في تلك البلاد التي يسميها باشغرد أو انغورية ، وهي طبعا هنغاريا أو المجر . إذ أقام فيها قرابة ثلاث سنوات أصبح إبانها رئيسا روحيا للجالية الإسلامية الكبيرة التي كان معظم أفرادها قد نسوا العربية ومعها الكثير من فروض الإسلام . وقربه ملك المجر إليه ، ودار بينهما في أحد الأيام الحوار الطريف التالي بعد أن علم الملك أن أبا حامد حرم على أبناء الجالية الإسلامية شرب الخمر وأباح لهم اقتناء الجواري والتزوج من أربع نساء :ـ

ـ الملك : ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوي الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر .

ـ أبو حامد للمترجم : قل للملك شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ، النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر ، وذلك يزيد في القوة . والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ويصير كالمجنون يزني ويقتل ويكفر ولا خير عنده ، ويعطي سلاحه وفرسه ويضيع ماله في طلب لذته ، وهم هاهنا جندك ، وإذا امرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه الشراب . فإذا علمت ، إما تقتله أو تضربه أو تطرده أو تعطيه خيلا وسلاحا يفسده أيضا . وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم ذلك لحرارة طباعهم ، وأيضا فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر جندك .

ـ الملك للمسلمين : اسمعوا من هذا الشيخ فهو عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه ، ويعلق رحالتنا على ذلك بقوله « ذلك الملك خالف القسيسين ، واستباح الجواري . ذلك الملك يحب المسلمين » .

وأراد أبو حامد أن يعرج على سجسين ليتفقد أسرته التي تركها هناك ، وذلك في طريق عودته الى بغداد لمقابلة صديقه الوزير ، فاشترط عليه ملك هنغاريا أن يترك ابنه حامد في البلاد ، وكان ابن رحالتنا الأكبر قد تزوج سيدتين مسلمتين في هنغاريا . ثم سلمه الملك خطاب توصية الى ملك الصقالبة .

وعبر رحالتنا البحر الأسود ، واجتاز جنوب روسيا في طريقه الى خوارزم ، لكنه قبل أن يتوجه الى بغداد أخذ طريق الحج الى الديار المقدسة ، فأدى فريضة الحج ، ثم اخترق الصحراء النجدية قاصدا العراق . وفي بغداد عكف على تأليف كتابه « المعرب » الذي اهداه الى صديقه الوزير عون الدين لكنه كان مستعجلا العودة الى هنغاريا ليجتمع بابنه حامد وبأسرته هناك ،

والتمس من عون الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول ملك السلاجقة في آسيا الصغرى ، ليأذن له في اجتياز بلاده ، حيث أن الطريق البري عبر قونية ، ومن ثم البوسفور والبلقان أقصر بكثير من الطريق الذي كان قد استعمله في القدوم الى العراق من هنغاريا .

كتابه الثاني

لكن لما تأخر الإذن (أو « الفيزا » بلغة عصرنا) سافر أبو حامد الى الموصل ، وهناك استفسر عن الطريق الى قونية . لكن أثناء إقامته في الموصل طلب إليه أحد علمائها الشيخ «معين الدين أردبيلي» ، أن يؤلف كتابا آخر عن أسفاره ورحلاته ، فاستجاب رحالتنا لهذا الطلب وكتب كتابه الثاني الذي وصل إلينا ، « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » . وتدل عبارة الختام أنه انهى مؤلفه هذا في الثالث من ربيع الثاني عام (٥٥٧هـ) . وكان قد بلغ من السن عتيا ، والطريق الى باشغرد طويل شاق ، ينهك قوى الشاب ، فكيف الحال إذا كان المسافر قد طعن في السن وبلغ العقد التاسع من عمره ؟ على أن الحنين للاجتماع بأسرته وأولاده ظل يستبد بالشيخ الرحالة الى حد أنه طلب من قراء كتابه أن يدعو له ميرى ذويه قبل أن يفارق هذه الحياة . ترك الموصل قاصدا حلب ليصبح أكثر قربا من قونية . وبعد فترة غادر حلب صوب دمشق ، ولعله مثل الكثيرين من أبناء وطنه الأندلسيين

● التزحلق في القرن السادس عشر الميلادى

كان يرى في دمشق ـ مدينة الأمويين الذين وضعوا أسس المجد العربي في الأندلس ـ وطنا ثانيا بعد غرناطة التي كان قد غادرها الى غير رجعة قبل ذلك التاريخ بأكثر من ستين عاما .

وفي دمشق توفي رحالتنا عن عمر ناهز الثانية والتسعين ، وكان ذلك في سنة ٥٦٥هـ (حوالي ١١٧٠ ميلادي) تاركا للأجيال كتابيه « المعرب » و « التحفة » . وبقي ذكره يرد على ألسنة الدارسين والعلماء ، واستشهد بكتاباته عدد منهم ، بينهم الأديب والجغرافي وعالم الحيوان . كما أفرد له المؤرخ الكبير المقري نبذة في باب أعلام الأندلس ضمنها كتابه المرجعي عن تاريخ المسلمين في أسبانيا ، « نفح الطيب » ، الذي نشر في مصر في أوائل القرن السادس عشر ، وبعد سنوات قليلة من طرد المسلمين من أسبانيا بأمر من الملك فيليب الثالث .

الغربيون أول من اكتشفه

وفي عالم الاستشراق والاستعراب في القرنين التاسع عشر والعشرين أثار إنتاج أبي حامد اهتمام عدد كبير من الأساتذة الأوربيين المختصين بالأدب الجغرافي العربي ، بينهم المستعرب الفرنسي «غابرييل فيران» الذي حقق « التحفة » ونشر المخطوطة في المجلة الآسيوية في ١٩٢٥ . كما تولى المستعرب الاسباني « سيزار دوبلير » تحقيق « المعرب » ونشره مع ترجمة أسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ . إلا أن إنتاج الرحالة الغرناطي بقي محصورا في نطاق ضيق يقتصر على الباحثين والعلماء دون أن يصل الى جمهور القراء . وعلى حد علمنا لم يطبع كتابا أبي حامد في الوطن العربي حتى اليوم ، إلا أن العلامة الدكتور «حسين مؤنس» أسدى خدمة جليلة لأدب الرحلات حينما أفرد لرحالتنا أكثر من خمسين صفحة في كتابه القيم الممتاز عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (المطبوع في مدريد) .

أما لماذا لم يفز أبو حامد بشهرة مماثلة لتلك التي نالها رحالة آخرون مثل ابن بطوطة وابن جبير؟ فالسبب في ذلك أوضحه الأستاذ مؤنس بجلاء حينما كتب واصفا إنتاج الرحالة الغرناطي بأنه لا يدخل في عداد كتب الرحلات ، كما أنه ليس إنتاجا جغرافيا خالصا ، وإنما هو مزيج من ذلك كله . فمشكلة أبي حامد تكمن في قلة حظه من الثقافة ، وفي ولعه بسرد أخبار العجائب والأمور الخارقة لقوانين الطبيعة ونواميسها ، وكتبه هي خلط من الأخبار والمعلومات ، سيئة الترتيب ، ركيكة التتابع ، يقفز المؤلف فيها من موضوع الى آخر دونما تمهيد أو تحضير ، وبلا سلاسة في السرد . فبينما يصف فنار الاسكندرية إذ به يقفز ليصف صنم قادس في أسبانيا فاعلا ذلك المرة تلو الأخرى ، ودافعا القارىء الحديث الى التمني لو أن رحالتنا انتهج ما انتهجه ابن بطوطة الذي أتى بعده بقرنين من الزمان ، حينما كلف الشيخ ابن جزي كاتب السلطان المغربي أن يرتب له مادته ويعيد صياغتها بأسلوب أدبي مستساغ .

وموطن المأساة في كتابات أبي حامد ، أن الرجل كان حاد الذكاء ، دقيق الملاحظة ، عظيم النشاط ولولا انجرافه مع تيار عصره ، وميله الى اشباع رغبة معاصريه في الاستماع الى حكايات الأعاجيب والخوارق لترك لنا وثيقة تاريخية جغرافية اجتماعية أدبية من شأنها أن تضعه في مصاف الكلاسيكيين .

وصفه للأساطير والواقع

بيد ان ايثار رحالتنا للخرافة على الحقيقة في بعض ما كتبه ، لا يعني مطلقاً أن إنتاجه كله يستحق الإهمال ، لأن بإمكان الباحث المدقق أن يخرج بمادة قيمة تستحق الدراسة العميقة ، وهي تشمل حتى أساطير رحالتنا لا سيما أن بعضها دخل في كتب لاحقة ألفت بعد وفاته بفترة طويلة ، وبينها عمل أدبي من أروع ما أبدعته المخيلة البشرية ، هو « ألف ليلة وليلة » الذي ندرسه اليوم ليس بسبب قيمته الأدبية فحسب ، وإنما لأهميته الفولكلورية الشعبية أيضا .

فمثلا ، أبو حامد تحدث في أحد كتبه عن الطائر الاسطوري « الرخ » الذي نجده في قصة السندباد . كما أن احدى القصص التى يرويها انتقلت بكاملها الى « ألف ليلة وليلة » . بيد أن الجانب المهم في مساهمة رحالتنا في أدب الرحلات العربي الكلاسيكي يكمن في ملاحظاته الدقيقة التي نراها مبعثرة في كتاباته وبينها وصفه لعظام الماموث ، ذلك الحيوان المنقرض منذ ملايين السنين ، وقد شاهدها أبو حامد في شرقي روسيا : « ويوجد في أرضهم من عظام قوم عاد ، السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله لمنكبه خمسة أبواع ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير » كما أنه يضيف : « ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة ، أبيض كالثلج ثقيل كالرصاص ، الواحد وزنه مائتا طن ، وأكثر لا يدرى من أي حيوان هو يقطع ويحمل الى خوارزم وخراسان ، ويتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك ، كما يتخذ من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر . » .

كما تحدث رحالتنا عن كثير من الحيوانات الحية والمخلوقات المائية ، ومع أنه يمزج الخرافة بالحقيقة إلا أن الكثير من أسماك البحر المتوسط التي يصفها بدقة هي مخلوقات حقيقية مازالت تعيش بهذا البحر . وهذا أيضا ينطبق على وصفه لسمك « السترجن » الذي يعيش في بحر قزوين ، وعلى حديثه عن الكافيار الذي هو اليوم أغلى نوع من الطعام في العالم . كتب عن السترجن والكافيار يقول : « ليس في السمك شوك ولا عظم في رأسها ، وليس لها أسنان . كأنها إلية الحمل محشوة بلحم الدجاج (. .) يخرج من بطنها دهن يكفي السراج شهرا ، ويخرج من معدتها من غري (بطارخ) السمك نصف منّ ، ويُقدد فيكون أحسن من كل قديد في الدنيا ، في لون الكهرباء أحمر صافيا يؤكل مع

الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى » .

وكتب أيضا عن الثيتل المجري الذي انقرض في وقت لاحق ، ولولا أن الرحالة « هيربنشتاين » شاهد هذا الحيوان في القرن السادس عشر ووصفه وصفا مطابقا لحديث رحالتنا ، لقيل عن أبي حامد إنه مرة أخرى أطلق العنان لخياله ، واخترع حيوانا اسطوريا جديدا ، يضيفه الى مجموعته من الحيوانات الخرافية .

الحلقة المفقودة

على أن قمة المشاهدة والملاحظة في كتابات أبي حامد تأتي ضمن ما كتبه عن شرقي روسيا ، وذكره لألواح الانزلاق على الجليد في « المعرب » . وهذه هي الفقرة التي أدت الى إعادة لتقييم مساهمة أبي حامد في أدب الرحلات في القرون الوسطى .

« الطريق الى بورا (شعب من شعوب سيبيريا) في أرض لا يفارقها الثلج أبدا ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا ينحتونها ، طول كل لوح باع وعرضه شبر . مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان من الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرب بين اللوحين التي تكون في رجليه شندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل (أي الساق) وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ، يعتمد على تلك العصا على الثلج ويدفع العصا خلف ظهره ، كما يضع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ولولا تلك الحيلة لم يمكن لأحد أن يمشي هناك البتة . لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتة ، وأي حيوان مشى عليه يغوص في ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشي عليه بخفة وسرعة . . . » .

ولمزيد من الإيضاح ، رسم أبو حامد لوح الانزلاق على هامش الكتاب الذي خطه بيده ، وكتب تحته « صفة الألواح التي يمشون عليها » ومخطوطة « المعرب » محفوظة اليوم في أكاديمية التاريخ في مدريد . □

● انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى دون أن يترك من حطام الدنيا درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل.

● وعندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة نزل عن كل ما يملكه إلى بيت المال، وقد طلب الى زوجته أن تفعل مثل ذلك ففعلت، وكانا - هو وهي - من أغنى أغنياء بني أمية.

● وعندما توفي صلاح الدين الأيوبي لم يجدوا في بيته سوى سبعة دنانير، وصلاح الدين هو الذي حرر الأقطار العربية من قبضة الصليبيين، واسترد بيت المقدس من الأسر، ومكن الأزهر الشريف من القيام بدوره الجليل في خدمة الاسلام والمسلمين.

القواعد الدولية تتحكم بالطرق الجوية

بقلم: ريا عارف الرفاعي*

« حالما تقلع الطائرة يصبح للسير قوانين ونظم ، ويتحول الفضاء الفسيح أمامها طريقا محددا بأرقام وزوايا ، وليس مجالا فسيحا بلا حدود ، بل يتم السير فيه وفق قواعد صارمة ، تحددها اتفاقيات ، وتنظمها قوانين » .

بعدما اخترق فدائي قبية « خالد العربي » أجواء فلسطين المحتلة ، بطائرته الصغيرة ، متخطيا بها مناطق المراقبة وأجهزة الرادار ، بل مناطق معلومات طيران « اسرائيل » كلها ، أعاد القضية الفلسطينية إلى الذاكرة ، إلى ذاكرة العالم ومركز الضوء . فلقد اختار موقفه العربي الصادق ، عندما كسر حاجز الخوف العربي المستحكم . ولما هبط طيار ألماني مغامر ، في وسط الساحة الحمراء في موسكو ، أدهش العالم من المفاجأة ، وتراءى لبعض آخر أن الأجواء مفتوحة أمام كل طيار ، فما أن يقلع بطائرته محلقا في الجو ، حتى يتحول إلى طائر محلق ، لا تعيقه حدود الدول ، ولا أنظمة المراقبة الجوية . كأنما الطيران هو المرادف للانعتاق من قيود الأرض ، ومن أنظمة المرور على الطرق ، التي تقيد السائقين والمشاة .

لكن الواقع مختلف تمام الاختلاف ، إذ تعد قواعد مراقبة الفضاء ، أشد صرامة بكثير من قواعد المرور على الطرق . ومع أن الطيران المدني يسمح بحرية الطيران ، إلا أنه يخضع لقواعد ونظم ، من شأنها تأمين سلامة الطائرات ، ومنع اصطدامها ببعضها في الأجواء وحمايتها من الارتطام بالمنشآت والأجسام العالية ، إضافة إلى ضمان تدفق الحركة الجوية

* مهندسة بدائرة الطيران بدولة الامارات العربية المتحدة .

بدون تأخير . فالسير على الطرق البرية ، لا يتأثر بالطقس ، كما أن بوسع سائق السيارة التوقف على جوانب الطرق ، بدون أن يعيق تدفق الحركة . بينما يستحيل على قائد الطائرة التوقف في الجو ، بل عليه متابعة الرحلة ، وعليه اتباع زاوية انحدار محددة حين الهبوط أو الاقلاع ، لحماية طائرته من العوائق ، أثناء الهبوط في المطارات . وعندما يتوجب على قائد الطائرة اجتياز الضباب والغيوم ، أثناء الطيران في الطقس السيء أو الطيران الليلي ، تكون الرؤية متعذرة ، كما لا تتحقق سلامة الطيران ، مالم يزود الطيار بالمعلومات الجوية ، عند اجتيازه مناطق معلومات الطيران ، حيث تساعده المعلومات على اتمام رحلته بأمان .

وضعت المنظمة الدولية للطيران المدني المعروفة اختصارا بـ « ايكاو » ، خلال الأربعينيات ، قواعد وأنظمة لعمليات الطيران المحتلفة على مختلف الارتفاعات ، وكان الهدف من ذلك حماية الطائرات ، وتأمين سلامة الطيران ، كما وضعت قواعد للاتصالات بين الأرض والجو ، لتزويد الطائرات والطيارين بالمعلومات الملاحية خلال الرحلات . وغدت مراقبة الحركة الجوية من أهم العمليات في المطارات ، إذ يتم بها متابعة الطائرات خلال تحليقها عبر الطرق الجوية ، كما يتم تزويدها بالمعلومات عند دخولها مناطق المراقبة المحيطة بالطائرات ، أو توجيهها إلى نقاط الانتظار في الجو ، أو الهبوط ، وبعدها تتولى المراقبة الأرضية قيادة الطائرة إلى مكان وقوفها المحدد في ساحة الوقوف ، إما بجوار محطة الركاب أو محطة الشحن .

أثر الرؤية البصرية على الطيران :

في ساعات النهار ، وخلال الطقس الجيد ، عندما يخلو الجو من الضباب والغيوم ، وتصبح الرؤية بأفضل شروطها ، يتمكن الطيار من

● غرفة المراقبة « في برج المطار » بأحد المطارات الدولية .

خلال قمرة الطائرة ، من رؤية الفضاء الممتد أمامه أو حوله ، فيرى الطائرات المحلقة بجواره ، والعوائق من جبال ومرتفعات ومنشآت بدون الاستعانة بالآلات أو التجهيزات . في حين أنه يضطر للاستعانة بالتجهيزات إذا تعذرت الرؤية . وتميز أنظمة الطيران ، بين قواعد الطيران البصري VFR وبين قواعد الطيران الآلي بالاعتماد على الآلات IFR الذي يطبق في الطيران الليلي وظروف الرؤية السيئة .

ومن المتعارف عليه أن يعد الطيار خطة رحلته ، ويحدد فيها الطرق الجوية التي سيسلكها ، من مطار الإقلاع إلى مطار الهبوط ، كما يحدد مستوى ارتفاع الطيران ، وقواعد الطيران ، ويتقيد بنوع الطائرة وأجهزتها ، ومستوى المطار الذي سيهبط عليه ، فالطائرات غير المجهزة بالآلات ، تستطيع الطيران وفق قواعد الطيران البصري فقط ، ولا يمكنها التحليق خلال الضباب أو عتمة المساء ، بينما تستطيع الطائرات المزودة بالآلات الخاصة بالرؤية ، أن تطير وفق النظامين ، البصري والآلي معا .

المجال الجوي ، واقليم معلومات الطيران VIR / FIR

يعد الفضاء الرحب الذي يمتد فوق حدود كل دولة ، وفوق مياهها الاقليمية ، مجالا جويا لهذه الدولة . ويفتح المجال الجوي ، أمام الطائرات المدنية النظامية ، فتعبره بيسر وسهولة ، متنقلة من مجال جوي إلى آخر ، حتى تصل إلى المطار الذي تقصده . وخلال عبورها المجال الجوي ، تكون في ضيافة تلك الدولة ومسؤوليتها . فتتزود منها بالمعلومات الجوية عن الطقس والعوائق والمسافات والمعلومات الأخرى التي تضمن لها سلامة الطيران . وما أن تغادر المجال الجوي إلى غيره ، حتى تتحول إلى معلومات الدولة الأخرى المسؤولة عن الطيران عبر مجالها الجوي .

وكما أن لكل دولة مجالها الجوي ، فإن لها أيضا إقليم معلومات الطيران الخاص بها . ويغطي عادة اقليم المعلومات القطاعات الجوية الوسطى ، أو العليا التي تمتد إلى ارتفاعات غير محدودة في الفضاء . ويحد إقليم المعلومات نقاط مراجع لاسلكية معرفة ، تنطبق على الحدود الادارية للدولة أو لا تنطبق . ويقسم المجال الجوي ، وإقليم معلومات الطيران إلى مناطق مختلفة ، تتألف من :

- مناطق المراقبة الجوية .
- مناطق المراقبة النهائية ـ حول المطارات .
- الطرق الجوية Airways .

ارتفاعات تحليق الطائرة :

يستطيع قائد الطائرة الماهر وحده أن يحول الرحلة الجوية إلى نبع من الثقة والاطمئنان ، ويستطيع أن يلهب الفضول في صدور المسافرين عبر الأجواء ، كما يستطيع أن يكشف غموض الرحلة الجوية وخفاياها . في رفقة كهذه ، يتمكن المسافر من تكوين فكرة عن الطرق الجوية ، وارتفاعات الطيران ، وشروط الطقس في الأعالي ، ومعلومات أخرى يقدمها قائد الطائرة ، فالطائرة تحلق في الجو على ارتفاعات مختلفة ، تقع ضمن مستويات تختلف فيما بينها : بالارتفاع عن سطح البحر ، وبالضغط الجوي . ولتمييز ارتفاعات الطيران ، اصطلحت « ايكاو » على استخدام اختصارات للدلالة على مستوى تحليق الطائرة وارتفاعها ، وما يقابل هذا المستوى من ضغط جوي . واختصار هذا المصطلح « فل » أو (F.L) ، أي سوية الطيران . وعدت السوية رقم صفر هي سوية سطح البحر والضغط الجوي على سطح البحر ، وتتزايد هذه الأرقام تبعا للارتفاع ، بينما يتناقص الضغط الجوي . ومن المعروف فيزيائيا أن الضغط الجوي يتناقص كلما ارتفعنا عن سطح البحر ، حيث تنخفض قيمته إلى النصف على ارتفاع ١٨٠٠٠ قدم « يعادل ٥,٨ كيلو متراً » ، والجدول التالي يبين بعض مستويات الطيران المعروفة دوليا :

رقم مستوى الطيران « F.L. »	الارتفاع عن سطح البحر	
	بالمتر	بالقدم
F.L.ـ صفر	صفر	صفر
١٠ـF.L.	٣٠٠	١٠٦٠
١٠٠ ـF.L.	٣٠٠٠	١٠٠٠٠
٢٠٠ـF.L.	٦١٠٠	٢٠٠٠٠
٠٣٠٠ـF.L.	٩١٥٠	٣٠٠٠٠
.. الخ ..	.. الخ ..	.. الخ ..

ويطلق على قطاعات الجو التي يزيد ارتفاعها عن سطح البحر ٢٠٠٠٠ قدم بالقطاعات الجوية العليا .

مراقبة الأجواء :

برج المطار ـ في أي مطار من المطارات ، مهما صغرت درجته ـ هو الدماغ أو مركز تفكير الحركة الجوية ، وتتوقف سلامة الطيران أثناء

● القواعد الدولية تتحكم بالطرق الجوية

● مخطط عن اقليم معلومات الطيران .

التحليق أو الهبوط والاقلاع ، على يقظة العاملين في تلك الأبراج وخبرتهم وهم يقبعون طوال يومهم أمام الاجهزة الدقيقة ، يشرفون على مساحة كبيرة في الجو ، يصل قطرها إلى حوالي ٤٠ كيلومتراً حول المطار . ومن البرج يمكن الاتصال بقمرة الطائرة ، ومخاطبة قائدها ، وتزويده بالمعلومات اللازمة حول الهبوط ، والإقلاع ، والطقس ، والعوائق ، وغير ذلك . ويساعد برج المطار عدد من المحطات اللاسلكية التي تعمل منارات مرشدة ببث ذبذبات محددة ، تستقبلها الأجهزة الدقيقة في الطائرات ، وتستدل بها على الموقع والمسافات ، إضافة إلى المراقبة بالرادار الذي يرصد حركات الطائرات على الطرق الجوية المختلفة

الطرق الجوية :

هي المطارات ، مرافيء سفن الجو ، تبتدىء منها الرحلة الجوية ، وفيها تنتهي صورتها وحدها تبقى في الذاكرة ، وتتراكم فيها الصور فوق الصور ، عن مطارات متعددة ، تنتمي إلى أمكنة وبلاد بعيدة ، قد يخطف المسافر من كل واحد منها ذكرى ترتسم داخل القلب ، وتعود أحيانا ، أو تغيب مع سيل الذكريات البعيدة .
أما الطرق الجوية فهي أشياء مختلفة ، لا يتعامل المسافر معها فنيا ، لكنه يحس بها بمرور الزمن ، فهو يراها قصيرة حينا كلمح البصر ، ويجدها حينا آخر طويلة لاتنتهي .

والرحلات الجوية ، والطيران بين قطر وآخر ، أو بلد وآخر ، تستخدم مسالك جوية معروفة ، تشبه إلى حد كبير الطرق البرية التي تستخدمها السيارات في التنقل والنقل بين المدن على سطح الأرض . وتختلف الطرق الجوية باختلاف مستوى التحليق ، فمنها الطرق الجوية ذات الارتفاع المنخفض التي يتراوح مجالها بين ١٢٠٠ ـ ١٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، والطرق الجوية ذات الارتفاعات العالية التي يتراوح مجالها بين ١٨٠٠٠ قدم ـ ٤٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وكذلك تختلف الطرق الجوية باختلاف أغراضها ، فمنها الطرق الجوية

الوطنية الداخلية ، والطرق الجوية الاقليمية التي تصل بين المطارات في مناطق متقاربة ، والطرق الجوية الدولية التي تجتاز القارات . وأيا كانت هذه الطرق ، فلابد لها من المرور فوق محطات خدمة الطيران التي تنتشر على مسارات الطرق الجوية ، ويقدم من خلالها خدمات مختلفة ، منها معلومات عن الطقس ، وحاهرية المطارات ، وتحديد مواقع الطائرات التي تفقد إمكانية الاتصال ، أو الطائرات التي تضيع في الجو ، وغيرها . ويحدد الطريق الجوي عادة بزاوية مساره من الشمال ، وبطول الطريق ، ومستوى الطيران المحدد له . ويتراوح عرض الطرق بين (٨ ـ ١٠ أميال بحرية) ، ما يعادل ١٥ ـ ١٨,٥ كيلومتراً . وتسعى إدارات الطيران المدني لجعل الطرق الجوية ضمن مجالاتها الجوية مستقيمة ، وبأقصر طول ممكن ، لتخفيض تكاليف تشغيل الطائرات ، واختصار زمن الرحلات ، وبذلك تصيب عدة عصافير بحجر واحد

ويتم اختيار مستوى الطيران في الطرق الجوية تبعا لطبيعة سطح الأرض ، فالطرق الجوية التي تمر مساراتها فوق المناطق الجبلية يكون فيها مستوى التحليق مرتفعا ، وأحيانا تكون من الطرق ذات الارتفاعات العليا ، في حين أن الطرق فوق المناطق المنبسطة والصحراوية تبقى ضمن الطرق ذات الارتفاعات المنخفضة التي تتراوح سوية الطيران فيها بين F.L. ـ ٤٠ ـ ٥٠ أو ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويصدر كل قطر من الأقطار التي تتعامل بالطيران المدني مخططات للطرق الجوية ، تبين عليها الطرق بالأرقام والأحرف وفق المصطلحات الدولية ، لتمييز الطرق الجوية عن بعضها . وتتجمع المخططات المختلفة بمخطط دولي واحد ، يبدو العالم فيه صفحة منبسطة ، تمتد على سطحها الطرق الجوية ، كالشرايين المتشابكة ، تتقاطع وتتوازى ، وتلتقي في المطارات وفوق المحطات المخصصة لخدمات الطيران . وقد يغدو أحد هذه الطرق كشريان يصل بين القارات الست ، أو يصل بين قارتين ، كالطريق الجوي R-19 الذي يصل بين قارتي أوربا وآسيا ، ويمتد بين مطارات يوغسلافيا ، واليونان ، وسوريا ، والأردن . والسعودية ، وقطر ، والامارات العربية المتحدة ، وسلطنة عمان .

المساعدات الملاحية :

كما تهدي المنارات في عرض البحر الملاحين إلى موانئهم تقوم المساعدات الملاحية بالدور نفسه عبر الأجواء ، فهي تؤمن تقديم المعلومات التي تضمن حماية الطائرات من الاصطدام ببعضها ، أو حمايتها من العوائق المرتفعة .

وتتألف المساعدات الملاحية من إشارات واجهزة لاسلكية ، وأنوار ، فالمنارات الجوية الموضوعة في محطات أرضية ، تضم أجهزة إرسال (راديو) ومرشدات ذات اتجاهات متعددة ، تعمل بترددات متوسطة أو عالية جدا ، يتعارف عليها العاملون بمجالات الطيران اختصارا بـ VOR أو ILS،NDB وتستقبل أجهزة الطائرة ، أثناء تحليقها في الجو ، الإشارات اللاسلكية الصادرة عن هذه المرشدات ، فيستدل منها الطيار على مساره الصحيح خلال شروط الطقس المختلفة ، أو حتى خلال انعدام الرؤية . وبأجهزة الاتصالات جو- أرض (إرسال واستقبال) يتم ارسال معلومات الطقس ، مستعملة في الارسال ترددات متوسطة بين ٣٠٠ ـ ١٠٠٠ كيلوهرتز ، أو الترددات العالية التي تتراوح بين ١٠٠ ـ ٤٠٠ ميغاهرتز .

منطقة معلومات الطيران العربية

يغطي المجال الجوي فوق الوطن العربي عدة مناطق معلومات للطيران ، تتجاور وتتلاقى فيما

● « برج المطار » في مطار أبو ظبي الدولي

بينها . ويجري التنسيق فيما بينها حين انتقال الطائرات من منطقة معلومات إلى أخرى وعندما تقوم طائرة ما ، برحلة طيران بين أربعة مطارات عربية ، بالطائرة النفاثة السريعة من نوع « بوينغ B-747 » مثلا ، لابد لها من التنقل بين أربع مناطق معلومات طيران ، وخلال فترات زمنية متقاربة . وقد تجتاز الطائرة النفاثة السريعة المجال الجوي لبعض الأقطار العربية في مدة لا تتجاوز ٢٠ ـ ٣٠ دقيقة ، وهذا يفرض على الطائرة سرعة الانتقال ما بين منطقة معلومات عربية إلى منطقة معلومات عربية أخرى ، مما يتطلب سرعة التنسيق ، إلا أن هناك فرصة لاحتمالات الوقوع في الخطأ ، أو احتمالات سوء الفهم ، وسوء تفسير المعلومات حين التنسيق ، مما قد يؤدي إلى أخطار التصادم بين الطائرات في الجو ، ويزيد في احتمالات وقوع الحوادث الجوية .

وربما تنبسط على صفحة الحلم ، للعاملين في مجالات الطيران في الوطن العربي ، صورة فضاء عربي موحد ، تتحد فيه مناطق معلومات الطيران ، ومراقبة الأجواء ، وتنطلق من منطقة المعلومات العربية للمعلومات ، وتنسق لمناطق معلومات إقليمية ، هي منطقة معلومات مهمتها الجمع والتوحيد والتنسيق ، بل فلنقل مهمتها جمع التشرذم الجوي ، لتشكل منه فضاء عربيا موحدا حاملا القوة والحضور في آن واحد . □

تعريفات لاذعة :

الإنسان : هو المخلوق الوحيد الذي يولد باكيا ويعيش شاكيا .

البخيل : رجل ينتحر جوعا ليقتل ورثته بالتخمة .

منتدى العربي
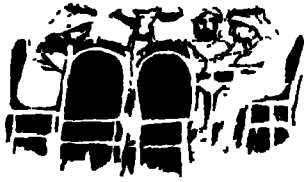
قضية

« تظل قضية ماذا نقدم في وسائل الإعلام ، واحدة من قضايا التنمية ، فالقيم والسلوكيات التي تبثها هذه الوسائل تؤثر في ثقافة ووجدان الشعوب .
وإذا كان الكبار عرضة للاختراق وغسل الدماغ في بعض الأحيان . فما بالنا بالصغار الذين تمتد أصابع التشويه الى المواد الإعلامية والأفلام الموجهة إليهم أيضا . »

وأفلام الأطفال أيضاً !

بقلم : عبد الرحمن حمادي

أذكر أنني في بيروت بقيت أسبوعا أحاول الدخول للصالة التي تعرض فيلم (القط الطائر) ، وما نجحت إلا بالحصول على بطاقة من السوق السوداء ولقد ذهلت حينما اكتشفت أنني أمام أحد أسوأ الأفلام عدائية وتشويها لصورة العربي

الفيلم من إنتاج شركة مترو غولدن ماير الشهيرة ، وهو موجه للأطفال والناشئة أساسا . بيد أنه بتقنياته وطرافة موضوعه يجعل الكبار قبل الصغار يتسابقون لمشاهدته ، ويتحدث عن قط صغير جميل ، يأتي من كوكب بعيد ، كل سكانه من القطط . وهذا القط يملك قوة خارقة في السيطرة على الأشياء ، وذلك بسوار معلق في عنقه ويسعى عالم أمريكي للاستفادة من السوار بعد أن يقيم علاقة صداقة مع القط ، وهدف العالم الأمريكي أن يحل مشكلة المجاعات في العالم الثالث (لنلاحظ الصورة المشرقة للانسان الغربي) ، بيد أن عصابة خطيرة تظهر فجأة ، وتحاول السيطرة على السوار ، لتسيطر به على العالم ، وهذه العصابة تلبس اللباس العربي التقليدي ، وتتسلح بالسيوف المعقوفة ، ويتخاطب أفرادها بأسماء إسلامية عربية (أحمد ـ محمد ـ جعفر) ، لكن لابد (للشر العربي أن يهزم) ـ كما يقول الفيلم ـ وذلك من خلال تصدي العالم الأمريكي للعصابة (المسلمة) وتدميرها

إنه فيلم لا يذكر العرب مباشرة ، ولكن من

الواضح أنهم ما صنعوه إلا ليشوهوا من خلاله صورة العرب ، وليقنعوا أطفالهم وناشئتهم قبل بالغيهم أن الخطر في العالم مصدره العرب ، وعلى الغرب أن يسعى لتدمير هؤلاء العرب قبل أن يدمروا العالم .

والسؤال :

كيف مر مثل هذا الفيلم علينا فعرضناه في أقطارنا ؟

المنطـــــاد :

فيلم آخر من إنتاج شركة متروغولدن ماير أيضا ، يتحدث عن رحلة علمية لعلماء أمريكيين في منطاد ، ومعهم مساعدة شقراء جميلة ، وفي رحلتهم يتعرض منطادهم لعطل ، فيقعون في أسر جماعة من المتوحشين ، آكلي لحوم البشر في أفريقيا ، بيد أنهم بعد سلسلة من المغامرات ينجحون في الهرب بمنطادهم ، وقد همَّ الأفارقة بطهيهم وأكل لحومهم

ثم يصل بهم منطادهم الى صحراء شاسعة ، ويحلق فوق مدينة إسلامية ، ترتفع فيها المآذن بكثرة ، وإذ يرى سكانها المنطاد يظنونه شيطانا سماويا ، فيخرون ساجدين برعب ، ويهرع المؤذنون للمآذن يكبرون ويبتهلون لله أن يصد عنهم هذا الشيطان

ويهبط العلماء بمنطادهم ليتزودوا بالمؤونة من هذه المدينة العربية التي تسرح فيها الجمال ، ويعيش سكانها وسط القاذورات والبهائم ، والذين ما أن يطمئنوا الى أن هؤلاء الهابطين عليهم بشر مثلهم ، حتى يقودوهم الى أميرهم في قصره الكبير

والأمير المسلم هذا محاط بالحريم ورجال الدين الاسلامي ، يقرأ القرآن ، ويرتكب الفواحش ـ هكذا يقول الفيلم ـ وما أن تقع عيناه على المساعدة الشقراء حتى يسيل لعابه على لحيته ، ويقرر اغتصابها وضمها الى حريمه (لنراجع الأفلام التي حللها الدكتور جاك شاهين وكيف أنها تصور العربي شبقا) . ثم تدور مغامرات يجابه فيها الأمريكيون سكان المدينة المسلمة الذين كلما شعروا بالهزيمة سجدوا مبتهلين لله أن ينصرهم ، وفي النهاية ينجح العلماء في إنقاذ مساعدتهم الشقراء (بالطيران بها) ، وقد أوشك الأمير المسلم أن يفترسها .

إنه فيلم مملوء حقدا وعدوانية على العرب ، ولا يوفر وسيلة في تشويه الاسلام والمسلمين ، مصورا إياهم بصورة أسوأ بكثير من صورة آكلي لحوم البشر المتوحشين . وخلافا لما عهدناه في هذا النوع من الأفلام ، لا ينتهي الفيلم بتدمير المدينة العربية المسلمة ، بل يتركها في محاولة إقناع ناجحة للمشاهد بأن المسلمين والعرب خطر قائم مستمر ، يجب أن تتكاتف الجهود لصده وإنهائه .

أفـــلام أخــــرى :

القائمة طويلة كما قلنا ، ومنها تلك التي نعرضها في أقطارنا ، كفيلم (مغامرات في مصر) للثنائي بودسبنسر وترانسس هيل ، حيث مغامراتهما الشيقة هذه المرة تدور على أرض مصر ، وتبدأ بهبوطهما في مطار القاهرة الدولي بكل حداثته وحضاريته وسعته ، ثم ينتقلان لمدينة القاهرة التي هي عبارة عن خيم وإبل تسير في شوارع صحراوية ، وأناس بعباءاتهم العربية التقليدية يحاربون بالسيوف المعقوفة ويمتطون الابل ، ويهربون عند سماعهم أصوات الطلقات النارية من مسدس سبنسر وهيل !!

وحتى أفلامهم التي تظاهروا فيها بالحيادية لم يخرجوا فيها من أسر نظرتهم العدائية للعرب ، ومحاولاتهم الدائبة لتشويههم ، كما في فيلم (عملية ميونخ) ، فقد عرض الفيلم في جميع الأقطار العربية ، وفي « إسرائيل » ، كفيلم تحدث بحيادية عن عملية ميونخ الشهيرة ، لكن الحقيقة أن الهمس استمر على العرب طوال مشاهد الفيلم بشكل غير مباشر ، قد لا ندركه نحن العرب ، لكن يدركه المشاهد الغربي الذي هيأته السينما الأمريكية والغربية بصورة سابقة عن العرب ، فقائد العملية العربي مثلا حينما يفشلون بالتفاوض معه أو جعله

يلين ، يرسلون له مضيفة شقراء ، وسرعان ما يلين أمامها ، ويكاد يستسلم لها ، وللمطالب التي تنقلها ويعلن الفيلم مرة أخرى أن العربي لا يستطيع مقاومة شبقه تجاه الأنثى ، وهي الصورة التقليدية عن العربي في السينما الغربية والأمريكية .

ما العمل ؟

إنها أمثلة فقط في حديث لا أراه يضيف إلا يسيرا الى مئات الكتابات التي ظهرت ، ينبه أصحابها الى الحرب السينمائية الخطيرة التي يشنونها بشراسة على العرب والاسلام ، ولا يبخلون بمالهم وتقنياتهم لجعل تلك الحرب أشد شراسة وفاعلية من حرب الطائرة والمدفع ، ومع ذلك أسأل كما تساءل غيري . ما العمل ؟

سؤال أقترح أن تكون الاجابة عنه بحوار شامل مسؤول على صفحات (العربي) ، حوار يبدؤه أهل السينما العربية ، ويشاركهم فيه المعنيون بأمور الاعلام في الحكومات العربية ، وعسى أن يكون مثل هذا الحوار خطوة تحقق المثل القائل . إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة □

تعقيب

صورة العرب في السينما غير العربية

ما زال مقال د . جاك شاهين عن « العربي كما تراه هوليود » الذي نشر في العدد رقم٣٥٣ لشهر ابريل / نيسان ١٩٨٨، يستأثر باهتمام كبير . وقد وردتنا تعقيبات كثيرة على المقال اخترنا منها هذا التعقيب الذي يستشهد بأفلام جديدة تؤكد الصورة المشوهة التي ترسم الشخصية العربية في السينما .

اثناء سفري على متن احدى طائرات خطوط الطيران غيرالعربيةفي رحلة استغرقت احدى عشرة ساعة تضمن برنامج عرض الافلام بالطائرة فلم « موعد مع الموت » . وعلى الرغم من ان الفلم قديم الا أنه ما زال يعرض . ويصور الفلم مجد الامبراطورية البريطانية الغابر ، عندما كانت بريطانيا تحتل بعض الاقطار العربية وتنهب خيراتها وثرواتها وتستنزف أدمغتها المفكرة .

في هذا الفيلم يظهر العرب بدائيين ، متوحشين ، حاقدين ، ماكرين خبثاء ، كارهين مكروهين ،

سلاحهم الخناجر يغمدونها في أجساد ضحاياهم من البريطانيات البريئات الفاتنات والاوروبيات المتحضرات . وفي احد المشاهد يجتمع نحو عشرين رجلا ، يحمل كل واحد منهم خنجره ، ويحيطون باحدى البريطانيات الشابات احاطة السوار بالمعصم ، وهنا يصل المنقذ في صورة فرقة من الجيش البريطاني ، فترتد الخناجر الى اغمادها ، وهكذا تنهزم الخناجر امام البنادق والعرب امام البريطانيين والاوروبيين ، والجلافة والبداوة والجهل امام الحضارة والتقدم والعلم . فالعرب دائما في كل أفلام اوروبا رمز التخلف والحقد والشبق والثروة التي تضيع هباء على الداعرات الساقطات ، لانها ثروة النفط التي أتتهم من غير عناء .

أما بيت القصيد هذه المرة فهو خارج دائرة كل من أمريكا وأوروبا ، بل في آسيا التي ينتمي إليها ثلاثة عشر قطراً عربياً والغريب أن السينما الآسيوية أيضا لم تجد إلا العرب لتهزأ بهم وتسخر منهم ، وكأنه ليس هناك سوى العرب ضحية لكل ناعق .

بعد أن حدثني البعض عن فيلم Penoy Balut طلبت من أحدهم أن يصحبني لرؤيته ، وهو موجود في دور العرض بمانيلا ، وكل انحاء الفلبين ، ويصور العرب شاذين ساديين .

يبدأ المشهد الذي يثير دائما رواد دور السينما خاصة من الجنس الآخر فينطلقن في صياح وهياج ـ بمجموعة من نساء الليل ، يتنافسن على الزبائن . ويطيب قزم ماكر خاطر إحدى النساء الغاضبات ، لأن زبونا ضاع منها ، بقوله :

لا عليك ، سأحضر لك زبونا عربيا . . !

وتنزعج الفتاة لمنظر العربي الكريه عندما تراه ،

فتجفل كظبية يكاد يفترسها ذئب ، أو تلتف حولها كوبرا لتخنقها ، فتلجأ للحيلة ، والمكر والخداع ، وتحاول أن توهمه أنها ولد ، (مدللة على ذلك بصدرها غير الناهد) ، فيهجم عليها ، قائلا :
الآن أريدك أكثر . . !!

وليس بعد هذا التشويه ، واتهام العرب جميعا بالشذوذ تشويه . ثم تظهر سادية العربي - وقد ألبسوا أحد ممثليهم الملابس العربية ، إمعانا في الزراية والتشويه والنكاية - فيحاول ضربها بالسوط ، ويضربها فعلا ، إلى أن تنجح في اختطاف السوط منه ، وتضربه به على مؤخرته ، وهنا تصل المأساة ذروتها ، إذ تتضح أيضا « ماسوشيته » فينام لها في الفراش وهي تضربه على مؤخرته ، وهو يقول لها · - اضربي ، أكثر !

وتتركه في قرف واشمئزاز .

وأتصور أنه لا يوجد عربي واحد يسلك مثل هذا السلوك القذر ، لكن الموجودات بدار العرض يتصايحن في تلذذ - ولا بد أن بينهن من عملت خادمة في بلاد العرب !!! - وخاصة عندما تنجح الفتاة في أخذ سوط العربي وضربه به .

ان فيلم Penoy Balut - ويمكن ترجمتها الى (البيض الفلبيني) ، لان (بالوت) هذا نوع من البيض ، يعد بطريقة خاصة - يسيء لنا أبلغ اساءة مثل أفلام السينما الامريكية الصهيونية أو الاوروبية سواء بسواء .

ان مشكلتنا أنه لا توجد لدينا مراكز رصد وتحليل ، لما ينشر عنا في وسائل الاعلام المختلفة ، وعندما تتم الاساءة للاسلام والعروبة ، فاننا حتى لا نفعل أضعف الايمان بأن نتابع ما ينشر أو يعرض أو يقال أو يذاع عنا لنعرف الحقائق والاباطيل ، بل نصم آذاننا في أكثر الاحيان ، وتتحكم فينا عقد الخوف ، ولا نعرف ما يقال عنا ولا نحلله هكذا نظل في أغلب الاحيان : آخر من يعلم !

هل سمع أحدكم بهذا الفيلم الفلبيني ؟؟!

محمد حسنين

لا تفعل

● جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم ، فقال له وهب : لا تفعل ، فانه لابد للناس منك ، ولابد لك منهم ، لهم إليك حوائج ، ولك إليهم حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، وأعمى بصيرا ، وسكوتا نطوقا .

خير الرجال

● قيل لحكيم : أي الرجال أفضل ؟

قال : الذي إذا حاورته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا منح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا اشتكي إليه وجد رحيما .

إعداد : يوسف رعبلاوي

أضواء على علماء العرب المغتربين

● لفت انتباهنا اكتشاف علمي تحدثت عنه بعض المجلات العلمية في المدة الأخيرة ، فالاسم الذي يعرف به الاكتشاف ، أسلوب رمزي Ramzi Procedure ، وقد تم تسجيل الاكتشاف لدى الدوائر المختصة بالاسم المذكور نفسه . واشتبهنا بادىء ذي بدء ، ثم ما لبثنا أن تأكدنا أن صاحب الاكتشاف عربي بن عربي اسمه الكامل سعد رمزي اسماعيل ، وهو عراقي الأصل ، هاجر الى كندا سنة ١٩٧٩ ، وهو الآن يحمل الجنسية الكندية ، ويعمل في مجال التصوير الطبي ، ويشغل منصب رئيس قسم التصوير بالموجات فوق الصوتية في مستشفى جون كنيدي بكاليفورنيا .

وقد تسنى لعالمنا العربي الشاب ابتكار بعض التحسينات في مجال التصوير بالموجات فوق الصوتية تعرف : « بطريقة رمزي » . وتتلخص في أن جهاز التصوير الطبي بالموجات فوق الصوتية ينقسم الى جزئين مهمين ، وهما القاصف الذبذبي والكريستال .

فأجهزة الموجات فوق الصوتية معدة لأغراض المعالجة بما يعرف بالعلاج الطبيعي Physiotherapy ، ومعدة لأغراض التشخيص ، والأخيرة هذه هي التي تعنينا هنا ، ونخص بالذكر منها الأجهزة التي تساعد على تشخيص الأمراض الباطنية والنسائية .

والقاصف الذبذبي هو أحد مقومات هذه الأجهزة ، والكريستال هو أحد أجزاء هذا القاصف ، بل أهم أجزائه وأغلاها ثمنا ، ذلك أن هذا الكريستال هو الذي يقوم بتحويل التيار الكهربائي الى الموجات فوق الصوتية ، ويقوم باعادة تحويل هذه الموجات الى تيار كهربائي مرة أخرى ، فيجري تحليل هذا التيار بجهاز الحاسوب « الكمبيوتر » ، وتنعكس الصور الطبية المطلوبة على شاشته .

على أن هذا الكريستال الحسّاس الباهظ الثمن كثيرا ما يتعرض للتلف أو الخلل ، نتيجة الاستعمال ، ونتيجة تعرضه للحرارة أو للمواد الكيماوية أو للصدمات العادية ، ولو أمكن تحديد حساسية هذا الكريستال بطريقة أو بأخرى لأمكن تحديد تناقص تلك الحساسية ، وأمكن بالتالي إصلاحه وتحاشي تلفه ، في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان ، وهذا هو بالضبط ما أمكن للعالم العربي الشاب سعد رمزي إحرازه نتيجة للأبحاث
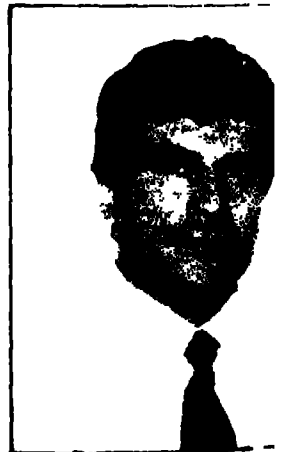
سعد رمزي اسماعيل
صاحب الاكتشاف
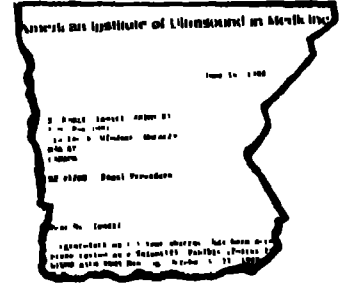
والتجارب العديدة التي قام بها في هذا الصدد .

وتجدر الاشارة الى أن طريقته في تحديد حساسية الكريستال تعتمد على الموجات فوق الصوتية ، وتختلف هذه الموجات فوق الصوتية الفاحصة لحساسية الكريستال عن الموجات فوق الصوتية التي يولدها الكريستال ، والتي تستعمل في تشخيص الأمراض- في أن الأولى موجات مستمرة بينما الثانية موجات متناوبة .

بقي أن نشير الى فائدة عملية أخرى لطريقة رمزي غير اكتشاف تناقص حساسية الكريستال وتفادي تلفه في الوقت المناسب ، فهي كفيلة بالكشف عن غش بعض الشركات التي تضع القاصف الذبذبي وأجهزة التشخيص بالموجات فوق الصوتية . . فغلاء الكريستال الفاحش يشجع البعض على بيعه بحساسية عالية مزعومة ، وطريقة رمزي كفيلة بتحديد حساسية ذلك الكريستال الحقيقية . . والكشف عن الغش إن كان ثمة غش .

■■□□

أقدمت دائرة الصحة البريطانية مؤخرا على صنع مستحضر جديد لمعالجة « الاكزيما » وذلك لأول مرة في تاريخ الدائرة المذكورة وسمت المستحضر الجديد « إبو جام » (Epogam) وأكدت أن العنصر الفعال فيه إنما هو زيت زهرة الربيع المسائية evening Primrose .

وزيت الزهرة المذكورة معروف منذ زمن طويل ، وقد باعه العطارون والبقالون في بريطانيا ضمن الأعشاب العلاجية التي درجوا على بيعها منذ القرون الوسطى .

ولكن الزيت المذكور كان موضع تجارب علمية دقيقة في المدة الأخيرة وقد دلت التجارب على أن زيت زهرة الربيع ذو أثر علاجي فعال لكثير من الأمراض .

وأثبتت التجارب العلمية الأخرى التي تولتها لجنة أمن العقاقير أن زيت الأعشاب السالفة الذكر آمن الى حد غير عادي ، وبدون آثار جانبية ، وأنه قد يحد من الحاجة الى مركبات السترويد أو يحل محلها ، وهي المركبات التي تشبه الكورتيزون التي عرف عنها آثارها الجانبية الضارة .

وتجدر الاشارة الى أن هذه التجارب تعمل تحت اشراف السير « جيمس بلاك » العالم البريطاني الذي ظفر بجائزة نوبل للطب في شهر أكتوبر ١٩٨٨ .

ولعل أهم ما يلاحظ أن العقار الاعشابي لم يحظ بالاعتراف أو الترخيص الرسمي فحسب،بل إنه ظفر باقبال دائرة الصحة البريطانية نفسها على صنع مستحضر « إبو جام » منه .

■■□□

ثمة مادة من المواد اصطلح علماء الفيزياء على تسميتها « اللامادة » أو نقيض المادة (antimatter) ويعرّفها بعضهم بأنها ظل المادة أو إن شئت صورتها المنعكسة على مرآة ، وتتميز « اللامادة » هذه بأنها مشحونة بكهرباء عكس الكهرباء التي شحنت بها المادة ، فهما اذن ضدان لا يجتمعان ، وإذا اجتمعا أفنى الواحد منهما الآخر بزخة عنيفة من الطاقة .

والظاهر أن الأبحاث المتصلة بطبيعة اللامادة تتصف بالأهمية والخطورة ، حتى أن احدى الشركات التي تقوم بأعمال سرية لصالح سلاح الطيران الأمريكي طالبت في تقريرها الأخير بمضاعفة المبالغ المخصصة لأبحاث اللا مادة بمقدار (٤٠٠ مليون) دولار وذلك للعشر سنوات القادمة .

ويؤكد التقرير العلمي الصادر في الولايات المتحدة الامريكية أن الفوائد التي قد تترتب على أبحاث اللامادة كثيرة وخطيرة ، وستظهر هذه الفوائد أكثر ما تظهر في مجال الطب البيولوجي (biomedicen) ومحركات الصواريخ ، وتحليل المواد ، فضلا عن طبيعة المادة على الأخص .

■■□□

جهاز للتنظيف الالكتروني

ما أكثر المغاسل وأجهزة تنظيف الأيدي ، وما أقل التنظيف الفعال الذي يحتاجه الانسان في المطاعم والأفران ، وفي صناعة المعجنات والمواد الغذائية ، الخ ، الذي تستوجبه المستشفيات ومراكز العناية الصحية ، وغرف العمليات الجراحية . لاعجب اذن ان عمدت احدى الشركات الامريكية الى تطوير جهاز تنظيف الكتروني بالغ الفاعلية ـ كما تؤكد الشركة التي تصنعه وتسوقه وهو يفوق أجهزة التنظيف المتاحة من حيث الفاعلية بنسبة ٦٥٪ أو أكثر ،وهو سريع الأداء ، ينجز في دقيقة ونصف ماتحتاج الأجهزة الأخرى لإنجازه الى ٥ ـ ١٠ دقائق .

قوام الجهاز الجديد نفاثان أو رشاشا ماء متحركان على نحو لولبي ، بحيث اذا وضع المرء يديه مقابل فتحتي الرشاشين وداس بقدمه على الدواسة ، تدفق الماء من الفتحتين وانصب الماء رذاذا على يديه ، وهو مختلط بمواد كيماوية وبكتيرية ، وممزوج بالهواء ، وذلك بمقادير محددة ، فلا تلبث اليدان المعرضتان لهذا الماء أن تصبحا نظيفتين تماما .

على أن فاعلية الجهاز لاتعتمد على المواد الكيماوية والبكتيرية وحدها ، بل لعله يعتمد أكثر من ذلك على هز الجلد ـ جلد اليدين أو غير اليدين ـ هزا مناسبا ، يكفى لانتزاع البكتيريا العالقة بالجلد المتوارية في مسامه .

تصنع الشركة هذا الجهار بطرز ثلاثة مختلفة : طراز المطاعم ، وطرار المستوصفات ، وطراز غرف العمليات الجراحية .

■■□□

سلامة البشرية في سلامة البيئة

تقرير عن التدخين جدير بكل تقدير

التدخين في تراجع في أمريكا بفضل التقارير العلمية التي يصدرها كبير الجراحين وغيره في واشنطن .

الفضيلة هي المعرفة . هذا ما قاله أفلاطون قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة ، وهذا ما يجدر بحملات الاقلاع عن التدخين أن تتخذ منه أساسا ومنهاجا ، فلو عرف المدخن أن التدخين ضار بصحته حقا لأقلع عن التدخين ، واقتنع دون أي تردد . ذلك هو الأساس الذي اعتمده أهل الغرب في حملات مكافحة التدخين في بلادهم ، فقد تركوا مهمة اقناع المدخنين بضرورة الامتناع عن التدخين للحقائق العلمية نفسها ، واكتفوا بالكشف عنها بإيجابياتها وسلبياتها ، دون تغليفها أو التعقيب عليها بعبارات الوعظ والارشاد ، وكشفوا عنها بتجرد ونزاهة ، دون أي مبالغة ، فكانت الثمرة الطيبة التي جنوها في كثير من البلدان الأوربية ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، ثمرة التناقص في عدد المدخنين في المدة الأخيرة ، فلولا التقارير العلمية التي درجت على إصدارها دائرة كبير الجراحين Surgeon Generel في واشنطن سنة بعد سنة ، لما كان هذا التناقص الملحوظ في عدد المدخنين .

ونخص بالذكر من تلك التقارير آخرها الذي صدر في أواخر شهر مايو ١٩٨٨ ، والذي كان لكبير الجراحين نفسه ، ايفريت كوب (Everett Koop)[1] ، دور فاعل في إعداده .

إنه تقرير ضخم ، يقع في ٦١٨ صفحة ، وقد اختاروا له عنوان « الآثار الصحية المترتبة على الادمان على النيكوتين » ، لأن التقرير يركز على النيكوتين وخصائصه الادمانية ، ويتحرى آثار هذه المادة على صحة الانسان ، وفقا للأبحاث والدراسات التي أجراها العلماء والمتخصصون - خمسون منهم على وجه التحديد - واستغرقت نحو عشرين سنة - هل من عجب بعد هذا إن لقي نص تقرير كبير الجراحين الأخير أكبر ترحيب من الأطباء ورجال السياسة فضلا عن العلماء وحماة البيئة لاسيما دعاة الاقلاع عن التدخين ؟

يقارب التقرير بين التبغ من جهة وبين الكحول والهيروين والكوكايين من جهة أخرى ، ويؤكد أن التبغ مادة إدمانية ، تماما كالمواد الثلاث

(١) تجدر الاشارة الى أن ايفريت كوب هذا ظهر مؤخرا على شاشة التلفاز في الكويت ومصر وغيرهما في برنامج مشترك حول التدخين .

الأخرى ، بدليل أن ٧٥٪ من الذين يقلعون عن التدخين للمرة الأولى لا يلبثون أن يتراجعوا عن قرارهم ، ويعودوا إلى التدخين مرة ثانية . ذلك هو بعض ما أثبتته الأبحاث العلمية السالفة الذكر ، وقد أثبتت أيضا أن ٧٥٪ - ٨٥٪ من المدخنين يشعرون بالرغبة في الاقلاع ، ولكنهم عاجزون عن اتخاذ القرار الحاسم ، وذلك بسبب قوة النيكوتين الادمانية . أضف إلى هذا وذلك رد الفعل الفسيولوجي الذي يحدث للمدخن فيما لو حلت بينه وبين السيجارة ، إذ لا يلبث المدخن أن يعاني من مثل تلك الأعراض التي تصحب هبوط السكر في مريض السكر ، فرد الفعل هنا لا يقف عند مجرد رغبة المدخن في الحصول على السيجارة ، بل إنه ينطوي على تلهف مقرون بالذل ، حتى إذا لاحت له الفرصة تلقف السيجارة وراح يلتهمها التهاما .

ويقارن التقرير بعد ذلك بين موتى المخدرات وموتى التدخين من حيث العدد ، فقد بلغ عدد من يموتون بسبب الهيروين والكوكايين سنويا (٦٠٠٠) نسمة ، ويبلغ عدد الذين يموتون بسبب الكحول (١٢٥٠٠) نسمة ، أما الذين يموتون بسبب أمراض مردها إلى التدخين فقد بلغ مجموعهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر ، وذلك وفقا لاحصاءات ١٩٨٦ في الولايات المتحدة الامريكية .

ويفصِّل التقرير مجموع موتى التدخين ، ويبين أن ٢/٣ هذا المجموع (٢٠٠,٠٠٠ نسمة) يموتون نتيجة للاصابة بأمراض القلب ، و (١٠٨,٠٠٠) نسمة بالتحديد يلقون حتفهم تبعا للاصابة بأمراض الرئة ، وما كان التقرير ليولي هذه الأرقام أي اهتمام لولا أن ثبت بالأرقام أن أكثر أولئك الموتى (٣٠٨,٠٠٠) هم من المدمنين على التدخين ، وأن هذا التدخين هو سبب إصابتهم بتلك الأمراض وبالتالي سبب وفاتهم .

مالفرق إذن بين فتك المخدرات وفتك التبغ ؟ إنه الفرق بين موت فوري كالموت الذي يحدث في ساحة القتال والموت البطيء الذي يحدث في المستشفيات ، ولكنه موت في كلتا الحالتين ، ذلك أن السيجارة تحتوي على النيكوتين بمقادير ضئيلة ، فلو أمكننا تجميع النيكوتين الذي يدخل جسم المدخن على مدى عشرين سنة من التدخين المتواصل ، وأمكننا حقن تلك الكمية المتراكمة في جسم الانسان مدخنا كان أم غير مدخن لكان لذلك النيكوتين مثل الأثر الفوري الذي للمخدرات ، ولفتك بالذي يحقن في جسمه حتى لو كان ماردا عملاقا . ■■□□

وأكباد تحترق:

● سئل أعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟

فأجاب: لأنها تقال. وأكبادنا تحترق.

سكان مدينة القاهرة وزوارها الكثر ، وقارئو تاريخها ، لاشك أنهم قرأوا على احدى بوابات القاهرة القديمة اسم « باب زويلة ».

ويبدو أن هذه البوابة وجدت في الأيام الاولى لبناء القاهرة ، عندما شرع القائد الفاطمي جوهر الصقلي في بناء المدينة منذ حوالي إلف سنة . والاسم « زويلة » له علاقة على ما يبدو ببلدة تقع في الجماهيرية العربية الليبية اسمها « زويلة ». وبقبيلة سكنت وتسكن اقـطار المغـرب العربي.

فكيف جاء الاسم الى القاهرة ؟ وما هي « زويلة » التاريخ والناس والواقع ؟

وما هي حكاية مدن الصحراء الليبية ودورها الذي لعبته في التاريخ .

وكيف نشأت فيها الحكايات والأساطير . . وما هي حقائق الحياة فيها الآن ؟

الوقت يقترب من الغروب ، والسيارة تنهب بنا الطريق نهبا وهي تتجه من بَلدة مرزق احدى مدن الصحراء الليبية الى قرية « زويلة » التي تبعد عنها حوالي مائة وعشرين كيلو متراً ، الطريق معبد تعبيداً جيداً ، مجموعة من القرى تصادفنا في الطريق ، أشجار النخيل والاعمدة الحاملة لأسلاك الكهرباء تحتل أفق الصحراء وتباري الطريق بين فينة وأخرى .

أخذت في استرجاع ذكريات التاريخ ، وتذكرت انتقال الفاطميين من بلاد المغرب العربي ليحلوا في مصر ، وليبنوا القاهرة في نهاية القرن العاشر الميلادي ، وتذكرت المد البشري المتبادل بين المشرق والمغرب ، فتحاً وتجارة وحروباً وإستقراراً أو رحيلاً ، تنافراً وتعايشاً .

توغلت في بحر المعلومات التي قرأتها وسمعتها ثم صحوت على صوت مرافقنا : تلك هي مشارف « زويلة ».

حُمرة الشفق المطبوعة على الأفق ، وبعض الغيوم البعيدة ، أعطت للمنظر بعده الجمالي الأخاذ .

تمعنت مليا ، صفوف متباعدة من زوالات كانت تحتل مساحات الصحـراء القريبـة والبعيدة .

اختلط في ذهني الواقع والتاريخ ، أهي زوالات بشر ، من حراس الصحراء يستعدون ويتجمعون كي يتجهوا الى مسيرة جديدة للفتح شمالا أو جنوبا ؟! أم هي زوالات من أشجار النخيل توزعت بين كثبان الرمال ، فجاء منظرها شبيها بزوالات البشر ؟

ركزت نظري بشكل أدق . لقد كانت مجرد أشجار نخيل حولتها الذاكرة المعبأة بصوت التاريخ وحوادثه الى زوالات من بشر .

علق المرافق ، ها نحن ندخل « زويلة ». صحت الذاكرة ، واستفاق انتباه الحواس للاستماع والتسجيل والمحاورة .

« زويلة » التاريخ والواقع

الحاج علي محمد الشريف ملاحظ آثار « زويلة » رجل خمسيني حفظ قصصا كثيرة عن « زويلة » قال :

● خريطة الجماهيرية العربية الليبية تظهر عليها المدن والقرى التي مرت بها بعثة « العربي »

لقد كانت « زويلة » احدى مدن الفاطميين المهمة ، ويقال إن العملة سكت فيها ، وهي من بلدات الصحراء التي كانت ترتادها قوافل التجار والحجاج ، وكان يحيط بها سور له ثلاثة أبواب .

وأضاف الحاج علي : يوجد في البلدة سبعة قبور للصحابة ، وقلعة وبقايا مسجد قديم يدعى بالمسجد الأبيض ، هذه تقريبا أهم المعالم في البلدة .

انتقلنا الى المكان الذي توجد فيه القبور السبعة ، وهي تبعد عن البلدة حوالي كيلو متر واحد ، فوجدنا ستة أضرحة طولية ، ارتفاع كل منها حوالي اربعة أمتار ، جدرانها الخارجية مغطاة بحجارة حمراء ، بينما داخلها مبني من الطين ، أربعة منها عليها قباب ، وأحدها الذي يحتوي على قبرين زينت جدرانه الخارجية بأقواس منحنية .

ويبدو أنها بنيت زمن الفاطميين الذين اشتهروا بالبناء الفخم لقبور كبرائهم وزعمائهم .

حجارة التلال القريبة من المكان حمراء ، وبعض بساتين النخيل تتوزع كيفما اتفق حول المكان . علق الحاج علي : إن القبور حسب ما هو متداول في منطقتنا تعود لبعض الصحابة الذين استشهدوا اثناء فتح « زويلة » زمن والي مصر عمرو بن العاص ، وقد جرت ترميمات كثيرة على القبور في شتى العصور ، كما جرت ترميمات كثيرة على القلعة القائمة بين « زويلة » القديمة والحديثة .

سألت : هل تقصد بأن المباني الطينية القائمة على يسار الداخل للبلدة هي « زويلة » القديمة . . وما عداها هو الجديد ؟

أجاب الحاج علي : هو ذاك ما عنيته ، لقد احتفظ الناس والدولة بالمساكن الطينية القديمة ،

● كانت مرزق مجرد محطة للقوافل من قبل ، وأصبحت الآن بلدة حديثة ، نمت خارج بقايا السور القديم ، مبانيها وطرقاتها ومدارسها ومؤسساتها واداراتها كلها أصبحت حديثة . لاحظ الفتى والفتاة يدرسان سويا في فصول المدارس . والصورة أقصى اليمين مصنع حديث للملابس .

وبنوا الجديد ، لقد كثر الناس ولم تعد البلدة القديمة تستوعبهم ، لكنهم احتفظوا ببعض مواشيهم وطيورهم وأثاثهم القديم في البلدة القديمة ، وهم يزورونها عدة مرات في الاسبوع للتنظيف ومتابعة بعض الشؤون الحياتية الاخرى .

* هل تعتقد أن باب « زويلة » في القاهرة قد أخذ اسمه من اسم بلدتكم ؟

* أجاب الحاج علي وبعض المسؤولين في البلدة : إن ذلك صحيح تماماً ، لقد كان أهل زويلة جزء من قوات الدولة الفاطمية ، وبعضهم ذهب لفتح مصر ، وليس غريبا أن يكون أحد أبواب القاهرة يحمل اسم بلدتنا .

* حدثنا يا حاج علي عن حياتكم الآن ؟

ـ يسكن البلدة اربعة الاف نسمة تقريبا ، ومساحتها حوالي ٧ كيلو مترات مربعة ، ويعمل معظم السكان بالرعي وفي مزارع النخيل التي تعود لهم ، كما ويعملون في بعض مزارع الخضراوات والقمح التي يعود بعضها للدولة ، وقد تم بناء مصنع للملابس الداخلية سيباشر عمله خلال فترة قريبة ، وتوجد في البلدة مدرسة ابتدائية ، واخرى اعدادية وثانوية ، كما يوجد بها مستوصف واحد .

حاضرة « مرزق »

قبل أن نتوجه بالسيارة من مدينة طرابلس « الغرب » عاصمة الجماهيرية العربية الليبية الى بلدة « مرزق » في الجنوب ، فإن هاجس قطع حوالي ألف كيلو متر بين المكانين كان يقلقني ويثير في ذهني احتمالات كثيرة ، وهذا يعود الى أن هذه المسافة الطويلة التي سنقطعها ستكون في الصحراء ، وما يكتنف طرقها ـ ربما ـ من مخاوف ومخاطر !

إلا أن القول الذي يؤكد على المشاهدة الحية والمعايشة قد قطع قول كل خطيب ووفر حقائق طغت على كل الهواجس والأوهام التي كانت في الذهن .

فهذا الطريق الطويل بين العاصمة وبلدة « مرزق » ، معبد تعبيدا جيدا ، وقليلة هي السيارات التي تسلكه وتسير فيه ، مما وفر لنا سرعة مثالية لقطع هذه المسافة الطويلة نسبيا ، ووفر لنا مشاهدة متأنية للمساحات المحيطة بالطريق .

والانطباعات التي توفرت تفيد بأن تعبير ما يسمى بالصحراء أصبح تعبيرا غير دقيق ، حيث أن سلاسل الجبال والتلال تنتشر كثيرا في الصحراء ، كما ان أشجار النخيل والطلح والاثل التي تنبت في بعض مساحات الصحراء الخالية من العمران تشير الى أن المياه ليست غائرة في باطن الأرض ، بل هي قريبة من السطح ، كما أن بعض القرى والبلدات المنتشرة على طول الطريق ، التي توفر مياه الشرب لسكانها وحيواناتها وأشجارها من آبار الماء يؤكد أن هذه « الصحراء » لم تعد كما كانت ، وانها مقبلة على تطورات أساسية وجذرية قد تعطيها طابعا جديدا ، خاصة وان النهر الصناعي الذي يمر بأجزاء من هذه الصحراء قد تخطى مرحلة الحلم والتخطيط ، ليدخل في انجاز مرحلته الاولى ، وصولا الى المراحل اللاحقة التي ستمد الحواضر والبوادي بالمياه والخضرة والحياة .

هكذا وجدت « الصحراء » فاقدة طابعها الرومانسي الموسوم في بعض الكتب والذاكرات ، بعد أن اصبحت بعض أطرافها وتخومها محروثة ومفروشة بالمزارع وقامت عليها قرى وبلدات جديدة .

نقطع جبالا ووهادا وسهولا وصحارى ، ونصل بعد أن نقطع حوالي سبعمائة وخمسين كيلو متراً الى « سبها »

ثم نوالي السير فنمر ببعض المزارع التي تحيط بمدينة سبها حيث زراعة الحمضيات والنخيل .

ما زالت الطريق ممهدة ومعبدة بشكل جيد يخلو من الحفر والمطبات ، وما زالت خطوط

البيوت الكبيرة مصممة بشكل جمالي جيد يشابه أية « فيلا » في أي مدينة . . إنه التحديث العمراني يصل الى القرى والنجوع العربية .

صورة مقربة

اخذت معالم بلدة « مرزق » تتضح رويدا رويدا ، الطريق اتسعت واصبحت مزدوجة ، وأشجار النخيل تكاثفت ، وظهرت بنايات بعدة طوابق . وازدادت حركة السيارات .

انها « مرزق » احدى مدن الصحراء القديمة التي كانت محطة مهمة على طريق التجارة بين الشمال (ليبيا وتونس ثم اوربا) والجنوب حيث النيجر وتشاد وغيرها من بلدان افريقية ، أو قوافل الحجاج الآتية من صحارى أقطار المغرب العربي . على يسار الداخل للبلدة تقع عمارة ذات طوابق أربعة هي مقر بلدية « مرزق » التي يتبعها حسب ما ذكر لنا السيد البشير صالح - أمين اللجنة الشعبية للبلدية - سبعة فروع هي : (وادي عتبة) ، و (تراغن) ، و (أم الأرانب) ، و (زويلة) ، و (القطرون) و (أوزو) « تبعد الاخيرة عن مرزق ٨٠٠ كيلو متر وهي بالقرب من الحدود التشادية » و (مرزق) نفسها .

وأضاف السيد صالح : ان السكان في هذه البلدية المترامية الأطراف يصل عددهم الى حوالي خمسة واربعين الف نسمة ، بينهم عشرة آلاف يقطنون مدينة « مرزق » نفسها ويعملون الآن بالزراعة ، والصناعات الحرفية التقليدية (معظمها يعتمد على سعف النخيل) وبعض الصناعات الحديثة الناشئة (يوجد مصنع للملابس في مرزق) وخُمس محصول تمر الجماهيرية العربية الليبية هو من انتاج « مرزق » وبلديتها ، ويعتمد السكان وما بحوزتهم من زراعات وحيوانات على مياه الآبار التي يظهر فيها الماء بعد حفر أمتار قليلة .

● سألت السيد صالح : منذ متى اخذ مركز « مرزق » التجاري يتدهور ، وهل في النية
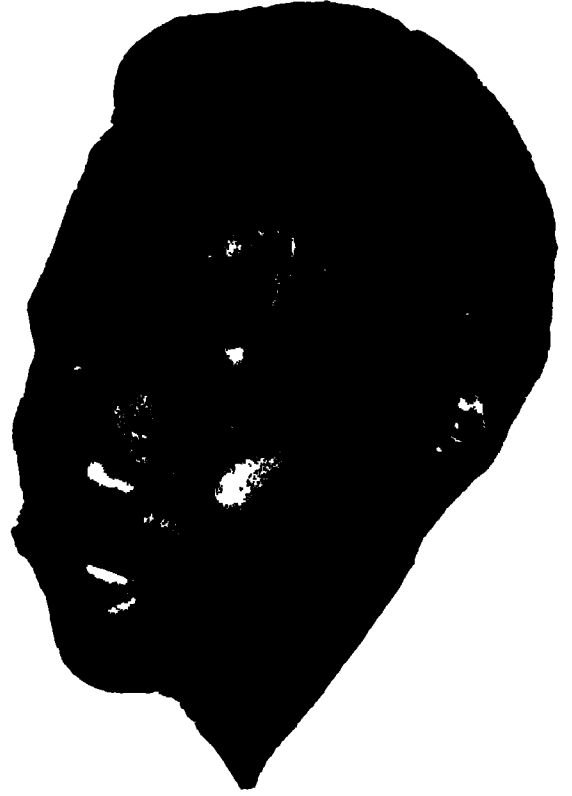
● السيد البشير صالح

الكهرباء والهاتف تحاذي الطريق . نمر بقرية صغيرة اسمها « غدرة » ، وقرية اخرى اسمها « تراغن » ، يليها قرية « الدبسة » ، وبعدها « اخماش » ، « وجيزوا » . . ثم نصل الى مرزق البلدة التاريخية المشهورة وهي عاصمة بلدية مرزق . بعد ان سرنا حوالي تسع ساعات متواصلة بالسيارة .

يحيط النخيل وبعض أشجار الصحراء كالاثل والطلح وبعض مزارع الخضراوات بتلك القرى التي مررنا بها ، كما أن ظاهرة وجود قسم قديم تم هجره في تلك القرى وبناء قسم جديد يجاوره أمر يتكرر أمامك ، حيث أن بعض البيوت القديمة أصبحت اطلالا دارسة ، وبعضها ما زال محتفظا بأجزاء منه ، ويلاحظ ان كل البيوت كانت مبنية من الطين وسعف النخيل ، في حين أن الأجزاء الجديدة من هذه القرى مبنية من الاسمنت المسلح ، وبعض

● فرقة (درج) للفنون تؤدي إحدى لوحاتها الفنية الجميلة . (أسفل) نموذجان من اللباس الليبي التقليدي في غدامس ومرزق

احياؤه وبعثه من جديد؟

- أجاب السيد صالح : من المعروف أن « مرزق » كانت عاصمة للجنوب الليبي إبان حكم الاتراك (منذ سنة ١٥٦٠ وحتى سنة ١٩١٣م) ومن الطبيعي ان يكون مقر الوالي فيها . وان تنال اهتماما مضاعفا من قبل السلطات ، خاصة وأنها كانت محطة تجارية مهمة في الصحراء .

ثم جاء الطليان والفرنسيون بعد الاتراك ، صحيح أن القوافل التجارية ظلت تتوالى في الذهاب والاياب في ذلك الزمن ، خاصة وأن الحدود لم يكن قد تم ترسيمها بشكل دقيق لكن مع ذلك فإن قيام الحروب ثم قيام الدول الحديثة وترسيم الحدود وظهور وسائل نقل متطورة قد أوقف أو حد من الدور الذي كانت تلعبه مدن الصحراء في حركة التجارة ، ومن كونها محطات استقبال أو بعوث لنشر الدعوات الدينية (لعبت مدن الصحراء دورا مهما في نشر الاسلام ، أو نشر افكار ومعتقدات الحركات الدينية النابعة من الاسلام)

هكذا فقدت هذه المدن أو الواحات دورها تقريبا ، وأصبح عليها أن تبحث عن دور جديد ، واذا ما سألتني عن التفاعلات السكانية فإني اجيبك بأن حركة المد والجزر والاستقبال والهجرة أوجدت تركيبة سكانية متنوعة . فأنت تجد في المنطقة عربا اقحاحاً ومستعربين ، ومن يعود بأصله الى جذور أفريقية ، وتجد عائلات عديدة نصفها في « مرزق » ونصفها الآخر في النيجر التي تبعد عن « مرزق » ٥٠٠ كيلو متر أو في تشاد التي تبعد عن « مرزق » حوالي ٩٠٠ كيلو متر .

لذلك فإننا نخطط بعد أن فقدت الدور السابق الى تحويل « مرزق » الى بلدة زراعية وصناعية . وقد قامت فعلا بعض المشروعات الزراعية وانصحكم بزيارة مشروع مكنوسة الزراعي

الواقع الحي

خرجنا من دار البلدية وبدأنا جولتنا في البلدة ، رافقنا فيها السيد حسين عبدالقادر الشريف أمين اللجنة الشعبية للاعلام والثقافة في بلدية « مرزق » . لفت نظرنا وجود قلعة قديمة فتوجهنا اليها ، فذكر لنا بأن القلعة قديمة ربما يزيد عمرها على ٥٠٠ سنة ، وانها بنيت زمن دولة اولاد محمد (احدى الدويلات المحلية) وبقيت مركزا للحكم زمن الاتراك والطليان والفرنسيين .

وذكر أنهم حولوها بعد الترميم سنة ١٩٨٧ الى مركز للتراث الشعبي ، وكل غرفة فيها تحتوي على أدوات وصناعات معينة من المصنوعات الشعبية مثل : ملابس الأفراح ، وأدوات الحصاد ، والفلاحة ، وصناعات القش من سعف النخيل ، والنحاسيات والذهب والأدوات الموسيقية ، وأعشاب البيئة ، وأدوات الصيد وغيرها .

لفت نظرنا بناء مستطيل كبير أبيض اللون ، وبجانبه عدة عمارات بيضاء اللون ايضا . . قال لنا السيد حسين : انه مستشفى مرزق . فتوجهنا اليه والتقينا بالدكتور محمد جمعة امين اللجنة الشعبية للصحة في البلدية ، ومدير عام المستشفى فذكر لنا : ان مستشفى مرزق افتتح سنة ١٩٨٧ ويستوعب ١٢٠ سريرا وفيه كل الاختصاصات ما عدا الاعصاب والمسالك البولية . وإنه مجهز بأحدث الادوات الطبية والعلاج فيه - كما هو التطبيب عموما في الجماهيرية مجاني - ويعمل فيه ٣٠ طبيبا هنديا وسريلانكيا وعربيا أغلبيتهم من الليبيين وكذلك هيئة التمريض .

وبعد جولتنا في المستشفى وجدنا أن عدد المرضى فيه قد لا يصلون الى نصف عدد ما يستوعبه .

وعندما سألنا الدكتور جمعة عن أهم الأمراض المنتشرة في المنطقة ؟ أجاب بأن معظم الامراض موسمية ، كالحساسية والاسهال ، وامراض اخرى مزمنة كفقر الدم الوراثي ، ومرض السكري وغيرها . وتستقبل غرف الطوارىء والعيادات الخارجية حوالي ١٥٠ حالة يوميا .

عن الجهود الذاتية التي يبذلها المواطنون لإنجاز بعض المشاريع ، ذكر لنا السيد محمد التواتي عضو لجنة التعبئة الشعبية في البلدية ، أن بعض المشروعات تم انجازها بواسطة مبادرات من قبل الناس ، حيث أن الدولة توفر بعض المواد الأساسية ، ليتولى بعدها الناس انجاز الأعمال ، وعلى سبيل المثال فإن مائتي ألف جنيه ليبي هي الميزانية التي كانت موضوعة لإنجاز إحدى المدارس الإبتدائية في مُرزق استطاع المواطنون تنفيذها بمبلغ سبعين ألف جنيه (الجنيه الليبي يساوي حوالي ٣ دولارات أميركية) ، وهناك مشروعات أخرى تم انجازها حسب هذه الطريقة منها : شق وغيرها .

النشيد والذكريات

احببت في صباح اليوم التالي لوصولنا الى مرزق ان انفرد باكتشاف سير الحياة بمفردي ، كانت الأرض ما زالت ندية من تأثير الندى الليلي ، وخيوط الشمس تتماوج على الكثبان والبيوت والاشجار .

شدني عناق الالتماعات الذهبية لخيوط الشمس وهي تتمازج بجدائل النخيل ، البرد قارس على الرغم من فيض تسلل خيوط الشمس الى كل المساحات .

علق رجل كبير في السن كان ملوا بالطريق : عندما ينزل المطر في طرابلس وجوارها فإنه لا يصلنا منه الا البرد القارص ، ومنذ ما يزيد على عشرين عاما فإن حبة مطر واحدة لم تنزل على هذه الاراضي ، مع ذلك فإن درجة حرارة هذه الليلة كانت تقترب من الصفر .

● الدكتور
محمد جمعة

بدأت أفواج الطلبة والطالبات بالتوجه الى مدارسهم زرافات ووحدانا .

ارتقيت تلة رملية تحيط بها حقول النخيل من جهات ثلاث في حين أن الجهة الرابعة كانت قد احتشدت بالبيوت السكنية الحديثة .

ثغاء الماعز والأغنام كان يصلني بوضوح ، حظائرالماشية كانت غير بعيدة عن المكان الذي ارتقيته .

سمعت أصوات مطارق من بعيد ، كان بعض البنائين يبنون عمارة جديدة (حركة العمران نشطة في كل المناطق التي زرناها) وغير ذلك هدوء وسكينة تريح الاعصاب والآذان ، ونادرة هي السيارات التي كانت تقطع الشارع المحاذي للتلة .

تزايدت أعداد الطلبة وهي تتجه الى المدرسة القريبة .

دق الجرس فجاءني صوت النشيد متغلغلا في حناجر الصغار ، حارا دافقا مترعا بذكريات الأمس وعنفوانها القومي : الله أكبر . . . الله أكبر فوق كيد المعتدي . لقد أصبح هذا النشيد ، هو النشيد الوطني في الجماهيرية العربية الليبية .

مسيرة التعليم

عن مسيرة التعليم في البلدية حدثنا السيد ابراهيم المهدي ابراهيم فذكر انهم بدأوا بسياسة « تأنيث » مدرسات الابتدائي ، لأن الانثى اقرب الى الطفل وأحن ، وأكثر تفهما لاحتياجاته ورغباته ونوازعه .

وأضاف انه بسبب دمج المرحلة الابتدائيه بالمتوسطة ، والتركيز على تخريج أجيال مشبعة بالعلم والمعرفة العملية ، فإن الاحتياجات لمدرسي بعض التخصصات (خاصة العلمية من بينها) قد ازدادت ، لذلك فان عدد المدرسين العرب قد ازداد في الفترة الاخيرة ، اذ ان عددهم كان مائة وثلاثة في البلدية كلها سنة ١٩٨٥ ، في حين أن عددهم قد صل الى مائتين وخمسة عشر في العام الدراسي ١٩٨٨ - ١٩٨٩ .

وقدم لنا احصائية تمثل مجمل اعداد الطلبة والمدرسين والاداريين في مدارس البلدية كلها وجاء في الاحصائية :

وصل عدد المدارس في جميع المراحل بالبلدية الى سبعة وثمانين مدرسة تحتوي على سبعمائة وسبعين فصلا ، وصل عدد الطلاب فيها الى ٨٤٨٥ طالباً وعدد الطالبات الى ٨١٢٧ طالبة ، في حين أن الهيئة التعليمية من اداريين ومدرسين وصل عددهم الى ١٣٤٨ .

ويمكن الاشارة الى أن مجموع عدد الطلاب والطالبات كان ١٠٠٣٧ في السنة الدراسية ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، والتعليم كما هو التطبيب مجاني في جميع أنحاء الجماهيرية ، ويدرس الطالب في نفس الفصل مع الطالبة في جميع مراحل التعليم .

في بلدة (تراغن) التي يصل عدد سكانها الى حوالي ثمانية آلاف نسمة وتبعد عن مرزق حوالي

● صورتاں للحدماں الطبية لى تقدم بالمحاں في كل أنحاء حماهيرية لصورة أعلى يسار - تمثل عدامس الحديثة . أما الصورتاں أسفل - يسار - فهي تمثلاں لنشاط الزراعي رراعة الصوبات - المحمية . ثم الزراعة المكشوفة في مكنوسة

خمسين كيلو مترا سألنا السيد عبدالقادر الصغير أمين اللجنة الشعبية في ثانوية ـ ثكنة ـ الجلاء الثانوية عن سبب اطلاق اسم ثكنة بدلا من ثانوية على المدرسة . . فعلق :

إن سبب ذلك يعود الى أن طلبة الثانوية وطالباتها لم يكن يستفاد منهم في الانتاج والدفاع ، فظهرت فكرة تجييش المدارس ، وتم اقرار تدريس خمس حصص في الأمور العسكرية أسبوعياً عليهم ، بينها الدروس النظرية والعملية ، وكل الدروس تعطى بالعربية طبعا ، ما عدا اللغة الانكليزية التي تدرس في المرحلة الثانوية فقط (ثلاث سنوات) .

* سألت : وهل تكفي السنوات الثلاث لاتقان الانكليزية ؟

ـ اجاب الاستاذ الصغير ، كما أجاب غيره من الاساتذة الذين طرحت عليهم هذا السؤال : نحن لا نضع سياسة التعليم ، إنما نحن ننفذها .

مصنع للملابس

السوق الشعبي المترب كان يجمع بائعين من أبناء مرزق وآخرين من أبناء المدن والقرى التونسية الذين جاءوا ببضاعتهم على سياراتهم الخاصة ليبيعونها في هذه المناطق النائية ، وليشتروا بثمنها من السوق الليبي أشياء يحتاجونها شخصيا ، أو يحتاجها السوق التونسي ، احتوى السوق على ملابس وأحذية وكماليات صغيرة من عطورات وأدوات زينة وحتى أبواب البيوت ، في حين أن جانبا منه احتوى على الخضراوات والفواكة الطازجة . بالقرب من هذا السوق كان العمال بصدد انهاء اللمسات الاخيرة من سوق البلدة الذي بُني من الاسمنت ، وتم تقسيمه وفرزه ليحتوي على مجمل قطاعات الانتاج وبيع احتياجات السكان .

* عندما سألت احد الباعة عن نوعية القمصان التي كان يبيعها والبلد الذي يصنعها ، فإنه لم يتوان عن الاشارة الى المبنى الكبير المجاور الذي كان يتكون من طابقين وعلق : انه المصنع الذي يصنع هذه القمصان وغيرها .

توجهنا مباشرة الى المصنع فاستقبلنا مديره السيد عبدالسلام صالح فقال : لقد تم افتتاح المصنع سنة ١٩٨٦ ، وكان عدد العاملات والعاملين فيه ١١٣ وقد وصل العدد الآن الى ١٥٣ عاملة وخمسة عمال ، وقد امتلك العاملات والعمال المصنع ، ونسدد ثمن آلاته وايجار المبنى على أقساط ، والمعدل الوسطى للاجرة هو حوالي ١٣٠ دينارا ليبيا في الشهر . ويقوم المصنع بإنتاج ٨٠٠ قميض وسروال يوميا (اللباس الليبي الوطني) ونأخذ رغبات وأذواق المستهلكين بالحسبان ، ونتابع احتياجاتهم وطلباتهم .

وقماش المواد المصنعة نستورده من كوريا ، كما أن آلات الخياطة مصنوعة فيها ايضا . وقد نفذ بناء وتركيب المصنع مهندسون ليبيون ، ويعمل في ورشة الصيانة مهندسون وعمال ليبيون ايضا ، وكل العاملات ليبيات .

ونوفر للعاملات والعمال بعض المزايا ، كتوزيع جزء من أرباح نهاية السنة ، وقد حصلت ١١٣ عاملة على آلات خياطة يستعملنها في بيوتهن ، كما أنه يوجد صندوق للاعانات للحالات الطارئة .

* سألت الحاجة عايشة محمود حبش مشرفة صالة الانتاج عن ساعات العمل ، وقدرتها على التوفيق بين دورها في المصنع ودورها في البيت . . فأجابت :

ـ نعمل حوالي سبع ساعات ، من السابعة حتى الثانية وهناك نصف ساعة للراحة ، كما ونعمل حسب نظام خط الانتاج ، الذي تتولى فيه كل عاملة عمل شيء محدد في القميص أو السروال ، وصولا الى الانجاز الكامل للقطعة ، وأي تهاون او تقصير يمكن رصده من

خلال مجمل الانتاج اليومي للخط .

أما من حيث التوفيق بين عملي في المصنع وادارتي لبيتي ، فإنني اقوم بعملي المنزلي على أكمل وجه ، وأفيدك بأنني لا اعمل بسبب الحاجة المادية فقط ، بل بسبب رغبتنا نحن النساء في ان نؤدي دورنا أيضا في الانتاج . . لأننا ببساطة نصف المجتمع .

الصحراء عندما تخضرّ

ان تشاهد وتعايش . . هو أفضل من أن تستمع وتقرأ . . هكذا رأينا وعايشنا الجهد الانساني وهو يحول الصحراء من رمال تسفوها الرياح وتوزعها على الجهات الاربع ، الى أرض خضراء منتجة تطعم سكانها وتقيهم شر العوز والفاقة .

قطعنا حوالي ربع ساعة ـ بالسيارة ـ خارج بلدة مرزق ، ومررنا ببعض القرى الصغيرة التي قيل لنا أن إحداها (تقروتين) يسكنها أفراد من قبائل الطوارق بعد أن تحضروا ، الكثير من بيوتها مبنية على طريقة (الفلل) من حيث الفخامة والحجم ، طرقها معبدة ، وتحيط بها أشجار النخيل والطلح والأثل .

ثم تابعنا المسير لمدة ساعة اخرى حتى بدأت تلوح لنا بعض أطراف الصحراء المخضرة ، قال مرافقونا . . إنه مشروع (مكنوسة) الزراعي .

استقبلنا المهندس ابراهيم نظيف مدير المشروع ونقل لنا المعلومات التالية :

اعتبارا من سنة ١٩٧٨ تم التفكير بإقامة مشروع لانتاج الحبوب في المنطقة ، وبالفعل فإنه تم مسحها ، وحفرت آبار المياه ، وباشرنا بالزراعة وكانت النتائج جيدة جدا وتبلغ مساحة المشروع حوالي عشرة آلاف هكتار الان .

وقد زرعنا في ١٩٨٨، ٢٤٠٠ هكتار قمح ، و ٤٠٠٠ هكتار شعير و ٣٢٠ هكتار برسيم ، ومائة هكتار بازلاء ، واستوردنا حوالي ١٦٠٠ رأس من الغنم مختلفة الأصناف تمهيدا لاقامة مزرعة مواشي ، ونفكر بأقامة مزرعة دواجن ، ونزرع مساحة من الارض تكفينا من الخضراوات .

يعمل في المشروع حوالي ٢٠٠ عامل معظمهم من أبناء المنطقة ، وقليل من بينهم أيدٍ عاملة فنية من الأقطار العربية .

ومعظم بيوتهم قدمها لهم المشروع ، وفي المشروع ٩٠ بئراً ارتوازيا والري والسقاية (بواسطة الرش الالي) والحرث والزراعة والحصاد تتم بطرق آلية ، ما عدا القليل منها كجني حبوب البازلاء مثلا ، وأعمق بئر بين الآبار يبلغ ٦٠٠ متر ، وأقلها عمقاً حوالي ٢٥٠ مترا ، والمعدل الوسطى للاجرة يصل الى ٢٠٠ دينار ليبي ، ويوجد في المشروع مختبر فني ،رالي قياس نوعية التربة واحتياجاتها وفحص مياه السقاية ، وفحص النبات وما يلحق بها من تغيرات أو تطورات ، كما نملك طائرات خاصة تقوم بالرش لمكافحة الآفات .

والمشروع مدار ذاتيا من قبل العاملين فيه ، ووصلت انتاجيته من القمح ١٣ ألف طن سنة ١٩٨٨ .

ويقوم عمال المشروع بنشاطات عدة تقرب الصلات بينهم ، وكلهم أعضاء في اللجان الشعبية (العمل السياسي في الجماهيرية يعتمد على اللجان الشعبية الموجودة في جميع وحدات العمل وفي الأحياء والمدارس وغيرها) .

غومة المحمودي في درج :

كان علينا أن نقطع مرة اخرى حوالي ١١٥٠ كيلو متراً من (مرزق) حتى نصل الى (غدامس) ، وكما كانت (مرزق) محطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الجنوب ، فإن (غدامس) كانت محطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الشمال الغربي .

بعد أن انتهينا من زيارة مشروع مكنوسة الزراعي مررنا (بوادي الآجال) الذي تحول

اسمه الى (وادي الحياة) ورأينا ما يزخر به من مزارع نخيل ، وحمصيات وخضراوات ، ثم مررنا (بسبها) ثانية ، ومررنا بقريتي (الشويرف) ثم (القريات) ، ومنها سلكنا الطريق الجديدة المعدة تعبيداً جيداً ، ولم يتم افتتاحها بشكل رسمي بعد ، متوجهين الى (غدامس)

وصلنا الى قرية (درج) بعد أن قطعنا ما يزيد على ٣٠٠ كيلومتر من القريات (تبعد القريات عن مرزق حوالي ٧٠٠ كيلومتر) وهي تبعد - أي درج - عن (غدامس) حوالي مائة كيلومتر فقط

التقينا في درج بالسيد ادريس احمد موسى امين المؤتمر الشعبي لفرع غدامس ، والسيد الخضيري ابو زيد طاهر امين العدل في فرع غدامس وتوابعه (وهما من درج) ومن المعلومات التي ذكراها عن درج ، اسجل التالي : عدد السكان فيها يصل الى حوالي خمسة آلاف نسمة ،

يعملون بزراعة النخيل والخضراوات والرعي في الوقت الحالي ، بينما كان الكثير منهم من قبل اما رعاة ومالكي ماشية ، أو مرشدي قوافل وتجاراً حيث أن درج كان لها دورها وموقعها في خريطة القوافل التجارية منذ قديم الزمان .

● قبور الصحابة كما يذكر أهالي (زويلة) مع قبابها

ثم ساحة البلدة القديمة ومدخلها ، لاحظ انعكاسات الضوء على أشجار النخيل في غدامس

●

وتبعد مقبرة المناضل الليبي غومة المحمودي حوالى ٦٠ كيلومتراً عن البلدة ، وقد لعب هذا المناضل دوراً بارزاً في مقاومة الاحتلال التركي لليبيا ، وقد اتخذ من درج مقرا له في فترة من الفترات ، كما كانت البلدة قاعدة لمقاتلي جيش التحرير الجزائري اثناء معارك التحرير في خمسينيات هذا القرن وأوائل الستينيات ضد القوات الفرنسية .

ومن الآثار اللافتة للنظر في البلدة ، وجود ما يسمى بقصبات ذياب وهي بقايا قلاع يقال بأن بانيها هو ذياب الهلالي أثناء هجرة قبائل بني هلال من الجزيرة العربية وتوجههم الى مصر وبلاد الشام ثم الى اقطار المغرب العربي في القرن الحادي عشر الميلادي ، كما ويوجد في البلدة منابع مياه تمتد عدة كيلومترات أسفل البلدة ، لا سيما القديمة منها . ويوجد بالقرب منها مياه جارية لا تنقطع في الصيف ولا في الشتاء ، ويعتقد أنها ناتجة عن مجموعة من ينابيع المياه القريبة من بعضها البعض .

هذا ويوجد في البلدة مصنع للتمور .

ونظرا لتوافر موروث تعبيري متعدد ومتنوع وغني في البلدة فقد أنشئت فرقة درج للفنون الشعبية رسميا سنة ١٩٧٧ ووصل عدد أفرادها الى حوالى ٤٠ فردا بين عازف وراقص .

ومعظم الرقصات هي استجابة لحاجات اجتماعية كانت سائدة بين الناس من قبل : كرقصة الحصاد ، والربيع ، والاستسقاء ، والرعاة ، والفلاحة وغيرها . ولكل رقصة ملابسها المتوافقة مع حاجات وصفات مؤديها مع تطوير بسيط ، وهم يستعملون آلات شرقية ، كالقانون والعود والكمان والطبلة والطار والدف وغيرها .

وقد قدمت الفرقة أثناء تواجدنا في البلدة ثلاث رقصات هي : الصندا ـ الكسكي ـ ورقصة الفلاح ، ورقصة الاستسقاء والرقصة الاولى تعبر عن أجواء الفرح اثناء اتمام مراسم الزواج ، في حين أن الاخيرة تعبر عن طلب الغوث ومن كلماتها :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
ارحم عبيدا اكف الفقر قد بسطوا

فواكه الصحراء :

نغادر درج وتلتف الطريق حول مجموعة من تلال . لنواجه بعد أقل من كيلومترين قرية صغيرة اسمها (ماترس) تلتف حولها أشجار النخيل ويظهر فيها قسم القرية القديم محاذياً للقسم الجديد .

تتوالى بعد ذلك مظاهر الصحراء التي تقطعها بين فترة واخرى تلال جرداء ، أو تلال الرمال الناعمة التي تكونت بفعل هبوب الرياح الشديدة .

تصادفنا بعد ذلك اسلاك واسيجة ، تمتد لمسافة طويلة ثم يظهر مبنى حجري وسط المساحة الواسعة المسيجة ، انه مطار (غدامس) الذي يبعد عن البلدة حوالي ثمانية عشر كيلومترا .

رؤوس اشجار النخيل العالية والأعمدة الحاملة لاسلاك الكهرباء والهواتف أخذت تظهر وتتزايد ، نقترب من مطار صغير آخر بالقرب من بوابة البلدة ، إنه مطار الطيران الشراعي والخفيف « الهليوكبتر » الذي يستعمل احيانا لرش المزروعات ، أو لنقل الحالات المرضية الطارئة الخطرة .

ثم يتفرع الطريق الى اتجاهين واسعين ، وتظهر اعمدة النور على الجانبين ، الجانب الايمن من الطريق تحفه المزارع ـ نخيل وخضراوات وفواكه ، نعم فواكه ـ فقد شاهدنا أشجار حمضيات ، وتين ورمان وعنب ولوز وغيرها ـ كما وشاهدنا أيضا حقولا مغطاة ـ صوبات ـ قيل لنا بعد ذلك إنها مزروعة بأنواع عدة من الخضراوات .

تظهر كتل متراصة بيضاء من المباني التي تبدو خالية من السكان ، اسمع تعليقا : تلك هي البلدة القديمة . . أعلق : إنها واسعة وكبيرة ،

● السيد المضيري
أبو زيد طاهر

ومبانيها ما زالت صالحة للسكن البشري !

علق مرافقنا : دعنا نترك الامر لمن يمكنه أن يفيدنا في هذا الأمر .

التقينا بمجموعة من مسؤولي أمانات المؤتمر الشعبي لفرع (غدامس ،) فرافقنا السيد أحمد مالك امين اعلام (غدامس) في جولة بالبلدة وحولها ، فذكر لنا أن (غدامس) تقع في جنوب غرب مدينة طرابلس على بعد حوالي ٦٣٠ كيلومتراً منها ، وأن البلدة تبعد خمسة عشر كيلومترا عن الحدود الجزائرية ، وثمانية كيلومترات عن الحدود التونسية ، لذلك فإن حركة الناس بين الاقطار الثلاثة ، متواصلة وكثيرة وربما تعود بعض أصول العائلات الى هذا القطر او ذاك ، وذكر أن عدد سكان البلدة يصل الى حوالي ثمانية آلاف نسمة ، وانها خضعت كالكثير من البلدان والمناطق لقوى كثيرة غزت القطر الليبي كالرومان والنورمانديين والاتراك والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . لكنها في كل هذه العهود كانت مستمرة في لعب دورها كمحطة لقوافل التجارة ، واذا ما كانت (مرزق) محطة بين القوى التي كانت مسيطرة على الساحل الجنوبي من البحر المتوسط وبين النيجر وتشاد وغيرهما من بلدان ، فإن (غدامس) كانت محطة بين هذه القوى ، وبين مالي ونيجيريا وغيرهما من بلدان أيضا ، عبر محطة أقرب الى هذين البلدين هي واحة (غات) الليبية التي يعتقد بأن نصف سكانها تعود أصولهم الى (غدامس) نفسها .

وذكر السيد مالك أثناء جولتنا حول البلدة أنه كان يحيط بالبلدة سور قديم ـ شاهدنا بعض بقاياه ـ فيه أربعة ابواب ، وان الاسم القديم للبلدة حسب المصادر الرومانية هو (سيدا موس) ، وانه يوجد فيها بقايا معبد قديم مبني من حجارة صغيرة وطين اسمه (تمسمودين) . ورأينا تمثالين قديمين بالقرب من مقبرة البلدة ، قيل لنا انهما من بقايا الآثار الرومانية مع أنهما مبنيان من حجارة صغيرة وطين ولا يمكن ان يصمدا طيلة هذا الزمن الطويل ! وذكر السيد مالك ان منطقة (الظهرة) التي تقع غرب البلدة كان يسكنها بعض قبائل الطوارق.

غناء أمس :

تواعدنا للالتقاء عند العصر بالحاج احمد قاسم ضوى وهو شيخ عمره حوالي ٧٨ سنة ، وهو مؤرخ المدينة الشفوى الذي يحفظ حتى تواريخ الأيام المهمة في حياة البلدة (يتكلم العربية والفرنسية والايطالية وبعض الانكليزية ـ والبربرية طبعا ـ وقليلاً من إحدى لغات نيجيريا) الشمس كانت محاصرة بغيوم بيضاء ، واشعتها كانت تتسلل بين فترة وأخرى لتعانق رؤوس أشجار النخيل العالية ، بياض البيوت القديم كان يلمع تحت خيوط الشمس .

كنت استحث الحاج أحمد كي يطلعنا على خبايا وخفايا ما يعرفه عن البلدة القديمة ، قبل أن تغرب الشمس وتحل العتمة .

بدأ الحاج احمد بسرد المعلومات : هنا كان

● صانع الأحذية التقليدي دقة صنع ونقوش جميلة ، ثم مباني غدامس القديمة

مراح القوافل . . وهذه هي سواقي المياه التي كانت تشرب منها . وتلك نخلة يتجاوز عمرها أكثر من ٣٠٠ سنة .

وصلنا في جولتنا الى عين ماء جف ماؤ ها .

علق الحاج احمد : هذه هي عين الماء الوحيدة التي كانت تقوم عليها حياة البلدة ، وقد ذكرها المؤرخون عندما كتبوا عن البلدة . أي أنها قديمة قدم البلدة ، وقد توقف ماؤ ها عن التدفق منذ سنة ١٩٧١ ربما من كثرة ما تم نزحه منها .

سألت : ما هي حكايتها ، وما الذي يذكره موروثكم عنها ؟

ـ اجاب الحاج احمد : انها عين فرس ، وما هو موجود في موروثنا الشفهي والمكتوب عنها يفيد ما معناه : بأن بعض الفرسان مروا بمكان البلدة ، ومصادرنا تنسبهم الى ملك اليمن ذي يزن ـ فيما تنسبهم مصادر اخرى الى النمرود بن كنعان ـ وانهم استطابوه ، فحلسوا لتناول وجبة الغذاء فيه ، ثم واصلوا مسيرهم بعد ذلك ، لكنهم افتقدوا في اليوم التالي عرضا من أغراضهم ، فخمنوا انهم ربما نسوه في المكان الذي « تغدوا فيه أمس » فعاد فارس منهم الى المكان فعطشت فرسه ثم ضربت الأرض بحوافرها ، فتفجر الماء ، ومن يومها عرف المكان « بعين فرس » وعرفت البلدة « بغدامس » .   . . و استمرت عامرة بسكانها حتى سنة ١٩٨٢ ، وكانت تنقسم الى محلتين : بنو وليد ، وهي بدورها تتفرع الى ثلاثة تجمعات هي : درار ، تصكو ، ومازيغ ، والثانية بنو وازيت وتتفرع الى اربعة تجمعات هي : تفرفرة ، تنزين ، حرساد وبلليل ، وكل هذه التجمعات كانت داخل سور البلدة ، وكان يوجد خارج سور البلدة تجمع ثالث للطوارق في محلة « اوغاس » .

جولة في البلدة القديمة :

تابعنا جولتنا في البلدة القديمة وتابع الحاج احمد رواية تاريخ هذا المكان أو ذاك . (السكيك) أو طرق البلدة ضيقة جداً لا يتجاوز عرض بعضها متراً واحداً ، وبعد مسافة معينة فإن الطريق يتسع ويتفرج عن ساحة كانت تمثل ملتقى لأبناء الحي حيث يقيمون افراحهم واتراحهم ، ومعظم الطرق مسقوفة وغير مكشوفة ، يأتيها النور والهواء من بعض الفتحات والفراغات التي كانت تترك بين حي وآخر ، او بين مجموعة واخرى من البيوت ، ضمن هندسة دقيقة موزعة توزيعا فنيا .

دخلنا أحد المساجد فذكر الحاج أحمد انه المسجد العتيق وقد تم تأسيسه في عام ٤٤ هجري ، الموافق ٦٦٨ م ، أي في نفس العام الذي فتح فيه عقبة بن نافع البلدة ، وقد تم ترميمه عشرات المرات ، ويوجد عشرات المساجد داخل البلدة ، وما زال المصلون يؤمونها يوم الجمعة ، وفي الاعياد .

وصلنا الى بيت كان قد سبقنا اليه بعض مرافقينا فارتقيناه وصعدنا درجاته الضيقة ، حتى وصلنا الى « مربوعته » اي الى وسطه ، كانت رائحة البخور قد عبقت في المكان ، وبدأ أحد المرافقين بالتعريف بمحتوياته فذكر : انه البيت النموذجي الاثري في « غدامس » ، اسس سنة ١٩٣٦ للابقاء على الصورة التقليدية للبيت الغدامسي ، كما تم توارثه . هنا المخزن ، وهناك دار الرجل مع أبنائه ، وغرفة المرأة وبناتها ، هذه ملابس العروس ، وهذه ادوات الزينة ، وأدوات الاضاءة ، وجرار وخوابي وطنافس وسجاجيد وحصر .. انبثقت رائحة مكونات الماضي وتجسدت امامنا .

علق الحاج احمد : ذلك ما كان ، إنه الماضي ولقد كثر الناس ، فكيف لبلدة لا تتجاوز مساحتها سبعة كيلومترات مربعة أن تستوعب السكان الذين تزايدوا كثيرا ؟

خرجنا من البيت بعد أن لفت العتمة الجوار ولم يهدنا الى طريقنا الا بعض الأضواء القليلة التي بقيت في بعض الأماكن بالبلدة القديمة .

والجديد :

على الرغم من خلو السماء من أية غيمة في صباح يوم (١٥/١٢/١٩٨٨) وكانت مشبعة بالغيوم في مساء اليوم السابق ، وعلى الرغم من شروق الشمس وتسلل خيوطها الى الأرض وما يدب عليها ، مع ذلك فإن البرودة الصقيعية بقيت سائدة الى درجة اننا اضطررنا لاستعمال المياه الدافئة كي نذيب الجليد الذي وجدناه منتشرا على زجاج السيارة .

التقينا بمسؤولي أمانات التعليم والصحة ، والعدل (الامن) والزراعة في البلدة واستمعنا وناقشنا المعلومات التي أوردها كل مسؤول .

عن مستشفى غدامس المركزي الذي قمنا بجولة على معظم اقسامه برفقة مديره الدكتور محمد فايز عبد الله هيبة ورئيستي الممرضات فيه ، العربية الليبية السيدة شريفة واليوغسلافية السيدة اويلا .

ذكروا لنا : لقد تم افتتاح المستشفى سنة ١٩٨٤ ويحتوي على ١٣٤ سريرا ، وجدنا أن نصف هذه الاسرة قد شغل فقط ، وانه يوجد في المستشفى معظم التخصصات ، وان الهيئة الطبية مكونة من أطباء عرب (ليبيون وغيرهم من الاقطار العربية) ويوغسلاف ، وهنود ، كما أن الهيئة التمريضية مكونة من ممرضات يوغسلافيات وعربيات ليبيات . وان معظم الأمراض السائدة هي ارتفاع ضغط الدم ومرض السكر وامراض العيون خاصة عند سكان البلدة القديمة ، ويراجع العيادات الخارجية حوالي ٣٠٠ مريض يوميا . وتوجد في المستشفى أحدث آلات التشخيص والعلاج والفحص والمختبرات .

وإن العلاج مجاني تماما مثل التعليم ، وان جميع الحوامل يلدن في المستشفى ، وذكر لنا

السيد قاسم مانع أحد مسؤولي قطاع الصحة أنه يوجد مستوصفات متخصصة في البلدة ، كمستوصف الصحة المدرسية ، ومستوصف صحة المجتمع ، ومركز الامومة والطفولة ، ومركز الرعاية الصحية الأساسية .

وذكر لنا السيد مفتاح عبد القادر ضوى أمين اللجنة الشعبية للتعليم بأنه تم تغيير مناهج التعليم حيث ادمجت المرحلة الابتدائية بالمتوسطة ، وأطلق عليها كلها مرحلة التعليم الأساسي (من الاول حتى التاسع) ويتم التركيز فيها على العلوم التقنية والفنية .

ثم ذكر لنا السيد محمد احمد رشيد امين قطاع الزراعة عن الحيازات الزراعية في الفرع ، بأنه يوجد ١٠٥٥ حيازة زراعية وأنها تنقسم الى اراضي مروية وبعلية (مساحتها ٦٦٤ هكتارا) وان الاعتماد الكلي في الشرب والسقاية يقوم على الآبار ، وان عدد أشجار النخيل قد وصل الى ٢٢,٩٠٨ نخلة ، هذا عدا الاشجار المثمرة الاخرى ، وانه يوجد توجه لاعتماد الزراعات المحمية ـ الصوبات ـ .

توجهنا الى سوق المصنوعات الشعبية بعد لقائنا بمسؤولي أمانات الفرع ، وهو مواجه لقلعة البلدة التي ما زالت بحالة جيدة (كانت تخضع للترميم من الداخل أثناء زيارتنا للبلدة) فذكروا لنا ان بناتها هم الايطاليون الذين دخلوا المنطقة منذ سنة ١٩١٣ واخرجوا منها عدة مرات الى ان استقروا فيها اعتبارا من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٤ ، وحل مكانهم الفرنسيون الذين بقوا فيها حتى سنة ١٩٥٧ .

وسوق المصنوعات الشعبية يحتوى على عدة محلات مملوكة للحكومة ويقوم الصانع فيها بدفع مبلغ رمزي (٥ جنيهات ليبية في الشهر) والمكان أو الدكان يصنع فيه الصانع صناعته ويعرضها للبيع في نفس الوقت ، وأهم الصناعات في السوق هي صناعة الجلود وصياغة الذهب والفضة ، والفخار ، والحصر ، والاطباق والقبعات (من سعف النخيل) .

وقد ذكر لنا السيد محمد بدر ٧٢ سنة الذي يعمل بصناعة الجلود انه اخذ المهنة عن والده الذي اخذها بدوره عن والده ايضا ، وذكر انهم يستوردون الجلود من طرابلس او بنغازي في حين ان القسم المطرز او المنقوش من مادة الجلد يقوم بعمله ناس متخصصون في (غدامس) ، وهم يعتمدون على نقل نقوش متوارثة او يلجأون الى ابتداع نقوش جديدة ، وهذا ما يتم بالنسبة للذهب والفضة .

التفاؤل بالغربان :

قبل أن نغادر « غدامس » رأيت بعض الطيور السوداء ـ الغربان ـ تطير ثم تحط على رؤوس اشجار النخيل ، فسألت الحاج احمد قاسم ضو : ماذا يمثل الغراب في موروثكم الشعبي ؟

ـ أجاب : انه طائر من الطيور .

نقلت السؤال الى مرافقينا الآخرين : فذكروا لا يوجد معنى خاص لحضور هذا الطائر حسب اعتقاداتنا .

* علقت : ألا يمثل رمزاً للتشاؤم عندكم ، خاصة وانه يمثل ذلك في بعض الاقطار العربية ؟

ـ اجاب الحاج احمد : إنه لا يمثل اية صورة من صور التشاؤم في موروثنا ، بل إن بعض القوافل في الصحراء تستدل اذا ما رأته على انها أصبحت قريبة من الواحات أو من العمران .

علقت مازحا : وهل يمكننا أن نسافر على الرغم من ملاحقة الغربان لنا ؟

ـ انفجر الحاج احمد ضاحكا مع مرافقينا الآخرين وعلق : لو كنا نعرف ان للغربان مدلولا تشاؤميا عندكم ، لكنا وجهنا الكثير منها نحوكم ، علكم تبقون في ضيافتنا لمدة أطول .

ضحكنا وضحك الجميع ، وكان وداع وجاءتنا الأصوات مجتمعة : رافقتكم السلامة .. رافقتكم السلامة . □

النحنحات

لم يكن سعاله الذي تناهى إليّ من الزنزانات الداخلية عبر البهو المعتم الضيق ، ليلكز اهتمامي بأكثر مما يفعله وقع انصفاق باب أو سقوط وعاء رنان على أرض صلبة ، لولا أن ما تلا بدّل معنى الحادثة العابرة ، ثم أكد دلالتها !

فبعيد السعال الذي تدفق من جوف البهو ، حادا متتابعا ، انتابتني ـ صدفة ـ نوبات سعال متتابعة ، أقل حدة ، ما كادت تهدأ حتى لحقتها نحنحتان : « إحم .. إحم » بدتا لي مفتعلتين ، ليس فيهما أثر لسعال حقيقي كأنهما تصدران عن فم لا من جوف أو حلق . فجرّبت ـ تباعا ـ نحنحة قصيرة منغمة بتساؤل : « إحم ؟ » ، وإذ بي أتلقى نحنحة مماثلة ، دون تنغيم ، مفعمة بتأكيد وقصد ، وكأنها تردّ تحية لتحية !

« يهتف لي إذن ! ولكن ، من يكون ؟ وماذا يريد من نحنحاته ؟ أيعرفني !؟ هل هي اشارة منه لم أفهم معناها ؟ » سللت مسمارا كنت خلعته من باب زنزانتي الخشبي ، ورحت أتطلع من دائرة الضوء الصغيرة : السجّان غائب . أعدت المسمار ، وأطلقت نحنحة لأتأكد أكثر ، فتنحنح يؤكد ظني ! تنحنحت كرة ، ففعل ، وأعدت ، فأعاد !!

[illegible] الزيارة [illegible] صافحت جدرانها ، فانسكبت حزم ضوء [illegible] الظلام الصامت . فرحتُ بالضوء ، وخفت أن يغيب فتمطيت صامتا ، فصات كأنه يتمطى !

وأمسكنا اللعبة ، هو من طرفها الذي يتناهى إليّ غائرا من تلك الزنزانات القابعة في جوف البهو ، وأنا من الطرف الآخر في زنزانتي التي تواجه مدخل البهو .

وعبر المسافة المجهولة الظلماء بين زنزانتين رحنا نشد ، من وقت لآخر ، حبل النحنحات . أرقب السجّان وأتنحنح ، فيطمئن ويتنحنح ، ونواصل لعبتنا التي لوّنت هذا القاتم من الصمت . ميّعت هذا اللزج المنثال على أيامي التي تتشابه بتطابق كريه . آنست وحدتي فلم أعد منفردا ، وربما فعلت ذلك معه أيضا .

ومضت أيام لهو كثيرة أذابت فيها وحدته وحدتي ، وصارت روحه لصيقة روحي . وما كان لعبة لمجرد كسر الصمت المفروض الخانق ، صار شاغلا حلوا . متعة انتظمت بصورة مدهشة في أبجدية قليلة أشاعت قربا ودفئا حنونا ، وتواصلا يروي القلب الذي جففته الجدران الكتيمة والفراغ الكتوم .

ولم أكن أدرك أي بوح عميق مفعم يختفي

خلف الأصوات ، حتى عشت تلك الأيام من النحنحات مع صديقي المجهول . فمن نحنحاته صرت أحس بهمومه وبهجاته وأحزانه من تهدجها أو رخاوتها . من اندفاعها أو ترددها ، من صدورها محزوزة مجروحة أو قوية مشبعة ، من الآه أو الآخ التي يطلقها آخر النهار .

وبسبب الحظر المشدد على أي كلمة أو نداء من المعتقلين ، لذّت حيلتنا وطابت ! فرحنا ننوع أصواتنا ونبحث عن مفردات جديدة نضيفها إلى « لغتنا » المكتشفة .

أشركنا التثاؤب الطليق الصائت للتعبير عن ملل أو الاعلان عن رغبة في النوم ، وافتعلنا العطاس القوي ليوقظ أحدنا الآخر ، حتى أننا أدخلنا المزاح أيضا إلى لغتنا الخاصة الجديدة !

كنا ، بعد كل توزيع للطعام ، نتسابق في إطلاق نحنحتين ممطوطتين مغناجتين إيحاء للآخر بأن نصيبه اللذّ وأوفر ! وغالبا ما كان يسبقني في التنحنح ، فاغتاظ وأبادله نحنحتين مثيلتين لا للذّة في وجبتي أو وفرة فيها ، بل لأ ردّ له الصاع وأغيظه أيضا !

ومنذ أيام قليلة ، قبل أن يحدث ما حدث ، كنت أحاول أن أراه . أن أوسّع الثقب ، وأتفق معه بنحنحة مشيرة على لحظة خروجه ، وأراه . فلم يبق من صداقتنا ما تتوقّ اليه الاّ العيون . لأننا بتنا معا . أشبه بكفيفين تجمعهما زنزانة واحدة دون أن يدريا . وبتنا إن تأخر أحدنا أو تلكأ ، تنحنح الآخر عجولا ، وإن سها ، وقلما يسهو ، تنبهه نحنحة عاتبة !

هل سهوت يومئذ عن النحنحة ، بشارة الأمان ؟! هل تأخرت في المراقبة وطمأنته ، حتى بادرني باطلاق نحنحات عاتبة غاضبة ؟ !

لم أتنحنح حين سمعت نحنحاته ، بل عاجلت إلى سحب المسمار والتطلع من الثقب ، ففوجئت بالسجّان منحنيا يتلصص ، وقد توارى معظمه خلف باب البهو وارتددت فزعا ! ظلت نحنحات صديقي تعلو وتتلون وتتغير . عاودت التطلع . . فلمحته يخطو منحنيا متلصصا . دفعت حنجرتي لتتنحنح ، فأحسست بها خورا ! حاولت وحاولت ، ولكن الدوران العجول لمفتاح السجّان سبقني في كتم نحنحات صديقي . ثم ، كما يُشقّ ثوب على دفعات ، دوّت ارتطامات اللحم على اللحم ! أزّت ، وتلاطمت ، وتتابعت ، ثم ران ما يشبه الذنب أو الخديعة على عينيّ !

آب السجان . ومع كل خطوة كان يؤوب بها وينأى ، كنت أنزلق في وهدة ألم حزين واجف بعدها ، ران صمتٌ . صمت لم أسمع مثله يوما مذ دخلت الزنزانة . كزرت على أسناني وأنا أنهض من وجيفي الأليم نحو الثقب : دائرة ضوء فارغة . بلعت ريقي ، وتنحنحت ، ارتطمتْ النحنحات بـالصمت وارتدتْ ! أطلقتُ نحنحتين مناديا . ثم أعدت ، لم يجبني ! كررت راجيا ، فأحسست بنحنحاتي تتهاوى واهنة ضعيفة . عاودت مناديا ، ثم متسائلا ، ثم مازحا كما في أوقات الطعام ، غير أن صوتي بدا أشبه بنباح جرو وليد لفحه الجوع والزمهرير ، جرو يصوت في بهو معتم ضيق ، فلا يُسمع غير رجع صداه الخوّار المفرد !

وكما تطبق قوقعة على عتمها ، انسحبت حزم الضوء من زنزانتي ، وأطبقت جدرانها على جسدي البارد ، البارد . □

دعــــاء : أعطني اللهم الصفاء ليتسنى لي أن أقبل ما لا يمكن تغييره، وأعطني الشجاعة لأغير ما لايمكن تغييره، وأعطني الحكمة لأفرق الواحد عن الآخر.

شعـر :
محمد عثمان كجراي

احتوانا معاً في الصباحِ الطريق
فارتديتُ الحريق
وتلفتُّ أسألُ :
هل للبنفسج في عطره كل هذا الرحيق ؟
أوقعتني على ساحةِ الوجدِ من قلبِهَا نظرةٌ ضارية
ثُمَّ دَارَ الحديثُ بومضِ العيون
فيا لَلْهَوى حينَ يرفضُ في لحظةِ التَّوقِ
أنْ يتحدثَ باللغةِ الجارية
التفاصيلُ كانتْ على مذبحِ العشقِ مطروحةً عارية
كنت مُغْشَوْشِبًا بالسُّقى
في بساطِ الطبيعةِ بالخضرةِ الأبديَّة
حينَ ينطلقُ العشقُ لابُدَّ أنْ تتَنَاسَلَ كُلُّ الحروف
تُوَدِعٍ أشْجَانَهَا
تَنْبُض الرغباتُ تُضِيءُ على ساحلِ الأبجدية
آه ياامرأةً في الحنايا هُنا دارُهَا
للمشاعرِ حينَ تَضُجُّ الصباباتُ أسرارهَا
للعواطفِ حينَ تضيقُ المساحاتُ
في لحظةِ العشقِ أشعارُهَا
للحدائقِ أزهارُهَا
للمواقعِ أخبارُهَا
للتماثيلِ أحجارُهَا
للمدينةِ أسوارُهَا
كيف تمشين مسحورةً في دمائي ؟
وتمضين مطبوعةً في كهوفِ اشتهائي
ها أنا من جراءةِ عَيْنَيْكِ مُسْتَهْدَف
والحرائقُ ضجَّتْ بأوْرِدَتي
صادِرِي كُلَّ حريقي
ارتَضَيْتُ عبوديتي
قلتُ : ياحلوتي
احتوانا معًا في الصباحِ الطريق
فَارْتَدَيْتُ الحريق
هَا أنا أتَسَاءَلُ : هلِ للبنفسج في عطرِ، كُلُّ هذا الرحيقْ ؟
ولعُمْقِ شفَافِيَتِي كُلُّ هذا البريقْ ؟

* شاعر من القطر السوداني

صدر العدد الجديد
العربي الصغير
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
مارس
١٩٨٩
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
في هذا العدد
استطلاع عن الحرانية.
همام .. "قصة بالرسوم".
دعوة لزيارة مدينة "لندن".
عندما انهار السد "مسلسل تاريخي".
ذات الهمة "الحلقة الثالثة".
قصة الخيال العلمي "خطأ بسيط".
إضافة للأبواب الثابتة
إسلاميات
كمبيوتر
٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
دائرة معارف العربي الصغير
نتيجة مسابقة العدد ٣٦

● عندما يقف الأطفال حائرين.
○ بعضهم يعاني من شرب الحليب.

عندما يغضب الأطفال حائرين!

إعداد : ريم الكيلاني

يقول جان جاك روسو « إن أفضل الظروف لنمو الطفل هي البدائية الساذجة التي يجمع فيها الفرد خبراته بنفسه ، ويكون شخصيته ، ومعتقداته الساذجة وفق ما يتهيأ له من ظروف بصورة عفوية » .

قد يسحرنا في البداية جمال هذه الفكرة ، وما فيها من تأكيد على الحرية ، لكننا إذا أمعنا التفكير ، نكتشف أن حياتنا المعاصرة لا تتسع لهذه الرومانسية ، فهناك البيت ، وهناك العائلة ، وهناك المجتمع الخارجي .

وحين يكتسب الطفل مجموعة من الخبرات والسلوكيات ، فإنها تكون صدى لمفاهيم وأفكار العائلة والمجتمع الذي يعيش فيه ، وبين العائلة والمجتمع مسافة يقطعها الطفل أثناء رحلته لتكوين شخصيته وآرائه وأفكاره ،ولا تضاهي حاجة الطفل للحب والحنان والعطف من جانب والديه أي حاجة أخرى ، لذا فإنه يسعى باستمرار لتنفيذ كل ما يرضي والديه مبتعداً عما قد يغضبهما ، ليحظى دائماً بدفء العلاقة معهما ، وقد يضغط الطفل على نفسه أحياناً ، وقد يقوم بسلوكيات من شأنها تقليل قدرته على مشاركة من حوله من أصدقاء أو أقارب ، سواء في اللعب أو في تكوين علاقات اجتماعية سوية ، وفي الغالب يكون ذلك خوفاً من فقدان حب الأهل وحنانهم ، ولكنه بذلك إنما يفقد ثقته بنفسه بالتدريج . وقد يتطور الأمر ليصبح عاجزاً عن إثبات نفسه وتحقيق استقلاليته . وشيء يمثل

[illegible]

[illegible] ... عليه ... [illegible] ... خصائص معينة ... [illegible] ... تجربة كاملة ... [illegible] ... العائلة التي ... [illegible] ... للعائلة في تهيئة طفل يخرج إلى المجتمع قوي، واثق النفس أو ضعيف متردد ومرتبكا

ويذكر «ضياء أبو الخب» في كتابه «الطفولة السعيدة» أن الوالدين مسئولان أولا وأخيرا عن إهمال الأطفال أو سوء تربيتهم. فالطفل يتطلع باسما إلى المستقبل، فلا يشعر بخوف أو قلق، بل تراه يجرب أمور الحياة ولم يتردد». وهذا يعني ضمنا أن الخوف والقلق والتردد يبدأ في العائلة، ومن خلال أسلوبها في التعامل مع الطفل، وأن استمرار [illegible] وعدم الشعور بالخوف أو القلق هو أيضا من صنع العائلة نفسها

فإلى أي مدى يظل هذا القول صحيحا إذا انتقلنا من الكلام النظري إلى الواقع العملي ؟

الوقوع في الهوّة :

عصام هو الطفل الأصغر لعائلة مكونة من أم وأب وثلاثة أبناء، والداه يخافان عليه من كل شيء، فيمنعانه من الاختلاط بأطفال الجيران ويحذرانه من الاتصال بزملائه في المدرسة، ولا يسمحان له بالخروج دون صحبة أحد أشقائه أو والديه، ويبالغان في تهويل حوادث السرقة والغش والكذب، وفي وصف العقاب الشديد الذي يتلقاه هؤلاء، ويحرصان دائما على تذكيره بأن ارتكاب أي خطأ، أو مخالفة رغبات والديه يعني حرمانه من مصروفه أو من نزهة نهاية الأسبوع، وقد تصل العقوبة أحيانا إلى حد الضرب. والنتيجة أن عصام سيلبي رغبات والديه على الرغم من شعوره أنه مقيد وغير حر فيما يفعل. ولكنه في الوقت نفسه لا يشعر

أطفال يلعبون بعيدا عن المنزل

اختيار الأصدقاء يتم بمعزل عن الأهل

وتستمر معركة التحدي إلى أن ترسو الأمور ويحدث التوازن بين المقبول من هذه القيم وغير المقبول منها .

ولا يخلو الأمر في كل المجتمعات من وجود بعض السلوكيات السلبية مثل الكذب أو الغش والخداع ، ولكن علينا تقع مسؤولية تعريف الأبناء بأن هذه ليست هي سمة المجتمع ، أو القاعدة الرئيسية فيه . ويجب أن نحرص نحن كأولياء أمور على حماية الأبناء معرفة وعلم بالسلبيات . وأن نهتم أيضا بتعريفهم بالإيجابيات فلا يقعون في حصر مجاراة المجتمع في سيئاته .

وقد تكون التربية عن طريق تعريف الطفل بالشر وأنماطه ، وتحذيره منه مع إعطائه الفرصة لخوض تجربة ما ، محدودة إلى حد كبير ، فهو سيتعلم من تجربته الشخصية هذه ، درسا مهما يفيده في حياته المستقبلية . وقد يحدث أن يتبنى الطفل قيمة أو سلوكا غير مستحب ، وهنا لا بد من بيان خطأ الطفل ، وتعريفه بخطورة الاستمرار ، ثم العمل على إبعاد الطفل عن الجو الذي أدى به إلى تبني سلوك معين ، سواء كان صديقا في المدرسة أو في الحي ، مع مراعاة ضرورة إيجاد جو مناسب وبديل له ، حتى لا يشعر بأنه مقيد ثم متابعته متابعة سليمة مع السماح له بمكاشفة خطأ على ألا يفسر هذا الخطأ على أنه تحد ، بل على أنه سلوك غير إرادي . علينا أن نساعده في التخلص منه .

خطـــوط التمـــاس :

ولكن . هل تنتهي قضية التلاؤم مع رغبات الأهل ، ومشاكل التربية بانتهاء مرحلة الطفولة ؟ إن مرحلة المراهقة تأتي لتزيد من حدة الاحتكاك وقوته ، خاصة أن تلك المرحلة لها ظروفها

واحتياجاتها الخاصة ، كما أن ظهور محاور حديدة كالحي والمدرسة والنادي يجعل أسباب الاحتكاك والاختلاف أكثر وأقوى . وتتحدث الدكتورة « سهام أبو عيطة » حول الاختلافات في مرحلة المراهقة بحسبانها امتداداً للتفاوتات التي ظهرت مع الطفولة المبكرة تقول الدكتورة سهام : « القيم تكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية أولاً ، وتتحدد من خلال الانتماء الطبقي والاقتصادي والاجتماعي ثانياً وهناك أيضاً مجموعة من القيم الخاصة لدى كل فرد في المجتمع ، ولدى كل جماعة ، ويختلف الأفراد في قيمهم ، وكذلك الجماعات في المجتمع نتيجة ترتيبهم لهذه القيم حسب أهميتها لهم ، فنجد أحد أفراد الأسرة يضع القيم العلمية بالدرجة الأولى ، تليها القيم الاقتصادية ، ثم الاجتماعية بينما قد يتبنى شخص آخر من نفس الأسرة ، القيم الدينية أولاً ثم العلمية ثم الاجتماعية وهكذا .

فإذا تعارض ترتيب تلك القيم مع الشكل الذي تؤمن به الأسرة ، يحدث التماس والاختلاف في تقبل السلوك أو عدمه . وهذا أيضاً ينطبق على المدرسة أو الحي ، فإذا كان المستوى الاجتماعي الاقتصادي للحي عالياً ، فإنه بلا شك يهتم بالعلم ويعده من أولويات القيم ، لتبقى المدرسة في النهاية المكان الوحيد الذي يغذي الأبناء تربية وعلماً ، فلا يحدث داخلها اختلاف كبير في القيم ، وتتعاون المدرسة والحي في ترتيب القيم مما يساعد الفرد على تكوين معايير سليمة سوية لتقييم المبادىء وتقبلها ، وعلى تحديد أفعاله وغاياته وأساليب تحقيقها بطريقة سوية مقبولة اجتماعياً ونفسياً . أما إذا اختلفت المدرسة والحي في ترتيب القيم ، فسيكون من الصعب على الفرد أو الطالب إدراك قيم الجماعة التي ينتمي إليها ، ومن ثم فإنه سيسعى لتكوين قيم خاصة به تشبع حاجاته » .

وللأصدقاء دور :

وتكمل الدكتورة أبو عيطة حديثها : « يختلف الأبناء مع الآباء في فهمهم وتقبلهم للقيم داخل الأسرة ويتجسد ذلك في مرحلة المراهقة عندما يبدأ الطفل في الاستقلال بأفكاره وسلوكياته ،

وفي تكوين أصدقاء بعيداً عن محيط الأسرة .

وتبعاً لأسلوب الرعاية الأسرية التي يتلقاها المراهق في المراحل العمرية السابقة من قبول للطفل أو نبذ له أو معاقبته ، يختار الطفل أصدقاءه ويرسم لأخلاقه وسلوكياته مساراً خاصاً به ـ من حيث اداء الواجب المدرسي ، والرغبة بمشاركة الزملاء في الأنشطة الخارجية ، وفي قيمة المصروف اليومي واحترام الوالدين ، ومعاملة الأخوة ، وهذه عادة نابعة من قناعة الابن ، وهو أمر مختلف عما يراه الوالدان صحيحاً ، سواء غلبت على سلوكهما القيم الاجتماعية أو الدينية أو العلمية . ولعل هذا الاختلاف واقع مقبول إذا كان بدرجة طفيفة ، أما إذا كان سلوك الأبناء يتصف بالسلبية وبالتحدي للكبار مثل الآباء والمدرسين واتخاذ مواقف معادية من الجماعة ، فإنه لا يمكن تغيير هذه القيم بمجرد تقديم النصح أو العقاب ، ولكن بضرورة التعرف على مطالب المرحلة العمرية وواجباتها وحقوقها التي يمر بها الابن وبخاصة مرحلة المراهقة وهي مرحلة ظهور الاختلافات حيث يجب أن نبحث عن نوعية الأصدقاء وإبراز عيوب هذه العلاقة أمام المراهق بحيث نجعله يؤمن بهذه العيوب مع ضرورة مراعاة الود والإقناع ، والعمل على توفير فرص إشباع حاجات المراهق بأسلوب مقبول اجتماعياً .

ولا ننفي أن باستطاعتنا كأخصائيين نفسيين أن نجنب الأبناء الوقوع في صراع القيم والمعتقدات عن طريق دراسة حاجاتهم في كل مرحلة عمرية ، والعمل على إشباعها وتحقيقها ، وفق ما هو مقبول اجتماعياً بحيث لا نزيد من تدليلهم أو عقابهم ، ولعل استعمال الحزم والحكمة في توفير الدفء العاطفي له أكبر الأثر في التأثير إيجابا على سلوك الأبناء » .

بقي أن نتساءل انه إذا كان الحي والأسرة يغذيان القيمة الحسنة في نفس الطفل ، ويشجعانه عليها ، فمن الذي سينتشل ذلك الطفل الذي لم يلق الرعاية والاهتمام الكافيين من ذلك السقوط القيمي والأخلاقي ؟

يعتقد الأخصائيون وأولياء الأمور . وحتى المشرفون على عملية التعليم ، أن وسائل الاعلام من مجلات وبرامج تلفازية ، من شأنها أن تؤثر إيجابا على سلوك الأطفال خاصة إذا كانت البرامج معدة من قبل اخصائيين تربويين ملمين بمشاكل كل مرحلة عمرية ، لأن الفرد في مرحلة الطفولة المتأخرة ، والمراهقة ، يتأثر بشكل كبير بكل توجيه خلاف توجيه الأهل ، لأنه لا يحمل في طياته اللهجة الملزمة التي يرفضها الصغار .

فهل نجعل من شغفنا بالأطفال عاملاً من عوامل السعادة في حياتهم لينشأوا أصحاء في عقولهم وأجسامهم ومشاعرهم ؟ □

■ أحسن الكلام عن أعدائك فأنت الذى صنعتهم . (توسكانيني)

■ سئل بعض الحكماء : ما العقل ؟ فقال : « الإصابة لظن ومعرفة مالم يكن بما كان » .

■ لايعنيني كثيرا أن لايفهمني الناس . بل إن اهتمامي الأكبر في عدم فهمي لهم . (كونفوشيوس)

توسكانيني

هو.. هي

كتاب زوجي اللدود

لم أكن يوماً ضد الثقافة أو ضد القراءة أو ضد الكتاب ، ـ بالعكس ـ فأنا أحب القراءة . وأجد فيها إلى جانب متابعة ما يجري في العالم من أحداث ومستجدات ، وسيلة مثالية للاستفادة من وقت الفراغ لزوجة مثلي في سنوات زواجها الأولى ، حيث لا أطفال ولا مسؤليات ولا مشاغل تملأ وقت فراغي الذي يبدأ مع الظهيرة عند عودتي من العمل .

لكنني منذ الشهور الأولى لزواجنا لاحظت أن لزوجي طريقة غريبة في القراءة ، فهو ينتقل من قراءة كتاب إلى تصفح مجلة إلى قراءة كتاب آخر ذلك عدا الصحف اليومية التي يصر على قراءة أغلبها ، ولأن عمله ينتهي مع المساء فلكم أن تتخيلوا الوقت الكبير الذي يقضيه زوجي في القراءة ، والوقت الضئيل الذي يبقى لدينا للحديث حول أمورنا الخاصة ، وبحث مشكلاتنا التي تواجهنا كزوجين في بداية حياتنا الزوجية .

ولا أخفي ، أنني كنت في البداية معجبة بحرص زوجي على متابعة شؤون الحياة العامة ، من سياسة وأدب واقتصاد وغير ذلك ، غير أنني بدأت أضيق ذرعاً بإصراره على القراءة في كل وقت ، وكل مناسبة وكل مكان . وما بدا لي في بادئ الأمر حرصاً على المتابعة أصبحت أراه إصراراً على إغاظتي واستفزازي وذريعة للابتعاد عني . وتطور الأمر في الفترة الأخيرة إلى إهمال متعمد لي . وبعد فترة من المراقبة الدقيقة لقراءات زوجي وللطريقة التي يصر فيها على التمسك بالكتاب . تأكدت من أن زوجي يتعمد إغاظتي بل إهمالي ، فتمسكه بالقراءة هو الوجه الآخر لإهماله شؤون حياتنا الزوجية ، وولعه بالكتب هو الوجه الآخر للتهرب مني . ولأنني مازلت أحب زوجي ولا أريد أن أفقده بدأت أكره الكتب وأحقد على المحلات ولا أطيق رؤية الصحف .

إن هذا بالتأكيد أفضل من توجيه مثل هذه « العواطف » غير الودية نحو زوجي ، وهو أمر لا تحمد عقباه كما يقولون ، ولكن لابد من وضع حد هوس القراءة عند زوجي وإجباره على الاهتمام بي حتى لو حدث ما لا تحمد عقباه .

..هي

طبيب الأسرة
قضايا منزلية

بعضهم يعاني من شرب الحليب !

يقدم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

لو أسميناه مرض الحليب تسهيلا وتخفيفا على عامة القوم ممن يرون في شرب الحليب معاناة تتميز بعسر الهضم وانتفاخ البطن وألم في الأمعاء مع اسهال لين ، فإننا لن نتجاوز الواقع ، غير أن الحقيقة العلمية تذهب الى تحديد هوية المتهم دون غموض ولا تورية لتؤكد أن سكر اللبن المعروف في لغة المختصين بأمور التغذية باسم « اللكتوز » هو سر المأساة الحقيقي وهو جوهر القضية .

هناك شكل من أشكال السكاكر لا يحويه سوى الحليب ومشتقاته من ألبان وأجبان يسمونه اللكتوز (Lactose) هو بحاجة الى خميرة خاصة (Enzyme) يسمونها انزيم اللاكتاز (Lactase) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة ليتم هضمه .

والسكريات بمنطق العلم يصفونها على ضوء تركيبها من الجزيئات ، فالسكر الذي أساس تركيبه جزيء واحد هو ينتمي الى فصيلة السكريات الأحادية (mono Saccharides) ومن أمثلته سكر الجلوكوز أو سكر العنب وسكر الفركتوز أو سكر الفواكه .

أما السكريات التي تعتمد في تركيبها على اتحاد جزأين فقد اصطلحوا على تسميتها بالسكريات الثنائية (Disaccharides) وهذه تضم سكر السكروز أو سكر القصب المعروف والشائع الاستعمال وسكر اللاكتوز أو سكر اللبن

غير أن الجسم لا يتعامل إلا مع السكريات الأحادية في الهضم بل أنه قد تخير منها سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) ليكون رسول التغذية الذي يتعامل مع الخلايا داخل الجسم . ولربما يتعقد التركيب فتتخذ جزيئات عدة مما يدعوه المختصون بالسكريات المتعددة (polysaccharides) وهذه في حقيقة أمرها لا تملك من حلاوة الطعم أي رصيد لأنها تصنف من فصيلة النشويات .

وعلى هذا فالنشويات إذا ما تحللت مع الهضم تتحول الى سكريات بفضل خمائر الهضم المعروفة لتنتهي بمطافها في الختام الى سكر الجلوكوز

الأحادي التركيب . وإذا ما عدنا الى سكر اللبن المعروف باسم اللاكتوز الذي تتراوح نسبته ما بين ٤٠ ـ ٥٠ جراما في اللتر من الحليب فانه تسري عليه قواعد الهضم مما يسري على كافة الكربوهيدرات أو مائيات الكربون ، وهذا هو الاصطلاح الذي يضم بين دفتيه كافة السكريات والنشويات معا .

وسكر اللبن أو اللاكتوز (Lactose) هذا بحاجة الى خميرة خاصة به لهضمه قبل امتصاصه ، وهذه الخميرة يدعونها (انزيم اللاكتاز) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة فتعمل على تفتيت اللاكتوز (أو سكر اللبن) الى شقيه الأحاديين وهما سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) وسكر الجالاكتوز أو سكر الحليب .

إن هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) تبدأ افرازها منذ الشهر الثالث للجنين في رحم أمه ثم تنشط عقب الولادة مباشرة لتزداد نوعيتها مع الأيام ، غير أنه لأمر ما قد يتعطل افراز هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) فيتعطل معها الهضم ، هضم سكر اللبن (اللاكتوز) فلا يكون هناك بالتالي أي امتصاص ، ومن هنا يتراكم هذا السكر مع الأيام في الأمعاء الغليظة المعروفة باسم « القولون » حيث تجد الميكروبات المتوطنة هناك فرصتها في التغذي عليه وتحليله حيث تتخمر هذه السكريات وتتحلل الى نواتج غير السكريات الأحادية وهذه النواتج هي :ـ

ـ غاز الهيدروجين .
ـ غاز ثاني أكسيد الكربون .
ـ حامض الخليك .
ـ حامض اللبنيك .

وهذا هو سر المعاناة التي يقع ضحيتها بعضهم متمثلة في انتفاخ البطن بسبب الغازات وفي عسر الهضم والحموضة والألم بسبب الأحماض .

إن الذين يتوهمون أن الأمر معاناة محدودة تصيب قليلين من سيئي الطالع هم فريق يجهل حقيقة الأمر حيث أن المعاناة أكثر شيوعا مما تتوهم ، فالمرض واسع الانتشار في كافة أنحاء المعمورة قاصيها ودانيها ، والفرق الوحيد هو في سعة الانتشار . وبينما نجده محدودا في بلدان الغرب المتحضرة ونسبته ما بين ٢٠ ـ ٣٠ بالمائة من شاربي الحليب ، نجد أن نسبته قد تجاوزت السبعين بالمائة في بلدان الشرق النامية،ولربما كانت الاحصائية التقديرية التالية تعطي صورة أكثر وضوحا لوبائية هذه المعاناة :ـ

الدنمارك	٥ بالمائة
السويد	٥ بالمائة
هولندة	٨ بالمائة
سويسرا	١٥ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (البيض)	٢٠ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (السود)	٧٥ بالمائة
الشرق الأوسط	٨٠ بالمائة
الصين	٨٥ بالمائة
تايلاند	٩٥ بالمائة

أسباب عوز خميرة اللاكتاز : هناك شكلان من أشكال العوز هما :

١) عوز أولي أو ابتدائي وهو الذي يولد به

مساحة ود!

مستقبل أيامنا الماضية

في إحدى الأمسيات، كنت أجلس مع عائلتي نشاهد التلفاز وكانت تعرض على شاشته إحدى المسلسلات العربية، ولأنني لم أتابع المسلسل من بدايته فقد حاولت التركيز على وجوه الممثلين المشاركين في المسلسل . وهم كثيرون لكنني دهشت حين اكتشفت أنني لا أعرف سوى ممثل أو اثنين منهم، أما الاخرون فلا أعرف أحداً منهم وازدادت دهشتي حين سألت ابني الصغير عن أسماء بعضهم. فاسترسل في اجابات مسهبة عن الممثلين والممثلات، مع إضافات حول أول عمل في هذا الممثل. وأهم عمل لتلك الممثلة، وعن المخرج الذي اكتشف هذا الممثل أو ذاك وظللت أنصت إلى هذا السيل المتدفق من المعلومات الجديدة بالنسبة لي

وعدت بذاكرتي إلى الوراء سنين طويلة هي التي تفصل طفولتي عن طفولة ابني عندما كانت الأفلام بالأبيض والأسود. والمسلسلات إذاعية. كان عدد الممثلين محدودا أو معروفاً بالنسبة لنا جمهور ذلك الزمن كان عدد مشاهير الفنانين لا يتعدى أصابع اليدين، وقل مثل ذلك عن عدد مشاهير الكتاب والصحفيين والأدباء والشعراء والروائيين ومثل ذلك عدد المسارح ودور السينما والصحف ودور النشر. وكذلك الأعمال الأدبية والفنية والابداعية عموما، كلها كانت محدودة ومعروفة بالنسبة لنا لذا لم نكن بحاجة إلى أكثر من متابعة بسيطة لما يجري على الساحة الثقافية والفنية عبر رموزها المعروفة

في تلك الأيام كان للأدب نجومه وللموسيقا نجومها وكان هناك نجوم في الغناء والتمثيل، ونجوم في المجتمع وفي السياسة كان هناك الشاعر النجم. والروائي النجم والمفكر النجم. والصحفي النجم.

اليوم لا مكان للنجم المطلق هناك أعداد من الفنانين والكتاب والشعراء والروائيين، يبدعون أعمالاً لا تقل أهمية عن إبداع أسلافهم نجوم زماننا و مما كان صعباً علينا نحن الذين نشأنا في ذلك الزمن أن نتابع ما يجري في عالم الفن والأدب الذي ازدحم بالأسماء والشخصيات والانجازات وربما تطرف بعضنا واعتبر الكثرة دليلا على تواضع المستوى مقارنة بانجازات نجوم زمانه. لكن هذا ليس أكثر من حكم سريع ومريح على زمن جديد له ظروفه وتعقيداته مثلما أن له فنانيه وكتابه وشعراءه. زمن يحتاج الى متابعة خاصة وفهم خاص ورؤية مختلفة

أكملت مشاهدة المسلسل دون أن أتابع أحداثه. كنت فقط أريد أن أشعر ابني الذي يعيش غير زمني أنني أشاركه بعض اهتماماته وبعض زمنه □

صلاح حزين

قصة من الخيال العلمي

الاصطدام المروع

بقلم : رؤوف وصفي

أما الآن وقد انتهى كل شيء ، وقد نجونا من العواقب المحتملة الخطيرة فاننا نتساءل لماذا أبطأنا في رؤية ماحدث ؟ ، ذلك انه كان من الممكن التنبؤ به ، كنا نعلم ان مركز الإنسان في الكون خطرا ، بل ان وجود المادة نفسها لم يكن مستقرا ، إنما اكتشفنا العديد من الظواهر الكونية مثل الأقزام البيض ، والعمالقة الحمر ، والثقوب السوداء عندما تتخذ المادة شكلا رهيبا غير مألوف لنا .

كانت الإنذارات كافية ومتعددة ، وقد استمرت لعدة سنوات ، وكان البيولوجيون قد لاحظوا أن تطور الحياة الحيوانية والنباتية في نصف الكرة الشمالي من كوكب الأرض ، كان يسرع باستمرار ربما بسبب الزيادة التدريجية ـ التي لاتعليل لها البتة ـ في كثافة الأشعة الكونية القادمة من اتجاه النجم القطبي ، والتي تتكون أساسا من أشعة جاما ، ولكن سكان الأرض على وجه العموم لم يرق لهم الموقف وبالذات العلماء فإنهم لم يستطيعوا أن يفسروا هذه الظواهر ، وعندما لايستطيع عالم أن يفسر شيئا ينتابه الضيق لأن هذا يجعله يبدو أحمق أمام الآخرين . كان اليوم ١٥ يناير ٢١٥٦ عندما رأى الدكتور « أشرف مجدى » عالم الفيزياء أول بصيص من النور ، فقد كان يعمل على مرصد جديد يبلغ قطر عدسته ١٢ مترا . ولاحظ ظلاما في لوحته الفوتوغرافية من مقياس الطيف المركز على النجم القطبي في السماء الشمالية ، وكرر المحاولة عدة مرات وحصل على نفس النتيجة ، إظلام متساو على طول الخط الطيفي . التفت إلى مساعده الدكتور « ممدوح شاكر » وقال : تعلم أن طيف ضوء النجم الذى يعطي حزاما من الخطوط الملونة وهى تساعدنا على تحديد العناصر التي يتكون منها ، فكل عنصر له طيف مختلف ، ولكن الأمر الغريب أن هناك عددا كبيرا من الخطوط المظلمة في طيف هذا النجم الذى أقوم بدراسته ، ولم أعرف أي مصدر للضوء يعطى طيفا مستمرا من الأشعة تحت الحمراء مثله .

أجاب الدكتور ممدوح شاكر في اهتمام :

ـ « تعنى أن التركيب الذرى مختلف ! »

ـ « هذا ماكنت أفكر فيه تماما ، فالذرة العادية تتكون من نواة بها نيوترون متعادل وبروتون موجب الشحنة ، وتدور حولها الكترونات سالبة الشحنة ، ولكن يبدو أن الأمر مختلف مع هذا النجم ، فيبدو أن التركيب الذرى غير عادى . . . »

ساد صمت ثقيل فرض نفسه على العالمين .

عاد الدكتور أشرف مجدى يقول :

ـ « وأخشى أن تكون المادة معكوسة في هذا

النجم »

قال الدكتور ممدوح شاكر فى ذهول :

- « نقيض المادة ! »

- « أجل ، فالألكترونات موجبة فى الذرة ، أما البروتونات فسالبة ، وهى حالة نادرة فى المادة ، ولاندرى كيف تكونت ! »

قال الدكتور ممدوح وهو متجهم الوجه :

- « ولكن إذا حدث واصطدمت المادة العادية ، بنقيض المادة ، فسيحدث انفجار مروع يفنى المادتين تماما ! »

تنهد الدكتور اشرف وهمس :

- « أعلم هذا »

بعد اسبوعين ، نظر العالمان كل منهما الى الآخر ، وهما يطلعان على النتائج من الحاسوب « الكمبيوتر » كانت الأرقام أمامهما ، إن الجسم المجهول الذى كان يشع الضوء إشعاعا خافتا ولكن مستمرا ، كان يبعد نحو عشرة الاف مليون كيلو متر عن كوكب الارض ، وكان يقترب منها بسرعة هائلة ، ويهدد بفنائها قبل أقل من عام ولم يظهر شىء فى الصحافة ، فقد فرضت رقابة صارمة عليها ، إذ كان الخطر شديدا ، وكان الفزع كفيلا بان يزيد الامر سوءا .

قدم الدكتور أشرف والدكتور ممدوح تقريرهما إلى المؤتمر الدولى للعلوم الذى عقد اجتماعا طارئا لمناقشة هذه الظاهرة المدمرة ، وتحدث الدكتور أشرف فى أول الإجتماع قائلا :

- « وهكذا ترون الموقف يا سادة . إنكم تفهمون جميعا نظريتى ، بأن هذا الجسم يتكون من مادة نقيضة ، وأنتم تعلمون أن مراصد العالم ومراصد المريخ والزهرة قد اتفقت مع رصدنا لهذا الجسم ، إننى لا أعرف أية نظرية علمية لتفسير

بموت هذا الجسم [illegible] . ويبدو أن معظمكم
[illegible] على
[illegible] لا [illegible] صمت
[illegible] الأقدر [illegible] وصمت هذا
الجسم [illegible] في
كل [illegible] من [illegible] عدد
الأمكن [illegible] حتى
بعده [illegible] مسافة
كافية . ولكن [illegible] حتى
[illegible] أبدا .

ساد الصمت [illegible] الغرفة

- أيها السادة . إن خطتي للتخلص من هذا المجهول الذي يهددنا هو أن نحطمه من بعيد . باستخدام أشعة الليزر .

هتف العلماء وهم يصغون إلى هذا الاقتراح . وكان هناك احتجاجات متفرقة سرعان ما خفت حين استوعب الخطة على حين العلماء بعد أن شرحها الدكتور أشرف بالتفصيل

- إن خطتي [illegible] تصميم قمر صناعي يحمل معدات ينتج أشعة الليزر . ينطلق من كوكب الأرض من مكوك فضائي . ثم يوضع في أعلى مدار ممكن . ويوجه بعد ذلك لينطلق بسرعة هائلة في اتجاه الجسم الفضائي وعندما يكون على مسافة معينة منه . يتم إطلاق أشعة الليزر بالتحكم عن بعد من مكوك الفضاء حتى يتم تدمير الجسم .

كان مكوك الفضاء يقف [illegible] يتجه نحو السماء . وفي الداخل كان الدكتور أشرف والدكتور ممدوح [illegible] القمر الصناعي في رحلته نحو تدمير الجسم الغريب . ولم [illegible] إلا ثلاث دقائق . وركز الدكتور أشرف نظره القلقة على [illegible] الإطلاق و[illegible] على الصف الأول من الأزرار الملونة وغيب عشرون ثانية . ارتعد الدكتور ممدوح رعدة خفيفة وحاول إخفاءها بالتثاؤب وراح يعد الثواني [illegible] . ثم انطلق مكوك الفضاء

لقد حاول [illegible] هذه المهمة على الرغم من خطورتها وذلك من أجل العلم

زاد هدير الإطلاق وتحدد لهب سريع لا يحتمل . وكان هناك شعور [illegible] كأن الأرضية التي تحت قدميه تتحدر . وبعد أن اطمأنا إلى أن الأجهزة تعمل بكفاءة صدرت إليهم التعليمات من مركز المتابعة الأرضية . بإطلاق القمر الصناعي، ثم متابعة مساره والاستعداد لإطلاق أشعة الليزر لتدمير الجسم المجهول . كان مكوك الفضاء ينطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء . وأصبح كوكب الأرض مجرد كرة زرقاء صغيرة . وكان الجسم المجهول يبدو فوق شاشات الرادار مجرد نقطة بيضاء متوهجة . ولكنه كان يقترب طول الوقت ويزداد حجماً مساحة كبيرة في شاشات الرادار . لقد [illegible] وأصبح الآن [illegible] الرمادي الكثيف . لم يكن هناك بحر ولا تلال ولا وديان ولا ثلج أو آثار عمارات متحطمة ولا شيء حتى يميز سطحه . لقد كان شيئاً عجيباً أن لا يكون بحسب المنطق

قال الدكتور أشرف في دهشته

- أي شيء هذا . مجرد كرة من الصخر . ماذا تفعل هنا ؟ ومن أين أتت ؟ ، مد الدكتور ممدوح يده صوب شاشة الرادار حيث الجسم الغريب

- [illegible] وهذا يكفي . هل يحتاج الكوكب إلى سبب ليكون حيث هو ؟ ، كانت أعصاب الدكتور أشرف متوترة . وقد كره هذه الطريقة غير الإنسانية في تشريح المنطق والاحتمالات التي بدا أن الدكتور ممدوح ينعم بها

ضغط الدكتور أشرف على زر إطلاق أشعة الليزر من القمر الصناعي . وحدث الانفجار المروع في الجسم الغريب . كان هناك وميض يعمي الأبصار على شاشة الرادار ، ثم اسودّ لونها واحترقت بفعل المجموعة الضخمة من الإشعاع الكهرومغناطيسي الذي تولّد عن الانفجار ، ثم توقفت آلات المكوك الفضائي وسكتت الأصوات

الرئيسية ولم تترك إلا المعدن الخامد والبلاستيك البارد ، وهكذا أصبح العاملان داخل تابوت معدني في أعماق الفضاء

قال الدكتور أشرف بصوت خال من الإثارة .

- على الأقل لم يكن توقف الآلات مفاجئا . فقد كان هناك احتمال بحدوث ضرر من جراء كثافة الإشعاع الصادر عن الجسم الغريب بعد حدوث الانفجار وتطايره في الفضاء ، وبالقدر يكره الأرضية من الاصطدام به . ولكني أعتقد أنه يجب ألا نهمل أي احتمال للبقاء على قيد الحياة . هل نستطيع إصلاح جهاز الإرسال لنبعث إشارة نطلب الإنقاذ ؟ !

قال الدكتور ممدوح في لهجة جارحة ساخرة

- إننا في وسط المحيط معلقين نتحدث عن إشارة صاروخ مثلا ! ثم أكمل في شيء من المنطق -

- بدون قوة الآلة لا يمكن أن ترسل إشارة إلى أبعد من بضعة كيلومترات في الفضاء

ومن الواضح أننا بعيدون جدا عن الطرق المنتظمة حتى أن أي إشارة نرسلها لن يلتقطها أحد !

ساد الصمت فترة طويلة .

قال الدكتور ممدوح في همس وقد قطب حاجبيه

- قد تكون هناك كائنات تحت سطح هذا الجسم المجهول استطاعت بكيفية ما أن توقف الآلات كنوع من الانتقام

قال الدكتور أشرف ووجهه ممتقع

- هو جائز خصوصا أن معنى ...

فجأة ، بدأ هدير الآلات من جديد وبدأت الأضواء تتوهج في مقر قيادة مكوك الفضاء

قال الدكتور ممدوح في ذهول

- لا أستطيع أن أصدق هذا !

وراح يحملق في شاشة الرادار بعد لحظات ورائها . لقد اختفى الجسم الغريب تماما ولم تبق منه سوى قطع متناثرة دقيقة لا تكاد ترى

قال الدكتور أشرف في ارتياح

- إن تفسير توقف آلات مكوك الفضاء بسيط للغاية . فقد أثرت الإشعاعات الهائلة التي نتجت عن انفجار الجسم الغريب ، وبمجرد أن خفت هذه الإشعاعات ، عادت الآلات تعمل بشكل طبيعي . أرجو أن تتصل بمركز المتابعة فوق كوكب الأرض ، ونبلغهم أننا في أمان ، وأن الخطر قد زال عن كوكبنا والحمد لله » □

جولييت القرن العشرين

● على الرغم من أن جولييت التي تكلم عنها شكسبير في مسرحيته الشهيرة روميو وجولييت لا تعيش في بلدة فيرونا الايطالية ، ولا في أي مكان آخر . إلا أن إدارة البريد في فيرونا تتلقى نحو مئة رسالة حب شهريا بلغات مختلفة موجهة إلى جولييت

ويحيل البريد هذه الرسائل على البلدية ، حيث تطوعت باولا سيلا ، وهي طالبة اقتصاد ، لقراءة الرسائل والاجابة عنها في أوقات فراغها وهكذا أصبحت هذه الفتاة سكرتيرة جولييت غير الرسمية

جمال العربية

□ صفحة لغة

بقلم : د. حسن عباس

في ظلال المعاني

لأبي هلال العسكري عدد من الكتب أغنى بها المكتبة والتراث العربيين ، بلغت نحوا من عشرين كتابا ورسالة . وإذا ذكر العسكري ذكر كتاب « الصناعتين » ، ويعني بهما صناعة الشعر ، وصناعة النثر ، وهو كتاب عظيم الأهمية ، عالج فيه المعاني والألفاظ ، والإيجاز والإطناب ، وحسن النظم ، والسجع والتشبيه ، وغير ذلك ، ولكن كتابه الذي يستوقفنا في هذا المقام هو كتاب « الفروق في اللغة » ، وقد خصصه لرصد الفروق بين الكلمات التي تتشابه في معانيها وتحتفظ بفروق طفيفة بين لفظة وأخرى يفترض فيها أنها رديف لها . يقول أبو هلال العسكري في خطبة الكتاب :

« ثم إني ما رأيت نوعا من العلوم ، وفنا من الأداب إلا وقد صنف فيه كتب تجمع أطرافه وتنظم أصنافه إلا الكلام في الفرق بين معانٍ تقاربت حتى أشكل الفرق بينها نحو : العلم والمعرفة والفطنة والذكاء ، والإرادة والمشيئة ، والغضب والسخط ، والخطأ والغلط ، والكمال والتمام ، والحسن والجمال . . » الى غير ذلك من المعاني .

ولقد رأينا أن الناس تعمد الى أمثال هذه الكلمات التي توشك أن تكون مترادفة . فتدخلها في الكتابة والحديث دون اعتبار لما بينها من فروق ، لذلك قدرنا أن إيضاح الفروق والاختلافات لعدد من الألفاظ السائرة في لغتنا - كتابة وحديثا - لا يخلو من فائدة ، بل لعل الحاجة تكون ماسة إليه في مواقف بعينها .

من ذلك مثلا قولهم في صفة إنسان أنه « عبد أو مملوك » ، فهل هناك فرق في المعنى بين هاتين الكلمتين ؟ أجل ، فكل عبد مملوك ، وليس كل مملوك عبدا ، لأنه قد يملك المال والمتاع ، فهو مملوك وليس بعبد ، والعبد هو المملوك من نوع ما يعقل ، ويدخل في ذلك الصبي والمعتوه وعباد الله تعالى .

ويقال : التقي والمتقي والمؤمن ، وعلى الرغم من وضوح الدلالة واقترابها بين هذه الكلمات جميعا إلا أن بينها فروقا . فأنت حين تطلق صفة التقي تزيد المتصف بها مدحا أكثر مما لو اقتصرت على وصفه بالمتقي ، لأن في ذلك عدلا عن الصفة الجارية على الفعل للمبالغة ، والمتقي أمدح من المؤمن لأن وصف الإنسان بالمؤمن يُطلَقُ بظاهر الحال في حين أن وصفه بالمتقي لا يطلق عليه إلا بعد الخبرة .

وكذلك الفرق بين كلمتي : اللطف ، والرفق ، فاللطف هو البر وجميل الفعل من قولك فلان يبرني ويلطفني ، ويسمى الله تعالى اللطيف من هذا الوجه أيضا . أما الرفق فهو اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها ، وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل الى المطلوب

وأصل الرفق في اللغة النفع ، ومنه يقال : أرفق فلان فلانا إذا مكنه مما يرتفق به ، ومرافق البيت : المواضع التي ينتفع بها زيادة على مالابد منه : ورفيق الرجل في السفر يسمى بذلك لانتفاعه بصحبته ، وليس هو على معنى الرفق واللطف ، ويجوز أن يقال سمي رفيقا لأنه يرافقه في السير ، أي يسير الى جانبه فيلي مرفقه

والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر ، وسمي بذلك تشبها بما يفعله اليربوع ، وهو أن يجعل بجحره بابا ظاهرا وبابا باطنا يخرج منه إذا طلبه الطالب ، ولا يقع هذا الاسم على من يظهر شيئا ويخفي غيره إلا الكفر والإيمان وهو إسلامي ، والإسلام والكفر اسمان إسلاميان ، فلما حدثا وحدث في بعض الناس إظهار أحدهما مع إبطان الأخر سمي ذلك نفاقا . والرياء إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى ، فليس الرياء من النفاق في شيء ، فإن استعمل أحدهما في موضع الأخر فعلى التشبيه .

أما الفرق بين الطغيان والعتو فهو أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر ، ومنه قوله تعالى : (إنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ . .) الآية . يقال طغى الإنسان إذا جاوز الحد في الظلم . والعتو : المبالغة في المكروه ، فهو دون الطغيان ، ومنه قوله تعالى : (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا) . قالوا : كل مبالغ في كبر أو كفر أو فساد فقد عتا فيه ، ومنه قوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) ، أي مبالغة في الشدة . ويقال جبار عات ، أي مبالغ في الجبرية ، ومنه قوله تعالى : (عتت عن أمر ربها) يعني أهلها تكبروا على ربهم فلم يطيعوه .

والفرق بين الظلم والغشم أن الغشم كره الظلم ، وعمومه توصف به الولاة لأن ظلمهم يعم . ولا يكاد يقال غشمني في المعاملة كما يقال ظلمني فيها . وقال أبو بكر : الغشم اعتسافك الشيء ، ثم يقال : غشم السلطان الرعية يغشمهم . وقيل الاعتساف خبط الطريق على غير هداية ، فكأنه جعل الغشم ظلما يجرى على غير طرائق الظلم المعهودة .

أما الفرق بين الإثم والذنب فهو أن الإثم في أصل اللغة : التقصير ، أثم يأثم ، إذا قصر ، ومنه قول الأعشى :

جمالية تغتلي بالرداف
إذا كذب الآثمات الهجيرا

(الاغتلاء : بُعْدُ الخطو ، والرداف : جمع رديف ، وكذب : قصر ، وعنى بالآثمات المقصرات) والفرق بين الأثيم والآثم هو أن الأثيم المتمادي في الإثم ، والآثم : فاعل الإثم .

والفرق بين الإثم والخطيئة أن الخطيئة قد تكون من غير تعمد ، ولا يكون الإثم إلا تعمدا ، ثم كثر ذلك حتى سميت الذنوب كلها خطايا ، كما سميت إسرافا . وأصل الإسراف مجاوزة الحد في الشيء . أما الذنب فهو ما يتبعه الذم ، وذلك أن أصل الكلمة الاتباع ، والذنب هو القبيح من الفعل ولا يفيد معنى التبعة ، ولهذا قيل للصبي قد أذنب ، ولم نقل قد أثم . والأصل في الذنب الرذل من الفعل كالذنب الذي هو أرذل ما في صاحبه . والفرق بين الوزر والذنب أن الوزر يفيد أنه يثقل صاحبه ، وأصله الثقل ، ومنه قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) ، وقال تعالى : (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها ، يعني السلاح . □

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الآباء

تقاسيم على بحر الشوق

عندما قام الحكم الجمهوري في قرطبة سنة ٤٢٢هـ وتولاه أبو الحزم بن جهور - وقد كان عالما وشيخا وقورا - جعل ابن زيدون واحدا من وزرائه المقربين . ولم يطل به عهد الوزارة ، فقد دأب حاسدوه على السعي بالوشاية به لدى ابن جهور ، فأوغر صدره ، ورماه في السجن ، أو ربما كان لابن زيدون طموح كبير أو - قل - أطماع كثيرة ، فإذا تكشف ذلك الطموح أو تلك الأطماع عن تطلع الى الانفراد بالسلطة أقدم ابن جهور على سجنه وقاية واحتياطا .

وفي هذه الفترة - أي فترة توليه الوزارة - أو قبيل ذلك بقليل عرف ولادة ، فصار يحرص على أن يغشى مجلسها ، وقد كان أشبه بالصالون الأدبي الذي عرفته أوربا فيها بعد . ولم يكن وحيدا في حبه لولادة ، بل دأب على منافسته في حبها آخرون ، وكانت جديرة بحبهم جميعا . فقد توافر لها الحسن والظرف والأدب ، فضلا عن انتمائها الى البيت الأموي ، وهي قبل ذلك وبعده « أديبة شاعرة ، جزلة القول ، مطبوعة الشعر ، تمالط الشعراء ، وتساجل الأدباء . . » كما يقول عنها الضبي . ولابن خاقان في وصفها قول طريف حيث يقول : « وكانت من الأدب والظرف ، وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » . وكان يبدر منها ما يغري رواد مجلسها بها كهذين البيتين اللذين كتبتهما على طرف ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولو تتبعنا أوصافها كما ترد في شعر ابن زيدون لألفيناها بارزة الصدر ، طويلة العنق ، ممشوقة القامة ، دقيقة الخصر ، رابية الردف ، وفي عينيها حور . وبذلك تجتمع لها محاسن الخلق ومقومات الجمال عند العرب أو أكثرها .

ولم يلبث ابن زيدون - أمام تلك الأوصاف والخصال - أن وقع في حب ولادة ، ولكن الجوّ لم يصف لهذا الحب صفاء تاما ، فكثيرا ما كانت أجواء الحبيبين تتلبد بالغيوم . على أن أيام الوصل كانت تجود بأرق الشعر وأعذبه . انظر إليه وهو يلتمس بقاءها على المودة ودوام الوصل :

سأقنع منك بلحظ البصر	وأرضى بتسليمك المختصر
ولا أتخطى التماس المنى	ولا أتعدى اختلاس النظر
أصونك من لحظات الظنون	وأعليك عن خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب	وقد يستدام الهوى بالحذر

وهي أبيات تشف عن كلف شديد ، فأي حب عميق ذلك الذي يجعله يرضى منها بالنظرة العجلى وبالسلام المختصر !

ثم تساوره المخاوف من أن تشيح بوجهها عنه إن قدرت أن له فيها بغية ، فيقطع على نفسه العهد بأن لا تبرح آماله دائرة الأماني المشروعة ، فلا يسرف ، ولا يرجو أكثر من ذلك ، فإن كانت في شك مما يقول فلا عليها ، يكفيه منها أن يختلس النظر وأن يراها عن بعد . ويظل في شك من أمره فهو يخشى ألا تقنعها أقواله فيه ·، إليها بما يعزز طمأنينتها ، فهي وجدانه ويقينه أسمى من أن تقاربها الظنون ، وأجل من أن تخطر على البال بخاطرة لا ترضيها . فإذا كان يبدي كل تلك الخشية من نفسه ومن ظنونه وأفكاره ـ على شغفه بها وحبه لها ـ فكيف الحال مع الرقيب ، الا يقف منه حذرا ؟ وما الذي يدعو الى كل هذا و · من الحيطة والأهبة والتربص وأخذ النفس بالتقشف ، وأخذ الغير بالريبة والحذر ؟ إنه الأ· في دوام الهوى ! فهل يدوم ؟

ويطرق سمعه أن ولادة تتهمه بخلف الوعد ونكث العهد ، وهو على ما به من حب متيم فينشد قائلا :

أنى أضيعُ عهدكْ ؟	أم كيف أخلفُ وعدكْ ؟
وقد رأتكِ الأماني	رضا فلم تتعدَّكْ
يا ليت ما لكَ عندي	ـ من الهوى ـ لي عندكْ
فطالَ ليلُكَ بعدي	كطولِ ليلي بعدكْ
سلي حياتي أهَبْها	فلستُ أملكُ ردّكْ
الدهر عبديَ لمّا	أصبحتُ ـ في الحب ـ عبدَكْ

فهو يسأل منكرا ، إذ كيف يخلف الوعد وقد قيّد الأماني بمن يحب وقصرها ـ راضيا ـ عليها ! ليت التي تتهمه بخلف الوعد تحفظ له من الود ما يحفظ لها ، وتأرق لبعده كما يأرق !

وإذا انقطع الوصال أو كاد هبّ مذعورا يبوح بالشكوى :

أغائبةٌ عني وحاضرةٌ معي	أناديك ـ لمّا عِيلَ صبري ـ فاسمعي
أفي الحقّ أنْ أشقى بحبكِ أو أرَى	حريقاً بأنفاسي ، غريقاً بأدمعي ؟
ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشقٍ ؟	جعلتِ الرَّدَى منه بمرأى ومسمعِ
صليني ـ بعضَ الوصلِ ـ حتى تبيِّني	حقيقةَ حالي ، ثم ما شئتِ فاصنعي

ولم يدم الهوى وما كان ينبغي له إذا اتصف المحبوب بمثل ما كانت تتصف به ولادة من تقلب وفتنة في آن معا . ويغرينا بهذا القول ما نسمعه من نفثات ابن زيدون وهو يستلطف ويستعطف ولا يجد سبيلا الى الاستمالة دون أن يسلكه . انظر اليه يقول :

ثقي بي ـ يا معذبتي ـ فإني	سأحفظُ فيكِ ما ضيعتِ مِنِّي
وإنْ أصبَحتِ قد أرضَيتِ قوماً	بسُخطِي ، لم يكن ذا فيكِ ظَنِّي
وهل قلْبٌ كقلبِكِ في ضلوعي	فأسْلُو عنكِ حينَ سلوتِ عَنِّي ؟

تمنّتْ أنْ تنالَ رضاكِ نفسي ... فكان منيّةُ ذاكَ التّمنّي
ولم أجنِ الذنوبَ فتحقديها ... ولكن عادةٌ منكِ التّجنّي

فلا زال الأمل معقودا على عودة الثقة، لذلك لا يكون رد الفعل عند العاشق المحب على التجني وإرضاء حاسديه بما يسيء إليه إلا مزيدا من اللطف والرفق .

وكل ما يرجوه هو أن يكون له قلب كقلبها يقوى على الهجر ، وهذا ضرب من العتاب وإن اتصف بالكثير من الرقة . لقد بدأ يدرك المأزق الذي وضع فيه نفسه عندما تمنى أن ينال الرضا يوما ولم يكن يدري أن هلاكه كامن فيما تمنى ! وهو يعلم علم اليقين أنه لم يرتكب من الذنوب ما يجعلها تحقد عليه ، ولكن التجني عادة فيها ! وتقضي الضرورة أن يبتعد عن حبيبته فيودعها بأرق القول :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ... ذائعٌ من سرّهِ ما استودَعَكْ
يقرعُ السِّنّ على أنْ لم يكنْ ... زادَ في تلكَ الخُطا إذ شَيَّعَكْ
يا أخا البدرِ سناءً وسنا ... حَفِظَ اللهُ زماناً أطلعكْ
إنْ يَطُلْ بعدكَ ليلي فَلَكَمْ ... بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ

ولم يفعل البعد إلا أن أجج نار الوجد ، وقديما كان التجمل بالصبر يخفي دخيلة النفس ، ويصون الكبرياء ، أما مع الفراق والوداع فقد ذهب الصبر وافتضح الأمر ، وذاع السر .

وفي قرطبة اجتمع للشاعر من أسباب التعلق أكثر من سبب ، ففيها ولد ، وفيها عاش ، وإليها يحن إذ بعد به المقام ، وفيها فوق كل ذلك منية النفس ، ولادة ! لذلك ترى أن بعده عن الأحباب وملاعب الصبا وعن مواطن الأنس والذكريات يثير شجنه ويبعث الشوق حيا :

هل تذكرونَ غريباً عادهُ شَجَنُ ... مِنْ ذكرِكم وجفا أجفانَهُ الوَسَنُ ؟
يخفي لواعجَهُ والشوق يفضحُهُ ... فقد تساوى لديه السِّرُّ والعَلَنُ

* * *

إنْ كانَ عادكمو عيدٌ فَرُبَّ فتى ... بالشوقِ قد عاده من ذكركم حَزَنُ
وأفردتْهُ الليالي من أحبَّتِهِ ... فباتَ ينشدُها مما جَنَى الزمَنُ
(بِمَ التّعلّلُ ؟ لا أهْلٌ ، ولا وَطَنٌ ... ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ !)

ذلك هو شأنه في غربته ، لم يعد يرى في الناس شبيها ، فوجد صدى لمصابه في رجع الحمامة ، فهي تقف وحيدة على غصن في أيكة ، تشكو الوحدة كما يشكو وتأسى لحالها كما يأسى ، فلا بد أن بها مثل مابه ، أو أنها علمت بحاله فرقّت له ! أمّا هو فقد جعلته الليالي وحيدا فردا بعيدا عن أحبّته ، لا يأتيه العيد إلا ليزيده حزنا لفرط ما يعاني من الشوق .

وكان بعد أن غادر قرطبة قد نسي ما لقيه من ولادة ، فهدأت نفسه ، وعادت رياح الشوق تهب عليه قوية عاتية ، ولا يملك ـ وهو الغريب عن الأهل والوطن ـ إلا أن يتساءل حزينا :

أيُوحِشُني الزمانُ وأنتِ أنسي ؟ ... ويظلمُ لي النهارُ وأنتِ شمسي ؟
وأغرِسُ في محبّتِكِ الأماني ... فأجْني الموت مِنْ ثمراتِ غرْسي
لقد جازيتِ غدراً عن وفائي ... وبعتِ مودتي ظُلْماً ببخسِ
ولو أنَّ الزمانَ أطاعَ حُكْمي ... فديتُكِ ـ من مكارهه ـ بنفسي

لقد كانت هذه الكلمات ـ على ما تنوء به من رقة المشاعر وصدق الوفاء ـ بداية اليأس ، وصحوة من حب عاصف ، اجتاح ابن زيدون ردحا من الزمن ، ولئن كان حبه لولادة وبالا عليه فقد كان ذلك الحب باعثا على قول درر الشعر ، كهذه المقطوعات التي مررنا بها . □

كتاب الشهر

بدأت في السنوات الأخيرة في أوربا حركة اهتمام متزايد بما يمكن تسميته « الظاهرة الغجرية » ، التي تبلورت في العقدين الأخيرين . وفي الواقع أن أفضل ترجمة لهذا التعبير هي « البعث الثقافي القومي للغجر في العالم » . فالغجر ، الذين شتتوا عبر قرون التاريخ في كل البلدان الأوربية وكانوا ضحية للجميع ، برزوا الآن على المسرح الدولي يطالبون بحقوقهم المهدورة عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة . ولقد تمكن الغجر أن يحققوا ما يشبه المعجزة خلال أقل من عشرين سنة . فقد تحولت لغتهم المحكية ـ التي ساعد في تشتتها توزعها على عدة لهجات وتطعمها بمؤثرات كثيرة ـ إلى لغة ذات أبجدية واحدة ، ثم أخذوا ينشرون تراثهم الشعبي بسرعة في هذه اللغة القديمة ـ الجديدة . وفي غضون ذلك أخذ الأدب الغجري الجديد ، من شعر وقصة ورواية ومسرحية ، يبرز في اللغة الغجرية ، بل ويترجم إلى لغات أخرى . والأهم هنا أن الغجر قد التفتوا ، بعد أن ارتكزوا على هذه القاعدة الثقافية التي بنوها بسرعة ، إلى المطالبة بحقوقهم القومية في البلدان التي يشكلون ثقلا ديموغرافيا فيها كيوغسلافيا وبلغاريا وهنغاريا ورومانيا الخ .

ومن الطبيعي أن تثير هذه « الظاهرة الغجرية » ذلك القدر من الاهتمام ، الذي تمثل في صدور دراسات كثيرة تحاول أن تستخلص من الماضي ما يساعدها على تفهم الحاضر والمستقبل . من أحدثها دراسة الدكتور رايكو جوريتش بعنوان « هجرات الغجر ـ دورات العذاب وحلقات السعادة الصادرة باللغة الصربوكرواتية خلال صيف ١٩٨٧ في يوغسلافيا ويبدو لنا ان هذه الدراسة بالذات من أفضل ما نشر في السنوات الأخيرة.

إن مؤلف هذا الكتاب هو من الغجر الذين يمكن تسميتهم « بالمثقفين الجدد » ، أي اولئك الرواد الذين يعود إليهم الفضل في بعث ما كان يبدو أنه قد مات في الغجر . وهو من الشعراء الغجريين البارزين ، وقد نشر حتى الآن عدة دواوين في اللغة الغجرية ، كما أنه أحد المسؤولين في « المنظمة العالمية للغجر » .

البحث عن البداية

في القسم الأول يتحدث المؤلف في البداية عن « الباحثين الرواد والأبحاث المتعلقة بالغجر » بدءاً من ب . هولكانيوس ، أستاذ اللغة اليونانية في ليدن المتوفي سنة ١٦١٤ ، كصاحب الريادة في الأبحاث المتعلقة بالغجر ، ومروراً بالدراسات المختلفة عن الغجر خلال القرن الثامن عشر . والتي بقيت ـ على الرغم من ـ قيمتها الريادية ، في حيرة حول أصل الغجر إلى أن نشر « يعقوب ريديغر » كتابه عن الغجر في لايبزغ سنة ١٧٨٢ . ويرى البعض أن الفضل في هذا يعود إلى القس الهنغاري ستيفان هريستوف ، الذي لاحظ خلال دراسته في ليدن واحتكاكه مع الطلاب الهنود أن هناك تشابها كبيرا بين اللغة الغجرية واللغة الهندية . أما الذي أزال كل شك حول الموضوع فهو العالم هـ . غريلمان في كتابه « الغجر » ، الذي نشره خلال ١٧٨٣ . وبعد هذا التاريخ نجد لدينا عشرات الدراسات التي اتجهت نحو التعمق في

الثقافة الروحية والمادية للغجر .

وفي « بداية الهجرات » يتحدث المؤلف عن أقدم سكان الهند ، الدرافيد ، ثم عن قدوم الآريين من الشمال حيث استوطنوا أولا الجزء الشمالي الغربي من الهند ، مما دفع الدرافيد نحو الهبوط إلى جنوب الهند وسيلان . وقد كان هؤلاء الآريون يعيشون في اتحادات قبلية إلى أن تحولت منطقتهم إلى هدف لمختلف الغزاة . فقد توسعت الإمبراطورية الفارسية حينئذ إلى نهر الهند ، ثم جاء الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م ليصل إلى نهر الغانج إلا أن هذا الاختراق كان قد ساهم من ناحية أخرى في توطيد التحالف والاتحاد بين القبائل بحيث انبعثت بعد موت الإسكندر أول دولة قوية ، مركزية وكبيرة في الهند من تجمع دويلات صغيرة كان بعضها يشمل فقط قبيلة أو قبيلتين وبعد قرن أو قرنين أخذت تلك الدولة في التفكك ، الا انها عادت إلى الانبعاث ثانية في القرن الرابع الميلادي ، حيث حكم البلاد الملوك من سلالة « غوبت » حتى القرن السابع .

أولاد راما

ومن عهد تيمورلنك ، ينفصل تاريخ الغجر عن تاريخ الهند . لأنهم كانوا قد أصبحوا خارج حدودها ، وكثير منهم كان قد وصل إلى أوربا . لأن عدم الاستقرار المتواصل دفعهم إلى مغادرة مناطقهم في كل اتجاه . وهنا يؤكد المؤلف ان الجماعة الغجرية قد تشكلت في الهند من اتحاد عدة قبائل تختلف في لهجاتها وحتى في أصولها العرقية . ومن المؤكد أن الغجر ، أو الروميين كما يسمون أنفسهم ، قد أخذوا اسمهم من « راما » بطل ملحمة « رامايانا » ، وهكذا فقد وصلوا إلى أوربا باعتبارهم « أولاد راما » .

بعد هذا يتعرض المؤلف إلى البلدان الثلاثة التي هاجر منها الغجر إلى بقية أنحاء العالم ، (الهند - ايران - أفغانستان) ففي الهند ما يزال يعيش حتى الآن عشرون قبيلة من القبائل الغجرية ، حيث أصبح لدينا الآن تفاصيل وافية عن وضع كل قبيلة ، مقرها ولغتها وأفرادها الخ . وفيما يتعلق باللغة الغجرية ، أو « اللغة الرومية » كما يسميها الغجر ، يذكر المؤلف أنها تتشابه مع بقية لغات الهند . التي تربو على خمسمائة لغة و « اللغة الرومية » تنقسم إلى عدة مجموعات ، وكل مجموعة إلى عدة لهجات . وهنا لا يخلو الأمر من بعض الاراء التي تحتاج إلى مزيد من التوثيق . فالعالم غ . غريرسون في كتابه « لغات الغجر » يعتقد أن آخر النتائج تقود إلى ان لغات الغجر المختلفة لها أصل واحد ، وهي اللغة التي كانت تتكلمها في القديم بعض قبائل الدرافيد ، التي تأثرت لاحقا بالآريين .

وفيما يتعلق بـ « ايران » (ص ٣١ - ٣٤) نجد أن غالبية الباحثين يتفقون على أن الغجر قد توجهوا أولا إلى إيران بعد مغادرتهم للهند . وكان أول وأقدم القبائل الغجرية التي وصلت إيران أفراد قبيلة اللور في القرن الخامس للميلاد ، بينما وصلت خلال القرن الحادي عشر عدة قبائل غجرية أخرى . ومن هؤلاء بقي في إيران إلى اليوم عدة تجمعات غجرية في شيراز وبقية المناطق ، إلا أن الباحثين يختلفون في تقدير عددهم من ١٢ - ١٠٠ الف . أما في أفغانستان فيشتهر الغجر هناك باسم « الغرباط » أو « القرباط » ، وهو الإسم الذي يعرف به الغجر أيضا في ألبانيا واليونان ويوغسلافيا والمغرب وامريكا وحتى في سوريا ولبنان . وينقسم العلماء حول أصل هذه التسمية . فبعضهم يعيدها إلى الأصل العربي « غربة » ، وبعضهم يعتبرها من أصل فارسي « غورب » ، أي التغيب عن البيت أو عدم الحضور . وعلى كل حال يتفق العلماء هنا على أن القرباط في أفغانستان والقاوول في إيران

كتاب الشهر

والقرباط في سوريا يعودون إلى قبيلة واحدة . أما الآن فلم يبق من الغجر في أفغانستان إلا ألف عائلة تقريبا ، نصفهم ما زالوا يعيشون تحت الخيام .

وفي القسم الثاني من الكتاب « اتجاهات الهجرة وبلاد الاستيطان » يتحدث المؤلف أولا عن « الوثائق والوقائع » التي تسجل وصول الغجر إلى مختلف البلدان في أوربا وآسيا وافريقيا . فمن الخزان الهائل الذي تمتد حدوده من إيران إلى أفغانستان ، من بحر قزوين شمالا وحتى الخليج العربي جنوبا ، انطلقت آلاف القوافل الغجرية في عدة اتجاهات .

قدر الغجر

اما القسم الثالث وعنوانه « الاضطهاد » ، فيخصصه المؤلف لما يمكن أن يسمى « قدر الغجر » . فمنذ أن بدأت القبائل الغجرية الأولى بمغادرة الهند قبل ١٥٠٠ سنة ، تحول تاريخهم إلى كل ما يرادف العنف والملاحقة والاضطهاد والاستعباد ، وتحولوا إلى ضحية للجميع في أوربا إذ وقف الجميع ضدهم - كما يقول المؤلف - الدولة والكنيسة ، القياصرة والبابوات ، الإقطاعيون والفلاحون ، الرأسماليون والبروليتاريون . بل لم يحدث - كما يضيف المؤلف بأسى - ان بادرت أي إيديولوجيا أو طبقة أو منظمة سياسية للدفاع عن مصالحهم . وهنا يوضح المؤلف أن الغجر بطبيعة تكوينهم « الإثني - النفسي » وأسلوب حياتهم يقتحمون المخاطر ويتجرؤون على الدخول في المناطق الممنوعة والمجالات التي يتخوف الناس من ولوجها ، مما يتعارض أحيانا - مع قوانين الدولة وأعراف المجتمع - وبذلك يصبح كل ما يقوم به أو يمارسه الغجر مشبوها . والأهم هنا ان أسلوب الحياة الذي يحرص عليه الغجر يعد مرفوضا في نظر السلطات الأوربية ، ولذلك كانت هناك محاولات دائمة لاستئصال هذا الأسلوب الحياتي ، مع أن ذلك يعني في الواقع استئصال الهوية الاثنية للغجر .

وبعد مرور فترة قصيرة من وصول الغجر إلى البلاد الأوربية ، بدأت تصدر القوانين الاستثنائية التي تنظم عزلهم وإذلالهم وحتى استعبادهم .

ومن ناحية اخرى فقد كانت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر تتهم وتلاحق الغجر ككفار أو كسحرة أو حتى كمساعدين للشياطين ! ولهذا فقد وجد كثير من الغجر أنفسهم على المحارق ، وخاصة في عهد محاكم التفتيش المعروفة . والمثير هنا ان ملاحقة واضطهاد الغجر ، بالاستناد إلى هذه المعتقدات ، قد استمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر . وبالإضافة إلى هذا فقد كان الغجر يتهمون بأكل لحوم البشر . ويعتقد الناس في تركيا وألبانيا بأن الغجر يفتحون القبور ليلا ويأكلون لحم الجثث ! أما الاعتقاد بأن الغجر يخطفون الأطفال فهو ما يزال أساس « التربية » البيتية حتى في يوغوسلافيا : « إذا لم تصبح ولدا صالحا فسيخطفك الغجر » .

وعلى الرغم من كل المآسي التي لحقت بالغجر عبر التاريخ إلا أن أبشع كارثة تعرضوا لها كانت دون شك محاولة الإفناء التي تعرضوا لها خلال الحرب العالمية الثانية . وكانت هذه الكارثة قد بدأت تلوح في الأفق مع صعود النازية في ألمانيا ، بداية عام ١٩٣٣ . حيث

طرح أول « حل » لـ « المشكلة الغجرية » بتجميع كل الغجر في عدة سفن كبيرة ثم إغراق كل هذه السفن في عرض البحر !

وفي سنة ١٩٣٦ أسست وزارة الداخلية ـ ضمن هذا التوجه ـ « معهد القضية الغجرية » الذي ألحق عام ١٩٣٧ بـ « معهد النقاء العنصري » في برلين . بينما تم حينئذ تكليف د . ريتر ومجموعة من مساعديه بـ « القضيه الغجرية » . وبعد شهور من الحرب العالمية الثانية بدأت الكارثة تلتهم آلاف القوافل من الغجر الذين كان يتم انتزاعهم من بيوتهم وتجميعهم في معسكرات خاصة ، إلى أن يأتي دورهم لتقبل الخيار الوحيد : الموت ، لا لشيء إلا لأنهم ولدوا غجراً . وفي الواقع يبدو من خلال المعطيات المثيرة في هذه الصفحات أن الغجر هم الضحية الفعلية للحرب العالمية الثانية ، لأنهم لم يكن لهم لا ناقة ولا جمل في هذه الحرب ، وهم لم يشاركوا فيها ولم يغنموا منها شيئا ، بل إنهم خسروا الكثير دون أن يحصلوا على أي تعويض والمشكلة هنا انه لم يهتم أحد حتى بتقدير خسائرهم ، التي تختلف تقديراتها من نصف مليون إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون .

حركة البعث الغجري

يرجع المؤلف ما يسميه « اليقظة القومية للغجر » إلى منتصف القرن التاسع عشر ، أي حين تم في رومانيا الإعلان عن قانون تحرير العبيد الغجر ، الذي كان يشمل حوالي ربع مليون غجري ، والذي عارضه النبلاء ورجال الدين ، وتبعته انتفاضة العبيد الغجر التي أغرقت بالدم ، كما يذكر المؤرخون . ويمكن اعتبار سنة ١٨٧٨ بداية للانعطاف الكبير ، إذ ان تلك السنة قد شهدت أول محاولة لتكتل الغجر على أساس جديد . حيث دعا جوزيف راينهارت ممثلين للغجر من ايطاليا واسبانيا وروسيا إلى اجتماع بالقرب من شتوتغارت ، لكي يتفقوا على تأسيس منظمة ترعى مصالح الغجر وتدافع عن حقوقهم لدى الدول المختلفة . إلا ان تلك المحاولة ـ كمحاولة العبيد الغجر للتحرر في رومانيا ـ قد قمعت فورا من قبل السلطات الألمانية ، التي منعت الغجر من أن يعقدوا لاحقا مثل هذه الإجتماعات . وقد حاول الغجر في السنة اللاحقة ١٨٧٩ ، أن يعقدوا اجتماعا في القرية الهنغارية كيسفال . ولكن السلطات النمساوية ـ الهنغارية منعت هذه المحاولة وأدانت عقد أمثال هذه الاجتماعات . إلا ان هذه المحاولات الفاشلة فتحت الطريق لبعض المبادرات اللاحقة ، سواء من قبل ممثلي الغجر أو من بعض المفكرين غير الغجر الذين أخذوا يتعاطفون معهم .

ففي آيار مايو ١٨٩١ توجه جورج سميث إلى البرلمان الإنكليزي طالبا منه التدخل لدى الحكومة كي تحل مشاكل الغجر في انكلترا . وإلى تلك الفترة يعود « البيان الغجري » في بلغاريا والذي كان ممثلو الغجر قد وجهوه إلى الحكومة في صوفيا وطالبوا فيه أن تؤمن لهم الحكومة الحقوق المدنية والحريات الدينية . وهكذا تحقق أول حلم للغجر سنة ١٩٠٠ حين افتتحت في صوفيا « المدرسة الغجرية » ، إلا أن هذه المدرسة لم تعمر طويلا . وبعد ثورة أكتوبر الإشتراكية في روسيا برزت عدة محاولات للقيام بعمل ما لصالح الغجر ، إلا أن هذه المحاولات لم تحظ بالتأييد من القمة إلا في نهاية العشرينيات ، حين فتحت فجأة أمام الغجر أبواب لم تكن في الحسبان . فمنذ ذلك الحين أسست منظمات للغجر في عدة أماكن ، كما أسس « الاتحاد الروسي العام للغجر » ، وتم إصدار عدة مجلات بالإضافة إلى برامج إذاعية في اللغة الغجرية . وإلى جانب هذا فقد افتتحت مدرسة غجرية في « اوجهورد » ثم

أخذت الكتب تنشر ، بينما تم أخيرا افتتاح مسرح للغجر . وبعبارة اخرى فقد كانت هذه الجهود تعني بعثا كاملا لما هو متجمد عبر القرون ، إلا أن هذه المبادرات انطفأت للأسف مع الزمن .

وبالمقارنة مع روسيا الاشتراكية اتخذت اليقظة القومية للغجر مضمونا سياسيا محددا في رومانيا ، حيث يعيش أكبر تجمع غجري في أوربا الشرقية (حوالي مليونين من الغجر). ويبدو هنا ، (مع أن المؤلف لم يمس هذه المسألة إطلاقا)، ان هذه البرمجة السياسية لليقظة القومية للغجر كانت تحت تأثير الإنجازات الأولية للحركة الصهيونية . ففي أوائل الثلاثينيات نشط غريغوريه نيكولسكو للدعوة إلى تأسيس منظمة عالمية للغجر ، ونجح أخيرا في أن يعقد مؤتمرا لممثلي الغجر في أوربا وذلك في بوخارست خلال تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ . وخلال هذا المؤتمر تبلورت الفكرة الداعية إلى تشكيل « دولة قومية » للغجر ، سواء في الموطن الأصلي أو في مكان ما في شمال افريقيا ـ أي على حساب العرب . ولإنجاز هذه الفكرة فقد كان من المقرر القيام بزيارة الملك الإنكليزي وتأمين الدعم من عدد من رجالات الدول الأوربية . إلا أن هذه الفكرة لم تتبلور جيدا في تربتها لأن السلطات الرومانية منعت هذه المنظمة الغجرية عام ١٩٣٦ ، حتى ان الجنرال انتونسكو طالب حينئذ بـ « تطهير البلاد » من كل الأقليات القومية وعلى رأس هؤلاء الغجر واليهود .

ففي هنغاريا كان قد تأسس سنة ١٩٥٨ « اتحاد الغجر » ، ثم تأسست منظمات مشابهة في بقية الدول كألمانيا الغربية وأسبانيا وفنلندا والسويد وفرنسا الخ . إلا أن تلك المنظمات لم يكن لها برنامج مشترك ، بل إن كل منظمة كانت تنشط وسط ووفق الأوضاع الخاصة بكل بلد . وفي سنة ١٩٦٩ بادر بعض الكتاب الغجر في يوغسلافيا إلى اقتراح نوع من الترابط والتعاون بين المنظمات الغجرية . وبفضل هذا ، وبناء على اقتراح الشاعر سلوبودان بربرسكي من يوغسلافيا ، عقد أخيرا المؤتمر العالمي الأول للغجر في لندن خلال آيار / مايو ١٩٧١ ، حيث تمخض هذا عن تأسيس « المنظمة العالمية للغجر ». وفي ذلك المؤتمر تم الاتفاق على اختيار علم ونشيد موحد للغجر ، وجرى أول اتصال رسمي مع الموطن الأصلي من خلال السفارة الهندية في لندن .

وفي سنة ١٩٨٣ حقق الغجر انتصاراً آخر عندما تمكن عضو رئاسة « المنظمة العالمية للغجر » ، دي ديوس راميريز هيريديا ، من الفوز في الانتخابات الأسبانية للمجلس الأوربي . مما مكنه من إثارة مسألة حقوق الغجر ووضعهم الاجتماعي في بعض البلدان الأوربية أكثر من مرة .

المعجزة الغجرية

وفيما يخص « الحياة الإجتماعية » يوضح المؤلف أن الهرم الغجري يبدأ من « التسارا » أي الخيمة ، التي تجمع عادة بين ثلاثة أجيال ، ثم يأتي الـ « نيامو » أي الفخذ الذي يجمع مجموعة من الخيم ، ومن عدة أفخاذ تتشكل الـ « فيتسا » أو العشيرة . والسلطة هنا بيد الشيخ أو الزعيم الذي يتم اختياره لفترة محددة أو طيلة

حياته ، وذلك حسب شهرته وذكائه ونفوذه ، وتغطي سلطته في العادة كل العشيرة .

وفيما يتعلق بأدب الغجر يستشهد المؤلف بعبارة المفكر « ارنست بلوخ » لا يبدأ الرقص في أي مكان قبل الظهر » ليذكر المفارقة التي تكمن في أن الغجر بعد عشرة قرون عاشوها في أوربا لا يزالون لا يملكون الشروط الأساسية التي تمكنهم من الإبداع . فالأفراد الموهوبون من الغجر كان لا يمكنهم أن يشتهروا إلا إذا أنكروا أنفسهم كغجر ، أي بعد أن يذوبوا في بوتقة الآخرين . ومن هؤلاء يذكر المؤلف الشاعر الإنكليزي « جون بانيان » ، والكاتب المسرحي « ميلان بوغويتش » الذي يُعد أيضا من الأسماء الريادية في الشعر الكرواتي المعاصر ، ويؤكد أخيرا أنه يعرف الكثيرين من الكتاب الغجر في يوغسلافيا الذين يتهربون من الاعتراف بأنفسهم كغجر .

وعلى كل حال يعود الفضل هنا للشعراء في بعث وتأصيل الأدب الغجري الجديد . ومن هؤلاء الشاعر الرائد أدم تيكنو (١٨٧٥ - ١٩٤٨) ، الذي يعتبر خير نموذج لشعبه . فقد ولد هذا الشاعر على حدود افغانستان وشارك سنة ١٩٠٥ في الحرب الروسية - اليابانية ، وحصل على رتبة ضابط ، إلا أنه تخلى عن هذا وانضم إلى إحدى العشائر الغجرية ، وعبر معها الحدود المختلفة حتى وصل إلى اسطنبول ، ومن ثم انتقل إلى ألمانيا ليقضي بقية حياته . وإلى جانب هذا تذكر الشاعرة الرائدة « غينا راينتشيتش » (١٨٣٠ - ١٨٩١) ، التي ترجمت قصائدها في مطلع هذا القرن إلى الألمانية والسويدية لاحقا . وفي الواقع ان هذين الإسمين يمثلان حالة نادرة ، إذ أن الشعر الغجري لم يبرز حقيقة إلا في روسيا السوفيتية ، بعد أن تشكلت الظروف الإجتماعية والثقافية المناسبة . ولكن بعد أن برزت هنا الأسماء الريادية كالكسندر غرمانو ، نينا الكسندروفا بوداروفا ، ميخائيل بزليدسكي الخ ، حتى أخذت تتلاشى الأرضية التي انضجتهم . وفي الخمسينيات برزت في بولونيا الشاعرة « برانيسلافا فاسي بابوشا » (١٩٠٩) ، الأولى والوحيدة التي طبعت لها مجموعة شعرية باللغتين الغجرية والبولونية معا ،وذلك خلال سنة ١٩٥٦ . ومن السويد اشتهرت شاعرة غجرية أخرى ، « كاتارينا تايكون » (١٩١٤) ، التي نشرت أيضا مجموعة شعرية . وبالمقارنة مع البلدان الأخرى تبدو الآن يوغسلافيا هي المركز الوحيد الذي يحتضن استمرارية « كرايكو جوريتش » ، مؤلف الكتاب ، و « يوفان نيكوليتش » ، و « قدري شاهينوفيتش » ، الخ .

وبالإضافة إلى الشعر فقد برزت في الأدب الغجري الجديد محاولات روائية متميزة . منها رواية « رعاة الدببة » المشهورة للروائي « ماتيو ماكسيموف » (١٩١٧) ، الذي ولد في برشلونة وانتقل لاحقا للعيش في باريس . وهي نوع من الاعترافات بتفاصيل الحياة الغجرية ،

بعد كل هذا يبدو لنا أن « المعجزة الغجرية » تتلخص بهذه السطور التي خطها المؤلف :

« حوالي ١٥ مليوناً ينتشرون في مختلف أنحاء العالم . إن قصتهم هي قصة المعاناة والحزن ، ولكنها أيضا قصة تحكي انتصار روح الإنسان على كل ما يضغط عليها . □

أوسع صدر لرجل

● يبلغ محيط صدر روبرت هوك من الولايات المتحدة ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمترا .

من المكتبة العربية

دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي

تأليف : مجموعة من الكتاب العرب
عرض وتحليل : ياسر الفهد

لم تكن هناك أبدا نهضة بلا ترجمة فمن خلال الترجمة فقط يمكن الاطلاع على أحدث المنجزات الثقافية والعلمية في العالم أجمع . لكن حديث الترجمة إلى العربية ذو شجون كثيرة ، يطرقها الكاتب من خلال استعراضه لهذا الكتاب عن واقع الترجمة في الوطن العربي .

الحديث عن الترجمة وشجونها ، أمر غاية في الأهمية ، لأن الترجمة في هذه المرحلة على الأخص من مراحل تطورنا العلمي والثقافي ، يمكن أن تؤدي دورا بالغ الفعالية في إثراء ثقافتنا ، وتوسيع مداها ورفدها بثقافات الدول المتقدمة ، وفي التعويض عن النقص النوعي في النشاطات والإنجازات الابداعية العربية ، ولا سيما في مجالات العلوم والطب والتنمية الاقتصادية . ويتناول كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجزئين ، الجزء الأول في عام ١٩٨٥ ، (واقع الترجمة في كل من الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا والعراق وليبيا) ، والجزء الثاني في عام ١٩٨٧ يشمل (السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة والبحرين

ولبنان ومصر والمغرب وشطري اليمن بالإضافة إلى الترجمة لدى أبناء فلسطين). والمقصود هنا الترجمة الثقافية والعلمية . أما الترجمة الفورية وترجمة الوثائق والمعاملات ، فليس لها سوى أهمية ضئيلة . والدراسات التي شملها الكتاب بجزئيه ، هي بأقلام كتاب عرب بارزين ذوي دراية خاصة بالترجمة ومشكلاتها . ومن هؤلاء المرحوم الدكتور عيسى الناعوري والدكتور محمود السمرة والدكتور حسام الخطيب والدكتور حنفي بن عيسى وأنطون مقدسي وشحادة خوري وغيرهم . وينتهي كل جزء من جزئي الكتاب بدراسة ختامية تحلل ما تضمنته الدراسات في ذلك الجزء من أفكار وتوجهات وأرقام ، وتخرج باستنتاجات وأحكام حول طرق مواجهة مشكلات الترجمة .

أما الدراسات الأصلية نفسها ، فإنها تلقي الأضواء بطريقة منظمة على عدة أمور أهمها أربعة عناصر أساسية :

أ ـ التشريعات الناظمة للترجمة .
ب ـ مؤسسات الترجمة .
جـ ـ المترجمون ومدارس الترجمة .
هـ ـ قراء المادة المترجمة .

وبالنسبة للعنصر الأول ، وعلى الرغم من

وجود تشريعات حديثة لحماية حقوق التأليف التي تشمل أيضا المترجمات بالإضافة إلى المؤلفات ، فان الترجمة في الأقطار العربية ، ـ كما يشير الكتاب ـ تفتقر إلى الضوابط والنواظم القانونية . وكأحد الأدلّة على ذلك أنه نادرا ما يقوم مترجم قبل ترجمة كتاب ما ، باستئذان مؤلفه الأصلي . وكدليل ثان فإنه يحدث أحيانا أن يتولى أحدهم ترجمة كتاب ما ، ثم يتبين له فيما بعد أن غيره قد سبقه إلى ترجمته ، مما يقلل من قيمة الترجمة الثانية . ويمكننا أن نستثني من هذا الوضع الجزائر التي وجدت نفسها بعد إحرازها الاستقلال في وضع يحتّم عليها سن تشريعات خاصة بالتعريب . ومن الانجازات التي تحققت في هذا المجال ، مثلا ، القانون الأساسي المتعلق بالمترجمين ، الذي يحدد واجبات المترجم وحقوقه ومؤهلاته .

الترجمة والمؤسسات

أما بخصوص العنصر الثاني (المؤسسات) فإن الترجمة ، عندما بدأت في الأقطار العربية في القرن التاسع عشر ، كان يقوم بها أفراد أو دور نشر خاصة . ولم تشرع المؤسسات الرسمية كالوزارات والجامعات في تولي مهامها في هذا المضمار إلا منذ الخمسينيات من هذا القرن .

ومن هذه المؤسسات ما يرعى قضية الترجمة والمترجمين ، ومنها ما يُعنى بنشر المطبوعات المترجمة من كتب ودوريات . ونذكر من المؤسسات التي ذكرها الكتاب ، على سبيل المثال لا الحصر ، وزارة الإعلام ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، في الكويت ، والجامعات السبع في السعودية ، ووزارة الثقافة والإعلام في العراق ، والمركز الوطني للترجمة والمصطلحات في الجزائر ، واللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر في الأردن ، ولجنة

التأليف والترجمة والنشر في مصر العربية .. الخ .

ويبين الكتاب أن قطرا كالبحرين لا توجد فيه أي مؤسسة رسمية لرعاية الترجمة التي تشكل مجرد صناعة خدمات .

وعلى الرغم من أن معظم مؤسسات الترجمة ذات طابع قطري ، فإن بعضها كالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت يعمل على مستوى قومي ، وينشر للمترجمين العرب من شتى أرجاء الوطن العربي . ومع ذلك ، فإن هناك حاجة ماسة لمزيد من المؤسسات التي تعمل على الصعيد العربي ، وتشرف على تنظيم أعمال الترجمة في الأقطار العربية كافة . وتحاول المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حاليا ، القيام بهذا الدور بواسطة وحدة الترجمة التي تتبع إدارة الثقافة فيها . وتضطلع الوحدة المذكورة بثلاث مهام :

أ ـ مراقبة نشاطات الترجمة في مختلف الأقطار العربية .

ب ـ الاهتمام بظاهرة الترجمة نفسها بوصفها نشاطا يحتاج إلى رعاية وتنسيق وتخطيط .

جـ ـ نقل الروائع الأدبية العالمية إلى اللغة العربية .

وبالنسبة للمترجمين وتأهيلهم ، يبين الكتاب أن هناك أقساما كثيرة في الأقطار العربية تقوم بتدريس وتخريج المترجين ، ومنها على سبيل المثال ، معهد بورقيبة للغات الحية في تونس وقسم اللغات والترجمة في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض ، ووحدة الترجمة في كلية الآداب في جامعة الخرطوم ، وفرع الترجمة في جامعة الموصل ، وقسم الترجمة في الجامعة المستنصرية في العراق ، ومدرسة الترجمة في جامعة القديس يوسف في لبنان .. الخ . ولكن على الرغم من وجود هذه الأقسام وغيرها ، فإن عدد المترجين الاكفاء قليل جدا نسبيا .

أما بشأن العنصر الرابع ، وهو القارىء ، فإن للترجمة قراءها الكثيرين حتى أن بعض القراء يفضلونها على المادة الأصيلة ، لأنها تزودهم بأحدث المستجدات في مختلف الحقول . ولكن هناك مشكلة الارتفاع المتزايد لأسعار الكتب ، الموضوعة منها والمترجمة ، وكذلك مشكلة صعوبة انتقال الكتاب من قطر إلى قطر عربي آخر ، لأسباب مختلفة سياسية وتجارية وجمركية . وقد أوردت الدراسات أسماء كتب مترجمة هامة سبق أن أصدرتها مؤسسات عربية مختلفة ، وقد أثنى الكتاب بشكل خاص على نشاطات الترجمة التي تبذلها المؤسسات الكويتية ، فقد بلغ مجموع المسرحيات المترجمة وحدها التي أشرفت وزارة الإعلام الكويتية على ترجمتها فيما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٦ زهاء (٢٠٥) مسرحيات . بالإضافة الى كتب أخرى مترجمة كثيرة . كما أثنى أيضا ، على نشاطات أبناء فلسطين في الترجمة ، التي تتسم بالتنوع اللغوي ، أي النقل عن عدة لغات ، وبالتنوع المعرفي ، أي الترجمة عن فروع عديدة من المعرفة ، وكذلك بالجمع بين التعريب والتعجيم .

ملاحظات

من مزايا كتاب (دراسات حول واقع الترجمة) أنه يُعنى بدراسة قضايا الترجمة على صعيد الوطن العربي بأكمله ، لا في قطر عربي أو منطقة محلية معينة ، مما يضفي عليه طابعا شموليا إلى جانب طابعه الثقافي . ومن جهة ثانية فإن الدراسات التي تضمنها الكتاب تتبع خطا منهجيا واضحا ، وطريقة علمية منظمة في البحث . وعلى الرغم من شمولية الكتاب وتناوله مجموعة واسعة من قضايا الترجمة ، فإن الفائدة منه كانت ممكنة أن تكون أعم ، لو أنه تعرض ، فيما تعرض له ، وبشكل مفصل ، إلى

عملية الترجمة نفسها ، وما تنطوي عليه من تعقيدات فنية ، ومصاعب وإشكالات عديدة ، وكذلك إلى حقوق المترجم وما يعانيه أحيانا من حيف وسوء تقدير لعمله . ومن النقاط الهامة أن الكتاب يعدّ الكشف عن الواقع الحالي للترجمة في الأقطار العربية وسيلة هامة وخطوة أساسية لتحسين هذا الواقع وتطويره ، فتشخيص مشكلات الترجمة مقدمة ومنطلق لوصف العلاج لها ، بما يكفل تحقيق مصلحة الثقافة العربية التي تشكل عملية الترجمة جزءا أساسيا منها .

ففي ضوء المشكلات القائمة ، يبين الكتاب ، مثلا ، أن هناك قبل كل شيء حاجة ماسة لوضع تشريعات فعالة لتنظيم عملية الترجمة ، وتحريرها من الارتجال والعشوائية ، كما أن من الضروري إصدار نشرات ببليوغرافية دورية على المستوى العربي ، توثق الأعمال التي تمت ترجمتها من اللغة العربية وإليها ، وذلك منعا للازدواجية في الترجمة . كما يبرز المؤلفون الحاجة إلى إنشاء مؤسسات جديدة تعنى بقضية الترجمة ، ويؤكدون أهمية الاستمرار في تنسيق المصطلحات وتوحيدها . ويقدم الكتاب اقتراحات أخرى كثيرة يمكن أن تسهم بشكل فعال في تطوير حركة الترجمة في الوطن العربي .

وفضلا عن كل ذلك ، فإن هناك ، كما يبدو لنا ، خطوات أخرى لا تقل أهمية عما أورده المؤلفون ، فهناك مثلا ضرورة توفير حوافز معنوية ومادية أكبر للترجمة والمترجمين ، وكذلك تسهيل انتقال الكتاب المترجم بين الأقطار العربية ، والتوسع في إقامة معارض الكتب العربية . ولا شك أن تحسين حركة الترجمة يجب الا يقتصر على الكتب ، بل يجب أن يتعدى ذلك الى الصحافة أيضا ، فهناك حاجة إلى إصدار مزيد من المجلات المتخصصة بالمادة المترجمة على غرار (الثقافة العالمية) و (العلوم) و (الآداب الأجنبية) وغيرها ، وحبذا ، لو تهتم إحدى المؤسسات العربية أيضا بإصدار مجلة تعنى حصرا بظاهرة (الترجمة) وقضاياها ، أسوة ببعض المجلات المتخصصة بظاهرة (النشر) أو ظاهرة (الإعلام) ، مثلا .

وبعد ، فإن الترجمة التي تشكل وسيلة عظيمة للتواصل بين الثقافات ، وتشرع الأبواب أمام الاطلاع على منجزات الحضارة الحديثة ، جديرة حقا بكل رعاية وتكريم ، ومن حق المترجمين على جميع الأطراف الثقافية أن تتعاون لتوفير الحوافز الكافية لهم وتحسين تأهيلهم وإعدادهم . □

●

قتل الوقت

● أغرب ساعة ميدان في العالم تلك التي كانت توجد قبل الحرب الأخيرة في مدينة فرانكفورت الالمانية ، وقد صممها مهندس الماني مشهور ، وكان فيها باب صغير يفتح فيخرج منه فارس على صهوة جواده يعلن عن عدد الساعات بطلقات من مسدس في يده . ويعلق مصممها على ذلك قائلا : إن هذه هي أحسن طريقة « لقتل الوقت » !

مختارات

اسم الكتاب : المؤرخون اليمنيون
المؤلف : د . حسين بن عبدالله العمري
الناشر : دار الفكر/ دمشق
عدد الصفحات : ١٢٨ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يتناول الكاتب في كتابه دراسة عن التاريخ والمؤرخين اليمنيين في العصر الحديث ويقسم كتابه الى افكار متلاحقة، تمثل كلا يخدم موضوع دراسته ، فيعرض للمراحل الثلاث في مدرسة التاريخ اليمنية ، متناولا كل مرحلة على حدة ، عارضا مميزاتها وأسلوبها وكتابتها وأهم الكتب التي صدرت عنها ، ونماذج من أعمال مؤرخي كل مرحلة ، وتحليلا عميقا وعلميا وافيا لها .

□□□

اسم الكتاب : ذئب البحار .
المؤلف : جاك لندن . ترجمة نعيم أبو حجلة
الناشر : دار منارات الأردن .
عدد الصفحات : ٢٠٤ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

كان المثقف الشاب المرفه في رحلة بحرية عندما تعرضت « العبّارة » التي يركبها لحادث اصطدام ، وحملته الأمواج فوق قارب نجاة الى عرض المحيط ، والتقطته سفينة ، وفوق سطحها فوجيء بأنها سفينة صيد ، ذاهبة الى شواطيء اليابان ، ورفض قبطانها إعادته الى البر ، وأجبره بالقوة أن يعمل فوق السفينة التي عانت من عجز في طاقمها نتيجة لوفاة عدد من بحارتها . وعاش المثقف الشاب الذي لم يكن يحس شيئا في الدنيا ، ولا يعرف معنى قيم الأشياء كالعمل والحرية والراحة والتعب والعبودية .

هذه التجربة الغريبة المبهرة هي موضوع الرواية التي ترجمت الى العربية أول مرة ونشرت ١٩٨٨ .

□□□

اسم الكتاب : في الشعر العبري والصهيوني المعاصر .
المؤلف : صالح العياري .
الناشر : دار طلاس/ سوريا
عدد الصفحات : ٢٥٤ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

دراسة في الآثار الأدبية على (الشعر) الصهيوني المعاصر ، يقوم من خلالها الكاتب بتحليل مضمون أعمال عدد من الشعراء البارزين في الكيان الصهيوني وخارجه . وعلى امتداد الدراسة تتوالى النتائج التي تؤكد أن مشروعية (الآخر العربي) تسقط في معظم آثار

الأدب الصهيوني المعاصر ، فالآثار الأدبية الصهيونية تنظر الى العربي على أنه العدو اللدود الذي يجب القضاء عليه ، وعلى المستوى الفني فإن القصيدة في الشعر الصهيوني تفقد قيمتها الفنية من حيث أنها هي النموذج الابداعي للتسامي المطلق ، ومستودع للقيم الجمالية لتصبح خطابا شعريا مفعما بالعداوة والدم والقتل والعنصرية .

□□□

اسم الكتاب : موت أمطار الشمس « ديوان شعر » .
المؤلف : زهور دكسن .
الناشر : دار الشئون الثقافية العامة/ بغداد .
عدد الصفحات : ١٤٠ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعري جديد للشاعرة زهور دكسن ، وهو الديوان الرابع لها ، ويضم الديوان خمسا وأربعين قصيدة . وعن الديوان وأشعاره تقول الناقدة العربية الكبيرة د سلمى الخضرا الجيوسي : « إنها برهان على تفوق الغريزة الشعرية والحدس الفني على التنظير والمعرفة التقنية المدروسة ، وهي أشعار مرهفة وناصعة ، مدهشة ، فيها طراوة وتماسك لغوي ومغامرة خيالية .

□□□

اسم الكتاب : دفاتر الأيام . أفكار على ورق .
المؤلف : يوسف الخال .
الناشر : رياض الريس للكتب والنشر/ لندن .
عدد الصفحات : ٤٠٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

أوراق وأفكار ويوميات للكاتب اللبناني الراحل يوسف الخال ، جمعتها دار الريس في كتاب واحد ، وقدمته للقراء . ويضم الكتاب بالإضافة الى بعض وجهات النظر والآراء تسجيلا يوميا من يوميات الكاتب التي سبق نشرها . والكتاب قد تتفق معه أو تختلف ، ولكنه يبقى مرجعا تجميعيا لبطريرك الحداثة في الشعر العربي .

□□□

اسم الكتاب : السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام) .
المؤلف : د . وجيه كوثراني .
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية .
عدد الصفحات : ٢٤٥ من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يرتبط العمل السياسي بمضامين وأفكار ومؤسسات وديناميات داخلية وخارجية ، فهو يرتبط بالظاهر الايديولوجي (الخطاب والعقليات) ، ويدخل من جهة أخرى في صلب البنية الاجتماعية ومؤسساتها ، وهو بذلك يرتبط بالسلطة ومراكزها ، والمجتمع ومؤسساته ، وبكل الأنساق والنزعات داخل المجتمع . وفي الكتاب يقدم الباحث دراسة معمقة لخطوط التداخل وشكل السلطة والمجتمع والعمل السياسي في بلاد الشام إبان تاريخ الولاية العـ

أولان باتور . □

■ الصحافة حبر وورق وحرية .
■ ما تجمعه الأحلام قد تفرقه اليقظة .

أي مقاطعة أو ولاية من الولايـ المتحدة الأمريكية ، لاتزيد مساحـ على مساحة عاصمتها ، ولايتجـ عدد سكانها عدد سكان العاصمـ

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٤
مارس ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط:

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ، الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٤ » . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ابريل ١٩٨٩ .

... ١٩٨٨ :

... المثقف الشاب المرفه في رحلة بحرية ... ضت « العبّارة » التي يركبها لحادث ... وحملته الأمواج فوق قارب نجاه الى

١

أي الجزر التالية يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية
علما بأن عاصمة الدولة المطلوبة تسمى فونافوق ؟

× **توفالو** × **توباجو وترينداد**
× **توباى**

٢

ريكيافيك هي عاصمة ايسلندة ، ومعنى الاسم هو : «خليج الدخان» ، ترى لم سميت عاصمة ايسلندة بهذا الاسم ؟

× لكثرة البخار المتصاعد من نوافير الماء الساخن .
× لكثرة الدخان المتصاعد من البراكين .
× لكثرة الدخان المتصاعد من المصانع .

٣

أي جزر في المحيط الهادي اشتهرت بملكها (توفا أهاو توبو) الرابع ، وهو بدين جدا ويبلغ وزنه ١٩٤ كيلوغراما ، الأمر الذى أهله لاحتلال المرتبة الأولى من حيث الوزن بين ملوك العالم جميعا ، وذلك وفق الدراسات أو الإحصاءات التى أجرتها مؤسسة «جنس» التى تصدر كتاب «جنس» للأرقام .

× **تونجا** × **توباجو**
× **توجو**

عدد الدول المستقلة ، كما هو معروف (١٧٠) دولة منتشرة في قارات العالم المختلفة ، ترى ماهو عدد الجمهوريات بين هذه الدول :

× حوالي ١٢٥ دولة
× حوالي ٨٥ دولة
× حوالي ٤٥ دولة

أي جزيرة من جزر المحيط الهادي كانت مستقلة طوال القرن التاسع عشر إلى أن تخلت عن استقلالها بمحض إرادتها وطلبت الانضواء تحت راية دولة استعمارية كبيرة ، وذلك سنة ١٨٩٨ ؟

× تاهيتي × هايتي
× هواي

٦

عدد الولايات المتحدة في امريكا هو ٥٠ ولاية ، على أن في الامكان أن يزداد هذا العدد حتى يصبح ٥٤ ولاية دون حاجة إلى ضم أراض جديدة ودون الإضطرار إلى تعديل الدستور ، علل ذلك ؟

٧

جزر كريسماس (أي عيد الميلاد) يتردد اسمها في الأخبار بين حين واخر ، ترى أين تقع هذه الجزر ؟

× في المحيط الهندي
× في المحيط الهادي
× في كلا المحيطين الهندي والهادي .

٨

اسم العاصمة هو بانجول ، فما اسم الدولة ؟

× جامبيا × غينيا × غانا

درجت بعض الدول على استبدال أسمائها القديمة بأسماء أخرى جديدة ، ونسمي هنا بعض تلك الدول بواحد من اسميها فما هو اسمها الآخر ؟

× جرينلند × بنين
× فولتا العليا × هندوراس
× زامبيا × روديسيا

ما عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ، علما بأن عدد الدول المستقلة هو ١٧٠ دولة ؟

× عدد الأقطار غير المستقلة حوالي ١٠٠ دولة
× حوالي ٦٠ دولة .
× حوالي ١٢٠ دولة .

١١

نحن نذكر عواصم الدول ، وعليك أن تذكر دول هذه العواصم ؟

× بلومان × ناساو × تيمفو
× باراماريبو × فادوز
× أولان باتور .

١٢

أي مقاطعة أو ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، لاتزيد مساحتها على مساحة عاصمتها ، ولايتجاوز عدد سكانها عدد سكان العاصمة ؟

ديسمبر ١٩٨٨

١ الفتاتان من عارضات الأزياء في منطقة خباروفسك في الشرق الأقصى السوفياتي ، أما النهر فهو نهر آمور الذي يفصل مع رافده إسّوري بين الاتحاد السوفياتي والصين .

٢ مرض باركنسون هو المرض الذي يعاني منه محمد علي كلاي ، ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى الطبيب الانكليزي الذي اكتشفه سنة ١٨١٧ ، وهو جيمس باركنسون ، وهذا المرض شائع بين الشيوخ والمسنين . وقد نجح الأطباء في معالجة هذا المرض في الفترة الأخيرة .

٣ منذ مطلع السبعينيات والصين تنتهج سياسة المولود الواحد للأسرة الواحدة ، وذلك بقصد تحديد النسل ، على أنها لاتفرض هذه السياسة فرضا بقانون ، ولكنها تعمل على الأخذ بها بالتوعية أو الحوافز ، والهدف هو الا يتجاوز عدد سكان الصين ١٢٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين .

٤ دشن مسجد سيول عام ١٩٧٦ . ويبلغ عدد المسلمين في كوريا الجنوبية (٣١٠٠٠) نسمة ، منهم (١٨٠٠٠) نسمة يسكنون سيول العاصمة .

٥ مصنع الحديد والصلب الذي يظهر في الصورة يوجد في قطر ، في مدينة أم سعيد ، وشركة (فاسكو) هي التي تملك هذا المصنع بالاتفاق بين دولة قطر وبين شركة كوبي ستيل ، وشركة طوكيو بوكي والشركتان يابانيتان ، تملك الأولى ٢٠٪ والثانية ١٠٪ من الأسهم . أما إنتاج المصنع فيبلغ نحو نصف مليون طن في العام ، وعدد عماله يبلغ ١١٠٠ عامل .

٦ إنه الاستاد الأولمبي الكبير في مدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية ، وقد أقيم خصيصا لكي تقام فيه الألعاب الاولمبية لعام ١٩٨٨ . وتتسع مدرجات هذا الاستاد لمائة ألف متفرج . والملفت للنظر أن هذه المدرجات تتحرك الكترونيا ، ويتداخل بعضها ببعض لتختفي تماما ، وكأن شيئا لم يكن ، وذلك في غضون نصف ساعة .

٧ الرقصة الدائرية ترمز إلى وجود غذاء قريب ، والرقصة الأخرى ترمز إلى وجود غذاء بعيد .

إنه مصنع الآلات والمصانع ، يوجد في مدينة خباروفسك في الاتحاد السوفياتي ، المدينة الغنية بثرواتها المعدنية التي يصل إليها النفط بخطوط

٨ الأنابيب الممتدة من حقول النفط وآباره في جزيرة سخالين . لقد أسس هذا المصنع سنة ١٩٥١ ، وقفز عدد عماله من ١٥٠ عاملا ومهندسا في مطلع الخمسينيات إلى ١٥٠٠ في الوقت الحاضر .

٩ تمثل الصورة ككل ظاهرة الموصلات الكهربائية الفائقة التوصيل ، ويمثل الجسم المرتفع في الجو ظاهرة ميزنر في التنافر المغناطيسي للموصلات الفائقة التوصيل . والجدير بالذكر أن العلماء اكتشفوا في السنتين الأخيرتين بعض المواد التي تتميز بخاصية التوصيل الكهربائي المثالي دون الحاجة إلى تبريد يهبط بحرارة تلك المواد إلى ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر . ويجمع الكثيرون على أن هذا الاكتشاف هو بمثابة ثورة صناعية ثانية .

١٠ الرجل الذي يظهر في الصورة هو الكاتب الروسي انطون تشيكوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) ، وقد تخصص في كتابة القصص عامة والمسرحيات بخاصة ونبغ فيها .

١١ قائل البيت هو أبو الحسن عبدالكريم الأنصاري . ومعنى البيت واضح ، فالمقصود مدح « البادهنج » ، أي مكيف الهواء الذي اخترعه العرب وأقبلوا على استعماله أيام العباسيين .

١٢ إنه مبنى سوق مركزي في الشارقة ، يسمى سوق المجرة ، ويعد هذا السوق السوق الثاني في مدينة الشارقة ، أما سوقها الأول فهو سوق الشارقة المركزي الذي بلغت تكاليف انشائه ٢٢ مليون دولار .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨

الجائزة الأولى : الشايع عبد الرزاق الحريشي / فاس ـ المملكة المغربية
الجائزة الثانية : مسوتيا جوزيف اشجيان / المتن ـ الجمهورية اللبنانية
الجائزة الثالثة : محمد بن محمد صبرة / صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ عبد الغني عبد الفتاح / عمان ـ جبل الحسين ـ الأردن
٢ ـ سليمان بن عامر الجهضمي / المنطقة الوسطى ولاية القبيس ـ سلطنة عمان
٣ ـ حمزة المرسي السيد / جنشود / محافظة الغربية ـ جمهورية مصر العربية
٤ ـ اسامة سمير منصور / ص . ب ٢٠٣٠ ـ الكويت
٥ ـ ناصر علي حسن القاسم / الدمام ـ المملكة العربية السعودية
٦ ـ السيدة فاطمة مصري / حلب ـ الجمهورية العربية السورية
٧ ـ وصيل حسين حسن / بغداد ـ الجمهورية العراقية
٨ ـ الحبيب عمر صالح / جرجيس ـ الجمهورية التونسية

لم يكن يخطر ببال أحد أن يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه الآلة موضع غيرة الإنسان وحسده ، لأن هذا هو ما حدث بالفعل في بطولة العالم الثامنة للشطرنـج الآلي المنزلي المقـامة في اسبانيا في مطلع شهر أكتوبر الماضي ، فقد لعبت هـذه الآلات الصغيرة بمهارة فـائقـة ، جعلت الجمـاهير الغفيـرة من المتفرجيـن المهتمين بهـذا الضـرب من الصـراع الفكـري بـين عـباقـرة الشطرنج الآلي تراقب ما يجري مشدوهة وهي لا تصدق ما ترى أعينها من روائع التخطيط ودقـة التنفيذ ، فقد حفلت هذه البطولة بالأدوار الجيدة المليئـة بالمنـاورات البـديعـة والتخـطيط العميق والنقلات « التكتيكية » الفائقة الدقة التي يعجز عنها حتى كبار اللاعبين من بني البشر . والواقع أن برامج الشطرنج الآلي الحديثة تستطيع أن تهزم جميع اللاعبيـن من بني الإنسان ، عـدا الصفوة المتميزة منهم ، ولن تأفل شمس هذا القرن حتى ينضم هؤلاء إلى صفوف المهزومين .

وهذا التقدم الهائل في ميـدان البرمجة الآلية بغض النظر عما يقدمه من متعة وتسلية يمثل فرعاً هاماً جداً من فروع علم الحاسوب الذي يعرف بالذكاء الصناعي ، والذي تتسع آفاقه يوماً بعد يوم ، وبخاصة في ميدان الشطرنج الآلي . وقد بـدأ العنصر الإنسـاني يظهـر بجلاء في بـرامـج الشطرنج الحديثة ، فالبرنامج الذي فاز بأفضل الأدوار ، وهـو البرنـامج الأمـريكي فيديليتي ، ليس هو الفائز في البطولة ، بل البرنامج الألماني الغـربي مفيستو ، وهـو أمر تتميـز بـه كثيـر من المباريات الكبرى بين بني الإنسان .

وإليكم أحد الأدوار المثيرة من هذه البطولة :

□ فيديليتي ١	■ مفيستو ٢
١) هـ ٤	حـ ٦
٢) د ٤	د ٥
٣) هـ × د ٥	حـ × د ٥
٤) جـ ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	هـ ٦
٦) ح - و ٣	ف - هـ ٧
٧) جـ × د ٥	ح × د ٥
٨) ف - د ٣	ح - ب ٤
٩) ف - هـ ٤	ت (قصير)
١٠) ت (قصير)	ح ٨ - جـ ٦
١١) ر - هـ ١	و - د ٦
١٢) ح - ب ٥	و - د ٨
١٣) ف - و ٤	أ ٦
١٤) ح - جـ ٧	ر - أ ٧
١٥) د ٥	هـ × د ٥
١٦) ح × د ٥	ح × د ٥
١٧) و × د ٥	ف - هـ ٦
١٨) و - حـ ٥	ز ٦
١٩) و - حـ ٦	و - جـ ٨

وابتداء من النقلة التالية يطلق الأبيض حرباً « تكتيكية » بعيدة المدى (أنظر الشكل) .

٢٠) ف - هـ ٣	ر - أ ٨
٢١) ف × جـ ٦	و × جـ ٦
٢٢) ف - د ٤	و ٦
٢٣) ر×هـ٦ !(رائعة)	و - د ٧

لو أخذ بالوزير لمات في نقلتين .

٢٤) ح - ز ٥ !	ف - ب ٤
٢٥) ف × و ٦	ر أ - هـ ٨
٢٦) ر × هـ ٨	ر × هـ ٨
٢٧) و - حـ ٤	أ ٥
٢٨) أ ٣	ف - د ٢
٢٩) ح - هـ ٤	و - د ٣
٣٠) ح × د ٢	و × د ٢
٣١) و - جـ ٤ +	م - و ٨
٣٢) ف - جـ ٣	و - د ٨
٣٣) ر - ب ١	ب ٦
٣٤) ب ٤	أ ٤
٣٥) ب ٥	و - د ٧
٣٦) و - و ٤ +	و - و ٧
٣٧) و - د ٤	حـ ٥
٣٨) ر - ب ٤	ر - جـ ٨

ويرفع الأسود بعدها الراية البيضاء .

□□□

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج ـ العدد ٣٦١ ـ ديسمبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ أحمد عبد الرحمن ـ أسيوط / مصر .

٢ ـ كامل المنداوي ـ حلب / سوريا .

٣ ـ عبد الهادي البيانوني ـ المدينة / السعودية .

٤ ـ دينا محمد هاشم ـ العمرية / الكويت .

٥ ـ أحمد عبيد المصباحي ـ صنعاء / اليمن .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حمد بن سالم حارب ـ الظاهرة / سلطنة عمان .

٢ ـ عبد الله محسن باعلوي ـ أبو ظبي / الامارات العربية المتحدة .

٣ ـ نوفل صالح بارباع ـ المكلا / جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

٤ ـ محمد بوعين ـ صفاقس / تونس .

٥ ـ محمد شهاب عياد ـ دمياط / مصر .

١) حـ ٣ ب - ب ٣ مضطراً ٢) ر - حـ ١ ب × ر مضطراً ٣) و × حـ ١ (مات).

العربي ـ ص. ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الرمز البريدي : 13008 الكويت

محو الأمية في الوطن العربي

● تعد قضية تنمية الثقافة العربية من القضايا المهمة المطروحة على الساحة بين الأوساط الثقافية ، وهي مسئولية مشتركة بين وزارات الثقافة والإعلام ودور النشر في وطننا العربي ، وإن تفاوتت المسئوليات ، واختلفت الأدوار ، بحيث يؤدي كل دوره بما يتناسب مع إمكانياته .

وبقدر ما تتكامل الأدوار التي تقدمها المجلات الثقافية في وطننا العربي ، ومنها مجلتنا الغراء (العربي) ، نضمن نموا حقيقيا من الوعي الثقافي لشباب أمتنا العربية ، وفهم الماضي والحاضر ثقافيا ، والتطلع للمستقبل ، والتنبؤ به لوضع رؤية ثقافية .

فالتنبؤ الدقيق بمستقبلنا الثقافي أمر صعب ، بالغ الأهمية ، مما يتطلب تنمية عقلية وذهنية لها القدرة على مواجهة المستقبل .

إن أهم معضلة تواجهنا انتشار الأمية بين أبناء الوطن العربي ، مما يوجب وضع برنامج متكامل ، وزمني ، لمحو الأمية ، تتبناه الجامعة العربية عبر مؤسساتها التربوية ، وأن توضع ضوابط لتشجيع محو الأمية ، علينا جميعا أن نتحرك كعرب ، وكل من موقعه ، لتطوير ثقافتنا العربية . وأنتم في « العربي » تساهمون بقدر كبير في خلق جو ثقافي وعلمي أتمنى أن يحذو البقية حذوكم .

القارىء : يحيى السيد النجار
دمياط ـ جمهورية مصر العربية

□■□

الفلسفة والطفل في الوطن العربي

● طالعت في العدد ٣٥٨ (سبتمبر) ١٩٨٨ مقالا عن « الفلسفة والطفل » ، للكاتب زياد القباني ، والمقال على درجة كبيرة من الأهمية . وأود أن أبدي وجهة نظر في موضوع تدريس الفلسفة للطفل العربي ، فتعليم أطفالنا مبادىء الفلسفة ليس شيئا عاديا ، وليس ظاهرة طبيعية ، نحن نعلم أن الفلسفة تبدأ من السؤال ، فماذا لو قلنا : ما الدافع الذي يجعلنا ندرس الفلسفة لأطفالنا الصغار؟ وماذا سيكون مركزهم وتأثيرهم على مستقبل الوطن العربي ؟ كل هذا يطرح علينا سؤالا مهما : هل في مثل هذه الدراسات فائدة مرجوة تعود على أطفالنا ، أم أننا فقط نعلمهم الحكمة والعذ

علی هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

الحديث ، وكل ما يرتبط به من قيم ومبادىء ، والعلاقة التي تربط العلم الحديث بالفلسفة القديمة أو الحديثة ؟ وهكذا كلما انتهينا من الإجابة عن سؤال ، يطرح علينا سؤال أصعب وأعم . إني أدعو القراء الأعزاء كي يكون هناك حوار حول هذا الموضوع الذي أعتقد أنه مهم جدا لبنية المجتمع العربي في القريب العاجل . أتمنى أن أقرأ في المجلة أكثر عن هذا الموضوع .

حسن ابراهيم الدسوقي
محافظة المنيا / جمهورية مصر العربية

□■□

العربي واللغة العربية

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● بحكم حبي للغة العربية ودارسيها فإني أكتب إليكم في المجلة كوني أحس بالفقر الكبير في ميدان اللغة العربية ، ولا أجد مساعدا لي غير « العربي » ، إني أعدكم قاموس العرب ، ولذا ألجأ إليكم وكلي ثقة وإيمان بأنني طرقت الباب الصحيح .

علاقتي مع العرب محدودة ، تنحصر في محيط الجامعة ، لذا فإنني أتقدم إليكم بطلب زيادة كمية المادة التي تهتم بجمال اللغة العربية وطرق المحادثة فيها .

القارئة : عيفة فوزي
جسر قسنطينة ـ الجزائر

□■□

أقدام الزينة

● اشتهر أهل الصين باعتقادهم أن صغر الأقدام شرط من شروط الجمال ، وبحرصهم على أن تظل أقدام بناتهم صغيرة على الرغم من نمو البنات . ترى كيف تمكنوا من الإبقاء على أقدامهم صغيرة ؟

القارىء : خليل مرهج
دير الز[illegible]

حوار القراء

العربي

ـ نعم لقد اشتهر أهل الصين بحبهم الأقدام الصغيرة ، أو أقدام الزنبقة كما سموها ، وقد تمكنوا من وقف نمو أقدام البنات عند حد لا يتجاوزه ، وذلك بواسطة قوالب صلبة ، تلبسها البنات في أقدامهن سنوات طويلة ، بيد أن هذا التقليد الذي ظهر في الصين في القرن التاسع الميلادي قد أبطله أهل الصين في أواسط القرن العشرين ، فاختفت أقدام الزنبقة ، وحلت محلها الأقدام الطبيعية .

ولو عدت إلى العدد ٣٥٩ من العربي ، الاستطلاع المنشور عن الصين ، فستجد النص التالي في حوار مع أم عجوز ذات قدمين صغيرتين : « لقد كانوا إلى عهد قريب يضعون أقدامنا ونحن أطفال داخل أحذية حديدية ، حتى تظل صغيرة جدا . لقد كانوا يدعون أن ذلك أحد مظاهر الجمال ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يقصدون أن تعجز المرأة عن السير الطبيعي على قدمين قادرتين على حمل جسدها حتى في الطرقات ، وتظل حبيسة جدران الدار ، تعمل وتشقى كخادمة في خدمة السادة طوال الليل والنهار » .

□■□

آثار ميخائيل نعيمة في تونس

● لقد شد انتباهي موضوع يتعلق بفقيد أدب المهجر ميخائيل نعيمة في العدد ٣٥٨ سبتمبر ١٩٨٨ ، فهو لم يكن أديبا فحسب ، وإنما فيلسوفا ومفكرا وأديبا ، له طابعه المميز ، وفكره الخاص ، متحررا من كل القيود ، صادقا في تعبيره ، فصيحا وبليغا في أدائه ، فصور الواقع العربي من ناحية الأدب الجاف ، وحدد منهج المؤلف في النقد من خلال « الغربال » الذي باركه المجددون أصحاب مدرسة الديوان .

ولميخائيل نعيمة خطوة في تونس أيضا ، حيث تدرس أعماله في برامج التعليم العام فيها ، وتملأ أعماله المكتبات . شكرا لكم في المجلة على طرح مثل هذه الدراسات . وأتمنى أن تزداد ، لكي يعطى كل أديب الدرجة والمرتبة التي يستحقها .

القارىء : بشير جلول الحمروني
نهج ابن سينا / الجمهورية التونسية
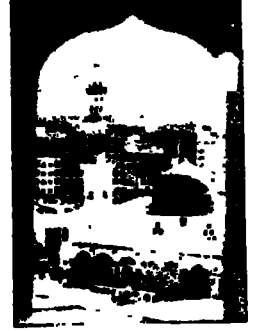
الإستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● اطلعت على مقالة الدكتور « محمد جابر الأنصاري » (الوحدة الطبيعية) في العدد (٣٥٧) شهر أغسطس ١٩٨٨ ، وقد جاء في جزء منه أن غياب الوحدة الجغرافية كان عاملا أساسيا في فصم عرى «الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ » ، وإنني أختلف مع الكاتب ، حيث في رأيي أن وجود الانفصال الجغرافي بين سوريا ومصر ما كان عاملا أساسيا في كارثة الانفصال . ولو أخذنا بالاعتبار التفسير الذي أورده الدكتور الأنصاري فيما تفسيرنا لاستمراريتها من عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ ؟ ومن جهة أخرى فلقد شهدت الساحة العربية في الوقت نفسه اتحادات لقيت المصير نفسه ولم تستمر على الرغم من توافر عامل الوحدة الجغرافية .

القارىء : طارق اللوتس
حمص ـ سوريا

□■□

اقتراحات وردود

* القارىء : يوسف أحسنة ، من حماة ، سوريا ، بعث يقول :
« لقد قرأت في « العربي » العديد من الأقوال المتفرقة للكاتب « اوسكار وايلد » ، وقد أعجبني حتى أنني أحببت الكاتب دون أن أعرف عن أدبه أي شيء ، فحبذا لو كتبتم مقالا يتضمن الحديث عنه وأدبه »

* القارىء : ممدوح مغايري ، من مركز التدريب المهني سوريا ، يقول في رسالة للمجلة : إنه بالامس فرحنا بنبأ نعتز به جميعا ، وهو فوز الأديب العربي « نجيب محفوظ » بجائزة نوبل للآداب ، وهي جائزة نفخر بها نحن العرب جميعا .

* القارىء : الطالبي يوسف ، من مكناس ، المملكة المغربية ، يقترح ادخال بعض التعديلات على باب « وجها لوجه » ، وإعطاء القارىء فرصة كتابة الكلمات المتقاطعة ، وأن تقدم المجلة هدية العدد الممتاز صورا لمشاهير العالم .

* القارىء : مصطفى محمد ، من طرابلس بلبنان ، يثني على المجلة ، ويطلب زيادة الكمية المرسلة إلى لبنان ، لأنه يواجه صعوبة في الحصول على بعض الأعداد لو تأخر في الذهاب إلى الموزع .

* القارىء : حاتم محمد سراج الدين حسن ، من كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية ، بعث رسالة يقول فيها : إنه يشكر كل من يسهم في إخراج

حوار القراء

المجلة في الصورة التي هي عليها ، كاحدى أهم المطبوعات التي تساهم في نشر الثقافة والمعرفة بين أبناء الوطن العربي على اختلاف مستوياتهم العلمية ، ويقترح تخصيص بعض الصفحات لتعليم الحاسوب « الكمبيوتر » ، وكيفية البرمجة والالكترونيات ، وان مجلة العربي شاملة وليس هناك مانع من أن توجد مثل هذه الصفحات .

* القارىء : سعيد جاسم السراجي ، من سامراء بالجمهورية العراقية ، يرجو أن تقوم المجلة بعمل استطلاع عن مدينة سامراء ، إحدى أهم مدن الجمهورية العراقية ، وذلك لما جرى فيها من تطور عمراني وصناعي .

* القارىء : محمد مصطفى أحمد ، من محافظة البحر الأحمر ، رأس غارب ، بجمهورية مصر العربية ، يتساءل عن اختفاء بعض الأبواب ، مثل (حكايات من شرق وغرب) ، وباب (حضارات سادت ثم بادت) ، كما يقترح إضافة بعض الأبواب .

* القارىء : عليوي العربي/ الرشيدية/المملكة المغربية ،يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن إقليم الرشيدية في الجنوب الشرقي من المملكة المغربية .

* القارىء : هشام محمود شوشة بعث برسالة يقول فيها : إن مجلة العربي فخر لكل قارىء للعربية ، وننتظر أعدادها بشوق ولهفة مطلع كل شهر ، فعلى صفحاتها تتجلى أجمل صور المعرفة والثقافة ، ويأمل أن تتوجه العربي إلى القيام باستطلاعات عن الجزر ، لما فيها من غرائب وعجائب تستوقفنا للتأمل والتدبر ، ومثال هذه الجزر « جزر مالديف ، ونيكون باز ، وجزر اندمان» وجميع هذه الجزر فى آسيا ، كما يقترح أن تجمع مقالات الدكتور محمد الرميحي في « حديث الشهر » وتنشر في كتاب العربي ، فهى جديرة بأن تحفظ وتجمع .

* القارىء :شعيب عز الدين ،من حي الشيخ طاهر بالجزائر ، يقترح أن تقوم المجلة بعمل استفتاء فيما يخص أبواب المجلة ، كالذي قامت به المجلة في العدد (١٧١) فبراير ١٩٧٣ . □

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ ـ نهر عظيم يخترق أكثر من عشر ولايات أمريكية ويصب في خليج المكسيك .

٢ ـ طريّ ، من أسماء الرسول الأعظم ، نَظَر .

٣ ـ نهر يخترق جنوب أوربا ويصب في البحر الأسود ، مخترع الهاتف .

٤ ـ اتجاهات ، عاصمة عربية غير مرتّبة .

٥ ـ شاء أو أراد ، تجدها في عاد .

٦ ـ أكمل ، نهر عربي عظيم .

٧ ـ يمرنهن مبعثرة ، عكس حقيقة .

٨ ـ قارب طويل ضيق يستخدم في قنوات مدينة البندقية .

٩ ـ خَرَق وَشَقّ ، منسوب إلى إحدى الجهات الأربع .

١٠ ـ نهر أفريقي يصب في المحيط الهندي .

كلمات عمودية :

١ ـ نهر يجري في أمريكا الشمالية ويصب في المحيط الأطلسي ، تجدها في نهر .

٢ ـ يظهر ليلاً ، نهر ينبع في تركيا ويجري في بلدين عربيين شقيقين .

٣ ـ ممثل ، هلاك مبعثرة .

٤ ـ نهر يجري في شمال الهند يتمتع بالقدسية لدى الهندوس .

٥ ـ يصدر طنيناً ، الجزء المكتمل من الأعمال .

٦ ـ أراض مستوية بعيدة ، يظهرن الندم مبعثرة .

٧ ـ نهر محفوف بأشجار الحور يخترق مدينة دمشق ، تجدها في وجوب .

٨ ـ عكسها بحر ، شبيه باللولب .

٩ ـ نبع ، زي معكوسة .

١٠ ـ نهر يخترق مدينة لندن .

● حل مسابقة العدد الماضى ـ فبراير ١٩٨٩ م

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

مارس ١٩٨٩م

العرب واليونسكو

تأليف

د. حسن نافعة

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٥

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

شعبان ١٤٠٩ هـ - ابريل (نيسان) ١٩٨٩
العربي
النفط الكويتي
في بيوت
الاوروبيين
رمضان
وحديث الايام

العـــدد ٣٦٥ السـنة الثانية والثلاثون ابريل ١٩٨٩

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 365 Apr. 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص.ب. ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون. ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦١٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي"- الكويت
تلفون فاكسميلي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس MIIR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٢ دولارات

طب وعلوم :

أدب وفنون :

● بلغاريا : عيد للورود وشواطىء مفتوحة للشمس والناس ص ١٣٢

وجهاً لوجه :
يحيى حقي وسليمان مظهر ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

صــورة الغــلاف

استطلاع العدد عن قصة نجاح اقتحام سوق النفط في التكرير والتوزيع .. ساهم فيها التخطيط والعقل والارادة بفكر عقول وطنية خبرة ، وتنفيذ رجال مازالوا خلف الأضواء .

[طالع الاستطلاع ص ٦٨]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

زهور أكثر إشراقاً

ربيع هذا العام زهوره أكثر إشراقا ، وإيقاع أيامه له نكهة خاصة ، تكسبه اختلافا عما مر بنا من سنوات سابقة ، فقد ظهرت أشكال وصيغ من التقارب العربي ، تنبىء عن ارتفاع وعينا بأهمية التجمع والتكتل لمواجهة تحديات عصرنا الراهن . ويتزامن إطلال الربيع مع شهر رمضان المبارك ، هذا الشهر الكريم الذى يلتزم فيه المؤمنون بمجاهدة النفس ، وكبح الغرائـز ، والسمو بالقيم ، وتجنب الصغائر .

ولذا فإن في هذا روح رمضانية لا تخفى وفى العدد نقدم للقارىء ملفا حول ، ـضوع كثر الجدال حوله ، موضوع دخل منه البعض تحت أسماء كثيرة الى عالم الاقتصاد والمال ، فأضروا بالناس وأضروا بأنفسهم ، فما هى ياترى هذه القضية التى شغلت جزءا من الوطن العربي عمليا ، وشغلت الآخرين من منطلقها النظري ؟

وتنطلق « العربي » الى الشمال الاوربي لترصد تجربة فريدة ومبادرة فى تسويق النفط ـ ليس بيعه خاما ـ وإنما تكريره وبيعه للمستهلك مباشرة ، وهذه التجربة ـ بجانب منحاها الاقتصادى ـ تحمل معنى خاصا ، وهو قدرتنا نحن العرب على خوض تحد ظل حكرا على الغرب المتقدم ، وهى قدرة عربية تستند الى قاعدة من الدقة والأداء والعلم والتدريب والبحث .

وهذا العام يشكل الذكرى الخمسين لاكتشاف العلم للانشطار النووى الـذى سعد العـالم ببعضه وشقى ببعضه الآخر . « والعربي » تحاول أن تلقى الضوء فى هذه الذكرى على التحدى الذى يواجهنا وموقفنا منه .

هذه بعض القضايا التى حواها هذا العدد من « العربي » وهى غيض من فيض كما ترى ، فهناك الطب والقصة والشعر والاستطلاع والمناقشة ، ونعتقد أن هذا العدد ـ كما هى أعدادنا دائما ـ زاد ثقافي طيب بعد صوم يوم مقبول إن شاء الله .

« المحرر »
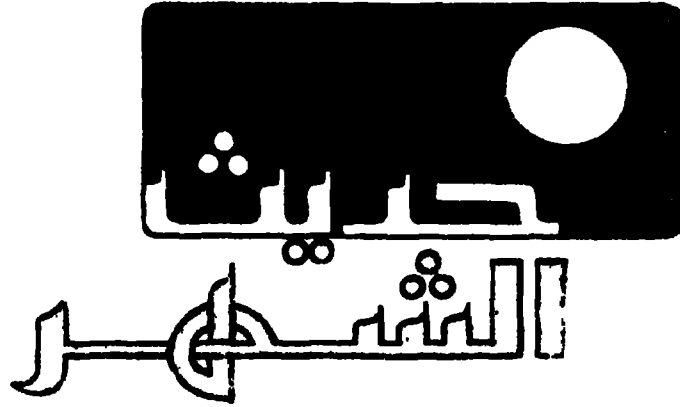
بقلم الدكتور
محمد الرميحي

تحديات التحول من الوجود بالشكل إلى الوجود بالفعل

« وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً » صدق الله العظيم
(الكهف ـ ٥٤) .

لقد جادلنا طويلاً وسوف نجادل في أمور كثيرة من بينها الوحدة العربية ، فما أن وقعت اتفاقيات اتحاد المغرب العربي بين الدول العربية الخمس في الشمال العربي الأفريقي في ١٧ فبراير الماضي ، وكذلك مجلس التعاون العربي بين الدول الأربع المشرقية في ١٦ فبراير الماضي ، حتى ثار جدل كبير في الصحافة العربية ، حول الموضوع الأقرب الى القلب : الوحدة العربية .

انقسم محدثو هذا النقاش الى متفائلين بشدة ، ومتشائمين بشدة أيضا ، وواقفين على درجات بين هؤلاء وأولئك ، ولحقت هاتان الخطوتان خطوة سبقتهما في التاريخ في بداية هذا العقد ، وهي قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية في مايو/ آيار سنة ١٩٨١ .

ولا سبيل هنا الى إضافة بعض التأييد او التحسب او هذه الخطوات العربية ، فذلك قد حدث بالفعل ، وما يمكن أن يناقش في رأيي هنا هو بعض التوجهات العامة لهذه الخطوات التكاملية إن صح التعبير

بادىء ذي بدء ، لا يستطيع أحد ، وهو ينظر الى هذه التجمعات الثلاثة بشكل عقلاني وواقعي ، إلا أن يباركها ، فالتقارب العربي - وإن لم يؤد الى وحدة كما كان يرغب كثيرون في عقود النهوض العربي منذ بضع سنوات خلت - إلا أنها على الأقل تشكل تحولاً من حيث النوع ، من النوهسات التي أصابت الأمة العربية في سنواتها السياسية العجاف ، وهي الخمس عشرة سنة الماضية

قبل سنوات قليلة لم يكن أشد المتفائلين يتصور ان يحدث تقارب - بهذه السرعة - لتكوين تجمعات عربية تشدد على ما يجمعها أكثر مما يفرقها ، وتختط خطط وبرامج تقارب يوم اندماجها المرجو

في السنتين الأخيرتين فقط شاهدنا هذا التحول العقلاني بالموضوع ومحاولة تطويره الى الأفضل .

مباركة التقارب العربي في أشكاله المختلفة تجعلنا أمام مسئولية كبيرة . وهي محاولة المساهمة في تطوير هذه العلاقات العربية / العربية ، ويمكن أن نفعل ذلك من خلال مناقشة خمسة محاور رئيسية :

الحيرة حول ظاهرة الوحدة

إن الغموض في مفهوم التوحد أو التكامل أو التعاون ، قد سبب - وما يزال - الكثير من المعوقات في بناء هذا التعاون أو التكامل ، فالبعض يعتقد أنه (وحدة) ، وأي نقص في الأداء لما يتصوره يسحبه من رصيد موقفه المؤيد للوحدة ، وبالتالي يخرج بموقف سلبي ، والبعض الاخر يعتبره مجرد (تعاون) ونصوصاً على الورق ، وبالتالي - خاصة إذا كان في مكان يستطيع به أن يؤثر على مسيرة هذا التعاون - فإنه لا يبذل الجهد ولا الفعل ولا الابتكار لتطوير ما هو موجود .

خلاصة القول في هذا المقام أن تحقيق برنامج التقارب كما يراه كثيرون ، في البرامج الثلاثة المطروحة - مجلس التعاون في الخليج العربي ، أو مجلس التعاون العربي ، أو اتحاد المغرب العربي - تبعد عن واقع الظاهرة لتعالج رغبات ذاتية ، سلبية أو إيجابية .

فكرة الوحدة العربية الشاملة أو الجزئية التى طرحت في أكثر من مقام ، ومن أكثر من دولة بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت وقتئذ واضحة المعالم ، حيث لعبت دوراً تحريضياً في المشرق العربي أو المغرب العربي ضد الاستعمار الأجنبي ، وطرحت كنقيض له ، أما فكرة تعاون مجموعة دول عربية بعضها مع بعض بعد الاستقلال فلم تقبل كظاهرة ، بل هوجمت أكثر من مرة ، وكان مهاجمو الظاهرة ينطلقون من تصور مثالي لفكرة الوحدة العربية ، فالوحدة الكاملة أو الرفض ، وكان هذا الموقف ناتجاً عن تصور مثالي ليس له علاقة بالواقع .

في العقدين الأخيرين فقط دار الحديث النظري عن إمكانية إيجاد تجمعات عربية تعاونية ، وكانت محاوره في الخليج والجزيرة ، ووادى النيل ، والشام التاريخية ، والشمال العربي الأفريقي ، كما تصوره أكثر من مفكر وكاتب .

طرحت هذه الأفكار في تجمعات المثقفين ، وفي بعض الدراسات الخاصة التي تناولت شؤون الوحدة وشجونها ، ولكن حتى هذه الأفكار كان ينظر إليها بحذر ، وسبب ذلك الحذر كما قلت ما خلفته فكرة الوحدة العربية المثالية من الخليج الى المحيط ، النظرة التي كانت ترى العالم (كما يجب أن يكون) لا كما يتحول و (كما يمكن أن يكون) .

التعامل مع الواقع من أجل تطويره ، وحساب الزمن ، والمعطيات الاقتصادية والاجتماعية ، لا يمكن القفز عليها ، وكما أن الفرد لا يستطيع القفز فوق زمانه ، فكذلك الفكرة أو النموذج لا يمكن تجاوز الزمان الذي تعمل فيه .

لهذه الأسباب اتسمت ظاهرة الوحدة أو التعاون أو التكامل بغموض معرفي ، اختلط فيه « وهم السيادة على الواقع » ، مع « حقيقة السيادة عليه » ، فظل الإنسان العربي حائراً على أقل تقدير .

الموقف السلبي للجماهير العربية

زادت حيرة الإنسان العربي ، بعد أن شهد في عقود طويلة من الزمن ـ في تاريخه الحديث ـ سلسلة التجارب الفاشلة لمحاولة التجمع والتآلف بين دول عربية ، كان طابعها الأعم مبادرات فردية ، وقرارات عفوية ، ويكاد الإنسان أن يخلط بين قيام بعض هذه التجارب والمحاولات وبين فشلها ، من كثرة ما

لمـــــاذ سـيطـرت المـــرارة مـن الـوحـدة على الجماهير العـربيـة ؟

أعلنت وقامت لفترة ثم تلاشت بمثل سهولة إعلانها ، وكان الهدف هو الوحدة العربية ، ولكن الهدف الذي يتحقق بالفعل بعد عمرها القصير هو المرارة التي تبقى لدى الفئات العريضة من الناس ، وتترك إحساساً نفسياً غامراً بأن الجمهور - النخبة منه والعامة - قد فقد سيطرته على الأحداث . بعض هذه التجارب والمحاولات أسست على قواعد ومبررات إيجابية ، وبعضها اعتمد على الصدفة والظرفية ، وعندما زال ذلك الظرف تلاشت تلك التجارب في الهواء دون حتى ناع ينعيها .

من هنا جاء الموقف اللامبالي الذي قابل به الجمهور العربي العريض - ومايزال يقابل به - اعلانات التعاون والتكامل والتوحد .

قيام المؤسسات المشتركة للتكامل والتعاون

هذا الموقف السلبي - الموصوف آنفاً - يحتاج تغييره الى محاولة جادة لتعبئة الطاقات باتجاه دعم المشاريع الجديدة ، ولا شك أن الجماهير العربية قد لمست جدية معقولة في المشاريع الثلاثة المطروحة ، ففي الخليج كانت هناك تعبئة وعمل جاد لإيصال منافع التعاون النفسية والمادية الى الجمهور الواسع ، وكذلك استقبل الجمهور العربي في بلاد التعاون الرباعي (مجلس التعاون العربي) ، وكذلك في دول اتحاد المغرب العربي الخمس . عزم الدول على

التجمعات الحالية والمستقبلية لا تستطيع أن تقفز على مشكلات الأمة

يجاد تجربة جديدة وفاعلة . جعل الجماهير تستقبل هذا العزم بالترحاب . مما بدا من أن هناك جدية في التطبيق . مع قبول ضمني أن ما سيحدث لا يعني (الانصهار المطلق) ، بل إقامة مؤسسات مشتركة للتكامل والتعاون

وحتى في هذا الإطار فإن البعض سوف يحاول أن يثير تساؤلاً معقولاً ومقبولاً هو : ماذا عن الأقطار العربية التي لم يشملها بعد احد التجمعات الثلاثة ؟ هنا ليس بالضرورة إعادة الدروس السابقة في الضحية وردود الفعل . بل التفهم من جميع الأطراف هو المطلوب . فان ما ينجح من تعاون في المستقبل يمكن أن يعم خيره ، وليس بالضرورة ايضا أن في نجاحه حرمان الآخرين . ولكن السؤال سوف يبقى شرعيا ومطروحا حتى يقوى عود الجامعة العربية ومؤسساتها ، وتجد لها - كمجموعة - علاقة محورية بهذه التجمعات الحالية أو المستقبلية

واقع الحال يقول لنا : إن هذه التجمعات لا تستطيع أن تقفز على مشكلات الأمة ، ها هو مجلس التعاون - أقدم هذه التجمعات تاريخيا - ما زال منشغلا بشؤون عربية في لبنان وفلسطين وأماكن أخرى

معضلة التفكير والسلوك

لا بد ايضا من مناقشة العلاقة بين المرحلة التي تبدو في الوثائق الاساسية هذه التجمعات ، والتطور والاضافة والبناء على ما هو موجود . هل ستبقى هذه التجمعات الإقليمية العربية (متواضعة) في الهياكل والمؤسسات والأهداف ، تحقيقا للمقولة الناتجة من دروس وتجارب الماضي القائلة . إنه كلما كان المشروع التعاوني متواضعا كانت نسبة من النجاح أعلى ؟ وهل ستظل معادلة تحقيق النجاح لأهداف متواضعة يغطي على امكانية تحقيق أهداف أفضل وأكثر ؟ سيظل هذا التساؤل مطروحا .

من الصعب الإجابة عن هذا التساؤل في الزمن الحاضر . ولكن طرح الأسئلة يجعلنا ننتبه الى أهمية الحديث عن التحول من الوجود (بالشكل) الى الوجود (بالفعل) ، فالوجود بالفعل يعني تحقيق منافع ومصالح للناس يشعرون بها ، وهذه المصالح لن تتحقق مثلا والجميع متمسكون بسيادة قطرية كاملة أحد أهم عوامل النجاح - حتى للأهداف المتواضعة - هو التنازل الجزئي عن بعض اشكال السيادة القطرية لصالح السيادة الأوسع . وذلك يعني خطوات كثيرة ، وقد تكون معقدة ، ولكن التفكير فيها شرعي ومطلوب أيضا
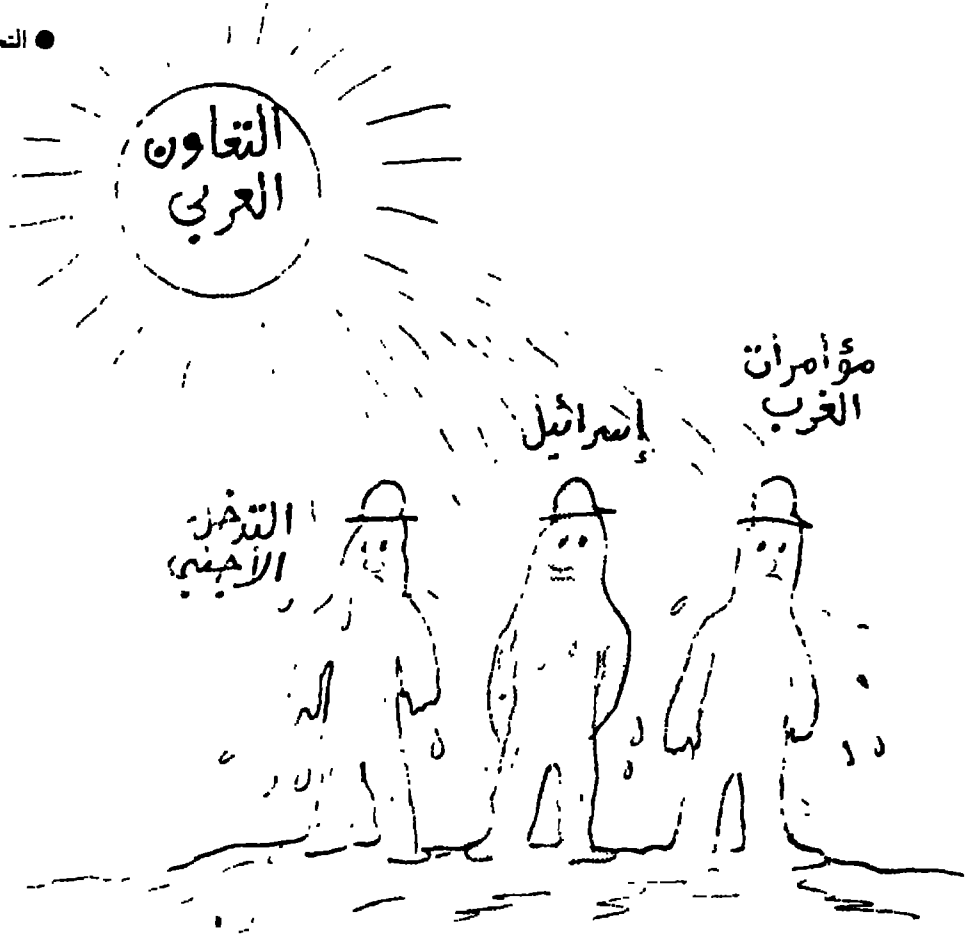
وضمن المرحلية والتطور . تدخل مجموعة اخرى من العوامل منها عقلنة التفكير والسلوك . ونعني بعض اشكال العقلنة في التفكير والسلوك ، تتجه إليه بعض الدول العربية في المشرق والمغرب - اليوم - اقتصاديا وسياسيا . ففي الأول هناك توجه جعل قوى السوق هي الفاعلة ، في تحرير العمل الاقتصادي باتجاه تقليص تدخل الدولة في الاقتصاد . وسياسيا هناك توجه للتعددية السياسية ، وفي كلا الجانبين فإن ما نحتاج إليه تصور متكامل يؤيده ويدفع إليه رأي عام مستنير .

الأطروحات المتسببة في النظرية الوحدوية

أما المحور الخامس والأخير فهو تجاوز العمل الواقعي في التعاون بعض الأطروحات النظرية التي سادت الفكر العربي في الأربعين سنة الماضية . واحسب أن بعضها قد قدم إلينا من تجارب شعوب أخرى غير عربية في الأساس .

احدى هذه الأطروحات في النظرية الوحدوية تقول : إن كل (وحدة ، أو توجه لها لابد أن يكون له (قطر قاعدة) ، أي قطر كبير له مواصفات

معينة ، يكون القاعدة لدفع هذا التوجه . والأطروحة الأخرى التي استقرت لدى فئات كثيرة من النخبة العربية ، أن الوحدة ، أو التوجه لها ، لابد لها من زعيم قائد ، له هالة القيادة ، وشخصية « كارزمية » ، توصف شخصيته بنعوت كثيرة فيها الفخامة . هاتان الأطروحتان لم تعودا شروطاً مسبقة ، بل يعتقد البعض في ضوء العقلانية الجديدة أن الزمن قد تجاوزهما .

تلك هي المحاور الخمسة التي يجب ـ في نظري ـ أن نضعها على جدول الأعمال لمناقشة الظاهرة الصحية الجديدة في التجمعات الإقليمية العربية .

المعادلة الصعبة

مهما تحدثنا عن التجمعات العربية الإقليمية الجديدة التي ظهرت في هذا العقد ـ وهي ثلاثة ـ لا تخرج مهماتها عن حل قضيتين رئيسيتين ، أولاهما مواجهة معضلة النمو الاقتصادي والاجتماعي ، وأخراهما معضلة كسر التبعية ، وأحسب أن كل الوطن العربي مواجه بهاتين المعضلتين ، وما يتفرع منهما من قضايا .

أمام هذه المعادلة تتفرع قضايا الأمة العربية الى درجة البقاء أو الفناء بالمعنى العام للعبارة .

وقد ظهر الاهتمام بهذه القضايا في معظم وثائق التجمعات العربية ، ومن أقدم هذه الوثائق البيان الختامي الأول لاجتماع قمة دول (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) الذي عقد في أبوظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة ، في ٢٦ مايو ١٩٨١ .

لقد أعلن المجتمعون أن مطلب الاستقرار والأمن في الخليج الذي يسعى مجلس التعاون لتبنيه ليس مطلوباً لذاته ، وإنما لتمكين هذه الدول من (العمل التنموي) ، كما أن « ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط . . . وبتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . . . » .

وفي متن النص الكامل لاتفاقية تأسيس مجلس التعاون العربي الذي صدر في بغداد ، في السادس عشر من فبراير الماضي ، مانصه : « خلق تجمعات اقتصادية توفر للدول المنتمية لها ظروفاً أفضل لحماية مصالحها وتحقيق التنمية والتقدم الاقتصادي . . . » .

مانحتاج إليه هو تصور مبتكر يؤيده رأي عام مستنير

تحقيق التنمية إذن أحد الهواجس الرئيسية التي تقابلنا نحن العرب ، في ضوء التكتلات الإقليمية العالمية . وما تراجع المداخيل في المواد الخام المصدرة
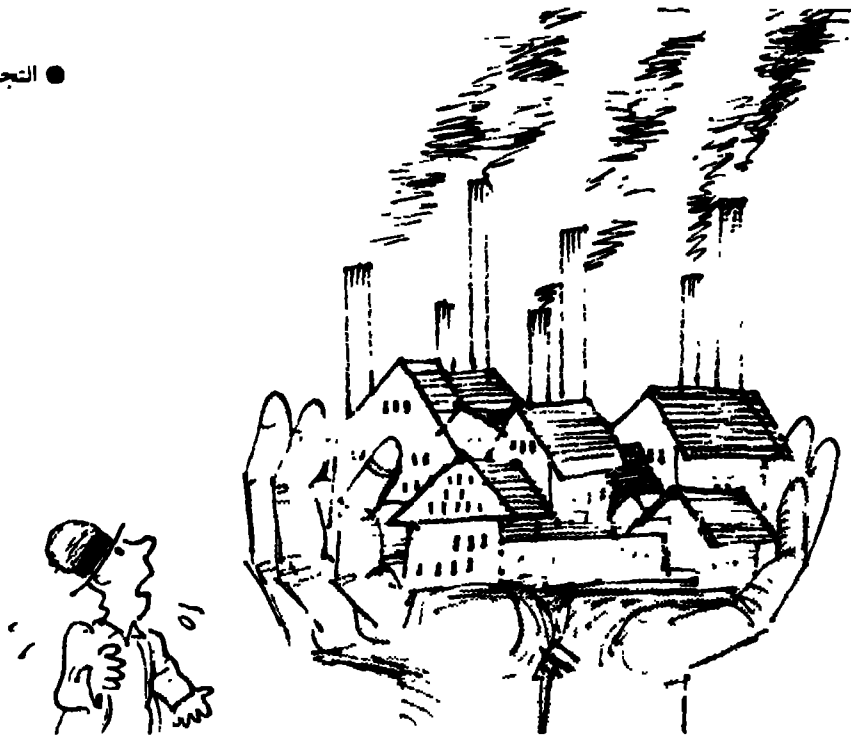
من أرضنا ، وعلى رأسها النفط وتراكم الديون الدولية على كثير من دولنا وتعاظم خدمة الدين التي تمتص قدراً متزايداً من عائدات التصدير ، مما يؤدي الى بطء عام في الاستثمار الى درجة تدخل المؤسسات الدولية في بعض دولنا الأخرى ، لتسخير اقتصاديات هذه الدول الضعيفة أملا لتغليب خدمة الدين العالمي على أي أولوية من الأولويات الاقتصادية الأخرى ، في الوقت الذي يزداد فيه ما يصرف على السلاح ، نتيجة تهديدات إقليمية حقيقية ، وفي الوقت الذي تفرض فيه قيود على أشكال من الاستهلاك الداخلي الذي يفاقم المشكلات الاجتماعية ، نتيجة زيادة في عدد السكان وتكدس المدن وتعطل المتعلمين .

كل هذه الهواجس يمكن ترجمتها بسهولة الى أرقام تنطبق على معظم أقطارنا العربية . وهي حلقة كاملة الاستدارة ، فالوضع الاقتصادي والاجتماعي المتدهور يمكن أن يؤثر في السلام الاجتماعي ، عن طريق انتهازية سياسية لبعض دعاة التطرف ، الذين لا يملكون حلولاً فعلية لهذه المعضلات ، بل يملكون حججاً لفظياً للإطاحة بالسلام الاجتماعي .

بين التكامل والتبعية

في التكامل إذن ، مهما تواضعت أهدافه ، بعض المخارج المعقولة لهذه المعضلات ، إلا أن الطريق الى ذلك ليس سهلاً ولا هو قريب ، لكنه الطريق الصحيح فقط ـ وهو التكامل ـ الذي يحقق أولاً نبذ الفتنة والشقاق بين
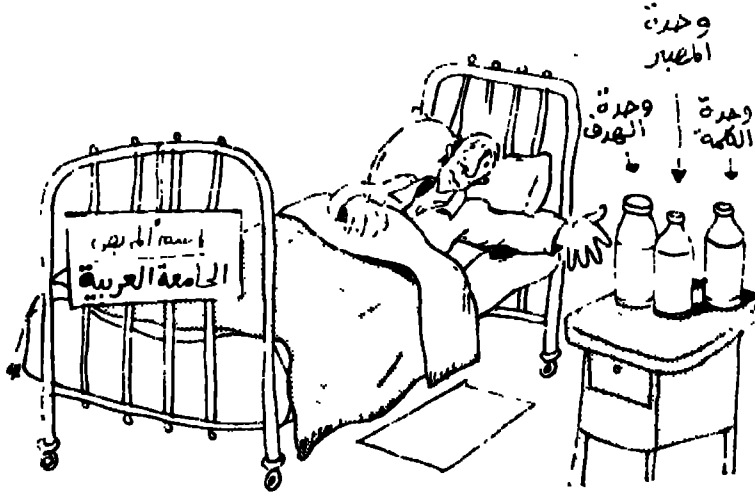
العرب ، وإنهاء الحرب الأهلية ، وتعزيز الجبهة العربية ، وتحويل الامكانيات - القليلة أصلاً - لخدمة أولويات التنمية .

الطرف الآخر من المعادلة الصعبة هي معضلة « التبعية » . وليس المعنى المراد هنا اصطلاحاً خاصاً بها مفرغاً من محتواه . إنما يعني أول ما يعني الضعف المشاهد في القدرات التبادلية بين الأقطار العربية ، فإن ما يصدر من قطر عربي الى قطر عربي آخر من منتجات صناعية أو زراعية أو خدمية ، لا يسوي إلا نسبة ضئيلة مما يستورده هذا القطر العربي أو ذاك من خارج الوطن العربي . فالتبعية بهذا المعنى رهن الاقتصاديات المحلية للخارج .

فأقطار المغرب العربي الأوسط (المغرب ، تونس ، الجزائر) على سبيل المثال ، لم تزد المبادلات التجارية بينها على أكثر من ٣٪ من التجارة الخارجية ، وكان جل مبادلاتها التجارية مع أوربا ، وخصة فرنسا وبقية دول العالم .

وفي ضوء قرب انغلاق أوربا على نفسها في سنة ١٩٩٢ ، والدخول الكامل لكل من البرتغال واسبانيا الى حظيرة السوق الأوربية المشتركة ، وهي الدول التي تشابه منتجاتها - خاصة الزراعية وبعض مصنعاتها - منتجات أقطار مثل المغرب وتونس ، فإن التجمع الاقتصادي لدول اتحاد المغرب العربي سوف يتيح لها ظروفاً أفضل - على الأقل من حيث اقتصاديات الحجم - وأن تواجه تلك التبعية الاقتصادية ، وتدخل في تفاوض من موقع أقوى مع جاراتها الشماليات في البحر الأبيض المتوسط .

كيف يمكن الوثوق بالمشاريع الواعدة ؟

من القضايا الأخرى المهمة التي لا يمكن حلها حلاً مقبولاً إلا بالتواحد الأوسع ، قضية الأمن القومي ، قضية الدفاع عن هذه الأقطار ، فقد أثبتت التجربة العملية في السنوات الأخيرة دون أدنى شك أهمية التعاون الدفاعي المشترك .

بسطة شديدة فإن تنوع السلاح الحديث وتكلفته وكميته والجهد الذي يبذل للتدريب عليه ، عدا المشكلات (اللوجستكية) ، وكذلك الموارد المتاحة ، والامكانات المالية والبشرية والجغرافية ، لا تسمح بأن يتحمل ذلك أي قطر عربي على حدة .

الأمن العربي لا يجدي تفكيكه الى سياسات وطنية محلية ، لأن مجموع هذه الجهود منفصلة ، لا يؤدي الى إشباع حاجات الأمن القومي مجمعاً . مثل قضايا الدفاع بالضبط قضايا البحث العلمي ونقل التقنية أو استنباتها وقضايا أخرى ، ليس لها حل إلا بالجهود الأوسع .

تلك هي بعض إشكاليات المعادلة الصعبة ، التنمية والتبعية وما يتفرع عنهما ، وهي إشكاليات لا تواجه بعض الأقطار ، ولكنها تواجهن جميعاً . سواء كنا في داخل تجمع عربي ـ قائم او سوف يقوم في المستقبل ـ او خارجه .

مصطلح عـلاء الـديـن

من الضروري التنبه الى ان هذه المشكلات التي تواجهنا ـ على امتداد الوطن العربي ـ لن تحل لمجرد ان هناك تجمعاً إقليمياً . فالتجمع هو الشكل ، ولكن يجب أن يأخذ معناه ومساره من السياسات الجادة التي يجب ان تطبق ، كذلك من الضروري عدم الاكتفاء بالطريقة الاحتفالية التي قوبل بها بعض ظهور هذه التجمعات على سطح الحياة السياسية العربية . فهناك أقطار عربية خارج هذه التجمعات . من الضرورة القصوى ان لا تشعر ـ بشكل حقيقي او متخيل ـ ان هذه التجمعات ، خاصة بعد ما اصبحت اكثر من واحدة ، موجهة ضد البعض .

ما يجب ان يسود ويصل الى القاع العامة قبل الخاصة ، ان هذا التعاون وذلك الاتحاد ما هو إلا لتحقيق المصلحة وليس موجها ضد احد ، وهو ليس لمصلحة العرب فقط ، بل لمصالح كثيرين غيرهم .

ما امامنا حتى الآن هو مجموعة من المقاصد الشريفة ، والتصريحات يحدوها الأمل ، ومؤسسات في سبيل التكوين ، ومشكلات حقيقية يفرزها الماضي والذاتي ، وأعوام طويلة من التردد والتراجع . والسؤال كما هو : كيف يمكن الوثوق بالمشاريع الكبيرة الواعدة ؟

لم أنقل لكم في البداية قوله جلت قدرته : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » صدق الله العظيم . ☐

عندما كانت ابتدائية الأمس أنضر من جامعة اليوم !

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

مدينتي مدينة الصبا ، كان اسمها « المحرق » . والمحرق ،إذا لم يعرفها البعض اليوم ، ما كانت كذلك بالأمس ، عندما كانت « حارقة » حتى من اسمها لكل من أراد العرب بسوء !

في « المحرق » كان يلتقي ذلك الطرب الأصيل ، باللؤلؤ الأصيل ، بالخير الآتي على سواعد الرجال ، بقيم الأصالة في السلوك الحي ، فتنتصب تلك المدينة لتصبح عاصمة التراث العابق برائحة التاريخ ، ومذاق الوطنية ونكهة العروبة (يوم كانت العروبة أصيلة كلؤلؤ البحرين) ، ويكون اسم ذلك المزيج النادر . . المحرق ! .

و « المحرق » لم تكتف بذلك الصيت كله ، بل قدمت للخليج وجزيرة العرب أول مدرسة حديثة في تاريخ التعليم ، فكأنها أرادت أن تكون الجسر بين التاريخ والمستقبل ، فكان لها ما أرادت ! .

وكان اسم المدرسة ـ ومايزال ـ « الهداية الخليفية » ، وكانت لؤلؤة من لون جديد أضافتها المحرق الى عقد لآلئها .

كانت أكثر من مدرسة ، لأكثر من مدينة ، من جيل العشرينيات الى جيل الستينيات لايوجد مثقف عربي ، أو مسئول عربي ، في الخليج على امتداده من عمان جنوبا الى الكويت شمالا ، مرورا بساحل الامارات وقطر والمنطقة الشرقية من السعودية ، والبحرين بطبيعة الحال ، لايوجد مثقف أو مسئول لم يدرس أو يتأثر ، أو يستفد ، أو يقتد ـ في صباه وشبابه ـ بذلك المعهد المبكر في تنويره الذي كان اسمه

« الهداية » ، بالمحرق ! .

كانت معاهد العلم في بدايات هذا القرن من أندر الأشياء الجميلة في الخليج (المحاط عندئذ بأسوار العزلة الاستعمارية) وكانت « الهداية » الأجمل بين تلك الأشياء النادرة ، لأنها كانت منارا لها وقدوة . كيف لا ؟! وهي تحمل على واجهتها ختم التاريخ الرائد المبكر : فلقد « تأسست عام ١٩١٩ » . وهل يجهل عربي ذلك العام في تاريخ العرب الحديث ؟

فيه ثارت مصر بقيادة الوفد وسعد زغلول

وفيه تحركت البحرين بقيادتها العربية في عهد عيسى الكبير (الشيخ عيسى بن علي آل خليفة) وأقامت « الهداية الخليفية » بتبرعات أبنائها وعرقهم صرحا لمقاومة التخلف ، وإصرارا على دحول معترك النور والحضارة ، واستعدادا ليوم الاستقلال المجيد في ظل كيانها العربي الراسخ الذي لم تسمح لأي كان بالتطاول عليه رغم الادعاءات المتمادية في ذلك الحين .

وكانت « الهداية » بداية البدايات وأول « قلعة » عربية تقام لترسيخ العروبة شعورا وانتماء في شرق الوطن العربي كله ، في ذلك الزمان الصعب .

كان لي شرف الالتحاق بعالم « الهداية » وجوها الحيوي الرحب المثير في بداية الخمسينيات (١٩٥٠ ـ ٥٤) وكان وراءها عندئذ تراث ضخم من الريادة التعليمية والثقافية ، لكنها كانت بتسميات تلك الأيام (مدرسة ابتدائية) ، نعم ابتدائية ، ولكن أي « ابتداء » راسخ للعلم والحضارة ، والوطنية والعروبة !

فيها سمعنا لأول مرة أن مصر تقاوم المحتل البريطاني في القنال لتخرجه من وادي النيل وكل أرض العرب « وفيها أنشدنا لأول مرة:

« بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
الى نجد الى يمن
الى مصر فتطوان »

من ينشد اليوم دلك النشيد العربي في هدا الزمان الرمادي ؟!

وفي صفوف « الهداية » اكتشفنا أن البحرين ليست جزيرة منعزلة ، وأنها ممتدة عبر وطن العرب من خليجه الى محيطه . وكان أساتذة « الهداية » أنفسهم بدلك الامتداد .

وفي « الهداية » ، قبل أن نبلغ الحلم ، قرأنا في مكتبتها كتب التاريخ والسياسة والأدب ، ومازلت أحتفظ في عمق ذاكرتي بهذا الاستهلال لكتابها المقرر في مادة التاريخ :

« نحن أبناء أمة عريقة في المجد ، لها تاريخ حافل بجلائل الأعمال » أي إثارة خلاقة لهمم الأحفاد ؟ « وفي « الهداية » لم نكتشف المسرح فحسب ، بل مارسنا التمثيل المسرحي بلسان عربي مبين .

ومن الكويت ـ الحاضرة أبدا في احتفالات البحرين ـ خلد الشاعر خالد الفرج الذي كان من أبرز أساتذة « الهداية » حدث افتتاحها بقصيدة مطلعها :ـ

شمس المعارف في « أوال » أشرقت
فمحا الضياء حجابها المسدولا
بزغت ومدرسة (الهداية) أسفرت
تهدي شعاعا للنفوس جميلا

كان ذلك عام ١٩١٩ ، وبدخول عامنا هذا ١٩٨٩ تكون الهداية قد أطفأت سبعين شمعة من عمرها المديد ، ومازالت شمعتها وقادة ، في مبناها التاريخي ذاته الذي يجدد الآن ، وفي مدينتها نفسها الحاضنة لكل ذلك الألق الذي اسمه : « المحرق » ! .

فيا أخوتي من الخليج الى المحيط ـ عبر منتدى « العربي » ـ تلك مدينتي ، تلك مدرستي ، مدينة من مدائنكم ، مدرسة من مدارسكم ، عندما كانت مدارسكم بالأمس أنضر وأحفل بالحيوية من جامعات اليوم ! .

فعودوا إلى نضارتكم الجميلة ، بأمسكم القريب ، والعود أحمد باذن الله . □

حديث رمضان

هل يجمعهما لقاء ؟!

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

« ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق ،

واقتناء الحق من أين أتى ،

وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا .

فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق .

وليس ينبغي بخس الحق ..

بل كلٌ يُشرِّفه الحق » .

من كتاب الكندي « في الفلسفة الأولى » الى الخليفة المعتصم بالله العباسي .

آثرت أن أبدأ الحديث بهذه الكلمة التي كتبها الكندي منذ اثني عشر قرنا ، يخاطب بها الخليفة ، كما يخاطب بها كل باحث عن الحق في أي أفق من آفاق المعرفة ، ويربط الكندي بين العلم والعمل بقوله في مدخل هذه الرسالة « إن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق . وفي عمله العمل بالحق »

ولنأخذ سطورا من رسالة بعث بها عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري (رضي الله عنهم جميعا) :

« ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم ، وراجعت فيه رأيك فهُديت فيه لرشدك أن تُراجع فيه الحق . فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، فمن خلصت نيته في الحق ، ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين بما ليس في نفسه شانهُ الله ، فإن الله لا يقبل من العباد الا ما كان خالصا » . وهذا الخطاب - ومداره طلب الحق في القضاء - شرحه الامام ابن القيم في كتابه « إعلام الموقعين » في نحو خمسمائة صحيفة ، تضم أكثر الجزء الأول ونحو نصف الجزء الثاني .

ولو تأملت كلمة عمر وكلمة الكندي ، لوجدتهما ينبعان من مشكاة واحدة ، وقد تسأل نفسك : أيهما كلمة الخليفة وأيهما كلمة الفيلسوف ؟ وترى أن طلب الحق كان مما يتعاون

عليه ويتواصى به ، الخلفاء والعلماء . يقولونه ويقبلونه . فالجسور بينهم مفتوحة ، أو هكذا ينبغي أن تكون .

وقد يُرَدُّ على هذا بأن التاريخ لا يقوم على الأمثلة الفردية . نعم . ولكن هناك أمرين :

الاول : أن هذه النماذج كثيرة في تراثنا العربي والاسلامي

ولنذكر ـ كمثال ـ مقدمة كتاب الخراج لأبي يوسف وخطابه للخليفة العباسي هارون الرشيد ، ولنذكر نصائح العلماء وحوارهم الخصب مع الخلفاء ـ أو بعضهم ـ كما جاءت في كتاب سراج الملوك للطرطوشي .

من الوحدة الى التنازع

ولقد كانت هذه الجسور قوية في عهود ازدهار الحضارة الاسلامية ، وعادت على كل من الخلفاء والعلماء والقواعد الشعبية بخير كثير ، وتعاونت معها أنظمة الحسبة ودواوين المظالم المختصة بحاجات الناس ، عندما اتسعت الدولة وصعبت وسائل الاتصال المباشر بين الحكام والمحكومين . خصوصا في الحواضر الكبيرة ، وفيما بينها وبين الأرياف والبوادي

وفي ضعف هذه الروابط ، تحل محلها روابط القبيلة والطائفة والمذهب والعصبيات الضيقة . وذلك بتجمعها في أحياء محددة في المدن الكبيرة ، أو انزوائها في مناطق العزلة في العالم الاسلامي وتستطيع أن تربط بين المناطق النائية والحلية من ناحية ، وبين المذاهب والآراء التي عارضت السلطة المركزية من ناحية أخرى . ولا زالت جوانب من هذا الترابط المكاني قائمة حتى هذا القرن في العالم الاسلامي

ومحصلة ذلك : ظهور نسيج إسلامي جديد ، غير قائم أساسا على الوحدة المركزية ، وإنما يقوم على تعددية تستمد قوتها من عوامل مكانية وعوامل تاريخية ، تدعمها شروح نصوص من مصادر الاسلام وأحداثه ، توفر القاعدة الفكرية ـ والعاطفية أحيانا ـ التي يقوم عليها المذهب أو التجمّع .

يضاف الى ذلك أن العالم الاسلامي له مواريثه الحضارية القديمة التي استطاعت البقاء في مواطنها عبر القرون . ولها ـ بدورها ـ روابطها الدينية والعرقية واللغوية . وتطلعاتها الى كيانات لا تقوم إلا بتقطيع كيانات قائمة ، أو تجميع أجزاء من دول متجاورة ، تحرص كل منها على حدودها السياسية ووحدتها الوطنية ، مع رغبتها في التعايش السلمي مع جيرانها إن استطاعت

وأحيانا تجد هذه « الكيانات الآمال » شيئا من التشجيع المحلي . أو من مصادر خارجية ، كل الذي يعنيها أن تظل درجات الحرارة السياسية مرتفعة في العالم الاسلامي ، وأن تزداد قابليتها للاشتعال مع تقرب الوقود من أيديها . وقد كان . وتيسر الحصول على السلاح من مصادر كل همها أن تبيع السلاح . وأصبحت تجارته جزءا حيويا في مجالي الاختراع والاقتصاد معا والدول الصغيرة من خائف على نفسه ، أو طامع في جاره ، و« الكيانات الآمال » تتحرك ، ولو ادى هذا الى تحطيم وحدات وطنية قائمة ، وهذه بدورها عليها أن تخوض معركة الوجود

واتسع المجال . وبشكل توازي توزيع المجالات ـ فشملت دولا من آسيا وبخاصة جنوبها الشرقي ، وشرق وجنوب ووسط وأجزاء من غرب افريقيا ، وأمريكا الوسطى وأقطارا من أمريكا الجنوبية وتستطيع أن تتبع حدود هذه الحروب وموقديها والنافخين في نارها ، إذا ما قربت الضوء ، فستجد الصراع بين القوتين الاعظم . هذا الصراع الذي اتخذ مستويين . أعلاهما هو التسابق في التنافس الاقتصادي

والابداع العسكري الذي تحول أخيرا ـ في بعض جوانبه ـ الى أسلوب من الحوار والتعايش ، دون إهدار لأرواح سكان هذه الأقطار المتقدمة ، وأدناها هو الحرب الاقليمية حتى في أقاليم الفقر والحاجة كجنوب شرق آسيا وشرق افريقيا والنطاق الافريقي الواقع شمال الأقلية البيضاء وفي جنوب افريقيا والممتد من موزمبيق الى انجولا ، ثم أمريكا الوسطى .. ففي هذه الأقطار تلتقى أشد درجات الفقر بأبشع أساليب الهمجية الحربية : من حرق القرى ، الى سرقة الأقوات القليلة ، الى مهاجمة مخيمات اللاجئين ، الى قطع الطريق على قوافل الإمداد والتموين . والخاسر الأكبر هو إنسان العالم الثالث الذي تدافعت حكوماته في حروب استطاع العالم المتقدم أن يتجاوزها منذ منتصف القرن العشرين .

ويذكر تقرير « النفقات العسكرية العالمية ومبيعات الأسلحة لعام ١٩٨٧ » الصادر عن « الوكالة الامريكية » للتحكم في السلاح ونزعه « أن مشتريات الاسلحة على الصعيد العالمي فيما بين ١٩٨٢و١٩٨٦ ببلايين الدولارات كان مجموعها في العالم كله ٢٢٤و٤٣ بليوناً ونصيب الدول المتطورة منها ٤٣و٧٥ ونصيب الدول النامية ١٨٠و٦٨ أي أنها اشترت ـ رغم فقرها الغالب ـ أربعة أمثال ما اشترته الدول المتطورة».

ولكن : كيف تجمع معظم الدول النامية أو المتخلفة بين الفقر وشراء السلاح ؟ هنا تبرز قضية الديون وفوائدها وتكبيل كثير من الدول النامية بهذا القيد الذي حل محل الاستعمار القديم . ولنلاحظ أن الدول المتقدمة تُعنى عناية كبيرة بالزراعة وبخاصة الحبوب الغذائية ، ولها اهميتها الاستراتيجية في عالمنا المعاصر . وبهذا أصبح إعتماد الدول النامية على الدول المتقدمة في توفير كلٍ من السلاح والحبوب الغذائية ، هذا إلى تعويق جهود التنمية ، وصرف الجهود عن التخطيط . هذا وأعباء الديون ـ والقيود ـ آخذة في الزيادة .

الثنائيات

وبعد هذه الجولة نحس أننا نعود الى الموضوع الاساسي الذي بدأنا به : « الثنائيات » وأخطرها : عالم متقدم ، وعالم متخلف ، وبينهما فجوة تزداد اتساعا . وفي داخل هذه الثنائية التي تضم العالم كله ، حشد من الثنائيات ، تتمثل في العالم الاسلامي ، كما تتمثل في غيره من الوحدات الحضارية الكبرى .

إن خطورة الصراع بين القوتين الأعظم تهدد العالم . وخطورة التوافق بينهما ، نخشى أن تكون على حساب الشعوب والدول النامية ، فلن تزيد في هذا المعترك على أن تكون مساحات في مناطق النفوذ أو أرقاما في كشوف الحسابات .

ويبقى المخرج الأصوب نابعا من الايمان بكرامة الانسان حيث كان ، وحقه في الحياة والتقدم مهما يكن موقعه على خريطة الحضارات العالمية ، والتعاون في ظل الإخاء .

والآن : ما أبرز الثنائيات في وطننا العربي والاسلامي ؟

وما أود أن نتصور كل ثنائية منها كأنها فريقان يختصمان ، وإنما الأقرب الى الواقع أن نراها درجات تتباين كثافتها ، وتتنوع بما تضم من مكونات : لبعضها أعماقه التاريخية ، ولبعضها جذوره في أرض أخرى ، وبعضها لا زال طافيا على سطح الحياة في دياره لم يضرب في الأرض جذرا ، ولم يرفع في السماء فرعا .

١ ـ وأوضح هذه الثنائيات : الموقف من الحضارة الحديثة ، ما نقبل منها وما ندع ، وما نستورد وما نقتبس ، مع تطوير يلائم الصالح من تراثنا . ولنقترب مثلا من الشعوب الاسلامية في

افريقية جنوب الصحراء ، حيث تتحاور ثلاثة مؤثرات حضارية : الميراث الافريقي القديم ، والميراث الاسلامي ، والميراث الغربي الحديث . وأقصد بالغربي ما شع عندهم من اوربا وامتد وتكونت له مراكز في العالم الجديد ، ثم قامت إلى حوارها مراكز حضارية في أقصى الشرق ما نصيب كل من هذه الثلاثة ؟ ولنفرق بين أمرين في الحضارة : أولهما له الصفة العالمية من المبتكرات العلمية ، وهذا ميراث إنساني شامل والثاني هو المرتبط بالثقافة ـ في مدلولها الواسع ـ وله في تطبيقاته صفة الخصوصية . ولنضرب مثالا توضيحيا : بحوث هندسة الوراثة : من الناحية المعملية لها صفة العموم ، ولكنها من الناحية التطبيقية لها ارتباطها بالأخلاق والقيم التي يعيش بها المجتمع . وبحوث « أخلاقيات العلم » لها ندواتها وحوارها ، وتعدد المواقف حيالها .

٢ ـ ويرتبط بهذا ، « الوضع » بالنسبة الى هذه الحضارة الحديثة . وفرق بين « الوضع » و« الموقف » . الأول هو المستوى الحضاري الذي تعيش فيه الجماعة أو الجماعات التي ندرسها ، والموقف هو مدى قبولها للحركة الحضارية وسرعة هذا التقبل . ولا زلت أذكر حوارا في ندوة عن التاريخ ، وكيف حاول الحاضرون ـ وكان أكثرهم من الأقطار المتقدمة ، مع ممثلين لاقطارنا ـ أن يختاروا ألفاظا « غير جارحة » لتقسيم الدول قديما وحديثا حسب القدرة على الحركة ، وكان من التعابير المطروحة للتمييز بين المجموعتين الكبيرتين : المناطق المركزية والهامشية . المناطق الساخنة والباردة . المناطق النشطة والساكنة . مناطق التأثير والتأثر .

وأنت لا تستطيع أن تضع حدا فاصلا بينهما . فالحضارات تتفاعل ، والشعوب التي تُغلب على أمرها ، تُصَدِّر أحيانا جوانب من ثقافتها الى الدول الأكثر منها قوة والأعزّ نفرا . ولك أن تنظر إلى المؤثرات الافريقية في الفنون الغربية التي حملها الافريقيون ، وارتضاها الغربيون ، وكأنهم يكتشفون فيها جذورا تائهة كانوا يبحثون عنها .

٣ ـ ومن هذه الدائرة الأوسع ننتقل الى دوائر أضيق في وطننا العربي والاسلامي ، وما نراه من مواقف الشباب من العروبة والاسلام ، والحوار الذي يتجدد حول الصلة بينهما من نواحي القدم والشمول والتقدمية ، والعلاقة باللغة والتراث القديم في كل من أقطار العروبة والاسلام ، والصلة بين الوحدات الوطنية والاقليمية والعقائدية والنظرة العالمية .

٤ ـ ثم ما أبرزته الصحوة الاسلامية من تصنيفات للعلماء وللحركات الاسلامية . ونقرأ في أدبيات هذه الجماعات تصنيف العلماء الى شريحتين : علماء السلطان وعلماء الميدان . أو علماء الدولة وعلماء الشعب . وهذا التصنيف فرعٌ من كلِّية أكبر عندهم،تقسم الاسلام الى : الاسلام الحكومي أو الرسمي والاسلام الشعبي . ثم تعود الى الحركات ذاتها فتصنفها الى طرائق شتى ، وتتخذ من مواقفها ـ من مصادر التشريع ومن السلطات الحاكمة ـ مقياسا ، ثم تصنع كل جماعة لنفسها مقياسها ، وتحدد به مدى تمسكها بما تختاره من الأصول أو المظاهر وأساليب العمل . وهذه ـ بدورها ـ تسندها آيات وأحاديث لا ريب فيها .

في الميزان

ولكن : ما مساحة هذا الجزء المختار بالنسبة إلى النسيج الاسلامي ؟ وما ترتيبه في سلم الاولويات ؟ وما درجة تقبل الأوضاع القائمة لهذا القدر ـ أو ذاك ـ من الجرعات المقترحة ؟ وما علاقة ذلك بالتكوين الديني أو الطائفي ، أو مراكز الثقل العرقية القائمة والمحيطة ؟ ومدى ملاءمة الاسلوب أو الأساليب المقترحة للتطبيق ؟

ومن الذي يحمل مسئولية التطبيق ؟ ثم ما وضع هذه القضايا وتأثيرها على المسيرة العامة للمجتمع ، ومدى مساهمتها في مقابلة التحدي الحضاري المفروض على العالم الاسلامي ليكون صورة تقترب شيئا فشيئا مما يدعو اليه الاسلام ؟

إن أهل الاسلام يستطيعون أن يدافعوا عنه بالكلمة ، ولها مكانتها وشرفها . ولكن افضل الدفاع هو « صورة » العالم الاسلامي نفسه وهي الصورة التي تلتقي فيها خصوصياته الحضاريه ، بإفاداته من الانجازات العلمية العالمية ، تمهيدا لمساهماته الايجابية في هذا العطاء .

وإن جهود تعويق العالم الاسلامي لا تقتصر على سوء توجيه موارد الحياة فيه ، وشغله بالحروب والصراعات الداخلية والقصايا الجزئية ، وإنما تمتد إلى « الاستشاده » ببعض الحركات الأصوليه ودفعها الى المزيد من التشدد والتطلع الذي يعطي صورة مشوهه عن الاسلام ، ويدعو الى عنف الصراعات الداخليه وغير المتكافئة بين ابناء العالم الاسلامي

وإن شدة الإلحاح في الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة ، يدعونا الى المزيد من الحذر ، وإلى حسن اختيار مواقع أقدامنا على طريق العمل ، والتركيز على قضايانا الرئيسية .

وإن جانبا غير قليل من الاعلام الاجنبي « يختار » من الواقع الاسلامي صوره المتطرفة ، ويجمع بينها في افلام وثائقية أو مؤلفات ، تشوه وجه الاسلام أمام أبنائه ، والراغبين في المزيد من التعرف عليه ، والرأي العام العالمي .

أرض اللقاء

وأتصور أننا لو وضعنا معيارا أساسيا في العمل الاسلامي ، أو مجموعة من المعايير يكون من ثمارها اقامة الجسور بين الثنائيات تمهيدا لحوار . وإيجاد أرض لقاء، لو وضعنا هذا لكنا على الطريق السوي

وهنا يطرأ سؤال : وما أرض اللقاء ؟ فستتفق على ما هو خير للحضارة الاسلامية في مجموعها . ولنخصص لهذه الخطوط الرئيسيه السياسات والاختيارات المحلية . وهنا يلقانا سؤال آخر ما نماذج هذه القضايا التي تلتقي عندها الآراء ، أو ينبغي أن تلتقي ؟

فلنصنعها في مجموعتين كبيرتين :

أولاهما : قضايا التحرير الوطني في اطار الوحدات الاساسية .

بعبارة أخرى : اللقاء بين الحرية والوحدة الوطنية ، وأمامنا في هذا . دعم الانتفاضة الفلسطينية . ووحدة لبنان ، وافغانستان . وامتصاص الصراعات الداخلية في اقطار كالسودان وما بين جنوبها وشمالها .

الثانية : المشروعات المشتركة التي تؤكد التعاون الاقليمي في العالم الاسلامي . تمهد لتوسيع دائرتها . وهنا يأتي دور الاقتصاد المشترك . ويبرز في هذه المجموعة : الأمن الغذائي وموارد الماء والطاقة وتنمية مشروعات البحث العلمي

وأعلم أن هناك مشروعات مقترحة في هذا المجال ، ومنظمات مسئولة لديها ملفاتها . ولكن المقصود في هذه المرحلة « اختيار » عدد من المشروعات الاساسية التي لا تنوء بأثقال الطموح والتصور النظري ، ولا تعرقلها صراعات السياسة ، ولا تصلب الشرايين الادارية ، وأن تكون ميزانياتها في حدود الامكانات المتاحة . وان تكون مؤكدة الجدوى

ولا نود أن تكون هذه المشروعات دولة بين الحكومات وخبرائها ، بل نود أن تصبح مشروعات تؤمن بها الشعوب ، لا لفائدتها الذاتية وحدها ، وانما باعتبارها مؤشرات مرحلة

حدسه ، وروافد تصب في نهر العمل المشترك

ونقتضي هذه المرحلة تغييرا جذريا في إعداد الشباب ـ علينا أن نعترف به ـ يستهدف المزيد من القدرة على التعامل مع المعضلات المعاصرة ، وحسن توجيه الطاقات التي هي أحسن ، ولا من صياغتها في مسارب جانبية تبعدها عن الهدف الكبير

ونعني هذا الإطار أن نكون قادرا على اقناع الشباب ، مسؤولين نحدوه ، على أن تسبه مشروعات مشتركة و« هندسة الشباب » ـ ذا يجدر بنا أن نستخدم هذا النعمة ـ في خطوط مرئية ومنصبة ويقوى شرها نحث صحيح

قادرا على احداث للشباب عن رضا وقناعة وقدرة في العمل فيه ، فتتحول الثنائيات القديمة في روافد لنهر الاسلام ، تشيع به على ضفافه نضرة الأمل وثمر العمل .

أما عن خطوات التنفيذ فهي مسمة وتعاون بين الأجهزة العاملة سواء من الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة أو المستويات الوطنية ويعد منظمة المؤتمر الاسلامي هي المؤهلة لان تكون حلقة وسطى بين المستويات العالمية والقارية من جهة ، والمستويات الاقليمية والوطنية من جهة أخرى .

من عريض وضيق طويل . . ولكنه طريق اللقاء □

قال الاولون

● قال ابراهيم بن أدهم : « سألت راهبا من أين تاكل ؟ قال : ليس هذا العلم عندي . ولكن سل ربي من أين يطعمني »

● صحب رجلان فقال احدهما للآخر : تعال حتى نأكل معا . فقال : معي خبز ومعك خبز . ولولا انك تريد انه لأكلت وحدي »

● قال الحسن : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء »

● سئل ابن أبي طالب « كيف يحاسب الله الخلق والخلق كثير ؟ » فقال : « كما يرزقهم وهم كثير » ، فسألوه : « وكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ » . قال : « كما يرزقهم ولا يرونه »

● قال الفارابي : « اللهم رب الاشخاص العلوية والاجرام الفلكية والأرواح السماوية ، غلبت على عبدك الشهوات البشرية ، وحب الشهوات والدنيا الدنية فاجعل عصمتك نجاتي من التخليط ، وتقوى حصني من التفريط . إنك بكل شيء محيط »

● قيل لبعضهم : « ما يمنعك من الامارة ؟ » قال : « حلاوة رضاعها ، ومرارة فطامها »

بقلم : الدكتور محمد عيسى صالحية

لرمضان في فلسطين عطر خاص ، ولأيامه ولياليه نكهة خاصة ، ولفلسطين والفلسطينيين في رمضان حكايات ووقائع سجلها التاريخ ، وحفظها الرواة والمغنون .

المقال التالي محاولة لرسم صورة لا لرمضان الذكرى فقط ، بل لرمضان الوقائع والأحداث .

رمضـان في فلسطين لـه نسق متفـرد من البشـر والترحـاب ، يبـدأ قبـل قـدومـه بأسابيع ، فتدب في كل فلسطين حركة نشطة . سكان المدن يـزحمون الأسـواق ، وأهل القـرى والأريـاف يسـرون إلى المـدن ، أهـل الـوبـر يستحثون الإبل والدواب . كل يسعى لتجهيـز بيتـه بما يحتـاجـه من السمن والأرز والبهـارات والمكسرات ، ونقيع قمـر الدين والتمـر هندي والعرقسوس والشاي والقهوة والحلاوة .

في المدن الكبرى كالقدس ونابلس وغزة وحيفا ويـافا واللد والـرملة وغيرهـا ، تنتظم الأفـران المؤقتة في الشوارع لخبز القطايف ، وتعلو الدكك لبيع شراب الخروب ، وعند المطاعم تبرز تنانير عمـل الحلويات الخـاصة ، (كـل واشكـر) ، البـرازق ، المعمـول ، الكنـافـة ، (كـرابيـج حلب) ، (حلي سنونك) ، المطبق ، المدلوق ، البُـرما ، أصـابع زينب ، المشبـك ، (الكعك بعجوة) ، الفستقية وغيرها .

عمال البلديات والمجالس القرويـة ينشطون للتفتيش على جميع فوانيس الإضاءة وإصلاحها . إدارات الأوقاف تتفقد المساجد ، تجهز القناديل والـزيت ، وتفرش السجـاد والبسط والحُصر . وتلك عادة متصلة أشار إليها الرحالة ناصر خسرو في القرن ٦هـ/ ١٣م.: « كانت مساجد القدس مـزينة بـالفـرش الثمينـة من أجـود الأنـواع ، والقناديل العصية تزيد المساجد اشتعالا ، وتلقي على المسجد مزيداً من الهيبة والجلال » .

وقبيل بدء شهر الفضيلة بأيام ترى الشبـاب الأقوياء يجرون مدفع الإفطار ، يرقونه مرتفعاً ، جبـلا كـان أم تـلا ، يـرافقـه أعيـان المـدينـة وشيوخها ، وترى الصبية ذكورا وإناثا يتحلقون حوله فرحين . وذوات الخدود والجمال ، يرقبنه من وراء الرواشن ، والجمع يردد الأهازيج بقرب حلول الشهر :

« أهْلًا رمضانْ سهْلًا رمضانْ بُكره بتْهلْ
والخيرْ بِيطُلْ والمدْفعْ طَالِعْ عالتَّلةْ طَالِعْ »

والكل محبور ، والأسارير منفرجة ، والصدور منشرحة . شهر البركة والخير سيحل ، ملائكة الرحمة تبسط أجنحتها على العباد ، التبتل في كل نادٍ وواد ، التوبة ، التوبة ، فالله غفور رحيم.

قبـل رمضان سنـة ١٩٣٥ ، بأسبـوع واحد فقط ، دهت فلسطين رزية ، فغدت كل البلاد من شـرقها إلى غـربها ومن شمـالها إلى جنـوبها كالبحر المتـلاطم الأمواج ، زفـرات متصاعـدة ودموع مهراقة ، فقد أذاعت قوات الانتداب نبأ استشهاد الشيخ عز الدين القسّام ورفاقـه ، إثر معركة يعبد ، فانصرف الناس عن تزويد البيوت

بمؤونة رمضان ، إلى المشاركة في تشييع جنازة الشهداء في حيفا ، وعم الإضراب ، وسار المتظاهرون في الشوارع ، ورشقوا دائرة الشرطة والمحطة بالحجارة ، وتفجر الغضب حين لفت نعوش الشهداء بالأعلام السعودية والعراقية واليمانية ، وغرقت البلاد في حبيء ذكرى الشهداء وقراءة الفاتحة على أرواحهم .

ثبوت الرؤية

تفيد السجلات المستنصرية للدولة الفاطمية أن سلاطينها أبطلوا بمراسيم شيعوها إلى البلدان والأصقاع سنة ثبوت رمضان بالرؤية لاعتمادهم الحسابات الفلكية والمراصد، ولا عجب، فإن أحد سلاطينهم وهو الحاكم بأمر الله قضى مقتولاً وهو في طريقه إلى جبل المقطم ، يمارس هوايته في مراقبة النجوم والكواكب والأفلاك . وتحدثنا الأيام الفلسطينية أن فلسطين لم تستجب لذلك ، بل استمر الناس يرقبون الهلال بالعين المجردة .

وقد جرت العادة في اجتماع الهيئات الدينية من أعيان المدينة وحتى مخاتير القرى وأئمتها ووعاظها والخطباء (المدرسون) ، في الجمعية أو الديوان أو المضافة انتظارا لتحقيق ثبوت الرؤية . ولكنك ترى الرجال والشباب والفتيان قد ارتقوا أعلى نقطة في المدينة أو القرية ، جبلا ، أو تلة ، منارة أو مئذنة ، حتى إذا ما رأى الهلال أحدهم ، حلت الفرحة ، وارتفع في الهواء كغزال يطارده الصياد ، وزها فارس النصر ، صنو زرقاء اليمامة ، وسابق الريح يزف النبأ العظيم . فقد حل الضيف ، فافتحوا القلوب ووسعوا الأبواب ، وهناك عند الهيئة يدلي بالشهادة . يصف شكل الهلال ، لونه ، قعدته على قرنه أو على خاصرته ، مثل « فص » البرتقال أو « شقحة » البطيخ ، فإذا ما تيقن الربع ، صدر الإعلان بثبوت الرؤية ، فتضاء المآذن ويهدر المدفع بطلقته الأولى .

وتدب في المدينة والقرية حياة فورية ، الأطفال يركضون بالنبأ السعيد ، رب العمل يسرع إلى عماله وفلاحيه : « بكره ، إن شاء الله السرحة متأخرة » ، كلمة واحدة تسمعها أينما سرت : « شهر مبارك إن شاء الله تعالى » ، فقد بدأ الصيام .

حضور عرس عنتر

في فلسطين يمضي الناس سهرهم في سهر وتسلية مرئية ، الحكواتي يحدثهم بقصص البطولية ، قصة عنتر ، الزير سالم ، تغريبة بني هلال ، بدر التمام ، الشاطر حسن ، سيف بن ذي يزن ، ألف ليلة وليلة ، وغالب ما يكون الحكواتي عازف ربابة ، وذا صوت جميل ، يضفي على السهرة جوا ممتعا .

وفي مكان ثان ترى « الكراكوز » - محمد الطرابلسي مثلا - يقدمه بحيال أسفل ... « كلب بلدي ولا افرنجي » مقالب ... « وعيواظ » ، نوادر ، نكت ، أحاجي ... عليكم ما حدث في قرية فلسطينية سنة ١٩٣٨ ... حين عرض « الكراكوزي » تمثيلية عرس عنتر ، جاء الجمهور بحلى هيئة ... الشر والفرح والسرور . فاللهذه سيكتمل عنتر نصف دينه . وعندما خرجوا من ... انطلقوا بالتوشيحات ، ووزعوا الملبس ...

الحكواتي له دور ، و « الكراكوزي » له دور في استنهاض الشعور الوطني والقومي . الأدب الشعبي له أهدافه ... السلطة البريطانية والمجتمع ، إثارة حماس الأمة نحو القضايا الساخنة .

في مكان ثالث ، ترى جمعا من كبار السن ، يمضون وقتهم بلعب « المنقلة » أو « الداما » و « السيجة » .

وتسألني عن المرأة : أين هي في هذا المجتمع ؟ وأقول : إنها تنتقل من بيت إلى بيت للزيارة والتبريك ، أو لمواساة أم بعزيز فقد . ثم تسرع الخطا إلى البيت لإعداد طعام السحور ، تتفقد الطاسون والمطحنة تنتظر الأولاد الرعاة ، حتى إذا ما حان وقت السحور ، جاء المسحّر بصلته الربانة وصوته الرحيم ، ولنمهمة صوفه وأسرارها ، تتوارثها الخلف عن السلف حتى أصبحت نسبا ، الأمانة والعفة والثقة ومعرفة دروب البلدة وأزقتها ، بل حتى بيوتها ، ودراية لا بأس بها بالميقات ، ونسمعه يردد :

« يانَايِمْ وَاحِد الدَّايِمْ
يانايمين وَحّدوا الله
ياعباد الله ، وَحّدوا الله »

وقد يطرق الأبواب : « اصْحَ ياأبو العَبدْ » .

وأهل فلسطين كرماء مع المسحرين ، كل ليلة يعود مملوء الوفاض طعاما وهدايا ونقودا ، وفي نهاية الشهر له الأجرة والعيدية .

ولأطفال فلسطين صبيانا وبنات طرقهم في إحياء ليل رمضان المبارك ، فمنذ اليوم الأول يتكوكب أشبال كل حارة ، يرئسون أحدهم بديمقراطية عجيبة ، أما الزهرات فلهن لقاء ، وأكبرهن لها التقديم والرياسة ، أحكامهم صارمة ، لا تراجع ولا مهادنة .

تتشكل فرق الحواية والمداحة ، تسير بالفوانيس الملونة والشموع المتقدة ، ويشدو الصوت الملائكي :

« عَالسُّوقْ نَازِلْ يَانَازِلْ
تَحْتْ المَنَازِلْ يانَازِلْ
نزل معي ينازل
رضو قنديلي يانازل
سيدي منون ينازل
عَالسُّوقْ طَعمْني كنافة
عالسُّوقْ اطْعمْني بَقلاوةْ »

وفريق آخر يتوقف أمام بيت أو دكان يغرد .

« لولا فلانْ ماجينا
جلوا الكيْسْ واعْطونا
واعْطونا حلاوانا
صحنين بقلاوةْ »

وينتهز الصبية فرصة مرورهم على بائع حلوى أو « قصماني » ، ويغنون له ، فإن أكرم وفادتهم شكروه على طريقتهم :

« يخليّ لَهْ أُمّهْ آمينْ
يخليّ لَهْ أخْتَهْ آمينْ
يخليّ لَهْ مرتَهْ آمين »

وإن أعرض ، عاقبوه عقابا صارما . « القضماني » سيء الحظ لم يكرم البنات مثلا ، وهنا تتقدم زعيمة الزهرات ، وتصيح بأعلى صوتها وبلهفة :

« يَابْنَيّاتي يَابْنَيّاتي
فيرددن :
نَعَمْ يمو نَعَمْ يمو
بزَوجْكِنْ بْزَوجْكِنْ
لمينْ يمو لمينْ يمو
للقضماني للقضماني .
مَا نْرِيدُهْ مَانْرِيدُهْ »

والأولاد لهم طريقتهم في العتاب لمن لا يكرمهم :

« جاي علينا جاي
بايدنا العصاية
نضرب الحواية »

حتى إذا حان السحور ، عاد الأطفال محملين بالهدايا والنُقل والملّبس والحلوى بعد أن اقتسموه بعدالة تفوق عدالة محاكم بريطانيا في فلسطين .

أيام رمضانية خالدة :

هل ينسى أبناء فلسطين تلك الدعوات التي رددها صلاح الدين يوم أن أحدقت الأخطار بالقدس ودهكتها همجية الفرنجة « الهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » . كان هذا دعاء صلاح الدين حين صلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ردده والدموع تتقاطر على شيبته ، فقد اعتاد الصلاة بالأقصى ، وقد حال الفرنجة دون ذلك .

صلاح الدين سار في أوائل رمضان ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م يريد تحرير قلعة صفد من الفرنجة ، لم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أينما كان ليجتمع فيه بأهله ، ولما حاول بعض إرجاء الخطة قال :
« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون » .

وخرجت قلعة صفد من أيدي الفرنجة ودخلت الأصفاد في أرجلهم .

رمضان سنة ١٣٥٥هـ/ الموافق ١٩٣٦/١١/١٠م محكمة الاستئناف البريطانية صادقت على حكم على الثوار (أهليل .اللولح ومحمد قعدان ومحمد حسين) بالاعدام ،وأوصت المندوب السامي بعدم استعمال صلاحيته في تخفيض الحكم . أما الأبطال الثلاثة ، فرددوا :

« نقبل الموت بالشكر في سبيل الوطن ،
نحن للوطن خلقنا ومن أجله نموت ،
إن نساءنا سيزغردن عند سماع النبأ ،
مفتخرات بأنهن أنجبن من يموت ليحيا الوطن » .

٩ رمضان ١٣٥٦هـ/ الموافق ١٩٣٧/١١/٥م ، ألقت بريطانيا القبض على رفيق عز الدين القَسّام ، وخليفته الشيخ فرحان السعدي ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر ، وبعد يومين عُرض على المحكمة العسكرية الميدانية ، وبعد ثلاثة أيام نفذ فيه حكم الإعدام شنقا وهو صائم ، محتسبا لوجه الله تعالى . الشاعر الشعبي ، صاحب القصيدة دائعة الصيت « دبرها يامستردل » ، نوح ابراهيم ، قضى نحبه شهيدا في إحدى معارك الشمال يوم ٨ رمضان ١٣٥٨هـ/ الموافق ١٩٣٩/١٠/٢٠م ، ومن قصيدته التي يحفظها كل فلسطيني حتى اليوم نورد :

دبّرها يامِسْتَرْ دِلْ
يمكن على ايدك بتحلْ
جيت فلسطينْ الحرهْ
حتى تقمعْ الثورهْ
ولما درست الحالهْ
لقيت المسأله خطرهْ
بدّنا تفهمْ بريطانيا
حتى تكفينا شرها
وتصافي الأمهْ العربيهْ
بمنع البيع والهجرهْ »

وتقترب أيام العيد ، ويشغل الخياطون ، والخرازون ، والحلاقون ، طوال الليل بالعمل وتجهيز الملابس والأحذية ، حتى إذا أطل العيد لبس الصغار الملابس الجديدة ، واكتست الديار حلة قشيبة من الأنوار في المآذن والمساجد

والطرقات ، وتهيأت المضافات و « السلاملك » ، ومدت الأسمطة من الحلوى ، وعبقت رائحة القهوة . الناس يطلقون منذ الصباح الباكر لأداء صلاة العيد ، أحد علماء المسلمين ، المنهاجي الأسيوطي ، حضر عيد رمضان ٨٧٤هـ في القدس ، أدهشته بلاغة الخطيب وشدهه زين المنبر ، وأعجبه تراص صفوف المصلين ، حتى إذا ما انتهت الصلاة تلاقت الأكف ، وشد بعضها على بعض مهنئة مباركة ، فلا عداء ولا مشاحنات .

« كل عام وأنت بخير ، كل سنة وأنت سالم ، العيد الجاي وأنت عريس » يسرع الرجال والشاب والفتيان لمعايدة الأقارب ، ويبدأون بنات « العيلة » فلابد من زيارة « الولية » وتطييب خاطرها .

يبدأ العيد عند الأطفال كالعادة قبل العيد بيوم .

« بكره العيد وبنعيد ، وبنذبح بقرة اسعيد ـ الخ » . في الصباح وقد استحموا وتزينوا وتدرهموا يسرعون إلى « الشقلابة » والمراجيح ، ويتزاحمون على « صندوق العجب » ، والعم « أبو ركية » يردد :

« أما تفرجْ ياسلامْ
عَ العجيبةْ بالتمامْ
عَ بُو زيد الهلالي
قوْم تفرجْ عَ بُوزيدْ
صاحب الحيل والكيدْ
والدنيا كلها أحلامْ
قومْ تفرجْ ياسلامْ »

والشباب ، يعقدون حلقات الدبكة ، شمالية ، شعراوية ، كرادية ، طيارة ، سحجة ، موالات بغدادية ، ابراهيمية ، عتابا ، ميجنا ، وعزف على الشُّبَّابة والمجوز (اليرغول) .

أما النساء اللواتي قال عنهن ابن العربي في القرن السابع : « ما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف من نساء نابلس » . هؤلاء العفيفات يخرجن صباح العيد لزيارة قبور الأموات ، يضعن على القبور الفوابيس والكعك والحلوى ليراه السائل والمحتاج ، ويزيّن القبور بجرائد النخيل والأزهار ، وقبل المفارقة تردد الواحدة منهن :

« ياريتني ياامّي
طيرْ وطيرْ واتْعلّى
وارمي جناحي على الصفصافْ واتْدلّى
والعين تسكب الدموع والقلب في ذلّةْ
وهلي مفارق أوطانه بيش يتْسلّى »

وعلى الغداء يلتئم شمل العائلة بعد يوم طويل من الفرح والألم ، يلتقون على موائد الدجاج المسخن واللحم المشوي والمناسف اللذيذة والحلويات بأنواعها ، وتمضي الأيام ، ونستقبل السنين والأعوام ، ويطل رمضان كل عام على الكوكب الأرضي ، يحمل الرحمة والبركة والوئام والإخاء ، رمضان لا يتغير ، الناس وحدهم هم الذين يتلونون ويتغيرون . فهل الزمان هو الزمان ؟

وهل الناس هم الناس ؟ . . سؤال أثقل النفس بالبحث عن جوابه ! . □

لم ينل الأدب العربي في الماضي إلا عناية قليلة في ترجمته إلى اللغات الغربية ، فالترجمات المتاحة ترجمات حرفية تعكس - غالباً - انتقاءات خاصة . ولذا كانت صورة الأدب العربي التي تعكسها تلك الترجمات صورة مشوهة . وذلك ما يوضحه المقال ويقترح له بديلاً

أفق جديد في ترجمة الأدب العربي

بقلم : الدكتور روجر ألن *

كان هدف مؤسسة « بروتا » لترجمة الآداب العربية التي أسستها وتديرها الزميلة الدكتورة « سلمى الخضراء الجيوسي » هو أن تقدم أكبر قسط من هذه الثروة الأدبية إلى العالم الناطق بالانجليزية . وكان ذلك لسببين الأول هو اطلاع قراء الانجليزية على نوادر الغنى الكثيرة التي يتمتع بها هذا الأدب . والثاني (وهو في نفس أهمية الأول) لكي يتعدل منظور القارىء الغربي عن العرب والوطن العربي بشكل يصحح ما تعكسه أغلب الأعمال المترجمة المتاحة حتى الآن . إنني ، مثلا ، أعجب باستمرار بالتأثير الذي تتركه مختارات « الأدب العالمي » على عقول الطلاب في المدارس الثانوية في العالم الغربي

ولكن هذه المختارات بلا استثناء تمثل تاريخ الأدب العربي كله بقصتين من ألف ليلة وليلة .

وهذا يعكس أولا ضحالة المعرفة العامة بالأدب العربي . وثانيا التحيّز السلبي ازاء العرب الذي تصّف به اولئك الذين يعدون هذه المختارات . غير أنه لا بد هنا من الاعتراف أن بعض هذا الخطأ ، يرتكبه أعضاء الجماعات الأكاديمية المستعربة في الغرب التي تقصر في انجاز ترجمات حاذقة وراقية المستوى للأعمال الأدبية العظيمة عند العرب لكي يقرأها هذا الجمهور الصحيح من العرب

أهمية بروتا

وفي هذا المجال يصبح عمل « بروتا » شديد الأهمية ، وتبرز هنا أيضا جهود الدكتورة سلمى الفائقة للعادة والتزامها الكبير وإنه لدليل كبير على أهمية هذا العمل وعلى الحاجة الماسة إليه أن نرى أن شخصية في مثل مكانتها العلمية ، وشاعرة ناقدة واسعة الشهرة قد اختارت أن تكرّس كل هذا الوقت والجهد إلى هذا العمل المهم .

وقد وضعت مؤسسة « بروتا » ، منذ البدء . أعلى المقاييس العلمية والفنية في الجمع والاختيار والترجمة والنشر لجميع أعمالها مكل واحد من هذه الأعمال يثبت مستوى جديداً من الاتقان والكمال إن الانتقاء للمجموعات يقوم به متخصصون بالأدب العربي في الوطن العربي وفي الغرب . أما الترجمات فيقوم بها مترجمون أكفاء

* د . روجر ألن استاذ الأدب العربي في جامعة بنسلفانيا

خبراء في الحقل المعين . ثم يقوم بها شعراء وأدباء معروفون من الناطقين بالانجليزية . أما الكتب بعد انجازها ، فإن أكبر دور النشر في انجلترا وامريكا تنشرها . وقد نالت هذه الكتب اعجابا عاما لدقتها وشمولها وذوقها الأدبي وكذلك لجاذبيتها للقارىء الغربي . ولا شك أن مجموعتي المختارات الرائدتين اللتين صدرتا لبروتا ،

واحدة للشعر العربي وقد نشرتها دار جامعة كولومبيا في نيويورك في ١٩٨٧ والثانية لأدب الجزيرة العربية ونشرتها « دار كيجان بول انترناشانال » في لندن ، إلى جانب أعمال لكتاب افراد قد أصبحت اصافات الى الأدب العربي المترجم ذات قيمة تفوق التقدير ، كما أشار إلى ذلك عدد كبير من النقاد الذين راجعوهما .

ترجمات رائدة

والان ، بعد صدور هذا العدد من الكتب الرائدة في شمولها ومستواها الفني (ستة كتب) وبعد أن تم اعداد عدد أكبر منها للنشر (عشرين كتابا بينها أربعة مختارة جديدة كبيرة وخمس مجموعات دات مؤلف واحد) بحيث لا تحتاج إلا إلى اللمسات النهائية حتى تدفع بها إلى المطبعة ، فقد حان الوقت لكي يوسع مجال المشروع ككل . إن عملية توسيع المشروع يجب أن لا تركز فقط على المزيد من التخطيط لعدد حديد من المجموعات والكتب الأدبية وتنفيذ هذا المخطط عمليا كما كان يحدث حتى الآن ، ولكن يجب أن تركز أيضا على ترسيخ هذا المشروع ضمن إطار ثقافي أكبر ، إطار يتيح للمجموعة المثقفة في الوطن العربي وأولئك الذين يساندونها أن يوسعوا علاقاتهم بزملائهم الذين يقدّرون الأدب العربي ويعملون على نشره في العالم .

نجاح عربي

لقد رأينا في سنة ١٩٨٨ نجاحا عربيا كبيرا على صعيد الثقافة العالمية إذ منحت جائزة نوبل للآداب لأديب عربي . هذا الحدث المهم قد أوجد اهتماما لم يسبق له مثيل في الغرب بالأدب العربي في جميع أطواره ، وقد جاء هذا الاهتمام من جميع الجهات ، ولم يقتصر على المجموعات الأكاديمية في الغرب . ولا شك أنه من الواضح أن اللحظة قد حانت لكي توسّع أعمال « بروتا » وتساند على أسس راسخة مستمرة حتى لا تضعف قوة هذا النشاط التصاعدي الجديد ، وقوة الحماسة التي رافقت الأحداث المثيرة التي حدثت في السنة الماضية ، بل على العكس يجب أن تقوى وتزداد . ولا بد أن نتذكر أنه في اكتوبر القادم ١٩٨٩ سوف تمنح الجائزة العالمية إلى أديب آخر في ركن آخر من العالم فتتوجّه الأنظار إليه

ولذا فإننا إذا ما أحلنا العمل على نقل الأدب العربي ووصعه بين أيدي الناس،فإن مرور الزمن دون انتاج جديد دي مستوى رفيع ككل كتب « بروتا »سوف يجعل الناس ينسون قيمة الثقافة العربية من حديد ويصرفون أنظارهم عنها إلى سواها إن العالم مليء بترجمات كتب الشعوب الأخرى وابداعاتها إلا أن ركن الأدب العربي المترجم ركن صغير وفقير

وأحب أن أضيف هنا بأن الأكاديمية السويدية التي تمنح جائزة نوبل مطّلعة حيدا على أعمال « بروتا » ، وقد كتب أحد أعصائها البارزين إلى الدكتورة سلمى الجيوسي رسالة في ٢/ اكتوبر ١٩٨٨ أي قبل اعلان الجائزة بعشرة أيام ، يعبر فيها عن تقديره الشخصي واعجابه بكتب المشروع لا سيما بالمجلدين الكبيرين ، ويؤكد الدور الفعال الذي تستطيع أن تلعبه هذه الكتب في تغيير رؤ ى الناس في الغرب للأدب العربي .

وان شهادة كهذه من مؤسسة ثقافية تمنح أعلى جائزة أدبية في العالم يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وأن يتنبه لها كل اولئك الذين هم قادرون على أن يساعدوا في تغيير وضع الثقافة العربية في العالم . □

لماذا هذا الملف ؟

تجاوزت ظاهرة شركات توظيف الأموال بمصر حدودها الجغرافية،وأصبحت حديثا في أكثر من قطر عربي ، وإن كانت غير مفهومة لكثيرين ، وغير واضحة التفاصيل . ولقد ظللنا نتساءل في « العربي » عن كيفية طرق هذه الظاهرة ، فنحن لسنا طرفا ، وجمهور قرائنا متنوع ومتعدد ، على امتداد خريطة الوطن العربي ، وسياسة المجلة وطبيعتها لا تجعلها تقف كثيرا أمام حدث يومي . وقد قررنا أن نقدم هذا الملف لعدد من الاعتبارات أولها حق القاريء في المعرفة والفهم ، وثانيها أن هذه الظاهرة قابلة للحدوث في أكثر من قطر عربي ، فمع توافر كتلة نقدية في السوق العربية ، ونتيجة لتعثر خطط التنمية ، تصبح قنوات الاستثمار محدودة أمام المواطن العربي ، بدءا من صغار المدخرين وانتهاء بكبارهم . ويصبح المناخ مهيئا لأي من المؤسسات والشركات المشابهة التي تلهث وراء نقود المواطن العربي ، تحت شعار « نحن نعمل لك » ، أو « نحن نوفر وقتك ونعطيك أرباحا » . وتتكرر القصة بشكل أو بآخر .

ففي مصر تأسست شركات توظيف الأموال ، لتلقي أموال المدخرين واستثمارها ، وبعد فترة اكتشف المودعون أنهم كانوا ضحايا لعمليات غير دقيقة وغير علمية وغير منظمة .

ونحن في هذا الملف لا نتوقف كثيرا أمام الوقائع ، بقدر ما نحاول أن نتعامل مع الظاهرة ونقربها للفهم ، ونبحث عن الجذور والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . وكان من دوافع قرارنا لإعداد هذا الملف محاولة إزالة بعض سوء الفهم الذي كثيرا ما يرتبط بأمثال هذه الظواهر ، فيحلو لبعض حينا أن يزج بالإسلام المجيد كغطاء وإطار لهذه الشركات ووقائعها ، ونحن في تقديرنا أن الإسلام بريء من كثير من تصرفات بعض المسلمين ، ويحلو لبعض آخر أن يزج بعائدات النفط في هذه الظاهرة ، وهي ليست طرفا في القضية ، فكل ما أسهم به النفط أنه فتح سوق عمل لعدد من المواطنين العرب ، وقدم لهم مقابلا نظير قوة عملهم ، أما كيف استثمر هؤلاء عائد عملهم ، وماذا فعلوا به ، فهذه قضية أخرى !

ونحن في « العربي » أكثر انحيازا لفكرة مفادها أن افتقاد الثقافة الاقتصادية ، وتعثر خطط التنمية ، وقلة فرص الاستثمار ، سبب كاف لحدوث أمثال هذه الظواهر وتعددها بأشكال مختلفة .

ولأننا منحازون للمواطن العربي وحقه في المعرفة ، لكي يتجنب عثرات كثيرة ، فإننا نقدم هذا الملف ، لعله يجيب عن بعض الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بهذه الظاهرة .

« العربي »

توظيف الأموال :

بقلم : نجاح عمر

ستظل عملية توظيف الأموال في مصر هي الحديث والحدث فترة طويلة قادمة

الحديث الذي شغل ومازال ، وسيظل يشغل الجميع ، مسئولين ومواطنين ، سواء كانوا من صغار المدخرين أو كبارهم ، أو أولئك الذين لم تخدعهم تلك الأرباح الوهمية التي تبين بعد أن وقعت الواقعة أنها جزء من « رأس المال »

وهي الحدث أيضا لا باعتباره مشكلة محلية خاصة بالاقتصاد المصري ، بل لكونها ظاهرة اقتصادية تمتد آثارها إلى خارج الحدود

ذلك أن الجزء الأكبر من الذين أودعوا مدخراتهم في شركات توظيف الأموال في بداياتها من المصريين العاملين في الخارج ، وبالتالي فإن جزءا من عوائد النفط قد اتجه بشكل أو بآخر إلى هذه الشركات . ووفقا لإحصائيات الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء المصري يقترب عدد العاملين بالخارج من ثلاثة ملايين مواطن ، ووفقا لتقرير للسفارة الأمريكية بالقاهرة عن الاقتصاد المصري:يقوم العاملون بالخارج بتحويل ثلاثة مليارات دولار سنويا إلى مصر .

هذه المليارات التي تجمعت لدى نوعيات بحكم تنوعها المهني : طبيب ، مهندس ، مدرس الخ ، غير ملمة بعمليات الاستثمار ، فاتجهت خلال بحثها عن قنوات استثمارية ذات عائد مجز ، إلى شركات توظيف الأموال التي التقطتها قبل أن تدخل أرض الوطن . ومن هنا ولدت هذه الشركات في أحضان تجارة العملة

لهذا كان توظيف الأموال حدثا اقتصاديا يصعب فصله عن أبعاده الأخرى السياسية والاجتماعية ، بل والدينية أيضا ، بمعنى أنها اعتمدت على ثلاثة عناصر محددة :

- الانفتاح الاقتصادي . غيبة الرقابة على النقد ، والقوانين التي صدرت لتشجيع القطاع الخاص والاستثمارات الأجنبية أتاحت حرية انتقال النقد الأجنبي إلى مصر من الخارج وكذلك العكس .

- التضخم : عندما يزيد معدل التضخم (وقد اقترب في مصر حسب الأرقام الرسمية من ٣٢٪) وعندما تفقد النقود قيمتها ، يصبح المواطنون في حاجة إلى نوع من التعويض ، والجري وراء أسعار أعلى للفائدة .

ـ الدّين . ارتدت هذه الشركات قناعا دينيا ، وراحت توظف الدّين لصالحها ، في الوقت الذي لم يصل فيه العلماء إلى قرار حاسم في قضية فوائد المصارف « البنوك » ، وما إذا كانت حلالا أم حراما . فاستغلت شركات توظيف الأموال اختلاف الأراء حول هذه القضية . وقد ساعد على ذلك أن الدولة لم تواجه الموقف ، بل انزلقت في نفس الاتجاه . وأنشأت لمصارفها الرسمية فروعا للمعاملات الإسلامية ، بما يوحي أن ما يتم خارج هذه الفروع « غير إسلامي » وفي بنك مصر وحده ـ وهو أهم وأكبر وأعرق مصرف وطني مصري ـ ثلاثة وعشرون فرعا إسلاميا . وفي الطريق ثمانية فروع تحت الانشاء . وظيفتها - كما يفهم من الوصف الرسمي لها - « أنها وحدات تزاول نشاطها وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، تحت إشراف لجنة شرعية ، مكونة من رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وعضوية أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية »

هذه الفروع تؤكد في كل ما تنشره من إعلانات ودعاية « أن أموال هذه الفروع منفصلة تماما عن أموال البنوك » تلك هي عناصر الظاهرة التي عرفت في مصر بشركات توظيف الأموال

والسؤال : ما هو الحجم الحقيقي لهذه الشركات ؟ وما قدرته في التأثير على الاقتصاد المصري ؟

متى بدأت ؟ وكيف نمت وتضخمت حتى تحولت من مجرد نشاط أفراد يتاجرون بالعملة إلى قوة اقتصادية ، وصفها رئيس الوزراء المصري في مذكرة خاصة بقانون تلقي الأموال « بأنها بصورتها الحالية تمثل خطورة على الاقتصاد القومي بوجه عام وسوق المال بوجه خاص . إذ لم يتسن في ظل عدم وجود تنظيم قانوني متكامل معرفة حقيقة أنشطتها وحجم المبالغ التي جمعتها ، ومجالات استثمارها ، وأعداد المودعين لديها وإجمالي ما يصرف النهم من عائدات » .

حجم الظاهرة

على الرغم من مضي عدة شهور على صدور قانون ينظم أعمال شركات توظيف الأموال فإن الصورة مازالت غير واضحة ، فكثير منها ، إن لم تكن كل هذه الشركات قد أودعت أموالها خارج مصر ، بعيدا عن رقابة القانون والدولة والبنك المركزي

إلا أن هناك بعض المؤشرات ، منها ما أعلنت عنه هيئة سوق المال ، ومنها ما أعلن عنه رئيس مجلس الوزراء في مجلس الشعب ، وما ذكرته الأجهزة الرقابية والبنك المركزي في تقارير تشير إلى :

* أن عدد هذه الشركات بلغ ١٠٤ شركات ، قدمت منها خمس وسبعون شركة أوراقها إلى الدولة
* أن أصحاب ٣٢ شركة قد أبدوا رغبتهم في توفيق أوضاعهم وفقا لقانون تلقي الأموال الأخير
* أن عدد الشركات التي رفض أصحابها التوفيق وصل إلى ٢٥ شركة
* أن الذين قدموا مراكزهم المالية ٢٦ شركة .
* أن محاسبي أربع شركات قد تقدموا بتقارير تفيد بأنهم لم يتلقوا أي بيانات عن تلقي الأموال
* أن عدد الشركات التي لم تتقدم أي أوراق قد وصل إلى ٤٣ شركة ، منها ٣٣ شركة أبلغ عنها المدعي العام الاشتراكي
* أنه قد تم إحالة ١٧ شركة إلى محكمة القيم ، وفرضت عليها الحراسة
* أن أربع شركات قد أحيلت إلى النيابة العامة
* أن التحقيق قد تم مع ١٢ شركة
* أن أصحاب أربع شركات موجودون خارج مصر ، بينما يوجد صاحب شركة واحد محبوس على ذمة التحقيق ، وخمسة مازال المحققون يدرسون أوضاعهم ، وذلك كله حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩ .

وبالتالي ، وحتى هذا التاريخ ، لم تكن الصورة قد اكتملت . ويتوقع المراقبون أن يظل هذا الوضع عدة شهور قادمة ، ذلك أن الدولة لا تملك أرقاما محددة عن حجم الأموال المهربة إلى الخارج ، ولا عدد المودعين ، ولا حجم الودائع ، ذلك أن معظم الشركات ـ إن لم تكن كلها ـ تزاول نشاطها خارج مصر ، ابتداء من المضاربة في بورصة لندن وباريس ، أو إنشاء المصانع في قبرص ، والمصارف (البنوك) في تركيا وجزر الباهاما ، مما اضطر الحكومة المصرية إلى تشكيل لجنة على مستوى مجلس الوزراء ، تضم مختلف الأجهزة الخاصة ، ووزارة

الخارجية والداخلية والاقتصاد وهيئة سوق المال . هذه اللجنة وظيفتها الوصول إلى معلومات محددة عن حجم الأموال المهربة ، وذلك بالاتصال بالسفارات في الخارج ، وسفراء الدول في القاهرة .

في الوقت نفسه وجهت نداء إلى المواطنين بالتقدم إلى هيئة سوق المال ، وإخطارها عن حجم مدخراتهم وأوضاعهم المالية في هذه الشركات .

ونظرا لعدم وجود دفاتر أو سجلات تفيد ذلك فقد تم تشكيل ٨٢ لجنة جرد من رجال النيابة ومباحث الأموال العامة وأمن الدولة ، للقيام بعملية الحصر ، والتحفظ على ممتلكات شركة واحدة ، هي شركة الريان . وقد تلقت دائرة جرائم الأموال بلاغات من المواطنين عن ممتلكات لم يكن قد تم حصرها ، وصلت في يوم واحد إلى (١٠٠) مليون جنيه . بينما تم التحفظ في يوم آخر على عشرة ملايين جنيه ، لم يكن قد شملها الحصر .

ووفق ما أعلنه المحققون في قضايا الريان ، حتى يناير ١٩٨٩ ، فإن حجم الودائع في هذه الشركة قد وصل إلى ١٧٥٠ مليون جنيه مصري ، بينما أكثر من (٤٠٠) مليون دولار مودعة بالخارج .

توظيف الأموال والمصارف الوطنية

يردد بعض أن مدخرات المصريين قد هربت من المصارف الوطنية إلى شركات توظيف الأموال .

ويرى آخرون أن توظيف الأموال قد استمد وجوده من فشل المصارف الرسمية للدولة . صحيح أن تحويلات المصريين في الخارج قد انخفضت خلال الفترة الذهبية لنشاط توظيف الأموال ، لكن الصحيح أيضا أن ما توافر للدولة من أرقام يشير إلى أن حجم ودائع شركات توظيف الأموال لا يمثل إلا ١٤٪ من حجم ودائع المصارف الوطنية .

وكذلك تشير المراكز المالية التي أعلنتها بعض الشركات (كالسعد والشريف) ، فشركة « السعد » على سبيل المثال ، وهي أكبر شركات توظيف الأموال ، تمارس نشاطها من خلال أربع شركات تضمها مجموعة واحدة في مجالات توظيف الأموال والتجارة ، والاستثمار الصناعي ، والاستثمار العقاري .

ورأس المال الاجمالي في ١٠/٦/١٩٨٨ ـ الفترة نفسها التي أعلنت عنها البنوك الوطنية مراكزها المالية ـ وصل إلى ٦,٥ ملايين جنيه !!

بينما بلغت الايداعات ، أو ما أطلق عليه المحاسبون في المركز المالي « استثمارات المودعين » وصلت إلى ٤٠٠ مليون جنيه ، وبالتحديد ٣٩٣,٥ مليون جنيه ، يضاف لذلك ٣٦ مليون مديونية مستحقة للغير .

يقابل هذا أصول ثابتة مملوكة للشركة ، قيمتها ٤٢,٢ مليون جنيه ، منها أربعون مليون جنيه قيمة أراض ومبان وعقارات ، أما بند الآلات والمعدات الصناعية فلا يزيد عن ثلث مليون ، لا أكثر ، أي ربع ماهو مملوك من أثاث !!!

بعد ذلك تأتي نوعيات الاستثمار ، فيكشف ما أعلن عنه من خلال البيانات التي نشرتها الشركة أنه :

* لا يحتل استثمارا ثابتا ، ولا تقابله أصول مملوكة للاستثمار ، لكنه يأخذ شكلا آخر يتلخص في :

٥٢,٧ مليون جنيه ، مشاركات طويلة الأجل « توظيف الأموال » .

٢٦ مليون جنيه ، مشروعات سكنية .

٤٩ مليون جنيه ، مخزون سلعي .

٣٦,٩ مليون جنيه ، لدى العملاء

١٤ مليون جنيه ، مدينو مشاركات .

١١٩ مليون جنيه ، أرصدة مدينة أخرى .

٤٨,١ مليون جنيه ، سلف بضمان استثمارات المودعين .

تلك خريطة المركز المالي لواحدة من كبرى شركات توظيف الأموال . فإذا ناقشنا ما تقوم به هذه الشركة العملاقة ـ كما كانت توصف دائما ـ من نشاط ، موزع على شركاتها الفرعية ، بافتراض أن الأصول المملوكة لكل شركة فرعية تعبر عن الأهمية النسبية لنشاطها ، سوف نجد أن كبرى الشركات الفرعية هي (السعد للتجارة والتنمية) (٢٨٥,٢) مليون جنيه كأصول مملوكة . تليها (السعد للاستثمار العقاري) (٦٧,٧) مليون جنيه ، ثم (السعد للاستثمار الصناعي) (٦١,٣) مليون جنيه .

وأخيرا تأتي الشركة الرابعة (السعد للاستثمار) ـ توظيف الأموال ـ لنجد أن أصولها لا تزيد عن

٤,٥١) ملايين جنيه ، وهو ما يشير إلى أن ودائع العملاء كانت توجه أولا بأول إلى هذه الأنشطة ، وهي بالترتيب حسب الأهمية النسبية : التجارة أولا ، والعقارات ثانيا ، ثم الصناعة أخيراً .

ويبدو أن النشاط الصناعي لم يبدأ بشكل جدي ، إذ تشير الميزانية إلى أن (٦١,٣) مليون جنيه أصول مملوكة لشركة (السعد للاستثمار الصناعي) ، ليس من بينها أي أراضٍ أو مبانٍ أو آلات ، إنما مشاركات واستثمارات وسلف للغير ومدينو مشاركات ونقد بالمصارف .

أما الشركة الثانية (الشريف) فلم يزد حجم ودائعها ، وفق ما أعلنه مركزها المالي ، عن ٩٣٨,٦ مليون جنيه .

وبالمقارنة بين حجم الودائع في هذه الشركات والمصارف الرسمية نجد ودائع ثلاثة مصارف فقط ، بنك مصر ، والأهلي ، والقاهرة في الفترة نفسها (يونيو ١٩٨٨) ، تصل إلى ٢٥ مليار جنيه ، موزعة كما يلي :

* (بنك مصر) عشرة مليارات وأربعمائة وستين جنيها ، يعمل منها مليار في خمسين مشروعا إنتاجيا ، فضلا عن الأنشطة الأخرى .
* (البنك الأهلي) (٩,٧) مليارات جنيه .
* (بنك القاهرة) (٥,٣) مليارات جنيه .

إذن ، إذا كانت هذه هي الصورة فعلام هذه

الضجة ؟ ولم كل هذا الانزعاج والخوف على الاقتصاد المصري ؟!

الواقع - على ما يبدو من صغر الحجم الرقمي لظاهرة توظيف الأموال مقارنة بالمصارف الوطنية - أن الخطورة تنبع من الحجم النسبي في أنشطة بعينها ، مما يجعلها قوى ضاغطة ومتحكمة بشكل أو بآخر في السوق المصري ، ومؤثرة على اقتصاده .

فهي أولا : خلقت توجهات غير مشروعة ، لمدخرات العاملين بالخارج ، مما حرم الاقتصاد المصري مصدرا من أهم أربعة مصادر أساسية للدخل الوطني : قناة السويس ، النفط ، السياحة ، تحويلات المصريين بالخارج . ففضلا عن الاتجار بالعملة خلقت شركات توظيف الأموال مناخا ، هيأ للمدخرين أن بإمكانهم الحصول على أعلى نسبة ربح (٢٤٪) سنويا بالنسبة للمصارف الوطنية .

ثانيا : احتكارها لأنشطة بعينها ، مما يجعلها بشكل أو بآخر متحكمة في الأسعار ، حاكمة لسوق سوداء في سلع أساسية ومهمة . على سبيل المثال .

* ما حدث بالنسبة لسيارة « نصر » ، حيث استطاعت أن تستولي على إنتاج المصنع ، وإعادة طرحه في السوق بسعر جديد ، أعلى من السعر الحقيقي .

* احتكار سوق الذرة الصفراء التي تدخل في صناعة علف الدواجن ، مما أدى إلى رفع الأسعار ، وأغلق عدداً كبيراً من مصانع الأعلاف ، وهدد صناعة الدواجن نفسها بالانهيار .

* المضاربة بالذهب ، فقد تلقت هذه الشركات خسارة حجمها ٢٠٠ مليون دولار في المضاربة على الذهب (مليون أوقية) والعملات الأجنبية (٧٥ مليون مارك ألماني) .

أمثلة كثيرة ومتعددة تكشف عن خطورة هذه الشركات ، وخاصة إذا أضفنا للوضع الاقتصادي ما قيل وما تردد حول مساعدة هذه الشركات للتيارات المتطرفة ، مما يثير السؤال المهم : ماذا فعلت الدولة أمام كل هذا ؟

المواجهة

الواقع أن هذه الأنشطة لم تكن بعيدة عن عين الدولة ، فقد كانت الأجهزة الرقابية تتابع وتسجل

المسألة ، وعلى الأخص يجب ويبدون حساسية - عند البعض - أن نفرق بين الاسلام العظيم وبين ما « قد » يرتكبه بعض المسلمين من أخطاء أو انحرافات . فالشركات التي تجمع أموال صغار المدخرين المسلمين وغير المسلمين ، وتوظفها في مشروعات اقتصادية لصالح أفراد المجتمع ، وفقاً للأولويات الانمائية المعتمدة من قبل المجتمع ، وفقاً للقوانين السارية ، وفي حدود الضوابط الشرعية ، فإننا نؤيدها ونباركها وندعو إلى تشجيعها . أما الشركات التي تجمع هذه الأموال لتتاجر بها في العملات الأجنبية ، أو تضارب - أي تقامر - في المعادن النفيسة أو في الأوراق المالية في السوق الدولي ، أو حتى توظفها في الداخل في مشروعات ذات أولويات انمائية منخفضة ، أو تتاجر - بصورة احتكارية - في سلع أساسية أو ضرورية ، فنحن أول من يرفض سلوكها ، ويدعو إلى محاسبتها ، وتصحيح مسارها وترشيدها إن أمكن ، حفاظاً على أموال المودعين ، وعلى مصالح الاقتصاد والمجتمع في الحاضر والمستقبل .

بعض التعريفات :

بعد هذه الملاحظات الضرورية نتناول بشيء من الاختصار والتبسيط بعض التعريفات التي تنبثق من تأكيد « حقيقة » أن الإسلام كدين ونظام حياة « كامل » قدم « اقتصاداً إسلامياً » على مستوى التنظير ، و « نظاماً اقتصادياً إسلامياً » شاملاً ومفصلاً على مستوى التطبيق ، و « منهجاً إسلامياً في التنمية الاقتصادية » ، على مستوى حركة الحياة لتحقيق « الإعمار » الجاد المستمر للأرض .

فمن منطلق استخلاف الله ، سبحانه وتعالى ، للانسان في الأرض ، جاء الإسلام ، بكل قواعده العامة وتفصيلاته الفرعية ، ليحض على تثمير المال وتنميته ، وفقاً لصيغ الاستثمار الاسلامي التي تقوم على الاشتراك الفعلي للمال في النشاط الاقتصادي ، وتحمله « كامل » المخاطرة كأصل من أصول الاقتصاد الإسلامي . ولضمان تحقيق هذا « الإعمار » المنشود جاء الإسلام في الوقت نفسه ليحارب الاستغلال والمستغلين ، وكل صور « أكل أموال الناس بالباطل » ، كركن من أركان نظامه الاقتصادي .

ومن هنا كان التحريم الكامل والقاطع بنص الكتاب والسنة لكبيرة « الربا » . والربا ، لغة هو الزيادة ، واصطلاحاً هو الزيادة بغير عوض ، أي « استغلال » .

ولقد أجمع جمهور « الفقهاء » ، قدامى ومحدثين ، على تحريم الربا الجاهلي أو القرآني أو الجليّ أو ربا الدين أو القرض ، وهو : الزيادة مقابل الأجل .

كما أفتى بعض « الفقهاء » المحدثين على اعتبار « الفوائد المصرفية » المدينة - أي التي يدفعها المصرف التقليدي لعملائه المودعين - والدائنة أي التي يتقاضاها هذا المصرف من عملائه المستخدمين لموارده المالية ، سواء للأغراض الاستهلاكية أو الانتاجية - من هذا الربا المحرم . ويرجع ذلك إلى حقيقة أن علاقة المصرف بعملائه في الحالتين ، أي في جانبي الموارد والاستخدامات ، يحكمها عقد « القرض » ، حيث يكون المقترض « ضامناً » لأصل القرض ، وملتزما بدفع فائدة ثابتة ومحددة مسبقا للقرض . والإسلام لايعرف قرضا سوى القرض « الحسن » . ولا يحل بالتالي للمقرض أي عائد على أساس المبدأ الإسلامي القائل : « الخراج بالضمان » ، أي العائد لا يحل إلا نتيجة تحمل كامل المخاطرة . فالمال ، في الإسلام لا يلد ، في حد ذاته ، مالاً . ومن ثم لا ينمو المال ، أي لا يكون غانماً ، إلا إذا كان غارماً ، بالاشتراك فعلاً في النشاط الاقتصادي على أساس المشاركة في الربح والخسارة .

وهذا ينقلنا إلى صيغ الاستثمار الاسلامي

« الحقيقي » وليس « المالي » في صورة عقود المشاركات القائمة على المخاطرة مشاركة في الربح والخسارة ، ومنها عقد المضاربة الشرعي ، الذي يختلف جذرياً عن المضاربة الوضعية (المقامرة) ، القائمة على توقعات أسعار السلع والأصول المالية . بينما عقد « المضاربة » الشرعي يمثل علاقة مشاركة بين طرفين : رب المال بالمال ، والمضارب أو العامل في المال بالعمل . وشرط صحة هذا العقد أن يتفق الطرفان مسبقاً على توزيع « نسبي » لما قد يتحقق من أرباح بينهما . أما إذا وقعت خسارة فيتحملها بالكامل رب المال . وهذا هو شق المخاطرة الذي يحلل لرب المال نصيبه في الربح عندما يتحقق . ويكفى المضارب أنه خسر جهده . وهذا هو شق المخاطرة الذي يبرر للمضارب حقه في الربح عند التحقيق .

ويعد عقد المضاربة وصيغ الاستثمار الاسلامي الأخرى من مشاركات ومرابحات ومتاجرات . . الخ ، الصيغ الاستثمارية التي كانت تحكم نشاط « بعض » شركات توظيف الأموال ، أو هكذا قال المسئولون عن هذه الشركات ، أو أشارت إلى ذلك الوثائق الصادرة عنهم ، أو الإعلانات المنفذة لحسابهم وعن نشاطهم .

وفي نهاية نقطة التعريفات أود أن أشدد على حقيقة أن « الثقة » هي الأساس في مجال المال ، وأن الفن المصرفي الحديث يقوم على احتفاظ « المصرف » - التجاري - بجزء ضئيل « نسبياً » من إجمالي ودائع عملائه في صورة سائلة ، لكي يستطيع أن يقابل اعتبار الثقة بالاستجابة من خلال الخبرة - أو القانون - في حدود هذا الجزء السائل ، وان تيارات السحب يقابلها عادة تيارات إيداع جديدة . ولا شك أن هذه التحديدات التعريفية سوف تساعدنا على تفهم أدق ، وتشخيص أعمق ، لظاهرة شركات توظيف الأموال ، مما يساعدنا بالتالي ، على اقتراح بعض الاجراءات العملية لمالجة بعض آثارها السلبية .

« السيناريو » المقترح للتحليل :

بالنسبة لهذه النقطة هناك « سيناريو » يقول : إن شركات توظيف الأموال نبتت في تربة تجارة العملة ، ثم نمت كجزء من الصحوة الإسلامية ، ودعمت بدورها التيار الإسلامي ، ممثلة الجناح المادي له ، وكان موقف الإدارة العنيف منها يعود

أساساً لهذا السبب . وهذا « السيناريو » ، وما على شاكلته ، مرفوض ، جملة وتفصيلاً ، ولا يستحق التعليق عليه .

وفي ظل غياب كثير من البيانات الأساسية ، وفي ضوء ملاحظاتنا السابقة ، فإننا نعتقد بأن الأمر يعود إلى أواخر النصف الأول من السبعينيات ، حين تعرض الاقتصاد المصري لحالة من « الثراء النقدي » غير المسبوق ، بفعل أربعة مصادر ذات طبيعة « مؤقتة » ، وهي عائدات العاملين بالخارج ، وعائدات النفط ، وعائدات قناة السويس ، ودخل السياحة . ولم تستطع قنوات الادخار والاستثمار « التقليدية » أن تجتذبها وتحولها إلى مشروعات إنمائية ، تزيد من القدرة الانتاجية للاقتصاد المصري ، ومن ثم ، بدأ يتحول هذا الغنى النقدي إلى طفرة في الاستهلاك ، وعلى الأخص الترفي منه ، مما أدى إلى ارتداد أو انتكاس هيكلي في الاقتصاد ، لصالح قطاعات الخدمات ، وعلى حساب القطاعات السلعية . وهذا هو ما نطلق عليه مصطلح « المرض الهولندي » ، نسبة إلى التجربة الهولندية ، التي رصد فيها هذا المرض الاقتصادي لأول مرة .

وفي هذا الجو نشأت شركات توظيف الأموال لكي تستقطب جزءاً من هذه الأموال الباحثة عن النماء السريع والأمان النسبي والخدمة الجيدة ، بعيداً عن الجمود النسبي للأوعية التقليدية وبخاصة الرسمية ، أي المملوكة للدولة . ولقد ساعد على بناء الثقة في هذه الشركات من قبل عملائها المتزايدين أن بعضها بدأ فعلاً بتجارة العملة ، وأن الشركات في معظمها كانت « تفي بما تعد » ، في مجال الودائع ، بل وفي مجال الخدمات « الشخصية » للمودعين .

وانتشرت هذه الشركات ونمت نمواً سريعاً غير مسبوق في سوق النقد والمال ، بفعل عدة عوامل ، لعل من أهمها : العائد « المرتفع » وانتظام العائد ودوريته ، وحرية السحب والايداع عند الطلب ، ونظام « الاستيراد بدون تحويل عملة » ، وضريبة « التركات » التي تجعل الحكومة وريثاً غير شرعي ، يستحوذ على حوالي ثلثي إجمالي التركة ، وحملة دعاية وإعلان وإعلام واسعة ومنظمة ، وعدم وجود قنوات ادخار واستثمار حكومية ذات عائد مجز في بعض الأحيان .

وبعد هذه النشأة « القوية » ، وفي ظل الصمت الحكومي المطبق ، تعرضت هذه الشركات ، وهي بصدد تنفيذ طموحاتها - مع عجز إداري وتنظيمي واضح ومتزايد - لما أسميه بحالة « المرض المصري » الذي نشترك في معاناته كمرض اقتصادي واجتماعي مع معظم الدول المتخلفة . ويمتد هذا المرض ليشمل عدداً من السلبيات ابتداء من سلبيات « البيروقراطية » ومعوقات الاستثمار ، ومروراً بالذمم الخربة والنفوس المريضة والشخصيات الضعيفة ، وانتهاء بالعمولات والرشاوى والاختلاسات والسرقات . فكان انحرافاً أو مزيداً من انحراف بعض هذه الشركات ، داخلياً وخارجياً .

وتمثل الانحراف الداخلي في شراء الذمم ، لشراء غير شرعي لمختلف الخدمات ، وفي توظيف بعض موظفي الادارة العليا ، وبالتالي تسخير بعض أجهزة الدولة لمثل هذه الخدمات ، وإضافة وهمية لمزيد من الثقة في هذه الشركات ، وفي « احتكار » لبعض السلع الأساسية الاستهلاكية والانتاجية ، ومن ثم تحكم في السعر ، واستغلال منظم لظروف السوق ، وأخيراً ، في توظيف الأموال في مشروعات ثانوية ذات أولويات إنمائية شديدة الانخفاض . وتمثل الانحراف الخارجي في تهريب مئات - إن لم يكن آلاف - الملايين من العملات الصعبة التي يعد اقتصادنا في أمس الحاجة إليها ، للمضاربة في العملات والمعادن النفيسة والأوراق المالية ، بل ولإنشاء بعض المشروعات ، وشراء بعض العقارات ، أو حتى لمجرد إيداعها في الخارج .

وأخيراً تنبهت الحكومة ـ لحقوقها المشروعة ـ وبدأت تعلن قرابة عامين ، وبصورة منتظمة تكاد تكون يومية ، بأنها سوف تصدر قانونا ينظم نشاط هذه الشركات ، ويضمن حقوق المودعين ويحافظ عليها. وفي النهاية ، صدر القانون رقم ١٤٦ لسنة ١٩٨٨ الذي صاحب الإعداد له ، وولادته « المفاجئة » ، وحتى صدور لائحته التنفيذية ، حملة إعلامية شاملة ـ على عكس حملة الدعاية للشركات ـ من أجهزة الإعلام ، وخاصة المقروءة ، لتوضيح كل شيء يرتبط بهذه الشركات ، ومن ثم حدث الانهيار الكامل ، ووصلنا ، كنتيجة طبيعية ، إلى حالة الكارثة

بعض النتائج الأولية :

باختصار شديد ، وبعد حدوث الكارثة ، يتعين أن نعمل جميعا على تحجيم آثارها السلبية ، والتخفيف بقدر الإمكان من المعاناة الحقيقية التي سببتها للكثيرين ، وتقليص الخسائر ـ المباشرة وغير المباشرة ـ الناجمة عنها على الأفراد والاقتصاد والمجتمع إلى أقل حد ممكن . ويتم ذلك بعدد من الإجراءات المحددة ، لعل منها في تصورنا ما يلي :

الإسراع بعمليات تقويم المراكز المالية للشركات ، وعمليات التوفيق والتصفية ، حتى يطمئن أصحاب الودائع على حقوقهم أو بعض حقوقهم ، وأن يعطى لأصحاب الودائع ، وخاصة صغارهم ، أولوية أولى عند التصفية وإجراء قسمة الغرماء .

الضرب بيد من حديد ، وبكل حزم وحسم ، على من تربح بغير حق من أي من هذه الشركات ، وعلى الأخص من أدرج أسماؤهم فيما يسمى بكشوف « البركة » ، ولعلها حملة شاملة مدروسة وواعية على الفساد والإفساد في كل الوحدات الانتاجية ، عامة ومشتركة وخاصة ، بل وفي كل الأجهزة المنظمة لحياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمحلية .

إعادة النظر في قانون تلقي الأموال ، والعمل على تعديله بما يتفق وتشجيع الوحدات الجادة من هذه الظاهرة ـ إن وجدت ـ على أساس أنها في واقع الأمر ، مصرف « استثمار وأعمال » من نوع جديد ، يعتمد أساسا على موارد قصيرة الأجل ، ويتعامل وفقا لنظام المشاركة في الربح والخسارة. ومن ثم يسن لهذه الوحدات ـ وكذلك المصارف الإسلامية ـ قانون خاص ، يتفق وطبيعتها على أنها مؤسسات بنكية لا تتعامل في الديون أو القروض أو الائتمان ، وتخضع لإشراف البنك المركزي ورقابته كوحدات مصرفية ذات طبيعة خاصة .

وأخيراً إجراء طويل الأجل ، يتمثل في تكوين مجموعة أو مجموعات عمل من كافة الأطراف ذات العلاقة ، ومن المهتمين بالظاهرة ، لإعداد دراسة تفصيلية متأنية عن هذه الظاهرة ، من حيث ظروف النشأة وعوامل التطور وأسباب الانهيار ، ومن حيث الدروس المستفادة ، ووسائل العلاج لسلبيات المحنة ، وإمكانات الخروج من المأزق الحالي ، لإعادة الثقة في مناخ الاستثمار ، ولإعادة الثقة في الأوعية الادخارية والاستثمارية المتاحة والمستحدثة ، ولإعادة الثقة في الاقتصاد المصري في النهاية ☐

قل الثالثة : قرع رجل الباب على الحسن البصري وقال : « يا أبو سعيد ! فلم يجبه ، فقال يا أبي سعيد ! فقال : قل الثالثة ـ أي يا أبا سعيد ـ وادخل »

شركات توظيف الأموال والجاهلية الاقتصادية الجديدة

بقلم : الدكتور محمود عبدالفضيل

مازالت قضية شركات توظيف الأموال ومضاعفاتها أحد شواغل المجتمع المصري والعربي عموما ، في عصر انتشرت فيه « المقامرات المالية » .

ولعل ظهور شركات توظيف الأموال في مصر ، ونموها السرطاني خلال الثمانينيات ، يمثل أهم الظواهر الاقتصادية والمالية والاجتماعية التي ألمت بالمجتمع المصري خلال السنوات الأخيرة ، بل لعلها عكست العديد من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها المجتمع المصري .

والسؤال المهم الذي يلح على أذهان المجتمع ، علماء الاجتماع والاقتصاد ، وراسمي السياسات ، والمواطنين العاديين هو : كيف نجحت شركات توظيف الأموال في أن تتغلغل في بنية الاقتصاد المصري إلى تلك الدرجة المخيفة ، في ظل ممارسات أقرب ما تكون إلى أساليب « الشعوذة المالية » . هذا وقد مست أزمة « شركات توظيف الأموال » كل بيت ، وزلزلت جنبات المجتمع المصري .

ولكن دعونا نتأمل الآن في نشأة الظاهرة وتطورها وتفاعلاتها وتشابكها داخل المجتمع المصري ، بهدف استخلاص الدلالات التاريخية والاجتماعية للحدث . إذ أن البعد الاقتصادي لظاهرة شركات توظيف الأموال لا يمثل سوى البعد الظاهر (أو المرئي) لجبل الثلج ، بينما الأبعاد الخفية تكمن في جبهة الاجتماع والسياسة « وسيكولوجية » الجماهير .

البداية كانت « تجارة العملة »

لم يكن لشركات توظيف الأموال أن تقوم لها قائمة لو لم تكن هناك تلك القوافل من المهاجرين إلى أقطار الخليج العربي وغيرها من البلدان ، ووجود حجم هائل من الأموال المطلوب إرسالها إلى بلدان المنشأ . ففي ظل اضطراب أحوال سوق الصرف الأجنبي وقواعده في مصر ، نشط تجار العملة بذكاء شديد ، ليلعبوا دور « الوسيط » بين العاملين في الخارج وبين ذويهم ووكلاء استثمارهم في الداخل ، وبالتالي تمت السيطرة على الجانب الأعظم من مدخرات المصريين في الخارج التي قلما صبت في قنوات الجهاز المصرفي الرسمي .

ولقد انطوى نشاط « تجار العملة » - منذ البداية أي منذ منتصف السبعينيات - على أنشطة ضمنية وفرعية « لتوظيف الأموال » ، ففي أحوال كثيرة ، كانت عمليات تحويل العملة وتغييرها تتم لأجل ، (أي تتم تسوية الصفقة وإنجازها بعد أجل معين متفق عليه)، ومعنى

ذلك أن الأموال والتحويلات كان يجري توظيفها بواسطة «تجار العملة» لأجل معين ، وأن سعر الصرف « المتميز » الذي كانت تتم على أساسه التعاملات ، إنما كان يمثل خليطا من « سعر الصرف » و« سعر الفائدة » ، (أي عائد الاتجار في تلك الأموال) . ولهذا لم يكن مستغربا أن يتحول بعض كبار تجار العملة وصبيتهم من « تجارة العملة » ـ بمعناها الصرف ـ إلى نشاط « توظيف الأموال » ، وتجميع مدخرات المصريين في الداخل والخارج ، والقيام بعمليات الوساطة المالية والاستثمار المباشر والمضاربة في الأسواق المالية الخارجية .

وهكذا تطورت أنشطة « تجارة العملة » تدريجيا ، لكي تصبح أنشطة « توظيف أموال » ، وغدت شركات توظيف الأموال آلية جديدة ، تلعب دور الوسيط « غير الرسمي » بين أسواق المال والصرف الأجنبي في الخليج ومصر ، من ناحية ، والسوق العالمية المالية من ناحية أخرى . وأصبحت عمليات الوساطة وتوظيف الأموال تقوم على مخاطبة العملاء والمدخرين المصريين في الداخل والخارج ، من فوق رؤوس الأجهزة والسلطات النقدية والمالية المختصة .

ودائع شركات توظيف الأموال :

وقد أحدث ظهور شركات توظيف الأموال في السوق المصرية في بداية الثمانينيات ارتباكا كبيرا في الحياة الاقتصادية والمالية المصرية ، إذ تم سحب الأموال والودائع من المصارف والأوعية الادخارية الأخرى الخاصة بالقطاع العائلي وتحويلها ، ليتم ايداعها لدى شركات توظيف الأموال ، جريا وراء العائد الأعلى الذي كان يتجاوز ٢٢٪ سنويا ، ويتم دفعه بشكل شهري منتظم . حتى لقد أصبح هذا العائد بمثابة « الدخل المرتب شهريا » ، له حكم الدخل الدوري ، لا سيما لدى صغار المدخرين من موظفين وحرفيين وأرباب معاشات ومهنيين

وتشير البيانات الأولية المتاحة إلى أن الجمهرة الكبرى من المودعين هي من صغار المدخرين الذين تقل ودائعهم عن فئة الخمسة آلاف جنيه . ولدى هيئة سوق المال الآن أكثر من ٥٠ ألف استمارة مقدمة من أصحاب الودائع ، معظمهم مودعون لدى شركة « الريان » ، وتقدر قيمة هذه الودائع وحدها بحوالي ٨٠٠ مليون جنيه ، كذلك تم حصر نحو ١٠٦ شركات ، تقوم بنشاط تلقي الأموال وتوظيفها دون ترخيص بذلك ، بما في ذلك قبول الودائع بالنقد الأجنبي .

وفي تقديرنا ـ وفقا لعدة أدلة وشواهد ـ أن حجم الودائع لدى شركات توظيف الأموال في الداخل والخارج (وبالعملات المحلية والأجنبية) لم تتجاوز ٨ مليارات من الجنيهات المصرية ، على الرغم من بعض التقديرات التي ضخمت حجم تلك الأموال والودائع . لقد دأبت بعض الأقلام المناصرة لشركات توظيف الأموال في الصحافة المصرية على التهويل من شأن حجم الايداعات لدى شركات توظيف الأموال ، بل لقد جاء في أكثر من مقال وتصريح أن حجم تلك الإيداعات يصل إلى ثلاثة عشر مليار جنيه ، بهدف التضخيم من حجم الأعداد التي تتعيش على ريع تلك الأموال ، كجزء من حملة الترهيب للحكومة والمجتمع ، لكي لا يتم الاقتراب من تلك الشركات ومناطقها المحرمة .

وإذا أخذنا بتقدير متحفظ لحجم الايداعات والتوظيفات لدى تلك الشركات في حدود خمسة مليارات جنيه ، فإن هذا الرقم يظل رقما كبيرا بكل المعايير ، لأنه يمثل تسرب جانب مهم من مدخرات القطاع العائلي من الأوعية الادخارية « الرسمية » إلى أوعية ادخارية ومسارات جانبية لاضابط ولا رابط لها سوى أهواء أصحاب تلك الشركات . وعلى الصعيد الاجتماعي ، أدى تنامي نشاط شركات توظيف الأموال إلى مزيد من

« التربيع » للمجتمع المصري ، أي تزايد أعداد الأفراد الذين يتعيشون على ريع الإيداعات لدى تلك الشركات ، دون جهد أو عطاء .

وقد عبر محمد بك المويلحي ببراعة عن تلك الظاهرة « الريعية » في حديث عيسى بن هشام ، إذ جاء على لسان السمسار ما يلي :

« فإنك لا تدفع هنا بثمن أرض ، ولا تنفق على حرث ، ولا تؤدي ضريبة ، ولا تبدل ماء وجهك لري الأطيان ، ولا تحني ظهرك لأصاغر الحكام ، وما دخلت في قضية ، ولا وقعت في منازعة ، ولا تخوفت شيئا من الافات ، سماوية كانت أو أرضية ، بل هو ربح يأتيك عفوا صفوا ، ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة بيمينك في التوقيع »

وكأنه بذلك يتحدث عن صكوك المصاربة وعقود المرابحة السائدة بين المودعين وشركات توظيف الأموال . وهكذا فإن روح المضاربه والكسب السريع دون جهد أخذت تطغى تدريجيا على مجريات الحياة الاقتصادية العربية ، لتزاحم أنشطة الزراعة والصناعة والتجارة وتحط من شأنها وهي عماد العمران والاقتصاد المتين الأركان .

فئات وطبقات المودعين :

كانت معدلات العائد المرتفع التي تمنحها تلك الشركات للمودعين « بحد أدنى » ٢٤٪ في السنة أو ٢٪ في الشهر ، هي الحافز الأكبر لتدافع مئات الألوف من المودعين لدى تلك الشركات ، وكان ذلك الرقم السحري (٢٤٪ في السنة) الذي اتخذه أصحاب شركات توظيف الأموال أساسا لربط العائد السنوي ـ دون الاستناد إلى نتائج نشاط حقيقي أو أعمال حقيقية ـ هو رقم يقترب كثيرا من معدل التضخم السنوي السائد في الاقتصاد المصري ، وبالتالي يساعد على حماية المدخرات الفردية من التآكل بفعل نيران التضخم . وليس هناك شك أن وراء تحديد هذا الرقم للعائد خبراء ، على دراية بفنون الاعلان واللعب على « سيكولوجية » المدخرين ، ولا سيما فئات صغار المدخرين .

وهنا يقتضي التحليل العلمي ، التفرقة والتمييز بين ثلاث فئات من المودعين لدى شركات توظيف الأموال في مصر :

أ) الفئة الأولى .

وهي فئة صغار المودعين من أرباب المعاشات ، والأرامل ، وصغار المدخرين والعاملين في الخارج من ذوي المهارات الدنيا

ويصل حجم الايداعات لعناصر تلك الفئة دون مبلغ خمسة الاف جنيه .

ب) الفئة الثانية :

وتضم عناصر الطبقة المتوسطة من حرفيين

عمل مهرة وموظفين ومهنيين وصناط عاملين متقاعدين ، ويتراوح حجم إيداعات تلك الفئة ما بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، وتشمل هذه الفئة ضمن عناصرها ، العديد ممن أتيح لهم العمل في بلدان الخليج وقاموا بتكوين بعض المدخرات وتسليمها بالكامل لشركات توظيف الأموال

ج) الفئة الثالثة :

وتشمل كبار المودعين من الأثرياء الذين تتراوح إيداعاتهم ما بين ربع مليون ومليونين من الجنيهات وهي فئات لا تضع كل مدخراتها أو أموالها لدى شركات توظيف الأموال ، بل تضع فقط جانبا محدوداً من ثرواتها وأموالها لدى شركات على صعيد المقامرة والتنويع لمحافظ الاستثمار وقد حصلت عناصر تلك الفئة في أحوال كثيرة على عائد متميز يصل إلى ٣٠ ـ ٤٠٪ في السنة .

ولعل الجانب المأساوي للقضية ـ من منظور التنمية الطويلة الأجل ـ هو قيام بعض عناصر الطبقة المتوسطة بتصفية أصول إنتاجية حقيقية مثل الأراضي الزراعية والمصانع و « الورش » والأسهم وتحويلها إلى صكوك مالية (أصول ورقية) لدى شركات توظيف الأموال ، مما يشكل ضغطه بليغة لمستقبل عملية التنمية والتراكم الانتاجي في المجتمع المصري

وكما ابتدعت شركات توظيف الأموال العديد من أساليب الاحتيال المالي ، فقد تم ابتداع صيغة جديدة ، يتم بمقتضاها صرف « سلف شهرية » على ذمة الأرباح ، يتم تسويتها فيما بعد . واليوم وبعد أن تكشفت الأسرار والخبايا ، يجد المودعون أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه ، إذ أعلنت العديد من شركات توظيف الأموال ، أن المبالغ والسلف التي تم توزيعها تحت الحساب كانت على « ذمة أرباح لم تتحقق » ، وبالتالي لا بد من قتطاعها من أصل الوديعة . وهكذا قامت الشركات بأكبر خدعة في التاريخ المالي الحديث ، وتتمثل في إقراض المودعين من « حر مالهم » على هيئة أقساط شهرية

وبحسبة بسيطة ، يمكن القول ان نحو ثلث الايداعات سوف يتم خصمها على ذمة مسحوبات السلف المصرفة . وبذلك يكون المودعون قد خسروا نحو ثلث قيمة مدخراتهم ، حيث قاموا بإنفاقها في أغراض استهلاكية ، في ظل الوهم السائد بأنهم ينفقون عن سعة من واقع العائد على ايداعاتهم ، وليس اقتطاعاً من أصل الودائع وهكذا يمكن القول بأن تلك الشركات جديرة بمسمى « شركات تبديد الأموال » ، وليس شركات توظيف الأموال

توظيف الأموال و « المجتمع المدني » :

عندما تحدث بعض عن « صحوة » و « انتعاش » المجتمع المدني في مصر خلال السنوات الأخيرة ، كان في ذهن بعض الناس أن نمو شركات توظيف الأموال وتغلغلها في الحياة الاقتصادية المصرية كمبادرات فردية وغير رسمية (أي بعيدا عن مظلة الدولة) ، والتفاف جمهرة من المودعين حولها ، إنما هو تجسيد لتلك « الصحوة » وأحد رموزها ودون التطرق للحديث عن مؤشرات « صحوة » أو « غفوة » المجتمع المدني في مصر خلال السنوات الأخيرة ، فلقد نجحت شركات توظيف الأموال باختراق « المجتمع المدني » في مصر من خلال خلق قاعدة اجتماعية عريضة من متوسطي المدخرين المتضررين من التضخم وصغارهم الذين يبحثون عن عائد مجز لمدخراتهم بأقل جهد ممكن فجاءت شركات « توظيف الأموال » لتكون تلك « الصيغة المالية السياسية » التي تعبأ تلك الفئات الاجتماعية حولها ، وتتجاوز بهم مؤسسات الاقتصاد الرسمي وقطاع الوسطاء الماليين التقليدي (من مصارف وشركات تأمين وسوق مالي وغيره) .

ولعل تمسح تلك الشركات بأهداف الدين ،

واستغلال المشاعر الدينية الصادقة لبعض فئات المدخرين ، قد أعطى لتلك الشركات ومعاملاتها المالية صبغة سياسية « وايديولوجية » واضحة ، تتلخص معادلتها في الانفتاح على السوق المالية العالمية في الخارج و « الليبرالية » الاقتصادية « المنغلقة » في الداخل بلا ضابط ولا رابط ، مغلفة ببعض شعارات الدين الإسلامي الحنيف . ولهذا أصبح الصراع حول مستقبل شركات توظيف الأموال ليس صراعا حول مستقبل « النظام المالي » ، وأسلوب تعبئة المدخرات وتوظيفها في المجتمع المصري ، بل صراع حول مستقبل النظام الاقتصادي وفلسفته وتوجهاته الأساسية .

وعلى الرغم من التضخم في حجم شركات توظيف الأموال ونشاطها خلال السنوات الخمس الأخيرة ، وتحول بعضها بالفعل إلى « امبراطوريات مالية » ، تتحكم في بضعة بلايين من الجنيهات والدولارات ، وعلى الرغم من ارتفاع حجم المخاطر مع التوسع في قبول الايداعات والمساهمات ، وصعوبة عمل الموازنات اللازمة بين العائد ، والمخاطرة ، والسيولة ، فإننا نجد أن معظم تلك الشركات مازال يلجأ لأساليب بدائية للتنظيم والإدارة ، لاتتناسب مع نمط التوسع في الأعمال وحجمها ، وما تفرضه ضرورات « إدارة المخاطر » الناجمة عن المضاربات وغيرها من أنماط التوظيف للأموال التي في حوزتها .

فلو تأملنا في أوضاع تلك الشركات نجد أنه يغلب على إدارتها وأسلوب عملها العائلية وتمركز السلطات في يد شخص أو بضعة أشخاص . كما نجد أن تلك الشركات لا يوجد لديها أنظمة محاسبية وإدارية حديثة ، تتمشى مع التعقد والتنوع في نشاطها الذي يفوق في تعقده وتنوعه أعمال المصارف ، وشركات التأمين ، وبيوت الاستثمار ، حيث توجد علاقات معقدة ومتنوعة بين الشركة القابضة التي تمارس نشاطا ماليا من ناحية ، وبين الشركات الفرعية المنشأة بواسطتها - بالشركة مع آخرين - من ناحية أخرى .

نمط الاستثمارات

وإذا كان الغموض والسرية والتعمية تحيط بأعداد المودعين وتوزيعهم حسب شرائح الايداعات والمساهمات ، ونمط توزيع الاستثمارات في الداخل ، ونمط التوظيفات المالية والمضاربين في الخارج ، فإن ما تيسر من بيانات عن المشروعات الاستثمارية في الداخل من خلال الحملات الإعلامية الصاخبة ، نجد فيها أن هذه الاستثمارات - على الرغم من تواضع حجمها - ظلت مقصورة على مجالات التجارة والخدمات والتداول السلعي ، فهناك سلسلة من المتاجر متعددة الأقسام ، مأخوذة عن نظام « السوبر ماركت » : متاجر للمجوهرات ، مطاعم ، معسكرات ، قرى سياحية ، معارض لتجارة السيارات الجديدة والمستعملة ، مشروعات للاسكان « التمليكي » ، شركة طيران خاصة ، أعمال التخليص الجمركي ، تجارة اللحوم والأخشاب ، وغيرها .

فإذا ما انتقلنا إلى مجال المشروعات الصناعية ، فإننا نجد أن معظم شركات توظيف الأموال التي دخلت الساحة في الثمانينيات ، تعد النشاط الصناعي لديها نشاطا ثانويا ، إذ نجد معظم النشاط الصناعي لشركات توظيف الأموال ينحصر في مجالات محدودة ، مثل : المنظفات ، السلع المعمرة ، الملابس الجاهزة . وفي أحوال كثيرة ، تم تأسيس شركات مشتركة مع شركات أجنبية (لا تعمل وفق الشريعة الإسلامية) ، مثل زانوسي وغيرها ، بل إنه في أحوال كثيرة ، لم تقم تلك الشركات بعبء تأسيس تلك المصانع وعمل دراسات الجدوى ، أي لم تقم بدور المنظم أو المروج للاستثمارات ، بل قامت بشراء تلك المصانع والتسهيلات الانتاجية من أصحابها على الجاهز .

وأود أن أسجل هنا للذين يتحدثون عن

ـمية ، و « التنمية المستقلة » تحديدا ، أنه إذا
رنا المجهودات الاستثمارية لشركات توظيف
لأموال بالمجهودات الاستثمارية بمجموعة
ـركات بنك مصر ، على الرغم من أن بنك مصر
ـ يتوافر لديه ذلك الكم الهائل من الأموال ، مثلما
ـوافر لشركات توظيف الأموال . نجد أن الهوة
شاسعة بين ما أنجزته شركات توظيف الأموال
من مشروعات ، وبين ما اقتحمته شركات بنك
مصر من مجالات استثمارية جديدة وفروع
انتاجية رائدة ، فلقد قام بنك مصر بخلق فروع
جديدة للنشاط الاقتصادي ، مثل صناعات
النسيج الحديثة والضخمة ، وصناعة السينما ،

وغيرها من الانشطة التي تتسم بطابع الريادة
والجدة . وفي المقابل فإننا لم نسمع عن شركة
واحدة من شركات توظيف الأموال قامت باقتحام
مجال إنتاجي جديد (غير مطروق) وتحمل مخاطر
بناء صناعة جديدة وأعبائها ، أو تطوير صناعة
قديمة لها أهمية حيوية للاقتصاد الوطني ، على
الرغم من أن طلعت حرب - رحمه الله - لم يكن
يتحدث عن إقامة « قلاع صناعية جديدة » ،
مثلما تتحدث إعلانات شركات توظيف الأموال
في أيامنا هذه !

مصير أموال المودعين ، ونهاية اللعبة :.

تطرح المشكلة نفسها بحدة في حالة الشركات
التي سوف تفشل في توفيق أوضاعها وفقا للقانون
الجديد (القانون ١٤٦ لعام ١٩٨٨) ، ولائحته
التنفيذية ، وفي هذه الحالة سوف تضطر تلك
الشركات للتصفية وعدم الاستمرار في النشاط .
وهنا يواجه المودعون موقفا حرجا ، حيث
سيجري الوفاء بقيمة إيداعاتهم وفقا لما يسفر عنه
ناتج التصفية بين الأصول « المتاحة » وبين
الالتزامات والمطالبات القائمة في ذمة تلك
الشركات . وأغلب الظن أن « فائض التصفية »
لن يكون كافيا للوفاء بقيمة الودائع ، بعد تسوية
أرصدة السلف المدينة ، وأن المودعين في هذه
الحالة سوف يقتسمون الأموال المتبقية ، وفقا لما
يسمى في القانون « بقسمة الغرماء » ، أي
سيحصل كل مودع على نصيب في « ناتج
التصفية » ، وفقا لنسبة مساهمته في رصيد الودائع
كلها . وهكذا سوف يتآكل رصيد الودائع
مرتين : مرة على ذمة خصم أرباح وعوائد تم
صرفها على غير وجه حق ، ومرة أخرى نتيجة
عدم كفاية الأصول المتاحة للوفاء برصيد
الودائع .

وقد حدد القانون فترة عامين لوضع جدول
لاسترداد الودائع ، نتيجة التسييل التدريجي
للأصول الخاصة بالشركات المصفاة ، مما سينتج
عنه غبن بحقوق المودعين ، مرة أخرى نظرا
لانخفاض القيم الشرائية للنقود بفعل التضخم
النقدي خلال فترة العامين التي أقرها القانون .

وتحسبا للطواريء ، ولإمكانية التلاعب
بواسطة أصحاب الشركات « غير الجادة » في
توفيق أوضاعها ، أصدر رئيس الوزراء في مصر
أمرا عسكريا ، بصفته نائب الحاكم العسكري
العام ، بمنع شركات توظيف الأموال من
التصرف في أصولها الثابتة والمنقولة (باستثناء
البضائع) ، قبل أن توفق أوضاعها ، وبطلان
تصرفاتها بالبيع في أصولها بعد صدور القانون
بطلانا مطلقا . وقد صدر هذا الأمر تحديدا بعد
أن قام أصحاب بعض الشركات في التصرف في
بعض العقارات والأصول الثابتة قبل انتهاء
عملية التوفيق .

وهكذا فإن أسطورة شركات توظيف الأموال
التي شغلت المجتمع المصري خلال العامين
الماضيين ، وكانت حديث كل بيت وكل أسرة ،
تقترب من نهايتها ، وعندما يتم تصوير المراكز
المالية ، ونتائج الأعمال ، وتقديم مستندات
التوفيق ، سوف يتم رفع الستار عن مزيد من
الأسرار في قصة امبراطوريات مالية ، تم
تشييدها على كثبان رملية ، في ظل الجاهلية
الاقتصادية الجديدة !□

تأملات

في مسألة توظيف الأموال

بقلم : الدكتور على الدين هلال

شُغلتْ مصر ـ والمصريون ـ في الشهور السابقة بموضوع شركات توظيف الأموال ، ومدى سلامة هدا النوع من الأنشطة الاقتصادية . وكما يحدث في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية ، فقد تعددت الاجتهادات والتفسيرات في هذا الموضوع ، وعكست هذه الاتجاهات التيارات « الأيديولوجية » السائدة في مصر . وكما يحدث أيضا في كثير من القضايا المشابهة ، فقد استغل أصحاب كل اتجاه فكري هذه المناسبة لإثبات ما يعتقدون به من اراء ، ولم يُشْغَلُوا بنفس القدر في بحث القضية نفسها ، والعوامل التي أدت إلى بروز هذه الظاهرة ، وكيف يمكن تلافي مثلها في المستقبل .

مؤيدو ومعارضو الشركات :

المؤيدون لهذه الشركات كانوا صفين : الصف الأول من أنصار مفهوم « الاقتصاد الإسلامي » الدين رأوا في هده الشركات شكلا من أشكال الأنشطة الاقتصادية التي تندرج ضمن مفهومهم ، ومن ثم عدوا نقد هذه الشركات أو الهجوم عليها نقدا لفكرة الاقتصاد الإسلامي ، بل رآها بعضهم انتقادا للتيار الإسلامي بأسره

والصنف الثاني من المنتفعين بهذه الشركات ، وهم كثرة ، وفي مجالات متنوعة من مناحى الحياة . فهناك أشخاص قدموا تسهيلات لهذه الشركات ، وذلك من واقع

ـصب الحكومية التي شغلوها ، وتقاضوا حورا ومرتبات ومكافآت ومناصب لهم أو ـويهم ومعارفهم . وهناك صحفيون ومشتغلون ـحهزة الصحافة والإعلان استفادوا أيضا . كان دورهم عندما وقعت الواقعة ، الكتابة في الصحافة بما يفيد هذه الشركات أو على الأقل لا يصح كل اللوم على أصحابها .

أما المعارضون والمنتقدون فقد كانوا أيضا صنفين : أولهما أصحاب تيارات ايديولوجية معارضة من حيث المبدأ ، للمفاهيم التي تدافع عنها التيارات الإسلامية ، ووجدت في هذه المناسبة فرصة لإعادة طرح مفاهيمها وأفكارها . وثانيهما فريق راقب تطور الأحداث وساءته التصرفات المالية لأصحاب هذه الشركات والمكافآت والأجور العالية التي كانوا على استعداد لدفعها ، ووجدوا في هذه الممارسات ما يناقص زعم هذه الشركة ، من أنها تقدم نموذجا مغايرا من النشاط الاقتصادي .

المدخرون

لا شك أن أعدادا كبيرة من المصريين قد أودعوا مدخراتهم لدى شركات توظيف الأموال ، وهؤلاء يمثلون عينة ممثلة للمجتمع المصري بمستوياته الثقافية والتعليمية والاقتصادية . فمنهم أصحاب الملايين الذين أرادوا اكتناز المزيد ، وهناك أرباب المعاشات الذين وضعوا حصيلة عمرهم ، لكي يضمنوا دخلا شهريا ثابتا ، ومن بينهم أساتذة جامعات ، عملوا في جامعات عديدة ، منها جامعات أقطار الخليج العربي ، وغيرهم . لقد حول هؤلاء بعض ودائعهم إلى هذه الشركات ومدوا هذه الظاهرة ببعض مدخراتهم .

فكيف تسنى لشركات توظيف الأموال أن تقنع هذه التركيبة المتنوعة من البشر ؟ ولماذا كان هؤلاء المودعون على استعداد للتصديق بأفعال وأقوال المسؤولين عن الشركات ؟

مقدمات ونتائج

هل يكفى في هذا المقام القول بأن القانون لا يحمى المغفلين ، وأن كل مودع وقع بمحض إرادته على عقد مشاركة ، ومن ثم عليه أن يتحمل نتائج ما قام به ؟ فأين الحقيقة من هذا كله ؟

إن التناول الموضوعي لهذا الموضوع يجب أن يدخل في اعتباره عددا من العوامل ، تداخلت كلها لكي تصل بنا إلى النتيجة التي انتهينا إليها ، ويمكن عرض هذه العوامل على النحو التالي :

أولا : هناك قضية نسبة التضخم في مصر وتأثيره على تآكل المدخرات ، فنسبة التضخم في مصر تصل حوالى ٢٥٪ سنويا (وترفعها بعض التقديرات إلى ٣٠٪) ، هذا في الوقت الذي تصل فيه أعلى نسبة فائدة إلى ١٣٪ ، مما يعنى أن الادخار قد أصبح عقوبة ، وأن على المدخر أن يرى أمواله بالجنيه المصري وهي تتآكل عاما بعد عام ، وذلك بفعل الفارق بين معدل التضخم ونسبة الفائدة . في مواجهة ذلك اتجه المصريون عدة اتجاهات ، بعضهم حول أمواله إلى الدولار الأمريكي أو إلى عملات أجنبية أخرى ، لكي يحميها من غيلة التضخم بالجنيه المصري ، وبعضهم الآخر استثمر الأموال في الذهب أو الأرض التي ترتفع أسعارها باستمرار بنسبة تعادل نسبة التضخم العام في الاقتصاد . لكن الاستثمار في الذهب أو الأرض لا يقدر عليه المدخر الصغير لنقص ما يملكه من ناحية ، ولاحتياجه المستمر إلى عائد مدخراته في شكل سيولة نقدية .

في هذا السياق قدمت شركات توظيف الأموال حلا (سحريا) لمشكلات الكثيرين ، فقد قدمت نسبة ربح تصل إلى ٢٤٪ - ٢٥٪ ، وهي نسبة أعلى مما تقدمه المصارف « البنوك » .

ثانيا : استغلت هذه الشركات احتياج صغار المودعين إلى دخل شهري ، وعلى الأخص أولئك الذين حصلوا على مكافآت نهاية خدمة ،

ويريدون أن يعيشوا من عوائدها ، فدفعت أرباحا شهرية للمودعين .

ثالثا : هناك أيضا العامل الديني ، فقد طرحت هذه الشركات نفسها سواء من حيث أسمائها (الريان - الهدى - الهلال - البركة) أو من حيث مظهر أصحابها على أنها (شركات إسلامية) ، وأن ما تقدمه هو أرباح وليس فوائد ، ولا شك أن هذا العامل قد دفع الكثيرين لإيداع أموالهم فيها . وقد استخدم أصحاب هذه الشركات تلك السمة الإسلامية بذكاء باهر ، فظهروا في الصور إلى جوار كبار الشخصيات الإسلامية من العلماء ، وركزوا في إعلاناتهم الصحفية على هذه السمة ، وعلى الطابع الإسلامي لنشاطهم .

رابعا : الحملة الاعلامية الجبارة التي نقلتها الصحافة وجهاز التلفاز عن هذه الشركات ، والتي كانت مخططة على أعلى مستوى ، وعلى الأخص للشركات الثلاث الكبرى (الريان - السعد - الهدى) التي أعطت الانطباع بحجم الانجاز الهائل ، وبقدرات إدارية وتنظيمية واقتصادية فذة .

أضف إلى هذه الإعلانات من جهاز التلفاز التي دخلت كل منزل وطرقت آذان كل أسرة . وفي شهر رمضان الماضي قامت إحدى هذه الشركات بتنظيم مسابقة يومية تحت اسم « أحمدك يا رب » ، وتمت الإجابة عنها بالهاتف ، وبعد ذلك تنقلت المذيعة ومعها أجهزة التصوير إلى أماكن الفائزين لتسليم الجائزة (ألف وخمسمائة جنيه مصري ، أي قرابة ٧٠٠ دولار أمريكي لكل فائز) وكان يتابع ذلك الملايين يوميا على الشاشة التلفازية .

خامسا : إن ظهور هذه الشركات لم يكن في الظلام ، وإنما تم في وضح النهار ، وعلى صفحات الجرائد التي نشرت هذه الشركات الدعوة للاكتتاب فيها . ولم تتحرك الجهات المسئولة لوقفها أو لوضع القواعد المنظمة لنشاطها ، وليس هذا فحسب ، بل إن هذه الشركات قد شاركت في المعارض الانتاجية والتجارية ، وقام كبار المسئولين بزيارة أجنحتها ، وسمحوا بالتقاط صور لهم مع أصحابها ، وكانت هذه الصور تتصدر مكاتب هذه الشركات ، وعندما رأى المواطن المصرى ذلك لم يكن من الممكن أن يخامره شك في عدم قانونية نشاط هذه الشركات !

فإذا أضفنا إلى ذلك عددا لا بأس به من الشخصيات العامة التي عملت في هذه الشركات بعد خروجها من مناصبها الحكومية ، فإن الشعور بالثقة في هذه الشركات قد أصبح مدعوما ومتزايداً . وهكذا فإن هناك أسبابا موضوعية أدت إلى تصديق هذه الشركات .

ماذا عن المستقبل ؟

وقد ترتب على كل ما تقدم نتيجتان مهمتان : النتيجة الأولى أن ظهور هذه الشركات قد ارتبط بالفجوة بين معدل التضخم ونسبة الفائدة في المصارف « البنوك » ، وطالما استمرت هذه الفجوة ، بما يترتب عليها من تآكل المدخرات ، فسوف تنشأ أنشطة ومظاهر جديدة لمواجهة هذه الفجوة . رأيناها أولا في تجارة العملة ، وثانيا في شركات توظيف الأموال . ومن الأرجح أن أشكالا جديدة سوف تظهر في المستقبل . إذ ليس من المتصور عقلا أن يقف المدخر ساكنا إزاء تآكل أمواله . والنتيجة الثانية أننا إذا أردنا أن نبحث عن مسئول فبالتأكيد أن المودعين ليسوا هم الطرف الوحيد ، ولكن المسئولية تتقاسمها أطراف عديدة .

يبقى أن ننظر إلى المستقبل والمطلوب حسب وجهة نظرنا ، حماية حقوق صغار المودعين ، وإيجاد القنوات المصرفية ، لاستيعاب مدخرات المصريين ، حتى لا يضطروا إلى الدخول في مغامرات جديدة . □

شركات توظيف الأموال في مصر ..

مالها .. وما عليها !

بقلم : الدكتور محمد حلمى مراد

ظهرت شركات توظيف الأموال على الساحة في مصر في أواخر السبعينيات ، وتزايد عددها وتضخم حجمها في الثمانينيات ، نتيجة الفراغ الذي تجلى في مجال الأوعية الادخارية، وذلك لعدم تيقظ الجهاز المصرفي وتقاعس الحكومة عن خلق الأساليب الملائمة لتوظيف مدخرات المواطنين الذين خرجوا للعمل في الخارج ، بحيث توفر لهم التعامل الميسر ، وتحقق لهم العوائد النقدية التي تدفع شهريا دون انتظار انتهاء السنة المالية ، وتطمئنهم على أنها ـ على الرغم من أنها مجزية ـ ليست وليدة فوائد محرمة اسلاميا .

وقد برزت شركات توظيف الأموال للنهوض بسد هذا الفراغ ، واستطاعت أن تكسب ثقة المدخرين برفعها الشعار الإسلامي الذي يحرم الربا ، واطلاق ما يعبر عنه في الاسم الذي يطلقونه عليها ، وبحرصها على الوفاء بالتزاماتها في دفع الأرباح في مواعيدها الدورية تحت التسوية في نهاية السنة المالية .

ولا يعني ذلك أن هذه الشركات تعد ذات صفة اسلامية بحتة ، أو أنها فكرة مستحدثة في عالم المال ، إذ سبق وجود مثيلات لها في العالم الغربي باعتبارها منشآت تتلقى الأموال من أصحابها لتستثمرها لحسابهم ، وتعود عليهم بالربح أو الخسارة نتيجة لهذا الاستثمار ، وهو ما يتفق مع ما تنادي به الشريعة الإسلامية من تحريم الفائدة الربوية التي لا تقوم على أساس الغرم بالغنم ، ولكن هذه المنشآت تنظمها وتحكمها ، هناك قواعد قانونية تحدد نطاق عملها ، وتنظم العلاقة بينها وبين المتعاملين معها ، وتضع القواعد الكفيلة بحسن سير أعمالها ومتابعة ما يجرى فيها .

وعلى الرغم من رصد الحكومة في مصر لحركة نمو هذا النوع من الشركات ، فلم تسارع بإصدار تشريع ينظم هذا النوع المستجد من الشركات ، بحيث يصبح لها شخصية اعتبارية مستقلة عن أشخاص أصحابها ، بحيث لا تختلط أموال المودعين بأموالهم الشخصية ، وتوفر الضمانات المعقولة للحفاظ على حقوق المودعين ، وتحول دون دخول المتلاعبين والنصابين إلى مجال عمل هذه الشركات ، كل ذلك دون تدخل حكومي شديد الوطأة في شؤونها ، يؤدى إلى خنقها وتنفير القادرين من

القائمين عليها من الاستمرار في قيادتها .

واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٨٦ ، حينما صدر القانون رقم (٨٩) في ٢٥ يونيو من العام المذكور « بتنظيم بعض حالات دعوة الجمهور إلى الاكتتاب العام » وكان قانونا قاصرا لا ينظم هذا النوع من الشركات تنظيما شاملا .

الحكومة والشركات

وقد أسهمت الإعلانات الخلابة التي كانت تبثها الإذاعة والتلفاز ، وتنشرها الصحف والمجلات التابعة للمؤسسات الصحفية الحكومية في دعم ثقة المواطنين بقدرات هذه الشركات ، وإشعارهم بشرعية وجودها ، ومباركة الدولة لها . وإلا لما قامت هذه الأجهزة ذات الصفة الرسمية أو شبه الرسمية بالدعاية لها ، بحيث بلغ عدد شركات توظيف الأموال (١٦٠) شركة ، يتفاوت عدد المودعين بها ـ وفق تقديرات مختلفة ـ ما بين مليون وعشرة ملايين مواطن ، وحجم الأموال التي تلقتها ما بين خمسة مليارات (المليار ألف مليون) و ١٧ مليارا من الجنيهات المصرية بالعملات الأجنبية والوطنية مما جعلها منافسا خطيرا للجهاز المصرفي .

وأفزع مؤسسات الدولة أن يتضخم حجم بعض هذه الشركات تضخما يكاد يشكل قوة اقتصادية مسيطرة تستطيع أن تتحكم في الحياة الاقتصادية ومن ثم في الحياة السياسية للبلاد ، لا سيما وقد قام في أذهان عدد من المسئولين أن بعض هذه الشركات الكبيرة تدعم الجماعات الإسلامية أو تعد الجناح الاقتصادي للتيار الإسلامي ، حسب ما شاع عند بعض الجهات .

وأدى هذا الشعور إلى الحرص على سدّ الطريق أمامها بالنسبة لبعض المشروعات التي حاولت القيام بها بحجة التخوف من استخدامها في معاونة التيار الإسلامي ، إذا فكر بعض المنتمين إليه من التحرك في الشارع ، كما حدث بالنسبة لرفض إتمام المشروع الذي كانت إحدى هذه الشركات قد تفاهمت عليه مع محافظة القاهرة لتسيير سيارات « الأوتوبيس » الصغيرة على بعض خطوط النقل العام في العاصمة المصرية خشية استعمال هذه السيارات في نقل المتظاهرين في أوقات الاضطرابات السياسية مما اضطر محافظة القاهرة إلى شراء هذه السيارات ، وتولت هيئة النقل العام لمدينة القاهرة تشغيلها .

وقد تفاعل الأمر إلى درجة أن الجهاز المصرفي التابع للحكومة أصبح عاجزا عن احتذاب مدخرات المصريين العاملين في الخارج في الوقت الذي نجحت فيه هذه الشركات في استقطابها على الرغم من إنشاء السوق المصرفية الحرة للتعامل في النقد الأجنبي مما أثر على حصيلة الحكومة من النقد الأجنبي واضطرها للالتجاء إلى هذه الشركات لتطلب منها تمويل حاجتها العاجلة لاستيراد بعض السلع الضرورية من الخارج .

وعندما استشعرت الحكومة هذه الخطورة ، وثبت لديها أن لبعض تلك الشركات أعوانا يشغلون مواقع مؤثرة داخل الجهاز التنفيذي ، قررت أن تتحرك في عجلة وبعنف ، ولكنها خشيت في الوقت نفسه أن يؤدي ذلك إلى إشاعة الذعر بين أصحاب هذه الشركات والمودعين لديها ، بحيث يندفع الآخرون لسحب ودائعهم ويؤدي نقص السيولة النقدية ـ نتيجة استثمار الودائع في مشروعات أو عمليات تجارية ـ إلى عجزها عن السداد واعلان إفلاسها مما يثير ثائرة المودعين ، أو أن تطلب من المصارف التي تودع لديها بعض أموالها السائلة أن تصرف مستحقات المودعين فلا تتوافر لدى بعضها السيولة اللازمة مما يهز الثقة في المصارف ويضر الاقتصاد الوطني .

فلجأت الحكومة إلى تهدئة الخواطر

تصريحات المسئولين من أنها ليست ضد شركات توظيف الأموال ، ولكنها تحرص على توفير ضمانات للمودعين ، وأنها لن تتدخل في إدارة هذه الشركات ، وفي الوقت نفسه بدأت تحقيقات رسمية مع العديد منها لقيامها بأعمال المصارف ، ومخالفة القانون رقم ٨٩ لسنة ١٩٨٦ ، ونشر الأخبار المسيئة لبعض أصحاب هذه الشركات ، تهيئة للجو الملائم لاصدار القانون العنيف رقم (١٤٦) لسنة ١٩٨٨ في شأن « الشركات العاملة في مجال تلقى الأموال لاستثمارها - وهي التسمية التي اتخذها القانون بديلا عن شركات توظيف الأموال »

وقد منح هذا القانون للشركات القائمة مهلة ثلاثة شهور للاعلان عن رغبتها في توفيق أوضاعها طبقا لأحكامه أو عدم الرغبة في ذلك ، في الحالة الأولى يتمم الاجراءات الخاصة بالتوفيق خلال سنة ، وفي الحالة الثانية يرد ما تلقاه من أموال إلى أصحابها خلال سنتين ، مع الالتزام في الحالين بتقديم بيان بالمبالغ التي تلقاها ، ومجالات استثمارها وقائمة بالمركز المالي للشركة ، وبنقل ما يوجد في الخارج من أرصدة أو أموال إلى أحد المصارف المصرية بحيث لا يبقى منها شيء بالخارج إلا بإذن من وزير الاقتصاد في ضوء المبررات المقدمة .

أحكام القانون وشركات توظيف الأموال

وعلى الرغم من أن قانون شركات تلقي الأموال لاستثمارها قصر الشكل القانوني الذي تتخذه على صورة الشركات المساهمة ، فلم يترك أمرها للقانون المنظم للشركات المساهمة مع إضافات محدودة ، بل فرض قيودا جديدة من حيث نشأتها وسير أعمالها والرقابة المقررة عليها ، والجزاءات التي توقع على المخالفين من القائمين عليها .

فأوجب الا يقل عدد مؤسسيها عن عشرين ، وألا يقل رأسمالها عن خمسة ملايين ، ولا يزيد عن خمسين مليونا من الجنيهات ، وأن يتم قيدها في سجل خاص بناء على طلب يقدم بذلك مع إمكان رفض هذا الطلب . إذا كان من أغراض الشركة أو نشاطها ما يتعارض مع النظام العام أو الآداب أو لا يتفق مع المصلحة الاقتصادية العامة والأمن القومي ، وهي عبارات مطاطة عامة (المادة ٣) .

وأعطى القانون لهيئة سوق المال وضع القواعد لتحديد نسبة الأموال السائلة التي يجب الاحتفاظ بها لدى المصارف ، وضوابط اصدار صكوك للمودعين بالنقد الأجنبي ، كما أعطى لمجلس الوزراء وضع ضوابط تنويع الاستثمارات ونسبتها إلى المجالات الأخرى للاستثمار ، وسلطة منع استثمار الأموال في بعض المجالات (المادة ٩) ، وهي سلطة واسعة كان يجب حسمها بالنص عليها في القانون حتى تكون هذه المشروعات على بينة من أمرها بدلا من تركها نهبا للتغيرات والظروف الطارئة التي تعصف بالاستقرار اللازم للمشروعات الاقتصادية

ووصل التدخل الحكومي إلى حد الاعتراض على تعيين أعضاء مجلس الإدارة والاعضاء المنتدبين ومديري الشركات ، وتعيين عضو مراقب في مجلس إدارة الشركة . وقيام الجهاز المركزي للمحاسبات بتعيين مراقب للحسابات في الشركة ، وتحديد مكافأته في حين كان يغني عن ذلك مراقب الحسابات الذي تعينه الشركة ، والذي يعاقب طبقا للمادة (٢٢) من القانون بالسجن وبالغرامة التي لا تقل عن خمسين ألف جنيه ولا تزيد عن خمسمائة ألف جنيه . إذا وضع تقريرا كاذبا أو أخفى وقائع جوهرية في التقارير المقدمة منه .

كما أعطى لوزير الاقتصاد حق شطب الشركة مما يؤدي إلى تصفيتها إذا خالفت القانون أو لائحته التنفيذية دون اشتراط جسامة المخالفة ، كما أضيف إلى ذلك نفس العبارة المطاطة السابق ذكرها وهي اتباع الشركة سياسة تتعارض مع

النظام العام ، أو الآداب ، أو لا تتفق والمصلحة الاقتصادية العامة ، والأمن القومي ، أو تضر بمصالح أصحاب الصكوك ، وجميعها مسائل تقديرية غير منضبطة .

هذا إلى أن الجزاءات الواردة بالباب الثالث من القانون على مخالفة أحكامه بلغت من الفداحة والقسوة حداً كبيراً إذا ما قيست بالجزاءات المقررة على مخالفة قانون الشركات المساهمة ، إذ تجمع بين السجن (وهو عقوبة جنائية) والغرامة التي لا تقل عن ٥٠ ألف جنيه وتصل إلى خمسمائة ألف جنيه ، فضلاً عن التحفظ على أموال المخالف وأسرته ، وجواز توقيع عقوبات تبعية تتضمن الحرمان من مزاولة مهنته ، وحظر مزاولة النشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه لمدة تصل إلى ثلاث سنوات ، في حين أن قانون الشركات المساهمة جعل مخالفته في أقسى صورها جنحة يعاقب عليها بالحبس والغرامة التي لا تزيد على ١٠ آلاف جنيه ، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط .

ولجأت الإدارة التنفيذية بعد انقضاء فترة الثلاثة شهور على صدور القانون إلى وضع يدها على أكبر شركات توظيف الأموال وهي شركة « الريان » .

القانون والتجربة المريرة

إن التشريعات والقيود التي فرضت على شركات توظيف الأموال لا بد أن تؤدي إلى تفضيل أغلب أصحاب الشركات القائمة إلى إنهاء أوضاعها وتصفية وجودها مما ينتهي بإحلال الخسارة بالمودعين لعدم امكان التوصل إلى قيمة ما أودعوه كاملاً بسبب التصفيات الجماعية الجبرية،أو إلى محاولة البعض منها القبول المبدئي بتوفيق أوضاعها مع القانون الصادر بشأنها انتظاراً لحلول أخرى ، ولن تقوم في ظل هذا القانون شركات أخرى تعمل في هذا المضمار ، وخاصة أن أحداً لن يقبل - بعد التجربة المريرة التي حدثت - على إيداع أمواله لدى هذا النوع من الشركات .

ولن يلجأ أصحاب الودائع إذا ما استردوها كلها أو بعضها إلى إيداعها لدى المصارف الرسمية ، إذ أن للابتعاد عنها أسباباً تاريخية ، ومصالح آنية في إخفاء مراكز أصحابها المالية ، ولكن قد تتجه إلى الاختفاء « تحت البلاطة » أو إلى إيداعها في مصارف بالخارج ، أو إعادة توظيفها في صور أخرى لتوظيف الأموال قد تظهر في الأفق لسد الفراغ الذي عاد مرة أخرى .

وما كان من الواجب أن ينشر الإعلام روح العداء ضد أصحاب الشركات القائمة ، لأن هذا العداء جعلهم يتهربون من التزاماتهم ، ويخفون ما لديهم من أموال ، ويهربون الموجود منها إلى الخارج ، إذ لن تتمكن الحكومة بالوسائل القانونية أو الدبلوماسية أن تتعرف على أماكن إيداعها أو تشغيلها في الدول الأجنبية ، أو أن تضع يدها عليها إذا ما تم التعرف على مكان وجود بعضها .

ويقضي الواجب أن تعمل الأجهزة القانونية والمصرفية التي تعالج أوضاع هذه الشركات على مراعاة ظروف صغار المودعين الذين أودعوا كل ما لديهم من أموال ومدخرات لدى هذه الشركات ، بأن تقرر صرف نسبة ملائمة من العائد الدوري الذي يعتمدون عليه في معيشتهم خلال فترة توفيق أوضاع هذه الشركات ، وأن تعمل على استمرار مشروعاتها ومنشآتها حتى لا تغلق أبوابها مما يؤثر في نشاط الأسواق ويخلق أزمة بطالة بين العاملين فيها .

إن هذه الآثار الضارة لن تختفي بعد فترة قصيرة ، بل ستمتد انعكاساتها على الأوضاع الادخارية والاستثمارية بصفة عامة ، لعدة سنوات قادمة اللهم إلا إذا تضافرت الجهود لمداواة الجروح المتخلفة عن هذه التجربة المريرة . □

جذور وامتدادات للفكرة الصهيونية لترحيل الفلسطينيين

بقلم : الدكتور أسعد عبدالرحمن

« الترانسفير » ليست مجرد كلمة تقال وتعني الترحيل الذي يقصد به ترحيل الفلسطينيين من أرضهم وتوزيعهم على الأقطار العربية ، بل هي إحدى أهم الأفكار السياسية الصهيونية . ولكن ما هي ؟ وما جذورها ؟ ومن هم أبرز الدعاة لها ؟ هذا المقال محاولة للإجابة عن كل هذه الأسئلة المهمة .

كثيرون هم الذين باتوا يعرفون الكثير أو القليل عن الدعوات المحمومة المتواصلة التي يطلقها عدد من زعماء وأحزاب الكيان « الاسرائيلي » ، والتي تنادي بمعالجة ما يسمى بالخطر « الديموغرافي » الفلسطيني في الأرض المحتلة . غير أنه في مرحلة ما بعد انفجار الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بشكل خاص ، شهدت هذه الدعوات مدا متزايدا ، واتساعا على مختلف الألوان والشرائح للطيف السياسي والاجتماعي « الاسرائيلي » . وفي واقع الأمر أن هذا التطور ليس ظاهرة جديدة أو طفرة عفوية أو مرحلية ، إنما هو جزء لا ينفصم عن حركة تطور مخاوف الفكر الصهيوني ، وبخاصة في ظل الصراع القائم بين الحركة الصهيونية ووليدها ـ « اسرائيل » ـ من جهة ، وبين الشعب الفلسطيني والأمة العربية من جهة أخرى . وعلى ما يبدو أصبح « الخطر الديموغرافي » هذا كابوسا يؤرق الصهاينة ويقض مضاجعهم ، الأمر الذي انعكس باستمرار في الابتكار والطرح والتنفيذ لمختلف الممارسات والأفكار والمشاريع التهجيرية ، الداعية إلى طرد أبناء الشعب الفلسطيني من أراضيهم المحتلة . وفي هذا السياق ينتصب التاريخ شاهدا على المواقف والممارسات والمظاهر المختلفة المجسدة للفكرة الصهيونية القديمة ، الخاصة بتهجير أو طرد الفلسطينيين ، والتي كان أوضحها وأفظعها مجازر

المنظمات الارهابية الصهيونية قبل حرب عام ١٩٤٨ وأثناءها وبعدها . تلك المذابح التي كانت حصيلتها ، إضافة إلى قتل الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني ، تهجير مئات آلاف الفلسطينيين وتشتيتهم في بقاع الأرض ، بعد تجريدهم من أراضيهم وبيوتهم بقوة السلاح والإرهاب . ولم يمض وقت طويل حتى اتصل هذا « التاريخ » الدموي الإرهابي بالحاضر الصهيوني الممارس ، وعلى الأخص منذ ما بعد الاحتلال الصهيوني لما تبقى من أراضي فلسطين العربية عام ١٩٦٧ ، حيث ازداد طرح أفكار التهجير ضد عرب الوطن المحتل ، وبوضوح لا سابق له ، أو قل بوقاحة لا نظير لها .

« البداية السرية المبكرة »

قبل أن يمضي على حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أسبوعان ، عقدت الحكومة « الاسرائيلية » جلسة سرية ، لبحث موضوع غاية في الأهمية ، قوامه السؤال التالي : ماذا يجب على تلك الحكومة فعله لمواجهة مشكلة الخطر « الديموغرافي » الفلسطيني الناجمة عن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ، حيث يقطنها أكثر من مليون فلسطيني ؟ ومع أن مداولات تلك الجلسة بقيت سرا ، فإن الأفكار التي طرحت فيها وتم نقاشها في حينه عادت فظهرت في المفكرة السرية للدكتور يعقوب هرتسوغ ، الذي شغل في حينه منصب مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، التي قامت أرملته بتسليمها للباحث « الاسرائيلي » مئير أبيدان . وفي هذا الصدد أشارت صحيفة «هآرتس» « الاسرائيلية » ، في مقالة نشرتها في نهاية أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ إلى ان مناحيم بيغن ، الوزير بلا وزارة في حكومة « الوحدة الوطنية » ، آنذاك أوحى بتصفية المخيمات الفلسطينية ، ونقل سكانها إلى سيناء ، بينما طالب بنحاس سبير - وزير المالية حينئذ - بنقل اللاجئين الفلسطينيين إلى إحدى الدول العربية المجاورة . ومع أن نقاش الحكومة « الاسرائيلية » لم يسفر آنذاك عن أي قرار محدد بهذا الخصوص فقد تركز البحث باتجاه تأييد اقتراح نائب رئيس الحكومة « الاسرائيلية » يغئال آلون الذي أيده يومئذ معظم وزراء الحكومة . وكان آلون قد اقترح نقل اللاجئين الفلسطينيين إلى سيناء وتوطينهم هناك ، على أن يجري في الوقت نفسه « إقناع » سكان الأراضي المحتلة بالهجرة إلى الخارج ، وعلى الرغم من أنه لم يتم توطين الفلسطينيين في سيناء فقد تم التنسيق بين مكتب رئيس الحكومة ووزير « الدفاع » والجيش « الاسرائيلي » ، من أجل تشكيل وحدة سرية ، تعمل في أوساط الفلسطينيين لاقناعهم بمغادرة بيوتهم ، « وتقديم التسهيلات » لهم في الأماكن التي سيتوجهون إليها خارج فلسطين والشرق الأوسط . وكان أرئيل شارون هو الذي كشف النقاب عن هذه الخطة ، وذلك في محاضرة ألقاها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ ، حين أوضح بأن السلطات « الاسرائيلية » عملت طوال السنين الماضية على « تقديم التسهيلات » للعرب الذين « رغبوا » في الهجرة ، وأنه كانت هنالك منظمة خاصة لذلك العرض .

« استغلال الفرص »

إن شارون هذا الذي كشف النقاب عن تلك الخطة هو نفسه الذي كان قد أصدر عام ١٩٦٤ ، بصفته بريجيدرا في القيادة الشمالية ، أوامره لكبار الضباط في المنطقة بتحديد عدد الشاحنات المطلوبة لشحن (٣٠٠) ألف عربي إلى خارج « الحدود الشمالية » ، في حالة نشوب حرب . ومن الجدير بالذكر هنا أن الرقابة العسكرية « الاسرائيلية » حظرت نشر تفاصيل الخطة الشارونية هذه في النسخة العبرية لكتاب الصحفي « الاسرائيلي » « عوزي بنزيمان » ، وإن كانت الخطة نفسها قد نشرت لاحقا في النسخة الانجليزية بعنوان « قيصر اسرائيل » .

ومن الملاحظ أن ما طرحه شارون في خطته إنما يعكس فكرة « استغلال الفرص » ، أي الحروب والأزمات ، لتنفيذ أفكار الترحيل أو (الترانسفير) الجماعي للمواطنين الفلسطينيين . وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرها خلال حرب حزيران ١٩٦٧ ، حين بادر بعض كبار ضباط الجيش « الاسرائيلي » إلى تنفيذ عمليات حظيت بالموافقة والمصادقة من قبل القيادة السياسية « الاسرائيلية » . وعلى سبيل المثال ، فإن البريجيدر شلومو لاهط ، الذي يشغل الآن منصب رئيس بلدية تل أبيب ، كان مسؤولا عن عملية طرد العائلات الفلسطينية المقيمة في منطقة « حائط المبكى » المزعوم الواقعة في البلدة القديمة من مدينة القدس ، كذلك فإن الجنرال عوزي نركيس ، قائد المنطقة الوسطى في حينه ، كان قد أمر بنسف ثلاث قرى عربية قرب اللطرون وتدميرها ، ضمن سياق المساعي الهادفة إلى تهجير سكانها . ويعترف الصحفي عاموس كينان ، وهو أحد جنود الاحتياط المكلفين يومئذ بحراسة الجرافات أثناء تنفيذ العملية ، فيقول : « تسلمت أمرا بحراسة الجرافات ، ومنع أي محاولة من قبل القرويين العرب للعودة إلى بيوتهم » . وكان وزير « الدفاع » « الاسرائيلي » الأسبق ، موشيه ديان ، قد قام شخصيا بإصدار الأوامر القاضية بتدمير مدينة قلقيلية ، وإزالتها عن وجه الأرض ، وهي العملية التي لم تنفذ ، وذلك في أعقاب فضح عملية نسف القرى الفلسطينية الثلاث من قبل الصحفي كينان . كذلك شارك البريجدر أريك شامكين ، وزير الزراعة في « حكومة الوحدة الوطنية » « الاسرائيلية » السابقة ، في عملية ، استهدفت نقل عدد من سكان نابلس إلى جسور نهر الأردن ، في حين قام عدد من كبار ضباط الجيش « الاسرائيلي » بإجبار (٢٥) ألف فلسطيني ، من سكان مخيمات أريحا على الهجرة إلى الضفة الشرقية . وما هذه جميعا سوى أمثلة على تنفيذ فكرة تهجير الفلسطينيين في ظل الحروب والأزمات ، علما بأن ما سبقها كثير ، وما لحقها أيضا كثير .

« انتعاش الفكرة »

عادت فكرة « الترانسفير » الصهيونية فتلقت دفعة جديدة ، وشهدت انتعاشا إضافيا مع مرور الزمن . وقد تجلت ترجمة هذه الفكرة في الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ في ممارستين : أولاهما مصادرة الأراضي العربية ، والاستيلاء عليها بشتى الحيل والحجج القانونية وغير القانونية ، وإقامة المستوطنات اليهودية ، وتوطين القادمين الصهيونيين فيها . وثانيتهما ممارسة مختلف الضغوط وعناصر الإجبار ، وبخاصة الاقتصادية والنفسية منها على السكان الفلسطينيين ، لدفعهم إلى ترك أراضيهم وبيوتهم ، والمغادرة إلى الخارج ، إما سعيا وراء مصادر الرزق والعيش الأفضل ، وإما تخلصا من وطأة تلك الضغوط ، غير أنه يجدر الإشارة هنا الى أن كثيرا من فلسطينيي الأراضي المحتلة أدركوا أبعاد ذلك المخطط ، وأحبطوه بتمسكهم بأراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم ، على الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت بهم ومازال كذلك . وعلى صعيد

مختلف تواصلت في المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ الأفكار والممارسات العنصرية، والدعوات التهجيرية ضد الفلسطينيين. وفي هذا النطاق قامت السلطات «الاسرائيلية»، ممثلة بمختلف أجهزتها وهيئاتها ومنظماتها، بتنفيذ القيود والاجراءات التضييقية، الرامية إلى تيئيس المواطنين الفلسطينيين ومحاصرتهم في مواقعهم. وكان أبرز هذه القيود تلك المتعلقة بعدم السماح لهم بالتوسع العمراني في أراضيهم، على الرغم من التزايد السكاني الكبير في أوساطهم. كذلك استمرت الدعوات السياسية والمخططات العملية والحملات النفسية من أجل ترحيل الفلسطينيين، سواء في الناصرة أو حيفا أو يافا أو عكا أو في غيرها من مناطق فلسطين المحتلة ١٩٤٨. ولعل من أحدث دعوات ترحيل أولئك الفلسطينيين هي تلك الدعوة التي أطلقها دافيد بارليف، نائب رئيس بلدية عكا، في مطلع كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٨، حيث دعا إلى «تهويد مدينة عكا بواسطة الترانسفير الايجابي» كما زعم - أي من خلال «اقناع» العرب بالرحيل.

رموز وأقطاب الترانسفير

لايمكن، من حيث الجوهر، الفصل بين مختلف التيارات الصهيونية والأحزاب «الاسرائيلية» في مسألة الأفكار والمشاريع لتهجير العرب والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم. وقد ثبت ذلك عمليا وممارسة عبر العقود الأربعة الماضية، إذ شارك في الانقضاض على الفلسطينيين وممتلكاتهم زعماء الكيان «الاسرائيلي» على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم. غير أن هنالك، من حيث المقاييس النسبية والتمييزية، مجالا لتصنيف هؤلاء الزعماء في مراتب عديدة متفاوتة، على امتداد طيف الفكر التهجيري نفسه.

لقد احتل الحاخام العنصري مئير كاهانا رأس سلم الداعين إلى فكرة الترانسفير بالقوة وبواسطة الشاحنات، وأصبح بذلك الوجه الأكثر وضوحا ووقاحة في التعبير عن جوهر الفكر الصهيوني. ولا يبتعد عنه كثيرا في مثل هذه الدعوة كل من رحبعام زئيفي، زعيم حركة «موليدت» (الوطن)، أو ميخائيل ديكل، أو أرئيل شارون، أو غيئولا كوهن، أو يوفال نئمان.

كذلك لا يبتعد عنهم من حيث الممارسة كل من اسحق رابين، وزير «الدفاع» «الاسرائيلي»، وأحد قطبي حزب العمل «الحمائمي»، أو الوزير بلا حقيبة يوسف شبيرا الذي سبق له أن طرح فكرة ترحيل العرب مقابل دفع (٢٠) ألف دولار لكل فلسطيني يوافق على الرحيل. وكذلك الحال مع الوزير الليبرالي جدعون بات الذي كان قد صرح قبل سنوات أنه إذا ما أثار «السكان العرب» مشاكل فإن «اسرائيل» ستضعهم في شاحنات تنقلهم إلى خارج الحدود، ناهيك عن أهارون باريف الذي شغل سابقا رئيس شعبة الاستخبارات في الجيش «الاسرائيلي»، ويدير حاليا مركز الأبحاث الاستراتيجية في جامعة تل أبيب، والذي لم يرفض قبل نصف عام إمكانية القيام بالترانسفير. هذا على صعيد الزعماء والقادة والمنفذين لفكرة تهجير الفلسطينيين.

أما على صعيد الحركات والأحزاب والمنظمات «الاسرائيلية» التي تطرح هذه الفكرة وتسعى إلى تحقيقها فأهمها:

(١) حركة «كاخ» بزعامة الحاخام مئير كاهانا.

(٢) حركة «هتحيا» بزعامة يوفال نئمان وغيئولا كوهين.

(٣) حركة «الليكود»، حيث يسعى عدد من زعمائها بصورة علنية أو بصورة سرية إلى تحقيق هذه الفكرة. ومن الجدير بالتحديد هنا أن أبرز حَمَلَةَ لواء الترانسفير في الليكود هم أرئيل شارون ومئير كوهن أبيدوف وميخائيل ديكل، ودافيد بارليف نائب رئيس بلدية عكا.

٤) موليدت - وقد ظهرت هذه الحركة
منصرية قبل أشهر قليلة من إجراء انتخابات
كنيست الثانية عشرة الأخيرة في مطلع تشرين
ثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ . وقد حظيت هذه
حركة بمد وتأييد جماهيري كبير بفضل الأفكار
ترحيلية التي طرحها وكررها ودعا إلى تنفيذها
عيم الحركة المعروف رحبعام زئيفي الذي حاول
ن يطلي اقتراحه العنصري بغطاء من
« الايجابية » . وقد شهدت أفكار حركة موليدت
هذه رواجا متزايدا في بعض الأوساط
« الاسرائيلية » المتطرفة ، وبخاصة في ظل
الانتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ ما يزيد على
عام كامل .

(٥) الحركات الاستيطانية والتنظيمات الصهيونية الإرهابية الجديدة .

جهات الترانسفير

لاخلاف على أن الفكرة الأساسية الداعية إلى تهجير السكان الفلسطينيين فكرة قائمة مترعرعة نامية في أوساط كثيرة من « الاسرائيليين » ، على الصعيدين الرسمي والشعبي . كذلك لا خلاف على أن المساعي « الاسرائيلية » ما تزال مستمرة لتحقيقها . غير أن أهم العوائق أمام القيام بعمليات طرد جماعي للفلسطينيين يتجلى في صعوبة تحديد الجهة : إلى أين ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وفي هذا السياق طرح الزعماء الصهاينة مجموعة من الأفكار ، بغية تحقيق هذا الهدف أهمها :

أ - ترحيل الفلسطينيين العرب ونقلهم جماعيا بواسطة شاحنات إلى خارج حدود الوطن المحتل ، عبر الأردن ولبنان أساسا . ويقع ضمن نطاق هذا التوجه فكرة استغلال الفرص سابقة الذكر .

ب - ترحيل الفلسطينيين العرب ونقلهم من المدن والمخيمات والقرى ، وتجميعهم في أماكن نائية (على أرض فلسطين نفسها) شبيهة « بالكانتونات » ، بغية تسهيل السيطرة عليهم .

ج - الترحيل « الايجابي » . أي إقناع السكان الفلسطينيين بالرحيل والهجرة ، إما بالاغراءات المالية ، أو بواسطة فكرة رحبعام رئيفي « الأخلاقية السامية الايجابية » كما يزعم .

د - التبادل السكاني : وتقوم هذه الفكرة التي تستخدم كغطاء للنوايا الصهيونية الحقيقية على أساس تنفيذ عملية تبادل سكاني متفق عليه ، أي ترحيل الفلسطينيين إلى الأقطار العربية مقابل استيعاب يهود الأقطار العربية .

الخلاصة

تتضح ، في ضوء كل هذه الأطروحات والأفكار والمخططات ، المساعي الصهيونية المتنامية ، الرامية إلى ترحيل فلسطينيي الوطن المحتل عن بكرة أبيهم على مراحل ، أو جماعيا ودفعة واحدة . وبذلك يتضح أن الهدف عند غالبية الصهيونيين كان وما يزال واحدا ، ويتجلى في استمرار حركة العدوان والتوسع والاستيلاء على كل الأراضي الفلسطينية المحتلة ، بما عليها وبما في داخلها من الممتلكات والثروات ، وخصوصا عبر ترحيل أصحابها الحقيقيين وتهجيرهم بشتى الوسائل ، وصولا إلى تعزيز الكيان « الاسرائيلي » وتوطيده وتخليده ، وبالمقابل ، ليس ثمة طريقة لضرب ذلك المخطط الصهيوني وإفشاله سوى الصمود والتصدي المتمثل في حركة المقاومة الفلسطينية ، وفي الطليعة منها ، الانتفاضة الشعبية الراهنة . وغني عن الذكر والتأكيد أن هذه الانتفاضة التي تمكنت من تحقيق جملة من الانجازات السياسية والمعنوية والاجتماعية والاخلاقية والميدانية ، قد تمكنت أيضا من دحر جملة من مخططات الاحتلال الاستيلائية الاستيطانية التهجيرية وإحباطها . ومما لاشك فيه أن استمرار الانتفاضة والمقاومة وتواصلها ، طبعا إلى جانب الموقف العربي الموحد والعمل العربي المشترك . هو الضمانة الأكيدة لتحرير المغتصب من الأرض واستعادة الحق السليب . □

شخصيتك!

بقلم : الدكتور علي الوردي

الكتابات التي تناولت موضوع الشخصية بالدراسة والتحليل كثيرة هي ، ومع ذلك فإن وجهات النظر لم تتفق حولها ، ومازال الجدل والاجتهاد قائمين،وهذه وجهة نظر حول الشخصية ، قابلة للموافقة والاختلاف والحوار .

من الأخطاء الشائعة التي يتداولها الناس ، لاسيما العوام منهم ،خطأ وصفهم لأحد الأفراد بأن له شخصية ، ووصفهم لآخر بأنه لا شخصية له . والواقع أن كل فرد من البشر لابد أن تكون له شخصيته الخاصة به . ومن الممكن تعريف « الشخصية » على وجه التبسيط والايجاز بأنها مجموعة الصفات التي يتميز بها فرد عن آخر . وهناك خطأ آخر يتداوله الناس ، هو أنهم يظنون أن الفرد قادر على أن يصنع شخصيته كما يشاء حسب المبدأ القائل « من جد وجد » . والواقع أن الفرد لا اختيار له أو إرادة في صنع شخصيته إلا ضمن نطاق محدود . فالشخصية هي نتاج التفاعل بين مجموعتين من العوامل : أولاهما عوامل الوراثة التي يولد الفرد بها ، والثانية تلك التي يتلقاها الفرد منذ ولادته من محيطه الاجتماعي الذي ينشأ فيه .

إن الانسان حين يولد يحمل في بدنه صفات ورثها من أبويه ، حسب قوانين « مندل » المعروفة ، كالمواهب ، وشكل الوجه ، والبدن ، وكفاءة الأجهزة البدنية ، والتركيب العصبي والهرموني ، وقوة العضلات وغيرها . وهذه الصفات تدخل في بوتقة المحيط الاجتماعي الذى ينشأ فيه الفرد ، والتي تتكون من البيت الذي يتربى الفرد فيه ، والأقران الذين يلعب معهم ، وشخصية الوالدين ومستواهما الاقتصادى والاجتماعي والثقافي .

« من جد وجد » .. لكن كيف ؟

مشكلة الانسان أنه إذا وهبه الله عوامل وراثية ومحيطية جيدة ، ونال بها شخصية متوازنة ناجحة ، فقد يصيبه الغرور ، ويحسب أنه صنع نفسه بإرادته وحسن تدبيره حسب المبدأ القائل « من جد وجد » وتراه يتعالى على البؤساء الذين

ساء حظهم من جراء عوامل وراثية أو محيطة لا يد لهم فيها . فيعزو سوء حظهم إلى سوء تدبيرهم ، وإلى كسلهم وتقاعسهم ، ثم يأخذ بتوجيه اللوم والتقريع إليهم ، ويفتخر عليهم قائلا : انظروا كيف صنعت نفسي ؟ ! ولماذا لم تعملوا مثلي ؟ ! .

أعرف شخصا كان قد ولد في أسرة متوسطة في مستواها الاقتصادي والاجتماعي ، وقد وهبه الله درجة غير قليلة من الذكاء ، كما وهبه وجها وسيما وقامة رشيقة . ثم ساعدته الظروف والمصادفات في كبره فنال منصبا مرموقا . وقد كان الواجب عليه أن يحمد الله على نعمته ، غير أنه كان يحمد نفسه بدلا من أن يحمد الله

وفي الوقت نفسه أعرف شخصا آخر مات أبوه وهو طفل صغير ، فأخذت أمه تكدح لإعالة نفسها وإعالته وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أجبرته أمه على العمل أجيراً في أعمال البناء وعندما كبر هذا الطفل صار يعمل في سيارات النقل مساعدا للسائق . وكنت أراه كادحا يعمل ساعات عديدة في اليوم لقاء أجر محدود . وحين تحدثت إليه وجدته يشكو من سوء حظه في هذه الدنيا .

الواقع أننا نشاهد في حياتنا من أمثال هذين الشخصين نماذج كثيرة . فالدنيا مليئة بهم . أحدهم مغرور شامخ بأنفه والآخر بائس يشكو حظه .

إن من يريد أن يفهم حقيقة البشر ، وكيف تتكون شخصية كل واحد منهم ، فما عليه إلا أن يتخذ له موقفا منزويا على رصيف أحد الشوارع ، ويتأمل في الأشخاص الذين يمرون به . فكل واحد منهم لا بد أن تظهر عليه بعض صفاته الموروثة . كما يظهر عليه أثر المحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه إن من النادر أن ترى شخصين يتماثلان في جميع مظاهرهما . فكل واحد منهما يختلف عن الآخر في شكل وجهه وبدنه ، وفي نمط الملابس التي يرتديها ومبلغ عنايته بها ، وكيف يمشي في الشارع ، أو ينظر إلى الناس حوله . أو يحييهم أو يسالمهم ، أو يتخاصم معهم ، إن هذه وغيرها هي علامات تدل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تكوين شخصيته ، وكيف أنها نتاج التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة المحيطة

طبيعة المواهب

أشرت آنفا إلى أن المواهب هي من جملة العوامل التي يرثها الفرد من أبويه ، وهي التي لا يد للانسان في صنعها فالانسان يولد بها مثلما يولد بشكل وجهه ، أو طول قامته ، أو قوة عضلاته ، أو ما أشبه ذلك

خذ موهبة الذكاء ، مثلا ، لا سيما الذكاء الحسابي الذي يتمثل في القدرة على تعلم العلوم الطبيعية والرياضيات . فقد تبين الآن أن له خاصية وراثية . وقد أشارت بعض الأبحاث الحديثة إلى أن مخ الذكي يختلف عن مخ الغبي منذ ولادته . فالفرد الذي يولد بغباء موروث لا يمكن أن يتفوق في دراسته العلمية مهما كافح وثابر . إنه قد يتمكن من بلوغ حافة النجاح عند مساعدة الظروف له ، أما التفوق فهو بعيد عنه .

ولعل من المناسب هنا أن أشير إلى بحث نشر مؤخرا حول تشريح مخ عالم الرياضيات المشهور « اينشتاين » . فقد مات هذا العالم منذ زمن غير

قصير ، ولكن مخه حوفظ عليه . وفي الأونة الأخيرة قامت الأستاذة « ماريان دياموند » بتشريح مخ اينشتاين ، وهي اختصاصية في علم التشريح ، وتوصلت إلى نتيجة أثارت الدهشة في الأوساط العلمية . فهي تقول : « إن مخ اينشتاين يحتوي على نسبة مرتفعة من خلايا معينة تزيد على ما هو موجود منها في مخ الانسان العادي بنسبة ٧٣ بالمائة ، وهذه الخلايا لها اتصال مباشر بعملية التفكير والذكاء ». وتستنتج الأستاذة دياموند من ذلك قائلة : « إن هذا هو السر في عبقرية اينشتاين ».

إن اينشتاين في الواقع يعطينا نموذجا لتفاعل الوراثة مع عوامل البيئة المحيطة في تكوين الشخصية . فمن حسن حظ اينشتاين أنه نشأ وعاش في بيئة متقدمة حضاريا ، وفيها من الجامعات والمعاهد العلمية أرقاها ، وقد أتيح له أن يدخل في تلك المعاهد ، حيث اكتشفت فيها موهبته النادرة ، وتمكن هو من استثمارها إلى أبعد الحدود . ولو فرضنا أن اينشتاين قد عاش في قرية متخلفة ، بدلا من تلك البيئة المتقدمة ، فلربما كانت موهبته شؤما عليه .

المعروف عن اينشتاين أنه بمقدار ما كان عظيما في ذكائه الحسابي كان ضعيفا في ذكائه اللغوي ، ويقال عنه انه كان لا يحسن الحديث إذا تكلم . وقد حدثني شخص تعرفت عليه في الولايات المتحدة ، وكان هو قد التقى باينشتاين في أواخر أيامه ، وتحدث معه ، فقال لي : « إن من يستمع إلى اينشتاين وهو يتكلم قد يصاب بخيبة أمل ، وقد يتعجب كيف تمكن هذا الرجل من إبداع نظرية النسبية ، وهي النظرية الكبرى التي غيرت مجرى الفكر البشري في العصر الحديث ».

كان اينشتاين في صباه يبدو عليه الغباء بسبب ضعفه اللغوي . وقد ظن أهله أنه لا خير فيه .

ولنفرض أن اينشتاين قد نشأ في بيئة تقدر الأدب والشعر كل التقدير ، ولا تهتم بالعلوم الطبيعية والرياضية ، فماذا سوف يكون مصيره فيها ؟! أو لنفرض أن شخصا آخر وهو موهوب كاينشتاين ، ولكنه هزيل البدن ، نحيف . نشأ في بيئة تقدر القوة والغلبة وممارسة القتال أرجح الظن أنه سينال من الصفعات عددا وفيرا ، وسيبقى طوال حياته يشكو من سوء حظه في هذه الدنيا على طريقة « خائب ياحظي » ! .

إن كل بيئة اجتماعية لها معاييرها وقيمها الخاصة بها ، كما أن لها مجالاتها ومهنها التي يتاح للإنسان النجاح ونيل التقدير بها . فالناجح في بيئة قد يخفق في بيئة أخرى . والويل لمن ينشأ في بيئة لايملك هو موهبة أو صفة مرغوبا فيها ، أو لم تساعده الظروف على استثمار موهبته في حالة وجودها فيه .

الأمراض النفسية :

إن الأمراض النفسية كثيرا ما تكون لها جذور وراثية على نحو ما ذكرناه عن المواهب . فالجنون مثلا ، لابد أن يكون في الفرد استعدادا وراثيا لكي يصاب به ، ثم تأتي الظروف المحيطة بعدئذ لتزيد من تأثير ذلك الاستعداد في صاحبه أو تنقص منه .

ذكرت إحدى المجلات العلمية مؤخرا عن دراسات قام بها بعض الباحثين في المخ البشري ، وفحواها أن الجنون قد ينشأ عن خلل في بعض خلايا المخ ناشيء عن عامل وراثي . وذكرت مجلة أخرى عن دراسات أخرى مؤداها أن الجنون قد ينشأ عن خلل في التوازن الكيميائي في المخ .

وعلى كل حال فإن التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة المحيطة يظهر أثره واضحا في تكوين شخصية المجنون . فقد أشارت بعض الاحصاءات الاجتماعية إلى أن معدل الإصابة بالجنون بين الفقراء هو أكبر جدا منه

بين الأغنياء . وليس من الصعب معرفة السبب في ذلك . فالفقير هو عادة أكثر عرضة للفشل في حياته من الغني ، كما أنه أكثر عرضة لاحتقار الناس واستهزائهم وتقريعهم ، فإذا كان لديه استعداد وراثي للجنون ، فإن هذا الاستعداد يزداد فيه من جراء المعاملة السيئة التي يعاملة الناس بها . وعلى النقيض من ذلك يكون الغني او صاحب الجاه ، فإذا بدرت منه بوادر الجنون فإن الناس لايؤذونه أو يستهزئون به على نحو ما يفعلون مع الفقير ، وربما ازدادوا له احتراماً ، وقد يعدّون بادرة الجنون منه من بوادر العبقرية ! .

يجب أن لاننسى أن الإنسان يجد في الجنون ملاذا يلوذ به تجاه مشقات الحياة واخفاقاتها . فالفرد حين يخيب أمله في نيل المكانة العالية التي كان يطمح إليها تراه يلجأ إلى الخيال ليخلق لفسه المكانة التي يشتهيها ، وهو بدلك يدخل في عالم الجنون . ومشكلة الناس أنهم في أكثر الأحيان لايساعدون مثل هذا الفرد للتخلص من جنونه إذا كان فقيرا ، بل هم يزيدون من وطأة الجنون عليه باستهزائهم به وايذائه ، وهم بذلك يدفعونه في عالم الخيال عاليا .

الخلاصة

خلاصة ما أردت قوله في هذه المقالة هي أن شخصية الانسان ليس في مقدور صاحبها أن يصنعها كما يشاء حسبما ورد في الأقاويل التي كانت متداولة بين الناس ، ومازالت كذلك كقولهم : « كل من جد وجد » و« كل من سار على الدرب وصل » و« كل من جال نال » « من طلب العلا سهر الليالي » و « همم الرجال تزعزع الجبال » ، الخ .

إن هذه الأقاويل قد تنفع في مجال توجيه الناشئة لتحريضهم على الجد وبذل الجهد ضمن حد محدود ، ولكنها لا تنفع في فهم الشخصية البشرية كما هي في الواقع . وما أكثر الضحايا الذين سقطوا في ميدان الحياة من جراء تصديقهم لهذه الأقاويل .

إن الشخص الذى يطمح إلى النجاح في مجال أو مهنة ، وهو لا يملك الموهبة المناسبة له ، لابد أن يكون مصيره الفشل الذريع . أعرف أشخاصا أرادوا أن يكونوا أدباء مشهورين ، أو علماء فطاحل دون أن تكون لديهم المواهب الملائمة ، ورأيتهم يقصون حياتهم بالدأب المتواصل الذى لاجدوى فيه . فكانوا يسهرون الليالي في طلب العلا ، وعندما عجزوا عن نيل العلا كما كانوا يطمحون إليه صاروا يصبون نقمتهم على بعض الظروف أو الأشخاص يعزون إليها سبب فشلهم . وكان الأحرى بهم أن يعزوا سبب فشلهم إلى تلك الأقاويل المغلوطة التى صدقوا بها . □

قالوا في الصدق :

● قال تعالى : «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» (صدق الله العظيم) .

● وقال عمر : «عليك بالصدق وإن قتلك» .

● وروي عن عائشة قولها : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بم يعرف المؤمن؟ قال : بوقاره ، ولين كلامه ، وصدق حديثه» .

● وقيل : «الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة» .

العربي عيونك على العالم

الكويتي في بيوت الاوربيين

استطلاع : أنور الياسين تصوير : طالب الحسيني
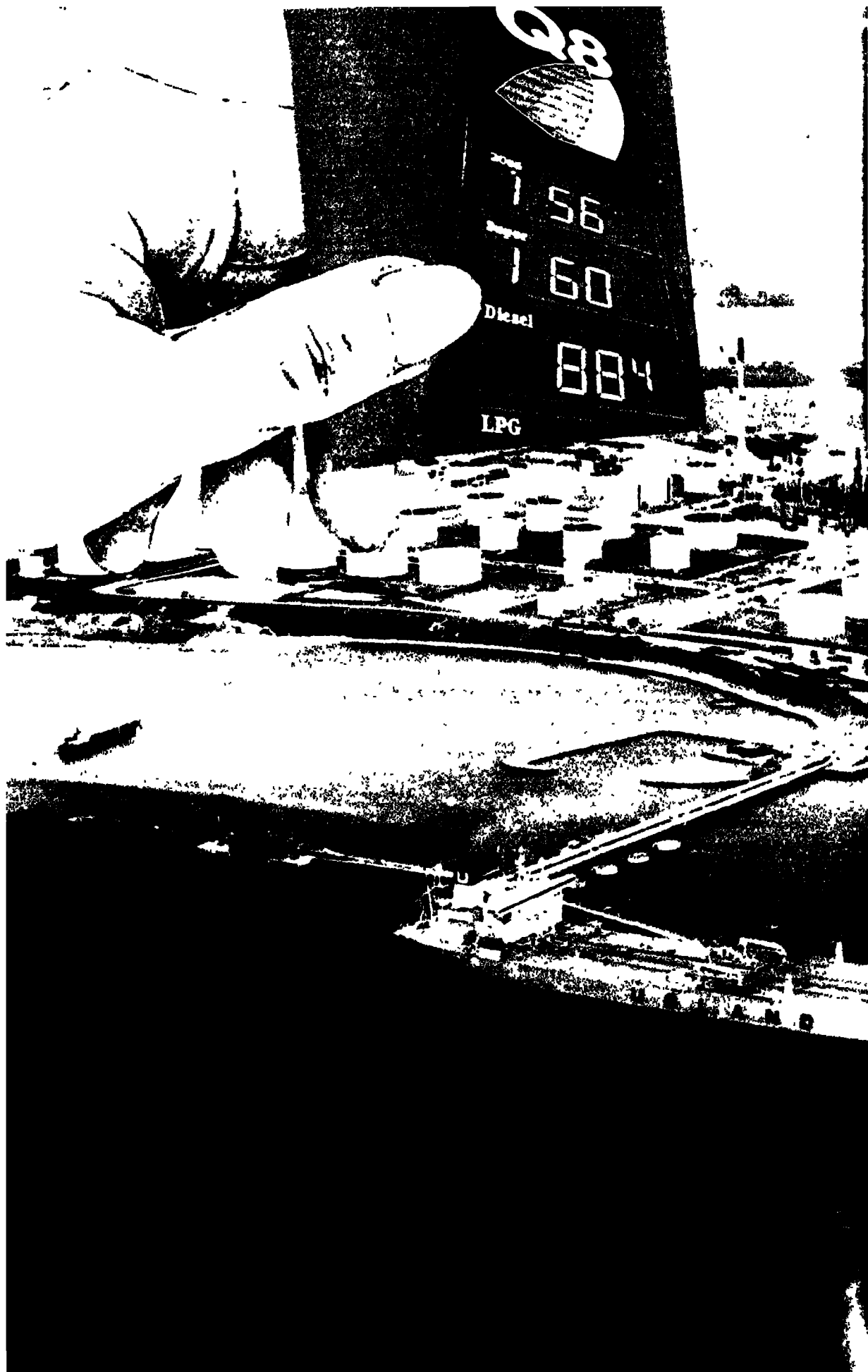
أرادت « العربي » أن تقدم هذه المرة ، استطلاعا عن قصة نجاح بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى ، قصة نجاح ساهم فيها التخطيط والعقل والإرادة ، وفكرت فيها عقول وطنية خيرة ، ونفذها رجال مازالوا خلف الأضواء .

إنها ببساطة اقتحام سوق النفط ـ ليس في الانتاج فقط ـ ولكن في التكرير والتوزيع ، قصة هذا النجاح يدرسها آخرون لتطبيقها ، ولكنها ما كانت لتنجح ـ لولا شجاعة القرار والتصميم على التنفيذ .

نحن قادمون من أقصى نقطة في طرف الصحراء العربيه ، عند أطراف جناح الوطن العربي الشرقي ، من الأحمدي والوفرة وبرقان ، وذاهبون إلى أطراف الدنيا ، عند ركنها الشمالي وأطرافها الباردة ، إلى الدانمارك وهولندا وبلجيكا وبريطانيا والسويد ولوكسمبرج

من آبار النفط في الوطن العربي إلى محطات التوزيع المباشر في شوارع أوربا ، حيث تنتشر محطات شركة كويتيه عربيه هي (Q8) لتوزيع النفط إلى المستهلك مباشرة . « النفط » قصة طويلة مليئة بالمؤامرات والاستغلال والتحدي والاستقلال ، قصة تلخص تاريخا طويلا من الإراده والدهاء .

حوله دارت المطامع والرغبة في السيطرة ، وبه استطاعت أقطار النفط العربية أن تخوض معارك التنمية ، وتملك ثرواتها الوطنية كاملة

والقصة طويلة ، بدأت منذ الربع الثاني من هذا القرن .

بدايات أولى

تدفق النفط في الكويت في فبراير ١٩٣٨ ، وكانت شركة نفط الكويت يومئذ ملكا لشركتين بريطانية وأمريكية ، طوال فترة الحرب العالمية الثانيه أوقف البريطانيون ضخ النفط ، وبعد انتهائها تم تصدير أول شحنه نفط من الكويت ، في ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٦ ، في عام ١٩٤٩ تم بناء أول مصفاة تكرير في الأحمدي ، وتوسعت بعد ذلك في عام ١٩٦٣ ، وبنيت مصفاة أخرى في منطقة الشعبة عام ١٩٦٨

ومع بداية السبعينيات بدأت الكويت في التفاوض والصراع الهادىء من فوق السطح الملتهب في « الكواليس » ، لتستكمل سيطرتها على ثرواتها النفطية ، حتى تحققت السيطره الكاملة على كل نفط الكويت في مارس ١٩٧٥

وعلى الرغم من استكمال سيطرة البلدان النفطة على مصادر ثرواتها ، فقد كانت كل عمليات نقل النفط وتكريره وتوزيعه في أيدي شركات عالمية ، وكانت هذه الشركات العالمية الكبرى تحتكر (امتلاك أو سيطرة ٧٠٪) من صناعات التكرير العالمية ، وتملك اكثر من نصف عدد ناقلات النفط في العالم ، ولذلك ظلت هذه الشركات العالمية تفرض السعر الذى تراه لبرميل النفط ، واستمرت العملية حتى بعد استكمال البلدان المصدره لسيطرتها على ثرواتها النفطية

وهكذا لم تكن كل عائدات النفط كاملة تذهب إلى أصحاب الثروة الحقيقيين ، فثمن برميل النفط أقل كثيرا من عائد بيع البرميل بعد كل عمليات التكرير .

وأصبح للقصة شكل آخر من أشكال الثراء والمال ، وشكل من أشكال استغلال الثروة ، حتى كسرت الكويت هذه الدائرة ، وخرجت إلى

● حريطة اور با حيث تمتد نشاطات واستثمارات شركة البترول الكويتية العالميه (Q 8)

العالم كله بوجه مبتسم هادىء ، واثق بسياسته العقلانية الحكيمة . فقد دخلت ليس في عمليتي التكرير والنقل فقط ، بل في التوزيع أيضا . وأصبح نفط الكويت من الانتاج حتى الاستهلاك ، بلا وسطاء ، وبلا استغلال ، وبلا سمسرة ، . وأصبح عائد الثروة كاملا لأصحابه . كيف تم ذلك ؟ إنها قصة نجاح تواصل خطواتها بهدوء ، وتقدمها العربي كما رصدتها

وجه مشرق في عواصم العالم

في عام ١٩٨٣ نشأت مؤسسة البترول الكويتية شركة البترول الكويتية العالمية (K P I) ومقرها لندن ، وهي شبكة من الشركات الفرعية في ست دول أوربية ، وكانت هذه الخطوة واحدة من استثمارات عديدة تمارسها الكويت في قطاعات النفط داخل القلعة الاقتصادية للبلدان الأوربية .

وقد بدأت هذه الشركة التي اختارت لها اسما تجاريا (Q8) بشراء ممتلكات شركة جلف اويل في أوربا كلها ، ثم شراء محطات توزيع المنتجات النفطية التابعة لشركة (B. P.) البريطانية . وأصبح اليوم للشركة قرابة ٥٠٠٠ محطة توزيع (بنزين) في كل من هولندا وبلجيكا ولوكسمبرج والدانمارك والسويد وايطاليا وبريطانيا ، إلى جانب مصفاة تكرير للنفط في هولندا طاقتها التكريرية ٧٥ ألف برميل في اليوم ، وأخرى في الدانمارك طاقتها ٦٥ ألف برميل يوميا ، وتملك عدة مصانع لإنتاج الزيوت ، وعدة مرافق لتزويد الطائرات بالوقود في عدد من المطارات الدولية في أوربا .

ويبلغ إجمالي ما توزعه محطات الشركة في أوربا الغربية (٢٥٠ ألف برميل يوميا ، أي ٢٥٪ تقريبا (في المتوسط) من إجمالي حصة الكويت الانتاجية من النفط في الأوبك ، وفق اتفاقيات توزيع الحصص بين البلدان المصدرة للنفط (هذا الرقم تقريبي حيث يختلف توزيع الحصص بين فترة وأخرى)

الخطوط الرئيسية لاستراتيجية النفط في الكويت

لم تحظ سلعة في العالم باهتمام مثل النفط ، فقد أصبحت الدول تحدد سياسات النفط وتديرها بأجهزة كاملة ، وتستخدم العلم والحسابات والتخطيط والاقتصاد والسياسة والجغرافيا في صناعة القرار المتعلق بالنفط وعملياته ولفهم طبيعة السياسات النفطية بالكويت والقواعد التي تحكمها طرحت « العربي » تساؤلات محددة على وزير النفط الكويتي الشيخ علي الخليفة العذبي الصباح ، عن سياسة الاستثمار النفطي في الخارج ، وكيف استطاعت الكويت أن تكسر حصار الشركات النفطية العالمية ، وعائد هذه الاستثمارات ومستقبلها ، ومستوى الأداء في شركة البترول الكويتية العالمية« Q8» ، واحتمالات توسع الاستثمارات النفطية ، وخاصة في الوطن العربي .

يقول وزير النفط الكويتي :

على الرغم من أن لدى الكويت ثروة نفطية ـ مؤكدة ـ لأكثر من ٢٠٠ عام فإن الكويت مازالت تبحث عن أماكن جديدة لاستخراج النفط واستثماره ، إضافة إلى أنها عبر مؤسستها النفطية الوطنية دخلت إلى جانب مؤسسات النفط العملاقة في اقتحام سوق التوزيع والتكرير في أنحاء كثيرة من العالم. لقد اتجهنا نحو الخارج لأسباب « استراتيجية » ، بهدف توسيع قاعدتنا ، ودخلنا في سوق التوزيع الخارجي لتوفير منافذ للبيع بالتجزئة لمنتجاتنا النفطية ، وكذلك دخلنا مجال الانتاج والاستكشافات ، ونحن اليوم ننتج النفط في أكثر من بقعة في العالم ، ولدينا احتياطي مؤكد كبير من النفط ، وهناك مجالات لزيادة هذه الثروة مع تقدم التقنية واكتشاف حقول جديدة .

وقدرتنا الانتاجية رغم مبالغ فيه في الانخفاض ، نظرا لأوضاع السوق النفطية الحالية ، فحسابات الاحتياطي هذه تمت وفق معدل إنتاج يصل إلى حدود مليون ونصف مليون برميل يوميا ، إذن فإن استمرارنا في السوق النفطية وحجم احتياطاتنا هما اللذان سيحكمان سياستنا للمدى البعيد ، ويجعلاننا نحاول أن نكون فاعلين وموجودين ومؤثرين وشركاء في السوق العالمية بصورة متنامية ، ونحاول أن نحافظ على ذلك بالوصول قدر المستطاع إلى المستهلك النهائي دون وسطاء . وبدل أن يكون وصولنا إليه عن طريق شركات تقوم بعمليات التكرير والتوزيع ، فقد شرعنا خلال الفترة الماضية نركز على المصافي وعملياتها ، ونستثمر في هذا القطاع مبالغ ضخمة لتحديثه ، حتى أصبحت أحدث المصافي الموجودة في العالم كويتية ، وتبلغ طاقتها التكريرية حدود ٧٥٠ ألف برميل .

وسياستنا في قطاع المصافي تهدف إلى انشاء قاعدة تصنيع ، متاحة موادها ، ومضمون سوقها ، وأن نصبح بذلك بلدا مصدرا للمواد التي يستعملها المستهلك بصورة نهائية وليس مصدرا للمواد الخام .

وهناك عدة منطلقات تنتهجها الكويت في سياستها النفطية هي :

أولا : أننا يجب أن نحافظ على السوق .

ثانيا : يجب أن نحافظ على النفط لكي نستغله كقاعدة لقيام صناعة ذات مستوى عال من الكفاءة .

ثالثا : إدراكنا بضرورة الوصول إلى المستهلك مباشرة .

وقد قطعنا شوطا كبيراً في تحقيق هذه المنطلقات ،

دعني هنا أصحح فكرة سائدة عن حسابات البعض للمصافي وصناعة التكرير ، فالمستقر عليه في هذا المجال أنك لا تنظر إلى عائد صناعة التكرير سنة سنة ، لكن تنظر إلى المجمل العام عدة سنوات ، فعملية التكرير تمر بمراحل ودورات ، وتتأثر بعوامل كثيرة ، فهناك سنوات يكون

هامش الربح فيها قليلا ، وسنوات أخرى يكون العائد ممتازا ، وهكذا . ولولا أن صناعة التكرير صناعة ذات عائد على المدى البعيد لما تصارعت عليها شركات النفط العالمية الكبرى واحتكرتها لنفسها سنوات طويلة .

أما التوزيع فهامش الربح فيه لا يكون مرتفعا جدا ، لكنك في النهاية تؤمّن سوقا . ومهما كانت التقلبات في الأسعار ، ومهما كانت ظروف السوق ، فأنت الذي تتحكم فيه وليس العكس ، أما إذا بعت النفط خاما فقط فإن الشركات تشترى منك النفط الخام أو المكرر وتعطيك حدا أدنى من الأسعار ومن الاستقرار لمبيعاتك النفطية . ونحن لا نريد أن نكون تحت رحمة شركة ما أو موزع لهذه السلعة « الاستراتيجية » .

وفيما يتعلق بمستوى الأداء في Q8 فنحن نشعر بالرضا عن أداء الشركة ، للنجاحات التي تحققها ، وعلى الرغم من ذلك لدينا نظام دقيق للمتابعة . نعقد اجتماعا كل ثلاثة شهور ، لنناقش أهدافنا النوعية والكمية ، وماذا تحقق ، وماذا لم يتحقق ، ولماذا ، وكيف نطور أداءنا ، وما إلى ذلك من سياسات ، لأن وجودنا في السوق الأوربية يخضعنا لقواعد لعبة السوق الحرة المنتشرة في أوربا ، المفتوحة للتنافس ، فالشركات هناك لا تترك لك فرصة للجلوس على نصر حققته ، أو على شيء جيد توصلت إليه ، فالعملية كلها عملية منافسة مستمرة وتطوير مستمر ، وإلا فلن تستطيع الاستمرار في السوق .

وقد يتساءل البعض : وماذا عن الوطن العربي ؟

وإننا كمؤسسة البترول الكويتية ، وأشرك الحكومة الكويتية إلى جانب مستثمرين في الوطن العربي بحجم كبير ، لدينا استكشافات في جمهورية مصر العربية ، وقد بدأنا في إنتاج النفط في حقل (أمل) ، في خليج السويس ، بمقدار ٧٠٠٠ آلاف برميل يوميا ، ولدينا امتيازات أخرى في مصر ، مثل منطقة رأس الكنايس في صحراء مصر الغربية ، إضافة إلى أننا نقوم بعمليات التنقيب عن النفط في تونس ، لكننا حتى الآن لم نوفق في العثور عليه بكميات تجارية ، لكن عمليات التنقيب مستمرة ، حيث لا نتوقع النجاح في كل محاولة أيضا . ولدينا أيضا أعمال مماثلة في السودان ، لكن نظرا للظروف الحالية في الجنوب فالعمليات والنشاط متوقفان ، وسوف نباشر عملنا بأسرع وقت ممكن متى تهيأت الظروف .

ولدينا امتياز في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وقد بدأنا في البحث عن كيفية التعاون مع الإخوة في الجمهورية العربية اليمنية ، وكذلك لدينا استثمارات أخرى في بعض المناطق في الوطن العربي .

أما بالنسبة لاستثمارات (Q8) ودخولها في الأسواق العربية ، وانتشارها في الأقطار العربية ، ودخولها أسواق التوزيع فيها ، فنحن لا نريد التوسع في (Q8) إلا في المناطق التي نستطيع فيها أن نزود هذه المحطات بالنفط الكويتي ، سواء النفط الخام أو منتجاته ، وفي غالبية الأقطار العربية تنقسم العملية إلى قسمين : إما أقطار مصدرة للنفط ، وفي هذه الحالة لا تحتاج إلى نفطنا ، وإما أقطار مستوردة ، وفي هذه الحالة تقوم الحكومة أو شركة حكومية باستيراد النفط بصورة مباشرة .

فالتوزيع في الأقطار العربية مجاله محدود لكن هذا لا يمنع أن نستثمر في أي قطر عربي تسمح ظروفه

وزير النفط الكويتي الشيخ علي خليفة الصباح يتحدث « لمجلة العربي »

كوبنهاجن من طرف العالم الأقصى

كانت الطائرة تزحف على الممر ، تمهيدا للوقوف . من النافذة بجوار مقعدي كانت أضواء كوبنهاجن تختبىء خلف الضباب والثلج . هنا أقصى أطراف الدنيا ، آخر جزء من اليابسة من أوربا ، يمتد في بحر الشمال ، شمالها بعد بحر الشمال النرويج والسويد وفنلندا ، سقف العالم ، وقربها بحر البلطيق ، وغربها بحر الشمال ، فتبدو الدانمارك كشبه جزيرة محاطة بالماء البارد . وتصب عندها حضارات أوربا كلها .

في قاعة المطار استقبلنا مندوب فرع شركة البترول الكويتية العالمية . وفي طريقنا إلى الفندق أخذ يحدثنا عن الشركة فقال .

كما ترى على طول الشارع ، وفي كل مكان ، محطات تزويد السيارات بالوقود تحمل شعار (Q8) ، وهي كما تعلم ملك لمؤسسة البترول الكويتية ، ليس هنا في كوبنهاجن فقط ، بل إنها منتشرة في جميع أنحاء أوربا الغربية ، وتحظى هذه المحطات بإقبال منقطع النظير من جمهور المستهلكين الأوربيين .

سألته : لماذا يقبل الناس على هذه المحطات وليس على غيرها ؟

فقال : الناس هنا متقبلة للشعار الجديد (Q8) الذي بدأ يغزو كوبنهاجن مؤخرا ، فهو بسيط واضح ، يتمشى مع الشروط والمتطلبات التي تضعها جمعيات حماية البيئة ، فليس هناك إشارات تحمل أنوارا ساطعة ، بل أكثر من ذلك فنحن في الشركة ملتزمون باتباع شروط البلدية من ناحية الشكل العام للمدينة . والناس هنا تعلم تماما أن هذه الشركة تملكها الكويت ، القطر العربي الناهض في أقصى الخليج العربي .

لقد عد الناس هنا رفع علامة التسويق الجديدة الخاصة (Q8) بدلا من علامة « جلف » حدثا مهما في صناعة النفط الأوربية ، علما بأن علامة (Q8) هي أول علامة نفطية دولية جديدة تطرح في أوربا منذ أكثر من خمسة عشر عاما .

وكما ذكرنا سابقا فقد لقيت هذه العلامة الجديدة قدرا كبيرا من الاستحسان والقبول ، وأصبحت مألوفة بسرعة ، كما أصبحت أحد معالم الطرق السريعة كما ترى .

كوبنهاجن عاصمة الدانمارك تملك مزيجا فريدا بين المدينة العصرية والقديمة ، فأنت إذا ما قرأت مسرحية شكسبير (هاملت) فانك لابد أن يمر عليك ذكر قلعة « كروان برج » ، وقصص الفايكنج ومغامراتهم . وهذه القلعة آية في الجمال ، تبعد ٤٠ دقيقة بالسيارة عن العاصمة كوبنهاجن ، وتطل على الميناء ، ومنها تستطيع رؤية البر الأوربي المقابل (السويد). من المعالم البارزة في العاصمة ساحة (املوبرج) التي شيدت في القرن الثامن عشر ، والتي تعد واحدة من أجمل ميادين مدن العالم ، حيث يطل عليها القصر الملكي . وإذا ما تجولت فيها ساعة الظهر فلا بد أن يلفت انتباهك تغير الحرس الملكي .

أما عروس البحر فهي هدية الشاعر الكبير (افراد أركسون) التي قدمها هدية للمدينة رجل الصناعة « كازبلرك » عام ١٩١٣ ، تقبع على مدخل ميناء كوبنهاجن ، وهي محطة للسائحين من جميع أنحاء العالم

في مقر الشركة الكويتية الدانماركية للبترول استقبلنا المدير العام « بوب فاتنغ » في مبنى رائع الجمال . على ناصية الطريق إلى مدخل المبنى محطة (Q8) لتعبئة السيارة بالوقود . طاف المدير بنا في أرجاء المبنى بسرعة والكل يعمل بنشاط وحماس ، فالعمليات العالمية وتحويلات المبيعات للعملاء تدار من هنا ، فهنا شبكة واسعة من « الزبائن » على امتداد الدانمارك .

يقول (بوب) : نحن نملك ٦٥٤ محطة تعبئة في الدانمارك ويشكل ذلك أكبر شبكة للبيع بالمفرق في الدنمارك إضافة إلى ثمانية مراكز

● المدير العام للشركة الكويتية الدانمركية العالمة لبترول السيد بوب فاتنغ

للشاحنات ، وهي عبارة عن محطات خاصة للشاحنات الثقيلة فقط التي تطوف طرقات اوربا السريعة ، فتقدم هم خدمة الديزل فقط ، إضافة إلى غسيل السيارات والصيانة البسطة ، ويتم الدفع عن طريق الاشتراكات وببطاقات الائتمان .

كما أننا نوزع المنتجات الكويتية على بقية أرجاء الدانمارك والسويد عبر سفن صغيرة يتم استئجارها ، وذلك بعد تكرير النفط الكويتي الخام في المصفاة التي تملكها الكويت هنا في (Gulf Hewven) جلف هيفن ، كي يكون ذلك مناسبا للسوق الأوربية

نحن في (Q8) الدانمارك يتابع المدير القول : لقد دخلنا الأسواق بمظهر جديد وخدمة ممتازة وسريعة ، ومحطات خدمة جديدة وشكل متميز ، والعاملون لدى الشركة يشعرون أنهم ينتمون إلى شركة ناجحة متقدمة ، فالنجاح الواضح يدفع الجميع كي يحافظوا على النجاح ، ويشعر العاملون أن مستقبلهم هو مستقبل هذه الشركة . ونحن قد بدأنا تحقيق بعض الأرباح في الفترة الأخيرة ، وهذا راجع للمكانة والسمعة اللتين حظينا بهما بين جمهور المستهلكين . وأنت تعلم أن سوق المنافسة واسع وكبير ، وشركات النفط الأخرى لن تتركنا نأخذ زبائنها في السوق بسهولة . فنحن ثاني أكبر شريك في السوق الدانماركية ، بعد شركة شل التي تملك حوالي ٢٦٪ ، فنحن نملك ما يقارب ٢٤٪ من السوق المحلية .

بين الخضرة والطبيعة تعيش (Q8)

ونحن نبيع وقود التدفئة على المنازل ، ولدينا أسطول كبير من عربات نقل هذه المنتجات إلى المستهلك ، ونبيع أيضا زيوت السيارات والديزل والبنزين وغير ذلك من المنتجات النفطية . في الطريق السريع إلى الجنوب الشرقي من كوبنهاجن في طريقنا لزيارة إحدى المصفاتين اللتين تملكهما شركة البترول الكويتية العالمية في أوربا توقفنا في الطريق لتعبئة سيارتنا بالوقود في إحدى محطات (Q8)، فوجدناها نموذجية متطورة خدماتها سريعة ، وبأحدث الطرق التقنية . إذ ليس هناك جهاز يعمل يدويا ، فكل أجهزتها تعمل بالحاسوب « الكمبيوتر » ، من تعبئة السيارة إلى المحاسبة ، والمحطة مزودة بكل وسائل الراحة ، من علبة « الشوكلاته » إلى جهاز « الفاكس ميلي » (الاتصال بالصورة والصوت عبر الهاتف) وبها مطعم من الدرجة الأولى ، وخدمة غسيل السيارات . وتبديل زيت المحرك ، وفحص المحرك وتبديل الإطارات وصيانتها بسهولة ويسر .

الطريق إلى المصفاة يمر بك في منطقة زراعية رائعة الجمال ، بساط أخضر تتخلله طواحين الهواء التي كانت تستخدم لتوليد الكهرباء وجلب المياه ، والأبقار الدانماركية الحميمة في قطعان كبيرة منتشرة . لم أكن أتخيل أن هذه الطريق تؤدي إلى مصفاة (Q8) إلا عندما رأيت مداخن المصفاة والنار المشتعلة من حرق قليل من الغاز غير المستعمل في الهواء . تقع المصفاة على خليج

(١)
(٢)
(٣)
Q8
(٤)

(٥)

١) كوبنهاجن عاصمة الدانمارك حيث يمتزج القديم بالحديث ، ويتمتع الأطفال بالتعرف على معالم المدينة التاريخية

٢) الدراجة الهوائية أداة نقل البريد السريع داخل مصفاة النفط في « جلف هيمن »

٣) غرفة التحكم الرئيسية في مصفاة « جلف هيمن » التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية في الدانمارك

٤) « عروس البحر » أو « معبودة السواح » جاثمة على مدخل ميناء كوبنهاجن

٥) واحدة من محطات توزيع الوقود المنتشرة في كوبنهاجن التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية (Q8)

في جنوب غرب كوبنهاجن ، وقد أنشأتها شركة جلف عام ١٩٦٣ ، وأصبحت تملكها بعد شرائها مؤسسة البترول الكويتية عام ١٩٨٣ . وبها ميناء بأربعة أرصفة ، يتسع لتحميل وتفريغ ناقلات نفط تصل حمولتها الى ١٥٠ ألف طن من النفط الخام أو مشتقاته ، إضافة إلى تسهيلات في تحميل شاحنات الوقود التي تملكها الشركة ونقلها إلى المستهلكين في أرجاء الدانمارك والسويد . يقول السيد بيتر وستر ، المدير العام للمصفاة . إن (Q8) عندما بدات العمل بالمصفاة عام ١٩٨٣ كانت المصفاة تنتج ٥٥ ألف برميل يوميا ، وتم إغلاق أجزاء من المصفاه ، وفي أقل من عام عاد المعدل مرة اخرى إلى وضعه الطبيعي بسبب الثقة التي وضعتها الشركة في إمكانية ان نصبح هذه المصفاة واحده من ادوات استثمارات الكويت المستقبليه في غرب أوربا . أما في أواخر عام ١٩٨٨ فإن معدل إنتاج المصفاة قد بلغ ٦٠ ألف برميل من النفط الكويتي الخام الذي يأتي إلينا إما مباشرة من الكويت أو من خزانات الشركة في هولندا ، والنفط الذي يأتي إما نصف مكرر أو نفط خام ، والمصفاة لديها الإمكانية الكاملة لتلبية حاجات السوق من مختلف المنتجات ، كزيوت التدفئه ووقود الطائرات والسيارات وغير ذلك من مشتقات النفط الخام

ويعمل في المصفاة حوالي ٢٠٥ من الفنيين والمهندسين والعمال . والعمل بالمصفاة على مدار الساعة . وعلى بوابة المصفاة ينتصب رمز تذكاري لأبراج الكويت . سألنا أحد العاملين ما دلالة هذا ؟ فقال : إن هذا النصب التذكاري هدية من العاملين في المصفاة ، قدموه للشركة بمناسبة مرور ٢٥ سنة على إنشائها ، وقد اخترنا هذا الشعار تقديرا وعرفانا بمساهمة الكويت في التقدم والتطور اللذين حدثا للمصفاة منذ أن دخلت (Q8) للمصفاة كمالك جديد .

دعونا عمال المصفاة للغداء في المطعم الخاص بالمحطة لتناول وجبة دانماركية خاصة ، ولم تكن الأمور معدة سابقا ، فقد فضلنا أن تكون طبيعية ، وأن ننتهزها فرصة للحديث عن انطباعاتهم عن الكويت ، وماذا يعرفون عنها ، وهل هم مرتاحون من العمل في المصفاة ، فكان شعور الجميع حقا مثار دهشة وإعجاب لدينا . فهم يعرفون تفاصيل دقيقة عن الحياة والتقدم الذي نعيش فيه هنا على أرض الكويت ، وكلهم يقولون : إنهم سعداء جدا بموقف الكويت في معالجتها لحادث اختطاف ركاب الطائرة « الجابرية » في ابريل ١٩٨٨ .

سألنا مسؤول العمال في محطة التحكم الرئيسية أيلم نلسون وهو يعمل منذ ٢٥ سنة بالمصفاة ، عن انطباعاته عن العمل في المصفاة . فقال : إن التطوير الذي أدخلته (Q8) على المصفاه ، وعلى أجهزة التحكم في تشغيل المصفاة ، يعد تطورا كبيرا خلال الخمس سنوات الأخيرة . فبعد أن كانت هذه الأجهزة تعمل بالهواء المضغوط ، وبالأجهزة الالكترونية العادية ، أصبحت الآن تعتمد على « الميكرو بروسسور » والأجهزة الرقمية وأجهزة « الكمبيوتر » ، وهي تساعد العاملين على التحكم بطريقة أفضل وأسهل في تشغيل وحدات المصفاة ، وخاصة عند بدء التشغيل ، و في أثناء التوقف المفاجىء في حالات الطوارىء ، وكذلك في عمل التعديلات والإضافات على دوائر التحكم بسهولة عن طريق الشركة . وقد تمكنت المصفاة عن هذه الأجهزة ، وبحماس العمال وانتظامهم في العمل ، من زيادة كفاءة وحدات التشغيل ، وتوفير الكثير من النفقات . وقد كان ذلك بالطبع بالتدريج ، وحسب برنامج زمني وضع لتحديث المصفاة ، وأضاف قائلا : إننا الآن نشعر بالثقة والأمان أكثر من أي يوم آخر ، إن طريق المراقبة وأجهزة الأمان والوسائل الحديثة للمحافظة على البيئة،وعدم رمي المخلفات الناتجة عن التكرير في البحر ، وكل هذه عوامل قد

● مدير مركز الأبحاث والتقنية التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية السيد هلجر

ساعدت الشركة على كسب ثقة الجميع في المنطقة ، ووست سمعة واسعة للشركة في أرجاء الدانمارك

في طريق العودة طاف في مخيلتي التفكير في مقدار الجهد الذي يبذل حتى تسير بنا السيارة في الطريق ، إنها عملية شاقة معقدة ، وتحتاج إلى جهد وعقل مفكر .

هولندا سلة زهور العالم

محطتنا الثانية في الرحلة هولندا أو « الأراضي المنخفضة » ، وعاصمتها امستردام تملك امستردام ، سحر باريس ولندن وجاذبيتها ، فالإنسان لا يشعر بالغربة في هولندا لأنها - كما يقولون - بلد الزهور والطبيعة الخلابة الساحرة ، وهي بلد صغير الحجم مساحته ، ٣٧ الف كيلومتر مربع .

ولكنه مزدحم بالسكان (١٤ مليون نسمة) ، متطور ، يقع على ساحل بحر الشمال ، على ثلاثة أنهار مهمه ، هي الراين والماس والسخلد ، وبفضل هذا الموقع الجغرافي المناسب استطاع الهولنديون أن يقيموا تجارة واسعه مع أقطار العالم المختلفة ، معتمدين على أسطول بحري ضخم ، امتدت خطوطه حتى الهند وشارك الأسطول البحري الهولندي في اجتياز البحار بحثا عن الثروة في عصر الكشوف الجغرافية ، ولم ينس الهولنديون تاريخهم البحري والتجاري ، فهم حتى اليوم من أمهر تجار أوربا ، وعلى الرغم من صغر مساحة هولندا ، كما ذكرنا ، وكثرة عدد السكان - ١٤ مليون نسمه - فإن هناك خمسه ملايين سيارة وهو رقم كبير يشجع على الاستثمار في محطات تعبئة السيارات بالوقود ومحطات الشاحنات وغيره من مواد استهلاكيه يحتاجها هذا الكم الهائل من المركبات ، كما أنهم يقيمون خطوط تجارة واسعة بحرية ونهريه مع بلدان أوربا ، وبرية عن طريق مواصلات مفتوحه ، تغطي أوربا كلها ويتفنن الهولنديون في استثمار الموارد الطبيعية وتصنيعها ، وخاصة في قطاع الثروة الحيوانية ، فقد قدموا للعالم أشهر سلالات الأبقار ومنتجات الألبان والسمن والزبدة والشكولاته والزهور ، واتسع نطاق تجارتهم في مجال السلع المصنعة ، وازداد اعتمادهم على النفط كمصدر للطاقة في بلد لا يتمتع بمصادر أخرى للطاقه

في مطار امستردام كان ينتظرنا السيد ب برانكمان ، مدير العلاقات العامة في (Q8) فرع هولندا في الطريق إلى مقر الشركة نلمح محطات (Q8) ، وبجوار الاسم شراعين لمركب بحري ، ملونين بألوان حمراء وزرقاء ، وقد حدثنا مدير الشركة السيد ا اف دي برايناك فقال

تمتلك في هولندا (٣٠٠) محطه توزيع ، منتشرة في كل أنحاء هولندا ، و (١٥) محطة لخدمات الشاحنات نظام « أ . د . س » العالمي ، ومصفاة تكرير (يوروبورت) في ميناء روتردام طاقتها اليومية تمانون ألف برميل يوميا وتستخدم محطات الخدمة ومصفاة التكرير التابعه

(١)

(٢)

١) داخل مختبر الأبحاث والتقنية التابعة ل(Q8)في «روتردام» بهولندا

٢) رصيف التحميل والتفريغ التابع لشركة البترول الكويتية العالمية في مصفاة (Q8) في هولندا

(٣)

(٤)
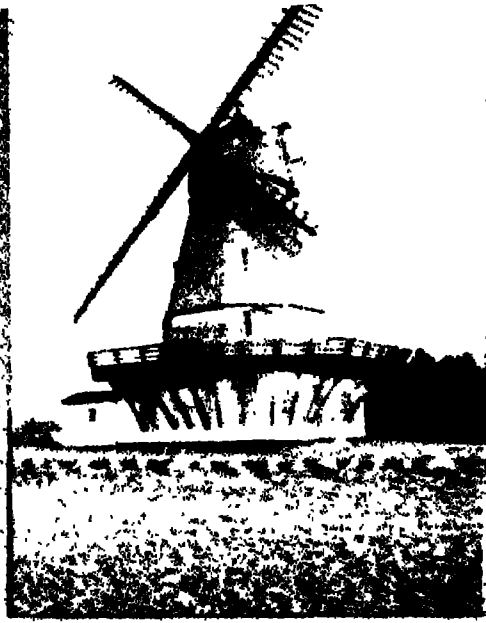
٣) أحدث مصفاة في أوروبا الغربية في «نيوبورت» التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية (Q8) في هولندا .
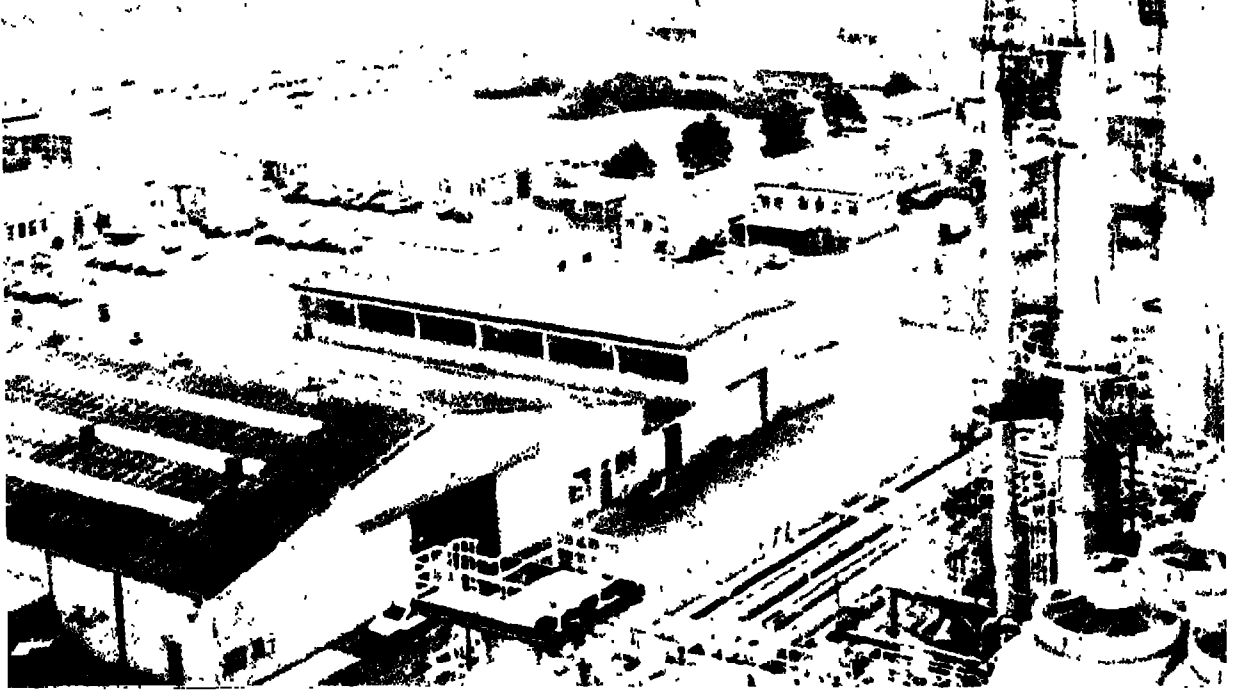
٤) غرفة التحكم الرئيسية المجهزة بأحدث الوسائل التقنية في العالم داخل مصفاة النفط في «نيوبورت» في «روتردام» والتابعة ل (Q8)

٥) علامة (Q8) من العلامات التجارية التي بدأت تجذب الأنظار على الطرق السريعة في هولندا

لـ (Q8) أحدث تقنية علمية في العالم كله . ومرافقنا هي احدث مرافق من نوعها في أوروبا كلها ، فإن محطات خدمة الشاحنات على سبيل المثال تعمل كلها اليكترونيا ، بدءا من خدمات التعبئة وحتى خدمات الغسيل والتشحيم وتغيير الزيوت . وقبل أن تبدأ الشركة في بناء محطات خدمات الشاحنات وتطويرها أجرت مسحا بين سائقي الشاحنات لتتعرف على رغباتهم وآرائهم ، ومعرفة مادا يريدون من خدمات .

وعندما أبدى السائقون ضيقهم من الرغوة الموجودة في الديزل ، وأبدى آخرون منهم ضيقهم من رائحته ، عملت مراكز أبحاث الشركة على ابتكار ديزل جديد . بدون رغوة وبلا رائحة ، وهو ابتكار سجلته الشركة باسمها .

وفي تقسيم مبنى محطات الخدمة أقمنا المطاعم والمقاهي وأماكن بيع المنتجات النفطية ولوازم السيارات ، وقاعات الانتظار الأنيقة ، ويستطيع السائق أن يستفيد من كل هذه الخدمات . ويسدد الحساب وفق نظام بطاقات الائتمان ، وفي محطات خدمة الشاحنات القريبة من الطرق السريعة أقامت (Q8) استراحات انتظار للسيارات ، مزودة بأماكن للنوم ، ومطاعم ، وغير دلك من الخدمات التي يحتاجها السائقون في رحلاتهم الطويلة ، مما يهيء لهم فرصة لقسط من الراحة قبل الانطلاق عبر طرق أوروبا ، وخاصة أن بعض السائقين يصلون إلى الحدود ليلا ويفضلون الانتظار حتى الصباح . أو في حالات انتشار الضباب أو الجليد على الطرقات ، الأمر الذي يجعلهم راغبين في الانتظار وقتا قبل استئناف الرحلة .

الى روتردام سوق النفط الدولية

في الطريق إلى روتردام لزيارة مصفاة النفط التابعة لـ (Q8) المعروفة باسم « نيوبورت » ، قلت للمرافق الذي يصحبنا : معروف أن سوق روتردام هو سوق النفط العالمي ، حيث تتم عمليات البيع الفورية والصفقات النفطية المشتركة ، فأين (Q8) وسط هذه السوق الهائلة الضارية ؟ ابتسم مندوب الشركة وقال : الأرقام المجردة هي التي تعطي صورة دقيقة ، وإجابة قاطعة لهذا السؤال . في هولندا أو في المصفاة التي نحن في طريقنا اليها الآن ننتج ٨٠ ألف برميل يوميا ، وفي الدانمارك ٦٠ ألف برميل يوميا ، وتملك الشركة في أوروبا ٥٠٠٠ محطة توزيع ، والشركة مرتبطة بعقود مع ٣٥ مؤسسة طيران عالمية لتزويدها بالوقود والزيوت ، والشركة مخولة أيضا بالعمل لتسويق الوقود داخل أكبر مطارين في العالم خارج الولايات المتحدة الامريكية ، وهي الرائدة في استخدام التقنية العلمية الحديثة في محطاتها في كل أوروبا ، ونحن ـ أخيرا ـ قد قدمنا للسوق العالمي أحدث زيوت المحركات في العالم ، وأحدث منتج من الديزل الخالي من الرغوة والرائحة ، وزيوت التشحيم . ذلك هو موقفنا في سوق النفط العالمي .

وعند بوابة المصفاة استقبلنا مديرها / كريست كوفاك ، وهي تمتد على مساحة واسعة داخل منطقة ميناء روتردام . ولها رصيف خاص بها ، يسع سفن الشحن العملاقة التي تزيد حمولتها عن نصف مليون طن ، ولها معمل أبحاث أنشيء قريبا للقيام بالاختبارات المعملية ، وإجراء أبحاث تطوير المنتجات وقد آلت ملكية المصفاة إلى (Q8)ضمن صفقة شرائها لممتلكات جلف اويل ، وخلال السنوات الثلاث الماضية تم تطوير المصفاة كلها ، وتغيير نظام العمل بها جذريا ، وأصبحت أحدث مصفاة في أوروبا من حيث تقدم تقنيتها ومعدل أدائها العالمي . من خلال ثلاثة مشاريع ضخمة : الأول هو استحداث وحدة تقطير زيوت التشحيم ، وفقا للمواصفات الأوروبية من خلال التقنية الحديثة التي وفرت كمًا هائلا من الوقود المستخدم في الإنتاج ، بحيث أصبح لدينا أحد أكثر مصانع أوربا فاعلية وجودة في الإنتاج .

● نائب رئيس مجلس إدارة (Q 8) السيد ناصر السالم

أما المشروع الثاني فهو رصيف التحميل والتفريغ ، فقد تم تعميق الممر المائي ، بحيث أصبح يستقبل الناقلات الكويتية العملاقة ، كما تم بناء ثمانية صهاريج لتخزين النفط ومشتقاته ، وستة صهاريج لمزج المنتجات ، إضافة إلى قدرة الرصيف على التفريغ والتحميل لأربعة منتجات من الناقلات في وقت واحد ، كما تم من خلال المشروع نفسه استحداث شبكة أنابيب جديدة ، تعمل وفق أحدث أنظمة التحكم ، وتمتد إلى مناطق مختلفة من أوربا مباشرة ، وقد بدأ العمل بهذا التوسع في ابريل ١٩٨٧ ، بحيث أصبحت شبكة واسعة تخدم مروع (Q8) في جميع أنحاء أوربا الغربية .

أما المشروع الثالث فهو تشغيل وحدة إنتاج الجازولين (الخالي من الرصاص) في يناير ١٩٨٨ ، محققة سبقا تقنيا فريداً من نوعه ، يلبي مواصفات جمعيات حماية البيئة وتخفيف التلوث الذي تحدثه عوادم السيارات الذي طالما حاولت جمعيات حماية البيئة والمجتمع الأوربي بشكل عام التخلص منه وتنتج المصفاة من هذا النوع من الجازولين ٦٢ ألف برميل يوميا .

إضافة إلى الأعمال الإنشائية التي نحن بصدد الانتهاء منها لإنشاء مصفاة أخرى في الموقع نفسه ، وعند الانتهاء من تنفيذ التحديثات المختلفة ستكون من أحدث مصافي أوربا الغربية .

النفط والعلم تحت مظلة (Q8)

في مركز الأبحاث والتقنية الخاص بشركة البترول الكويتية العالمية يقول لنا مدير المركز السيد/ هلجن : عملنا هنا له طبيعة خاصة ولذلك ينظم المركز دورات تدريبية للموظفين والعاملين ، سواء في الكويت أو في أوربا . ونحن أيضا مهتمون بعدة أشياء ، قد تبدو متناقضة في وقت واحد ، نحن مهتمون بإعادة تكرير النفط الكويتي الذي يصلنا مباشرة من الكويت ليصل الى مستوى عال من الجودة ، وفي نفس الوقت ليلائم طبيعة الاستخدام في أوربا ، من حيث درجة الحرارة المنخفضة وتأثير البرد وضرورات البيئة ، وفي الوقت نفسه نحن مهتمون بأبحاث التطوير والابتكار ، وذلك لكسر دائرة المنافسة ، وإثبات التفوق والوجود في السوق . وخلال أربع سنوات فقط قدمنا للعالم أحدث زيوت المحركات وأعلى وقود السيارات نقاوة ، وأحدث ديزل في العالم وترتبط المركز علاقات علمية بكثير من مراكز الأبحاث العلمية المتخصصة في العالم ، وله كذلك علاقاته العلمية مع شركات تصنيع السيارات العالمية . وقد بدأنا مؤخرا مع كبرى شركات صناعة السيارات السويدية بافتتاح مراكز ترويج لمنتجاتنا داخل معارضها ، بعد أن توصلنا الى ابتكار زيوت خاصة للنوع الذي تنتجه هذه الشركة من السيارات .

ويقدم المركز خدماته للشركة الأم في الكويت التي ترسل بعض منتجاتها إلى المركز للفحص والاختبار ، خاصة فيما يتعلق

١) مقر السوق الأوربية المشتركة في لوكسمبرج

٢) منتجات (Q8) متنوعة ومنتشرة في جميع أنحاء بلجيكا

٣) إحدى أحدث محطات توزيع الوقود التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية في لوكسمبرج

حدمة الديزل للشاحنات أحد أهم استثمارات شركة البترول الكويتية العالمية في أوروبا العربية

بالابتكارات الجديدة ، وكذلك تقديم المساعدات التقنية لمؤسسة البترول الكويتية لكي تحسن مركزها التنافسي ، وضمن سياسة المركز في التعاون مع المؤسسات الكويتية ، تجري الآن دراسة علمية مع قطاع النقل البحري التابع للمؤسسة ، وإجراء التجارب العلمية اللازمة على معدات اثنتين من الناقلات التابعة للمؤسسة لاختبار زيوت الاسطوانات البحرية ، طبقا لأعلى المواصفات الحديثة ، وفي حالة نجاح تلك التجارب فإن هذا سوف يمكن المؤسسة من دخول سوق جديدة في مجال زيوت التشحيم .

ويعد المركز من أهم مراكز البحث والتقنية في مجال النفط ومشتقاته في اوربا ، بموجب تقارير وشهادات من هيئات قياس عالمية تحظى بسمعة عالمية ، وبموجب استطلاع رأي المستهلكين .

نعمل لدى الكويت

قبل أن نغادر روتردام قبلنا دعوة أحد العاملين بالشركة لتناول الشاي في منزله . داخل المنزل الأنيق وجدنا مجسما « لبوم كويتي » ، سألناه فقال : إن أحد زملائه في العمل قد سافر إلى الكويت وأحضر له سفينة الصيد هذه تذكارا من الكويت ، وأنه يعتز بها ويحلم بزيارة الكويت ، قلنا له : إنك تعمل لدى شركة كويتية ، وهل يمثل هذا الأمر فارقا بالنسبة لك عن العمل لدى أي شركة أخرى ، أم أن الموضوع كله عبارة عن فرصة عمل فقط ؟

ابتسم مضيفنا وقال : لا شك أنكم تسمعون عن البطالة التي تجتاح اقتصاديات أوربا ، وعن ارتفاع أعداد البطالة شهرا بعد شهر ، والأمر الذي أعرفه أني أتقاضى راتبا أفضل من كثير من زملائي ، وأتمتع بكل التأمينات المتاحة والرعاية الصحية والاجتماعية . والأهم من ذلك أنني اكتسبت خبرة جديدة نتيجة أعمال التطوير المستمرة والمتلاحقة ، فخلال أربع سنوات مضت شهدت المصفاة التي أعمل فيها نقلات جذرية في نظم العمل ، واستتبع ذلك دخولي دورات تدريبية راقية المستوى لمواكبة هذا التغيير ، وأنا أعلم أن هذا النوع من التدريب مكلف وباهظ الثمن ، ولو حاولت أن أكتسب هذه الخبرة والتدريب على نفقتي الخاصة لما استطعت ، وزملائي في بعض الشركات يدفعون جزءا من رواتبهم مقابل هذا التدريب لشركاتهم ، والحجة في ذلك أن رواتبهم بعد ذلك سوف يرتفع ، وأن الشركة كانت تستطيع أن تاتي بعمال وموظفين جدد يتقنون هذه التقنية . وتستغني عن القدامى ، ولكن ما تفعله معنا (Q8) هو نوع من التطوير في الإدارة ، يتسم بالإنسانية وتقدير الإنسان ، ولذلك فولاؤنا للشركة والخوف عليها والرغبة في تطويرها ونجاحها هو أقل ما نقدمه نحن معشر المستفيدين منها ، كرد بسيط لما تفعله الشركة معنا ولنا .

بروكسل أوربا باختصار

بروكسل عاصمة بلجيكا ، كانت محطتنا التالية ، فيها تختصر أوربا كل جمالها وعراقة تاريخها لتقدمها في مدينة من أجمل مدنها . تقع بلجيكا شمال غرب أوربا ، وتحدها شمالا هولندا ، وشرقا لوكسمبرج وألمانيا ، وجنوبا فرنسا ، وغربا بحر الشمال . تبلغ مساحتها (٣٠ ألف كيلو متر مربع) فقط ، ولا يزيد عدد سكانها عن (١٠ ملايين نسمة) ، بها مقر البرلمان الأوربي وقيادة حلف الأطلسي ، وعديد من المنظمات والمؤسسات الأوربية . وفور اجتيازنا نقطة الحدود من هولندا باتجاه بلجيكا لمعت أمام أعيننا علامة (Q8) على واجهة مركز خدمة الشاحنات الذي يعد أكبر مركز خدمة للشاحنات في أوربا كلها . ويمتد مركز « هازلدونك » على مساحة تزيد عن عشرة آلاف متر مربع ، ويقدم كل الخدمات للشاحنات التي تصل إليه بعد اجتياز الحدود وطول السفر ـ وهي خدمات تمتد من الوجبة الساخنة إلى الفراش الدافيء للسائق ـ بكفاءة وسهولة فريدة من

ها ، فالمطعم ذو مستوى راق ، وخدمات
د والزيوت والتشحيم وأعمال الميكانيكا تدار
بأجهزة الحاسوب « الكمبيوتر » المتقدمة ،
افة للضمانة الكاملة بأنها محطة خدمات مزودة
ن وسائل الراحة . السيد (فان فست) أحد
سائقين الذين التقينا بهم في المراكز ، يقول لنا :
قبل أن تقدم لنا (Q8) هذه الخدمة كان
سائق يعتمد على حظه ، فإما أن يبيت في
سيارة إذا استدعى ظرف الطريق أن يتوقف عن
حركة حتى الصباح ، أو يدور باحثا عن الوقود ،
م الزيت ، ثم التشحيم ، ثم أعمال الفحص
لميكانيكية ، وبعد ذلك يبحث لنفسه عن مقهى
و مطعم للاستراحة . أما الآن فكل هذه الخدمات
مجتمعة في مكان واحد ، والأهم من ذلك -
يستطرد (فان فست) - إن أماكن هذه المحطات
مختارة بعناية فائقة . وما كان يقوله بعض
السائقين لبعضهم الآخر قد تحقق ، فأحيانا
ونحن سائرون في الطريق كان الشخص منا يقول
لنفسه أو لمساعده : لو كان في هذا المكان محطة
خدمة لأوقفنا الرحلة واسترحنا قليلا . لقد
حققت مرافق (Q8) كل هذا وكأنها طافت بكل
طرق أوربا واختارت المكان المناسب تماما والذي لو
كان في موقع آخر لكان غير مناسب ، وهذا في
تقديري واحد من أسباب نجاحها . في طريقنا
إلى بروكسل قال لنا مرافقنا معلقا على حديث
السائق : في بلجيكا وحدها (١٥) محطة خدمة
شاحنات ، وهي تجربة عمرها أكثر من (٥)
سنوات ، تحقق عائداً مجزيا ، ولولا ذلك ما كنا
توسعنا في تنفيذها ، ولأغلقنا بعضها على
الأقل ، والجديد أن هناك بعض الشركات
العالمية تحاول الآن تقليد أسلوب (Q8) ونظام
عملها هذا الذي ابتكرته . وبجانب نظام خدمة
الشاحنات فإن هناك (٦٠٠) محطة توزيع تابعة
لـ (Q8) تنتشر في كل مدن بلجيكا .

إمارة البنوك الصغيرة

وسط عمالقة أوربا تقع إمارة لوكسمبرج ، معظم أراضيها صحراوية وتشكل حوالي ثلث البلاد ، وتكثر بها الغابات ، على الرغم من صغر مساحتها (٢٥٨٦ كيلو متراً فقط) يتمركز بها عدد من أكبر المصارف « البنوك » العالمية المنتشرة على خريطة العالم ، وتتم من خلال مصارفها أكثر من ٤٠٪ من عمليات مصارف أوربا ، وبها المقر الرئيسي للسوق الأوربية المشتركة ، ويتجاوز عدد المصارف الدولية بها مائة مصرف . ووسط هذا المجتمع المالي والاستثماري الدولي تلمع إشارة (Q8) ، وتتجاوز كل آفاق المنافسة ، فهي تستولي على حصة كبيرة من سوق لوكسمبرج ، ممثلة بما يزيد على (٧٤٠) محطة توزيع ومشروع إنشاء محطات خدمة شاحنات سيفتتح قريبا وتعد عمليات (Q8) في لوكسمبرج أحدث استثمار فيها ، وهو استثمار اخترق دائرة قلعة المال والعمل الأوربيين المحصنة . ومن خلالها نجحت الكويت في تقديم صورة مشرقة عن إدارة الاستثمارات وحسن توجيهها .

في بهو الفندق التقيت صدفة بأحد رجال المصارف الأوربية ، وعندما عرف أنني من الكويت قال لي بلهفة : حدثني عن بلدك . وعندما سألته عن هذا الاهتمام قال . لأننا بصراحة عندما بدأت (Q8) تعلن عن افتتاح أعمالها في لوكسمبرج توقعنا لها الفشل ، خاصة أن هذه البلد ذات طبيعة خاصة جدا ، وما كنا نسمعه قبل ذلك عن سوء الإدارة وعدم الدراسة العلمية للمشاريع ، وهي سمة تعاني منها بلاد كثيرة . وقد تكون بلادكم احدها ، لذلك توقعنا لهذه المشاريع الفشل ، ولكن خلال فترة قصيرة - أربع سنوات - أصبحت (Q8) الشركة الأولى ، وأصبحت محطاتها تقدم أفضل خدمة ممكنة . دعني أقول لك بصراحة إنها أفضل من شركات أخرى أكثر عراقة وبدأت أهتم بالكويت والعرب

١) خدمة توزيع وقود التدفئة التي تتميز بها (Q8) في بريطانيا . ونشاهد شاحنة الشركة في طريقها لتعبئة خزانات المنازل بوقود التدفئة .

٢) خزان وقود تزويد الطائرات (Q8) جنبا الى جنب مع خزانات شركات النفط العالمية في أحد مطارات أوروبا .
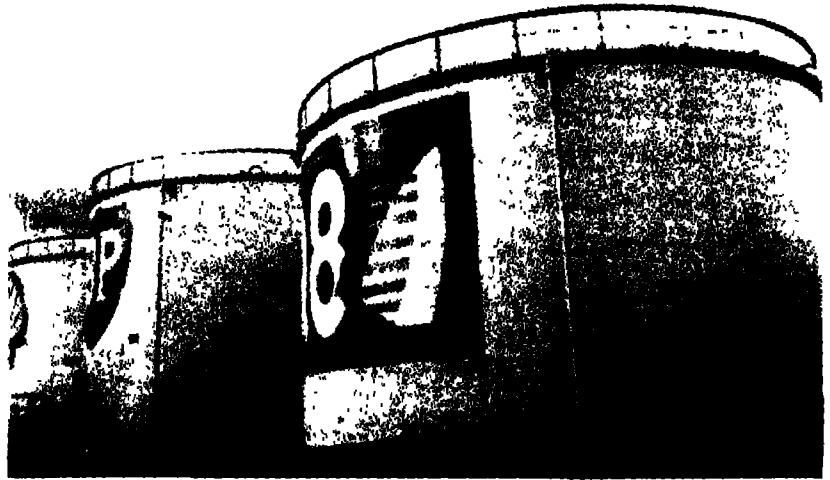
٣) احدى محطات (Q8) المنتشرة في بريطانيا

٥) خدمة تزويد الطائرات بالوقود ، احد استثمارات (Q8) في المطارات المهمة في العالم وهنا نشاهد شاحنة (Q8) تزوّد طائرات مؤسسة الخطوط الجوية الكويتية بالوقود في مطار « هيثرو » بالعاصمة البريطانية

٤) ساحة الطرف الأغر في لندن واحدة من أهم معالم
العاصمة البريطانية .

(٥)

بعد أن رأيت هذا النجاح مدير (Q8) في لوكسمبرج ادي حالبر يقول لنا أثناء مرافقته لنا في جولة بالمدينة : نحن نحتكر أكثر من ٥٠٪ من كل عمليات النفط وتوزيعه في لوكسمبرج ، وأعمالنا تتزايد بمعدلات عالية جدا ، ورصيدنا الأدبي في سوق المنافسة يفتح لنا آفاقا جديدة ، ونحن في لوكسمبرج نعمل وفق خصوصية البلد ، فوسط المدينة مجمعات مصارف ومكاتب وإدارات ، ولذلك اخترنا مواقعنا بجوار المناطق السكنية ، لأن كثيرا من الناس يعملون في وسط المدينة ، وإقامة محطات هناك تكون بالتالي عديمة الجدوى ، ولكن بجوار السكن سيمر علينا العميل في الصباح أو في العودة للتزود بالوقود أو الزيوت أو أي خدمة أخرى تحتاجها سيارته .

لندن عاصمة الضباب والمجد

في مطار هيثرو الدولي الذي يعد من أشهر المطارات في العالم يلمع اسم (Q8) فوق خزانات تزويد وقود الطائرات في ساحة المطار ، وطوال فترة سير الطائرة حتى توقفها وعيناي تتابعان خزان الوقود الضخم ، والعربات الصغيرة التي تنطلق في ممرات المطار ، حاملة علامة الشركة الكويتية العالمية . وتذكرت زمنا كان نفس هؤلاء المواطنين هم أحفاد أولئك الذين فحروا النفط في بلادي ، واستمروا يستغلونه سنوات طويلة ، وهاهم اليوم يملأون خزانات سياراتهم ، ويدفئون بيوتهم بنفط الكويت الذي يستخرجه أبناء وطني ليصبح ثروة ونماء كاملا لصالح وطني وأبنائه . ولم تذهب الابتسامة عن وجهي ، حتى عندما قابلنا مندوب مكتب الشركة بلندن .

قلنا لمرافقنا مايكل برايت ، مدير العلاقات العامة بشركة البترول الكويتية العالمية : أتصور أن العمل في لندن ليس سهلا ، فبريطانيا معقل واحدة من أكبر شركات النفط في العالم ، وإحدى الشقيقات السبع ، وأعني بها (B.P) وبالإضافة إلى ذلك فإن بريطانيا تملك الآن حقولا للنفط في بحر الشمال ، وتقوم باستثمارها على نطاق واسع ، وتاريخ بريطانيا القديم في التعامل مع النفط واستغلاله قد يلقي آثاره على عمل شركة البترول الكويتية العالمية .

قال لي مرافقي : سوق لندن يختلف لأسباب كثيرة ، منها ما ذكرته أنت من أسباب ، ومنها أن لندن واحدة من أكبر العواصم العالمية التي تضم جالية عربية وجاليات متعددة من العالم الثالث . ففي بريطانيا ، وفي قلب العاصمة ، يوجد المقر الرئيسي لشركة نفط الكويت العالمية ، بالإضافة إلى مكتب فرعي يدير الأعمال في بريطانيا .

في مقر الشركة التقينا بالعضو المنتدب السيد بيتر ستانلي ، وقد حدثنا قائلا : إن طبيعة الخدمات التي نقدمها في محطات (Q8) تختلف إلى حد ما عن بقية المحطات . نظرا لأننا حديثون في سوق بريطانيا الشديد المنافسة ، فنحن قد بدأنا نقدم شيئا مختلفا عن غيرنا ، فمحطتنا عبارة عن مركز للتسويق ، تستطيع العائلة شراء كل ما تلزمها من مواد استهلاكية ، كما يمكن للمستهلك الحصول على الصحف والمجلات والأدوات المكتبية وبعض المواد الغذائية ولوازم البيت .

وفي بريطانيا تنتشر (١٠٠٠) محطة توزيع مباشرة ، و ٢٢) محطة خدمة شاحنات الديزل . كما تقدم الشركة خدمات مباشرة للمنازل عن طريق تزويدها بزيوت التدفئة وما يزال المزارعون يملكون ما يقارب ٦٪ من مجمل مبيعات السوق . وقد قامت (Q8) بشراء خمس شركات توزيع جنوبي بريطانيا مؤخرا لزيادة عدد منافذ البيع التي تتعدد منافذها وتزداد عاما اثر عام . وترتبط (Q8) بعقود لتزويد الطائرات بالوقود وتقديم خدماتها في مطارات هيثرو وجاتويك ومطار مانشستر .

التقينا بالسيد جون ولش ، العضو المنتدب

كة البترول الكويتية العالمية لتزويد الطائرات
ود الذي كان مليئا بالحماس والنشاط في
اح لندن البارد ، قال لنا : إن خدمات
Q) في مطار هيثرو والاثني عشر مطارا في العا
ربا وجنوب شرق آسيا) تقدمت بشكل
يع جدا ، فخدماتنا متميزة وتنافسية ، وكما
هد فنحن الآن نقوم بعملية شحن إحدى
ترات مؤسسة الخطوط الجوية الكويتية بالنفط
الكويتي في العاصمة البريطانية ، وهذا الشيء لم
يكن يحدث لولا تضافر الجهود المشتركة بدءا من

استخـراج النفط في الكـويت إلى المصفـاة في
الشعيبة في الكويت ، أو في روتردام في هولندا ،
حتى يصل خزان (Q8) في أي مطار في العا

وللعلم فإن معدل استهلاك مطار هيثرو ٥٠ ألف
برميل يـوميا . وكـما تعلم فـإن تسـويق وقـود
الطائرات يعـد من الحقول المهمـة في الصناعـة
النفـطية ، ولـدينا الآن دراسـة جاهـزة للتمهيد
لـدخول الأسـواق الامريكيـة الواسعـة . وعلى
الرغم من المنافسة الشديدة في السوق البريطانية
فإن محطات (Q8) تشهد إقبالاً شديداً ومعدلات
عالية في البيع تصل قـرابة(١٠٠)بـرميل يـوميا
للمحطة الواحدة من محطات التوزيع فقط .

وتقول لنا السيدة/ ديبي شارلتون التي التقينا
بها وهي تزود سيارتها بالوقود في محطة من محطات
(Q8) في لـنـدن : أنـا أتعامل مع محطات
(Q8) منذ أكثر من ثلاث سنوات،لأنني أحصل
على خدمة أفضل ومعاملة افضل ، وأنا أشعر أن
ما تقدمه لي (Q8) أفضل من كل ما هو متوافر في
السوق ، ولذلك فأنا أسيرة لمحطاتها ، وعنـدما
أذهب لزيارة أهـلي في الريف ، خـارج لندن ،
فـإنني أتوقف في الـطريق عند محـطات (Q8)
أيضا .

وأعترف أن الخدمة لا تقل مستـوى عنها في
قلب العاصمة على الرغم من أنني كنت أظن أن
هذا الاهتمام مقصورعلى العاصمة فقط ، شـأن
كثير من الشـركـات التي مـا أن تبتعـد عن
العاصمة حتى ترى قلة الاهتمام وعدم العناية في
كل شيء

في مقـر شركـة البترول الكـويتية العـالمية في
(نيوبوند ستريت) ، أحـد أهم شوارع لنـدن
التجارية ، التقينا بواحـد من الشباب الكـويتي
الـذين تقع عـلى عواتقهم مسؤوليـة إدارة هذه
الشركة التـابعة ، لمؤسسـة البترول الكـويتية ،
الاستاذ ناصر السالم ، نائب رئيس مجلس إدارة
(Q8) الذي يشرق بالحماس والنشـاط فقال :
هنا في الشركة نحاول جاهدين أن نبـرز الدور
الاستثماري النفطي الكويتي الكبير في أوربـا ،
كـواحـد من أهم مصـادر الـدخـل لـلأجيـال
القادمة . وهذه استراتيجية بعيدة المدى في مجال
استثمار الخدمات النفطية والانتاجية وتطويرها
والشـركة تعمـل على تنشيط العنـصر البشـرية
الكويتية والعربية وجدها للعمل في فروع الشركة
في جميع أنحاء أوربا ،وهذا في حد ذاته يدعونا
للفخر والاعتزاز بالكفاءات الكـويتية والعـربية
الموجودة .

من لندن إلى الأحمدي

كـانت الطائـرة الكويتيـة تحلق في الفضاء ،
متجهة إلى الكويت ، عائدة من أطراف الشمال
البارد ، إلى الوفرة وبرقان والأحمدي ، من منافذ
التـوزيع إلى يـنابيع النفط . ونـظرت إلى زميلي
المصور ، وابتسمت وأنا أقول له : نحن الآن في
طائرة كويتية يقودها طيار كويتي ، تدور محركاتها
بوقود كويتي ، وثروتنا الوطنية لا تضيع عائداتها
في الوساطة والاستغلال والسمسـرة ، بل لقـد
أصبحت ثروتنا لنـا ، وأصبح مـا نقدمـه للعالم
ملموسا وواقعا ، وابتسامات الرضا والشكر التي
رأيناها على وجوه الناس وفي عيونهم لايمكن أن
تنسى أبدا . □

بقلم : علي سالم باذيب*

تتميز جزيرة سوقطرة بجمهورية اليمن الديمقراطية - بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي - بغناها بالنباتات الطبية النادرة التي لم تستغل علمياً بعد على الرغم من أن سكان الجزيرة تعرفوا عليها واستعملوها منذ القدم .

---

* باحث زراعي - مركز الأبحاث الزراعية من القطر العربي اليمني الديمقراطي .

النباتات الطبية
من النباتات الطبيعية بجزيرة سوقطرة - أعلى شجرة دم الاحوين - أسفل يمين شجرة التريمو - ثم الصبر السوقطرى (تيف) - وشجرة اللباد
(امعيرو)

تتبع جزيرة سوقطرة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وتقع في نهاية خليج عدن في المحيط الهندي ، وتبعد عن العاصمة عدن ٩٤٤ كم ، مساحتها ٣٧٠٠كم٢ ، وسكانها حوالي ٥١ ألف نسمة .

حظيت هذه الجزيرة باهتمام المنظمات والمعاهد والجمعيات العلمية المتخصصة بعلم النبات والأصول الوراثية للنباتات ، لما تميزت به من أجناس وأنواع نباتية نادرة ، تنمو بصورة برية ، تعد الجزيرة موطنها الأصلي ، حيث أشارت الدراسات إلى وجود (١١) جنساً نباتياً متوطناً لا توجد في مناطق أخرى من العالم (كرونك ١٩٨٥م) ، ونحو ٨٥ نوعاً نباتياً متوطناً (بالفور ١٨٨٨م) يحمل كثير منها اسم الجزيرة ، وتعد سوقطرة والصومال فقط موطنين للفصيلة النباتية -(Dirachmaceae (ISP. Dırachma Socotrana والفصيلة النباتية -Well stediaceae (3 spp.) التي عرف منها ثلاثة أنواع في سوقطرة والصومال وجنوب غرب أفريقيا (درونك ١٩٨٥م) .

وتمثل النباتات الطبية جزءاً هاماً من الثروة النباتية الطبيعية للجزيرة ، ويعالج الأهالي مراضهم باستخدام نباتات البيئة ، فنبات الترمو الذي تشتهر به الجزيره يستفاد من عصارته في خفض حمى الملاريا بدهن الجسم من الخارج .

ونبات سبرا يستعمل لالتئام جروح البشرة بتقطير عصارته الصمغية من الأوراق والفروع على موضع الجرح . ونبات العبب في علاج الام الأذن ، باستعمال قطرات من سائل الأوراق الطازجة ـ وغيرها من النباتات الطبية التي لم تنل حظاً من الأبحاث والدراسات الصيدلانية .

المنتجات الطبية الطبيعية :

تشتهر جزيرة سوقطرة بنباتات دم الأخوين ، والصبر السوقطراوي ، واللبان ، ونالت منتجات هذه النباتات شهرة عالمية واسعة لندرتها وجودتها أيضاً . ومن هذه النباتات :

دم الأخوين :

ويسمى بالانكليزية "ragon's blood" ·
واسمه النباتي .racaena cinnabari" Balf.f" توجد أشجاره على قمم الجبال غالبا ، ويتـ انتشارها في بلدة مومي على ارتفاع ٥٠٠م ـ سطح البحر ، والشجرة ارتفاعها ٣ أمتـ ر وأكثر ، ذات جذع سميك ، وفروعها متشعبة . وتتكون الأوراق السيفية الحادة في نهايات الفروع . وتبدو الشجرة للناظر كالمظلة . ودم الأخوين عبارة عن راتنج أحمر يفرز من الجذع والفروع . ويوجد منه ثلاث درجات : ـ

ـ درجة أولى : الراتنج بحجم الفصوص ، ويتكون على الفروع .

ـ درجة ثانية

كتل كبيرة من الراتنج تتكون على الجذع .

ـ درجة ثالثة : راتنج مخلوط بأجزاء من اللحاء

ويجمع الراتنج بعد تجمده في أشهر الصيف بكشط كتل الراتنج بسكين حادة من تجاويف عملت في جذع الشجرة حيث يتجمع الراتنج فيها . ويجمع راتنج الفروع باليد .

ويستخدم السوقطريون دم الأخوين في علاج المغص ، قدر ملعقة ونصف من مسحوق الراتنج مذابا في كأس ماء ، ولتجلية عيون الجمال ، ويضاف قليل منه إلى الكحل إلا أنه يسبب التهاب العين عند تكحيلها . كما تزين به جدران المنزل من الخارج . ويستعمل دم الأخوين في صناعة معاجين الأسنان والفورنيش .

الصبر السوقطري :

واسمه النباتي ."Aloe perrvi Baker" ويكثر تواجده في بلدة ديبيتحا ويعد الصبر السوقطري من أجود أنواع الصبر المعروفة عالمياً . وهو أغلى ثمناً من أنواع الصبر الأخرى .

أوراق هذا النبات سميكة على ساق قصير لونها أخضر باهت أو محمر ، وتكسو الأشواك حافة الورقة ، وطول النبات ٤٠سم .

يجمع البدو الصبر ويطلقون عليه اسم (طيف) في شهري أغسطس وسبتمبر . وسبب الجمع في هذين الشهرين أنهما من أشهر الجفاف (يونيو - سبتمبر) حيث تجف الأشجار والنباتات الرعوية فتضطر الأغنام أن ترعى نباتات الصبر التي تسبب اجهاض الحوامل منها .

لذلك يلجأون إلى جمع الصبر في هذين الشهرين على الأخص . وهم لا يعلمون أن فترة الجفاف هذه ، تزيد تركيز مادة الصبر ، وتكسبه جودة

وطريقة جمع الصبر بدائية ، حيث تقطع أوراق النبات عرضياً ، وتوضع الأجزاء المفصولة على أطراف جلد ماعز أعد لهذا الغرض ، تتجمع فيه قطرات الصبر .

وتترك مدة شهر إلى شهر ونصف لتجف ببطء ، والعقار الناتج لونه بني مسود غير شفاف وقابل للكسر .

ويستعمل الصبر كمسهل ، ويتجرعه الأطفال للوقاية من الدمامل ، وتستعمله نساء سوقطرة أثناء فترة النفاس . ويدخل الصبر في صناعة العديد من الأدوية .

اللبـــان :

توجد ثلاثة أنواع من اللبان في الجزيرة : "Boswellia elongata" "Boswellia ameero" ، "Boswellia socotrana Balf.f." الأولان ويسميان محلياً (امعيرو) أكبر في الحجم من النوع الأخير ويسمى محلياً (صمعانو) كما أن الفروق بين الأوراق واضحة ، فبينما تكون في النوع Socotrana صغيرة جداً وجالسة ، نجدها في النوعين elongata، و ameero مركبة ريشية ، معنمة ، ويبلغ طول الشجرة ٣ أمتار .

واللبان راتنج زيتي صمغي Gleo-gum-resin . يفرز من الساق والفروع على هيئة دمعات ، ويجمعه البدو في أشهر الصيف . ويستعمل اللبان محلياً بخوراً وعلكاً . وله استعمالات عديدة في الصناعة .

ان هذا الثراء المتنوع من النباتات النادرة يضع جزيرة سوقطرة في مقدمة الجزر الفريدة بنباتاتها في العالم . مما يعري القيام بأبحاث ودراسات دوائية على نباتات الجزيرة التي قد تكون مصدراً لاكتشاف عقاقير جديدة . □

هــل تعلم :

* ان سرعة النيل وقت الفيضان تبلغ ٣ أمتار في الثانية .
* وان دودة القطن ظهرت لأول مرة في مصر سنة ١٨٧٨ ، ودودة اللوز ١٨٩٥ ودودة البذرة سنة ١٩١٢ .
* وأن العباسية (من ضواحي القاهرة) سميت بهذا الاسم منذ عهد عباس باشا الأول ، إذ بنى فيها قصرا ، وكان اسمها قبل ذلك صحراء الريدانية .
* وأنه لم يشنق ممن حكموا مصر من الخلفاء غير طومان باي ، ابن اخي الغوري .
* وأن ساعة الجيب اخترعها «هيل» سنة ١٥٠٠ ميلادية .
* وأن النظارة اخترعها «دجلي ارماني» سنة ١٢٨٥ .

يحيى حقي لا يحتاج إلى تعريف ......

وحين تلتقي به وتستمع إليه، تحس أنك تنصت إلى لحن شجي صافي النغم، رشيق الأسلوب، بالغ الرقة، مغرق في التواضع والحنان والعذوبة الى حد يثير الاستغراب. وعلى الرغم من جلال الأعوام الخمسة والثمانين التي يحملها فوق كتفيه، ولا يخفى عددها، ويؤكدها الشعر الفضي المفهاف الذي يتوج رأسه، فإنك تستشعر وأنت تحدثه أنك تحلق في آفاق الفن العظيم الذي ينقي الروح ويعاين أضواء الجمال، وأنك أمام فنان له انطلاقة مبدعة، شديدة الحماس، وذاكرة لا تغفل حدثا مهما صغر وأوغل في القدم.

ومع ذلك فإنك لا تستطيع - إذا كنت قد قرأت كتبه وقصصه ومقالاته النقدية في الأدب والفن - إلا أن تتذكر أنه «صاحب القنديل»، فمنذ كتب قصته «قنديل أم هاشم» ونشرها في إحدى مجموعات قصصه القصيرة عام ١٩٤٤م، التصق اسمه بالقنديل، وكأنها نتاجه الوحيد. وعندما يسأل يحيى حقي عن السبب يجيب: لقد أخرجت «قنديل أم هاشم» من قلبي مباشرة كطلقة رصاص. فاستقرت في قلوب الناس.

الحوار الذي يجريه معه الزميل «سليمان مظهر»، يكشف عن جوانب حياته الأدبية منذ بداياتها الأولى، مرورا بالقصة والرواية والنقد، وعلاقته بأبطال قصصه، وتلاميذه، ورفاق دربه الذين يعترفون بريادة صاحب القنديل لهم.

***

* هناك نقاش طويل حول تأثير البيئة في حياة الكاتب وتكوينه النفسي والأدبي. ولعل بداية حياتك الأدبية وذكرياتك عنها تستطيع أن تحسم جانبا كبيرا من هذا النقاش.

ـ لحسن الحظ أنني ولدت في حي شعبي في القاهرة، بحارة الميضة، وراء مقام السيدة زينب رضي الله عنها. فمنذ طفولتي وأنا في الشارع أخالط هؤلاء الناس الكادحين الذين يؤمون هذا الجامع باستمرار. وفي ذيلهم - ولا أريد أن أقول في مقدمتهم - الشحاذون، مجتمع الشحاذين.

عرفت مثلا الاسطى حسن الحلاق، طبيب الحي الذي يقوم بجراحات عديدة. ولا أنسى أبدا يوما رأيته يدخل إبرة في أنف مريض، فيخرج الخيط من حلقه. ودهشت دهشة شديدة. ولا أنسى أنه كان يقوم بختان الصبيان أيضا.

كذلك عرفت بائعة «الطُّعْمِيَّة» وبائع «الفول» وبائع «الدقة والسميط» إلخ، فاختلطت في الحقيقة منذ صغري بهذا الوسط. وكان من حسن حظي أنني بعد اختلاطي بالفقراء والكادحين في المدينة، واشتغالي بالمحاماة، عينت معاونا للادارة بمنفلوط في أعماق الصعيد. كنت أجهل كل شيء عن الصعيد، ولا أعرفه كالقاهرة. فإذا بي أقذف داخل صميم حياة الفلاح المصري في الصعيد، وعاشرته عن قرب مدة سنتين في حقله، ودخلت بيته، وحادثته، ودرسته. لهذا فإن شخصيتي الأدبية إذا كانت قد بدأت في الحي الشعبي بالسيدة زينب، فإنها لم تتم إلا بفضل السنتين اللتين قضيتهما في أعماق الصعيد، وأنا مدين جدا لهذه الفترة. وظهر أثر ذلك على بعض مؤلفاتي مثل كتاب دماء وطين الذي وضعت فيه قصة اسمها «البوسطجي»، وقصصا أخرى تدور حوادثها كلها في الصعيد، ولها مقدمة تتحدث عن جمال الأغاني الشعبية في الصعيد، وهي ماتزال متداولة ربما حتى الآن، ولا تمحي بهجتها.

الوراثة وطريق السلامة

* إلى جانب البيئة نعرف أن الوراثة كان لها دور كبير في تكوينك الثقافي بعامة، وعلى فنك القصصي بخاصة فإلى أي مدى حدث الامتزاج بين البيئة والوراثة لديك؟

ـ طريق السلامة أن أقول: إنني مدين حقيقة لأسرتي، سواء أبي أو أمي. فأمي درست القراءة والكتابة والحساب في كتّاب مدينة اسمها المحمودية في محافظة البحيرة. وجدتها منذ صغري لا تقرأ الجرائد فحسب، بل تقرأ الكتب الأدبية، وتحفظ شعرا كثيرا للمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس، فكانت سيدة مثقفة حقيقة. ومن قبيل التندر فإن أمها

السيدة عديلة كانت أيضا تقرأ، لكن لا تقرأ إلا في المصحف، فهي تحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولكن إذا أعطيتها المصحف أو أحد الكتب فإنها لا تستطيع أن تقرأ حرفا واحدا.

وأبي أيضا في إحدى مراحل شبابه دخل الأزهر، ودرس، وتعلم اللغة العربية تعليما جيدا. وكان محبا للقراءة الى درجة الشغف، بل الشغف الى حد الجنون.

ثم انتقل هذا الشغف بثراء إلى أخي الأكبر ابراهيم، وكان كاتبا، رشيق الأسلوب، يشارك في تحرير مجلة السفير. وقد أسس في بيتنا مكتبة، لا للكتب العربية التي كانت موجودة فقط، فحين بدأ يتعلم الانجليزية وجدنا في بيتنا مكتبة تنشأ شيئا فشيئا، وتضم كتبا انجليزية كثيرة. فأنا من هذه الناحية مدين في نزعتي الأدبية الى البيئة والى الأسرة.

الاتصال بالحضارة الغربية

* ولكن هناك مرحلة أخرى في حياتك حين سافرت الى الخارج وعملت في السلك الدبلوماسي عدة سنوات في أوربا. ما الأثر الذي تركته هذه المرحلة في تكوينك الثقافي؟، وهل ساعدك وجودك في الغرب في رسم شخصيات قصصك؟

ـ لاشك أن هذه المرحلة كان لها أثرها في اتساع أفق ثقافتي بشكل عام. وهي تمثل بدء اتصالي بالحضارة الأوربية، وتتلمذي في الموسيقا والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح. ولكنني كنت أشعر دائما أن في داخلي شيئا سلبيا لايذوب بسهولة في تيار حضارة الغرب. . وقد أوضحت ذلك مرة في مقال، قارنت فيه بين الأثر الذي تتركه روما في القادمين اليها من الشمال والقادمين اليها من الجنوب، فأهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة. أما أنا فقد وصلتها وعندي قدر أكبر من اللازم من الشمس، وعندي حضارة تماثل حضارتها إن لم تفقها، وعندي دين هو نظام متكامل، فيه الغناء.

على كل حال في تلك الفترة كانت الكتابة بالنسبة لي هواية وقد لا يزيد عدد القصص القصيرة التي كنت أكتبها عن اثنتين في العام. وكنت راضيا بذلك، لكنني أصدقك القول بأنني كنت طوال فترة اقامتي في أوربا أشعر بحنين كبير الى مصر. كنت أحن للأحياء القديمة التي أسمع فيها كلمات مثل «أحرنها» و«يا ادلعدي». أحن لهذه الجموع الفقيرة من المساكين و«الغلابة» الذين يفتشون عن قوتهم يوما بيوم. هذا ماكنت أحن إليه في مصر.

طلقة أصابت الهدف

* لعل اتصالك بالحضارة الغربية، ثم حنينك الدائم الى مصر، كان وراء قصتك المبدعة «قنديل أم هاشم» التي ظل اسمك ملتصقا بها، حتى عرفت بصاحب القنديل. وقد قلت مرة: إن قنديل أم هاشم خرجت من قلبك ووصلت الى قلوب الناس كطلقة التي تصيب الهدف. وأصبح ارتباطها باسمك كعمل متميز، يسبب لك السعادة وأحيانا الضيق. ماتفسيرك لهذا؟

وهل هو أهمية القضية التي تعالجها الرواية، أم رؤيتك لهذه القضية، أم أسلوبك في معالجتها؟

ـ بعد أن عدت من أوربا شعرت بجميع الأحاسيس التي عبرت عنها في «قنديل أم هاشم». إنها قصة غريبة جدا، كتبتها في حجرة صغيرة، كنت أستأجرها في حي عابدين، حيث عشت فترة عاطفية مثيرة، عبرت عنها في «أناشيد بيني وبينك» التي ألحقتها بالكتاب.

أما عن سر القنديل فقد كانت رحلتي في أوربا خلال عملي الوظيفي طويلة. بعد عودتي ما أزال أذكر الى اليوم حين ركبت القطار من الاسكندرية الى القاهرة مارا بالريف والمحطات الصغيرة. فإذا بي أشعر كأن الضوء خفت، وكأن الفقر هبط، أو كأن نوعا من الفوضى والاضطراب قد ساد في هذه الأماكن قياسا بما كنت أعرفه في أوربا. ثم ركبت عربة «حنطور» من المحطة الى البيت، فدخلنا في

أزقة وملتويات غريبة جدا. وأؤكد لك أنني أحسست بصدمة شديدة جدا. وظلت هذه الفكرة تراودني. وأقول: ماذا نفعل؟ وكيف نقابل الحضارة الغربية؟ وما الذي نأخذ منها والعيب فينا وليس الفضل فيهم؟ هل يمكن المصالحة بين الاثنين؟ وماذا نفعل؟ انتابتني حيرة شديدة جدا. فهذا الموضوع ليس جديدا في الأدب المصري، ولا في بيئتنا، بل بدأ منذ الحملة الفرنسية النابليونية على [illegible] وصف هذا [illegible]

[illegible] بالمعركة [illegible] تستغرق أكثر من [illegible] لأن نابليون بالطبع كان لديه خطة حربية بسيطة جدا هي أن يقيم مربعات مشطورة من أحد الجوانب وحين يدخل المماليك تطلق عليهم البنادق من جميع الجهات حتى يفنوا. فتكتيكه الصبياني للحرب البسيطة قضى على العقلية المملوكية قضاء تاما وانتصر عليهم، فكانت الصدمة شديدة. وبعد الحملة الفرنسية بدأ المثقفون المصريون يتأملون. ويقولون: ما هذا الوارد إلينا من الخارج؟ كانوا يتمنون اللحاق به. وفي الوقت نفسه يرينا الجبرتي أنهم يصرون على أن يحتفظوا بشخصيتهم وقوميتهم.

لا أريد أن أكون منافقا

* أذكر أنك قلت مرة: إنك لا تنسى مقالا لعبدالله النديم، يصف فيه شابا مصريا سافر الى الخارج، ثم عاد يضع «البايب» بين شفتيه، والقبعة على رأسه، ويحادث أمه بلغة نصف كلماتها فرنسية ونصفها عربية. وهذا لم تكن الأم تفهم مايقول. فهل كان ذلك بعض ما في أعماقك عندما كتبت «قنديل أم هاشم»؟

ـ هذا الموضوع الذي كان يشغل بالي ـ كما شرحت لك ـ لم يكن جديدا في عقلية المصريين، فقد كان هناك تساؤل دائم: ماذا نفعل في أبنائنا الذين يسافرون الى الخارج، ثم يعودون إلينا متفرنجين؟ أنا عبرت عن ذلك في «قنديل أم هاشم»، بصورة أعترف أنها صارخة. وأعترف أنني استخدمت في هذه القصة اللونين الأبيض والأسود بشدة، لذلك كان فيها عنف شديد جدا، وكان بطلها شخصا يهز هذا الشعب هزا عنيفا ويقول له: أصح، تحرك، فلقد تحرك الجماد.

وأعترف أنه لم يسبق كاتب مصري الشعب [illegible] كان [illegible] أن [illegible] النصيحة [illegible] في قلب هذا الشاب الثائر [illegible] أقصى [illegible]

* لقد كانت المشكلة حينئذ أن القصة فيها نوع من الجدة وجاءت في وقت زاد الاتصال فيه بين الحضارة الأوروبية والشرق وبدأت فيه يقظة الشرق وتفجرت المسألة الكبرى، وهي: ماذا نفعل في هذه الحضارة الغربية وكيف نتركها؟ ولعل هذه هي القضية.

ـ كان الوقت مناسبا لإثارة هذه القضية. وهي ليست قضية جديدة كما قلت لك، إنما هي قضية قديمة. المهم أنني وجدت صعوبة في نشر هذه القصة في أول الأمر، ثم أتيح لدار المعارف أن تنشرها في كتاب صغير. فإذا بي بعد ذلك بقليل أمر بتجربة غريبة جدا. صاحب مكتبة في الشارع المؤدي الى محطة باب اللوق يقول لي: هذه القصة التي وصفت فيها الأب الذي يأكل «الطعمية» و«الفول» بينما ابنه في انجلترا يأكل «البفتيك»؟؟!

تصور. هذه القصة التي أحاول فيها التعبير عن مسائل فلسفية ودينية تتحول في ذهن أفراد من الشعب همهم الأول الغذاء اليومي الى تعبير غذائي محض. هذه هي المأساة التراجيدية التي رآها في هذه القصة، ليس الصراع بين الشرق والغرب وبين

ين والعلم وإنما الصراع بين «الطعمية» يفتيك»!!

ـزعة الانسانية والمدرسة الحديثة

* كانت أكثر شخصيات قصصك تنتمي الى الطفات الشعبية في الريف أو في المدينة. وفي بعض كتبك مثل «ناس في الظل» كنت تتعاطف بعمق مع شخصيات قد تبدو هامشية بالمقياس الاجتماعي، لكنك تجد فيها كنوزا من الانسانية. ماذا يعني إيثارك لهذه الشخصيات؟ وهل هو تأثرك بالأدب الروسي ذي النزعة الانسانية العميقة، أم هو تأثير المدرسة الواقعية التي كانت سائدة في أوربا في ذلك الوقت؟ وما علاقة ذلك بارتباطك بكتّاب المدرسة الحديثة مثل طاهر لاشين وعيسى عبيد وخيري سعيد؟ وبماذا كانت تتميز هذه المدرسة؟

ــ تأثرت بالأدب الروسي مائة في المائة. وهذا يقودني الى الكلام عن أبناء المدرسة التي كانت تسمى «المدرسة الحديثة»، وكان يتزعمها أحمد خيري سعيد، ومنها بطلنا الكبير طاهر لاشين، وكان يكتب فيها محمود عزمي وحسين فوزي وابراهيم المصري. انضممت اليهم على الهامش، لأنني كنت قد بدأت أرحل عن مصر. فكان اجتماعنا يمثل تأثر الجيل الناشيء بالأدب الغربي بمن فينا من الذين يعتبرون فلوبير وبلزاك آلهة الفن مثل ابراهيم المصري رحمه الله. ومنهم من يعتبر تولستوي وتشيكوف ودستويفسكي هم آلهة الفن. وبدون دراسة عقلية أو فلسفية وجدت أن قلبي منحاز الى الأدب الروسي؟ لماذا؟ لأن الروايات الانجليزية التي قرأتها، والفرنسية أيضا، كانت روايات دراسات اجتماعية. الأسرة والحب بين الرجل والمرأة وما الى ذلك، وحين قرأت دستويفسكي وجدت أن المشكلة عنده هي الروحية. نزاع الانسان أمام الله وأمام الكون. هناك شيطان وهناك موسى مثلا. التمزقات الروحية عند دستويفسكي قوية جدا وفظيعة، فهو لا ينظر الى الإنسان ككائن اجتماعي فقط، بل ككائن متصل بالله، وأمامه مشاكل جديدة يريد أن يحلها من ناحية الخير والشر الخ لهذا كنت أشعر أنني سعيد جدا حينما أقرأ الأدب الروسي

* ولكن ماذا عن منهج الواقعية في قصصك؟ وهل صحبتك مع مطلع حياتك الأدبية، أم جاءت بعد تأثرك بالأدب الروسي؟

ــ سأقول لك شيئا. أول قصة نشرتها في السياسة الاسبوعية كان عنوانها (قهوة «ديمتري»). وهي قهوة حقيقية في مدينة المحمودية. وقد أعطتني هذه القصة درسا انتفعت به طوال حياتي، فقد سجلت فيها الواقع كما هو، ووصفت العمدة بطربوشه المائل كما هو في الحقيقة. مجرد وصف بريء، لا أقصد به شيئا. فإذا بالعمدة يغضب غضبا شديدا، ويظنني أهزأ به فتجنبت ذلك فيما بعد. وفهمت أن الأدب الواقعي ليس هو التصوير الفعلي. وأصبحت الشخصيات التي أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد، بل عن مجموعة افراد.

الفكاهة ومفارقات الحياة

* السخرية وروح الفكاهة سمتان جوهريتان في فنك القصصي. كيف توظف هاتين الأداتين؟ ومن أي الينابيع تستقي سخريتك؟ ولأي الأهداف الفنية والانسانية تستخدمها؟

ــ أزعم أن لي كتابين أحدهما اسمه «دمعة فابتسامة» والثاني اسمه «فكرة فابتسامة». أما عنوان الكتاب الأول فأنا لست مسئولا عنه، اذ كان للأدبية مي زيادة كتاب يحمل نفس الاسم، لكن الناشر قال لي: إن العنوان الذي كنت قد وضعته لا يساعد على البيع، ولهذا وضع اسم «دمعة فابتسامة» حتى يبيعه، وهو لا يعلم أن لمي كتابا بهذا الاسم.
في الكتابين اللذين ذكرتهما لمحات فكاهية. طبعا كان الأمل أن أكتب رواية طويلة، أو أن أخلق ما يسمى «التايب» كما فعل سرفانتيس في دون

كيشوت. الأمل المنشود للكاتب الفكاهي أنه يرسم لنا «تايب»، أي غطا لشخص متفرد، تصدر عنه الأعمال طبقا لهذه النمطية، وكأنك تراه رأي العين حيا أمامك، إنما مجرد الملاحظات العابرة التي قد تدفعك الى الابتسام فشيء آخر، بل وأقول إنه حتى هذا الأدب الفكاهي غير موجود

أما عن سؤالك ... ديمية توظيفي للسحرية. وروح الفكاهة في قصصي، فانا أتنبه دائماً للمفارقات في الحياة. وأولى المفارقات حدوث الانسان وضعفه في وقت واحد ومن هنا تنشأ روح الفكاهة التي تتضح في كثير من قصصي ومن المبادىء التي تنح عن أيضا وصف الحيوان. ومثال ذلك في قصة «فلة مشمشر لولو». وقصة «عنتر وجوليت»، ووصف الحمار في «خليها على الله». والجمل والبقرة والماعز في «صح النوم»

الطريق الى أدب الفكاهة

* ألم يكن عشقك للجبرتي هو أول خطواتك نحو أدب الفكاهة، وخاصة أن لك مقالات قديمة كنت توقعها باسم مستعار هو عبدالرحمن بن حسن، مثل مقالك بعنوان «الدعابة في المجتمع المصري»؟

ـ الذي همني في الجبرتي عندما تعرفت عليه في القنصلية المصرية بجدة من خلال كتابه الذي قرأته مرة ومرتين وثلاثا، أنه عبر عن الشعب المصري بكل حكاياته وآلامه وتاريخه. وأعجبت به أشد الاعجاب. وقد كان أبوه يمثل بدء نهضة الأزهر من دراسة دينية محضة الى دراسات علمية. وكان أستاذا من أعجب الأساتذة، يدعو التلاميذ في بيته، وعنده أدوات فلكية وأجهزة علمية ومزولة، فكان يجمع بين العلم والدين وكان الازهر قد بدأ يدخل في باب العلوم فطريقة حياته وتصرفه مع تلاميذه آثارا اعجابي به اعجابا شديدا. وكما أعجبت بالجبرتي شخصيا أعجبت بابنه مما جعلني أوقع بامضاء عبدالرحمن بن حسن

ثم دفعتني هذه القراءة و كتابة بحثي عن «الدعابة في المجتمع المصري» نبعت من خلال كتاب الجبرتي كل ما ورد فيه عن «كيف كان الشعب المصري يضحك؟ ومم يضحك». وأخرجت هذه الأبحاث ثم قلت لنفسي: لماذا لا تستمر؟

كنت أريد أن استمر في هذا البحث لأنني ألاحظ في هذه الأيام أنك حين تستعرض انتاجنا الادبي عامة تجده كله حادا شديد الجدية، كله بلاو وسرقة وخيانة ونصب وما الى ذلك. فأين الرواية التي تضحك لها" من هو الكاتب الفكاهي في عصرنا الحديث" أنا أبحث عنه كأني أبحث عن شيء بالابرة أتمنى حقيقة أن يكون لدينا أدب فكاهي وكاتب فكاهي حينما بدأت أقرأ الكتب الانجليزية وجدت كتّاب مشهورين بالفكاهة كنت أضحك لهم ضحكا شديدا جدا. الآن لا أجد هذا الجانب الفكاهي. مع أنه شيء مهم جدا في حياتنا. وأخيرا بالصدفة التقيت بشاب من أصدقائي، اسمه عبدالمنعم معوض، كتب قصة اسمها «نوادر عم عبده فكه، . وما جرى له في كل سكة»، وكتبت له مقدمة لم أكتبها من أجل خاطره، وإنما من أجل خاطر الدعوة لأن ينشأ لدينا ادب فكاهي محترم.

الحدود بين الفكاهة والسخرية

* إذا كان هذا رأيك في الفكاهة والأدب الفكاهي، فأنت لا تؤيد ما يسمونه الأدب الساخر والكاتب الساخر. فهل ترى أن هناك حدودا بين الفكاهة والسخرية؟

ـ هذا موضوع له أهميته، فالسخرية التي أضعها في مرتبة روح الفكاهة شيء، بينما السخرية التي يلجأ إليها بعض الكتّاب وفيها امتهان للآخرين أكرهها لأنها بذيئة ودنيئة. كيف تسخر من الآخرين «والقرآن يقول: يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم»؟ السخرية سلاح ذو حدين، يؤذي المنقود ويؤذي الناقد. ولا يليق ان نستعمل حتى في مجادلاتنا أو مناقشاتنا سلاح سخرية من ذلك النوع. أما الفكاهة فجميلة جدا. أين تجد الفكاهة في أدبنا الحديث؟ النكات التي كان يتبادلها حافظ ابراهيم والشيخ عبدالعزيز البشري ومحمد

المويلحي كانت كلها فكاهة جيلة ليس فيها سخرية، بل حتى ابراهيم المازني عندما كان يسخر فقد كان يسخر من نفسه، ولا يؤذي الآخرين. السخرية من نفسك ليست حراما، بل مطلوبة جدا، أي أن تنزل بنفسك من عليائك وغلوائك الى الأرض. قلت لك: إنني كتبت كتابي في الفكاهة، ولكن ليس المقصود أن يكون الكتاب كله فكاهة إنما حينما تلاحظ في الحياة أشياء قد تستطرد في الجانب الجدي ثم تصيف ملاحظة تدعو الى الابتسام. وهذا أيضا سر من أسرار الكتابة الادبية. إن النوتيرة الواحدة مملة وعدم طبيعية ليس في الحياة شيء يسير على وتيرة واحدة. واذا فعلها الاديب فانه يجد فيها جزءا ينكسر. فيبدو له وجه آخر. وقد تعلمت هذا الدرس أيضا. فجميع مبادىء الكاتب يجب أن تكون منبعثة من نفسه وصنعه ومزاجه ومن قراءاته الشخصية. لا يتعلمها من غيره.

أنا أحذر من ادعاء الشطارة، فذلك يكاد يقترب من السخرية التي أحذر منها. هناك خط فاصل دقيق جدا بين الفكاهة والسخرية، يجب أن يتنبه له الكاتب، ويقف عند حد الفكاهة ولا يدخل من باب السخرية.

القدر والارادة البشرية

* يجرنا ذلك الى القول بأننا نجد في العديد من قصصك تأكيدا لدور الارادة الانسانية. وهو في الوقت نفسه ابراز لدور القدر، سواء كان قدرا اجتماعيا أو خارجا عن الارادة البشرية في بعض أشكال المصادفة التي تؤثر على مصائر البشر. ما تعليقك على هذه الملاحظة؟ وهل تجد في هذا الموقف شيئا من التناقض؟

ـ هناك قوة جذب وأفكار تلح عليّ في قصصي. أولها الإعلاء من شأن الارادة وجعلها أساسا لجميع الفضائل. وهذا ناتج عن تصوري ان العالم معركة كبيرة والسلاح هو الارادة. وقد جربت مرارا ان أصف شخصية رجل طيب. لكنه ضعيف الارادة فشلت. وتجد هذا في قصة «نهاية الشيخ مصطفى» ثم في قصة «أم العواجز» وقصة «السلحفاة تطير».

ثم إني شغوف بالدراسات النفسية. وكانت لي قراءات مستفيضة جدا في علم النفس. وفي تراجم كبار الفنانين المصابين بتمزقات نفسية وروحية ومن القصص التي يتضح فيها هذا الاهتمام قصة «مرآة بغير زجاج» في مجموعة «أم العواجز»، و«سوسو» في مجموعة «عنتر وجوليت». ففي القصة الأولى أشير الى ان كلامنا حزينة مقفلة لا يعرفها احد وأن سر الحياة في المقدرة على الحدس وفيها تعبير غريب جدا من أربع كلمات هو «وعجز بدني عن الامتلاك» إنه أصدق وصف لأشخاص تصبح منهم مخافظهم وأموالهم وروحانهم لأنه ليست لديهم قدرة ايجابية على الجدب.

مسافة إصبع !

* نعرف اهتمامك بالتراث في أدبك وقصصك كما أنك عاشق للغة الفصحى وتراثها الأدبي. فكيف لعب التراث دوره في انتاجك؟ وهل تأثرت بأستاذنا الكبير محمود شاكر؟

ـ حينما يتمرس الانسان بفن من الفنون يمر في أكثر من مرحلة. يبدأ بالتمرين الأول ثم الخبر ثم الإجادة، فيقال: إن هذا عازف مجيد. هذا «المشوار» ربما أخذ منه عشرين سنة من مبتدىء إلى مجيد. بعد ذلك تأتي مسافة لا يزيد طولها عن إصبع واحد، تمثل انتقال المجيد الى المبدع. وكما يقولون في الموسيقا هناك عازف مجيد يقضي عشرين سنة حتى يصل الى هذه المرحلة. لكن حتى يصل الى أن يكون مبدعا لابد أن يجتاز مرحلة ضيقة جدا. هذه المسافة ـ مسافة الإصبع ـ ما أصعب اجتيازها. وقد لا يجتازها إلا القليل أين تتمثل هذه المسافة القصيرة؟ لا في اجادة النحو والصرف أو الإلمام بالألفاظ كلها، بل في اكتساب شيء اسمه «سليقة اللغة»، ليس تركيبها، وإنما مزاجها وعقليتها وروحها وسليقتها

وإذن كان هذا ميلي ولحسن الحظ وحدث أن ما أدعو إليه خدمة جليلة للغة العربية، لأني نشأت في أوقات كان الأسلوب الزخرفي فيها هو الغالب،

حتى انني قلت، حبذا لو أن المطبعة لم تطبع أحرفا ولكن سطورا كاملة. بمجرد أن يذكر الكاتب الكلمة الأولى يكتب السطر كله، أي تكمل المطبعة السطر كله وأقول: إنه ليس عندنا وقت لنعبث باللغة العربية، فنحن في حاجة شديدة الى الدقة والجد، وهو ما تأثرت به بالفعل من الأستاذ محمود شاكر.

تجارب النشر والناشرين

* على الرغم من بروزك في ميدانك فان لك تجارب كثيرة مع الناشرين، بعضها ايجابي وبعضها سلبي. فما هو رأيك في علاقة الكتّاب بدور النشر في الوقت الحاضر؟

ـ حينما كتبت «قنديل أم هاشم» تعبت في نشرها، وكان الاستاذ حافظ محمود رئيسا لتحرير جريدة السياسة الأسبوعية الأدبية، وهو من سكان حيّنا، فاقترحت عليه ان يصدر عددا خاصا لنشر هذه القصة، فاعتذر. واذا بدار المعارف ـ ربما عن طريق توصية طه حسين وصديقي محمود شاكر، قد قبلت نشرها في كتاب. بعد ذلك أغلب كتبي نشرت في المسلسلات الشهرية التي كانت تصدرها الصحف في ذلك الوقت. فكل كتبي الأولى نشرت بهذا الشكل.

كان قد صدر لي ١٧ كتابا، ثم تفضلت هيئة الكتاب في مصر وفكرت في اعادة طبعها، لأنها كانت قد نفذت. فاتفقوا معي على اعادة طبع هذه الكتب في طبعة جيلة، وبدأت تصدر متوالية.

في ذلك الوقت اذا بشيء غريب يحدث في تاريخنا الأدبي أحب أن أنوه عنه، ولا أظن أنه مسبوق أو ملحوق،فأنت تذكر بغير شك أنك كلفتني أن أكتب مقالة نقدية أسبوعية في جريدة المساء التي كنت ترأس تحريرها، كما استمر ذلك أيضا في صحيفة التعاون. وكان من الصعوبة أن أجد موضوعا أكتبه كل أسبوع. فكنت أخشى أن أنزلق الى الكتابة الصحفية، بعد أن اشتبكت رجلي في الصحافة اليومية. وبعد أن تركت أنت التعاون وسافرت أخذت عهدا على نفسي أن لا أكتب إلا كتابة أدبية إبداعية غير مقيدة بمواعيد ملزمة، وتركت ذلك للظروف والأحوال. كل مقالاتي النقدية الاسبوعية الصحفية التي استمرت حوالي عشر سنوات كان مقضيا عليها بالضياع، لولا أن حدث بعد عشرين سنة أن بدأت كتاباتي تلك تبعث من جديد وتجمع في كتب. من الذي قام بهذا البعث؟ أنه الصديق الناقد فؤاد دوارة الذي تكفل بجمعها ومراجعتها ونسخها وتقديمها الى المطبعة وتصحيح تجاربها الطباعية. ولست أعرف في تاريخ أدبنا الحديث خدمة قدمها إنسان لانسان كما فعل لي دوارة.

الخروج الى العالمية

* قبل أن ننهي الحوار عندي سؤال في لقاء لك مع الصحفيين والكتاب الشبان قبل فترة طويلة قلت: إن ما ينقص أدبنا العربي الحديث أن يصبح عالميا. ولكن جائزة «نوبل» التي حصل عليها نجيب محفوظ أخيرا لعبت دورا في عالمية أدبنا. فما هو رأيك في هذه العالمية؟

ـ الواقع أن الادب العربي لم يخرج الى العالمية من قبل. وأول من فتح الباب هو نجيب محفوظ، لا جدال في ذلك، ونحن ننتظر. وأريد أن أقول: ليس المهم أن يترجم لنا كتاب أو قصة. المهم أن أرى رأي نقاد الغرب في ذلك. وليس النقد الصحفي، ولكن النقد المدروس. أريد أن يقال: إن نجيب محفوظ أحدث في فن الرواية تطورا. وألا يقتصر على القول بأنه أجاد فن الرواية. المهم أن نكون في هذا الموقف لنا تأثير على فن الرواية في أوروبا. نحن نعطيهم نظرة جديدة تؤثر عليهم في مجتمعهم أيضا. الذي أتمناه في يوم من الأيام أن يقول أحد الكتاب: إن هذا الكاتب غيّر مفهومنا عن المسرح تماما. كما قالوا عن كافكا في الرواية وبريخت في المسرح. أتمنى أن اسمع مرة أن كاتبا مصريا أو عربيا أحدث تطورا في هذا الأدب العالمي عندهم. وبهذه المناسبة دعني اقول لك: إن نيل نجيب محفوظ لجائزة نوبل يجب ان يكون مدعاة لتنشيط الحركة الادبية عندنا. وهو أمل أتمنى له التحقيق.□

شـــــعر :

الدكتور مصطفى رجب

دون وعد أتى
فجأة
ذات صيف
واحدا كان من بين ألف
وخيرا من الألف كان
مستوى خطوه واحد
مستوى صوته واحد
وجهه واحد
كان لا يستطيع مجابهة الحزن إن جاءه فجأة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
كنها هل صيف

* * *

دون وعد أتى
دون وعد ذهب

* * *

ـ أيها الصيف هل ستجود بمثل الذي كان ثم انقضى ؟
ـ لا تعود الشموس الى الشرق إن غادرته
ـ ولكنه مثلما فجأة جاءني ،
ـ فجأة فاتني .

....

* * *

فجأة غادر الدار لم يستشر بابها ،
لم يودع ستائرها المسدلة .
لم يقل للمصابيح إن كان يطلب أن تنطفيء ،
أو تظل ـ إلى أن يعود لها ـ مشعلة .
لم يقل للمقاعد هل سيعود لها ،
أم
لها أن تبدل أحوالها ؟
هل سيعود لها ؟
آه ياصاحبي من بساطة هذا السؤال
من بساطته تبدأ المشكلة !!

* شاعر وكاتب من القطر المصري
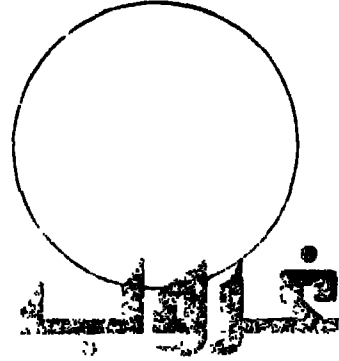
بقلم : محمود المراغي

من مؤشرات العدل والتخلف

انقسمت المجتمعات البشرية منذ القدم حول قضيتي الثروة والدخل ، وبينما تصارعت المجتمعات القديمة حول توزيع مصادر الثروة ، تصارعت المجتمعات الحديثة حول الشيء نفسه ، فنشأ الاستعمار ، وقامت الحروب ، ونشأت النظريات السياسية والاجتماعية الحديثة .

قامت النظرية الرأسمالية ، وركن أساسي فيها : التراكم الرأسمالي الذي يدفع عجلة الاستثمار ويحقق النمو .

وقامت النظرية الماركسية ، وأحد أسسها : ملكية عامة للثروة ، وتوزيع عادل للدخل .

وبين النظريتين جاءت أنواع من الاشتراكية والرأسمالية التي تحاول أن توائم بين اعتبارات العدل ، واعتبارات التنمية .

وفي كل الأحوال ، ظلت قضية توزيع الدخل مؤشرا رئيسيا للعدل الاجتماعي . وأصبح السؤال في كل المجتمعات : ما هي الخريطة المثلى لتوزيع الدخل ؟ بل وأصبحت النظرة الرأسمالية الحديثة ، أن العدل ضرورة اقتصادية وليس مجرد حاجة اجتماعية ، إنه الوسيلة لكي ينتج الانسان بشكل أفضل .

المحاولة الصعبة

هل يمكن التعرف على توزيع الدخل القومي في مختلف المجتمعات ؟ هل يمكن أن نحصي ما يدخل حيب كل فرد ، لنقول إن هناك شريحة عليا ، وشريحة وسطى ، وشريحة دنيا ، وأن دخل كل من الشرائح الثلاث بلغ (كذا) ؟

القضية صعبة ، لذلك ، وعندما حاول المصرف الدولي الوصول إلى هذه الخريطة ، اعتمد على مصادر كثيرة . ثم ، وعندما قام بنشر النتائج في تقريره السنوي عن عام ١٩٨٨ حول « التنمية في العالم » ، لم يستطع أن يسجل أكثر من (٣٨) دولة بين (١٢٩) دولة يتابعها في مختلف المجالات الاقتصادية والسكانية والاجتماعية . نشر المصرف صورة توزيع الدخل في (٣٨) دولة فقط استنادا لبيانات يعود بعضها إلى عام ١٩٧٠ ، حيث لم يتوافر غيرها في بعض الدول .

الدول النامية والنفطية التي يزيد سكانها عن مليون ، وتسجلها احصاءات المصرف (١٠١) مائة و دولة واحدة ، لم يعثر المصرف على بيانات ينشرها عنها إلا في (٢٩) دولة ، وعلى العكس كانت الدول الصناعية التسع عشرة جاهزة ببياناتها .

يحمل ذلك دلالة أولى ، وهي أن قضية توزيع الدخل تلقى اهتماما في الدول الصناعية الرأسمالية ، بينما لا تلقى الاهتمام نفسه حتى في الاحصاء بالدول النامية ، وبفحص الأرقام التي يغيب عنها معظم الدول الاشتراكية تتأكد هذه الحقيقة .

أثرياء في عالم فقير !

تقول الأرقام إن « بعض الفقراء أكثر ثراء » ، فمن بين الدول المنخفضة الدخل ـ وهي التي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن (٤٢٥) دولارا في السنة ـ هناك خمس دول أمكن التعرف على أوضاع الدخل فيها ، واتضح أن (١٠ ٪) من مجموع الأسر في كل من (زامبيا ، وكينيا) تحوز وحدها نحو نصف دخل المجتمع أو ما يقترب من ذلك (٤٩ ٪) .

من هذه الدول أيضا تأتي (سريلانكا والهند) وتحوز فيها أعلى شريحة في المجتمع (١٠ ٪ من الأسر) نحو ثلث دخل المجتمع .

هذا التركيز في الدخل يستمر في ما يسمى الدول ذات الدخل المتوسط التي تنتمي أيضا لمجموعة من الدول النامية ، في بيرو ـ على سبيل المثال ـ يأخذ (١٠ ٪) من السكان (٤٣ ٪) من الدخل وفي تركيا تأخذ نفس الشريحة (٤٠,٧ ٪) من الدخل .

ويستمر التصاعد في تركيز الثروة وتوزيع الدخل حتى يبلغ مداه في البرازيل ، حيث يحوز (١٠ ٪) من الأسر (٥٠,٦ ٪) من الدخل . وتحوز الأسر الغنية التي تحتل الخمس الأخير في قمة المجتمع ثلثي الدخل ، بينما يأخذ (٨٠ ٪) من السكان ثلث الدخل ! .

يصاحب ظاهرة التركز في الثروة أو الدخل عادة ظاهرة « سوء الحال » في قاع المجتمع ، ووفقا لاحصاءات المصرف الدولي أيضا ، فإن أقل من (٢٠٪) من الأسر دخلا في البرازيل لم تحصل عام ١٩٧٢ ـ وهو آخر عام نشرت فيه بيانات ـ إلا على (٢ ٪) من الدخل فقط ! . تقترب من ذلك فنزويلا (٣ ٪) ، وكذلك بيرو (١,٩ ٪) ، وبما يشير إلى أن خريطة توزيع الدخل في أمريكا اللاتينية هي الأسوأ بين القارات .

الأمر مختلف في الدول الصناعية ، فبين القاع والقمة مسافة أقصر ، فها هي معظم الدول التسع عشرة لا يحوز فيها أعلى (١٠ ٪) من الأسر إلا على ربع الدخل القومي على وجه التقريب . بعضها (كبلجيكا وهولندا) تهبط فيها النسبة إلى (٢١,٥٤ ٪) ، وبعضها (كايطاليا والسويد) ترتفع فيها النسبة إلى (٢٨ ٪) ، ولا يصل إلى (٣٠ ٪) غير دولة واحدة هي (استراليا) ، أما الفقراء (أقل ١٠ ٪) فإن حصيلتهم من الدخل تتراوح بين (٥ ٪) و (٨,٧ ٪) .

والسؤال : إلى أي المجموعتين تنتمي أقطارنا العربية ؟

يغيب عن أرقام المصرف الدولي عشرون دولة عربية ، وتظهر دولة واحدة هي (مصر) ، أما الأرقام فتعود إلى عام ١٩٧٤ ، حين أجرت القاهرة بحثا بالعينة لميزانية الأسرة ، وطبقا للنتائج التي سجلها التقرير حازت الشريحة العليا التي تمثل (١٠ ٪) من السكان على ثلث الدخل القومي ، بينما حازت أفقر الشرائح (١٠ ٪ أيضا) على (٥,٨ ٪) من الدخل . بعدها ، وطبقا لدراسات اخرى ، استمر الخلل في توزيع الدخل ، فتراجعت نسبة الأجور من نصف الدخل الوطني في أول السبعينيات إلى ثلثه فقط في نهاية العقد نفسه .

هل نأخذ هذه الأرقام مؤشرا للعدل والظلم ؟ هل نقول إن الدول الأكثر تقدما أكثر انتباها لقضية العدل الاجتماعي وتوزيع الثروة وتوزيع الدخل ؟ وهل نقول إن الخلل في التوزيع في الدول النامية علامة تتصل بالعدل ، أم علامة تتصل بالتخلف ، بعد أن بات واضحا أن حدا أدنى من العدل أصبح شرطا لتحقيق حد أدنى من الانتاج ؟

أظن أن غياب العدل ، وحضور التخلف متلازمان . إنهما في وعاء واحد مركزه العالم الثالث □

ضحكات عالمية

كاسترو

□ مذنب واحد

حدث أن قام كاسترو بزيارة رسمية للسجن المركزي في هافانا . وقد سمع من جميع السجناء الذين تحدث إليهم واستجوبهم العبارة التالية : أنا بريء أيها الرئيس . باستثناء سجين واحد اعترف له بقوله : أنا مذنب أيها الرئيس .

فصاح كاسترو على الفور : اطردوا هذا الشقي بسرعة قبل أن يفسد هؤلاء الشرفاء !

□ عمل واحد

قال روليير ذات يوم لصديقه شامفور : أنا لم أرتكب في حياتي سوى عمل واحد سيء .

فقال له شامفور : ومتى ينتهي مفعوله ؟!

ضحكات عربية

□ غالب ومغلوب

قال الوليد بن عبد الملك لسديح المغني : حدثنا في الأماني فلأغلبنك . فقال : والله لا تغلبني فيها أبدا . قال الوليد : تمن .

- قال سديح : أتمنى كفلين من العذاب ، وأن يلعنني الله لعناً يُشَنّ عليَّ من حلفي ومن قدامي . قال الوليد : غلبتني لعنك الله .

□ العقاد و« المليونيرة »

كان عباس محمود العقاد يؤم مع كثير من الأدباء دار كاتبة أديبة ، جرت عادتها على إقامة حفل في اليوم الموافق لعيد ميلادها ، تدعو إليه المعارف من الأصدقاء والصديقات

وبينما ذات الأحاديث تدور في حلقة من حلقات في صالون ربة الدار حول أعياد الميلاد وهداياها ، إذ بسيدة متصابية تقول في تفاخر . إن زوجها أعفاها من التفكير فيما تحب أن يقدمه لها أو تكراره إذا لم تذكر ما تريد ، ولذلك فإنه درج على أن يقدم لها في كل عيد ميلاد مبلغ خمسين جنيهاً .

فقاطعها العقاد قائلاً : إذن ، لا بد أنك أصبحت « مليونيرة » الآن

عباس محمود العقاد
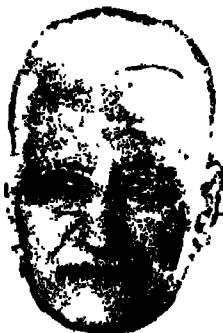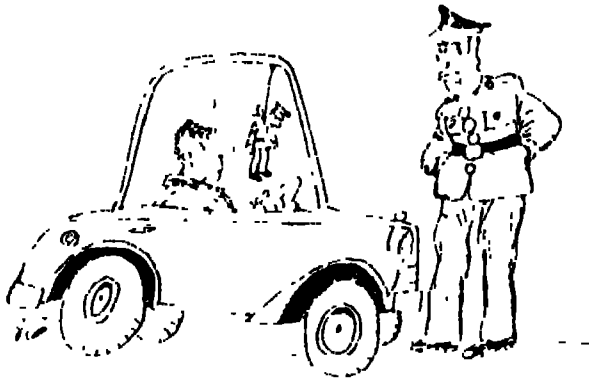
مــن المـتـلـب

◻ الطريق المناسب

أقام أحدهم عرسا ، وجعل لمكان الحفل بابين ، كتب على أحدهما « للذين يحملون هدايا » ، وكتب على الباب الآخر « للذين لا يحملون هدايا » ، فجاء أحد المدعوين وكان لا يحمل هدية ، فدخل من الباب الثاني ، فوجد نفسه في الشارع .

◻◻◻

◻ غاية في الصعوبة

الصديق معزيا صديقه بوفاة زوجته : من الصعب حقاً أن تخسر زوجتك .

ـ فعلا ، لقد كان الأمر غاية في الصعوبة .

◻◻◻

◻ نوم العاشق

عَـيَّـرتْـني بـالـنـومِ جُـوراً وظُـلماً
قـلتُ زدتِ الـفـؤادَ هـمـاً وغـمـاً
اسـمـعـي حُـجَّـتي وإنْ كـنـتُ أدري
أنَّ عُـذري يـكـونُ عـنـدك جُـرْمـا
لم أنـمْ لـذةً ولا نمـتُ إلاّ
طـمـعـاً في خـيـالك أنْ يـلمّا

ـ عملي يبعث على السأم في نفسي ، أفضل عمل الاخرين .

اوسكار وايلد

ـ الانـسـان لم يخلق للعمل ، والدليل على ذلك أن العمل يتبعه .

لافونتين

ـ لا تؤجل إلى الغد ما يمكنك عمله بعد الغد .

الفونسي آلليه

ـ إن قصة العمل هي في الأساس قصة كفاح العمال من أجل العمل ، أقل فأقل .

سيسيل لوران

◻◻◻

« الجنتلمان » : هو ذلك الشخص الذي يستعمل ملقط السكر حتى عندما يكون وحده .

الزوج المحترم : هو الذي يذكر عيد ميلاد زوجته ، ولكنه ينسى عمرها .

البطل : هو الذي يفعل ما يستطيع ، والآخرون لا يفعلونه .

تحتفل الأوساط العلمية بالذكرى الخمسين لاكتشاف الانشطار النووي بتنظيم مؤتمر علمي في مدينة « غيتسبرغ » بولاية مريلاند الامريكية في الفترة ٢٦ ـ ٢٨ نيسان ١٩٨٩ ، لمناقشة أحدث البحوث الدائرة حول الانشطار النووي نظريا وتجريبيا . يرأس المؤتمر أربعة علماء ممن عاصروا الفتح النووي منذ البدء . وهذا المقال مساهمة بالقاء الضوء على تفاصيل هذا الانجاز العلمي الفريد الذي حدث قبل ٥٠ عاماً .

الانشطار النووي في عامه الخمسين

نكون أو لانكون !

بقلم : الدكتورة شذى الدركزلي *

الانشطار النووي هو إحدى العلامات الكبيّرة في طريق تطور العلم في القرن العشرين ، وقد أخذ نصيبا واسعا في الشهرة والاعلام ، ومما يؤسف له أن جزءا ضخما من هذه الشهرة تركز على الجانب المظلم منه ، فأجحف بحق الجانب المضيء من الانشطار النووي كوسيلة فاعلة لفائدة الإنسان وتطوير حياته نحو الأفضل . فما هو هذا الانشطار ؟

الانشطار النووي والتفاعل المتسلسل

تتكون الذرة من الكترونات ونواة ، وتحتوي النواة على بروتونات ونوترونات . في العنصر الواحد يتساوى عدد الألكترونات مع عدد البروتونات لتكوين ذرة متعادلة كهربائياً . لكل عنصر عدد من النظائر تختلف فقط بعدد النوترونات ، فالنظائر للعنصر الواحد متشابهة كيميائيا (بسبب تساوي عدد الالكترونات) ومختلفة فيزيائيا . والاختلاف الفيزيائي يعني استقرار النواة أو نشاطها الاشعاعي .

تُكوِّن الالكترونات ، المحيطة بالنواة ، خط الدفاع الاول عن النواة ، فاذا قصفت المادة بأشعة نووية (الفا ، بيتا ، جاما) فان الالكترونات المدارية تستلم (أي تمتص) طاقة الأشعة الساقطة . وتتمكن الأشعة النووية ، بزيادة طاقتها ، من اختراق سحابة الالكترونات والوصول الى النواة . إلا أن شحنة النواة الموجبة والمجال الكهربائي المحيط بها يشكلان خط الدفاع الثاني للنواة . فحزمة من أشعة موجبة الشحنة مثل « ألفا » أو البروتونات إذا توافرت لها طاقة كافية لاختراق الألكترونات فإن التنافر

---

* أستاذة مساعدة بقسم الفيزياء ـ كلية العلوم ـ جامعة بغداد .

كهربائي يمنعها من الاقتراب من النواة . فتبقى
الطاقة العالية للأشعة النووية هي الوسيلة
الوحيدة للوصول إلى النواة ومن ثم لإحداث
تفاعل نووي يغير نواة الهدف . أما النوترونات
فإنها ، بسبب تعادلها كهربائياً . [illegible] كن بكل
سهولة وبطاقة قليلة جدا من اختراق خط
الدفاع والتفاعل مع النو [illegible] وتغييرها .
فتفاعل نوترون حراري (طاقته قليلة جداً مع
نواة اليورانيوم - ٢٣٥ يؤدي إلى إنتاج نواة
اليورانيوم - ٢٣٦ . وهذه الأخيرة هي نواة غير
مستقرة « تنشطر » إلى جزأين وعدد من
النوترونات يتراوح بين اثنين الى ثلاثة نوترونات
إن تحرر أكثر من نوترون واحد من الانشطار
يسبب الانشطار المتسلسل ويصاحب عملية
الانشطار تحرر طاقة ناتجة من اختلاف
طاقة الربط لنواة اليورانيوم عن طاقة ربط نوى
شظايا الانشطار . تمتلك النوترونات ، الناتجة
من الانشطار ، طاقة عالية يتحتم تقليلها (او
[illegible]ـتها) وتحويلها الى نوترونات حرارية لكي
تسبب الانشطار بكفاءة عالية [illegible] يتم هذا التحويل
باستخدام مواد ماصة لطاقة النوترون [illegible] مثل
الكرافيت الذي يخلط عادة مع المادة القابلة
للانشطار (الشطورة) مثل اليورانيوم أو
البلوتونيوم . تمثل المعادلة الآتية أحد نماذج
الانشطار لنواة واحدة :

نوترون حراري + يورانيوم (٢٣٥) ← كربتون
(٩٢) + باريوم (١٤١) + ثلاثة نوترونات +
طاقة مقدارها ٢٠٠ مليون الكترون فولت

يحتوي الغرام الواحد من اليورانيوم - ٢٣٥
على ٣×١٠^{٢١} نواة ، فاذا حصل تفاعل انشطاري
متسلسل لكل نوى الغرام الواحد من
النظير - ٢٣٥ فان الطاقة الكلية الناتجة هي
٦×١٠^{٢٣} مليون الكترون فولت ، أي ما يعادل
الطاقة الناتجة من حرق ثلاثة أطنان من الفحم .

● انشطار نواة اليورانيوم - ٢٣٥ بواسطة
نوترون حراري [illegible] العتمة = نوترون
الدائرة البيضاء = بروتون

● الانشطار النووي المتسلسل الدائرة السوداء
= نوترون الدائرة المهشرة = نواة اليورانيوم
الدائرة البيضاء = شظايا الانشطار السهم المتعرج
= طاقة المساحة المنقطة = المادة المهدئة

ويمكن تحديد شروط حصول التفاعل الانشطاري المتسلسل بما يأتي :

١ . نوترونات حرارية .

٢ . مادة قابلة للانشطار (شطورة) مثل اليورانيوم ـ٢٣٥ أو البلوتونيوم ـ٢٣٩ وبوفرة عالية (تسمى مخصبة بسبب زيادة نسبة المادة الشطورة) .

٣ . مادة مهدئة للنوترونات السريعة مثل الكرافيت .

٤ . حجم ملائم للمادة الشطورة يمنع هروب النوترونات قبل أن تسبب الانشطار ويسمى الحجم الحرج .

إن الشروط الاربعة توفر الانشطار المتسلسل غير المسيطر عليه ، وهو الذي يستخدم في القنابل أو التجارب النووية . أما في المفاعلات النووية فإن الانشطار المتسلسل يسيطر عليه بواسطة « قضبان السيطرة » . حيث تستخدم مادة لها قابلية امتصاص النوترونات ، مثل الكادميوم ، بغرض ايقاف الانشطار المتسلسل عند الحصول على الطاقة المطلوبة .

ان أصعب شروط الانشطار المتسلسل هو الشرط الثاني فعلى الرغم من توافر اليورانيوم في الطبيعة ، إلا أن النظير الشطور ، أي اليورانيوم ـ٢٣٥ ، يتوافر بنسبة قليلة جدا كما ذكرنا سابقا . فالطن الواحد من اليورانيوم الخام يحتوي على سبعة كيلوغرامات فقط من النظير ـ٢٣٥ مخلوطا مع النظير ـ٢٣٨ . ان التشابه في الصفات الكيميائية للنظيرين يحتم استخدام طرق فصل فيزيائية تعتمد على اختلاف كتل النوى . ويتم ذلك بتحويل اليورانيوم الخام إلى غاز سادس فلوريد اليورانيوم أولا ومن ثم فصل النظيرين احداهما عن الأخر. إن طريقة (التنافذ الغازي)هي التي اعتمدت خلال الحقبة الاولى من تلك البحوث حيث يمرر الغاز

السير جيمس جادويك
مكتشف النوترون

خلال أنابيب ذات جدران مسامية (مشابهة للمنخل) أقطار فتحاتها $\frac{1}{100}$ من المايكرون (واحد من مليون من المتر) ، هذه الفتحات تسمح بمرور نوى النظير ـ٢٣٥ ويبقى النظير ـ٢٣٨ في الأنبوب . وتعاد هذه العملية آلاف المرات للحصول على التركيز العالي المطلوب من اليورانيوم ـ٢٣٥ .

شيء من تاريخ ما قبل الانشطار

عمل عشرات العلماء ومئات من مساعديهم في حقلي الفيزياء والكيمياء وكانت حصيلة هذا العمل هو ما وصلنا إليه اليوم ، فاذا اشتهر بعض من هؤلاء العلماء فان الكثيرين غيرهم ، ممن عمل بصمت ، قد ساهم بصورة كبيرة في تطوير انتاج الطاقة النووية .

تميز عام ١٩٣٠ باكتشاف الكوكب بلوتو ، رمز الطاقة النووية مثلما المريخ رمز للحرب، وتلت ذلك أحداث سريعة متلاحقة في حقل استخلاص الطاقة النووية . فقد عملت آيرن جوليو - كوري (ابنة مدام كوري مكتشفة الراديوم) مع زوجها فردريك في حقل التفاعلات

نووية ويعزى اليها انتاج النشاط الاشعاعي الاصطناعي في باريس ، أما في كيمبردج بتشجيع من « رذفورد » فقد اكتشف جيمس جادويك النوترون في شباط ١٩٣٢. وتسلم جادويك جائزة نوبل للفيزياء في نفس العام مع ايرين وزوجها فردريك جوليو- كوري اللذين تسلما جائزة نوبل للكيمياء سوياً في عام ١٩٣٥

شغلت ، بعد هذين الحدثين ، مختبرات البحوث في أوربا باجراء تجارب التفاعلات النووية بطريقة ايرين وفردريك جوليو- كوري ولكن باستخدام النوترون . وكان انريكو فيرمي في روما أحد المشتغلين في هذا الحقل من البحوث .

كان للعلماء مجالان للنقاش ، الاول على صفحات الدوريات العلمية والثاني في المؤتمرات العلمية . نشر فيرمي في حزيران ١٩٣٤ بحثه عن تفاعل النوترون مع اليورانيوم وحصوله على أربعة « اصناف » من المواد المشعة . واشار فيه الى احتمال انتاج العنصر- ٩٣ (أي عنصر ما بعد اليورانيوم) . أثار هذا الرأي حماس الباحثين لامكانية انتاج المزيد من عناصر ما بعد اليورانيوم فاشتغلوا بذلك خمس سنوات متتالية ، إلا أن ايدا نوداك الكيميائية الالمانية (التي كانت منذ ١٩٢٩ تعمل مع زوجها ولتر نوداك في حقل دراسة العناصر ما بعد اليورانيوم) اعترضت على رأي فيرمي في بحثها المنشور في نهاية ١٩٣٤ . أشارت آيدا إلى أن ما ينتجه تفاعل النوترون مع اليورانيوم هو شطر النواة إلى نوى أصغر تنتمي إلى عناصر معروفة وليس انتاج نواة ثقيلة من عناصر ما بعد اليورانيوم . ولكن أحداً لم يعر هذا البحث الاهتمام الذي يستحقه ، ويعزى الآن سبب هذا الإهمال الى أن العلماء في ذلك الوقت لم يصدقوا بإمكانية شطر النواة بنوترون ذي طاقة

انريكو فيرمي
سيد النوترون

ضئيلة جدا .

لقد ساهمت الاختلافات السياسية بين الدول الأوربية في ذلك الوقت في خلق نوع من التعصب للتجمعات العلمية ، وكان ذلك يظهر اثناء المؤتمرات العلمية . ففي مؤتمر سولفاي الذي عقد في تشرين أول ١٩٣٣ ، نوقشت نتائج تجارب ايرين وفردريك جوليو- كوري (المجموعة الفرنسية) بقصف الالمنيوم بالنوترونات من قبل ليزا ما يتنر النمساوية التي شاركت اوتوهان في أبحاثه في انتاج عناصر ما بعد اليورانيوم . لقد شككت ليزا بنتائج ايرين قائلة انها لا تزال تستخدم الطرق القديمة للتحليل الكيميائي التي اعتمدتها والدتها (أي مدام كوري) . على الرغم من تأثر ايرين وزوجها واصلا بحوثهما التي أثبتت في النهاية خطأ ليزا في حكمها على النتائج (ان لم نقل تحيزها ضد المجموعة الفرنسية) .

في صيف ١٩٣٨ نشرت ايرين مع مساعدها بحثا عن تفاعل النوترون مع اليورانيوم ،وأرسل لها على إثره اوتوهان رسالة شخصية ينصحها بتوخي الدقة في القياسات ، فأجابت على رسالته

ببحث آخر نشر في خريف ١٩٣٨ يستند الى نتائج بحوثها السابقة . رفض أوتوهان قراءة هذا البحث إلا بعد الحاح مساعده فريتز شتراسمان (الذي أصبح أقرب مساعديه بعد ترحيل ليزا مايتنر خارج ألمانيا لتستقر في ستوكهولم) . بدأ الاثنان العمل بحماس وبسرعة لإعادة تجربة ايرين متوصلين الى نتائج مشابهة لنتائجها . في ٢٢ كانون الاول ١٩٣٨ ، أرسل البحث للنشر على وجه السرعة وفيه إشارة إلى حصولهما على الباريوم من التفاعل واحتمال ان يكون المنغنيز هو الناتج الآخر من التفاعل . لم يثر هذا النشر اهتمام العلماء ، فكتب أوتوهان الى ليزا مايتنر التي قامت مع ابن اختها اتوفريتش . في مختبر نيلز بور في كوبنهاجن ، بدراسة نتائج تجربة هان وشتراسمان نظريا وعمليا . نشرت إثر ذلك (في شباط / فبراير ١٩٣٩) بحثا تؤكد فيه صحة النتائج وتشير إلى هان وشتراسمان « باللذين اكتشفا الانشطار » .

لقد عارضت ليزا منذ ١٩٣٣ نتائج تجارب « ايرين » ولكنها أيدت نتائج هان وشتراسمان ، فهل هناك مبرر لذلك سوى تأثير الظروف السياسية في تلك الفترة على الآراء العلمية ؟ .

لقد ساهمت ليزا ما يتنر بدفع عجلة تطور الانشطار النووي عن طريق تحديها لأبحاث ايرين ، التي ردت على التحدي بالمزيد من البحوث والنشر ، وعن طريق تأكيدها لنتائج تجربة « هان وشتراسمان » التي لم تكن إلا إعادة لتجربة ايرين . لقد شخصت آيدا نوداك في نهاية ١٩٣٤ الانشطار النووي ولكن أحدا لم يهتم بذلك إلا بعد أكثر من أربع سنوات .

دور الصراع الدولي

لقد بدأت آثار الصراع الدولي في الثلاثينيات بالظهور على شكل احتكاك بين المجموعات العلمية المختلفة ، بين الألمان والفرنسيين وبين الألمان أنفسهم من الجامعات المختلفة . لقد أدى ذلك إلى إهمال بعض الآراء المهمة عن الانشطار كما أدى الى هجرة عدد كبير من العلماء الى خارج ألمانيا وايطاليا ، اتجه معظمهم الى الولايات المتحدة الامريكية او إلى السويد والنرويج .

فقد تسلم انريكو فيرمي جائزة نوبل لعام ١٩٣٨ وبدلا من العودة إلى روما واصل سفره إلى الولايات المتحدة ، وفي جامعة كولومبيا وصلته بحوث ايرين جوليو ـ كوري وبحث اوتوهان وشتراسمان ومن ثم بحث ليزا مايتنر وفريتش ومن خبرته الكبيرة والفرص الجديدة المتاحة له كان محتوما لشرارة الانشطار النووي أن تبدأ بالظهور وأن يصاحب ذلك الظهور احتمال استغلالها للأغراض العسكرية . فبدأت حملة هدفها إحاطة الأبحاث بسرية تامة خوفا من استغلال البحوث المنشورة عن الموضوع في الصراع العالمي من قبل الأطراف المختلفة .

إن تحذيرات بعض العلماء ، من خطر استغلال الطاقة النووية الناتجة من الانشطار ، لم تجد أذنا مصغية لسببين : الأول هو أن حماس العلماء لسبرغور المادة كان أقوى من كل تحذير . والثاني أن العلم طرق باب السياسة بنفسه في هذا الحدث ، فأصبح استغلال السياسة للعلم أمرا محتوما .

مشروع مانهاتن

لقد بدأ فيرمي (سيد النوترون) حياته العلمية كفيزيائي نظري ثم تحول إلى الفيزياء التجريبية مستغلا قابليته النظرية في ذلك ، فاستخدم النوترون في التفاعلات النووية مع مجموعته البحثية في روما حتى نهاية عام ١٩٣٨ .
وعندما استقر في الولايات المتحدة بدأ يفكر في التفاعل الانشطاري المتسلسل فكان يحتاج لذلك

ـية كبيرة من اليورانيوم الخام الذي بدأ يصله
كندا والكونغو فبدأ تجاربه ببضع مئات الكيلو
امات من اليورانيوم الخام ليتأكد من انبعاث
ـوترونات من الانشطار اولا ولمعرفة عدد
ـوترونات المنبعثة من كل انشطار ثانيا . بدأ
ـرمي هذا العمل بمجموعة صغيرة في جامعة
ـولومبيا لتكبر وتتسع مع الزمن . وفي يوم
٢/١٢/١٩٤٢ جمع « فيرمي »وفريق بحثه ، في
ملعب اسكواش مهجور في جامعة شيكاغو ،
سبعة أطنان من اليورانيوم والكرافيت مع قضبان
الكادميوم للسيطرة على التفاعل . استخدم
فيرمي عصر ذلك اليوم البارد حاسبته اليدوية
(Slide Rule) لحساب عدد النوترونات المنبعثة
والمسجلة في العدادات الخاصة للنوترونات .
وعندما طلب فيرمي من مساعديه سحب قضبان
السيطرة ، استنتج من الحسابات أن الانشطار
النووي المتسلسل يستمر ذاتيا وبذلك فتحت
بوابة العصر النووي وخطا الانشطار اولى خطواته
في أول مفاعل نووي من صنع الانسان .

ان ضآلة كمية اليورانيوم ـ ٢٣٥ في اليورانيوم
الخام تؤدي إلى أن الاطنان السبعة تحتوي على
خمسين كيلو غراما فقط منه . لذلك كان انتاج
اليورانيوم ـ ٢٣٥ المخصب هو الأمر الحتمي بعد
اثبات التفاعل المتسلسل . فكان إنشاء مشروع
ضخم في مدينة اوك ريدج إحدى المدن السرية
الثلاث (مع هانفورد لانتاج البلوتونيوم ولوس
الاموس) لفصل نظيري اليورانيوم بالتنافذ
الغازي ، وقد كلف هذا المشروع ٥٥٠ مليون
دولار واحتوى على ٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر من
انابيب الحديد الصلب (أي أطول من المسافة بين
الأرض والقمر التي تقارب ٤٠٠,٠٠٠ كيلو
متر) لمرور غاز سادس فلوريد اليورانيوم وقد
أدى هذا المشروع الى رفع كلفة الكيلو غرام
الواحد من اليورانيوم الى ١٤,٠٠٠ دولار .

وتحت عنوان « مشروع مانهاتن» برئاسة الجنرال
ليزلي غروفز تولى روبرت اوبنهايمر ، الذي ينحدر
من أب ألماني ودرس في جامعات أوربا ، إنشاء
مختبر لوس الاموس في صحراء نيومكسيكو .

قام أوبنهايمر (الذي أطلق عليه اسم أب
القنبلة الانشطارية) بتجميع اكبر عدد من العلماء
الامريكيين والأوربيين . وفي ربيع ١٩٤٣ وصل
أوائل الوافدين من العلماء وعوائلهم الى مدينة
« سانتافي » لتنقلهم بعد ذلك سيارات خاصة الى
هضبة لوس الاموس ، ليعيشوا في بقعة
صحراوية وتحت ظروف أمنية مشددة لغرض اتمام
مشروع انتاج القنبلة .

في ١٦ تموز ١٩٤٥ تم إجراء أول تجربة
انشطار نووي متسلسل غير مسيطر عليه في
صحراء « الاماغورد » وبحضور كبار المساهمين
في العمل وعلى بعد ١٥ كيلو مترا من نقطة
التفجير . كان الجنرال غروفز هو الاكثر سيطرة
على أعصابه ، اما روبرت أوبنهايمر فقد وصف
التفجير بأنه أسطع من ألف شمس .

الثالوث

لقد اشتملت تجربة «الثالوث » على قنبلة
« الاماغورد » وقنبلة « هيروشيما » في
٦/٨/١٩٤٥ وقنبلة ناكازاكي في
٩/٨/١٩٤٥ . ولهذه القنابل الثلاث رواية
اخرى كتبها العالم الألماني « ارفين اوبنهايمر »
(الذي اعتقل مع سبعة وعشرين عالما المانيا
ونقلوا الى الولايات المتحدة بعد استسلام المانيا)
لقد اكتسب « ارفين اوبنهايمر » الجنسية الأمريكية
بعد تسع سنوات من انتهاء الحرب وكتب عن
تاريخ الانشطار النووي من داخل المانيا في كتابه
(يا للهول !!) الذي ترجمه للعربية د . صلاح
يحياوي . فقد كانت معامل هامبورغ مخصصة
لتخصيب اليورانيوم ، وجمع في اينسبورغ كمية
يورانيوم تكفي لصنع بضع قنابل . وكانت خطة

ليزا مايتنر
مع اوتوهان
مكتشف
الانشطار في
خريف ١٩٤٩

هتلر تتضمن نقل القنابل إلى اليابان بواسطة الغواصات ، وفي ٢٠ نيسان سنة ١٩٤٥ انتهى صنع القنابل التي فككت ليتم نقلها الى اليابان ، وقد كان مصير بعض هذه القنابل هو فعلا الوصول الى اليابان بعد ان استولى الامريكيون عليها لتستلمها هيروشيما وناغازاكي ، حيث أن القنابل الألمانية كانت تحتوي على صفائح الزركونيوم (الذي اقترحه أرفين أوبنهايمر) أما قنابل مشروع مانهاتن فتحتوي على صفائح الكادميوم (الذي اقترحه روبرت اوبنهايمر) . واول قنبلة نووية امريكية ناجحة هي التي جربت في اينيوتوك في مايو / أيار ١٩٤٨ . ويضيف « ارفين اوبنهايمر » أن العلماء الألمان أخروا عمدا إنتاج « السلاح السري » الذي كان من المزمع اعلانه في العيد الثاني عشر للحزب أي في ١٩٤٥/١/٣٠ ، وأن هتلر أوقف استمرار المشروع عندما تلقى رسالة (من أحد العلماء) تحذره من النتائج الوخيمة للتفجير النووي على الكرة الأرضية بكاملها ، ثم طلب الاستمرار في العمل بعد فترة حرجة .

كما توجد جهة ثالثة تتحدث عن تاريخ الانشطار ألا وهي جهة الاتحاد السوفيتي ، حيث ان شغلهم بجبهة الحرب مع الألمان منعهم من تكريس الجهد والمال لذلك المشروع إلا أن البحوث كانت مستمرة منذ الثلاثينيات في المعهد التقني بمدينة خاركوف وتحت إشراف العالم ايغور كورتشاتوف ، ولم يتسلم كورتشاتوف أوامر البدء بصنع القنبلة إلا بعد تدمير هيروشيما وناغازاكي . وفي ١٩٤٩ فجرت أول قنبلة نووية سوفيتية . ويقول مؤرخو هذه الجهة ان روزنبرغ وزوجته ، اللذين أعدما في أمريكا بتهمة تسليم أسرار القنبلة إلى السوفييت ، هما ضحية لأسطورة التفوق والمناعة الامريكية .

إن العامل المشترك في الجهات الثلاث التي تروى صورا مختلفة لحدث واحد هو العلماء الألمان . فعند استسلام المانيا اعتقل المحتلون من الجهات المختلفة العلماء الألمان ونقلوهم كل إلى جهته ، فذهبت مجموعة منهم الى الاتحاد السوفيتي ومجموعة اخرى الى بريطانيا ومجموعة الى الولايات المتحدة الامريكية ، إضافة إلى العلماء الالمان الذين هاجروا منها قبل أو اثناء الحرب . فكانت القنبلة النووية الانشطارية صناعة الفكر الالماني . أما تحويلها الى فعل فكان صناعة امريكية ومن ثم سوفيتية . يقول أرفين

اوبنهايمر أن هتلر عندما أغمض عينيه انتهت الحرب العالمية الثانية وبدأت في الوقت نفسه الحرب الباردة وسباق التسلح النووي وما كلف ذلك من أموال طائلة وآثار بيئية وخيمة .

ويقال ان لعنة (مشابهة للعنة الفراعنة) حلت بمن ساهم في انتاج القنبلة النووية ، فقد حرم على فيرمي زيارة وطنه إيطاليا بعد انتهاء الحرب (لأسباب أمنية) ، وعندما سمح له بذلك كان المرض الخبيث قد تمكن من حنجرته ليموت عام ١٩٥٤ . كما عانى روبرت أوبنهايمر من مطاردات وملاحقات أمنية بسبب علاقته بفتاة شيوعية قبل زواجه،وحوكم ثم أعيد له اعتباره في ١٩٦٣ ليتوفى في ١٩٦٧ .

لقد حصل أوتوهان على جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٤٤ واطلق اسمه على العنصر ١٠٥ (الهانيوم) . كما اطلق اسم فيرمي على العنصر ٩٩ (الفرميوم) . أما العنصر ١٠٤ فان الامريكيين يطلقون عليه اسم رذرفورد (الرذرفورديوم)والسوفييت يطلقون عليه اسم كورتشاتوف (الكورتشاتوفيوم) .

اين الصورة المشرقة ؟

بعد انتهاء الحرب العالمية فتحت صفحة استغلال الطاقة النووية للأغراض السلمية بالاضافة إلى استمرار سباق التسلح النووي الذي كان على أوجه في الخمسينيات ، ثم ساهم التسابق على غزو الفضاء في الستينيات من انحسار بعض الضوء عنه .

لقد ازدهر استغلال الطاقة النووية لإنتاج القدرة الكهربائية من المفاعلات النووية خلال عقدين من الزمان ولم تبدأ أصوات المعارضة بالارتفاع إلا في بداية السبعينيات ، فقد اعتبر التفجير النووي والمفاعل النووي ثمرتين من شجرة واحدة . أما مشجعو استغلال الطاقة النووية في المفاعلات النووية فقد كانت لهم ثلاث حجج هي :

١ . الحاجة الى الطاقة .
٢ . اقتصادية النفقات .
٣ . الأمان والسلامة .

وبعد حوادث المفاعلات (وند سكيل في انكلترا عام ١٩٥٧ ، جزيرة ثرى مايل في امريكا عام ١٩٧٩ ، تشيرنوبل في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٦) تراجع عاملا الاقتصاد والأمان . إن هذين العاملين يعارض أحدهما الآخر ، فللحصول على الأمان اللازم ، يجب توافر المزيد من الوقاية للعاملين في المفاعلات وعموم الناس وهذا يؤدي إلى زيادة النفقات .

إن الانشطار النووي وما يوفره من طاقة هو أحد الجوانب وليس جميعها ، فمفاعلات البحوث تساهم في إنتاج النظائر المشعة المختلفة والتي تستخدم في مجالات متعددة في الصناعة والزراعة وفي الطب (لأغراض التشخيص والعلاج) ، إن فوائد استخدام الأشعة النووية والنظائر المشعة من الكثرة والشمولية ما لا يمكن ان يحجب خلف غيمة بشكل نبات الفطر التي تنتج من التفجيرات النووية او خلف خزانات النفايات المشعة (الناتجة من المفاعلات النووية) . وإن الخمسين عاما التي انقضت قد كشفت الكثير من الجوانب التي كانت خافية على الإنسان ، وأصبح الآن بالامكان استغلال الانشطار النووي بصورة افضل لتطوير حياة الانسان وطرق معيشته ، إن الانسان بذكائه يمكنه أن يستغل هذه الوسيلة العظيمة بدلا من أن يصب عليها اللعنات لأنها استُغِلَّتْ في بدايتها وخلال ظروف خاصة ، بصورة غير حضارية . وقد وصف طاغور مثل هذه الحالة بقوله : إننا نقرأ الكون بصورة خاطئة ثم نقول بعد ذلك لقد خُدِعنا . □

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

علاقة ما بين الشريعة والفلسفة

لأبي الوليد بن رشد *

١ - أما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بيّن في غير ما آية من كتاب الله ، تبارك وتعالى ، مثل قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي ، أو العقلي والشرعي معا ومثل قوله تعالى . (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات

٢ - وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي ، وبين أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه ، هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس - وهو المسمى « برهانا » - وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان ، وكان من الأفضل - أو الأمر الضروري - لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى ، وسائر الموجودات بالبرهان ، أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البراهين وشروطها .

٣ - فإنه كما أن الفقيه يستنبط من الأمر بالتفقه في الأحكام وجوب معرفة المقاييس الفقهية على أنواعها ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس ، كذلك يجب على العارف أن يستنبط من الأمر بالنظر في الموجودات وجوب معرفة القياس العقلي وأنواعه ، بل هو أحرى بذلك ، لأنه إذا كان الفقيه يستنبط من قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وجوب معرفة القياس الفقهي فكم بالحري والأولى أن يستنبط من ذلك العارف بالله وجوب معرفة القياس العقلي .

٤ - وليس لقائل أن يقول : « إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة ، إذ لم يكن في الصدر الأول » . فإن النظر أيضا في القياس الفقهي ، وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأول ، وليس يرى أنه بدعة . فكذلك يجب أن نعتقد في النظر في القياس العقلي . . .

٥ - وإذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وأنواعه ، كما يجب النظر في القياس الفقهي ، فبين

---

* من كتاب « فصل المقال » (تحقيق البير نصري نادر ، بيروت ، ١٩٦١) ص ٢٨ - ٣٥ .

كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه . أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص وأن نستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم ، حتى تكمل المعرفة به . فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد الناس من تلقائه وابتداء على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج من معرفة أنواع القياس الفقهي ، بل معرفة القياس العقلي أحرى بذلك ، وإن كان غيرنا قد فحص ذلك ، فبين أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن سبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة . . وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام . وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم ، فننظر فيما قالوه من ذلك : فإن كان كله صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه .

٦ ـ فإذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها نقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها ، فإن من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع ، فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية . وبين أيضا أن هذا الغرض إنما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد ، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم .

وإذا كان هذا هكذا ، فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم : فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

٧ ـ فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع ، إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه ، وإن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها ـ وهو الذي جمع أمرين أحدهما ذكاء الفطرة ، والثاني العدالة الشرعية والفضيلة الخلقية ـ فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله ، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة ، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى . وليس يلزم من أنه إن غوى غاو بالنظر فيها ، وزل زال ، إما من قبل نقص فطرته وإما من قبل سوء ترتيب نظره فيها ، أو من قبل غلبة شهواته عليه ، أو أنه لم يجد معلما يرشده إلى فهم ما فيها ، أو من قبل اجتماع هذه الأسباب فيه ، أو أكثر من واحد منها ، أن نمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها . فإن هذا النحو من الضرر الداخل قبلها هو شيء لحقها بالعرض لا بالذات . وليس يجب فيما كان نافعا بطباعه وذاته أن يترك بمكان مضرة موجودة فيه بالعرض . . بل نقول إن مثل من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهل لها ، من أجل ان قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل نظرهم فيها ، مثل من منع العطشان شرب الماء البارد العذب حتى مات من العطش ، لأن قوما شرقوا به فماتوا . فإن الموت عن الماء بالشرق أمر عارض ، وعن العطش أمر ذاتي وضروري .

وهذا الذي عرض لهذه الصناعة هو شيء عارض لسائر الصنائع . فكم من فقيه كان الفقه سببا لقلة تورعه وخوضه في الدنيا ، بل أكثر الفقهاء كذلك نجدهم . وصناعتهم إنما تقتضي بالذات الفضيلة العملية . فإذاً لا يبعد أن يعرض في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العلمية ما عرض في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العملية . □

موت كاتب متجول

قصة : هاني الراهب

شجرة نسبه تنتهي إلى آدم عليه السلام . وهذه الحقيقة لاتهمه ، بل لايهمه كون الشجرة منتهية إلى قرود افريقيا . (هو) لم يكن حاضرا يوم ولد جده الأول .

إحدى جداته كانت شر موطوءة نالها الذكور الصليبيون . وكان جده رجلا يعيش في السهول ، على جسده تمر أحذية الولاة والباشوات والعسكر والطبيعة . وكان أبوه فتى عندما قامت الحرب العالمية الأولى . وكان (هو) طفلا يحبو عندما قامت الثانية .

ثم تتالت الأحداث . لم يكن (هو) حاضرا عندما تناول الصهيونيون فلسطين من بريطانيا والأمم المتحدة . لم يكن حاضراِ عندما مزق الرصاص جسد سلفادور أليندي . لم يكن حاضرا عندما اجتمع بريجنيف ونكسون في فلاديفوستوك ، ولا عندما افترقا في بكين .

(هو) غالبا لا يحضر . لم يحضر موت انسان جوعا : كيف يضمر لحمه حتى يتلاشي ويلتصق الجلد بالعظم ، وتجحظ وجنتاه وعيناه فتغدو أوكارا ، وينتهي دون أن يكون قادرا على الشعور بالموت .

لم يحضر موت انسان في المعتقلات : كيف تصعقه الكهرباء ، أو يفتت لحمه السوط ، أو تجهز عليه ضربة فأس ، أو يترمد بمذيبات اللحم ، أو يتعفن في الغياهب .

لم يحضر حربا ، ولا مؤامرة ، ولا اغتيالا ، ولا مفاوضات ، ولا انقلابا عسكريا ، ولا عملية تجسس مثيرة ، ولا جلسة نيابية ، ولا سرقة أو رشوة . باختصار ، لم يكن حاضرا حتى في ساعة ولادته .

لكن (هو) ، على الرغم من هذا الغياب الأبدي ، حضر ذات يوم ، وصار محررا في مجلة . وكان ذلك بعد سقوط بغداد بسبعمائة عام ونيف ، في العام الخامس والثلاثين لحكم الجنرال فرانكو في اسبانيا ، وفي فترة الظهيرة من قضية ووترغيت الأمريكية . ومع أنه لم يحضر يوم اكتشاف فوائد البخار ، فهو يملك «طنجرة» بخارية ؛ ولا يوم اختراع الكهرباء ، فبيته منار بها ؛ ولا يوم اختراع الاتصال اللاسلكي ، فهو يتكلم بالهاتف ؛ ولا يوم القاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، فهو يخاف منها ؛ ولا يوم هبوط الانسان على سطح القمر ، فهو يؤمن به .

إذن ، على هذه الأرض المكونة من خمس قارات وخمسة محيطات ، وبين أناس تشكلوا منذ عشرات آلاف السنين بشرا متميزين عن القردة والنسانيس ، صار لـ(هو) مكان : نصف غرفة ، كرسي ، طاولة ، نصف جهاز هاتفي .

و(هو) ، على الرغم من هذا الغياب الأبد ، مليء بالأسرار . لقد تعلم بالتدريج أن يحب قوس قزح حبا عميقا راسخا . يحبه لأنه الحياة نفسها ، لأنه قوس وليس خطا مستقيما . يحبه لأنه حافل بالألوان ، ولكل لون جاذبيته . ففي يوم يكون الأحمر أكثر مخاطبة للنفس : بحرارته واحتدامه وإثارته . وفي يوم يتقدم الأزرق

وينتشر في ساحة الشعور ، بهيا مترفا مريحا . تارة يكون الأصفر ، عندما تتوعك النفس أو تشف فيها الكآبة . وتارة يكون البرتقالي ، عندما ينسكب بياض الحياة ورغدها على تطوحات الأحمر وضجيجه . وبفعل تجارب الحياة ، أثناء كتابته للمجلة ، وعبر اتصالاته بالبشر ، تعلم (هو) أن يكون حضوره غائبا وغيابه حاضرا ، واكتشف البنفسجي ، أدهشه اللون الرائع ، إذ لم يكن يتصور أن بوسع الأحمر والأزرق أن يأتلفا في لون جديد .

شغلته توالدات الألوان إذ تمتزج . أمعن النظر في الألوان الناجمة عن تداخلاتها في قوس قزح . وأدرك أن لنظرية النسبية بعدا جماليا أيضا ، وليس أخلاقيا فقط . شيء واحد لم يتسن له أن يبحث عنه : أي لون يحب ؟

و(هو) يعرف الأبيض والأسود . لقد قرأ كثيرا من الكتب ، واعتصر حكمة الأولين والآخرين . وتكلم مع كثير من الناس . يوم تحدثت الأخبار عن مجاعة فتكت بعشرات الآلاف من الهنود ، ترقرقت نفسه بالدمع . ويوم قرأ عن الملايين الخمسين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية ، رأى الحياة البشرية ملفعة براية سوداء . ويوم اعتقل جاره ، وغاب

بلا رجعة ، أحس بالهلع وخرجت الطمأنينة من قلبه .

لذلك يطيب له بين حين وحين أن يتحدث مع (هو الثاني) عن الخبز والحرية . فكثيرا مايحدث أن يخرج إلى لسانه شعور أحمر ، أو كلمات سوداء ، أو أفكار برتقالية . وقليلا ما تنطلق من هذا اللسان كرات ثلجية تحمل الشعور أو الكلمة أو الفكرة .

وذات يوم بهيج أغلق (هو) و(هو الثاني) الباب . تمترسا بطاولتها . أحسا بحرية مساحتها عشرون مترا مربعا من مساحة الكرة الأرضية التي تتكون من خمس قارات وخمسة محيطات وغلاف غازي . عندئذ تكلم (هو) . قال : إن الجميع يظنونه غائبا ، أهبل ، يحسبونه بزالا أو مفتاح مذياع ، ينظرون إليه كموسوعة في متناول اليد ، صغيرة لطيفة . ثم زمجر بتكشيرة ظافرة واثقة . قال : إنه يعرف الأحجام والأثمان والأشكال والأثقال والأشغال .

قال (هو الثاني) : إنه مفجوع . قال انه بلا حجم ، ولا ثمن ، ولا شكل ، ولا ثقل ، ولا شغل ، وأنه يتمنى لو يحطم هذه الطاولة ، لكنه يعرف أن يده ستنكسر أولا .

قال (هو) : إنه لن يجازف بتحطيم يده أيضا . لقد تعلم أن الحياة أثمن من معركة خاسرة . قال : إنه يعرف كيف يحتفظ بملكيته لهذه المساحة الصغيرة من الحرية ، ويظل ساخرا من محاولات اقتحامها .

قال :- يظنون أننا دمى بأيديهم . دعهم يظنون ما أحبوا . نحن نبقى وهو يذهبون . ألم يقتلوا لوركا ؟ ماذا حدث في النهاية ؟ عاش لوركا ، وماتوا هم . دعهم يظنون ما أحبوا . صرنا نعرف اللعبة ، نعرف كيف نحافظ على رقابنا ، نضحك عليهم إلى أن يلحقوا بفرانكو وسالازار . نحن ضمير هذا الشعب ولا يمكن أن نموت .

ومد كفه هامسا بضحكة خاتلة ، وخبط (ه الثاني) بكفه عليها . ضحكا . استرخيا عو مقعديهما . عندئذ رن جرس الهاتف . وتلقف (هو الثاني) السماعة . أنصت قليلا ، ثم اربَ وجهه .

- آلو . . نعم . . لا أنا زميله في الغرفة . لحظة أستاذ . التفت إلى (هو) :- المسئو الثقافي يريدك .

- أنا ؟ مستحيل . . لماذا ؟ . . لست هنا ، لست هنا . . انتظر . . اظهر أنك تبحث عني .

- لحظة أستاذ . . أظن أنه في الأرشيف . . . . طيب . . على عيني .

- ماذا ؟

وضع (هو الثاني) السماعة . قال :- يريدك بالسرعة الممكنة . اذهب إليه في مبنى الرئاسة .

- لماذا ؟

- كيف كانت لهجته ؟

- لهجته ! رقيقة كورق الورد ، عذبة مثل صوت زرياب .

إذن ، يريدونه أن يحضر ، بالسرعة الممكنة .

صمت المكان . أصابع (هو الثاني) راحت تنقر على الطاولة . بحركة لاإرادية ، نهض (هو) وفتح الباب . عاد . جلس وراء طاولته .

بالسرعة الممكنة . أن يحضر بالسرعة الممكنة . المسئول الثقافي نفسه ، نفسه دفعة واحدة . خمسة وثلاثون عاما ، والآن : دقت الساعة . مثلما حدث لجاره : الحضور عند المدير ، وبعده حضور عند مسئول من نوع آخر .

في الطريق إلى البيت ، حاول أن يتذكر .
ة وأربعة عشر عددا من المجلة : مائة وأربعة
ـر مقالا ؟ ما الذي سيعده المسئول اسود ؟ ما
ـي . سيعده أبيض ؟ أيها خرج من منطقة
ـاخل الألوان ؟ حاول أن يتذكر . لم يتذكر .
ـتد مرت على العالم مئات الأحداث ، صدرت
لاف الكتب ، قامت عشرات المعارك
لثقافية . وكان مطلوبا أن يتداخل على
التوالي .

في أي تداخل يكمن الخطأ ؟

في الطريق سمع من مذياع أحد الحوانيت تصريح (أحد المسؤولين :) العرب لايريدون من الغرب أن يركع على قدميه بسبب حاجته للنفط العربي ، يريدون فقط حقوقهم المشروعة . وفي غمرة هواجسه تساءل : متى ينهض العملاق العربي ؟

ثم سمع كلمات قليلة عن الحرب الدائرة في أنغولا بين الوطنيين والرأسماليين ، وذابت البقية داخل ضوضاء السوق . وفي غمرة هواجسه تساءل : متى ينهض العملاق الأفريقي ؟

ثم اصطدم به رجل خرج مغضبا من حانوت البقال :ـ بليرتين ، قال بليرتين ! البارحة كنا نشتريها بنصف ليرة ! هل انقلبت الدنيا ؟

أسرع يغذ الخطى . لم ينتظر اعتذارا من الرجل الذي لم يبد عليه التفكير بالاعتذار . بالسرعة الممكنة . الحضور بالسرعة الممكنة .

في البيت تدفق نحوه طفلاه . الحب الذي خفق في قلبه تلاشى بعد لحظة . جرفه شعور تداخل فيه الخوف والعداء . هذان الجروان المفترسان ، العلقتان الماصتان ، لأجلهما جاع وتحمل ألف اهانة . لأجلهما تحول العالم من ملعب إلى شاشة في الذهن . لو كانت زوجه عاقرا لعدها أفضل امرأة في العالم .

ـ يا الله إلى المطبخ ! نادي أمك وقولي لها أنا في المكتبة !

لم يكترث لانكفاءة الوجهين الصغيرين ، ولا للدهشة التي جمدت جسديهما . على العكس ، أحس برضى آني لأن مناسبة جاءت واستطاع فيها أن ينتصب ويضطهد أحدا ما ، أن يصرخ بملء حلقه ، دونما خوف ، ويلقي أوامر .

في المكتبة راح يعمل بسرعة . تناول المجلات من رفوفها ، ورتبها على الطاولة . جاء بالكرسي ، ونفاضة السجائر ، أخرج الكبريت وعلبة الدخان ووضعهما إلى اليسار .

التفت إذ فتحت زوجه الباب . بطنها المتنفخ ومريول المطبخ المنسدل عليه أرسلا فيه حسا بالرثاثة : حتى الخطأ الذي يصنعه بيديه ، لايمكن إيقافه . وتضاعف الحس فغدا شعو ا بالعجز والخور : هذه الحياة الصماء المقتحمة في رحم امرأته ، أقوى منه ، بل هي استهزاء به ، استهزاء كامل . ورأى أنه كتلة لاحول لها ولا قوة . وتحول غضبه إلى نظرة ضارعة مسح بها على وجه المرأة الودود المتعب .

ـ ألم تتصلي بالطبيب ؟

لم تجب . لم يعبر وجهها عن شيء .

ـ ثلاثة أولاد كثير . يكفينا اثنان .

لم تجب . لم يعبر وجهها عن شيء .

ـ أنت تريدين الولد . أعرف . ألم تتصلي بالطبيب ؟

ـ طلب أربعمائة ليرة .

صمت (هو) . ابتسم . نخر . نهض فجأة عن الكرسي . اتكأ عليها .

ـ وماذا ؟ أربعمائة ليرة فقط ، مقابل حياة غير مرغوبة . أربعمائة ليرة لاغير . شيء تافه . الامريكان يصرفون بلايين الدولارات للوصول إلى القمر . لماذا لا أدفع أنا أربعمائة ليرة ؟ الآن ، أين هو ؟ . هذه هي المحفظة ، خذي ، هذه أربعمائة . هذه ألف . عشرة آلاف ، إذا شئت . اشتري لي الموت والحرية . اذهبي فورا إلى الطبيب . أنا لا أريد الولد . يكفينا الاثنان . أنا حر . يكون لي أولاد أو

لا يكون ، أنا حر . هكذا يفعلون في ايطاليا ، وفي كندا ، وفي الصين ، وحتى في القطب الجنوبي . الناس أحرار . أحرار حتى الموت . من أيام يوليوس قيصر إلى أيام فرانكو . أحرار حتى الموت .

ثم صمت . أشعل سيجارة . شعر أنه فقد صوابه .

ـ عندنا بن ؟

ـ اشتريت نصف كيلو .

ـ نصف كيلو ! كثير . يكفينا اوقيتان . أريد قهوة ، هل اتصل أحد ؟

ـ لا .

ـ إذا اتصل أحد أنا غير موجود . والأولاد ، ابعديهم عني .

ـ ماذا حدث ؟

ـ اذهبي الآن . اصنعي لي قهوة .

نظر إليها وهي تخرج دون أن تستدير ، وإلى يدها وهي تغلق الباب . فجأة صار وحده : بالسرعة الممكنة . جلس على الكرسي . وضع السيجارة في المنفضة . تناول العدد الأول .

بين العدد الأول والعدد الأخير ، تلاشى المكان والزمان . وتلاشى (هو) . كل شيء تحول إلى كلمات ، العالم بأجمعه . والكلمات رصت على الورق . بادر ماينهوف والجد , الأحمر . الجنرال اورتيغا وانقلابه العسكري ، جائزة نوبل للآداب . ماوتسي تونغ . النفط . الجفاف والمجاعة في أفريقيا . هجمة فدائية على تل أبيب . حضارة الترف . سايغون . ويلي براندت . قصف اسرائيل الجوي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين . الدولار . هيلاسلاسي . العودة إلى بوذا . البديل الأمريكي . الواقعية الاشتراكية . رونالد ريغن والديمقراطية الامريكية . . .

وعشرات من شئون العالم ، العظمى والصغرى . كلها كتب عنها . حدثت ولم يكن (هو) حاصرا ، لكنها عبرت وعيه ولغته .

في أي تداخل وجد المسئول الثقافي الخط ؟ ماكتبه خلال مائة وأربعة عشر أسبوعا ، [illegible] أو كلمة كلمة . لم يغفل حتى عن أن عينيه [illegible] تعبتا . كلما خشي أن تكون كلمة قد أفلتت [illegible] الرقابة الصارمة ، أعاد القراءة . فالكلمات [illegible] قوس قزح ، مخاتلة وزياغة للبصر .

عندما دخلت زوجه للمرة الثالثة ، رفع رأسه إليها ولم يرها تماما . رأى دوائر ومستطيلات تتأجج وتتوهج وتتداخل . وحسب أن الا[illegible] يعود للعتمة التي شيممت دون أن ينتبه . [illegible] زوجه أنارت الغرفة ، وبقيت الد[illegible] والمستطيلات .

ـ ألن ترتاح قليلا . وتأكل لقمة ؟

ـ هل اتصل أحد ؟

ـ لا .

ـ لا . الشغل واجب الآن . وعندي قهوة

ـ دخنت علبة كاملة .

ـ اتركيني الآن .

ـ ماذا حدث ؟ نحن خائفون . طلبوك مثل جارنا ؟

ـ لا شيء ، لا شيء . اتركيني الآن .

بعد ساعتين ، انتهى . أطبق العدد الأخير ببطء شديد وأعاده إلى مكانه . ليس هناك خطأ . ليس هناك أي خطأ . استلقى بجذعه على الطاولة ، أسند رأسه على كومة المجلات ، وأغمض عينيه . لكنه لم يسترح . لو كان هناك خطأ ، لعرف كيف يتدبر أمره . إنه سيد الكلمات ، ويستطيع أن يزحلقها على قوس قزح ، فيسل براءته كما تسل الشعرة من العجين . أمام عينيه المكدودتين المغمضتين ، امتد فراغ هائل مجهول : ما هي التهمة ؟ كيف يتلقاها وهو غير مستعد لها ؟ ستخونه الكلمات والمظاهر ، سيفر قوس قزح من ذهنه ، ويبقى الفراغ الهائل المجهول ، بل إنه فر منذ الآن . ما الذي يمكن أن يفعله المسئول الثقافي ؟ سيسرحه من عمله ، أم يسلمه لمسئول من نوع

آخر ؟ صحيح أنه (هو) وأنه لايحضر في أي مناسبة ، لكن كل مناسبة حاضرة في ذهنه . ومادا بوسعه أن يفعل ، وهو يمتلك ذهنا ؟ يغيب عن المناسبات فتحضر إليه ؟ هل قال كلاما ؟ هل مزح مزحة ؟ هل استمع لمن قال كلاما أو مزح مزحة ؟

عندئذ بدأ ذهنه يفتح أياما وأسابيع وشهورا ، لقاءات واجتماعات ومناقشات . لابد أن شيئا ما قد وصل إليهم . حاول أن يتذكر . لم يتذكر . لقد تطور العالم . لم يعد للصمت والابتسامة أن يحصّنا السريرة ضد أدوات اكتشافها . صحيح أنه اشتهر بالدماثة ، لفظا وملبسا ، وبوسعه أن يأتي باللفظة المناسبة واللون المناسب . لكن العالم تطور . لم تعد أسرار النفس قادرة على الاختفاء . الانسان لا أسرار له . الأسرار تقبع في مكان آخر . في حرب معلنة ، في صفقة سياسية ، في بيع اليورانيوم لجنوب افريقيا ، أو في المساعدات الامريكية . (هو) لا أسرار له .

أيمكن أن يكون زميله في الغرفة ؟ جيرانه الذين يدعونه للرد على الهاتف ؟ أحد أصدقائه ؟ أحد ما ممن يدخلون بيته ؟

لأنه لم يعثر على جواب تضاعف خوفه . تماما كما حدث لجاره : بعد المدير ، مسئول من نوع آخر . هاهي المناسبة تحضر إليه ، على الرغم من غيابه المؤبد . في هذه الغرفة المعزولة عن العالم ، الموصدة الباب ، المغلقة النوافذ ، الصامتة صمت القبور ، الموحشة وحشة الفلوات ، التي نجت من التجربة لأنها تفادتها وسط هذه الغرفة ، يضطجع (هو) داخل فراغ هائل مجهول ، متهما بما لا يعرف ، مطلوبا للحضور على الرغم من غيابه .

لماذا غاب إذن ؟

طالما أن النتيجة واحدة ، لماذا قبل أن يغيب ؟ لماذا آثر أن يغيب ؟ كان أفضل ألف مرة لو أنه اتهم بفعل قام به ، بدلا من وشاية حقيرة . لو أنه قال عبارة فقط . لو كتب سطرا . تدخل زوجه للمرة الرابعة ، بطنها المنتفخ أولا .

ـ اتصلوا بك . ـ من ؟

ـ المسئول الثقافي ؟ قال لتذهب إليه غدا .

إذن : ليس في الأمر مجال للالتباس . وهم يريدون اتلاف أعصابه أولا . وإلا لكانوا أرسلوا من يسله خارج الغرفة كما تسل الشعرة من العجين . يريدونه جاهزا لاعتراف فوري ، ربما لأنهم يضنون عليه بالوقت . أجل ، هناك الحروب ، المؤتمرات السرية ، بركان الغلاء ، ألف مسألة تاريخية ومسألة . و(هو) ليس تاريخيا .

لم يبد مقاومة عندما أمسكت يدا زوجه بزنده . تبع إشارة اليدين الصامتة . تجرجر نحو غرفة النوم . قبل أن يغفو اندلع من منزل مجاور صوت مذيع يقرأ نشرة الأخبار بخطورة رصينة . بعد ثوان غلب الصوت . حضر الصمت للظلمة . خمس قارات ، خمسة محيطات ، خمسة آلاف سنة من الحضارة .

في العاشرة صباحا ، خرج (هو) من البيت ، عازما على لقاء رئيس التحرير وطلب المساعدة . مقاطع الدرج بدت له أشبه بكتل الطباعة على أوراق المجلة ، وكل درجة سطرا ، إلا أنها منحدرة . ضغط على صدغيه باصبعيه ثم مسح بيده على شعره . عند الباب لم يتبين السيارة الجاثمة بحذاء الرصيف . لكنه اضطر

إلى رؤيتها ، إذ خرج من بابها الأمامي الأيمن شاب يرتدي الخاكي وعلى ردفه الأيمن انتفاخ معروف . ثم رأى السيارة السوداء ، وبابها الخلفي الأيمن المفتوح تماما ، وزجاجها الخلفي المستور من الداخل بستارة بنفسجية .

ـ صباح الخير ، أستاذ . ـ أهلا .

ـ نحن بانتظارك . ـ أنا جاهز .

ودلف إلى السيارة كأنه يمشي في نومه . دفع لابس الخاكي الباب بقوة فدوى صوت انغلاقه في أذني (هو) . كذلك أغلق الباب الأمامي . ونخر محرك السيارة نخير قط نائم . وانطلق الركب .

على الرغم من انقضاء سنوات ، لم يفهم (هو) لماذا حدث كل ذلك . كان كل شيء دقيقا وواضحا ، وأبعد مايكون عن المصادفة . لقد اقتيد إلى هناك بتلك الدماثة الزلقة والتكريم المريب اللذين يسبقان اعلانا صاعقا لنبأ قاتل . وعندما دخل المبنى لم يكن ثمة مايشير إلى أنهم ينتظرونه ، لكنه كان قد تضاءل . وعندما دخل المكتب ، شاهد على وجه المسئول الثقافي ابتسامة هائلة مجهولة ، وشاهده ينهض عن كرسيه ويدور إلى اليمين ويرحب به .

مازال يحاول أن يفهم . بالطبع كان الأمر كله حبكة محكمة البناء . فإذا استرخى على مقعد السيارة ، وشعر أنه راح يتضاءل ، كانت أمنيته الوحيدة أن تتاح له الحرية مدة عشرين ثانية كي يبكي . غير أن هذا لم يحدث . وبدلا منه ، راحت عينا السائق تنظران في المرآة فتصطادان عينيه . وبعدها وجد نفسه في المكتب . شاهد الابتسامة الهائلة المجهولة ، وجسد المسئول الثقافي يتحرك عن الكرسي وحول الطاولة ليرحب به ، ليصافحه بتلك الابتسامة الهائلة المجهولة ، ويجلس على أريكة بجوار أريكته .

يتذكر أنه في ذلك الصباح ، عندما ارتمى على مقعد السيارة وهو لا يحس حتى بجسده ، تلاشى خوفه تماما . وعندما عبرت به السيارة الشوارع المكتظة الصاخبة ، ونشرات الأخبار والأغاني ، وحرارة الشمس ، أدرك أنه لم يبق منه شيء عدا كونه على قيد الحياة . وكان المبنى هائلا ومجهولا ، أبكم محايدا . وكان (هو) ضئيلا . لم يكن فيه ما يشير إلى أنهم ينتظرونه .

طبعا . لقد اتخذ القرار ، والمسألة مسألة وقت . الموضوع منته . وهناك أشياء أهم يجب الالتفات إليها : الحروب ، والمؤتمرات ، والصفقات لم يلتفت إليه أحد . وكان خوفه قد تلاشى تماما ، وحل محله انتظار بلا قلق ، انتظار انسان يتوقع الأسوأ سوى انه لا يعرف ماهو . وبعد ذلك صافحه المسئول الثقافي ، وجلس على أريكة بحذاء أريكته . سأله عن أحواله وأطفاله ، عن المجلة والعمل الصحفي ، وحرية الأدب وراحة الأديب . وأشار تلميحا إلى التقدير الخاص الذي يكنه لـ (هو) . وكان (هو) قد عرف أنه صار نقطة . وكانت الكلمات تدور ، والغرفة تدور ، والعالم يدور . وكان (هو) ممسكا بقشة جعلته يطفو على الموج : سيقبل بأي شيء ، لن يحاول الدفاع عن نفسه .

بعد ذلك اللقاء ، قال لزميله وهو يحرك يديه الطليقتين في الهواء ، وابتسامة الظفر والطمأنينة تتدفق من وجهه إلى كلماته :

ـ هه ! أتدري ماذا يريد مني ؟ كان الأمر مختلفا تماما . لقد طلب مني أن أصير نائبا لرئيس التحرير . □

* عندما نفكر بالغايات يجب أن لا نتجاهل الوسائل. (نهرو)

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

ما أكثر الاخبار التي ترد عن مرض الأيدز . إذ لا يكاد أن يمضي يوم حتى نقرأ في إحدى الصحف أو المجلات العلمية أو غير العلمية خبرا عن مخاطر الأيدز او عدد المصابين به ، أو الأبحاث الجارية في سبيل العثور على لقاح أو علاج ضده . ولو كنا ننقل إلى قرائنا كل ما يصلنا عن الأيدز ، لما اتسع هذا الباب لأي موضوع آخر غير هذا المرض الخطير. من هنا كان حرصنا على الا ننشر من تلك الأخبار إلا المهم بل الأهم الذي لا يجوز للعربي أن تغفل عن التحدث عنه دون تأخير .

من المعروف أن الفحوص التي تجرى للأفراد لمعرفة ما إذا كانوا مصابين بمرض الأيدز(نقص المناعة المكتسبة)قد انتشرت في شتى البلدان ، ومن المعروف أيضا أن هذه الفحوص التي تقوم على تحليل الدم ليست فورية ، بل إنها قد تستغرق أسابيع ، وقد تمتد شهورا قبل استكمالها ، والتوصل إلى نتائجها النهائية ، أضف إلى ذلك أن هذه الفحوص التي اعتمدت حتى الآن لم تبلغ من الضبط والدقة ما يستوجبه تشخيص المرض الذي يعد التهديد الأول للبشرية ، ولعل المختبرات التي تستطيع إجراء التحليل المطلوب بالدقة قليلة في العالم إن لم نقل نادرة .

لا عجب إذن إن انصبت جهود العلماء على البحث عن أسلوب جديد لفحوص مرض الأيدز وتحاليله ، أسلوب يتميز بالضبط والدقة بقدر تميزه بالسرعة التي تجرى بها تلك الفحوص والتحاليل . ولو ذكرنا جموع العلماء المتفرغين لشتى الأبحاث المتصلة بهذا المرض لا في أمريكا وفرنسا فحسب ، ولكن في اليابان وألمانيا والسويد والاتحاد السوفيتي وغيرها أيضا ، لو ذكرنا أعدادهم الكبيرة لما استغربنا النجاح الذي أصابوه في ابتكار الأسلوب الجديد .

يختلف الأسلوب الجديد عن الأسلوب القديم في أنه لا يبحث عما في الدم من أجسام مضادة لفيروس الأيدز ، كما يفعل الأسلوب القديم ، وإنما عن فيروس الأيدز نفسه (HIV) ، وهو يفعل ذلك عن طريق التعرف إلى أجزاء من جينات الفيروس . سواء أكانت جينات دم،أم جينات خلايا تهديه إلى

سلامة البشرية في سلامة البيئة

ظهر مركز علمي متخصص في زيت الزيتون ، في بروكسل عاصمة بلجيكا في أواخر السنة الماضية لتقديم المعلومات الخاصة بزيت الزيتون ومنافعه إلى كل من يطلبها ، وقد نشرت هذا الخبر مجلة جنرال براكتشنر (General Practitioner) .

ذلك أن زيت الزيتون ذو فوائد كثيرة ، فهو يضمن الحد من النوب القلبية بنسبة لا يستهان بها ، وقد اشتهرت الشعوب التي تقبل على استعماله للطهي بدلا من السمن الحيواني (الشحوم المشبعة) بقلة تعرضها لأمراض القلب نسبيا ، وإن كان لهذه الظاهرة أسباب أخرى بالاضافة إلى زيت الزيتون كالمناخ الدافيء الذي تعيش فيه تلك الشعوب .

وكانت فوائد زيت الزيتون موضع مدح وتقريظ في مؤتمر عقد في باريس مؤخرا ، وكان في طليعة الدعاة المتحمسين لزيت الزيتون في المؤتمر الدكتور « توم ساندرز » خبير الدهنيات في جامعة لندن (كنجز كولج) .

على أن هذه الحماسة لم تلق حتى الآن اجماعا لدى الأطباء ، فالكثيرون منهم ما زالوا يرون في زيت عباد الشمس البديل المفضل ، فهو أرخص ثمنا وأقرب منالا (في أوربا) وأبعد أثرا في تخفيض نسبة الكوليسترول (Seram Cholest) في الدم .

■■□□

تشهد الدول المتقدمة عامة ، والولايات المتحدة خاصة ثورة عارمة ضد التدخين ، وقد اتخذت هذه الثورة شكل الحصار الاجتماعي ضد المدخن ، بحيث يشعر بأنه مضطهد ، واتخذت شكل الحرب غير المعلنة ضد شركات التبغ ، فهذه هي أصل البلاء في نظر الكثيرين ، إذ لا يعنيها إلاّ جمع المال ، ولو أدى ذلك إلى الفتك بصحة المواطنين ، وما زالت تجني الأرباح وتكدس الأموال حتى أصبحت في طليعة الشركات العالمية دخلا وازدهارا .

والظاهر أن الحرب ضد هذه الشركات العملاقة قد أصبحت حربا سافرة معلنة في المدة الأخيرة ، فقد بدأت المحاكم - في الولايات المتحدة الأمريكية - تدين شركات التبغ وتعدها مسؤولة عن الأضرار التي يتعرض لها المدخنون أو ذووهم وكأن تلك الشركات قد ارتكبت ذنبا أو جناية تستحق العقوبة .

ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الدعوى التي أقامها المدعو (انطونيو سيبولونه) على مجموعة من شركات التبغ الكبيرة ، فقد أدمنت زوجته التدخين فأصيبت بسرطان الرئة وماتت ولم تبلغ الستين .

ونظرت محاكم « نيوجرسي » في هذه القضية ، كما نظرت محاكم أخرى في قضايا مشابهة على مدى لسنين الماضية .

لكن محاكم « نيوجرسي » أصدرت حكمها في قضية « سيبولونه » خلافا لسائر المحاكم التي لم تجد في قضايا شبيهة ما يبرر إصدار حكم فيها .

كان ذلك في شهر يونية (١٩٨٨) حين حكم القاضي لانطونيو سيبولونه بغرامة نقدية بلغت نحو نصف مليون دولار (بالضبط ٤٠٠,٠٠٠ دولار) فقد عدّ الشركة التي تصنع هذا التبغ مذنبة لأنها صنعت السجاير التي كانت تدخنها زوجة « سيبولونه » والتي سببت إصابتها بالسرطان وأدت ولو بطريق غير مباشر إلى موتها .

وعدّ القاضي تلك الشركات مسؤولة عما حدث ، فألزمها بدفع الغرامة التي لا يستهان بها ، والتي لا يمكن بحال من الأحوال أن تعوض الزوج عن فقدان زوجته .

■■□□

● تحدثنا في أعداد سابقة عن النحل القتّال ، وعن اقترابه من أراضي الولايات المتحدة ، فقد لا يتأخر وصوله إليها -لا سيما ولايات الجنوب - عن السنة الحالية ١٩٨٩ .

وفكّر العلماء فيما عساهم أن يفعلوا لكي يتجنبوا الأذى الذي يمكن أن يلحقه بهم هذا النحل ، فلم يجدوا خيرا من العمل على تغيير مسار هذا النحل بحيث تتجه أسرابه إلى جهات غير الولايات المتحدة ، لكن هل يمكن إحداث مثل هذا التغيير ؟ وما السبيل إلى ذلك ؟

تعاون العلماء على ابتكار جهاز صغير للارسال يعمل بالطاقة الشمسية ، ووفق « كمبيوتر » صغير أيضا على أن يثبّت الجهاز على ظهور ملكات النحل القاتل ، ولا يلبث الجهاز أن يبث الرسالة التي برمج من أجلها ، وقد صيغت باللغة التي يفهمها النحل ، أما فحوى الرسالة فالتأكيد على ضرورة عدم التوقف في الولايات المتحدة ، والاتجاه شمالا عبر حدودها الشمالية إلى الأصقاع والمحيطات المتجمدة ، حيث يتصدى البرد القارس لأسراب النحل فيبددها ويغلبها على أمرها وينقذ العباد من شرها .

والظاهر أن العلماء مقتنعون بفاعلية هذا الجهاز بعد التجارب العملية العديدة التي أجروها له . □

بلغاريا

عيد للـورود وشواطئ مفتوحة للشمس والـ

استطلاع : ريم الكيلاني
تصـــوير : صـــلاح آدم

وأنت تستقبل صباحك الأول في صوفيا ،

وتتابع شمس البلقان وهي تبدد بضوئها غيوم الليل وظلامه ،

وتنقل خطواتك الأولى في شوارع صوفيا القديمة

تشعر وكأنك على موعد مع مكان وزمان من نوع خاص ،

مكان تزهو فيه الطبيعة ، وزمان يحكى فيه التاريخ قصة عريقة .

من كل بقاع الأرض جاءت وفود السلام يشاركون في مهرجان راية السلام ، أطفال من أكثر من مائة دولة اجتمعوا فوق أرض صوفيا رافعين أيديهم للعالم . يلحون في طلب السلام والاستقرار والحب والتفاهم بين جميع الشعوب ، وقد بلغ نجاح هذا المهرجان الذي ينظم كل ثلاث سنوات ذروة عالية ، حتى أنه بدأ يجذب الناس إليه من كل مكان ، ليشاركوا الأطفال احتفالاتهم ويقدموا لهم الدعم الكفيل بإيصال رسالتهم إلى كل العالم .

وكانت الدعوة التي وصلتنا من «الهيئة العامة لمهرجان راية السلام» لمتابعة هذا المهرجان هي مدخلنا لزيارة بلغاريا .

صوفيا القديمة

يقول البلغاريون إنهم يستطيعون مشاهدة كل شيء يحدث في رومانيا وذلك بسبب ارتفاع ضفة نهر الدانوب جهة بلغاريا بمعدل ١٦٥ مترا عن الضفة الأخرى للنهر جهة رومانيا ، وبلغاريا بحكم موقعها في الجزء الشرقي من شبه جزيرة البلقان فإنها تتقابل مع رومانيا في الحدود الشمالية ، ومع الحدود اليوغسلافية من جهة الغرب ، ومع اليونان وتركيا من الجنوب ، أما حدودها الشرقية فتطل على البحر الأسود .

وتتكون صوفيا من جزأين : الأول يمثل صوفيا القديمة بمظهرها الشرقي الذي يتجسد في المنازل المنخفضة ذات الطراز المعماري الاسلامي ، والشوارع المتعرجة . ويقطن هذا الجزء من العاصمة عدد كبير من الأتراك يشكلون حوالي ٦٪ من مجموع السكان .

كما انتشرت في هذا الجزء من العاصمة المتاحف التاريخية والعصرية وأضرحة الأبطال الذين استشهدوا في الحروب التي خاضوها لتحرير بلغاريا إلى جانب الكنائس القديمة ، وتعد كنيسة القديس جورج من أقدم المباني في العاصمة البلغارية ، وقد كانت في الأصل مبنى رومانياً ثم تحولت في القرن الخامس عشر إلى كنيسة ، كذلك هناك مسجد بناه الأتراك إلى جانب أطلال القلاع والمباني القديمة التي هي اليوم متاحف أثرية تحكي تاريخ الشعب البلغاري وقصة نضاله ، ويزورها السياح من كل بقاع الأرض .

أما الجزء الثاني فيمثل صوفيا الحديثة بمبانيها الشاهقة ، وشوارعها الواسعة ، وحدائقها الضخمة ، حتى بدا لنا منظر المباني القديمة مع الغابة الضخمة التي تحيط بها والمليئة بأشجار الأرز والصنوبر - تمتد حولها صوفيا الحديثة بطابعها العصرى - لوحة فنية أبدع رسمها ونحتها وطلاؤها .

ولعلك تستغرب حين تعلم أن صوفيا غيرت
سمها ثلاث مرات ، فهي في القرن الأول كانت
ـسرديكـا » ، ثم « تـريـادنـزا » في عهـد
ٍمبراطورية البيزنطية ، وأخيرا « صوفيا » حين
أت تعرف بعاصمة بلغاريا ، وذلك في القرن
رابع عشر الميلادي .

كنز التاريخ

في صوفيا ، هناك الكثير من الآثار والأماكن التاريخية التي تستحق منك زيارات قصيرة ، ولكنك بلا شك ستقف طويلا عند المكتبة الوطنية مشدوها وأنت ترى كنزا حقيقيا لحضارات الشعوب وثقافاتها وذلك بما تضمه من مخطوطات عربية وتركية وعثمانية ، وأخرى فارسية شديدة الأهمية .

وترتبط معظم الكتب العربية التي وجدت هناك بالدين الاسلامي والحقوق واللغة العربية والفلسفة عند العرب ، وتعد مخطوطة كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للعالم الجغرافي العربي-في القرن الثاني عشر- أبي عبدالله بن محمد الإدريسي ، من أثمن المخطوطات التي وجدت في هذه المكتبة . وتحتوي على شواهد أخرى لمؤلفين آخرين للأدب العربي مثل كتاب « فضائل الشام » لبرهان الدين الفزارى و « الخلفاء » للسيوطي ، وكتاب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » للمقريزى .

وقد وضعت مجموعة هذه الكتب والمخطوطات في قاعة واسعة مناسبة من حيث نسبة الرطوبة ودرجة الحرارة ، كما يقوم مختبر تابع للمكتبة بحفظ وترميم هذه الكتب الثمينة للحفاظ عليها من التلف والتآكل .

مدينة من وحي الماضي

لعل وجود المتاحف والآثار التاريخية التي تحكي تاريخ الأمة أمر طبيعي لايثير الدهشة ،

● خريطة بلغاريا

ولكن ماذا لو علمت أن في بلغاريا ، وعلى بُعد مائة وعشرين كلم من العاصمة ، مدينة مازال أهلها يعيشون حياتهم القديمة بعاداتهم وتقاليدهم ومساكنهم ، وكأنهم مازالوا يحيون حياة الأجداد ؟ فما كادت قدماى تطآن أرض « كوبريف شتيتسا » حتى شعرت أنني أعيش في القرن التاسع عشر .

إنه عالم جديد بالنسبة لنا ، ولكنه جميل ، وأجمل ما فيه احتفاظه وتمسكه الشديد برونق الماضي وتاريخ القدماء .

البيوت جميعها خشبية تكثر فيها النوافذ والشرفات ، سقوفها معطاة بالقرميد ، أما طلاء البيوت فكان باللونين الأبيض والأزرق اللذين يعبران عن الحرية والاستقلال حسب مايعتقد البلغار ، وقد روعى في البناء ملاءمته للصقيع الذي يدق أبواب كوبريف شتيتسا في فصل الشتاء .

أما البوابات الخارجية فتصنع من الخشب الثقيل ، كما نحتت أسماء أصحاب البيوت والمحلات التجارية على لوحات خشبية .
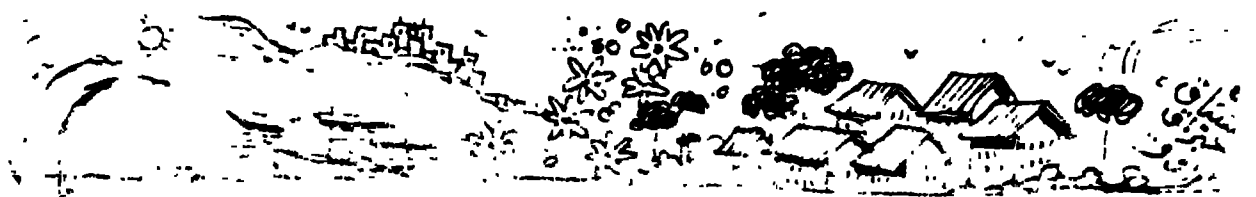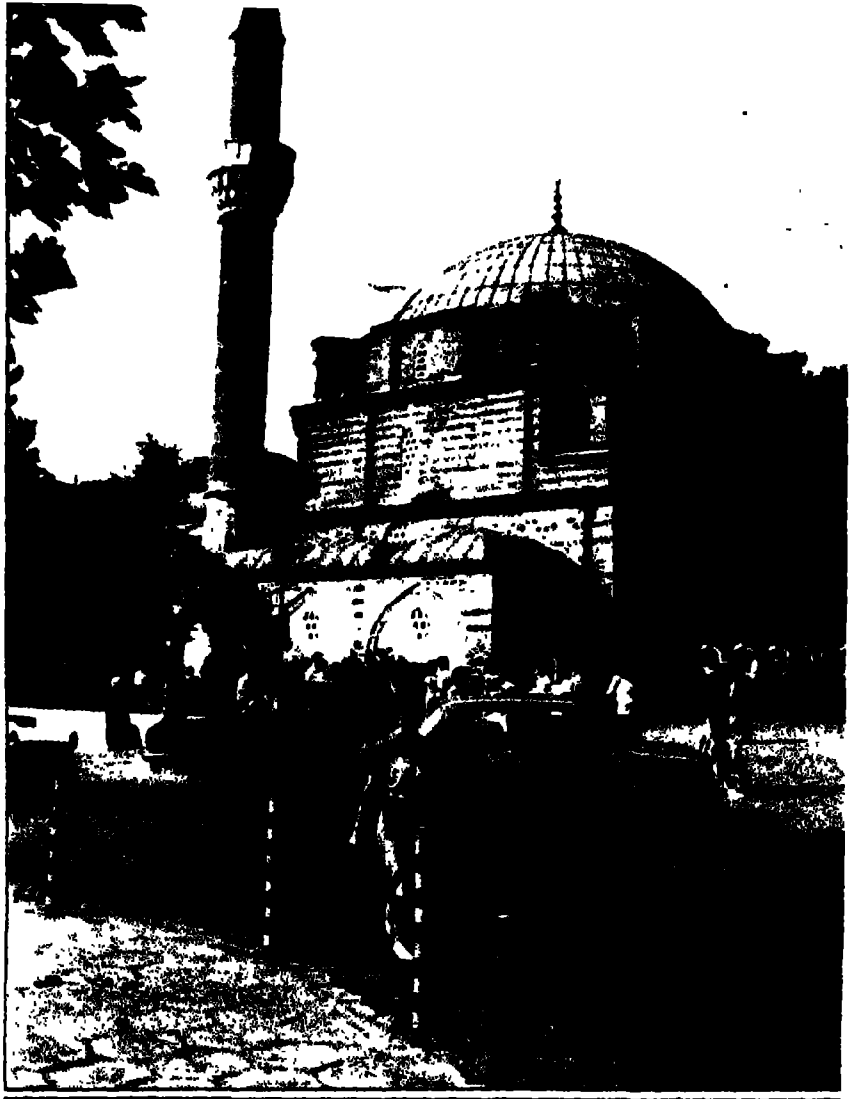
● الى اليمين (أعلى) أقدم مسجد بناه الأتراك المسلمون في صوفيا ، ومايزال قائما حتى اليوم (أسفل) قصر الثقافة في صوفيا ، أحد أضخم المباني في بلغاريا وأحدثها ، الى اليسار (أعلى) كنيسة القديس جورج (أسفل) المتحف الفني ويضم مجموعة لأثمن اللوحات الفنية وأندرها . الفن الشعبي البلغاري كما يؤديه أطفال بلغاريا .

كانت المفاجأة الحقيقية تكمن في شكل هذه البيوت وتنظيمها من الداخل ، إذ ماكدنا نجتاز البوابات ذات المظهر التقليدي حتى فوجئنا بأن البيوت من الداخل عصرية تماما ، سواء في طراز الأثاث أو الثياب أو أدوات المنزل أو وسائل الحياة الحديثة فيها

ولاعتبارها منطقة ذات أهمية تاريخية فقد آثرت الحكومة البلغارية المحافظة عليها وعلى طرازها القديم ، ليبقى ذكرى للأجيال القادمة حتى لايغفلوا ماضيهم ففرضت على المواطنين بناء بيوت حديثة بشرط التقيد بالقالب القديم لشكل البيت من الخارج .

لكن السؤال الذي يلح في دهنى لم اختيرت هذه المدينة دون غيرها لتكون المدينة النموذجية لبلغاريا القديمة ؟ .

مرج النساء

يذكر الأهالي أن لهذه المدينة تاريخاً حافلاً ، فمنها انطلقت أول انتفاضة شعبية بلغارية عام ١٨٧٦ وطالبت بالاستقلال عن الحكم التركي ، وقد عمت أخبار هذه الثورة كل قرى جبال البلقان ، ولكن الانتفاضة قمعت بالقوة ومع ذلك فقد حصلت بلغاريا على الاستقلال عام ١٨٧٨ م أي بعد عامين من هذه الانتفاضة .

أسست كوبريف شتيتسا في القرن السادس عشر الميلادي ، وهي تعني مرج النساء ، ومن هذا المرج خرجت امرأة فائقة الجمال والفتنة ، نجحت في اقناع السلطان العثماني بإعطاء امتيازات وتسهيلات خاصة لهذه المدينة وسكانها لتيسير أمور تجارتهم وتنقلهم من مدينة إلى مدينة ، وتقع في منطقة جبلية رعوية لاتصلح للزراعة لذا ارتبط أهلها ارتباطا شديدا بحرفة الرعي وبالصناعات القائمة عليها! كصناعة العربات والعباءات والأحذية والجوارب والبسط والسجاد . وقد كان أهالي كوبريف شتيتسا تجار منذ القدم يجوبون بصناعاتهم في كل عام آسيا الصغرى ومصر والحبشة لترويجها وبيعها ، ولعل ماشاهدناه في بيوت أحد التجار القدامى الذي تحول إلى متحف خير دليل على ذلك ، فلقد علق في البيت المتحف صورا ومجسمات للقدس الشريف ، ولوحات قرآنية كتبت بماء الذهب ، وهذا يؤكد تجوالهم الكثير ووصولهم إلى فلسطين وغيرها من الأقطار العربية ، وهذا يؤكد حبهم للتجارة وإلى أي مدى وصلوا في تجارتهم . وتعد كوبريف شتيتسا محمية معمارية تاريخية يقصدها السياح من كل أرجاء العالم للتمتع بمنظر البيوت القديمة الحديثة التي تحولت معظمها إلى متاحف شديدة الثراء .

وادي الورد

أكملنا الطريق الجبلي المكسو بالأشجار الكثيفة الخضراء ، وقد صفت بطريقة هندسية رائعة . . وكانت الشمس وقت المغيب تعكس بلونها الأرجواني صورة رائعة أبدعها الخالق .

كنا نقصد مدينة « كازانلوك » أو وادي الزهور كما يسميه البلغاريون ، ولكننا آثرنا المبيت في قرية صغيرة على أن نكمل الرحلة في اليوم التالي فالطريق جبلي ، والسير به ليلا فيه نوع من المخاطرة .

ومع أول شعاع نور تحركت القافلة إلى كازانلوك بعد قطع مايزيد عن ١٧٠ كلم من كوبريف شتيتسا ، كان عبق الزهور يملأ المكان منذ دخلنا إلى كازانلوك ومازال عطره الفواح يرافقنا ويزداد شدة كلما اقتربنا من الوادي وهو عبارة عن اقليم متموج السطح يمتد مابين جبال البلقان في الشمال وجبال رودوب في الجنوب ، مما يجعله منطقة تخلو تماما من البرد القارس الذي يصيب الأجزاء الشمالية في بلغاريا خلال الشتاء

بما يجعل الوادي المنطقة الأنسب لزراعة الورد .
تزرع الورود في شهر فبراير من كل عام ، حيث لاتزيد درجة الحرارة في الوادي آنذاك عن ١٠°م ، كما ترتفع نسبة الرطوبة في شهري نيسان وأيار (ابريل ومايو) ، أما التربة فخصبة قليلة المسامية ، لاتسمح للرطوبة الشديدة بالتأثير سلباً على الورود وإلحاق الضرر بها . وبينما كنا نتأمل منظر الورد يغطي المرج بألوانه الجميلة المنسقة والزاهية بدأت تصل إلى آذاننا أهازيج شعبية وترنيمات غنائية جماعية ، اختلطت مع بعضها البعض ، فكانت تجسيدا حقيقيا للفرح والسعادة . اقتربت من مصدر هذه الموسيقا العذبة فوجدت جموعاً هائلة من أهل الاقليم بملابسهم الشعبية التقليدية يغنون للزهور ويحتفلون بعيدها ، ويرشون الشوارع والبيوت بماء الورد ، ويعيشون يوما ممتعا جميلا يختارون بعده ملكة جمال مدينة الزهور ، ليضيفوا بذلك وردة بشرية جميلة إلى هذه الورود العطرة .

كان الأولاد يحملون السلال والفتيات يقطفن هذه الورود ، ومع ابتسامة خفيفة يضعن الورد في السلال وكلهم يرددون الأغاني الشعبية التي توارثوها أبا عن جد ، لم أكن أفهم معنى كلمات الأغاني ولكنها بالتأكيد كانت تتحدث عن الحب كما بدا على وجوه الشباب ، كان الناس مايزالون يمارسون هرجهم ومرجهم حين تقدمت منا السيدة « يوليا ميخائلفا » الباحثة العلمية في معهد الأبحاث العلمية لزراعة وصناعة الورد والأدوية ، لتصحبنا معها إلى المعهد حيث متحف الورد والمختبر العلمي الذي تستخلص فيه الزيوت وتصنع الأدوية ، وهو يستقبل الطلاب لتدريبهم على عملية زراعة الزهور وقطفها وحمايتها ، وطرق المحافظة عليها ، كما يتدربون على العمليات المخبرية الأخرى التي تتعلق بصناعة زيت الورد .

عيد الورد

وكما أن للناس أعيادهم فللورد عيده أيضاً تقول السيدة يوليا : « في الأحد الأول من حزيران (يونيو) من كل عام تقام هذه الاحتفالات التي تعرف باسم احتفالات عيد الورد ، وتبدأ الاحتفالات مع بداية جمع الورود في الساعة الرابعة فجرا ، وتستمر عملية الجمع حتى العاشرة صباحا حيث أثبتت الدراسات العلمية والتجارب المتعددة أن الزيت الغني الموجود في الورود يبدأ في التبخر بعد الساعة العاشرة أي مع بداية توسط الشمس بالسماء .

ويعد زيت الورد من أندر الزيوت وأثمنها في العالم ، ولايوجد إلا في ورد الثلاثين الذي سمي بهذا الاسم لأن الوردة الواحدة تضم ثلاثين ورقة ، كما يزرع في الوادي الورد الدمشقي الذي جلبه تجار كوبريف شتيتسا معهم من بلاد الشام الى جانب الورد الأبيض حيث يستخرج منهما زيت العطر المستخدم في صناعة العطور .

وقد تم نقل الورد إلى بلغاريا عن طريق الدولة الفارسية قبل ثلاثمائة عام ، أي في حوالي القرن السابع عشر الميلادي ، ومن هذه الزهور يصنع أيضا شاي الورد وشراب الورد ، كما جرى مؤخرا صناعة دواء من الورد لإعادة بناء الخلايا » .

كان متحف الورد هو أول مازرناه في المعهد ، وهو يحكي قصة صناعة الورد في بلغاريا منذ القدم ، ويعرض مجموعة القدور النحاسية التي كان يجمع فيها الورد لاستخراج الزيت منه ، وأنابيب سحب الزيت وأدوات التبخير ، وزجاجات التعبئة ومازال المصنع يتبع في استخراج الزيوت الأسلوب القديم نفسه ، ولكن بحلة عصرية جديدة .

● الى اليمين (أعلى) المكتبة الوطنية في صوفيا . الى اليسار (أعلى) كوبريف شتيتسا المدينة التي مازالت تعيش الماضي . الى الأسفل . سيدة من كوبريف شتيتسا تهذب أشجار بيتها ضمن برنامجها اليومي . في الوسط بيت الدلافين في فارنا (الى اليسار) مصنع زيت الورد في كازانلوك

وتضيف السيدة يوليا : « لانتاج كيلوغرام واحد من زيت الورد نحتاج إلى ثلاثة أطنان من الورد أو إلى هكتار واحد من الأرض المزروعة بالورد . . وتعد بلغاريا من الدول الأولى لتصدير زيوت الورد إلى العالم ، ولعل فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا من أكثر الدول استيرادا لزيت الورد البلغاري ، أما ثمن الكيلو الواحد من زيت الورد فيبلغ ٥٠٠ دولار » .

ويحكي أهالي كازانلوك عن مدى اهتمامهم بهذه الورود حتى أصبحت بيوتهم وحقولهم محط أنظار كل المهتمين بزراعة الورد ورعايته ، وقد قامت إدارة المعهد بجمع أفضل أنواع الورد وتوزيعها بين الناس لزراعتها بشكل أفضل وأوسع ، خاصة بعد التوسع في الأبحاث التي أقيمت على هذه المجموعة . وتعد زهرة كازانلوك

كما تقول الباحثة يوليا من أفضل وأغلى أنواع الورد في العالم ، وهي تحتوي على زيت خاص يعرف باسم « زيت سترينول » ، كما تتبع إدارة المعهد برنامجاً عملياً خاصاً لمحاربة الآفات والحشرات التي قد تؤثر على نمو هذه الورود ، وهذا البرنامج معروف لدى جميع المزارعين ومتبع في الحقول والحدائق بدقة متناهية .

قرية الرياضيين

كان الناس يشكلون بألبستهم المزركشة وسط حقول الورد منظراً طبيعياً خلاباً زاده جمالا تلك الابتسامات الرقيقة التي لم تفارق شفاههم . تركنا كازانلوك ولم ننسَ أن نشتري زيت الورد من هناك وعدنا ادراجنا إلى صوفيا العاصمة التي يزيد عدد زوارها من السياح عن سبعة ملايين سائح في العام الواحد .

وتنتظر صوفيا هذا العام ، وفي فصل الشتاء بالتحديد ، وعلى غير العادة جموعا أكبر من السياح قاصدين جبال فيتوشيا التي ترتفع حوا ٢٢٧٠ م فوق سطح البحر ، وهي بارتفاع الشاهق أشبه ببرج ضخم يحيط بالمدينة من ك جانب ليوفر لها الحماية والحراسة الكاملتين وسوف تنظم مسابقات التزلج على الجليد وجمي أنواع الرياضة المرتبطة بالجليد ضمن دور الألعاب الأولمبية الرابعة والعشرين ، وسوف تشارك فرق أكثر من ١٣٧ دولة في هذ المهرجان .

ولعل الامكانيات الكبيرة والاستعدادات الضخمة التي رصدت لمثل هذه المسابقات قد جعلت بلغاريا في مقدمة الدول المرشحة لهذه الرياضة . وكانت اللجنة المسئولة عن دورة الالعاب الأولمبية قد رشحت كذلك السويد والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية لهذا الأمر ، وتستعد بلغاريا لاستقبال هذا الحشد الكبير من الرياضيين والمتسابقين والمتفرجين والصحفيين ، ببناء قرية كبيرة خاصة أطلقوا عليها اسم قرية الرياضيين . وستحتوي القرية على كل ما تحتاجه هذه الجموع من ملاعب ومطاعم وأماكن للتدريب إلى جانب غرف النوم وسبل التسلية والترفيه ، وبنجاح هذه الدورة ستكون بلغاريا هي الدولة المرشحة لاستضافة الدورة الأولمبية الخامسة والعشرين عام ١٩٩٤ .

خاص جدا

ليست صوفيا بمساحتها الشاسعة وتاريخها العريق هي المنطقة السياحية الوحيدة في بلغاريا ، فلمدينة « فارنا » أيضا خصوصية فريدة ، فهي بموقعها على البحر الأسود تجتذب إليها عددا كبيرا من السياح الذين جاءوا ينشدون متعة البحر والشمس .

انتقلنا إلى مدينة فارنا في رحلة برية بالحافلة

استغرقت ما يقارب ثماني ساعات ، قضيناها وعيوننا تحدق بالغابات الكثيفة ، وحقول الرعي الشاسعة ، وجموع الناس التي افترشت الأرض الخضراء لتقضي يوما سعيدا مع أطفالها في وسط الطبيعة الجميلة . لم نشعر بطول المسافة ولم ينتبنا ملل الطريق حتى بدأت رائحة البحر تملأ المكان وبدأت تظهر جموع الناس على الشاطىء تستمتع بشمس البلقان المشرقة ، ومياه البحر الأسود الدافئة .

مررنا بالشريط الساحلي الذي يزيد طوله على ٢٥ كلم وقد كسيت رماله الذهبية بالمظلات والمقاعد البحرية التي يشغلها عدد كبير من السائحين ، استرحنا دقائق قليلة في الفندق من عناء السفر ثم عدنا ثانية للسير ولكن على الأقدام . وقد اصطحبنا السيد « جورج اندجوف » مدير منطقة دروجبا السياحية في هذه الرحلة ليطلعنا على تاريخ السياحة في فارنا ، فقال محدثا :

« بدأت السياحة في بلغاريا مع بداية الستينيات ، وإن لم تكن تتوافر لدينا آنذاك الامكانيات المناسبة لاستقبال السياح من فنادق ومطاعم وامكانيات مادية أو بشرية لكننا بدأنا ـ تدريجيا ـ بتطوير الفنادق وانشاء قرى سياحية جديدة على مستوى عال من البناء المعماري والخدمات الفندقية المتطورة إلى جانب المكاتب السياحية التي انتشرت في الضواحي والقرى لتنظيم الرحلات السياحية للأماكن التاريخية للراغبين من السياح » .

وأثناء سيرنا شعرت بشيء يسير فوق رؤوسنا وحين رفعت عيني مستطلعة شاهدت مجموعة من الفتيات والفتيان يركبون « التلفريك » الذي ينتقل بهم من أعلى الجبل حيث توجد بعض الفنادق والقرى الصغيرة إلى الشاطىء دون أن يضطروا لانتظار وسيلة مواصلات أخرى ، وبينما كنت أتابع « التلفريك » في رحلته القصيرة ، وجدت نفسي على الشاطىء بين جموع هائلة من الناس جاءوا للراحة والاستجمام ، فهذه مجموعة تمارس رياضة التزحلق على الماء وتلك أخرى تستمتع بمغامرة القفز بالمظلات في البحر ، بينما مضى آخرون في سباق لركوب العجلة البحرية ، فيما فضل البعض القيام برحلات قصيرة وهادئة إلى شواطىء فارنا المجاورة وبقي الأطفال قابعين فوق الرمال الذهبية يبنون قصورهم الرملية وينتظرونها يوما بعد يوم لتعلو وتكبر .

رحلة جديدة

وللحظات راودتني فكرة أن متعة هؤلاء الناس هي الشاطىء والماء والشمس ، ولكني حين عدت ثانية لأسير بالطريق المحاذي للشاطىء كان رنين جرس القطار يصل الى آذاننا ، ينقل الناس عبر طريق طويل إلى الفنادق والمطاعم أو الملاهي بعد أن يكونوا قد أنهكوا تماما من الألعاب الرياضية المختلفة التي مارسوها منذ الصباح الباكر ، حتى أنهم قد فقدوا القدرة على السير ، وفي نهاية هذا الشارع نصبت ألعاب متعددة الأحجام والأغراض للأطفال والكبار ليكون اليوم كله يوما متعا شيقا . ومع بداية غروب الشمس . تبدأ جموع الناس رحلة العودة ثانية لفنادقهم استعدادا لرحلة أخرى ، ولكن من نوع جديد ، إنها رحلة العشاء والاستمتاع بالموسيقا الشعبية والرقص البلغاري التقليدي ، وربما المشاركة به أيضا ، يساعدهم في ذلك الجو المعتدل للمدينة حيث تتراوح درجة الحرارة بين ١٨ ـ ٢٥م° .

أعيانا السير وكنا قد وصلنا إلى مكتب السيد اندجوف الذي دعانا لدخول مكتبه لأخذ قسط

● حيث البحر والشمس ، ينتشر الناس في الشوارع وعلى الشواطيء ينشدون هدوء البحر ، وشمس البلقان المشرقة ، وتبدو في الصور القرية التي أنشئت للسياح العرب وتضم بيوتا جميلة يجد فيها السائح راحته ، الى جانب دار لحضانة الأطفال تضم الكثير من وسائل التسلية .

من الراحة وتناول القهوة البلغارية الشهيرة .

وعاد السيد اندجوف ليكمل حديثه الذي بدأه على الشاطىء : « لقد قمنا ضمن مشروعاتنا واهتماماتنا السياحية ببناء قرية خاصة للعرب راعينا فيها كل ما يخص عاداتهم وتقاليدهم ، وتحتوي هذه القرية على (٤١) دارا بنيت على مساحة تبلغ ٢٢٠ ألف م٢ بينما تبلغ مساحة الدار مع الحديقة المحيطة ١٥٠م٢ .

وقد قامت منذ ست سنوات شركة بناء سويسرية ببنائها بينما قامت الشركة العربية البلغارية للسياحة بتحويلها لمنطقة عربية بحيث يجد فيها السياح راحتهم وسط أناس يتفقون معهم في عاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم »

انتهينا من تناول القهوة البلغارية الساخنة وتابعنا السير إلى القرية السياحية العربية التي لم تكن تبعد كثيرا عن مكتب السيد اندجوف ، شعرنا ونحن ندخل البوابة الرئيسية للقرية أننا وسط غابة كثيفة الأشجار امتلأت بأشجار التفاح والكمثرى وعرائش العنب التي ظللت المسبح الكبير الذي بني داخل هذه القرية ، وتعرفنا في القرية على عائلة السيد جاسم حسن من الكويت التي دعتنا لشرب القهوة العربية هذه المرة ، وقد كان الشاليه يضم غرفتي نوم وغرفة للمعيشة ، وأخرى للاستقبال إلى جانب المطبخ ودورة المياه كما يوجد في كل دار جهاز تلفاز وفيديو . وقد قال السيد جاسم : « جئنا إلى فارنا لننعم بمناخ جيد ومكان جميل وقد ساعدتنا هذه القرية على الاستمتاع بالرحلة أكثر ، فنحن نشعر وكأننا في بيتنا ، لم يتغير علينا شيء ، فحافظنا بذلك على النمط التقليدي لحياتنا ، فجلبنا معنا كل ما يخص حياتنا اليومية ليس من مواد غذائية وأدوات طهي فحسب بل لم نتردد في جلب البخور والعطور التي تمثل شيئا أساسيا في حياتنا اليومية »

خرجنا مع السيد جاسم وعائلته إلى الشرفة وجلسنا جميعا ننعم بالشمس الدافئة ومنظر الطبيعة الخلاب ، وازدادت الجلسة بهجة بقدوم عائلة ثانية تتحدث العربية جاءت تشاركنا فكانت حقا جلسة عائلية عربية ممتعة .

الغابة الحزينة

لم يكن البحر والشمس المشرقة والطبيعة الخلابة هي كل ما رأيناه في فارنا ، فقد صمم السيد اندجوف أن يصحبنا في رحلة جديدة لنرى فارنا عبر التاريخ ونستمتع بزيارة المتاحف الضخمة والآثار التاريخية التي تحمل قصة كفاح ونضال وتاريخ .

كانت بداية الانطلاق من منطقة دروجبا السياحية باتجاه غابة الأحجار ، وهي غابة ضخمة جدا تضم عددا هائلا من الأحجار التي تتتابع في وضع متدرج كأنها السلم ، ويبلغ ارتفاع الصخرة الواحدة ستة أمتار بعرض لا يزيد عن ٥ ,١م(متر ونصف). وهذه الغابة كانت يوما ما مليئة بالأشجار الضخمة المثمرة والحيوانات الأليفة ، ولكن الثوار البلغار قطعوا هذه الأشجار حتى لا يغدر بهم الأتراك من خلفها ، وأصبحوا يختبئون خلف الأحجار على شكل مجموعات فدائية لمواجهة الأتراك ، فكانت هذه المنطقة بالنسبة لهم منطقة هجوم ودفاع ، وتعلل السيدة ليلى - الدليل السياحي - التي كانت ترافقنا سبب اللون القاتم لهذه الأحجار قائلة : « إن الدماء التي سفكت وأسيلت في هذه الغابة اغرقت الأرض والأحجار فاصطبغت جميعها بلون الدم الداكن » .

وبعد الانتهاء من زيارة الغابة انتقلنا إلى متحف الحمامات الرومانية الذي بناه اليونانيون في القرن الثاني الميلادي ، وله نفس الطابع الشرقي في البناء والتصميم .

أما المتحف المعماري التاريخي فيعرض كل ما قدمه المعماريون البلغار من تصاميم هندسية

د ـمة في العصور القديمة . ثم متحف الفن ـ ادب الذي يضم لوحات متنوعة بعضها قديم ـعض الآخر حديث ، وجميعها لفنانين ـليين .

السيدة / ليلى ـ الدليل السياحي ـ التي رافقتنا ـقت قائلة : عندما بدأت في عام ١٩٧٢ ـمليات الحفر والتنقيب عن الآثار تم العثور على ٣٠٠ قبر مليئة بالذهب والمجوهرات الثمينة ، وقد أكد علماء التاريخ في مؤتمر هلسنكي الذي عقد عام ١٩٧٢ وجود أقدم حضارة في التاريخ في بلغاريا . كنا قد وصلنا لحديقة كبيرة جدا تزينها الورود من كل جانب وقد علمت فيما بعد ، ـ وحسب ما شرحته لنا السيدة ليلى ـ أن هذه الحديقة تضم ضريحا للملك بولندي يدعى « فلتزلاف » استشهد في معركة دامية لتحرير بلغاريا عام ١٤٤٤ وخلف الضريح يرتفع بناء متحف الأسلحة شامخا ضخما ، ويحتوي على الكثير من الاسلحة والامكانيات الحربية التي كانت متوافرة آنذاك والتي استعملت في الحرب ضد الأتراك .

وقد لاحظت أن تعريفا مختصرا وضع على ورقة لصقت أسفل كل نوع من أنواع الأسلحة المعروضة للتعريف باسم الجندي الذي حمل السلاح واسم وتاريخ الحرب التي خاضها هذا الجندي وتاريخ استشهاده ، وهم بذلك إنما يخلدون جنودهم في متاحف التاريخ .

عرض للدلافين

انتقلنا لمنطقة الرمال الذهبية حيث يوجد قصر أنشىء في القرن الأول بعد الميلاد الذي يعده البلغاريون رمزا للمسيحية في بلغاريا . ولم يكن ما شاهدناه هو كل شيء ، ولكن أنهكنا المسير فآثرنا أخذ قسط من الراحة على أن نعود لنكمل المسير في المساء .

لكن المفاجأة التي قدمتها لنا السيدة ليلى في المساء كانت عرضا شيقا جدا للدلافين في الحديقة البحرية التي يصل طولها إلى ٢٠ كلم ، وقد قدمت الدلافين عروضها في مبنى ضخم يقوم في وسط هذه الحديقة بنى عام ١٩٨٤ ، ويحتوي على مسبح مليء بالماء النقي و ١٢٠٠ مقعد رصت بتدرج على شكل دائرة حول المسبح ، أطفئت الأنوار وبدأ العرض ، سبعة دلافين خرجت من الماء ، وبدأ المدرب ينادى : بيبي ـ بوبي ـ سبليت ـ بولي ـ دولي ـ كيمبو ـ طوبو . وكان كل دلفين يسمع اسمه يخفض رأسه ثم يرفع زعانفه محييا الجمهور ، يبلغ وزن الدلفين الواحد ٢٠٠ كلغ ، أما اعمارهم فتتراوح بين ١٨ ـ ٢٠ سنة وقد جلبت هذه الدلافين من خليج المكسيك والبحر الكاريبي .

بدأت الموسيقا بالعزف ، وبدأت الدلافين بتأدية رقصة جميلة ببراعة تامة ، يتلقون أوامرهم من مدربهم ، وحين أشار بعصا صغيرة كانت في يده توقفوا عن الرقص وبدأ كل منهم بمزاولة رياضة خاصة به ، اثنان يلعبان كرة السلة واثنان آخران يزاولان لعبة كرة الطائرة بينما كان دلفين آخر يقفز في الهواء وبين العجلات ، وانهمكت إحدى الاناث بالطهي تتخلله لحظات تمسح دموع عينيها من جراء تقطيع شرائح البصل . اشارة ثانية ، وتقف جميع الدلافين إلى جانب بعضها البعض ، وزعنفة كل دلفين فوق زعنفة الآخر ليقدموا عرضا شيقا للرقص البلغاري الشعبي .

استغرق العرض حوالي ٣٠ دقيقة لنخرج بعدها من القاعة وسط حشد كبير من الناس الذين جاءوا لمشاهدة هذا العرض العريب والممتع في آن واحد .

ومع غروب الشمس آثرنا تأجيل رحلتنا التاريخية إلى نسيبار حتى صباح الغد .

● يمتلىء برنامج الزائر لقارتنا بين التعرف على التاريخ القديم للمنطقة وزيارة أهم المتاحف والآثار ، وبين قضاء وقت ممتع في الشارع السياحي الذى يغص بالسياح من كل مكان .

كان علينا في اليوم التالي قطع مسافة ما يزيد عن ١٢٠ كلم إلى الجنوب من فارنا للوصول لمدينة « نسيبار » التاريخية التي تعود لأيام الحكم الروماني في القرن السادس بعد الميلاد . وتوجد في هذه المدينة كنائس كبيرة تتألف من ثلاث مجموعات . تعود المجموعة الأولى لأيام الثورة البيزنطية ، أما المجموعة الثانية فترجع لعهد الدولة البلغارية الأولى في القرون من ١٠ - ١٣م . بينما عرفت المجموعة الثالثة في تاريخ بناء الدولة البلغارية الثانية وفي هذه الكنائس الكثير من الرسوم المعمارية التي أبدعها أشهر النحاتين والرسامين البلغار .

المدينة التوأم

لقد كشفت عمليات التنقيب عن الآثار التاريخية التي أجريت عام ١٩٥٢ عن التشابه الواضح والجلي بين مدينتي فارنا واوديسوس (فارنا القديمة) التي بنيت أيام الحكم اليوناني ، وتقع فيها الحمامات الرومانية . واوديسوس هي المدينة الكبيرة التي كانت تضم قبل مئات السنين فارنا تحت جناحها . وبمرور الوقت اقتطع هذا الجزء من الأرض وأطلق عليه اسم فارنا ، أما الجيل الحالي في بلغاريا فيطلق على فارنا لقب المدينة التوأم لأوديسوس . ومازال هناك الكثير ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت وخاصة أن المناطق باختلاف مواقعها ومعالمها كانت تعج بالسياح الذين أتوا من كل أرجاء العالم ليستمتعوا بفارنا الطبيعة وفارنا التاريخ .

وتبدأ الشمس رحلة العودة ، تبدأ في المغيب ، ويغطي الليل المساجد والكنائس والأضرحة والقلاع والبيوت والشوارع والشواطيء ، وتختفي في هذا الظلام معالم هذه الأطلال وملامحها الدقيقة . . وما يبقى هي ذكريات نابضة في قلوبنا عالقة في أذهاننا تنتظر شمس البلقان لتشرق وتبدد الظلام من جديد . □
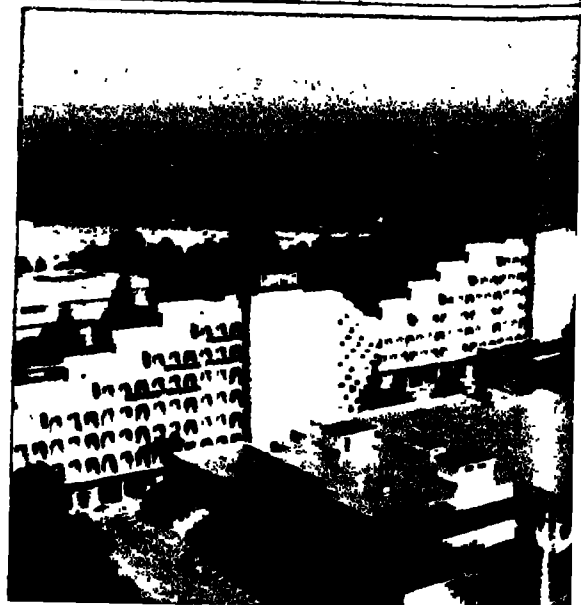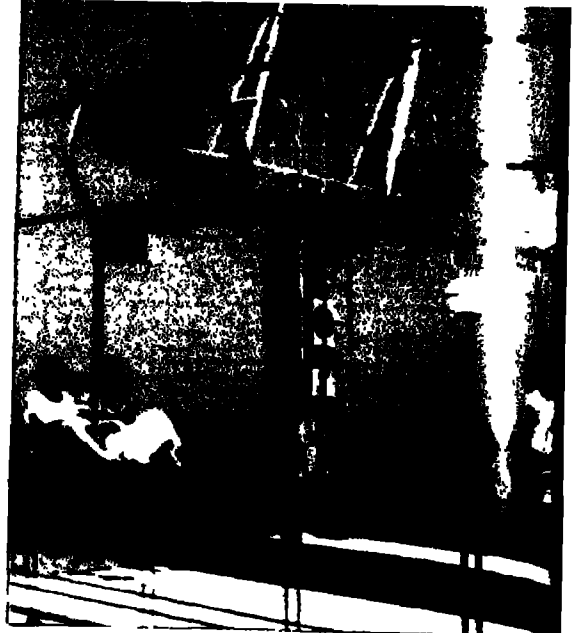
هل تصدق أن في السماء منحرفين ؟

● لو هبطوا على الأرض لكان تدميرهم أشد كثيرا من كل المنحرفين الأرضيين ، لكن عدالة السماء والقوانين التي أودعها الله (عز وجل) في الكون أبت أن تجري الأمور في غير مجاريها المرسومة .

لكن لو انزلق منحرف عن خطه ، واتجه إلى الأرض ، ماذا سيفعل العلماء ؟ وماذا أعدوا لذلك من عدة ؟

منحرفون كونيّون يُهـــــدّدون الأرضـــــ

بقلم : عبد الأمير المؤمن

إنها تجري كأن سياطا حامية فوق ظهورها ، تمنعها عن الوقوف ، لا ندري إلى أين هي ذاهبة ، ومتى ستقف ؟ هناك تسعة كواكب وديعة،وشمس واحدة ثائرة ملتهبة تدور حولها الكواكب دون ملل أو كلل .

كل جرم يجري في الخط المرسوم له ، في مدار اهليليجي (بيضوي) ، حسب قوانين كبلر ، ولا يستطيع ابن من الأبناء الفرار من أمه ، لأنه مربوط بها حسب قانون الجاذبية ، وهو القانون العام الذي لا يستثنى منه شيء في الكون .

فالشمس تجري ضمن بلايين النجوم المكونة لمجرتنا (درب التبانة) أو الطريق الحليبي (Milky way) ، وتتحرك مع حركة المجرة حول محورها ، وحولها آلاف النجوم . أقرب نجم إليها (الفا قنطورس) ، يبعد عنها ٤ر٤ سنة ضوئيه ، وكل نجم يعرف طريقه ، ولا يتجاوز حدوده ، حتى المجرة التي ننتمي اليها بحجمها الهائل ، والتي تحتوي على أكثر من مئة ألف مليون نجم ، وعدد كبير من الأجسام التابعة ، وعدد كبير من السدم ، تجري في موكب رائع اسمـه المجمـوعة المحلية (local Group) ، وأقرب المجرات إلى مجرتنا مجرة « المرأة المسلسلة » (Andromeda) ، وهي تبعد عنا حوالي مليوني سنة ضوئية ، بيد أننا لا نعرف إلى أين تتجه في سيرها ، وكل أجرام الكون تجري وتتباعد حسب قانون هابل ، دون أن تميل أو تنحرف طالما لم يتوفر سبب للانحراف .

عائلة مختلطة

ظاهرة الانحراف لا تقتصر على الأرض دون السماء ، فلا فرق في ذلك طالما أن الأسباب متوفرة ، والانحراف في اللغة يعني الميلان ، والمنحرف هو المائل عن الخط المرسوم له .

والمقصود بالمنحرفين الكونيين هنا الحائدون عن خط سيرهم ، والذين لا يجرون في مداراتهم ، بسبب قوة تؤثر عليهم ، فتجعلهم يترنحون أو يلتحمون في مدارات قريبة ، أو يندفعون نحو أجرام أخرى . وفي مجموعتنا الشمسية عائلة كبيرة مختلطة ، تجمع عددا من

الأعضاء كبارا وصغارا ، أسوياء ومنحرفين متطرفين ، يعيشون في حزام اهليليجي ، يقدر بحوالي ٣٥٠ مليون ميل ، يقع بين المريخ والمشتري .

قبل اكتشاف هذه العائلة كان الفلكيون يظنون أن كوكبا ما يحتل هذا الحزام ، لكننا لا نراه لخفوت ضيائه أو لصغر جرمه . قال كبلر الفلكي الشهير : إني أضع كوكبا بين المريخ والمشتري ، وفي سنة ١٧٧٢ لفت (بود) الأنظار إلى وجود علاقة بين المسافات الواقعة بين الكواكب ، ووجد أن المسافة بين المريخ والمشتري تفتقر إلى كوكب ، وبعد أن صار مؤكدا أن هناك كوكبا مفقودا في هذه المسافة الشاسعة انبرى عام ١٨٠٠ م فلكيون أوربيون للبحث عن هذا الضائع ، وقد أطلقت هذه المجموعة على نفسها اسم « الشرطة السماوية » (Celestial police)، وبعد سنة واحدة من تشكيل هذه الشرطة ، وقبل أن تكتشف ضالتها ، اكتشف الفلكي بياتسي (Piazzi) من مرصد صقلية - في الأول من يناير ١٨٨١ - كوكبا صغيرا ، لا يتجاوز قطره ٥٠٠ ميل ، وتمكن الألماني غاوس (Gaus) من تعيين مداره ، فظهر في العام التالي في نفس الوقت الذي ظهر به من قبل ، وسمي هذا الجرم (سيرس) ، وقد حفز هذا الاكتشاف الشرطة السماوية لمواصلة البحث عن أشباه له في نفس المنطقة ، وفي عام ١٨٠٢ اكتشف اولبرز (Olbers) جرما أصغر من سيرس وأبعد ، قطره ٣٠٠ ميل ، وقد سمي (بالاس) ، وفي عام ١٨٤٠ اكتشفوا جرما ثالثا ، قطره ١٢٠ ميلا ، وقد سمي (جونو) ، وبعد ثلاث سنوات رصدوا جرما رابعا ، قطره ٢٤٠ ميلا ، وقد سمي (فستا) ، وهو أشد الأجرام الأربعة سطوعا ، وهنا توقفت الشرطة السماوية عن البحث . وفي عام ١٨٤٥ اكتشف الهاوي الألماني هانكي (Hencke) جرما خامسا سمي (استرايا) ، وبعد سنتين اكتشف سادسا ، ووصل عددها حتى عام ١٨٥٠ إلى اثني عشر جرما ، واليوم بعد تطور الأجهزة العلمية والمعدات التقنية أصبح معروفا لدى العلماء أن أجرام هذا الحزام بالملايين ، بين صغير جدا على هيئة غبار ، وبين كبير نسبيا على هيئة كوكب محدود ثانوي .

تتباين مدارات هذه الأجرام ، فمن مدارات تامة الاستدارة تقريبا إلى مدارات اهليليجية ، مراكزها مختلفة ، فمثلا يدور (سيرس) في فلك دائري تقريباً على بُعد حوالي ٢٧٠ مليون ميل عن الشمس بينما يدور هيدالكو في فلك اختلافه المركزي كبير جدا ، الى درجة أنه عند نقطة الرأس يمر - تقريبا - خارج مدار المريخ ، وعند نقطة الذنب يكون على بعد مساو لبعد زحل تقريبا ، ولهذا فإن هذه الأجرام عرضة لاضطرابات ناتجة عن تأثير جاذبية الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس عليها ، وبخاصة الكوكب العملاق (المشتري) الذي يسيطر على عدد من الأجرام التي تدور حوله بكل خضوع واستكانة ، دون أن تسقط عليه نظرا لخضوعها أيضا إلى تأثير جاذبية الشمس من الجهة الثانية .

أصل واحد وأشكال متعددة

الهيدروجين أخف عناصر الكون ، ينتشر في أرجائه بنسبة كبيرة ، تصل إلى ٩٩٪ ، وتحت ضغط القوة الخالدة (الجاذبية) تجمع ، فتكونت الأجرام السماوية المختلفة ، كالنجوم والكواكب وغيرها ، ومنه ما تخلف فبقي سحبا غازية ، أو غبارا ، ونتيجة للتفاعلات النووية العنيفة المستمرة تمُرّ النجوم بمراحل مختلفة ، يتحول خلالها الهيدروجين إلى هيليو ، ثم يتحول إلى عناصر أثقل كالكربون والفوسفور ، والحديد ، وبمرور السنين يهرم النجم ويموت ، وقد يتفجر وتنتشر مخلفاته في الفضاء ، لتكون

○ الشرطة السماوية

مادة أولية ، تدخل في بناء مواليد جديدة، وهكذا . . (« سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ») الفتح ٢٣ .

هذه الدورة الحياتية عامة تنطبق على كل أجرام الكون ، ومنها حزام الكويكبات الذي نتحدث عنه . وكبقية أجرام الكون حظي هذا الحزام باهتمام العلماء ، فتعددت الفرضيات فيه ، لكن الرأي الأكثر أهمية الذي يتفق عليه عدد كبير من العلماء هو أن محتويات هذا الحزام يمكن أن تكون أجزاء لكوكب لم يستطع أن يجمع شمله في جرم سويّ ، يشارك الكواكب السيارة في مدار الشمس ، وهذه الأجزاء المتناثرة الفاشلة في لملمة نفسها هي بالطبع جزء من سديم كوني ، أو جزء من تلك السحابة الغازية التي أنجبت شمسنا وكواكبنا السيارة ؛ وهي لا شك واحدة من السدم السماوية الهائلة المنتشرة في أرجاء الكون .

إن هذه الفرضية قد حظيت باهتمام من العلماء أكبر بكثير من تلك الفرضية التي اعتبرت هذا الحزام حطام كوكب انفجر بسبب كارثة غير معروفة ، وأول من أشار إلى هذا الرأي (الانفجار) هو « اولبرز » أحد أفراد الشرطة السماوية عام ١٨٠٢ بعد رصد كوكبين فقط .

والآن ما هي أشكال هذا الشتات المتناثر في هذا الحزام الهائج وما طبيعته ؟

إذا كان اقتطاع عدة غرامات من الصخور القمرية يحتاج إلى تقنية متقدمة (صواريخ ومركبات وأجهزة أخرى) ، وحفنة كبيرة من ملايين الدولارات ، فإن الحصول على كميات من الأتربة والصخور « الحزامية » لا يكلف شيئا ، فمنذ بداية الأرض والسماء تنثر من مكنوناتها ما هو على هيئة غبار أو أحجار صغيرة أو كبيرة ، وتسقط يوميا أطنانا هائلة من هذه المادة الكونية المجانية ، أكثر من ثمانين بالمائة منها على شكل غبار ، والباقي بعد ذلك على شكل قطع حجرية أو معدنية ، تختلف أحجامها وأوزانها من غبار دقيق وحبيبات كحبيبات الرمل إلى قطع تزن عدة غرامات أو عدة كيلو غرامات أو أكثر من ذلك بكثير .

إن الحبيبات التي تعد بالملايين تدخل جو الأرض يوميا ، فتحترق بسبب الاحتكاك بالغلاف الغازي ، مولدة خطوطا مضيئة ، تسمى « الشهب » ، أما القطع الأكبر التي لا يكتمل احتراقها في الغلاف الجوي - كأن يحترق الجزء الخارجي منها أو بعض أجزائها الرقيقة - فتصل إلى الأرض سالمة على هيئة قطع معدنية ، يدخل في تركيبها الحديد والنيكل وعناصر أخرى ، أو على هيئة قطع صخرية في

تركيبات متنوعة ، تختلف عن الأنماط الصخرية المعروفة . ونسبة هذه القطع الصخرية أكبر من القطع المعدنية ، وقد تصل على هيئة قطع صخرية تحتوي على معدن الحديد ، لكنها نادرة ، وتسمى « النيازك » ، وتتدرج أحجامها لتصل إلى ما يمكن تسميته كوكبا ثانويا أو كوكبا صغيرا ، كتلك التي ذكرناها في البداية (سيرس ، وفستا ، وجونو ، وغيرها) والتي يصل قطر إحداها إلى حوالي ٥٠٠ ميل .

ولعل من أشهر النيازك ذلك النيزك الذي وقع في أريزونا في الولايات المتحدة الأمريكية قبل أكثر من عشرين ألف سنة ، مخلفا حفرة كبيرة قطرها حوالي ١٢٠٠ متر ، وعمقها ١٨٠ مترا ، وبتقدير العلماء أنه نيزك معدني ، سقط بسرعة عالية ، وكان قطره أكثر من ٢٥ مترا . ذكرت المراجع العلمية أن التدمير المفاجيء الذي حدث فيسيبيريا في عام ١٩٠٨ م والذي كان اتساعه عشرات الأميال كان بسبب ارتطام نيزك كبير ، اندفع بسرعة هائلة ، وفي عام ١٩٤٨ اكتشفت بعثة علمية في استراليا نيزكا مفتتا على مساحة قطرها ٨٦٠ مترا ، وعمقها ٥٠ مترا .

وهناك نيازك أخرى ، كنيزك (ويلاميت) الذي قدر وزنه بحوالي (١٥) طنا ، والذي سقط على أمريكا الشمالية ، ونيزك (هوبا) ووزنه (٦٠) طنا ، والذي سقط على جنوب غرب أفريقيا ، ونيزك (اهنيجيو) الذي سقط فوق غرينادا ، وغيرها .

ماذا أعددنا لهم ؟

لا تخاف الارض من أي جرم سماوي ، سواء كان شهابا ضئيلا أو نجما كبيرا ، طالما هو جار في مجراه الطبيعي ، سائر في مداره ، لكنها تخاف من المنحرفين الذين ينحرفون عن الطريق السليم ، ويتخذون الطرق الملتوية ، تخاف من المذنبات عندما تهجر مداراتها وتتجه صوبنا ، وتخاف من النيازك عندما تهرب من مساراتها وتقصد زيارتنا ، ولكنه خوف محدود . لا يتجاوز مناطق محدودة ، فحتى لو اندفع نيزك كبير جدا نحو مدينة حضارية مزدحمة بالسكان لا يستطيع أن يتجاوز تلك المدينة والمناطق المحيطة بها ، وليس من المحتمل أن يتطاول على الحضارة الأرضية فيقضي عليها في طرفة عين .

إن الذي يقلق العلماء ليس هذه المفردات بل تلك الأحجار الكبيرة التي تنتمي إلى فصيلة الكواكب الصغيرة الثانوية التي يصل قطر الواحد منها إلى حوالي ٥٠٠ ميل ، والتي تجري ضمن الحزام الكويكبي بين مداري المريخ والمشتري ، مثل : سيرس وبالاس وفستا وغيرها ، ويقلقهم أيضا أن بعض الكواكب الثانوية يقترب من الشمس أكثر من اقتراب الأرض منها ، وفي هذه الحالة لا بد أن يقطع مدار الأرض ، ويمر فوق هذا المدار ، أو تحته بملايين الأميال ، وقد يقترب بعضها أكثر ، فالكوكب الثانوي ايروس الذي اكتشفه وايت في برلين اقترب عام ١٩٣١ م إلى مسافة ١٧ مليون ميل من الأرض ، وفي عام ١٩٣٢ م اقترب الكوكب الثانوي (آمور) إلى مسافة ١٠ ملايين ميل ، وفي نفس السنة اقترب كوكب ثانوي آخر هو (أبولو) إلى مسافة ٧ ملايين ميل ، أما كوكب أدونيس فقد مر على بعد ١٫٣٠٠٫٠٠٠ ميل فقط من الأرض ، وفي عام ١٩٣٧ م اقترب (هرمس) ـ وقطره ميل واحد ـ الى مسافة ٤٨٥٫٠٠٠ ميل من الأرض ، وأثار ضجة كبيرة في الصحف والمجلات .

إن خروج بعض الأجرام (الحزامية) عن مداراتها بسبب اختلالات في خطوط سيرها ودخولها جو الأرض أمر وارد ، فبين فترة وأخرى يخرج من هذا الركام الكوني عدد من الأجرام ليرتطم بالأرض ، والشواهد التي ذكرنا في اريزونا وسيبيريا وغرينادا وغيرها كافية ، لكن هل سيزورنا كوكب ثانوي من تلك التي يبلغ

نطرها مئات الأميال ؟ واذا زارنا ـ لا سمح الله ـ فماذا سيفعل بنا ؟ لا شك أن زيارة مثل هذا الجرم المنحرف ستقضي على الحضارة برمتها .

لقد استنتج بعض العلماء من خلال دراستهم لأسباب انقراض الديناصورات قبل ٦٥ مليون عام أن هناك كوارث تحل بالأرض بين فترة وأخرى ، تقضي على حضارتها بالكامل ، وهذه الكوارث لا يمكن أن تكون إلا من خارج الكرة الأرضية ، كسقوط أجرام ثانوية ضخمة ، أو مجموعة من الأجرام الصغيرة من حزام الكويكبات ، أو حشود من المذنبات ، وقد عزا عدد من العلماء ذلك إلى قوة تؤثر في أجرام المجموعة الشمسية ، ومنها أجرام هذا الحزام .

لقد تم الكشف حاليا عن أكثر من ستين جرما من هذا الحزام ، يمكن أن يؤدي مسارها ـ لو انحرف ـ إلى الأرض أو القمر أو عطارد أو الزهرة أو المريخ . فماذا عسانا فاعلين ؟ لم يهدأ العلماء والمختصون أبدا ، إنهم يتوقعون ارتطام جرم كبير منحرف بأرضنا ، بل ويصر بعضهم على أن الأمر حتمي ، يجب الاستعداد له ، والانسان بما يملك من حضارة متطورة ، وتقنية عالية ، يجب أن يضع هذا الأمر ضمن برامجه العلمية ، ليواجه هذه الكارثة الطبيعية المحتملة .

لقد شغلت هذه المسألة أذهان الهيئات العلمية ، وبدأ التفكير بها منذ فترة طويلة ، وأصبح التخطيط لحماية الأرض ضمن برامج الفضاء .

ففي عام ١٩٦٧ اقترحت مجموعة من الباحثين بمعهد مساشوستس للتقنية استعمال انفجارات نووية لتحييد هذه الأجسام الخطرة أو تفتيتها في الفضاء ، وفي عام ١٩٨٠ قدمت لجنة علمية تقريرا علميا إلى وكالة الفضاء الامريكية (ناسا) جاء فيه : إن الانسان الذي طور التقنية يمكنه أن يتحاشى ارتطام جرم سماوي باستخدام هذه التقنية ، وفي عام ١٩٨١ دعت وكالة الفضاء الامريكية إلى اجتماع في (بكورادو) لدراسة الوسائل الممكنة لإبعاد أي جرم سماوي في طريقه إلى الارتطام بالأرض ، وكانت النتيجة التى خرج بها المجتمعون أن المعلومات الكافية عن مدار الجرم القادم قبل عدة سنوات يمكن أن توفر فرصة للتخلص منه ، كأن تستخدم عبوة ناسفة له ، أو حتى صاروخ موجه لتغيير سرعته ، وإعاقته عن الارتطام بالأرض .

تلك وسائل لا نعرف مدى جدواها يمكن أن ينفع بعضها مع الأجرام الصغيرة لكنه يعجز عن أن يضع حدا لتصرفات الأجرام الكبيرة .

هناك تساؤلات عديدة ، هل يمكن استخدام بعض هذه الأجرام في مجال الرصد ؟ وهل يمكن استغلال المعادن المتوفرة فيها ؟ مسائل كثيرة لم تجد حلولا بعد ، إنها ترتبط بالمستقبل العلمي ، وما يحققه من أبعاد حضارية . □

● لاشيء يزكي النفس، أو يسود القلب، مثل العلم النافع، وليس هناك علم أنفع من التجربة وما أصدق قول بعض العارفين في هذا المعنى: العقل سلطان وله جنود. فرأس جنوده التجربة، ثم الفكرة، ثم الحفظ، ثم سرور الروح، إذ لا ثبات للجسم إلا بالروح، والروح سراج ونوره العقل.

● تثبيت الجهاز وشد الأسياخ والبراغي المعدنية ، أطباء أم ميكانيكيون ؟

تطويل الأطراف
فتح طبي جديد..

بقلم : الدكتور وليد السباعي

من يصدق أن جسم الإنسان يمكن تطويله ، وأن قصار القامة يمكنهم اضافة بضعة سنتمترات الى قاماتهم ، فيعالجون قصورا وحرجا يعاني منه بعضهم ؟ هذا ما تمكن منه طبيب وعالم سوفييتي عندما توصل الى ابتكار آلة وطريقة يطيل بها أطراف الإنسان ، ففتح بابا واسعا للأمل أمام الإنسان .

لا شك أن قِصَر القامة ، أو قِصَر أحد الأطراف عاهة تورث صاحبها نقصا في قدراته العملية ، وعقدة نفسية تسلبه الأمان والثقة .

وسواء أكان هذا القِصَر خلْقياً ، أم أنه حدث نتيجة خلل ما ، أم نقصا في هرمون النمو أو انه حدث في أحد الأطراف نتيجة اصابة سابقة بشلل الأطفال أو نتيجة حادث وكسور ، أو نتيجة اصابة بسل العظام أو بمضاعفات لالتهاب العظم النقى وتداخلاته الجراحية ، أو أن قِصَر أحد الطرفين السفليين قد سبب انحناء للعمود الفقري ، بكل مالذلك من عواقب نقول : مهما

كانت الأسباب فإن ذلك كله لم يعد مشكلة ، فلقد توصل العلم لحل معضلة صعبة بطريقة بسيطة وسهلة .

وأصبحت عملية تطويل الأطراف عملية روتينية يومية ، تجرى للكثيرين ممن عانوا من عاهة القصر أو التشوه . الفكرة بحد ذاتها ليست جديدة ، الجديد فيها هو ما أدخله عليها البروفسور « كابريل ابراموفيتش ايلي زاروف » رئيس قسم جراحة العظام والحوادث في مشفى كوركان بالاتحاد السوفيتي من تقنيات سهلت اجراءها ، حتى أصبحت العملية والجهاز المستعمل فيها يسميان باسمه وبالت شهرة عالمية بعد أن سافر الدكتور المذكور متحولاً يحاضر في العديد من الأقطار ف[illegible]

كسر العظم .

ولكي يستطيع الأطباء اعانة المريض الذي يعاني من قصر في طرفيه السفليين أو [illegible] أو احدهما ، أو قصر القامة ككل ، يجب أولاً أن يكسر العظم عمداً بطريقة معينة حتى يستطيع أن ينمو بطريقة أخرى تزيد من طوله ٦ أو ٧ سم ، وأحيانا حتى ١٠ سم في مكان العملية وحدها

العملية بحد ذاتها سهلة وليست لها أية خطورة ، ولا يصاحبها ريب ، ولا خوف على حياة المريض من اجرائها ، وهي اضافة لذلك لا تحدث أي ضرر للأعصاب أو للأوعية الدموية أو العضلات .

فحينما يزيد طول العظم يصاحب ذلك طول في العضلات والأوردة والشرايين والأعصاب تماما بقدر ما يجب وبقدر ما يطول العظم .

هذا التطويل يحصل ببطء طبعا مليمترا بعد مليمتر كل يوم . أما من ناحية السن التي يمكن أن تجرى بها العملية فهي الخامسة وما بعدها حتى الكبر ، وكلما كان الإنسان في سن الشباب كان ذلك أفضل .

منذ مدة استمعت الى محاضرتين ألقاهما

● عملية تطويل للطرفين السفليين معا ، ملاحظة تطويل الرجل اليسرى أكثر من اليمنى

● تثبيت الدائرتين المعدنيتين خارجا ثم ثقب الرجل تحت الركبة لدخول الازميل

● صورة شعاعية تبين تثبيت الإبر من الداخل والدوائر والأسياخ المعدنية من الخارج ، ثم كسر العظم .

البروفسور ايلي زاروف تبعها مشاهدة إحدى عمليات تطويل الطرفين السفليين لطالب جامعي عمره عشرون عاما ، كان يعاني من قِصَر في القامة نتيجة نقص في هرمون النمو واصابة سابقة في الغدة الكظرية ، فقد كان طوله ١٥٥ سم فقط مما أورثه حالة نفسية صعبة ، لقد أمكن تطويل كل رجل ثلاثة عشر سنتميترا ـ سبعة في الساق وستة في الفخذ ـ وأصبح طول الشاب ١٦٨ سم وهو طول معقول كما نرى .

أما العمليات فتجرى على مراحل : الأولى هى تطويل احدى الرجلين في الساق تحت الركبة حوالى سبعة سنتميترات ، وبعد مدة يقضيها المريض في الاستجمام والتعرض لأشعة الشمس على شاطىء البحر يعود لتطويل الرجل الأخرى من الساق أيضا . أما المرحلة الثانية التي تبدأ بعد حوالى سنة من العمليتين الأوليين فتبدأ بتطويل الرجل من الفخذ فوق الركبة ستة سنتميترات أخرى ، فتصبح المحصلة ثلاثة عشر سنتميترا في كل رجل .

يقول أحد العلماء : إنهم يلعبون مع الطبيعة! أن نكسر عظما طبيعيا بأيدينا ونضع به الإبر والبراغى والجهاز الحديدى حتى يطول ، مغيرين بذلك مصير هذا الإنسان !! إنه شىء بارع ، ولوحة لا يمكن لأي فنان أن يرسم مثلها .

أطباء أم ميكانيكيون . . ؟

بعد تخدير المريض يستلقي على بطنه وفي فمه أنبوب التنفس ، الرجْل التى ستجرى بها العملية ممدودة ، والأخرى مطوية من الركبة . يأخذ الجراح مثقباً كهربائياً ثبت على رأسه إبرة بطول ٣٥ سم ، يدخلها بخفة وبراعة خلال الساق تحت الركبة بعدة سنتيمترات من جهة لأخرى . وفورا تكون الإبرة الثانية وبنفس طول الإبرة الأولى قد ثبتت على المثقب الكهربائي لتدخل عرضيا ، ثم يتم تثبيت إبرتين أخريين تدخلان عرضيا . وهكذا يصبح عدد الإبر المثبتة في ذلك الجزء من العظم أربعا . النهايات الثانية للإبر تكون خارج الجسم فيثبت عليها دائرة معدنية محكمة . وحقيقة فإن منظر الأطباء وهم يجرون العملية بما لديهم من مثقب وبراغ ومفاتيح ومطرقة حديدية ، وبما يقومون به من ثقب وتثبيت ودوران . . الخ ، إنما يشبهون الميكانيكيين الحقيقيين أكثر مما يشبهون الأطباء الذين تعودنا على رؤيتهم . إن التثبيت الأول للإبر الأربع ، والحلقة الدائرية المعدنية يستغرق حوالى عشر دقائق ، بعدها تعاد نفس العملية تحت الأولى بحوالى عشرة سنتمترات حيث تثبت أيضاً أربع إبر وحلقة معدنية أخرى. ان تثبيت الحلقتين المعدنيتين على الرجل خارج الجسم فوق الإبر الثماني المثبتة بنهاياتها على العظم من الداخل يعني أن الجزء التجهيزي من

العم ية قد انتهى . بعد ذلك يتم ثقب الرجل ويد خل الطبيب الازميل ليلامس سطح العظم فق ، ويضرب بمطرقة حديدية فوقه بهدوء في ع ة منه لكسر العظم ، وبعدة ضربات يكسر الـ م في عدة أماكن،ومن المهم جدا أن لا يتجاوز د ل الازميل ٥ , سم داخل الرجل ، فالمطلوب با حديد هو اختراق قشرة العظم فقط ، لهذا يجب على الجراح الذى يجرى العملية أن يكون مرهف السمع ، وأن يسود المكان هدوء مطلق .

ثم يتم توصيل الدائرتين المعدنيتين مع بعضهما بأسياخ معدنية طوليا ، هذه الأسياخ والبراغى هى التى ستستغل في مط العظم ليطول . العملية كلها لا تستغرق أكثر من أربعين دقيقة فقط .

بعد عدة أيام يبدأ المريض بالمشي على عكازين . ويبدأ الأطباء بشد الأسياخ الواصلة بين الدائرتين عكسيا ، بمقدار ميليمتر واحد كل يوم ، هو مقدار ما يطول به العظم يوميا . وعليه فلكي يطول العظم سنتميترا واحدا يلزمه عشرة أيام ، وهكذا بعد مرور شهرين كاملين من اجراء العملية يطول العظم ستة سنتيمترات .

بعد العملية :

الأيام الأولى التى تعقب العملية يتخللها بعض الألم ، ليس بسبب وجود الإبر في الداخل ، وإنما بسبب شد الأسياخ والبراغى . فالعظم المكسور وعملية مطه بقصد تطويله ، وفيما بعد عملية التآمه ، يسببان ألما بدون شك ، ولتهدئته يعطى المريض بعض الأدوية ، وفيما بعد تعود الأشياء لطبيعتها ، ويزول الألم ، والسبب هو تشكل أوعية دموية صغيرة جديدة تتواصل مع الخلايا العظمية الجديدة التى تكونت لتمتلىء بالكالسيوم .

المهم أن العظم الذى خضع لعملية التطويل يكتسب فيما بعد خواص العظم الطويل الطبيعى ، ويصبح مهيأ لتحمل الضغط والثقل والجهد الذى تنقله العضلات إليه ، أما الأعصاب والعضلات والشرايين والأوردة فإنها تطول مع العظم تلقائيا بدون أية صعوبة .

بقي أن نعرف أن الجهاز المستخدم في هذه العملية « جهاز ايلى زاروف » يصنع اليوم في العديد من الدول كايطاليا والمانيا وانكلترا وغيرها اضافة للاتحاد السوفيتي وان ثمن الجهاز الواحد يتراوح ما بين الألف والألف وخمسمائة دولار أمريكي فقط ، وأنه يمكن أن يخدم حوالي عشر عمليات من هذا النوع . فكم هي ضئيلة تكلفته ، وكم هو عظيم مفعوله .

وأخيرا فإن هذه العملية الرائعة تجرى في كثير من الدول الشرقية والغربية وفي بعض البلاد العربية أيضا وتجرى سواء للعلاج أو للتجميل . □

تعريفات

* ليست المحبة أن تحب المحبوب الذي يحبك، بل الذي قد لا يحبك، ومن لا يُحب. وليست المحبة أن لا تؤذي أخاك الانسان، وأن لا تصنع شرا بـه فقط، بل في أن تعمل له الخير ما استطعت الى ذلك سبيلا.

* الأنانية ليست أن تحب نفسك فقط، وتسعى لخير نفسك فقط، وأن لا ترى سوى مصلحتك فقط. وإنما الأنانية هي في أن تفرض على غيرك أن يعيش كما تريد له أنت أن يعيش

صدر العدد الجديد
العربي الصغير
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
ابريل
١٩٨٩
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
استطلاع عن الحرف اليدوية في دمشق.
دعوة مفتوحة لزيارة مدينة الدوحة.
قصة "رحلة خارج الزمن".
المسلسل التاريخي "حسن الصباح".
ذات الهمة "الحلقة الرابعة".
اسلاميات
كمبيوتر
٨ صفحات لأخيك الصغير واختك الصغيرة
دائرة معارف العربي الصغير
نتيجة مسابقة العدد ٣٧

البيت العربي

مجلة الاسرة والمجتمع

الطفل...
كيف يكتسب اللغة ؟

بقلم : الدكتور عبدالمقصود عبدالكريم

كيف يتاح للطفل السوي أن ينجز الجانب الأساسي من اكتساب اللغة في نحو الرابعة من عمره على الرغم من تعقد النظام اللغوي الذي يحير علماء اللغة وفلاسفتها ؟ اكتساب اللغة هو القضية التي يدور حولها هذا المقال .

في كل لحظة نتكلم ، وفي كل لحظة نسمع كلاما ، أي أننا ننطق كلاماً ونستقبل كلام الآخرين باستمرار ، ونحن نمارس هذا الإنتاج وهذا الفهم منذ الصغر ، ربما دون أن يحاول معظمنا التساؤل عن الكيفية التي نكتسب بها المقدرة على إنتاج الجمل وفهمها ، أي عن الكيفية التي نكتسب بها لغة البيئة التي ننشأ فيها .

ينطق الطفل السوي كلمته الأولى - في المتوسط - في نهاية السنة الأولى ، ويتزايد معجم المفردات ببطء ، إلى أن يصل في منتصف السنة الثانية إلى عشرين كلمة ، ويتجاوز المعجم مائة كلمة في عشرين شهرا ، ويزيد ليصل إلى ثلاثمائة كلمة في نهاية السنة الثانية ، ويقترب من الف كلمة في ثلاث سنوات ، وعندما ينجز الطفل الجانب الأساسي من اكتساب اللغة يستطيع أن يرسل في كل وقت - بصورة تلقائية - عدداً لا متناهياً من الجمل ، وأن يدركها ويفهمها دون أن يكون قد تلفظ بمعظم هذه الجمل أو سمع بها مطلقا .

مشكلة اكتساب اللغة

على الرغم من مرور آلاف الأعوام ، واكتساب ملايين الأطفال للغة باستمرار ، فإن الكيفية التي يكتسب بها الإنسان اللغة مازالت تحير العلماء ، ومازالت مجالا خصبا للتنظير . ويبلغ الأمر درجة من الصعوبة تدعو عالم اللغويات الأمريكي الشهير « تشومسكي » إلى نفي إمكانية الإحاطة بهذا الاكتساب ، قبل استبيان اللغة نفسها التي يكتسبها الطفل ، أي قبل أن ينتهي عالم اللغة من دوره في تطوير علم اللغة ، بشكل يكاد يكون كاملا . وعلى الرغم من عدم اتفاقنا مع « تشومسكي » في هذه النقطة . إذ « أن من الممكن القيام بدراسة اكتساب اللغة قبل أن تكتمل صياغة علم اللغة العام ، وقد يكون من المفيد مواصلة دراسة

كتساب اللغة ، بهدف إيضاح بعض مشكلات علم اللغة العام » ، إلا أن رأى تشومسكي بعكس أساساً الصعوبة التي يواجهها العلماء في دراسة اكتساب اللغة . وقبل أن نتطرق إلى ابن خلدون ورأيه حول اكتساب اللغة ، يجدر بنا أن نتعرف على التيارات الحديثة بهذا الشأن ، حيث يمكن الكلام عن اتجاهين رئيسيين ، اتجاه يمثله أصحاب النظرية التوليدية التحويلية (وعلى رأسهم تشومسكي) ، واتجاه يمثله أصحاب المدرسة السلوكية .

الاتجاه السلوكي

تندرج جهود السلوكيين في دراسة اكتساب اللغة ضمن إطار نظرية التعلّم التي تقوم على مفهوم المثير « الاستجابة » ، ومن ثم فإن اكتساب « السلوك اللغوي » لا يختلف كثيرا عن اكتساب السلوكيات الأخرى . وتتم عملية اكتساب اللغة ـ على العموم ـ عن طريق تحويل الأصوات العفوية التي يصدرها الطفل إلى أصوات لغوية « فونيمات » ، ويتم تعزيز هذه العملية باتجاه لغة الكبار ، بحيث يكون التعزيز إيجابيا في حالة إصدار أصوات لغوية صحيحة ، ويكون سلبيا في حالة إصدار أصوات لغوية غير صحيحة . ويمثل هذا الاتجاه عدد من العلماء ، منهم واطسون ، وسكينر ، وفرايز ، وستاتس . ويميز واطسون بين مرحلتين في اكتساب اللغة : يتعلم الطفل عددا من الكلمات ، وتأخذ كل كلمة شكلا صوتيا ، يرتبط بمعنى ما ، له علاقة بموضوع أو حدث في البيئة التي يعيش فيها ، ثم يتعلم الطفل إنشاء الجمل عن طريق الربط بين عدد من الكلمات . إن الترابط يتم عند واطسون بين الكلمات بشكل مفرد ، بينما يتم الترابط عند ستاتس بين الكلمات باعتبارها ممثلة لفصائل من الكلمات .

ويتمثل الاتجاه السلوكي بصورة واضحة في كتاب سكينر « السلوك الكلامي » ، حيث يركز على ضرورة عملية التعزيز لاكتساب اللغة ، حيث يتلقى الطفل التعزيزات الإيجابية في حالة قيامه بالاستجابة الكلامية الصحيحة . ويرى سكينر أن الأطفال يتعلمون « نماذج قياسية » أو « أطرا هيكلية » ، وهذه الأطر تتكون مما يسميه

استجابات رئيسية (أسماء ، أفعال ، صفات) ، وتتيح معرفة هذه الأطر الهيكلية للمتكلم القدرة على ترتيب الاستجابات الرئيسية ، ومن ثم صياغة الجمل . ويعتقد فرايز أن الاطفال يتعلمون كل فصائل الكلام في إطار الجملة ، وليس مجرد الاستجابات الرئيسية كالاسم والفعل ، فمثلا يدرك المتكلم في جملة : « التلميذ يذهب إلى المدرسة » ، تتابع أداة التعريف + الاسم + الفعل + حرف الجر + أداة التعريف + الاسم) ، أي أن فرايز يعتقد أن الناطقين باللغة يتعلمونها وهم على وعي كامل بتركيب الجمل .

ويرى السلوكيون ذهن الطفل صفحة بيضاء ، تتلقى المثيرات اللغوية من البيئة ، أما أصحاب النظرية التوليدية التحويلية فيرفضون هذه النظرة ، وينظرون إلى ذهن الطفل نظرتهم إلى آلة مبرمجة ومزودة بالمعلومات اللازمة لاتمام عملية اكتساب اللغة . وترى النظرية التوليدية التحويلية أن الإنسان يملك قدرات فطرية ، تساعده على تقبل المعلومات اللغوية ، وإنتاج الجمل ، وفهمها . أي أن الإنسان مهيأ لاكتساب قواعد لغته الأم ، بطريقة لاشعورية ، من خلال المعطيات اللغوية التي يتعرض لها ، أي أن الإنسان يستطيع أن يبنى لغته بصورة إبداعية بمساعدة قدراته الفطرية .

النظرية التوليدية

ويرى السلوكيون أن الطفل يكتسب اللغة بمساعدة التعزيزات التي تصاحب تحويل الأصوات العفوية إلى أصوات لغوية ، ثم يتعلم بعد ذلك إنتاج الجمل ، وهو على وعي كامل بتركيبها ، أما أصحاب النظرية التوليدية التحويلية فيرون أن الطفل قادر بصورة لاشعورية على صياغة عدد غير محدود من الفرضيات التي يمتلكها بالفطرة ، وتنص على كيفية إنتاج الجمل وفهمها : « يسمع الطفل بعض مقاطع اللغة التي سوف يكتسبها . ويكتشف تدريجيا أن بعض الفرضيات التي صاغها لا تتوافق ومعطيات اللغة ، وبعضها الآخر يتوافق معها ، وهكذا فمن المتوقع أنه سيتوصل إلى أن يقبل ـ بصورة لاشعورية ـ بعض الفرضيات التي تتيح له اعتماد التفسيرات الصحيحة حول جمل لغته فقط . ويكون في هذه المرحلة على الأخص قد امتلك قواعد لغته » (ميشال زكريا ، الألسنية : المبادىء والأعلام ، ص ١٣٥) .

يؤسس التوليديون انتقادهم للمدرسة السلوكية انطلاقا من أن الطفل يملك نظاما لغويا خاصا ، يتواءم مع مراحل النمو ، ويختلف عن النظام اللغوي الذي يستخدمه الكبار ، ومن ثم فإن لغة الأطفال لا تمثل تقليدا للغة الكبار ، مما يجعل التوليديين يؤكدون على أن الطفل يملك نظامه اللغوي بصورة مبدعة ، ترتكز على كفاية لغوية فطرية ، ومن ناحية أخرى يؤكد مارك ريشل (اكتساب اللغة ، ص ٢٢ ـ ٢٥) أن النظرية الفطرية ترتبط بنزعة عقلية بائدة ، ويوجه ثلاثة اعتراضات أساسية هي :

١ ـ يحتفظ هذا الاتجاه بصورة ظاهرة بالتمييز الفاصل بين الجانب الفطري والجانب المكتسب ، في الوقت الذي تبدو فيه العلوم السلوكية قد تخطت بصورة قاطعة هذه المعضلة .

٢ ـ يُسقِطُ هذا الاتجاه على الإنسان الذي يباشر تطوره نظرياتٍ تَمَّ استنباطُها من تحليل النتاجات المكتملة لهذا التطور ، ثم ينسب إلى هذه النظريات دورا في تكوّن التصرفات اللفظية .

٣ ـ يتعين إذن الكف عن النظر إلى إسهام الكائن البشري في عملية اكتساب اللغة، بوصفه معطى فطريا، ويتعين الكف عن إدراج هذا المعطى تحت عنوان النظرية أو الفرضية، بل يجب النظر إلى هذا المعطى بصفته يشكل بعض الإمكانيات الكامنة للتطور، هذه الإمكانيات التي لا يجدي أن نتوخى وصفها بصورة مستقلة عن هذا التطور نفسه.

ابن خلدون واللغة

ونصل أخيرا إلى ابن خلدون بعد مقدمة طويلة في قضية صعبة، لكن كان لا بد منها، للتعرف على الاتجاهات الحديثة في القضية التي نتناولها، قبل أن نحاول التعرف على رأي ابن خلدون، العلامة العربي، مؤسس علم الاجتماع، المغامر السياسي الذي قضى حياته متنقلا بين الأندلس وبلاد المغرب العربي، ثم استقر به الحال في مصر حيث مات. ولد عبدالرحمن بن خلدون سنة ٧٣٢ هـ

(١٣٣٢ م) في تونس، ومات في مصر سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م). ما الذي ننتظره إذن من عالم اجتماع مات منذ ما يقرب من ستة قرون، في قضية تتعلق باللغة واكتسابها، ومازالت تثير الجدل بين العلماء حتى الآن؟ لعله قد حان الآن أن نحاول التعرف على رأى ابن خلدون في قضية اكتساب اللغة.

يقسم ابن خلدون علوم اللسان العربي إلى أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. ويرى «أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر»، ويكون في جهل الإنسان بالنحو «الإخلال بالتفاهم جملة». ويرى ابن خلدون «أن اللغات كلها ملكات، والملكة، عنده، هي الصفة الراسخة، وتختلف عن الحال، وهو الصفة غير ال اسخة، وعن الطبع، وهو الملكة الأولى التي لا يأخذها الإنسان عن غيره. ان اللغات ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها». وتتمثل المشكلة عند ابن خلدون بالنظر إلى تراكيب الجمل (وهذا يساير رأيه في تقديم النحو على علوم اللسان العربي الأخرى) وليس بالنظر إلى المفردات، أي أن الملكة اللغوية ترتبط عنده بالقدرة على إنشاء الجمل، «فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع»، «ويكتسب الإنسان الملكة بتكرار الأفعال» «لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر، فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة».

مراحل اكتساب اللغة

يميز ابن خلدون مرحلتين في اكتساب الملكة اللغوية ، المرحلة الأولى هي مرحلة استعمال المفردات ومعرفة معانيها ، أي الربط بين الصوت اللغوي وموضوع أو حدث في البيئة ، ويتم هذا الاكتساب عن طريق السمع « يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقّنها أولا » ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة اكتساب القدرة على إنشاء الجمل ، وتتم أيضا عن طريق السمع « ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقّنها » ، وتتكون الملكة عن طريق تكرار السماع وتكرار الاستعمال حتى يتقن الصبي الصغير لغة الكبار ، ويكون كأحدهم « هكذا تصيّرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل » .

يرى ابن خلدون أن ملكة اللسان العربي في عصره مغايرة للغة العربية التي نزل بها القرآن ، ويسمى هذا الاختلاف « فسادا » ، ويرجعه إلى امتزاج العجمة بهذه الملكة « إن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن ، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها » لكن الإنسان ، وعلى الرغم من ذلك ، يمكنه تعلم اللغة العربية التي تخلو من « الفساد » لأن اللغات ملكات يمكن تعلمها شأن سائر الملكات ، وما على الإنسان الذي يبتغي تحصيل هذه الملكة إلا أن يأخذ نفسه بحفظ كلام العرب الذي يجرى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب وأشعارهم « حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقّن العبارة عن المقاصد منهم ثم ينصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظ من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة » ومن استطاع الحصول على هذه الملكة فقد حصل على اللغة العربية في صورتها الأولى قبل أن ينال منها « الفساد » ، وتمتزج بالعجمة .

يفرق ابن خلدون بين الملكة اللغوية وبين معرفة قواعد هذه الملكة أو « صناعة » اللغة ، ويرى أن إحداهما لا تتأسس على الأخرى ،

ويشبه الأمر بالفرق بين المعرفة النظرية بعمل من الأعمال والممارسة الفعلية لهذا العمل . فليس كل من يعرف قواعد صناعة من الصّناعات يجيد هذه الصناعة ، وليس كل من يجيد صناعة من الصناعات يعرف قواعدها ، « إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا . . . إن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من صناعة العربية . فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة » . □

مساحة ود!

أجيال وحوار

حين تعرفت عليه ، كانت حربه مع الحياة قد بدأت . كان أهله يريدونه ابنا حقيقيا لهم ، ومواصلا لحرفتهم التي تدر عليهم الكثير . وكان هو يريد أن يكون ابنا للحياة ، وأن يبدأ لنفسه طريقاً خاصاً به ، لا علاقة له بحرفة أبيه ، فلم يجد أي صله يمكن أن تربطه بها ، لكنه كان وحيد أبويه ، مما يعني أن الحرفة لن تجد بعد الأب من يواصلها ، فتموت دون أن يكون لها من يحييها ، لتتصل بها تقاليد العائلة . فقد اختار صديقي احتراف الرسم الذي لم يكن في نظر الوالد أكثر من لعب بالألوان ، تصحبه حركات جنونية ، ضمن تركيبة عجيبة يطلق عليها لسبب لا يعرفه اسم الفن

وكما تبدأ كل الحروب ، يبدأ كل طرف في اختبار قوة الآخر ، ومدى الجدية التي يأخذ ا الأمور . الأب يحاول إقناع ابنه بعدم جدوى الرسم كمورد للحياة القاسية ، والابن يحاول إقناع والده بأن الحياة أكبر من المادة ، وأن قسوتها ليست في فقد المال ، بل في فقد الهدف .

لكن مثل هذه الأفكار لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للأب ، مما كان يشحذ عناد الابن الذي بدأ يدعم رأيه باستشهادات عن عظمة الفن وخلود الفنانين . وبدأت أواصر الاتصال تنقطع ، لا الأب قادر على فهم ولده ، ولا الابن قادر على إقناع والده بما يقول . الأمور بالنسبة للوالد واضحة كالنهار ، حرفة متوافرة تدر المال ، والمال سر الحياة وفاتح مغاليق المجتمع ، وبالنسبة للابن لم يكن الأمر أقل وضوحا ، فالحياة زمن ممتد ، وسرها هدف قائم على اختيار حر يعطيها معنى تستحقه وتمنحه هي جدارة عيشها .

وانقطع الحوار .

عندما قابلت صديقي آخر مرة كانت حربه قد انتهت توفي الوالد ، وتبددت ثروته ، وشق الابن طريقه الصعب دون نجاح كبير . فشل الابن في المحافظة على حرفة والده ، وثروته ، ولم ينجح في أن يصبح الفنان الذي أراد أن يكونه .

لم يكن صديقي تعسا لتسببه في ضياع الجزء الأكبر من ثروة أبيه . لكنه كان يشعر بالمرارة ، لأنه لم يصبح فنانا كبيرا كما كان يطمح .

وعندما تحدث عن والده قال : إنه « كان حكيما بشكل ما ، ولكن لو كتبت لي الحياة من جديد لسلكت الدرب نفسه » . □

صلاح حزين

هو.. هي

خوف لا يهدأ

● حتى قبل أن أتزوج كنت أنتظر اليوم الذي أنجب فيه أطفالا يعطون حياتي معنى ، فالأطفال بالنسبة لي ليسوا تلك المخلوقات الصغيرة الجميلة البريئة فحسب ، بل هم سبب الوجود ومعنى الحياة وهمها الجميل .

وأذكر ، حتى قبل أن أتزوج ، أنني كنت أملك شعوراً جارفاً بالأمومة ، يبدو في تعاملي مع لعبي وعرائسي الصماء . هكذا وجدت نفسي ، وهكذا نشأت ، حتى كبرت وتزوجت وأنجبت .

لا أدري إن كان للمشكلة التي أواجهها الآن جذور في هذه النشأة أم لا ، إلا أن نظرتي تختلف تماما عن نظرة زوجي للطريقة التي يجب أن يعامل بها أطفالنا ، وكثيراً ما يصل هذا الخلاف حداً يؤثر على حياتنا الزوجية ، وعلى مستقبل أولادنا ، فأنا أريد لأطفالي أن يكونوا مهذبين ودودين مطيعين ، وهو يريدهم أن يكونوا جسورين مقتحمين ، ولا مانع إذا كانوا مشاغبين .

أنا أريدهم أن ينشأوا نشأة محسوبة ، أعرف معها اهتماماتهم ، وأساعدهم في تحقيق رغباتهم ، وقضاء وقت طويل للاستماع إلى همومهم وشكاواهم ، ومعرفة نوع المشاكل التي يواجهونها ، وهو يريدهم أن ينشأوا نشأة تلقائية ، تطلق ملكاتهم ، حتى لو خرجت عن العرف السائد ، وخرقت تقاليد الطفولة التي وضعها المجتمع ، واعترف بها الآخرون . أنا أريدهم أن يبقوا بجانبي ، حتى أطمئن عليهم ، وأراقب بنفسي ما يحدث لهم ، وأشرف بنفسي على كل صغيرة وكبيرة تتعلق بهم . وهو يريدهم أن يخرجوا إلى الناس والشارع ، ويختلطوا بالآخرين ، ويزجهم في مواقف قد تكون صعبة ، لكنها تعلّم الأطفال أن الحياة ليست المنزل ، بل هي الشارع والناس والحياة كما يقول .

ومع أنني كثيرا ما أضعف تجاه منطقه ، وأوافقه على كثير من آرائه ، إلا أنني أشعر دائما بالخوف على أولادي من قسوة الحياة والناس .

وعندما أقول لزوجي : لننتظر حتى يكبر أطفالنا ، فنطلقهم ليعيشوا حياتهم ، يقول : إن الحياة لا تنتظر الأطفال حتى يأتوها كباراً ناضجين ، فمن الأفضل أن يقتحموا الحياة بأنفسهم لينضجوا في غمارها . أسكت عند ذلك وأهدأ ، لكن خوفي على أولادي الصغار لا يهدأ أبداً .

.. هي

فيض من الحنان

كثيراً ما يبدو لي أن النساء يبالغن في إظهار الحرص على الأطفال ، ومع علمي التام بأن غريزة الأمومة لدى المرأة هي التي تجعل علاقتها بأطفالها أكثر دفئاً وحناناً من علاقة الرجل بأبنائه ، إلا أنني أرى أحياناً أن ذلك الدفء وذلك الحنان الأمومي ، يلعب دوراً سلبياً في تربية الأطفال وتنشئتهم . وكثيراً ما أرى أن هذه السمة الأنثوية العامة تتضخم لدى زوجتي ، لتتحول إلى النقيض ، ومع أننا استقبلنا منذ أشهر طفلنا الثالث ، إلا أن المشكلات الناشئة بين زوجتي وبيني حول تنشئة أطفالنا لم تحل ولم تنته .

فزوجتي ترى في الطفل عجينة لينة ، يمكننا أن نشكلها كما نشاء ، بعيدا عن المجتمع وتعقيداته ومشاكله التي لا تنتهي . وهي لا تريد لأطفالنا أن يقولوا رأيهم في الأشياء بصراحة ، ولا تريد لهم أن يتعاركوا مع الأطفال الآخرين ، ولا تقبل منهم أن يتلفظوا بما تعتبره كلمات نابية . وذلك على العكس مني تماما ، فأنا أرى أن الحياة أكثر تعقيداً مما نتصور ، وأقسى مما نعتقد ، وأرى أن الأطفال هم أبناء المجتمع ، بقدر ما هم أبناء أبويهم ، وأن شخصية الطفل تنشأ وتصقل في الشارع والحي ، وليس بين جدران أربعة ، وأن كل معركة يخوضها أبناؤنا مع الأطفال الآخرين تجعلهم يعرفون أن الحياة ليست دفئاً وحناناً كلها ، بل هي قتال وصراع أيضا ، وأنها ليست أقارب وأصدقاء ودودين فحسب ، بل إن فيها الأعداء والأشرار الذين يعيشون جنبا إلى جنب مع الأخيار والطيبين وبينهم ، وأن في الحياة الضعيف والقوي ، والودود والقاسي والبسيط والمعقد ، بل أكثر من ذلك ، فإن هناك في الحياة أشياء تطلب وأشياء تؤخذ ، وأخرى تنتزع انتزاعاً .

وهناك أشياء لا يمكن الحصول عليها بسهولة ، وأشياء مستحيلة ، ومطالب غير ممكنة التحقيق .

وعندما تسمعني زوجتي أتفوه بهذا الكلام تعتبرني قاسياً فظاً ، خالياً من المشاعر ، وتحتضن أطفالنا ، كأنها تخشى عليهم من خطر ماحق ، فأرى بنفسي مصير أبنائي الذين يرون من زوجتي فيضا من الحنان لن ينفعهم كثيرا في الحياة القاسية .

.. هو

طبيب الأسرة
قضايا منزلية

قضية المواد المضافة للطعام

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

اصطلاحان في لغة التغذية لا بد من الإحاطة بأبعادهما حتى لاتختلط الأوراق وتتشابك الخطوط ، هما : اصطلاح الطعام أولا ، ثم اصطلاح الغذاء ثانياً .

فالطعام هو مايدخل الجوف عبر الفم ، استجابة لنداء الجوع والشهية .

أما الغذاء فهو الجواب على نداء حاجات أنسجة الجسم ومطالب خلاياه .

لهذا كان للطعام قاموس حافل بأسماء الأطعمة والفواكه والأطباق المنوعة ، وللغذاء قاموس آخر ، يترجم لغة حاجات الجسم من طاقة ونمو وحرارة ، إلى كلمات مثل الزلال والأحماض الدهنية والفيتامينات والأملاح .

وغاية أهل التغذية، ومنتهى آمالهم ، أن يترجموا الطعام بلغة قاموس الغذاء وبمفهوم كلماته .

لقد تحايل العلماء على الجسم لكى يقبل التعامل مع الطعام بلغة الغذاء ، حتى تتطابق الشهية مع حاجة الأنسجة فى جسم الإنسان ، فكانت إحدى وسائلهم هى إضافة مواد غريبة عن الطعام ليست من صلبه ، تحتال على الشهية ، وتزيف النكهة ، لتجد من صاحبها قبولا حسنا ، يساعد على ترجمة معنى الطعام إلى مفهوم الغذاء . وهذا مااصطلحوا عليه باسم المواد المضافة للطعام .

لماذا تضاف المواد إلى الطعام ؟

هناك أسباب عدة يتطلع أهل التغذية إلى تحقيقها عبر إضافة مادة أو أكثر إلى الطعام ، وهذه هى :

(أولاً) حفظ الطعام لاستعماله فى وقت الحاجة إليه ، أو في مكان الحاجة إليه . ففى أوقات القحط يحتاج الإنسان إلى الطعام الذى جمعه فى أوقات الوفرة ، أو قد يحتاج الانسان لطعام جمعه في مكان ما ليستعمله في مكان آخر ، ومن هنا تفتق ذهن المختصين لابتكار مواد حافظة ، تتنوع بتنوع الأطعمة ، وتختلف باختلافها بما يتلاءم وطبيعتها .

(ثانياً) إضفاء طعم مستساغ مقبول مرغوب فيه .

(ثالثاً) إضفاء لون مثير للشهية سارّ للناظرين .

(رابعاً) إضفاء رائحة مثيرة للشهية إن لم تكن للطعام رائحة أو تدعيمها وتقويتها إن كانت الرائحة ضعيفة .

خامساً) تلافي النقص في الغذاء ، وتحسين لصحة العامة ، كما يجري مثلا عند إضافة اليود إلى ملح الطعام توقيا من الاصابة بتضخم الغدة الدرقية أو الدراق ، مما يشيع فى مناطق تفتقر إلى هذا العنصر فى بيئتها ، كما هى الحال في المناطق الجبلية فى أواسط القارة الأوربية على سبيل المثال .

كما أن بعضهم قد يضيف فيتامين (د) إلى الحليب فى مناطق يسود فيها العوز إلى هذا الفيتامين ، حيث تغيب الشمس وتشح الأشعة فوق البنفسجية ، فيشيع مرض الكساح بين الأطفال ، أو ربما يضاف فيتامين (ج) أو الفيتامين المانع للاسقربوط ، تدعيما لبعض أنواع الشراب لتماثل الأشربة الطازجة . وهكذا .

لقد سار الانسان طويلا على هذا الضرب ، وكانت له تجارب عريقة ، أضيفت إليها خبراته وعلومه الحديثة ، حتى توافرت لديه حصيلة ضخمة من هذه المواد المضافة للطعام ، بعضها ثبتت جدواه وفائدته ، فاستمر ، وبعضها تبين ضرره فنبذه الإنسان ، وتوقف عن ممارسته واستخدامه .

ومنذ القديم عرف الناس استعمال ملح الطعام لحفظ طعامهم ، كما عرفوا استعمال السكر والخل والكحول أيضا ، مما لايزال مستعملا حتى يومنا هذا .

ولكن القرن التاسع عشر حمل للناس تجارب جديدة باستعمال المواد الكيماوية ، مما فرضته الطفرة الصناعية التى شملت صناعة حفظ الطعام ، وهو ما اقتضته الحاجة لإمداد الجيوش الغازية والحشود العسكرية التى اجتاحت العالم ، وكان أبرزها الحروب النابليونية . ومن هنا تسللت مواد حافظة ، منها أملاح حامض البوريك والفودمالدهيد ، لكن استعمالها قد توقف بعد أن ثبت ضررها ، وتأكدت سميتها ، ومنها أيضا أملاح الكبريت والنيتريك اللذان مازالا يستعملان حتى يومنا هذا ، ولم يثبت للمختصين ضررهما أو فسادهما .

هناك تجربة مازالت صورتها تحتل من الذاكرة موقعا مميزا ، لحداثة عهدها ، فهى مأساة مدينة مكناس المغربية التى راح ضحيتها ٢٠٠٠ من الأبرياء الذين أصابهم الشلل عقب تناولهم زيت الزيتون الذى أضيف إليه زيت التشحيم بقصد الغش التجاري عام ١٩٥٩ .

على أي حال فإن هذه الصور القاتمة ليست هي كل وجوه صورة المضافات للطعام ، حيث ان فرض الرقابة الصحية ، وتصاعد المنافسة التجارية ، قد ارتفعا بعمليات حفظ الطعام وتصنيعه إلى درجات عالية من التقنية ، جعلت الطعام المحفوظ يصبح موازيا للطعام الطازج في قيمته الغذائية ومظهره ، بل ربما تفوق عليه.

وتأكيدا لهذه الحقيقة قام كل من جودين وتومسون بتجاربهما على الفئران ، إذ أطعما فريقا منها طعاما معلبا محفوظا على مدى ١٨ شهرا ، كما أطعما فريقا آخر منها طعاما طازجا في المدة نفسها ، وفى نهاية الدراسة لم يجدا فروقا بين المجموعتين ، سواء فى نموها أو صحتها أو تناسلها ، مما يؤكد تماثل القيمة الغذائية للطعام المحفوظ مع الطازج .

هذا وركاب الغواصات تحت الماء ، ورواد المناطق القطبية النائية ، ممن يعتمدون على الأطعمة المحفوظة مددا طويلة ، لم يعهد الأطباء إصابتهم بمرض أو خلل أو علة ، على الرغم من طول اعتمادهم على الطعام المحفوظ .

وعلى الرغم من القناعة بالأمان فى استعمال المواد الحافظة للطعام فإن العلماء يميلون إلى استغلال الوسائل الطبيعية الأخرى في حفظ الطعام ، كاستعمال التبريد والتجفيف أو التسخين على سبيل المثال .

أما عن تلوين الطعام ، مما يثير الجاذبية عند لناظرين ، فإنه قد يدفع بالطباخين إلى استعمال مواد كيماوية ، لم يثبت أن لها ضررا حتى الآن ، منها الكاراميل أو السكر المحروق ، ومنها الملونات النباتية أو السافرون ، وأصبح مألوفا استعمال البقدونس أو البطاطس ، أو ربما مسحوق بعض الحشرات الآمنة ، فقد شاع استعمال الملونات ، وخاصة في حقل الحلويات والفطائر والمعجنات .

إنهم يعدون فى عالم التغذية ٢٥ نوعا من أصباغ الطعام ، تعتبر في نظر الطب آمنة لا ضرر منها ، بعد أن أوقف الكثير من الملونات التى أثبتت التجارب على الحيوانات أنها مواد مسرطنة .

فى مجال المضافات الغذائية تعتبر المحْلِيات أهم أركانها ، وبخاصة سكر القصب ، وهو الأكثر شيوعا ، غير أن هناك مواد مصنعة ، تفوق سكر القصب حلاوة ، لكنها لاتعطى طاقة ، ولاتضر ، وهذا ما يريده مرضى السكر وطالبو الحمية والنحافة ، ومن تلك المواد مثلا مادة السكارين التى تفوق حلاوتها حلاوة السكر ٤٠٠ ضعف ، لكنها لسوء الحظ تتلف بالحرارة .

لهذا استعملوا بديلا لها مادة السيكلامات ، المقاومة لمفعول الحرارة ، التي تفوق حلاوتها حلاوة السكر بثلاثين ضعفا ، غير أن السيكلامات قد أوقف استعمالها مؤخرا ، بعد أن ثار الجدل والشك حولها على أنها مادة مسرطنة ، عقب تجارب مكثفة على الفئران أوحت بأنها تسبب السرطان .

هذا ويشيع حاليا جدل حول نوع من التوت البري ، يقال عنه إن حلاوته تفوق حلاوة السكر ، بما يقدر بـ ١٥٠٠ ضعف ، لكننا لو تطرقنا لمواد النكهة فسنجد منها ما يعطى طعم اللوز وما يعطى طعم الخوخ أو طعم النعناع .

أما عن طعم اللحم فبأملاح يسمونها جلوتامات الصوديوم ، غير أن خبيرا يدعى كواك قد وصف فى عام ١٩٦٨ مرضا سماه ظاهرة المطاعم الصينية ، ادعى أنها ظاهرة تصيب مرتادي المطاعم الصينية بآلام في الرقبة والصدر ، مع خفقان فى القلب ، عقب تناولهم أطعمة أضيفت إليها هذه المادة الشبيهة برائحة اللحم .

وظاهرة المطاعم الصينية هذه تذكرنا بمرض آخر ، شاع فى الصين ، وأطلقوا عليه اسم هستيريا الكلاب ، وسببها على ماقيل مادة كان الصينيون يضيفونها إلى الدقيق ، أملا في تحسينه ، يدعونها أرجين . ولما ثبت ضرر هذه المادة استعاضوا عنها بمادة ثاني أكسيد الكلورين التى تعتبر آمنة لاضرر منها ولاضرار .

ومما يضاف إلى قائمة المضافات الغذائية مادة الجلسرين المعروفة ، فقد قيل إنها تساعد على استحلاب الدهون ، وتقوم بتسهيل مهمة امتزاجها بالماء ، لهذا استعملت في صناعة الآيس كريم ، وإعداد كريمات السلطات ، بالإضافة إلى مواد تمنع تأكسد الدهون وزنخها ، وأهمها فيتامين (هـ) المعروف باسم التوكوفيرول ، ومادة أخرى حامضية تعرف باسم حامض الجاليك . إن الحديث عن المضافات الغذائية طويل متشعب ، غير أن الأطباء يميلون إلى عدم الإسراف فى استعمالها بقدر الإمكان ، على الرغم من أن الرقابة الصحية الدقيقة قد أثبتت سلامتها وعدم ضررها ، مما يبعث الطمأنينة في قلوب المستهلكين ، ويبدد القلق الذى ربما يثور حول استعمالها .

إن المواد المضافة للطعام في أيامنا هذه لاتحمل لمستهلكيها ذلك الخطر الكامن بفضل الرقابة الطبية الصارمة ، وأساليب الصناعة الحديثة ، في ظل منافسة تجارية لاترحم . □

بيت الياسمين

تأليف : إبراهيم عبد المجيد

الواقع وتجليات الحداثة في الرواية

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

لقد استطاع مؤلف الرواية أن يجسد تجربة جيل كامل بأشواقه وطموحاته ، وصبره وعثراته ، ووقوفه مشدوها إزاء التحولات الغريبة المتلاحقة من اليمين إلى اليسار ، ومن اليسار إلى اليمين ، ومن باشوات ما قبل الثورة إلى الباشوات الجدد من أمثال عبده الفكهاني والمقدس يحيى . ولا تكتفي الرواية بذلك ، وإنما تعكس بصدق التحولات الكبيرة التي شهدتها منطقتنا الساخنة خلال العقدين الأخيرين .

صدرت الرواية عن « دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع » ، القاهرة - باريس ، عام ١٩٨٦ ، وتتكون من عشرة فصول وخاتمة . يبدأ كل فصل بحكاية قصيرة ببضعة أسطر أو أكثر قليلا ، تجمع بين الواقع وبين شيء آخر هو « الخارق للعادة » في الفصول ١ و ٢ و ٣ ، « التراجيدي » في الفصل ٤ ، و « الحلم » في الفصل ٥ ، و « السحر أو الواقعية السحرية » في الفصل ٧ ، و « النزعة السلفية » في الفصل ٦ ، و « التراث الشعبي أو الحكاية الشعبية » في الفصلين ٨ ، ٩ ، و « الأسطورة » في الفصل الأخير . ولن نستطيع التوقف عند كل هذه الحكايات التي تمثل مدخلا لكل فصل ، ومن ثم نأخذ منها مثالا واحدا ، وليكن مثالنا الحكاية التي تسبق الفصل السابع . تقول هذه الحكاية :

« ولد طفل بذيل » . شيء عادي يمكن أن يحدث . بعد أسبوع عرفت الاسكندرية أن الحادثة تكررت ، فبدأ الناس النقاش . ما كاد أسبوع آخر يمضي حتى شاع أن امرأة ثالثة

أنجبت طفلا بذيل أيضا . وسرعان ما صار معروفا أن مستشفى الشاطبي قد امتلأ بالأطفال المولودين ولهم ذيول . تمنت كل حامل أن يسقط جنينها ، وبعضهن متن وهن يحاولن ذلك ، وقيل إن العام عام لعنة ، فانقطعت الزيجات ، وصار القوي من الرجال لا يعاشر زوجته ، والضعيف يرسلها لأهلها أو يطلقها حتى يمر العام . . . »

فهذه الحكاية ـ كما نرى ـ تنطلق من حادثة يمكن أن تقع ، وكثيرا ما تنقل لنا الجرائد حوادث من هذا النوع من شتى أرجاء المعمورة ، ولكن ما فعله القاص هنا هو أنه حولها من حكاية أو واقع شاذ غريب إلى واقع سحري ، استمر مدة عام كامل ، وشكل للناس جميعا حالة من الرعب الشديد ، باتوا يحاولون الفرار منها ، كل على طريقته الخاصة حسب واقعه وظروفه . وهذه التقنية الجديدة (الربط بين الواقع والسحر) من التقنيات التي انتشرت خلال العقود الأخيرة في كل أنحاء العالم ، وازدهرت بصورة خاصة في أمريكا اللاتينية ، على يد كتّاب مثل ميجيل آنخل أستورياس ، وخوان رولف ، وأليخو كاربنتير ، وخوليو كورتاثار وجابرييل جارثيا ماركيز .

وهذه الحكاية القصيرة التي تسبق فصول رواية « بيت الياسمين » موظفة توظيفا جيدا ، وتلعب دورا كبيرا في البناء الفني للرواية ، لأسباب كثيرة ، من أهمها أنها متنوعة تنوعا كبيرا ـ حسبما رأينا ـ في أسلوبها وتقنياتها ، وإن كان الواقع يشكل الأساس الأول في كل هذا التنوع ، ولذلك قلنا : « الواقع والخارق للعادة ـ الواقع والتراجيدي ـ الواقع والسحر . . . إلخ » وكل عنصر من هذه العناصر له أساليبه الخاصة وتقنياته المتميزة ، ثم إن هذه الحكايات تحيط الأحداث الرئيسية في الرواية بجو غريب ، صادم ، مثير للدهشة ، باعث على التفكير والتأمل ، فضلا عن أنها تنم عن رغبة أكيدة لدى المؤلف في التجديد ، تعكس حرص جيل الشباب (ولد ابراهيم المجيد عام ١٩٤٦) على متابعة كل ما يصـ من جديد في كل أنحاء العالم .

بناء المضمون

يدور الخيط الرئيسي في الرواية حول بطل شجرة محمد علي ، وهذا الاسم يحمل دلا لا تخفى على القاريء ، هي أنه إنسان عادي ينسب إلى الطبقة الشعبية التي تشكل الغالبـ العظمى ، والتي تنزل على رأسها كل النكبات والأهـوال والأخـطاء . ويلجـأ ابـراهيـ عبدالمجيد ، في هذه الرواية ، إلى الكوميديـ الساخرة ، ويجعل منها أداة لفضح صور التزييف ، والكشف عن مواطن الضعف والخلل والبهتان في المجتمع ، وذلك من خلال محورين أو عنصرين غاية في الأهمية ، يتضافران من أجل بلوغ الغاية التي يسعى إليها المؤلف وهما : ذلك الإنسان العادي ، شجرة محمد علي الذي يمثل نموذجا حيا لكل أبناء جيله ، بنمط تفكيره ، وانعكاس الأحداث التي تجري في المجتمع على حياته وواقعه وآماله وطموحاته ، وعلاقاته بالناس ، سواء كـانوا قريبين منه كاصدقائه الثلاثة حسنين وماجد وعبدالسلام ، أو كانوا بعيدين عنه ، ولكن تربطه بهم صلة التعامل اليومي العادي ، مثل عبده الفكهاني والمقدس يحيى اللذين يعكسان الخلل الذي أحدثه الانفتاح في المجتمع ، وبداية صعود بعض أبناء الطبقة الشعبية وتحولهم إلى أصحاب ملايين جـدد ، يلعبون بمقـدرات الناس والمجتمع ، ويصبح كل شيء في أيديهم وسيلة من وسائل الكسب غير المشروع الذي لا تحدّه حدود . أما المحور الثاني فيتمثل في اختيار نموذج من نماذج تزييف الأشياء ، وهو تجميع العمال في بعض المناسبات القومية التي يظهر فيها الرئيس للهتاف باسمه ، مقابل بعض النقود التي توزع

عليهم حتى تدفعهم دفعا للتسابق في هذا الموضوع . ومن خلال واقع شجرة محمد علي ، وموقعه في هذا المحور الثاني ، يصل المؤلف إلى هدفه في السخرية من كل هذه الأوضاع الزائفة التي لم يجن منها الناس إلا الأزمات ، مرحلة بعد مرحلة وجيلا بعد جيل .

يعمل شجرة محمد علي موظفا في مصنع بناء السفن البحرية بالاسكندرية ، ولأن هذا المصنع من شركات القطاع العام التابع للدولة ، فإن إدارة المصنع ترى من واجبها أن تشارك في الترحيب بقدوم الرئيس (جرت كل الأحداث في عهد الرئيس الراحل أنور السادات) ، سواء كان وحده أو معه ضيف مثل الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون . وكان من حظ شجرة محمد علي أنه اختير لقيادة هذه المهمة ، فكان يختار العمال ويخرج بهم - مع السائق طبعا ومشرف أومشرفين آخرين - في حافلة أو حافلتين أو ثلاث ، حسب أهمية المناسبة ، من أجل المشاركة في لقاء الرئيس والترحيب به . وقد أتقن شجرة هذه اللعبة ، فكان يذهب أحيانا بالعمال ويقومون بالواجب ، ولكنه في أحيان أخرى كان يتوقف بالحافلات في مكان ما ، ثم يعود إلى المصنع بالعمال ، وقد بدا أنهم قاموا بالمهمة خير قيام ، ثم إنه أتقن فنا آخر ، هو أن يختلس من المبلغ المدفوع له ليوزعه على العمال قدرا لا بأس به يصلح به شأنه ، ويواجه به بعض الظروف السيئة التي تحيط بأمثاله من الموظفين « الغلابة » ، وبالطبع لا ينسى أن يقدم حصة - ولو قليلة - من المبلغ للسائق ولمن معه من المشرفين الأخرين ، حتى يشتري سكوتهم . ثم إنه أيضا أتقن اللعبة من جانبها الآخر ، المتصل بالرغبة في تحقيقها مهما كانت الظروف والملابسات ، ولذلك عندما تقاعست الشركة عن إخراج العمال في إحدي المناسبات كتب رسالة إلى رئيس الجمهورية قال فيها (الرواية ص٢٥) :

سيدي رئيس الجمهورية بطل العبور والنصر

بعد التحية

« نحيط فخامتكم علماً بأن عمال مصنع بناء السفن البحرية بالاسكندرية أبدوا رغبة حماسية في السفر إلى القاهرة للاحتفال معكم بعيد العمال ، لكن رئيس مجلس الإدارة رفض ، وقال : إن ذلك سيعطل الإنتاج . أي إنتاج يمنعنا عن التعبير عن حبنا لكم »

(عامل صغير من أبناء الشركة)

وكل ما فعلته رئاسة الجمهورية أنها حولت الخطاب إلى الشركة وعليه تأشيرة تقول : « تلقينا هذه الرسالة» . وكانت هذه التأشيرة المبهمة كفيلة بأن تزلزل المسئولين في الشركة ، فقرروا سفر العمال على الفور ، ورُشح شجرة محمد علي - كالعادة - للقيام على هذه المهمة .

هذا هو الخط الأساسي للرواية ، ولو أنه مضى على هذا النحو لجاء تقليديا سهلا بسيطا ، لكن المؤلف من الكتاب الشباب ، يحمل خلف ظهره ميراثا طويلا من عمليات التطور والتأصيل والتجديد ، سواء في الرواية العربية أو الأجنبية ، ومن ثم أبى إلاّ أن تكون روايته هذه نموذجا جيدا في دقة البناء ، وحسن التنظيم

والتبويب ، وتوزيع المشاهد على كل فصل توزيعا دقيقا ، بحيث يؤدي كل منها الوظيفة المنوطة به في سياق البناء الكلي للرواية . ولذلك سوف نتتابع الفصول العشرة ، ونجد كل فصل منها مختلفا عن الفصول الأخرى في طريقة العرض ، وفي الأسلوب ، وفي التقنيات المستخدمة .

تنوع المضامين وكثرة التقنيات

يبدأ كل فصل ـ كما ذكرنا من قبل ـ بحكاية قصيرة ، تجمع بين الواقعية وبين نمط آخر من أنماط القصة . وفي الفصل الأول يضعنا الكاتب وجها لوجه إزاء الموضوع الذي يمثل الخيط الرئيسي في روايته ، فيحكي لنا خروج الحافلة « الأتوبيس » بالعمال (٦٠ عاملا) وهو على رأسهم ، وإن كان لا يدري في هذه المرة الأولى لماذا اختاروه هو بالتحديد . وكانت المناسبة هي حضور الرئيس وبصحبته الرئيس الأمريكي نيكسون إلى الاسكندرية . وكان المبلغ المخصص لكل عامل نصف جنيه ، يأخذه بعد انتهاء الاستقبال ، لكنه اتفق معهم أن ينصرفوا قبل الاستقبال على أن يأخذ كل منهم ربع الجنيه فقط ، ثم أعطى للسائق ثلاثة جنيهات ، ويبقى له اثنا عشر جنيها ، صرف ستة منها في مطعم وهو يحلم محدثا نفسه (هل سيتكرر إخراج الشركات للعمال لتحية الرئيس ؟ يزور الاسكندرية في السادس والعشرين من يوليو ، ينقل نشاطه إليها غالبا في الصيف الآن . . . إلخ) « الرواية ص١٤ » . وبعد أن قام بجولة في بعض الأماكن ركب سيارة أجرة وعاد إلى بيته البائس ، وأمه تقف متعبة على باب الحجرة تتأمله ، وهو يقول لنفسه : « لو يزور الرئيس الإسكندرية في عيد الأم » (ص١٦) .

ويجمع ابراهيم عبدالمجيد في هذا الفصل على الأخص حشدا كبيرا من تقنيات الحداثة ، فنجده يسقط ذاته على الأشياء والجمادات مثل قوله : « تنتهي فجأة هدأة شارع المكس واستكانة المباني التي على الجانبين » (ص٨) قوله : « لكن شارع السبعينات ـ كما مستكين للسيارات والمركبات التي ترمح و والدكاكين مفتوحة بلا ضجة أمامها » (ص٩ كما يُكثر من اللغة التصويرية (وهذا موض سنعود إليه بعد ذلك) ، كما يلجأ إلى ما يس حاليا في الأدب العالمي « استطيقا القبح » ، و اتجاه قريب من الطبيعة ، يهدف الى التع عن الواقع بلا مواربة ، وذلك مثل قوله « وترى رجلا يتبول واقفا ووجهه إلى جد المخازن ، ورجلا يتغوط ووجهه إلى الطريق » (ص٨) . ويستخدم توارد الخواطر ، وبذلك ينقل القارىء من مكان إلى مكان في خفة وانسياب ، فعندما أوقف الحافلة « الأتوبيس » في عرض أحد الشوارع لتوزيع الحصة النقديه على العمال وإنزالهم منها حكى لنا الراوي (والسرد على لسان البطل شجرة محمد علي ، أي الشخص الأول أو « الأنا السارد ») هذا المشهد كما يلي : « استجاب السائق لأمري ، فتوقف باسما ، ونزل العمال ضاحكين .

ولا أعتقد أن شرطي المرور الواقف عند نهاية الشارع اهتم بحافلة تسد التقاطع مع سوق الحقانية وتعطل عبورالمشاة وحركة « الترام » . أما أمي التي لابد أنها كانت في باحة البيت الصغير تلقى للدجاج بفتات النخالة المعجونة بالماء فلا أظن أن قلبها خفق ، أو صدرها انقبض ، وابنها صاحب الاسم الغريب يرتكب جريمة » (ص٩) . وقد نقلت هذه الفقرة كاملة لأدلل على شيء مهم ، وهو أن ابراهيم عبدالمجيد ، في هذه الرواية ، نجح نجاحا باهرا في أن يقتصد في لغة القص ، وأن يفـ إليك بعين نافذة ورؤية نقدية فاحصة ما يدور في الواقع المصري وفي الشارع المصري . فهـ الفقرة القصيرة تحمل الكثير من الدلالات ـ واقع يعيشه الناس ، ويحسون ـ ولا يستطيعون التعبير عنه ، ومن ذلك ـ

..ل هذه الفقرة ـ الاستهانة بكل شيء صغيرا ..ان أو كبيرا (وهذا على أي حال نوع من الاحتجاج الصامت) ، وكسر القواعد ، والاعتداء على حرية « الغير » دون أدنى اهتمام بردود فعله ، ثم اللامبالاة الكاملة والتسيب ، وهذه ظواهر مرضية يشكو منها الناس جميعا ، بينما هم أنفسهم يساعدون على إيجادها .

ازدواج الشخصية

وفي الفصل الثاني نجد العمال يخرجون أيضا لمهمة استقبال أخرى ، لكن عددهم هذه المرة بلغ مائتي عامل ، ومكافأة كل منهم زادت فصارت جنيها ونصف جنيه ، وقد أعطى لكل عامل جنيها واحدا ، وأمسك الباقي لنفسه ، بعد أن أعطى حصة السائقين اللذين خرجا معه . وفي هذا الفصل يعرض لنا « الأنا السارد » عملية « نَصْب » واحتيال تعرض لها مع سماسرة الشقق والمباني مما يحدث كل يوم ، وبطلاها هنا اثنان من الذين بدءوا طريق الإثراء الفاحش ، وأصبحوا فيما بعد من كبار الطفيليين ، وهما المقدس يحيى وعبده الفكهاني . وفي هذا الفصل أيضا نقابل الخطاب الذي أرسله سرا لرئاسة الجمهورية ـ كما أسلفنا ـ والذي على إثره تقرر قيام العمال برحلة إلى القاهرة وحلوان للمشاركة في الترحيب بعيد العمال . وفي هذه المرة صُرف لكل عامل أربعة جنيهات ، اقتطع منها شجرة جنيهين لنفسه .

وفي الفصل الثالث يستخدم المؤلف تقنية « الفلاش باك » ، فيعود بنا إلى الوراء ، كي يحكي لنا شجرة محمد علي عن أصله وكيف سمي بهذا الاسم (انظر ص٣٣) ، وكيف كانت طفولته وصباه ، والمسكن البائس الذي يعيشون فيه ، وحلمهم الدائم بالخروج منه ، ثم يختم هذا الفصل بالحديث عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وما تركت من حسرة وألم . وأخيرا يعود إلى الواقع أو الحاضر الذي هو فيه . كما لا ينسى أن يحدثنا عن الاستغلال الذي تعرض له من المقدس يحيى وعبده الفكهاني .

ويبدأ الفصل الرابع بعملية تصوير « بانورامي » لمدينة الاسكندرية ، ثم يربط بين عامي ٦٧ و ١٩٧٦ ، الأول عام النكسة . والثاني بداية « مشوار » السلام مع العدو الاسرائيلي ، ثم يربط بين هذين العامين وبين موت كل من أبيه وأمه . وفي هذا يقول : « كرهت العام السادس والسبعين ، هذا الذي اتصل بالعام السابع والستين ، واجتمع معه عليّ . رقمان خسيسان تبادلا موقعيهما فأخذا أبي وأمي . بدا لي موت أمي عقابا سماويا ، لكن ماذا كنت أفعل ؟ . رمت خطوة إلى الأمام ، هل فينا من لم يرم ذلك ؟ » (ص٤٠) . وبذلك يكون قد ربط بين الخاص والعام ، وجعل منهما همًّا واحدا لا يتجزأ . ثم تكون الصفحات الباقية من هذا الفصل عن انتفاضة عام ١٩٧٧ الذي أطلق عليها الرئيس في ذلك الحين « انتفاضة الحرامية » ، وزعيمها في الرواية هو سيد برشو (لاحظ دلالة الاسم) ، وقد اندمج شجرة محمد علي في هذه المظاهرات ، وقام بالدور الذي قام به أمثاله من أولاد البلد خير قيام .

أما الفصل الخامس فيقدم لنا نموذجا طيبا لأدب الواقعية السحرية (وهذه نقطة سوف نفصلها فيما بعد) . ويبدأ الفصل بحقيقة شجرة محمد علي ، وازدواج شخصيته ، ثم يتطرق بشكل عابر إلى الرحلة للقدس ، ثم يأتي الكلام عن بيت الياسمين ، وهنا نصبح أمام الواقعية السحريه بكل سماتها ، ويختم الفصل بجملة تعيدنا مرة أخرى إلى رحلة القدس تقول :

« لكني فكرت في استقبال العائد من القدس بعد أيام » . وانظر كيف يشجب الرحلة إلى القدس ، لكنه في الوقت نفسه يتأهب لقيادة العمال والتوجه إلى القاهرة لاستقبال العائد من

القدس . فهنا نجد ازدواجا في الشخصية ، لكنه موجود على المستوى الظاهري فقط ، أما المستوى العميق فينطوي على دلالات في غاية الأهمية ، هي السخرية من الأوضاع ، واستغلالها لكسب بعض المغانم الشخصية التي تُحسِّن من وضعه البائس . إنها إذن حالة من حالات المقاومة الصامتة . وأزعم أن شعب مصر له في ذلك باع طويل . وميزة ابراهيم عبدالمجيد أنه استطاع أن يجسد هذه القيمة العظمى في شكلها « الكوميدي » الساخر . وفي هذا الفصل يجمع المؤلف بين الأضداد ، لإحداث نوع من المفارقة العجيبة . يقول عن حي الفراعنة الهاديء : « هل يعرف أحد أنه في هذا الحي الجميل تقع مباحث أمن الدولة ؟ أشجار مهذبة تلمع أوراقها الرصاصية . أشجار عارية . أشجار سامقة الارتفاع . شوارع مغسولة بالمطر وعمال البلدية ، بيوت محاطة بالأسيجة والحدائق » (ص٥١) .

والفصل السادس عن الأوضاع في الشركة ، ورحلات الاستقبال نفسها ، وتغيير المدير ، وأوضاع البلد بعامة ، وسفر الناس وبخاصة الشباب ، إلى أقطار النفط العربية ، والسماسرة والطفيليين الجدد . أي أن هذا الفصل بمثابة توقيع مأسوي « كوميدي » على الأوضاع بشكل عام . ولو رأينا كيف يبدأ هذا الفصل بحكاية قصيرة تجمع بين الواقع وبين النزعة السلفية ، لأدركنا مدى نجاح المؤلف في التعبير عن التخلخل واختلاط الحابل بالنابل .

شخصيات اخرى :

ولنقفز إلى الفصل التاسع الذي يبدأ بتصوير بعض صور البؤس ، ويتناول الأوضاع مثل تسابق الناس على السفر إلى الخارج ، وصنوف المعاناة التى تتعرض لها الطبقات الفقيرة ، ثم تأملات فى أحوال الدنيا ، وحديث عن الانتخابات ، يتخلله حديث عن وحدته وعزلته ورغبته الحارة فى الزواج ، وأخيرا يفوز انتخابات مجلس النقابة فى الشركة ، ويصبح نا لهم . ويلاحظ أن جرعة التقنيات المستحد أخذت تقل شيئا فشيئا في هذه الفصول الأخيرة ولجأ المؤلف إلى الواقعية القائمة أساساً على الس على لسان الشخص الأول (الأنا) .

وطن صغير

والفصل الأخير يحدثنا عن حسنين ورغبته ؛ تزويج صديقه شجرة ، بعد أن تزوج هـ استقرت حياته نوعا ما ، كما يتحدث شجرة عر مشاكل مسئولية النقابة في الشركة ، ثم تُثمِ مساعي حسنين وزوجته ، ويعثر شجرة على شريكة حياته ، ويحس أن الزواج هو وطنه وملاذه الأول . ويكتب له صديقه عبدالسلام من العراق فيفكر أن يكتب إليه : « لو مت يا عبدالسلام لن أذوق طعم الراحة . موصول أنا بك بحبل سُرّي . الناس تسافر لتجميع الأموال ، وتعود حقا ، ولكن لتتزوج وتستقر ! كدت تقولها يا عبدالسلام . يصبح للناس وطن ولو صغير . أجل الزواج هو الوطن ، والناس هي التي تصنع الأوطان . وأنا بعد أسابيع سأتزوج ويصبح لي وطني . آه يا عبدالسلام كم أنا كذاب . جعلتني أتساءل الآن عما مضى من عمري . كيف كنت منفيا ؟ أين كان الوطن من قبل ؟ ليس الزواج وطنا وحده أبدا . . لن أكتب اليك يا صديقي » (ص١٣١) . وكما نلاحظ في هذه الفقرة فإن المؤلف نجح في تنويع طرق السرد أيضا ، فهو ينتقل من « الأنا السارد » أو الشخص الأول إلى أسلوب الخطاب في سهولة ويسر ، والطريقتان تساعدان على حدوث ألفة بين القاريء وبين المؤلف ، حتى ليتوهم القاريء أنه مقصود بالخطاب في كثير من الأحيان . وهذا يعد واحداً من أهم الأهداف التي يقصد إليها مؤلفو الروايات المحدثون□

الكلمات المتقاطعة

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
		■								١
					■					٢
	■			■						٣
■							■			٤
		■								٥
				■		■		■		٦
		■								٧
			■							٨
					■				■	٩
■	■				■					١٠

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .

كلمات أفقية

١ ـ جزيرة ايطالية فى حر الأبيض المتوسط ، نما وكبر .
٢ ـ احدى جزر الأرخبيل اليوناني ، جزيرة مستقلة بين صقلية وليبيا .
٣ ـ دولة صناعية تتألف من مجموعة جزر ، طيور برمائية .
٤ ـ حل مقلوبة ، جزر في شمال غرب افريقيا تابعة للبرتغال .
٥ ـ دولة عربية تتألف من مجموعة جزر ، دمَّر .
٦ ـ وعاء يدق فيه الدواء ونحوه .
٧ ـ جزيرة فرنسية في المتوسط ، تجدها في مال .
٨ ـ الرنين مبعثرة ، أعتق .
٩ ـ جماعة الجند ، يميل الى .
١٠ ـ عذراء ، من ثمار النخيل .

كلمات عمودية

١ ـ حرر مستقلة في المحيط الهندي عاصمنها كولومبو
٢ ـ راحل في صيغة الجمع ، دخلت .
٣ ـ بدد متفرّقة ، ثالث جزر العالم جزء منها تابع لاندونيسيا .
٤ ـ يعفو أو يغفر ، جزيرة في المحيط الهندى نفى إليها بعض أبطال العروبة .
٥ ـ ذوو طبيعة نارية .
٦ ـ بحر ، يد مقلوبة ، جزيرة يونانية في المتوسط .
٧ ـ استفسار عن الحاجة الى التبيين ، قَدَّر وَقضى .
٨ ـ رطل معكوسة ، غير بارد .
٩ ـ شاطيء ، جزر في الأطلسي تقترن باختفاء السفن مقلوبة .
١٠ ـ ظهر ، جزر تابعة لاسبانيا تقع في الشمال الغربي من القارة الافريقية .

● حل مسابقة العدد الماضى ـ مارس ١٩٨٩ م

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
■	ي	ب	ي	س	ي	س	م	ل	ا	١
ا	ن	ر	■	ه	ط	■	ن	ي	ل	٢
ل	ب	■	ب	و	ن	ا	د	ل	ا	٣
ت	و	ى	ر	ب	■	ل	و	ي	م	٤
ا	ع	■	د	■	ا	ع	ب	■	ر	٥
ي	■	ل	ى	ن	ل	ا	■	ف	و	٦
م	ه	و	■	ي	م	ن	ه	ر	ن	٧
ر	■	ل	و	د	ن	ج	ل	ا	■	٨
■	ي	ب	و	ن	ح	■	ث	ت	ه	٩
ي	ر	ي	ب	م	ر	ل	ا	■	ن	١٠

□ صفحة لغوية
□ هكذا غنى الآباء

بقلم : الدكتور حسن عباس

الأ

كنا قد أشرنا إلى كتاب أبي هلال العسكري « الفروق في اللغة » ، وهو كتاب يعمد إلى الألفاظ المتشابهة أو المترادفة ، فيقف على ما بين تلك الألفاظ من فرق في المعنى ـ وإن دق ذلك الفرق وخفي ـ ويشير إليه إشارة لا تسرف في الإطالة ، ولا تقعد دون الوفاء بالمعنى ، فهو يقول في المنهج الذي التزمه في تأليف الكتاب :

« فعملت كتابي هذا مشتملا على ما تقع الكفاية به من غير إطالة ولا تقصير ، وجعلت كلامي فيه على ما يعرض منه في كتاب الله وما يجري في ألفاظ الفقهاء والمتكلمين وسائر محاورات الناس . . » .

ولقد وجدنا المؤلف يقف على فروق في المعنى دقيقة لألفاظ يَعُمُّ تداولها دون أن يفطن كثير من الناس إلى تلك الفروق ، ومن ذلك مثلا : الفرق بين الغضب والسخط ، وهما لفظان كثيرا ما يدوران على ألسِنَةِ الناس ، وقد توضع كلمة منهما مكان الأخرى دون الالتفات إلى القرب في المعنى بينهما أو البعد .

والفرق بين الغضب والسخط ، أن الغضب يكون من الصغير على الكبير ، ومن الكبير على الصغير ، والسخط لا يكون إلّا من الكبير على الصغير ، يقال سخط الأمير على الحاجب ، ولا يقال سخط الحاجب على الأمير .

والفرق بين الغضب والاشتياط ، أن الاشتياط خفة تلحق الإنسان عند الغضب ، وهو في الغضب كالطرب في الفرح ، والاشتياط لا يستعمل إلّا في الغضب ، ويجوز أن يقال الاشتياط سرعة الغضب . قال الأصمعي : يقال ناقة مشياط ، إذا كانت سريعة السمن ، ويقال اشتاط الرجل إذا التهب من الغضب ، كأن الغضب قد طار فيه !

والفرق بين الاختراع والابتداع ، أن الابتداع إيجاد ما لم يسبق إلى مثله ، يقال أبدع فلان إذا أتى بالشيء الغريب ، وأبدعه الله فهو مبدع وبديع ، أما الاختراع فهو ايجاد الشيء عن غير سبب ، فكأن المخترع قد سهل له الفعل ، فأوجده من غير سبب يتوصل به إليه .

والفرق بين النظر والرؤية ، أن النظر طلب الهدى ، والشاهد قولهم : نظرت ، فلم أر شيئا . وقال علي بن عيسى : النظر طلب ظهور

لشيء ، والناظر : الطالب لظهور الشيء . بإدراكه من جهة حاسة بصره ، أو غيرها من حواسه ، ويكون الناظر إلى لين هذا الثوب من لين غيره . والنظر بالقلب من جهة التفكير . والانتظار : التوقف لطلب وقت الشيء الذي يصلح فيه .

قال : والنظر أيضا هو الفكر و تأمل لأحوال الأشياء ، ألا ترى أن الناظر على هذا الوجه لا بد أن يكون مفكرا ، والمفكر على هذا الوجه يسمى ناظرا وهو معنى غير الناظر وغير المضطر فيه ألا ترى أن الإنسان يفصل بين كونه ناظرا وكونه غير ناظر ؟ ولا يوصف القديم بالنظر لأن النظر لا يكون إلّا مع فقد العلم ، ومعلوم أنه لا يصلح النظر في الشيء ليعلم إلّا وهو مجهول . والنظر يشاهد بالعين ، فيفرق بين نظر الغضبان ونظر الراضي ، وأخرى فإنه لو طلب جماعة الهلال ليعلم من رآه منهم ممن لم يره مع أنهم جميعا ناظرون ، فصح بهذا أن النظر تقليب العين حيال مكان المرئى طلبا لرؤيته .

والرؤية هي إدراك الرائي ، ولما كان الله تعالى يرى الأشياء من حيث لا يطلب رؤيتها صح أنه لا يوصف بالنظر .

والعقل هو اللبّ ، وقد ورد في خطاب أهل العقول في القرآن الكريم قوله تعالى « . . يا أولي الألباب » أي يا أهل العقل ، وعلى الرغم من ذلك فهناك فرق بين العقل واللبّ ، وهو أن قولنا اللبّ يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به ، والعقل يفيد أنه يحصر معلومات الموصوف به ، فهو مُفارق له من هذا الوجه ، ولباب الشيء ولبه : خالصه .

أمّا الفرق بين الفطنة والذكاء ، فهو أن الذكاء تمام الفطنة من قولك ذكت النار إذا تم اشتعالها ، وسمِّيت الشمس ذكاء لتمام نورها ، ففي الذكاء معنى زائد على الفطنة .

والفرق بين السمع والإصغاء ، أن السمع هو إدراك المسموع ، والسمع أيضا اسم الآلة التي يسمع بها ، والإصغاء هو طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه ، يقال صغا يصغو إذا مال وأصغى غيره . وفي القرآن (قد صغت قلوبكما) أي مالت ، وصغوك مع فلان : أي ميلك .

والفرق بين التذكير والتنبيه ، أن قولك ذكر الشيء يقتضي أنه كان عالما به ، ثم نسيه فرده إلى ذكره بعض الأسباب . وذلك أن الذكر هو العلم حدث بعد النسيان ، ويجوز أن ينبه الرجل على شيء لم يعرفه قط ، ولا يجوز أن يذكره ما لم يعلمه قط .

والفرق بين المعروف والمشهور ، أن المشهور هو المعروف عند الجماعة الكبيرة ، والمعروف معروف وإن عرفه واحد . يقال هذا معروف عند زيد ولا يقال مشهور عند زيد ، ولكن مشهور عند القوم .

والفرق بين النسيان والسهو ، أن النسيان إنما يكون عما كان ، والسهو يكون عمّا لم يكن ، تقول نسيت ما عرفته ولا يقال سهوت عمّا عرفته ، وإنما تقول سهوت عن السجود في الصلاة ، فتجعل السهو بدلا عن السجود الذي لم يكن ، والسهو والمسهو عنه يتعاقبان . وفرق آخر وهو أن الشيء الواحد محال أن يسهى عنه في وقت ولا يسهى عنه في وقت آخر ، وإنما يسهى في وقت آخر عن مثله ، ويجوز أن ينسى الشيء الواحد في وقت ويذكره في وقت آخر .

والفرق بين التصور والتخيل ، أن التصور تخيل لا يثبت على حال ، وإذا ثبت على حال لم يكن تخيلا ، فإذا تصور الشيء في الوقت الأول ولم يتصور في الوقت الثاني ، قيل إنه تخيل ، وقيل التخيل تصور الشيء على بعض أوصافه دون بعض فلهذا لا يتحقق ، والتخيل والتوهم ينافيان العلم كما أن الظن والشك ينافيانه .

والفرق بين الحماقة والرقاعة ، أن الرقاعة على ما قال الجاحظ حمق مع رفعة وعلو رتبة ، ولا يقال للأحمق إذا كان وضيعا رقيعا وإنما يقال ذلك للأحمق إذا كان سيدا أو رئيسا أو ذا مال وجاه . □

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الآباء

أبوصخر الهذلي قائل القصيدة التي نقتطف بعضا من أبياتها هو عبدالله بن سلم السهمي من بني هذيل. وهو شاعر إسلامي ولد ومات في الدولة الأموية، وقد تعرب من حلفائها، استقدمه عبدالملك بن مروان الذي كان قد تولى الخلافة في رمضان من سنة ٦٥ للهجرة، فحج، ثم طلب عبدالله بن سلم للمثول بين يديه، فلما جاءه أثنى على شخصه، وأكد له أنه لم ينس مودته ووقوفه بجوار بني مروان، وفي ذلك اللقاء خلع عليه لقب « أبي صخر » فعرف به، ونسي الناس اسمه.

كان أبوصخر قد تعرض للسجن في واقعة تذكرها كتب الأدب، ولبث فيه عاما أو بعض عام، وذلك بعد اللقاء العاصف الذي تم بينه وبين عبدالله بن الزبير حيث جاءه أبوصخر يطلب منه عطاءه، فأنكر ابن الزبير عليه حقه، ورده ردا قبيحا قائلا: عليك ببني أمية، فخذ عطاءك منهم، فأثار هذا القول أباصخر، فصدر عنه قول فيه مدح لبني أمية، وتعريض بابن الزبير، فغضب منه ابن الزبير وأودعه السجن، ولم يشفع له إلا قوم من بني هذيل وآخرون من قريش، فأطلق سراحه.

يجمع شعر أبي صخر الهذلي بين فصاحة الألفاظ، وسهولة التركيب، وهو إلى جانب ذلك واضح المعاني، صادق العاطفة، أما فيما يتصل بهذه القصيدة فقد ورد في الأغاني قول أبي عمرو الشيباني الذي جاء فيه:

«كان لأبي صخر ابن يقال له داوود، ثم لم يكن له ولد غيره، فمات، فجزع عليه جزعا شديدا حتى خولط، فقال يرثيه.» وقد وردت هذه القصيدة في كتاب الأمالي لأبي علي القالي منقولة عن عدد من الرواة، وكل رواية تزيد فيها بضعة أبيات أو تنقص:

تعزيتُ عن ذكر الصّبا والحبائب ... وأصبحت عزهيّ للصبّا كالمُجانب[1]

وأصبحت تلحو حين رعت محمدا ... وأصحابهُ أنْ يُعجبوا بالكواعب[2]

ولو أنهم قالوا لقد كنت مرّة ... عرفت ولمْ أُنكر جواب المُجاوب[3]

تصابيتُ حتى النّبل منهن رعبتي ... رواني في يوم من اللّهو هاضب[4]

فأعرضن لما شبت عني تعرما ... وهل لي ذنب في الليالي الذّواهب[5]

فإن أك سهمي انعداة سرينه ... فقدْ بتّ من سذاتهنّ مساريّ[6]

وكم من أخ أو عم صدق رزئته — أو ابن أخ سمح كريم الضرائب
ومن صاحب لي وابن عم تتابعوا — ومن ذا من الأحياء ليس بذاهب
بحور إذا اشتد الشتاء ملاوث — وفتيان هيجا كالجمال المصاعب
متى يلتمس مولاهم الحلم عندهم — يجد فصل حلم عندهم غير عازب
أنابوا فأعروا حيث كانوا وعطلوا — مع البيض كالغزلان مشي النجائب
فلا نائبات الدهر يرجعن هالكا — إلى أهله والدهر جم النوائب
ولا مقترا يوما تركن لفقره — فيخفى ولا صانعن أهل الرغائب
ولا باسلا ذا ثروة هبن قومه — ولو زحفوا من دونه بالكتائب
فيغدو الفتى والموت تحت ردائه — ولابد من قدر من الله واجب
يقول غدا ألقى الذي اليوم فاتني — ويأمل أن يلقى سرور العجائب
وينسى الذي يمضي وفي كل مرة — يسدى له نسج المنايا الطوالب
فلا تغتبط يوما بدنيا وإن صفت — ولا تأمنن الدهر صرف العواقب
وقد هاجني طيف لداود بعدما — دنت فاستقلت تاليات الكواكب
فقلت أغمت مقلتي عماية — لبثت وقد فارقتي غير عائب[7]
وماي ذهول الناس من غير سلوة — رواح من السقم الذي هو غالبي
وعندك لو تحيي صداك فتنتفي — شفاء لما غادرت يوم التناصب
فهل لك طب نافعي من علاقة — تهيمني بين الحشا والترائب
تشكيتها إذ صدع الدهر شعبنا — فأمست قد عيت في الرقى والطبائب
ولولا يقين أنما الموت عزمة — من الله حتى يبعثوا للمحاسب
لقلت له فيها أنا برمسه — هل انت غدا عاد معي فمصاحبي
فماذا ترى في غائب لا يغبني — فلست بآسيه وليس بآئب
فأسقى صدى داوود دان غمامه — هزيم يسح الماء من كل جانب
ليروى صدى داوود واللحد دونه — وليس صدى تحت العداء بشارب[8]
ولكن يقر العين والنفس أن ترى — بمعقدته فضلات زرق دواعب[9]

على الرغم من جلال الموقف وعظم المصاب . فقد أبى الشاعر إلا أن يلتزم بما لا يلزم من تقاليد الشعر العربي وكانت تلك التقاليد تقضي بأن يمهد الشاعر لموضوعه تمهيدا يطول أو يقصر .

أما في الجاهلية فقد كانت تقتضي الوقوف على الأطلال ، ولكن الشعر في صدر الاسلام ، وفي العصور اللاحقة تخفف من هذا الالتزام ، وإن ظل على وفائه لبعض تلك التقاليد كما نرى في قصيدة أبي صخر الهذلي . فقد رزيء بفقد ابنه . وقال في رثائه شعرا ينم عن حزن صادق عميق .

---

(١) الفرهي : الرجل الذي لا يحب اللهو ولا النساء (٢) تلحى : تلوم ، رعب : رحف
(٣) قالوا : لقد كنت تحب النساء فكيف تهاب ؟ (٤) تصابيت : أصبت صبابة
(٥) تعرما : عرس على ذلك (٦) مارن : حاجباي
(٧) أغمت : غطت ، عماية : ضمة من الدمع (٨) العداء : الصخر الذي يوضع على القبر
(٩) معقدته : مكانه ، الدواعب : السيول ... وتدعب ... الماء المصاب

ولكنه ـ على عظم مصابه ـ لم يطرق موضوعه على نحو مباشر ، بل تكلف القول في موضوعات أخرى قبل بلوغ غايته في رثاء ابنه .

يستهل القصيدة بما يأخذه عليه أصحابه من لومه إياهم لطلبهم اللذة ، وحبهم النساء ، ويقولون له : كنت محبا للنساء ، شغوفا بهن ، فما بالك تنهانا عن صحبتهن . ويذكره هذا القول بما كان له من شأن وصحبة ، فيصف محاسن النساء ، وما كان يحب منهن ، ويذكر اقباله عليهن واحتفاءهن به إلى أن ظهرت بوادر الشيب فأعرضن عنه ، ولكنه يقرر مطمئنا أنه قد نال منهن مأربه ، وفاز باللذة !

ويتلطف الشاعر في موضوعه ، فيذكر الذاهبين الراحلين من الإخوان والأعمام والأهل جميعا ، فيجد في تكرار الظاهرة ـ ظاهرة الموت بعد حياة طويلة حافلة ، أو قصيرة مبتسرة ـ بعض عزاء ، فهو يدرك أن ليس في الأحياء من هو خالد ، وكان في من رحل فتيان أشداء ، لا يعوزهم حلم ، ولا تنقصهم شجاعة ولكنهم فارقوا ، على الرغم من كل ما اتصفوا به من خلال . ذلك هو شأن نائبات الدهر فهي تأخذ الهالكين ولا ترجعهم .

إنها لا تترك أحدا ، فلا هي تبقي مقترا لفقره ، ولا تصانع أهل الرغائب طلاب الحياة . هذا فضلا عن سخريتها من الناس وزرايتها بهم ، فالمرء يعلل نفسه بأن يلقى غدا ما كان قد فاته اليوم من سرور ، ولا يدري أنه يحمل الموت تحت ردائه قدرا مقضيا ينشب به أظفاره عند دنو الأجل ! ويدرك الفتى حكمة كانت تغيب عنه في خضم آماله ومسراته ، الا وهي : لا أمن ولا أمان في الدنيا ، فإن أبدت صفوا فلا يلبث أن يعقب صفوها غدر الدهر

تلك هي المعاني التي يستهل بها الشاعر حديث الشوق لداوود ، وعلى الرغم مما أبداه من فهم لحكمة العيش حيث لايدوم صفو الحياة لأحد ، فقد هاجه طيف داوود ، وعادت اليه الذكرى حياة ناعمة دافئة ، حتى قفزت دموع حارة ، ووقفت بالمقلتين ، فلا هي ظلت مستقرة في المحاجر ولا سقطت لتطهر النفس من بعض أدرانها ، بل لبثت في موضعها هذا لكي يبدو الوجود معها غمامة . . . فهو كذلك منذ أن رحل داوود . يقول أبو صخر : لقد ذهلت ذهول اليائس ، غير أنني لم أبرأ من السقم ، فليس من شأن الذهول أن يذهب بالداء . وما شفائي إلا أن يحا صداك فنلتقي ، وهيهات ! فإن كنت لا تعود فهل لك أن تدلني على دواء نافع ؟

الموت إرادة إلهية ، ولن يبعث الأموات إلى حياة أخرى إلا يوم الحساب ، ولولا يقيني هذا لقلت لداوود كلما زرت قبره : ألن تأتي معي غدا فتصاحبني عندما أعود ؟! هذا هو شأني مع الغائب الذي لايغيب ، فلا أنا أقوى على نسيانه ، ولا هو عائد ! اذن فليهطل المطر ـ رمز البعث والحياة والمعادل الموضوعي للفناء ـ لعله يروي ظمأ داوود ، وإن كنت على يقين من أن الظامىء الذي يرقد تحت الثرى لن يشرب أبدا ، ولكن يسرّ العين أن ترى الماء الصافي يسيل حيث يثوي الموتى .

على هذا النحو نرى الشاعر يغالب حزنه فيغلبه الحزن : يتأسى لائذا بالحكمة متجملا بالصبر فيما هو يحاول التماس العزاء في حقيقة أن الموت قدر يحمله الفتى تحت ردائه ، فإذا ما تذكر داوود هاجته الذكرى وبعثت الحزن حيا ، حينئذ يطرح الحكمة ويسلم قياده إلى حزن عميق . وقد بلغ الذروة في تعبيره عن ألمه الدفين حين تساءل :

فماذا ترى في غائب لا يغبني
فلست بناسيه وليس بآئب

وهذه القصيدة واحدة من قصائد أخرى يتوجع فيها أبوصخر لفقد داوود ، ولكنها أفضل تلك القصائد وأرقها وأصدقها عاطفة . □

تأليف : أمين المعلوف*

مراجعة وعرض : الدكتور حسين عبدالله العمري

« أعاد الكاتب والصحفي المعروف أمين المعلوف إلى الحياة الأدبية والعلمية سيرة حياة الرحالة والعالم الجغرافي العربي الحسن الوزان الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي . في رواية توثيقية شيقة باللغة الفرنسية ، معنونة بالاسم الذي اشتهر به الوزان بعد أسره وإقامته في روما ، وهو (ليو الأفريقي) وقد لقيت الرواية ترحيباً واهتماماً في الأوساط الأدبية منذ نشرها قبل عامين ، كما لاقت اهتماماً آخر بعد أن قام المستعرب البريطاني « بيتر سلغليت » بترجمتها إلى الانجليزية ونشرها في لندن العام الماضي . فمن هو ليو الأفريقي ؟ وما صلة العمل الابداعي الجديد للمعلوف بسيرة حياته الدراسية الحقيقية ؟ » .

* ترجم الكتاب من الفرنسية إلى الانكليزية البروفيسور بيتر سلغليت .

ولد الحسن بن محمد الوزّان في (غرناطة)، واختلف المؤرخون في سنة مولده، ورجح المهتمون بذلك أن مولده كان حوالي (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات، ولابد أن أسرته العربية التي كانت تعمل في التجارة، وتتعاطى العمل الدبلوماسي، المنحدرة في الأصل من قبيلة بني زيات الزناتية المغربية، قد أحست كغيرها بالخطر الاسباني الداهم على آخر معقل انحصر فيه سلطان العرب في مملكة غرناطة (١٢٣٦ - ١٤٩٣م)، فانتقلت الأسرة إلى (فاس) التي كانت مزدهرة في مطلع حكم (بني وطاس) الذين استعادوها إلى حكمهم في قسم من المغرب الذي كان يعاني نفسه من صراع الأمراء وتنافسهم.

وفي مدينة فاس نشأ الحسن الوزان، وتتلمذ على علماء ومشايخ (القرويين) المشهورين، وتخرج في علوم اللغة وآدابها، والفقه، والتفسير والحديث، والمنطق، وسائر المعارف العربية والإسلامية المعروفة، وأظهر نباهة، ونبوغاً مبكراً، فقرض الشعر صغيراً، وجادل العلماء والفقهاء وناظرهم، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، ونال الإعجاب وحصل على الشهرة.

السفير الرحالة

قام الحسن الوزان في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م بمهمة سياسية إلى جنوب المغرب، لعلها من أوائل المهام التي كلفه بها سلطان فاس، وذلك للتحالف مع إمارة السعديين الناشئة لمناهضة البرتغاليين المحتلين، وتوحيد الصف ضد المتآمرين المحليين معهم، وقد تردد بين مملكة فاس وهذه الإمارة غير مرّة لهذا الغرض. وبعد عامين أوفده السلطان الوطاسي مع عمه في سفارة إلى بلاد السودان، تباحث فيها مع ملك سنغاي «محمد أسكيا» الكبير الذي كان قد توسع حكمه واحتل تومبوكتو التي توغل فيها الوزان، فقام بزيارة الممالك الإسلامية والوثنية في وسط أفريقيا وغربيها.

وفي العام التالي (٩١٨هـ - ١٥١٣م) قام بمهمة سياسية إلى الأطلس الكبير، دامت سبعة أشهر، تباحث فيها مع القبائل الساكنة في جبال (دادس) وما حولها. ومن ناحية أخرى كانت إمارة السعديين في جنوب المغرب بزعامة محمد القائم بأمر الله قد توسعت، بعد مبايعة قبائل المنطقة لهذا الأمير، فامتد سلطانه حتى سفوح الأطلسي الغربية والشمالية، ومن جديد كلفه سلطان مملكة فاس محمد الوطاسي الاتصال بالأمير السعدي الذي سبق أن توطدت صداقته معه، فرحل إليه بعد أشهر قليلة من عودته سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٤م). وكان من نتائج زيارته الناجحة تأكيد الود والتعاون بين عاهلي المملكتين في الشمال والجنوب.

ويتضح الدور البارز المهم للحسن الوزان باختياره من قبل ملك فاس ليكون سفيره إلى بلاط أكبر قوة في الشرق (السلطان العثماني سليم الأول)، حيث توجه إلى الآستانة، لكنه ما وصلها حتى كان السلطان سليم قد غادرها على رأس حملته للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، في صيف عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، فلحق به السفير الوزان، وحضر معه المعارك التي انتهت في ربيع عام ٩٢٣هـ/ ابريل ١٥١٧م، وتم القضاء على مقاومة المماليك ونهاية حكمهم في مصر وبلاد الشام.

وبعد أن أمضى السلطان سليم بضعة أشهر في مصر وثبت خلالها حكمه في المشرق العربي عاد أدراجه بحراً من الاسكندرية إلى مقر الخلافة العثمانية في القسطنطينية .

وغادر السفير الوزان مصر راجعاً إلى بلاده ، بعد رحلة زار خلالها السودان وبعض موانيء البحر الأحمر .

محنة الأسر

كان الحسن الوزان يتنقل بين بلدان الشمال الأفريقي عامين متتاليين ، وحين غادر بحراً تونس سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م عائداً إلى المغرب ، ساقه سوء الطالع لتقع سفينته في يد القراصنة الطليان ، الذين كانوا كغيرهم من القراصنة ، يجوبون البحار للسطو والنهب ، فأسروه بالقرب من جزيرة (جربة) التونسية ، ليحدث منعطف مغاير وجديد في حياة الحسن الوزان ومستقبله ، حيث أوقعته الأقدار ليسوقه القراصنة مع رفاقه إلى نابولي ، لكنهم لم يبيعوه كغيره في (سوق النخاسة) ، فقد تبين لهم فيما يبدو أنهم ملكوا أسيراً غير عادي ، فنقلوه هدية إلى بابا روما (ليو العاشر) الذي وجد في الأسير المسلم بغيته .

لهذا فليس من شك بأن البابا « ليو » قد سعد بهذه الهدية . وسرعان ما وثقت الصلة بينهما ، لا صلة سيد بأسير ، ولكن صلة قريب بقريب . كان ينشد ضالة فعثر عليها ، ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان ، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية ، فهو موريسكي ، فتح عينيه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها ، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها . ولا نظن إلا أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة أعجمية ، ويقدر ظروف أسره ، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية ، فتظاهر بالمسيحية وحمل اسم مالكه وحاميه . البابا ، فصار يدعى ليون ، أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الأفريقي ، تستراً عملاً بقول الله تعالى . ﴿ منْ كَفَر بالله منْ بعْد إيْمانه ، إلاّ منْ أكْرهَ وقلْبُه مُطمئن بالإيمان ﴾ . وعلى عكس ما دهب إليه بعض الباحثين من أن تحول الوزان إلى النصرانية . بعد أن عمده البابا بنفسه ومنحه اسمه ، كان بوازع من نفسه دون إجبار ، دلل معرباً فى كتابه (وصف افريقيا) على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً فى ايطاليا ، بأدلة من كتابه (وصف افريقيا) الذي ترجمه إلى الايطالية بناء على رغبة البابا ، ومن ذلك الصبغة الاسلامية المجلية في الكتاب ، واهتمامه بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف ، واعتزازه بالتعرف على حملة التشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومُفتين ، وكذلك من أن التواريخ المذكورة في (وصف افريقيا) كلها هجرية ، إلاّ مرات نادرة ورد فيها التاريخ الميلادي . وهذا أمر أدرك دلالته المعلوف في روايته . وأخيراً « تمسك الوزان باسمه الاسلامي على الرغم من مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي ، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول : « العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي ، المدعو (من) قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي . . . » .

هروب الوزان

أمضى الحسن الوزان في إيطاليا ثلاثة عقود ، هي كهولته وبداية الشيخوخة ، أجاد فيها عدة لغات ، وتأثر بعصر النهضة والإحياء ، وأثر في تلاميذه ومريدي الثقافة العربية الاسلامية التي رأى فيها رواد الإحياء والبعث جسراً حضارياً بين حضارات أسلافهم اليونان والرومان وثقافتهم ، لكنه بالتأكيد على الرغم من حسن المعاملة والاحترام ، وعلاقات الود والصداقة التي أقامها في

بيئته الأوربية المسيحية الجديدة ، كان دائم التوق في الخلاص من واقع الرّق وازدواجية الشخصية المفروضة عليه ، وما هروبه في آخر الأمر إلاّ تأكيد لذلك ، ورغبة ملحة في الرجوع إلى وطنه ودينه ، وقد كان له ذلك . إذ أنه اختفى من روما « في ظروف غامضة حوالي عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام ، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى » وللأسف فإن أحداً لا يدري بعد ذلك هل بقي في تونس التي وصلها أم عاد إلى أهله في فاس ، كما أن مكان وفاته وتاريخها مجهولان أيضاً، وقد ذكر بعض الباحثين بأنه توفي في عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م ، ومال معرباً في كتابه (وصف أفريقيا) إلى القول أنه مات بعد سنة فراره ، أما الأستاذ المعلوف فإن خياله لم يذهب بعيداً عن وصول الحسن الوزان إلى شط الأمان في تونس ليروي سيرته وما وقع له .

رواية ليو

في عام ١٩٨٦م صدر في باريس عن دار نشر جان كلود لاتيه العمل الروائي البديع للأستاذ المعلوف ، باسم محور الأحداث وبطلها « ليو الأفريقي » ووجدت الرواية اهتماماً في الأوساط الأدبية الفرنسية ، كما أشادت الصفحات الأدبية بمضمون الرواية وجمال أسلوبها الذي وصفته صحيفة لوموند بأنه « يتدفق حيوية ويهز المشاعر . . . » ، ووصفت مجلة أدبية ما عمله المعلوف « بنسج التاريخ في بساط اسطوري طائر . . . » ، وقد لقيت الترجمة الانجليزية الرفيعة التي قام بها حديثاً المستشرق الدكتور (بيتر سلغليت) ، أستاذ التاريخ في جامعة درم البريطانية ، الاهتمام نفسه في الصحافة البريطانية وملاحقها الأدبية عقب صدورها عن دار (كوارتر) بلندن سنة ١٩٨٨ في ٣٦٠ صفحة .

قسم المعلوف سيرة حياة ليو الأفريقي - كما تخيلها في روايته - إلى أربعة فصول أو (كتب) كما أطلق عليها ، أولها (كتاب غرناطة) ، حيث ولد البطل ، ويلي ذلك الفصل الثاني (كتاب فاس) ، والثالث (كتاب القاهرة) ، والأخير (كتاب روما) وليس لنا أن نتوقع بأن الخيال الجميل الذي نسج منه المعلوف روايته قد التزم فيه صحة التفاصيل ، ودقة الحوادث كما حدثت في الواقع فلو كان قد فعل لكانت روايته مجرد سرد تاريخي ، لا روح له ولا حياة فيه . ومع ذلك فقد حرص أن يضعها من أولها إلى آخرها في إطار تاريخي دقيق ، مسلسلاً فصولها في حوليات ، أولها عام ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م ، وهو العام الذي اختاره مولداً للحسن الوزان في غرناطة ، وفيه بعض الخلاف مع ما أشرنا إليه في ما تقدم- ونهايتها الحولية الأربعين (٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م) التي يسجل في أولها بطل الرواية « . . وهكذا يحل العام الأربعون ، كأمل أخير لنهاية اغترابي . . » . إن حولية هذا العام الهجري تبدأ في (٨ أكتوبر ١٥٢٦م) ، وتنتهي في (٢٦ أكتوبر ١٥٢٧م) لهذا فقد كان من الصحيح تاريخياً أن تنتهي حولية السنة السابقة لها بفراغ (ليو) من اللمسات الأخيرة لكتابه (وصف أفريقيا) ، ومن ثم فراره - كما شاء له المؤلف - « أن يبدأ جدياً وبدون راحة لتسجيل حولياتي

ومجريات ما وقع معي من حوادث . . لقد كانت روما تذوي ، وحياتي في إيطاليا قاربت النهاية ، ولم أكن أعلم متى سيكون لدي متسع من الوقت لأكتب ثانية . . » .

لقد نجح المعلوف بأسلوب أخّاذ في رسم الصور المؤثرة ، واستخدام الحوار الذاتي في تداعي الذكريات للتعبير عن مختلف الخوالج والمشاعر الإنسانية ، ومن ذلك ما حدث للعرب المسلمين الفارين من المذابح ومحاكم التفتيش التي أعقبت سقوط (غرناطة) مسقط رأس الحسن الوزان الذي كان يرى فيها « مدينة ليست كمدن الدنيا . . » والتي كان دائماً يسترجع ذكرى طفولته الأولى فيها بعد سنين طوال

في رعاية البابا

تبدأ الرحلة الأولى الطويلة التي يرافق فيها حسن خاله في مهمته لسلطان فاس وفي هذه الرحلة تقدم إليه كهدية القينة الجميلة (هبة) ، وتتوالى رحلاته إلى الشرق كتاجر ومبعوث ، فيواجه أحداثاً ويجمع ثروة ويقع في غرام أميرات ويقابل أمراء وسلاطين وحتى يقع في أسر القراصنة الصّقليين ويحضر إلى البابا ليو العاشر الذي أحسن معاملته بعد معاناة الأسر والسجن ، وليعمده بعد أشهر فيندفع بحماس للمزيد من المعرفة التي كان يشعر من يوم لآخر بتناميها « ليس فقط في المواضيع التي كنت أدرسها بل بنفس القدر من اتصالي بأساتذتي وتلاميذي . . » وللمرة الأولى سمع من أحدهم مدى تنامي مرارة العداء الذي يكنه البابا ليو العاشر لمعاصره المصلح الألماني الراهب « مارتن لوثر » (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) زعيم حركة الاصلاح (البروتستانية) ، وانفصاله عن الكنيسة وسلطة البابا ، وذلك في عام ١٥١٧ . وقد أكمل ليو الأفريقي تعليقه في حولية العام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م على ما سمعه حول ذلك الحدث « . . من أنه ... تهديداً يعم كل أوربا بالنار والدمار والقادم على روما أعظم الخطوب » ويعود في حولية العام التالي ليناقش أفكار لوثر مستذكراً أحاديث نبوية حول معنى حريته ، مقدراً في دخيلة نفسه فهمه لمثل هذه الأفكار الاصلاحية ، لكنه لا ينكر فضل البابا ليو عليه ، فقد منحه اسمه وحبه ، وسرعان ما أسلم البابا الروح في ٢٦ يناير ١٥٢٠ ، فكان ذلك كيوم الخلاص للحسن الوزان على الرغم من حزنه الشديد عليه : « لقد باتت روما بوفاة البابا سيء الحظ هوّة سحيقة إلى الجحيم بعد أن كانت بوابة إلى السماء ! » .

« أنا حسن بن محمد الوزان ، ويقول أيضاً طهرت (ختنت) بيد بربري ، وعمدت على يد « بابا » أدعى الآن بالافريقي ، مع أني لست من افريقيا ولا من أوربا ، ولا حتى من حريرة العرب . إنني أدعى أيضاً بالغرناطي الفاسي ، الزياتي ، بيد أني لم آت من بلد ولا مدينة ، بل ولا من قبيلة (بعينها) . أنا ابن السبيل ، وطني القافلة ، وحياتي رحلات (بحرية) غير متوقعة ولطالما تعودت دراعي على عطفات الحرير ومخامل الصوف ، ومصوغات الأمراء ، وسلاسل العبيد أما أصابعي فقد أماطت ألف حمار ، ولثمت شفتاي ألف خد ندي ، ورأت عيناي مدنا تذوي ، وممالك تختفي ، من فمي (يابني) ستسمع العربية واللغات التركية والقشتالية والبربرية ، والعبرية واللاتينية ، بل والايطالية الدارجة ، لأنها كلها وصلواتها ترجع إليّ ، مع أني لست منها ـ كلها ـ في شيء ، فأنا عائد ـ فقط ـ إلى الله (سبحانه) وإلى الأرض التي منها وإليها سأعود آجلا أو عاجلا بيد أنك ـ يابني ـ ستمكث بعدي ، حاملا معك دكراي ، قارئا كتبي ، مسترجعاً مشاهد والدك وهو في زي نابولي ، راكباً هذه السفينة المبحرة نحو صوب الشاطىء الأفريقي ، كتاجر يراجع مع نفسه حساباته في نهاية رحلة طويلة . □

عرض : الدكتور حسن عباس

صدر منذ أشهر قليلة المجلد الرابع من الموسوعة العلمية التقنية « الآلات في حياتنا : كيف تعمل » ، وكان المجلد الأول قد صدر في عام ١٩٨٥ ، وبذلك تكون مجلدات هذه الموسوعة الفائقة الأهمية قد اكتملت ، بعد جهد مخلص دءوب ، استغرق ثلاثة أعوام أو أكثر .

لقد كانت « الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية » وراء هذا الجهد الكبير ، فقامت بشراء حق الترجمة من الانجليزية من صاحب هذا الحق ، وهي دار النشر الألمانية صاحبة الطبعة الأصلية للموسوعة وشكلت لجنة للاشراف على الموسوعة ، تتكون من نخبة من الكفاءات العربية في مجال العلوم والترجمة ، ترأسها الأستاذ أنور النوري ، وزير التربية بدولة الكويت حاليا وأوكلت إليها الإشراف على إنجاز هذا العمل وإخراجه .

أسئلة ملحة

•إن ترجمة هذه الموسوعة وإخراجها على النحو المتقن الذي تبدو عليه لهو عمل جليل حقا ، لا يسع المرء إزاءه إلا أن يقر بفضل القائمين عليه ترجمة وإخراجا وطباعة ، فالموسوعة تتيح للناشئة في أقطار الوطن العربي ، وللكبار على حد سواء ، فرصة الاطلاع على إجابات عن أسئلة ملحة ، طالما افتقدوا الاجابة عنها بأسلوب سهل يسير ، فكيف إذا توافر لهم ذلك موضحا بالرسوم والشروح العلمية الدقيقة !

تتولى الموسوعة الحديث عن آلات تستعمل في الحياة اليومية للناس ، فتسد ثغرة كان ينبغي لنا الالتفات إليها منذ وقت مبكر وهي غرس الروح العلمية بين الناشئة العرب ، وإيضاح الأسس النظرية التي تقوم عليها تطبيقات العلم الحديث ، وهو ما اصطلح على تسميته بالتقنية . فالنوادي العلمية التي لا يخلو منها قطر عربي تحاول تدريب أجيال متعاقبة من الناشئة على ما لديها من الأجهزة العلمية ، وتحبب إليهم

البحث العلمي والاشتغال بالعلم . ولكن تلك النوادي - وغيرها من مؤسسات التعليم والتدريب في الوطن العربي - كانت تفتقر الى معلومات مبسطة ، تشرح الأساس النظري الذي تقوم عليه كل آلة . ليس هذا فحسب ، بل إن الناشئة والكبار معا كثيرا ما يتساءلون عن الكيفية التي تعمل بها أجهزة تزاحمهم العيش في بيوتهم ، أو قل تيسر لهم سبل العيش في تلك البيوت ، كالثلاجة والغسالة ، ومكيف الهواء والمذياع والتلفاز ، دع عنك الفيض الغزير من الأجهزة والمواد التي نواجهها في كل مجال من مجالات حياتنا في العمل أو في توفير الخدمات الأساسية ، أو حتى في الترفيه ، فلا يجدون الإجابة العلمية الوافية . لكل ذلك نقول : إن صدور هذه الموسوعة جاء ملبيا لطلب ملح وحاجة ماسة متزايدة .

علينا - ونحن نسعى إلى إقامة نهضة عربية حديثة - أن نضع الثقافة العلمية حيث ينبغي لها أن توضع ، وأن نوليها ما تستحق من اهتمام ، وما صدور الموسوعة إلا مظهر من مظاهر هذا الاهتمام .

إن الاكتشافات العلمية المتلاحقة وما يستتبعها من تطبيقات تقنية ما زالت أجنبية الهوية ، لم يتح للمبدعين العرب دور المشاركة فيها ، وما ذلك إلا لأن القدر الكافي من ثقافة العلم لم يتح لهم منذ نشأتهم وتربيتهم الأولى كما أتيحت لهم ثقافات إنسانية أخرى .

أصل الموسوعة

لم يمض على إنشاء الجمعية أكثر من ثماني سنوات ، لكنها استطاعت خلال هذه الحقبة القصيرة أن تعلن عن نفسها على خير وجه ، ليس بما تقدمه للصحافة ووسائل الإعلام فحسب ، بل بالأعمال التي أنجزتها ، وهي أعمال يلحظ أهميتها كل متتبع لنشاط الجمعية ، وما إصدارها للموسوعة إلا جهد من جهود أخرى بالغة الأهمية .

ويعود الفضل في اكتشاف هذه الموسوعة والعمل على اصدارها - مثلما يعود الفضل في تأسيس الجمعية نفسها - إلى اهتمام الدكتور حسن الابراهيم ، رئيس مجلس الادارة ، وإلى آماله التي رافقته منذ كان مديرا لجامعة الكويت فوزيرا للتربية ، وتطلعاته لإيجاد مؤسسة عربية متخصصة ، قادرة على رعاية الطفولة العربية ، والبحث في الأسس التربوية والعلمية التي ينبغي أن يقوم عليها تقدم الطفولة العربية .

كانت هذه الموسوعة قد صدرت باللغة الألمانية في منتصف الستينيات ، ثم ترجمت إلى لغات عدة منها الانجليزية ، « ولقيت رواجا تجلى في طباعة وتوزيع لملايين النسخ منها . ولعل الفضل في هذا الانتشار الواسع راجع لكونها وثيقة الصلة بحياة الناس على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم ، فهي مرجع قيم مفيد ، يجد فيه الناشئة وطلاب المدارس الإجابات الوافية عن الكثير من الأسئلة التي تواجههم ، كما أنها تفيد الآباء والأمهات والمثقفين وطلاب المعرفة » .

يتلخص المنهج الذي تسير عليه الموسوعة في أنها تورد وصفا علميا مبسطا ومختصرا لكل آلة من الآلات التي تصفها في المجلدات الأربعة . ولا تكتفي بالشرح المبسط ، بل تخصص الصفحة المقابلة لشرح الآلة أو الجهاز بالرسم ، فتجعل منه وسيلة إيضاح تتضافر مع الشرح بالكلمات على نقل المعلومة وإيصالها إلى القارىء ، على نحو لا يترك لديه لبسا أو غموضا .

أما ترتيب مواد الموسوعة فبحسب المبادىء التي تعمل الآلة على أساسها : فآلات الاحتراق الداخلي كالسيارة والقطار مثلا ترد متتابعة ، وكذلك كل ما يتعلق بالضوء ، كالعدسات وآلات التصوير وأجهزة التلفاز والرادار ، وغير ذلك مما سيجده القارىء في هذه الموسوعة . ولو

تصفحنا مجلدات الموسوعة الأربعة لوجدنا أمثلة لكل ذلك .

يبدأ الحديث عن مطافىء الحريق مثلا بذكر أسباب الحرائق والعوامل التي تساعد على استمرارها ، ثم يتطرق إلى الآلات التي تستخدم في إطفائها . ولما كانت أسباب الحرائق مختلفة وأنواعها مختلفة فإن الآلات التي تعمل على إطفائها مختلفة أيضا لا بد لوسائل إطفاء الحريق من أن تقوم إما بتبريد المادة القابلة للاحتراق ، أو بتغطيتها بمادة محكمة الالتصاق ، غير قابلة للاشتعال ، أو بأن تقوم بازاحة الاكسيجين عن مركز نشاط الحريق . ويزيد الأمر سوءا في حالة وجود مواد قابلة للحريق ، تحتوي على الاكسيجين اللازم للاحتراق ومن وجهة نظر مكافحة الحريق هناك أهمية كبيرة لمعرفة ما إذا كانت المادة المحترقة سائلة أو صلبة أو مذابة في الماء ، أو أخف أو أثقل من مادة إطفاء الحريق . وبهذا تتضح ضرورة وجود أنواع مختلفة من وسائل الإطفاء وطرق محاربة الحريق !!

ويلي ذلك في الصفحة المقابلة رسوم توضيحية للالات التي تستعمل في الإطفاء ، منها المطفئة التي تستخدم رابع كلوريد الكربون ، ومطفئة أخرى تستعمل الماء ، وثالثة تعمل بمكونات كيماوية ، ورابعة تعمل بواسطة ثاني اكسيد الكربون ، ومع ذكر كل من هذه الآلات شرح علمي مبسط لكيفية عمل الآلة على النحو التالي :

نماذج مختارة

• أما مطفئة ثاني اكسيد الكربون فتحتوي على ٥ إلى ٦ لترات من ثاني أكسيد الكربون تحت ضغط مرتفع . ويتمدد هذا الغاز إلى الضغط الجوي في أنبوب الثلج ، حيث يتبخر الجزء الأكبر منه بسرعة ، وفي هذه العملية يجري امتصاص قدر من الحرارة من الوسط المحيط ، فيؤدي هذا إلى تبريد القدر المتبقي من ثاني اكسيد الكربون (حوالي ٣٠٪) ، وتحويله الى جليد . . وينثر هذا الثلج على النار بواسطة غاز ثاني اكسيد الكربون الأمر الذي يتسبب في خفض درجة الحرارة الى أقل من نقطة الاشتعال ، والى عزل الاكسيجين عن الحريق •

وفي مجال الصوتيات تتحدث الموسوعة عن مضخمة الصوت ، ذلك الجهاز الذي يحول تغيرات الطاقة الكهربائية إلى تغيرات مناظرة من الطاقة الصوتية أي إلى صوت . ومن ثم تكون وظيفته مشابهة لوظيفة سماعة الهاتف ، إلا أن الصوت الناتج يكون أعلى بكثير . والواقع أن مضخمات الصوت القديمة صممت على هيئة سماعات هاتف كبيرة ، مثبت فيها غشاء أمام أقطاب مغناطيس دائم يعزز مجاله ويخفض بواسطة تيار المضخم الذي يمر في ملفات . وهكذا يهتز الغشاء في ايقاع مع تغير شدة المجال ، ناقلا بذلك الاهتزازات إلى الهواء كموجات صوتية .

ومضخمات الصوت أنواع وأشكال عديدة ، فهناك مضخمات ديناميــة ، وأخـرى الكـتروديناميـة ، وثالثة بلورية ، ورابعة الكتروستاتية ، ولكل من هذه الأنواع رسم توضيحي يبين مكونات الجهاز وطريقة عمله .

طريقة عمل النظارة

وإذا انتقلنا من مجال الصوتيات إلى مجال المرئيات نجد أن النظارات تحظى باهتمام الموسوعة ، فتعرف بها وبأنواعها ، وتستهل الحديث بتشخيص الحالة التي تستدعي استخدام النظارة بالقول : عندما يكون للشخص إبصار طبيعي فإن صورة الجسم البعيد (الواقع نظريا في اللانهاية) تتكون بدقة على شبكية العين ، أي أن البؤرة تقع على الشبكية . وبما أن بعد الصورة ـ المسافة الكائنة بين العدسة والشبكية ـ يتحدد بحجم مقلة العين ، فإن صورة الجسم القريب من العين لا تصبح واضحة على الشكية إلا عن طريق إنقاص البعد البؤري لعدسة العين ، أي بزيادة قوة كسرها . ويتم ذلك بفعل عضلة تزيد من تقوس العدسة وليست كل العيون طبيعية الابصار ، فإذا كانت المسافة بين عدسه العين والشبكية كبيرة جدا فلن تتكون صورة الجسم البعيد على الشبكية نفسها ، بل تتكون أمامها ويقتضي تكوين صورة واضحة تماما وقوع الجسم على مسافة أقرب من العدسة ، وهذا يعني أن العين قادرة فقط على تكوين صورة واضحة للأجسام الواقعة ضمن تلك المسافة القصيرة ويقال عندئذ إن الشخص « قصير النظر » . وبالامكان تصحيح هذا العيب بواسطة النظارات ، إذ تجعل الأشعة الواردة في اللانهاية تتفرق قليلا بوساطة العدسة ، فتبدو كأنها صادرة من جسم يقع في مكان أقرب للعين .

وتستطرد الموسوعة في الحديث عن أنواع العدسات ، وعن الكيفية التي تستطيع بها نقل الصورة إلى الشبكية ، فتعمل على تلافي النقص في العين الطبيعية ، وترسم لكل حالة رسما يوضح مسار الأشعة بالنظارة أو بدونها ، وتبين كيف تساعد نظارة القراءة مثلا على وضع الأجسام القريبة في البؤرة .

وتنتقل الموسوعة من الحديث عن النظارات إلى الحديث عن أشكال أخرى من الآلات المتصلة بالبصر ، كالعدسات المكبرة والات التصوير والتلفاز بنوعيه العادي والملون ، وكذلك التصوير الفوتوغرافي والمصابيح ومطلقات الضوء الخاطف ، وغير ذلك من آلات تصنف تحت هذا الباب

يلي ذلك حديث عن أجهزة الوزن والقياس ، وينضوي تحت مواد هذا الباب آلات كثيرة ، منها الموازين على اختلاف أنواعها ، ومنها الساعات بانواعها والبندول

قلم الحبر السائل

ولم تترك الموسوعة آلة إلا وحصتها بالشرح والتوضيح وبيان كيفية عملها ، ومن تلك الآلات قلم الحبر السائل الذي يظن الكثيرون أنه آلة بسيطة ، لكنها تقوم على مبدأ علمي ففي قلم الحبر ذي الكباس ، يتصل عمود دوران لولبي بغطاء التعبئة ، ويرتبط من الداخل بلولب ذراع الكباس المجوف ، وتتصل مقدمة هذا الذراع بكباس مانع لتسرب الهواء والسائل إلى مؤخرة مستودع الحبر

عند دوران الغطاء في الاتجاه المضاد لعقارب الساعة يتحرك الكباس إلى الأمام ، وهناك ممر صغير يسمح بمرور الهواء إلى خلف الكباس ، بحيث يمنع حدوث المص الذي يعوق حركة الكباس إلى الأمام . أما إذا سحب الكباس بعد ذلك ، فإن الهواء يخرج من الممر نفسه . وتتحقق حركة إرجاع الكباس عند دوران التعبئة في اتجاه عقارب الساعة ، فيحدث هذا مصا في فتحة المستودع يسحب الحبر الى داخل القلم ، وبذلك يمتلىء المستودع وممرات الحبر حتى ثقب هواء ريشة الكتابة .

وهكذا تواصل الموسوعة تناول الموضوعات فتشرح الآلة وتبين طريقة عملها قولا ورسما . □

مختـــــارات

اسم الكتاب : عبدالرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية
اسم المؤلف : د . نادية السنهوري ، و د . توفيق الشاوي
الناشر : الزهراء للإعلام العربي - القاهرة
عدد الصفحات : ٣٥٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م .

الكتاب مجموعة من المذكرات الشخصية التي كتبها الاستاذ المرحوم د . عبدالرزاق السنهوري ، شيخ فقهاء القانون العرب ، وهي مذكرات تبدأ بشهر اغسطس عام ١٩١٦ حتى شهر أغسطس ١٩٦٩ ، وقد أضاف معدا الكتاب إلى المذكرات تعليقات وحواشي تربطها بالأحداث التي عاصرها .

والأوراق تحوي قضايا وأفكارا متنوعة ، بالإضافة إلى الأحاسيس والمشاعر الشخصية .

□□□

اسم الكتاب : معاني الأسماء
اسم المؤلف : د . محمد سمير نجيب اللبدي
الناشر : كاظمة للنشر والتوزيع - الكويت
عدد الصفحات : ٣١٠ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨م .

كتاب حديد وطريف في المكتبة العربية . يقدم فيه مؤلفه معاني الأسماء ، مختارا ترتيبا أبجديا ، وتحت كل حرف يضع كل الأسماء التي تبدأ به ، ومعانيها ، ويضع أسماء المشاهير والأعلام الحاملين لنفس الاسم . وقراءة الكتاب فيها قدر من الطرافة والمعلومة الحديدة .

□□□

اسم الكتاب : «الاقتصاد الاسرائيلي»
اسم المؤلف : د . حسين أبو النمل
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية
عدد الصفحات : ٤٠٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م .

دراسة « أكاديمية » شاملة للاقتصاد « الاسرائيلي » ، تجعل منها مرجعا شاملا لكل مهتم بدراسة الكيان الصهيوني . يبدأ الكتاب بعرض للاطار التاريخي للاقتصاد « الاسرائيلي » ، ثم ينتقل إلى الموارد البشرية ، وموارد « اسرائيل » الاستثنائية ، وبعد ذلك يناقش الموارد واستخداماتها ، وميزان المدفوعات ، والديون ، مبينا في هذا الجزء صافي إجمالي المساعدات والقروض التي تلقتها « اسرائيل » من امريكا ، منذ سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٨٥ ، ثم يستعرض الكاتب بالتفصيل الأنشطة القطاعية المختلفة ، فيتناول قطاع الكهرباء ، وقطاعات المياه والزراعة والانشاءات ، وقطاع الصناعة ، والتجارة الخارجية ، ثم يقدم الكاتب فصلا كاملا عن قوة العمل ومشاكلها ، وفصلا عن التحولات

اجتماعية المرتبطة بالمؤثرات الاقتصادية ، كما يفرد الكاتب فصلا كاملا عن السياسة العلمية للبحث العلمي والتقنية النووية ، ويناقش فيه الخيار الوعي في مجال السياسة العلمية والتعاون العلمي مع الخارج ، ونصيب البحث والتطوير العلمي من الناتج القومي ، والبحث العلمي في مجال الطاقة النووية .

□□□

اسم الكتاب : الريف والثورة في الرواية الجزائرية
اسم المؤلف : عمر بن قينة
الناشر : المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر
عدد الصفحات : ٩٤ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨م

مجموعة من الدراسات النقدية لعدد من الأعمال الابداعية في الأدب الجزائري ، يتناول الكاتب فيها الأعمال التي تعرضت للريف والثورة في الجزائر ، ويعرض الكاتب خلال دراساته للبعد الاجتماعي والسياسي للريف الجزائري ، والتغيرات والتطورات الاجتماعية التي عانى منها الريف ، وكيف كان الخلاص الحقيقي للريف هو حلم الثورة ، وفعلها الذي تفجر في عام ١٩٥٤ ، وظلت معاناة الإنسان الجزائري سواء في الريف أو المدينة ملمحا حقيقيا في أعمال إبداعية كثيرة .

□□□

اسم الكتاب : إشارات الغمام الكبير
اسم المؤلف : سعيد فرحات
الناشر : المكتبة العصرية - بيروت
عدد الصفحات : ١٠٢ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨م .

مجموعة من القصائد ، هي آخر ما أنتجه الأديب الراحل ، وهي نماذج لشعر المقاومه ، يتغنى فيها بالأرض والوطن والحلم ، ويغني للخبز والحرية والأزهار والسنابل ، والقصائد كلها مشبعة بروح الأمل والصمود والقتال حبا للحياة .

■ دلائل الغباء ثلاثة : العناد والغرور والتشبث بالرأى (بارتون)

■ عليكم بالأدب . فإن احتجتم إليه كان مالا وإن استغنيتم عنه كان جمالا . (عبدالملك بن مروان)

■ عليك بعمل الابطال : الكسب من الحلال والانفاق على العيال . (الثورى)

■ طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شربا ، ازداد عطشا (ابن المقفع)

■ لا وجود لوطن حر إلا بالمواطنين الأحرار (فولتير)

■ من خلال أشواك الخطر نحصل على زهور السلام (شكسبير)

■ لسان الجاهل مفتاح حتفه (ابن المعتز)

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٥

ابريل ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٥ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ مايو ١٩٨٩ .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٥

أين ظهرت الطرق المعبدة أول ماظهرت في التاريخ ؟
* في الامبراطورية الرومانية .
* في بلاد الرافدين ، أيام البابليين والآشوريين .
* في مصر الفرعونية .

اشتهرت الامبراطورية الرومانية بكثرة طرقها المعبدة وجودتها . ترى كم بلغ مجموع طول تلك الطرق وهي في أوجها ؟
* ٢٠٫٠٠٠ كم .
* ٤٠٫٠٠٠ كم .
* ٨٠٫٠٠٠ كم .

العربة الأولى في التاريخ ، أو إن شئت سيارة الأجرة الرائدة لم تكن آلية تعتمد على محرك ، وإنما كانت عادية ، تجرها الخيول . ترى أين ظهرت هذه العربة ، أول ما ظهرت ، وذلك سنة ١٥٠٠ م ؟
* في بلاد الانكليز .
* في فرنسا
* في بلاد المجر ، في بلدة كوكس على وجه التحديد

أي الاختراعين سبق الآخر : اختراع السيارة أم اختراع الدراجة العادية التي تعتمد في سيرها على الضغط بالأقدام ؟
* اختراع الدراجة هو السابق ، فقد ظهرت الدراجة العادية في القرن السادس عشر ، عندما ظهرت عربة الخيول .
* اختراع السيارة هو السابق . والمقصود هنا الدراجة العادية ذات الدواسات والسيارة التي تسير بمحرك يعتمد على البنزين .

من المعروف أن صناعة السيارات قد بلغت أوجها فى الولايات المتحدة الامريكية واليابان وأوربا الغربية ترى في أي المناطق الثلاث ظهرت سيارة البنزين الأولى فى التاريخ ، علما بأنها ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ؟

* السيارة الكهربائية * والسيارة البخارية . * وسيارة البنزين

ترى أى هذه السيارات اخترعت أولا ، وأيها جاء اختراعها فى المرتبة الثانية ، وأيها جاء اختراعها في المرتبة الثالثة ؟

اشارات المرور الصوتية لاتخلو منها مدينة فى الوقت الحاضر ، وقد أصبحت بالغة الخطورة فى حياتنا ، ولاغنى عنها لانتظام السير على الطرق ، ولتجنب حوادث الاصطدام . أين ظهرت هذه الإشارات ؟

* فى لندن حيث اخترعت الدراجه العادية .
* في المانيا حيث اخترعت السيارة
* فى باريس عاصمة فرنسا في العصور الحديثة .

ترى من كان مخترع « فلكنة » المطاط أوتقسيته ؟

* شارلز جوديير الامريكى
* بيرلى الايطالى
* بريجستون اليابانى

ترى كم بلغت السرعة القصوى التى حددها قانون الراية الحمراء للسيارات فى انطلاقها على الطرق ، داخل المدن وخارجها ؟

* ميلين فى الساعة .
* ٨ أميال فى الساعة
* ١٨ ميلا فى الساعة .

شهد العالم سباقا عالميا للسيارات سنه ١٩٠٨ . ترى كم بلغت سرعة السيارة التى فازت بالجائزة الأولى فى ذلك السباق ؟

* بلغت سرعتها بالمتوسط ٢٥ كيلومترا فى الساعة .
* بلغت سرعتها بالمتوسط ٥٠ كيلومتر فى الساعة
* بلغت سرعتها بالمتوسط ٥ كيلومترات بالساعة أو أكثر قليلا

كم بلغ مجموع السيارات التى أنتجتها مصانع السيارات فى العالم كله ، وذلك منذ مطلع القرن العشرين حتى أواخر السبعينيات منه ؟

* حوالى ٥٠ مليون سيارة
* حوالى ١٥٠ مليون سيارة
* نحو ٢٥٠ مليون سيارة

يعتقد بعض الناس أن اختراع السيارة كان نقمة على الإنسان ، بقدر ماكان نعمة . فالسيارة نعمة ضمنت للناس الراحة والرفاهية والتغلب على المسافات ، لكنها نقمة عودت الناس على الكسل وعدم المشى ، فانتشرت بينهم الأمراض « الحضارية » ، كمرض السكرى وارتفاع ضغط الدم ، أضف إلى ذلك موت الذين تسببه حوادث السيارات . ترى كم يبلغ مجموع ضحايا السيارات فى العالم كله حتى عام ١٩٨٦ م ؟

* ٥ ملايين نسمة
* ١٥ مليون نسمة
* ٢٥ مليون نسمة

يناير ١٩٨٩

١ - الشهباء والمقتبس هما الصحيفتان اللتان أصدرهما عبدالرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي في حلب ودمشق على التوالي ، وقد صدرت الأولى سنة ١٨٧٧ وصدرت الثانية عام ١٩٠٨ .

٢ - الصحيفة اليابانية يوميوري شمبان هي الصحيفة اليومية الاولى من حيث التوزيع في العالم أجمع ، وقد بلغ توزيعها حسب إحصاء ١٩٨٧/٤/١ ١٤,٢٧٤,١٣٢ نسخة (منها ٩,٢٥ ملايين وربع تصدر في الصباح ونحو ٥ ملايين في المساء) .

٣ - صدرت النشرة أو الجريدة الإخبارية الاولى في التاريخ ، في كولن في المانيا ، ومدينة كولن هذه تقع على نهر الراين وعلى بعد ٣٥ كيلومترا في مدينة دوسلدورف .

٤ - محمد علي باشا هو الذي أسس جريدة الوقائع المصرية التي صدرت أول ما صدرت سنة ١٨٢٨ .

٥ - النيويورك تايمز هي الصحيفة اليومية التي تصدر أعدادا ضخمة تلفت النظر بضخامتها والعدد الذي يشير اليه السؤال صدر بتاريخ ١٩٦٥/١٠/١٧ وقد بلغ عدد صفحاته (٩٤٦) صفحة على وجه التحديد ، وقل مثل ذلك في وزنه الذي بلغ ٣,٤٠ كيلوغرامات ، وكان العدد حافلا بالاعلانات ومواد الدعاية ، وقد بلغ عدد سطور الدعاية التي احتواها ١,٢٠٠,٠٠٠ سطر .

٦ - اليابان هي الدولة الاولى من حيث توزيع الصحف بين سكانها وتأتي المملكة المتحدةفي المرتبة الثانية والولايات المتحدة الامريكية في المرتبة الثالثة .

٧ - في روما وفي أيام يوليوس قيصر بالتحديد وقد سماها (اكتا ديورنا) وضمنوها أخبار الأعراس والوفيات والتعيينات العسكرية .

٨ - المدة التي استغرقتها أخبار معركة الطرف الأغر هي أسبوعان ونصف اسبوع هذا على الرغم من أن تلك الأخبار كانت أخبار النصر الحاسم الذي أحرزه نلسن ، قائد الاسطول البريطاني على نابليون بونابرت ، وعلى حلفائه الأسبان ، وقد وقعت تلك المعركة في البحر الابيض المتوسط ، عند رأس الطرف الأغر الأسباني .

جائزة بولتزر هي التي تشمل الصحفيين فيما تشمل ، وقد حصل عليها الصحفيان اللذان نجحا في الكشف عن أسرار التجسس والتنصت الذي قام به الحزب الجمهوري ضد الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة ، فكانت الفضيحة التي هزت أركان الحياة السياسية في أمريكا ، فضيحة ووترجيت ، والصحفيان اللذان استحقا جائزة بولتزر على هذا الكشف ، هما كارل برنشتين وروبرت وودوارد ، وكانا يعملان في صحيفة الواشنطن بوست

العامل المشترك بين صحيفة المقطم ومجلة المقتطف هو في أن الكاتب يعقوب صروف والكاتب فارس النمر تعاونا في اصدارهما كلتيهما .

صدرت جريدة « مرآة الاحوال » في اسطنبول سنة ١٨٥٥ ، وتعتبر الجريدة العربية الأهلية (أو غير الرسمية) الاولى في التاريخ .

مجلة ريدرز دايجست هي الاولى بين مجلات العالم من حيث كمية التوزيع ، فهي توزع في الولايات المتحدة وحدها (١٦,٢٥٠,٠٠٠) نسخة ، ويتضاعف توزيعها في اللغات المختلفة التي تصدر بها (وعددها ١٥ لغة) وفي شتى البلدان (٢٨) مليون نسخة .

الحطبي - تعز - الجمهورية العربية اليمنية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - جمال بن خليفة بن الشاوش بو هراجة - الوسلاتية - ولاية القيروان - الجمهورية التونسية .
٢ - ابراهيم خليل قليط - بيروت - لبنان .
٣ - محمد أحمد حجاج - المحلة الكبرى - جمهورية مصر العربية .
٤ - محمد قاسم [illegible] - [illegible] - باكستان .
٥ - موسى حامد عبدالله - أبها - المملكة العربية السعودية .
٦ - أحمد خير عمر - سراقب - الجمهورية العربية السورية .
٧ - حميدة محمد سيد أحمد - بورتسودان - جمهورية السودان .
٨ - منى وحيد مناع - الكويت .

معركة بلا سلاح

في عام ١٩١١ عندما دخل فتى كوبي مغمور المباراة الدولية الكبرى في الشطرنج، المعقدة في مدينة سان سباستيان، احتج العديد من المتبارين على السماح له بدخول هذه البطولة التي كانت تقتصر على كبار أساتذة الشطرنج في العالم، في ذلك العصر، عدا عمانويل لاسكر. ومع ذلك فقد استطاع ذلك الصبي المغمور هزيمة جميع الأبطال المشتركين في المباراة واحداً واحداً، وخرج منها وقد كللت هامته بأكاليل الغار. ولم يكن ذلك الفتى سوى خوزيه راؤول كابابلانكا الذي أصبح بطلا للعالم منذ عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٧.

كان كابابلانكا في صغره معجزة، فقد سبق مصاف كبار الأساتذة في الشطرنج وهو مايزال في سن الثانية عشرة، عندما هزم كورزو بطل كوبا في ذلك الحين. ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى فاز بطولة العالم، بعد تغلبه على بطل العالم الألماني عمانويل لاسكر (١٨٩٤ - ١٩٢١) لدى تربع على عرش الشطرنج أكثر من ربع قرن من الزمان.

وبعد فوزه الساحق في سان سباستيان حقق فوزاً ساحقاً آخر على جميع أبطال العالم في عام ١٩٢٢ في مدينة لندن، وفوزا ثالثا في مدينة نيويورك عام ١٩٢٧، ورابعا في مدينة نوتنغهام عام ١٩٢٨. وفي عام خسارته أمام الكسندر أليخين من انتصاراته على جميع أبطال العالم في ذلك الوقت كانت حاسمة، وبفارق كبير في النقاط، فقد هزم مارشال (٧ - ١)، ولاسكر (٤ - صفر)، وإيو (بطل العالم ١٩٣٥ - ١٩٣٧) (٢ - صفر). وعلى الرغم من هذا التاريخ الحافل بالانتصارات فإنه لم يصبح لاعبا محترفا قط، وظل متمسكا بمنصبه (الدبلوماسي) في خارجية بلاده حتى وفاته عام ١٩٤٢.

وأبرز ما يميز لعب كابابلانكا البساطة والبديهة في النقلات والدور التالي، وهو من حاسميت الوزير المرفوض قد يبدو للوهلة الأولى عاديا وبسيطا، غير أن فيه من الدقة والعمق ما لا يصدر إلا عن لاعب خلاق مثل كابابلانكا.

□ كابابلانكا	■ سيمان
١) د ٤	د ٥

● مسألة العدد ٣٦٥

مات ٤

من إهداء القارىء عباس محمد (الكويت)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،
تحية طيبة وبعد

● إني من المهتمين بهذه المجلة الغراء التي فتحت للقراء العرب ولعا[...] أبوابا واسعة من المعرفة والثقافة ، فنحن نطالع معلومات مهمة ومفيدة عر[ن] الكويت العزيزة ، وعن أقطار الوطن العربي الحبيب ، إضافة لآخر المعلومات العلمية الممتعة ، والقصص الهادفة التي تكون في معظمها من واقع حياتنا اليومية .

أعجبني حديث الشهر الذي نشر في العدد ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨ حول موضوع « عن الحب والحرام يسألون ؟ » حيث نوقشت فيه قضية الجيل المعاصر وهم الشباب الذين أكثرهم في سن المراهقة حيث يجب على المجتمع الذي يعيشون فيه أن يعالج قضاياهم الخاصة وليس الغرباء ، لأنهم أمل هذا المجتمع وهذا الوطن العربي .

القارىء / اسامة محمود
الكرامة / الجمهورية العربية السورية

● كما وردت للمجلة إضافة إلى ذلك رسائل عديدة مشيدة ومعجبة بالحديث نفسه ، نورد بعض أسماء كتاب الرسائل :

القراء :

(١) اشرف سعيد سويلم - الاسكندرية - جمهورية مصر العربية
(٢) عبدالله الصحياني - صعدة - الجمهورية العربية اليمنية
(٣) مصطفى محمد عطبني - اسيوط - جمهورية مصر العربية
(٤) أنور خجلات - حمص - سوريا
(٥) صفاء محمود محمد - الاسكندرية - جمهورية مصر العربية
(٦) اكويز يوسف - تطوان - المملكة المغربية
(٧) مصطفى خرما - عمان - الاردن
(٨) عقيل محمد الحجرن - الدمام - المملكة العربية السعودية
(٩) على الصليبي - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية
(١٠) هلال بن سعود - نزوى - سلطنة عمان

عـ هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات
وتعـ ـقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

الانتفاضة الفلسطينية وجود الحجر

● الإيمان بأهمية مرحلة مواجهة الاحتلال الصهيوني عنوان بارز ومكنون ، داخل شريان كل فلسطيني وعربي ، مؤمن ايمانا راسخا بالدور المطلوب منه ، كصاحب قضية ووطن سليب ، يعمل على تحريره من جبروت وصلف العدو الصهيوني ، إن النضال الفلسطيني قد برز على الساحة الدولية وجعل دول العالم قاطبة تلتفت الى حقوقه المشروعة العادلة ، المتمثلة في حق تقرير المصير ، والعودة الى دياره والعيش بسلام ، ونتيجة للثورة الشعبية ، بأبسط وسائل الدفاع المكونة من الحجارة ، الذي أثبت للعالم أنها أقوى من الدبابة والرشاش ، والمحاولات الفاشلة للعدو الصهيوني لقمع الانتفاضة باستخدام العديد من الوسائل ، كالتشريد والقتل والتعذيب ، محترقا أبسط الحقوق الانسانية ومتحديا القرارات الدولية ، والأعراف غير عابىء بما يوجه إلـ من تنديد من المجتمع الدولي . لقد خطت ثورة الحجارة خطوات عظيمة وجبارة نحو النصر المبين ، وإن سقوط العديد من الشهداء والمصابين ، واعتقال عدد كبير من أبطال الثورة الصامدة في فلسطين المحتلة لدليل على شموخ « الشعب الفلسطيني البطل » .

عبدالرحيم أمير الدين الغفاري
صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية

□■□

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لاريب أن مجلة « العربي » تعد المجلة العربية الرائدة ، على مستوى الوطن العربي والاسلامي ، بما تحوي بين صفحاتها من معلومات ثقافية قيمة ، ولكننا افتقدنا منذ فترة الأبواب التي تهتم بالتاريخ العربي الذي نعتز به أيما اعتزاز ، فنحن نعتبره بحق سلاح هذه الأمة ، في وقت هي بأمس الحاجة إليه ، لكي تسمو وترقى لتسير الى مصاف الدول المتقدمة من الناحية العلمية ، إن تاريخنا العربي ، يعد قاعدة قوية كي نسير على نهجها في سبيل الرقي والتقدم ، لتاريخنا الذي يسجل مساهمات هذه الأمة في تطور الحضارة وتقدمها .

معتز الأسعد
جامعة دمشق ـ كلية الصيدلة ـ سوريا

جوار القراء

ـ نشكرك على رسالتك وكما تعلم : أننا نولي القضية العربية والانسان العر
كل اهتمام ، وتخصيص باب ثابت لتاريخ الشخصيات العربية ليس غائبا ء
واننا دائما ننشر موضوعات تاريخية عامة ، وقضايا التراث ، والشخصيات
كباب ثابت في المجلة .

□■□

التعاون الزراعي في الوطن العربي

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● ابعث بهذه السطور ، لما ألمسه من رحابة صدر المجلة أمام مايوجه اليها من
ملاحظات ، فأنا واحد من قرائكم ، أعشق المجلة وأتابعها بشغف شديد
جدا ، ومن هذا المنطلق آمل تقبل نقدي .

ففي العدد ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ كتب الدكتور سمير رضوان مقالا
بعنوان (يا عرب الزراعة ـ الزراعة)

طالب فيه بوضع استراتيجية زراعية عربية مشتركة بين أقطار الوطن
العربي ، كي تعتمد على نفسها في إنتاج غذائها . وإن كل قطر عربي يمتلك
بعض المقومات اللازمة لتحقيق هذا الحلم القومي ، إلا انه ترك في نفسي
حزنا شديدا على مستقبل الوطن العربي حيث لا توجد استراتيجية جادة
مدروسة ، وأن التشاؤم كان سمة المقال على مستقبل الزراعة في الوطن
العربي ، إن الدعوة يجب أن توجه كي يقوم تعاون بين الاقطار العربية فتعتمد
على الجهود الذاتية لانتاج الغذاء العربي للعرب .

القارىء / احمد سعد موسى الصياد
كلية الزراعة ـ جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية

□■□

تهنئة للعربي

● يسرني أن أتقدم إليكم والى جميع أسرة التحرير ، بأخلص التهاني وأجل
الامتنان ، ببلوغ مجلتكم السنة الثانية والثلاثين وهي تحمل عبر عمرها
الطويل لواء العروبة والأصالة ، وتنشر الوعي والثقافة في ربوع الوطن
العربي ، وكل قارىء للعربية في العالم ، بفضل جهودكم الخالصة في اداء
رسالتها ، ومن خلفكم الدعم المستمر من أعلى المستويات ، فلكم منا كل
التقدير والعرفان .

القارىء / محمد ذو القرنين مولوى عبدالمالك
مكة المكرمة ـ السعودية

● أنا شاب عربي من فلسطين ، أدرس في الاتحاد السوفيتي في كلية الهندسه تخصص كهرباء .

هنا في مدينة (لينينجراد) توجد جالية عربية كبيرة ، ويجد الكثيرون صعوبة في الحصول على نسخة من « العربي » ، وكما تعلمون ، نحن بأشد الحاجة إلى مجلة عربية تعنى بتاريخنا وتراثنا العريق ، وكذلك بمستقبل وطننا العربي ، ولهذا فإن معظم الشباب العربي يطلبون من بعضهم البعض ، عند سفرهم في الاجازات إحضار نسخ من « العربي » وبالنيابة عن جميع الاخوان العرب هنا ، أتوجه اليكم بالرجاء أن تعملوا على ايصال المجلة الى السوق في جميع مناطق الاتحاد السوفيتي وبكميات تجارية .

وآمل أن يتم ذلك في القريب العاجل .

تيسير أبودياك
لينينغراد ـ الاتحاد السوفيتي

□■□

التخلص من الشيخوخة

● في مقال للدكتور سامي عزيز نشر في عدد « العربي » ٣٦٢ يناير سنة ١٩٨٩ تحت عنوان « التخلص من الشيخوخة وهم أم معجزة ! » ، ورد خطأ غير مقصود في كتابة رمز الجزيء الوراثي الذي يشار اليه في العادة بالحروف اللاتينية (D.N.A)٠حيث ورد (P.N S)٠

□■□

السياحة في الوطن العربي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● لقد لاحظ الجميع تطور المجلة في المدة الأخيرة من ناحية المضمون والإخراج والطباعة ، وبخاصة من ناحية الرسوم التي ترافق المقالات ، وأود هنا أن أشكر كلا من الفنان نصر الدين على رسومه الرائعة ، والخطاط عبدالله عثمان ، كما أشكر كل من يساهم في إخراج هذه المجلة بهذه الصورة الرائعة التي هي في نهاية الأمر خدمة للقاريء العربي ومستقبله ، ولكن لي بعض الملاحظات التي أتمنى أن تتقبلوها بقبول حسن ، وهي بخصوص الاستطلاعات التي تتميز بها مجلة العربي ، أتمنى أن تركزوا على الجانب السياحي في الأقطار العربية ، فاستطلاعاتكم عن الوطن العربي قليلة نسبيا ، ومعظمها يتناول النواحي الصناعية والمنشآت ، وأتمنى كذلك ترقيم الصور ، فنحن بصراحة تأخذنا الحيرة ، ونحن نتتبع اتجاهات الصور ، إلى أعلى ، إلى أقصى اليمين . وترقيم الصور يسهل هذه المهمة ، كما حدث في العدد رقم ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ .

كما أتمنى في باب الشطرنج ، أن نجد في بعض الأوقات تعريفات بطريقة لعب الشطرنج التي يجهلها الكثيرون .

القارئة / ليلى عطية عرار
الزرقاء ـ الأردن

شكرا على الرسالة الرقيقة ، نود أن نخبرك أن موضوع السياحة في الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية التي نهتم بها في المجلة ، على قائمة أولويات النشر ، لكن ظروف المجلة لا تسمح لنشر كل شيء وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من المجلة من استطلاع أو أكثر عن قطر من وطننا العربي ، فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطن العربي وتواصلهم . أما الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير منها ، وسوف تلاحظين ذلك في الأعداد القادمة

□■□

تحية من عمان

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● يسعدني جدا أن أبعث برسالتي هذه من أرض بلدي « عمان » أرض الخير المتفتحة لأعبر خلالها عن إعجابي الشديد بمجلتكم الغراء لما تحويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية ومعلومات مهمة ومفيدة للقراء بالعربية في أنحاء العالم

لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الأعداد التي تصدر شهريا من مجلتكم ، وأخص بالذكر العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ الذي احتوى على استطلاع عن « عمان » وتعريف إخوتي وإخواني في الوطن العربي بالتطور الذي تشهده عمان ، والذي يعبر عن أصالة الشعب العماني وتراثه ، وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية خلابة . وفي النهاية كل الشكر والتقدير لأسرة العربي للمجهود الذي تبذله في إعداد المجلة التي يستمتع بتحصيلها كل من يبحث عن زاد ثقافي وفكري رصين

القارئة حفيظة بنت محمد بن حميد العسار

مسقط - سلطنة عمان

□■□

علم الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أهنئكم من أعماق نفسي على التطور الملموس للمجلة ، كما أهنئ الكويت الكريمة كل ازدهار ، ومما استرعى انتباهي في هدية مجلة العربي الموجودة في العدد رقم ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بيتان من الشعر يعتز بهما كل عربي شريف ، وهما يخصان [illegible] الوحدة والمروءة والشهامة الكريمة التي يرمز لها العلم العربي الكويتي من [illegible] الذي يهتم بالثقافة والإعلام ، يعم كل عربي من المحيط إلى الخليج . وإلى كل مكان تتردد فيه لغة العروبة [illegible] الثقافي [illegible]

[illegible] محمد [illegible]

[illegible] طرابلس - لبنان

● القارئ : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر

● القارئ . صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السورية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي

● القارئ علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربية - مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارئ علي النبلاوي من محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمة

● القارئ حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهورية مصر العربية ، يشيد باللوحات المرسومة بريشة الفنان نصر الدين وحصوط عبدالله عثمان ، كذلك يرى المجلة ويعهده بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا على مر الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل « العربي » مدانة دائما بالتعرف بالعديد من المجلات ، ألا وهو المتعة والإفادة

● القارئ مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص ابداعه الي كتبتها نبيلة سعدان عن المرأة الطوارقية □

حوار القراء

شكرا على الرسالة الرقيقة ، نود أن نخبرك أن موضوع السياحة في الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية التي نهتم بها في المجلة ، على قائمة أولويات النشر ، لكن ظروف المجلة لا تسمح لنشر كل شيء وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من المجلة من استطلاع أو أكثر عن قطر من وطننا العربي ، فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطن العربي وتواصلهم . أما الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير منها ، وسوف تلاحظين ذلك في الأعداد القادمة

تحية من عمان

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● سعدني جدا أن أبعث برسالتي هذه من أرض بلدي « عمان » أرض الكويت الشقيقة لأعبر خلالها عن إعجابي الشديد بمجلتكم الرائدة لما تحويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية ومعلومات مهمة ومفيدة لقراء العربية في أنحاء العالم

لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الأعداد التي تصدر شهريا من مجلتكم ، ولفت انتباهي العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ الذي احتوى على استطلاع عن « عمان » وتعريف بالحي التراثي في الوطن العربي ... التطور الذي تشهده عمان . والذي يعبر عن أصالة الشعب العربي وتراثه ، وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية خلابة . وفي النهاية كل الشكر والتقدير للأسرة العربي للمجهود الذي بذلته في عدد المجلة التي يسهل للحصول عليها كل من يبحث عن زاد ثقافي وفكري رصين

القارئة حفيظة بنت محمد بن حميد العسار

مسقط - سلطنة عمان

عمان الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أهنئكم من أعماق قلبي على التطور الملموس للمجلة ، كم من المكتبات الكريمة ذلك الدهر ، ومما استرعى انتباهي في هدية مجلة العربي الموجهة في العدد رقم ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بيتان من الشعر يعبر بهما كل عربي عن شعوره ، وهما يختصران مثال الوحدة والمروءة والشهامة الكريمة التي يرددها الشعب العربي الكويتي من الوطن الذي يهتم بالثقافة والإعلام ، نعم إن كل عربي من المحيط إلى الخليج . وفي كل مكان تتردد فيه لغة العروبة ، [illegible]

[illegible]

عبد ستار علهوية - طرابلس - لبنان

ردود

● القارىء : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر

● القارىء . صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السورية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي

● القارىء علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربية - مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارىء علي النبلاوي من محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمة

● القارىء حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهورية مصر العربية ، يشيد باللوحات المرسومة بريشة الفنان نصر الدين وخطوط عبدالله عثمان ، كذلك يرى المجلة وعهده بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا عبر الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل « العربي » مدادة دائما لبعض العديد من المجلات ، ألا وهو المتعة والإفادة

● القارىء مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص الدراسة التي كتبتها نتيجة سعاد عن المرأة الطوارقية

حوار القراء

شكرا على الرسالة الرقيقة ، نود أن نخبرك أن موضوع السياحة في الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية التي نهتم بها في المجلة ، و على قائمة أولويات النشر ، لكن ظروف المجلة لا تسمح لنشر كل شيء وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من المجلة من استطلاع أو أكثر عن قطر من وطننا العربي ، فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطن العربي وتواصلهم . أما الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير منها ، وسوف تلاحظين ذلك في الأعداد القادمة

□■

تحية من عمان

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● سعدني جدا أن أبعث برسالتي هذه من أرض بلدي « عمان » إلى أرض الكويت الشقيقة لأعبر خلالها عن اعجابي الشديد بمجلتكم الرائدة لما تحويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية ومعلومات مهمة ومفيدة للقارئ بالعربية في أنحاء العالم

لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الأعداد التي تصدر شهريا من مجلتكم ، ولفت انتباهي العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ الذي احتوى على استطلاع عن « عمان » ... في الوطن العربي ... الذي تشهده عمان ، والذي يعبر عن أصالة الشعب العماني ... وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية خلابة ... في النهاية كل الشكر والتقدير للمجهود الذي تبذله في إعداد المجلة التي ... كل من يبحث عن زاد ثقافي وفكري رصين.

القارئة حفيظة بنت محمد بن حميد الغساني

مسقط - سلطنة عمان

□■□

علم الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أهنئكم من أعماقي على التطور الملموس للمجلة ، كما أهنئ الكويت الكريم كل ازدهار ، ومما استرعى انتباهي في هدية مجلة العربي ... في العدد رقم ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ ... من الشعر يعتز بها كل عربي شريف ... والشهامة الكريمة التي ... الكويتي ... الذي ذهب بالثقافة والإعلام ... في كل عربي من المحيط إلى الخليج ، وفي كل مكان تتردد فيه ... العربية ... والحس الثقافي ... العربي محمد ... عربي

... علهوية - طرابلس - لبنان

● القارىء : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر

● القارىء . صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السوريه ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي

● القارىء علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربيه - مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارىء علي النبلاوي من محافظة الدقهلية بجمهوريه مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمه

● القارىء حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهوريه مصر العربيه ، يشيد باللوحات المرسومه بريشة الفنان نصر الدين وخطوط عبدالله عثمان . كذلك يرى المجله وعهدة بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا بمرور الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل (العربي) مزدانة دائما بما ينقص العديد من المجلات ، ألا وهو المتعه والافادة

● القارىء مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطيه ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص الدراسة التي كتبها شيه شعبان عن المرأة الطوارقيه □

العربي - العدد ٣٦٥ - ابريل ١٩٨٩ م

شكرا على الرسالة الرقيقة . نود أن
الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية
على قائمة أولويات النشر . لكن ظروف المـ
وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من المجلة من
وطننا العربي . فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطـ
الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير مـ
الأعداد القادمة

تحية من عمان

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير .

● يسعدني جدا أن أبعث برسالتي هذ
أرض الكويت الشقيقة لأعبر خلالها عن اعجـ
لما تحويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية
قارئ بالعربية في أنحاء العالم
لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الا
مجلتكم . ولفت انتباهي العدد (٣٦٢) بـ
استطلاع عن « عمان » وتعريف إخوتي وا
التطور الذي تشهده عمان . والذي يعمـ
وثرائه ، وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية
والتقدير لأسرة العربي للمجهود الذي تبذل
للحصول .. يها كل من يبحث عن ر د
القارئة حفيظة

الأستاذ الدكتور رئيس .. ير
● أهنئكم من اعماق .... على التطو

حوار القراء

شكرا على الرسالة الرقيقة ، نود أن نخبرك أن موضوع السياحة الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية التي نهتم بها في المجلة ، و على قائمة أولويات النشر ، لكن ظروف المجلة لا تسمح لنشر كل شي وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من أعداد المجلة من استطلاع أو أكثر عن قطر في وطننا العربي ، فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطن العربي وتواصلهم . أما بقية الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير منها ، وسوف تلاحظين ذلك في الأعداد القادمة

□ ■ □

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● سعدني جدا أن أبعث برسالتي هذه من أرض بلدي « عمان » أرض الكويت الشقيقة لأعبر خلالها عن اعجابي الشديد بمجلتكم الرائدة لما تحويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية ومعلومات مهمة ومفيدة للقارئ بالعربية في أنحاء العالم

لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الأعداد التي تصدر شهريا من مجلتكم ، ولفت انتباهي العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ الذي احتوى على استطلاع عن « عمان » وتعريف إخوتي وأحبابي في الوطن العربي بالتطور الذي تشهده عمان ، والذي يعبر عن أصالة الشعب العماني وتاريخه ، وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية خلابة . وفي النهاية كل الشكر والتقدير لأسرة العربي للمجهود الذي تبذله في إعداد المجلة التي يستفيد منها كل من يبحث عن زاد ثقافي وفكري رصين .

القارئة حفيظة بنت محمد بن حميد العساب

مسقط - سلطنة عمان

□ ■ □

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أهنئكم من أعماق قلبي على التطور الملموس للمجلة ، كما أتمنى لمكتبتكم الكريمة كل ازدهار ، ومما استدعى انتباهي في هدية مجلة العربي الزاهرة في العدد رقم ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بيتان من الشعر يعتز بهما كل عربي شريف ، وهما باختصار يمثلان الوحدة والمروءة والشهامة الكريمة التي يرفرف بها العلم العربي الكويتي في الوطن الذي ذهب بالثقافة والإعلام والعلم إلى كل عربي من المحيط إلى الخليج . وفي كل مكان تتردد فيه اللغة العربية ، تلك هي الكويت ، والحس الثقافي والعيون العلمية والعمل ... محبة كل عربي

عبد الستار علوية - طرابلس - لبنان

● القاريء : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر

● القاريء . صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السوريه ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي .

● القارىء علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربية ـ مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارىء علي النبلاوي من محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمة

● القاريء حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهورية مصر العربيه ، يشيد باللوحات المرسومة بريشة الفنان نصر الدين وخطوط عبدالله عثمان ، كذلك يرى المجلة وعهده بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا بمرور الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل (العربي) مرجعية دائما بما يعصى العديد من المجلات ، ألا وهو المتعة والافادة

● القارىء مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص الدراسة التي كتبتها بثينة شعبان عن المرأة الطوارقية □

● القارىء : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر

● القارىء صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السورية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي

● القارىء علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربية ـ مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارىء علي النبلاوي من محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمة

● القارىء حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهورية مصر العربية ، يشيد باللوحات المرسومة بريشة الفنان نصر الدين وخطوط عبدالله عثمان . كذلك يرى المجلة وعهده بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا بمرور الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل (العربي) منارة دائما تميزها عن العديد من المجلات ، ألا وهو المتعة والإفادة

● القارىء مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص الدراسة التي كتبتها شيه شعبان عن المرأة الطوارقية □

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

أبريل ١٩٨٩ م

اليابانيون

تأليف : إدون رايشاور
ترجمة : ليلى الجبالي
مراجعة : شوقي جلال

الكتاب ١٣٦

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

العربي

- رحلة الذهب بين الهند والخليج العربي
- سنغافورة جزيرة العجائب والمتناقضات

العدد ٣٦٦ السنة الثانية والثلاثون مايو ١٩٨٩

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 366 May 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص. ب: ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات: ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أوشيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشا	سلطنة عمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكا
السودان ٢٥ قرشا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصوّرة :

طب وعلوم :

● سنغافورة جزيرة العجائب والمتناقضات ص ١٣٢

أدب وفنون :

اجتماع :

● « الصوبة » : هل تحول صحارانا الى جنات خضراء ؟
ص ١٥٦

وجها لوجه :
محمد سعيد الصكار وهاني مظهر
ص٩٧

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

صورة الغلاف

بين الذهب والنقود علاقة من طراز خاص ، عندما يفقد الناس ثقتهم بالنقود يتهافتون على الذهب ... كحلي زينة وادخار ثروة لا تفقد قيمتها .

(اقرأ استطلاع رحلة الذهب بين الهند والكويت من ص ٨٠)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

معادلة صعبة !

من الأمور التي نقف عندها كثيرا في اجتماعاتنا الدورية في أسرة تحرير « العربي » هو الكم الممتاز والمتميز من النتاج الثقافي ، المتنوع في معالجاته لكثير من قضايا حياتنا العربية الذي يصلنا متدفقا من إخوة وأخوات تؤرقهم هموم الواقع العربي ، فيكتبون « للعربي » من أجل أن يأخذ نتاجهم طريقه للنشر .

إلا أن عدد صفحات المجلة محدود ، وهي مطبوعة شهرية ، لا يمكنها أن تستوعب كل ما يصلها ، وتنقله إلى القراء في وقت قصير .

لذلك فإن نشر بعض المواد يتأخر زمنياً ، خاصة أننا نضع تصورا تخطيطيا لأعدادنا القادمة ، يتراوح بين أربعة أعداد وأحيانا ستة .

وما نريد أن يشاركنا فيه الأصدقاء القراء ، ويطلعون عليه أيضا ، هو توليف المواد وإعدادها ، كي تصل إلى القارىء بشكل ممتع مفيد .

وهذا الأمر يأخذ وقتا وجهدا من هيئة تحرير المجلة ، كي تصل الموضوعات إلى صيغة وشكل مناسبين . ويمكن تشبيه الموضوعات الكثيرة بالبشر الكثيرين المتوجهين للخروج من باب واحد نحو مكان واحد . والباب - مع مزيد الأسف - لا يمكن أن يستوعب إلا العدد الذي يستطيع استيعابه فقط !

والسؤال الذي يؤرقنا دائما : كيف يمكننا أن نرضي الكتاب الكثر ، والقراء الأكثر ؟ تلك معادلة تواجهنا دائما ، ونحن نعد لإصدار أي عدد من أعداد المجلة . لذا فإننا نأمل من إخواننا الكتاب التحلي بالصبر حين يتأخر بعض نتاجهم في النشر . ولعل العدد الذي بين يدي القارىء يعبر عما نريد أن نقوله بوضوح .

فقد أردنا أن نحتفي بطريقة خاصة بالروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، وبدأنا منذ إعلان فوزه بجائزة نوبل لعام ١٩٨٨ نعد موضوعاتنا ، ، كي نقدم إسهاما ثقافيا مميزا ، يليق بالكاتب وبالمطبوعة ، ولقد أخذ ذلك بعض الوقت منا ، لكننا عوضنا هذا الوقت بتقديم عمل مدروس ومبتكر ، يتابع رحلة هذا الأديب المبدع من قلب حي الجمالية وشوارعه وحاراته وعالمه الذى تأثر به ، وصولاً إلى نيله الجائزة .

إلى جانب ذلك نقدم صفحة من دفتر ذكريات الدكتور عبد العزيز المقالح من القطر اليمني ، « ومن دفتر الذكريات » هو أحد الأبواب الجديدة التي بدأنا بنشرها منذ مطلع هذا العام ، وقد كتب لنا فيه نخبة من كتاب الوطن العربي ، وأصبحت لدينا مجموعة كبيرة من كتاباتهم في هذا المجال ، وكتب سليمان الفهد عن ذكريات العيد في الكويت القديمة ، وملاعب صباها ، والكاتب يعرفه قراء « العربي » ، فقد أطل عليهم منذ سنوات ، وهو أحد الكتاب الساخرين المعاصرين في الوطن العربي .

وفي الاستطلاعات نتابع رحلة الذهب ، وكيفية صناعته في الهند ، وصولا إلى سوقه في الكويت ، وهذه الرحلة السهلة الآن كانت من قبل ذات مخاطر ، تحمل طابع المغامرة ، فتحولت الآن إلى تجارة وحالة اجتماعية أيضا .

ونذهب في استطلاعنا الثاني إلى سنغافورة ، المدينة المتطورة ، حيث تعد من أبهى المدن وأجملها ، فكيف تأتى لها ذلك ؟ .

وفي العدد مواد عديدة متنوعة غنية ، ثرية بالمعلومات عن كثير من أمور حياتنا الثقافية والعلمية والطبية والاجتماعية .

نأمل أن نحقق من خلالها معادلة المتعة والفائدة لك عزيزي القارىء .

« المحرر »

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

كل ما أحتاج إلى معرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال..!

نظرت إلى مجموعة الكتب الجديدة التي أحضرتها، وسألت نفسي: هل لدي الوقت والاستعداد أن أقرأ كل هذه الكتب؟ لقد اخترتها بنفسي في الثقافة والاجتماع والسياسة والأدب والتاريخ، وعناوينها محببة إلي، وأريد أن أقرأها ولكن كيف؟ فالوقت قصير والاختيار صعب. ثم التقطت من بينها كتاباً عنوانه يكاد يحل مشكلتي، وأنا أيضا شغوف بمثل هذه الكتب التي تشير عناوينها إلى موضوعات غير مألوفة، عنوان الكتاب مثير للخيال، فهو يقول: «كل ما أحتاج لمعرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال».

وأنا أقلب الكتاب قلت لنفسي: إن أقنعني الكاتب بهذه الفكرة العامة، فأنا قد اصطدت عصفورين بحجر واحد، الأول أنني سأعرف «كيف تعلمت كل ما أريد وأنا في روضة الأطفال» فلربما كانت هناك دروس الخبرة المختزنة ولم أكتشفها بعد، والثاني سيريحني نفسياً من جانب اجتماعي، فقد صادفت في حياتي بشراً في أماكن رفيعة كبيرة، وتساءلت بعد ذلك - بيني وبين نفسي - من خلال ما سمعته منهم أو شاهدته

ALL I REALLY NEED TO KNOW I LEARNED IN KINDERGARTEN

UNCOMMON THOUGHTS ON COMMON THINGS

ROBERT FULGHUM

من تصرفاتهم : ترى هل حصل هذا الشخص على شيء من العلم والثقافة يؤهله كي يصلح في هذا المقام ؟

لقد كان لدي شبه اقتناع ـ من واقع الخبرة ـ أن وصول الإنسان إلى مكان مرموق أو ثروة أو جاه لا يقتضي بالضرورة ـ كما يعتقد بعض السذج لأول وهلة ـ أن يكون ذا معرفة ، فالمعرفة ليست ضرورية لكل ذلك ، فقد تستطيع أن تحصل على الحد الأدنى منها ولكنك تحصل على الباقي صدفة ، سياسة ، حظا ، بل وحتى « فهلوة » !!

إلا أن الأمر لم يكن مستقراً عندي حول : ما هو الحد الأدنى من المعرفة ؟؟

وجاءني الجواب أو خلته جاءني عندما وقع في يدي هذا الكتاب . إنه ما يتعلمه الإنسان في روضة الأطفال !!

□□□

ومادام هذا الكتاب سوف يحل لي قضيتين أرقتاني ، فلا بأس من قراءته كاملا ، ولقد كان الكتاب من الكتب النادرة التي تسحر الإنسان ، فيقرؤها من الغلاف إلى الغلاف ، ثم يشعر بعد الانتهاء من قراءتها أنها فتحت آفاقاً جديدة ، وأضافت إلى معلوماته الجديد ، فقررت أن أشرك أصدقائي القراء معي في الفائدة والمتعة

المؤلف روبرت فولجهم ، حاول أن يلخص في هذا الكتاب خبرة حياته ويصوغها في كلمات وجمل أصبحت عنده أشبه ما يكون بالعقيدة . جميع محتويات الكتاب تدور على مدار السنين ، وهي عبارة عن مجموعة من الملاحظات ، كتبت على طريقة قصص وانطباعات قصيرة ، يبدؤها برواية الأسباب التي جعلته يؤلف هذا الكتاب والتي استمد عنوانه منها يقول :

لقد جاءني الالهام بانجاز مذكراتي يوم كنت أملأ خزان وقود سيارتي القديمة المتهالكة بأحسن أنواع البنزين ، ولكن يبدو أن الوقود كان من القوة والجودة ، بحيث ضاقت به سيارتي ولم تتحمله !! فبدأت تنفث الدخان الأسود من مؤخرتها حيناً ، وتفرقع عندما أتوقف عند مفترق الطرق حيناً آخر ، وتتجشأ كلما صادفني منحدر في الطريق ، ففهمت من سلوك سيارتي أشياء كثيرة ، وتعلمت منها حكمة من حكم الحياة . فالإنسان حاله حال سيارتي ، إذا أخذ من العلم أحسنه وأرفعه ، ومن المعلومات أصدقها وأوثقها ، سوف يضيق ذرعاً بما حصل عليه ، ولا يلبث أن يلفظه وينساه ، ولا يبقى في ذاكرته منه إلا ما يحتاجه فعلا في حياته اليومية ، والحياة ليست معقدة

إلى الحد الذي يتصوره البعض ، وما يحتاجه الإنسان ليحيا حياة سعيدة يعرفه منذ كان طفلاً !!

ثم يعدد الكاتب مجموعة من الأوامر والنواهي التي يتعلمها الطفل وهو صغير ، من بينها : شارك الآخرين في كل شيء ، تصرف حسب الأصول ، لا تعتد على الناس ، أعد ما تأخذه إلى المكان الذي أخذته منه بعد الانتهاء من استعماله ، نظف مائدة طعامك بنفسك ، لا تأخذ ما ليس لك ، إن آذيت أحداً اعتذر له ، اغسل يديك قبل الطعام ، العب دون إفراط كل يوم . . . إلى آخر هذه النصائح العامة المتعلقة بالتعامل مع الآخرين والاعتناء بالنفس والتعامل في الشارع والمدرسة .

يقول المؤلف إنه يعتقد أن كل شيء نحتاجه موجود وراء هذه الكلمات أو النصائح ، وهي قواعد ذهبية ، تحمل في طياتها الحب ، والمحافظة على الصحة ، ومجموعة أخرى من المبادىء . وبدون هذه القواعد لا يستطيع أحد أن يلم بالأمور السياسية ، أو يتعلم قواعد المساواة ، أو يتصرف بحكمة وتعقل .

ثم ينقل الكاتب في مجموعة من الفصول القصيرة بعض تجارب الحياة ، وكل قصة أو فصل قصير يعلمنا حكمة بالغة . ومن الصعب أن أنقل للقارىء مجموع هذه الفصول التي تبلغ أربعين فصلاً ، ولكني سأختار بعضها ، وأرجو أن يعذرني القارىء ويتسامح معي في هذا الاختيار . دعونا نقرأ :

لا تصرخ في وجوه الناس ، فالصراخ يكسر القلب ويميت الروح

في جزائر سليمان في جنوب المحيط الهادي ، اعتاد القرويون على استخدام طريقة غريبة ، إذا أرادوا قطع شجرة ضخمة لا يستطيعون قطعها بالوسائل المتوافرة لديهم . . فيصعد الحطابون إلى قمة الشجرة ثم يصرخون جميعاً دفعة واحدة ، وبأعلى أصواتهم حتى يتعبوا . ويعيدون الكرة في كل يوم ، فإذا حل اليوم الثلاثون ماتت الشجرة وسقطت . . !

فهم يعتقدون أن الصّراخ يقتل روح الشجرة ، وقد جرّبوا هذه الطريقة عدة مرات . . وفي كل مرّة كانت التجربة تنجح .

مساكين أولئك الأبرياء السُّذّج ، إنهم يتبعون عادات توارثوها عن أجدادهم ، يصرخون على الأشجار حتى يميتوها بدل أن يستخدموا الوسائل الحديثة والتقنية المتقدمة لقصّ الشجر .

أما نحن ، فكثيراً ما نمارس عادة الصراخ للتنفيس عن غضبنا ، أو

للتعبير عن تبرّمنا وعدم رضانا ، فنحن نصرخ على الهاتف إذا لم نحصل على الرقم الذي نريده ، ونصرخ على جزّازة العُشب إذا لم تعمَل بشكل يُرضينا ، وكثيراً ما نرفع قبضاتنا ونصرخ في وجه أي شيء نصادفه إذا ما حصل لنا مكروه ، وأحياناً نصرخ على زوجاتنا إذا ما تصرّفن تصرُّفاً لا يعجبنا .

بعض الناس يصرخون على سياراتهم ، كما سمعت أحدهم يصرخ على سُلّم نقّال ، وبعضنا يصرخ إذا تضايق من ازدحام حركة المرور ، أو لم تعجبه صفّارة حكم المباراة ، أو المبلغ الذي سُجِّل على « الفاتورة » أو قائمة حساب البنك . . وأحياناً نصرخ على الآلة إذا لم تؤد عملها على الوجه الأكمل والآلات لا تتأثر بصراخنا ، والأشياء لا تسمعنا ، وحتى لو رفسناها بأرجلنا فلن نستطيع أن نغير منها شيئاً ، أو نحسّن أداءها .

نعود إلى سُكان جزائر سليمان ، فصراخهم على الأشجار فيه شيء من الحكمة ، وإن كان لا يؤدي إلى أي نتيجة . .

فالصّراخ على الأحياء من الناس يعمل على قتل أرواحهم . خلاصة القول : « أن ضرب الناس بالحجارة أو بالعصيّ قد يكسِّر عظامهم ، ولكن الصُراخ في وجوههم يكسر قلوبهم ، ويميت أرواحهم » .

الحب الحقيقي لا ينتهي بموت من نحب

قد تكون هذه القصة شخصّية ، وقد يكون فيها من الحب أكثر مما يحتمله القارىء ، ولكنها حقيقية ، يكون بيننا من يحمل الدرجة نفسها من الحب ، ويُسرّ لقراءتها ، وهذا ما دفعني إلى كتابتها ، مع أنها لم تحدث لي ، بل لشخص آخر يدعى تشارلز بوير .

كان تشارلز شاباً رقيق الحاشية ، أنيقاً بشوشاً ، يحب النظر إلى معظم الممثلات اللاتي يظهرن على شاشة السينما ، أو على صفحات المجلات الترويحية ، أما في حياته الحقيقية فكان حُبّه من نوع آخر ، لا يقتصر على النظر ، بل يتغلغل إلى أعماق القلب ، ولم يكن في حياته إلا حب حقيقي واحد ، إنه حبه لزوجته باتريشا ، فلقد كان حباً دام الحياة كلها ، دام أربعاً وأربعين سنة ، كانت باتريشا بالنسبة له ليست مجرد زوجة ، بل صديقة وحبيبة ورفيقة حياة . لم يقلّ حبه لها في العام الرابع والأربعين لزواجهما عن حبه لها في السنة الأولى من زواجهما .

وما لبثت باتريشا أن أصيبت بسرطان في الكبد ، وأطلع الطبيب زوجها على حقيقة الأمر ، ولكن تشارلز لم يجد في نفسه الشجاعة لإعلامها بالنبأ ،

فاكتفى بملازمة فراشها ، يَبُثّ في نفسها الأمل ، ويبعث في قلبها البهجة . وظل يلازم فراشها ستة أشهر كاملة ، ولم تفلح ملازمته لها طوال هذه المدة في منع القدر من أن يأخذ مجراه ، فماتت بين ذراعيه ، وما لبث تشارلز أن لحق بها إلى الرفيق الأعلى بعد يومين فقط من وفاتها .

لقد وضع حداً لحياته بيديه ، وترك قصاصة ورق كتب عليها أنه لا يريد أن يستمر في الحياة بدونها ، فحبُّه لها كان هو الحياة بالنسبة له .

هذه ليست قصة سينمائية ، إنها قصة من واقع الحياة ، وحقيقية بكل تفاصيلها .

أنا لا أريد أن أحكم على الطريقة التي عالج بها حزنه على حبيبته ، ولكنني أجد أن من حقي أن أعبِّر عن مقدار تأثري بتلك الطريقة ، والراحة التي شعرت بها عندما علمت بها .

لقد تأثرت حين اكتشفت بأن للحب عمقاً آخر ، لا تستطيع أن تبلغه أفلام هوليود التي تعرض أنواعاً زائفة من الحب ، وشعرت بالراحة حين أدركت أن الرجل والمرأة يمكن أن يُحبّا بعضهما إلى تلك الدرجة طوال تلك المدة .

إنني لا أعرف كيف كنت سأعالج حزني لو مررت بتلك الظروف نفسها ، وأتمنى أن لا أجد نفسي في مثل هذا الموقف ، ولكن هناك لحظات تمرُّ بي وأنا أمعن النظر في أرجاء غرفتي ، وأسرح بفكري في رتابة ما يجري حولي في حياتي اليومية ، ثم أنظر إلى زوجتي وصديقتي ورفيقة حياتي ، فأدرك لماذا تصرف تشارلز بوير بتلك الطريقة ، وأزداد يقيناً بأن الدرجة التي بلغها حبه لزوجته كانت ممكنة ومعقولة ، وأن حبَّ الرجل لرفيقة حياته لا ينتهي بموتها ، فقد يرافق الحبيب حبيبته إلى الدار الآخرة ، وهو احتمال وارد وأنا متأكد منه .

مازالت الدنيا بخير

بعض الناس يسيئون الظنّ في كل شخص ، ويقولون بملء أفواههم : « لم يعد هناك أحد يمكن أن نثق به ، فالأطباء دجالون ، والسياسيون انتهازيون ، والتجار لصوص ، إنهم جميعاً يعملون على سلب أموالك ، أليس كذلك ؟ » .

لا ، أيها السادة ، فقد قام رجل يدعى (ستيفن بل) بتجربة لاستكشاف مدى صحة هذا التعميم ، وجعل ميدان الاختبار مدينة

نيويورك ، والفئة التي اختارها لإجراء تجاربه عليها هي سائقو سيارات الأجرة . . !

تظاهر (بل) بأنه أجنبي ، واستخدم لغة انجليزية ركيكة ليوهم السائقين بأنه غريب ، واستخدم عشرات من سيارات الأجرة ، تنقل بها في مختلف شوارع نيويورك وأحيائها ليعرف كم من هؤلاء من يحاول النصب عليه ويأخذ أجراً أكثر مما يستحق ، وكان أصدقاؤه قد تنبأوا سلفاً بأن معظم الذين سوف يتعامل معهم سوف يغشّونه ويتقاضون منه أجراً مضاعفاً .

ولكن المفاجأة حدثت ، فسائق واحد ، من بين سبعة وثلاثين سائقاً تعامل معهم ، احتال عليه ، وأخذ منه أكثر مما يستحق ، أما الباقون فقد أخذوه إلى المكان الذي حدّده مباشرة دون لفّ أو دوران ، وتقاضوا أجورهم الصحيحة . العديد من سائقي (سيارات الأجرة) كانوا يرفضون تلبية طلبه عندما يكون المكان الذي يحدده لهم قريباً من مكان الركوب ، حتى أن بعضهم كانوا ينزلون من سياراتهم ويشيرون له إلى المكان المقصود . والغريب أن كثيراً منهم حذّروه من اللصوص والمحتالين الذين تمتلىء بهم شوارع نيويورك .

قد يقول البعض إن الصحف تزخر بأخبار اللصوصية والسّلب والنهب والاحتيال ، وكثيراً ما نقرأ خبراً عن رجل شرطة اقترف جرائم يعاقب عليها القانون ، كالكذب على الناس والسرقة ، أو عن طبيب يجني أرباحاً هائلة ، دون أن يقوم بعمل جاد وحاسم يستحق عليه ما يتقاضاه من أجر ، أو عن سياسي يخوض مغامرة من أجل مكسب آني . ولكن هؤلاء ينسون أن من يقوم بمثل هذه الأعمال من شواذ المجتمع ، ولولا أنهم شواذ لما كتبت عنهم الصحف ، والشاذ لا حكم له ، فكل الأدلة تشير إلى أن الغالبية العظمى من الناس هم موضع ثقة ، وهناك إحصائية (لجالوب) تشير إلى أن ٧٠٪ من الناس يعتقدون أن غالبية الناس أمناء وصادقون ويمكن الثقة بهم ، فالدُّنيا مازالت بخير ، والعالم يحفل بالأناس الطيبين ، ومن يقول غير ذلك مخطىء ، وعليه أن يغير رأيه .

ليس نوع العمل الذي نقوم به هو المهم ، بل إتقانه

بعض الناس يقومون بأعمال شاقة ، حتى وهم داخل بيوتهم يشغلون أنفسهم بتنظيف ميازيب تصريف مياه الأمطار ، أو حتى أنابيب المجاري ، فإذا انتهوا من ذلك ولم يجدوا عملاً يقومون به انصرفوا إلى تنظيم أوقاتهم ، فكل عمل يقومون به يخضع لعملية ترتيب وتنسيق ، ويحتفظون بملف لكل

شيء ، حتى يستطيعوا أن يجدوا مطلبهم بسهولة ويسر .

وأنت تلمس النظام في بيوتهم حيثما توجهت ، بدءاً بحوض الاستحمام ومروراً بالمرحاض ، وانتهاءً بصناديق سياراتهم . هؤلاء الناس موجودون في كل مكان ، وبعضهم يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع .

يقول الكاتب إنه لا ينتمي إلى هذا الصنف من الناس ، فإذا اضطر لاستعمال المقلاة مثلاً تركها متسخة حتى يأتي من ينظفها ، وإذا سكب في كوبه شيئاً من الحليب فغالباً ما يسكب منه بعضه حول الكوب ، فالأعمال الكثيرة التي لابد من إنجازها تلهيه عن الاهتمام بهذه الأمور ، غير أن له هواية لا يمل منها أبداً ، فإذاما فرغ إلى نفسه انصرف إلى عصاه ، وراح يصقلها ويلمعها ، حتى تصبح كالمرآة . وهنا قد يتساءل البعض : أليس هناك عمل آخر مفيد يعمله هذا الرجل بدل أن يقضي الساعات الطويلة في صقل عصاه ؟

وينبري للإجابة عن تساؤلهم قائلا : إن العمل لا ينتهي أبداً ، ولو شغلنا ساعات ليلنا ونهارنا في محاولة إنجازه ، فكلما أنجزت شيئاً اكتشفت عملاً جديداً يتطلب الإنجاز . إننا نعيش في حالة سباق دائم مع الزمن ، فلماذا لا نعطي أنفسنا راحة ، نمارس خلالها عملاً نحبه ، خاصة عندما نكون من الأشخاص الذين لا يتمتعون بقضاء أوقاتهم في تنظيم الأشياء ووضع كل حاجة في مكانها الصحيح ؟

وقت ممارسة الهواية بالنسبة له يعد وقتاً مقدساً ، لا يسمح لأحد أن يتدخل فيه ، ولا للأعمال الأخرى أن تلهيه عنه ، وعند انصرافه له لا يعير اهتماماً لاجتماعات اللجان ، ولا لتسديد قوائم حساب متأخرة ، ولا للمراسلات ، ولا للرد على مكالمات الهاتف . كل ما يهتم به عند ممارسة هوايته أن يكون المكان الذي يجلس فيه هادئاً ، وأن يكون هناك من يقوم بخدمته وتلبية طلباته ، وإعداد طعام جيد له ، وهو عادة يمضي أسبوعاً كاملاً في ممارسة هذه الهواية .

يقول الكاتب إنه ليس الوحيد الذي يمارس هذه الهواية ، فهناك العديد من أمثاله . ولذا تشكلت لجنة للتحكيم تقوم بالمرور على أصحاب هذه الهواية ، وتتفحص أعمالهم ، فإذا أعجبهم عمل أحد ملمعي العصي ، وتأكدوا أنه أنجزه بإتقان تام ، قاموا بنشر صورة الرجل في الصحف ، وظهر على شاشات التلفزيون ، واكتسب شهرة في طول البلاد وعرضها ، ونال احترام أسرته وجيرانه ومعارفه ، فإذا ما حصل على كل ذلك نتيجة تلميع عصا ، فما الداعي لأن يقوم بعد ذلك بتنظيف ميازيب الأمطار ، أو تسليك
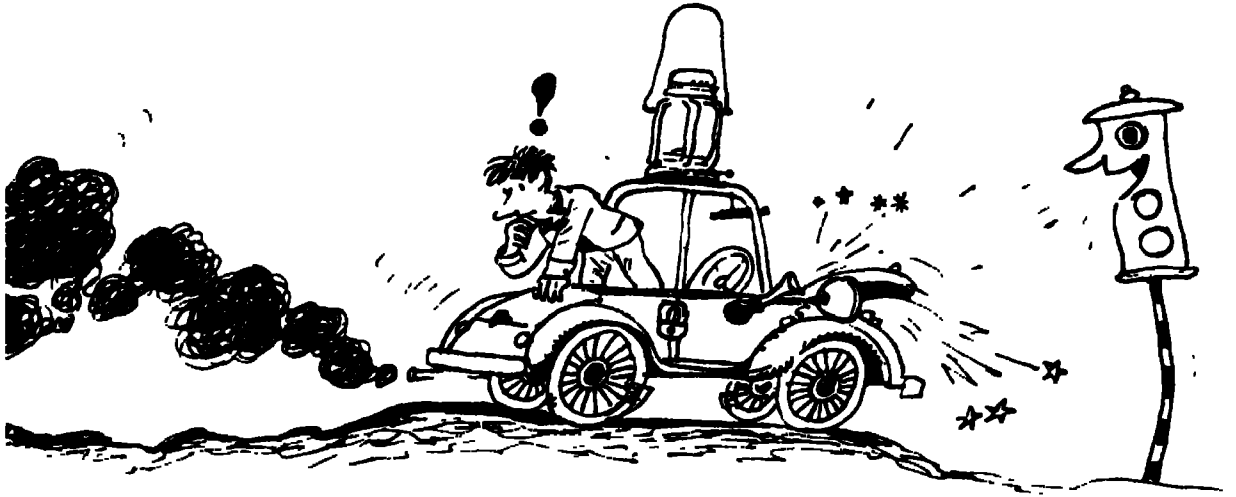
المجاري ، أو تنظيم الملفات والأدراج ، أو حتى الاهتمام بترتيب صندوق الأمتعة في سيارته ؟ !

لقد نال الشهرة التي يريدها لمجرد قيامه بتلميع عصا ، وعليه أن يزهو بذلك ويفخر ، لأنه تفوق على غيره في عمل واحد على الأقل . يقول الكاتب : ليتني أكون واحداً من هؤلاء المتفوقين ، فالمهم ليس نوع العمل الذي تقوم به ، بل درجة إتقانه .

كلنا من التراب ، وإليه نعود

لي جار ، امتهن تنظيف الأرض من أوراق الشجر المتساقطة وتسويتها في الصيف ، وجرف الثلوج المتراكمة في الشتاء . وهو يحب عمله ، ويقبل عليه بهمة ونشاط . وأنا أرى في عمله هذا تدخلاً في عمل الطبيعة ، فأوراق الأشجار تتساقط في الصيف منذ آلاف السنين ، وقبل أن تخترع أدوات تمشيط الأرض وتنظيفها وتسويتها ، والأوراق تمكث حيث هي ، حتى تحولها الطبيعة إلى تراب جديد يزيد خصوبة الأرض ، ويعوضها عما يسلبه الإنسان من ترابها ، أما الثلج الذي يقوم هذا الرجل بجرفه فهو الوسيلة التي يوحي بها الله للإنسان أن يتمهل في عمله ، ويخلد إلى شيء من الراحة في فراشه الدافيء يوماً أو بعض يوم ، ثم إن الثلج الذي ينهك نفسه في جرفه لا يلبث أن يذوب من تلقاء نفسه ، ويمتزج بأوراق الشجر ، ويتحول المزيج إلى تراب جديد .

إن لي فلسفتي في الحياة ، وله فلسفته . فحديقته أنظف من حديقتي ، وهو لا يتعثر حين يشق طريقه في الصباح نحو سيارته كما أفعل أنا ، كما أنه

رجل طيب ، بغض النظر عن نوع العمل الذي يقوم به ، إلا أن حديقتي تبدو كالسجادة الشرقية الزاهية الألوان ، بعكس حديقته الخالية من كل أنواع الزهور . وأنا أقوم بجمع الثلج المتساقط برفق وأضعه في زجاجات أحكم إغلاقها ، لاستخدامها في إعداد عصير البرتقال المجفف في شهر يوليو من العام التالي ، كما أقوم بتسجيل صوت تساقط الثلوج ، وأستخدم أشرطة التسجيل هذه في حزم هدايا عيد الميلاد .

أهديته مرة زجاجة من ماء ثلج الشتاء المعتق في أحد أعياد الميلاد ، وحرصت على لفها بشريط تسجيل سجلت عليه صوت تساقط الثلج ، فأهداني مجرفة لتمشيط الأرض . كل منا يغني على ليلاه ، ويعطي جاره درساً في فلسفته في الحياة . أنا أعتقد أن جاري لا فلسفة له ، وأنني بطريقتي هذه أحاول هدايته . وهو يعتقد أن لدي من الفلسفة ما يفوق حاجتي ، ويعمل على الحد منها وإنقاصها .

ولكن ما الذي سوف يحدث في النهاية ؟ سوف أكون أنا الرابح حتماً لسبب بسيط ، وهو أننا جميعاً ـ أنا وهو وقارىء هذه السطور ـ سوف يحل بنا نفس المصير الذي تلاقيه الأوراق المتساقطة من الأشجار والثلج المتساقط من السماء ، سواء جرفناها أو أبقيناها حيث هي . ستتحول جميعاً إلى تراب . .

إحصائيات تظهر عجائب الكون

كل إنسان عاش في هذا الكون ترك أثرًا فيه وحمل معه أثرًا منه

الاحصائيات ليست شيئاً جديداً على العالم ، فهناك إحصائية في المتحف البريطاني ، محفورة على لوحة من الصلصال ، يرجع تاريخها إلى عام (٣٨٠٠ ق.م) عن البابليين ، احتوت على معلومات عن عدد السكان ، كان يستخدمها الحكام لتقدير دخلهم من الضرائب التي تفرض على الشعب . وهناك احصائيات أخرى عن المصريين القدماء والرومان ، وكذلك عن وليام الفاتح تعود إلى عام ١٠٨٥ م .

أول إحصائية معروفة في أمريكا تعود إلى عام ١٧٩٠م . والاحصائيات تطلعنا على أشياء غريبة وملفتة للأنظار ، وتجعلنا نستقرىء ما سوف يحدث في المستقبل . ولنأخذ واحدة من هذه الاحصائيات . فلو أن سكان الأرض استمروا يتزايدون بالنسبة الحالية نفسها ، فسوف يصبح وزن الكتلة البشرية التي تعيش على سطح الأرض معادلاً لوزن الكرة الأرضية نفسها في عام ٣٥٣٠م ، وسوف يصبح وزن الكتلة البشرية في عام ٦٨٢٦ معادلاً لوزن

الكون المعروف . إنها حقائق تجعل الإنسان يجفل رعباً .

هناك حقائق أخرى نستطيع استقراءها من الإحصائيات . فمجموع سكان الكرة الأرضية كان في أيام يوليوس قيصر لا يتعدى (١٥٠) مليون نسمة ، أما اليوم فعدد سكان الأرض يزيد في كل عامين (١٥٠) مليون نسمة !!

ولنأخذ حقيقة أخرى مستخلصة من الإحصائيات أيضاً ، ففي الوقت الذي سوف تقضيه في قراءة هذا الكلام سوف يموت من سكان الأرض (٢٠٠) شخص وسوف يولد (٤٨٠) مولوداً جديداً . كل هذا سوف يحدث في دقيقتين اثنتين فقط . . !

يقول علماء الإحصاء : إنه ولد حتى الآن (٦٠) بليون نسمة . . فكم سوف يبلغ هذا العدد في المستقبل ؟؟

لابد أنه سوف يكون رقماً فلكياً . أما أغرب الاحصائيات فتقول إن كل واحد من هذه البلايين التي سكنت سطح الأرض كان مختلفاً عن كل المخلوقات الأخرى ، وكل من سيخلق من الآن وحتى قيام الساعة سوف يختلف عن غيره ، ولن تجد اثنين متشابهين تماماً أبداً ، كما أن أوجه الشبه بين أنواع الجنس البشري عموماً أكثر منها بينه وبين المخلوقات الأخرى .

وأخيراً وليس آخراً ، طلع علينا أحد العلماء المختصين في أبحاث الجرائم (أميل لوكارد) قبل خمسين عاماً بمبدأ أو نظرية علمية تقول إن أي شخص يمر من أي مكان لابد أن يترك أثراً في المكان الذي يمر به ، وأنه يحمل معه أثراً من ذلك المكان . (نظرية فوجلهم في تبادل الآثار) . وبناءً على هذه النظرية فإن كل إنسان عاش فوق هذا الكون قد ترك أثراً فيه ، وهذا الشيء لا يمكن رؤيته أو سماعه أو تعداده ، وهو شيء تعجز الإحصائيات عن جمعه ، ولكن لا قيمة لأي إحصائية لا تأخذ هذه الحقيقة في الحسبان .

□□□

هذه بعض القصص والطرائف التي أراد الكاتب أن يخرج القارىء منها بحكمة بالغة ، وقد يتفق بعضنا ـ أو يختلف ـ حول عمق هذا النوع من الكتب وأهميته ، ولكن الكتاب ـ والمؤلف ـ يريد في إطار التقدم التقني الهائل في حضارة الغرب ، التي ينبهر بها بعضنا ، يريد أن يقول : إن العلاقات الإنسانية والتفكير بالإنسان كإنسان هو الأهم من كل الزخرف المحيط ، فإن افتقد الإنسان إنسانيته لا تستطيع كل التقنية المحيطة به أن تعوضه عنها .

محمد الرميحي

(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

صفحة من الخمسينيات

بقلم : الدكتور عبد العزيز المقالح

للذكريات ـ على امتداد العمر ـ أدغالها ومتاهاتها الموحشة كالليالي التي لا تتحرك ولا تسطع فيها الأقمار ، ولها ـ على امتداد العمر أيضا ـ فضاءاتها المفتوحة المقدسة التي تعدو في شارع النفس بأقصى ما تستطيع من سرعة ، فأى صفحة منها أدعو ؟ وعند أية فقرة من العمر الذاهب أتوقف ؟ وما الذي يقصد إليه « العربي » من وراء دعوته الكريمة المحرجة ؟ ثم لماذا لا تموت الذكريات أو تجف كما يحدث لكريات الدم وخلايا الجسد ؟ ، ولماذا كل شيء منقوش بل ومحفور على حارطة الذاكرة ومسجل في تلافيفها الواعية بالصوت ، الصورة ، بالألوان السوداء والبيضاء والحمراء والخضراء ، وبكل الألوان المألوفة للعين وغير المألوفة ، الزاهي منها والكابي ؟

ولأن اسم (العربي) يذكرني بالعرب وبالعروبة ، ويذكرني بفترة ميلاده الذي جاء متزامنا مع أخصب سنوات الأمة التي حاول أن يكون واحدا من منابرها المضيئة ، فإني أرغب أن أعود بصفحة ذكرياتي الى تلك المرحلة ، بل الى نفس العام ١٩٥٨ ، وهو في تقديري الخاص أهم الأعوام في تاريخ العرب الحديث . في هذا العام قامت الوحدة بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) ، وفيه قامت ثورة ١٤ تموز في العراق ، وفيه دخلت اليمن مُكْرمةً ما سمي باتحاد الدول العربية ، الذي ضم مصر وسوريا واليمن ، وفتح ـ كما سنرى ـ نافذة صغيرة للنور في جدار السجن الذي كان اليمنيون يسمونه وطنا . وصفحة الذكريات هذه تقع في الشهر الأخير من ذلك العام ، وبالتحديد في السابع

عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ . وهي عن أول يوم لي في بور سعيد . وإذا كان الشاعر اليوناني الاسكندراني « قسطنطين كافافي » قد شغل نفسه في قصيدته الشهيرة « إيثاكا » في الحديث عن الحنين الى « إيثاكا » وفي وصف الطريق إليها فإن الحنين الى مصر قد كان بالنسبة لي هو الطريق الى بورسعيد . وقد بدأ ذلك الحنين معي منذ الطفولة الباكرة . وتكونت ملامحه الأولى على حصير المدرسة الابتدائية . مع القراءة الرشيدة ، ومع أقاصيص كامل كيلاني . ثم ازداد مع دخول أول جهاز مذياع الى منزل الأسرة في منتصف الخمسينيات بأصوات عبد الوهاب وأم كلثوم وحليم وغيرهم . وارتفعت حمى الحنين مع الاقتراب من طه حسين والرافعي والعقاد ومندور وأحمد أمين وتوفيق الحكيم .

وفي عام ١٩٥٦ اختزل العرب ـ وأنا واحد منهم ـ حبهم لمصر من خلال الاعجاب ببورسعيد التي أصبحت اسماً عربيا ارتبط منذ ذلك الحين بأسماء المدن التي صمدت في وجه العدوان والفاشية كليننغراد وباريس ومدريد . ولم يأت عام ١٩٥٨ بمفاجآته القومية والمحلية إلا وكنت قد كونت في وجداني لبورسعيد صورة لا أزهى ولا أجمل ولا أدق منها . صرت أعرف ميادينها ميدانا ميدانا ، وأحصي شوارعها ، شارعا شارعا ، وأحفظ عن ظهر قلب كل الشعر الذي قيل فيها ، وكل الأغاني التي تحدثت عنها . أما لماذا لم أتمكن حتى ذلك الحين من زيارة بورسعيد فلذلك سبب وحيد تختزله العبارة الشعبية التي تتردد كثيرا في أرجاء الوطن العربي وهي (العين بصيرة واليد قصيرة) !!

وفجأة خرج الزمن العربي من دورته الرتيبة الراكدة ، وحدثت المعجزة ، فقد قامت في فبراير ١٩٥٨ أول وحدة بين قطرين عربيين هما مصر وسوريا . وسارع ـ في اليمن ـ نظام الإمامة المتخلف العتيق الى التشعبط بقطار الوحدة انطلاقا من القاعدة الإمامية التي حددها شاعر اليمن الكبير الأستاذ محمد محمود الزبيري في بيته الشعري الشهير :

يهـرون الدنيـا بـزورة موسكـو
وعليهـم غبـار دنيـا ثمـود !

كان جمال عبدالناصر زعيما واقعيا بعيد النظر ، فلم يتردد في قبول اليمن في إطار وحدوي فضفاض أطلق عليه (اتحاد الدول العربية) ، وفي ظل ذلك الاتحاد الموهوم المزعوم نشأت أول كلية حربية في اليمن ، وتساقطت عن جدران السجن الكبير بعض الأحجار تاركة وراءها نافذة صغيرة للنور ، وعبر تلك النافذة الصغيرة حملتني أشواقي الى بورسعيد ، لقد أصبحت بين عشية وضحاها مواطناً في اتحاد الدول العربية . وكانت إذاعة صنعاء يومئذ وهي اذاعة ناشئة وناطقة باسم « المملكة المتوكلية » أو بالأصح باسم إمام هذه المملكة العريقة في التخلف ، كانت هذه الاذاعة تقول عن نفسها « هنا اذاعة الدول العربية المتحدة » . وفي ظل هذا التقارب المؤقت جرت أول مسابقة أدبية وعلمية من نوعها في القراءة الصيفية الحرة بين شباب دول الاتحاد : مصر ، سوريا ، اليمن ، وكنت لحسن الحظ واحداً من ثلاثة من المتسابقين حالفهم الحظ بالفوز في المسابقة وجائزتها رحلة الى مصر مع زيارة لبورسعيد المدينة العربية البطلة الخارجة من جحيم العدوان الثلاثي .

كيف وصلت الى القاهرة ؟ كيف قضيت الليلة الأولى؟ ماذا قالت الميادين والشوارع؟ وأسئلة كثيرة أخرى ، قد تحتاج الاجابة عنها الى عشرات الصفحات أتركها لاحتمالات المستقبل ، وأمضي الى حيث كانت النفوس تهفو الى بورسعيد . هاهي تستيقظ من قاع الذاكرة وتقف جليلة مغسولة بأضواء الشمس الشتائية الدافئة المبللة برذاذ خفيف ـ نشعر به ولا نحس وجوده ـ من مياه البحر الأبيض . إن بوسعي الآن ـ وبعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال ـ أن ألتقط صورة خاطفة لبورسعيد ، للناس ،

للبيوت ، للشوارع - للنصب التذكاري - للمتحف الذي يضم صور الأبطال وأسماءهم ، للأطلال التي كانت شوارع ، فأصبحت خرائب محروقة سوداء . وعند تلك الأطلال أحسست بموجة من الألم تعتصر روحي ، ولم أتحرر من وطأتها إلا عندما وقفنا عند تمثال « ديلسبس » . كان جسد التمثال البرونزي المحطم منكفئا على الأرض والأطفال يعبرونه بأحذيتهم الصغيرة في خيلاء ، والآباء والأمهات يلتقطون صورهم بالقرب من قاعدته الضخمة .

تناولنا طعام الغداء في مطعم قريب من الميناء ، ثم توجهنا صوب مدينة « بورفؤاد » الواقعة في الضفة المقابلة لبورسعيد . وقد وصلنا إليها في « عبَّارة » تقطع القناة وتقوم بدور الجسر المتحرك بين المدينتين ، وبورفؤاد مدينة تترقرق بالسحر ، وشوارعها النظيفة الصغيرة تحمل أسماء بعض المبدعين العرب أمثال : أحمد شوقي ، وخليل مطران ، وجبران خليل جبران . توقفنا قليلا على الشاطيء ، حيث كان عدد من المصورين يتسابقون في تحقيق رغبة من يريد أخذ صورة فورية تكون خلفيتها بورسعيد . أو المبنى الأبيض لإدارة قناة السويس . ومن الشاطيء ركبنا زورقا بخاريا طاف بنا عرض القناة ، حيث كانت البواخر تسير في نظام ، بعضها قادم من البحر الأبيض والبعض الآخر من البحر الأحمر ، وكنا كلما اقتربنا من احدى هذه البواخر رفع ركابها أيديهم تحية . كما استمعنا الى المرافق وهو يتحدث عن المزاعم الاستعمارية التي كانت تشكك في قدرة المرشدين العرب على إدارة القناة . كان قد مر عامان ويزيد على عودة القناة الى مصر ، وهي تسير بأيدي أبنائها كالساعة الدقيقة الانضباط ، إنهم - واقصد المستعمرين - لم يكونوا يكتفون باحتلال أرضنا وحسب ، وإنما كانوا يسعون كذلك الى التشكيك في قدرتنا على حمايتها وإدارتها . وعندما رجعنا الى الشاطيء كانت الشمس تقترب من الغروب ، وكان يومنا في بور سعيد يقترب من النهاية ويستقر في الضمير بتفصيلاته ، وايماءاته الفياضة بألف إيحاء وإيحاء . □

من أمثال الأمم والشعوب

* بالنار امتحان الذهب ، وبالذهب امتحان الرجال . (مثل صيني)
* إنك لن تستطيع أن تمنع طيور الهم أن تحلق فوق رأسك ، ولكنك تستطيع أن تمنعها أن تعشش في رأسك . (مثل صيني)
* حب الخير للناس هو أدب القلب . (مثل فرنسي)
* ابنك على ما تربيه . (مثل شعبي)
* إذا كنت لا تستطيع الابتسام فلا تفتح دكانا . (مثل صيني)
* ثلاثة أشياء لا يمكن تعلمها : الكرم ، والشعر ، والصوت الطروب . (مثل ايرلندى)
* إذا ذهب الحياء حل البلاء . (مثل شعبي)

من الأفكار الشائعة عن الفكر السياسي العربي
خلوه من المعالجة النظرية لفكرة الدولة ،
ونشأتها ، وعلاقة السلطة بالأفراد ،
ولكن القراءة المتأنية للإنتاج الفلسفي والفقهي العربي الإسلامي
تؤكد اهتمامه المبكر بهذه القضايا ، بتخريجاتها النظرية .

السلطة والدولة في الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور رضوان السيد

بدأ المتكلمون والمفكرون السياسيون والمؤرخون يؤلفون في نظرية السلطة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري . نعرف ذلك من أسماء وعناوين الكتب التي يذكرها ابن النديم في الفهرست ، والتي تحمل أسماء الإمامة أو مسائل في الإمامة . ويغلب على المؤلفات الأولى في موضوع السلطة (المصطلح المتعارف عليه لها : الإمامة) الطابع التاريخي . إذ يتحدث هؤلاء ، وأكثرهم من المتكلمين ومؤرخي الفرق ، عن تاريخ ظهور كل فرقة ، وأهم رجالاتها ، ثم أهم تفرعاتها ، وآرائها العقيدية والسياسية والفقهية . وهم ينطلقون في ذلك من رؤية متعارف عليها ، ظهرت مبكرا فيما يبدو ، وتعتبر الإمامة أو قضية السلطة والصراع عليها القضية الرئيسية في التاريخ الإسلامي الأول . يتكرر ذلك لدى مؤرخي الفرق في القرن الرابع وما بعده ، كالأشعري ، والناشىء الأكبر ، والبغدادي ، والشهرستاني ، ونقرأ ما يفيد ذلك عند الشافعي في الرسالة ، أواخر القرن الثاني الهجري ، مما يشعر بوجود هذه الرؤية منذ البداية .

ثلاث مسائل

وعلى الرغم من الطابع التاريخي للمؤلفات الأولى في قضية الإمامة ، فإن هذه المؤلفات تتضمن ثلاث مسائل في نظرية السلطة ، أولاها القول بضرورة السلطة أو السلطان (نظرية وجوب الإمامة فيما بعد) ، والثانية ضرورة وحدة السلطان . ويذكر المتكلمون لضرورة السلطة أو الإمامة أدلة وبراهين بعضها عقلي والآخر شرعي تاريخي ، وتذكرنا الأدلة العقلية على ضرورة الإمامة لدى المتكلمين الأوائل بتلك المعروفة « كلاسيكيا » عند الاغريق والرومان ، مثل القول بعمى غرائز البشر ، وتناقض مصالحهم الخاصة ، وإقبالهم على التصارع والتخاصم من أجل إرضاء الغرائز والنوازع . ثم عرف

المتكلمون والفلاسفة الإسلاميون الأخلاق لارسطو، والجمهورية لأفلاطون، وبعض المنحولات الهيللينية. فتطورت عندهم أدلة ضرورة السلطة من الناحية العقلية، إذ قالوا بأن البشر يحتاج كل منهم للآخر لقضاء حاجاتهم الأساسية، فيجتمعون من أجل ذلك. لكن الخصومات تنشأ بينهم لرغبة كل منهم في الحصول على أكثر من حاجته (الحاجات الأساسية في نظر الحكماء: الغذاء والكساء والبناء)، والعمل والانتاج أقل مما يعمل وينتج، فتنشأ أعراف ومبادىء وسنن ونواميس لتنظيم العلاقات بين البشر، بعضها من اصطلاحهم، وبعضها ذو أصل ديني. ثم يكون ضروريا وجود سادة أو سائس، بعد واضع أو واضعي الأعراف والنواميس، ليشرف على حسن التطبيق والرعاية، وليوقع العقوبة بالخارجين على الناموس أو السنة، وهذا السائس هو الإمام أو السلطان. أما الأدلة التاريخية الشرعية فتذكر أن المسلمين سارعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى تعيين إمام، ولم يترددوا لحظة واحدة في ذلك. كما لم يفكروا - كما ذكر بعض المتكلمين - في أن الشريعة التي يؤمن بها الجميع قد تكون كافية بذاتها للاستغناء عن إمام أو سلطان. إذ أن الله سبحانه وتعالى - كما ذكر عثمان بن عفان - يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن. وقد قال الإمام علي ردا على الخوارج الذين قالوا: لا حكم إلا لله! كلمة حق أريد بها باطل. بل لا بد للناس من أمير يأخذ به الله للضعيف من القوي، ويجمع به الفيء، ويجاهد به العدو... الخ. والمتكلمون وفقهاء السياسة يردون بذلك على الخوارج، وعلى بعض المتكلمين الذين «شذوا»، فلم يروا ضرورة السلطان. في مقدمة هؤلاء هشام بن عمرو الفوطي الذي اشترط لصحة إمامة أي إمام إجماع الناس عليه. ولأن الناس لم يجمعوا بعد عثمان على أحد، فلا حاجة لمتابعة تجربة السلطة التي أثبتت فشلها في تمثيل مصالح الناس جميعا. ثم منهم أبوبكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم الذي قال: «إذا تكاف الناس عن التظالم استغنوا عن السلطان».

وتأتي المسألة الثانية بعد «وجوب الإمامة» وهي ضرورة وحدة السلطان. ومن المعروف أن بعض الفلاسفة الإغريق رأوا إمكان تعدد السلاطين ضمن الأمة الواحدة. وقد أخذ عنهم ذلك بعض فلاسفة الإسلام. لكن الحديث عن ضرورة وحدة السلطان ظاهر في الرسالة للإمام الشافعي (- ٢٠٥ هـ)، مما يدل على أن القضية طرحت في سياق آخر غير السياق الاغريقي وقد عاصر الشافعي صراع الأمين والمأمون الذي هدد بظهور إمامين، كما أن الأمويين بالأندلس كانوا قد استقلوا عمليا، وإن لم يَتَسَمَّوْا بإمارة المؤمنين. أما المفكرون المسلمون فقد فهموا من مصطلح الأمة الواحدة في القرآن، وسيرة السلف الصالح وحدة في السلطان، ووحدة في الأرض، ووحدة في الجماعة. ولم تتساو الوحدات الثلاث في نظرهم في الأهمية، لكنها كانت المثل الأعلى المطلوب، الذي تحقق أيام الراشدين والأمويين. فلما ظهرت الدويلات وانفصلت الخلافة عن السلطة (الشرعية عن القوة السياسية) عاد المفكرون للتمسك بالوحدة المعْلَنَةِ للدار، والوحدة الضرورية للأمة، مع اعتراف بامكان تعدد الأئمة إذا تباعدت الأقطار.

وكانت المسألة الثالثة المتصلة بنظرية السلطة التي جرت معالجتها منذ البداية: مسألة شرعية السلطان أو متى يكون الإمام شرعيا. ومتى يكون متغلباً غير شرعي. وهنا أيضا كان للتجربة التاريخية العربية الاسلامية تأثيرها البالغ على فقهاء السياسة والكلام. فقد تمسك بعض بمبدأ الشورى باعتباره الطريق الأوحد للوصول إلى الإجماع حول رجل من قريش يتولى السلطة، بينما نظر آخرون لشكل التجربة، فقالوا: إن

البيعة العامة ـ بقطع النظر عن كيفية حدوثها ـ هي التي تفترق بين الشرعي وغير الشرعي . وذهب فريق ثالث إلى أن الحكم على شرعية أي سلطان ينبغي أن يستند إلى مدى تحقيقه للأهداف العليا للأمة ، بغض النظر عن طريقة وصوله للسلطة ، والأهداف هي : الجهاد والدعوة وحماية دار الإسلام ، والعدالة في قسمة الفيء ، والحفاظ على الوحدة الداخلية ، والحيلولة دون الفتنة . ولا تنتفي شرعيتُه عند فريق الأكثرية هذا حتى إن لم يحقق بعض هذه الاهداف ، مادام يحقق هدفين منها : حماية الدار ، ومنع الفتنة . ولكل ذلك تفصيلات ليس هذا الموجز موضعا مناسبا لها .

الدولة وأشكالها

درس الفقهاء والمتكلمون والكتّاب الاداريون والفلاسفة والمؤرخون إذن مسائل كثيرة متعلقة بأصلِ السلطة أو نظريتها ، ضرورةً ووحدةً وشرعيةً . وفي الوقت نفسه بدأ الاهتمام بدراسة تجربة الأمة التاريخية مع سلطتها أو سلطاتها ،

ومقارنة ذلك بما قرءوه من تجارب الأمم الأخرى . وقد كان ظاهرا لهم منذ البداية أن تجربتهم مع السلطة السياسية لديهم تختلف عن تجارب الأمم الأخرى الغابرة والمعاصرة ، وقد

سموا نظامهم خلافة ، بينما سمىّ الآخرون نُظُمَهم ملكا ، وسموا ملوكهم أو لقبوهم قياصرة وأكاسرة وخواقين وما شابه . وإذا كانت سلطة الأمة عند العرب المسلمين قد تأسست على الإسلام أو في حضن دين جديد ، فإنه كان واضحا بالنسبة لهم أن ذلك لا يمكن قوله عن سلطة الروم الذين قامت دولتهم قبل المسيحية بقرون كثيرة . وليس واضحا كيف بدأت العلاقة بين دولة الفرس القدامى الاخمينيين والزرادشتية ، بل إن هناك من العلماء من يقول : إن الزرادشتية لم تصبح دين الدولة الرسمي عند الفرس إلا أيام الساسانيين . ثم ما معنى الدين ؟

هل هو الدين السماوي أو الموحى في نظر المسلمين ، أم أن المفكرين المسلمين يعتبرون كل منظومة تقوم بوظيفة الدين ، دينا ، وإن يكن باطلا في نظرهم ؟ وإذا كانت علاقة الدين التأسيسية بالسلطة في عالمهم الحضاري واضحة بالنسبة لهم ، فكيف رأوا علاقة الأديان الأخرى بالنظم السياسية في المجالات الحضارية للأمم التي عرفوها ، أو وصلتهم آثارها الكتابية ؟ كل هذه الأمور بحثها الفكر السياسي الإسلامي تحت عنوان « تدبير الدول » أو « أنواع الدول » .

والدولة كما هو معروف لا ترادف السلطة أو الإمامة في المذاق اللغوي العربي ، والفكر السياسي الإسلامي . فالدولة تعني تنقل الأمور من حال إلى حال ، وانحياز الزمان لقوم على قوم في السلطة أو في الثروة . وقد أطلق العباسيون على دعوتهم الثورية ضد الأمويين اسم الدولة تفاؤلا بالظفر وأن يقضي لهم الزمان . لذلك فإن السلطة واحدة في أصلها ، وعلل قيامها الأولى لدى الأمم كلها . أما ما تختلف فيه فطريقة القيام ، وطرائق الاستمرار ، ومن هنا تأتي الدول واشكالها . ومن هذا المنطلق كانت السلطة واحدة وثابتة . والدول متعددة ومتغيرة في نظرهم .

قال ابن المقفع (ـ ١٤٢ هـ) : « إن الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى » . وليس بالوسع بسبب الصيغة الأخلاقية الاعتبارية التي تغلف الأمر كله عند الكاتب في الأدب الكبير ، القول ما إذا كان يقصد هنا أشكال الدول ، أو مجرد الإرشاد والاعتبار . ونحن نعرف منذ زمن أن الترجمات بدأت عن اليونانية والسريانية أيام الأمويين وكذا عن الفهلوية . فهل عرف ابن المقفع سماعا أو قراءة شيئا عن تقسيم ارسطو لأشكال تجلي السلطة في دول ديمقراطية ، وارستقراطية ، وملكية . . . الخ ؟ كل ما ذكرناه أمور لا يمكن القطع بشيء فيها . ومع ذلك فإن هذه العبارة القصيرة تبقى

شديدة الأهمية ، إذ الواضح أن الرجل يرى أن الملك (السلطة) ممكن ، وإن لم يتأسس على دين . وهو إن كان كذلك انقسم إلى قسمين : ملك حزم أو ملك هوى واستبداد . والغالب أن الدولة الايرانية التي ترجم ابن المقفع كثيرا من مأثوراتها لم تقم على دين ، بل قامت على التدبير العقلي (الحزم) . وقد استمرت في نظر ابن المقفع وأضرابه من الكتاب آلافا من السنين ، بسبب بيروقراطيتها الطبقية الشديدة ، والعدل بين تلك الطبقات لدى الأكاسرة . وقد عظمت المأثورات التي ترجمها ابن المقفع وغيره من شأن العدل الفارسي ، حتى سمى المسلمون كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م) الساساني : « الملك العادل » ، تبعا للمأثورات الفارسية . فكأن العدل يمكن أن يكون أساسا للشرعية ، وإن لم تكن هناك شرعية إلهية تتأسس عليها السلطة ، وتقوم على تطبيقها . ويتضح من عروض الدينوري والمسعودي . وصاعد الأندلسي لتواريخ الروم والاغريق والهنود والصينيين أن المسلمين كانوا يعرفون أمماً غير الفرس ، لم تتأسس نظمهم على الدين ، بل على المصلحة المُدْرَكة بالعقل ، والسياسة المستمرة بالعدل » . وربما كان هذا الانطباع عن الدولة الفارسية القديمة ، والدولة الرومانية وراء ظهور المأثور الذي يقول : يبقى الملك مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ! .

ويزعم ابن الطقطقي في « الفخري في الآداب السلطانية » أن هولاكو جمع علماء بغداد بعد قتله للخليفة العباسي ، وتدميره للمدينة ، وسألهم أيٌّ أحب إليهم ، وأقرب لدينهم : المسلم الظالم أو الكافر العادل ؟ ! لكن ما لم يفكر فيه صاحب الفخري إمكان وجود السلطان المسلم العادل ؟ وهذا ما لاحظه أبو الحسن العامري (ـ ٣٨١ هـ) الذي أنكر قبل ابن الطقطقي بقرون دعوى العدل الفارسي والرومي . صحيح أن الدولة الفارسية والأخرى الرومية قامتا على غير دين ، لكنهما من أجل تلك لم تكونا عادلتين . ثم إن ضرورة السلطة للمجتمع ، وعدل الفرس المزعوم لم يمنعا انهيار الدولة الايرانية على يد المسلمين الذين قدموا نموذجا جديدا للدولة ، قام على ضرب النظام الطبقي غير العادل ، وأنشأ مجتمعا مفتوحا الناس فيه أكفاء متماثلون .

دولة القوة

أفاد أبو الحسن الماوردي (ـ ٤٥٠ هـ) من هذه النقاشات كلها ، وعرض للمرة الأولى ـ فيما أعلم ـ نظرية متكاملة لنشوء الدول وانهيارها ، وذلك في كتابيه : « نصيحة الملوك » « وتسهيل النظر وتعجيل الظفر » . أما كتابه الثالث « الأحكام السلطانية » فقد درس فيه الشكل الاسلامي للسلطة ، أي الخلافة . وبالوسع تبين مصادر رؤية الماوردي أو نظريته ، فهناك التجربة العربية الاسلامية مع السلطة . وهناك الترجمات عن التجارب الفارسية والاغريقية والبيزنطية ، وهناك أخيرا الجدل بين الفرق الاسلامية المختلفة ، وقد تناول فيها تناول مسائل تتعلق بنظرية السلطة وأشكال الدول كما سبق أن قدمنا .

قال الماوردي في « نصيحة الملوك » : إن المجتمعات البشرية كلها تتأسس أو تقوم على الدين . وليس ضروريا أن يكون هذا الدين مُوحىً أو حقا ، بل المهم إجماع الناس في المجتمع على الإيمان بعقيدةٍ معينةٍ أو دين معين . وهذا هو الأساس العام . فإذا قام المجتمع واتجه لإنشاء سلطة تنظم أموره ، وتحفظ كيانه ، وتدفع عنه شرور الأعداء ، فإن الأشكال المحتملة للسلطة فيه ثلاثة : دولة الدين ، ودولة القوة ، ودولة المال والثروة . ويوضح الماوردي في « تسهيل النظر » ماذا يعني « بدولة الدين » فيقول : إنها تلك السلطة التي تعتبر أن الدين الذي قام عليه المجتمع لم تعد أحكامه مراعاة أو مطبقة ، وأن

الأهداف العامة للمجتمع السياسي لم تعد مقصورة ، فتنهض جماعة بدعوة وباسم الأمة ودينها ، وتقاتل بها السلطان القائم باسم انحرافه عن الدين أو عن عرف الأمة ، وباسم الثورة على الظلم والطاغوت ، وتنشيء عهدا جديدا (دولة) ترى أنه أقرب لمضامين دين الجماعة . وتقوم « دولة القوة » في نظر الماوردي في ظروف استثنائية تحدث أزمة في السياسة العامة للدولة القائمة . ويكون الأمر غالبا أمر اعتداءات خارجية عجزت السلطة القائمة في المجتمع عن التصدي لها . فإذا كانت الدعوة الدينية تعطي دولة الدين التي تقوم عليه أساس شرعيتها ، فإن دولة القوة أو سلطة العصبة العسكرية تكتسب الشرعية من خلال قدرتها في الأوقات العصيبة على التصدّي للعدوان الخارجي ، وإعادة الأمور في الداخل إلى نصابها . وتأتي دولة المال والثروة في حقب التراخي والانفلات ، إذ تصل للسلطة في المجتمع عصبة من الأثرياء عن طريق رشوة المتنفذين ، واستخدام المرتزقة .

دولة الدين

أما « دولة الدين » فإن مَثَلَهَا الأوضح لدى الماوردي الخلافة الاسلامية التي تأسست مباشرة على الدعوة . وهو يرى أن كل دعوة دينية تتحول إلى سلطة سياسية بعد وفاة مؤسسها . ومسوغ هذا التحول في نظر خلفاء « صاحب الدعوة » حماية الدعوة ، والعمل على نشرها في العالم .

لكن القائمين على الدين الذي تحول إلى مجتمع سياسي يتصارعون فيما بينهم ، إما على تأويل الشريعة ، وإما على السلطة نفسها أو زعامة المؤسسة . وخير مثل لدى الماوردي على دولة القوة الايرانيون القدماء من جهة ، والدولة السلطانية التي تبلورت في التاريخ الإسلامي مع ظهور البويهيين فالسلاجقة . فمن المعروف من « تاريخ الطبري » أن المسلمين كانوا يعرفون أن غزو الاسكندر للعالم الشرقي أسقط الامبراطورية الايرانية ، وقسم إيران نفسها . فلما مات الاسكندر قام في إيران « ملوك الطوائف » الذين تقاسموا الأرض والناس ، حتى جاء أردشير بن بابك بن ساسان بعصبيته العسكرية في منطقة اصطخر ، فوحّد ايران ، وتصدى للرومان والترك ، والشعوب الأخرى في بلاد ما وراء النهرين أفادوا من انهيار الامبراطورية الفارسية القديمة ، وأنشأوا ممالكهم الخاصة على حسابها . وفي الاسلام جاء السلاجقة موحّدين لدار الإسلام ، ومدافعين عنها في وجه البيزنطيين ، بعد أن ضعفت الخلافة وتناوشتها السيوف . لكن إذا كان مقتل رجالات الدولة الدينية يكمن في انقسامهم حول الدين ، تأويلا وتطبيقا ، فإن مقتل « دولة القوة » يكمن في أن شرعيتها خارجية . فإذا تراجع الخطر الخارجي ، وتوحد الداخل انتفت مسوغات وجود العسكر ، إلا إذا قام من بينهم سلطان متميز ، يربط الشرعية بالقوة في تدعيم سلطانه . أما دولة المال والثروة فلاحظ لها في الاستمرار بنظر الماوردي . إنما هي انقلاب على حين غفلة ، يقضي عليه بعد فترة وجيزة العسكر والمرتزقة الذين أقاموه ، أو دعوة دينية جديدة ، وليس في تاريخه مثل على دولة المال ، ولا في التاريخ الايراني القديم . لذلك رجحت أن يكون الماوردي قد أفاد في ذكرها من أرسطو الذي يعتبرها شكلا من أشكال فساد السلطة في المجتمع ، ويسميها البلوتوقراطية .

يعتبر الماوردي إذن دولتي الدين والقوة دولتين عاديتين ، تحدثان على أرضية المجتمع المؤمن بدين واحد أو عرف عام معتبر اجتماعيا . والفرق بينهما أن دولة الدعوة الدينية ذات شرعية داخلية مستمدة من الدين مباشرة ، بينما « دولة القوة » ذات شرعية خارجية نسبيا . لذلك يرى أن الدولة الأولى تكون أثبت وأطول عمراً . وتسقط عندما تعجز أو تحيد عن تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها : تطبيق الشريعة ، ونشر

الدعوة ومنع الفتنة ، وحماية الدار . بينما تكون دولة القوة أقل ثباتا . وتسقط عندما تعجز عن ربط نفسها أو سلطتها بدين المجتمع أو عرفه العام ، فقد سقطت الدولة الايرانية بعدما عجزت عن التصدي للبيزنطيين والعرب المسلمين ، كما عجزت عن ربط نفسها بالزرادشتية التي استندت إليها بعد قيامها منذ أيام أردشير (ـ ٢٤١ م) إلى أيام كسرى أنوشروان (ـ ٥٧٨ م) . والأمر نفسه يمكن قوله على البويهيين الذين شهد الماوردي سقوطهم على يد السلاجقة عندما دخلوا بغداد عام ٤٤٤ هـ ، بعد أن اكتسحوا الدولة البويهية في مهدها في بلاد فارس .

ولا يُخفي الماوردي هدفه من وراء تحليله لكيفيات قيام الدول ، وكيفيات انهيارها ، فهو يريد من وراء ذلك الوصول لعرض الشكل الإسلامي للسلطة (الخلافة) ، باعتباره الشكل الأصلح والأبقى لأمتنا . صحيحٌ أنّ رؤيته لأشكال السلطة أو الدولة ـ كما يسميها ـ تدخل في باب فلسفة السياسة ، لكنه فقيه بالدرجة الأولى ، لذلك يخص السلطة الاسلامية بكتاب كامل ، هو « الأحكام السلطانية » ، يدرس فيه طريقة قيام السلطة الاسلامية كشكل من أشكال الدعوة الدينية ، ثم يتتبع تطور مؤسسات الدولة الإسلامية ، وقيام الثنائية : الخلافة / السلطنة ، معتبراً السلطنة ، أي دولة القوة ، تحولاً مفهوماً ، لكنه غيرُ مستقرٍ وغير مستمر .

ولأنه يستند في تنظيره إلى التاريخ ، والتاريخ الإسلامي على الأخص ، فهو يحاول أن يفهم قوانين قيام الدول وانهيارها من ضمن التاريخ دونما جبريةٍ أو ميكانيكيةٍ حاكمة ، لهذا فهو ينصح لها إن أرادت البقاء ـ وكأنما ينصح السلاجقة وهم السلاطين الجدد ـ أن يربطوا أنفسهم بعرف الأمة الداخلي ، أي بالإسلام ، بعد أن نجحوا في التصدّي للبيزنطيين ، عدوّ الإسلام الأول حتى أيامه .

رأي ابن خلدون

استشهد الماوردي بمأثور هيلليني يشبه الدولة بالثمرة التي تبدو أول ظهورها قويةً صلبةً ، ثم تدرك وتحلو ، ثم تتخثّر وتسقط . لكنه لم يتابع في رؤيته التي عرضناها هنا هذا التصور الميكانيكي . أمّا ابن خلدون فقد ذكر المأثور ، وأضاف إليه تشبيهاً عضوياً ماثل فيه بين تطور الدولة المعنية وأفراد النوع البشري . فالإنسان يكونُ فتياً قوياً ، ثم يكتهل وينضج ، ثم يشيخ ويفنى . لذلك فإنّ عُمُرَ الدولة عنده أربعة أجيال كعمر الرجل الواحد المعمّر ، وهو يقول مثل الماوردي بدولة الدعوة الدينية ، ودولة القوة ، لكنه يهتم أكثر من الماوردي بالأساس الاجتماعي للسلطة ، وهو يرى أنه أياً كان نوع الدولة فإنها تقوم على عصبيةٍ قبليةٍ أو عشائرية ، ثم تنمو فتكون ملكاً ، ثم تشيخُ وتسقطُ . □

دهـــــــاء

● غضب الرشيد على حميد الطوسي ، فأمر بإحضار السيف ، فبكى الرجل ، فقال الرشيد : ما الذي يبكيك ؟

قال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت ، لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي .

فضحك الرشيد ، وعفا عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدعا

من أينَ جئتِ وخافقي تَعِبُ ... لا النارُ تسكنه ولا الحَطَبُ
وأصابعي أوتارُها يَبِسَتْ ... هيهات في عينيكِ تصطخبُ
من أينَ جئتِ وليسَ يُوقظُني ... ما تُرسلُ الأجفانُ والهُدُبُ
قَدْ سُدَّتِ الأبوابُ من زمنٍ ... ونوافذي لم تفتقدْ سُحُبُ
وتكسّرت في خاطري صُوَرٌ ... وتخاطفتْ مرآتي الحُجُبُ
إنّي وإن أمطرتِني دِيَماً ... صحراءُ لا يحفل بها العُشُبُ
لا تطرقي بابي فما جَمٌ ... هذي التي من خلفِهِ تَثِبُ
لكنّها خيلي وأعرفها ... لا تشتهي أرضاً ولا تَهَبُ
الأربعون وكيف أنكرها ... مُذْ أدبرت وتكسّر القَصَبُ
لو أن في وسعي مكابدةً ... لاخترت أنْ يجتاحني اللهبُ
وأمدّ من روحي له سبباً ... إنْ مُدَّ لي من روحِهِ سَبَبُ
يا واحةً ما أتعبتْ سفري ... ماذا إذا قد جئت والتَّعَبُ
ماذا إذا أحببتُ ظامئةً ... واجتاحني من رملِها السَّغَبُ
وتوسّلت كأسي لتشربَها ... فإذا الذي تَرْجُوهُ ما شَرِبوا
الأربعون وقارُها وَجَعٌ ... والأربعون وقارُها كَذِبُ
والأربعون رمادُها شُعَلٌ ... والأربعون هُدُوءُها صَخَبُ
مُدّي يديكِ فغابتي اشتعلتْ ... ومواقدي لوجئتِها حَطَبُ
وتوسّدي صدري فما مطرٌ ... هذا الذي لو غبتِ ينسكبُ
إنّي على كفّيك في سفرٍ ... وأخاف أن يغتالني الشغبُ

« البيريسترويكا »

.. إعادة البناء

بقلم : أمين هويدي

تثير قرارات الرئيس السوفيتي « جورباتشوف » في معالجته لشئون شعوب الاتحاد السوفيتي الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية مع دول العالم ، الكثير من الآراء والتعليقات والتفسيرات حول دوافعها ونتائجها المحتملة .

ولإدراك « العربي » أن ما يجري في الاتحاد السوفيتي ـ كدولة عظمى ـ سيكون له تأثير عميق في العلاقات الدولية التي أصبحت شديدة التشابك ، كما سيكون له انعكاساته على الوطن العربي ، لذا تفسح المجال لمحاولات تفسير هذه التغييرات ودلالاتها .

لاشك أن فترة الثمانينيات تعتبر نقطة تحول كبرى في النظام العالمي الذي يتحكم في الكوكب الذي نعيش فيه ، فالدول الاثنتا عشرة الأعضاء في السوق الأوربية المشتركة تخطو خطواتها الثابتة لإعلان « الولايات المتحدة الأوروبية » بسوقها الموحدة عام ١٩٩٢ .

والصين بقيادتها الجديدة تعلن وتخوض ما يسمى ثورة التصحيح الكبرى التي تطلق عليها اسم « الجاي جي GAI — GI » ، وفي الاتحاد السوفيتي يعلن ميخائيل جورباتشوف عن « إعادة البناء » أي « البيريسترويكا » التي يركز فيها على إحداث تغييرات جذرية داخلية ، يغلفها بتغييرات في السياسة الخارجية ، جعلت العالم يعيد حساباته ، ويرتب أوراقه من جديد . ومن الضروري لنا ـ وكما يفعل غيرنا بوعي ـ أن نتابع ما يجري في الاتحاد السوفيتي وغيره ، لأنه سيؤثر فينا حتما ، ولذلك سنحاول إلقاء بعض الأضواء على بعض الأفكار الرئيسية لميخائيل جورباتشوف عن « البيريسترويكا » .

البيريسترويكا لماذا ؟

حينما قفز « جورباتشوف » إلى قمة السلطة أيقن « أن السيارة لم تكن تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس إلى عجلة القيادة ، وهذا أمر سبق أن حذر منه « لينين » في أوائل أيام الثورة البلشفية ، فالعالم كله يتغير ، عدا الاتحاد السوفيتي الذي وضع نفسه في إطار « أيديولوجي » ، لايريد أن يتحرر منه ، فالتطورات الاجتماعية غيرت طبيعة المجتمعات وعلاقاتها بعضها ببعض .

إن عالم العشرينيات حينما بدأت الثورة في روسيا ليس هو عالم الثمانينيات أو التسعينيات ، والاتحاد السوفيتي اليوم ليس هو « روسيا القيصرية » التي حطمها « لينين » ورفاقه بعد الثورة .

والثورة ليست عملا استاتيكيا « Static » ، يحدث في لحظة ثم يلقي الثوار بعدها أسلحتهم ويستريحون ، تظللهم أكاليل الغار بعد النصر ، بل الثورة عمل « ديناميكي » تسعى إلى التغيير والتطوير نحو الأفضل . وبذلك فهي تعني التدمير والبناء.وبدون تدمير ، لا يمكن تنظيف الموقع ليقام البناء الجديد . إن « البيريسترويكا » تعني إزالة جذرية وحازمة للعقبات التي تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، كما تعني التضحية بالفروع من أجل انطلاق الجوهر .

إن النظرية « الماركسية » تنادي بالتغيير المستمر ، على أساس أن وسائل الانتاج وعلاقاته ، تتطور بصفة دائمة ، الأمر الذي يحتم على البناء السياسي الذي يمثلها أن يتواءم مع التغيير وإلا ينهار من أساسه ، إذ يصبح البناء مرتكزا على أساس تغيّر كلية عن الأساس الذي أنشيء فوقه في مبدأ الأمر . لينين نفسه واجهته هذه المشكلة بعد الثورة مباشرة ، حينما اصطدم بالأمر الواقع ، فنادى « بالخطة الاقتصادية الجديدة » التي فتح عن طريقها مجالا للقطاع الخاص والاستثمار الأجنبي ، لأن البلاد في حاجة إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام .

وبناء على هذه النظرة أقدم جورباتشوف على تنفيذ إجراءات غير معتادة : انتخاب المديرين في المؤسسات والمكاتب ، تعدد المرشحين لانتخابات السوفيتيات ، المشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية ، مصانع ووحدات ومزارع جماعية وحكومية تسير نفسها بالتمويل الذاتي ، رفع القيود عن المزارع التي تغذي مصانع للمواد الغذائية ، اتساع النشاط التعاوني ، تشجيع النشاط الفردي في الإنتاج الصغير الحجم ، إغلاق الوحدات الخاسرة ، صحافة أكثر وضوحا ، تأجير المزارع للعائلات فترة تصل إلى ٥٠ عاما .

ولكن مازال السؤال قائما : لماذا البيريسترويكا؟ ما الذي حدث بالضبط في الاتحاد السوفيتي لإعلان الثورة على الثورة مع الاستمرار في التوجه والأهداف ؟

اختلال التوازن

والذي حدث في الاتحاد السوفيتي حتى بداية عصر « جورباتشوف » ثورة ضخمة ، بكل المقاييس ، في ظل الظروف التي سادت في تلك الفترة ، فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بنظام عالمي جديد ، «أحادي الأقطاب» ، سيطرت فيه الولايات المتحدة على العالم في ظل « الاحتكار النووي » . وكان هذا خطرا ماحقا على العالم الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي ، إذ أصبح للولايات المتحدة القدرة على فرض « السلام الامريكي » ، كما تراه على الكوكب الذي نعيش فيه ، ولم ينس الاتحاد السوفيتي ما فعلته قنبلتا « هيروشيما » و « ناجازاكي » باليابان ، ولم يجد إلا خيارا واحدا أمامه ، وهو خوض معركة حياة أو موت ، لتحقيق « التعادل النووي » مع الولايات المتحدة ، لتحويل العالم إلى عالم « ثنائي الأقطاب » بدلا من « أحادي الأقطاب » ، ونجح الاتحاد السوفيتي ، وأصبح يملك « ترسانة » من الأسلحة التقليدية والنووية هائلة ورادعة .

وحينما وصل الاتحاد السوفيتي إلى غرضه ، وجد نفسه في نقطة حرجة ، اختل فيها التوازن بين قواه الثلاث : العسكرية والاقتصادية والسياسية ، وأيقن جورباتشوف أن قدرة الاتحاد السوفيتي الداخلية هي التي تحدد مدى سياسته الخارجية ومصداقيتها ، وأن رجلا قوية واحدة - وهي القوة العسكرية - لاتكفي للتحرك في العالم الذي نعيش فيه .

ووجد جورباتشوف أن القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي تتآكل ، فليس معقولا أن الاتحاد السوفيتي الذي بلغ الذروة في التقنية العسكرية ، ووصل إلى القمر ، وعسكر في الفضاء ، عاجز في الوقت نفسه في مجالات التقنية المدنية ، وعاجز عن توفير المواد الغذائية لشعبه ، ويضطر لاستيراد النسبة العظمى من احتياجاته من أسواق منافسيه ، ويفتقر شعبه إلى كثير من المواد الاستهلاكية ، بل لقد تولدت لدى الشعوب السوفيتية عقدة من جودة المنتجات الغربية وليس معقولا أن يستمر الاتحاد السوفيتي في قياس معدلات التنمية بحجم الاستثمارات المتزايدة ، وكمية المواد الأولية ، والطاقة المستخدمة في الانتاج ، وليس بزيادة الانتاجية ورفع مستوى الانتاج ، أو أن يظل غائبا عن الأسواق العالمية في كثير من المجالات ، فلا يتمكن من الحصول على العملة الصعبة لعجزه في مجال الصادرات . ليس معقولا أن تكون قوته العسكرية جبارة كاسحة ، وقوته الاقتصادية متواضعة عاجزة ، في عالم لاتقل فيه المنافسة الاقتصادية أهمية عن المنافسة العسكرية بأي حال من الأحوال .

وفي الوقت نفسه ليس معقولا في ظل قوته العسكرية الهائلة ، أن يظل الوضع السياسي للدولة والفرد على الوضع الثقيل نفسه الذي تطلبته مرحلة التحول العظمى ، وأن يصبح الحزب الشيوعي فوق الشعب وليس مع الشعب ، مسيطرا على كل السلطات ، وخاصة بعد أن ترهل ودخله بعض الفساد . إن المزيد من الاشتراكية لايمكن تحقيقه إلا بمزيد من الديموقراطية ، وإشراك الجماهير في عمليات التحول . إن العمل وحده هو الذي يحدد المكان الحقيقي للمواطن في المجتمع ، وكذلك وضعه الاجتماعي ، فالاشتراكية ليس لها علاقة بالمساواة الكاملة ولايمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهلاك وفقا لمبدأ « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » ، إذ سيكون ذلك في ظل الشيوعية ، أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتماعية ، وهو « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » . للعمال الحق في اختيار مديرهم ، وينبغي على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وألا تكون شريكا طيعا للإدارة . إن الجلاسنوست ، أو العلانية والنقد ، والنقد الذاتي ، لابد أن تمارس على أساس من معرفة الحقيقة ، فلا يجوز أن تستمر أجهزة الإعلام والثقافة على صورتها القائمة في ظل ثورة الاتصال التي جعلت الدول عارية بعضها أمام بعض ، وليس معقولا أن تتضخم القوة العسكرية وتتآكل حقوق الانسان .

وفضل جورباتشوف أن يواجه النقطة الحرجة ، لا أن يتجاهلها كما فعل غيره ، فكان عليه أن يجد حلا للمعادلة الصعبة : كيف يدعم القوتين ، الاقتصادية والسياسية ، دون المساس بالقوة العسكرية ؟ لقد وصل الاتحاد السوفيتي الى حد الكفاية في وسائل الدفاع ، بحيث أصبح قادرا على تدمير الولايات المتحدة عشر مرات ، وأصبح واثقا أن الشعب الأمريكي أصبح رهينة في يد الكرملين ، كما أن الشعب السوفيتي رهينة بدوره في يد البيت الأبيض ، وبذلك أصبح قادرا على أن يحافظ على السلام في ظل قوته الرادعة . ولكن ما فائدة ضمان المحافظة على السلام في ظل الشك في القدرة على المحافظة على النظام ؟! لم لايوقف سباق التسلح حتى يدفع ماء الحياة فى شرايين الأبنية الاقتصادية والسياسية ؟ لم لا يستغل قوته العسكرية التي وصل إليها وحققها في عملية اعادة البناء ؟ هكذا فكر وأقدم على التنفيذ . ولكن ما كان يمكنه القيام بذلك إلا في ظل القوة العسكرية التي حققتها الأجيال السابقة في ظل قياداتها المتتابعة بما لها وما عليها .

البيريسترويكا : كيف ؟

لم يكن ميخائيل جورباتشوف أول من حاول « إعادة البناء » من قادة الاتحاد السوفيتي ، فقد

حاول ذلك « خروشوف » في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي بعد وفاة ستالين ، وتمكن من الانفراد بالسلطة ، إلا أن « ليونيد بريجنيف » قام ضده بانقلابه المشهور ، بمساعدة كل من « بودجورني » و « كاسجين » . وجرت محاولة أخرى لإعادة البناء بدأها « أندروبوف » ، لكنه كان يعلم أن الوقت لن يتسع له للسير في الطريق الطويل ، بسبب أزمته الصحية التي كان على علم بمدى خطورتها ، فاكتفى بدق ناقوس الخطر ، واتخاذ بعض الخطوات لتطهير الحزب ، وتهيئة المسرح لجورباتشوف ، عسى أن يتمكن من تنفيذ ما حال القدر دون قيامه هو بتنفيذه .

وفي الخطوات الإصلاحية المحدودة التي تمت قبل « جورباتشوف » كان النقد يوجه للزعيم دون الحزب ، فصب خروشوف نقده على ستالين ، مشوها صورته بطريقة بشعة ، وكرر «اندروبوف» نفس « السيناريو » بتركيز نقده على « بريجنيف » وجمود سياسته وفساد إدارته .

إلا أن جورباتشوف كان هو الوحيد الذي تجاسر على أن يوجه نقده ضد الحزب « إذ يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد في المكتب السياسي ، ومن الهيئات المحلية ، ومن منظمات الحزب القاعدية أن يتحمل المسئولية ، كما ينبغي أن نكون أفضل مما نحن عليه ، وسوف نساعد من لا يستطيعون تقويم أنفسهم . . . يجب أن يتخلى بعضنا طواعية عن الامتيازات التي لا يستحقها ، والتي كسبها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التي عرقلت تقدمنا . . . لقد ضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة ، وضعف أداء المكتب السياسي وسكرتاريته ، وكذا جهاز الحزب ، وساد العبث في توزيع الجوائز والألقاب والمكافآت ،ونشأ مناخ أن كل شيء على ما يرام ، وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية ، وبذلت المحاولات لتغطية ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة ، وعجزت منظمات الحزب عن الدفاع عن المبادىء أو في التصدي للاتجاهات الخاطئة ، وأصبح العديد من أعضاء الحزب في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى ممارسات خاطئة وخطيرة ، وساد بين هؤلاء عدم احترام القانون ، مما أدى إلى سخط الجماهير العاملة على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسئولية ، والذين يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا إلى شركاء في أعمال إجرامية إن لم يكونوا منظمين لها » .

ثم نجد أن « جورباتشوف » يرتكز في كل أقواله وإجراءاته إلى « لينين » الذي بقيت أعماله معينا لا ينضب للفكر الابداعي الجدلي ، والاثراء النظري . وقد حدد الرجل مركزه بدقة بالنسبة إلى « لينين » ، فكما يقول « ديف مورراركا » في كتابه القيم « جورباتشوف وحدود السلطة » : « إن التاريخ سجل لنا الدور المهم الذي لعبه الأنبياء في تقدم البشرية ، وأن بعضا من الحواريين والفلاسفة والقادة كانوا مجرد وسائل لنشر رسالة الأنبياء ، وإن جاز لنا تطبيق ذلك على ما نحن بصدده فإن جورباتشوف حدد دور « لينين » في أنه « النبي » الذي بلغ الرسالة التي لا يجوز تغييرها . وما على « جورباتشوف » بصفته أحد الفلاسفة والقادة إلا تبليغ الرسالة وتأصيلها . ونجده في كتاباته وأحاديثه يرجع دائما إلى « مؤلفات لينين » ، فهي بمثابة وصيته السياسية . كان لينين عندما اشتدت وطأة المرض عليه شديد القلق على مستقبل الاشتراكية » .

وإذا نظرنا إلى التاريخ أيضا وجدنا أن « الأفكار الجديدة » لا تجد قبولا ، إلا إذا قدمت على أنها ليست جديدة تماما بل لا تتعدى كونها إحياء لأفكار قديمة ، تم تجاهلها ونسيانها في زحمة الحياة . وجورباتشوف يؤكد دائما بأنه لا يوجد جديد فيما يقول ، فكل ما يفعله هو مجرد إحياء لمبادىء لينين التي أكد عليها منذ سبعين عاما ، فقد تحدث لينين عن الانفتاح في « الخطة

الاقتصادية الجديدة » ، وعن توجيه الرأي العام ، والنقد ، والنقد الذاتي ، ومطابقة ما يقال على ما يفعل ، والطهارة الحزبية .

إصرار ومصاعب

وفوق كل ذلك فإن جورباتشوف كان مقدرا تماما الطريق الصعب الذي كان عليه أن يقطعه .

كان مقدرا تماما مقاومة « رجال الحرس القديم » ، ثم « أصحاب المصلحة في الإبقاء على الأوضاع دون تغيير » ، وكذلك الأغلبية الصامتة التي تنتظر تحديد اتجاه الريح . ولم يكن أمامه إلا خيار واحد لمواجهة كل ذلك ، وهو « المحافظة على الغرض » فهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق « البيريسترويكا » ، مع إجراء تعديلات في الوسائل بين وقت وآخر ، تبعا للظروف والأحوال . ولذلك فقد صرح وهو يقدم سياسته « إعادة البناء » : « لابد من تنفيذ التحول المطلوب ، فلا بديل عن ذلك ، ولا مجال للتراجع ، بعد أن بدأنا ، فليس هناك مكان ننسحب إليه » . وحتى الآن ظهر الرجل على أنه قادر على ذلك ، فهو رجل « ذو ابتسامة جذابة ، تكشف عن أسنان حديدية » ، كما وصفه اندريه جروميكو قبل أن يدفع به إلى زوايا النسيان .

وحتى يكشف عن « العفن » ويحقق الديموقراطية التي يسعى إليها نادى أيضا « بالجلاسنوست » . فالعلانية والرقابة الحقيقية من أسفل هما طريقا الاصلاح الذي ينشده . وتوسع في الاتصالات المباشرة بالجماهير بزياراته الميدانية المتتالية ، واعتنى بالرسائل التي تصل إليه من القاعدة بصفتها التغذية الخلفية المهمة التي تربط القيادة بالجماهير ، كما أولت الصحف والمجلات اهتماما فائقا للرسائل التي ترد على هيئات تحريرها وتنشر الكثير منها .

وبعد ذلك بدأ في تغيير القيادات في كل المواقع ، لأنه لا يمكن تنفيذ البيريسترويكا بالقيادات نفسها التي عملت في الماضي . وكان التغيير بالانتقاء وبالانتخاب . وعمل على تدريب القادة الجدد في دورات قصيرة أو طويلة ، حسب التخصصات المطلوبة ، ثم عمل على تقليص سلطة الحزب بزيادة سلطة الحكومة والسوفيتيات ، ثم انتهز هبوط «الهر رست بطائرته في الميدان الأحمر متخطيا كل الدفاعات المضادة للطائرات ، فانقض على المؤسسة العسكرية ليدخلها في موضعها الصحيح .

ولكن لم يكن من الممكن لجورباتشوف أن يفعل كل ذلك بالجبهة الداخلية إلا إذا عمل على تهدئة الجبهة الخارجية ، وخاصة مع الولايات المتحدة ، مركزا على نزع السلاح ، وتهدئة النقط الساخنة الإقليمية تدريجيا . فاستمر طوال السنوات الثلاث الماضية في محاولاته مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقدم كثيرا من التنازلات حتى حصل على اتفاقية إزالة الأسلحة النووية المتوسطة والقصيرة المدى من أوربا ، وحقق الكثير لاسترخاء الحرب الباردة على المستوى العالمي ، ولتبريد النقط الساخنة على مستوى الصراعات الإقليمية ، بل نجده يعلن يوم ١٩٨٨/١٢/٧ أمام الأمم المتحدة عن مبادرة جريئة ، اقترح فيها «إلغاء أو خفض وجدولة ديون بعض دول العالم الثالث ، وخفض القوات السوفيتية في أوربا الشرقية ، ومن جانب واحد بمقدار نصف مليون جندي ، ١٠٠٠٠ دبابة ، ٨٥٠٠ نظام مدفعية ، ٨٠٠ طائرة مقاتلة ، خلال العامين القادمين » .

إن جورباتشوف لا يريد أن يحارب في جبهتين في وقت واحد ، لأنه يريد تخفيض نفقات الدفاع ، بعد أن وصل إلى حد الكفاية من الأسلحة النووية والتقليدية ، ليضمن السلام ، ثم ليزيد الموارد المتاحة ، ليقوي الجبهة الداخلية ليحافظ على النظام . □

الصهيونية غير اليهودية

أول انجليزي يدعو إلى الاستيطان في فلسطين

بقلم : الدكتور نبيل ابراهيم مطر

من الشائع أن الدعوة الصهيونية بدأت على أيدي بعض اليهود في القرن الثامن عشر . لكن البحث العلمي يؤكد أن غير اليهود من الأوربيين كانت لهم المبادرة « كهنري فنش » الانجليزي الذي كان يحلم لوطنه انجلترا بسيطرة كاملة على وطننا العربي فكانت دعوته إلى اليهود لاستيطان فلسطين !

يظن كثيرون أن فكرة استيطان اليهود في أرض فلسطين تعود إلى وعد بلفور عام ١٩١٧ . ومع أن الرسالة التي وجهها اللورد الى الثري اليهودي روتشيلد في ٢ نوفمبر من ذلك العام كانت أول وثيقة حكومية تؤكد لليهود دعم الامبراطورية البريطانية في استعمار فلسطين ، إلا ان المخطط نفسه لم يكن وليد ساعته ، وأن مشروع استيطان فلسطين من قبل اليهود يعود إلى ثلاثة قرون مضت ، حين ظهر في لندن أول كتاب عن هذا الموضوع عام ١٦٢١ .

إن عنوان الكتاب الذي ظهر عام ١٦٢١ هو : « الإحياء العظيم للعالم » أو « دعوة اليهود » ، بقلم هنري فنش (١٥٥٨ ـ ١٦٢٥م) . ولد فنش في عائلة سياسية وابتدأ تعليمه الجامعي في (كمبردج) ، حيث نال شهادة البكالوريوس عام ١٥٧٦ . ثم انضم إلى كلية المحاماة في لندن ، وبعد أن أنهى دراسته انتخب عضوا في البرلمان . وتعاون فنش مع اللورد فرانسيس بيكون في محاولة فاشلة لجمع قوانين المملكة وتصنيفها . وفي عام ١٦٢١ ، أنهى كتابه عن اليهود . ووجد نفسه في مأزق أدى إلى اعتقاله : حيث كانت دعوته لليهود لاستيطان أرض فلسطين وإقامة امبراطورية تطغى على كل الممالك في العالم لا تتناسب وآراء جيمس الأول الذي رأى في فنش داعية للثورة على حكم عائلة ستيوارت . وحين وجد فنش أن كتابه سيؤدي به إلى السجن ، تراجع عن أجزاء الكتاب التي أزعجت الملك وشجبها

علناً لكن الملك لم يكتف بهذا، فأمر بجمع نسخ الكتاب واحراقها ، وطلب من أحد المقربين منه أن يهاجم الكتاب وموضوعه وفي تموز من العام نفسه ١٦٢١ ، قام وليام لود الذي أصبح فيما بعد رئيس أساقفه كانتربري بانتقاد قاس لفنش ودعوته اليهود باقامة مملكة على أرض فلسطين . وأصبح الكتاب نادراً جدا ولا توجد اليوم منه الا نسخ قليلة ، احداها في مكتبة المتحف البريطاني في لندن ولقد افتتح فنش كتابه باهداء : « إلى أبناء يعقوب المشتتين في أقاصي الأرض . أكتب لكم هذا حيثما تكونون . إنها بريق من جوهره . عن عودتكم واستجدادكم في مملكة عظيمة » بعد هذا انتقل فنش الى تحليل دقيق للنبوءات اليهودية التي كتبت في القرن السادس ق م ، والتي وصفت لليهود استيطانهم القدس وفلسطين . فقد كان اليهود قد سبوا من أرض فلسطين الى الامبراطورية البابلية عام ٥٨٦ ق م ، من قبل الامبراطور نبوخذ نصر . وخلال فترة السبي تلك ، ظهر في تاريخهم عدد من الانبياء الذين وعدوا اليهود أن إلههم « يهوه » سيعيدهم إلى أرض فلسطين . وقد تمت العودة عام ٥٣٧ ق م على يد الامبراطور قورش الفارسي الذي عطف عليهم . ولا يزال اليهود حتى يومنا هذا يحتفلون كل عام بعيد عودتهم ، ويذكرون صداقة الفرس لهم .

نبوءات اليهود .. وشهوة الاستعمار

أراد فنش أن يطبق هذه النبوءات على زمنه وحاضره . ومع أن هذه النبوءات تخص يهود القرن السادس ق م فقد أصر فنش أن يطبقها على يهود القرن السابع عشر . ومع أنه لم يكن يهوديا ، ولم يعرف يهودا ، إذ أن إنجلترا كانت قد طردت اليهود من المملكة في القرن الثالث عشر (م) إلا أنه أراد لليهود استيطان فلسطين وهنا تكمن بعض الغرابة : رجل ينادي شعبا لايعرفه لاستعمار بلد لايعرفه ، وطرد شعب لايعرفه ، لاقامة امبراطورية عالمية يهودية تسيطر على كل ممالك الارض لماذا نادى فنش بكل هذا ؟ إن السبب الرئيسي الذي دفعه في ذلك الزمان البعيد لدعوة اليهود لاستعمار فلسطين هو نفسه الذي دفع اللورد بلفور باصدار وعده المشئوم : ألا وهو محاولة بريطانيا ايجاد قوم في وسط العالم العربي والاسلامي ليساعدوها على السيطرة والاستعمار ذلك أنه إذا نظرنا إلى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر نجد أن بريطانيا كانت تقف مرتعبة أمام القوة العثمانية الاسلامية فالقرن السادس عشر شهد أعظم انتصارات العثمانيين ، ووصول جيوشهم الى حدود النمسا ، وسيطرتهم على جميع جزر البحر المتوسط . أمام هذه القوة العسكرية والدينية وجدت بريطانيا نفسها تتساءل عن كيفية مواجهة الخطر العثماني ، ذلك أن المحاولات الأوربية كانت قد باءت بالفشل .

رأى فنش الخطر العثماني أمامه وقدر أن بلده لن تستطيع الدفاع عن نفسها . فبدأ بقراءة النبوءات اليهودية باحثا عن مخرج لهذا المأزق الدولي ، وعن وسيلة لإزالة الخطر العثماني . وما كان إلا أن وجد نبوءات العودة الى فلسطين فقال : إن فلسطين اليوم لايسكنها يهود ، بل عرب واتراك ، مسلمون ومسيحيون . لذا ، فإن اليهود حسب نبوءاتهم ، لامحالة عائدون بمساعدة إلههم « يهوه » وإذا عادوا ، فإنهم لامحالة سيحاربون الاتراك في المشرق وينتصرون عليهم . لذا ، إذا استوطن اليهود فلسطين ، فذلك سيكون بعد التغلب على العثمانيين وإزالتهم من الوجود ، أي بعد انهاء الخطر العثماني والاسلامي . وعندها سيكون هناك شعب يهودي في فلسطين ولا يكون خطرا على أوروبا بل سيؤازر بريطانيا ، لأن بريطانيا ستكون الامبراطورية التي ستساعد اليهود على هذا الاستيطان .

من الواضح أن فنش أراد استيطان اليهود لفلسطين ليس محبة بهم ، بل خوفا من العثمانيين ، فالمعركة ستكون ضارية بين الاتراك المسلمين واليهود ، ولكنها ستنتهي بالتغلب على الاتراك . وكتب شعرا : « سيسيطر الطغيان التركي مدة ٣٥٠ سنة . سيعودون (اليهود) الى أرضهم .

سينضب نهر الفرات أمامهم ليجعل طريقهم سالكة ، مثلما فتح أمامهم قبلا البحر الاحمر .

سترعب أخبار تقدمهم القوى التركية .

سيحدث اقتتال عظيم بينهم وبين الأتراك .

وسيكون هذا الاقتتال في أرضهم ، أرض يهودا

وسينالون انتصارا نبيلا .

وسيلقى العثمانيون ضربة موجعة قرب مدينة القدس

وسيكون انتصار اليهود الكبير على الجيش التركي قرب بحيرة طبرية

وسيسكنون بعد ذلك في بلادهم . »

فكرة خاطئة

من الغريب أن فنش استعمل دائما كلمة « بلادهم » عن فلسطين ، فان فلسطين لم تكن في القرن السابع عشر بلاد العرب الذين سكنوها لاجيال واجيال ، بل بلاد اليهود ولكن فنش أصر على استيطان اليهود ، وعلى استيطان حقيقي وبكل معنى الكلمة ، وأضاف ، وهذه كانت الاضافة التي اودت به الى السجن . —

« سيأتون قريبا الى القدس ، وسيصبحون ملوك ورؤساء العالم ، ويحكمون الجميع »

حاول فنش أن يحدد الوقت الذي ستتم به كل هذه الآمال ، فحسب أن القوة التركية ستبدأ بالانحلال عام ١٦٥٠ ، وستنتهي عام ١٦٩٥ بعد ذلك ، واعتقد أن اليهود سيعيدون بناء مدينة القدس ويعيدون اقامة امبراطورية داود . ومن ثم كانت استعانته بالنبوءات اليهودية ، فقال : « إن أرض فلسطين ستتمر بعد الاحتلال اليهودي ، وسيكثر فيها اليهود ، وستحل فيها السعادة والرخاء ، وستصل حدودها إلى أكثر ما كانت عليه من قبل ، وستخضع جميع الشعوب المجاورة للمملكة اليهودية ، وأما الرافضون فسيقضى عليهم . وسيبدأ زمن جديد في التاريخ البشري وبهذا يزول الخطر التركي عن بريطانيا ويحل محله حلف الى الابد »

كما ذكرنا . استاء الملك جيمس من كتاب فنش ، وطلب من لورد مهاجمته ، وتناول لورد الموضوع في عظة بمناسبة عيد ميلاد الملك ، فنبه الى أن افكار فنش عن دولة يهودية في فلسطين وعن استيطان اليهود في القدس ، وبناء المعبد وكل ما الى ذلك من ظواهر الاستعمار ما هي إلا أفكار مرفوضة تماما من قبل المعتقدات المقدسة ، وما هي إلا أخطاء يهودية واجتهادات رجال » في القس » . ـ أي خائن ـ

ومع ان فنش تنصل من دعوته اليهود لاستيطان فلسطين ، إلا ان فكرته وجدت العديد من الكتاب والشعراء الذين أقبلوا عليها ، والعديد الاخر الذي رفضها بشدة وبدأ بين هذين الفريقين جدل طويل ، ومستمر امتد من أوائل القرن السابع عشر حتى القرن العشرين انتهى بانتصار الكتاب الذين أيدوا فكرة فنش وقام « كيان الدولة » التي زرعت في فلسطين . ! □

* لو أن الكلام يعاد لنفد. (الإمام علي)
* المرأة الجميلة خيال، والمرأة الذميمة حقيقة. (شوبنهور)

موّال حُزن
على أنقاض عيدٍ عتيق

بقلم : سليمان الفهد*

العيد له معان متعددة كثيرة ، أفضلها ما لصق في ذهن الإنسان أيام الطفولة ، ومع تغير الزمن يتغير الإحساس بالعيد ، والكاتب الذي عرف بأسلوبه المتميز لايكتفي برسم صورة العيد التي رسخت في ذهنه أيام الطفولة ، لكنه يحاول أن يرسم صورة للعيد في سني القرن الواحد والعشرين . ترى ماذا يقول ؟

لو كنت موجودا في الكويت إبان عيد الأضحى الماضي ، لكنت لاحظت أن العيد قد حال دون حضور المعيدين ، أو دون حضور كثير منهم على الوجه الأدق ، إذ احتفى بالعيد قلة من المواطنين ، وأعني بالاحتفاء الوجود والحضور ، لأن العيد أصبح لمعظمنا مناسبة للسفر إلى الخارج ، أما من لم يتمكن من السفر من المواطنين والمقيمين فهم وحدهم الذين يحتفلون بالعيد.

هذه الصورة تعكس صورة العيد في الكو[illegible]

قديما ، فقد كنت تدخل المسجد الجامع الذي يهتز بالمكبرين والمهللين يملأون صحنه ويفيضون خارجه ، أما اليوم فإن صلاة العيد لا يحضرها ذلك العدد الكبير من الناس .

ومع أننا لسنا بصدد كتابة بحث عن « العيد في الزمن النفطي » ، إلا أنه يمكن لنا إبداء بعض الملاحظات والافتراضات حول أسباب قلة أعداد المحتفين بالعيد ، وغياب مشاعر البهجة والفرح وقيم التواصل والتراحم ومظاهر الاحتفالات [illegible] .

---

* كاتب كويتي [illegible] يشغل حاليا منصب رئيس القسم الثقافي بصحيفة الوطن اليومية الكويتية

ولعل « العبدلله » ليس بحاجة إلى الإشارة بأن الظاهرة ليست نبتا بريا ظهر من فراغ ، لأن الناس كافة يشعرون بأن عيدهم الذي خبروه في كويت البحر والغوص ، وكد البر والصحراء ، ذلك العيد المترع بالحب والفرح والذكر والعبادة الاحتفالية الشعبية قد تأثر « بعوامل التعرية النفطية ».. ففي اللحظة التي تم فيها هدم أول بيت طيني من الديرة العتيقة إبان عقود الخمسينيات من العصر النفطي « تطيّر » عيدنا نحن الجيل المخضرم - فضلا عن جيل الآباء والأجداد - من بشارة « مقاول الهدم » « وعيدية » تثمين البيوت القديمة تمهيدا لهدمها وبناء كويت « الكونكريت والكنديشن »* والمرافق والمنازل والشوارع الحديثة ! وقد تطيّر بعض وتشاءم لاعتقاده بأن المعاول ستهدم بيوت الطين وقيمها وتقاليدها وعاداتها ! وقد وصف المتطيّرون آنذاك - النصف الأول من الخمسينيات - بأنهم مغرمون بالفقر ، ولا يختلفون عن الغربان التي تعشش بين الأطلال ووسط المنازل الخربة العتيقة ! وفصيلة الغربان هذه تعي وتؤمن بأن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وأن فتنة « مقسوم » التثمين وإغراءه تصعب مقاومتها ، لكنها - مع ذلك - لا تخفي خشيتها من أن تكون زينة الحياة الدنيا هي « المال والمصارف » ! لاسيما أن البنين يرقدون في أحضان المدينة الأجنبية !

غاب العيد وحضر النفط

« والعبدلله » هنا لا يريد ممارسة العادة « العرباوية » الأصلية الكامنة في وضع مسئولية ما حدث للعيد على كاهل غيره ، أو أن يعلقها على مشجب النفط « طال عمره » . فمثل هذا المنحى قد يكون مقبولا و « مبلوعا » وسط سياق سجال يتمحور حول التساؤل العتيد عمّ إذا كان حضور النفط في حياتنا اليومية نعمة أم نقمة ؟! وهو لا يريد ممارسة العادة المذكورة ، لأن السجال - بداية - قد أشبع بحثا وقولا عبر دروس الإنشاء في حصة اللغة العربية ، ومن خلال المؤتمرات والندوات ، فضلا عن هذرة الديوانيات والمنتديات وغيرها !

زد على ذلك أن السجال نفسه لم يؤد إلى طائل ، بل إلى « طل » لاجدوى منه سوى تسجيل المواقف والنوح على الأطلال « واللعلعة » بالمواعظ التي تضيع وسط تضاريس الخريطة الاجتماعية الجديدة للكويت الحديثة « الطافحة » بالنفط والمال والمصارف وغيرها من « رموز الكويت النفطية » !

عيدنا وعيدهم

إن « العبدلله » يعتقد - ببساطة شديدة - أن كل جيل يجد عصره وزمانه من أزين العصور ، وأن جيله هو خير الأجيال وأفضلها ، وهو اعتقاد عربي أصيل ، يسكن وجدان مواطني الديار العربية « النفطية » والمائية على حد سواء . وفي إطار هذا الاعتقاد ليسمح لي أبنائي وأولئك الذين يصغرونني سنا ، أو ليسوا من جيلي أن

* الكنديشن . لفظة شعبية ، يسمى بها مكيف الهواء Air — Condition

أقول : إن عيدنا خير وأنفع وأمتع وأبهج وأزين وأثرى ، لأنه عيد تحتشد له الجوارح والمشاعر ، وتترقبه النفس بشوق وحنين ، وتحتفي به صيغة شمولية تشبع الروح والوجدان والمعدة + كيف ؟ سأقول لـك كيف لم لاتلحقني مرتـدا إلى عقود الخمسينيات حيث نـوقف الـزمـان ، وتكـون الساعات بـدون عقارب ، ونعيش عيـدنا عـلى الورق ! عيدكم مبارك .

السكـون يخيم على سوت الطين ، لايعكـر

[illegible]

والأيـدى ! ومن القلب يتغنى اللسـان بقـولـه « عيدكم مبارك ، وعسـاكم من عواده » ، لأن « عيـدنا » محبـة وتواصـل وتراحم ، ونفي لأي مشاعر أو عادات « نفطية » أو سلبية لافـرق ، الأمر الذي يوجب علينا أن نطرح سؤالا حيويا ، أو ندعه يطرح بحكم السياق ، وهو : ماذا بقى واستمر من روح عيد الكـويت الطينيـة ونكهته وملامحه وصفاته وقيمه وعاداته وتقاليده وطقوسه في التسعينيات بعد مرور حوالي أربعين عاما على عيد يفرح

[illegible]

... ساحاتها . ومن ... يجرون الوصن ويهرعون نحو ... وكذلك القلوب ... في صفاة* لـدن « هـايـد

---

* نسبة إلى ساحة الصفاة ، الساحة الرئيسية في الكويت

ساكتا أتصبب عرقا أو أبحلق في إشارات المرور ـ وقلت : الحق أنني أفكر في « ديكارت » ، قال : ديكارت « ما غيره » ؟ وهل هـذا وقت ذلك ؟ سبحان الله في طبعك . . ديكارت مرة واحـدة (قـال ذلك وهـو يصفق البـاب مهـرولاً نحـو منـزله) . قلت لنفسي : لـو كـان الفيلسـوف الفـرنسي « ديكارت » مـواطنا عـربيـا خليجيـا نفطيا ، فربما غير مقولته الشهيرة (أنا أفكر ، فأنا موجود) بأخرى غيرها تناسب واقع الحال ! كأن يقول « أنا أضارب بالأسهم والأوراق المالية ، إذا أنا موجود ! » أو « أنا حاضر في سـوق الأوراق المـالية . . إذا أنـا موجـود وحي يـرزق يكسـب الملايين في طرفة عين » !

نقـول ذلك لأن الآثـار التـربـويـة والنفسيـة والاجتماعية والأخلاقية لبلية سوق الأوراق المالية « المناخ » * ـ الآثار المادية التي لقيت الاهتمام العملية من قبل الحكومة والمواطنين على حـد سـواء .

فقد دلت هذه البلية كتابة الامتحان الذي وضع الإنسان العربي في الكويت على المحك لاختبار معدنه ومواطنيته وقيمه ، وكل ما يشكل وجدانه !

وقد أثبتت الوقـائع والأحـداث التي اكتنفت هـذه البلية أن العـلاقة الإنسـانية بـين الإخـوة والأقـارب والأصدقـاء مثـل العـلاقـة التي بـين الـدول ! حيث تـدوم وتستمـر بـدوام حضـور المصلحـة وتزول بغيـابها . ومن هنـا يقال بأن الصداقة بين الدول ليست دائمة وأزلية ، بل إنها مرهونة بتبادل المصلحة المادية !

علاقات مجتمع النفط

وقـد أزعم بأن العـلاقات في مجتمـع كويت النفط والمال ، وهي المعنى السريع الذي لا يكلف كداً ولا جهدا ولا عملا ، فأقول : إن العلاقات بين الكثيرين منا قد نخرتها سوسة المصلحة المادية الذاتية ، إلى درجة أن بعض المعزين الموجودين في المقبرة للقيام « بواجب » التعاطف مـع ذوي المرحوم وأقاربه لا يجدون غضاضة في ممارسة لعبة المضاربة بين القبور ، لأن القوم مسكونون بلعبة المغامرة المقامرة ، ولا يقدرون على الفكاك منها حتى في مناسبات الأفراح والأتراح التي تستوجب من اللاعبين قطع اللعب والتوقف عن ممـارسته فترة وجيزة ! ومن ثم يعوضون « الوقت الضائع » في المجاملات الاجتماعية بتمديد فترة اللعب إلى وقت متأخر من الليل . !

ومن هنـا يمكن أن نحدس ونستشـرف آفاق العيد خلال سنة ألفين !

إن آثـار فتنة « سـوق المنـاخ » وبليته تقدم للباحث والمتأمل مادة دسمـة ثرية عن الإنسان الجـديد الـذي خرج من رحم بـرميل النفط ، وعن القيم والتقاليـد والعادات الجـديدة التي سكنت الديرة الجديدة الحديثة التي قـامت على أنقاض الكويت العتيقـة ، والتي نحرهـا جيد نحر الخيل المخصرم ! ما علينا ، أما الذي علينا هذه الساعة فهو أن تلحق بي لنسبق الزمن لنحط رحالنا ومناخنا في « الكـويت سنة ألفـين » وإن شئت التحـديد والتفـاصيل لهـذا « السيـاريـو المستقبلي » نورد لك التفاصيل على النحو التالي :

الزمن : القرن الحادي والعشرون .
التاريخ : النصف الثاني من رمضان الـواقع في سنة ٢٠١٥ م .
المكان : مقر ديوان الموظفين « المؤقت ! » .
المجتمعون : هيئة الرؤية الإدارية .
الموضوع : تحديد زمان تمضية إجازة عيد الفطر القادم ومكانها .
الخبر : اجتمعت هيئة الرؤيـة الإداريـة لاختيار الأماكن المناسبة لتمضيه إجازة العيد خارج حدود

* سوق المناخ : هو سوق الأوراق المالية بالكويت

الوطن ! وأعلن مصدر مسؤول في الهيئة بأن النية تتجه إلى اختيار ثلاث مدن سياحية تضم في منتجعاتها السياح الكويتيين كافة . وقد تم اختيار هذه المدن بناء على رصد ومسح وتقويم لخدماتها المتقدمة في الاتصالات السلكية واللاسلكية ، الأمر الذي يمكن كل المواطنين من الاتصال بأهلهم وذويهم وأصدقائهم عبر الهاتف المرئي الملون بالالوان الطبيعية ، ومن ناحية أخرى فإن محطات التلفزة في هذه المدن السياحية ستقوم بنقل مباشر لشعائر صلاة العيد من « الوطن الأم » ، ليتمكن الإخوة السياح من أداء المشاركة الوجدانية والروحية عبر الأقمار الصناعية ! وأفادت الهيئة بهذا الصدد بأنه لاصحة إطلاقا للإشاعة التى راجت بين عامة المواطنين السياح حول مشاركة الأهل في الديرة صلاة العيد التلفازية ! بمعنى أن يؤدي المواطن هذه الصلاة وهو قابع في فندقه أو شقته ، بحيث تتزامن مع صلاة العيد المنقولة تلفازيا عبر الأقمار الصناعية من مسجد الدولة الكبير في الكويت ! وتستطرد الهيئة قائلة : بأنه على الرغم من أن الإفتاء في مثل هذه الأمر منوط بالجهات المختصة ، إلا أنها تعتقد بأن أي تلميذ في المرحلة الدراسية المتوسطة ، يحفظ « شروط صلاة الجماعة في العيد ، ويتذكر مغزاها وحكمتها ومنافعها » .

ومن هنا فقد تكون الإشاعة السالفة الذكر « مطبوخة » في محطات التلفاز السياحية التي ستتولى نقل شعائر صلاة العيد . إذ استطاعت الحصول على كم كبير من الإعلانات التجارية التي ستبثها بعد الصلاة مباشرة !

وقد أهابت الهيئة بالمواطنين بضرورة المحافظة على جوازات السفر المصنوعة من « الليزر » المتعذر تقليدها وتزويرها حتى إشعار تقني آخر ! فقد لاحظت الهيئة أن بعضهم يسيء استخدام هذه الجوازات الليزرية ، وكأنهم يتباهون باقتنائها ، الأمر الذي يثير حفيظة وحسد « الأجانب » الموجودين في المدن السياحية المختارة لتمضية إجازة عيد الفطر !

وقد اتفقت الهيئة مع بلديات هذه المدن على إقامة الزينات الوطنية والألعاب الترويحية للأطفال والصبيان ! كما تعاقدت مع الفرق الفنية المختصة على تقديم عروض فنية لكل الفنون الغنائية « الفلكلورية » الخاصة بالعيد ، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الفرقة الموسيقية السيمفونية ستتولى عزف « ملحمة رقصة العرضة »*، رقصة الحرب والحب والأعياد والمهرجانات ، بمصاحبة « كورال » وراقصين « للباليه » معتبرين ! باختصار : ان العيد سينقل إليهم بقضه وقضيضه بالاتفاق مع الجهات السياحية المعنية في الدول المضيفة لمهاجري الديار النفطية !

هكذا كان الخبر (التعميم) الصادر عن « هيئة الرؤية الإدارية » بمقرها « المؤقت » في مبنى ديوان الموظفين .

التعليق : يسأل عنه إدارة الاعلام في شركة نفط الكويت وأخواتها !

الختام : عيدكم مبارك ، نقولها بكل اللغات الحية والمتحضرة والمقسورة ، نعم ، « عيدكم مبارك ، وعساكم من عواده » □

* العرضة : رقصة شعبية كويتية

بقلم : محمود المراغي

«ترمومتر» للعلاقات العربية

هذه محاولة لرصد العلاقات العربية بالأرقام ، ربما كانت المحاولة الأولى من نوعها ، وربما كانت غير كافية لاتخاذها كدليل على التحسن أو التردي في العلاقات العربية ، لكنها ذات دلالة على أي حال

يقول التقرير « الاستراتيجي » العربي الصادر عام ١٩٨٨ ، عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . إن عام ١٩٨٧ كان عام وقف التردي ، ثم يدلل على ذلك بمجموعة من الشواهد ، بينها : حفنة أرقام عن اللقاءات العربية - العربية

في ذلك العام الذي اتخذه المركز عينة للدراسات الرقمية

* كان هناك (١٣٨٦) لقاء عربيا
* بينها (٢٩٩) مؤتمرا
* وبينها (١٤٤) لقاء على مستوى رؤساء الدول أو من يمثلهم

وبتحليل الأرقام التي أوردها التقرير ، وقال . إنها « حصر بقدر الممكن والمتاح من المعلومات » نجد :

١ - أن هناك لقاء عربيا - عربيا كل ست ساعات . قد يكون سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا : لكن المهم أن دورية الاجتماع : كل ربع يوم ! كذلك هناك مؤتمر عربي كل ثلاثين ساعة ، ولقاء قمة كل ستين ساعة أونحو ذلك ، سواء في شكل لقاءات ثنائية أو جماعية

٢ - معظم اللقاءات يتم من خلال الزيارات ، فهناك (٦٦١) زيارة ، تبادلها المسئولون العرب ، وهي زيارات على ثلاثة مستويات

الوزراء : ويحتلون معظم المساحة ، ورؤساء الدول : ويحتلون المساحة التالية ، ثم رؤساء الوزارات : ويحتلون المساحة الأقل ، مما جعل التقرير يتوقف أمام ذلك ، ويقول . إن النظام العربي قد اعتبر رؤساء الوزارات مسئولين - في الأساس - عن قضايا الداخل - القضايا المحلية - بينما شغل الرؤساء بالسياسة العربية والخارجية .

٣ - عدد المؤتمرات (٢٩٩) مؤتمرا ، أي أن هناك - على وجه التقريب - مؤتمرا كل يوم وبالتحليل نجد أن النصف للسياسة ، وأقل القليل للاقتصاد ، والبقية لمنظمات ولقاءات وظيفية .

٤ - كانت أكثر الدول نشاطا وحضورا في

اللقاءات بشتى أنواعها هي المملكة الأردنية (١٣٥ لقاء) .

وللمقارنة ، وعلى الرغم من أن « العلاقات المصرية - العربية » لم تكن قد استؤنفت بكاملها . فقد كان الحضور المصري في (١١٨) لقاء ، وكان ترتيب مصر في الحضور الثاني بعد الأردن ، وتليهما المملكة السعودية (١١١ لقاء) . وكانت الصومال في آخر القائمة (١٨ لقاء فقط) .

٥ - ونتيجة للترتيب السابق كان الملك حسين هو الأكثر حركة ، فقد قام في ذلك العام وحده بـ (٢١) زيارة للأقطار العربية ، واستقبل رؤساء أقطار عربية ثلاث مرات ، فضلا عن انعقاد مؤتمر القمة في عمان .

ماذا يبحثون ؟

طبقا للعناوين التى سجلها التقرير فإن السياسة تحتل المكان الأول ، وتليها شؤون الاقتصاد ، وكذلك فإن العلاقات الثنائية تأخذ « كمّاً » أكبر من الاهتمام ، لكن الهموم الجماعية ذات نوعية أخطر ، ففيها : حرب الخليج ، وقضية فلسطين ، والخلافات العربية - العربية التى أخذت العديد من أشكال الاهتمام . ومحاولات رأب الصدع .

في تقرير مركز الدراسات « الاستراتيجية » أن عام ١٩٨٧ وحده قد شهد (٤٢) اجتماع وساطة ، (أي بمعدل اجتماع كل تسعة أيام) ، وان من بين هذه الاجتماعات ستة عشر اجتماعا على مستوى رؤساء الدول . أما موضوعات الخلاف التي تجرى بشأنها الوساطة فهي عديدة :

* فهناك الخلاف الفلسطيني - الفلسطيني .
* وهناك الخلاف اللبناني - اللبناني .
* وهناك العديد من الخلافات السورية مع العراق ، وتركيا ، ولبنان ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . (ولم يسجل التقرير الخلاف مع مصر ، حيث كان ذلك فى سياق المقاطعة العربية حينذاك) .
* وهناك الخلاف الجزائري - المغربي .
* وهناك حرب الخليج وأحد طرفيها عربي .

وقد نشطت الوساطات العربية لتصفية هذه الخلافات . وحول الخلاف العراقي - السورى قام الملك حسين بست زيارات للبلدين في ذلك العام ، كما تحرك الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات لنفس الغرض ، ولكن مازال الخلاف كما هو .

الشيء نفسه بالنسبة للخلاف السوري - الفلسطيني ، ولكن هناك خلافات جرت تسويتها ، أو في سبيل التسوية .

بتأمل الأرقام السابقة يمكن القول إن نتائج جهود الوساطة لم تكن صفرا ، ولم تكن مائة بالمائة ، إنها في نقطة وسط بين الإخفاق والنجاح ، لكن هناك تقدما على أي حال .

من خلال ذلك يمكن تصور النتائج المتواضعة للعمل السياسي المشترك ، والعمل الاقتصادى الأكثر تواضعا .

لقد كان العرب - ومازالوا إلى حد ما - مشغولين بخلافاتهم وصراعاتهم الجانبية ، ومازالوا يتحركون أكثر مما ينجزون ، ويطرحون للبحث أكثر مما يحسمون .

واذا قلنا : إن النظام العربي قد أنجز (١٣٨٦) اجتماعا في عام ، وبمعدل اجتماع كل (٦) ساعات ، كما أوضحنا ، فإن ذلك معناه أن أحدا لايستطيع أن ينكر تلك الرابطة التي نسميها « عروبة » ، لكن أحدا - أيضا - وباستثناءات تاريخية ، لم يستطع أن يجسد هذا الرباط ، فيحيل هذا الكم الهائل إلى مجرى النهر العظيم ، النهر العربي الذى يضم كل الأقطار .

هكذا بدت الصورة عام ١٩٨٧ ، ومازالت ونحن في عام ١٩٨٩ . □

- ١ -

لحظات من العمر معدودة ، إن غفلت الذاكرة عن شيء فلا تغفل عنها طول العمر . تجيء كما يجيء الصفاء لتنير البصيرة وتعتق القلب من همه والنفس من حيرتها . في البدء ظننتها تمتنع عني فلا تجيئني إلا بمشيئتها المجردة مهما اشتدت حاجتي إليها ومهما بلغ مني العزم على إرادتها ، لكن السنوات علمتني أن استدعاءها بالصبر والدربة والمثابرة أمر ممكن .

اليوم جاءتني تلك اللحظات الشفيفة الخارقة لتنبئني بما يشبه اليقين ، إن الحياة الكريمة في زماننا قد أصبحت مستحيلة إلا في حالتين لا ثالثة لهما : أن تتمتع إما بالسلطة وإما بالثروة وإما بكلتيهما ، أو أن تتمتع بعبقرية فذة للتعامل مع الحياة في غيبة هذين الشرطين .

والحقيقة أن هذا المعنى كان راسخا في ضميري منذ سنوات . لكن الجديد في الأمر أنني ألهمت اليوم فقط - ولأول مرة - بصياغة هذا الاحساس الصامت المنكمش صياغة لفظية ، في ثنايا حوار عابر مع صديق يعبر أزمة . استمعت الى شكواه وأنا الشاكي ، فكنت على دراية عجيبة بالتفاصيل الدقيقة لقصته المؤلمة أثناء روايتها ، وقبل أن يصل الى نهايتها المأساوية دون أن أعرف عنها شيئا من قبل .

ولقد شعرت بارتياح شديد عندما نطق لساني بهذه الصياغة ، وكأنما بتصريحي هذا قد اكتشفت - دون أن أدري - حلا جذريا لمشكلة وجودي على قيد الحياة ، في المكان والزمان الآنيين . حينئذ لابد أن تمحى من الذاكرة كل الأفكار والأحداث والأسماء الآدمية التي لا تساهم في اكتشاف حلول جذرية أخرى مماثلة .

« يعز من يشاء ويذل من يشاء » ، يهمس لي قلبي أحيانا بالحكمة من وراء ذلك « ويرزق من يشاء بغير حساب » .

لكنني - كشأن معظم المثقفين - أكتفي بالقول دون الفعل . أقدم التفسير والتبرير لشقائي ، ولم أجرؤ قط على تجاوز النظرية الى التطبيق ، فسمات الفاشلين دائما هي كثرة الكلام وقلة الانجاز ، وأنا خجل من نفسي لأنني لم أفكر من قبل ولو للحظة واحدة في امكانية الجمع بين النقيضين . لماذا لا أكون أديبا وصاحب سلطة أو ثروة أو أن أجمع بين الثلاثة معا ؟ . من المؤكد أنه ليس بالأمر المستحيل ، بل إنه الاختيار الوحيد ، لكل من لا يدعي لنفسه التمتع بعبقرية التعامل الفذة مع هذه الحياة بلا سلطة أو ثروة . لقد تبوأ كثير من زملاء الدراسة الأغبياء مناصب كبيرة ، كما أن الأشقياء الذين كانت تحذرني أمي من الاختلاط بهم والذين كانوا يكتبون أسماءهم بعناء شديد ، قد أصبحوا اليوم من أثرى أثرياء

التحرر الى السلطة او الثروة من قبل ان أضطر مطلبي الأول لتحقيق أحد المدانين المشروعين .

- ٢ -

في غمرة شرود ، عبر الطريق الرئيسي بالمدينة دون أن يرقب العربات من حوله ، كان حمله ثقيلا فتمغنطت قدماه على الأرض ، وارتبكت خطواته مثلما ارتبكت أفكاره وتبعثرت شتاتا في فضاء حيرته الفسيح . أمامه مباشرة تمكن سائق « الشيفروليه » من إيقاف عربته المسرعة قبل أن تدهسه . أفاق صاحبنا لنفسه ونظر فزعا إلى العربة ، ليلمح صاحبها جالسا على المقعد الخلفي يدخن سيجارا ضخما . خطرت بباله فكرة أن يعتذر له عن خطئه فهو وحده المسئول عن قدميه المغنطتين وذهنه الشارد . أطل الرجل بسيجاره من نافذة العربة وقال له بعجرفة هادئة تكاد تخلو من أثر انفعال :

- حاسب يا حيوان

ومرت العربة في طريقها حين تسمرت عيناه على اللوحة المعدنية الخلفية كمن يرى طوق نجاة بين أمواج بحر عاصف . كان رقمها مائة بالتمام والكمال . اي أن صاحبها ذو حيثية في المجتمع ممن لا تعطى مثل تلك الأرقام المميزة إلا لعرباتهم . لم يستمتع بلذة النوم كما لم يحظ بيقظة صافية وفي الصباح توجه الى ادارة المرور . جلس الى مكتب صديقه يدخن سيجارة في انتظار نتيجة الفحص ، بعيدة المنال أنت أيتها الذرا العالية ، على الرغم من ذلك فكم من جرذان تلهو فوق قممك الشامخة . لم تطل فترة الانتظار . أغلق الصديق الملف وقال بانبهار :

- إنها عربة الخربوطلي بك يا رجل !

منحك الله الموهبة وأنعم عليك بالقدرة على الإبداع في أتعس ظروف انسانية على هذا الكوكب الغريب . عليك أن تدرك هذا وتحمله .

- ومن هذا الخربوطلي إن شاء الله ؟

- يبدو أنك لا تعيش معنا ، ألا تعرفه حقيقة ؟

- بل إنني أعيش معكم أيها التعس منذ زمن طويل ، ولكني لست أعرف دليلا حقيقيا يؤكد على ذلك .

- ومن أين لي أن أعرفه ؟ ، اسألني مثلا عن نجيب محفوظ أو نيكوس كازانتزاكيس .

- يا أديبنا العظيم ، هذا الرجل يمتلك ما لا يقل عن خمسين مليونا من الجنيهات ، هات أدلتك ، اذن فأنا أعيش بينكم لا معكم ، موجود وغير موجود . حياتي ميتة بكم ، وبدونكم يشوب موتي الحياة .

- وهل يحول هذا دون إمكاني أن أقدم بلاغا ضده بتهمة السب العلني ؟

تلقى صديقه السؤال باهتمام مشوب بالحذر ، ثم قال بهدوء وثقة :

- لهذا السؤال إجابتان . أفترض في الأولى أنك تعيش معنا فأجيب بنعم ، وأجزم في الثانية بانك مغيب عنا تماما فأجيبك بلا .

هام في الطريق وتمغنطت قدماه من جديد . أي مخلوق على هذه الأرض يمكنه الآن أن يدرك مدى ألمه أو أن يستشعر مرارة غضبه ؟ حيوان ؟؟ .

- ٣ -

لم أكن مستعدا للاستماع الى عبارات المجاملة والمساندة من أصدقائي الأدباء بلعن أهل الثراء وسبهم وإلصاق كل الصفات الرذيلة بهم ، لأنني مؤمن بقضية الرزق والرزاق ، ولأنني أيضا لست أعتقد حتى هذه اللحظة في أن كل الأثرياء لصوص ، ما أحراني اذن أن أجنب نفسي نظرة شماتة ماكرة أو حكمة ناعمة خبيثة أسمعها من أحدهم حين ينصحني مؤكدا أنه لا عليم فوق علمه ولا عارف فوق معرفته، فلمن أتوجه الآن بقهري وهزيمتي وآدميتي المنكرة ؟ .

قادتني قدماي الى عم إبراهيم بائع المجلات والمصحف المجوز ، حياني بحرارة وقال :

ـ وحذ الله يا أستاذنا ودع عنك هذا الكدر .

حاولت الاستجابة الى دعوته فوقفت أتصفح بعض الكتب التي وردت إليه مؤخرا . كنت أقرأ العناوين والفهارس دون أن أفهم شيئا ، أما الزحام فكان شديدا ، ولقد عجبت أن يزداد الزحام أمام بائع الكتب وفي مثل هذا القيظ الشديد . أنا لا أفهمكم أيها الناس . تساقط عرق غزير من جبيني فمددت يدي تلقائيا إلى جيبي الأيسر لألتقط منه المنديل ، بينما تعلق بصري بجريدة عربية غالية الثمن . كنت أنوي أن أتصفحها ثم أعيدها الى مكانها استنادا الى علاقتي الطيبة بعم إبراهيم .

فوجئت بشاب عملاق البنية يقبض على يسراي بعنف بإحدى يديه ثم يمسك بقميصي من صدري بيده الأخرى صائحا في ثوره وهياج :

ـ تريد أن تسرقني أيها اللص ؟

لم ادر ماذا حدث لي . فجأة وجدت نفسي واقفا أمام المحقق بمبنى الشرطة والصفعات تنهال على وجهي وقفاي من كل الجهات الأصلية . العملاق يجلس أمامي يحتسي القهوة من فنجان أنيق ، والذهول قد استبد بي وبقهري وهزيمتي وآدميتي التي سبق إنكارها مرة أخرى من قبل .

قال المحقق بلهجة ساخرة :

ـ أتترك كل من بالميدان وتسرق « همام » بك ؟

ـ هذا جنون . أنا اسرق ؟

ـ لا داعي للإنكار . لقد أخرج يسراك من جيبه وهناك شهود على ذلك

ـ سوف أبرق إلى وزير الداخلية بما لحقني من إهانة وأذى على أيديكم

انفجر المحقق والعملاق في الضحك معا وقال الثاني :

ـ صحيح إنك لص وقح

ثم لم يكتف بذلك ، وإنما قام ولكمني في وجهي بينما انهمك المحقق في حوار هاتفي . بعد قليل أفاق المخبر وأمر المحقق [illegible] في « التخشيبة » مع اللصوص [illegible] حتى تبت النيابة في أمري [illegible] .

ـ ٤ ـ

أصدر أمرا قاطعا بإلقاء القبض على كل من الخربوطلي وهمام ، مع تجريد الأول من أمواله والثاني من رتبته الوظيفية المهمة . قادهما ضابط كبير إلى مكتبه بالوزارة . حاول الضابط أن يناقشه بأن يسب المتهمين أمامه فنهره وطرده من مكتبه . وقفا أمامه برأسين منكسين . قال لنائبه بهدوء :

ـ لن نجري التحقيق هنا

ـ أين نجريه إذن يا سعادة الباشا ؟

ـ في عزبتي بالفيوم

قرر على كل منهما عددا محددا من مؤلفاته القصصية ، عليه أن يقرأها ويجيد استيعابها قبل أن يبدأ التحقيق معه . ولقد أمر لهما بالطعام والشراب وحسن المعاملة خلال فترة استضافتهما بالضيعة لحين أن ينتهيا من دراسة الكتب المقررة . وعندما انتهى المتهمان من القراءة الإجبارية لهذه المؤلفات تأكد بنفسه من ذلك ثم سأل أولهما بثبات شديد

ـ هل يستطيع حيوان قراءة ما كتبت ؟

ثم سأل الثاني

ـ هل يمكن للص أن يضيع عمره في كتابة ما قرأت ؟

فكانت اجابتهما بالنفي المؤكد .

بلغت سعادته ذروتها إذ ثبتت صحة نظريته بما لا يقبل للشك مجالا . خلع ملابسه وراح يرقص نشوان بين أشجار المانجو ، ولعله بكى من شدة السعادة حتى انهارت قواه فرقد تحت شجرة ثرية الظل ونام نوما عميقا .

لم يستيقظ الا عندما جذبه الشرطي من قفاه وألقى به في العربة « البوكسفورد » التي تحمل المتهمين الى النيابة . ◻

ملف

نجيب محفوظ

عالم واحد ورؤى متعددة

من بين كل الممالك ، تبقى مملكة الأديب [illegible] بدون خريطة نهائية ، تبقى كل خرائطها الفكرية والفنية قابلة لأن تتسع أو تضيق أو يعاد تلوينها طولاً وعرضاً وعمقاً مع كل قارئ جديد ، يحمل نظرة فكرية أو نقدية جديدة .

[illegible] نتائج فوز أديبنا الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، أن خريطة أدبه [illegible] خريطة الأدب العربي بعامة ، سوف يعاد فيها النظر ، عندما يبدأ قراء جدد [illegible] الأدب ، ويتجولون في مملكته الواسعة .

وحين تقدم مجلة « العربي » ملفاً عن أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، فإن المسألة تتعدى مجرد المشاركة في الاحتفال بمناسبة كبيرة ، بل إنها في صميمها مشاركة في الجهود التي بذلت ـ وما [illegible] تبذل ـ لاكتشاف معالم جديدة في خريطة المملكة الأدبية لهذا الأديب .

ومن هنا [illegible] هذا الملف على تنويع التناول لجوانب مختلفة من أدب هذا الكاتب الأديب [illegible] .

والآن نترك [illegible] القارئ ـ الرحلة [illegible] تكون ممتعة ، بقدر ما هي مفيدة مع هذا الملف [illegible]

نجيب محفوظ مبدعا «وجهة نظر نفسية»

بقلم الدكتور : شاكر عبدالحميد سليمان *

« إن تاريخ الحضارة ، في جوهره ، سجل لقدرة الانسان على الإبداع »

« عالم النفس أ . أوسبورن »

لعل مقولة « الأسلوب هو الرجل ذاته » التي أطلقها المفكر الفرنسي « جورج بوفون » في القرن الثامن عشر في مقالة شهيرة تجد « ماصدقها » الحقيقي في شخص نجيب محفوظ ، والأسلوب الجيد في رأي بوفون يتطلب خاصتين رئيسيتين هما الوحدة والخطة المحكمة ، فالأسلوب ليس إلا النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارهما ، فإذا ما قيدهما وضيقهما فسوف يكون الأسلوب مغلقا ، متوترا مقتضبا ، وإذا ماتركهما تتوالى حركتهما في هدوء ولا يلحق بهما إلا ما كان وثيق الصلة من الكلمات ـ أيا كانت أناقتها ـ فسوف يكون الأسلوب منبعثا وسهلا ومسترسلا .

« إن الروح الانسانية » لا تستطيع أن تخلق شيئا من العدم ، ولن تنتج الا بعد أن تكون قد أخصبتها التجربة والتأمل » .

ويقول بوفون : لكي يكتب المرء جيدا ، ينبغي أن يهيمن أولا على موضوعه ، وينبغي أن يفكر فيه بالقدر الذي يسمح له أن يرى بوضوح نظام أفكاره ، وأن يصوغ ذلك النظام ، في قالب متتابع ، وسلسلة متصلة ، تحمل كل حلقة منها فكرة ، « إن الانتاج الذي يعرف صاحبه جيدا

---

* استاذ مساعد بقسم التربية وعلم النفس كلية التربية والعلوم الاسلامية ـ جامعة السلطان قابوس ـ مسقط .

كيف يكتبه ، هو الذي يبقى للأجيال القادمة . »

هل يمكننا أن نقول : إن ما يسميه علماء النقد والبلاغة الأسلوب هو ما نسميه في علم النفس الشخصية ، باعتبار أن الشخصية هي مجموعة الخصائص والسمات المميزة لشخص ما ، والتي تستمر معه ثابتة فترة طويلة من حياته ؟ هل يمكن أن نقول : إن الأسلوب هو الشخصية باعتبار أن الأسلوب يكشف الكثير من الخصائص العقلية والمزاجية والايقاعية لصاحبه ؟ هذا ما نحاول أن نتعرف عليه في هذه الدراسة ، من خلال تركيزنا على شخصية كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، صاحب الأسلوب الخاص والشخصية المتميزة .

الأساليب المعرفية :

يتحدث العلماء في دراسات الشخصية عما يسمى « الأساليب المعرفية » ، ويقصدون : كيف يحصل الناس على المعلومات من البيئة المحيطة بهم ؟ ثم كيف يعالجون هذه المعلومات ؟ فبعضهم يحصل على المعلومات بسرعة ويفقدها بسرعة ، ويسمى النوع المندفع ، وفي مقابل ذلك ، هناك نوع آخر من البشر يتأمل ويتريث وينتظر قبل أن يجيب ، وعلى هذا البعد يمكن أن نصع نجيب محفوظ دون تردد في فئة المتأملين ، إنه يفكر كثيرا في الحياة والواقع والناس ، لدرجة أنه عندما يبدأ في كتابة رواية ما ، يضع ملفا لكل شخصية ، ويكتب فيه كل ما يطرأ عليها من تغيرات . (لاحظ فكرة الملف وارتباطها بتراث الموظف المصري) .

ميز الشاعر الأمريكي « ستيفن سبندر » في كتابه « إنتاج القصيدة » بين نوعين من التركيز الإبداعي . فبعض الكتاب يكتبون أعمالهم بطريقة مباشرة ، وعندما تكتب فإنها نادرا ما تحتاج إلى المراجعة ، أما بعضهم الآخر فيكتبون عدة نسخ ، وعلى مراحل ، بحيث أنهم عندما يصلون إلى النهاية تكون علاقة النسخة الأولى بالنسخة الأخيرة علاقة طفيفة . وضرب « سبندر » مثلا لذلك اثنين من كبار الموسيقيين العالميين ـ باعتبار أن الموسيقا تحتاج إلى كتابة وتأليف ، مثلها مثل الأدب ، وإن اختلفت رموز الكتابة وطريقتها في الحالتين ـ هما « موزارت » و « بيتهوفن » ، فالأول كان يكتب بسرعة بطريقة مباشرة ، وأثناء رحلاته ، وخلال تعامله مع عديد من المشكلات ، يكتب « السيمفونيات » كاملة غير منقوصة . أما « بيتهوفن » فقد كان يكتبها شذرات متفرقة من الموضوعات في مفكرته ، ويحتفظ بها بجانبه ، ويكملها عبر السنين ، وغالبا ما كانت أفكاره الأولى غير بارعة ، لكنه كان قادرا على أن يصنع منها أشياء عظيمة بعد ذلك . والفرق بين الأسلوبين أن الأول قادر على أن يسبر الأعماق بطريقة خاطفة ، وبمجهود خارق سريع متواصل ، أما الثاني فيحفر طبقة وراء طبقة ، أعمق فأعمق ، والمسئول عن أي من الحالتين هو الرؤية الفنية التي ترى وتواصل حتى تصل إلى الهدف ، وهذا هو منطق العمل الفني ، هذا هو الأسلوب ، وهذا هو الرجل ذاته ، الأسلوب الأول أنتج لدينا في الأدب كاتبا مثل « يوسف ادريس » ، وربما كان تفضيله لشكل القصة القصيرة السريعة الموجزة المكثفة فيه بعض التفسير لهذا الأسلوب ، أما الأسلوب الثاني فأنتج لنا ذلك الحفار في أعماق المجتمع والبشر ، وهو نجيب محفوظ ، وكلاهما من أصحاب الأساليب ، وكما نعرف فقد يجرب الكاتب الأسلوبين ، التأملي والمندفع في أوقات مختلفة من حياته ، لكنه يظهر تفضيلا خاصا بشكل عام لأحدهما على الآخر . هذا اذن هو الأسلوب المعرفي للرجل ، الانتظار والتريث والصبر والدأب والعمل والكدح ، فالشخص التأملي أكثر ميلا للاستمرار في عمله من الشخص المندفع ، فالتأملية هي التي تؤدي وتدفع نحو الاستمرارية في العمل ، لأن هناك خطة محكمة ونظاما ووحدة على الرغم من التنوع ، وهذا هو أشد ما تحتاجه شعوب مثل

شعوبنا ، لذلك فقد كشف لنا نجيب محفوظ ـ النموذج والقدوة ـ عن أهمية دافعية الانجاز والانتاج والتمكن والسيطرة على العمل ، أي أهمية دوافع التفوق والابداع . هذه الخصائص المزاجية التي أرى أن من بينها التواضع والانطواء والتحفظ ، على الرغم مما يظهر عند المستوى السطحي من انبساطية وحب للظهور وسخرية ومرح . إنه أقرب إلى الانطوائى الذي لا يعلن عن نفسه إلا بالعمل والانتاج ، ومثل هذه الشخصيات العظيمة ليست شخصيات أحادية البعد ،بحيث يمكن أن نصفها بكلمات قليلة موجزة ، إن الأمر يحتاج منا إلى أن نحفر أعمق فأعمق في الطبقات الداخلية لهذه الشخصية ، وإحدى الوسائل الأساسية للحفر ـ في طريق هذا الفهم ـ أن نحاول استكشاف الأليات الأساسية التي تتحرك من خلالها هذه الشخصية ، ولنقف أولا برهة عند أهم محطات الصراع التي مر بها هذا الكاتب الكبير عبر حياته .

محطات للصراع :

في البداية كان هناك صراع في نفس نجيب محفوظ ، ما بين الأدب والفلسفة ، (كما ذكر هو نفسه لجمال الغيطاني في كتابه المهم « نجيب محفوظ يتذكر » ، واستمر هذا الصراع فترة طويلة ، وبعد تخرجه من قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٤ ، ظل يكتب بعض القصص القصيرة . ومنذ سنة ١٩٣٧ كرس نفسه للفن الروائي ، لقد حسم الأمر لصالح الرواية ، أو هكذا قال .

محطة أخرى توقف عندها نجيب محفوظ ، هي محطة التاريخ ، وكانت والدته ذات أثر كبير في هذه الناحية ، حين كانت تأخذه دائما لزيارة المتاحف والأماكن الأثرية ، كالأهرام و « الانتكخانة » ، وأبي الهول . وقد حدث صراع في نفس كاتبنا ما بين كتابة التاريخ القديم وكتابة التاريخ الحديث . بحث محفوظ أولا عن المرحلة المضيئة ، مصر الفرعونية كما قال ، لأنه كان يرى أن الواقع في مصر في ذلك الوقت كان خافت الضوء حالك الظلام ، في ظل الاحتلال الانجليزي والوالي التركي . وفي النهاية قرر نجيب محفوظ أن يتخلى عن كتابة التاريخ القديم من خلال الأدب ، وأن يحفر أكثر فأكثر في عمق الحاضر المعاصر .

المحطة الثالثة كانت هي محطة الوظيفة . . حدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين الأدب والوظيفة ، ونتيجة للحاجة المادية التزم محفوظ بالوظيفة ، واستمر يكتب الأدب ، بعد ذلك ، اكتشف محفوظ أن الوظيفة هي مصدر أو وسيلة للمشاهدة والتعامل مع نماذج مختلفة من الشخصيات « لقد توظفت لمدة ٥٤ سنة والوظيفة شيء والأدب شيء آخر » .

المحطة الرابعة هي محطة السياسة : الوفد أم الثورة ؟ كان محفوظ ومازال وفديا أقرب إلى يسار الوفد أو الطليعة الوفدية ، ثم عندما جاءت الثورة تحفظ محفوظ ، ثم تحمس لها ، ثم انتقدها . تحمس لايجابياتها ولمحاولاتها لبناء المجتمع الجديد ، لكنه انتقد السلبيات العديدة التي ترتبت على الحكم الفردي والاستئثار بالسلطة في مصر .

المحطة الخامسة حدث فيها صراع ما بين الزواج والأدب ، كان محفوظ يظن الزواج عائقا أمام الأدب ، ولذلك تأخر محفوظ في زواجه إلى ما بعد الأربعين ، ثم عندما تزوج اكتشف أن إنتاجه الأدبي لم يتأثر ، بل ربما ازداد . يمكننا القول إذن أن « الآلية » الأساسية التي كان يتحرك من خلالها نجيب محفوظ كانت كما يلي :

في البداية صراع من أجل الاختيار بين شيئين ، إما « أ » أو « ب » ، إما الفلسفة أو الأدب ، ثم يختار الأدب ، إما كتابة التاريخ أو الأدب ، ثم يختار الأدب إما الوظيفة أو الأدب ، وهنا لا يحدث اختيار تفضيلي ، بل يتم الجمع بين طرفي الصراع

بشكل واضح ، إما الثورة أو الوفد ، ثم الثورة بـايجابياتها والـوفد بـإيجابيـاته ، إمـا الزواج أو الأدب ، ثم الزواج بايجابياته التي تدعم الأدب والكتـابـة ، إمـا المجتمـع القـديم أو المجتمـع الجديد ، ثم المجتمع القديم والمجتمع الجديـد وفي رأيي أن محفوظ لم يتخل قط عن الفلسفة ، بل لقد تخلى عن التخصص في الفلسفة ، لكن الفلسفة ظلت كامنة في داخله ، تؤثر في رؤيته لـلأشياء ونفـاذه وراء سطحهـا الظاهـر ، مـع احساسات خاصة بالدهشة ، ورغبة عميقـة في الاستكشاف والمعرفة ، وكذلـك الحال بـالنسبة للتاريخ ، فنجيب محفوظ أشبه بـالمؤرخ أو عالم الاجتماع لفترة خـاصة من التـاريخ العـربي في مصـر ، ومع ذلـك فهـو ليس مؤرخـا أو عـالم اجتمـاع ، إنه كـاتب مبدع ، والمنجم الحقيقي للكتابة ، يـوجد لـديه في المـاضي (التاريـخ - الـطفولـة - تاريـخ الانسان الآن وهنـا بدلا من تاريخ الأمة في الماضي وهنـاك » . كان محفـوظ يتحرك من خلال التسوية أو الحل الوسط ، فبعد المرور من مرحلة إمـا « أ » أو « ب » ، وبعـد التأمل وإعمال الفكر ، يكتشف محفوظ أن هناك إمكانية للتعايش ما بين « أ » و « ب » في مركب جديد . ووفقا « لهيجل » فإن الوعي أو الـروح خلال تطوره يمر بمرحلة من الفكرة إلى نقيضها إلى مرحلة أكبر شمولاً هي مرحلة مركب النقيضين . كذلك كان الأمر في حالة نجيب محفـوظ ، فقد كان دائما ما يصل إلى مركب إبداعي خـاص ، شديد الخصوبة ، لكل المتناقضـات . هذه هي محطات الصراع ، صـراع « دينامي » يشـير إلى الحركة والنشاط والعقل والاختيار والإبداع .

الاستمرارية والانقطاع :

لكن هناك في حياة نجيب محفوظ محطتـين ، تـوقف فيهما مسـار قطاره الإبـداعي . ولم يكن « مركب النقيضين » فيهـا ناجحـا أو ناجعـا في تسيير حركة هذا القطار لديـه : المحطة الثـانية كانت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، واستمرت مدة عام ، وهذه يسهل تفسيرها ، وقد شاركـه فيها أدبـاء عديدون في مصر والوطن العربي ، بسبب تلك الظروف الماثلة التي زلزلت أرجاء وطننا العربي ، ومـازلنا نعـاني آثارهـا حتى الآن ، أمـا المحـطة الأولى ، وهي موضع الاهتمام الأكبر هنا ، فهي تلك المحطة التي نلاحـظها في قـائمة مؤلفـات محفوظ بشكل خاص في الفترة الزمنية التي تقع من ص ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦ ، وكما يكشف لنا عنهـا بشكل واضح ذلـك المنحنى المصاحب للمقـال الذي رسمناه للتعبير عن مساره الابـداعي عبر خمسين عاما . فماذا كان يفعل نجيب محفوظ في هذه الفترة ؟

(١) أولا : في ابريل سنة ١٩٥٢ انتهى محفوظ من كتابة الثلاثية ، وكان قد ظل يعمل فيهـا ٤ سنوات ، إذن فالسنوات من ١٩٤٩ - ١٩٥٢ لم تكن سنوات توقف ، بـل سنوات من الانتـاج والعمل ، ولم تنشر الثلاثية (التي كانت في البداية عملا كثيرا - حوالي ١٢٠٠ صفحة - بـاسم بين القصرين) إلا عام ١٩٥٦ .

(٢) المشكلة الأسـاسية إذن في السنـوات من ١٩٥٢ - ١٩٥٦ وهي سنوات اليأس الأدبي كما سماها كاتبنا ، وقد قال إنه كان خلالها يشتهي الموت . فماذا حدث خلال تلك السنوات ؟

أ - سنة ١٩٥٢ قامت ثورة يوليو ، وحدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين إخلاصـه القديم للوفد ، ومحاوله تبني مبادىء الثورة الجديـدة ، وقد ظل - ربما بتأثير الخوف أو التردد أو الترقب أو مـا شابـه ذلك من الانفعـالات - ينتظر الـوقت المنـاسب لتحديـد موقفـه ، وظل حتى النهـايـة وفديا ، لكنه ظل متحمسا أيضا لايجابيات الثورة على الرغم من قيامه بـانتقاد عيـوبها كـما سبقت الإشارة .

ب - في سنة ١٩٥٤ تزوج محفـوظ ، وكان قـد تجاوز الأربعين ، وقد كان الأمـر يحتاج منـه إلى محاولات جديدة للتكيف مع حياة جديدة لم يعتد عليها .

ج ـ سنه ١٩٥٤ حدثت أزمة مارس ، حيث اشتد الصراع بين الجناح العسكري والجناح الذي يميل للمدنية في قيادة الثورة ، وقد انتهى الأمر بسيادة الجناح العسكري كما هو معروف

د ـ كان المجهود الكبير الذي بذله محفوظ في الثلاثية يحتاج إلى توقف ما ، لإعادة ترتيب الأوراق ، والنظر إلى الأمور من خلال وجهة نظر جديدة

هـ ـ ظل محفوظ يكتب حوالي عشرين عاما (ما بين ١٩٢٩ إلى ١٩٤٩) دون أن يذكره أحد ، وقد كانت أولى المقالات التي كتبت عنه تلك التي كتبها المرحوم سيد قطب والمرحوم أنور المعداوي . وقد كان ذلك كفيلا بدفعه إلى الأمام لا إلى الخلف .

و ـ ان ما ذكره محفوظ من أن الثورة حققت الأهداف التي كان يسعى إليها ليس صحيحا ، بل ربما كان ذلك بمثابة « التقية » أو درء الشبهات (كما قال هو نفسه بعد ذلك) .

ز ـ قال محفوظ في كتابه « عشرة أدباء يتحدثون » لفؤاد دوارة « أتعلم ماالذي جعلني أستمر ولا أيأس ، لقد اعتبرت الأدب حياة لا مهنة ، فحينما تعتبره مهنة لا تستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة ، أما أنا فقد حصرت اهتمامي في الانتاج نفسه ، وليس بما وراء الانتاج ، كنت أكتب وأكتب لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتي ذات يوم ، بل كنت أكتب وأنا معتقد أنني سأظل على هذه الحال دائما » إنها الدافعية الداخلية ، دافعية العمل نفسه ، التي سماها «جوردون البورت » « الاستقلال الذاتي الوظيفي » ، فالصياد الذي كان يقوم بالصيد من أجل إشباع الاحساس بالجوع لديه ، أصبح يقوم الآن بالصيد ، لأنه يجد متعة في الصيد إنها أيضا الحالة التي يسميها علماء النفس الان « الدافعية الداخلية » وهي الدافعية التي تظهر في لعب الأطفال ونشاطات المبدعين بشكل خاص .

الأعمال التي تعبر عن فرد منعزل في مقابل مجتمع كبير يكاد يبتلعه ـ كما في « اللص والكلاب » ١٩٦١ . و « السمان والخريف » ١٩٦٢ ، « الطريق » ١٩٦٤ . و « الشحاذ » ١٩٦٥ . كما أنتج عددا كبيرا من المجموعات القصصية بعد فترة التوقف هذه إن الأمر قد يتضح لنا بشكل أفضل إذا ما نظرنا إلى الطبيعة الخاصة لتلك القدرات التي تقف وراء الابداع .

قدرات الإبداع :

يتحدث العلماء عن مجموعة من القدرات المميزة للمبدعين في المجالات المختلفة ، فيتحدثون مثلا عن طلاقة الأفكار ، أي كثرتها العددية ، ثم يتحدثون عن الأصالة ، أي جدة الأفكار وطرافتها ، ويتحدثون كذلك عن مرونة الأفكار ، أي تحررها من القوالب النمطية في التفكير ، من الأطر المتجمدة والقصور الذاتي والتكرار والاجترار ، وأعتقد أن الصراع الحقيقي في عقل محفوظ كان يدور أساسا بين الكثرة وبين

التنوع ، بين الكم وبين الكيف ، بين الطلاقة من ناحية ـ أي كثرة المؤلفات من الناحية العددية ـ وبين الأصالة والمرونة من ناحية أخرى . والتوقف يعني قمة الكم والكيف ، فالتوقف يعني عدم الانتاج ، لكنه قد يعني أيضا التفكير في إمكانيات جديدة للعمل (أصالة + مرونة) .

إننا نجد عبر التاريخ الأدبي والعلمي للبشرية أمثلة واضحة لهذا التباين ما بين الكم والكيف ، فمثلا ـ نجد أن « مرجريت ميتشيل » ـ صاحبة رواية « ذهب مع الريح » ـ لم تنتج سوى هذا العمل ، كذلك كان الحال بالنسبة « لاميلي برونتي » مؤلفة رواية « مرتفعات ودرنج » قبل ذلك ، ومع ذلك فقد سجلت هاتان الكاتبتان اسميهما في سجل الخلود الأدبي . أما الأسباني « لوب دي فيجا » (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) فقد أنتج ما يعادل ٢٠٠٠ ناتج إبداعي ، ومن ثم فهو أغزر الأدباء على مر التاريخ ، ويعرف من هذه الأعمال ٧٢٥ عملا ، والموجود منها فعلا ٤٧٠ ناتجا ابداعيا فقط .

كذلك أنتج « فرويد » ٣٣٠ عملا في ٤٥ سنة ، وأنتج « بيكاسو » عدة آلاف من اللوحات والأعمال الفنية في ٧٥ سنة ، وأنتج « اينشتاين » ٢٤٨ عملا في ٥٣ سنة ، وأنتج « داروين » ١١٩ عملا في ٥١ سنة . إن هؤلاء المبدعين يقضون وقتا أطول من غيرهم في العمل من أجل هذا الانتاج الهائل .

ان درجة التزام المرء هنا بعمله قد تكون هي الفارق المهم الأساسي في التمييز بين المبدعين وغير المبدعين ، إن الدافعية العالية وحدها لا تكفي لتكوين مبدع كبير ، فالشخص قد تتوافر لديه دافعية كبيرة ، وينتج أعمالا كثيرة (طلاقة) ، لكنها لا تضيف جديدا لحل المشكلات المهمة ، أو لا يكون لها تأثيرها المقيم . هنا يدور الصراع بين الطلاقة والأصالة ، بين الكم والكيف ، هنا يكون لتغيير وجهات النظر ـ أي للمرونة ـ دور كبير .

يميز عالم النفس الأمريكي « سلفاتور مادي » ما بين دافعين أساسيين للإبداع ، فيطلق على الدافع الأول اسم « الحاجة إلى الكفاءة » ويقصد به مجموعة الدوافع التي تقود المرء المبدع إلى المثابرة في التطوير والتعبير عن المواهب والقدرات ، هذه المثابرة هي التي تدفع المبدع نحو التعديل والتنقيح والتحسين المستمر للعمل ، وتكون مسئولة أيضا عن وفرة الانتاج وغزارته ، أما مجموعة الدوافع الأخرى فأطلق عليها « مادي » اسم « الحاجة إلى الجدة » ، وهي ما تجعل المرء الذي يملكها يرى في غير المألوف والنادر وغير المتشابه إشباعات خاصة . وليست الجدة هنا وسيلة لتحقيق المفيد والنافع فقط بقدر ما هي استجابة انفعالية مصحوبة بالدهشة ، إنها هي التي تتناقض مع السأم الذي اعتبره « بايرون » أشد درجات العذاب الانساني قسوة . إن الشخصية المبدعة تمر بخبرات « الحاجة للكفاءة » و « الحاجة للجدة » بشكل مكثف وعميق ، وفي حالة ما إذا كانت الحاجة إلى الكفاءة هي السائدة ، والحاجة إلى الجدة هي الأضعف ، فإن الشخص قد يكون متوجها نحو الحرفية أكثر من توجهه نحو الإبداع ، أما إذا كانت الحاجة إلى الجدة هي السائدة ، والحاجة إلى الكفاءة هي الأضعف ، فإن الاتجاه النقيض قد يظهر .

كان توقف نجيب محفوظ أو يأسه الإبداعي الذي أشرنا إليه يكمن ـ في رأينا ـ في قبضة ذلك الصراع الذى احتدم في عقله ووجدانه ، ما بين الطلاقة (كثرة الانتاج) وبين الأصالة (تنوع وجدة الانتاج) ، ما بين الحرفية التي تمكن منها إلى حد كبير فوصل إلى قمة الكفاءة ، وبين الرؤية الجديدة التي كان يحتاجها في تلك الفترة ، حين أصبحت الرؤية القديمة تتفتح فترى أركان ذلك العالم القديم تتهدم وتتداعى ، وقد كان محفوظ قادرا دائما على تجاوز هذا اليأس ، والقيام بوثبة كبيرة على طريق الإبداع □

البنية الروائية كمرآة للتفكك الاجتماعي

بقلم : الدكتور / صبري حافظ

« حديث الصباح والمساء » بلا شك أهم نصوص « نجيب محفوظ » منذ روايته الجميلة (الحرافيش) التي ظهرت قبل أكثر من عشر سنوات . وهذه الرواية الجديدة واحدة من أهم الروايات العربية في الثمانينيات ، ومن أكثرها ثراء بالدلالات والإشكالات معا ، لأنها واحدة من نصوصه الأخيرة القليلة التي تنطوي بنيتها على أهم محددات رؤيتها ، والتي يسفر الجدل الخصيب بين مبناها ومعناها عن كثير من القضايا التي يمكن الاختلاف فيها مع كاتبنا الكبير أو الاتفاق معه ، حسب موقع القارىء على خريطة التذوق الأدبي أو خريطة اليقين السياسي . ولا منجاة من أن يتسم عمل له طموح هذه الرواية الكبير بقدر من الإشكالية والخلافية ، لأن الرواية تطمح إلى استيعاب حركة الواقع المصري منذ فجر مسيرته التحديثية حتى الآن .

جدلية الفضاءين النصي والاجتماعي :

بعد أن كان الفضاء الروائي التقليدي في الثلاثية مثلا ساحة للتفاعل الثري بين الشخصيات ، أصبح في هذه الرواية الجديدة التي تغطي مرحلة تاريخية أطول ، وتقدم لنا عددا من الشخصيات يفوق عدد شخصيات الثلاثية ، وفي أقل من سدس حجمها ، أصبح مجرد مكان للوجود المتجاور الذي اقتضى أن يحكم ظهور الشخصيات فيه لا دورها في حدث معين يجمعها مع بقية الشخصيات الأخرى ، فقد انعدم الدور وتلاشت الفاعلية ، وزال التفاعل الخلاق بينها ، وإنما مجرد وجودها في المكان ، أو انتسابها إلى شجرة تلك الأسرة الوارفة . ومن هنا كان الترتيب الأبجدي لظهور الشخصيات هو الترتيب الأمثل ، ليس فقط لأنه ترتيب يبدو على السطح أن له منطقا ما ، ولكنه في الواقع ترتيب

ما لا ترتيب له ، أو لا منطق له ، ولكن أيضا لأن منطق هذا الترتيب الغريب ينطوي على تذويب الزمن ، والتضحية بمسيرته المتابعة الحلقات .

ولا يعني هذا أن الرواية بلا منطق أو بنية ، ولكنه يعني أن محتوى البنية نفسه هو أحد وجوه المعنى الأساسية في هذا النص الأدبي الجميل ، فالرواية لا تقول لنا إن الواقع المصري يعاني من التفكك ، وتنهشه الصراعات الداخلية المريرة ، ولكنها تجسد هذا التفكك والصراع وتحوله إلى واقع روائي ملموس ، إذ تقدم لنا سبعا وستين شخصية ، اختارتها مما يقرب من ضعف هذا العدد من الشخصيات التي تنتمي إلى ثلاث عائلات متصاهرة ومتشابكة بروابط الرحم والنسب ، على مر ما يقرب من قرنين من الزمان ، انتاب فيها أبناء الأسرة من التحول ما انتاب مدينتهم ، ولغتهم ، وتصوراتهم ، وقيمهم من زلازل . فالرواية تطمح إلى أن تكون ترمومترا لمجموعة كبيرة من التغيرات الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، وأن تقدم لنا تلك المتغيرات من خلال تجسيدها عبر المتغير الروائي نفسه ، وهذا إنجاز يحسب لكاتبنا الكبير . وتوشك هذه الشخصيات السبع والستون ، أو فلنسمها « البورتريهات » الروائية السبع والستين ، أن تصنع لنا في نهاية الرواية شجرة عائلية وارفة لا يملك من يتأملها إلا الرثاء لما انتابها من ذبول ، ولما تساقط منها من أوراق ناضرة ، والإعجاب في الوقت نفسه بما قدمته من تضحيات ، وما حققته من انجازات فردية على الأقل . لأن الانجاز في العالم الذي يسيطر عليه التفكك لا يمكن إلا أن يكون فرديا . بل إن البنية الروائية نفسها ـ في اعتمادها على أسلوب السير أو « البورتريهات الفردية » ـ تطمح إلى طمس الإنجاز الاجتماعي ، أو تغييبه ، دون أن تتيح لنقادها فرصة اتهامها بتجاهله ، لأنها سدت الباب الذي يمكن له الولوج منه ، ومن هنا أصبح تناوله منافيا للبنية الروائية نفسها .

وحتى نتعرف على حقيقة العالم الروائي الذي تبلوره لنا هذه « البورتريهات » ـ التي يقترب بعضها من أسلوب « الاسكتشات » أو ضربات الفرشاة السريعة ، أو الصور القلمية الموجزة ـ لا بد لنا من التعرف على البنى الزمنية والاجتماعية والروائية التي تنطوي عليها هذه الرواية ، والتي تسفر عنها محاولة استقراء الرواية المحذوفة الثاوية في عمق الرواية المكتوبة . فلهذه الرواية ولا ريب ، رواية أخرى لم تكتب ، أو ربما كتبت خطوطها العريضة ، ثم أسقطها الكاتب ، ليقدم لنا عوضا عنها هذه المجموعة من الصور القلمية السريعة لأهم شخصياتها ، أو قل للشخصيات التي رأى الكاتب أنها قادرة على تلخيص كل من بنيتي الرواية الزمنية والاجتماعية . ذلك لأن وراء التفكك البادي على السطح ، والذي يجسده تكنيك السير المرتبة حسب حروف الأبجدية ، مجموعة من العلاقات المتشابكة التي تجعلها رواية وليست مجرد سجل أبجدي بشخصيات لا رابط بينها . وستتكشف لنا تلك العلاقات من خلال تناول البنى المختلفة في هذا العمل الروائي .

البنية الاجتماعية

وإذا ما بدأنا بالبنية الاجتماعية سنجد أن هذه الرواية تبدأ بثلاث أسر تقدم لنا العناصر الأساسية الثلاثة الصانعة لنسيج المجتمع المصري العريض ، أو على وجه الدقة للشرائح المتعددة الصانعة لأهم طبقاته ، أي طبقته الوسطى .

أسرة « الشيخ القليوبي » التي تمثل الطبقة الوسطى ذات الأصول الريفية والتي ارتقت إلى تلك المكانة بسبب التعليم المجاني الذي وفره لها نظام التعليم الديني التقليدي في الأزهر . وأسرة « يزيد المصري » ذات الأصل الحضري ، أو الساحلي ، التي تمثل السواد الأعظم من الشعب المصري ، الذي يكسب قوته بعرق جبينه ، والذي يمتزج إيمانه الديني الأصيل بعناصر من

التراث الشفهي والخرافة الشعبية ، والذي يؤمن بأن السبيل الوحيد إلى تحقيق قدر من الارتقاء الاجتماعي يتحقق عن طريق تعليم أبنائه . وأسرة « عطا المراكيبي » التي تمثل ملاك الأراضي الذين كانوا كغيرهم من السواد الأعظم معدمين ، ولكن شاءت المقادير العابثة التي تحكم الملكية العقارية في مصر ، أن تنحدر ثروة معظمهم من المصاهرة . هذه الأسر الثلاث أو الروافد الاجتماعية الثلاث التي نتعرف عليها جميعا في الحملة الفرنسية تربطها معا أواصر الزواج والمصاهرة ، وتنحدر من أصلابها جميعا سلالات اجتماعية ثلاث لا تقل عنها تمثيلا لما جرى في المجتمع المصري . نرى على مدى صفحات الرواية تطورها وتحولات مصائرها على مدى قرنين من الزمان .

أولاها سلالة أسماك القرش الشرهة التي لا ترتدع ولا ترعوي ، والتي تبدأ من « عطا المراكيبي » الذي ارتفع بالمصاهرة من صانع مراكيب بسيط إلى أحد سراة القرن الماضي . وتستمر حتى قطط الانفتاح السمان ، مرورا بمحمود وحسن وماهر وعدنان المراكيبي ، وبليغ معاوية حتى عقل القناوي ونادر المنياوي وأدهم وحسني حازم وسرور . وهي سلالة شرهة للمال ، لا تعرف لها وطنا أو دينا سواه ، ولا تتورع عن المتاجرة بكل شيء وأي شيء . لا تعرف عن الوطنية شيئا ، ولا يهمها من أمور السياسة الا تأمين مصالحها أو توسيع رقعة مكاسبها . أما عن عالمها القيمي ومعتقداتها الأخلاقية فحدث ولا حرج ، أناس لا ضمير لمعظمهم ولا خلاق ، يتمركزون حول ذواتهم الصغيرة التي يتصورون أن الكرة الأرضية بأكملها لا تدور إلا حولها . ولا يعرفون من العواطف إلا الفظاظة والشره والأنانية المفرطة . أما بقية العواطف الإنسانية الأخرى من حب وأمانة ووطنية وغيرها فإنها خاضعة لديهم دائما لآخر أسعار الإقفال في « بورصة » مصالحهم .

أما السلالة الثانية فهي النقيض الكامل لتلك السلالة الشرهة العربية . إنها السلالة التي ينتمي إليها لحسن الحظ السواد الأعظم من الشعب المصري ، سلالة الإنسان البسيط القانع الهادئ الذي لا يعقد الأمور . وهي السلالة التي تمثل راضية معاوية القليوبي (وهي محور الشخصيات النسائية في هذه الرواية وتوشك أن تكون الرمز الروائي للأم ـ الأرض ـ الوطن) نموذجها المصفى . إنها سلالة تجرى البساطة في عروقها مع الدماء ، ويجري معها فيها شيء من العمق والأصالة . وهي ـ لذلك ـ السلالة التي تحافظ على مستودع القيم الحضارية والأخلاقية الراسخ الذي صاغته الشخصية المصرية عبر مسيرتها الحضارية الممتدة لآلاف السنين . وهي سلالة ثرية بالتنويعات من الجذع الأصلي لهذه السلالة يزيد المصري (الذي لا يخفى ما في اسمه من دلالات مكشوفة) بطبيعته المرحة وبصيرته الثاقبة حتى حمادة القناوي بعقله الصعيدي المغلق وأفقه المحدود . من قاسم عمرو الذي حول صدمته الباكرة إلى نوع من البركة الاتكالية ، إلى دنانير بركات التي أطاحت المقادير بفرصتها اللامعة فتشبثت بكبريائها في عناد له طبيعة انتحارية ضيقة الأفق . من عمرو عزيز المترع بالطيبة والرغبة في تأمين مستقبل عياله ، حتى أخيه سرور

عزيز المقهور المليء بالسخط والإحن والإحباط . تلك السلالة التي تضم رهطا كبيرا من الشخصيات التي تعاني من عيوب كثيرة ، ولكن وفرة حسناتها هي التي تتفوق في نهاية المطاف على تلك العيوب . وسنجد أن أبناء هذه السلالة البسيطة هم الذين كانوا وقود الحروب المختلفة التي خاضتها مصر ضد العدو الصهيوني التي تحرص الرواية على ألا تذكر اسمه أو تشير إلى عدائنا له ، « فأيديولوجية » نجيب محفوظ السياسية لا تزال فاعلة في هذا النص وسنعود إلى هذا الأمر في موضع آخر من هذه الدراسة .

أما السلالة الثالثة التي تقدمها لنا شخصيات هذه الرواية فهي تلك السلالة التي ينتمي الكاتب نفسه إليها ، والتي يمكن أن نطلق عليها سلالة « النخبة المثقفة » المصرية الحديثة تلك السلالة التي يعود أصلها إلى فرعين أساسيين حرصت الرواية على تقديم أصولهمامنذ بداية مسيرتها التاريخية : الفرع الأزهري الذي انحدر من أصلابه الشيخ القليوبي وولده الشيخ معاوية ، الذي شارك في الثورة العرابية ، وسجن بعد إخفاقها ، والفرع المدني الذي بدأ بحطف الجند للطفل الصغير داود يزيد المصري بأمر الوالي محمد علي وحبسه في القلعة حتى يكمل دراسة العلوم المدنية ، ثم إرساله إلى فرنسا ليدرس الطب هناك . وتكشف لنا مسيرة الأحداث في الرواية كيف ظل الفرع الأزهري أكثر اقترابا من التيار الشعبي ، وأميل إلى رؤاه من الناحيتين السياسية والثقافية معا ، بينما حوم التيار المدني حول مؤسسة السلطة في مختلف عهودها . صحيح أن الفرعين قد امتزجا وتزاوجا في أحيان كثيرة ، لكن الفرع المدني الذي كانت له الغلبة - حيث اختفى الفرع الأزهري كلية مع مقدم القرن العشرين - زود الرواية بأهم ألوان الطيف السياسي التي عرفها المجتمع المصري في تلك الفترة بما في ذلك ممثلو التيار الديني الذين كان أبرزهم في الرواية سليم حسين قابيل ، الذي يعد على الرغم من تعليمه المدني ، نتاجا حقيقيا للفكر التقليدي والتعليم الديني . ومن أبرز علاقات التناظر بين بنية الرواية الاجتماعية ونسيج الخريطة السياسية التي عاشها الواقع المصري على مدى تلك الفترة الطويلة التي تتناولها الرواية ، أن كلا من ممثلي التيار الديني والتيار الماركسي السياسيين قد انحدرا من أصلاب السلالة الثانية عامة ومن أحفاد عمرو عزيز يزيد المصري خاصة في محاولة من الرواية للربط بين سعي تلك السلالة لتحسين أوضاع بنيها بالتعليم وبين اشتباك مصائرها بآليات القهر الذي يمارس ضد حلمها المشروع بالخلاص ، مهما كانت سبل تحقيق هذا الحلم ومهما كانت« ايديولوجيته» . أما سلالة المراكيبي الثرية ، وأحفاد الطبيب النابه داود باشا يزيد المصري ، فقد كانت أكثر سلالات النص ارتباطا بمؤسسة السلطة ، فقد

كان منها الباشوات والبكوات أيام العهد الملكي ، وكان منها كذلك الضباط الأحرار في عهد الثورة ، بل وكان منها كبار الانفتاحيين في عصر السادات الكئيب .

خريطة العلاقات والمتغيرات

وإذا كانت هذه الأسر الثلاث وسلالاتها الثلاث هي الصانعة لنسيج البنية الاجتماعية للرواية ، فإن تحولات الواقع الحضاري المصري عبر قرنين من الزمان هي التي سيطرت على طبيعة العلاقات بين شخصياتها . تلك العلاقات التي لا تقدمها الرواية لذاتها ، وإنما لما ترسمه من تحولات دالة في هذا الواقع . فهناك التحولات التي تنتاب تضاريس المدينة وقدرتها الرهيبة على تقطيع أواصر القربى ، وتحويل جغرافيا المدينة الواحدة إلى ممالك مستقلة لا تعبر حدودها إلا في الملمات . فالرواية توشك من هذه الناحية أن تكون سجلا هاما لما جرى لمدينة القاهرة عبر قرنين من الزمان ، ولدور التغيرات الاقتصادية ، ودور التلفاز في تكريس هذا الوجود الاجتزائي للمدينة ، وكيف أدت هذه التحولات إلى بوادر الهجرة المضادة التي تدفع أحد أحفاد عمرو يزيد المصري (صالح حامد عمرو) إلى الهجرة من المدينة إلى الريف ، وإلى إطلاقه لقب مدينة العذاب على القاهرة . وخاصة أن الرواية كلها من نسل المدينة الخالص وليس فيها من الريف ـ ككل عالم نجيب محفوظ ـ إلا النزر اليسير .

وهناك أيضا التحولات التي انتابت طبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية ، بما في ذلك تغير أساليب الزواج وتبدل طبيعة النظرة له تغيرا ضعيفا ، بينما تراخت بشكل جذري قبضة العلاقات الأبوية ، وبدأت الرواية ، منذ جيل الأحفاد خاصة ، تقدم لنا صورا من التمرد الحاد على سطوة العلاقات الأبوية ، ما كان ممكنا التمكن في حدوثه حتى في أكثر الكوابيس تطرفا [illegible] تراخي قبضة العلاقات الأبوية في هذه الرواية أهميته فقط من تسجيله لتغير العلاقات الاجتماعية في الواقع الذي صدرت عنه ، ولكن من بلورته لحالة تراخي قبضة السلطة بمعناها الحضاري الواسع أيضا فالتغيرات القيمية لا تقل أهمية عن التغيرات الجغرافية أو الاجتماعية أو التاريخية .

أما التغيرات الاجتماعية التي انتابت نمط حياة الناس وطبيعة توقعاتهم ونوعية طموحاتهم ، فقد قدمت لنا الرواية مجموعة ثرية منها ، بدءا من أشكال السفر للعمل بالخارج ، والهجرة ، والسياحة ، وغير ذلك من أشكال خروج المصري للعالم بمحض إرادته ، بعد أن شاهدنا كيف كان إرسال الابن الأول للتعليم في منتصف القرن الماضي أو بعده بقليل أقرب ما يكون إلى الكارثة التي حاقت بالأسرة دون أن تملك لها دفعا . إلى زواج عدد من الأحفاد من أجنبيات وبدايات الاستقرار في أوربا وأمريكا لفروع من أغصان شجرة تلك الأسرة الوارفة .

البنية الزمنية

ولننتقل الآن إلى بنية الرواية الزمانية في محاولة لاستخلاص التركيبة الروائية الثاوية خلف هذا الجمع الوفير من الشخصيات التي آثرت الرواية أن تقدمها لنا حسب ترتيب أسمائها الهجائي . ذلك لأن وراء هذا الحشد الروائي من « البورتريهات » القصصية التي تتابع بلا منطق غير منطق الأبجدية العشوائي ، ولا رابط غير روابطها اللامنطقية ، بنية روائية تتحرك في الزمن بحساب يشي بتصور له طبيعة سياسية واضحة تتخفى وراء الترتيب الهجائي ، وصرامات السرد السريعة التي تستلزمها طبيعة « البورتريهات »

القصصية التي يبني بها محفوظ عالم روايته . فإذا كانت الرواية تبدأ بشخصية أحمد محمد إبراهيم الذي مات قبل أن يبلغ سن دخول الكتاب ، وتنتهي بيزيد المصري الذي « وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام »، فإنها تضم بين البداية والنهاية خمسا وستين شخصية أخرى . سنحاول أن نموضعها على خريطة البنية الزمنية للرواية . لكن لا بد أن نشير بداءة إلى أن بداية الرواية بأحمد محمد ابراهيم ، وتعمدها وضعه قبل أحمد عطا المراكيبي الذي كان الترتيب الهجائي يستلزم البدء به يوشك أن يكون عمديا ، وكان بإمكان الرواية تجنب هذا الخطأ البسيط باختيار إسم آخر لوالد أحمد وزوج مطرية يبدأ بأي حرف من الحروف الواقعة قبل العين كان تدعوه بديعا أو جملا أو سعيدا . . الخ

فالرواية تريدنا حقا أن نبدأ بهذا الحس القدري المأساوي الذي يوقع النص كله في قبضة الموت العابثة . ولأنها لا تريدنا أن نبدأ بأحمد عطا المراكيبي الذي لم ينجح في الاستئثار بتعاطف القارىء وإنما بهذا الطفل الفائق الجمال - ابن مطرية عمرو عزيز - فموته المبكر يضع النص منذ الصفحات الأولى في قبضة العبث والكارثة كما أن اختتامه بيزيد المصري وهو الشخصية العمودية التي تفرعت من أصلابها معظم شخصيات النص وأسره الأساسية على نفس القدر من العمدية ، وكأنما يريد الكاتب أن ينهي روايته بالوصول إلى الجذر الأول للسلالة .

ومن هنا فإن للرواية ، شئنا أم أبينا ، بنية زمنية ، وبنية فنية لا بد على القارىء أن يتأملها حتى يستنبط أهم ما ينطوي عليه النص من رؤى ودلالات . فالرواية تبدأ زمنيا بعام وصول يزيد المصري من الاسكندرية إلى القاهرة بعد أن مات جل أهله في الوباء الذي أهلك كثيرا من أهل الثغر « قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام » (ص ٢١٦) أي عام ١٧٩٨ وكان يزيد من أسرة عطارين . وكأن نجيبا يريد أن يعارض بهذا الاختيار القول الشائع بأن الذي « بنى مصر كان في الأصل حلواني »، فالذي بنى مسيرة أسرته المصرية الوارفة مع التحديث كان في الأصل عطارا ، وهي أقرب المهن إلى الدخاخني الألباني - محمد علي - المسؤول عن بداية مشروعها الحديث ، وتستمر الرواية حتى منتصف الثمانينيات . إذ نعرف أن شاكر عامر عمرو الذي هاجر إلى أمريكا وأقام بها أثناء عهد عبدالناصر وقطع علاقته بأهله ووطنه ، قد « رجع في منتصف الثمانينيات مصطحبا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبي » (ص ١٢١) ومن هنا فإنها واعية زمانيا باختيارات لحظة بدايتها ، أما لحظة نهايتها على المحور الزمني فهي فترة كتابة الرواية نفسها التي لا بد وأنها كتبت عام ١٩٨٦ أو ١٩٨٧ على أحسن تقدير . وإذا حاولنا أن نعيد تركيب البنية الزمانية ، المتناثرة في جزئيات عديدة موزعة على « بورتريهات » النص القصصية الكثيرة ، سنجد أننا أمام قصة يزيد المصري الذي جاء إلى القاهرة قبل وفود الفرنسيس إليها حسب لغة تلك الأيام فعمل في وكالة الوراق في منطقة الغورية ، وتعرف على عطا المراكيبي الذي كان يعمل هو الآخر في دكان الصالحية لصاحبه المغربي جلعاد المغاوري ، كما تعرف على الشيخ القليوبي الذي كان يدرس في الأزهر . وبينما وقع يزيد في غرام فرجة الصياد الجميلة وتزوجها ، كان عطا أحرص منه على استخدام الزواج كوسيلة للرقي الاجتماعي فبنى بسكينة المغاورى ابنة صاحب الدكان الذي يعمل به ، وأصبح نائبا له فيه ثم وريثا له بعد وفاته . ومع أن الصداقة جمعت بين هؤلاء الثلاثة إلا أن الطبيعة فرقت بينهم . فبينما كان يزيد وطنيا يتميز بالشهامة والرجولة ، وكاد يهلك في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين (ص ١٦٠)، كان عطا خاليا من تلك الصفات حريصا على مصلحته الخاصة ، بينما كان الشيخ ورعا ودودا يقبل »

من هنا بدأت رحلة الحارة .. الطريق إلى نوبل

استطلاع : ابراهيم منصور

حين طلب مني الدكتور رئيس التحرير كتابة استطلاع عن روايات الأستاذ « نجيب محفوظ » وعلاقتها بحي الحمالية ، وافقت على الفور ، ودون تردد أو تفكير .

كنت قد قرأت ، مثل مئات الألوف من القراء العرب ، روايات الكاتب الكبير مثل « خان الخليلي » و « زقاق المدق » و « ثلاثية بين القصرين » كما كنت أيضا ، مثل مئات الألوف من السائحين والقاهريين ، قد تجولت في شوارع هذه المنطقة وحواريها وأزقتها

بل اني كنت ، زيادة على ذلك ، قد قرأت ما كتب عن هذه المنطقة مثل « خطط » المقريزي وعلي مبارك ، وحوليات التاريخ الوسيط . مثل « سلوك » المقريزى و « نجوم » ابن تغرى بردى و « بدائع » ابن اياس المصري و « عجائب » الجبرتي .

ومن ثم ، فقد ظننت الأمر سهلا لا يحتاج الى عناء كبير . ومن هنا ، أيضا ، كانت موافقتي الفورية التي لا يشوبها تردد .

ولكن الأمر لم يكن كما ظننت .

ووجدت ، حين شرعت في العمل ، أن الموضوع أصعب مما كنت أتصور .

ذلك ، أن روايات الأستاذ نجيب محفوظ التي تتناول هذه المنطقة ، لا تسجل واقعها كما هو ، بتركيبته الخاصة ، وإذا كان المرء يتخيل ، وهو يقرأ هذه الأعمال ، أنه يرى شوارع المنطقة وحاراتها ، وأزقتها كما هي في واقعها الحقيقي ، فإن ذلك مرجعه أن عناصر هذا الواقع موجودة كلها - أو على الأقل معظمها - في هذه الأعمال ، ولكن بعد إعادة تركيبها وتغيير نمط ووتيرة تآلفها وتناسقها ، وبحيث تصبح النتيجة واقعا جديدا تماما يشبه الواقع ، ولكنه لا يتماثل معه . وإن كان ذلك لا يجعله أقل صدقا من الواقع الأصلي . . . بل ربما أحيانا أكثر صدقا وتعبيرا ودلالة .

والكاتب الكبير يدرك ذلك جيدا ، ويؤكده في العديد من الأحاديث التي يدلي بها . وقد أكد لي ذلك في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع . فقد قلت له:ان قصة « أم أحمد » ، في مجموعته القصصية الأخيرة : « صباح الورد » ، تبدو كأنها قصة تسجيلية . . أو ضرب من السيرة الذاتية ، وأن وصفه لدرب « قرمز » يتشابه ، الى حد كبير ، مع وصف علي مبارك له في « الخطط التوفيقية » ، فقال : « . . هناك قدر من الصحة فيما تقول . . ولكنك لا يجب أن تعتمد عليها من ناحية تاريخ شخصياتها . . فقد لعب الخيال فيها دورا الى حد ما . . كما أن تطورها سار وفقا لمنطق الثورة - أي ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ - أكثر من سيره وفقا لما حدث في الواقع . . والواقع أن تلك القصة من عمل الخيال ، الذى يكون حقيقيا وغير حقيقي في نفس الوقت ، فهو غير حقيقي لو أنك طبقته على الشخصية نفسها . ولكنه حقيقي بمعنى عام » .

غياب غير مفهوم

على أن هناك عنصرا مهما من عناصر واقع منطقة الجمالية يكاد أن يغيب تماما من أعمال الكاتب الكبير .

فأنت ، حين تقرأ هذه الأعمال الروائية التي كتبها الأستاذ « نجيب محفوظ » ، والتي تتناول واقع هذه المنطقة ، قد تلاحظ ، كما لاحظت أنا ، أنك لا تجد بها - وباستثناء جامع المشهد الحسيني الذي يبدو شبحيا ، وبناء معنويا أكثر منه كيانا ماديا - ذكرا لأي أثر معماري من الآثار التي تزخر بها أقدم مناطق القاهرة هذه .

صحيح أنه ربما يكون قد ورد ، في هذه الرواية أو تلك ، ذكر لمدارس وجوامع مثل : برقوق أو قلاوون ، أو لأماكن مثل : « زقاق المدق » أو « خان الخليلي » أو « قبو قرمز » ، ولكن الأمر هنا لايتعدى مجرد ذكر الاسم ولا يتجاوزه الى التعامل معها بوصفها كائنات تكاد تدب فيها الحياة ، وتمتليء بالذكريات والأحداث والتاريخ .

ومما يجعل الأمر يبدو غريبا بعض الشيء أننا نجد الروائي الكبير يصرح للدكتور « غالي شكري » في حديث معه (« نجيب محفوظ : من الجمالية الى نوبل » - مصلحة الاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٢) : « . . . لقد درسنا (أي : جيل الأستاذ محفوظ) جذورنا الحضارية دراسة جيدة . وبالنسبة لي ، فقد بلغت هذه الدراسة مشارف الاحتراف . وكنت أذهب الى محاضرات قسم الآثار (بالجامعة) بانتظام ، وأتابع كل جديد حول مصر الفرعونيه متابعة دقيقة » .

فالسؤال الذى يثيره هذا التصريح ، إذن ، هو لماذا لم ينعكس اهتمام الأستاذ نجيب بالآثار على أعماله الروائية ؟ وخاصة أن هذا الاهتمام لا يقتصر على الآثار « الفرعونية » فقط فهو يقول للأستاذ جمال الغيطاني . في حديث أجراه

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٨) : « . . . الحقيقة كان بيني وبين المنطقة (أي : الجمالية) والناس هناك ، والآثار ، علاقة غريبة ، تثير عواطف حميمة ومشاعر غامضة ، لم يكن من الممكن الراحة منها ، فيما بعد ، إلا بالكتابة عنها » .

والواقع أن عشق الأستاذ « نجيب محفوظ » لحي الجمالية ـ وآثاره الإسلامية المعمارية تمثل ، بلا أدنى شك ، أحد قسماته الأساسية ـ حقيقة مؤكدة . وهو ـ نفسه ـ يؤكد ذلك كثيرا . فهو ، على سبيل المثال ، يقول للأستاذ جمال الغيطاني في كتابه المذكور آنفا (ص ١٥ ـ ٢٠) : « . . . لم أنس الجمالية حبيني إليها طل قويا » . (و) « دائما كنت أشعر بالرغبة في العودة الى الجمالية » و « إن عدم ترددي على الجمالية يحزنني جدا » و « . (إن) المكان الذي بقيت مشدودا إليه ، (و) أتطلع إليه دائما هو : منطقة الجمالية » ، وأيضا . « عندما أمر في الجمالية تنثال عليّ الخيالات (و) أغلب رواياتي كانت تدور في عقلي ، كخواطر خام ، أثناء جولاتي في هذه المنطقة ، أثناء تدحرجي السرحية » .

ويبدو أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ، نفسه ، لا يعرف ، على وجه الدقة ، سببا أو تفسيرا مقنعا لهذه الظاهرة التي تبدو في أعماله .

كنت قد سألته في حوار أجريته معه عام ١٩٨٠ تقريبا ، عن تفسيره لذلك ، فأجاب بقوله : « لقد كانت هذه الجوامع من الآثار ، ولم تكن مجرد مكان للصلاة » وحين قلت له برغم ذلك ، فإنه تبقى من هذه الجوامع أشكالها وتكويناتها الخارجية المهيبة التي تبهر فقط ، قال . « نعم . بلا شك ، وهذا موجود في الروايات . . ولو أنك رجعت إليها لوجدته » .

وما قلت له إن انطباعي مختلف . عاد الأستاذ نجيب يؤكد لي : « . لا انه موجود » (الازدواج الثقافي وأزمة المعارضة المصرية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٨٢) .

إذن ، فإن الروائي الكبير يشعر شعورا يكاد يبلغ حد اليقين بأن هذه الأعمال المعمارية الأثرية قد انعكست في أعماله .

ولكن ، ماهو الشكل الذي اتخذه هذا الانعكاس ؟ . . هذا هو السؤال .

وجه آخر للتأثر

في الحديث نفسه المشار إليه في الفقرة السابقة ، يقدم الأستاذ « نجيب محفوظ » ماقد يكون إجابة جزئية عن هذا السؤال ، حين يقول : « . . . وهناك من يهاجمونني ، ويعيبون علي ما يصفونه بالإحكام الرياضي أو الهندسي في بناء أعمالي الفنية . . ويتهمونني بأنني مهندس و الحقيقة أنني كنت قد بدأت أتأثر بهذا الانتقاد ، حتى قرأت كتابا عن الفن في مصر القديمة جاء فيه : « أن الفنان المصري لا يمكن أن يكون إلا مهندسا » . وبعد ذلك ، ارتاحت نفسي وقلت لنفسي : حتى ولو كان ذلك عيبا . فلا بأس » (الكتاب السالف الذكر ، ص ٨٤)

على أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ليس واثقا تماما بأن قوله هذا يمثل ولو جانبا من الإجابة عن السؤال السالف الذكر

ذلك أنني حين قلت له ، في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع ، إنه يكاد يكون مستحيلا أن لا يتأثر تكوينه الفني بالأعمال المعمارية المبهرة ، من جوامع ومدارس وأضرحة وأسبلة وخوانق ، والتي ولد ونشأ في وسطها ، وسألته إذا كان يعتقد أن تأثره بهذه الأعمال المعمارية قد انعكس على البنيان المعماري المحكم لأعماله الروائية ، أجاب في غير حسم : « هذا أمر غير مستبعد على الاطلاق . فليس من المعقول ، فعلا ألّا تؤثر فيّ هذه الأبنية المعمارية الشامخة ، وقد قضيت طفولتي ، وجانبا كبيرا من صباي ، وأنا أراها يوميا وبانتظام . ولكن ذلك ، على الرغم من كل

شيء ، أمر لا أستطيع إبداء حكم بشأنه . وإنما يستطيع ذلك من ينظر الى أعمالي الروائية من الخارج . ذلك ، أن مهمتي تنحصر في الكتابة . . والكتابة فقط . وتأثير هذه الأعمال المعمارية على كتاباتي لا يراها إلا أحد من الخارج . فهو يستطيع أن يرى - بحياد - كتاباتي وتأثرها بتلك الأعمال . ذلك أنني ، أحيانا ، وعلى سبيل المثال ، وأنا أكتب ، يكون في ذهني أنماط و نماذج وأساليب افرنجية في الكتابة . . ولكنني لا أعي ماقد يتسرب من تحت هذه التيارات الفوقية » .

ومن ناحية أخرى ، فقد يثور - في هذا المجال - تساؤل عن سبب هذا الغياب الواضح للآثار المعمارية في حي الجمالية عن أعمال الأستاذ « نجيب محفوظ » الروائية يرجع الى استغراقه المعروف في الدراسات « الفرعونية » ، وحبه لها الى حد أنه يقول : إن قراءة التاريخ « الفرعوني » لاتزال ، حتى الآن ، تثير في نفسه أعمق المشاعر ، وتحركها الى الرغبة في الكتابة .

وهناك من الشواهد ما يدعم ذلك ، وإن كان لا يثبته ثبوتا يرتقى به الى درجة اليقين .

فلا شك أنه مما يثير الاستغراب أن يكون أول عمل يقدمه الأستاذ « نجيب محفوظ » للقارىء العربي هو ترجمة كتاب « جيمس بيكي » : « مصر القديمة » ، وكان لايزال ، آنذاك ، طالبا في المرحلة الثانوية . كما أنه مما يزيد الأمر غرابة أن يكون ذلك هو العمل الأول لشاب قضى جانبا كبيرا من صباه - وحتى بلغ الثالثة عشر من عمره - في حي يكاد أن يكون متحفا لأجل الآثار المعمارية في العصر الوسيط من تاريخ مصر العربية وأكثرها شموخا .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأستاذ « نجيب محفوظ » يقدم تفسيرا مقنعا لاهتمامه الشديد بمصر « الفرعونية » ، حين يقول في حديثه الأخير معي : « . . لا تنس أنني نشأت في وسط ثورة وطنية . . هي ثورة عام ١٩١٩ . وقد كان اتجاه هذه الثورة ، في جانب منه ، فرعونيا . بل إنهم حين شرعوا في إنشاء بهو لمجلس النواب في البرلمان ، ثارت مناقشات حادة في الصحف ، آنذاك ، حول الطابع الذي يتعين أن يتسم به هذا البهو . . وهل يكون طابعا فرعونيا أم عربيا . وقد انتهى الأمر بالأخذ برأى المهندس « عثمان محرم » في الأخذ بالطابع الفرعونى . . وأطلق على هذا البهو اسم : البهو الفرعوني . كذلك تجد أن ضريح زعيم هذه الثورة ، « سعد زغلول » ، قد بني على الطراز الفرعوني . كما أن عثمان محرم ، أحد زعماء هذا الاتجاه ، شيد منزله الكائن في شارع الهرم على الطراز الفرعوني أيضا » .

ويبقى ، أخيرا ، جانب آخر قد يقدم تفسيرا ، ولو جزئيا ، لهذا التناقض الواضح بين مولد الكاتب الكبير ونشأته في الجمالية وبين اتجاهه وتطلعه الى منف والجيزة .

فمن المعروف ، أن التاريخ لا يسير في دوائر مغلقة ، لا علاقة لمرحلة منها بتلك التى تسبقها أو تليها . وقد لاحظ عدد من علماء الآثار وجود تواصل واضح بين الأساليب المعمارية « الفرعونية » وبين الأساليب التي اتبعت في إنشاء العديد من الأبنية التى ترجع الى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، وأن الكثير من النقوش والزخارف التي تزين واجهات هذه الأبنية وجدرانها ، الخارجية منها والداخلية ، يمكن ارجاعها الى أصول « فرعونية » وبطلمية وقبطية . بل ان معظم الأعمدة الموجودة بالعديد من المدارس والمساجد التى ترجع الى العصر الوسيط قد نقلت من مبانٍ ومعابد « فرعونية » وبطلمية . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذه الأعمدة التي تتناثر في أفنية وأروقة هذه المساجد والمدارس لا تمثل نشازا في نغمها المعماري بل تبدو ظاهرة الانسجام والتناسق مع باقي عناصرها المعمارية .

وحين أشرت الى ذلك للأستاذ « نجيب

١ ـ حارة درب قرمز ذات جدران حجرية عالية

٢ ـ من الجمّالية إلى منف

٣ ـ جزء من ميدان «بيت القاضي» ، وعلى اليسار البيت الذي بني في موقع البيت الذي ولد فيه نجيب محفوظ ، والشجرة ما تزال هناك .

٤ ـ المقهى الذي أقيم مكان منزله القديم .

محفوظ » وأطلعته على صورتين « فوتوغرافيتين » إحداهما لحفر بارز على واجهة الجامع الأقمر الفاطمي يمثل قرص الشمس بأشعته - أي الإله الفرعوني « رع » - والأخرى لمئذنة جامع الحاكم الفاطمي يكاد تصميم قاعدتها أن يتماثل مع تصميم هرم « ميدوم الفرعوني » ، قال معلقا :

« .. نعم .. هذا صحيح .. والشبه يبدو واضحا تماما » ، ثم أضاف : « .. وهذا أمر غير مستغرب .. فقد كان معظم البنائين ، في ذلك الوقت ، من الأقباط . وقد كانوا يتبعون ، بلاشك ، طرق وأساليب البناء التي ورثوها عن الفراعنة . ولاشك ، أيضا ، أنهم كانوا يطبقونها سواء كانوا يقومون ببناء جامع أو غيره . فصورة الشمس التي أريتني إياها والمنقوشة على الجامع الأقمر ، كان من الأقرب أن تنقش على واجهة معبد مخصص لعبادة « رع » إله الشمس الفرعوني » .

حارة درب قرمز

هي حارة الروائي العربي الكبير .. في بيت يقع على رأسها ، تفتحت عيناه على الدنيا .. وفيها قضى طفولته وجزءا من صباه .. ومثلت ، لذلك ، جانبا مهما من تكوينه الفني والعاطفي .. بحيث يمكن القول إنها كانت النموذج الذي انعكس على حارات رواياته .. وما أكثرها : روايات وحارات معا . وهي ، أيضا التي يعنيها حين يقول (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٠) : « إن حنيني الى الحارة (هو) جزء من حنيني الى الأصالة » .

ويقتضي ذلك أن نتناولها بشيء من التفصيل . ولغزارة المادة المتعلقة بها ، كان لابد من تقسيمها الى أجزاء ثلاثة هي (١) القبو (٢) الحارة كتاريخ ومنازل وآثار (٣) الحارة : بشرا وسكانا وعائلات . كذلك رأيت أن يكون تناول هذه الأجزاء على عدة مستويات : مستوى منها ما يقوله الأستاذ محفوظ عنها ، ومستوى آخر لانعكاس خبرته بها على كتاباته ، والمستوى الثالث هو ما ورد عنها في كتب الخطط .

(١) قبو قرمز

في بداية رواية « الحرافيش » يرد اسم هذا القبو الذي يعثر فيه الشيخ المتوجه لأداء صلاة الفجر على طفل لقيط .

وحين اطلعت الأستاذ محفوظ على صورة القبو المنشورة على هذه الصفحات قال :

« ... نعم ... هذا هو قبو قرمز .. أصبح - للأسف - مكانا - تتجمع فيه مخلفات المنطقة ... لم يكن كذلك على أيامنا ... ولكن ما هذا المسجد الذى بجانبه ؟ .. تقول إنه مدرسة من ؟ ... مثقال الأنوكي ؟ ... أنا لا أعرف ذلك .. فأنا لا أذكر هذا الجامع ... نعم ... ربما كان مغلقا ، آنذاك ، لتهدمه .. على أنني أذكر ، جيدا ، هذا الدرج (يعنى : درج الجامع) .. كان يصبح على يمينك عند اتجاهك من بيتنا الى بين القصرين .. تمام .. أنا أذكر ذلك جيدا » .

يقول « على باشا مبارك » ، وهو يصف في النصف الثانى من القرن الماضي ، هذا الجامع الذي أطلق عليه اسم « جامع درب قرمز » إنه « ... متعطل ، الآن ، ومتخرب ، وصورته باقية » . (ج ٤ ص ٢٣١) .

أما « محمد بك رمزي » فيقول عن هذا الجامع ، الذي يطلق عليه اسم « المدرسة السابقية » و « جامع مثقال الأنوكي » ، وذلك في هوامشه على كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، والتي كتبها في الثلاثينيات من هذا القرن : « ... وبمعاينتها (أي : المدرسة السابقية) تبين لي أنها أنشئت سنة ٧٦٣هـ ، كما هو ثابت بالنقش في لوح بأعلى باب المدرسة ، التي تسمى ، اليوم ، جامع مثقال . ويقال له (أيضا) : جامع درب قرمز ، لوقوعه في الدرب المذكور . وهو : جامع معلّق ، يصعد إليه بعشر

درجات ، ويمر تحته طريق (وهو : القبو) توصل بين درب قرمز وميدان بيت القاضي . وعلى جانبي تلك الطريق (أي : القبو) قاعات بأسفل المسجد . ومع أن لجنة حفظ الآثار العربية عملت فيه اصلاحات في سنة ١٣٣٠هـ (أي : قبل ميلاد الأستاذ محفوظ بعام واحد تقريبا) فإنه لايزال خربا ومعطلا . وعتبة بابه السفلية عبارة عن قطعة من الجرانيت الأسود ، عليها كتابات « هيروغليفية » ظاهرة (ج ١١ ص ١٣٥) » . أما المؤرخ المصرى الكبير « جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي » الذي كتب سفره التاريخي « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » في القرن التاسع الهجرى ، فيقول عن منشيء هذا الجامع : « مثقال بن عبد الله الحبشي الأنوكي » الذي توفي عام ٧٧٦هـ (ج ١١ ص ١٣٥) :

« كان مقدم المماليك السلطانية ، وأحد أمراء الطبلخاناه . وكان أصله من خدام سيدي أنوك ، ابن الملك الناصر محمد (بن قلاوون) . وترقى الى أن ولي تقدمة المماليك السلطانية (في عهد السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون) . وهو الذي ضربه (الأمير الأتابك) يلبغا العمرى ٦٠٠ عصاة ، ونفاه الى مدينة أسوان (« وذلك لظهور كذبه له ») . فلما قتل يلبغا ، أعاده الملك الأشرف هذا الى رتبته ووظيفته (وهي) تقدمة المماليك السلطانية .... وأظن مثقالا هذا هو : صاحب المدرسة السابقية داخل بين القصرين من القاهرة . والله أعلم » .

(٢) درب قرمز : تاريخا .. ومنازل .. وآثارا

يقول « علي مبارك » في خططه (ج ٢ ص ٩٠) وهو يصف شارع « النحاسين » الذى يعرف ، كما يقول « بخط بين القصرين » ، وهو ، الآن جزء من شارع المعز لدين الله :

« ... وأما جهة اليسار ، فبأولها : درب قرمز . وهو : كبير ، غير نافذ (في زمنه) . وبأوله : زاوية جديدة لم يكمل بناؤها (وقد كمل الآن) ثم التكية المعروفة بتكية درب قرمز ، وبداخلها أشجار ومبان جديدة . وبجوارها : ضريح الشيخ سنان » .

في قصته « أم أحمد » (« صباح الورد » ، ص ٧) كتب الأستاذ « نجيب محفوظ » يصف حارة درب قرمز :

« ... وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية .. تغلق أبوابها على أسرارها ، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر في داخلها » .

« هناك يرى : ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين ، يجمعهم الفناء للعمل المنزلي وقضاء الحاجات .. أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك » .

أما في حديثه الأخير معي ، فقد وصف الحارة بقوله : « ... كانت الحارة ، كلها ، مرصوفة بالبلاط الحجري .. وكانت تكنس وترش ، ويغسل بلاطها مرتين في اليوم .. وقد كانت عربات الرش والزبالة تقف ، في أوقات الراحة ، تحت بيتنا .. وكان عمالها يرتدون ملابس نظيفة صفراء اللون .. كانت الحارة نظيفة الى أقصى حد .. بل المنطقة كلها - بيت القاضي والحسين وحارة الكبابجي - نظيفة جدا .. لا ينقطع الكنس والرش بالمياه بها .. ومرتين يوميا .. في الصباح مرة .. وبعد الظهر مرة أخرى .. قبل المغرب بقليل » .

وأيضا :

« .. في الواقع ، كانت الحارة تضم صنفين من المباني : إما ربع يسكنه الفقراء من الناس ، وإما بيوت مستقلة - يسمونها : الدوار - يسكنها الميسورون من التجار والموظفين والأعيان » .

وأيضا : « ... بعد بيتنا مباشرة كان يقع : بيت السكرى ، وكان سطح هذا البيت متصلا بسطح بيتنا (راجع رواية « بين القصرين » حيث كان سطح بيت أحمد عبد الجواد متصلا بسطح

۱

بيت جارته) . . . وكان أمام بيت السكرى يوجد : ربع . . ولكننى لا أستطيع رؤيته في الصورة . . لابد أنه قد هدم . . وكان يسكن هذا الربع فقراء الناس : جندى شرطة . . عامل في شركة النور . . وأذكر أنه كان يقطن في بدروم الربع امرأة وزوجها . . كانا متسولين . وكان الزوج يخرج من الربع في الصباح كي يتسول في المنطقة . . أما الزوجة ، فقد كانت تجلس أمام بوابة الربع ، وأمامها طبلية تضع عليها بعض أنواع الحلويات التي يقبل عليها الأطفال مثل : براغيث الست والعسلية وثمر الدوم . . . الخ » . ويضيف الأستاذ محفوظ :

(« . . وبيوت الأعيان التي أذكرها هي : بيت السكري ، وبيت البنان (وقد ورد الاسم كما هو في « أم أحمد ») وبيت السيسي وبيت المهيلمي وبيت الخربوطلي - وهو بيت كان يقع في مواجهتك مباشرة عند خروجك من القبو . . وكان يشبه القلعة ، وهو الوصف نفسه الذي ورد في « أم أحمد » عن « آل سعادة » حيث يقول الكاتب : « . . . وآل سعادة . . . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثري العتيق - ص ١٣ ») .

وأيضا : « . . . كانت بيوت درب قرمز كلها ملكا للأعيان . . وذلك فيما عدا بيتا صغيرا كانت تسكن به سيدة كانت من رائدات التعليم في مصر . . وكان اسمها : السيدة أفكار . . على ما أذكر . . وربما أكون مخطئا فيما يتعلق بالاسم . . وكان بيتها يقع بعد بيت السكري مباشرة . . وكان بيتا صغيرا . . وأذكر أن هذه السيدة كانت تخرج لكي تنهرنا إذا أحدثنا ، نحن الأطفال ، ضجيجا أكثر من المعتاد أثناء لعبنا . . ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا . . فقد كنا ، في معظم الأحيان ، نلعب في ميدان بيت القاضي الفسيح ، ونفضله على اللعب في الحارة الضيقة . . وكنت ألعب ، معظم الوقت ، مع أولاد السكري » .

١ - بيت السكري ، كان سطحه يلاصق سطح بيت الروائي الكبير ، جزء تهدم ، والباقي مدرسة للتعليم الأساسي .

٢ - شارع الأشرفية : جزء من شارع المعز لدين الله ، وترى على مسافة منه مئذنتا جامعي «المطهر» والسلطان الأشرف «برسباي» .

٣ - البيت الذي أقيم في موقع البيت الذي شهد ميلاد الكاتب الكبير . لم تعد أفرع الشجرة تصل إلى نوافذ البيت .

٤ - بوابة احدى الوكالات والمخازن التجاريه داخل «زقاق المدق» . .

أما « علي باشا مبارك » ، فيقول عن بيوت درب قرمز في خططه (ج ٢ ص ٩٠) : « . . . وبهذا الدرب عدة دور كبيرة منها : دار ملك ورثة السيد أحمد سعودي وأخيه السيد محمد سعودي ، ودار السيد أحمد أفندي الخربوطلي ، ابن أحمد أفندي الخربوطلي ، عمدة خان الخليلي كان (أي : سابقا) : » . ويضيف في مكان آخر (ج ٢ ص ١٠٤) :

« . . . ومن الأماكن العظيمة التي من جملة قصر بشتاك : الدار التي كان يسكنها الأخوان التاجران : السيد محمد سعودي والسيد أحمد سعودي ، وهي بحارة درب قرمز ، بجوار دار الدمرداش ، إلا أنها لا تشرف على الشارع (أي : شارع النحاسين) » .

على الرغم من أن « تكية » درب قرمز تلعب دورا بارزا في « حرافيش » الروائي العربي الكبير ، وتمثل رمزا فنيا كثيف الاشعاع ، إلا أن « علي باشا مبارك » يذكرها في خططه (ج ٦ ص ١٦٠) في جملة واحدة ، بل ويخطىء ، أيضا ، في تحديد موقعها حين يقول : « . . هي جامع درب قرمز . وقد ذكرناه في الجوامع فارجع إليه » . في حين أنه يقول في جزء آخر من خططه (ج ٢ ص ٩٠) : « . . تكية درب قرمز ، وبجوارها : ضريح الشيخ سنان » . . والضريح المذكور يبعد عن الجامع بما يزيد عن مائة متر .

ولكن الأستاذ نجيب يحدد موقع « التكية » بشكل أكثر دقة . فقد قال حين أطلعته على صورة « الخرابة » التي صارت إليها هذه التكية : « . . هل هذه الخرابة هي كل ما بقى من « التكية » ؟ . . . يا سلام . . لقد تهدمت إذن . . ألم يبق من أشجارها الكثيفة سوى هذه الفروع الجافة ؟؟ . . ما أذكره عنها هو : أنك كنت تجدها على يمينك ، عندما تدخل الدرب من جهة بين القصرين . . في منتصف المسافة تقريبا . . ولم نكن نرى من دراويشها سوى واحد أو اثنين . . وكان معظم دراويشها ، في أغلب الظن ، من الأتراك . . وكانوا يتبعون الطريقة البكتاشية » . .

درب قرمز : بشرا وسكانا وعائلات

كتب الأستاذ نجيب في « أم أحمد » يقول : « . . . ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة ، لا تعترف بالفوارق الطبقية . أجل ، لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراي ، ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع في رمضان والأعياد ، يجلسون في الحديقة ، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ، ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين » (ص ٩) .

ولكنه يعود ليقول في القصة نفسها (ص ١١) : « . . . انتقل الأعيان (من درب قرمز) الى العباسية الشرقية ، وشيدوا قلاعهم العملاقة ، كما انتقلت الطبقة الوسطى « المستورون » الى العباسية الغربية ، فسكن البعض بيوتا صغيرة ، واشترى البعض ما يناسبه . ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق . لأمر ما ، شغل كل فريق ببيئته الجديدة ، وكأن شارع العباسية الذي يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا في الملمات ، وقد لا يعبر أبدا . عدنا غرباء ، أو كالغرباء . بل صرنا ، مع الزمن ، أعداء أو شبه أعداء » .

لنأخذ ، نموذجا للعائلات التي كانت تسكن « درب قرمز » في أوائل القرن الحالي ، عائلة « الخربوطلي » . وقد رأينا ، في السطور السابقة ، أن « علي باشا مبارك » قد وصف « أحمد أفندى الخربوطلي » بأنه « عمدة » خان الخليلي ، وهو وصف غريب لأن وظيفة « العمدة » كانت مقصورة على الريف ، ولم يرد ، في أي من المراجع التاريخية التي أعرفها ، ذكر لأحد شغل وظيفة « عمدة » في القاهرة . على أن الأستاذ نجيب فسر ذلك بأن علي مبارك

ربما كان يعني أن « أحمد أفندي » المذكور كان رئيسا للحي أو « عين أعيانه » .

ولنعد ، الآن ، الى الحاضر ، فنرى الأستاذ نجيب يقول في الحديث الذي أجريته معه عن هذه العائلة : « . . . . أما بيت الخربوطلي ، فقد شغل ابن بنتهم ، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، منصب مدير مكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . . ثم أصبح ، بعد ذلك ، وزيرا للسياحة . . . نعم . . بالضبط كما تقول . . هو : السيد/ أمين شاكر . . وقد شغل أيضا منصب السفير . . ربما في السويد . . لا أذكر . . ولكنني أذكر أنه كان وسيما جدا . . فوالدته كانت إحدى بنات الخربوطلي . . الصغرى فيما أعتقد . . وكان للخربوطلي ثلاث بنات من أجمل ما رأيت في حياتي . . وكانوا أتراكا . . وكانوا يعيشون في سعة من أوقاف لهم . . وعندما انتقلت أسرتي الى العباسية . . انتقلت أسرة الخربوطلي معنا . . وسكنوا منزلا في منطقة بين الجنائن التي كانت تجاورنا . . وكثيرا ما شاهدت السيد/ أمين شاكر ، وهو طفل صغير ، يلعب مع أصحابه في الشارع . . على أنني لازلت أذكر الشقيقات الثلاث الجميلات بنات الخربوطلي . . فقد كانت الحارة ، كلها ، ترقبهن وهن خارجات لقضاء بعض الحاجات أو للنزهة . أو وهن يركبن « الكارتة » ذات الخيول والتي كان استخدامها شائعا بين الميسورين من الناس ، قبل قدوم عصر السيارات » .

ثم لنر ما كتبه الأستاذ نجيب في قصته « أم أحمد » (ص ١٣ ـ ١٧) عن « آل سعادة » حتى نتبين مدى التشابه الشديد بين ما كتبه عنهم وبين ما قاله لي عن عائلة الخربوطلي : « . . . . وآل سعادة . . . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثري العتيق . . . ورؤيتي لآل سعادة تتم ، عادة ، وأنا في الحارة عندما يخرجون من جوف القبو في طريقهم الى بيت القاضي ، تنطلق وجوههم المشعة بأصولهم الشركسية . . . وهؤلاء بنات سعادة الثلاث ، بين الطفولة والصبا ، جميلات فاتنات ساحرات ، يسرن صفا الى الميدان لشراء الشيكولاتة « والدندورمة » . . أما الصغرى ، وهي أحبهن الى قلبي ، فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه ... وقد أقامت معه في بين الجنائن ، لا يفصلها عن بيتنا إلا خطوات . . . . وقدر لي أن أرى « بكريها » الجميل وهو يلعب في الشارع أو في الحدائق . . . . وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذي كان ينتظره بمنحنى التاريخ . ولما قامت ثورة يوليو . . . . علمت أن الصبي الصغير ، ابن البنت الجميلة الصغرى ، من الضباط الأحرار ، بل والمقربين » .

***

« . . . . وقد عبرت الحارة من أولها الى آخرها ، وانغمست في العطر القديم »

و :

« . . . تنبثق من القلب أصوات وألوان ونبضات قلب ، فأقول لها : لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ، ثم فرقت بيننا الأيام » (« صباح الورد » ص ٢٢) .

و :

هل يوجد أفضل مما كتبه الروائي الكبير عن حارته « درب قرمز » كي نختم به حديثنا عنها ؟

قسم شرطة الجمالية

يقول الأستاذ « نجيب محفوظ » تعليقا على هذه الصورة :

« . . . نعم . . هذا هو قسم شرطة الجمالية . . لايزال مبنى القسم كما كان تماما . . وكانت بجانبه نقطة للمطافيء . . تقول إنها لاتزال موجودة ؟ . . عظيم . . وكان بينهما ـ أو ربما فوقهما ـ بيت مخصص لسكنى مأمور القسم . . وفي طفولتي تصادقت مع ابن أحد مأموري القسم . . كان اسمه : « همام » . .

١ ـ قسم شرطة الجمّالية
زقاق المدق
٢ ـ مدخل «زقاق المدق» في المكان الذي كان يقع فيه باب «البيمارستان» الفاطمي ، ويظهر باب مقهى زقاق المدق ، المغلق

وكنا نلعب سويا في ميدان بيت القاضي - الذي يقع فيه بيتنا .. وقد قال لي أحد أصدقائنا المشتركين انه قابله منذ سبع أو ثمان سنوات .. وكان قد أحيل الى المعاش بعد أن عمل مستشارا فترة طويلة ... »

« ... وهناك واقعة تتعلق بالقسم ، حدثت عام ١٩١٩ ، ولكن تفاصيلها لاتزال عالقة بذهني .. وكأنها حدثت البارحة فقط ..

« .. كان ذلك في أوج ثورة ١٩١٩ .. ولم تكن أعمال الشغب تنقطع سواء في منطقتنا .. أو - حسب ما كنت أسمع - في مناطق المدينة الأخرى أيضا » .. ... كان الوقت نهارا .. وكنت أجلس في شرفة بيتنا - ذات المشربية - التي تطل على ميدان بيت القاضي .. ولمحت مجموعة من الرجال تخرج من حارة الكبابجي .. ثم رأيت مجموعة أخرى تخرج من درب قرمز ... ثم مجموعة ثالثة تخرج من حارة الحسيني التي تقع على يمين القسم .. وكانوا ، جميعهم ، من أولاد البلد .. ويبدون كالفتوات .. وقد كانوا كذلك فعلا .. ..

« ... وفي لحظة واحدة .. وتوقيت واحد ، وتناسق شديد .. قامت هذه الجماعات الثلاث ، فجأة ، باقتحام القسم ... وسمعت أصواتا وضجيجا وزعيقا .. ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا .. فسرعان ما خرجوا ومعهم كامل أسلحة القسم .. ولا أظن أنهم لقوا مقاومة تذكر .. ربما لأن جميع جنود وضباط القسم كانوا من المصريين .. بينما كان الانجليز يشغلون وظائف التفتيش فقط .. كما أن عملية الاقتحام تمت في سرعة مذهلة .. بحيث أظن أن الأمر ، برمته ، لم يستغرق أكثر من نصف ساعة .. بعدها ، كان كل شيء قد انتهى ... والواقع أن الانجليز لم يكونوا يثقون كثيرا في ولاء جنود وضباط الشرطة المصريين .. الى حد أنهم نزعوا من الضباط السيوف التي كانوا يتسلحون بها .. » .. « .. وعقب هذه الواقعة .. احتلت القوات الانجليزية المنطقة بأكملها .. وانتشرت معسكرات صغيرة للجنود الانجليز في كافة أنحاء منطقة بين القصرين (راجع رواية بين القصرين ، حيث ورد ذكر هذه المعسكرات) » .

ميدان بيت القاضي

قال نجيب محفوظ :

« ... هل هذه صورة ميدان بيت القاضي ؟؟ .. غير معقول . »

« .. كانت هناك أشجار عديدة في ميدان بيت القاضي .. لم يبق منها سوى شجرتين فقط ؟ .. خسارة .. ولكن ، ألا تزال الشجرة التي كانت أمام بيتنا قائمة ؟ .. نعم هذه هي .. ولكنها تبدو أقل حجما مما كانت .. فقد كانت فروعها تصل الى حافة مشربية شرفة بيتنا .. بحيث كان يمكنني ، وأنا أقف في الشرفة ، أن أمسك بفروعها » ..

« .. كانت هناك .. تحت هذه الشجرة ، وأمام قسم الشرطة : دورة مياه عمومية .. ألا تزال موجودة ؟ .. لقد تابعت عملية بنائها ، وأنا طفل صغير ، خطوة بخطوة .. أنا سعيد لأنها لاتزال قائمة .. وقد كان يوجد الكثير مثلها في القاهرة .. ولا أدري لماذا ، وكيف اختفت دورات المياه العامة هذه .. فأنا أذكر أنه كان ، هنا ، في ميدان التحرير ، واحدة .. ولكنها أزيلت .. وكان هناك ، على مقربة منها ، واحدة ثانية في ميدان الفلكي بباب اللوق .. وقد اختفت هي الأخرى .. كما أذكر أنه كانت هناك أيضا واحدة في شارع الأزهر .. تقول إنها لاتزال هناك ؟ .. عظيم ... » .

« ... ما أذكره ، و (لازال) يهزني حتى الآن .. هو : مظاهرات النساء (أيام ثورة ١٩١٩) في ميدان بيت القاضي وشوارع الجمالية » ..

« .. كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع .. وخروج

طالبات مدرسة السنية (الثانوية) .. ولكنها لا تذكر (شيئا عن) مظاهرات نساء الأزقة والحواري .. ولقد رأيتهن بعيني .. وكان شيئا لا مثيل له » ..

« .. وفي (الصور الفوتوغرافية) للمظاهرات : ترى النساء المحجبات (من) زوجات الباشوات .. ويقولون لك : هذه هي المرأة المصرية .. مرأة مصرية مين ؟ .. أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات « الكارو » .. نساء الحوارى (وهن يتظاهرن ويهتفن مطالبات بالاستقلال) » .

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٣) .

زقاق المدق

عبثا تحاول أن تجد تشابها بين « زقاق المدق » كما صوره نجيب محفوظ في روايته الشهيرة ، وبين الزقاق كما هو في الواقع .

يقول « علي باشا مبارك » في خطط (ج ٢ ص ٢٤٥) :

« ... أما جهة اليسار (من شارع الصنادقية) فبأوله : عطفة المدق » .

« وكان في موضع هذه العطفة ، وماجاورها ، درب يعرف بـ : درب خرابة صالح ، وهو من الدروب القديمة » .

« ذكره المقريزي فقال : هذا الدرب عن يسرة من سلك من أول الخراطين الى الجامع الأزهر . كان موضعه في القديم : مارستانا (أي : مستشفى) ، ثم صار مساكن ، وعرف بـ : خرابة صالح .... ثم قال : وفيه الآن دار الأمير طينال ، وباب سوق الصنادقيين » .

وعن هذا « المارستان » ـ أو : « البيمارستان » ـ الذى أشار إليه المقريزي ، كتب « محمد بك رمزى » في هوامشه على « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى (ج ٤ ص ١٠١) يقول :

« ... وأما في عهد الفاطميين ، فكان موضع البيمارستان : بالقشاشين ـ التي سميت ، فيما بعد بـ : الخراطين ـ وهي التى تعرف ، اليوم بـ : شارع الصنادقية . »

« وموضعه (أي البيمارستان) اليوم : مجموعة المباني الواقعة تجاه جامع الأشرف برسباى ، بشارع الأشرفية ، حيث كان بابه يقع : على يسار الداخل بشارع الصنادقية » .

ويعنى هذا : أن مدخل « زقاق المدق » يقع حيث كان مدخل « البيمارستان » المشار إليه .

وعلى نفس الجانب من شارع الصنادقية ـ الذي يتفرع منه زقاق المدق ـ وعلى بعد نحو ١٥٠ مترا تقريبا ، تقع دار المؤرخ المصرى الشهير « عبد الرحمن الجبرتى » صاحب كتاب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

وقد ذكر « علي باشا مبارك » هذه الدار في خططه (ج ٢ ص ٢٤٥) فقال :

« ... وبجوار وكالة اينال : بيت العلامة الجبرتي ، صاحب تاريخ وقائع مصر (كذا) وقد سكن به ، بعد موته : الشيخ محمد الرشيدي الفلكي ، الذي نفاه الخديوي اسماعيل . والآن : هو سكن رجل من تجار العجم » .

وقد ذكر الجبرتي نفسه ، في كتابه المذكور ، إنشاء هذه الدار وهو يترجم للشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بـ : الصاوي ، فقال :

« ... ولما عمر الفقير ، جامع هذه الشوارد ، داره التي بالصنادقية ، بالقرب من (الجامع) الأزهر سنة ١١٩١هـ ، عمل المترجم (له) أبياتا وتاريخا رقمت (أي نقشت) بطراز مجلس العقد الداخل ، وهي :

خليلـي هـذا الـروض فـاحت زهـوره
ولاح عـلى الأكـوان حـقـا ظـهـوره
ودام بـه سـعـد الـسـعـود مـؤرخـا
حمى العـز بـالمـولى الجبـرتى نـوره .

ويبدو أنه لم يبق من هذه الدار سوى بوابتها التي تنشر صورتها مع هذه الصفحات .

ولما أطلعت الأستاذ « نجيب محفوظ » على صور « زقاق المدق » قال معلقا : « ... هل

هذا هو زقاق المدق ؟ .. إنه يختلف ، بعض الشيء ، في الصورة عنه في الواقع » .

« ... نعم .. هذا هو المقهى الذى كنا نتردد عليه ... وبابه مغلق أيضا ؟ .. لقد كان مغلقا ، أيضا ، عندما مررت بالزقاق منذ عدة سنوات » .. « .. كنا نتردد على هذا المقهى حوالى عام ١٩٣٠ .. وأظن أن صاحب المقهى قد توفي منذ زمن بعيد » .

« ... ما أذكره عن الزقاق .. هو المقهى .. ودرج كان يؤدي ـ كما أظن ـ الى مخبز .. فلم نكن نرتقى هذا الدرج أبدا .. ولكننا كنا نشاهد عمال المخبز ، وهم يروحون ويجيئون ، حاملين أقفاص الخبز .. كما كان هناك بيت كان مدخله يقع بجوار المقهى ... وأظن أن صاحب المقهى ـ وكان اسمه على يوسف ـ كان يقطن به » . (ربما كان المخبز هو نقطة التشابه الوحيدة بين الزقاق كما هو في الواقع وكما صوره الروائي في روايته) .

« .. هذا هو كل ما أذكره عن زقاق المدق .. ولكنني واثق أنه لم تكن توجد به وكالات تجارية كما هو الحال الآن (هل كان تنبؤا بالمستقبل أن يذكر الأستاذ نجيب ، في روايته ، وجود وكالة تجارية به ؟) .

ويذكر الأستاذ محفوظ سبب تردده على هذا المقهى في كتاب الأستاذ جمال الغيطانى (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ١٨) قائلا :

« ... كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن (إتمام) دراسته ، وانتقل للعمل مع والده في دكان مانيفاتورة بالغورية . وكنا في الإجازة ـ (أي : في العطلة الصيفية وكانت أكثر من أربعة شهور ، (ف) كان يقول لنا : لابد أن تجيئوني يوميا » .

« كنا ، عندئذ ، نقطع الطريق (من العباسية) سيرا على الأقدام ، بدءا من ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليا) ، ثم شارع الحسينية ، ثم بوابة الفتوح ، فشارع (المعز لدين الله الفاطمى) » .

« كان لابد أن نمشي حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة » .

« وعندما نصل إليه ، (كنا) نبقى معه حتى يغلق الدكان ، ثم نمضى الى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما : مقهى زقاق المدق ومقهى الفيشاوي » .

« ... وقد عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا » .

ماذا تعرف عن توفيق الحكيم ؟

ـ أديب مصري ، ولد بالاسكندرية عام ١٨٩٨ ميلادية .
ـ درس الحقوق وتابع دراسته في باريس .
ـ بعد عودته تدرج في الوظائف إلى أن عين رئيسا للنيابة ، ومديرا لدار الكتب المصرية .
خلال ذلك توفر على التأليف الأدبي الذي شمل الرواية الطويلة ، والمسرحية . منها : « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « رصاصة في القلب» و « السلطان الحائر » و « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » .
ـ نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٩٦١ .

رحلة الذهب بين الهند والكويت

استطلاع : محمود عبدالوهاب
تصوير : طالب الحسيني
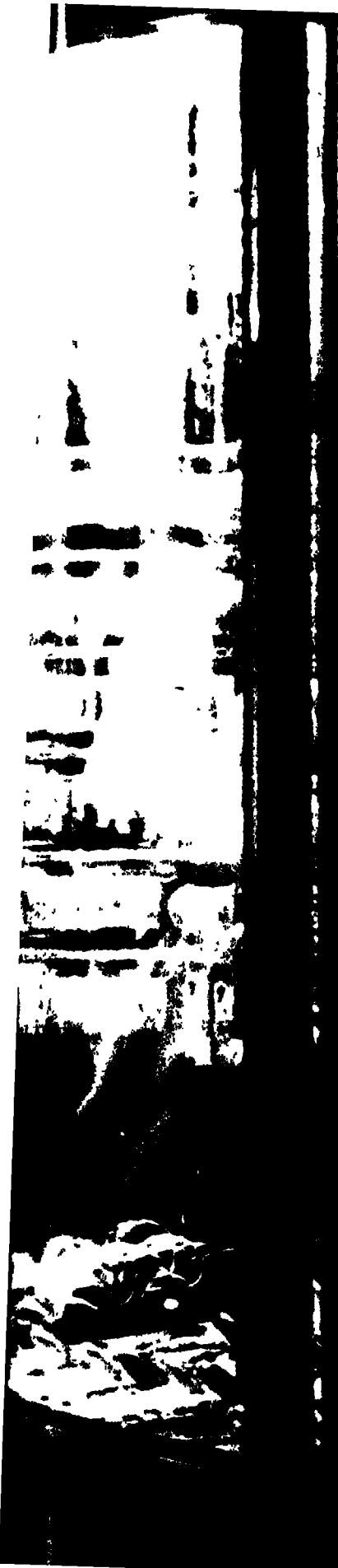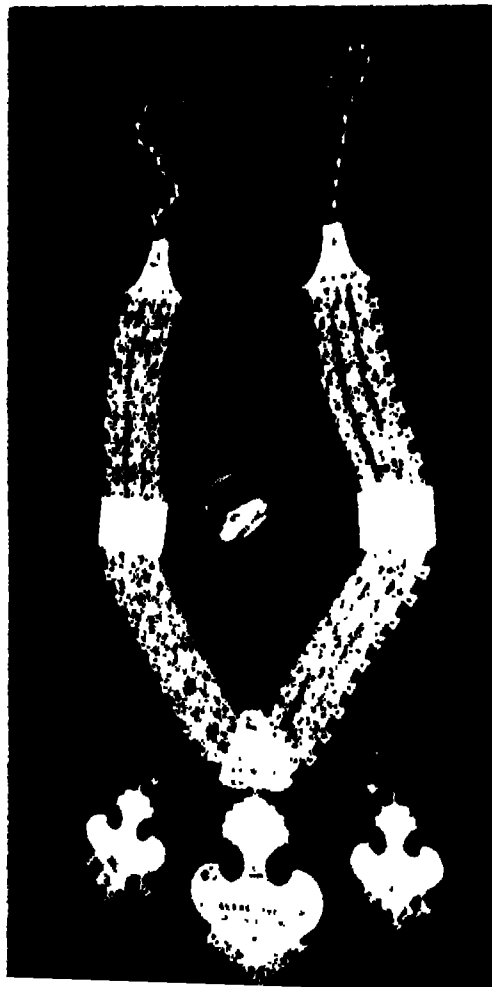
● على الصفحة اليمنى لقطات مختلفة داخل ورشة العمل : مناضد صغيرة يجلس عليها العمال في مكان ضيق ، والصورتان المقابلتان لعملية [illegible] والتلميع [illegible]

الحكومى الهندى للمشغولات اليدوية ، ويمثل إدارة الجمارك ، وبعد أن يطابق المكتب الحكومى بيان الرسالة ويفحصها ، يسلمها إلى أصحاب المصانع الذين نتعامل معهم ، والذين يبدءون في تنفيذ « الموديلات » والأشكال التى نطلبها منهم ، وبعد أن ينتهوا من عملهم يسلمون المشغولات إلى المكتب الحكومى للمشغولات اليدوية الذي يتسلمها منهم بالوزن ، وبعد أن يتأكد من كل شيء يشحنها إلينا في الكويت . فور تسلمنا للرسالة يأتى دور وزارة التجارة للتأكد من صحة وزن الذهب ونقاوته . في حالة المخالفة للوزن يعدم الذهب بالكامل ، وبعد التأكد من صحة وزنه يتم الإفراج الجمركى عنه بموجب إذن التصدير المؤقت ، ونطرح المشغولات في السوق من خلال معارضنا أو من خلال التجار الذين يشترون منا .

إلى بومبى وراء سوار وقرط :

في قاعة الفندق جلسنا بانتظار أحد كبار صانعي الذهب في الهند ، القاعة مزدانة بالأشجار والورود ، وعلى الرغم من أننا كنا في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر فإن الطقس كان أقرب إلى الدفء . خلف بوابة الفندق الزجاجية يقف حارس يرتدي زيا أبيض وعلى رأسه عمامة كبيرة في مؤخرتها يلتف القماش على شكل عرف ديك . خارج الفندق ترى صوراً للفقر : « سائقين ، متسولين ، متسكعين » توجع القلب وتثير الأسى . أخذنا نقطع الوقت أنا وزميلي في تخيل شكل صانع الذهب قلت : رجل كبير السن ، أبيض الشعر ، ملابسه مفرطة في الأناقة . أضاف زميلي : خلفه يسير رجلان ، وسائقه يرابط عند الباب بالسيارة الفارهة . عندما نودي علينا ذهبنا إلى موظف الاستقبال الذى قدم لنا السيد « منصوك » شاب لايتجاوز الخامسة والثلاثين ، يرتدى قميصا وبنطلونا ، في أصبعه « دبلة » فضية ، ساعة يده من ماركة شائعة ، ليس به شيء مميز سوى الخلق والدماثة ، وهي سمات أهل الهند . خرجنا من الفندق ، ابتسم بتواضع ، واستدعى سيارة أجرة . تجاوزت السيارة الأحياء الحديثة في بومبي ، ودخلنا إلى منطقة الأسواق ، الحي الأقدم زمنا والأشد ازدحاما . طلب منا برفق شديد أن نغادر السيارة ونسير على أقدامنا ، لأن السير على الأقدام أيسر وأوفر للوقت .

تسير في الشارع كل أنواع المركبات والمخلوقات : بشر ، بقر ، سيارات ، دراجات ، عربات « كارو » يقودها بشر ، بشر يحملون « أجولة » أو صناديق أو أخشابا ، يسيرون وهم منحنون ، فالحمل فوق أكتافهم ، ويتركون للسائر مهمة تفاديهم ، وفوق هذا باعة جائلون ، وباعة أرصفة يبيعون منتجات ما ، أو أطعمة ، أو مشروبات . سوق « بابل » : زحام كثيف في شوارع ضيقة . انطلقنا نلهث خلف السيد « منصوك » ، وخلال عشر دقائق لم يسر بعضنا بجوار بعض قط ، فالدفع بالأيدي والأكتاف وتفادى حركة المارة والسيارات والدراجات جعلنا نسير في شكل أقرب مايكون إلى الطابور .

في قلب شارع السوق القديم ، والمباني القديمة المتهالكة ، تلمع محلات الذهب بالواجهات الرخامية أو الزجاجية والإضاءة ، واللافتات الأنيقة ، على الرغم من أن المبنى قد يكون متهالكا ، ولكن المحلات هذه تلمع وسط السوق كله . أمام الباب يقف حارس أمن ، والأبواب مغلقة دائما ، يفتح لك الحارس ويظل واقفا أمام الباب المغلق عليك وأنت في الداخل . عينا الحارس موزعتان بين الداخل والخارج . على المقاعد الصغيرة المكسوة بالمخمل يجلس عدد من الرجال ، أربعة وخمسة ، فور دخولنا انتفضوا ووقفوا أمام البائعين . تمثيلية

الإغراء الشهيرة في عالم التجارة . ضحك السيد « منصوك » وقال لهم : « أصدقاء » ، عاد الرجال إلى مقاعدهم ، وجلسنا معهم .

مهن تورث :

سوق الذهب بالهند سوق واسع ومتميز ، وفي بومبي وحدها قرابة ٥٠٠ محل للذهب ، والعمل في هذا المعدن النفيس يكاد يكون وراثيا ومقصورا على عدة عائلات ، سواء من التجار أو الصناع ، ويكاد الأمر يكون مقصورا على أبناء عدة ولايات محددة في الهند ، وأشهر هذه الولايات ولاية جوجارات ، وهى شديدة القرب من بومبي ، وولاية مهاراشت ، والبنجاب . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت هذه الولايات مركزاً لتجارة الذهب ، ومنذ ذلك الحين والعائلات تتوارث هذه المهن . ومن النادر أن يدخل شخص غريب إلى سوق تجارة الذهب .

وعندما قلت للسيد « منصوك » : هل هذا تكتل للعائلات ضد من يحاول أن يخترق هذا الاحتكار ؟ قال بهدوء ورقة : لا ، إنها الثقة ، فالعمل في الذهب يعتمد أساسا على الثقة في كل عملياته ، فمنذ اللحظة الأولى لدخول « الزبون » المحل تبدأ عملية الثقة ، فالناس تشترى الذهب لأنها لاتثق في النقود ، وعلينا نحن أن نقدم لها الثقة قبل الذهب . وحتى بين التجار أو بين التجار والصناع ، فالمسألة أساسا ثقة ، فأنا بالهاتف قد أطلب من أحد التجار كيلو ذهب ، فيرسله إليّ بدون إيصال أو ورق أو أي ضمان غير الكلمة ، كذلك مع الصناع ، أسلم ورشة العمل الذهب ونماذج الأشكال المطلوبة بدون أي ضمان سوى كلمة ثقة . وقد جاء أحد الصناع يوماً وقال : إن الورشة تعرضت للسلب وسرق الذهب ، وصدقته ، وجلسنا معا نبحث عن كيفية التعويض ، وكم سيتحمل هو ، وكم سأتحمل أنا ، وهذه الثقة لايمكن أن تنبت فورا ، ولايمكن أن يتمتع بها وافد جديد على السوق ، فالتاجر والصانع يتعاملان معي ، لأنه سبق أن تعامل مع أبي ، وسبق لأبيه أن تعامل مع أبي ، وأجدادنا قد تعاملوا ، وهكذا نحن لانتوارث المهنة فقط ، بل نحن نتوارث الثقة واحترام الكلمة . !

بين أيدى الفقراء :

نغادر المحل الأنيق لنذهب إلى ورش الصياغة ، بلطف شديد ـ اعتدنا عليه ـ قال لنا مرافقنا : المكان قريب ، سنذهب سيرا على الأقدام ، فتركنا الشارع المزدحم لندخل في سلسلة الأزقة الأشد ازدحاما ، والأكثر فقرا وإهمالا ، فالمياه راكدة في وسط الطريق ، والروائح تنبعث لتزكم الأنوف ، والبنايات أكثر توغلا في القدم وكل بناية تؤجر بالغرف ، فهذه غرفة تاجر أقمشة ، وتلك غرفة لحائك ، وأخرى للنسج والوشي بالقصب ، وغرفة لكواء ملابس ، و . . خليط عجيب من المهن . ودخلنا إلى (الورشة) ، غرفة صغيرة مربعة الشكل ، الأرض مفروشة بالحصير ، ومنافذ خشبية صغيرة مربعة ، وخلف كل منضدة يجلس عامل ، والعمال أغلبهم دون سن العشرين مازالوا صغاراً ، على رأس الغرفة يجلس صاحب الورشة ، أمامه الميزان ومروحة كهربائية مسلطة عليه وحده . العمال يجلسون شبه عراة ، ممر الغرفة لايطاق من ازدحامها والنار التى يعملون بها .

العمل مقسم بين العمال وفق نظام الدائرة : العامل الأول يصنع ورق شجر من الذهب فقط ، والثاني يضع ورق الشجر هذا على الفرع الذهبي ، والثالث يضم الفرع على السوار ، والرابع يضيف « المينا » إلى بعض أوراق الشجر ، الخامس يلوّن ،وهكذا ، خطوات منتظمة متتالية متخصصة يسير العمل بمقتضاها .

● الصورة العليا تنطق بالتناقض ، فقد التقطت لورشة عمل في الكويت ، حيث الامكانات والاستخدام الصحي والظروف الأفضل . (الصورة العليا الى اليسار) لصاحب الورشة ، وهو يزن الذهب بعد انتهاء تشغيله ، (اليمنى) الشغل على تصميم موضوع على قطعة من الصلصال ، ثم عملية الغسيل ، (والصورة اليسرى) الاتقان والانكباب ساعات طويلة لإنجاز المنمنمات .

صاحب الورشة يتسلم الذهب من صاحب المحل ، ويبدأ بطرق وسحب للذهب لتتحول السبيكة إلى شرائح رفيعة حسب نوعية العمل المطلوب ، فالشرائح المطلوبة لانتاج الأقراط غير الشرائح المطلوبة للسوار ، غير العقود ، وهكذا .

وعندما يعهد صاحب المحل إلى صاحب الورشة بتنفيذ تصميم معين ، فإنه ينفذ التصميم أولا على قالب من الصلصال ، وينفذ العامل تشكيل القطعة وصياغتها على الصلصال ، حيث يمكنه الصلصال من غرز الوحدة الصغيرة جدا وتثبيتها على قطعة الصلصال ، وبعد أن يتأكد من مضاهاة ما ينفذه على القالب الصلصالي يخرجه من القالب ويوصله بعضا ببعض ، ويستخدم العمال أدوات بالغة الدقة ، مستعينين بالنار في معظم خطوات العمل واضعين شمعة مشتعلة من الدهن الحيواني التي تخلف رائحة غير طيبة ودخانا كثيرا . وبقطعة معدن رفيعة مفتوحة من الطرفين ينفخ العامل فتتوهج النار ليضع عليها الذهب .

ظروف عمل شديدة القسوة ، لكنهم جميعا فنانون بالفطرة والوراثة .

بثمن بخس :

لكل صاحب محل ذهب يعمل في مجال التصنيع وليس البيع فقط ، ورش تعمل لحسابه ، ويختلف عدد الورش وعدد العمال حسب طاقة المحل وقدرته وكمية الذهب التي يستقبلها للعمل . مرافقنا السيد « منصوك » لديه ورشتان تعملان لحسابه ، يعمل فيهما قرابة ١٢٠ عاملا ، بينما لدى السيد « شنكر فاجيوهي » سليل أول عائلة عملت في تصنيع الذهب وبيعه في بومبي قرابة ٤٠٠ عامل موزعين على أكثر من خمس ورش .

ويختلف نظام المحاسبة على التصنيع حسب الشكل المراد صناعته ، ومدى بساطته وتعقيده ، وهل هو ذهب خالص أم ملون ، أم محلّى باللؤلؤ ، فكلما ازداد تعقيد الشكل ، وازدادت التعقيدات التي به ، وكثرت الألوان أو اللآلىء زادت تكلفة الصنع .

ويتقاضى صاحب الورشة والعمال أجرهم بالقطعة ، وليس بالراتب ، وتبدأ من ٢٠ روبية هندية مقابل كل جرام ، وترتفع لتصل إلى ٨٠ روبية للجرام ، حسب نوعية العمل .

والحساب يتم بناء على الوزن الصافي للذهب ، بغض النظر عن أي إضافة ، فالسوار المزين باللؤلؤ مثلا لو كان وزنه ٤٠ جراما ذهبا ومائة جرام من اللؤلؤ ، فالحساب يتم على وزن الذهب فقط ، والورش المتوسطة (٧ - ٩) عمال ، تستطيع أن تنجز في الشهر كيلو جراما واحدا من المشغولات الذهبية ، أي يبلغ دخل الورشة حوالي ٢٠ ألف روبية يدفع منها صاحب الورشة أجور العمال ومصاريف وجبة الغداء التي تقدم للعمال مجانا والتي لاتزيد عن الارز .

والعمال يعملون بلا أي نظم للتأمينات ، فلا تأمينات عجز ، ولا إصابة ولا بطالة ، وعلى الرغم من ذلك فإن العائلات لاتتوقف عن دفع أبنائها للعمل في هذه المهنة ، ليتوارثوا مهن الآباء .

ولقد ساعدت ظروف الهند الاقتصادية المتمثلة في زيادة عدد السكان ، وقلة فرصة العمل ، في استمرار هذه المهن ، واستمرار الراغبين في العمل بها ، وظل العرض دائما من العمالة أكثر من الطلب عليها ، مما جعل أجورهم متدنية جداً ، فالعامل لايتقاضى من صاحب الورشة أكثر من ٥ روبيات عن كل جرام ، بالإضافة إلى وعاء من الارز للغداء . وبمنطق صاحب الورشة فإن العامل يتقاضى ربع أجر الورشة التي تأخذ ٢٠ روبية للجرام ، وبالطبع فإن هذه النسبة ترتفع في حالات المشغولات الأكثر تعقيدا .

كل هذا الجمال :

للمشغولات الذهبية الهندية جمال خاص بها ، وسمات واضحة لاتخطئها عين ، فهي مشغولات تتصف بجمال التراكيب ، فكل وحدة مليئة بآلاف التفاصيل الصغيرة ، فبين الإطارين اللذين يحددان السوار نسج من تفاصيل وجزيئات صغيرة متتالية ومركبة جميلة ، وللعقود جمال من نوع خاص ، تذكرك بمعروضات التحف في قصور الأباطرة والخلفاء والمهراجات.

ولهذا أكثر من تفسير ، أحد التفسيرات يقول إن هذا سببه أنها تنشأ في اقتصاديات متخلفة ، ولذا فهي توسع مجال العمل ، وهي تفتقر إلى البساطة ، وإلى العملية ، لأنها ابنة حضارة مركبة معقدة .

وتفسير آخر ، وهو أقرب إلى العقل والمنطق ، يقول : إن الهند كانت أرض حضارات عظيمة ، وأن فترة من أزهى فترات منطقة الشرق في الهند هي تلك الفترة التي ترعرعت فيها امبراطورية المغول الإسلامية ، وخلفت وراءها آثارا كثيرة معمارية ، كلها ذات طابع يتناسب مع الذوق الشرقي العربي ، وتتشابه هذه الآثار مع غيرها في كثير من المدن العربية الإسلامية كبغداد أو دمشق أو القاهرة .

ويفسر أصحاب هذا الرأى كل هذا الجمال في المشغولات الذهبية الهندية بأن المغول عندما أسسوا امبراطوريتهم لم يكن لهم قبل الإسلام تراث يتوارثونه ، ولكن مرورهم على مناطق كانت تحت السيطرة العثمانية ، وتدفق حركة التجارة بين البلاد العربية الإسلامية والهند ، في زمن الازدهار البحرى العربي ، قد نقل معه خبرة الحضارة العربية الاسلامية التى تمثلت في أبهى اشكالها وأبرزها في ذلك الوقت ، في فنون العمارة والنسج والنقش واستخدام الألوان ، وابتكار المنمنمات والحواشي ، وامتزج هذا التراث ، وتفاعل مع حضارة أبناء الهند ، ومازالت آثاره باقية ، تنقل إلينا عبر مشغولات ذهبية تنطق بالجمال والفن .

مصممون بالفطرة :

ومعظم المشغولات الذهبية الهندية يصممها أصحاب الورش ، بالفطرة والحس الموروث ، وبتراث عريق في هذه المهنة ، وبعد أن نظمت الحكومة الهندية حركة تصدير الذهب انفتح السوق العربي أكثر من ذي قبل للمشغولات الهندية ، ولذلك فإنه من عام ١٩٧٩ - كما يقول السيد منصوك - بدأت حركة تصدير وشغل الذهب لصالح أسواق الكويت وبعض أقطار الخليج العربي الأخرى ، ويتميز الطرف الكويتي المتمثل في الشركة الكويتية التى تنفرد بسوق الجملة في تجارة الذهب في الكويت بأنها تقترح تصميمات أو تضيف أو تعدل .

يقول السيد فهد الرشيد : « كنا في بداية تعاملنا نكتفى بالذوق الهندى كما هو ، وبعد فترة - لم تكن طويلة - بدأنا نتدخل في اختيار الأشكال ، فنحن نجيد الاستماع إلى الناس ، ونسمع رأي العملاء وهم يثرثرون حتى فيما بينهم ، كلمات قد تكون لغير المهتم بلا معنى ، مثل : ماذا لو كان هذا العقد محلّى بميناء ملون ؟ أو لو كان الشغل مفرغا وليس معتما ؟ وملاحظات عابرة مثل هذه الملاحظات ، وأحيانا قد لايتوافق الذوق الشرقى مع الذوق المحلى ، لأن لكل بيئة خصوصيتها . صحيح أننا جميعا شرقيو المزاج ، ولكن داخل هذه الشرقية فروق نوعية كثيرة ، تحكمها البيئة ، وخصوصيتها ، ولهذه الاعتبارات بدأنا نضيف ونعدل ونقترح للأشكال التى يشغل بها الذهب ، وفوجئنا أن الإقبال قد أصبح كبيرا ، فاكتشفنا مزية تجارية مهمة ، أغرانا بها النجاح ، وهى أننا نستطيع أن نكون أصحاب طراز خاص وشكل خاص جدّا بنا . لايمكن أن

● (الصورة العليا) أسـرة هندية في أحد المحلات في بومبي تتفرج على المعروضات تمهيداً لشراء هدية عرس ، أسفلها تناقض آخر من ورشة عمل بالكويت . (الصورة السفلى) تاجر ذهب في ويمبلي بلندن أتى إلى الهند خصيصا وهي موطنه الأول ، ليشترى مشغولات الهند ، ليبيعها للانجليز وبعض العرب هناك .

● عـلى مصـطبـة حجـرية في مـدخل ضيق لبيت قـديم ، جـلس الـرجـل العجـوز يـطعـم السـوار باللؤلؤ ، حرفته الوحيدة التي يشتغلهـا لحسـابـه الخاص ، يذهب إلى الورشة أو المحل ، ليتسلم السوار واللؤلؤ ، وينفـذ عمله ، ويعـود ليسلم القـطعة ويتقاضى أجره ، ولم يجد له مكانا إلا الطريق العام ، بعد أن أمضى ستين عاما يعمـل في هـذه المهنة . (الصورة السفلى) بعض المشغولات الهندية : يندر أن تجد سوارا شبيهـا بالآخـر ، وفيهـا كلهـا جهـد وعمل كثير .

يجده العميل في أي محل أو أي سوق إلا عندنا نحن ، وتوسعنا في هذا الاتجاه ، وأصبح لدينا الآن « موديلات » لاتباع حتى في الهند ، فهى تصنع لحسابنا نحن فقط . »

رمز له دلالته :

يحفل تاريخنا الاجتماعى العربى بتراث طويل حول هدية العريس للعروس ، وهى هدية كانت دوما تعبيرا عن مدلولات كثيرة ، أهمها الحرص على الرضاء والرغبة الحقيقية في إتمام الزواج والقدرة على الوفاء بمتطلبات الحياة ، ولذا فقد كانت دوما هدية من أغلى وأثمن ماهو متاح ، ففى القبيلة ، حيث الحياة في الصحراء كانت النوق والإبل ـ أيا كان عددها أو نوعها ـ هدية لاترفض ، وتعلى من شأن الخاطب والخطيبة ، وفي مجتمعات الأنهار كانت الأجولة المحملة بالمحاصيل والأبقار هدية عزيزة غالية ، ومع التطور الاجتماعى ، وبعد أن أصبحت كل هذه الأنواع مقومة بالنقود ، أصبح بعض الناس يذهب لبيت الخطيبة ويضع مبلغا من المال ، وبعد أن فقد الناس ثقتهم بالنقود التى تتآكل قيمتها بفعل عوامل التضخم والزمن أصبح الذهب هدية لها بريق ، وهى العرف المتبع والطقس السائد . وتتفاوت الهدية من مجرد « دبلة » إلى أجزاء من الكيلو (ربع أو نصف . . أو . . أو) والهدية ليست مجرد قيمة مادية فقط ، ولكنها أداة زينة كذلك،ووسط كل

ماهو متاح من أشكال ذهبية يبرز الشكل الهندى الذى تتفنن ورش عمل كثيرة منتشرة في كل الوطن العربي في تقليد الشائع من أنماطه ، وعمل مشغولات تتسم ببعض سمات المشغولات الهندية الأساسية ، وتتمتع هذه المشغولات المقلدة أيضا بإقبال كبير ، في أقطار عربية اشتهرت بمشغولاتها ، وعلى الرغم من ذلك فإنها وجدت في الطراز الهندى جمالا وإغراء لايقاوم .

وظلت كل الفتيات يحلمن بأن الخطيب قد جاءهن بأقراط وأسورة من ذهب الهند ، وندرك لماذا كانت كل كتب التاريخ تكتب عن هدايا الملوك ، فتقول : وأحضرت القافلة معها حريرا من الصين ، وذهبا من الهند ، فزوّج الملك شاه الزمان ابنته قمر بابن الملك عبدالرحمن ، وعاشا في ثبات وأنجبا البنين والبنات .

حاشية غير رقيقة :

في عام واحد ، هو عام ١٩٨٨ ، دخل إلى سوق الكويت مشغولات تقدر بـ ٣١ طناً ، كما تقول تقارير إدارة مراقبة المصوغات الكويتية ، وفي الهند يقولون : إنهم صدروا إلى الكويت مشغولات تقارب ٤ أطنان في العام نفسه ، وأغلب المشغولات الذهبية الهندية عيار ٢٢ أو ٢١ ، وهى نسبة الذهب في المشغول إلا أن الغالبية من عيار ٢٢ .

حاشية رقيقة :

يظل الذهب سيد المعادن وأنفسها ، فحوله دار الصراع ، وبه افتتنت النساء ، وإليه هرع المشترون للزينة أحيانا ، ولادخار الثروة أحيانا أخرى ، بعد أن فقدت أوراق النقد قيمتها . ولن يتساءل عقلى بإلحاح بعد الآن : لماذا الذهب الهندى ؟ فقد أدركت أن الجمال والفن هو تراث عريق لبلدان ذات حضارة وثقافة ، ويسكب الصانعون روحهم في كل قطعة يشغلونها ليمنحوها سحرا وفتنة وجاذبية . □

خضراء

شعر : رضا الصخني*

إنكِ خضراءُ كحقلٍ يمتدُّ بحجمِ العالمْ
لكنّي وأنا أجتاز حقولَكِ تحتَ المطرِ الناعمْ
تتجمع في قلبيَ أفراحُ الناسْ
مثلَ مراكبَ ترسو عندَ خليجْ
أعرفُ أنّكِ أصغرُ مِنْ زهرةِ آسْ
حتى أنّي أقدرُ أنْ أخفيكِ بقلبي دونَ ضجيجْ

حينَ تراشَقْنا بالضوءِ ، أنا والنجمةْ
تلك المتطرّفة اللمعانْ
حاذرتُ كثيراً أنْ أذْكُرَ اسْمَكِ
إنّ الإنسانَ يخشى أن تَسْمَعَهُ العتمةْ

بينَ دقائقِ نومي البيضاءْ
بينَ دقائقِ نومي ذاتِ الأطيافِ الكبرى
مِنْ جهةِ الفجرِ إلى جهةِ الفجرِ الأُخرى
تخترقُ الليلَ عصافيرُ زرقاءْ
تنأى ، تنأى ، تنأى

لكن إذ أخرجُ مِنْ نومي
نحوَ شوارع خاليةٍ ودقائقَ حيْرى
أسألُ عن وجهكِ كُلَّ الأشياءْ
فتسيل الخضرةُ حتى أطرافِ العالمْ
وأنا مشدوهٌ بالفرحِ الأسرِ تحتَ المطرِ الناعمْ

* شاعر وكاتب من القطر العربي العراقي

صدر العدد الجديد
العربي الصغير
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
مايو
١٩٨٩
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
في هذا العدد
■ استطلاع "طالع النخل".
■ هام .. مصارع الثيران.
■ دعوة إلى زيارة
سور الصين العظيم.
■ "ذات الهمة" الحلقة الخامسة.
■ قصة الخيال العلمي "سر أنبوب الفضاء".
إضافة للأبواب الثابتة
■ إسلاميات
■ كمبيوتر
■ ٨ صفحات
الملك الصغير والملكة الصغيرة
■ دائرة معارف العربي الصغير

محمد سعيد الصكار و هاني مظهر

■ من خلال تجاربي اكتشفت أنني أحمل تصورًا خاصًا "لشخصيات الحروف".

■ المشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد دلالة تعبيرية إضافية فقط، وإنما ليستمتع بوضعها التشكيلي.

■ الفنانون الذين استلهموا الحرف لم يستفيدوا مما في الخط من قيم تشكيلية!

محمد سعيد الصكار فنان متعدد المواهب ، فهو خطاط ومصمم أغلفة وملصقات جدارية وطوابع بريد ، وهو فضلا عن ذلك شاعر ومحرر صحفي . وقد أهلته مجالات النشاط التي يمارس أعماله فيها لأن يكون عضوا في أكثر من اتحاد أو نقابة ، فهو عضو جمعية التشكيليين العراقيين ، وعضو اتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين العراقية . أصدر مجموعتين فنيتين لأعماله الخطية ، وأقام عددا من المعارض .

أجرى الحوار معه الفنان التشكيلي هاني مظهر ، وهو فنان من العراق ، حصل على عدد من الجوائز التقديرية والميداليات ، ويعمل رساما صحفيا منذ عام ١٩٨٠ .

*** تأسيس نقد خطي وتحديد المصطلحات الخطية ، دعوة تتبناها باهتمام بالغ . ما مرتكزات هذه الدعوة والخط العربي مقنن إلى حد يجعلنا نعتقد أن المصطلح الخطي محدد سلفا ؟**

- التقنين الذي تتحدث عنه قائم فعلا ، ولكنه لا يعني استقرار المصطلح ، لأن التقنين يحدد ميزان الحروف ، ونسبة الحرف إلى النقطة القياسية ، وهي نقطة مساوية لعرض سن القلم أو القصبة التي نخط بها ، ونقول مثلا : إن حرف الألف المفردة في خط الثلث تساوي سبع نقاط ، وأنها في خط الرقعة تساوي ثلاثا ، وهكذا الشأن في بقية الحروف . وهذه مسألة قياسية ، وليست مصطلحا . أما المصطلح فهو تحديد دلالة العبارة . وهذه الدلالة غائمة في المصطلحات الخطية ، ومربكة للباحث . فمصطلح مثل (المشق) ، يعني مرة الكتابة السريعة ذات المدات ، ومرة التجارب الخطية التي يقوم بها الخطاط لتطويع يده قبل الخط ، وأخرى الحروف المفردة أو الموصولة التي يبين فيها الخطاط لتلاميذه كيفية أدائها ، وتسمى (الكرلة) أيضا ويذهب بعض الباحثين خطأ إلى أن (المشق) نوع من الخط .

وهكذا ترى أنه في مصطلح واحد تتشعب المعاني والدلالات ، وتبنى الاستنتاجات على أساس غير مستقر ، يذهب بالحقيقة بعيدا عن موقعها . وأنا أدعو إلى دراسة هذه المصطلحات في ضوء الواقع العملي ، لكي تتحدد الدلالة وتفهم المعاني ، ونميز بين ما هو خط وما هو كتابة ، فلا نحيل كل ما هو مكتوب على الإنتاج الخطي .

خلط في المفاهيم

*** لكنني أعتقد أن مثل هذا الخلط في المفاهيم لابد أن ينعكس على « النقد الخطي » الذي تجتهد في الدعوة إلى تأسيسه .**

- نعم ، إن دعوتي إلى تأسيس (نقد خطي) استجابة لحاجة يفتقر إليها تاريخ الخط العربي ، لأن الكثرة الكاثرة في كل ما نقرأ عن الخط تفتقر إلى منهج علمي في تقويم الخط ، وهي لا تخرج عن حدود الانبهار والإعجاب . أما العناصر الجمالية المثيرة لهذا الاعجاب ، والأسس الفنية التي يقوم عليها ، فتلك قضية لم تعالج حتى الآن .

وفي كتابي (حديث القصبة) الذي سيصدر عن قريب ، أطرح مشروع منهج لنقد الخط العربي ، يقوم على تحليل الخط المجرد باعتباره (مسافة بين نقطتين) ، أو (مجموعة من النقاط)، والحالات التي يكون عليها في حركته ، ونصيب الخط العربي من هذه الحالات . فالخط المستقيم مثلا له تأثير على الرائي يختلف عن تأثير الخط المنحني ، وكلاهما يختلفان بعضا عن بعض إذا اختلفت كتلة كل منهما . وأنا أعطي اهتماما كبيرا لمستوى حركة الكتلة في الخط ، وعلى أساسها أبحث الآثار البصرية ، وما يتبعها من أثر في الوجدان .

لاحظت أن الخط العربي قد درس بعناية بالغة ، لا من خلال الوضع الهندسي للحرف ، وإنما من خلال حركة اليد وارتكازها ، وحركة سلاميات الأصابع ، لذلك سعيت إلى تحليل هياكل الحروف من خلال مسارها المرتبط بالحالة الفيزيولوجية . فقلت مثلا : إن الحرف الفلاني ، يؤدي جزؤه الأول بسحبة يد حرة ، وأن جزءه الأخير يدخل عليه (التمحل أو المعالجة) التي هي خارج حرية الحركة . وبينت أي الجزئين أكثر دلالة على موهبة الخطاط ، وأيهما أكمل في المستوى الجمالي . وعلى هذا الأساس وضعت بعض الافتراضات لتحليل جمالية الخط العربي .

ومن ناحية أخرى ، حاولت في تجربة لي ، أن أجعل وعيي محايداً وأكلفه بالمراقبة ، دون تعسف وهي تجربة سبق أن قمت بها في كتابة الشعر ، وسميتها (الانفعال المدرب) أو (الخيال المروض) ، للتحرر من سلطة الوعي الناقد أثناء العملية الشعرية .

وفي تجربة الخط ، راقبت بوضوح إحساسي الداخلي ، وتناغمه مع حركة اليد ، وما رافق ذلك من صحو ذهني وبصري حادين . لقد شعرت بتكامل فيزيولوجي وأنا أخط ، أي أن اليد كانت تجري على رسلها دون عنت أو كد .

● ولقد مكناكم في الأرض (قرآن كريم)

وهذا الجريان يتناغم مع حركات أحسها في داخلي ، في حيز من صدري ، قريب من القصبة الهوائية ، وليس في القلب أو الرأس . مما كان يشيع نوعا من التوازن الداخلي ، والانتشاء والاحساس بالرضا ، ليس الرضا عن نتيجة العمل ، وانما الرضا عن كوني اعطيت كل ما أقدر عليه .

*** وهل تترك لك هيئات الحروف حرية كافية لتشكيل تصورك الخاص عنها ؟**

ـ من خلال تجاربي في دراسة هيئات الحروف ـ وأنا أعرف بحكم المهنة هذه الهيئات ومستوياتها ، لأنها راسخة في (ذاكرة اليد) إذا جاز التعبير ـ اكتشفت أنني أحمل تصورا خاصا لـ (شخصيات الحروف) يصنف الحروف إلى شخصيات أليفة ، وأخرى مترددة ، وأخرى مكابرة أو عدوانية ، وهكذا . ومثل هذه التصورات كانت تتدخل حتما في الهيئة النهائية التي يكون عليها الحرف ، على الرغم مما ذكرته عن الهيئة الراسخة في (ذاكرة اليد)

إن مثل هذه التجارب ، اضافة إلى الدراسة المتأنية الدقيقة لما تركه السلف الصالح من أصول وقواعد لهذا الفن الجميل ، تساعد حتما في التأسيس للنقد الخطي ، وتسهل علينا تحديد المصطلحات الخطية في ضوء الواقع العملي التطبيقي لها .

المصطلح النقدي للخط

*** الدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي تعني أننا لا نملك بعد مثل هذا المصطلح ، أو أننا لم نتفق عليه وهذا يعني أننا لا نملك مرتكزا للعملية النقدية ، ففي غياب المصطلح يعجز النقد عن تحديد مسارات واضحة للتطوير ، فكيف توفق بين الدعوة للتطوير والدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي ؟**

- الدعوة إلى التطوير ليست مشروطة بالنقد الخطي ، فقد حرى التطوير فيما مضى في غياب هذا النقد ، واعتمادا على الحس والتجربة الفنية والحياتية ، ولكن النقد يساعد على تسريع عملية التطوير بما يكشفه من جماليات خفية في العملية الخطية ، ويختصر الطريق على المبدعين بقدرته على التحليل والتصنيف،واضاءة الأعمال الخطية . إنه يحمينا من الانزلاق إلى المنعطفات الخطرة ، وإضاعة الوقت في البحث عن تجارب قد لا تكون ذات أهمية ، والنقد يعنى بتحديد المصطلحات كما يعنى بكشف العملية الابداعية في الخط .

وهناك الكثير مما يمكن للنقد أن يبدأ به في غيبة دقة المصطلح ، من خلال ما يطرحه من اصطلاحات جديدة ، ومن خلال ما هو موجود من مصطلحات واضحة ، إذ ليست كل المصطلحات غائمة وغير ذات دلالة واضحة .

*** هل يملك الخط العربي الطاقة التعبيرية الكفيلة بدفع المشاهد إلى تجاوز الدلالة المباشرة للكلمة ؟**

- لاأشك في ذلك . لأن الخط قيمة تشكيلية ، إضافة إلى كونه قيمة تعبيرية،وهذا ما رمى إليه « الصولي » عندما قال : (ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول) والمشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد دلالة تعبيرية إضافية ، وإنما ليستمتع بالوضع التشكيلي له . أي أنه يتجاوز التعبير المباشر إلى حالة من الجمال المطلق .

شخصية الخط المستقلة

*** نظرية « البعد الواحد » التي وضعها الفنان (شاكر حسن آل سعيد) تعد من أهم الظواهر الفكرية في الفن العربي المعاصر . تنطلق هذه الظاهرة أساسا من الحرف وما يهمنا في هذا الحوار لا يدخل في جوهر التنظير للبعد الواحد وإنما ما نتج عنه،فالالتباس في المفاهيم الخطية نجده مجسدا وبشكل سافر في اللوحة الحروفية التي روجت لها هذه النظرية . وقد تحدث الفنان آل سعيد - الذي أسس هذا الاتجاه وقاده - عن الحرف والأثر . والخط عنده ليس**

● وجعلنا من الماء كل شيء حي (قرآن كريم)
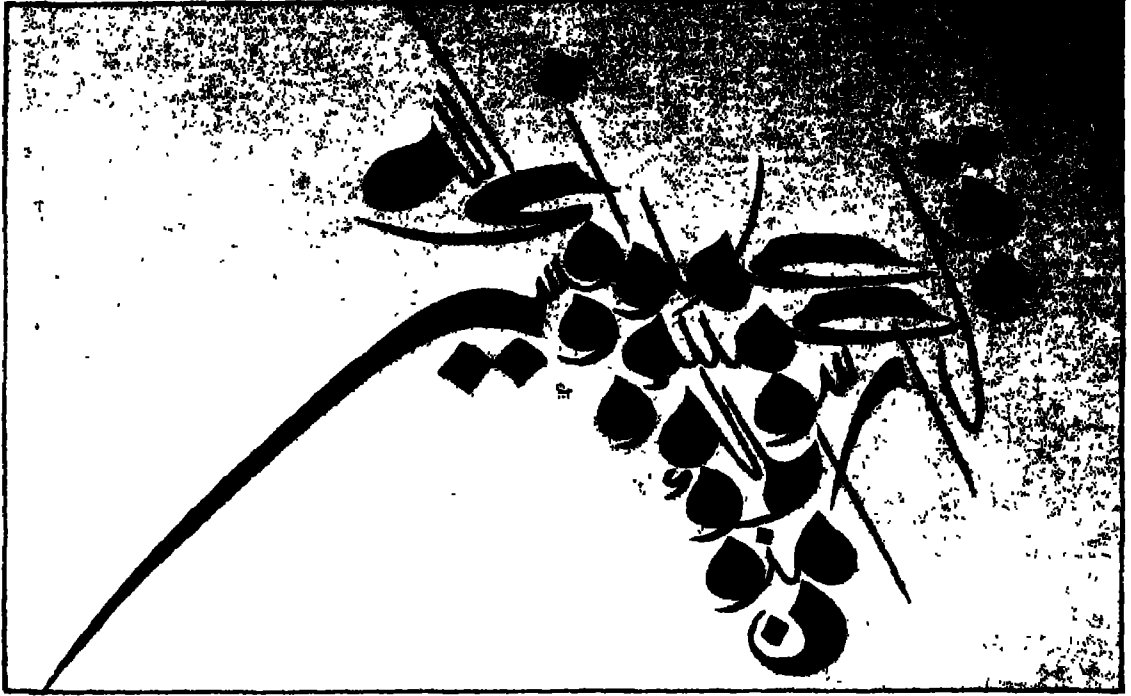
● وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (قران كريم)

سوى « علامة » ليس لها صلة بمفهومنا المسبق عنها ، في حين نجد أغلب الفنانين الذين استلهموا الحرف على ضوء هذه النظرية استندوا إلى « الخط » دون الاهتمام بشخصيته المستقلة التي بنيت على أسس جمالية وتاريخية تخصه دون سائر الفنون ، وهذا يثير تساؤلا آخر هو هل تملك القيم الخطية القدرة على تحقيق الشخصية المستقلة للفن العربي بشكل يمنع عنه التصرف المتعسف ؟

ـ لست متفقا معك في كون الفنانين الذين استلهموا الحرف استندوا إلى الخط . لأنهم ظلوا في الواقع ضمن إطار الحرف من حيث هو إشارة أو سطح لا أكثر . ولم يستفد أحد منهم مما في الخط من قيم تشكيلية ، ربما لأنهم لايعرفونها ، وربما لأنهم يعرفونها وتخونهم (شجاعتهم) في التعامل معها بالحرية التي تتيحها اللوحة التشكيلية . وقد تدخلت جملة من العوامل في خلق ظاهرة اللوحة الحروفية ، منها ما وصل اليه الفنان العربي في بحثه عن الهوية القومية في الفن التشكيلي . ونحن نعرف أن الفنان العربي بدأ بتقليد فنون الغرب وهو يتعامل مع اللوحة التشكيلية وفق المفهوم المعاصر لها ، ثم أخذ في بحثه عن نفسه يتلمس طريقه إلى الينابيع الفنية العربية ، وكان أبرز وأنقى هذه الينابيع هو الخط العربي ، فإلى جانب ما يتمتع به الخط العربي من أصالة بحكم نشأته وتطوره في محيط عربي صرف ، لم يخضع هذا الخط لمؤثرات الثقافات الأخرى في حين خضع لدراسة فكرية ووجدانية جادة تشكل نموذجا للفكر والوجدان العربي والاسلامي ، كما أنه أقرب إلى الفنان العربي المعاصر من معطيات الحضارات القديمة كحضارة الفراعنة وحضارة بلاد الرافدين بل هو أقرب إليه حتى من « الواسطي » بسبب البون الواسع بين مفهومي اللوحة عند الواسطي

● آيات قرآنية

واللوحة عند الفنان المعاصر .

وقد بدأت محاولات الفنان العربي في استلهام الحرف العربي ساذجة ، وهذا ليس عيبا ، فباب التجريب كان مفتوحا للوصول إلى نتائج قد تكون مجدية ، إلا أن الفنان العربي وبسبب خضوعه للمنطق الغربي في فهم واستيعاب الحرف العربي ، لم يتمكن من خلق رؤيته الخاصة التي تتيح له استيعاب البناء الداخلي للحرف العربي مما جعله يقف عند حدود المظهر التصميمي للحرف ، ومثل هذا المظهر لا يمكن أن يكون أساسا لخلق فن يملك القدرة على تحديد الهوية القومية للفنان العربي .

هوية قومية للفن العربي

*** وهل نستطيع أن نقول بأننا لازلنا نفتقد إلى أوليات ووسائل تأسيس رؤية قومية متميزة ؟**

ـ لا أستطيع أن أبخس الفنان التشكيلي حقه ، فهناك تجارب متميزة أضافت الكثير للوعي الجمالي العربي ، وللعديد من التجارب الفردية أثر قد لا يبدو ظاهرا ومؤثرا إلا أنه يتضح بالتقائه مع السياق الابداعي العام . ومع علمي بأن التراكم الحضارى مهم في الوصول إلى قوانين الابداع نستطيع أن نقول بأننا نسير باتجاه تحقيق الهوية القومية للفن العربي ، وإلى أن نصل إلى غايتنا علينا أن نفتح أوسع الأبواب أمام التجريب والخروج من القوالب والمفاهيم الجاهزة التي لم تصل بعد إلى مستوى يمكن الركون إليه .

*** كيف يمكن تحديد الهوية القومية ، وعن أى طريق ؟**

ـ قلت ان الخط العربي أنقى ينابيع الابداع العربي وأبرزها ، ولم أقل انه الينبوع العربي الوحيد ، فالفنان العربي المعاصر يملك إرثا سخيا من القيم الجمالية ، وحتى من العناصر التشكيلية الناجزة ، وهو الآن يعيش حياة يحتدم فيها الصراع بين حاجته إلى ترسيخ كيانه وتطويره وبين العوامل المضادة ، ويمثل هذا الموروث وهذه الحياة يكون بين يدي الفنان العربي مادة غنية للابداع ، ولا يبقى مطلوب منه سوى الابداع وهذا يمكن مناقشته في حدود كل تجربة إبداعية لأننا لم نتوصل بعد إلى نتائج تضع بين أيدينا حقوق التعميم . □

النظارات الشمسية

هل تضر العين ؟

بقلم : الدكتور توفيق عبدالحميد الدسوقي *

من المظاهر السلوكية المصاحبة للمجتمع الاستهلاكي ، اقبال الكثير من الناس على استخدام النظارات الشمسية والطبية ، لحماية العين من أشعة الشمس . فما مدى ملاءمة استخدام هذه النظارات للظروف المناخية ، وهل يسبب استخدامها أضرارا للعين ؟

في فصل الصيف يكثر الناس من استخدام النظارات الشمسية والطبية الملونة . والملفت للانتباه أن استخدام هذه النظارات يكون ذاتيا وتلقائيا دون اكراه على ذلك ، كما أن استعمالها ليس مقصورا على أعمار معينة ، بل تشمل جميع الأعمار ، وإن كانت شائعة بين الشباب والمسنين أكثر من الأطفال .

وفي هذه الأيام نرى أنواعاً كثيرة من النظارات الشمسية ، والتي تختلف في الشكل واللون والطراز ، بحيث لا تحجب أشعة الشمس القوية عن العين فقط ، بل وتعطى جاذبية أكثر وتزيد الوجه جمالا .

لكن هل تطرق إلى أذهاننا أن النظارات الشمسية أو الطبية الملونة يمكن أن تسبب ضررا

العين والألوان :

العين ترى جزءا صغيرا من طيف الشمس ، ويسمى بالطيف المرئي ، ويتكون من الألوان السبعة بدءا باللون البنفسجي فالنيلي فالأزرق فالأخضر فالأصفر فالبرتقالي فالأحمر على التوالى . هذه الألوان يعبر عن طول موجاتها (ل) بوحدة قياس طولية صغيرة تسمى النانومتر * حيث تبدأ أطوال الموجات للون

* أستاذ البصريات بكلية العلوم جامعة عين شمس/ القاهرة

* النانومتر يساوى واحد على المليون من المليمتر .

البنفسجي ل = ٣٨٠ نانومتراً ، وتنتهي بالأكثر طولا للون الأحمر عند ل = ٧٨٠ نانومترا .
وتختلف حساسية العين لرؤية هذه الألوان حيث تصل حساسيتها إلى أكبر قيمة للون الأخضر وتقل كلما اتجهنا نحو البنفسجي أو الأحمر .

لذلك نجد أن الله قد خلق لنا النباتات والأشجار كلها باللون الأخضر . كما أن الأطباء ينصحون الناس بالراحة في الريف حيث الخضرة تحيط بهم من كل مكان ، مما يجعل العين تتعرض لأقل إجهاد ممكن وبالتالي تكون أكثر استرخاء .

والأشعة التي لها تردد + (ت) أكبر من تردد اللون البنفسجي أو طول موجي أقل من ٣٨٠ نانومترا تسمى بالموجات فوق البنفسجية ، والتي لها تردد أقل من تردد اللون الأحمر أو طول موجي أكبر من ٧٨٠ نانومترا تسمى بالموجات تحت الحمراء .

وحيث إن المنطقة المرئية للعين تنقسم إلى الألوان السبعة ، فإن الأطياف فوق البنفسجية وتحت الحمراء تنقسم كل منها إلى ثلاث مناطق حسب المعايير الدولية ، وكما هو مبين بالجدول رقم (١) .

وكثير من النظارات الشمسية تهتم بالشكل والمظهر واللون والطراز الذي يرضي ويشبع رغبة ونفسية الأشخاص أكثر من الاهتمام في حماية العين من الأشعة غير المرغوب فيها ونسبة نفوذها بالقياس إلى الأشعة المرئية . ولقد أوضحت الأبحاث في السنوات الأخيرة ، أن النظارات الشمسية والطبية الملونة جميعها ، سواء كانت رخيصة أو غالية الثمن ينفذ منها جزء كبير من الأشعة فوق البنفسجية ، وتحت الحمراء لطيف أشعة الشمس ، بينما تحجب كثيرا من الأشعة المرئية . لهذا فإن العين التي تتعرض فترة طويلة لأشعة الشمس النافذة من النظارات يتسبب لها ضرر ، وخاصة إذا كانت نسبة الأشعة المرئية النافذة أقل من ٨٠٪ من الأشعة الكلية الساقطة على العين .

الضرر الكيميائي والضرر الحراري :

إن الضرر الناتج من أشعة الشمس على العين إما أن يكون كيميائيا أو حراريا . ومن دراسة نوعية الضرر يمكننا ربطه بطبيعة تكوين طيف أشعة الشمس حولنا ، وطاقة الأشعة التي تنفذ من خلال النظارة ، ثم خلال أجزاء العين حتى تصل إلى الجزء الحساس للرؤية وهو الشبكية ، ونوعية التأثير المتبادل فيما بينها . كما يعتمد على نوعية النظارة الشمسية أو الطبية الملونة التي تستخدم لتقليل كمية الضوء الساقط على العين . كما أنه يعتمد بالتالي على مدى اختلاف حساسية أجزاء العين لهذه الأشعة ، وأيضا على مقدار جرعة التعرض للأشعة

المنطقة فوق	الطول الموجي	المنطقة تحت	الطول الموجي
البنفسجية	بوحدة النانومتر	الحمراء	بوحدة الميكرومتر **
المنطقة أ	٣١٥ ـ ٣٨٠	المنطقة أ	٠,٧٨ ـ ١,٤
المنطقة ب	٢٨٠ ـ ٣١٥	المنطقة ب	١,٤ ـ ٣
المنطقة جـ	١٠٠ ـ ٢٨٠	المنطقة جـ	٣ ـ ١٠٠٠

جدول (١) الأطوال الموجية للمناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء

+ يقاس تردد الموجة بوحدة الهيرتز ، سرعة الموجة هي حاصل ضرب الطول الموجي في التردد .
** الميكرومتر وحدة قياس طولية أكبر من النانومتر ، وتساوى واحدا من الألف من المليمتر .

الشمسية ، وأخيرا على نوعية الضرر الناتج إذا كان مؤقتا أو مزمنا .

الضرر الحراري لأشعة الشمس على العين يتم فقط ، إذا نظرنا بصورة مباشرة ولفترة زمنية طويلة ، أو حتى لفترة قصيرة لقرص الشمس ولكن باستخدام نظارة مكبرة أو تليسكوب رؤية . وفي الحالتين تعمل قرنية العين وعدستها على تركيز الطاقة الحرارية للأشعة تحت الحمراء الساقطة من أشعة الشمس على شبكية العين ، وتضاعفها آلاف المرات مما يسبب ضررا بالغا ، قد يأخذ شكل عمى مؤقت ، تماما كأن نجمع أشعة الشمس بعدسة محدبة على ورقة فتحرقها . وأكثر الأشخاص تعرضا لهذا الضرر الحراري هم الباحثون في محطات الأرصاد الشمسية .

وحقيقة الأمر أن الضرر الحراري عادة يسبقه ضرر كيميائي ، نتيجة تركيز الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية ، أما إذا زادت نسبة الأشعة تحت الحمراء فإن الضرر الكيميائي يقل ، ويصبح الضرر الحراري هو السائد .

علمنا إذن أن تأثير الأشعة تحت الحمراء على العين هو تأثير حراري ، وعندما تنفذ هذه الأشعة من النظارات ، وبنسبة كبيرة ، فإن أجزاء العين تمتصها بنسب متفاوتة ، وتسبب ارتفاعاً في درجة حرارة أجزاء العين ، خاصة القرنية ، والقزحية ، ويظهر ذلك في شكل ألم شديد ، واحمرار في العين .

إن العصب الحسي الذي ينتهي عند القرنية والقزحية حساس جدا لأي ارتفاع بسيط في درجة حرارة العين ، ويزداد الألم والضرر إذا ارتفعت درجة حرارة العين إلى ٤٧ درجة مئوية حيث يسبب تعتيما مؤقتا لعدسة العين حتى ولو كان التعرض لفترات زمنية قليلة .

عمى الجليد :

هناك ضرر آخر يسمى عمى الجليد ، وهذا يحدث عندما تنظر عين الإنسان للجليد لفترة طويلة ، حيث إن سطح الجليد يعكس أكثر ما يكون الأشعة فوق البنفسجية لطيف الشمس ، وتفسير ذلك أن أكثر الموجات فوق البنفسجية ضررا على العين تلك التي لها طول موجي يتراوح ما بين (٣٠٥ - ٣٢٠) نانومترا ، حيث إنها أكثر نفاذية عبر جدار القرنية من باقي الموجات فوق البنفسجية ومسببة ضررا كيميائيا يظهر على شكل تعتيم لشفافية السائل المائي للعين والعدسة البلورية لها .

هذا الضرر يعتمد على فترة التعرض التي يمكن أن تكون ما بين عدة دقائق إلى ثماني ساعات حسب طبيعة تكوين خلايا العين لكل انسان .

عندما يسقط ضوء شديد على العين ، فإن بؤبؤ العين يضيق كي يحدد كمية الضوء المناسبة للسقوط على الأجزاء الداخلية للعين ، تماما مثلما نفعل بآلة التصوير (الكاميرا) عند أخذ صورة تحت الضوء الشديد . لكن ذلك لا ينطبق على القرنية التي لا يحميها من أشعة الشمس إلا قفل الجفون أو تضييقها أكثر ، مثلما يفعل رجال الاسكيمو لتفادي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد عند سقوطها على العين وعلى أجزائها الداخلية .

الصيادون في بلاد الاسكيمو يغطون وجوههم بقطعة من العظم أو الخشب وبها شقان صغيران أمام العينين لتلافي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد .
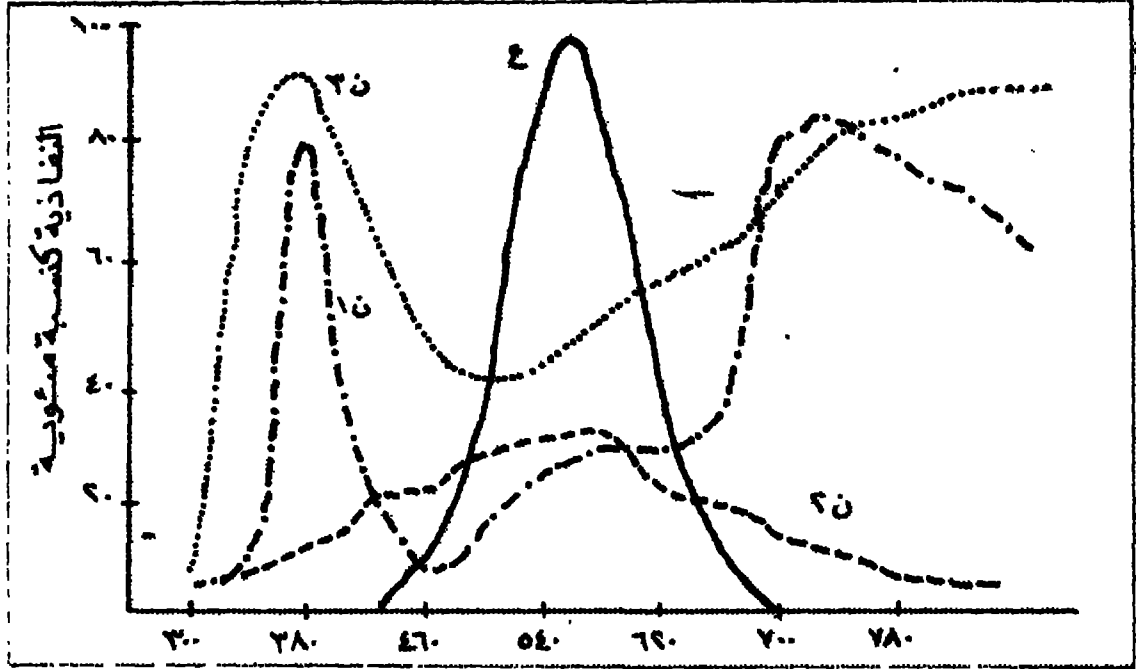
(٢) يمثل المنحنى ع حساسية عين الانسان للطيف الشمسي ، والذي تصل إلى أكبر قيمة عند اللون الأخضر للطيف المرئي وإلى صفر عند طيف الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء . أما المنحنيات ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ فهي نفاذية ثلاث نظارات شمسية مختلفة للطيف الشمسي

الفيض الضوئي النسبي :

إذا اعتبرنا الفيض الضوئي الساقط على أجزاء العين هو حاصل ضرب كمية الضوء الساقطة عموديا مضروبا في مساحة بؤبؤ العين ، ورمزنا بالرمز (ف) للنسبة بين فيض الضوء الساقط على العين باستخدام النظارة ، والفيض بدون استخدام نظارة ، فإننا نجد أن النظارة تكون أداة جيدة لحماية العين إذا كانت هذه النسبة (ف) أقل من واحد صحيح . أما إذا كانت النسبة أكبر من واحد صحيح ، فإن النظارة في هذه الحالة تكون أداة ضارة للعين

في النظارات المثالية تكون هذه النسبة (ف) تساوي صفرا في المناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء لضوء الشمس لكن ذلك لا يحدث حتى لأجود أنواع النظارات الشمسية ويبين الجدول رقم ٢١ ، قيم هذه النسب لبعض مناطق الأشعة فوق البنفسجية للثلاثة أنواع من النظارات السابق تحديد نتائجها من قبل ، وذلك في وقت الظهيرة عندما تكون الشمس متعامدة في السماء ، وفي الأوقات الأخرى التي تميل فيها الشمس إلى التعامد بزاوية قدرها ستون درجة . كما يتضح من الجدول اتساع قطر بؤبؤ العين عندما تقل كمية الضوء أثناء مرورها بالنظارات . وتتزايد نسبة الأشعة فوق البنفسجية في طيف الشمس في منتصف النهار عنها في أي وقت آخر وكمثال على ذلك فإن الأشعة التي لها طول موجي ل = ٣٠٠ نانومتر تكون في وقت الظهيرة عشرة أمثال وجودها في طيف الشمس عن وقت العصر مثلا ، أي الساعة الثالثة بعد الظهر .

حماية العين :

عندما تظهر الشمس ساطعة وقت الظهيرة ، والسماء صافية تماما من الغيوم والسحب ، تكون شدة إضاءة الشمس كبيرة سواء في المناطق

الحارة أو على شواطىء البحار أو فوق الأسطح العاكسة لأشعة الشمس أو في مناطق باردة مغطاة بالثلوج ، ويلزمنا نظام وقائي كي نقلل من شدة أشعة الشمس الساقطة على أعيننا .

فإذا استخدمنا نظارات شمسية لفترة طويلة فإنها تقلل كمية الموجات المرئية أكثر من تقليلها للموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، وهذا بالتالي يؤذي العين ويسبب لها أضرارا لسببين :

أولا : تزايد فتحة بؤبؤ العين كي يزيد من كمية الضوء المرئي المناسب للرؤية على الشبكية .

ثانيا : يتبع ذلك مع زيادة زمن التعرض أن تكون جرعة الموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء على أجزاء العين كبيرة وأكثر من ٢٠٪ من الضوء الساقط على أجزائها .

إذن نحن أمام خيارين ، وهما النظر إلى الشمس من خلال نظارة شمسية تحجب كثيرا من الضوء المرئي ، وقليلا من الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، أو أن ننظر إلى ما حولنا دون استخدام النظارة الشمسية حتى ولو كان الضوء شديدا .

في الحالتين فإن الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء سوف تسبب ضررا للعين ، لكن في الحالة الثانية يكون الضرر أقل لأن العين تكيف نفسها كي تحدد كمية الضوء الساقطة على أجزائها الداخلية ، فمثلا تضيق الجفون ، ويضيق بؤبؤ العين ، كذلك يمكننا الاستدارة عن المناطق المشمسة إلى مناطق الظل . لهذا فإننا ننصح بما يلي :

١ ـ عدم الثقة في أن النظارات الشمسية

تضيق الجفون عند النظر لأشعة الشمس القوية ، حتى تحمي العين من الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء

تحمي العين تماما من أشعة الشمس ، ولهذا يجب تقليل استخدامها بقدر الإمكان وخاصة إذا كان ضوء الشمس ليس شديدا .

٢ ـ عدم الاهتمام بالمظهر الخارجي والألوان والطراز والسعر للنظارة الشمسية قبل الاهتمام بمقدار نفاذيتها لطيف الشمس والحفاظ على نسبة نفاذية ٨٠٪ أو أكثر للمنطقة المرئية بالنسبة لباقي طيف الشمس الواقع على العين .

٣ ـ اختيار نسبة الفيض الضوئي النسبي للنظارات الشمسية إن أمكن وخاصة في المناطق فوق البنفسجية ، واختيار النظارة التي لها نسبة فيض أقل من واحد صحيح .

٤ ـ إذا كان وضع الشمس بزاوية قدرها ستون درجة أو أكثر عن وضع التعامد في الظهيرة ، فإنه ينصح بعدم استخدام النظارات الشمسية وذلك لتقليل الأضرار الناشئة من الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية على أجزاء العين . □

● إن الأرض لتزين في عين الخليقة إذا كان عليها إمام عادل ، وتقبح في أعينهم إذا كان عليها إمام جائر

(ابن عباس)

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

مستقبل اللغة العربية *

لجبران خليل جبران

١٨٨٣ - ١٩٣١

إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر ، وفي التقهقر الموت والاندثار

إذن فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن - أو غير الكائن - في مجموع الأقطار التي تتكلم اللغة العربية . فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها ، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية

ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد . وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الإسلامية كانت في حالة التشعب وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلّون فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي ، حتى راود النعاس قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت، وبنومها تحول الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيون إلى منجمين .

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربية رهْنَ قوة الابتكار في مجموع الأقطار التي تتكلمها ، فإن كان لتلك الأقطار ذات خاصة أو وحدة معنوية وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها ، وإلاّ فلا .

٢ - وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوربي والروح الغربية فيها ؟

إنما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها ، فتمضغه وتبتلعه ، وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي ، كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم ، فالطعام يذهب سدى ، بل ينقلب سماً قاتلا .

وأما الروح الغربية فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب . فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ، والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر . فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم ، وها قد

أصبحوا هم السابقين ، وأمسينا نحن اللاحقين ، فصارت مدنيتهم ـ بحكم الطبع ـ ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا .

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه ، فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم ، بل يحولهم إلى شبه غربيين ، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها . !

إن روح الغرب صديق وعدو لنا صديق إذا تمكنا منه ، وعدوّ إذا تمكّن منا . صديق إذا فتحنا له قلوبنا ، وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا . صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا ، وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه .

٣ ـ وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الأقطار العربية ؟

قد أجمع الكتاب المفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة من التشويش السياسي والإداري والنفسي ، ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال .

أما أنا فأسأل : هل هو تشويش أم مَلل ؟ إن كان مللاً فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب ، الملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم .

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً ، لأنه يبيّن ما كان خافيا في روح الأمة ، ويبدل نشوتها بالصحو ، وغيبوبتها باليقظة . ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها ، بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء . وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها .

إذن فتأثير التطور السياسي سيحوّل ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام ، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة .

٤ ـ هل يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتُعلَّم بها جميع العلوم ؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلية .

ففي سوريا ـ مثلاً ـ كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوّرون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا ، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنم بمحاسنها وأمجادها .

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم ، فتتوحّد ميولنا السياسية ، وتتبلور منازعنا القومية ، لأنه في المدرسة تتوحد الميول ، وفي المدرسة تتجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة لايتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه ، لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لأن المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسيّر دائماً والواهب مخيّر أبداً . □

---

* من مجلة الهلال المصرية عام ١٩٢٩

فن السيرة من الفنون التى يقبل عليها القراء
للمتعة المتحصلة من قراءتها ،
لأنها تكشف عن جوانب متعددة من حياة العظماء والنابهين
فى مختلف الميادين
لقد حظى هذا الفن باهتمام المبدعين العرب
الذين أضافوا للمكتبة العربية نماذج متميزة من السير ،
لكنه اهتمام لم يأخذ مداه .

فن السيرة الذي أهملناه

بقلم : الدكتور علي شلش

نشأ أدب السير والتراجم في أوربا قبل أن ينشأ عندنا . وكانت أولى ثماره وأقدمها كتاب « قصص حياة متماثلة » الذي ألفه المؤرخ اليوناني « بلوتارك » (٥٠ ـ ١٢٥ تقريبا) ، وبه أصبح أشهر أديب إغريقي في عصر النهضة الأوربية ، فقد ترجم إلى لغات العصر الأساسية ، وأثر تأثيرا كبيرا في مجرى الأدب و « الدراما » والسير . وحين نقله « توماس نورث » ـ عن الفرنسية ـ إلى الانجليزية ، ونشره في لندن عام ١٥٧٩ ، اختصر عنوانه إلى « قصص حياة » أو « حيوات » بمعنى أدق . ولكن هذا العنوان المختصر نفسه كان قد بدأ في الشيوع في الانجليزية قبيل نقله إليها . ففي عام ١٥٣٥ نشر الكاردينال مورتون « حياة ريتشارد الثالث » متأثرا بنموذج بلوتارك في اللاتينية . ثم توالى ظهور عناوين السير والتراجم في صورة « حياة فلان » أو « حياة مجموعة » ، ابتداء من « حياة هنري الثامن » لفرانسيس بيكون عام ١٦٢١ ، إلى « حياة وليم بليك » لمونا ويلسون عام ١٩٢٧ ، مرورا بعشرات السير الأخرى المتشابهة العنوان ، ومنها « حياة جونسون » الشهيرة لجيمس بوزويل عام ١٧٩١ .

لكن الأهم من هذا كله أن كتاب بلوتارك وضع نموذجا لما يجب أن تكون عليه السيرة الأدبية ، فقد جمع فيه بعض أعلام اليونان والرومان في التاريخ والسياسة ، وتناول حياة كل منهم بأسلوب قصصي سردي بسيط ، مع إيراد بعض النوادر والحكايات عنه ، واستخلاص مغزى أخلاقي من حياته ، فكأنه مزج التاريخ بالأدب والأخلاق ، وكأنه أقام نموذجه فى كتابة

السير على هذا المزيج ، مع التركيز على الأعلام والمشاهير من ناحية ، وبيان الخصائص الايجابية - أو الحسنات - في الشخصية من ناحية أخرى ، مع غض النظر عن خصائصها السلبية .

ظل هذا المفهوم « البلوتاركي » سائدا في السير والتراجم حتى نهاية عصر النهضة . وحين استقرت فكرة الفرد ، كأساس للمجتمع في ذلك العصر ، وجدت في مفهوم بلوتارك سندا كبيرا ، بل إن هذا السند كان قد قوي في العصور الوسطى ، قبل عصر النهضة ، حين ازداد الطلب على السير والتراجم بصفتها نموذجا للفضيلة والقداسة والعظمة في القديسين والملوك .

تطور فن السيرة

ولكن الحال مالبثت أن تبدلت بعد عصر النهضة ، وبداية العصر الحديث ، في القرن الثامن عشر . ومع نشأة الطبقات الجديدة ، وزيادة التعليم ، وإقبال الناس على القراءة ، بتأثير ضغوط السياسة والاقتصاد ، تطور مفهوم بلوتارك في كتابة السير ، ولم تعد حياة القديسين والملوك وأبطال التاريخ وحدها في الميدان ، بل تفكك التركيز على الخصائص الإيجابية في الشخصية ، وبدأ البحث في أغوارها ، والرجوع إلى آثارها الخارجية ، مثل الخطابات واليوميات والمذكرات والوثائق . وساهم الخيال مع العقل في رسم صورة هذه الشخصية ، وعصرها ، وسلوكها ، والبشر الذين أحاطوا بها . وحين أصدر « صامويل جونسون » كتابه « حياة الشعراء الانجليز » ، في الفترة من ١٧٧٩ إلى ١٧٨١ ، نادى في مقدمته بضرورة الصراحة في تصوير حياة البشر ، بحيث تخرج الحقيقة عارية غير مزوقة . وكان يرى أن حياة أي شخص تستحق التسجيل ، مهما كان نصيبها من العظمة . وهذا ما أخذ به « جيمس بوزويل » حين كتب سيرة « جونسون » نفسه بعد سنوات .

تنوعت السير منذ ذلك التاريخ تنوعا كبيرا ، وانتفعت كثيرا بتطوير العلوم الانسانية ومناهجها ، لاسيما علم النفس ، وحققت قدرا لا بأس به من الموضوعية والعقلانية مع المهارة الفنية وخفة الروح ، على يد رجل مثل « ليتون ستراتشي » (١٨٨٠ - ١٩٣٢) في بريطانيا الذي يعد مؤسس السيرة الحديثة . كما حققت قدرا آخر من الفنية القائمة على الجمال ، ونسبية الحقيقة ، والإطار القصصي ، والبناء الدرامي على يد رجل آخر مثل « أندريه موروا » (١٨٨٥ - ١٩٦٧) في فرنسا .

وهكذا نشأ فن السيرة في حضن التاريخ ، وظل مختلطا به قرونا عدة ، ثم استقل عنه - كما رأينا - وتفرع إلى جملة فروع . ومع ذلك ، ليس من السهل أن يتخلص من التاريخ بمعناه المجرد ، من حيث هو تراكم زمني ، وسلسلة من الوقائع والأحداث . وليس من الممكن أن تتحرر السيرة من الإطار الزمني ودورة الحياة ، ولا من التعامل مع الوقائع والأحداث العامة .

نشأة السيرة في الأدب العربي

عند هذا الحد يمكن أن نتساءل :
كيف نشأت السيرة في أدبنا إذن ؟

لقد حاول « أحمد أمين » أن يجيب عن هذا السؤال في مقال نشره في أوائل الأربعينيات ، وضمه إلى الجزء الثاني من كتابه الضخم « فيض الخاطر » بعنوان « تراجم الرجال في الأدب العربي » . وفي هذا المقال ذكر « أحمد أمين » أن تراجم الرجال تشغل في آداب اللغة العربية « أبين مكان وتستغرق أكبر حيز » ، فأكثر ما نعرفه من ضروب التأليف القديم في الأدب نوعان : نوع تأسّس على تراجم الرجال ، مثل كتب : الأغاني ، معجم الأدباء ، طبقات الشعراء ، يتيمة الدهر . ونوع آخر تأسس على المختار من المنظوم والمنثور ، مثل كتب : البيان والتبين ، الكامل ، العقد الفريد ، والسبب في

ظهور كلا النوعين ، في رأيه ، هو أنهما « أسهل الطرق على المؤلف » وكلاهما أيضا « نوع من التأليف الساذج ، وأول درجة في سلم التأليف » . أما الباعث على تأليف تراجم الرجال فكان دينيا ، جاء بسبب الرغبة في تسجيل الأحاديث النبوية وسير النبي والصحابة . فكأن الأدباء - كما يقول - قلدوا المحدِّثين - جامعي الأحاديث - الذين سبقوهم إلى هذا العمل وبلغ تأثرهم بهؤلاء المحدثين أنهم قلدوهم في صيغ التعبير .

ومن أمثلة هذه التراجم ما فعله « ابن خلكان » في كتابه « وفيات الأعيان » حين ترجم لكل عين من أولي النباهة ، و « ياقوت الحموي » في كتابه « معجم الأدباء » حين اختص الأدباء بالسير ، « والثعالبي » في كتابه « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » حين جمع ما أمكنه من تراجم شعراء عصره . ولكن هذه الأمثلة وغيرها لم تسلك طريق البحث العلمي ، فوضعت الأساطير إلى جانب الحقائق ، وذكرت الحوادث على عواهنها بغير تمحيص أو تحقيق ، وسردت الوقائع دون تقييم لموضوع نبوغ الذين ترجموا لهم على حد تعبير « أحمد أمين » .

وحاول « إحسان عباس » أن يدرس الموضوع على نحو أعمق ، فأخرج كتابا صغيرا قيما في أوائل الخمسينيات ، بعنوان « فن السير » تعرض فيه للسير قديما وحديثا عندنا وعند غيرنا . وأجاب عن سؤالنا السابق بقوله :

« نستطيع أن نقرر في غير تعميم أن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين . . . (وكان مؤرخوهم يعدونها جزءا من التاريخ) ، بل يرون أن التاريخ ليس إلا سير الحاكمين » وقال في موضع آخر من كتابه :

« ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة ، أو المشاهدات ، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بتطور الزمن ، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة . وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى واف كامل حتى العصر الحديث ، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة . وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية » .

هذه الملاحظات والأحكام على السير والتراجم في الأدب العربي القديم صحيحة ، لا جدال في سلامتها ومع ذلك ظلم « أحمد أمين » و « إحسان عباس » قدامى المترجمين وكتّاب السير ، حين لم يقارناهم بنظرائهم في أوربا خلال العصور القديمة . فقدامى الأوربيين من كتاب السير والتراجم ، ابتداء من « بلوتارك » حتى أوائل عصر النهضة ، وقعوا في الأخطاء نفسها تقريبا ، ولم يكونوا أحسن حالا من قدمائنا . ولكن من الواضح أن نشأة السير والتراجم عندنا كانت كنشأتها عند الأوربيين ، أي أنها نشأت في حضن التاريخ ، أيّا كانت كفاءة التاريخ ، ثم ازدهرت في حضن الدين ، مثلما حدث في العصور الوسطى الأوربيه حين شاعت تراجم القديسين .

أنواع السيرة

أما السيرة العربية الحديثة فقد تأثرت بالسيرة الأوربية كما لاحظ الدكتور عباس ، ولكن تقسيمه لها عام جدا ، فهو يقسمها إلى نوعين :

السيرة التاريخية ، ومن أمثلتها : « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل و « محمد على الكبير » لمحمد شفيق غربال .

والسيرة الأدبية ، ومن أمثلتها : « حياة الرافعي » لمحمد سعيد العريان ، « العبقريات » للعقاد ، « جبران خليل جبران » لنعيمة ، « منصور الأندلسي » لعلي أدهم .

ويكمن سر التعميم في هذا التقسيم فيما يسمى « السيرة التاريخية » التي لا أعتقد أنها موجودة ، فهناك سيرة ، وهناك أيضا تاريخ ، وإذا كانت السيرة قد نشأت مختلطة بالتاريخ فهذا

ليس عيبا ، فضلا عن أنها لا تستطيع الاستغناء كلية عن التاريخ ، كما أشرنا من قبل . وإذا كان النبي (ص) شخصية تاريخية فهكذا كان محمد علي ، والرافعي ، وجبران ، ومنصور الأندلسي ، أبطال عبقريات العقاد . فكل هؤلاء أشخاص تاريخيون . وإذا كان التناول التاريخي سلاحا مهما من أسلحة مؤلف السيرة ، فليس معنى ذلك أن يستغني عن خياله عند الفهم والتقدير والتعبير . وإذا كان التناول الأدبي سلاحا مهما آخر ، فليس معنى ذلك أن يستغني مترجم الحياة عن عقله أو عن الحقائق الجافة عند التقييم والتقدير . وبذلك نستطيع أن نعمم فنقول :

كل السير تاريخية وأدبية في آن واحد ، مادامت ليست بحثا في التاريخ أو الأدب ، وما دامت ـ أيضا ـ عن رؤية لحياة إنسان ما ، خطيرا أو حقيرا ، أي أنه لا توجد سيرة تاريخية ، وإنما يوجد كتاب تاريخي خال من عناصر الأدب ، ولا توجد أيضا سيرة أدبية ، لأن السيرة أدب مبني على التاريخ العام أو الخاص ، أو كليهما معا ، وإنما توجد في النهاية سيرة جيدة وأخرى رديئة ، سيرة فنية وأخرى غير فنية ، سيرة تفسيرية وأخرى « سيكلوجية » ، وهكذا .

غير أننا نتفق بعد ذلك مع الدكتور عباس في كثير من تحليله للسير التي ظهرت في أدبنا الحديث والحكم عليها . فهو يرى أن سيرة الرافعي « للعريان » ينقصها التمشي مع حركة النمو والتطور في البناء ، والتحرر من سلطان الإعجاب والتلمذة ، وعدم الاطلاع على بعض الوثائق المهمة مثل رسائل الرافعي « لمحمود أبي رية » . وهو يرى أن العقاد « حَدَّ من حريته في الكتابة ثلاث مرات : مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول أن يبرر ما يحسبه الناس خطأ . ومرة أخرى حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين . وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، فإذا وجدها وجد الاضطراب الكثير . ونجم عن ذلك أنه لم يكتب سيرة ، وإنما كتب فصولا ، بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء في الفحص والتبرير ، كما هي الحال في كتابيه « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » . ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة . فليس هو العقاد الناقد الطليق » .

ويخرج الدكتور عباس من دراسته لعبقريات العقاد بأنها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث ، والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي . مع لباقة في العرض ومهارة في اللمح والتفسير ، دون استقصاء أو تناول للمتعارف والمشهور بتفسير جديد . ولكنه يرى أن كتاب العقاد عن « سعد زغلول »كان أقرب كتبه إلى السيرة الصحيحة .

شيء واحد يدعو إلى الاختلاف هنا ، هو قوله : إن « العبقريات » ليست سيرا بالمعنى الصحيح ، وأن السيرة بمعناها الصحيح هي سيرة سعد زغلول . ولعل الأصح أن « العبقريات » سير ضعيفة ، وأن سيرة سعد زغلول قوية ، للأسباب التي ذكرها الدكتور عباس ، لأن السيرة مثل « فن رسم الوجوه portrait » كما قال « اندريه موروا » ذات مرة ، أي أنها رؤية شخصية لبطلها أو صاحبها ، ولكنها رؤية فنية أيضا ، مبنية على التاريخ العام ، أو الشخصي ، أو كليهما معا ، كما سبق أن أشرنا . وهي كذلك رؤية موثقة بالأدلة والقرائن والشواهد والمستندات وبهذا المعنى تصبح « العبقريات » سيرا ، ولكنها سير ضعيفة

وينطبق ماذكرناه الان على « سيرة جبران » التي نشرها « ميخائيل نعيمة » عام ١٩٣٤ . فهي عند المؤلف نموذجية ، وبها « اكتمل للسيرة وجودها في الأدب العربي الحديث من حيث الغاية والتطبيق » ، وإذا وافقنا على الاكتمال من حيث

الغاية ، فلا يمكن مد الاكتمال إلى التطبيق ، لأن « نعيمة » أضعف السيرة بالتركيز ـ ربما دون أن يدري ـ على مظاهر الضعف في شخصية جبران ، حتى بدا الرجل كريها وانتهازيا وغشاشا ومتناقضا . ولم يعوضه « نعيمة » إلا في أدبه وكتاباته ، فضلا عن أنه لم يستقص علاقته الخاصة ببعض خاطبي صداقته ، مثل « ميّ زيادة » في مصر ، ولم يتتبع النمو والتطور والتغير في الشخصية مع مراحل التقدم في السن ، أو « تأثير الأحداث في الخارج والداخل على نفسية صاحبها » وهما خاصيتان لاحظ المؤلف وجودهما في السير الجيدة . ومع ذلك تظل سيرة جبران هذه من أفضل السير العربية الحديثة .

لماذا تدهور الاهتمام بالسير ؟

مر على ظهور هذه السيرة الجيدة نسبيا أكثر من نصف قرن ، دون أن تتلوها سيرة أخرى أفضل منها ،أو حتى من طرازها ، فماذا حدث ؟ هل أجدبت القرائح العربية المهتمة بهذا الفن العريق في أدبنا ؟

لقد أشار الدكتور إحسان عباس في كتابه المذكور إلى العديد من العقبات والمشكلات التي تواجه مؤلف السيرة ، لا سيما في جمع المادة وتفسير أجزائها . وأضاف قائلا : « لا أظنني متشائما أو مغاليا حين أقرر أن كتابة سيرة لأحد الأقدمين تعد أمرا معجزا » ، لأن الصدق التاريخي يكاد يكون مستحيلا إذا اكتفينا بمجرد الأخبار المتناثرة عن الشخص أو حياته . ثم أشار إلى قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ، وإن كان « قوى الميل أخيراً عند السياسيين أو المتصلين بحياة السياسة ، وحياة الرقص والغناء إلى كتابة مذكراتهم » .

وإذا كانت كتابة سير الأقدمين على النحو الصحيح قد صارت اليوم ضربا من المعجزات ، بسبب فقر المادة الخام ، كما أشار الدكتور عباس بحق ، فلماذا لانتج سيرا للمحدثين ؟ لقد مضى نحو ربع قرن على وفاة العقاد مثلا دون أن تظهر له سيرة ، وكذلك الحال مع طه حسين وكثيرين آخرين من صناع نهضتنا الفكرية الحديثة ، فضلا عن أبطال تاريخنا الحديث . فهل يرجع هذا النقص إلى فقر المادة الخام أو قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ؟

ربما يكون من المفيد ، قبل الإجابة عن هذا السؤال ، أن نعود إلى الوضع الأوربي والأمريكي المعاصر في السيرة . فمع أن قراء هذا اللون من الأدب متوافرون ، والمطابع لا تكف عن إخراج السير ، في أوربا وامريكا ، إلا أنه من الملاحظ أن كبار مؤلفي السيرة المعاصرين يشكون من بعض الظواهر المعوقة لعملهم . وقد صدر حول هذا الموضوع كتاب مهم عن « دار ماكميلان » في لندن قبل سنتين ، بعنوان « حرفة السيرة الأدبية » وفيه جمع محرره « جيفزي مايرز » ١٣ فصلا كتبها ثلاثة عشر مؤلف سيرة من بريطانيا وأمريكا ، من بينهم ثمانية أساتذة جامعيين ، واثنان محترفان متفرغان للسيرة ، هما « إليزابيث لونجفورد » ، « ونايجل هاميلتون » الإنجليزيان . ويدور الكتاب كله (٢٥٣ ص) حول المصاعب العملية التي تواجه كاتب السيرة ، وأهمها المال والمادة الخام والوقت .

وكان مما رواه محرر الكتاب أنه أنفق ٦٠٠٠ دولار على السيرة التي ألّفها عن الروائي والناقد الفنان الإنجليزي « ويندام لويس » (١٨٨٢ ـ ١٩٥٧) حتى ظهورها عام ١٩٨٠ ، دون أن يعود عليه منها سوى حقوق النشر . وشكا « نايجل هاميلتون » من أنه اضطر إلى الانتظار خمس سنوات قبل الشروع في السيرة التي ألّفها عن الأديبين الالمانيين « هاينريك مان » (١٨٧١ ـ ١٩٥٠) وأخيه « توماس » (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) ، لأنه لم يجد ناشرا امريكيا يساهم في نفقات إعداد السيرة ، ولم يكن النشر في انجلترا وحدها يؤمنه اقتصاديا .

تأتي بعد عقبة النفقات هذه ، التي يتكبدها

مؤلف السيرة ، عقبة المادة الخام والحصول على مفرداتها المتعددة ، لاسيما الاطلاع على الأوراق الخاصة لموضوع السيرة . ومؤلف السيرة السعيد هو من تشمله أسرة بطلها بالعطف والمساعدة فتمكنه من قراءة الأوراق الخاصة ، مثلما حدث مع السيدة « لونجفورد » التي مكنتها أسرة الشاعر والمؤرخ السياسي الانجليزي « ويلفرد بلنت » (١٨٤٠ - ١٩٢٢) من الاطلاع على كل متعلقاته عند إعدادها لسيرته التي ظهرت عام ١٩٧٩ . وفي بعض الأحيان تزيد المادة الخام عن حاجة السيرة ، مع أن معظم السير الحديثة تميل إلى الطول .

وأخيرا تأتي مشكلة الوقت ، فمؤلف السيرة يصرف عادة وقتا طويلا في مقارنة اليوميات والمذكرات ، وما يظهر فيها من وقائع ، بشهادة الشهود وغيرهم من المعاصرين لهذه الوقائع . وكان مما روته « ديردرى بير » التي ألّفت سيرة الأديب الايرلندي الأصل « صامويل بيكت » أنها لم تقبل التسليم بأي حقيقة - مختلف عليها - عن «بيكت» إلا بعد الرجوع إلى ثلاثة مصادر على الأقل . وذكر « رونالد هايمان » مؤلف سيرة الأديب الألماني « برتولت بريخت » (١٨٩٨ - ١٩٥٦) أنه اكتشف كذب بريخت في كثير مما رواه عن نفسه ، وأن كثيرين من شهود الوقائع الكاذبة أصروا على تجاهل كذبها ، مما سبب له ألما وضياعا للوقت . وأضاف « فيليب نايتلي » الذى كتب سيرة ضابط المخابرات البريطانية « ت . أ . لورنس » (١٨٨٨ - ١٩٣٥) أنه اكتشف أيضا كذب لورنس فيما ادعاه عن الاعتداء عليه جنسيا فى بلدة درعا السورية .

ومع هذا كله يسلّم كتاب السير المشاركون فى هذا الكتاب بأنه لاتوجد حقيقة نهائية أو مطلقة ، وسواء كتب مؤرخ السيرة ٣٠٠ صفحة أو ثلاثة آلاف فسيظل الشك في صحة الوقائع قائما ، ويظل هناك ما يمكن حذفه والتخلص منه ، لعدم أهميته .

هذه العقبات أو المشكلات الثلاث هي أهم ما يواجه مؤلف السيرة الأدبية المعاصر في أوربا وأمريكا فى تناوله لأشخاص محدثين أو معاصرين . وأعتقد أنها - أيضا - أهم ما يواجه مؤلف السيرة عندنا اليوم ، مع الفرق في الدرجة ، بالطبع . فالحصول على المعلومات - مثلا - في بلادنا اليوم أشق وأصعب . وصرف الوقت في تجميع المادة الخام وإجراء الجانب البحثي من السيرة أصبحا يشكلان عندنا تضحية جسيمة ، لايقدر عليها إلا من أوتى المال الوفير ، والصحة الجيدة ، والارادة القوية !

وإذا كانت هذه العقبات مثبطة للعزائم ، فأولى بنا أن نيسّر السبل على الراغبين في العمل بهذا الميدان ذى التضحيات . ولعل أولى سبل التيسير هي أن نشجع تأليف السير عن طريق المسابقات الدورية ، والمنح . وبغير هذا التشجيع الذي يجب أن يتكافأ مع الجهد والتضحية ، سوف تظل السيرة جنسا أدبيا مهملا ، وربما صارت ديناصورا آخر فى حكم الانقراض . □

منتدى العربي

قضية

المعجم النفسي والنص الأدبي

بقلم : الدكتور كمال نشأت

« يختار الكاتب أسلوبه ومفرداته ، وعالمه الذي يقدمه لنا ، وهذا الاختيار في حد ذاته له دلالة نفسية عن أعماق الكاتب التي يحاول أن يخفيها عنا . وهذه محاولة لصياغة مصطلح جديد ، لكي نقرأ ونحلل أدوات الكاتب نفسياً ، لنتعرف على ذاته الخاصة جداً . »

يشكل الشاعر أو الكاتب من خلال اختيار ألفاظ معينة من لغته القومية ما يسمى أسلوب تعبير ، يخضع أول ما يخضع لخصوصية شخصية فى طريقة تركيب الجملة ، وهو دون أن يدرى يختار أيضا ألفاظا معينة ، يكثر دورانها في أسلوب تعبيره ، وهى ألفاظ قريبة الصلة بنفسه ، وقد سمى العلماء والنقاد هذه الألفاظ المتكررة فى شعر الشاعر (المعجم الشعري) ، ويعتبر هذا (المعجم الشعرى) أضواء كاشفة مسلطة على نفسية الأديب الشاعر . ولقد قمت أنا فى دراستى لشعر « أحمد زكي أبو شادي » في كتابي (أبو شادى وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث) بعملية مراجعة إحصائية ، اكتشفت فيها أن من الألفاظ الأكثر دورانا في شعره كانت ألفاظ « اليتم وما يشتق منه ، والحرق وما يشتق منه ، والعذاب وما يشتق منه » . ويوضح الأصول النفسية التى على أساسها تم اختيار هذه الألفاظ لاشعوريا والتى تشكل بعض معجمه الشعرى علمنا أنه نشأ يتيما بعد موت أمه ، وقد سأله أحد الصحفيين عن السر في الحزن الذى يغلف شعره فكانت إجابته : « ربما يرجع ذلك إلى الفرقة بين الوالدين وما تركته في نفسي من أثر » .

إن (المعجم الشعرى) وثيقة نفسية تستبطن دخيلة الشاعر ، وهو قرين « الفلتة اللسانية » التى يتلفظ بها الإنسان دون إرادة منه ، فتكشف عن أشياء كامنة في نفسه ، وإن حاول إخفاءها . وطبيعي أن يعتمد عليها الأطباء النفسيون في معالجة مرضاهم .

ولما كان تعامل الشاعر أو الكاتب مع اللغة تعاملا شخصيا قال القائل : (الأسلوب هو الرجل) ، ذلك أن اللغة في القاموس ألفاظ ميتة ، قابعة فى وجودها المردي المنعزل ، وهى تكتسب حياتها حينما تكون لبنة فى معمار لغوي هو الجملة التعبيرية التي يشكلها الشاعر أو الكاتب ، فتحمل بصمات نفسه ، وطبيعة مزاجه ، لذلك كان من العسير نسبة الكتابة الأدبية عامة إلى آخرين . وتحقيق الذات في الأسلوب ، وطبعه بطابع الشخصية التى تكتبه يجعلك ـ وأنت القارىء المتذوق لأساليب الكتابة ـ تفرق بين مقال كتبه طه حسين ومقال كتبه العقاد ومقال كتبه زكي مبارك . فطه حسين صاحب نفس هادئة ، وروح رضية ، ودراسته للغة الفرنسية قد طبعت أسلوبه باسترسال موسيقي ، يظهر في تقطيع الجملة فقرات منغمة . ولأصالة هذا الطابع التنغيمي لاتجد فرقا بين أسلوبه حين تقرؤه وأسلوبه حين تستمع إليه محاضرا . أما العقاد فهو صاحب مزاج حاد ، وقد كانت نشأته الأولى المكافحة ذات أثر في نفسه المتوترة التي كانت صاحبة كبرياء شديد . من هنا كانت عصبيته وكبرياؤه قرينة أسلوبه الذى يحمل طابع القوة ، ولصحوة وعيه وعمق إدراكه كان هذا المنطق القوي الصارم الذي استعلن به أسلوبه

أما زكي مبارك فهو فلاح « سنتريس » الأصيل ، أحد من أصوله الريفية سماحة الطبع ، وبساطة الفطرة ، فكان هذا الأسلوب الواضح الذى يدير الأسئلة ويجيب عنها ، ويشى بعدم الثقة في تلك النفس التى ارتدت صور الغرور المبالغ فيه . وقراؤه يعرفون شطحاته الكثيرة التي يزعم فيها أنه أشعر الشعراء ، وأكتب الكتاب على سطح الأرض ، وربما خففت من وقع هذا الغرور على قرائه روحه المصرية التى عرفت بخفة ظل فتحت له قلوب الناس .

وإلى جانب هذا (المعجم الشعرى) الذى أشرنا إليه ، الدال على نفسية الشاعر ، وإلى جانب أسلوب الشاعر أو الأديب الخاص به الذى على أساسه نستطيع معرفة كتاباته ، ولو لم يكن اسمه مقرونا بها ، هناك ما أستطيع تسميته (المعجم النفسي) للشاعر والأديب الكاتب ، وهو مصطلح سبق أن أشرت إليه في مقال من مقالاتي ، وإنني أدعو الشعراء والكتاب والنقاد لمناقشته ، حتى يأخذ مكانه فى الدراسات الأدبية إن اتفقت عليه الآراء .

فموقف قاصّ أو روائى من المرأة نتيجة لتجربة خاصة مؤلمة مرت به ، بحيث لاترى المرأة في أدبه القصصي أو الروائى إلا خائنة أو مرائية أو عديمة الأخلاق ، يشكل ظاهرة تندرج تحت المصطلح المقترح ، كذلك ظاهرة اللون الأبيض فى كتاب (الأسطورة والرمز) لجبرا ابراهيم جبرا التى تحكى عن الشاعر « دوبينيه » من أنه مرض وهو صبي صغير بحمى شديدة ، فتخيل امرأة مسربلة في بياض ، تقبله قبلة باردة ، فركبه رعب شديد ، فمن هنا ارتبط اللون الأبيض لديه بالرعب والخوف ، بينما البياض عند كل الناس الذين لم يمروا بمثل تجربته لايبعث فى نفوسهم إلا الراحة والهدوء . وهكذا شكلت هذه التجربة ظاهرة تدخل في معجمه النفسى ، وكذلك ظاهرة (التصغير) للتحقير المعروفة في شعر المتنبي ، ما سببها ؟ ولماذا تكثر في شعره دون شعر الشعراء جميعا ؟

إنها في حالة الإجابة عن هذه الأسئلة تدخل في (المعجم النفسي) للمتنبي ، ويكون شأنها في الدراسة الأدبية شأن (المعجم الشعري) تماما . ويطول بنا الكلام إن رحنا نتتبع بعض الظواهر التي تدخل فى (المعجم النفسي) للشاعر أو الأديب ، لكننا هنا سنذكر عددا قليلا منها للتدليل على أن هذه الظواهر النفسية أصلا يجب أن يوضع لها مصطلح ، يكون عنوانا لها كبقية المصطلحات الأدبية . من هذه الظواهر

مثلا ظاهرة الألوان وكثرة ذكرها فى شعر لوركا ، وصور الضوء الكثيرة في شعر شاعر الطبيعة ورد ورث ، وتصوير الالمان تصويرا يحط من شأنهم ، ويدل على كراهية شديدة في قصص « كاترين آن بورتر » . ولعلي استطعت في حدود قدرتي المتواضعة أن أعلّل ظاهرة « المطر » في شعر السياب ، والتحام الجمال واللذة والموت فى شعر يوسف الصائغ في بعض دراساتي .

« إن المعجم الشعري » و « المعجم النفسي » والأسلوب الشخصي الدال على كاتبه ، كل ذلك يرجع إلى « الذاتية » التي تؤكد الملامح الخاصة للشاعر أو الأديب ، والتى بدونها تفتقد الأصالة ، ويصبح النص الأدبي مشاعا مثل قولة (السلام عليكم) التي يقولها كل الناس .

فالذاتية وظهورها فى العمل الأدبي - كما نعرف جميعا - هي الطابع الذي لا يقوم أدب أو فن إلا به ، من هنا سقط أدب التقليد وأدب « الموضة » المتابع للتيارات السائدة ، ومن هنا كان الفارق بين ذاتية الأدب والفن وموضوعية العلم ، وعلى أساس من هذه الذاتية الشاملة التي تتضح فى (المعجم الشعرى) و (المعجم النفسي) الذى نقترحه ، وفي الأسلوب الشخصي المتميز ، يمكن كشف النصوص الأدبية المنحولة .

منتدى العربي

تعقيب

الموشحات والقدود حلبيّة أم حمصيّة ؟

بقلم : الدكتور سعد الله آغا القلعة *

قرأت في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر (كانون الأول ٨٨) مقالا بقلم الزميل الكريم الدكتور عمر موسى باشا ، حول أصل الموشحات والقدود . . هل هي حلبية أم حمصية . ؟ وقد أرجع الزميل الكريم أصولها بنتيجة مقاله إلى الشيخ أمين الجندي الحمصي بعد أن اكتشف لدى قراءته لديوانه أن أغلب أشعاره تغنى ضمن القدود المعروفة بالحلبية ، وقد رأيت أن أعقب على هذا المقال توضيحا لبعض الأفكار التي يمكن أن تكون قد ذهبت إلى أبعد من حدود الاستنتاج المنطقي .

* استاذ بكلية الهندسة بجامعة دمشق ، وأحد خبراء الموسيقا العربية الدارسين .

الموشحات :

وردت كلمة « موشحات » مرة في عنوان لمقال ، ومرتين فيه بشكل عرضي حيث أضيفت ، أو عطفت على القدود ، وكأنما القدود والموشحات شيء واحد ، أو شيئان متماثلان ، أو كأنما القدود هي شكل من أشكال الموشحات المتطورة ، ونلاحظ أن الدراسة انحصرت في الجانب الشعري دون النظر في الجانب اللحني . طبعا كلنا يعلم أن الموشحات ولدت كفن شعري في الأندلس بتحريض من الموسيقا الآتية من الشرق ، ولكن المهم هنا أنها انتقلت مع خروج العرب من الأندلس عبر اتجاهين : جنوبا إلى المغرب العربي ، وشرقا إلى الأقطار العربية في المشرق حيث كانت حلب هي المحطة الأولى . وفي حلب حافظ المطربون ، والملحنون عبر توالي الأجيال على ذلك التراث العربي ، ولكنهم إلى جانب ذلك أتوا بجديد فيه ، حيث لحنوا موشحات جديدة على نمط الموشحات القديمة ، والعلاقة بين ايقاع الشعر والايقاع الموسيقي فيها . كما وضعت في الكتب القديمة وخاصة « دار الطراز » لابن سناء الملك . وإن كانوا في أغلب الأحيان قد استعملوا الشعر العمودي أساسا للألحان . هذه الموشحات الحديثة دعيت بالحلبية ؛ لأنها لحنت في حلب ، وهي ليست كالقدود من الناحية اللحنية ، بل هي أعقد بكثير .

القدود :

إلى جانب الموشحات الحلبية ، كانت هناك القدود الحلبية . وهي ألحان قديمة جدا تداولتها حناجر الشداة حتى وصلت إلينا ، وقد نقلها إلى مصر مع الموشحات الأندلسية القديمة ، والحلبية الحديثة فنان اسمه « شاكر الحلبي » في المائة الأولى بعد الألف من الهجرة (كما جاء في كتاب الموسيقي الشرقي لكامل الخلعي) ، حيث حفظها عنه فنانو مصر ، وساروا في ألحانهم على منوالها .

هذه القدود كانت في أغلب الأحيان عامية الكلمات حلبية اللهجة ، (ولا زال أغلبها كذلك) وكانت الكلمات تتغير حسب الحالة . فأحيانا كانت دينية ، (وهنا من الممكن أن تصبح الكلمات بالفصحى) وأحيانا (دنيوية) على نفس اللحن ، وقد يوضع لها كلمات دنيوية أكثر جمالا وشاعرية وبالفصحى ، وهذه الحالة حديثة العهد . ولكن الكلام كان ينظم دوما على « قدّ » اللحن . ومن هنا جاءت التسمية بالقدود أي أن الكلمات كانت تكتب على نفس الوزن الشعري والقافية للكلمات القديمة ، أما لحنها فقد كان دائما بسيطا ، وبايقاع بسيط على عكس الموشحات ذات الجمل اللحنية المعقدة ، والإيقاعات المركبة .

وقد كان هذا هو دور الشيخ الجندي الأساسي أي نظم شعر فصيح على «قدّ» الكلمات العامية القديمة . وما دليلي على ذلك إلا ما جاء في مقال الزميل الكريم . حيث أورد بعض الأمثلة من ديوان الشيخ « أمين الجندي » ، ومعها عروض الكلمات الأصلية مثل : هيمتني تيمتني على عروض جوجحتني مرجحتني مع ذكر النغمة الموسيقية التي وضع عليها اللحن الأصلي .

وبعد

فلم تكن الغاية من هذا التعقيب التأكيد على حلبية القدود الحلبية ، وقد قلت : إنها قديمة لدرجة يصعب تحديد أصلها . ولكن كان لا بد من التمييز بين الموشحات والقدود لحنا ونظما ، وتبيان دور الشيخ أمين الجندي المهم في نظم الشعر الفصيح المقفى على « قدّ » عروض الكلام الأصلي العامي للقدود بحيث أصبحت أكثر ملاءمة للذوق الفني دون أن تكون الألحان التي وضعها ونظمها شعرا ـ إن وجدت ـ من الألحان التي يمكن أن ندرجها تحت عنوان « قدود » . □

لأن المسرح بمفهومه الاصطلاحي الدقيق وافد حضاري جديد ، تعرفت عليه مصر - كما تعرفت على الصحافة - في بداية نهضتها الحديثة ، فقد كان المألوف أن يكتب الصحفيون للمسرح . ولكن هناك نماذج رائدة دخلت الصحافة بعد شهرتها في عالم المسرح ، فأبدعت في المجالين ، مثل يعقوب صنوع ، وعبد الله النديم ، وفاطمة (روز) اليوسف ، وغيرهم ممن نقرأ عنهم في هذا المقال .

بين المسرح والصّحافة في مصر

بقلم : الدكتور أحمد حسين الصاوي

شهدت مصر مقدمات المسرح والصحافة ، إبان عهد الحملة الفرنسية فقد أصدرت سلطات الحملة صحيفتين فرنسيتين ، كما أصدرت مئات المنشورات العربية والفرنسية . وفي الوقت نفسه أقام الفرنسيون مسرحا لمجتمعهم ، عرضوا عليه عددا من الروايات ولم يفت مؤرخنا المعاصر للحملة عبد الرحمن الجبرتي أن يسجل هذا الحدث ، فكتب في « عجائب الاثار . . » يقول : « . . وفيه كمل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية . . . وهو المسمى في لغتهم « بالكمدي » ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة ، يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلي والملاهي ، مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة » .

وسجل هذا الحدث كذلك المؤرخ لاجونكير في كتابه عن الحملة الفرنسية . وزاد الأمر تفصيلا عندما قال : إن بونابرت كان وراء تشجيع إقامة هذا المسرح ، وأن لجنة الفنون بالمجمع العلمي المصري الذي أنشأته الحملة كانت تتولى تنظيم النشاط المسرحي مع غيره من الأنشطة الفنية الأخرى ، وبينما كانت حكومة محمد علي تستعد لإصدار صحيفة « الوقائع المصرية » ، أولى الصحف العربية ، كانت الجالية الفرنسية في مصر تستعد كذلك لإنشاء مسرح للتمثيل وهكذا واكبت الحياة المسرحية الحياة الصحفية منذ نشأتها ، وإن ظل المسرح محصورا في نطاق الجاليات الأوربية بالقاهرة والاسكندرية إبان عهد محمد علي وسعيد . ثم بدأ علية القوم من المصريين يهتمون بهذا الوافد الأوربي أيام الخديوي اسماعيل . ومرة أخرى نلاحظ تزامن

النهضة المسرحية والنهضة الصحفية أيام هذا الحاكم الطموح ، ففي الوقت الذي كانت صحافة الحكومة فيه تتجاوز حاجز الرسمية ، وتقترب من الجماهير وتتفاعل مع مشكلاتهم ، وتقدم لهم زادا متنوعا شهيا ، وبينما كان الحقل الصحفي يشهد مولد الصحافة الأهلية ، كانت الحكومة تبني دار الأوبرا الخديوية التي افتتحت في أواخر عام ١٨٦٩ م . وما لبثت مصر أن شهدت كذلك أول محاولة عملية لإنشاء مسرح عربي ، وكان على يد يعقوب صنوع عام ١٨٧١ م .

أسماء وأدوار

وكما اتسعت رحاب مصر تستضيف في كرم أبناء الشام الذين وفدوا إليها ، وساهموا مع إخوانهم المصريين في إقامة صرح الصحافة الأهلية ، فقد اتسعت كذلك - وفي الوقت نفسه - لاستضافة المسرحيين الشاميين الذين كانت لهم جهودهم في نمو المسرح العربي.

واطرد تقدم الحركة المسرحية ، كما اطرد تقدم الحياة الصحفية ، وتفاعلت كل منهما ، وما اضطربت به مصر من أحداث ، وما مرت به من محن ، وما حققته من انتصارات . ونما المسرح كما نمت الصحافة ، وتعددت مدارسهما ، وأصبحا من المكونات الأساسية لبنية المجتمع المصري .

وإذا طرحنا جانبا تلك العلاقة التقليدية المعروفة التي تقوم دائما بين الصحافة والمسرح ، من حيث إن الصحافة تتابع النشاط المسرحي ، فتعلم به قراءها ، ويتخصص من كتابها من يتناولون هذا النشاط بالنقد والتحليل ، على أساس أن ذلك من صميم العمل الصحفي ، فنستطيع القول بأن الصلة بين المسرح والصحافة في مصر اتخذت أبعادا أخرى أكثر عمقا ، وذات طابع خاص متميز .

ومن ذلك أن عددا من الصحفيين المرموقين اتجهوا إلى تزويد المسرح المصري ، عبر مسيرته الطويلة ، بمجموعة كبيرة من الروايات المنقولة والمبتدعة . وقد تراوح النقل بين الترجمة (عن الفرنسية أو الانكليزية) والتعريب والتمصير . نماذج هؤلاء :-

- **نجيب الحداد** : صاحب صحيفة « لسان العرب » ، ومحررها الذي أصدرها بالاسكندرية في أواخر القرن الماضي . لقد ترجم هذا الصحفي للمسرح روايتي « السيد » و « حلم الملوك » عن كورني ، كما عرب رواية « طبيب رغم أنفه » لموليير .

- **محمد عثمان جلال** : من أبرز تلاميذ رفاعة الطهطاوي ، من خريجي مدرسة الألسن . حرر « الجريدة العسكرية المصرية » مع زميله عبد الله أبي السعود ، وأصدر صحيفة « نزهة الأفكار » ، كما حرر في مجلة « روضة المدارس » . لقد قدم هذا الكاتب المبدع للمسرح المصري مجموعة رائعة من المسرحيات التي نقلها عن راسين وموليير ، ولعل أبرزها الكوميديات التي عربها زجلا عن موليير ، مثل « الشيخ متلوف » ، و « مدرسة الأزواج » ، و « مدرسة النساء » .

- **أنطون الجميل** : ناشر صحيفة « الزهور » ، ورئيس تحرير « الأهرام » بعد ذلك . كتب للمسرح عدة روايات ، كان أهمها « السموأل أو وفاء العرب » التي اقتبسها من التراث العربي القديم ، و « أبطال الحرية » التي كانت رد فعل لإعلان الدستور العثماني .

غير أن ما ينفرد به تاريخ الصحافة المصرية حقا ، في قصة علاقتها بالمسرح ، يتمثل في ظاهرة لا نجد لها نظيرا في غير مصر ، وهي أن بعض أعلام الصحافة المعروفين كانت لهم تجارب مسرحية ناجحة ، قبل اشتغالهم بالعمل الصحفي ، أي أنهم خاطبوا الجمهور من فوق خشبة المسرح ، قبل أن يمارسوا الاتصال به من خلال صفحات الصحف . وكان أبرز هؤلاء يعقوب صنوع وعبد الله النديم وروز (فاطمة) اليوسف . والحق أن كلا منهم جدير بحديث خاص .

تجربة يعقوب صنّوع

هو يعقوب بن رافائيل صنوع ، اليهودي المصري الذي عرفه تاريخ الصحافة المصرية علما بارزا من أعلامها . ولد بالقاهرة عام ١٨٣٩ م ، وفي صباه أتيح له أن يتعلم في إيطاليا على نفقة أحد الأمراء المصريين ، فأتقن عدة لغات . ولما عاد إلى مصر أخذ يقوم بتدريس الموسيقا والرسم وما يعرفه من اللغات الأجنبية لبعض أعضاء الأسرة الخديوية ، وغيرها من الأسر الكبيرة ، كما كان يلقي هناك بعض المقاطع التمثيلية بالإيطالية والفرنسية بين حين وآخر .

وكان نجاحه في هذه التجربة المحدودة النطاق حافزا له على أن يفكر في عام ١٨٦٩ م ، وهو في الثلاثين من عمره ، في تأسيس مسرح عربي .

تمكن صنوع من انشاء أول فرقة مسرحية للتمثيل باللغة العربية في مصر من الشباب ، وعرض أولى مسرحياته التي ألفها وأخرجها واضطلع بتمثيل أهم أدوارها ، على مسرح مكشوف بحديقة الأزبكية عام ١٨٧٠ م .

واصل صنوع تقديم عروضه ، واستطاع أن يجتذب إلى مسرحه كبار المصريين ، وعلى رأسهم الخديوي اسماعيل نفسه ، وأن يحظى بإعجابهم الشديد ، حتى أن الخديوي أطلق عليه لقب « موليير مصر » ، وأغدق عليه من عونه المادي ما مكنه من تطوير مسرحه والارتقاء بعروضه .

واستمر مسرح صنوع مزدهرا متألقا طوال عامين من الزمان . ولكن يبدو أن طبيعته الساخرة الناقدةغلبت عليه في بعض ما قدم من تمثيليات ، فأكثر من الإسقاطات السياسية التي تعبر عن موقفه تجاه تزايد النفوذ الأجنبي ومفاسد الجهاز الحاكم . وحدثت النتيجة المتوقعة ، فقد ضاقت السلطات بمسرح صنوع ، فأغلقته لخطورته على جهاز الحكم .

وعاش صنوع خمس سنوات عجاف ، حاول خلالها أن يجد متنفسا للتعبير عن أفكاره وآرائه بالخطابة والمحاضرة ، فيما أنشأ من منتديات أحيانا ، وبالكتابة في بعض الصحف أحيانا أخرى . ولكن السلطات كانت له دائما بالمرصاد ، تغلق منتدياته ، وتمنعه من الكتابة في الصحف . ثم أتيح ليعقوب من سعى له من أصدقائه لدى السلطات ، لكي ترفع عنه اضطهادها ، وتمنحه فرصة العيش الكريم . وفي الوقت نفسه كان المناضل المشهور جمال الدين الأفغاني ، يبث أفكاره النارية في تلاميذه ومريديه من الشباب ، على مختلف نزعاتهم وانتماءاتهم . ويرشدهم ويوجههم إلى شتى أساليب الكفاح ضد الظلم والاستبداد والتسلط الأجنبي . وكان صنوع من تلاميذ الأفغاني المقربين إليه ، وقد وجهه ونفرا من زملائه ، لما أنس منهم من استعداد ، إلى الصحافة كوسيلة من أهم وسائل الكفاح .

وهكذا - وبعد عدة تجارب لم تعش طويلا - أصدر يعقوب صنوع في عام ١٨٧٧ م صحيفة « أبو نظارة » التي كانت أول صحيفة فكاهية في مصر ، وأول صحيفة تنشر الرسوم الساخرة (الكاريكاتير) ، وأول صحيفة تستعمل اللغة الدارجة في تحريرها ، وأول صحيفة حادة النقد لاذعة اللهجة .

كانت هذه الصحيفة هي المنبر الذي اصطنعه صنوع ليبث من فوقه آراءه ، ويذيع أفكاره . ويعبر عن مواقفه . لقد استبدل بخشبة المسرح صفحات الصحيفة ، واستبدل بلسانه قلمه وريشته ، واستبدل بالتجسيد الحي للشخوص تجسيدا مكتوبا ومرسوما ، واستبدل بالحوار الناطق المسموع حوارا صامتا مقروءا .

واستطاع الممثل المطبوع في إهاب الصحفي الساخر أن يعبر بصدق في « أبو نظارة » عن واقع المصريين ، وأن يسجل آلامهم وآمالهم . وساعده ما استحدثه من أسلوب للعرض بالكلمة والرسم على أن يفوق نجاحه في الصحيفة نجاحه في المسرح ، فارتفع توزيعها ارتفاعا كبيرا

بمقاييس ذلك العصر ، وأدت بحق رسالتها ، فكانت وسيلة جماهيرية مقبولة بما تقدمه من مادة ساخرة ضاحكة . وكانت الصحيفة في الوقت نفسه أداة نضالية بما تكشف عنه من حقائق سياسية مرة ، وما تعرضه من مساويء الحكم

ولم يكن غريبا أيضا هذه المرة أن تفطن السلطات لخطر الصحيفة ، فتغلقها بعد أن صدر منها خمسة عشر عددا حافلة . وخرج « أبو نظارة » نفسه منفيا من البلاد في منتصف عام ١٨٧٨ م ، حيث استقر به المقام في باريس وهناك واصل إصدار صحيفته متخذا لها عدة أسماء ، فهي تارة « أبو نظارة » ، وتارة أخرى « أبو زمارة » ، أو « أبو صفارة » ، أوغيرها . وكانت كلها امتدادا لصحيفته القاهرية بكل ما تسمت به من مظاهر التأثر بتجربة صاحبها المسرحية ، وما ألفه من طرائق التعبير .

عبد الله النديم

هو الصحفي المناضل ، والوطني الثائر عبدالله مصباح ابراهيم . ولد بالاسكندرية لأسرة متواضعة ، ولكنها ذات نسب شريف ، وتعلم بالطريقة التقليدية السائدة في ذلك الوقت ، فحفظ القرآن الكريم ، والتحق بمسجد ابراهيم باشا لتلقي العلوم الدينية ، تمهيدا للالتحاق

● عبد الله النديم

بالأزهر . ولكنه لم يتم مسيرته التعليمية ، إذ غلب عليه حب الأدب ، وظهر استعداده لقرض الشعر والزجل ، وكان موهوبا في قوة الحفظ وبراعة الإلقاء .

وأمضى عبد الله عدة سنوات يطوف بين القاهرة وبعض بلدان الوجه البحري ، وينادم السراة (ومن هنا جاءت تسميته النديم) ، ويعاشر الدهماء ، وتقلبت به الأيام بين « الستر » والإملاق . وهو في أثناء ذلك يكتسب الكثير من المعرفة والخبرة ، وتلتصق بذاكرته الواعية ملامح مختلف الشخصيات ، وتنمو في كل يوم قدراته الفذة على قول الشعر وارتجاله وإلقائه

ثم التقى النديم بالداعية العظيم جمال الدين الأفغاني ، وحضر حلقاته وندواته مع غيره من خيرة شباب تلك الأيام المتطلعين الواعدين . وما لبث أن صار من أخلص مريدي الأفغاني وأقربهم إليه . ونجح المفكر الكبير في أن يوجه النديم إلى توظيف طاقاته الخلاقة وملكاته الفريدة في خدمة مجتمعه ،والى استثمار مواهبه المتعددة ، لتكون سلاحا للكفاح في سبيل تحقيق الأماني الوطنية .

عمل النديم بالثغر في الصحافة مع تلميذين آخرين من تلاميذ الأفغاني ، هما سليم النقاش وأديب اسحق ، في صحيفتي « مصر » و « التجارة » ، ثم في صحيفتي « المحروسة » و « العهد الجديد » ، وفي خلال ذلك أسس الجمعية الخيرية الإسلامية ، التي جعل من أغراضها إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفقراء مجانا ، وبث الروح القومي في البلاد

وسرعان ما أنشئت المدرسة ، وتولى النديم إدارتها وتدريس الآداب والخطابة لتلاميذها ، كما كوّن من بينهم فريقا للتمثيل ، قام بتدريب أعضائه ، وتأليف المسرحيات وإخراجها لهم ، وبالاشتراك معهم في التمثيل .

واضطرت بعض الظروف غير المواتية النديم إلى ترك الجمعية والمدرسة ، ثم استقل بعمله الصحفي ، فأنشأ عام ١٨٨١ م صحيفة

« التنكيت والتبكيت » التي كانت نموذجا فريدا لمسرحة الكتابة الصحفية ، يشبه ما فعله صنوع من قبل في صحيفته « أبو نظارة » .

حرر النديم صحيفته بالفصحى والعامية معا ، متخذا من كل منهما أداة يخاطب فريقا من القراء . وكانت معظم موضوعاته أقرب إلى الفصول المسرحية منها إلى المقالات . فكل منها يتناول حكاية أو صورة متخيلة ، شخوصها نماذج لأنماط معروفة في المجتمع ، ويعرضها الكاتب عن طريق الحوار والسرد القصصي . وقد فاق النديم سلفه « صنوع » في دقة استخدامه للعامية ، وبراعة التلاعب بألفاظها ، وفي حدة سخريته ، كما فاقه في رسم صور الشخصيات وإنطاقها بما يناسبها من لهجة وألفاظ .

تصاعد المد الثوري في مصر ، واستقطبت الحركة الوطنية بقيادة عرابي خيرة العناصر المناضلة . وسرعان ما انضم إليهم النديم بصحيفته التي بدل اسمها في أواخر عام ١٨٨١ إلى « الطائف » ، وجعلها لسانا للثوار ولمجلس شورى النواب ، ونقل مركزها إلى القاهرة .

واختلفت صورة « الطائف » تماما عن صورة سابقتها ، فاختفت منها اللغة العامية ، واقتصرت لغة تحريرها على العربية الفصحى ، واختفت منها الموضوعات « التشخيصية » التي تعتمد على الحوار والحكاية والخيال . وعندما نشب القتال بين الجيش المصري والقوات البريطانية الزاحفة لاحتلال مصر ، أدت هذه الصحيفة مهمتها في تغطية أنباء المعارك ، وفي محاولة رفع الروح المعنوية للجنود .

انتهت الثورة - كما نعلم - بالإخفاق . وحوكم زعماؤها ، فمنهم من نفي ومنهم من سجن . أما النديم فاختفى عن الأنظار ليبدأ مرحلة جديدة من النفي الاختياري داخل الريف المصري ، استمرت أكثر من تسع سنوات ، انتقل فيها من بلد إلى بلد ، شريدا ومطاردا خائفا يترقب .

صحيفة الأستاذ

ثم شاء حظه أن يكتشف أمره ويقبض عليه وينفى من مصر . ثم عفا عنه الخديوي الشاب عباس حلمي ، فعاد إلى وطنه ليبحث من جديد عن منبر يمارس منه ما كان يجيده من فنون « التعبير » الهادف . واستطاع النديم أن يحصل على ترخيص بإصدار صحيفة باسم شقيقه ، أطلق عليها اسم « الأستاذ » ، وظهر أول أعداد هذه الصحيفة التي كانت آخر منابر النديم ، في أغسطس عام ١٨٩٢ م .

التزم النديم منذ البداية أن يحرر الصحيفة على غرار « التنكيت والتبكيت » بالعربية والعامية ، ولكنه حرص - نتيجة لتغير الظروف - على أن يمس المسائل العامة برفق . فأخذ يعالج عدة موضوعات « إصلاحية » ، كالتعليم والتصنيع والوحدة الوطنية ، ويوغل في هذه الموضوعات بخفة ولباقة تجنبانه المزالق والعثرات .

وكان النديم في الوقت نفسه قد تخلى عن بعض حذره ، وجاوز التلميح إلى شيء من التصريح ، فبدأت صحيفته تقلق السلطات . وما لبثت نغمة النقد والمعارضة أن ارتفعت ، واحتدت لهجة النديم ، فأصبحت مساجلاته مع خصومه هجوما سافرا عنيفا . وكان لا مفر من المصير المحتوم ، فأغلقت الصحيفة بعد اثنين واربعين عددا صدرت في عشرة أشهر ، وبعد أن أثرت أبلغ تأثير في الحياة المصرية . ونفي النديم مرة أخرى فلحق بأستاذه الأفغاني في الآستانة ، حيث قضيا سنوات عمرهما الأخيرة .

روز اليوسف الفنانة

روز اليوسف هو الاسم الذي اشتهرت به السيدة فاطمة اليوسف ، الصحفية المعروفة ، عندما كانت ممثلة مرموقة ، تعمل مع أكبر الفرق المصرية ، وتؤدي أدوار البطولة في أفضل ما قدمت تلك الفرق من مسرحيات . والحق أن هذه السيدة تقدم نموذجا فذا للجمع بين العمل

المســرحي والعمـل الصحفي في سيــرة حيـاة واحدة .

ولدت فاطمة محمد محيي الـدين اليوسف في طرابلس ، بلبنان ، في أواخر القرن المـاضي ، ومرت بظروف بالغة القسـوة في طفولتهـا . ثم وفدت على مصر في أوائل هذا القرن ، فيمن وفد من أبناء سوريا ولبنان ، يلتمسون الأمن وخفض العيش وراحة البال .

وتعلقت الصبية الرقيقة الحميله بالتمثيـل ، بعد أن بهرها ما كانت تداوم على مشاهدته من عروض لأكبر الفرق المسرحية في ذلك الوقت ، مثل فرقة اسكندر فرح ، وفرقة أولاد عكاشة ، كما تعهدها الفنان الشهير عزيز عيد برعايته تثقيفا وتدريبا وتوجيها ، حتى أصبحت من أبرز ممثلات فـرقته . ثم عملت مـع فرقـة جـورج أبيض ، وبعدها فـرقة يـوسف وهبي ، وأصبحت تحتل مكان الصدارة بين ممثلات المسرح المصري . وقد أجمع نقاد زمانها ومعاصروها ، ممن شاهدوها أو زاملوها ، على أنه منذ عرف المسرح في مصر لم تخط فوق خشبته ممثلة أجادت وأمتعت كما أجادت وأمتعت روز اليوسف .

وفي عام ١٩٢٥ اعتزلت روز اليوسف التمثيل المسرحي ، وهي في أوج مجدها وذروة اكتمالهـا ونضجها ، وبدأت تعد لمشروع جديد جريء . لقـد أرادت الممثلة الكبيرة أن تستبـدل بخشبـة المسـرح منبرا آخـر ، تخاطب منـه الجماهـير ، واختـارت أن يكون هـذا المنبر صفحـات مجلة جديدة ، صدر العدد الأول منها في أواخر العام نفسه .

روز اليوسف المجلة

وكان هدفهـا من إصدار هـذه المجلة ، التي جعلتهـا تحمل اسمهـا الذي اشتهـرت به ، أن تكون مجلة فنية ذات مستوى رفيع ، تعنى بشئون المسرح والتمثيل في المقام الأول ، وتعمل على نشـر الـوعي الفني ، وتحمـل رسـالـة النقـد الموضوعي الهادف ، كما تهتم بتأكيد قيمـة الفن

● روز (فاطمة) اليوسف .

المســرحي ، ومـا ينبغي لأبـطاله من تقـديـر واحترام .

وقد استعانت روز اليوسف بعدد من صفوة شبـاب المثقفين في ذلـك الوقت لكتـابة مختلف الموضوعات الفنية والأدبية ، كما استعانت ببعض رسـامي « الكاريكـاتـير » وكتّاب الفكـاهـة ، لتخفف من طابع الموضوعـات الجادة في المجلة وتسبغ عليها شيئا من المرح .

ولم يكن الطريق معبدا أمام المجلة الجديدة ، فالقراء لم يألفوا هذا اللون من الصحف التي تركز اهتمامها على ما يتصل بفنون المسـرح والتمثيل والتصوير ، هذا إلى جانب « بدعة » أن تتـولى « سيـدة » إصـدار مـثـل تلك المجلة ، ودهشـة النـاس أو استنكارهم لقيـام ممثلة مرمـوقـة ، لم تعـرف سـوى خشبـة المسـرح مجـالا لبـروزهـا وتفـوقهـا ، بخـوض تجـربـة إصـدار الصحف وتحريرها .

ولعـل روز اليوسف كـانت تحس بما سـوف تواجه به من مثل هـذه الاعتراضـات ، عندمـا نوهت في افتتاحية العدد الأول من المجلة بسمة « التعبـير » المشتركـة بين التمثيـل والكتـابـة ،

وأكدت أن الممثل الحق إذا كان مؤمنا بفنه وأثره في التهذيب ، ثم وجد من وقته متسعا ليلهو ، أو تولاه سأم من تنقله فوق المسرح ، عمد إلى القلم يداعبه أو يبثه شجوه ، ويستجديه طمأنينة وسلاماً » .

ولم يكن من المنطقي أن تستمر مجلة مثل روز اليوسف في الظهور موجهة عنايتها في المقام الأول إلى الفنون وما يتصل بها ، دون أن تعرض للمسائل العامة . فإن ظروف مصر في العشرينات ، وما كانت تضطرب به حياتها من صراعات بين مختلف القوى السياسية ، وآمال وتطلعات شعبية ، وأفعال وردود أفعال في شتى مجالات التطور والنمو ، حتم أن تلتفت المجلة إلى معالجة تلك المسائل ، وساعد على ذلك أن صاحبة المجلة نفسها كانت سيدة فائقة الحس تؤرقها هموم بلدها وتشغلها آماله وآلامه .

ومن ثم بدأت المجلة تمس الأمور العامة مسا رفيقا وما لبثت أن أوغلت في تناول مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من منطلق ما كانت تجيش به نفس صاحبتها ونفوس معاونيها من الكتاب والمحررين من مشاعر وطنية صادقة وجارفة .

ومضت روزاليوسف تدافع عن منجزات ثورة ١٩١٩ م ، وعن حقوق الشعب ومكتسباته الدستورية ، وتحارب الظلم والرجعية والاستبداد . وتعرضت من أجل ذلك إلى الكثير من العنت والاضطهاد ، فصودرت المجلة ، وأغلقت عدة مرات ، وسجنت صاحبتها كما سجن محرروها ، ولكن ذلك لم يثن تلك السيدة المناضلة عن المضي قُدُماً في طريقها الحافل بالصعاب .

وجعلت روز اليوسف من مجلتها مسرحا تشخيصيا من طراز فريد ، أرست به قواعد مدرسة ذات خصائص متميزة في حقل الصحافة المصرية بخاصة والعربية بعامة ، فمنذ بدأت المجلة تتحول عن طابعها الفني البحت إلى الناحية السياسية أخذت تستعين بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) على تجسيد الأفكار والمواقف وتبسيطها ولم تكن هذه الرسوم قد تطورت إلى المستوى التعبيري (الكارتون) الذي نألفه اليوم في الصحافة ، والذي يحتاج الرسم فيه إلى أقل الكلام لنقل الفكرة أو الرأي الساخر إلى ذهن القارئ ووجدانه ، وإنما اعتمدت تلك الرسوم دائما على « الحوار » المكتوب . . . تستكمل مقومات رسالتها فقد ابتدع رسام روز اليوسف عدة شخوص نماذج ، ظلت من المعالم الثابتة للمجلة ، ولما سار على نهجها من صحف حتى سنين صوبه

وأضافت روزاليوسف إلى ذلك الفن الصحفي الساخر عنصرا فنيا جديدا ، هو الرجل السلس الرشيق . بذلك تكون من الرسوم وما يصحبها من حوارات بالنثر أو الزجل لوحات (تشخيصية) رائعة ، أدت مهمتها في النقد السياسي والاجتماعي الساخر على أكمل وجه .

وواصلت الممثلة الصحفية مسيرتها جهيرة الصوت ، حادة النبرة ، لاذعة النقد ، تخوض بمجلتها الصعاب تلو الصعاب ، لا تلين لها قناة ، ولا تخشى في الحق لومة لائم ، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٥٨ ، بعد أن كان ولدها قد حمل أمانة المجلة ، التي ما زالت تعيش وتؤدي رسالتها علما من أعلام الصحافة العربية . □

* وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق .

(أحمد شوقي)

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

بالإرادة وحدها يتغلبان على الشلل

● يؤثر عن شكسبير شاعر الانكليز المعروف قوله : حيثما توجد الإرادة تنفتح الأبواب وتنشق الطرق ولعلنا نستطيع أن نقول إضافة إلى ما قاله الشاعر « ويهزم الأمراض حتى الشلل نفسه » . هذا على الأقل ما تؤكده قصة ويات حريفت وزوجته هور حريفت ، فقد تحابّا وتزوجا سنة ١٩٨٦ ، وتطلعا بحماس شديد إلى ثمار الحب الطيبة ، البنين والبنات

وشاءت الأقدار أن يصاب العروسان بالشلل النصفي ، الشلل الذي يصيب النصف الأسفل من الجسم (Paraplegic)، فيفتك بحيوية ذلك النصف ، ويجعل الإنجاب فضلا عن الحركة ، ضربا من ضروب المستحيل . وعلم الزوجان بالمصيبة الكبرى ، وأدركا ما أكده لهما الأطباء ، من أن ثمار الحب الطيبة ، وغيرها لم تعد متاحة لهما .

ولكن العروسين مفطوران على العلم وحب البحث ، لا عجب إذن أن انكبا على دراسة آخر التطورات العلمية التي شهدها مجال الحمل والولادة في السنوات الاخيرة ، ثم بدا في إجراء التجارب العملية .

وشملت أبحاثهما أساليب التلقيح (أو الإخصاب) الصناعي ، وهي الطريقة التي طورها العلماء ، ومضوا في تطبيقها على الماشية في الشهور الأخيرة . ومما يذكر أنها طريقة مؤلمة جدا ، حتى اضطر الزوج إلى إجراء تخدير شامل لكل جسمه من أجل تطبيقها ، واضطر أيضا إلى تطبيقها والقيام بعمليات التجميع والتخدير تلك ثماني مرات مختلفة ، حتى كانت المعجزة ، معجزة الطب في سنة ١٩٨٨ ، فقد رزق العروسان المشلولان طفلة حلوة ، وذلك في ١٤/٨/١٩٨٨ ، فقام بذلك دليل آخر على صدق ما قاله شكسبير .

■□□

● أثبتت الدراسات التي أجريت في افريقيا أن الختان (طهور الذكور) يكسب المختون مناعة ضد بعض الأمراض الخطيرة ، تبلغ (٨) أضعاف المناعة التي يتمتع به الذكور غير المختونين . وتشمل تلك الأمراض مرض السفلس والهربز ومرض الايدز أيضا .

وقد أجريت الدراسات المذكورة في نيروبي . وتناولت جماعات الرحال الذين يترددون على بيوت الدعارة ، والذين أثبتت الفحوص أن ٨٥٪ منهم

مصابون بمرض الايدز الكامن ، والغريب أن إصابتهم هذه لم تكن دائما نتيجة انتقال الفيروس بالعدوى عن طريق الجماع ، وإنما كانت في بعض الأحيان نتيجة استعداد الذكور غير المختونين لالتقاط الفيروس الذي حملته إفرازات المومسات ، وذلك بحكم كونهم غير مختونين .

■□□

هنيئا للمصابين بقصر النظر !

● ذهب علماء دانمركيون ، في بحث لهم ، نشرته مؤخرا مجلة لانست (المجلة الطبية البريطانية المعروفة) إلى أن قصر النظر (الحسر) قد يصيب المرء تبعا لحرصه في الطفولة على « استكشاف بيئته القريبة منه استكشافا بصريا » ، وأكدوا أن مثل قصر النظر في ذلك كمثل الذكاء ، فالطفل الذي اعتاد « التجوال البصري » في الصغر ، يحقق مستوى أعلى للذكاء في الكبر ، وقد أجرى البحث المذكور فريق من أساتذة جامعة كوبنهاجن ، يرأسهم البحاثة تيرديل (T. W Teasdale) ، وذلك بالتعاون مع معهد أبحاث متخصص في آفة قصر النظر (Myopia) . أما الأشخاص الذين أجريت الدراسة عليهم فنفر من المجندين الذين تناهز أعمارهم ١٨ سنة .

■□□

ماذا عن المشاريع العملاقة ؟

● قد يتساءل المرء : ماذا جرى للمشاريع العلمية العملاقة ؟! فمنذ اكتمال مشروع المكوك الامريكي الذي كلف تطويره ما يقارب (١٠,٠٠٠) مليون دولار وأخبار المشاريع الضخمة لاتنقلها إلينا المجلات العلمية بالكثرة التي ألفناها فيها قبل ، ترى هل هذا صحيح ، أم أن المشاريع العملاقة كثيرة ، وأخبارها أيضا كثيرة ، مع الفارق بأن هذه الأخبار قد تكون مغمورة ، ولا يسهل العثور عليها في غمرة الطوفان ، طوفان التقدم العلمي الزاخر ، الذي تتكاثر أخباره يوما بعد يوم ؟!

نذكر من هذه المشاريع « مشروع الصادم الأمثل ذا الموصلات الفائقة » (Super Conducting Super Collider) وتحتاج معدات هذا الجهاز إلى نفق يؤويها ، وأن طول هذا النفق يبلغ نحو ٧٥ كيلومترا ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع أكثر من (٦٠٠,٠٠٠) مليون دولار ، وقد بلغت إحدى الدفعات التي رصدها الكونجرس الامريكي لأعمال البحث والتطوير الخاصة بهذا المشروع ٢٥ مليون دولار . ولن تستكمل الأعمال في هذا المشروع قبل عام ١٩٩٦ ، أما المهمة الموكولة إليه فباختصار شديد هي سبر حقيقة المادة ، وتفهم بنيتها ، وإلقاء الضوء على نشأة الكون الأولى .

ونذكر أيضا مشروع مفاعل الاندماج النووي الذي سيوفر الطاقة النووية النظيفة الرخيصة بكميات هائلة ، وذلك نتيجة الاندماج لا الانشطار في الذرة ، بل نواة الذرة ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع (١٠٠٠) مليون دولار .

على أن المشاريع العملاقة ليست وقفا على الفضاء ، والمادة ، والطاقة ، فالكثير منها منصب على بنية الإنسان وبيئته .

فثمة جهاز طموح جدا يستهدف تحديد المواد الكيماوية الموجودة في الدنا (DNA) ، وعددها لا يقل عن (٣٠٠٠) مليون مادة ، بحيث يصبح في مقدور الأطباء تشخيص عدد كبير من الأمراض الوراثية ، كالسرطان وتصلب الشرايين ، ومعالجة عدد من تلك الأمراض معالجة ناجعة . وسيستغرق العمل في هذا المشروع ما بين ١٠ أعوام إلى ٢٠ عاما ، وستبلغ تكاليفه ٣٠٠٠ مليون دولار .

وليس حظ البيئة بأقل من حظ الطب من المشاريع العملاقة ، ولكن العمل في مشروعها الضخم جدا لن يبدأ قبل سنة ١٩٩٢ ، ولا تعرف على وجه الدقة تكاليف هذا المشروع ، ولكنها تبلغ ملايين الملايين من الدولارات ، فهو يستهدف تحديد العوامل العديدة التي تتفاعل فيما بينها وتؤثر قليلا أو كثيرا على البيئة والمناخ العالمي ، أي الذي اصطلح العلماء على تسميته (Geosphere – Biosphere) ، وحظر تلك العوامل .

■□□

● منذ نحو ثلاثين عاما والتجارب تجرى على قدم وساق لنوع جديد ممتاز من ورق الجرائد NEWSPRINT ، ويستخرج هذا الورق الجديد من نبات افريقي قديم ، يعرف باسم كناف Kenaf ، ويمتاز هذا النبات بسرعة نموه ، ويمتاز الورق الذي يستخرج منه بلمعان يفتقر إليه ورق الجرائد ، وبمزيد من القوة والمتانة ، وبمحافظته على لونه الأبيض ، وبعدم الاصفرار مع الزمن ، وبثبات أحبار الطباعة عليه ، وقلة ما يحتاجه منها ، بحيث لا تكاد تتسخ اليد التي تمسك بجريدة مطبوعة على ورق الكناف

ويبدو أن ورق (كناف) هذا قد اجتاز المرحلة التجريبية المخبرية ، وهو الآن قيد التجارب الميدانية الواسعة ، التي تجريها سبع صحف . على نطاق واسع ، هذا إذا لم نقل : إنه في سبيله إلى مرحلة الانتاج الصناعي الواسع النطاق . وقد أنشئت مصانع عديدة لإنتاجه .

وأول هذه المصانع قائم في تكساس قرب بلدة ماك الن ، وثانيها قائم في مدينة مونتريال الكندية التي تعد ثاني أكبر منتج لورق الجرائد في العالم ، أما ثالث مصانع (كناف) ففي كونيزلاند ، باستراليا ، ورابعها في فرنسا . وستبدأ هذه المصانع إنتاجها في مستقبل قريب جدا ، سنة ١٩٨٩ ، و١٩٩٠ وسنة ١٩٩١ .

والسؤال الذي يطرح هو : هل في الإمكان زراعة نبات (كناف) في الوطن العربي ؟! وإن كان ذلك ممكنا فلم لا تقبل على زراعته الهيئات أو الحكومات ؟ ولم لا تبادر إلى إنشاء مصانع ورق (كناف) من أجل التصدير ، فضلا عن الاستهلاك المحلي ؟ ومن يدري فلعلنا نحقق الاستغناء عن استيراد ورق الجرائد من فنلندة وكندا والنمسا في مستقبل غير بعيد . !

سلامة البشرية في سلامة البيئة

وأخيرا بصمات الجينات الوراثية

● كانت قفزة كبيرة في تاريخ الجريمة والقضاء حين نجحت الهند في الاعتماد على بصمات اليد محكا لإثبات الهوية الشخصية وفي تطوير الأسلوب المعمول به عالميا للافادة من ذلك المحك في شتى المعاملات والدعاوى . ولانتعرف على وجه الدقة متى كانت البداية في شبه القارة الهندية ، ولكننا نعرف أن الانكليز حذوا حذو الهند سنة ١٩٠١ م فاتخذوا من بصمات الأصابع دليلا لإثبات هوية الأفراد ، سواء في المعاملات العادية أو في الجرائم ، وفي تحديد هوية مرتكبيها وانتشر أسلوب بصمات اليد في مشارق الأرض ومغاربها ، واستأثر بثقة الحكومات والهيئات والأفراد جميعا ، ذلك أن بصمات اليد لأي فرد من بني الإنسان فريدة ، وتختلف عن بصمات أي فرد آخر غيره ، أضف إلى ذلك أنها لاتتغير ، بل تلازم صاحبها ، وتبقى المحك المميز لهويته حتى آخر يوم من حياته . حقا قد تضعف أو تنطمس بعض معالمها كثيرا أو قليلا في خريف العمر ، لكن معالمها الأساسية تبقى كما هي لاتتغير .

ثم كانت القفزة الأخرى سنة ١٩٦٦ حين اكتشفوا في امريكا بصمات الصوت ، وقد تمكنوا من تسجيل أو تصوير نمط الخطوط التي يحدثها صوت المرء ، واعتقدوا أنها فريدة كبصمة اليد ، لكنهم مالبثوا أن اكتشفوا ضعف بصمات الصوت واحتمالات تكررها كثيرا فعمدت المحاكم في أمريكا إلى حظرها ومنع الاعتماد عليها في القضاء سنة ١٩٧٤ .

وأخيرا جاءت القفزة الكبرى قفزة البصمات الجينية أو الوراثية ، وهذه فذة فريدة ١٠٠٪ ، تصحح في اتباع الهوية الشخصية في مجالات مهمة يتعذر على بصمات اليد الاقتراب منها .

ونذكر من تلك المجالات مجال جرائم الاغتصاب ، ومجال إثبات صحة الأبوة أو نفيها ، وهي ذات خطورة كبيرة في قضايا الإرث وقضايا الهجرة ، لاسيما الهجرة إلى الولايات المتحدة الامريكية . ونذكر أيضا مجال التعرف على هوية الميت بتحليل رفاته ، ذلك أن البصمات الوراثية موجودة في كل أعضاء جسم الإنسان ، في دمه وشعره وجلده ومنيه ، بحيث يستحيل على المجرم أن يفلت من العدالة بحجة عدم توافر الأدلة الكافية ، إذ لابد أن يترك أثرا ما في موقع الجريمة ، ولابد لذلك الأثر من أن يدين صاحبه أو يبرئه لدى تحليله وراثيا ، فمتى وجد الاثر وجد الدليل القاطع لامحالة ، وذلك بالتحاليل الوراثية .

البصمات الجينية
بصمات الجينة الوراثية
كما تدل عليها نماذجها

والتحاليل الوراثية مازالت في أول عهدها ، فقد ظهرت في الولايات المتحدة لأول مرة سنة ١٩٨٧ ، واستغرق تطويرها بعض الوقت ، حتى كانت القضية الأولى التي اعتمدت فيها البصمات الجينية في شهر نوفمبر ١٩٨٧ ، وكانت قضية اغتصاب ، فصلت فيها إحدى محاكم فلوريدا في مدينة أورلاندو ، ولم يتجاوز مجموع القضايا التي اعتمدت البصمات الوراثية حتى الآن ١٥٠ قضية ، وقد نظرت فيها المحاكم في ١١ ولاية من الولايات المتحدة الامريكية .

■■□□

نعود الآن الى تقرير كبير الجراحين الأمريكي أيفريت كوب ، لنستكمل ما بدأناه في العدد السابق .

يصل النيكوتين الى مخ المدخن في غضون ٧ ـ ١٠ ثوان من اشعال السيجارة ، وهذه سرعة فائقة وتعادل ضعفي السرعة التي تصل بها المخدرات ، وثلاثة أضعاف السرعة التي يصل بها الكحول الى مخ الانسان .

ولا يكاد النيكوتين يصل المخ حتى يحدث آثارا تشبه آثار الأدرنالين والاستيلكولين ، والأول هرمون بينما الثاني موصل أعصابي قوي neurotransmitter من شأنه أن يحرض جهاز الانذار في مخ الانسان .

وهكذا يصبح المدخن ، لدى وصول النيكوتين الى مخه اكثر يقظة وحضورا ذهنيا ، ولربما أسرع بالتفكير أيضا ، ولعله يصبح أيضا أهدأ بالا تبعا لما يفرزه النيكوتين من مادة مخدرة طبيعية تعرف باسم (بيتا أندروفين)

ويمضي المدخن في تدخينه ويتزايد النيكوتين في الدم ، فيزداد الوجه شحوبا ويتضاعف خفقان القلب ويرتفع ضغط الدم ، ويترتب على ذلك ضيق في الأوعية الدموية وضعف في الدورة الدموية على الأخص ، لا سيما في الأطراف التي لا تلبث أن تشعر ببعض البرودة ، ويتسبب ذلك بترخية العضلات والحد من شهية الطعام .ويخزن جسم المدخن النيكوتين في دمه ، ويواصل المدخن تدخينه مكرها ان لم يكن راغبا ، وذلك لكي يحافظ على كمية النيكوتين في الدم ، ويضمن بقاءها ثابتة غير منقوصة ، وقد دلت التجارب على أن ٣٠٠ ـ ٤٠٠ (شفطة) تدخين يوميا تمثل الحد الأدنى الذي لا غنى عنه للابقاء على محتويات النيكوتين في الدم ، وهذه (الشفطات) هي التي تتحكم بمزاج المدخن وأدائه ، وهذا هو سر الادمان على النيكوتين .

لقد بلغ هذا الادمان من السيطرة على الانسان أن ذهب الكثيرون الى التأكيد بأنه يفوق ادمان الهيروين طغيانا ، وان الاقلاع عن التدخين قد يكون أصعب مثلا من الاقلاع عن تعاطي الهيروين ، ولعل هذا صحيح ما دمنا نسقط من اعتبارنا أو نغفل عن أهم مقومات الاقلاع ، أعني قوة الارادة .

□

أنظف مدينة في العالم ..

هنا نستطيع أن نتنفس بعمق ،

فالهواء بلا ملوثات ،

والشوارع بلا مهملات ،

لا أعقاب سجائر ولا نفايات ،

هكذا يراها كل من زارها ،

وهكذا رأيناها ونحن نتنقل في جزيرة الزهور ،

والعجائب ، والمتناقضات .. سنغافورة .

قالت لنا وهي تداعب باقة من زهور الأوركيد :

- انتم الآن في أجمل حديقة في العالم ، ألا تشعرون أنكم تتبخترون في طرقات الجنة ؟ الحدائق ، والورود ، والأشجار ، والخضرة ، والماء الرقراق ، وزقزقة العصافير ، وتغريد البلابل ، وموسيقا الملائكة ، والحور الحسان ، وعبير الاوركيد والريحان ؟ !

كنا حينئذ في قلب « سنتوزا » ، الابنة البكر لسنغافورة ، جزيرة الأحلام والجمال والأعاجيب .

قبل سنوات قليلة لم يكن هناك سوى تلال سوداء ، يمرح في وديانها وعلى سفوحها مئات القراصنة والمهربين ، وتسرح في غاباتها النمور والقرود ، ولم تعرف لنفسها اسما سوى « جزيرة الموتى السوداء » ، إذ كانت منفى القراصنة الملاويين . وحين اكتشف الانجليز موقعها الاستراتيجي مع نزول الجنرال ادوارد ليك بها عام ١٨٢٧ كان أول ما قاله : « إن أي عدو يتمكن من النزول بقواته على أرض هذه الجزيرة ، يستطيع أن يكون سيد المنطقة كلها » . ولهذا فقد جعلها الانجليز قاعدة مدفعيتهم الثقيلة ، للسيطرة على جنوبي بحر الصين ، ولكن هذه القاعدة المحصنة لم تستطع الصمود طويلا حين غزا اليابانيون سنغافورة ، في الحرب العظمى الثانية . في ذلك الوقت كانت المدفعية كلها موجهة نحو البحر ، فعجزت عن تحويل فوهاتها حين جاء الهجوم من الشمال ، فكانت الهزيمة الساحقة للانجليز الذين عجزوا عن استعادتها الا بعد سقوط اليابان !

الجنة العائمة

اختلف الأمر كله منذ عشرين سنة فقط ، ففي عام ١٩٦٨ ، ومع النهضة الحديثة لسنغافورة ، تطورت « جزيرة الموتى السوداء » ، لتصبح منتجعا يحمل اسم « سنتوزا جنة الأحياء » ، وامتد التلفريك الكهربائي ، ليطل الناس من عل ، قبل أن يهبطوا لينعموا بالجنة العائمة الخضراء !

المشهد من نوافذ التلفريك كما رأيناه بدا لنا خلابا رائعا ، ففي المواجهة جزيرة سنتوزا بحدائقها وغاباتها ومباهجها وألوانها ومغانيها وزهورها وتلالها تنتظر هبوطنا . فإذا عدنا بأبصارنا الى النافذة الخلفية وجدنا الجزيرة الأم « سنغافورة » شامخة بعاصمتها وشواطئها التي

تتنافس أرقى مدن العالم ، وهي تستلقي في غفوة حللة ، سابحة في مياه بحر الصين الجنوبي ، الواقع في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة الملايو ، بطول ٤٢ كم ، وعرض ٢٣ كم على مساحة تبلغ ٦٢١ كم٢ ، محتضنة ٥٩ جزيرة صغيرة ، يعيش عليها ما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة ، متوسط دخل الفرد منهم لا يقل عن ١٠ ألف دولار سنغافوري في السنة ، بما يساوي حوالي ٨ آلاف دولار أمريكي ، وهو من أعلى الدخول الفردية في العالم الثالث .

ونغادر التلفريك لنتجول بين أنحاء سنتوزا ، الجنة العائمة .

أحد أجمل ماشاهدناه في سنتوزا الطريقة التي استطاعت أن تجمع بين ملامح الغابات والخضرة الاستوائية مع الشواطيء الرملية الناعمة البيضاء . عندما اخترق القطار الضيق بنا الغابات الخضراء الممتدة على الجانبين شهدنا الجمال الاستوائي ، بأشجاره المثمرة المميزة التي تتقافز بينها القردة والنسانيس ، ومن تحتها القنوات والجداول ، تتلوى مخترقة أرض الغابة .

في كل مكان تتناثر الملاعب الرياضية للكبار والصغار ، بما فيها ملاعب التنس والجولف وأحواض السباحة والسباقات المائية والتزلق ومنتجعات الاستجمام والراحة على شاطيء البحر . وليس أروع من مشهد النافورة الموسيقية الراقصة ، بتشكيلاتها المائية ، وأضوائها المتراقصة ، وموسيقاها التي تقدم أشهر أعمال الموسيقيين العالميين ، وتتدرج من السيمفونيات حتى موسيقا الجاز .

ونتنقل الى متحف المرجان ، حيث أجمل التشكيلات المرجانية ، وأندر البقايا البحرية التي اختيرت من مختلف أنحاء العالم . الجدران والسقوف وديكورات الإضاءة كلها من الشعب المرجانية والأصداف الملونة ، أما المعروضات ففي داخل أحواض ومياه جارية ، تماثل بيئاتها

● خريطة تبين موقع سنغافورة وشبه جزيرة الملايو

الطبيعية ، حيث تسلط عليها أضواء تشبه أضواء الأعماق في البحار والأنهار . أما أنواع الأصداف البحرية فتقرب من ٢٢٠٠ نوع أغلبها يعد نادرا .

ونتنقل من مكان الى آخر ، بين منتزهات وزهور تغطي المساحة السهلية والطرقات ، بطريقة مميزة بديعة ، حتى نصل الى قلعة « سيلوزو » التي أقامها الانجليز عام ١٨٨٠ ، والتي تتميز بممراتها المحفورة التي تتلوى تحت الأرض ، وفتحات الفوهات التي نصبت فيها المدافع والقاذفات والبنادق السريعة الطلقات .

قالت لنا مرافقتنا ، وهي ألمانية غربية ، جاءت الى سنغافورة منذ خمسة عشر عاما ، فعشقتها ، واكتسبت جنسيتها دون أن تفكر في العودة الى وطنها الأصلي : لا تستصغروا مساحة بلادنا ، فهي كبيرة بقيمتها ، غنية بموقعها الاستراتيجي ، رائعة بطبيعتها ، باذخة بمنتجاتها ، راقية بجهود شعبها ، وهو ما ستشاهدونه بأنفسكم . المهم هنا أن هذا

المعابد والأوبرا !

أما المعابد البوذية فمنتشرة في كل مكان ، وهي تقوم وسط المباني القديمة ، ليس في الحي الصيني وحده ، بل في كل أنحاء سنغافورة !

في شارع « تيلوك ايو » دخلنا معبد « يثان هوك كنج » ، المعبد بناه عام ١٨٤١ مهاجر صيني ، ليقدم الشكر للآلهة لوصوله وصحبه سالمين من بر الصين . الناس يدخلون المعبد فيركعون على ركبهم في صلاة قصيرة ، وهم يشعلون أعواد البخور ليغرسوها أمام تمثال بوذا أو تماثيل الأباطرة التسعة الإلهيين !

قصة هؤلاء الأباطرة المقدسين يحكيها لنا الراهب الأكبر الدكتور « شوهون كونج » ، في معبد « تومو كونج » ، المخصص لعبادتهم ، القائم في شارع سيرانجون منذ ١٨٨١ ، قال : إنهم لم يكونوا آلهة أول الأمر ، بل كانوا بشرا ، ولكن من خلال فضائلهم تحولوا إلى نجوم مخلدين ، ينزلون إلى الأرض في إقامة مؤقتة لمصاحبة الرجال والنساء الذين ولدوا من أباء أطهار بلغوا مرحلة « السمو الروحي » ، وما تزال أرواحهم محومة بين السماء والأرض . هؤلاء الأباطرة المقدسون هم نجوم « الدب الأكبر » السبعة ، أربعة منهم يمثلون الدورة الوسطى ، وثلاثة يمثلون الأيدي التي تحركها ، أما الإلهان الآخران فيسكن كل منهما في نجم خفي قريب ، وهما نجما التحويل غير المرئيين إلا للخالدين . . !

يتمثل الأباطرة التسعة بعض الأحيان في تمثال الإلهة الأم « دومو هونج » كما ينطقونها بالمندرين ، والتمثال كما رأيناه لامرأة لها عدة أذرع ، وعلامة مميزة على جبهتها ، ويقول بعضهم : إن موطنها الأصلي هو الهند ، وفي صباها منحت القدرة على السير فوق الماء دون أن تبتل قدماها ، مما جعلها قادرة على انقاذ الغرقى ، وقد تزوجها ملك المملكة الشمالية ، فأنجبت له تسعة أبناء ، أصبحوا هم الأباطرة الالهيين الذين يعبدون في معبدين في سنغافورة ، بالاضافة الى ٣٥ معبدا آخر في ماليزيا ، وتسعة معابد في تايلند . ويجري الاحتفال الكبير بهم مرة كل عام مدة تسعة أيام وتسع ليال ، في اليوم التاسع من الشهر التاسع من التقويم القمري . ويحظر على المتعبدين أن يأكلوا اللحم قبل دخول المعبد بيوم كامل على الأقل ، وعليهم أن يتطهروا ، ويبتعدوا عن العلاقات الجنسية ، وأن تكون أفكارهم نقية طاهرة ، وثيابهم بيضاء غير ملوثة .

في الساحة الخارجية للمعبد أقيم مسرح الأوبرا ، حيث تقدم عروض تاريخية ودينية ، أما الممثلون فمن المتطوعين للتمثيل دون أجر ، وأما المتفرجون فعلى كل منهم أن يبحث عن مقعد من المقاعد المكدسة في جانب الساحة ، ويجلس في أي مكان خال ، والدخول والخروج مسموح به في أي وقت . . !

الأوبرا الصينية كما رأيناها تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا . وكان المشاهدون يقهقهون بالضحك لموقف البهلوان ، مضحك الملك ، وهو يوقعه في خدعة مثيرة ، ثم ينفجرون بعد لحظات في البكاء لنفي فتى صغير وتعذيبه وهو بريء ، ثم يصخبون بالتأييد وهم يشاهدون الرجل الخير ينتصر على العملاق الشرير . « والوايانج » ، أحد أنواع العروض الأوبرالية في سنغافورة ، يمزج بين الأصالة والمعاصرة ، ولا يُكْتفى في ذلك بالمشاهد التمثيلية والوجوه الملونة والملابس التقليدية و « الديكورات » البسيطة ، ولكن تُقدم في الوقت نفسه ألوان حديثة من الأوبرا والغناء ، كلها في عرض واحد ، يهلل له المشاهدون . وكل حركة من حركات التمثيل كانت تُؤدَّى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التي تعزف خلال التمثيل . وكانت حركات اليدين تستخدم رمزا للكثير من الأعمال ، كما كانت تصاحب الكثير

من الأقوال . وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة ، متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف مافي المسرحية من شعر .

الحي الهندي

عرض موسيقي راقص شهدناه أيضا في المعبد الهندوسي عندما انتقلنا الى الحي الهندي كان الاحتفال دينيا ، يسمونه « ديبافالي » ، ويعني « عنقود الأنوار » وعودة النور هو ما يقام من أجله الاحتفال ، أما الديباهالي فتحكي قصة هزيمة اله الشر « أسورا » على يد البطل الالهي « فشنو » ، أو التجسيد البشري له ، وهذا يتفق مع أسطورة « المهابها راتا » ، إذ ينتصر كريشنا على الشرير كامسا . وهذه القصة تمثل انتصار الحق والنور والحياة على الشر والظلام والموت .

دخلنا المعبد بعد أن خلعنا أحذيتنا وتركناها في السيارة ، حتى لا نفقدها إذا تركناها عند الباب كما نصحتنا مرافقتنا المشهد داخل المعبد كان مثيرا صاخبا مليئا بالضجيج ، والأضواء تغمر المكان . والشموع متناثرة أمام تماثيل الألهة ، وأعواد البخور المحروقة تملأ القاعة بالدخان . اتساع القاعة يسمح بوجود خشبة مسرح كبيرة جلست عليها فرقة موسيقية ، لا يقل عدد أفرادها عن عشرين عارفا ، وأمامهم فرقة غنائية من الأطفال يهزجون ويترنمون ، ثم تقوم بينهم راقصات ، يؤدين رقصات دينية ، تتثنى خلالها أجسادهن وأذرعهن مع تعبيرات تؤديها العيون والأصابع بتناسق فني مثير .

المشاهدون يجلسون على أرضية المعبد الرخامية ، يتابعون المشاهد في إعجاب وانبهار ، وبين الحين والحين يتجه بعضهم إلى حيث تمثال الاله كريشنا ، لتقديم القرابين ، أو لإشعال أعواد البخور ، ثم يعودون إلى أماكنهم ، وقد أنجزوا نصيبهم من الاحتفال ، وحصلوا على البركة من الراهب الذي يرش عليهم الماء المقدس ، ويعطيهم بعض حبات الأرز التي باركها الاله . ونجد بعض الرحال ينجذبون فينهضون للمشاركة في الرقص والاهتزاز العنيف ، تماما كما كنا نشاهد « المجاذيب » في موالد الأولياء

قالت لنا مرافقتنا : إن الاحتفالات تبدأ في ساعة مبكرة من الصباح تنهض الأم قبل طلوع الشمس ، لتحضر الملابس الجديدة التي سترتديها هي وزوجها وأبناؤها ، وتجهز مظاهر الاحتفال التقليدية ، مثل الزهور وقطع الحلوى والزعفران وزيت الزنجبيل وبودرة الألوان والفواكه . وللتطهير يأخذ الجميع حماما من زيت الزنجبيل ، قبل أن يرتدوا ملابسهم . ويتجمعون أمام المذبح لأداء صلوات الشكر للالهة ، قبل أن يقضوا النهار كله في تبادل الزيارات مع الأقارب ، والتنزه في الحدائق ويستمر ذلك حتى يهبط الليل ، فيتجهون الى المعبد ، حيث العرض الغنائي الراقص الذي حضرنا بعض مشاهده .

هنا الهند

الحي الهندي القديم ما يزال على حاله ، صورة طبق الأصل مما شاهدناه في الشوارع الخلفية في بومباي .

يقولون : إذا كنت تريد أن تذهب إلى الهند ، فوفر نقودك ، فقد انتقلت الهند نفسها إليك هنا في سنغافورة ! « الهند الصغرى » ، هكذا يسمون الحي الهندي الذي يخترقه شارع سيرانجون الرئيسي ، وتتفرع منه عدة طرقات أخرى ، تمثل أقاليم شبه الجزيرة الهندية ، حيث حط القادمون منها ليستقروا ويعيشوا منذ أكثر من مائة عام ، إنها صورة مصغرة من الهند ، بكل تقاليد شعوبها وعقائدها ومعابدها وثقافاتها وأزيائها وتجارتها وصناعتها وبخورها وعطورها ، بل حتى رائحتها النفاذة المعبقة

بالكاري والبهارات التي تجذبك مهما كنت بعيدا لتقول لك : هنا الهند . . !

الساري بألوانه الصارخة وزخارفه المذهبة هو قوس قزح الذي لا يغيب عن بصرك، سواء كانت السماء صحوا أو ممطرة ، فإذا لم تلمحه على أجساد النساء والفتيات فستراه على الأقل معلقا على جميع واجهات المحلات التي تبيع الأقمشة والأزياء ، سواء الحريرية أو القطنية أو المصنوعة من الصوف والنايلون والموسلين والفوال والشيفون . وبين كل محل وآخر من محلات الأزياء تتناثر الدكاكين والمتاجر التي فرشت أمام واجهاتها كل بضائع الهند ، من قمصان مشجرة وبلوزات ملونة وأحذية وشباشب وخلاخيل وأساور وعقود من الخرز أو الزجاج ، إلى جانب دكاكين الأواني المنزلية ، والفواكه والخضراوات واللحوم والأسماك والروبيان المجفف ، ومحلات الكاسيت التي تصرخ بالموسيقا والأغاني ، وتضرب أذنيك مهما تنقلت من شارع إلى شارع ومن رصيف إلى رصيف .

لا تتوقع أن تجد « سوبر ماركت » أو مجمعات تجارية ، فالمشترون - سواء النساء أو الرجال - يحملون دائما أكياسا أو حقائب من الجلد أو البلاستيك ليملئوها بما يريدونه من البضائع المدلاة على الواجهات أو المفروشة أمامها ، إنهم ليسوا على استعداد لدخول مخزن تجاري أو « سوبر ماركت » للشراء ، ما دام كل شيء معروضا على الرصيف . أما التجار فهم يبيعون بضاعتهم في أي مكان يقعون عليه . تكفي « فاترينة » أو ثغرة في حائط قديم أو كشك على رصيف أو دولاب على حائط أو درجات سلم خارجي أو طاولة على بقايا سور ، أو حتى صينية أو صندوق معلق على الكتف أو الرقبة ، ومع ذلك فالأمن والأمانة متوفران ، فلن يخطف أحد شيئا ويهرب ، ولن يأخذ أحد بضاعة دون أن يضع قيمتها ، حتى ولو لم يكن البائع موجودا .

« انظر حولك » غير معترف بها هنا ، فالأطفال والمواليد والصبية يملأون الأرصفة والدكاكين ، والأغلبية تشارك الأم أو الأب في عمل باقات الزهور والفل والياسمين . الخياط يعمل وهو متربع على الساقين ، وماكينة الخياطة على الأرض بين يديه . طحان التوابل والحبوب يجلس وهو يدير الرحى الحجرية التي ارتقت عند بعضهم فتحولت إلى آلة وان لم تكن عصرية . بائع التوابل يغرف الفلفل والبهار والكاري ليعبئها في أكياس من البلاستيك للمشترين . الحداد ينفخ الكير ويضرب الحديد المحمي داخل الدكان الصغير . صانع الأحذية أو الإسكافي يفترش مدخل دكانه ، والصغار والكبار كل منهم يأخذ دوره في إصلاح الحذاء أو تركيب نعل أو كعب جديد من المطاط . صانع الأطعمة يقف على الرصيف أمام فرنه أو موقده أو صينيته ، يقلب الفطائر والمعجنات والسمبوسة في زيت مقلاته الذي يغلي ، ويملأ الشارع بالأبخرة والروائح النفاذة .

وكلما اقتربت من معبد من المعابد الهندوسية وجدت نفسك وسط زخم من دكاكين بيع الشموع وأعواد البخور وتماثيل الآلهة وهياكل القرابين والأرز الملفوف في أوراق المانجو ، وكل ما يرتبط بالعبادات من الصور والأضحيات ، مما لا يعد ولا يحصى . دخلنا أجمل وأكبر المعابد الهندوسية في سنغافورة ، معبد « يرى بيرومال » . المدخل الرئيسي يقوم فوقه برج ، طوله ٢١ مترا ، يسمونه « راجا جوبورام » ، من خمسة طوابق مدرجة ، تمثل التماثيل الملونة على جوانبه ومدرجاته بالشكل التقليدي جميع الآلهة الهندية والقصص الأسطورية للعقائد الهندوسية . ما أن ندلف من بوابة المعبد حتى يُطلب منا خلعُ أحذيتنا ، قبل أن نجتاز ساحة رحبة مترفة ، تقوم في جانبها قاعة المهرجانات الدينية وحفلات الأعراس ، وإلى اليسار يقوم

حرم قدس الاقداس ، حيث هيكل الاله الفيل « فينا جايار » ، وأخيه « مووروجان » ، وإلى اليمين يقوم هيكل الاله القرد هانومان ، أما الهيكل الرئيسي في المعبد ففي الوسط ، وهو مخصص لتمثال الاله فشنو ، تحيط به زوجتاه ، لاكشمي « زوجـه الأولى إلى يسـاره ، « ولاندال » زوجه الثانية إلى يمينه . ويؤدي الهندوس صلاة جماعية أمام فشنو في السابعة صباحا والسادسة مساء يوميا .

ثمة مشهد غريب رأيناه ، وهو عملية « حمام الاله » التي يؤديها الراهب الهندوسي الأكبر ثلاث مرات في اليوم . في كل مرة يقوم الراهب بغسل تمثال الاله تسع مرات ، فيرشه في كل مرة بماء مطهر ممزوج في الحمام الأول بالزيت ، وفي الثاني بعصير جوز الهند ، ثم بالحليب الصافي ، فاللبن المخثر ، فكوكتيل من عصير الفواكه ، فالعسل ، ثم عصير الليمون ، فعصير قصب السكر ، ويكون الحمام التاسع بماء الورد ، وبعد الحمام يقوم الراهب بتغطية تمثال الإله بباقات الزهور والجواهر ، ويضع أمامه قرابين الأرز وجوز الهند والموز والسكر والبلح ، وينثر أوراق الشجر الخضراء تحت قدميه . . !

مآذن الاسلام

كل هذه المشاهد تتباين تماما عندما ننتقل إلى القلب الاسلامي النابض في سنغافورة ، الحي الملايوي والحي العربي . عدد المسلمين في البلاد حوالي نصف مليون نسمة ، يمثلون سدس عدد السكان في سنغافورة ، ولهم مساجدهم ومآذنهم وتـراثهم ومتاجرهم وبضائعهم التقليـدية المحلية ، وأزياؤهم التي تختلف عن أزياء بقية السكان .

الوصول الى الحي العربي يتم من خلال طريق جيلانج سيراي ، حيث أسواق الحي الملايوى .

في هذا المكان استقر الملاويون في قرية صغيرة للصيادين ، نمت مع الأيام ، لتصبح مدينة حديثة قائمة بذاتها ، كان اسم القرية الأصلي « جيلانج كيلاما » ، نسبة إلى جوز الهند الذي كان يزرع في ذلك المكان وسط شجيرات الليمون (سيراي باللغة الملايوية) ، ولهذا حملت اسمها الجديد « جيلانج سيراي » .

في عام ١٩٦٠ حدثت تغيرات سريعة في كيلانج . فمع زيادة النسل والتزاحم الشديد بين الملاويين كان لا بد من توسعة المنطقة ، وردم بعض جوانب النهر الذي كان يقسم القرية الى نصفين ، وأقيمت مبان رأسية يمكنها استيعاب الأعداد المتزايدة ، هدمت هذه البنايات ليقوم محلها ما يشبه ناطحات السحاب لإسكان أبناء الحي ، وتمت توسعة سوق كالانج لتغطي الاحتياجات الاستهلاكية والغذائية والحياتية للسكان .

ومن خلال التزاحم الشديد في طرقات الحي الملايوى نشق طريقنا بصعوبة الى الحي العربي .

هنا . . . تحمل الشوارع أسماء مدن عربية واسلامية مثل بغداد ومسقط وقندهار ، وعندما نبدأ سيرنا من طريق الشاطىء نجد أنفسنا بين صفين من الدكاكين التي تبيع كل ما هو تقليدي مثل أقمشة الباتيك والحرير والمخمل والمقصب والجدائل والضفائر والترتر والسلال المصنوعة من القش .

وفي شارع بغداد حيث البنايات ذات الطابع التقليـدي الاسـلامي وبخـاصـة المغـربي والأندلسي ، تباع صناعات تقليدية أندونيسية مثـل أغطيـة الـرأس ومـلابس الاحـرام والمجوهرات والعطور وسجاجيد الصلاة . وفي نهاية شارع مسقط نجد أنفسنا أمام مسجد السلطان الذي شيد عام ١٩٣٤ . إنه أحد أكبر المساجد التي يشرف على أغلبها المجلس الاسلامي الأعلى الذي يرعى الدعوة الاسلامية التي دخلت سنغافورة مع قدوم التجار من العرب والمسلمين من اليمن وخاصة من

حضرموت والذين صحبهم عدد من الدعاة لنشر الاسلام وانتشرت مع وجودهم مساجد عديدة في جميع المناطق ، بينها مسجد النور والسلطان ، ودار الأمان والشاكرين والمجاهدين والمهاجرين وفاطمة وآمنة وقاسم وخالد والتقوى .

ونتأمل مبنى مسجد السلطان قبل أن ندخله . القبة المذهبة شامخة ، والمئذنة قائمة تناطح السحاب . هندسة المسجد من الخارج مزيج من الفن الهندي والصيني ، ويتميز من الداخل ببساطته واتساع صحن الصلاة ، والجدران غير المزخرفة ، وقد خصص جانب من الطابق الثاني للنساء لأداء الصلاة ، في هذا الطابق نجد واحدة من الطبول الضخمة بمقرعتها حيث كانت تستخدم للاعلان عن مواعيد اقامة الصلاة قبل أن يصبح الأذان بالميكروفون فوق المنارة هو الوسيلة لدعوة المصلين لأداء فرائضهم الخمس .

بجوار المسجد يقوم قصر السلطان وكان يسمى « استانة كامبونج جلام » وندخله من احدى بوابتين رئيسيتين ، القصر يقيم فيه الآن بعض أحفاد السلطان وحريمه ، وهم لا يحبون لقاء الزوار ، ولا تغادر سيداته القصر القديم ، حتى أن الحديقة الواسعة أصبحت الآن مهملة على الرغم من ثراء أشجارها التي تنبيء بما كان عليه القصر من فخامة في عهد مضى . حول المسجد وفي الطرقات المحيطة يعيش خليط من العرب والأندونيسيين والملاويين والهنود المسلمين . الملفت للنظر هنا أن المسلمين في سنغافورة بعيدون عن مظاهر الفقر والإهمال التي يعاني منها المسلمون في الدول غير الاسلامية في جنوب شرق آسيا .

ولكنهم في كل ذلك يعتمدون على الجهود الذاتية في مسيرة حياتهم ، وحماية معتقداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتأمين مستقبلهم المادي والروحي ، وحين تتحدث اليهم تدرك أن ثمة شخصيات إسلامية بارزة لعبت دورا كبيرا في تطوير أحوال المسلمين والنهوض بهم وسط خضم من أصحاب المعتقدات غير السماوية ، والاتجاهات العدائية المناهضة لانتشار دعوتهم ، أشهر هذه الأسماء عبدالرحمن باجنيد آل جنيد الذي جاء من حضرموت واستطاع أن يحتل مركزا تجاريا كبيرا ، ثم أقام مدرسة أهلية لتعليم اللغة العربية والمنهج الاسلامي ، ويتلقى التعليم فيها أكثر من ثلاثمائة طالب في مراحل الابتدائي والمتوسط والثانوي ، ويؤهل الخريجون لتلقي دراساتهم العليا في الأزهر والمملكة العربية السعودية والكويت .

مزرعة التماسيح

في نهاية شارع سيرانجون الرئيسي وجدنا أنفسنا أمام « مزرعة التماسيح » احدى أشهر مزارع التماسيح في جنوب شرق آسيا . هنا يجري عرض شبه يومي يجتذب مئات الزوار لمشاهدة الرجل الذي يحيط عنقه بتعويذة ، ويؤدي صلاته أمام تمثال بوذا قبل أن يتجه الى حافة الموت ، ويخترق الخط الفاصل بين الأمان والخطر ، ذلك أن عمله الرسمي هو اطعام التماسيح الضارية وملاعبتها وتحديها أمام الزائرين .

استقدمت تماسيح المزرعة في البداية من اندونيسيا حيث يقوم الصيادون المتخصصون بصيدها في الليالي غير المقمرة حين تستلقي التماسيح على جوانب الأنهار والبحيرات ، ثم تنقل الى المزرعة في سنغافورة . وتجري تغذية التماسيح بالروبيان والاسماك واللحم ورئات الخنازير ، وعلى الرغم من أن بداية انشاء المزرعة كان يستهدف انشاء واحدة من ضمن الحدائق المتخصصة المنوعة لمتعة المشاهدين ، إلا أنها سرعان ما اتخذت صبغة تجارية ، وتدفق السياح الغربيون لمشاهدتها في أحواضها التي أقيمت متباينة حسب البيئة التى استقدمت منها

الا تماسيح ، وتنحصر هذه البيئة في ثلاثة أنواع إذ أن بعضها يعيش في البحيرات والأحواض المائية والقنوات والمستنقعات ، وهناك أنواع تعيش في المياه المالحة المعروفة علميا باسم « بروساس » كما أن هناك تماسيح المياه العذبة « سيامنساس » والتماسيح المعروفة شعبيا باسم « الغريال » وعلميا باسم « توستا شليغيلي » .

ولأن الانسان - في سعيه الى مباهج الحياة - بدأ يستغل جلودها في صناعات كثيرة ، فقد تحولت المزرعة لتكون المورد الرئيسي للصناعات المرتبطة بجلود التماسيح . وأقيم مصنع خاص مع قاعة كبيرة لعرض هذه المشغولات التي تتضمن الحقائب النسائية والأحذية والأحزمة . وفي مكتب مدير المزرعة تجد الرجل غارقا بين المحاليل والمواد الكيميائية المستخدمة في تجفيف الجلود ودباغتها ، وحوله عدد كبير من الفتيات المشتغلات بهذه الصناعة ، وهن يجهزن الطرود التي تصدر الى مختلف الأسواق العالمية .

فوق تل القصدير

الآن .. نحتاج الى شيء من الراحة والمتعة والاستجمام ، وستطيع أن نجد ذلك في إحدى أشهر معالم سنغافورة ، غابة تل القصدير ، التي وصلنا اليها بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من قلب المدينة .

هناك تذكرنا ما قرأناه عن عالم الطبيعيات « الفريد رسل ولاس » الذي قال منذ أكثر من مائة وعشرين سنة وهو يتحدث عن مغامراته في الغابة المحيطة بتل القصدير والتي تسمى « بوكيت تيما » : ضرب سمعنا زئير النمور مرة أو مرتين في المساء بينما كنا نصطاد الفراشات الملونة بين سيقان الأشجار المستلقية في الغابة .

وغير بعيد منا يستعد ذلك الحيوان المفترس في انتظار فرصة لينقض علينا » .

نحن إذن نسير في الغابة المليئة بالنمور .. !
ولكن هذه النمور لم يعد باقيا منها شيء الآن ، وكانت في الفترات الماضية تفترس شخصاً على الأقل كل يوم ، وخلال عشر سنوات منذ ١٨٦٠ بلغ عدد ضحايا النمور سنويا بين خمسين ومائة رجل من مرتادي التل والمشتغلين على سفوحه ، مما جعل الحكومة ترصد جائزة قدرها مائة دولار لكل من يقتل نمرا ، وكان من حظنا أن جئنا بعد أن قضى الصيادون على كل نمور الغابة .

في ذلك الوقت كان « تل القصدير » المغطى بالأشجار والنباتات المتسلقة مرتعا لبلايين الفراشات التي تجتذب جامعي ذلك النوع من الحشرات الرائعة الالوان التي لا يوجد مثلها في أي مكان في العالم ، الآن ما تزال هناك ملايين من هذه الفراشات التي يبلغ حجم بعضها ما يقرب من عصفور صغير ، ويمكن صيدها بسهولة دون خوف من النمور وأشباحها . !

تل القصدير يكاد يكون المكان الوحيد الذي ما تزال تمثل فيه الغابة بشكلها الطبيعي ، فقد أصبح منذ عام ١٩٥١ محمية طبيعية كاملة ، دون أن يمنع ذلك من شق طرقات وإقامة مشاريع سياحية على جوانب سفوحه الغابة قائمة على تل من صخور الجرانيت يصل ارتفاعه الى ١٦٠ مترا . وهي منتجع ومتنزه لأبناء الجزيرة في عطلاتهم حيث تمتلىء طرقات الغابة بالأسر والأبناء والطلاب وهم يتسلقون الصخور ويرتعون بألعابهم ويتناولون طعامهم الذي يأتون به باردا ومحفوظا دون أن يشعلوا نارا حتى يحافظوا على الغابة وسلامتها ونظافتها ، وحتى لا تمتد النيران الى الأشجار الاستوائية الضخمة التي يبلغ عمر بعضها مئات السنين على الرغم من سقوط بعضها على جوانب الغابة واللجوء الى تقطيع سيقانها وإبقائها في أماكنها لتكون مرتعا للفراشات والنمال ، وأعشاشا ومأوى لبعض الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والسناجب والأرانب البرية . ولكن اذا أراد أحد الزوار أن يشهد الحياة الوحشية في الغابة

فإن أحسن الأوقات لذلك هو الصباح المبكر أو قبيل الغروب ، ففي تلك الأوقات يمكن مشاهدة الأصلة والثعابين والزواحف الضخمة ، كما يمكن رؤية حيوانات الليمور من فصيلة القردة طويلة الذيل وهي تتقافز بين أغصان الأشجار وكأنها ثعالب طائرة .

قفزة اقتصادية هائلة

الأشجار والخضرة هي بعض مصادر الصناعة والزراعة والاقتصاد في سنغافورة وعلى الرغم من أن أقل من ربع مساحة الأراضي تحت الاستصلاح ، إلا أن الرقعة الزراعية وما تنتجه من فواكه وخضراوات ومطاط تمثل حوالي ٢٪ من الانتاج العام ، ومع أن سنغافورة ليست دولة منتجة للبترول الا أن البترول يلعب دورا هاما في اقتصادها حيث يوجد لديها ثالث أكبر مجمع لتكرير البترول في العالم ، كما أن هناك حوضا كبيرا لاصلاح السفن .

وسنغافورة من الأمثلة الحية على مواجهة الفقر عن طريق البناء الصاعي ، فقد نجحت في اقامة مجتمع خال من الفقر ، واستطاع الاقتصاد السنغافوري أخيرا وخاصة منذ ١٩٨٧ أن يختط مسارا صحيحا متميزا ، وما حققته البلاد في معدل النمو الذي بلغ ٢ر٧٪ في النصف الأول من ذلك العام تجاوز كل التقديرات الحذرة .

القراصنة الجدد

أدركنا مدى الازدهار الاقتصادي في سنغافورة من خلال ، وجوه أبناء الشعب المتفتحة المتفائلة المستشرة ، ومن الحركة الدائبة في المحلات التجارية المتخمة بالمنتجات الصناعية

والزراعية بالاضافة الى زخم السائحين الذين يملأون الشوارع والأسواق والفنادق والمعالم السياحية في كل مكان . كما يبرز ذلك لمن يتابع حركة الترانزيت الجوي والبحري الواضحة من المطار الضخم البالغ الاناقة والنظافة ، العامر بالمغادرين والقادمين من جميع أنحاء العالم الذين يعدون بعشرات الآلاف كل يوم . وبدا لنا التطور من خلال حركة البواخر والسفن وأعمال الشحن والتفريغ المتواصلة في الميناء الكبير الذي أصبح يتفوق على ميناء روتردام ، أكبر الموانىء ازدحاما في العالم .

ولعل ازدهار حركة الشحن والنقل بالسفن كانت وراء تعرضها لبعض السلبيات من خلال قراصنة من نوع جديد ، أغرتهم الزيادة الكبيرة في البضائع وهي تمر أمام شواطىء سنغافورة . سمعنا هذا من أحد مسؤولي الشحن في الميناء . قال ان القراصنة الجدد غيروا أساليب أسلافهم السابقين ، فهم لا يهاجمون السفن الكبيرة العابرة للقارات ، ولكنهم يهاجمون السفن الصغيرة المليئة بالواردات ، وبدلا من استخدام المدافع والبنادق أصبحوا يستخدمون السكاكين والمدى لتهديد بحارة السفن وعمالها كي يستولوا على كل ما هو ثمين من البضائع أو الأموال من شحناتها . بل إن بعض هؤلاء القراصنة لا يمتنعون عن مهاجمة البواخر الكبيرة بما فيها ناقلات البترول واحتجاز قباطنتها تحت تهديد السلاح مما جعل الشرطة والقوات البحرية تكثف دورياتها جنوب سنغافورة ، وقرب جزر باتام الاندونيسية لتوفير الأمان للسفن العابرة للمحيطات .

بصرف النظر عن هذه السلبيات فإن النمو الاقتصادي يتضح في انتعاش القطاع المالي والمصرفي الذي تخلص من العثرة المؤقتة التي مر بها في بداية ١٩٨٦ مع ظهور انجازات القطاعين التي حققت أفضل النتائج بنسبة تتجاوز ٦٥٪ عنها في الفترات السابقة ، بالاضافة الى الموارد الضخمة التي بدأ القطاع السياحي يضخها من خلال النشاط الواسع لاجتذاب السائحين من جميع أنحاء العالم ، بما يقدم من انجازات وتسهيلات ، وتطوير للمعالم

السياحية والفندقية والثقافية والفنية في البلاد .
استطعنا متابعة معالم الازدهار الاقتصادي ونحن نخترق المركز الرئيسي الحديث للمدينة الذي يسمى « اوركارد رود » فلقد تجاوزت شهرته شهرة الشانزليزيه في باريس ، والشارع الخامس في نيويورك ، واكسفورد في لندن . على الجانبين ناطحات السحاب بمنادقها الفاخرة وأضوائها المشعة ، وبمسارحها ودور السينما فيها ، وبمعارضها الفنية ، والأهم من ذلك مجمعاتها الضخمة الحديثة ذات الطوابق التي يصل أكثرها الى عشرة طوابق ، عامرة كلها بالمنتجات المحلية والمستوردة ، حيث يباع كل شيء بأرخص الأسعار ، في محلاتها التي يتجاوز عددها ألف محل ، كما شهدنا في أسواق « لاكي بلازا » و « تانجلين » و « منجاتونج » . ولا تقتصر المحلات على البضائع المعروضة للبيع ، فهناك أيضا ملاعب للأطفال وحدائق داخلية وساحات للراحة ونافورات ومطاعم للبيتزا الكنتاكي والهامبورجر ، وكافتيريات بل ومعارض للسيارات ، ومكاتب للسياحة والسفر والتصوير .

أنظف مدن العالم

ومن أجل مزيد من جعل المدينة قمة لا مثيل لها من قمم الفخامة والنظافة والأناقة والتنظيم بين مدن العالم الكبرى ، صدرت قوانين صارمة لمعاقبة كل من يسيء الى الصورة المتألقة للمدينة ، وأقامت الحكومة « خطا ساخنا » لتلقي شكاوى الجمهور ضد المؤسسات التجارية والمطاعم التي تتسبب في وجود أي نفايات أو مخلفات سواء في داخلها أو خارجها ، ويواجه المخالفون أحكاما تفرض غرامات باهظة يمكن أن تصل الى إغلاق المؤسسة بضعة أيام مع التنديد علنا بمخالفاتهم .
وقد اتخذت حكومة « لي كوان يو » اجراءات حازمة يقابلها حوافز تشجيعية لدفع الجماهير الى التصرف بانضباط وبروح من المسئولية ، في مجالات التطور والصحة والنظافة ، وقد أدت الحملات الدعائية المستمرة الى امتناع أغلبية الناس عن التدخين والقاء المهملات خارج البيوت أو على الأرصفة ، كما اهتمت بتوعيتهم لتنظيم النسل سواء بالاكثار أو الاقلال من الانجاب طبقا للظروف ، ويدخل في ذلك تخفيض الضرائب عن المستجيبين للدعوات التنظيمية . وأكثر ما لفت نظرنا بعد أن أثارت مرافقتنا انتباهنا أن السلطات قد وضعت كاميرات فيديو خفية داخل مصاعد المباني من أجل الحفاظ على نظافة العمارات السكنية ، وتتصل هذه الكاميرات بأجهزة الكترونية تؤدي الى توقف المصاعد اذا ارتكب أحد مخالفة للنظافة بداخلها مع ضبط المخالفين بالصوت والصورة وخاصة أن هذه الأجهزة حساسة جدا لمياه التبول بالذات . وفي حالة حدوث ذلك فإن المخالف يظل محبوسا داخل المصعد دون أن يفتح بابه حتى حضور مسئول يفتح له الباب بعد أن يحصل منه الغرامة التي بدأ تطبيقها ابتداء من يونيو الماضي ، وهي تصل الى ألف دولار سنغافوري (٥٠٠ دولار أمريكي) ، وتتضاعف الغرامة لمن تتكرر منه المخالفة وكذلك لمن ينسى تشغيل آلة التنظيف في المراحيض العامة حيث يقوم مسؤولون من دائرة الصحة بالتفتيش على الحمامات العامة للتأكد من نظافتها كما يتم تكليف صحفيين بالقيام بجولات مستمرة لاكتشاف دورات المياه البعيدة عن النظافة حيث توضع في « قائمة العار » التي تنشر علنا في الصحف كما يعلن أسماء الأفراد الذين يتسببون في قذارة الحمامات في القائمة السوداء .

إن سنغافورة تصر على الاحتفاظ بصورتها المتألقة كمدينة تمثل المرتبة الأولى في العالم من حيث النظافة والأناقة وهي تسعى جاهدة لتصبح مركزا ماليا وحضاريا رئيسيا في آسيا يتحدث عنه الجميع . □

يحدث اتزان جديد بين الإشعاع الممتص ، والإشعاع المنبعث لكن عند درجة حرارة أعلى .

وهذا هو « تأثير الصوبة » . .

نشاط بشري مدمر !

يزداد تركيز غازات بعينها في هذه « الصوبة » في الغلاف الجوي ، بسبب نشاطات البشرية ، وربما كان ثاني أكسيد الكربون أكثر هذه الغازات شهرة . والمتهم هنا الدول الصناعية المتقدمة ، فهي المسئولة عن الكم الأعظم من هذا الغاز ، والأرقام هي دليل الاتهام ، فقبل الثورة الصناعية ، كان تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي حوالى ٢٩٠ جزءا من المليون .

ويصل التركيز في يومنا هذا إلى ٣٤٥ جزءا ، وهي زيادة تقدر بـ ٢٠٪ ، وهناك إجماع علمي على أنه سيتضاعف إلى ٥٨٠ جزءا في منتصف القرن القادم . وتأتي المساهمة الرئيسية في زيادة التركيز هذه ، والناتجة عن نشاط البشر ، من احتراق الوقود « الحفري » في العمليات الصناعية ومحركات السيارات وتوليد الطاقة ، ومن التفاعلات الكيميائية الناتجة عن صناعة الأسمنت ، فهذه العمليات مجتمعة ، تنتج الآن مايربو على ٥,٥ (خمسة بلايين ونصف بليون) من ثاني أكسيد الكربون كل عام في « الغلاف الجوى » للأرض ، ويعكس توزيع البلـ المسئولة عن هذه الغازات التغيرات في ـ التصنيع ، ففي عام ١٩٥٠ صدر من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية معا أكثر من ٦٨٪ من كل ثاني أكسيد الكربون ، وانخفضت تلك النسبة فى عام ١٩٨٠ إلى ٤٣٪ من مجموع أكبر بكثير . وخلال الفترة نفسها ازدادت كمية الغاز الصادرة من الدول النامية من ٧٪ إلى ٢٠٪ ، حيث تطلعت تلك البلدان إلى مثيل التصنيع الذي قدمته الدول الصناعية المتقدمة .

بالإضافة إلى هذا ، فإن إزالة الغابات ، والتغييرات التي تحدث في الأراضي مصادر مهمة لثاني أكسيد الكربون المتسبب عن نشاطات بشرية على الرغم من شدة صعوبة تقدير كمية مساهمتها .

يساهم ثاني أكيد الكربون حاليا بمقدار ٥٥٪ من تأثير « الصوبة » المتزايد . وهناك غازات « صوبة » أخرى يتزايد تركيزها ، مثل غازات « الميثان » وغازات « أكسيد النيتروز » الناتجة عن الزراعة المكثفة ، والكلوروفلوركربون ، وهي غازات تستخدم في التبريد .

ويتفق العلماء عامة الآن على التأثيرات الطقسية الأساسية التي تحدثها مضاعفة تركيز
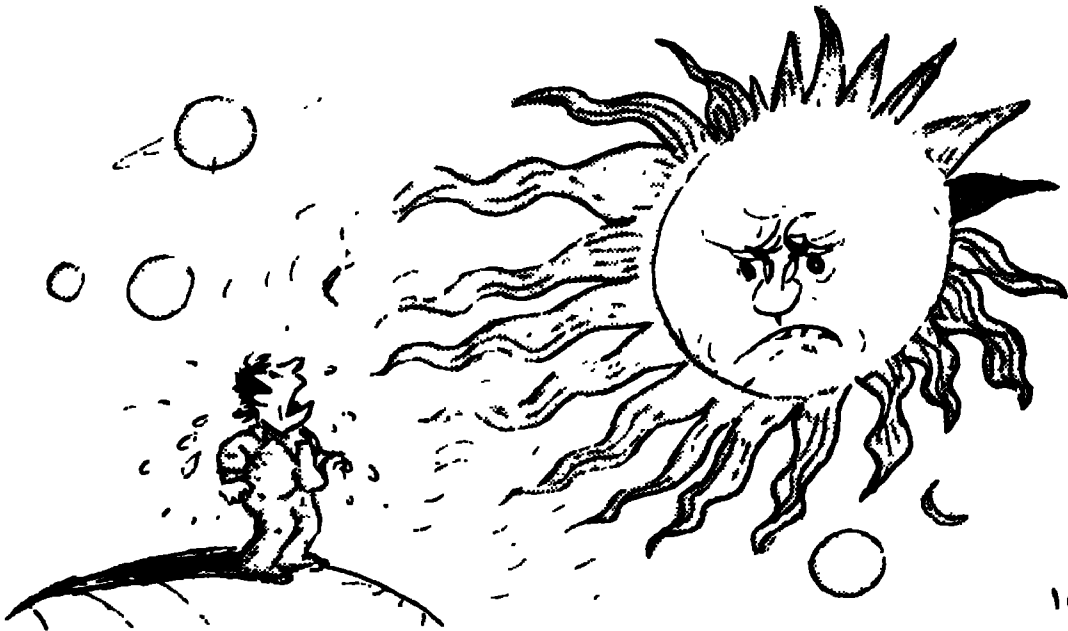
غاز « الصوبة » . فمن المتوقع أن تزيد درجة حرارة على الكرة الأرضية بين درجة ونصف درجة مئوية ، وأربع درجات ونصف درجة مئوية . لكنها قد تصل إلى ثماني درجات مئوية عند القطبين ، وعند القطب الشمالي على وجه الخصوص . ومتوسط هذه الزيادات هو متوسط الزيادة نفسه الذي حدث منذ « العصر الجليدي » الذي مرت به كرتنا الأرضية ، ومن المتوقع أن يزداد هطول المطر على اتساع كرتنا الأرضية ويتوقع أن تكون الزيادة أكثر . عند خطوط العرض المتوسطة ، بينما تقل في هطول الأمطار عند المناطق الاستوائية وما بعدها .

ولا يتوقع العلماء أن تحدث تلك التغيرات تدريجيا ، بل على العكس ، فهم يتوقعون تغيرا سريعا من حالة إلى أخرى ، بمثل ما يكون عليه الانتقال من موسم الشتاء إلى موسم الصيف في أحيان كثيرة . وليس هناك ـ غير تلك التوقعات ـ أي اتفاق بين العلماء يساعدنا على تقييم المتضمنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما يمكننا قوله هو أن الآثار الإقليمية ستكون حادة .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدم كفاية التنبؤات ، فما الذي يمكن قوله عن صدمة « تأثير الصوبة » ؟

إن أكثر الملامح اهمية دون شك هي أن العلماء لا يعرفون إطلاقاً شيئا عن المكان الذي ستحدث فيه تغيرات الطقس ، ولا عن طبيعتها ، ولا عن شدتها .

لكن الذي لاشك فيه ، أن الآثار الأساسية ستنصب على الزراعة . وكل ما يقال في هذا المجال مجرد تخمينات بطبيعة الحال .

فقد يحل محل المناطق المنتجة للحبوب في العالم الآن مناطق جديدة ، تفضلها النظم الحرارية لعالم تزداد فيه كثافة غازات « الصوبة » . ولا يمكننا أن نحدد بالضبط أين ستكون هذه المناطق الجديدة ، ولا متى ستحدث تلك التغيرات .

تغيرات سياسية

لكن هذا لا يمنع العلماء من إجراء عمليات إسقاط على المستقبل،ولنتأمل ـ على سبيل المثال ـ ما يعنيه زوال المناطق الحالية المفضلة مناخيا . فلو حدث تغير مناخي ، فقد ينتهي النفوذ السياسي للبلدان الغربية التي تحقق فائضا كبيرا من الحبوب فتتاجر به في السوق العالمي ، وتستخدمه سلاحاً سياسياً للضغط على الدول النامية . وقد تحدث « هجرات » سكانية ضخمة باتجاه المناطق الخصبة الجديدة ، عبر الحدود الدولية ، وما يعقب ذلك من مؤتمرات دولية واتفاقيات . وستضاعف تلك الآثار زيادة منسوب المياه في البحار والمحيطات الناتجة عن ذوبان جليد القطبين (بسبب ارتفاع درجة الحرارة) وعن التمدد الحراري لمياه البحار .

وإذا صحت التنبؤات العلمية ، فإن المناطق الخصبة الجديدة ستكون في خطوط العرض المتوسطة الرطبة ، أي حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومنغوليا . ومعنى هذا أن تتحول الصحراء الكبرى إلى سلة غذاء ، وهنا يراودني خاطر : هل تسمح القوى الغربية أن يحدث هذا التحول لصالحها ، أم أن الهجرات السكانية المتوقعة ستحدث بالقوة ، فنشهد عصر استعمار جديد إبان عصر التقنية المتقدمة ؟

وسائل الإعلام الغربية تميل إلى تقديم الآثار السلبية فقط « لتأثير الصوبة » ، وقد يكون السبب إدراك الغرب أنه الخاسر الأول في تغير المناخ على الرغم من أنه سيحدث توازناً جديداً . وزيادة على ذلك ، ظهر أن زيادة تركيز غازات ثاني أكسيد الكربون ـ في ظروف معملية ـ له تأثير « فسيولوجي » مباشر على النباتات ، ونتيجة هذا زيادة الانتاج في الوقت نفسه الذي يقلل فيه من احتياج النبات إلى الماء . وإذا كانت قد ثبتت صحة هذا في الظروف المعملية ، فقد تستمر هذه الآثار في الظروف الحقلية .

صورة مجسم بيت دمشقي (بيت السباعي) منطقة دقاقين شاغور

البيت الدمشقي ونظرة عبر الماضي

بقلم : محمد غسان خير*

دمشق القديمة ، درة من درر الشرق ، وصفحة مشرقة لماض عريق ، وهي تحفة فنية ذات نسيج عمراني بديع ، معبر عن حياة اجتماعية مترفة كانت تعيشها العاصمة الأموية القديمة فيما مضى من سنين .

حبا الخالق دمشق بجمال الطبيعة ، فترعرعت في واحة خضراء ، تحفها الغوطة من الشرق والجنوب الشرقي ، حاجزة إياها عن البادية ، يخترقها نهر بردى وفروعه السبعة ليزيد خضرتها بهجة وإشراقا . تربو عليها من الغرب سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ويكللها من الشمال جبل قاسيون ، إذا شهدها المرء فسيدهش لمعالم سورها وأزقتها وأسواقها ، وخاناتها ومساجدها وقصورها وحماماتها . . الخ ، وبين هذا وذاك تتكىء على جدرانها الصماء دور دمشق العتيقة .

لكن لابد هنا من الإشارة إلى أن هذه المعالم جلها أماكن عامة ، يمكن مشاهدتها للداني والقاصي الذي يعز علينا ـ نحن أبناؤ ما ـ أن

* كاتب من القطر العربي السوري

نفصح له عن لبنة نسيجها الحضري التقليدي ، ألا وهو البيت الدمشقي بخصوصيته الذي يزدهر به سحر هذه المدينة العامرة وطابعهـا ، فمعظم دورها التقليدية ترجع إلى العهد العثماني .

بيوت محجبة :

بيوت دمشق كالنساء محجبات ، تعبر الأزقة من خلال البحبوحة الخارجية . فعلى حين نجد النساء في الشرق ـ وجوههن مغطاة بقطعة من الموصلين السميك ـ أخصـارهن غارقة مستترة بمعاطفهن الفضفاضة ، وأرجلهن مسترسلة في أحذيتها العالية ، وداخل هذا الغطاء تتشابه أبشع امرأة بأجمل امرأة ، كذلك نجد بيوت دمشق ، فالدور والقصور لها نفس الشكل الخارجي المتواضع ، وخلف جدرانها البائسة نجد منازلها الأنيقة تفيض بالجمال .

القسم الأكثر رونقاً داخل بيوت دمشق يتكون من باحة داخلية رحبة مكشوفة تفضي إلى زقاق عبر ممشى ضيق ، منخفض السقف ومقنطر ، ينكسر طرفه باستحياء ليحجب النظر عن الداخل .

فالباحة تشكل أرضية الديار المرصوفة المتألقة التي تتوسطها بحرة بارزة أو بركة ماء يأتيها الماء من طالع ، أي أن المياه تصل إلى البيت من أحد فروع بردى حيث تتوزع إلى مختلف مرافقه ، فتدور دورتها من البركة إلى الفسقيات في غرف الاستقبال ، ثم تتجه إلى بحرة المطبخ لتستخدم مياهها من خلال المرافق الصحية الأخرى ، ومن ثم إلى المجرى العام .

وغالبا ما تكون بحرة الديار هذه مكسوة بالحجر المجلو أو بقطع الرخام المتعددة الألوان والمنتظمة بابتكار الفسيفساء ، لينصب الماء فيها عبر أربع نوافير مختلفة يغلب عليها شكل رؤوس السباع ، ولتسترخي على محيطها أحواض النباتات والزهور ، أما من مركز هذه البحرة فتبدو لنا نافورة تتسلل للنسيم لترسل إليه رذاذها ليداعبه .

وتنتشر في الباحة بعض أشجار الفواكه مثل الكباد والنارنج والليمون التي تتفتح أزهارها في فصل معين ليعبق المكان بأريجها ، فهي أشجار وارفة ذات قطوف دانية ، محاطة بمجموعات من الورد الجوري والرند الكثيف والليلك ودرر الياسمين المقنطر ، حيث العصافير تحتل أشجار الباحة بزقزقتها والحمام واليمام الذي يوسخ الجدران المتعددة الألوان التي تمنطقت الباحة وفراغاتها الاحتفالية بأحجار مسفطة بصفوف مرتبة متتالية من البازلت الأسود والحجر الكلسي الأبيض والحجر الرملي الوردي ، مشكلة خطوطا متوازية ،والتي بهتت زينتها وتساقطت زراكشها، وبسبب الكتل النباتية الخضراء وتنـطع الأماليد والجذوع التي تنداح في الباحة تنكسر حدة صورة الأطراف في ملامستها للسماء ، فتتداخل إطلالة الأبواب والنوافذ ، لتظهر لنا فتحة في صدر الجدار بشكل بوابة يطلق عليها الإيوان ، تنفتح على الباحة بقوس حجري يتجه إلى الشمال مزين برسوم نباتية تؤطره ليطل على الدالية التي تقبع أحيانا بالزاوية . أما فناء الإيوان هذا فينبسط في فراغ وهو ذو مسقط مربع أو مستطيل مسقوف بارتفاع طابقين لايعلوه بناء آخر . أرضيته مرخمة بمستوى درجة أو أكثر عن مستوى الباحة ، لتحيط جدرانها ـ المبنية بالأحجار الملونة والمزخرفة ـ المساطب من جوانبها الثلاثة ، وتعلوها الفرش والوسائد التي يستلقي عليها صباح مساء صاحب الدار الميسور الحال ، ليستنشق رائحة التنباك التي تنبعث من النرجيلة ، على حين يهمس ماء النافورة لينبعث من بين الأشجار نور خفيف لفانوس من الزجاج الدمشقي الملون .

وأمام هذا الاستعراض يمر شريط ضيق على مستوى الباحة ، وهو عبارة عن ممر يصل بين قاعتي الاستقبال الواقعتين على جانبي الإيوان اللتين تزدهران ـ بحسب درجة الغنى ـ بتجليد الجدران بالخشب المزخرف والملون بروائع النقوش أو الزخارف المشغولة بطريقتي الحريري والعجمي ، والموشاة أحيانا بماء الذهب والفضة والألوان الأخرى ، وذلك بأشكال نباتية أو هندسية ، متناظرة ومنوعة . وفي أعلى الكسوة الخشبية الجدارية أشرطة كتابية متناظرة التوزيع من الأبيات الشعرية ، تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز يشمل القاعة ، مشكلا فاصلا بين هذا التجليد الجداري والسقف الخشبي بمساحة مغطاة بالكلسة البيضاء . وفي أحيان أخرى تحلى الجدران ببعض الزخارف الرخامية والحجرية على شكل سلسبيل أو وزرات ليلتحفها سقف من دفوف خشبية محمولة على عوارض خشبية بدون إنهاء ، مستديرة القطع أو مشذبة ، مغطاة بزخارف نباتية وهندسية ملونة ، وأحيانا معقدة لتضفي على المكان مزيدا من المتعة البصرية ولتتدلى وسطها قناديل نحاسية ذات مشاعل زجاجية ، مشكلة ثريا تطل على الأرضية المفروشة بالسجاد العجمى الذي يرتفع عن التماس المباشر مع الأرضية الرطبة بهيكل من دفوف خشبية يطلق عليها اسم « دكة خشبية » ، تؤمن فراغا هوائيا عازلا . وهذه الدكة تتربع على مستوى مرفوع عند العتبة يسمى « طزرا » ، يفرش بالأثاث الدمشقي المطعم بالصدف ذي الوحدات الزخرفية النباتية أو المطعّم بالموزاييك الخشبي ذي الوحدات الزخرفية الهندسية ، وكل ذلك بأشكال بديعة متناسقة .

وبينما يجول البصر ، تطل عبر الجدار فتحة مقوسة منحوتة بدقة كاملة داخل الجدار السميك ، يطلق عليها اسم « اليوك » ، يجمعون فيها النراجيل والغلايين وفناجين القهوة الرائعة الموضوعة على صينية من الفضة أو النحاس المذهب ، المشغولة بعناية فائقة ـ والتي تعتلي منضدة خشبية ، أو يجمعون فيها قماقم ماء الورد والمجمر الرائع لحرق عود النّد .

« المندلون والدرقاعة » :

هذا ويقابل الإيوان عبر الباحة « القاعة الرئيسية » وهي تعطي كامل واجهة الديار الجنوبية بصفين متتاليين من الفتحات ذات نوافذ بقياس الأبواب على ارتفاع ضئيل فوق الأرض ، لتتيح للجالسين على فرش الأرض التمتع بمظر الباحة بما تحتويه ، وقد غطيت هده السوافذ بقضبان حديدية متشابكة ، تليها نوافذ أصغر قياسا تستجيب للنور والشمس ـ شتاء والهواء صيفا ـ وهي ما يعبر عنها « بالمندلون » . أما إذا استعمل صف ثالث من النوافذ فيتمثل بالقمريات أو الشمسيات وذلك للاسهام في عملية الإضاءة دون أن يكون لها وظيفة تهوية ، وهى على شكل كوى مستديرة ذات زجاج ملون أحيانا وفق زخرفات متعددة ، لإعطاء تأثيرات لونية لطيفة للضوء المار عبرها إلى داخل القاعة .

أما المقصورات فهى أيضا تتمتع بالمدخل الرائع الذي تستحقه ، فيتوسط أرضيتها جزء منخفض قليلا يسمى « درقاعة » يستخدم كبهو للدخول ، فقد جرت العادة المتبعة أن يخلع الناس نعالهم فى أرضيتها قبل أن تطأ أقدامهم أرض القاعة ، وهى خاصية معمارية اتبعت في منازل العصر الإسلامي . وعلى جانبيها تقع ايوانات تتجه إلى الجنوب ، مغطاة من الأعلى بمناور خشبية ، وتشكل الدرقاعة هذه صحنا مسقوفا ، أرضيته مغطاة بفسيفساء من الرخام ذات أشكال زخرفية هندسية ، وهي في مستوى

نموذج غرفة استقبال بأثاثها الدمشقي وزخارف جدرانها وأمامها فسقية « بيت العظم »

أخفض من مستوى أرضيات الإيوانات تتوسطه فسقية تقليدية مثمنة الشكل ذات مشاعب نحاسية ، بها نافورة ماء ترنو على الإيوانات التي تنهض عن مستواها بمقدار ثلاث درجات ممهدة لها ، وهذه الإيوانات التي تغطى أرضيتها الحصر المصرية أو السجاد العجمي ، يحيط بها ديوان كبير ، أما في الداخل فتطالعنا قبالة الأبواب ـ المصنوعة من حشوات خشبية متداخلة ـ كوى بشكل محاريب ، زين قسمها العلوى بمقرنصات خشبية ، وترتفع من العتبة إلى الطزر كبقية المقصورات لتحيط بها جدران قاعة الاستقبال الشتوية المكسوة بحشوات خشبية مزخرفة تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز ، يمتد ليشمل القاعة بأسرها مشكلا فاصلا بين منطقة النوافذ العلوية والكلسة البيضاء والأجزاء السفلية من الجدران .

وتجهز غرفة الاستقبال هذه بالسجاد والأثاث الخشبي الدمشقي المحفور دي الخراطة الدقيقة والمحلى بقليل من الصدف ، ويتألف غالبا من « كنبتين » وراويتين توصع عليهما أوانٍ زجاجية ، أو شمعدانات زجاجية وبين « الكنبتين » قنصلية بمرآة محاطة بخشب الجوز ، مزينة بالحفر وتطعيم الصدف ، ونجد في الدواليب الجدارية كؤوس الاوبالين التي تستخدم فى تقديم الأشربة ، وقمقم الزهر ، وزجاجة الأركيلة الكريستالية ، وسكريات ومشربيات من المادة نفسها ، بالإضافة إلى بعض الأباريق ، والأواني المصدفة ، والمصابيح الزجاجية أو الكرستالية ، وحوامل الشمع الخزفية ، (تحف العائلة) ، هذا وإلى جانب هذه المقصورة تجد غرفة معيشة ، وأحيانا غرفة نوم بسيطة ، تشغل في فصل الصيف ، أما غرفة المعيشة هذه فلها عتبة

وطـزر ، وتخلو جدرانها من الـزخارف وتعتمـد الكلسة في كسوتها ، تنبسط في أرضيتها سجادة ، جهزت جنباتها بالأرائك « الطواطي » المفروشة بالوثار ، والمغلفة بوجوه مخملية ، مزينة بالصرمة الحريرية المطرزة بالقصب بأشكال نباتية رائعة ، أو بـوجوه حـريريـة مطرزة (بـالأغبـاني) ذات المواضيع النباتية أيضـا . وهذه الأرائـك تمتطي صناديق خشبية بسيطة تشكل على الأرض دروجا لحفظ البياضات . ويلاحظ في جدرانها دواليب بهـا أوانٍ خزفيـة كـأطبـاق من الخـزف الصيني والشيني الياباني ، أما سقف هذه الغرفة فهو كبقية غـرف الدار مكـون من قماش مشـدود مغطى بطبقة كلسية سميكة ، مطلية بالألوان ، تتدلى في وسطها ثريا منزلة ومخرمة ذات قناديل زجاجية .

صور إيوان وبحرة الدار « بيت خالد العظم » طلعة سوق الهال القديم

ما قبل الفلكور :

اما إذا انتقلنا إلى غرفة النوم فسنجدها بسيطة في هذا الطابق ، وبالشكل المثالي في الطابق الثاني الـذي يمكننا من أخـذها نمـوذجاً ، فـالأرضيـة المبسـوطة تحفـل بـالحصـر والسجـاد والأرائـك والوسائد والمفارش الصوفية ، كما تزخر بصندوق خشبي مـطعم بالصـدف غالبـا ، وظيفته حفظ الملابس والبياضات ، وبأثاث خشبي ذي صدف جميل وهاج يطلق عليه اسم « بيرو » ، وهو عبارة عن مجموعة من الدروج تتوجها قنصلية خشبها محفور ، وتشغل هذه القطعة بدلا من خـزانة ، فتـوضع فيهـا المـلابس التي اصبحت في وقتنـا الحاضر أزياء خاصة بفلكور دمشق ، إذا أحببنا أن نتعرف عليها فسنجـدها تتـألف من سروال قلامندو يتخذ عادة من الجـوخ السـاذج الغـامق اللون للشتـاء ، أو من القطن المقصـور الطري لفصـل الصيف ، وقميص أبيض ، وصـدريـة تتخذ عادة من الجـوخ الكشمير للشتـاء ، ومن الحرير الأطلس اللامع المخطط بأقلام عمودية ـ

نموذج واجهة من الكتيبات .

من نـوع الصاية ـ أو مـطرزة بخيـوط صفـراء كـالأغبـاني ، وذلـك لفصـل الصيف ، تحف جوانبها أشغال التطريز ، مع شالة عـريضة من الصوف ـ أجودها العجمي ـ أو زنار من الحرير ، ثم يأتي فوق الصدرية الميتان كقطعة من الثياب ذات قماش ولون متمم للثياب عامـة ، مطرزة بـالقصب من الأمام ، وعـلى طـرفي الكمّـين ، وذلـك بزخـارف هندسيـة متنوعـة ، كـما نـرى المعطف القصير الـذي يرتـديه الـرجل فـوق ما ذكـر ، ونرى إلى جوار هذه الملابس قمباز الرد وهو ثوب طويل يكـون عادة من الحـرير المقلم بخطوط طويلة ملونة بعدة ألوان ، وهو ما يطلق عليه العوام (الصاية آلاجا حريرية أو ديما قطنية) أو يكـون من الجوخ السـاذج ، وذلـك لفصـل الشتاء ، يلبس فوقه معطف كبردين أو جبـة ، ويحيط بالقمباز عند الخصر الـزنار الحـريري أو الشالة الصوفية ، ونادرا ما يلبس القمباز وحده فيلبس فوقه معطفا عاديا (ساكو) أو معطف كما ذكرنا ، كما يلبس في الشتاء والصيف غطاء رأس متمم وهو إما عمامة بيضاء أو طربوش اسطواني الشكل تقريبا ، أحمر اللون في الغالب ، أو غطاء من الأغبـاني أو طربـوش قصير حـوله لفـة من الأغباني ، أما الصغار فتتألف ملابسهم من قمباز مع نطاق وجلابية « عباءة » ، ويعتمرون طربوشا صغيـرا أو حطة بيضـاء وعقالا مقصبـا متوسط الفخامة .

أما لباس النسوة والفتيات فيتألف عند الخـروج من الدار من الإزار ، وهو ذلك اللفاع المتهدل التي تلتحف به النساء من الرأس حتى القدمين مع منديل من الموصلين للوجه ، كما كن يرتدين الملاءات المدففة الحريرية التي تتـألف من ثلاث قطع سوداء منفصلة عن بعضها وهي :

ا ـ قطعة سفلى تشكل تنورة عريضـة تزم حـول الخصر .

ب ـ قطعة عليا تسمى فجة أو برلين تستر صدر المرأة وكتفيها وعنقها وظهرها .

ج ـ منـديل الـوجه غـالبـا مـطرز الأطـراف أو مسنن .

أمـا في الداخـل فتجدهن يرتدين السـروال المنسـوج من خيوط الحرير المطعمة احيانا بخيوط الذهب بأشكال ومواضع مختلفة ، كما أننا نجد ثوباً قد صمم طويلا ليصل إلى القدمين ، وهـو من الحريـر الساذج أو المقلم ذي الألـوان الـزاهيـة مـع عصبـة (قمـطة) ثمينـة مـزودة بشراشيب طويلة (منديل أويا) ، لتغطي الرأس ولتعصب على الجبين .

ويلاحظ في غرفة النوم صندوق خشبي مطعم « شكمجاية » وذلك لأدوات الزينة ، كما يلاحظ صندوق حديـدي صغير يستخـدم لحفظ القطع الثمينة والمجوهرات والحلى .

ومن الجدير بالذكر هنا أن القـاعة الـرئيسية يمكن أن يـلاحظ لهـا نمـاذج أخـرى في الـدور الدمشقية ، فمنها ما هو مكون من مربع مركزي على مستوى أرضية الباحة « العتبة » التي تحتوى في مـركزهـا على بحـرة رخـاميـة صغيـرة ذات نافورة ، وذلك بدون الإيوانات . ويحد العتبة ثلاثة طزر مرفوعة عن أرضيتهـا بارتفـاع درجة ذات أرضية مغطاة بالرخام ، وقد زينت الجدران أيضا بالرخام المجزع وبمصب ماء (سلسبيـل) وسط الـطزر الأوسط عـلى سـطح مـائـل من القيشاني الملون ، تترقرق مياهه في صدر القاعة إلى البحرة من تحت الطزر والعتبة ، أما أسقف الـطزر فهي مستويـة ومحمـولـة عـلى عـوارض خشبية . وكل هذه الأقسام من السقف تتفتـح على سقف العتبة بثلاثة أقواس حجرية مسفطة ، تتدلى منها قناديل زجاجية . وهناك نموذج آخـر يتألف من عتبة تحتوى على بحرة رخامية صغيرة مع نافورة ، يحدها طزران مرتفعان عن أرضيتها بنفس الإكسـاء السابق، ينفتح سقفهما على سقف

الرجال بملابسهم التقليدية يمارسون حياتهم مساء « قصر أسعد باشا العظم »

العتبة بقوسين حجريين مسقطين تتدلى منهما القناديل .

أما الجناحان الشرقي والغربي للباحة فهما يحتويان على الحشوات ، وهي عادة غرف استقبال إضافية كالمربع والصالة ، ومنطقة الخدمات التي تشتمل على المطبخ والمرحاض وبيت المؤونة الذي يبنى عادة على منسوب نصف مدفون في الأرض ، بالإضافة إلى عدد من الأدراج الخشبية أو الحجرية المؤدية إلى الطابق الاول الذي يتكون من رواق مغطى يدور حول الأجنحة الثلاثة : الشمالي والشرقي والغربي لتتحلق حوله الغرف المتعددة .

وأحيانا يعالج الجناح الشمالي بنفس معالجة الإيوان فى الجناح الجنوبي ، مما يؤدي إلى تقسيم هذا الطابق إلى جناحين منفصلين يصعد إليهما من درجين فى الطابق الأرضي ، لتشغل غرفهما التي تدعى فرنكات كغرف نوم ومعيشة لاستقبالها أشعة الشمس ، وهذه الفرنكات غالبا ما تتقدم فوق الطابق الأرضي بشكل بارز قائم على عقد ، وقد تخصص الفرنكات لوحدات عائلية مختلفة تنتمى للعائلة الكبيرة ، ويصح ذلك بفضل انفصالها عن بعضها في مجال الحركة ، وانفتاحها على الرواق المطل على الباحة . وفي الغالب كانت تضاف غرفة على سطح هذا الطابق وتسمى (الطيارة) كأصدق تعبير عن وضعها المعماري ، وقد غلفت من ثلاث جهات بالنوافذ الزجاجية لتستعمل صيفا وشتاء كغرفة معيشة وسمر .

والتنقل بين الإيوان والباحة والسطح يتم في فصل الصيف ، وذلك في محاولة لاقتناص أفضل الشروط المناخية ، وبالمقابل نجد الاستقرار في فصل الشتاء فى الطابق الأول المتلقف للشمس المتميز بحجم الغرف الصغيرة التي يمكن تدفئتها بطريقة أيسر ، حيث نجد أفراد العائلة يتحلقون حول المنقل على الأرض المغطاة بالسجاد .

أما الضيوف فيتم استقبالهم في إحدى هذه الغرف إن كانوا من الأقارب ، أو في قاعة جنوبية مغلقة في الطابق الأرضي إذا كانوا غرباء .

البيت الدمشقي والبيئة

لعل استجابة البيت الدمشقي هذا للمناخ تكمن في مواد إنشائه ايضا . فهي من الطين والخشب والحجر ، وهي مواد طبيعية . لعب موقع دمشق وسط غوطتها أثرا واضحا في تأمين المواد الأولية لبنائه في العهود السابقة ، فلقد انتحب أهل دمشق هذه المواد من صلصال الأرض وجذوع شجر الحور اتقاء لشر الزلازل .

فالبيت الدمشقي يعتمد في بنائه على التراب في الدرجة الاولى وذلك بخلطه بالقش المكسر لبناء الجدران التي تتخللها طبقات من الخشب إذا كان البيت مؤلفا من طابقين وهو الغالب ، ويتضافر خشب الحور مع التراب لتغطية المسكن بالسقف ودعم الجدران ، فهذه المواد سهلة البناء قليلة التكاليف رديئة النقل للحرارة والبرودة ، قادرة على حماية الإنسان من العوارض الجوية وتقلبات الطقس .

وإذا كانت مادة الحجر كما رأينا سابقا هى مادة الانشاء لواجهة الجدران الأرضية للباحة ، وتشكل مادة الإنشاء لإطارات الأبواب والنوافذ والأقواس ، فإن مادة الطين والخشب تشكل القواطع ، ومادة الإنشاء للطابق الأول فهي عبارة عن هيكل خشبي مملوء بصفوف من اللبن المرتب على ميل حوالى (٤٥") « وهو إنشاء خاص بدمشق » ، وعادة يكون أقل سماكة من جدران الطابق الأرضي ٤٠ ـ ٦٠ سم ، ومطين من الخارج بطبقة من الزريقة المكونة من الكلس ورماد الحمام وقشر القنب ، ومن الداخل إما مطينة بالكلسة أو الزريقة ، أومعطاة بألواح خشبية مزخرفة كما رأينا في حالة قاعات الاستقبال ، أو في حالة وجود غرفة نوم للضيوف في الطابق الأول ، ولم يغفل المعمار الدمشقي بالإضافة لذلك مشكلة تصريف مياه الأمطار من أعلى أسقف المنزل ، فقد خصها بميل يسهل انحدارها إلى نقطة أو أكثر من على السطح إلى ميزاب معدني .

كما ساعده استخدام الخشب في إقامة الشرفات التي غالبا ما تكون متجهة نحو الباحة لضرورات دينية وأمنية ، وأما إذا اتجهت نحو الخارج فتكون مستورة بالخص الخشبي المركب من العيدان ، وذلك للتخفيف من حدة أشعة الشمس ، ولحجب من في الداخل عن أعين المارة في الطريق .

لاشك أن البيت الدمشقي التقليدى هو جنة لسكانه ، فيه يتحقق الأمن والراحة والجمال ، فهو حصيلة تضافر الظروف المناخية والعادات والتقاليد والمعتقدات التي لعبت دورا بارزا في تصميم هذا الطراز الذي يظهر مدى تلاؤم الإنسان في دمشق مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ، كما يعكس لنا مدى التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصل إليه أبناء دمشق في عهودهم السابقة . □

نصف ضحكة

● توجه أحدهم لزيارة أحد المسئولين بإدارة المباحث الجنائية ، فقالت سكرتيرته : إنه غير موجود الآن . هل تحب أن تترك له بصمات أصابعك ؟

هو.. هي

غريب في بيتي

● كثيراً ما تكون أكثر الأمور بديهية هي أبعدها عن الذهن . والأحداث الحتمية هي التي لا يحسب أحد حسابها .

توفي والد زوجي بعد عمر طويل حافل ، لم يتعرض خلاله لأكثر مما تعرض له آخرون أفضل أوضاعاً . لم يفقد مالاً ولم يعان من المشكلات مع أبنائه أثناء تربيتهم وتعليمهم ، ثم استقلالهم في حياتهم الزوجية إلا أقل القليل . ولأن أشقاء زوجي الثلاثة كلهم متزوجون ، ولأنني زوجة الإبن الأكبر ، فقد انتقلت والدة زوجي للعيش معنا في منزلنا المتواضع الذى يضمنا زوجي وأنا وأبناءنا الثلاثة .

لم أعر الأمر اهتماماً في البداية ، فقد كانت حرمة الموت أكبر من أي مشكلة . إلا أن الأمور أخذت في التطور لتعصف بعلاقاتنا الأسرية التي فقدت الكثير من خصوصيتها مع وجود والدته بيننا . فقد كثرت تدخلاتها في حياتنا الزوجية ، وسلوكياتنا الاجتماعية ، ووصلت تدخلاتها الى الطريقة التي نربي بها أبناءنا . وكلما حاولت أن ألفت نظر زوجي الى تصرفات والدته بادر بالدفاع عنها وأخذ جانبها وبدأ بلومي ، مستعينا بأمثلة جاهزة ، وبأقوال مكررة قد تنطبق على أي مشكلة أخرى ، إلا أنها لا تنطبق على مشكلتي أنا - مشكلتنا - بالذات . ومرة اقترحت عليه أن يطلب من والدته التنقل بين منزلنا ومنازل إخوة زوجي بالتساوي ، إلا أنه رفض الفكرة من أساسها قائلا : إن وجود والدته ليس مصيبة لتوزع عليه وعلى أخوته ، واقترحت عليه مرة ثانية أن يطلب منها عدم التدخل في طريقة تربيتنا لأبنائنا على الأقل ، فاحتد وقال إن مثل هذا الطلب يعتبر طرداً غير مباشر لوالدته من المنزل ، وإنه لن يفعل ذلك مهما كلف الأمر . لكن الغضب بلغ بزوجي ذروته ، ولا أدرى لماذا عندما اقترحت عليه أن يضعها في ملجأ للعجزة . مع أنني أوضحت له أن « ملجأ العجزة » ربما كان سيء السمعة والوقع ، لكنه المكان الذى قد تقابل فيه سيدات في مثل سنها يشاركنها بعض اهتماماتها ، وتجد هناك من يقوم على خدمتها بشكل أفضل مما نقوم به نحن بسبب عملنا نحن الاثنين ، وصغر أبنائنا . وقلت له إننا لن نتركها ، بل سنحضرها للمنزل متى شئنا ومتى طلبت هي . وأننا لن ننقطع عن زيارتها . وعند هذا الحد نفد صبر زوجي وبدأ بتعنيفي بطريقة لم أشهدها طوال حياتي الزوجية ، ووصل به الأمر حد تخييرى بين البقاء في المنزل مع والدته ، أو مغادرة المنزل الى غير رجعة إن تشبثت بموقفي .

إنني أحب زوجي ، ومشكلتي ليست معه . فهل من العدل أن تتحطم حياتي الزوجية بسبب شخص ثالث ، حتى لو كان هذا الشخص هو والدته ؟ .

.. هي

الجنة تحت أقدامها

■ لا أعرف ماذا يدهى النساء أحيانا . لكنني أعرف أنهن يخرجن في بعض الأحيان عن الطبيعة السوية ويتحولن الى مخلوقات قاسية لا ترحم .

وأعرف أن البيت مملكة المرأة سواء أكانت تعمل أم لا . وأن إحداهن قد تحتمل الأخرى ضيفة عليها لفترة من الزمن ، إلا أنها لا تحتمل إطلاقا أن تنازعها امرأة أخرى عرش مملكتها . لكن لكل شيء حدوده ولكل قاعدة استثناءاتها ، وعبثاً حاولت أن أفهم زوجتى أساس هذا الاختلاف ، إلا أنها لم تزدد إلا عناداً وتعنتاً مما كدر علينا صفو حياتنا وأوصلنا الى حافة الطلاق .

فعند وفاة والدى رحمه‌الله ،كان طبيعياً أن تأتي والدتي لتقيم معي في المنزل مع زوجتي وأبنائى باعتبارى ابنها الأكبر . وكنت أعلم أن هذا يلقى على زوجتي أعباء كبيرة ، من حيث كمية العمل الذى عليها القيام به في المنزل بعد يوم عملها المضني في المكتب ، وأعلم أن كلا من زوجتي ووالدتي لها طريقتها الخاصة في النظر الى الأمور وتقديرها ، ولها نظرتها في الحياة الاجتماعية والاهتمامات وفي طريقة تربية الأولاد ، نظراً لاختلاف الجيل والتجربة والتربية والحصيلة الثقافية ، إلا أنني لم أجد داعيا لاصطدام الاثنتين وتلاسنهما كما حدث أخيرا . وكنت ومازلت أرى أن على زوجتي أن تكون أكثر مرونة تجاه والدتي التى تشعر بالوحدة والوحشة والفراغ الكبير ، مما يجعلها تبدى ملاحظات قد لا تكون ضرورية أو صحيحة ، بل لأن تثبت لنفسها قبل الآخرين أنه مازال لها دور تؤديه ومازال لديها شيء تقوله .

إلا أن زوجتي لم تستطع استيعاب هذا الأمر الذي يبدو لي طبيعيا ، وبالمقابل بدأت تدخل في نقاشات غير متكافئة مع والدتي ، وتطور الأمر لتقترح علي أن أطلب منها العيش في منازل أخوتي الآخرين بالتناوب ، ثم بلغ بها الأمر حد اقتراح إرسالها الى ملجأ العجزة . عندها لم أتمالك نفسي من الغضب والصراخ في وجه زوجتي وتخييرها بين البقاء مع والدتي ، أو مغادرة المنزل نهائيا . ولم أكن أتصور أن تصل الخلافات بين زوجتي وبيني الى هذا الحد في يوم من الأيام . لكن هذا ماحدث .

ثمة أمور لا تقاس بالمنطق . فحتى لو كانت والدتي على خطأ في كثير من تصرفاتها وتعليقاتها ، فإنني أرفض أن يكون عقابها هو إرسالها الى ملجأ العجزة ، فهل من العدل أن تلقى والدتي التي أنا ملزم بها مثل هذا المصير حتى لو كان لإرضاء زوجتي ؟ . □

هو ..

الطفل عندما يمشي

بقلم: الدكتور حسن فريد أبو غزالة

الطفل الطبيعي النموذجي الذي يقاس به الأطفال لم يولد حتى الآن في عرف الطب، فالأطفال جميعاً طبيعيون إذا ما كانت مقاييسهم ضمن حدود عامة يعتبرها أهل الاختصاص طبيعية. وبقدر ما يبتعد هذا الطفل أو ذاك، أو بقدر ما يقترب، من هذه المقاييس يكون الحكم عليه.

إن هذا الاقتراب أو ذاك الابتعاد ليس بالضرورة شاملا لكل المقاييس، ولم تكن كل المقاييس تسير دوماً في خطوط متوازية، إذ ليس بالضرورة أن تظهر أسنان الطفل ويسبق أقرانه في ذلك إذا تمكن من المشي مبكراً، والعكس صحيح أيضاً.

ربما كان يحلو للآباء والأمهات أن يقرنوا ذكاء الطفل بحركاته، فالأمر يسعدهم ويدغدغ مشاعرهم، ويحدث لهم ذلك عندما يتوهمون أن الطفل الذي يمشي سابقاً أقرانه هو طفل أكثر ذكاء، كما قد يصابون بالخيبة إذا ملكتهم القناعة أن ذكاء طفلهم قد تدنى لأنه قد تخلف في القدرة على المشي.

ومن سبق غيره من الأطفال في قدرات الكلام ليس هو الأكثر ذكاء وفطنة، وليس من تخلف منهم في النطق هو البليد الغبي.

إذن فليس للأمر ضوابط وليس له روابط.

ربما كانت ظاهرة النطق وظاهرة المشي هما الأكثر إثارة للأهل بين كل مظاهر النمو عند الأطفال، لهذا فالقضية التي نطرحها - المشي - تستقطب اهتمام الوالدين وتستحق منا بعض التفصيل.

إن الجلوس وما يعقبه من قدرة على المشي هما من مظاهر النمو لدى الطفل، وقد يسرعان أو قد يبطئان لسبب ظاهر، أو ربما لسبب غير ظاهر، غير أن الأمر لا يمكن تحديده بدقة، ولا يمكن ربطه بسن معينة، إذ ليس هناك سن يقال عنها بأنها سن الجلوس، أو سن المشي، غير أن الملاحظة العامة تقودنا إلى القناعة بأن غالبية الأطفال الطبيعيين يمكنهم الجلوس في حوالي الشهر السادس من أعمارهم، كما أنهم يستطيعون المشي في عمر يقارب نهاية العام الأول.

ومع هذا فسجلات الأطباء قد تشير إلى أطفال جلسوا في شهورهم الأولى ، وآخرين استطاعوا المشي قبل اكتمال العام الأول ببضعة أشهر .

غير أن الجلوس والمشي يمكن أن يتأخرا أيضا حتى سن متقدمة ، وقد تتعدى سنتين ، دون أن يؤخذ الأمر دليلا على ذكاء أو غباء ، أو يرتبط ذلك بمظاهر البلوغ بعد ذلك .

ربما كانت هناك عوامل ومقومات لابد أن تتوافر لكي يستطيع الطفل الجلوس او الحبو أو المشي ، ولعل أهم هذه العوامل هي :

نمو العضلات

نمو العظام

نمو الأعصاب

ونمو هذه الأجهزة مرتبط بدوره بعوامل اخرى منها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ، ويمكن أن نستعرضها بإيجاز على الوجه التالي :

أولا : العوامل الوراثية :

يحتاج الجهاز العصبي في أطوار نموه إلى ما يعرف بعملية التغليف ، حيث يتكون جراب دهني مع مرور الأيام ، وسرعة نضوج هذا الجراب وتكونه هي التي تحدد قدرات الجلوس أو المشي دون أي ارتباط بالكفاءات والقدرات الأخرى .

ثانيا : العوامل البيئية :

من الملاحظات التي تسجلها قراطيس الطب أن الأطفال المهملين دون رعاية أو اهتمام أو توجيه ، كما هو الحال في دور الحضانة وبيوت الرعاية ، يتأخرون في مشيهم عن أقرانهم ، ممن يعيشون في بيوت يرعاهم فيها آباء وأمهات .

ويشابههم في هذا فريق الأطفال المرفهين المدللين ، ممن ينالون رعاية زائدة عن الحد المعقول ، فهؤلاء عرضة أيضاً للتخلف عن المشي ، لعدم تدريبهم على الاعتماد على النفس

ثالثا : عوامل مرضية :

بعض الأمراض لها تأثير مباشر فاعل على قدرات الجلوس والمشي ، لأنها تحد من كفاءة الجهاز الحركي الذي يتحكم في العضلات والعظام والأعصاب ، ومن ضمن قائمة الأمراض نجد الشلل الدماغي ، والتخلف العقلي ، والطفل المغولي ، ومرض الكساح ، وأمراض الوهن الفعلي ، أو مرض الزهري الوراثي .

رابعا : عوامل شخصية :

من الملاحظ أن لشخصية الطفل دوراً يؤثر على قدرات الجلوس والمشي ، لأن ذلك يحتاج إلى الاعتماد على النفس ، فاذا ما كان هناك شيء من الاضطراب النفسي ، يفقد الثقة بالذات ، فإن الأمر سينعكس على قدرات الطفل لا شك .

خامسا : الطفل المعاق :

أمر الطفل المعاق لا يحتاج إلى نقاش وجدل في

مدى تأثيره على قدرات الطفل ، كما هو الحال مع طفل ضرير أو طفل مصاب بشلل الأطفال .

سادسا : عوامل مجهولة :

لقد لوحظ أن هناك عددا من الأطفال الطبيعيين بالمقاييس المعروفة ، يتأخرون في جلوسهم أو مشيهم حتى سنوات متقدمة من أعمارهم ، دون سبب واضح مفهوم .

ومن الملاحظات التي تسترعي الانتباه أن بعض أهل الطفل وذويه إذا ما تخلف عن المشي يتوجهون إلى طبيب العظام ، يطلبون منه النصيحة والمشورة والعلاج ، وكان أجدر بهم أن يطلبوا مشورة طبيب الأطفال المختص . وبعض آخر من هؤلاء قد يتوهم أن سبب التخلف انخلاع وراثي في مفصل الورك ، وهو ظن لا أساس له . ولعل بعض الناس يلقي المسؤولية على بدانة الطفل ، ويحملها أسباب التخلف ، ولكن الدليل لم يقم على صحة هذه الدعوى ، لهذا فالرأي الأصوب دوماً هو رأي طبيب الأطفال المختص ، مع التأكد مرة أخرى على عدم الربط بين المشي وقدرات الطفل الأخرى . □

* الطالب / هاشم بذري ـ الحراك ـ سوريا

علاج الضعف العام ليس بهذة البساطة التي تتصورها ، فالأمر يحتاج إلى تحديد السبب وعلى ضوئه يتم العلاج ، ولهذا لا بد من مراجعة طبيب للقيام بالكشف الطبي والتشخيص .

* السيد / محمد عبد الغني حزام الظباني ـ تعز ـ اليمن

حب الشباب هو أمر من أمور الشباب ، يشفى عندما يتجاوز الشاب حدود مرحلة المراهقة ، فلا حاجة بك للقلق ، وكل ما هو مطلوب منك أن تحافظ على نظافة جسمك مع عدم العبث بهذه البثور حتى لا تلتهب ، ويا حبذا لو استشرت طبيبا مختصا في الأمراض الجلدية .

* السيد / ق . م . م ـ حمص ـ سوريا

من الأفضل تزويدنا بتقرير طبي من جراح يتولى فحصك حتى يمكن أن نسدي لك النصيحة الصادقة .

* السيد / ط . م . ـ الحسيمة ـ المغرب

كثافة الشعر أمر وراثي لا علاقة لَهُ بأية عادة أو طعام .

أما بالنسبة لضعف اليدين فإن الأمر يحتاج إلى فحص طبي لتشخيصه أولا ثم العلاج فيما بعد .

* السيد / ص . ح ـ حلب ـ سوريا

حمى البحر الأبيض المتوسط هي مرض وراثي يداهم المصاب في نوبات من الحمى والمغص ، وعلاجه الأفضل هو الكولشسين ، لكن الغذاء لا دور له في الأمر ، أما بالنسبة للزواج فالمرض لا يعطل من قدرات المصاب لكنه قد ينعكس على الأطفال وراثيا .

* السيد / ممدوح مغايري ـ حلب ـ سوريا

رسالتك ليست واضحة لدرجة يمكن معها الاجابة الأمينة ، ولهذا يرجى استشارة طبيبٍ يتولى فحصك وتشخيص مرضك .

صداقة

لم ألتق بأي من أصدقائي منذ سنوات ، ولم يلتق أحد منهم بالآخر منذ أعوام طويلة . ومع ذلك فعندما أشير إلى الأصدقاء فإنني أعنيهم ، وإذا سئلت عن أصدقائي في هذا العالم فإنني أعدد أسماءهم ، ولا أدري إن كان في الأمر مبالغة .

تعرفت عليهم في أيام الدراسة الجامعية ، وهي أيام التكون الفكري والثقافي ، وتبلور الشخصية ، ومعرفة النفس والتعرف على الآخرين . لم نكن جميعا على اتفاق في الفكر أو الميول أو المواقف السياسية . وكان تحصيلنا الثقافي متفاوتا ، ولم تكن شخصياتنا متشابهة ، ولا أدري إن كان اختيارنا المشترك قائما على الإعجاب والحب فعلا . لكننا التقينا معا ، تحاورنا ، اتفقنا واختلفنا ، وأحببنا وتطاهرنا ، وتسكعنا وتمردنا على ما اعتقدنا أنها قيم بالية . فشلنا ونجحنا ، وحلمنا وأحبطنا ، وحاولنا أن نكون أبناء عصرنا كل على طريقته ، لكننا لم نكن قط صورا لبعضنا بعضا . وعندما انتهينا من دراستنا انفرط العقد ، وتفرقنا ، وانتشرنا في الأرض الواسعة . وبدأ كل منا حياته العملية بعيدا عن الآخر . لكنا بقينا يتابع بعضنا بعضا عن بعد ، ربما التقى أحدنا بواحد من الأصدقاء الآخرين . وربما تحدث واحد منا مع الآخر بالهاتف ، أو بعث إليه برسالة ، وربما التقى اثنان أو ثلاثة منا لفترة من الزمن في مكان ما من العالم الفسيح . لكننا لم نجتمع كلنا معا في مكان واحد لنرى ماذا بقي من تلك الأيام وماذا اختلف ، ماذا تطور وماذا تغير .

وعلى الرغم من ذلك بقي مشتركا لدينا إعلان الصداقة التي تربطنا منذ ذلك الزمن الذي أصبح بشكل ما سحيقا . خلال الأعوام التي تلت تخرجنا ، تعرفت على أصدقاء جدد . كان انسجامي الفكري مع بعضهم أكبر ، وكانت مساحة اهتماماتي المشتركة مع بعضهم الآخر أوسع ، وكانت رؤيتي للأمور مع غيرهم أكثر وضوحا ، ووعينا بالقضايا على نفس المستوى من النضج ، وردود أفعالنا أكثر تناسقا ، وثقافتنا أكثر قربا .

ومع ذلك فإن فكرة الصداقة بقيت مرتبطة بأصدقائي القدماء ، وكلمة الأصدقاء تعنيهم هم بدرجة أساسية . وكثيرا ما أتصور أن العالم إذا خذلني فإنهم لن يخذلوني .

لا أدري إن كان هذا الاعتقاد وهما أم حقيقة . ولا أعرف إن كان ذلك ضربا من رومانسية ظلت كامنة في جزء من قلبي الذي اكتهل ، أم هو حنين إلى أيام الشباب الغض ، والحلم الأول والحب الأول ، وإلى أولئك الذين كانوا شهودا على كل ذلك ، أم هو احتماء بوهم جميل من قسوة الزمن الذي لا يرحم ؟ ربما كان بعض ذلك ، أو ذلك كله وغيره . لكنها في كل الأحوال تلك الطبيعة البشرية التي تأبى الرضوخ لتفسيرات جاهزة فتبقي للحياة سحرها العصي على الفهم ، والذي به تمضي الحياة وتستمر . □

صلاح حزين

العربي - العدد ٣٦٦ - مايو ١٩٨٩ م

جمال العربية

بقلم : الدكتور حسن عباس

□ صفحة لغة

ألفاظ عامّية فصيحة

لو قدر لباحث أن يتوفر على لهجة عربية محلية بعينها - أو لهجات - فينحي جانبا كل ما شابها من كلمات دخيلة ، لحصل على أعداد لا تحصى من الكلمات العربية الفصيحة التي لا نشك في نسبها إلى اللغة العربية الفصحى . وإن عملت العامة على تحريف نطقها أو عمدت إلى قلب حروف معينة من أحرفها . ونقصد بالكلمات الدخيلة الكلمات الأعجمية .

وقد دخلت إلى اللهجات العربية إما عن طريق الاحتلال الأجنبي لهذا القطر العربي أو ذاك ، وإما لتطرف قطر عربي في موقعه الجغرافي بحيث تتجاور البلدان والشعوب فلا مناص لإحداها من أن تتأثر بجاراتها الأخرى . قل هذا التأثير أو كثر ، ومن مظاهر ذلك التأثير تبادل الألفاظ وشيوعها في اللغات المتجاورة . ومن مصادر التأثير الأخرى وجود أقليات عرقية غير عربية في قطر عربي يساعد على نقل مفردات من لغة أو لغات تلك الأقليات إلى اللهجة العامية .

إذا استثنينا الدخيل في اللهجات العربية نجد الألفاظ المتداولة في أحاديث الناس تبتعد كثيرا أو قليلا عن اللفظ العربي الفصيح بقدر حظ المتكلم من التعليم والثقافة . على أن ما ينبغي لنا التأكيد عليه هو أن في كلام العامة كثيراً من المفردات العربية الفصيحة التي لا يضير الكتاب العرب استعمالها فيما يكتبون ، ونخص منهم العاملين في مجالات المسرح والإذاعتين المسموعة والمرئية وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري .

وقد نشط عدد من الباحثين العرب في التنقيب عن هذه المفردات وتدوينها ، وبيان أصولها الفصيحة بدءا بالجهود الفردية التي قد ترجع أوائلها إلى أكثر من ثلاثة قرون خلت ، وانتهاء بمحاولة الدكتور « محمد داود التنير » ، بل إن هناك لجنة تدعى لجنة اللهجات تتبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تتولى البحث في مثل هذا الموضوع وغيره من الموضوعات ذات الصلة باللهجات العامية .

قام الدكتور التنير بجمع أكثر من ألف وأربعمائة كلمة حسبها الناس عامية وهي فصيحة ، ونشرها في كتاب رتبه بحسب ترتيب حروف الهجاء ومن تلك الكلمات مثلا :

* الصلعة : فالعامة يصفون رأس الرجل وقد تجرد من الشعر بالصلعة ، ونحسبها عامية وهي فصيحة . فالصلعة : جلدة الرأس انحسر عنها الشعر ، فصَلِعَ فلان ، يصلع صلعا : انحسر شعر مقدم رأسه أو وسطه .
* الصهد والصَّيهد : والصهد والصَّيهد هو الحر الشديد : والناس تقصد عادة الحرارة الصادرة عن النار المتوقدة . وصَهَدَ الحر صهدا وصَهَدانا أي اشتد .
* صوب الساقية : يقولون : فلان ذهب صوب

كذا ، وهي فصيحة فالصُّوب هو الجهة ، ومنه اتجه صوبه .

* الصيص : يقولون : هذا صيص أو بلح صيص ، إذا كان أحصر لم ينضج ، وهي فصيحة . فالصيصُ والشيصُ تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره أو لفساد آخر أصابه . ويقال صاصت النخلة تصيص صيصا أي صار ما عليها صيصا .

* الصنان والصنَّة : الكلمتان دارجتان وفصيحتان . وفي اللغة صنّ صنا معناها . أنتنت رائحته والصُّنان رائحة كريهة (تنتج من تراكم البول في مكانه) ، ويستعملها الناس أيضا لرائحة البصل .

* صاري وصريْتُ : يقولون : فلان ضاري على كذا ، أو ضريْتُ على فعل كذا ، والأصل ضرى به أو عليه ، ومعناها لزمه ، أو أولع به ، ومعناها أيضا اعتاده واجترأ عليه . فهي فصيحة ولا غبار عليها

* ضَبَع : يقولون : فلان ضبَع في الأمر ! يقصدون أوغل في الأمر دون مراعاة للحق . والكلمة فصيحة والضَّبْع هو الجور ويقال فلان يضبع أي يجور . وضبع صيغة مبالغة من ضبع ضبعا وضبعانا بمعنى جار وظلم

* الضبة والمفتاح : نحسب الضبة عامية وهي فصيحة . فالضبة حديدة عريضة يضب بها الباب والخشب وضبَّب الخشب ونحوه : ألبسه الحديد . وضبب الباب ونحوه . عمل له ضبّة ، أو أغلقه بالضبّة .

* الضُّعف وضعفان وضعّفه : يقال في الكلام الدارج : فلان ضعفان ، بمعنى ضعيف ، وهي فصيحة ، وجمعها ضعاف . كما يقال في الكلام الدارج : فلان غاية في الضعف وهي فصيحة مثل الضُّعْف . ضعُف يضعف ضُعفا وضَعَفا أي هزل أو مرض وذهبت قوته أو صحته . ويقولون : المرض ضعّفه بمعنى أضعفه أي جعله ضعيفا وهي فصيحة صحيحة

* الضّنا . يقولون . يا ضناي ! والضنا عال ! بمعنى يا ولدي ، وهي تحمل معنى الإعزاز . والأصل ضنأت المرأة وغيرها ضَنْواً وضنا بمعنى كثر نسلها . والضنى معناها الأولاد أو النسل . وكذلك الضنا .

* الطاجن وطجَّن له . يقولون : الطاجن وجمعها طواجن . وقد ورد في المعاجم أن الطاجَن والطاجن هو المقلي . وذكر الوسيط أنها صحفة من صحاف الطعام مستديرة عالية الجوانب تتخذ من الفخار وينضج فيها الطعام في الفرن . وقال : انها معربة والمُطجّن هو المقلي في الطاجن يقال . قلية مطجنة ويقولون : فلان يطجّن في الكلام ، ويعنون أن كلامه غير واضح وذا جرس خاص ، ولعلهم أخذوها عن صوت نشيش الطعام في الطاجن أثناء إنضاجه

* الطبال . نتحاشى كلمة الطبال بوهم أنها عامية ، ونقول عازف الطبل ، والحقيقة أن الطبال فصيحة ، فهو صاحب طبل ، وهو ايضا الضارب عليه أو الماهر فيه .

* الطبق : الطبق بمعنى الإناء يؤكل فيه ، عربية فصيحة ولا حرج في استعمالها

* طرش ، والطرش : يستعملونها في الكلام بمعنى أصم ، وهي فصيحة ، فطرش يطرش طرشا وطرشة معناها : ثقل سمعه ، ومعناها أيضا تعطلت حاسة سمعه . والأطرش هو الاصم ، وهي طرشاء ، والجمع طُرش

* طرطور : زيد هذا طرطور ، هكذا نقول في الكلام الدارج ، ونعني أنه ساقط النفس والهمة ، ضعيف ، وهذا هو بالضبط معناها في الفصحى ، فلا حرج في استعمالها ، وجمعها طراطير .

* طفا ، وطفّا : يقولون : فلان طفا النار وغيرها ، أو طفّاها (بتخفيف الهمزة) وهي مأخوذة من طفأ وطفّأ ، ويقولون : المصباح انطفا (بتخفيف الهمزة أيضا) بمعنى خمد نوره ، وكلها فصيحة مخففة ولا بأس في استعمال التخفيف . ☐

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأنبياء

في حب صقلية

للشاعر ابن حمديس

ظل مغتربا طوال حياته . لم يتخذ لنفسه وطنا على الرغم من طول بعده عنه . إنه شاعر الاغتراب والحنين الدائم إلى الوطن « عبدالجبار بن حمديس » . ولد في عام ١٠٥٥م من أصل عربي ، وكان مولده في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية الايطالية ، وقد كانت آنذاك عربية !

لم يكن حال العرب في صقلية ينبىء بخير في منتصف القرن الحادي عشر والأعوام التالية . فقد سقطت مدن الجزيرة كلها في أيدي النورمان في عام ١٠٩٢ ، أي بعد ولادة ابن حمديس بسبع وثلاثين سنة . وكان سكان الجزيرة من العرب قد انقسموا إلى فريقين : منهم من انتظم في صفوف المقاومة دفاعا عن الجزيرة ، ومنهم من آثر الهجرة إلى القيروان والأندلس ومصر ، وهي المهاجر التي اتخذها النازحون أوطانا جديدة . أما ابن حمديس فقد يمم شطر الأندلس ، فذهب إلى اشبيلية تحديدا ، وكانت الأندلس آنذاك مقسمة مجزأة يحكمها ملوك الطوائف . وكان حاكم اشبيلية « المعتمد بن عباد » ، وهو رجل تمثل في شخصه رجل السياسة والشاعر والأديب ، ولم يكن غريبا ـ والحال كذلك ـ أن يزدحم قصره بشعراء ذلك العصر وأدبائه ، وحسبنا أن نذكر منهم ابن زيدون والحجام وابن وهبون .

سعد ابن حمديس بالحياة في اشبيلية ، وتكونت له صحبة من الشعراء ممن كان يعج بهم بلاط المعتمد . وكان وأصحابه يغشون مجالس اللهو والشراب على السواقي بأشبيلية ، ويشهدون مجالس أخرى تتجلى فيها فنون الغناء والرقص . وقد وجد ابن حمديس في ذلك كله امتدادا لحياة ناعمة كان يحياها في وطنه ـ صقلية ـ بعد أن ارتضى العيش في كنف المعتمد ، فأحبه وامتدحه وعدد مآثره وأثنى على جهاده وشجاعته ، ووجد فيه رجل الدولة الذي تمنى أن يقترن به اسمه . أما أشبيلية فلم تكن لتقل في جمالها وطبيعتها الساحرة وحضارتها عن مدينته التي ولد فيها : سرقوسة . فلئن توافرت له مثل هذه الظروف ، فقد أوشك أن يطمئن إلى وطن بديل .

لم يكن من شأن الأيام الجميلة أن تدوم ، فلقد فاجأت الشاعر أحداث جسام تغير معها وجه الدنيا ، وتغيرت معها أيضا نظرته إلى الحياة والناس . فالأخبار الواردة من صقلية تنبىء بأن المقاومة قد بدأت تضعف على الرغم من البسالة التي أبداها المدافعون عن الجزيرة بقيادة « ابن عباد الصقلي » ، وإن احتمال استيلاء النورمان على بلاده بات مرجحا . ولكن القائد ابن عباد غرق في

إحدى المعارك البحرية . وسقطت صقلية ، فتجرع ابن حمديس بسقوطها كأسا ظل يستشعر مرارتها على مر الأيام . اتضح ذلك في شعره وضوحا بينا . فهو لا يكف عن ذكر الوطن أيا كانت المناسبة التي يتحدث فيها . والقصيدة التالية ـ وقد نظمها وهو مشرف على الستين من عمره ـ دليل على ذلك الحنين والوجد الخالدين .

قضَتْ في الصِّبا النفسُ أوطارَهَا ... وأبلغها الشيبُ إنذارها
نَعَم وأجيلت قِداح الهوى ... عليها فَقَسّمن أعشارها
وما غَرَسَ الدهرُ في تربةٍ ... غراساً ولم يجنِ أثمارَها
فأفنيتُ في الحربِ آلاتها ... وأعددت للسلم أوزارها
كميتاً لها مَرَحٍ بالفتى ... إذا حثَّ باللهو أدوارها
تناولها الكوبُ من دنها ... فتحسبه كان مضمارها
وساقية زرّرت كفها ... على عُنق الظبي أزرارها
تدير بياقوتةٍ دُرة ... فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدقٍ كزهرِ النجوم ... كرام النحائزِ أحرارها
يديرونَ راحاً تفيض الكؤوسُ ... على ظُلمِ الليلِ أنوارها
كأن لها من نسيج الحَبَاب ... شباكاً تُعقلُ أطيارها
وراهبةٍ أغلقتْ ديرها ... فكنّا مع الليل زُوارها
هدانا إليها شذا قهوةٍ ... تذيعُ لأنفك أسرارها
يرى مَلِكُ اللهو فيها الهمومَ ... تثورُ فيقتلُ ثوّارها
وقد سكّنت حركاتِ الأسى ... قيانٌ تُحركُ أوتارها
فهذي تعانِقُ لي عودها ... وتلك تقبل مزمارها
وراقصةٍ لقَطت رِجلها ... حساب يدٍ نَقَرت طارَها
وقضبٍ من الشمع مُصفرةٍ ... تريك من النار نوارها
كأنّ لها عمداً صُففت ... وقد وزن العدلُ أقطارها
تقلّ الدياجي على هامها ... وتهتك بالنور أستارها
كأنّا نُسلّطُ آجالها ... عليها فتمحقُ أعمارها
ذكرتُ صقليّةَ والأسى ... يهيّج للنفس تذكارها
ومنزلةً للتصابي خلَتْ ... وكان بنو الظرف عُمّارها
فإن كنتُ أخرجت من جنّةٍ ... فإني أحدّث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البكا ... حسبتُ دموعيَ أنهارها
ضحكت ابنَ عشرين من صبوةٍ ... بكيت ابنَ ستين أوزارها
فلا تعظمنّ لديك الذنوب ... فما زالَ ربّك غفّارها

الأبيات الستة الأخيرة في هذه القصيدة هي واسطة العقد ومحل اجتماع القوة إن صح التعبير ، فهي التي تقيم الوحدة بين أبياتها من أول بيت فيها إلى آخر بيت . يقول الدكتور « إحسان عباس » في كتابه : (العرب في صقلية) « وفي هذه القصيدة يريد ابن حمديس أن يجمع أمامنا

أجزاء ذكريات قديمة ، فليس من الغريب إذا جمعها مبعثرة ، لأن ذاكرته تقفز من منظر إلى آخر ، وإنما يوحد بين هذه المناظر أنها مستمدة من الماضي ومن صقلية » .

فهي من وحي الذكرى أو من تداعيات الماضي ، ومن شأن هذه التداعيات أن تقف عند كل تذكار وقفة تطول أو تقصر ، وقفة تنفث فيه حياة بما تحشد له من صور موحية نابضة . فلا بأس إذن من تعدد الوقفات ، فالشاعر يهدف من ورائها إلى رسم صورة عامة لمغاني الشباب ومجالس الأنس في وطن غابتٌ عن ناظره محاسنه ، ولم يعد له أمل في أن تحضن عيناه ربوعه ومجاليه ، فالراجح أن ابن حمديس قد نظم هذه القصيدة وهو مشرف على الستين ، وكان قد ترك الخمر من جملة ما ترك من متع الشباب وفي ذلك يقول :

فرغت من الشباب فلست أرنو ... إلى لهو فيشغلني الرحيق
ولا أنا في صقلية غلاما ... فتلزمني لكل هوى حقوق
ليالي تُغْمِلُ الأفراح كأسي ... فمالي غير ريق الكأس ريق
تجنبت الغواية عن رشادٍ ... كما يتجنب الكذبَ الصدوق
وإن كانت صبابات التصابي ... يلوح لها على كلمي بروق

هي إذن حنين طاغ إلى شباب ضائع ووطن مفقود وذكريات تجمع بينهما على بعد العهد . على أن ابن حمديس يصر مؤكدا على أن ما ورد في القصيدة إن هو إلا « صبابات التصابي » وإن لاحت على الكلام بروق !

لقد بلغت النفس في الصبا أوطارها ، وما إن دب الشيب في شعر الرأس منذرا بالكبر حتى ألقى السلاح وأعد للسلم العدة ، فإذا كانت الشيخوخة قد حرمته من تلك الملاذ ، فلا عليه إن هو تمثلها في الذكرى . يقول : « كنا إذا جلسنا في مجلس اللهو تدور بنا ساقية وقد خضبت كفيها بالحناء وبيدها الشراب فكأنها تغمس فيه نارا ! ولا يقوم المجلس إلا بالأصدقاء وهم فتيان صدق ، تكاد الكؤوس في أيديهم تفيض نورا تبدد به ظلام الليل ، وقد كاد الحباب المتكاثر عند ارتشافها ينسج شباكا تحول بين الفقاعات وبين أن تفلت أو تطير ! تلك صورة من صور اللهو أيام كنا ننعم بالشباب ونتفيأ ظلال الوطن . وكنا نستمع في تلك المجالس إلى المغنيات وهن يداعبن الأوتار ، ونشهد الراقصة إذ تلتقط حركة ساقها نقرة الطار ، فتهتز على وقعها في تبادل رشيق بين الحركة والنغم . وانظر إلى قضب الشمع الصفراء التي تتقد رؤوسها فتحيل النار نورا ، بل هي ترفع الظلام على هاماتها حين تشيع النور في المكان ، وتهتك به أستار الظلام . على أن لهذه الشموع آجالا ، فما إن نوقدها حتى نسلط آجالها عليها لتمحق أعمارها . »

ذكرت صقلية والأسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة ... فإني أحدث أخبارها

كل ما تقدم من وصف تلك الليلة البديعة قد هيجته ذكرى صقلية ، فأيقظت في نفسه أدق التفاصيل وأعذب الذكريات ، ولكن أين هو من كل ذلك ! لقد أخرج - مثل آدم - من تلك الجنة ولم يبق لديه إلا أن يحدث أخبارها . □

مكتبة العربي

بعثة الشرق الأوسط

THE MIDDLE EAST MISSION

BY ELMOR JACKSON

تأليـــــف :
ايلمور جاكسون

عرض وتحليل : جمال وردة

في ربيع ١٩٥٥ وقبل أن يوجه صفعته المدوية للغرب حين اتجه إلى الكتلة الشرقية لعقد أول صفقة سلاح شيوعي إلى بلد في الشرق الأوسط ، يقال إن الرئيس عبدالناصر قد أبدى استعداده وقتها لجس نبض أي مجهود سياسي يسعى للوصول الى تسوية شاملة في المنطقة . أما قناة الاتصال التي اختارها فكانت جماعة « الكويكرز » : وهي جماعة دينية إنسانية نفترض أنها تكره الحروب وتحرم العنف ويرفض أفرادها الخدمة العسكرية . وقد عرفت هذه الجماعة خلال نشاطها « الانساني » في الشرق الاوسط من خلال دورهم الكبير بالاشراف على برامج المساعدات الدولية إلى لاجئي قطاع غزة عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ . ويبدو أن عبدالناصر كان يمر بظروف عسكرية صعبة لحاجة جيشه الماسة إلى خطة شاملة لاعادة تسليحه بالكامل وكان عبدالناصر يخشى أن لا تصل مفاوضاته مع أمريكا بشأن تسليح جيشه إلى أي نتيجة . فالوصول على الأقل إلى تسوية ولو مؤقتة سيكون من مصلحة الأمن المصري كما يقول المؤلف .

علاقة جديدة قديمة

وقد بدأت علاقة عبدالناصربهذه الجماعة سنة ١٩٤٩ من خلال اشرافهم على معسكرات اللاجئين في قطاع غزة ، ولو أن هذه العلاقة مع الوطن العربي تمتد جذورها تاريخيا إلى أكثر من سبعين عاما ، حين أنشأ الكويكرز مدرسة للبنات في رام الله في فلسطين ، ومدرسة أخرى للذكور في برمانا شرقي بيروت ، ثم أنشأت بعد ذلك مدرسة للبنين في مدينة رام الله أيضا . وكانت هذه المدارس ملتقى للشباب العربي من كل الأقطار آنذاك . واستطاع خريجوها أن يتقلدوا أرفع المناصب في بلادهم بعد ذلك .

وقد تعمقت صلة عبدالناصر بهذه الجماعة خلال حصار الفالوجة حين قام أفراد هذه الجماعة وعبر قنوات الأمم المتحدة بترتيب اللقاءات بين الجانبين المصري والاسرائيلي وذلك من أجل السماح لدخول بعض الشحنات التموينية إلى سكان المناطق المعزولة بالداخل . وكان عبدالناصر وقتها رئيس الجانب المصري في تلك المحادثات .

ثم تطورت هذه الاتصالات إلى لقاءات ومناقشات عامة في أمور الدين والفلسفة والسياسة طوال فترة الستة عشر شهرا التي أمضاها الكويكرز بإدارة برامج الغوث في قطاع غزة ، وقبل أن تسلم هذه المهمة رسميا إلى لجان الأمم المتحدة . إن تلك الاتصالات مع عبدالناصر والثقة المتبادلة بينهم كانت الخطوة الأولى والأساسية للاتصال بهم وعبرهم لمحاولة إيجاد تسوية سياسية شاملة في ربيع عام ١٩٥٥ .

لقد استطاعت جماعة الكويكرز اكتساب ثقة واحترام الجانبين المصري والاسرائيلي ، عربيا من خلال برنامج المساعدات للنازحين الفلسطينيين ، وصهيونيا لنفس الدور تقريبا خلال الحرب العالمية الثانية ، وما قدمته من خدمات للهاربين اليهود من الاضطهاد النازي . وقد حاول الاسرائيليون الرسميون العاملون في أجهزة الأمم المتحدة والسفارة الاسرائيلية في

واشنطن التقرب إلى هذه الجماعة خاصة بعد وصول عضو مهم لهذه الجماعة إلى منصب رئاسة الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة . ومناشدتهم باستمرار لجس نبض الجانب المصري عن إمكانية إيجاد تسوية سياسية بين البلدين .

ومن خلال علاقة الدكتور أحمد حسين مع ميدو زكي عميد أحد المعاهد المتخصصة بالبحوث الاجتماعية بالقاهرة ، ومن خلال علاقة الأخير الوطيدة بجماعة الكويكرز تم ترتيب اجتماع بينهم وبين السفير المصري . وقد حضر هذا الاجتماع في السفارة المصرية من جانب الكويكرز « ديلبرت ديبلوج » وهو من الذين تعرفوا على جمال عبد الناصر أثناء عمليات غزة وحصار الفالوجة . وقد جرى في هذا اللقاء استعراض للوضع السياسي في الشرق الأوسط ، وتكلم الدكتور حسين بصراحة في هذا الاجتماع موضحا أن ما يقوله هو مجرد آراء خاصة وليست بالضرورة آراء الخارجية المصرية . وقد طلب من الجماعة وضع خطة للعمل والتحرك من خلالهاموضحا أنه من الصعب العمل بشكل مباشر ، ولكن ليكن ذلك من خلال قنوات غير رسمية . ومن النقاط التي أثارها الدكتور حسين امكانية اعادة بعض اللاجئين للالتحاق بعائلاتهم التي بقيت في فلسطين المحتلة ، وتوطين الآخرين في مناطق معينة داخل فلسطين ، كما يجب اعادة ترسيم الحدود وفقا لقرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين ، كما أنه لم يحبذ فكرة تدويل القدس . وقد اقترح مزيدا من الاتصال مع السيد « جاكوب بلوشتاين » أحد الشخصيات الأمريكية اليهودية المؤثرة على القيادة الاسرائيلية وكذلك مع السيد « جورج ألن » مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط ، كما أخبرهم بأن الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية المصري سوف يحضر في منتصف يوليو سنة ١٩٥٥ الاجتماع العاشر لذكرى تأسيس الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو . وقد توجه أربعة من قادة الكويكرز إلى جناح الدكتور فوزي في فندق الامباسادور في نيويورك في ١٥ يوليو ١٩٥٥ واجتمعوا به . وهؤلاء الأربعة هم « لويس هوسكين » ، « كولن بيل » ، « سيدني بايلي » ومؤلف هذا الكتاب السيد « إيلمور جاكسون » وقد رحب الدكتور فوزي بأي جهد سياسي تقوم به الجماعة من أجل الوصول إلى حل مناسب لمشكلة الشرق الأوسط ، وقد اقترح الدكتور فوزي إعادة بعض اللاجئين وتعويض الباقين غير الراغبين بالعودة ، ثم اقترح ضرورة إجراء تعديلات طفيفة لربط المناطق العربية بالداخل . وقد ذكر أن ذلك يتطلب اجراء شجاعا من الحكومة الاسرائيلية ، وأعلن أنه ليس لمصر أي مطامع أو مكاسب إقليمية جديدة ولا حتى في قطاع غزة .

عبر بوابة مندلبوم

وقد كشف هذا اللقاء عن نقطة جوهرية وهي ضرورة التحرك السريع ، لأن الوضع في الشرق الأوسط أصبح حرجا ومقدما على مرحلة خطيرة ما لم يسرع المجتمع الدولي بوضع حل عادل لهذه القضية . وقد تم نقل تفاصيل هذا اللقاء إلى السفير الاسرائيلي لدى الأمم المتحدة « ريجالند كيدروم » وإلى السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة « أباإيبان » اللذين وعدا بنقل ذلك إلى المسؤولين في تل أبيب . وقد جاء الرد الاسرائيلي مرحبا بأي مسعى تقوم به بعثة خاصة من الكويكرز لامكانية استكشاف الطرق والوسائل المنوطة بالتسوية السلمية .

وقد تحركت هذه البعثة متجهة إلى الشرق الأوسط . وفي التاسع من أغسطس ١٩٥٥ عبرت هذه البعثة نقطة الحدود الفاصلة بين الجيش الاسرائيلي والجيش الأردني عبر بوابة « مندلبوم » في القدس ، حيث كان في انتظارهم أحد موظفي الخارجية الاسرائيلية ، وقام

بأصطحابهم إلى فندق الملك داود وتم ابلاغ « جدعون رفائيل » أحد مساعدي وزير خارجية اسرائيل آنذاك موسى شاريت بنبأ وصول البعثة .

وعلى العشاء في فندق الملك داود تم عقد أول اجتماع ، وقد حضر من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل ، وكان قد قام بمساعدة موسى شاريت بتأسيس وزارة الخارجية الاسرائيلية وتنظيمها ، وعندما اعتكف بن غوريون في النقب تاركا منصب رئاسة الوزارة قام جدعون بمساعدة شاريت في منصبه الجديد المؤقت كرئيس للوزارة الاسرائيلية . وقد بدأ رفائيل الحديث بالتساؤل عن مدى جدية الجانب المصري وعن اهتمامات عبدالناصر الحالية . وعن ضرورة توافر الثقة في مثل هذه المناقشات ، وقد أعقب هذا الاجتماع جلسة أخرى في منزل جدعون رفائيل حضرها رئيس الوزارة شاريت وآرثر لوري من الخارجية الاسرائيلية ، ومستر إليان أحد المساعدين العسكريين ، وكان هذا الاجتماع الأول مع موسى شاريت الذي أبدى إدراكا وتفهما للقضايا الدوليه كما أبدى بعض الاهتمام بالمصالح الشرعية العربية وامكانية الوصول إلى ترضية مناسبة للطرفين . ثم طلب بعض التوضيحات عن المطالب المصرية . وقد أبدى استعداده بلم شمل بعض العائلات الفلسطينية ثم أوضح مدى أهمية خليج العقبة لاسرائيل .

وقد اقترح شاريت بعض الخطوات اللازمة لتحسين الجو السياسي من بينها تبادل الاسرى وتخفيف حدة التوتر في خليج العقبة، ووقف الهجمات عبر خطوط الهدنة ثم وقف الحملات الاعلامية وفي اليوم التالي ذهبت البعثة إلى النقب لمقابلة بن غوريون وقد بدأ الحديث بالاستفسار عن جماعة الكويكرز وفلسفتهم ومعتقداتهم ثم تحدث عن البوذية وعن محادثاته مع « أونو » رئيس وزراء بورما السابق ، وقد رفض في هذا اللقاء أي تنازل اقليمي من جانب اسرائيل ، بينما تحدث عن امكانية قبول الاقتراحين الآخرين المتعلقين بقضية اللاجئين . ثم أبدى استعداده للذهاب إلى أي مكان لمقابلة عبدالناصر حتى لو كان ذلك في القاهرة . وفي ختام الزيارة أبدى الجانب الاسرائيلي تأثره بهذه الجولة من المحادثات وأعرب عن أمله في استكمال هذا الحوار عبر المباشر أثناء الاجتماع القادم للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك

ومن القدس اتجهت البعثة إلى القاهرة حيث كان في انتظارها ميدو زكي في فندق سميراميس ثم انضم اليه السفير أحمد حسين ، ثم انتقل الجميع إلى منزل الدكتور محمود فوزي الواقع قرب الاهرامات ، وقد تم ترتيب لقاء للبعثة مع الرئيس عبدالناصر .

في مقر قيادة الثورة

وعند الساعة ٧,٤٥ مساء من يوم ٢٦ أغسطس ١٩٥٥ توجه ايلمور جاكسون بصحبة ميدو زكي إلى مقر قيادة الثورة وقد أدخلهما الحرس الخاص إلى احدى صالات الانتظار وبعد مكالمة هاتفية وافق الرئيس عبدالناصر على مقابلة السيد جاكسون وحده .

كان هذا هو اللقاء الأول بين ناصر وجاكسون ، وقد أشاد عبدالناصر في هذا اللقاء

بالدور الانساني الذي لعبته جماعة الكويكرز في قطاع غزة ١٩٤٩ ، حيث كانت بعض الوحدات المصرية محاصرة في الفالوجة . ولهذا يكن لهم الشعب المصري كل تعاطف واحترام . ثم سأل عن انطباعات جاكسون عن جولته الأخيرة في اسرائيل وقد أبدى عبدالناصر تحفظا تجاه عودة بن غوريون من اعتكافه وتسلمه وزارة الدفاع ، فمنذ عودته تصاعدت العمليات العسكرية عبر خطوط الهدنة ثم تلاه الهجوم الاسرائيلي على غزة في ٢٨ فبراير مما جعله يفقد الثقة بالقيادة الاسرائيلية ، ومع هذا التصاعد العدواني ، لم يجد أمامه أي خيار غير الرد على هذه الاعتداءات الجديدة لأن الوضع الآن أصبح قضية شرف عسكري وكرامة وطنية . وعندما حدثه جاكسون عن تبادل الأسرى أجاب عبدالناصر بأنه ليس لدى اسرائيل أسرى مصريون ذوو أهمية عكس ما لدى مصر من أسرى اسرائيليين تهتم اسرائيل كثيرا باطلاق سراحهم . ثم أبدى الرئيس عبدالناصر اهتماما بخصوص اقتراحات اعادة التقسيم وتعديل بعض الحدود .

ثم عادت البعثة من جديد إلى تل أبيب في ٢٩ أغسطس ـ وقد رافق البعثة عند وصولها موظف خاص ـ مباشرة إلى منزل بن غوريون حسب تعليمات رئيس الوزارة موسى شاريت . وعندما وصلت البعثة إلى منزل بن غوريون كان هناك أيضا من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل ، وجاكوب هيرتروج ، والكولونيل أرجون المساعد العسكري لبن غوريون ، وقد اشتكى الجانب الاسرائيلي في هذه الجلسة من تصاعد العمليات الفدائية الفلسطينية في قطاع غزة في الأيام القليلة الماضية ، مما جعل اسرائيل تفكر بشن هجوم واسع على خان يونس ، وعن موقف عبدالناصر أوضحت البعثة الموقف المصري بخصوص تبادل الأسرى وعن تهديد عبدالناصر بوقف هذه المحادثات طالما استمرت الاعتداءات الاسرائيلية عبر الحدود .

وقد خرجت البعثة بانطباع إيجابي من جانب شاريت وبتشكك أكثر من جانب بن غوريون .

ولكن الأحداث تصاعدت عكس ما قدر لها ، وكانت نظرية الردع العسكري الاسرائيلي تنتهج خطة بن غوريون الذي كان يرى أن الزمن ليس في صالح اسرائيل ، وأن أي تقارب بين الدول العربية ، هو مجرد إسفين قاتل في صلب الكيان الاسرائيلي ، وكان من أنصار الضربات الانتقامية الخاطفة والمستمرة ، وقد أضاف تلميذه موشي ديان الى هذه الخطة مبدأ آخر ، وهو الضربة الوقائية المفاجئة لأي قوة عربية ، تنمو وتصبح خطرا على الوجود الاسرائيلي ، بينما كان شاريت من أنصار الدبلوماسية الهادئة باعتباره رجل الخارجية الاسرائيلية الأول . وأمام هذا التناقض في قبضة الأمر الاسرائيلي اعتكف بن غوريون في النقب للراحة والتأمل . وقد تسلم منصبه موسى شاريت ، بينما أصبح بنحس لافون وزيرا للدفاع بالوكالة

وقد شهدت جلسات مجلس الوزراء الاسرائيلي الكثير من الخلافات في وجهات النظر بين شاريت وبن غوريون ، وفي شهر أكتوبر نظم لافون ـ خفية عن شاريت كما يقال ـ غارة وحشية على قرية قبية في الضفة الغربية حيث كانت تابعة للأردن ، بحجة الانتقام من الفدائيين وكانت النتيجة وفاة ٦٦ مواطنا معظمهم من النساء والأطفال ، وقد تم نسف بيوتهم عليهم ، وقتلوا تحت الانقاض ، كذلك أسفرت الغارة عن ٧٥ جريحا . وقد قاد هذه الغارة الهمجية « أريل شارون » ، وعندما استفسر شاريت عن سبب عدم اطلاعه على طبيعة هذه الغارة ، أخبره لافون بأنه قد استشار مسبقا بن غوريون بخصوص ذلك . وبالنسبة لاحراز بعض التقدم في المفاوضات المصرية ـ البريطانية حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر كان في اسرائيل وجهتا نظر حول ذلك الموضوع . فهناك تيار يقول إن ذلك سوف يسرع من توجهات عبدالناصر

نحو الداخل لبناء وطنه ، وأن هذه الاهتمامات الداخلية ستجعله يرحب بأي تسوية مع اسرائيل ، وتيار آخر أقل تفاؤلا يقول : إن الانسحاب البريطاني سيكشف ظهر اسرائيل ، ويعرض أمنها للخطر ، لأن المواجهة ستصبح صريحة ومكشوفة بين البلدين ، وكان موسى شاريت من أنصار الرأي الأول .

ولكن الأمور تعقدت مرة أخرى بأحداث صيف ١٩٥٤ بالقاهرة عقب سلسلة الانفجارات في المؤسسات البريطانية والأمريكية وقد استطاعت أجهزة الأمن المصرية اكتشاف بعض الخلايا الصهيونية التي كانت وراء تلك الانفجارات ومدى ارتباطها بالمخابرات الاسرائيلية .

صفعة لسياسة الغرب

كل هذه التعقيدات عجلت في اتمام صفقة الاسلحة التشيكية التي كانت بمثابة صفعة قوية للسياسة الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط .
إن إبرام هذه الصفقة كان خارج التصور الأمريكي الذي بدا عاجزا مشلولا أمام هذه الحقيقة الجديدة . وقد دافع الرئيس عبدالناصر عن هذا التوجه الجديد للكتلة الشرقية في مؤتمر صحفي أعلن فيه أنه كان قد أبلغ الولايات المتحدة بأنه سيحصل على السلاح الروسي اذا رفضت أمريكا تزويده به ، ولكن يبدو أن امريكا لم تصدق ذلك وعدته نوعا من الخداع السياسي ولكن ليس في الأمر خدعة . فمصر بحاجة إلى السلاح وليس لديها خيار آخر .

كما أعلن الرئيس ناصر أنه ليس لدى مصر نوايا عدوانية تجاه اسرائيل وأن قرار الحرب ليس سهلا . وليس هناك من يقول بأنه سيغزو إسرائيل وكل ما يطالب به العرب هو حق الفلسطينيين بالحياة وحقهم بأرضهم وذلك حسب قرارات الأمم المتحدة التي صدرت قبل سبع سنوات وأن العرب ليسوا أمة عدوانية وأن التهديد قادم من الطرف الآخر .

ان مصر مشغولة ببناء نفسها ولكنها الآن ستعطي الأولوية لقضية الدفاع لأن الحروب لا تقام بالمدارس والمستشفيات والمصانع فقط بل ستكون كل هذه المؤسسات عرضة للتدمير بدون جيش يحميها .

لقد كانت الصفقة التشيكية كما قلنا صفعة للسياسة الأمريكية في المنطقة فلم تكن أمريكا تعتقد بأن مصر ستلجأ يوما الى الكتلة الشرقية ولهذا كان رد الفعل الاول هو الشعور بالصدمة والذهول ثم بدأت أمريكا بمحاولة تقليل حجم الخسائر ما أمكن .

فبعد إبرام هذه الاتفاقية اتصلت الدول الغربية الكبرى الثلاث بالاتحاد السوفيتي معلنة له بأن هذه الصفقة تخالف روح اجتماعهم الذي تم في يوليو ١٩٥٥ . ثم جاء مشروع السد العالي وأظهرت الولايات المتحدة استعدادها مع بريطانيا والبنك الدولي لتمويل هذا المشروع الضخم ولكن أمريكا أرادت من وراء هذا التمويل عقد صفقة سياسية شاملة للشرق الأوسط فقد أرسل دالاس وزير الخارجية الأمريكية مبعوثا خاصا هو « روبرت أندرسون » الى مصر واسرائيل عارضا مساعدة مالية لاسرائيل لدفع تعويضات الى اللاجئين الفلسطينيين وخلق ازدهار اقتصادي في المنطقة

ويكون مشروع السد العالي من ضمن المخطط الاقتصادي الأمريكي للمنطقة . ولكن مهمة أندرسون لم تحرز أي تقدم يذكر .

وفي الوقت نفسه بدأت العلاقة البريطانية والفرنسية مع مصر تتدهور . فقد استاءت فرنسا من الموقف المصري المؤيد والمساند للثورة الجزائرية الأمر الذي دفعها الى زيادة شحنات الاسلحة الى اسرائيل نكاية بمصر عبدالناصر .

التأميم والحرب

وفي ١٩ يوليو أبلغ دالاس رسميا السفير أحمد حسين عن انسحاب أمريكا من خطة تمويل السد العالي . لقد كانت ضربة موجهة الى عبدالناصر ، ولكن بعد مضي أسبوع واحد ، على وصول الرد الاميركي ، جاء الرد المصري ، وعبر خطاب موجه الى الجماهير المصرية في الاسكندرية من الرئيس عبدالناصر بتأميم قناة السويس وذلك في الذكرى الرابعة لقيام الثورة المصرية . ثم جاء العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي والاسرائيلي على مصر بحجة الاستيلاء على قناة السويس وتأمين الملاحة الدولية .

لقد أشعل هذا العدوان المنطقة من جديد ولكن أمريكا برئاسة ايزنهاور أدانت هذا العدوان وأصرت مع روسيا على ضرورة الانسحاب الكامل للقوات المعتدية عن الأراضي المصرية . وبذلك أصيبت تلك المحاولات الصعبة للحلول السلمية في المنطقة بانتكاسة كبيرة .

ويختتم ايلمور جاكسون كتابه بنص رسالة أو مشروع رسالة كان قد كتبها موسى شاريت ليقوم جاكسون بتسليمها الى عبدالناصر ، ولكن الهجوم الاسرائيلي على غزة نسف كل هذه الاتصالات ولم تصل رسالة شاريت الى عبدالناصر . يقول شاريت في رسالته المؤرخة في ٣١ أغسطس ١٩٥٥ :

« يسعدني أن أغتنم هذه الفرصة لأجدد لكم اتصالي الشخصي بكم بعد توقف دام عدة أشهر ، جرت خلالها بعض الاحداث المؤسفة . ان رغبتنا نحو السلام والتعاون مع مصر صادقة ، ويؤسفنا أن لا نتلمس هذه الرغبة جيدا من طرفكم ، وفي غياب هذا السلام الرسمي بين بلدينا ، فإن علينا جميعا أن نحترم اتفاقية الهدنة وبحزم لأن ما نشاهده الآن هو مجرد انتهاكات مستمرة لهذه الاتفاقية من قبل قواتكم المسلحة المتواجدة في قطاع غزة ، إننا نعلم جيدا مدى تأثركم بالعمل العسكري الذي قمنا به يوم ٢٨ فبراير ، ولكن ذلك جاء عقب سلسلة من الاعتداءات العسكرية المنظمة على حدودنا ، والتي نتج عنها الكثير من الدمار والقتل وتعريض أمن المواطنين للخطر - قد يبدو بعض هذه الحوادث صغيرة وتافهة في الخارج ، ولكنها بالنسبة لنا خطرة جدا ، لأنها ستخلق لنا موقفا حرجا لا يمكن التسامح معه . »

ويختتم شاريت رسالته بالحلم الاسرائيلي الدائم - حلم اللقاء العربي والمحادثات المباشرة فيقول : « بالطبع ان امكانية الاجتماع بكم وفي هذه المرحلة يعني القضاء على سوء التفاهم وسوء الظن والذي عانى بلدانا منهما الكثير . »

كلمات إسرائيلية كان من المفروض أن تصل الى عيون عبدالناصر لتقرأها وتتصفحها ولكن التاريخ يقول : إن القنابل والرصاصات الاسرائيلية كانت أسرع من البريد الاسرائيلي الرسمي في انطلاقها نحو الصدور المصرية والعيون المصرية . وكأن شاريت يريد أن يقول : هذه رسائلي الحقيقية اليكم فتصفحوها جيدا يا أعزائي . □

● لو كان الموتى يتكلمون لما أصبح التاريخ مجموعة من الأكاذيب السخيفة . (مارك توين)

من المكتبة العربية

زعيما فلسطينيا ورائدا عربيا

تأليف : الدكتورة خيرية قاسمية

عرض : الدكتور محمد على الفرا

ليس هناك من لا يعرف أحمد الشقيري أو من لم يسمع عنه فقد كان ملء السمع والبصر ، له في المحافل والمناسبات العربية جولات وصولات . نضاله على أرض فلسطين لا ينكره أحد ، وكفاحه في سبيل التحرير يعترف به الجميع ، وأعماله الوطنية امتدت واتسعت ، حتى غطت جميع الأقطار العربية. ولعل من أبرز أعماله التي ماتزال تشهد بمآثره رئاسته لأول لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

بمجرد أن انتقل الشقيري إلى الرفيق الأعلى ، قام الأخ خيري أبو الجبين بالاتصال بنفر من أصدقاء الفقيد الكبير الذين كان يحرص على لقائهم كلما زار الكويت وتشكلت منهم على الفور ، لجنة لتكريم الرجل ، اعترافا بدوره الكبير في ساحة النضال الوطني . ووجدت اللجنة أن إصدار كتاب يتناول حياة الرجل وكفاحه وجهاده أفضل أنواع التكريم ، وعهدت اللجنة إلى المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية بمهمة تأليف الكتاب الذي جاء في

ستمائة وسبع وثلاثين صفحة

يبدأ الكتاب سيرة مفصلة لحياة الشقيري منذ ولادته في عام ١٩٠٨م ، حتى وفاته عام ١٩٨٠م فيبحث في نشأته وتربيته ومراحل تعليمه ، وامتهانه المحاماة ، واشتغاله بالسياسة ، ودخوله المعترك الوطني ، ودفاعه عن الوطن وشعبه ، وما لاقاه في سبيل ذلك من اضطهاد . ونفي عن يد حكومة الانتداب البريطاني . ويتناول الكتاب أيضا دوره في كثير من القضايا العربية ، مثل اشتراكه في التحضير لإنشاء جامعة الدول العربية ، ومساهماته في الاجتماعات التي عقدت لمناقشة القضية العربية ، وعمله كأمين عام مساعد لجامعة الدول العربية في الخمسينيات ، وندبه لرئاسة الوفد السوري في هيئة الأمم المتحدة ، ثم ممثلا للمملكة العربية السعودية في نفس هذه الهيئة الدولية . وفي التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٦٣ اختير الشقيري ليكون ممثل فلسطين في الجامعة العربية بعد وفاة ممثلها السابق أحمد حلمي عبدالباقي . ويوضح الكتاب بالتفصيل قصة إنشاء الكيان الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية ، عقب انعقاد مؤتمر القمة العربي الأول في شهر يناير عام ١٩٦٤ ، والعقبات والمشاكل التي واجهها الشقيري وهو يطوف الأقطار العربية ، ويجتمع بالجاليات الفلسطينية فيها ، وكيف استكمل مقومات هذا الكيان ، مثل إنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، وتشكيل المجلس الوطني الفلسطيني ، واللجنة التنفيذية ، وإذاعة فلسطين ، ومركز الأبحاث الفلسطيني ، والصندوق القومي الفلسطيني ، وافتتاح مكاتب للمنظمة في الأقطار العربية وفي الخارج . وقد كان الشقيري وهو رأس المنظمة شعلة من النشاط المستمر ، يعمل ما وسعه العمل لما فيه خير وطنه ومنفعة شعبه ، حتى اضطرته الظروف إلى أن يقدم استقالته في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٧ . وعلى الرغم من استقالته فإنه ظل حاملا مسؤولية وطنه ، وحاملا في فكره ووجدانه هموم شعبه إلى أن مات واقفا كما تموت الأشجار الباسقة .

ويأخذ بعض على الشقيري فرديته ، فكثيرا ما كان يتصرف بنفسه ، دون أن يستشير زملاءه أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو لاينكر هذا . ففي مذكراته يذكر حادثة تدل على انفراده في اتخاذ القرار ، وذلك حينما انسحب من مجلس رؤساء الحكومات العربية في مايو ١٩٦٥ ، ومطالبته بفصل تونس من الجامعة على إثر تصريحات الرئيس بورقيبة في مارس ١٩٦٥ . ولما شعر بانزعاج زملائه قدم استقالته إلى المجلس الوطني الفلسطيني ، وخاطب الأعضاء قائلا « ومن رأى اعوجاجا فليقومه ، إن الأمانة بلاء وعناء ، والجبال أبين أن يحملنها ، وأنا حاضر أن أرد الأمانة إلى الشعب ، فهو وحده صاحبها »

ثقافة الأديب :

تميز الشقيري بثقافته الواسعة ، فقد نشأ في بيت كان العلم شعاره ، فوالده الشيخ أسعد الشقيري من أبرز علماء الدين بفلسطين ، عمل مفتيا للجيش التركي الرابع الذي كان يقوده جمال باشا الملقب بالسفاح . وقد كان الشقيري مكبا على مكتبة أبيه القيمة ، ومواظبا على مجالس والده العلمية والثقافية . أجاد اللغة الانجليزية بعد أن درسها في مدرسة صهيون ، وأتقن العربية كتابة وخطابة، وتبحر في العلوم الدينية كالفقه والتشريع والحديث ، وفي العلوم الدنيوية كالتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد . كان يحفظ الكثير من الأحاديث والنصوص والآيات القرآنية والأشعار ، مما ساعده على أن يكون فارس الكلمة ، وصاحب البيان .

وقد أحب الشقيري وطنه ، وتعلق به ، وهام به كهيام المحب الولهان . وكان يتغزل بفلسطين

برها وبحرها ، سهلها وغورها وجبالها ونجادها ، فهو يقول : « لقد أتاحت لي أسفاري الكثيرة أن أرى أجمل ما في هذه الدنيا من مشاهد رائعة ، ولكني كنت دائما أقيس وأفاضل ، وأشبه ، فأرى أن بقاع الجليل ، من شواطيء عكا إلى جبال صفد ، إلى وهاد طبرية ، إلى روابي الناصرة ، أجمل ما في هذا الوجود ، وأبدع ما في هذا الوجود ، ومن هنا صنع السيد المسيح أعجز معجزاته ، وأرفع عظاته » .

على الرغم من إعجاب الشقيري بخطبه التي كان يلقيها في الأمم المتحدة ، ومباهاته بقدرته الفائقة على الإقناع وإفحام الخصوم ، إلا أنه كان يرى أن ذلك لايحرر الوطن ، ولا يعيد شعبا إلى وطنه ، وعنده أن الكفاح والنضال المسلح هو وحده السبيل للتحرر . وفي هذا يقول : « إن الشعب الفلسطيني يلجأ إلى الأمم المتحدة لآخر مرة ، وأنه لايرى مناصا من حرب تحريرية لاسترداد وطنه » .

ويعلق الشقيري على جهاد شعب فلسطين ويقول : «ان ثورات هذا الشعب البطل هي التي أحبطت مشروع التقسيم ، وجعلت القضية حية في أيدى أبناء فلسطين ، فقد كان شعبنا في وطنه شعبا ثائرا ، ومقاليد الثورة بين يديه » .

والكيان الفلسطيني لامعنى له عنده إذا لم يكن قائما على تنظيم ، وقوة تسنده ، وكفاح يدعمه : « إنه تنظيم وعمل وتحرير ، إنه قوة طليعية نضالية في ميدان النضال العربي ، إنه تضحيات وبطولات ، إنه عرق لايجف ، ودمع لايكفكف ، ودم غير ضنين ، إنه أداة نضالية تمكن أهل فلسطين من النضال ، تكفل التدريب والسلاح للقادرين على حمل السلاح . . » ويخاطب أبناء شعبه قائلا : « لست أدعوكم إلى طريق لا أسير فيه معكم ، علينا أن نسير ، وأن نسير جميعا ، فإن هلكت في الطريق فاحملوني أيها الرفاق إلى فلسطين عربية حرة مستقلة . »

ومن منطلق إيمانه المطلق بأن « الكفاح المسلح » هو طريق التحرير قام بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، ليكون طليعة البذل والتضحية والعطاء . وكان دوما يصر على أن شعب فلسطين يجب أن يكون في طليعة الطليعة في حرب التحرير ، وكان تصميمه على تبني الكفاح المسلح من الأسباب التي أدت إلى صدامه مع بعض القيادات العربية .

وفي تبريره لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني في عام ١٩٦٤ يقول الشقيري بأن قرار إنشاء هذا الجيش حتى « يؤدي دوره الطبيعي إلى جانب الجيوش العربية في تحرير فلسطين واسترداد الوطن السليب » .

وعلى الرغم من إنشاء الشقيري للجيش الفلسطيني إلا أنه كان يشيد بالعمل الفدائي ، وبخاصة بعد نكبة يونيو ١٩٦٧ ، لكنه كان يلح على ضرورة توحيد المنظمات الفدائية والمنظمات السياسية ، خوفا على العمل الفدائي من التفرقة والانقسام ، ويرى بأن جميع هذه المنظمات يجب أن تتوحد تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد بذل جهودا كثيرة ، ومساعي حقيقية من أجل هذا الهدف .

إيمانه بالعروبة :

الشقيري من الشخصيات التي آمنت بالعروبة ، وساهمت في بناء وحدتها ،ولا يوجد كتاب من كتبه إلا وفيه تمجيد للعروبة وحبها

« فإنني لم أشك يوما في جوهر الأمة العربية ، ولا في أسرار قوتها وبسالتها ، رغم ما أرى فيها من أعراض الوهن ، يبدو حينا بعد حين ، ولم تكن الأيام إلا لتزيد هذا اليقين رسوخا ، ولم تكن الحوادث إلا لتقدم دليلا يتبع الدليل لإبراز هذه الحقيقة ، ساطعة سافرة » .

وكان الشقيري من الذين يتطلعون إلى الوحدة العربية ، ويعملون في سبيلها ، وقد كان يشعر بالسعادة في كل عمل يوصل إلى أي نوع من أنواع الوحدة . وعلى الرغم من أنه كان يتطلع إلى وحدة تجمع الشعوب في دولة عربية واحدة ، إلا أنه رحب بفكرة إنشاء جامعة الدول العربية ، وعدّها خطوة نحو جمع الكلمة ، ولمّ الشمل ولذلك نجده يستجيب لطلب الرئيس السوري شكري القوتلي الذي أوفده إلى الاسكندرية ليكون قريبا من المباحثات إلى أن يصل الوفد السوري الرسمي . وقد اشترك في اجتماعات اللجنة المكلفة بوضع ميثاق الجامعة .

وعلى الرغم من مآخذ الشقيري على الجامعة العربية إلا أنه لم يحاول أن يقلل من أهمية قيامها في التاريخ العربي المعاصر : « إن مجرد قيام جامعة الدول العربية مهما قيل في خلفيات نشوئها ونشاطاتها وإنجازاتها ، سلبا أو إيجابا ، يعتبر أكبر حدث في التاريخ العربي المعاصر، ووجود الجامعة العربية بحد ذاته تعبير عن الكيان السياسي والقومي والحضاري للأمة العربية ، رغما عن أن الجامعة لم تحقق الكثير من طموحات الأمة العربية» .

وكان انتماء الشقيري للأمة العربية أكبر من أي انتماء إلى أي قطر من أقطارها ، يهب للدفاع عن العروبة من أي موقع ، سواء كان في الوفد السوري للأمم المتحدة أو في الوفد السعودي . يقول في الدورة الثانية عشرة للأمم المتحدة في خريف عام ١٩٥٧ التي يسميها « دورة القومية العربية » ما نصه : « وأخذت على عاتقي أن أرد عليهم (يعني وزراء خارجية الدول الغربية الكبرى) جميعا ، وأن أتحمل العبء كله ، كما لو كنت أمثل الأمة العربية كلها ، وكنت صادقا في هذا الشعور أمام نفسي ، فقد فقدت وطني الصغير ، وتعاظم تعلقي بالوطن الكبير . ومن هنا أصبحت أحس أن القومية العربية قضيتي وأن الدفاع عنها مسئوليتي » .

وتجسيدا لإيمانه بالعروبة فقد كان الشقيري في كل مناسبة ، ومن كل موقع ، يتبنى القضايا العربية في هيئة الأمم المتحدة ، ويدافع عنها بحرارة وبصدق وإخلاص ، ولسنا هنا بصدد دفاعه عن قضايا الأمة العربية في المشرق والمغرب ، فهي عديدة ، لا يتسع المقام لبحثها أو ذكرها ، ويكفي القول بأن الوحدة العربية كانت عنده هوى وعقيدة ، ولذلك كان يقول عن نفسه : « أنا وحدوي الهوى والنشأة » . ويقول في أحد كتبه : « إن الوحدة ـ فكراً وعقيدة ودولة ـ هي أمل الأمة العربية ، وإذا كانت قد أصبحت من غير روح فالتبعية على الحكم العربي المعاصر ، أو معظمه » وقال الشقيري للأمين العام للأمم المتحدة الذي لاحظ أن الشقيري في خطابه عام ١٩٦٠ بشأن قضية « موريتانيا » يتحدث عن الوحدة حديث العابد : « الوحدة عندي عبادة ، نحن شعب فلسطين ضحية فقدان الوحدة : التجزئة أشد بلاء من الاحتلال » .

هذه لمحات سريعة ، تبين بعض جوانب شخصية الشقيري ، وهي في نفس الوقت مجرد إشارات عابرة إلى بعض أنشطته وفاعلياته على المستوى الفلسطيني ، وعلى الصعيد العربي ، وعلى المسرح الدولي . لكننا في عجالة كهذه لايمكن أن نفي هذه الشخصية الكبيرة حقها من الدراسة ، كما أنه ليس في استطاعتنا عرض كل ما جاء في كتاب الدكتورة خيرية قاسمية عن الشقيري ، فهو من الكتب الكبيرة التي لايمكن عرضها بشكل واف ، ولذلك وجدنا أن من الأفضل أخذ قبسات من هذا السفر القيم . □

مختـــارات

اسم الكتاب · كامب ديفيد . السياسة وصنع السلام
اسم المؤلف . وليم كوانت ترجمة حازم صاغية
الناشر . دار المطبوعات الشرقية . بيروت
عدد الصفحات . ٤٧٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

مؤلف الكتاب هو أحد الذين ساهموا في صنع « كامب ديفيد » ، ومن خلال موقعه السابق كمستشار للأمن القومي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تجمعت لديه معظم التفاصيل التي لم تعلن عن أكثر الاتفاقيات أهمية في التاريخ العربي الحديث .

ويقدم الكاتب تفاصيل الأحداث والاجتماعات المغلقة والاتصالات الخلفية ، بالإضافة إلى تحليلاته ومقابلاته مع كثيرين من أطراف النزاع العربي ـ الصهيوني .

□□□

اسم الكتاب . المسرح القومي والمسارح الرديفة في القطر العربي السوري .
اسم المؤلف : جان الكسان
الناشر : منشورات وزارة الثقافة / سوريا
عدد الصفحات : ٢٦٩ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

كتاب توثيقي للحركة المسرحية في سوريا خلال فترة (١٩٥٩ ـ ١٩٨٩) . يبدؤه الكاتب بمدخل تمهيدي ، يتناول فيه المراحل الأساسية للمسرح العربي في سوريا ، وكيف أثرت التأثيرات المختلفة على ظهور المسرح وانتشاره ، ثم يقدم الكاتب بعد ذلك عرضا لعروض المسرح القومي السوري ، واستقراء هذه العروض ، وممثليها ومخرجيها ، ويقدم بعد ذلك تعريفا بالمراحل الأساسية في مسيرة المسرح القومي السوري . وينتقل الكاتب ليقدم الفرق الرديفة للمسرح ، ثم عرضا للمسارح في سوريا ، والمهرجانات المسرحية والموسيقية التي تقام بالقطر العربي السوري .

□□□

اسم الكتاب : اللؤلؤة
اسم المؤلف : جون شتاينبك / ترجمة سمير عزت نصار
الناشر : دار منارات / الأردن
عدد الصفحات : ١٠٥ صفحات من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

ترجمة جديدة لرائعة جون شتاينبك « اللؤلؤة » التي فاز فيها ـ مع أعماله الأخرى ـ بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٣ . وعلى الرغم من أن شتاينبك منذ السطر الأول للرواية يذكر ملخصها : كيف وجدت اللؤلؤة العظيمة وكيف فقدت مرة أخرى ؟ ! على الرغم من التقرير

المفاجيء ـ من اللحظة الأولى للحدوتة ـ إلا أن الرواية لا تفقد إثارتها ولا تشويقها ولا حبكتها ، وتقدم صورة كبيرة عن جانب من حياة الفقراء وجانب من سطوة الكبار ، وبين الساحل الفقير والمدينة الكبيرة ، وخلال هذا التناقض الظاهري ، تكمن معان ورموز ودلالات بالغة الثراء . ولأن شتاينبك مجهول لجيل جديد من القراء ، فإن إعادة ترجمة أعماله تثري القاريء العربي الجديد ، وتفتح له نوافذ واسعة للمعرفة والتذوق .

□□□

اسم الكتاب : خفايا التوراة وأسرار شعب « إسرائيل » .
اسم المؤلف : كمال صليبي
الناشر : دار الساقي / لندن
عدد الصفحات : ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

يناقش الكتاب رؤية المؤلف والباحث الجغرافي للتوراة ، والتأكد من صحة المكان الذي جرت فيه أحداث القصص التوراتية ، وقد استند الباحث على النص العبري للتوراة ، وهو يناقش لغويا ، وتاريخيا ، وجغرافيا ، صحة الاعتقاد السائد حول مكان هذه القصص ووقائعها . وهو يطرح بذلك تصوراً جديداً للروايات المتباينة في التوراة .

□□□

اسم الكتاب : إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود
اسم المؤلف : وليد الرجيب
الناشر : دار الفارابي / بيروت
عدد الصفحات : ١٠٨ صفحات من القطع الصغير .
سنة النشر : ١٩٨٩

مجموعة قصصية جديدة للقصاص الكويتي المتميز « وليد الرجيب » . يقدم خلالها خمس قصص قصيرة . والمجموعة تقدم وجها جديدا للكاتب الذي قدم قبل ذلك مجموعتين نشرتهما نفس الدار ، وتشترك المجموعة مع أعمال الكاتب السابقة بنفس خصائص المقدرة الفنية العالية ، واللغة الرقيقة الجادة . والهم الواضح الذي يتناوله الكاتب بمقدرة ورؤية إنسانية متعاطفة ، والقلق العذب المعذب ، والتميز في الشكل والتكوين : سمتان أساسيتان في كتابات الكاتب ، يلحظهما القاريء بوضوح شديد في المجموعة الجديدة

□□□

اسم الكتاب : كوكب الأرض
ترجمة : رءوف وصفي
الناشر : مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
عدد الصفحات : ٧١ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ضمن إصدارات مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ إدارة الثقافة العلمية ـ يأتي هذا الكتاب إضافة إلى السلسلة العلمية التي تهدف إلى تبسيط العلوم والمعارف،وتقديمها للقاريء بلغة بسيطة واضحة . يقدم الكتاب مجموعة من المعلومات عن الأرض ، قام المترجم بتجميعها من عدة مصادر ، ليقدم صورة متكاملة عن الكوكب الذي نعيش عليه ، والظواهر التي يتعرض لها ، والكائنات الطبيعية حولنا

● حسب كرامتك اللئام ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا

(الثعالبي)

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٦

مايو ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة . الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٦ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ يونيو ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين - ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٦

١ تعد شركة « إيزيس فيلم » أول شركة مصرية لانتاج الأفلام السينمائية ، وقد ظهرت سنة ١٩٢٦ . . ترى من كان صاحب هذه الشركة أو مؤسسها ؟ .

* عزيزة أمير
* آسيا داغر
* بدر وابراهيم لاما

٢ أي الأفلام التالية كان أطول فيلم سينمائي ناطق ؟ .

* ذهب مع الريح
* لورانس العرب
* بوابة السماء

٣ أنشئت أقدم دار للسينما في أطلنطا بولاية جورجيا الأمريكية ، ترى متى أنشئت هذه الدار ؟ .

* سنة ١٨٩٥
* سنة ١٨٧٥
* سنة ١٩١٥

٤ يعد الممثل السينمائي (سلفستر ستالون) صاحب أكبر دخل بين ممثلي السينما جميعا ، وهو الذي اشتهر بأفلام روكي . . ترى كم بلغ مجموع إيراداته من فيلم روكي (٤) ؟ .

* حوالي ١٠ ملايين دولار

* حوالي ٢٠ مليون دولار
* حوالي ٣٠ مليون دولار

٥ أي الأفلام الثلاثة التالية كان المتفوق من حيث تكاليفه والجهود التي بذلت في سبيل إنتاجه ؟ .

* الحرب والسلام
* البؤساء
* صلاح الدين الأيوبي

٦ أي الكتّاب التالية اسماؤهم يستأثر بأكبر عدد من الأفلام السينمائية التي اعتمدت على قصصه ؟ .

* برتراند راسل
* شكسبير
* شارلز ديكنز

٧ الدول السبع الأولى في العالم من حيث عدد الأفلام السينمائية التي تنتجها هي التالية :

انكلترا/ فرنسا/ الولايات المتحدة/ الفلبين/ الهند/ تركيا/ اليابان .

المطلوب ترتيب هذه الدول السبع ترتيبا تنازليا . . الأكثر انتاجا فالأقل .

٨ أين يوجد أكبر عدد من مقاعد السينما ، (بالنسبة إلى عدد السكان) ؟ .

* في جزيرة كريسماس (الميلاد)
* في جزيرة ايستر (الفصح)
* في جزيرة أسنشن (الصعود)

٩ أين ظهر أول فيلم ناطق في التاريخ ؟ .

* أمريكا
* بريطانيا
* ألمانيا

١٠ أين توجد أضخم دار للدينما في العالم ، علما بأن هذه الدار تتسع لـ ٥٨٨٢ مقعداً ؟ .

* في لندن
* في باريس
* في نيويورك

١١ يعد فيلم (ذهب مع الريح) الفيلم السينمائي الأول من حيث مجموع دخله أو إيراداته . . ترى كم بلغ هذا المجموع ؟ .

* حوالي ١٠٠ مليون دولار
* حوالي ٢٠٠ مليون دولار
* حوالي ٣٠٠ مليون دولار

١٢ أين عرض أول فيلم سينمائي ملون . . سنة ١٩٠٩ ؟ .

* انكلترا
* أمريكا
* فرنسا

فبراير ١٩٨٩

١ جزيرة ترينادد هي التي تصدر الاسفلت الطبيعي من بحيرة الأسفلت فيها ، وتسمى هذه البحيرة (Pitch Lake) . يبلغ عمقها نحو ٨٧ مترا ، ومحيطها ١٫٥ « كيلومتر » .

٢ الفرنسيون هم الذين أطلقوا اسم ملفيا على جزر فوكلاند ، فقد استوطنوها منذ سنة ١٧٦٤ ، باعوا ميناء لويس إلى الاسبان سنة ١٧٦٧ ، وتمكن الاسبان من بسط نفوذهم سنة ١٧٧٤ .

٣ جزيرة ايستر هي الجزيرة المقصودة في السؤال، تقع في جنوب المحيط الهادى ، إلى الغرب من ساحل أمريكا الجنوبية ، وعلى بعد (٣٧٨٠) كيلومترا من شواطىء تشيلي . اكتشفها الاميرال الهولندى (جاكوب روجفين) صبيحة عيد الفصح ، ومن ثم كانت التسمية وقد ضمتها تشيلي إلى أرضها سنة ١٨٨٨ .

٤ واشنطن دى سى عاصمة الولايات المتحدة الامريكية ، هى العاصمة التى صممت وأنشئت لكى تكون عاصمة ، وقد وضع خططها المهندس الفرنسى (بيير لانفانت) ، وذلك بتفويض من جورج واشنطن نفسه ، وأشرف على أعمال التنفيذ المهندس (اندرو اليكوت) .

٥ كانت البندقية في القرون الوسطى دولة مستقلة ، وقد بلغ من قوتها البحرية أن أصبحت امبراطورية واسعة الأرجاء ، تهابها سائر الدول، وتخشى قوة أسطولها ، ولما كان نظام الحكم فيها دوقيا نسبة إلى الدوق (Dodge) ، وكانت جميلة بشوارعها المائية ومبانيها الأثرية ، اشتهرت باسم (بونو دوتشيا) وما أسهل ماعدل اللسان العربى هذا الاسم ، أو حرفه ، فأصبح البندقية

٦ موناكو هى البلد الذى يفقد استقلاله فى اللحظة التى يفقد فيها ولي عهده ذكرا كان أو أنثى ، وفى تلك اللحظة تصبح موناكو محمية تابعة لفرنسا ، وذلك بموجب معاهدة معقودة بين فرنسا وبين إمارة موناكو سنة ١٩١٨ م .

٧ بوليفيا هي الدولة التى فقدت أكثر من نصف مساحتها منذ نيلها الاستقلال فى سنة ١٨٢٥ . ولعل أهم مافقدته ضمن تلك الأراضى التى آلت إلى جاراتها ، الصحراء الشهيرة بسماد

٨ النترات ، صحراء اتاكاما ، وقد استولت عليها تشيلي . ومنطقة اكر الغنية بالمطاط ، وقد أصبحت أراضي برازيلية .

٩ جزيرة غينيا الجديدة هي التي تقع في جزر الهند الشرقية ، وتتقاسمها دولتان ، بل دولة بابوا ـ غينيا الجديدة ومقاطعة (اريان ـ جايا) التابعة لاندونيسيا .

وجزيرة هسبانيولا هي التي تقع في جزر الهند الغربية وتتقاسمها جمهوريتان هما هايتي والدومنيكان .

جزيرة تاهيتي هي كبرى جزر بولينيزيا الفرنسية ، وأهم جزيرة في المجموعة تلك تسمى جزر الجمعية التي عاش فيها جوجان ست سنوات (١٨٩٥ ـ ١٩٠١) ، وذلك نظراً لجمال الطبيعة الفائق فيها .

١٠ جزر العذارى هي التي اشترتها الولايات المتحدة من الدانمارك ، وذلك لقاء ٢٥ مليون دولار في سنة ١٩١٧ . إنها جزء من جزر الهند الغربية ، وتقع في البحر الكاريبي .

١١ مكاو = البرتغال
كوكس = استراليا
جزر كوك = نيوزيلندة
سفالبارد = النرويج
ساموا : الولايات المتحدة .

١٢ النشيد الملكي (أو القومي) البريطاني هو النشيد الذي احتضنته كثرة من الدول الأخرى ، الصديقة منها والعدوة ، فقد تبنته المانيا طوال قرن أو أكثر (١٨٧٠ ـ ١٩٢٢) ، واقتبسته سويسرة منذ البدء حتى سنة ١٩٦١ . □□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٣ فبراير ١٩٨٩

الجائزة الأولى :
محمد أحمد علي ـ المحلة الكبرى / جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثانية : دليلة بن عثمان / تونس .

الجائزة الثالثة : محمد عطية محمد نور ـ دمشق / سوريا .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ أبو بكر هارون عبدالرسول ـ المملكة العربية السعودية .
٢ ـ صاحب الدين عبدالهادي ـ الدار البيضاء / المغرب .
٣ ـ ياسين خضير علي الدوري ـ بغداد / الجمهورية العراقية .
٤ ـ هشام منير المزين ـ زحلة / لبنان .
٥ ـ علي سلامة عبدالله ـ طرابلس / ليبيا .
٦ ـ مها فخري فارس جبريل ـ عمّان / الأردن .
٧ ـ ماري تاكيدا ـ اوساكا / اليابان .
٨ ـ تيسير عبدالرحمن خضر ـ ميلانو / ايطاليا .

من أهم الأحداث الشطرنجية التي جرت مؤخرا على الساحة العربية ، البطولة العربية السادسة الفردية للشطرنج المقامة في الكويت من ٣١ ديسمبر - ١٥يناير ١٩٨٩ ، وقد بلغ عدد الاقطار العربية المشاركة في هذه البطولة اثنى عشر قطراً مثل كلا منها الأبطال الآتية أسماؤهم :

منصور عبدالله ونجيب محمد صالح (الامارات) حسن عبدالله (البحرين) محفوظ بودية (الجزائر) عبدالقادر عثمان (السودان) احمد عماد طه (فلسطين) احمد ابراهيم مبارك (قطر) عبدالجليل القلاف ، محمود الأستاذ ، منصور الأستاذ (الكويت) احمد النجار (لبنان) فرج مختار مهدية (ليبيا) هشام الحمدوشي (المغرب) عاصم عفيفي ، عبدالحميد العروسي (مصر) حسين نعمان (اليمن) .

كما شارك في هذه البطولة سبع بطلات عربيات :

فريدة عبدالكريم (الامارات) مريم عبو (الجزائر) هويدا حسين شبو (السودان) رانيا عباس (سوريا) هناء الفجي (الكويت) دانيال بدروسيان (لبنان) سهير بسطا (مصر) .

وقد أسفرت هذه البطولة عن تتويج اللاعبين المغربي هشام الحمدوشي وهو فتى لا يجاوز السادسة عشرة من العمر ، والمصري عبدالحميد العروسي بطلين للبطولة وحصل كل منهما على لقب استاذ دولي ، كما توجت اللاعبة المصرية سهير بسطا بطلة للفتيات ، وحصلت على لقب استاذة دولية هي ايضا . والدور التالي من الادوار المتميزة في البطولة .

□عاصم عفيفي (مصر)	■أحمد عماد طه (فلسطين)
١ . د ٤	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	ز ٦

● مسألة العدد

(الاسود يلعب) مات ٣

من اهداء القارىء مختار الشمالي (حمص)

٣ . ح ـ جـ ٣ د ٥
٤ . جـ × د٥ ح × د ٥
٥ . هـ ٤ ح × جـ ٣
٦ . ب ×جـ ٣ جـ ٥
٧ . ف ـ هـ ٣ ف ـ ز ٧
٨ . ف ـ جـ ٤ ت
٩ . ح ـ هـ ٢ ح ـ جـ ٦
١٠ . ت ف ـ ز ٤
١١ . و ٣ ح ـ أ ٥
١٢ . ف ـ د٣ جـ × د ٤
(تجنباً للمبادلة)
١٣ . جـ× د ٤ ف ـ هـ ٦
١٤ . و ـ أ٤ أ ٦
١٥ . و ـ ب ٤ ح ـ جـ ٦
١٦ . و ـ ب٢ (الحماية د٤)ح ـ هـ ٥
١٧ . د× هـ ٥ و× د ٣
١٨ . م ـ و٢ ر أ ـ جـ ٨
(الحماية القطعتين)

١٩ . ر (ف) ـ حـ ١ و ـ د ٧
٢٠ . أ٤ ب ٥
٢١ . أ×ب٥ ر× جـ ١
٢٢ . ر×جـ ١ أ× ب ٥
٢٣ ر ـ جـ ٥ ف ـ جـ ٤
٢٤ ح ـ د ٤ ر ـ أ ٨ !
٢٥ . م ـ ز ٣ ر ـ أ ٢
(تجنباً للمخاطر)
٢٦ . و ـ جـ ٣ حـ ٥
٢٧ . حـ ٣ ف ـ و ١
٢٨ . ح ـ جـ ٢ و ـ د ١
٢٩ . و ـ هـ ١ و ـ د ٣
٣٠ . ف ـ د ٤ حـ ٤
٣١ . م ـ حـ ٢ ب ٤ ؟ (ضعيفة)
٣٢ . ر ـ جـ ٨ ! (رائعة)ف ـ و ٨
٣٣ . و× حـ ٤ ! و ٦ (مضطراً)
٣٤ . هـ ٦ ! يستسلم (لماذا ياترى ؟)
(انظر الشكل) □■□

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد رقم ٣٦٣ فبراير ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . فتحي مختار العكرون ـ طرابلس/ليبيا
٢ . بابا عمر رمضان ـ غرداية/الجزائر
٣ . فرج الله مراني ـ حلب/سوريا
٤ . سمير أنور علي ـ المصورة/ج . م . ع
٥ . زينب عبد اللاوي ـ سبيطلة/تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . خالد فهد المعجل ـ السعودية/الدمام
٢ . محمد أبو بكر شريف ـ ابو ظبي/الامارات
٣ . منى فايز النمري ـ عمان/الاردن
٤ . عبد الحفيظ عمر سالم ـ عدن/اليمن الديمقراطي
٥ . منال محمد أحمد ـ الفروانية/الكويت

١ . و ـ حـ ٨ + م × حـ ٨
إذا ا ـ .... م ـ و ٧
٢ . ف ـ هـ ٦ + بالكشف (مات)
٢ . ح ـ د ٥ + بالكشف (مات)

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● اطلعت على «العربي» عدد رقم ٣٦١ لشهر ديسمبر ، وسعدت بما تحتويه المجلة من موضوعات مهمة لتثقيف القارىء العربي ، وتنشيط حركتنا الفكرية والثقافية ، على الرغم مما نعانيه من الأمية في بعض بقاع وطننا العربي .

فلم يعد مقبولا ونحن في نهاية القرن العشرين أن نفخر بحصول علم من أعلامنا على الجائزة العالمية (نوبل للآداب) في الوقت الذي يظل محو الأمية أمنية من الأمنيات الطيبة ، وأنا هنا لا أتحدث فقط عن أمية القراءة والكتابة ، لكن أقصد أيضا أمية الكثيرين من أبنائنا المتعلمين الذين قللوا من قيمة الثقافة العربية ، وتهافتوا على الثراء المادي .

فهناك دول كثيرة قد قضت على الأمية ، مثل روسيا ، واستطلاع المجلة عن جورجيا السوفيتية احتوى على العديد من المعلومات التي أفادت قارىء «العربي» ، فقد استطاعت أن تفتح عيوننا على الجديد في العالم . وتكاملت أدوارها فيما تنشره ، فهى تفهم الحاضر وتتطلع إلى المستقبل في وقت لا تنسى فيه الماضي .

بل تتنبأ بوضع رؤية ثقافية مستقبلة ، وهذا أمر يعد غاية في الأهمية ، فهو الطريق للنجاح .

القارىء : يحيى السيد النجار
دمياط : جمهورية مصر العربية

□■□

العربي
في
أمريكا

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لا يسعني وأنا أكتب هذه الرسالة ، من بلاد الغرب البعيدة ، إلا أن أعبر لكم عن عظيم تقديري لمجلتكم المتميزة التي بدأت تصل بانتظام بعد انقطاع . كان مزعجا جدا لي ، وليس لي فقط ، بل لجميع من يشاركني قراءة «العربي» من متكلمي العربية في لوس انجلوس ، حيث إنها نسخة واحدة تصلنا ، لكنها تعني الكثير لكثيرين مثلي يعشقون قراءة «المجلة» منذ نعومة أظافرهم .

وأود بالمناسبة أن أبدي إعجابي الشديد بالمقالة الافتتاحية (حديث

الشهر) . والطريقة التي تعالج بها المواضيع التي تهم المواطن العربي والمراجعات لبعض الكتب الأجنبية المهمة ، كما أنني عند تجوالي بين الجاليات العربية في الولايات المتحدة ، أجد صدى واسعا لدى قراء «العربي» حول المواضيع التي تنشر ، والتي تربطهم بوطنهم الأم ، وتزيد معلوماتهم عن أقطار عربية ، ربما يجدون صعوبة ـ نتيجة لظروف مختلفة ـ لزيارتها ، فالمجلة تمثل أهمية كبرى للعرب المثقفين هنا ، والمحبين لمتابعة أخبار أقطارنا العربية .

فشكرا لكم نيابة عن جميع أبناء الجالية العربية في الولايات المتحدة الذين يقرءون «العربي» بشغف ، وإلى الأمام بهمتكم ، ووفقكم الله لمتابعة هذه الرسالة .

القارئة . ميرنا حزينة
لوس انجلوس/ الولايات المتحدة
الامريكيـــــــــــــة

□■□

هيرودتس مؤرخا وجغرافيا

● لقد قرأت في عدد ديسمبر (٣٦١) ١٩٨٨ من «العربي» ، في باب حوار القراء ، سؤالا من القارىء سالم الطيب ، يستفسر فيه عما ورد في مقال الدكتور عصام سامي الخالدي في العدد ٣٥٨ لشهر سبتمبر حول حقيقة المؤرخ اليوناني هيرودتس ، وهل هو طبيب أيضا حسب ماورد في هذا المقال وبمراجعتي بعض المراجع المهمة في الموضوع ، مثل «قصة الحضارة اليونانية» للمؤرخ المعاصر «ول ديورانت» ، ترجمة محمد بدران ، وجدت أن حقيقة الأمر هي أن هيرودتس كان مؤرخا شهيرا وجغرافيا أيضا ، ولم يكن طبيبا على الإطلاق أما المقصود في مقال الدكتور الخالدي فهو الطبيب هيرودكس ، فقد كان أستاذاً للطبيب الشهير أبقراط ، وقد وضع أسس المعالجة بالغذاء والرياضة ، بدلا من الأدوية . وجميعهم عاشوا في الحقبة الزمنية نفسها ، أو فيما يسمى عصر بركليس

القارىء : وليد خالد عثمان
حمص . سوريا

حوار القراء

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير
تحية طيبة

● قرأت في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ موضوعا حول كتاب «أسرار الفضاء» للمهندس سعد شعبان ، عرض وتقديم (رءوف وصفي) ، ذكر فيه - في فقرة العرب وقضية الفضاء - أن التاريخ سيشهد أنه في عام ١٩٨٥ لحق العرب بركب تقنية الفضاء عن طريق انطلاق القمر العربي للاتصالات ، ومشاركة الأمير سلطان بن عبدالعزيز في رحلة مكوك الفضاء الامريكي ، وأنه كان أول رائد فضاء عربي . وقد أغفل المهندس سعد شعبان في كتابه ، حسبما جاء في عرض الكتاب وتقديمه في المجلة ، ذكر رحلة مهمة مشتركة للفضاء شارك فيها رائد الفضاء العربي السوري محمد فارس زملاء طاقم من الاتحاد السوفيتي في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٨٧ . وكنت أتمنى أن يسلط الضوء على هذه الرحلة ، كي يتعرف العرب على منجزاتهم العلمية . فقد خطا العرب خطوات واسعة في مجال التطور ومجاراة الحضارة الغربية حتى في الفضاء .

القارىء : سامر فاخوري
حلب - سوريا

□■□

آراء حول مقال «المسلمون المعاصرون»

تعليقا على المقال المنشور في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بعنوان «المسلمون المعاصرون وثقافة الغرب» وردت للمجلة رسائل كثيرة ننشر بعضها لإثراء النقاش ، ولأهمية الموضوع المطروح على المثقفين العرب ، ولتعارض الآراء حوله .

الرسالة الأولى :

● وأنا أقرأ «العربي» ، فخر كل عربي ، طالعني مقال د . فؤاد زكريا ، وأنه بحق ممتاز بما فيه من توضيح لملامح ثقافتنا العربية والإسلامية ، لي ولكثيرين من الشباب العرب أمثالي في هذه الأيام خاصة ، لمواجهة تأثير الثقافة الغربية على تراثنا الإسلامي ، والتيارات الوافدة علينا ، خصوصا ونحن معرضون لحرب من الغرب ، كالتبشير وبث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية عن طريق نشر لغات كالانجليزية والفرنسية لإعلاء شأنها وشأن اللهجات الإقليمية في محاولة لحجب اللغة

العربية ، مما يؤدي إلى فقد بعض الخصائص العربية والاسلامية ، لتحل محلها الخصائص الغربية ، وهذا واضح في النظم الدراسية في جميع مراحل التعليم ، وفي إعطاء اللغات الأجنبية أهمية على حساب اللغة العربية ، ودخول بعض الكلمات إلى لغتنا العربية . والاستشراق هو أحد المصانع الأساسية لمخططات السيطرة علينا .

القارىء : محمد مصطفى عبدالسلام
كفر الشيخ - جمهورية مصر العربية

الرسالة الثانية :

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● قرأت مقال الدكتور فؤاد زكريا ، وتعقيبي عليه هو أن الحضارة الغربية - كما يراها الدكتور زكريا في جميع مقالاته ودراساته - دائمة التغير ، تتخذ كل يوم موقفا جديدا ، تفاجئنا دائما بتحولات وثورات غير متوقعة في ميادين العلم والفكر والأدب .

لقد أشار الدكتور زكريا في مقاله إلى أن المدّ الاستعماري الجارف في القرن الماضي سببه الرئيسي التوسع الاقتصادي المترتب على الثورة الصناعية في أوربا ، وحاجة البلاد الصناعية الكبرى إلى مواد خام ، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها ، ولا علاقة لنظرية التطور والارتقاء بهذا الاستعمار ، وهذا الرأى لا يمثل الحقيقة ولا يعبر عن الواقع . فقد فات الكاتب في غمرة دفاعه عن نظرية التطور والارتقاء ، وبيان موقف الاسلاميين المعاصرين فيها ، أن يبين لنا أن الاستعمار مسئول عن التخلف المعاصر الذي تعيشه مجتمعاتنا الإسلامية ، لأن كل البلدان المسماة «المتخلفة» في العالم يجرى استغلالها من قبل بلدان أخرى ، والتخلف الذي يقلق العالم اليوم هو نتاج استغلال رأسمالي امبريالي استعماري ، وقد كانت المجتمعات الافريقية والآسيوية تنمو بشكل مستقل ، حتى سيطرت عليها الرأسمالية سيطرة مباشرة أو غير مباشرة . عندما حدث ذلك ازداد الاستغلال وأعقبه أيضا تصدير الفائض ، الأمر الذي جرد تلك المجتمعات من ثمار مواردها الطبيعية وثمار العمل . ويمثل ذلك جزءاً لا يتجزأ من التخلف بمعناه المعاصر .

محمد فؤاد محمد على
القليوبية - جمهورية مصر العربية

□■□

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لقد وصلنا العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ من مجلتكم «العربي» ، وكان كما توقعنا ، اسما على مسمى ، فقد حفل بالمواضيع الشيقة الهادفة التي قلما نشاهدها في بقية المجلات ، وقد حرصنا على متابعة مقالاتها دون أن نترك

حوار القراء
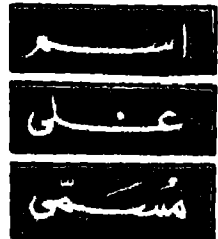
صفحة واحدة ، آملين أن يستمر عطاؤكم الفياض ، وأن يتواصل الفكر العربي المعاصر والمعلومات العلمية والثقافية والاستطلاعات القيمة بهذه المجلة العملاقة التي من النادر أن نرى مثلها في الوطن العربي .

القارىء : مشعل الجابر
طهران ـ ايران

□■□

الموشحات حلبية أم حمصية ؟

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨ نشرتم موضوعا مهما ، وهو (الموشحات والقدود حلبية أم حمصية) للدكتور عمر موسى باشا ، وقد ذكر فيه أن هذه الموشحات التي نسمعها أكثرها من تأليف الشاعر الحمصي أمين الجندي . وقد أعجبني الموضوع المهم ، ولفت نظري إليه ، فحبذا لو توسعتم في الشرح عن هذا الشاعر الكبير وعن حياته وأهم مؤلفاته ، شاكرا اهتمامكم .

القارىء : أحمد جمال الدين ابو زيد
حلب ـ سوريا

□■□

مقترحات وردود

● القارىء : محمد صغير نشيت ـ من الحديدة ، بالجمهورية العربية اليمنية ـ يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن مدينته الجميلة التي تقع على البحر الأحمر .

● القارىء : شعبان حجاج ـ من المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية ـ يقترح أن تعرض المجلة نبذة في كل عدد ، تحتوي على تعريف بمجال تخصص كل كاتب ينشر في المجلة ، ومكان نشأته ونشاطاته المختلفة . ونحن في المجلة نقدم نبذة قصيرة عن الكتّاب الذين ينشرون في المجلة للمرة الأولى .

● القارىء : الحاج سالم عبيد الهاجري النهدى ـ من جاكرتا ، اندونيسيا ـ بعث يشكر المجلة على جهودها الطيبة في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، ويقترح زيادة كمية المعلومات والموضوعات المتعلقة بالقضايا السياسية ، وبخاصة ما يتعلق بقضية الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » .

● القارىء : ابراهيم محمد العيسى - من حلب - سوريا يشيد بالعدد الممتاز ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ ، ويقول : إن الاستطلاع عن شعب التحديات ، الشعب الفيتنامي البطل الذي كافح وناضل دون هوادة من أجل الحرية والاستقلال ، جميل وشامل وغني بالمعلومات المفيدة ، لأننا لم نكن نعلم عنها وعن شعبها إلا القليل قبل الاطلاع عليه ، وبخاصة أن «العربي» أول مطبوعة عربية تقع عليها عيني ، تزور هذه المناطق الجميلة . ويثني على من قام بالاستطلاع

● القارىء : صلاح سالم عبود الجابرى - من حضرموت ، بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية - يشكو قلة مايصل من أعداد «المجلة» ، وأنها تنفد بسرعة . ويطالب بزيادة الكمية ، كما يقترح قيام المجلة باستطلاع عن جزر المالديف ، لكي يتعرف القراء على وضع المسلمين هناك ونشاطاتهم .

● القارىء : متوكل سيقور عبدالرحيم - من جوغو ، بجمهورية بنين الشعبية «غرب أفريقيا» - يقترح أن تفتح المجلة مكاتب لتوزيع مطبوعاتها ، ليقطف القارىء في أفريقيا من ثمارها الحلوة ، وأساليبها السامية ، كبقية المسلمين على حد تعبيره . □

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو ١٩٨٩ م

الاتجاهات التعصبية

تأليف
د. معتز سيد عبد الله

الكتاب ١٣٧

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

الأموال المهرّبة من بلاد الفقراء!

مِن غرائب "المكتونجي"!

في الصحراء، قليلة هيَ الأشياء التي يمكن الاعتماد عليها. في تلك الاماكن القاحلة قليلة الماء والكلأ، يُعتبر الجمل من الضروريات التي لايمكن الاستغناء عنها. وهوَ رمزٌ حيٌ لقدرة التحمّل والصبر في حرارة الصحاري اللاهبة أثناء النهار، والباردة جدًا أثناء الليل.

من دلائل أهميّة الجمل بالنسبة للعرب، انه كان الوحدة التي بها يقاس مهر العروس أو دية القتيل. يضاف لذلك أهميته من ناحية الغذاء، الإستفادة من الحليب واللحم، وفي الكساء، وبر الجمل.

لتلك الأماكن من العالم، حيث الاستمرار والحياة هُما دائمًا للقوي كثير التحمّل، أنتجت رولكس ساعة قويّة كثيرة التحمّل من الذهب الصافي عيار ١٨ قيراطًا أو من الفولاذ الذي لا يصدأ.

ساعة لا يدخلها الغبار أو الرمال إطلاقًا وذلك بفضل علبة الأويستر المصنوعة على مبدأ المحارة، وقفل السلامة الخارجي المثبت بطريقة ملوّلبة وبإحكام على هيكل الساعة. حركة الساعة المصنوعة قطعة قطعة يدويًا ومُجمّعة بكل إتقان ودقة، لا تتأثر إطلاقًا بالرطوبة أو الماء أو التغيير المفاجئ للحرارة.

رولكس ديت جست، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطًا.

العـــدد ٣٦٧ السـنة الثانية والثلاثون يونيـو ١٩٨٩

مجـلة ثقـافيـة مصـورة
تصـدر شهريًا عـن وزارة الإعـلام بـدولـة الكـويت
للوطن العربي ولكل قـارئ للعـربيـة فـي العـالـم

رئـيـس التحـريـر
د. محمـد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 367 June 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنـوان المجـلة
العـربي
ص. ب. ٧٤٨ - الصـفـاة
الرمـز البـريـدي 13008 الكـويت
تـلفـون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٦٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيـا : "العـربي" - الكـويت
تلفون فاكسمي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس. MITR. 44041 KT
المراسـلات باسـم رئـيـس التحـريـر

الاعلانات يتفق عليهـا مـع الإدارة - قسـم الاعـلانـات

الاشتراكات
ترسـل الطلبـات إلى: قسـم الاشتراكات - الإعلام الخـارجي
وزارة الإعـلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
عـلى طـالـب الاشـتراك تحـويـل القيمة بموجب حوالـة
مصرفيـة أو شيك بالدينار الكويتي باسـم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخـة

الكـويت ٣٠٠ فلس	تونـس ٥٠٠ مليم	سـوريـا ١٥ ليرة
العـراق ٤٠٠ فلس	الجـزائر ٥ دنانير	الامـارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغـرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبـيا ٥٠٠ د.هم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطـر ٧ ريالات	أوروبا جنيه استرليني ونصف
مصـر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فـرنسا ٢٥ فرنكًا
السـودان ٢٥ قرشًا	لبنـان ١٠ ليرة	أمـيركا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

● عن النسور والعقبان ... ص ١٥٦

أدب وفنون :

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :

صـورة الغـلاف

عندما نزور بادية الأردن نسير على خطين متوازيين . التاريخ بأحداثه وآثاره متواز مع البادية بإنسانها وخيامها ومراعيها وكان علينا التعرف على الأرض والانسان في البادية التي تشكل ثلثي مساحة الأردن (طالع الاستطلاع ص ١٣٢)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

زمن الحصار

من علامات الحصار التي طوقت العمل الثقافي العربي - مثله مثل أي نشاط إنساني آخر - لجوء كثير من المثقفين والكتاب الى تمجيد الماضي، دون تمحيص ونقد، والإقلال من الالتفات إلى الحاضر والمستقبل. ووعياً من « العربي » بهذا الأمر ، أخذت على عاتقها مناقشة هموم الحاضر والمستقبل وقضاياهما دون إغفال لماضٍ نحن نتاجه. هذه المناقشة ليست نظرية فحسب، وإنما عملية تطبيقية، تمثلت في العناية بالنتاج الفكري لشخصيات مهمة، تعيش بيننا، والالتفات الى مبدعينا، وكتابنا، ومفكرينا، والاهتمام بنتاجاتهم عرضاً ونقداً ومتابعة وتعريفاً.

ولقد فقدنا في الفترة الأخيرة مجموعة من خيرة الكتاب الذين أثروا « العربي » وقراءها بإبداعاتهم النيرة، مثل الأساتذة : فتحي رضوان، نعمان عاشور، انجي أفلاطون، توفيق يوسف عواد، وكان بعض هؤلاء قد نشر آخر إنتاجه في « العربي ». المبدع الأخير في القائمة توفيق يوسف عواد، من رواد كتابة القصة في الوطن العربي، فقدناه بطريقة مأساوية في لبنان، عندما سقطت قذيفة عمياء على المنزل الذي يقطن فيه، في هذه الحرب اللبنانية الشرسة الهوجاء، التي آن لمدافعها أن تصمت. وفي هذا الاطار ننشر في هذا العدد بجانب حديث الشهر الذي كرسناه للحديث عن لبنان، موضوعا آخر عن أسرار الفتنة الطائفية في بلاد الشام في القرن الماضي، كتبه الدكتور أسعد الاسطواني.

ويشارك المبدعون العرب في وجبة هذا الشهر من « العربي » بانتاج متنوع غني، فيه الطريف والغريب، كموضوع « غرائب المكتوبجي » لشريف الراس، وفيه الجاد والمحزن في الوقت نفسه كموضوع د. رمزي زكي عن « الأموال المهربة من بلاد الفقراء »، وموضوع تجربة محمد علي التحديثية في مصر للدكتور أحمد عُلبي، ويكتب لنا الدكتور محمد رشاد الطوبي عن طبيعة النسور والعقبان.

ويصحبك هذا العدد باستطلاعي « العربي » الى مناقشة فكرتين مهمتين، من خلال زيارة المكان ومعالمه، فالأول في بريطانيا، حيث تحاول « العربي » الاقتراب من عالم المسلمين هناك، همومهم وحياتهم وتجمعاتهم وانتماءاتهم، لنتساءل معا : هل هم مواطنون أم غرباء؟ بينما يذهب بنا الاستطلاع الثاني الى البادية الأردنية، لنتابع السعي لاستجلاء تحضر البادية وملامح تطورها.

وأنت تقرأ هذا العدد عزيزي القارىء، ستحصد جهدا وزرعا، استغرق منا وقتا وأعصابا، لنعد لك عدداً جديدا، نرجو أن يكون قد حقق تطورا للأمام. مهما كان جهدنا، ومهما كانت أحزاننا على واقعنا المعاصر، وعلى المبدعين الذين يرحلون عنا. فالرحمة لهم، وإلى العدد □

المحـــــــرر

■ إن فشلت الجهود العربية في لبنان تعرض الأمن العربي كله للخطر

وغيرهم ، والذي لم يتغير في لبنان حتى الساعة هو حقيقة واحدة ، ألا وهي استمرار الحرب الأهلية ، واستمرار معاناة المواطن العادي الذي دفع - ومايزال يدفع - ثمنا باهظا لهذه الحياة ، أو قل للمخاطرة بهذه الحياة ، إن كان في المخابىء ، أو في الطرقات وهو يركض لتأمين لقمة الخبز لعياله ، أو الموت البطيء في المنافي والمهاجر .

لقد دخل اللبنانيون التاريخ من أكثر من باب ، ولكن أبشع تلك الأبواب حربهم الأهلية هذه ، فقد قامت الحروب الأهلية التي عرفها التاريخ الحديث منذ الحرب الأهلية الامريكية في القرن الماضي ، مرورا بالحرب الأهلية الاسبانية ، والحرب الأهلية في روسيا بعد الثورة البلشفية ، وكذلك في الصين في منتصف هذا القرن ، وقامت حروب عديدة في العالم الثالث : في كوبا ونيكاراجوا والسلفادور في أمريكا الجنوبية ، وفي نيجيريا وزائير في افريقيا ، وباكستان وكمبوديا في آسيا ، وايرلندا الشمالية وقبرص في أوربا . وكل تلك الحروب لم تصل الى هذه الدرجة من الشقاء ، والشقاق الطائفي والعائلي والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي والنفسي ، على مساحة صغيرة ، لاتتعدى ١٠٤٥٢كم٢ ، وفي مجتمع يضم فقط ثلاثة ملايين ونيف من البشر ، وعلى هذه الدرجة - أو كان على هذه الدرجة - من مظاهر التقدم المدني والازدهار الاقتصادي . وهذا الأمر يعود - حسب اعتقادنا - إلى عجز الانسان في لبنان عن التصدي الحقيقي لمشاكله وحلها الحل الأوفق .

الإرادة العربية :

قضية في مثل هذا التعقيد تحتاج الى قلوب وعقول كبيرة لاحتوائها ، ومحاولة فتح قنوات سليمة وسلمية ، كي يتصاعد البخار قبل أن ينفجر القِدْر بما فيه وعلى من حوله . وهنا يجب أن نُذَكِّر - بكل العرفان - بالجهود العربية التي ما أن انزاح عنها خطر الأخطار ، وهو حرب الخليج ، وصمتت المدافع هناك حتى التفتت الى لبنان ، تتلمس مخرجا لمساعدة مواطنيه ، للخروج من هذا النفق الشرير الذي امتد على مساحة من الزمن . دخل منذ فترة سنته الخامسة عشرة . فمنذ مطلع هذا العام ، وبعد اجتماع وزراء الخارجية العرب في الثاني عشر من يناير المنصرم الذي تم فيه الاتفاق على تشكيل لجنة عربية سداسية ، أنيط بها الاتصال والاستماع ، ثم تقديم تقرير عن الحل الذي يمكن تطبيقه في لبنان للمساعدة على الوصول الى وفاق وطني لبناني ، وتحقيقا لهذا الغرض قامت هذه اللجنة بعقد اجتماعات عديدة ، واتصلت

بالرئاسات اللبنانية السياسية منها والروحية ، وبممثلي الأحزاب والفئات المختلفة* وقد قدر أن يكون رئيسها الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح ، نائب رئيس الوزراء ، وزير الخارجية الكويتي الذي أعطاها من خبرته وقدرته التفاوضية الكثير، وأفادها تصميمه كذلك للوصول بها الى أهداف ملموسة، مرتكزا على ما للدبلوماسية الكويتية - عبر السنوات الماضية - من تجارب ناجحة في معالجة عدد من الأزمات العربية والاقليمية، والوصول بها الى ساحل الامان.

ولقد كان ... الأسس ... شخصية ... ... مدعمة على ... الأثر في الترشيد على ان الخلافات العربية ماهي إلا ضعف للعرب وقوة لأعدائهم ، وان التضامن العربي هو المظلة الاكثر أمانا والأفضل سبيلا

* الشيخ صباح الأحمد في صنعه سراوه

وهكذا سار الشيخ صباح الأحمد في الأشهر القليلة الماضية للتقليل من الاعتراضات ، ومحاولة تنمية التوافقات ، وطرح الخيارات المناسبة للمصلحة العامة ، معتمدا على رصيد داخلي واقليمي وعربي وعالمي من الامكانيات والعلاقات ، حتى لم يعد لبناني معني بالأمر إلا وتوقع خيرا ، وهكذا كان ، فصدرت قرارات مجلس وزراء الخارجية العرب في ٢٨ ابريل الماضي ، مما أعاد الثقة لفتح طريق الوفاق اللبناني . وبدأت قرارات الجامعة العربية تأخذ طريقها الى التنفيذ في لبنان وهي خطوات

* اللجنة مكونة من الكويت (رئيسا) ، وعضوية كل من الإمارات وتونس والأردن والسودان والجزائر، وكذلك الأمين العام للجامعة العربية

نرى أثرها في عيون جميع المشردين اللبنانيين الذين يقول لسان حالهم عن القوى الكبرى - بعد تجربة مريرة - « إن رضوا عنك ما أفادوك وإن غضبوا عليك ما أضروك » . ولم يبق إلا الخيار العربي والجهد العربي ، فكانت اللجنة السداسية التي كونت رأيا عربيا ضاغطا باتجاه تحريك الموضوع اللبناني . لقد قال لي أحد اللبنانيين الخبراء ، وهو أستاذ في العلوم السياسية ، راقب عمل اللجنة العربية عن كثب : إن صباح الأحمد يريد اختصار المراحل من أجل وفاق اللبنانيين ، فهو مرن ، منفتح ، طبيعي ، صادق ، وما الهجوم على اللجنة وعلى حركتها السريعة من بعض الأطراف إلا دليل على أن الدواء العربي الذي يقدمه رئيسها هو الدواء الناجع .

إن نجاح اللجنة السداسية نجاح للعمل العربي المشترك الموحد ، وقد كان فشلها - لا سمح الله - سيؤدي الى نتائج وخيمة ، ربما لا تقتصر على لبنان وحده ، لكنها ستؤثر حتما حتى على الانجازات السياسية التي تم تحقيقها على صعيد القضية الفلسطينية .

لقد حققت اللجنة السداسية هدفا مهما ، هو وضع الإشكال اللبناني على جدول الأعمال العربي ، ثم العالمي ، بعد أن كان الجميع ينظرون الى اقتتال الإخوة هناك نظرة لا مبالية باردة . وأعطت اللبنانيين أملا كبيرا في تحقيق الوفاق في الأيام القادمة ، والمطلوب الآن أن يقوم اللبنانيون بإعادة اكتشاف أنفسهم ، وعليهم قبل كل شيء ان يجروا عملية نقد ذاتي ، بدلا من توجيه النقد الى الآخرين ، أو نقد بعضهم بعضا .

مستجدات لبنانية :

مفردات الأزمة اللبنانية - بتاريخها الحديث والقديم - موضوع معاد ، فمنذ الحرب الأهلية في منتصف القرن الماضي تقريبا (حرب ١٨٤٠ - ١٨٦٠) ، مرورا بالاستقلال والميثاق الوطني ولبنان الكبير ، وعطفا على التدخلات الفرنسية والبريطانية والامريكية و « الاسرائيلية » أخيرا ، وكذلك المداخلات الاقليمية ، كل ذلك مكتوب وموثق ، شبع من قرأ عن لبنان أو اهتم بتاريخه من متابعة تفاصيله ، إلا أن مستجدات الساحة اللبنانية هي الأهم والأكثر لفتا للأنظار ، وهذه المستجدات لا تبدأ - كما يعتقد بعضهم - بحادث « الباص » الأشهر في ابريل ١٩٧٥ ، فلقد فوجيء الكثيرون بهذا الحادث ، وما تلاه من تفجر لأزمة تداخلت فيها قوى كثيرة . ولكن بذور الأزمة كانت أقدم من ذلك .

■ افتقاد فضيلة الحوار بين القوى الاجتماعية يدفع بالأوطان الى الهاوية

صحيح أن الأسباب المباشرة لتفجر الحرب الأهلية كانت ذاك الحادث ، وصحيح أن هناك عوامل إقليمية (خارجية) ، ساعدت على هذا التفجر ، إلا أن الصحيح أيضا أن هناك عوامل داخلية ، لو لم تكن موجودة ، لما حدث ما حدث في لبنان ، أو على الأقل لما حدث بهذا العنف الشرس ، ولما استمر كل هذا الزمن الطويل . إن العوامل الداخلية الرئيسية التي أدت الى الانفجار تتمثل في قصور النظام السياسي اللبناني للتواؤم مع المستجدات الاجتماعية في لبنان ، في بلاد تتكون من سبع عشرة طائفة ، سبع منها رئيسية ، يتراوح تمثيلها النسبي بين ٢٩٪ الى ٤٪ من مجموع السكان (تقريبا) .

لقد كان قصور ذاك النظام السياسي عن احتواء المتغيرات والمستجدات ، والمواءمة بين القديم والجديد ، محط تحذير لكثير من العالمين ببواطن الأمور من الكتّاب ، ولقد كان كتّاب مثل : وجيه كوثراني ، ايليا حريق ، غسان سلامة ، مهدي عامل ، (د . حسن حمدان) ، وآخرين في قائمة طويلة ، لهم السبق في التحذير ، وكانت قراءاتهم لواقع ما كان عليه لبنان تدعوهم لدق ناقوس الخطر ، والتحذير من الانفجار القادم ، دون جدوى حقيقية . وما زال كثير منا لا يقرأ ، وقليل من القراء لدينا يفهمون . وواحد من الذين كتبوا بتوسع عن هذا الموضوع هو مايكل هدسون ، استاذ العلوم السياسية في جامعة جورج تاون في واشنطن الذي أصدر دراسة قبل عشر سنوات من الانفجار المروع تقريبا (١٩٦٨ م) ، وسماها (لبنان : الجمهورية الهشة) *

فقد لاحظ هدسون أن النظام السياسي في لبنان ينطوي على تعدد غير صحي من اصحاب الأدوار السياسية (أكثر من رأس)، في غياب الرأس القادر على السيطرة على النظام ككل، بمعنى غياب السلطة الشرعية التي تستطيع أن تفرض الرأي النهائي، إن قام خلاف حاد بين الاطراف المعنية فيه، بوسائل فعالة، وتكون قراراتها مقبولة لمعظم الفئات. لقد كان للبنان نظام متعدد الرؤوس، كما لاحظ الكاتب، وذكر ايضا أن النظام السياسي اللبناني كان في حالة ركود، ولا يستوعب التطورات الاقتصادية والاجتماعية الجارية والمشاهدة، ونبه الى خطورة هذا النوع من عدم التوازن، حيث تبرز قوى اجتماعية جديدة، لا تجد لها تعبيرا سياسيا مناسبا داخل النظام، والنتيجة المنطقية لوضع كهذا أن

* **Michal Hudson, The Precarious Republic, Political Modernization in Lebanon, New York, 1968.**

■ "أكلة الجبنة" الذين أجادوا التقاط الكستناء من النار بأصابع غيرهم

يتحول العمل السياسي الى مجموعات لا حصر لها من الضغوط، والضغوط المضادة، يؤدي استمرارها الى صراعات حادة تقود بعد ذلك للجوء الى القوة، وهكذا كان. ولم يكن مايكل هدسون وحده هو الذي توصل الى هذا التحليل، بل سبقه ولحقه بجانب من ذكرناهم آنفاً كتّاب مثل: حليم بركات، وعصام نعمان، وموريس الجميل، وفؤاد خوري، وآخرون من قائمة طويلة من الكتّاب والمثقفين اللبنانيين الذين لاحظوا تزايد ضعف حس المواطن اللبناني بالدولة، والهروب المتزايد من العمل السياسي الحديث في دولة مؤسسات، الى اللجوء لأحضان الطائفية والاقطاع السياسي. وحذروا بشدة من تجاهل الإصلاح السياسي والاجتماعي اكثر من اللازم، حتى لا تفوت الفرص!

هذا التلكؤ السياسي اللبناني، في ظل من ساهم الرئيس فؤاد شهاب (بأكلة الجبنة) من السياسيين التقليديين الذين أجادوا اخراج الكستناء من النار بأصابع الآخرين - كما يقول المثل الفرنسي - وفي ظل صيغة خاطئة للوفاق الوطني، كل ذلك قاد داخلياً الى هذا التفجر وهذا الاقتتال، وسيظل هذا القصور في النظام السياسي قائماً ماظلت فكرة سيطرة طائفة على بلد لا تأخذ في حسبانها مشاركة الطوائف الاخرى لها مشاركة حقيقية في السلطة والثروة ، أي أن فكرة العدالة الاجتماعية لا تنحصر في التوزيع (المادي) للثروة وإنما تمتد الى التوزيع (المعنوي) للسلطة ، أو بالأحرى مشاركة المواطنين على اختلافهم، لكونهم مواطنين لا غير في خيرات الوطن وفي إدارته .

ولكن المأزق الذي يواجهه اللبنانيون اليوم - بكل طوائفهم - هو حقيقة بسيطة ، مفادها أنه بعد كل هذا الاقتتال فإن الرصاص والقنابل والتفجيرات في النهاية لا تأتي بحل مرض، بل قد تأتي بحل قاهر، لكنه ليس مرضياً، وقد تقبله بعض الأطراف الآن اضطراراً، ثم ينقلب الأمر إلى ضده اذا توافرت ظروف أخرى ، وصفحات الحرب الاهلية اللبنانية، عندما تكتب بوعي، تشير الى النتيجة المنطقية الوحيدة، وهي أن هذا الشعب شعب واحد، وليس شعبين أو أكثر، ومصالحه واحدة، وان الوطن ضرورة، والطريق اليه هو الحوار، وإن قيل: إن تجربة التفاوض والتحاور لم تجد على الرغم من تكرارها، فالقول الأصح أنه حتى الحرب بالقصف المدفعي المتبادل لم تجد، على الرغم من تكرارها مرات كثيرة،
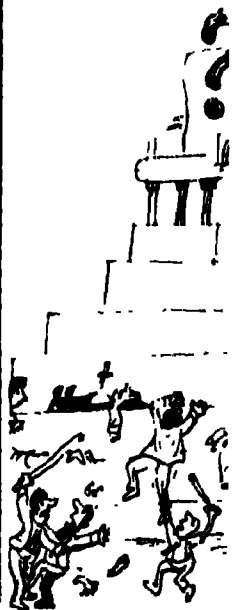
لذلك فالصبر في التحاور أفضل من الصبر على القنابل وتحطيم الوطن، فعلى اللبنانيين، بدلاً من لوم الآخرين، أن ينظروا في المرآة ليروا أنفسهم.

إدارة الأزمـــــة:

لا يبدو أن الخلاف ذو بون واسع بين فئات اللبنانيين اليوم، فخطوات الإصلاح السياسي، واستيعاب المستجدات الاجتماعية، وإكمال المؤسسات الشرعية، كانتخاب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب وتعيين مجلس وزراء موحد، خطوات يبدو أن الجميع متفقون عليها من حيث المبدأ، ويكاد يجمع اللبنانيون على عدم العودة الى النظام القديم، فذلك يجب إصلاحه وتطويره، ولكن يبدو أن الخلاف هو على الاجابة عن سؤال (كيف، ومتى)، أي: كيف يحدث التطوير؟ ومتى؟

هناك بعض القلة من اللبنانيين الذين يرون أن النظام اللبناني السابق عادل ومعقول ولا داعي لتغييره، وهناك قلة أخرى، على الطرف الآخر، لا تطالب بتغيير النظام فحسب، بل بتغيير جوهر الصيغة أيضاً، إلا أن الأكثرية اللبنانية ترى أن التطوير مطلب ضروري للبنانيين، وقضية حتمية دون المساس بالصيغة، وبما أن الاختلاف على علة النظام واسع وشامل، فإن الاختلاف على وصف الدواء الناجع أيضاً واسع وشامل.

وتستوقفنا ثلاث محطات رئيسية في محاولات التطوير وحل الأزمة خلال الأربعة عشر عاما الماضية، وقد بحثت بالتفصيل بعض هذه المحطات في كتابات موسعة، لعل أشهرها ماكتبه غسان سلامة بهذا الخصوص. المحطة الأولى هي الوثيقة الدستورية سنة ١٩٧٦، وهي وثيقة تؤدي الى توافق الطوائف اللبنانية، فهي تكرس الرئاسات الثلاث: رئاسة الجمهورية لماروني، ورئاسة الوزراء لمسلم سني، ورئاسة مجلس النواب لمسلم شيعي، مع مناصفة في مقاعد مجلس النواب (الذي يتكون بنسبة ٦ : ٥ في النظام القديم لصالح المسيحيين) وكذلك انتخاب رئيس مجلس الوزراء من قبل المجلس النيابي، مع مجموعة من الخطوات الفرعية الأخرى التي تقود إلى إصلاح النظام.

المحطة الثانية في محاولات الوفاق الوطني اللبناني التي حدثت بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا (١٩٨٥)، وقد سميت «الاتفاق الثلاثي» ووقّع عليه قادة ثلاث (ميليشيات) : الدروز، الشيعة، الموارنة، وقد مثل هذا الاتفاق الثلاثي طموحا أكبر من الوثيقة الدستورية، وهو في جوهره

■ في عقد التسعينيات مطلوب من العرب ايجاد حلول سلمية للتعددية الاجتماعية

■ الحرب في لبنان وتحدي الفرصة الأخيرة

يحاول أن يستدل الصيغة الطائفية لصالح صيغة وطنية أكثر شمولا.

إلا أن كلا المحاولتين قد سقطتا، كل لأسباب مختلفة، والنتيجة المحزنة أنه بدءا من نهاية العام الماضي قد فرغت المؤسسات السياسية اللبنانية من رؤوس منتخبة شرعية، بدءا من رئيس الجمهورية، وانتهاء برئيس مجلس النواب - نظرا لاستيفائهما الفترة الشرعية الدستورية لانتخابهما - مرورا بوجود حكومتين، كل تدعي شرعيتها بشكل من الأشكال. وهكذا سقط لبنان في فراغ دستوري.

الفرصة الأخيرة:

أما المحطة الأخيرة للاصلاح وحل الأزمة فهي الجهود المبذولة في الأشهر الأخيرة من قبل اللجنة السداسية التي ما زالت في طور الانضاج والإثمار.

إن مقاومة الحل الوفاقي في لبنان اليوم مقاومة متعددة الأطراف والأشكال، فهي ليست بالسلاح فقط، بل إن هناك نوعين بارزين منها على الأقل، تتقاطع بينهما الخطوط: الأولى تتمثل في أن الحرب الأهلية قد أصبحت نظاماً في لبنان، له كل خصائص النظام وآلياته، فمن ولد عند انفجارها أشرف اليوم على الخامسة عشرة من عمره، ومن كان ذا عشر سنوات أصبح في بداية شبابه. لقد خلقت تلك الحرب الأهلية قواعدها وأنظمتها، كما تقوم في نظام، حرب الأهلية مقومية بالعنف تارة، وبالحيلة تارة، وبالسياسة تارة ثالثة. أما المقاومة الثانية للحل الوفاقي التي خلقتها الحرب الأهلية فهي مقاومة بعض النفوس والعقول في لبنان لتسوية سياسية.

ولكن بعد كشف أوراق هاتين (المقاومتين) واستنفادها، فإن على اللبنانيين والعرب الآخرين التعامل معهما من منطلق المصالح البعيدة لا الأنية والتي تحقق ملء الفراغ الدستوري والمصالحة الوطنية بين اللبنانيين. وذاك مطلب لبناني وعربي، وهو مطلب لو تعرفون كبير في ظل ظروف الحرب والنزاع، وهو مطلب كان الشغل الشاغل للجنة السداسية، فجاءت قراراتها مؤكدة وحاضة عليه.

بقي أن يدفع كل المخلصين هذه الخطوات إلى الأمام قبل أن تضيع الفرصة الأخيرة □

محمد الرميحي

(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

جَدُّ حَسَنة .. وَأنَا .. !

بقلم : حميد سعيد*

بدأت منذ سني الصبا تكوين مكتبتي الخاصة ، وفي البدء اتخذت من صندوق خشبي من موروثات العائلة ، مكانا لها . وحين ضاق الصندوق بمقتنياتي من الكتب ، اتخذت من رفوف جدارية - تسمّى باللهجة العراقية « الدارجة » و « الرازونة » - مكانا لكتبي . وكان ذلك في بيت والدي بمدينة الحلة .

في أواخر الخمسينيات اقتنيت أول مكتبة خشبية ، كانت متوسطة الحجم ، استوعبت الجديد من كتبي ، حتى إذا ضاقت بها جمعت القديم منها والأقل أهمية في صناديق من الورق المقوّى .

منذ عام ١٩٦٤ ، حيث غادرت مدينة الحلة ، وإلى بدايات عام ١٩٦٩ ، حيث تزوّجت ، تنقّلت بين عدد من المدن العراقية ، وأقمت في بيوت الطلاب والشقق والفنادق .

وفي هذه السنوات ، عرفت العسر وعدم الاستقرار ، لكن لم أنقطع عن شراء الإصدارات الجديدة والاحتفاظ بها في المكتبة نفسها الموجودة في بيت العائلة بمدينة الحلة ، وبمرور الأيام كبرت المكتبة واغتنت وتميّزت بالتنوع .

* شاعر ، ورئيس تحرير صحيفة الثورة اليومية العراقية ، الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء العرب .

حين تزوّجت وفتحت بيتي في بغداد ، طلبت مني والدتي - رحمها الله - أن تبقى المكتبة في مكانها ، فاستجبت لطلبها ، ولم آخذ منها إلا عددا قليلا من الكتب ، أذكر منها « سيرة ابن هشام » ، و « صحيح الامام مالك » ، و « خطط المقريزي » ، و « حماسة أبي تمام » ، وديواني « المتنبي » و « جرير » ، ورواية « الساعة الخامسة والعشرون » ، وبعض دواوين الشعر العربي الحديث .

إن المكتبة التي أتحدث عنها ، ما زالت في بيت والدي ، على الرغم من أن شقيقا لي مختصا بالأدب الأندلسي ، أنشأ مكتبته الخاصة في البيت نفسه ، إلا أنه حرص أيضا على عدم تداخل المكتبتين .

ربما لأنني نشأت في بيت لا علاقة له بالكتاب ، صار حرصي على الكتب لا حدود له ، ولا أتردد عن أن أقول : إنه حرص الجشع والبخيل .

ويشهد الله أنني في سوى الكتاب على العكس تماما .

في أيام زواجي الأولى ، بدأت بتكوين مكتبة جديدة ، وكان من النادر أن أدخل البيت دون أن أحمل كتابا أو رزمة من الكتب .

في تلك الأيام كانت تعيش معنا طفلة يتيمة ، في الثامنة من العمر ، على قدر غير قليل من الذكاء ، وهي من أسرة ريفية ، تمت إلى زوجتي بصلة الرحم

كنت ألاحظ عليها الجفوة في علاقتها معي ، على الرغم من كل ما أبديه تجاهها من محبة وعطف . وأحس بامتعاضها من كتبي ومكتبتي ، بل ومن أصدقائي الذين أستقبلهم في غرفة المكتبة .

ولأنني لا أعرف التبضع ، ولأنني كنت باستمرار أعتمد على عائلتي في إيجاد ما أحتاجه ، فقد استمر هذا الوضع بعد الزواج ، واعتمدت ثانية على والد زوجتي في جلب ما يحتاجه البيت من طعام أو غير ذلك من الأشياء .

في مساء صيف بغدادي ، انتبهت إلى زوجتي وهي تتكتم على ضحكة كلما نظرت إلى الطفلة ، فما كان لي إلا أن أسألها عما يضحكها ، فقالت : إن « حسنة » - وهذا هو اسم الطفلة - تعتبرني سيئة الحظ بزواجي منك ، وقد قالت لي : لماذا لم يرزقك الله زوجا مثل جدي الذي لا يأتي إلينا إلا ومعه خير وفير مما لذ وطاب ؟ أما زوجك فلا يأتي إلا بالكتب والمجلات والصحف ، ولا يفعل شيئا سوى تناوله الطعام ، ثم ينصرف إلى كتبه وأوراقه .

يومئذ ضحكت إلى حد الضجيج ، وقلت وأنا أواصل الضحك : والله إنها على حق ، ولن أعترض لو أخذت بنصيحتها !!

مر زمن طويل على هذه الحادثة ، فما تغيّرتُ ، لكن يبدو لي أنها تركت في نفسي أثرا ، فكلما اشتريت كتبا جديدة - سواء حين أكون في العراق أو خارجه ، أتذكر رأي « حسنة » بي .

ولذلك ، وحين يكون رصيدي من الكتب وفيرا ، أشعر بالحرج ، فأعمد إلى الاحتفاظ بها في صندوق السيارة ، ثم أحمل منها رزمة صغيرة كلما دخلت إلى البيت .

إنها لمشكلة حقا ، فلقد ضاق البيت وأهل البيت بها ، أما أنا فقد ازددت بها شغفاً . □

● الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .
● قال أبوعمرو بن العلاء : خذ الخير من أهله ، ودع الشر لأهله .
● أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ،وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

العربي ـ العدد ٣٦٧ ـ يونيو ١٩٨٩ م

العلاقة بين الطبقات

«وجهة نظر إسلامية»

بقلم : الدكتور محمد عمارة

من الظواهر المصاحبة للتطور المجتمعي في القرون الثلاثة الأخيرة تعدد الطبقات الاجتماعية ، وتبلور مصالحها ، وتناقضاتها . ومع مرحلة الإحياء الإسلامي المعاصرة يجتهد المفكرون الإسلاميون لاستخلاص رؤية إسلامية للطبقات والعلاقات فيما بينها ، مغلبين ـ كما يرى كاتب المقال ـ نظرية التوازن في مقابل نظرية الصراع .

الإسلام : دين الجماعة ، أي الأمة ، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي . وكون الأمة هي الجامعة الأساسية في المنظور الإسلامي لا يعني الإجحاف بحقوق « الفرد » ، ولا الإنكار لوجود « الطبقة » بالمعنى الاجتماعي ـ في إطار « الأمة » ، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين « الفرد » و« الطبقة » و« الأمة » على نحو فريد .

فالمسئولية ، في الإسلام في كثير من التكاليف ، وفي الحساب والجزاء عليها : مسئولية فردية ، نقل الإسلام بها هذا الفرد من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة ، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالفطرة ، اجتماعي بالطبع ، يستحيل عليه أن يحيا فردا ، وفي حدود النزعة الفردية .

والتكاليف ، هو في الاسلام ،منها الفردي ـ فروض العين ـ ومنها الاجتماعي ـ فروض الكفاية ـ وهي جيما ينتظمها نسق واحد ، هو نسق التكاليف الدينية ، والرباط بينها عضوي ، حتى ليستحيل على الفرد ـ بسبب من مدنيته واجتماعيته ـ أن ينهض بتكاليفه الفردية ـ فروض العين ـ إذا أصاب الخلل النظام الاجتماعي ، بتخلف الفروض الاجتماعية . فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عز فيه القوت ، فأنَّ للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية ؟ . لقد قال الفقهاء : إن صلاة الخائف والجائع لا تصح ، لأن الحضور فيها ـ وهو شرط إقامتها ـ لا يتأتى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات !

ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامة الدين ، فقال : « إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا ، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا : بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة ، والمسكن ، والأقوات ، والأمن ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية . إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين » . (الاقتصاد في الاعتقاد) (ص ١٣٥) . ولذلك ، كانت فروض الكفاية ـ الاجتماعية ـ في

المنهج الإسلامي آكد من فروض العين - الفردية - للارتباط العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد ، ولترتب التمكن من أداء فروض العين على تحقق فروض الكفاية . لكن تحقق الفروض الاجتماعية لا يغني عن ضرورة الفروض العينية . لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته . فالمسئولية والتكليف والحساب والجزاء فردي ، ولا تزر وازرة وزر أخرى - في التكاليف الفردية - لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها .

ولذلك دعانا الله الى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا دون سواهم . ! إن النهوض بالمسئوليات والتكاليف الفردية هو السبيل الى إقامة التكاليف الاجتماعية ، كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الذي يهيء للفرد الوفاء بحقوق تكاليفه العينية . وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام .

الأمة كيان جامع

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند الماوردي » (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ، (٩٧٤ - ١٠٥٨ م) عندما يقول : « . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين .

أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها .

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها .. فهما شيئان لاصلاح لأحدهما إلا بصاحبه . لأن من صلحت حاله ، مع فساد الدنيا . واختلال أمورها ، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ، ويقدح فيه اختلالها ، لأنه منها يستمد . ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها أثرا . لأن الإنسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه ، لأن نفسه أخص ، وحاله أمس ، فصار نظره الى ما يخصه مصروفا ، وفكره على ما يمسه موقوفا . » (وأدب الدنيا والدين» ص ١٣٤ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م) .

فالفرد هو نقطة البدء ، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة ، يغدو لبنة في كيان الأمة . ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءا من البناء الكبير .

والأمة في التصور الإسلامي ، ليست مجرد جمع « كمي » يساوي عدد الأفراد فيها ، وإنما هي كيان جامع . له حالة « كيفية » جديدة تفوق كيفيات وقدرات أفرادها متفرقين . . إنها كيان متميز له ماليس للأفراد المتناثرين . . إن الخيوط المتفرقة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هي اجتمعت . وقطرات الماء المتفرقة لا تحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع . . والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع . . ولذلك لم يمنع جواز الضلال على كل فرد من أفراد الأمة ، أن تكون لهذه الأمة العصمة عند الاجتماع والإجماع . . ويشهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث : لا يعمهم بسنة ، ولا يستأصلهم عدو ، ولا يجمعهم على ضلالة » - رواه الدارمي - .

فللأمة ، في الإسلام ، مقام فريد . يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم « الكمي » لما لدى أفرادها وآحادها

ولقد أبصر « الماوردي » - وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في « الشورى » كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب « الفرد » قد حبذت « الشورى الفردية » ، بينما حبذت الحضارات التي مالت كفتها لحساب المجموع « شورى الاجتماع » . ثم أضاف الجديد التي تميزت به حضارة الاسلام وشوراه ، عندما جمعت بين الاثنين - الفرد والمجموع - فقال إن مذهب الاسلام في « الشورى » هو الجمع بين « شورى الفرد » و « شورى الاجتماع » . . فحيث تكون القضايا مما تحتاج الى الاجتهاد وإعمال الفكر واستنباط الأدلة ، تكون شورى الانفراد لأنها شورى الاجتهاد . . وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي ، فإن الاجتماع والمواجهة - شورى الاجتماع - تكون هي السبيل القويم - (أدب الدنيا والدين) - ص ٢٩٣ - فالارتباط بين الفرد والمجموع

الإمام علي لواليه : « . واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها . جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها : قضاة العدل . ومنها : عمال الإنصاف والرفق . ومنها : أهل الجزية والخراج ، من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها : التجار ، وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى ، من ذوي الحاجة والمسكنة ـ أي العاجزون عن الكسب والتحصيل ـ فالجنود حصون الرعية ، وسبل الأمن . ثم لاقوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج . . ثم لاقوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب . . ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات » . (نهج البلاغة ص ٣٣٧ ـ طبعة دار الشعب القاهرة .) .

فالمطلوب لتحقيق العدل ، ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقة بقية الطبقات بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي . . وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تعد وظائفها ضرورات اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري . والكسب الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته [illegible] لأن هذه الطبقات ـ كما يقول الإمام علي ـ لا تصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض .

[illegible] التمايز الطبقي ، [illegible] [illegible] عن هذه الطبقات . فعله أن يكون التمايز الذي [illegible] [illegible] الله سبحانه وتعالى . (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) ـ الزخرف ـ (٣٢) فالتمايز والتفاوت الطبقي ـ والمحدد بأنه درجات ـ هدفه ، وهذا هو المعنى المناسب لـ (سخريا) هو التساند والارتفاق ، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى عماد . . وليس المراد سخرة الإستعباد والإذلال ـ التي هي عين الظلم الذي تتنزه الله عن فعله وعن إرادته للناس . فالطبيعة وظواهرها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ، ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها . وكذلك التمايز الطبقي ، ضرورة للتساند والإرتفاق ، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل ، لتكون الأمة ، بأدائها الاجتماعي ، كالفريق ، وكالجسد الواحد ، الذي وإن تكوّن من أعضاء متمايزة ، إلا أن العلاقات والروابط الصحية والصحيحة بين أعضائه المتعددة ، تحقق له أداة موحدا لجسد واحد ، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

المال مال الله

ولأن هذه هي « فلسفة الإسلام الاجتماعية وجدنا القرآن الكريم يجعل « المال مال الله سبحانه وتعالى ، في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس ، بحكم خلافتهم فيه عن الله . فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه : (وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) ـ الحديد (٧) ، فجعل ملكية الرقبة ، الملكية الحقيقية له سبحانه ، وجعل للإنسان فيه ملكية المنفعة ، الملكية المجازية ، المحققة لمقصد الاستخلاف في هذه الأموال . وذلك حتى ينفسح الباب ، دائما وأبدا ، أمام حركة الدفع الاجتماعي [illegible] العدل الاجتماعي كي [illegible] الامتلاك والاختصاص والحيازة في الأموال إلى درجة التوازن وتحقيق العدل [illegible] وتحقق مقاصد الاستخلاف [illegible] من الأغنياء [illegible] [illegible] الأسباب واحتلال من الثمرات ، [illegible] المستخلفين وجدنا القرآن يضيف مصطلح المال إلى ضمير الجمع في سبع وأربعين آية ، وإلى ضمير الفرد في سبع آيات فلا ينفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف .

ولنتأمل صنيع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مع الصحابي بلال بن الحارث ، و « الإقطاع » الذي أقطعه إياه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقد سأل بلال الرسول أن يقطعه أرضا واسعة ، فأقطعها له ـ وكان ذلك سبيلا لإحياء الأرض الموات ، أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها ، لكن بلالا حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها ، يفعل فيها ما يريد . . لكن عمر رأى أن ذلك إخلال بالتوازن والعدل الذي يجب أن

بحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دُولةً بين الأغنياء . يحورون أكثر مما يطيقون ويحتاجون ، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون . فأراد عمر العودة بهذه العلاقة - بين بلال والأرض - من درجة الخلل والظلم الى درجة التوازن والعدل . وذلك بأن تقتصر حيازته على ما يطيق زراعته ، وأن يعطي الزائد لمن يحييه ويستثمره . . ولما حادل بلال في ذلك ، قسره عليه عمر ، بل وسنّ قانونا ينظم أمر هذه الإقطاعات ، ويضمن إعادة العلاقة بالأموال ، إذا هي اختلت - من درجة الظلم والخلل الى درجة العدل والاتزان .

لنتأمل صنيع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار - عنيفا - بينه وبين بلال بن الحارث ، والذي بدأه عمر ، فقال لبلال :

« إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة ، فقطعها لك . وإن رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله . وأنت لا تطيق ما في يدك ! فردّ بلال أجل !

فقال عمر : فانظر ما قويت عليه فأمسكه ، ومالم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين .

فرفض بلال قائلا : « لا . . لا أفعل ! هذا شيء أقطعنيه رسول الله !

فقال عمر : « إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي !

- لا أفعل !

- والله لتفعلن ! . . »

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسّمه بين الناس » ثم خطب الناس فقال . « من أحيا أرضا ميتة فهي له . ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . ! »

(الخراج) ليحيى بن ادم - ص ٩١ ، ٩٣ طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤هـ و (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام - ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلسفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله ، ولتحديد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف . . وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي ، مع الحرص على أن تكون علاقات التمايز طبقيا عند لحظة التوازن والعدل - الوسط - فإذا حدث الخلل والظلم ، عاد المنهج الإسلامي بهذه العلاقات - كما صنع عمر مع بلال بن الحارث - الى درجة التوازن والعدل . فهو لم يلغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا ، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل . . « خذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين »

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد . والطبقة . . والأمة . . وتظل الوسطية الإسلامية الجامعة المعيار الذي يرشد هذه العلاقات ، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل . . وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » . . □

كانت له «صفة» ولكنه «صرفها»:

● وقف الزوج أمام القاضي ليفصل في موضوع طلب الزوجة الطلاق، وأراد القاضي الإصلاح بين الزوجين قبل نظر الدعوى. فقال للزوجة: «لابد أن هناك صفة ما أحببتها في زوجك من قبل حتى رضيت بالزواج منه؟» وأجابت الزوجة في هدوء

نعم كانت صفة أعجبت بها ولكنه صرفها كلها

أنا الآن أطفو على حلمِ الحلم
بين الغيابِ وبين الحضور
لمالي يؤانسني
ذكرياتٌ من الرعبِ
تعلو وتهبطُ
ريحٌ تزمجرُ بين عظامي ولحمي
وحولي طنينٌ خفيٌ
يجوبُ ضفافَ السكونْ
وددتُ لو أني أغني
لأسمع أصداء صوتي
ولكنّ عرّافتي حذّرتني
لكي لا أموت :

[إذا انهار سقف السماءِ
وأخرجَتِ الأرضُ أوزارها
فاعتصم بالسكوت
لأنّ البلاد مُعبأةٌ بالطواويسِ
مُثخَنةٌ بسياطِ المرابينَ
مُتخمةٌ بجنونِ الكلامِ
وقمحِ الجياعِ المُهرّبِ
ما سوف يأتي يفوقُ الجنونْ
هناكَ على ضفةِ النهرِ
أو آخرِ التلّةِ المُبتغاةِ
سينزاحُ سرُّكَ عن سدرةِ الليلِ
فاعجنْ خلاياك بالصمتِ
كي لا تموتْ
هناك ستعرف سر السكوتْ]

* * *

أنا الآنَ في « أوسط » الجسر والحلمِ
صوتٌ عميق يراودني

من حدود السياج يشد ثيابي
يقول : « اتّئذْ
ليس هذا أوان العبورْ
فجنيةُ النهرِ تدعو خطاكَ
إلى غامضِ الماءِ
كيف ركبتَ خيول الحماسةِ
هل كنتَ تدري
بأنكَ رهنُ الهروبْ ؟ »

نسيتُ التعاويذَ
حرّاقتي علمتني السكوتَ
فضيعتُ صوتي
كذلك هذا العبور النذيرْ
مراراً تناثرَ جسميَ ثم اجتمعتُ
مراراً كبوتُ
صحوتُ على ظلمةٍ فانتحبتُ

وأغمضتُ عينيَّ حتى « الشماس »
فالآن وصلتُ إلى الضفة المبتغاة
على مرفقيَّ زحفتُ
على ركبتيْ
على رعشةِ الروحِ
أدميتُ وجهي
وجفَّ « الغضار » على شفتيْ
لأعرفَ سرَّ السكوتْ
فلا شيءَ فوقَ الصخورِ
يلوحُ سوايَ
« كفزّاعةِ » الانتظارْ
وحيداً وصلتُ
وحيداً أعدُّ ثواني السقوط
فياليتني قلتُها
ثم متُّ هناكَ
لكي لا أموتُ .

« تعاظمت في السنوات الأخيرة ظاهرة تهريب الثروات من البلدان النامية ومع ازدياد قيمة هذه الثروات وكبر حجمها : بدأ الاقتصاديون والسياسيون يدقون جرس الانذار لخطورة استمرار هذه الحالة .

عن هذه الظاهرة المرضية وأسبابها ومدلولاتها وتفسيرها يلقي هذا المقال أضواء كثيرة ويثير تساؤلات ويقدم إجابات » .

من بلاد الفقراء

بقلم : الدكتور رمزى زكي

كانت نظريات التنمية التقليدية التي سادت في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، تزعم أن البلاد النامية التى تتطلع نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي لايمكن أن تقيم تنميتها إلّا بالاعتماد على الموارد الأجنبية المنسابة من البلاد الرأسمالية الغنية ، نظرا لأن الادخار المحلي في هذه البلاد ضئيل متواضع ، ولا يكفي لتمويل برامج الاستثمار الطموحة . وزعمت هذه النظريات أيضا ، أن أي محاولة لزيادة حجم ومعدلات الادخار المحلية في تلك البلاد إنما تعني الهبوط بمستويات المعيشة نحو حافة العدم . فليس هناك ، في ظل مستوى المعيشة المنخفض للغالبية الساحقة من السكان ، أي فائض إضافي يمكن ادخاره ، فوق مايدخر فعلا . من هنا ، ليس هناك أي أمل لحل معضلة تمويل التنمية إلا باستقبال الموارد الأجنبية ، سواء في شكل قروض أو في شكل استثمارات أجنبية . في ضوء هذه النظرة ، لم يكن مستغربا أن يعلن اقتصادى بارز ، مثل « بنيامين هيجنز » ، أنه مهما بذلت مجموعة البلاد النامية من جهود في مجال التنمية ، فإن تلك الجهود ستضيع أدراج الرياح ، مالم تعتمد على رأس المال الأجنبي . ونظرا لطابع الرواج والسيطرة الشديدة التي تمتعت بها هذه النظريات في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد نجحت تلك النظريات في إشاعة هذا الوهم ، الذى وجد ترجمته الفعلية في تزايد اعتماد البلدان النامية على التمويل الأجنبي ، وهو الأمر الذي أفضى في النهاية إلى نشوء أزمة الديون الخارجية ، وتزايد التبعية الخارجية .

تبدد الوهم

وللحق نقول : إن هذا الوهم كان قد تبدد تماما في ضوء التحليل المهم الذي قدمه الاقتصادي الأمريكي « بول باران » في كتابه الشهير « الاقتصاد السياسي للنمو » الذي صدر عام ١٩٥٧ ، فقد ميز « باران » بين ما يسمى الادخار المتحقق actual ، وبين الادخار الممكن potential . فالادخار المتحقق الذى هو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يتحقق في ظروف اقتصادية واجتماعية وتقنية معينة ، وبين الاستهلاك الجاري ، منخفض وضئيل ، ولا ينازع أحد في ذلك أما الادخار الممكن فهو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يمكن تحقيقه باستغلال الموارد المتاحة والممكنة أفضل استغلال ممكن ، وبين ما يعد استهلاكا ضروريا ورشيدا . والادخار الممكن بهذا المعنى يفوق بكثير حجم الادخار المتحقق . هذه التفرقة الاستراتيجية التي أجراها باران بين هذين النوعين من الادخار كشفت النقاب عن جوهر مشكلة تمويل التنمية ، مبينا أنها في التحليل الأخير ، مشكلة اجتماعية وسياسية ، وليست مشكلة مالية ، فالفرق بين هذين النوعين من الادخار يعكس مشكلة الفائض الاقتصادي الضائع أو الموارد المهدرة ، مثل الطاقات الانتاجية المعطلة ، والموارد البشرية غير المستخدمة (البطالة) واكتناز الأموال ، والاستهلاك الترفي ، والاستيراد الكمالي ، والإنفاق العام غير الرشيد . فكل هذه الموارد تمثل ادخارا ممكنا من هنا يكمن التحدي الرئيسي لحل مشكلة التمويل في تعبئة هذه الموارد المهدرة ، من خلال إجراءات اجتماعية وسياسية فاعلة ، تحول الادخار الممكن إلى ادخار فعلي وإذا استطاعت البلاد النامية أن تفعل هذا فإن فجوة مواردها المحلية سوف تضيق كثيرا ، وحاجتها للتمويل الخارجي سوف تتضاءل على نحو محسوس .

كانت أفكار باران في الخمسينيات أشبه بالمصباح المنير الذي أنار ظلمات تحليل قضايا التخلف والنمو ، وكان من الممكن لها أن تكون سلاحا قويا في أيدي قادة حركات التحرر الوطني الذين راودتهم الآمال لتحقيق برامج إنمائية طموحة لتنمية القاعدة المادية للإنتاج ، ورفع مستوى المعيشة ، وعلاج مشكلات التركة الاستعمارية ومواريثها (الفقر والمرض والجهل) ومع ذلك ، ظلت أفكار باران - للأسف - مهملة ، ولا يتحدث عنها ويدعو إليها إلا قلة من الاقتصاديين والمفكرين الطليعيين

الذين اتخذوا موقف النقد الواعي لترسانة الفكر التنموي التقليدي الغربي الذي افتقر للكفاءة النظرية (في تفسير الواقع) ، وإلى الكفاءة التطبيقية (في تغيير الواقع) ، كما أثبتت أحداث ربع القرن الماضي .

مفارقة صارخة

ولعل الضجة المثارة الآن حول الأموال الهاربة والمهربة من البلاد النامية المدينة ، لتزيد من القوة التفسيرية لنظرية بول باران ، حول مأزق التنمية في هذه البلاد عموما ، وحول معضلة تمويل هذه التنمية خصوصا . فعلى الرغم مما يشاع بأن هذه البلاد في حاجة ماسة إلى الأموال والقروض والمعونات الأجنبية ، إلا أن الإحصائيات والدراسات التي نشرت في السنوات الأخيرة قد كشفت عن مفارقة صارخة في هذه القضية ، فقد تبين أنه خرج من هذه البلاد كميات هائلة من الأموال التي تودع وتستثمر في الأسواق النقدية الخارجية بأسماء أفراد ينتمون إلى تلك البلاد . وهي أموال من الضخامة ، بحيث لو نسبت إلى مجموع الديون الخارجية للبلاد التي خرجت منها لشكلت نسبة كبيرة جدا ، قد تفوق ١٠٠٪ في بعض هذه البلاد ، كما أن خروجها في حد ذاته يؤثر سلبيا على موازين مدفوعات تلك البلاد ، حيث تزيد العجز الحادث فيها ، وتجعل البلد في حاجة للاقتراض ، لسد هذا العجز . ناهيك عن أن الاقتصاد المحلي الذي خرجت منه يحرم من عوائدها واستثمارها . ولما كان شطر كبير من هذه الأموال يودع بالمصارف الأجنبية بالخارج ، فإن تلك المصارف عادة ما تقوم بإعادة إقراضها للبلاد النامية الفقيرة . وكأن الأمر يعني ، في هذه الحالة ، أن البلد المدين يسمح بخروج الأموال منه ، ثم يعود فيقترض هذه الأموال من الخارج عبر وسيط ثالث ، بتكلفة باهظة . وهذا تناقض غريب ، يبعث على الأسى والحزن على الحالة التي وصلت إليها البلاد النامية في الآونة الراهنة .

وحينما طرحت قضية خروج الأموال من البلاد النامية للاستثمار بالخارج على بساط البحث في المنظمات الدولية ، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، وفي أبحاث الخبراء بالدول الرأسمالية الصناعية ، استخدم مصطلح « الأموال الهاربة » للدلالة على هذه الظاهرة . لكن كاتب هذه السطور يصر دائما على ضرورة التفرقة الواضحة بين الأموال الهاربة capital flight وبين الأموال المهربة للخارج smuggle ، نظرا لاختلاف الدلالة التي ينطوي عليها كلا المصطلحين ، ذلك أن المصطلح الأول يشير عادة إلى خروج رؤوس الأموال الخاصة الساخنة Hot

money من البلاد التي لاتوجد فيها رقابة على الصرف ، ويتمتع فيها المقيمون بحرية التحويل ، بحثا عن أفضل عائد وأفضل ضمان بالخارج ، وخروج الأموال الهاربة ـ بهذا المعنى ـ أمر مشروع ، ويتم بسماح الدولة والقوانين (مثال ذلك استثمار بعض مواطني دول الخليج لمدخراتهم في أسواق النقد الدولية) ، اما تهريب الأموال فنقصد به عملية خروج الأموال عن طريق القطاع الخاص والأفراد ، وإيداعها واستثمارها في الخارج ، على الرغم من حظر التحويل الذي تفرضه نظم الرقابة على الصرف . ومن ثم فإن كل مال خرج من الاقتصاد المحلي عن طريق غير رسمي ، وتحظره القوانين يعد تهريبا ، وهو أمر مجرم قانونا ، ويعاقب عليه مرتكبه . وهنا تجدر الإشارة إلى أن معظم الأموال التي خرجت من البلاد المدينة هي من النوع الثاني .

أموال مهربة وليست هاربة

هذه التفرقة المهمة التي نصر على إجرائها بين الأموال الهاربة ، والأموال المهربة مهمة جدا في تفسير الظاهرة ، واستخلاص السياسات المناسبة للتصدي لها ، فإذا كنا نتكلم عن الأموال الهاربة ـ بالمعنى السابق لهذا المصطلح ـ فإن تفسير تلك الظاهرة يعود إلى تفضيلات الأفراد المستثمرين الذين يقارنون بين العائد المتوقع في بلادهم والضمانات المحيطة بالاستثمار ، وبين العائد المحتمل فى الخارج وضماناته ، فإذا كانت نتيجة هذه المقارنة لصالح الاستثمار بالخارج خرجت الأموال ، والعكس صحيح . من هنا ثمة علاقة ارتباط واضحة بين المتغيرات الاقتصادية الداخلية ، مثل سعر الفائدة ،

ومعدل التضخم المحلي ، وسعر الصرف ، ومعدلات الضرائب على الدخول ، وبين خروج الأموال للخارج . ولهذا ، فإن عودة الأموال الهاربة إلى بلادها قد تتطلب التأثير في هذه المتغيرات ، أي زيادة سعر الفائدة ، ومكافحة التضخم ، وتعديل سعر الصرف ، وتخفيض الضرائب على الدخول وعلى رؤوس الأموال .

أما إذا كنا نتحدث عن الأموال المهربة ، فالأمر مختلف تماما ، فليس هناك أي علاقة بينها وبين المتغيرات الاقتصادية الداخلية سالفة الذكر ، وعلى الأخص حينما يكون الأمر متعلقا بالبلاد التي تتبع نظام الرقابة على الصرف ، ذلك أن إمعان النظر في المسألة ، يوضح لنا ، أن ظاهرة تهريب الأموال من هذه البلدان تعود إلى تفشي الرشوة والفساد الإداري ، وعمليات (السمسرة) غير المشروعة ، وإلى خراب الذمم ، وضعف أجهزة الدولة ، وعدم هيبتها ، واستغلال النفوذ والسلطة في تحقيق ثروات هائلة بشكل غير قانوني . ولهذا نحن نعتقد ، أن تلك الأموال والثروات المهربة للخارج التي تحققت بشكل غير مشروع ، لن يمكن اجتذابها مرة أخرى لبلادها ، حتى ولو قام المسئولون في هذه البلاد بفرش الطريق بالورود والمزايا والضمانات لأصحابها .

والسبب في ذلك غاية في البساطة ، وهو أن تلك الأموال تظل دوما في حالة ذعر وخوف لإيمان أصحابها بعدم مشروعيتها ، وبخروجهم على قوانين بلادهم . من هنا فإنها لن تعود مهما قامت حكومات تلك البلاد بتعديل سياستها والتأثير في المتغيرات الاقتصادية الداخلية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه نظرا لطابع الحساسية السياسية والاجتماعية لظاهرة تهريب الأموال للخارج ، وما تكشف عنه من رخاوة في أجهزة الدولة ، ومن فساد وتسيب إداريين كبيرين ، فإن هناك ما يشبه الظلام الدامس حولها في البلاد المدينة ، وبخاصة ذات الوضع الحرج . وهذا أمر مفهوم لنا ، وبخاصة لأن عددا من كبار المسئولين في هذه الدول من المتورطين في هذه الظاهرة . والإحصائيات والدراسات المعروفة الآن عن هذه الظاهرة ـ على

الرغم من ندرتها ومحدوديتها وعدم كمالها ـ قامت بنشرها المنظمات الاقتصادية الدولية ، وبعض المصارف الأجنبية ، لكي تضغط على الحكومات المدينة لتطبيق المزيد من السياسات « الليبرالية » ، حتى تعود هذه الأموال إلى بلادها .

المشكلة سياسية واجتماعية

ومن المفارقات المدهشة التي تدعو للعجب ، أن يعلم القارىء أن من بين الأسباب القوية التي سهلت ذيوع ظاهرة تهريب الأموال وانتشارها من البلدان الفقيرة المدينة ، هي تلك السياسات « الليبرالية » المفرطة التي فرضت على هذه البلدان من قبل تلك المنظمات ، وعلى الأخص من صندوق النقد الدولي . فمع إلغاء نظام الرقابة على الصرف ، وإلغاء القيود المفروضة على التحويلات الخارجية ، ومع تخفيض سعر الصرف للعملة المحلية واستمرار تدهور هذا السعر ، وفي ضوء تحرير التجارة الخارجية ، والمزايا والضمانات والحوافز السخية (التي تصل أحيانا إلى حد السفه) التي أعطيت للقطاع الخاص المحلي والأجنبي ، وفي ضوء تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمخضت عن سياسات التكييف والتصحيح (الغلاء ، البطالة ، الركود الاقتصادي ، زيادة التفاوت في توزيع الدخل . .) أصبح المستثمرون من القطاع الخاص ، وأثرياء هذه البلدان ، يفضلون تهريب أموالهم ، واستثمارها بأسمائهم في الخارج ، مستغلين في ذلك جو السماح والانفتاح « والليبرالية » المفرطة التي توفرها سياسات صندوق النقد الدولي . من هنا لا عجب والحال هذه أن تلك الظاهرة أصبحت أمرا مألوفا ، وذات اتجاه متزايد في البلاد ذات المديونية الخارجية الثقيلة التي وقعت في فخ الدائنين وسياسات الصندوق .

ومرة أخرى نعود في النهاية إلى « بول باران » ، لنقول معه ، كما قلنا منذ أكثر من عشرين عاما مضت في كتابنا : مشكلة الادخار في البلاد النامية (القاهرة : ١٩٦٦) : إن مشكلة التمويل في البلاد النامية ليست مشكلة مالية ، وإنما هي مشكلة سياسية اجتماعية في المقام الأول .

وفي ضوء هذا المنطلق ، نعتقد أنه من الأفضل للبلاد النامية ألا تعلق الآمال على احتمالات عودة هذه الأموال ، فهذا أمر صعب المنال ، والأهم من ذلك هو العمل بكل حسم لوقف هذه الظاهرة ، من خلال تطبيق القوانين بصرامة ، وسد كل الثغرات التي ينفذ منها المال المهرب للخارج . بيد أن المطالبة بذلك ، إنما تعني في النهاية المطالبة بتوجه إنمائي جديد ، وبسياسات اقتصادية واجتماعية ، تختلف عما تطبقه حاليا هذه الدول ، ووضع شعار « طهارة اليد والسلوك » موضع التطبيق الحاسم . وهنا بيت القصيد في الموضوع كله . □

مصرف الأسماء المستعارة

● ليس للذين يودعون أموالهم مصرف بورت مورسبي ، من سكان بابوا في غينيا الجديدة ، حسابات مرقمة ، فهم يتخذون لهم أسماء مستعارة من الأسماك والطيور وما شاكل ذلك ، ويصبح العميل معروفا لدى المصرف باسم « سمك المنشار » مثلا ، أو « الهدهد » ، ويحتفظ به سرا له

يتابع الكاتب رصد تأثيرات « البيريسترويكا » على العلاقات الدولية واحتمالاتها المختلفة التي تبدأ من الاعتماد المتبادل بدلاً من المواجهة إلى استمرار التناقض بين المعسكرين .

مستقبل "البيريسترويكا" وتأثيرها على العلاقات الدولية والإقليمية

بقلم : أمين هويدي

لم تنل « فرقعة » من « الفرقعات » التي تحدث في الكوكب الذى نعيش فيه مثل ما نالت « البيريسترويكا » ، أو إعادة البناء ، من اهتمام ، فقد تناولها الساسة والباحثون والمعاهد المتخصصة بالبحث ومازالوا كذلك ليصلوا إلى تحديد ردود الفعل على كافة المستويات ، حتى تتفق الاستراتيجيات مع المتغيرات . إنهم جميعا يريدون أن يصلوا إلى الحقائق ، حتى « لا يكتفوا برؤية بعض الأشجار ، بل ليروا الغابة كلها » إن إعمال العقل للكشف عن المتغيرات المستقبلية أكثر فائدة وأهم من ترك الأمور للعبة الحظ ، حتى في الحروب التي حددت مسار التاريخ ، فاستخدام الحكمة كان ومازال أهم أضعافا مضاعفة من الشجاعة والإقدام ، كما أن الفكر المبدع الخلاق كان أفضل وأجدى في إحراز الانتصارات من السيف والمدفع .

وكالعادة ، فإن الآراء دائما ما تنقسم عند مواجهة الحدث الجديد فى تفسير حدوثه ، ومدى التغيرات الحقيقية التى يحدثها بعد إزالة البريق الخاطف الذي يصاحبه في أول الأمر ، ثم يكون الخلاف الأكبر في كيفية مواجهته لتطويعه لخدمة

الأغراض المرجوة بين المتشددين، أي الصقور والمعتدلين ، أي الحمام .

بعضهم يرى أن « البيريسترويكا » موجهة أساسا إلى الداخل فى الاتحاد السوفيتي والجماعة الاشتراكية . الجبهة الداخلية هي ذات الأهمية الأولى والثانية والثالثة ، أما الجبهة الخارجية فهي غطاء لما يحدث في الداخل ، فالتغيير في الجبهة الخارجية طفيف ، إن لم يكن منعدما . كما يقول الواقع .

استراتيجية صحيحة .. وأساليب متغيرة

« لجورباتشوف » ، وهو يحاول تهدئة الحرب الباردة وسباق التسلح يقطع ـ وهو محق في ذلك على الأقل بالنسبة للمواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ـ بأن مقولة « كارل فون كلاوزفيتز » في كتابه « في الحرب » « بأن الحرب هي استمرار للسياسة بطرق أخرى» قد سقطت إلى الأبد فى ظل التدمير النووي المتبادل بين القوتين العظميين ، هذه حقيقة لا جدال فيها ، ولكن هل يعد هذا تفكيراً جديداً في الصراع الدولى المعاصر؟

لقد ورد ذلك في أدبيات الاستراتيجية العالمية الغربية والشرقية على حد سواء منذ الخمسينيات . فالمارشال ف . د . سوكولوفسكي في كتـابه «حول الاستراتيجية العسكرية السوفيتية» كتب في أواخر الخمسينيات « بأن الإنجازات التي تمت في الاتحاد السوفيتي أوصلت الغرب إلى أن يختار بين الاستسلام الناجم عن استحالة استخدام الأسلحة النووية وبين الفناء في حالة استخدامها ، وجعلته يفكر في حل وسط عن طريق تقييد الحروب الذرية الشاملة لتصبح حروبا ذرية محدودة ، وأخذت القيادات العسكرية الأمريكية تتخبط بين الردع المرن ، والرد المتدرج ، والحروب الوقائية .

ولكن من يضمن أنها ستستمر مقيدة من الجانب الآخر ؟ إن الاستراتيجية السوفيتية المعاصرة تبنى على مفاهيم « انجلز ولينين » ، وهي مازالت صالحة حتى في العصر النووي ، فقد ركز لينين على أن الحرب جزء من كل ، وهذا الكل هو السياسة . والحرب إذن امتداد للسياسة بوسائل العنف ، والعنف هو مجرد عمل سياسي : ومعنى ذلك أن الحرب ليست مرادفة للسياسة ، وأن السياسة يمكنها استخدام وسائل أخرى غير العنف لتحقيق أهدافها دون اللجوء إلى الحرب » . ويستطرد قائلا : « يعادي الاتحاد السوفيتي كافة الحروب العدوانية ، ويقف إلى جوار كل نضال مقدس للشعوب المغلوبة على أمرها مع استبعاد الحروب النووية وسعيه الدائم لتحقيق التعايش السلمي بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين . وهو يعلم أن هذا لا يوقف الصراع الطبقي ، ولكن يستمر بوسائل سلمية ودون استخدام العنف . إن الحل العلمي والتكنولوجي هو الحل المناسب لمواجهة التهديد الاستعماري » .

ثم لنقرأ ما كتبه « هرمان كاهن » في كتابه الذي صدر عام ١٩٦٠ : « بالرغم من أن القوة التدميرية أصبحت من الضخامة بحيث يستحيل استخدامها عمليا ، إلا أن سباق التسلح مازال مستمراً ، علماً بأن الخيار المعقول الوحيد أصبح اتباع استراتيجية الردع المحدود التي تؤدي فقط إلى القتل المتبادل وليس بالضرورة إلى الفناء المتبادل ، أو إلى نهاية الحضارة ، أو إلى نهاية التاريخ » .

وهذا التفكير يتطابق مع ما قاله « مالنكوف » من : « أن الحرب النووية سوف تؤدي إلى نهاية الحضارة ، ومن ثم لن تقدم الدول الرأسمالية على شن هجوم نووي ضدنا ، مما يتيح لنا تخفيض استثماراتنا في الصناعات الثقيلة والانتاج الحربي ، وتوجيه الفائض لانتاج مزيد من السلع الاستهلاكية » - كتب في هذا كثيرون منهم هنري كسينجر وليدل هارت وأندريه بوفر وغيرهم - وفي اعتقادي أن هذا ما يريده « جورباتشوف » .

إذن من ناحية الاسترخاء الدولي ، لم يأت جورباتشوف بجديد ، فالكثيرون قبله رددوا مايردده الآن ، كلهم تحدثوا عن أنه اذا كانت الاستراتيجية قبل العصر النووي تعني الاستخدام الماهر للقوة ، فقد أصبحت في ظل الرعب النووي فن التهديد باستخدام القوة دون استخدامها ، أو هي فن عدم المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ، أو فن ترجمة القوة إلى « دبلوماسية » . وبعبارة أخرى أصبحت الاستراتيجية النووية هي عبارة عن فن الردع . فالعالم وصل إلى حال من الاستقرار النووي في ظل مخزون نووي يدمرّ العالم مرتين أو أكثر ، فما فائدة تراكم المخزون بعد ذلك ؟

يعني الاستراتيجية الكـونية في عهـد « جورباتشوف » لم تتغير ، اذ ليس من السهل تغيير الاستراتيجيات الكونية للدول العظمى لسببين : الأول هو أن هذه الاستراتيجية تخدمها نظم اقتصادية وانتاجية وعقائدية معينة من الخطر تغييرها بطريقة فجائية وحادة ، إذ يتسبب عن ذلك خلل في توازن القوة العظمى . والسبب الثاني هو أن التغيير لا يتم بإرادة كاملة بل بإرادة ناقصة تخضع لاستراتيجية القوة المضادة ، كل ما حدث أن « موسكو » تريد فترة لالتقاط الأنفاس حتى مع تقديم بعض التنازلات في محور خارجي لتحقيق إعادة التوازن في المحور الداخلي تحت تأثير الضغوط الاقتصادية الناجمة من تزايد نفقات الدفاع ، وكذلك التقدم الهائل في وسائل المواصلات والأقمار الصناعية لإعادة تشكيل النظم من الخارج ، وكأن موسكو تريد أن « تفعلها بيدها لا بيد عمرو . . » .

وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى إجابة : ما هو الجديد الذي جعل الولايات المتحدة توافق على التوقيع على اتفاقية إزالة الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى في أوربا بعد سنين طويلة من المفاوضات الشاقة ؟ إنها تعلم تماما مقدار الاجهاد الاقتصادي الذي تعاني منه موسكو من جراء سباق التسلح ، وكان الأحرى بها أن تستمر في السباق الذي هو سباق استراتيجي في الظاهر لكنه سباق استراتيجي اقتصادي في حقيقة الأمر ، حتى تفجر الاتحاد السوفيتي من الداخل . ولكن هناك سببان لذلك : السبب الأول أن هناك خطاً في الصراع بين القوتين العظميين لا يجوز تجاوزه منعا من إجبار الطرف الآخر على اتخاذ إجراءات يائسة ، والسبب الثاني أن الولايات المتحدة أيضا ، وصلت إلى حالة إجهد اقتصادي أخلّت بمصداقيتها ، حتى بين حلفائها تحت ضغط القروض الهائلة التي تقترضها ، والعجز في ميزان المدفوعات وزيادة البطالة وهبوط سعر الدولار . إن القوتين وصلتا إلى ما نسميه بحالة « الاجهاد المتبادل » نتيجة لتضخم ميزانيات الدفاع .

وهناك سبب آخر لتوقيع الولايات المتحدة على الاتفاق ، إذ أنه لم يشمل القوة النووية البريطانية أو الفرنسية ، وعلى ذلك فأوربا مازالت تعيش تحت مظلة نووية من الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى ، بريطانية وفرنسية الصنع ، علاوة على مظلة نووية من الصواريخ عابرة القارات .

حتى وجهة النظر السوفيتية في الصراعات الإقليمية مازالت تتحرك في إطارها المعروف تقريبا ، فوجهة النظر السوفيتية بخصوص الصراع العربي « الاسرائيلي » هي نفسها لم تتغير تقريبا ، ولم يدخل عليها « خميرة تحديثية » كما يعتقد البعض ، فموسكو تؤكد دائما - ومازالت - على بقاء « اسرائيل » كدولة ذات سيادة داخل حدود ١٩٦٧ مع إجراء تعديلات مقبولة من الطرفين ، وكانت لها علاقات مع « اسرائيل » قبل عام ١٩٦٧ ، وهما في سبيلها لإعادتها لو وافقت « إسرائيل » على عقد المؤتمر الدولي ، وتؤمن بأن حل القضية ليس عن طريق الحرب ، وهي لم تمانع في الماضي ولا هي تمانع في الحاضر من هجرة اليهود السوفييت إلى « إسرائيل » ، وهي تقف الآن كما وقفت من قبل إلى جانب العرب وهم يطالبون برد أراضيهم بعد حرب ١٩٦٧ ، وبأن يكون للفلسطينيين دولة ، ثم نجدها قد التزمت ، ومازالت تمد العرب بالأسلحة في حدود سياستها . وهذه وجهة نظر !!

الاعتماد المتبادل لا المواجهة

وجهة نظر أخرى ترى عكس السابقة تماما ، فهناك تحولات عالمية كبيرة تحدث من حولنا « والبيريسترويكا » تتجاوب معها : فقد حل التعاون محل المواجهة في التعاملات الدولية ، وينادي « جورباتشوف » بالاعتماد المتبادل والتكامل ، ثم تغير مفهوم السيادة الوطنية في ظل تداخل المصالح وتشابكها .

والكوكب الذي نعيش فيه يغلفه غلاف جوي واحد ، لا يعترف بتجزئة العالم إلى كتل وتحالفات وأنظمة ، فلا يستقيم تواجد كوكب منقسم في ظل غلاف جوي واحد ، تسكنه مجموعات من البشرية تتهددها (أخطار وكوارث بيئية رهيبة ، لا يمكنها مواجهتها بجهود منفردة وراء خطوط فاصلة) . فالحدود السياسية للدول لم يكن لها جدوى في منع اشعاعات « تشيرنوبيل » من تخطيها مئات الأميال ، وزلزال أرمينيا كان حافزا للعالم أن يتخطى حدوده السياسية الفاصلة لتقديم المساعدات إلى الضحايا ، بغض النظر عن جنسيتهم وعقيدتهم ، وبذلك أصبحت قضايا « الايكولوجيا » تسبق قضايا « الايديولوجيا » ، وأصبحت حماية الجنس البشري من أخطار التقنية المدنية والعسكرية لها الأسبقية على الصراع الطبقي بحكم النص الذي أورده « جورباتشوف » في « بيريسترويكيته » .

والعالم يواجه بأخطار التلوث ، والجفاف ، وديون العالم الثالث ، وندرة بعض الموارد الطبيعية وبالموارد غير قابلة التجدد مثل النفط ، وهذه قضايا تجعل الجنس البشري غرضا واحدا للتهديدات المتزايدة . ثم مثل هذه القضايا هي في حقيقتها ملك للأجيال القادمة لا يجوز لنا - نحن أبناء هذا الجيل - أن نتجاهلها كما أن من واجبنا الحفاظ على تراث « الأرض » للأجيال التي تلينا .

ولا بد لعالمنا من أن يطور مفهوم السيادة التي نشأت أصلاً لمواجهة التبعية ، وعدم التكافؤ بين

الدول في القوة والثروة . لكن إذا أخذنا بمبدأ الاعتماد المتبادل والتعاون والأمن الجماعي فإن السيادة الكاملة والتمسك بها تتعارض وهذه الاتجاهات . ولذلك فإن التنازل عن جزء من السيادة الوطنية أو الإقليمية لصالح السيادة العالمية أصبح ضمانا لمواجهة الكوارث العالمية التي لا تميز بين دولة وأخرى ولا بين إقليم وآخر ولا بين عقيدة وأخرى . فالسيادة ليست مبدأ سرمديا ميتافيزيقيا . وعلينا أن نبحث عن بدائل أرقى للعلاقات الدولية .

ولاشك أن لوجهة النظر هذه مبرراتها ووجاهتها ، لكنها نظرة رومانسية ، صحيح أنها تعبر تماما عما ورد في « البيريسترويكا » من مبادىء ، ولكنها مبادىء تدخل في عالم « اليوتوبيا » ، وتتجاهل طبيعة الأشياء ، وتناقضات النفس البشرية التي خلقت معها . فنوازع الخير والشر موجودة بين الناس بمن فيهم أصحاب القرار ، وتناقض المصالح لا يمكن القضاء عليه إلا في ظل عالم تزول منه الطبقية والتسلط .

ثم كيف يكون هناك اعتماد متبادل بين الصياد والفريسة ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الفقيرة من الجنوب والدول الغنية في الشمال ؟ في ظل تبادل ينقصه التوازن بين المواد الخام رخيصة السعر والمواد المصنعة غالية السعر ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الدائنة والدول المدينة التي تنهكها المشاكل والتهديدات ؟ الإنسان يصنع مشاكله لنفسه وبنفسه !!

آلاف الناس الذين يموتون جوعا نتيجة الجفاف والتصحر في الوقت الذي يلقى فيه الفائض من الحبوب من الدول الغنية في البحر للمحافظة على أسعارها المرتفعة ، ولتصبح مواد استراتيجية ، ونحن نتشدق بالمبادىء والشعارات . الدول الفقيرة وفي مواجهة ظروفها الصعبة وبحالتها المتأخرة تحاول أن تخترق حاجز الفقر دون أمل أو جدوى بعد أن أغرقتها الديون ، وفتتها الصراعات ، وأهلكتها نوازع السيطرة التي تهددها من خارج حدودها . ما هو الضمان في ظل تآكل المنظمات الدولية الإقليمية ، وفي ظل إدارة الأزمات بواسطة الدول العظمى وليس حلها؟ كيف نتحدث عن حلول للصراعات الإقليمية متناسين الحقوق التاريخية لشعوب احتلت أراضيها التي ورثتها عن الأجداد ؟ .

إن النظرة الرومانسية لا يمكن أن تتصدى للوحوش التي تملأ الغابة التي نعيش فيها ، والتي يسودها قانون « البقاء للأقوى » ، وعلينا ألا نسير في الغابة إلا ومعنا كلبنا الأمين وهو قوتنا الجماعية .

استمرار التناقضات بين النظامين

أما وجهة النظر الثالثة ، فسأنقلها عن «ياسوهيرو ناكاسوني» رئيس الوزراء الياباني ألقاها في محاضرة في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية في أكاديمية العلوم بموسكو في ٢١/٧/٨٨ وأهم نقاط رأيه الذي يعتمد في كثير من جوانبه على الفكر الشرقي المستمد من تعاليم « بوذا » و « كونفوشيوس » يقول : « من ينظر إلى العلاقات الدولية خلال الأربعين سنة الماضية يجد أنها عبارة عن حلقات من المواجهة والتعاون والتوتر والاسترخاء ، وعلى ذلك فإن نظرتنا إلى الفكر الجديد « لجورباتشوف » في « البيريسترويكا » « والجلاسنوست » لا بد وأن تكون ايجابية ، وعلينا ألا ننسى أن الغرض الأساسي لهذا الفكر الجديد هو إعادة بناء الاتحاد السوفيتي كدولة اشتراكية قوية ، ولا يجوز أن نركن إلى وهم أن التناقضات في العلاقات بين النظم الاشتراكية والديمقراطيات الليبرالية سوف تنتهي بسهولة ، فالمنافسة التاريخية سوف تستمر طالما ظل الخلاف الرئيسي بين النظامين قائما . فالعقائد الاشتراكية مسموح بها في الديمقراطيات الليبرالية بينما ترفض النظم الاشتراكية العقيدة الديمقراطية الحرة . الأحزاب الاشتراكية تمارس حقوقها في النظم الديمقراطية بينما لايمكن للأحزاب الديمقراطية أن تمارس هذه الحقوق في النظم الاشتراكية علاوة على أن الديمقراطية في النظم السياسية التي تعتنقها ليست مجرد وسيلة لتحقيق غاية ولكنها إحدى القيم الرئيسية التي يتم تطبيقها لأغراضها السامية . ولذلك فإن متابعة ما يجري بخصوص الإصلاحات السوفيتية التي نادى بها « جورباتشوف » أمر واجب . ما مدى تطبيق التعددية الاشتراكية ونتائج ذلك على حرية الفكر

والعقيدة للأفراد ، أو حرية عقد الاجتماعات لذوي الأفكار المتعددة ؟

ما مدى تطبيق الأفكار التي تبلورت في المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي عن فصل السلطات بين الحزب والسوفيتيات أو اتجاهات السيطرة داخل الحزب ؟ وما انعكاس ذلك على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي وعلى الأخص في مجال تخفيض السلاح والصراعات الإقليمية والعلاقات الثنائية ؟ ومن المؤمل أن تترافق التغيرات المنتظرة مع روح القرن الواحد والعشرين . . . » .

ويتحدث « ناكاسوني » عن احتمالات المستقبل في العلاقة بين الغرب والشرق ، فيحصرها في ثلاثة احتمالات : الأول بقاء العلاقات على صورتها الحالية ، والثاني هو استغلال النتائج التي تحققت وتعميقها لجني ثمار أكثر ، والثالث هو تخلي الكتلة الشرقية عن السياسة الستالينية ، وتخلي الكتلة الغربية عن سياسة الاحتواء ، واقامة نظام عالمي قائم على التطبيع وعلى قيم ومبادىء جديدة . والاحتمال الأكثر توقعا عند « ناكاسوني » هو الاحتمال الثاني مع خلق قوة دافعة واستمرارية لتحقيق الاحتمال الثالث على أساس التعاون والاعتماد المتبادل في كل الميادين بالنسبة للجميع .

وعن تأثير « البيريسترويكا » على الصراعات الإقليمية يركز « ناكاسوني » بطبيعة الحال على آسيا فيرجع المشاكل القائمة للخلافات السياسية في المنطقة أساساً ، ولا بد من تقييم « الأفكار الجديدة » على ضوء حل مشاكل المناطق الشمالية بين اليابان والاتحاد السوفيتي وعلى استرخاء والأوضاع بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، وعلى القدرة على ايجاد حل سياسي للمشكلة الكمبودية .

وجهة نظر رابعة ، يتحدث عنها السير « ميشيل هوارد »*: فجورباتشوف شأنه شأن الساسة العظام مثل بسمارك وروزفلت ، لديه بُعد النظر الذي يؤمن بضرورة التغيير والمهارة والعزيمة على استغلال ذلك في تحقيق أغراضه ، فالساسة لا يكتفون برد الفعل بالنسبة للمتغيرات ، ولكن لابد أن يكون لديهم تصور لشكل العالم الذي يريدونه ، ثم تحريك الأمور في هذا الاتجاه ، وبالنسبة لانعكاسات هذه المتغيرات التي ينادي بها الزعيم السوفيتي فإنها قد تضع أمامنا نماذج واحتمالات أربعة » .

النموذج أ : تحلل الاتحاد السوفيتي نتيجة لإضعاف قبضة الحزب ، ولرغبة الجمهوريات الإسلامية في الاستقلال أو انتشار الحركة القومية في أوربا الشرقية إلى البلطيق وأوكرانيا .

النموذج ب : استمرار الاتحاد السوفيتي في حالة التطور الداخلي والاسترخاء الخارجي مع تنمية اتجاه تعاون الدول .

٣ • النموذج ج : استمرار المواجهة ، تدهور الموقف الاقتصادي مع استمرار سباق التسلح ، وهو الموقف الذي يريد جورباتشوف تفاديه ، ولكن ربما تفقده الظروف الضاغطة القدرة على ذلك .

النموذج د : استمرار السعي للسيطرة على العالم ، وهو حلم مازال يسيطر على موسكو ، ويشكل في الوقت نفسه كابوسا بالنسبة للولايات المتحدة .

إن أخطر الاحتمالات هو الاحتمال « أ » ، إذ لا يمكن تصور أن قيادة جديدة لن تنبعث للسيطرة على الموقف بالقمع الذي عرفه العالم أيام لينين وستالين خاصة ، إذا حاولت الولايات المتحدة أن تستغل الموقف لصالحها كالمعتاد . إن هذا الاحتمال سيدفع العالم إلى موقف مواجهة خطيرة تجعل العقلاء لا يتمنون حدوثه .

أما الاحتمال « ب » فهو الأنسب بالنسبة للاتجاهات المعتدلة ولكنه يخلق مشاكل حقيقية بالنسبة للغرب : إذ يجعل استمرار السيطرة السوفيتية على شرق أوربا أمرا مقبولا . ثم ما الذي

---

* استاذ التاريخ الحديث في جامعة اكسفورد ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية وقد قدم رأيه في مؤتمر عقد بين ٢٧ ـ ١٩٨٨/٩/٣٠ بعنوان « الناتو في العقد الخامس » ونشر البحث في مجلة Survival عدد نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨ بعنوان « تحدي جورباتشوف والدفاع عن الغرب » The Gorbachev Challenge and The Defence of the West

يحدث بالنسبة لحلف الأطلنطي ؟ هل تبقى الحاجة إليه قائمة والاتحاد السوفيتي على هذا القدر من التعاون والصداقة ؟ ألا تنظر إلى بقاء القوات الأمريكية في أوربا على أنه أمر غير مرغوب فيه بل معطل لانسحاب القوات السوفيتية من شرق أوربا ؟ ألا يدفع ذلك الولايات المتحدة لكي تتعامل مباشرة مع القوة العظمى الأخرى دون التورط في أوربا ومشاكلها ؟ ثم هل يبقى في ظل روح التعاون هذه مانع من حصول الاتحاد السوفيتي على مركز المشاركة في العالم الثالث ؟ وباختصار ألا يكون « جورباتشوف » باتباع هذا الحل ، قد حقق بالوسائل السلمية ما فشل في تحقيقه من سبقوه باستخدام المواجهة والقوة ؟ لقد قلنا له شروطنا بخصوص تخفيض الأسلحة النووية من أوربا ، وقلنا له ، اترك افغانستان وخفض قواتك من أوربا ، وبضرورة التفتيش على مواقع الصواريخ ، ونفذ كل ذلك . ويزداد الأمر سوءا بالنسبة للغرب ، ان الرجل يعني وينفذ ما يقول ، فهو متأكد أن الغرب لن يشن عليه الحرب ، ولذلك فهو يوفر من نفقات الدفاع لرفع مستوى المعيشة ، إن تخفيض القوات في صالحه ، ولكن تخفيض قوات الغرب يسبب لدوله مشاكل لا يمكن مواجهتها ، أولها زيادة البطالة ، فماذا نفعل مع هذا الرجل ؟

أما الاحتمال « ج » فهو استمرار الوضع الذي كان سائدا قبل « جورباتشوف » ، وهو وضع المواجهة وسباق التسلح الذي يحاول الرجل أن يفلت منه ، ولكن قد تستجد ظروف ضاغطة تمنعه من ذلك . الغرب يرحب بآراء « جورباتشوف » في العلن ، ولكن هل هو حقيقة يرغب في أن يقوم بتنفيذ إصلاحاته ؟ فاستمرار التهديد السوفيتي يزيد من تضامن دول حلف الأطلنطي ، ويخفف من نسبة البطالة ، ويستنزف القدرة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي في سباق تسلح غير متعادل . ولكن إلى جانب هذه المزايا هناك عيوب من استمرار وضع المواجهة ، بالنسبة للغرب فهو يزيد من أعبائه الاقتصادية نتيجة لسباق التسلح ، ولعمق الخلاف بين دوله ، لمطالبة الولايات المتحدة في إلحاح بزيادة نسبة نفقات الدفاع لتخفف من أعبائها الدفاعية . وألمانيا الغربية تجد صعوبة في استمرار تجنيد قوة بشرية هي في حاجة إليها لزيادة الانتاج ثم زيادة معارضة الرأي العام .

أما الاحتمال « د » فلا يحتاج إلى تعليق لدرجة أن الحكومات تفضل مخاطر الحل « ج » ليس فقط للشكوك والمخاوف التي يثيرها الحل « ب » ، ولكن من خوفهم لتطور الموقف إلى الحل « د » ، لأن تجاوب الغرب مع الحل « ب » يحتاج إلى جسارة في مقابلة إجراءات « جورباتشوف » باجراءات مماثلة ، على الرغم من المخاطر المحتملة على أساس اعتبار خطواته على أنها فرص للإنتاج مرة أخرى ، وليس على أساس أنها تحديات يجب مواجهتها بطرق أخرى .

وجهة نظر رابعة في موضوع مثير ، وسوف يثير كثيرا من التساؤلات والاحتمالات . بقيت نقطة أخيرة . ألا نحتاج نحن العرب وسط كل هذه الفرقعات التي تدور من حولنا إلى « بيريسترويكا » عربية يصحبها « جلاسنوست » عربي ؟ أعتقد ذلك . □

مختارات لغوية

- عركتهم المواقع ، وعجمت عودهم الحروب .
- خابت آمالي ، وتمزقت مطامعي ، وطارت مع الرياح أحلامي .
- تناثرت الدموع من عينيها ، كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم سمطه .
- إنه عظيم الأنفة ، قوي الشكيمة ، مخاطر في حب وطنه .
- إنه حازم حذر ، لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه .

بيت متحف

قصة للكاتب البلغاري ديميتر ياروموف
ترجمة : سهيل أيوب

كان سكان الطابق الأرضي غرباء ، لكنهم هادئون ، يدفعون الأجور في أوانها .

وكانوا يخاطبون الشيخ قائلين :

- البيت بيتك ، ومن أجل هذا نسدد لك الأجرة .

فتغمر الفرحة قلب شيتان لما يظهرون من احترام ، ويعطي ابنه النقود ، فهو في غنى عنها .

ويرجع الابن النقود سراً إلى المالكين الحقيقيين في الطابق الأرضي . كان قد استأجر الطابق العلوي ، ودأب على مخاطبة والده قائلاً :

- أبقَ معي في المدينة . فأنت في بيتك الذي تملكه ، أليس كذلك ؟

أقام الشيخ في الطابق العلوي . لم تكن ثمة فسحة في المكان . وما أن تبادر كنّته وابنه إلى عملهما حتى

يصعد إلى العلية [illegible] النافذة الصغيرة القريبة من السقف ، [illegible] ببصره ناحية الجنوب . كان يلوي عنقه في بعض الأحيان خارج تلك النافذة وينظر يمنة ويسرة ، فيلمح في الأسفل سقوف المدينة وذلك الامتداد الأبيض لنهر توندجا . وكان الناس يلوحون مصطبغين باللون الأصفر على طول النهر ، وضباب الخريف يحوّم فوق رؤوسهم .

ويتذكر كروستيو شيتان الأصياف القليلة الأخيرة . تمتلىء باحته في الصباح بالضجيج . تتصايح الديكة أول الأمر ، وبعد ذلك ينهض شيتان نفسه على قدميه . وبعد فترة من وقت ، حين تزدهر السماء بأسرها ، يستيقظ الحمام تحت أفاريز البيت ، وينطلق الاوز بربرته وهو يتهادى في مشيته ناحية السد . ويقبع الخنزير عند قضبان زريبته ، وتقعقع الدلاء ، وشيتان متجه بها إلى الزريبة لإطعامها . وبينما يقبع الخنزير يأخذ الكلب بشد سلسلته وينبح . ويبدأ الحمام ينقر بمنقاره وهو يرسّل هديله إلى أوان الظهيرة .

حين ينبلج الصباح تتفجر حركة واضطراب صاخبان ، تمد الديكة رؤوسها ، وترفع أصواتها إلى السماء ، محطمة السكون المخيم على القرية ، وتتجمع طيور الحمام صافقة باجنحتها ، عائدة إلى السطوح مرة أخرى .

المطر آت ، فيهذب الشيخ سيره إلى المستشرف ، ويمدُّ بصره إلى « غيرين دير » ، حيث تترامى حقوله .

إن مجلس القرية يطالب ببيته ، لأن هذا البيت قديم حسن الترتيب والعناية . أعلن رئيس المجلس أنهم سيحولون البيت إلى متحف ، وشدد عليه أولاده للقبول بذلك ، فقاوم فترة من زمن ، لكنه حين قال بينيو ، ولده الأصغر ، إنه سيملك في المدينة بيتاً خاصاً به استسلم الشيخ ونفض عنه عناده .

ذات يوم أحد من شهر أيار (مايو) عجّت باحة كروستيو شيتان بالناس . ألقى أولاده الثلاثة الخنزير على الأرض وذبحوه ، وبين المرج والمرج والصيحات عمدت كناته إلى القبض على الديكة بالاوز ، و[illegible] على عتبة [illegible] ملأت الحيوانات المذبوحة الباحة ثائرة الدماء في كل مكان . وعندما أسلمت أرواحها انسحبت الكنائن إلى ثلاثة أمكنة مختلفة من الباحة ، وقد حملت كل منهن نصيبها من الذبائح لنتف ريشها . وبعد ذلك امتلأ الفضاء بالريش ورائحة ما تطاله النار . وتسلق الصغار إلى السطح لاصطياد طيور الحمام ، فأمسكوا بعضها ، وبقي بعضها الآخر هنالك مسترسلاً في هديله . وظل الشيخ من المستشرف يحلّق ببصره تجاه « غيرين دير » .

حين انتهى تقطيع كل شيء وتم حزمه ، جمع الأولاد الثلاثة زوجاتهم وصغارهم ورحلوا . وبقي الشيخ وحيداً لتصفية حساباته مع مجلس القرية والانضمام من بعد إلى ولده الاصغر في المدينة .

وبينما كان يطل من النافذة الصغيرة في العلية استرجع في مخيلته ذلك النهار مائة مرة من غير أن يلحظ أن الأيام غدت الآن قصيرة ، فالعربات التي تجتاز الطريق تتحرك بسرعة أكثر ، وبوق ثكنات الجيش يرتفع صداه في وقت متأخر من العشية ، وتعود الحافلة (الباص) من بيفاكا ـ قريته الأم ـ بعد أن يبسط الليل رداءه الأغدف . كان الوقت ما يزال معتماً حين تردد صوت بائع الحليب باكر الصباح . يتريث طويلاً على الدوام أمام البيت لمعرفته أن شيتان جاء من إحدى قرى توندجا السفلى .

كان ينادي :

ـ مرحباً ، يا جار ! كيف تسير الحياة ؟ صارت مألوفة لديك ؟

فيرد عليه شيتان قائلاً :

ـ لست أدري . وأنت ، كيف أمورك ؟

ذات يوم توقف بائع الحليب في طريق عودته أمام باب البيت مرة أخرى . صاح :

ـ مرحباً ، يا جار . أين أنت ؟ أريد أن أسمعك خبراً .

فخرج شيتان إليه :

ـ ما الخبر ؟

ـ انظر ، يا جار . هل هذا البيت بيتك ؟

[illegible]

- لقد عرفت

[illegible] الثلاثة [illegible] في [illegible] ، [illegible] لولا [illegible] . وحين أتى [illegible] من [illegible] في [illegible] الظهر .

قال شيتان :

- أحسبني سأذهب إلى القرية مرة من زمن .. أريد رؤية رفاقي القدامى وجيراني .

كانت السماء ملبدة بالسحب ، والظلمة تنتشر مسرعة . استنشق شيتان الهواء الرطب ودلف إلى الباحة . حين كان يثوب من الحقول في مثل هذه الأمسيات الماطرة يدور حول البيت ومخزن التبن عجل الخطا . ويضع كل شيء في أمان . ويبعث التبن حيث انتشر على أرض الدراسة رائحة قوية ، فيحس شيتان بموجة من نشاط طري في ساعديه . وتقرق الدجاجات ، وتشخر الأبقار والخيول ، وتترجّع في كل مكان أصوات أولاده وكناته .

دلف في الآونة إلى الباحة وسرّح البصر حواليه . هذه طيور الحمام تصفق بأجنحتها مرة أخرى بين حين وحين ، وتحوم فوق البيت . والسور قد جدّد حديثاً ، وتم إصلاح زريبة الخنزير ، واستبدل باب البيت . وألصقت أواني الفخار على أعمدة السور . وجثم ديك على هذا السور أمام البيت . لم يكد شيتان يقترب منه حتى لحظ أنه مصنوع من الخزف دعاية للمتحف . وكانت المدحاة الخشبية في منتصف أرض الدراسة . جرّها إلى تحت مظلة مخزن التبن ، كما جر العربة ذات العجلتين إلى تحت المظلة ايضاً . وأصابته أولى قطرات المطر وهو يجمع مدمات العشب .

[illegible]

والخيول ، [illegible]

وطيور الحمام وحدها تصفق بأجنحتها فوق البيت ، والمطر كان يهطل ، والليل لم يخيم على الشرفة . ومن احدى الزوايا نظرت إلى شيتان شزراً دميةٌ كبيرة محشوة بالقش تلبس قبعة من الفرو على رأسها .

« حسن ، حسن ، حسن ، يا شيتان ، لقد صنعوا رجلاً يملأ مكانك ، فأنت في سبيلك إلى الرحيل عن هذا العالم . ألم يخطر لك في بال كميات الثلوج التي هطلت عليك ، وكميات الأمطار التي بللتك ! وهذا الرجل يستريح الآن على منبذتك ؟ ألتي به من الشرفة ، وليبلله المطر أيضاً . انظر ، المطر آت من « خيرين دير » ، من هذه الناحية » . ألقى شيتان الدمية ، ورجع ناحية منبذته ، وتراخت ساقاه تحته ، تاركاً يديه تسقطان متراخيتين على ركبتيه .

هطل المطر في عذوبة على الباحة ، فقطعت طيور الحمام هديلها ، وشرعت قرميدات السطح تهمهم في رقة . وأظلم الليل ، وراحت الهضبة فوق « خيرين دير » تذوب وتتلاشى في الظلمة المتوانية . وكان شيتان يطيل النظر إلى تلك الناحية ، وعيناه تغرورقان بالنداوة شيئاً فشيئاً . □

عندما يطالع القاريء منا كلمة « المكتوبجي » فربما يتجه ذهنه إلى أنها تعني الشيء المكتوب ، ولكنها في الحقيقة كانت تطلق في القرن التاسع عشر وما قبله على رقيب المطبوعات ، ولذلك كان المفكرون والحالمون بالحرية يسمونه « شرطي الفكر » وكم كان لهذا « المكتوبجي » من نوادر !

غرائب

«المكتوبجي»

بقلم : شريف الراس

يبدو أن العرب كانوا قبل مائة سنة ، مبتلين بظاهرة استبدادية مؤلمة ، سماها الناس « مقص رقيب المطبوعات » ، وسماها عرب ذلك الزمان « المكتوبجي » ، حسب منطوق اللغة الرسمية للسلطنة العثمانية التي كانت تحكم معظم أقطار وطننا العربي .

ويبدو أنه كان للمكتوبجي (أو شرطي الفكر في رأي الشعراء الحالمين بالحرية دائما) مواقف عجيبة ومدهشة وغير معقولة إلى حد دفع الكاتب الشامي سليم سركيس لأن يؤلف عنها كتابا كاملا ، أصدره في بيروت عام ١٨٩٦ بعنوان « غرائب المكتوبجي » . وفي هذا الكتاب نقرأ أن [محرر الجريدة لا يجوز له أن يذكر كلمة (جمهور) في كتاباته ، بل يجب أن يقول « الشعب » أو « القوم » ، وفي الاعلانات يقال عادة « نعلن لحضرة الجمهور » فيحذفها « المكتوبجي » ويضع محلها

« نعلن لحضرة القوم » . وذلك خوفا من انشغال أفكار الناس بالجمهورية والميل إليها] .

ومن « فرمانات المكتوبجي » أي أوامره المخيفة التي كان يوجهها للكتّاب والصحفيين ، حظر استعمال كلمة « جلالة » ، فهذه الكلمة موقوفة حصرا على السلطان العثماني المقيم في قصر يلدز بالآستانة (استانبول) ، فإذا قال صحفي « جلالة امبراطور روسيا » ، مثلا ، فإن مقص الرقيب يحذفها .

كلمات لها معنى !

وأعجب من هذا أن مقص الرقيب كان يتجاوز حدود الكلمة المطبوعة ، حتى يصل إلى ألسنة المطربين . فعندما زار السلطان عبدالحميد مصر في أواخر القرن الماضي ، وأراد خديوي مصر تكريمه بجلسة طرب يحييها المطرب الشهير عبده الحامولي سئل الحامولي « ماذا ستغني » ؟ فقال : سأغني دور :

غاب عن عيني مرادي
وانهمل دمعي صبيب

فأمره « المكتوبجي » أن ينسى كلمة « مرادي » ويضع مكانها كلمة « حبيبي » ، حتى لا ينزعج السلطان من سماع كلمة « مرادي » ، إذ يتذكر بأنه إنما تولى السلطة على إثر عزل شقيقه مراد الذي لم يهنأ بالجلوس على كرسي العرش أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم سجن بعدها داخل قصره في استانبول إلى أن مات سنة ١٩٠٦ .

وكان « المكتوبجي » يحذف كلمة « الحركة » أينما وردت في الأخبار أو التعليقات ، لأنها ـ في نظره ـ تعني « الثورة » .

وعندما نشرت جريدة الأحوال البيروتية خبر قدوم الوجيه البقاعي « الياس الباشا » من زحلة إلى بيروت ، تدخل « المكتوبجي » فغير اسمه في الجريدة « الياس الباشة » لئلا يظن الناس بأنه يحمل رتبة الباشوية .

ومن حسن حظ هذا الوجيه الزحلي الياس بك الباشا أن « المكتوبجي » الذي أمر بتغيير اسمه لم يكن من عشاق أكلة « الباجة » الشهية ، وإلا لسماه « الياس بك الباجة » ، فيصبح اسمه بالعربي الفصيح : الياس بك كرشة الخروف ورأسه وكراعيه مطبوخة .

وهذه الحكاية العجيبة تذكرني بواقعة طريفة ، بطلها صديق لنا من آل الدّبّيك ، (أي الماهر في الدبكة أو الذي يدبك كثيرا لأسباب لم يدرسها علماء النفس بعد) . أراد أن يمازح مدير الأحوال المدنية في بلدته الصغيرة ، فرفع عليه دعوى قضائية يطالبه فيها بأن يعيد الأمور إلى نصابها ، فيمحو من سجلات النفوس اسم « الدّبّيك » ، ويكتب مكانها « الدّب بيك » ، (على وزن الدب أفندي والدب باشا) ، لأن هذا هو الاسم الأصلي للعائلة قبل أن يصيبه التحوير والتحريف . وعندما قرأ القاضي صحيفة الدعوى ضحك ونصح صاحبنا بأن يتخلى عنها ، لأن كلمة « الدبيك » تظل أجمل وأخف وطأة من « الدب بيك » ، إذ كيف يكون الدب بيكا ؟!

شوقي والمويلحي

فإذا رجعنا إلى صحف ما قبل تسعين سنة ، فإننا نقرأ في جريدة المؤيد ، الصادرة يوم ١٩٠٠/٢/١١ مقالا يثير في قلوبنا ـ نحن عرب اليوم ـ الشفقة على ما كان الصحفيون والقراء يعانونه من استبداد « المكتوبجي » في ذلك الزمن ، فقد كان ذلك المقال بعنوان « المطبوعات في دار الخلافة » ، وخلاصته أن الجرائد تئن أنين الداء العضال بعلة الرقيب وتسلطه العجيب .

وهذا الأنين من أوجاع « الداء العضال » نسمعه حتى من أمير الشعراء أحمد شوقي الذي شكر الله تعالى على الفرحة بترحيل « مكتوبجي » بغيض وقال :

لَنَا رقيبٌ كانَ ما أثقَلَهْ
الحمدُ للهِ الذي رَحَّلَهْ
لو ابتَلَى اللهُ به عاشقاً
ماتَ به ، لا بالجَوَى والوَلَهْ
لو دامَ للصُّحُفِ ودامَتْ لَهُ
لم تَنجُ منه الصُّحُفُ المُنزَلَهْ
إذا رَأى الباطلَ غالَى بِهِ
وإنْ بَدا الحقُّ لَهُ أبطَلَهْ

عن الحق الذي يبطله شرطي الفكر يخبرنا الأديب العربي الكبير ابراهيم المويلحي في مقالة منشورة بجريدة « المقطم » قبل ما يقارب مائة سنة (أن عالما أرمنيا ألف قاموسا بالتركية والأرمنية ، وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاء الإذن بطبعه . فلما وجد رجال الحكومة في القاموس ـ كما يوجد في غيره ـ كلمة « السيف » مترجما بالتركية والأرمنية أمروا بمحو هذه اللفظة ، وقالوا : لا يجوز أن تكون في قاموس أرمني كلمة « سيف ») .

ويخبرنا هذا الكاتب الكبير الذي عاش عشر سنوات في قصر السلطان بالآستانة ، بوصفه واحدا من رجال البلاط المقربين ، أن (القارىء منهم يقرأ الكتاب المطبوع في الآستانة نفسها بإذن الحكومة مرارا ، فيجد فيه جملة ، فيكتب تلك الجملة ويبني عليها خراب الدولة ، فتصدر الأوامر بجمع الكتاب من الأقطار وإحراقه) .

ومن الطريف أن ابراهيم المويلحي الذي يستنكر جريمة « الجمع والاحراق » راح هو وكتابه الثمين « ما هنالك ؟ » ضحية النار نفسها . يقول حفيده ابراهيم المويلحي في مقالة نشرها بمجلة الرسالة (إبريل ـ نيسان ـ ١٩٣٨) :

« ولما كان إبراهيم بك مشغوفا بالتحرير أخذ ينشر في « المقطم » من وقت إلى آخر مقالته الانتقادية فيما رآه في الآستانة العليّة مدة إقامته فيها بعنوان « ما هنالك ؟ » ثم جمعها وطبعها كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية ، فبعث السلطان عبدالحميد يأمره بإرسال جميع النسخ التي في حيازته إلى « المابين » (أي قصر السلطان في الآستانة) ، فخضع ابراهيم لأمر جلالته ، وأرسلها جميعا إليه ، ما عدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه . لذلك يندر وجوده » .

ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب الطريف والمشوق والثمين بعث إلى الحياة من جديد ، بعد تسعين سنة من إعدامه ، إذ أصدره عبدالرحمن شلش في القاهرة عام ١٩٨٦ مصورا « بالأوفست » ، مع دراسة تاريخية كتبها أحمد حسين الطماوي ، ومقدمة للدكتور علي شلش .

ومنذ الصفحة الأولى ، أو من المقالة الأولى فيه ، يحمل ابراهيم المويلحي (١٨٤٥ ـ ١٩٠٦) حملة شعواء على « المكتوبجيين » ويصفهم بأنهم لا يخدمون مصلحة السلطان وإنما هم « قوم استؤجروا عليه لسقوط مروءتهم وفساد مزاجهم » ، ويقول : « اللهم نستغيث برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان هؤلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة في العالم لخربوها في بضعة أيام » .

حيوان يلدز

ويذكر المويلحي بعد ذلك حوادث عديدة ، وغريبة جدا تؤكد أن أصغر « مكتوبجي » قادر على تدمير حياة أي إنسان في الدولة ، مهما علت رتبته ، وهذا ما حدث لمنيف باشا ناظر المعارف (أي وزير التربية والتعليم) ، عندما (ألف كتابا مدرسيا ، واتفق أن ورد في الكتاب ذكر (الحباحب) ، وهو حشرة يضيء ذنبها في الليل كالنجم ، فعبر عنه منيف باشا (بحيوان يلديز) ، ومعنى يلديز النجم ، فطار الجواسيس إلى السراي السلطانية ، وقدموا التقارير السرية بأن منيف باشا يعرض بجلالة السلطان في قوله عن « الحباحب » أنه « حيوان يلديز » على سبيل التورية . فعزل الباشا في الحال ، وبقي في نحوسة نجمه خمس سنوات مغضوبا عليه لهذه الكلمة التي ما خطر على باله غير معناها الحقيقي) .

وعلى الرغم من أنك إذا التقيت واحدا من هؤلاء « المكتوبجيين » (وخاطبته فيما خرج عن أشغال السراي وجدته عاميا عريقا في العامية ، أميّاً ، وإن كان يخط بعض الحروف ، فهي لا تؤدي معنى ، وربما اجتمع على سطر يكتبه ثلاثة أو أربعة من الكتاب ، فلا يكشفون قصده إلا بالحدس والتخمين) . وإن هذا الأمي الجاهل قادر على تحطيم أكبر عالم في البلاد ، كما حدث لحسن فهمي باشا عندما ألف كتابا في حقوق الدول ، (أي الحقوق الدولية) ، (أعجب به العارفون ، وطبع في سائر الأقطار ، وقرأه المؤلف بنفسه مرارا على طلبة مكتب الحقوق (أي كلية الحقوق) ، وقدم منه نسخة لجلالة السلطان لتوضع في المكتبة السلطانية ، وتكلمت الجرائد التركية والافرنجية والعربية عنه ، ورسمت نظارة المعارف درسه في

مكتب الحقوق مع بقية الكتب التي اختارتها للدرس فيه ، فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمي باشا ، ويتهمه بالغش لذات السلطان) ، لورود عبارة حقوقية في الكتاب ، فسرها على هواه . (وكتب الجاسوس تقريرا لجلالة السلطان بهذا فجاءه الطلب إلى السراى ، وقوبل بالاحسان والالطاف ، وصدرت الارادة السنية في الحال بجمع الكتاب وإحراقه ، وأن لا يُذكر في مكتب الحقوق اسمه ، وأن يرسل كتاب توبيخ إلى حسن فهمي باشا ، وللإحسان على الجاسوس بالرتبة الأولى من الصنف الأول ، وبمائة وخمسين ليرة . وقد قال الجاسوس بعد خروجه من السراى لصاحب له : عليّ بعد تقريران لأصل إلى رتبة الوزارة) .

بعد هذه (النماذج) المذهلة يصبح من السهل فهم موقف هذا الثائر العربي ابراهيم المويلحي وحملته الشعواء على رجال « شرطة الفكر » الذين يصفهم بأنهم « أشربوا في قلوبهم التجسس » في زمن كان الأدباء ورجال الفكر فيه قد بلغوا حالة من القهر والذل والفقر ، جعلت هذا الكاتب يصف حالة إنسان بأنه « وقف أمام الآغا أذل من وقفة مؤلف يطلب من المعارف إذنا بطبع كتابه » . ويمضي المويلحي في كتابه الجميل « ما هنالك ؟ » قُدُماً ، فيقارع « المكتوبجين » الحجة بالحجة ، فاذا قالوا : إنه لا يجوز أن تنشر في الصحف أي أخبار محلية عن التخلف أو الانحراف أو سوء الأحوال المعيشية (لأن من الحزم تعظيم الدولة في عين عدوها حتى يقع في روعه أنها قوية عزيزة منيعة الجانب ، فييأس منها وينقطع طمعه فيها) فإنه يرد عليهم بأن هذه الحجة غش للدولة وتدليس بها . أولا : لأن عدوها متنبه يقظ متأمل ، فهو أبصر بغامزها وأخبر بدخائلها ، بل مطلع منها على ما لم نحط به خبرا . وثانيا : لأنه إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهي بادية للعيان فأهون به عدوا . وثالثا : لأنه إذا خيف على الدولة عاقبة التنبيه كان الخوف عليها من التمادي على الخلل أشد ، فإنه أعجل من العدو سيرا ، وأسرع بطشا ، وأسوأ تأثيرا .

وإذا قال « المكتوبجيون » : إن تنبيه الدولة إنما هو فضيحة من غير جدوى ، رد عليهم المويلحي بأن الفضيحة لو كان في اتقائها خير لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولما كان الدين النصيحة ، ولما قال الفاروق رضي الله عنه : من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . ومع كل ذلك فأي عورة مستورة منا حتى نتقي الفضيحة من كشفها ؟!

وما لنا فيما نكتبه عن البلاد العثمانية هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى ذاتها لتنقذ نفسها من سوء المظالم ومن التمزق والتشتت الذي لا بد أن يلحقها إن هي بقيت على حالتها الحاضرة ، ولأجل أن تصير لها حكومة صالحة الإرادة ، منظمة الأحوال ، كبقية الأمم . وينحصر غرضنا (نحن الكتاب المخنوقين بكابوس المكتوبجية الخانق) في إعلان ما يخفيه عنها الظلمة من سوء أحوالها ، وإرشادها إلى المطالبة بحقوقها ، كما يكون الدواء بجانب الداء . ومن حقوقها أن تطالب بالإصلاح وتنفيذ القانون الأساسي وإعادة مجلس المبعوثين ، وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة أمام الأمة والتفسيح لحرية الأفكار كما هو موجود في أي دولة من دول أوربا . وهذا النظام وحده هو الكفيل الكافل لتحسين حال الأمة العثمانية ، وحفظها من التفريق والتمزيق ، وببركته تصير قادرة على صد كل طامع فيها . وأمامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف أن أمة صغيرة تغلب أمة عظيمة هي عشرة أمثالها ، بفضل هذا النظام .

وأخيرا ، فإنني أستعير من مقدمة كتاب « ما هنالك ؟ » التي كتبها الدكتور علي شلش ، قوله : إن الخلافة العثمانية في السنوات التي عاشها المويلحي في عاصمتها (١٨٨٥ - ١٨٩٥) كان محكوما عليها بالسقوط . فكل ما يرويه المويلحي في فصول الكتاب دليل السقوط الوشيك . وهذا ما حدث بالفعل ، مما لم يشهده المويلحي في حياته . □

● أفضل الناس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، وأنصف عن قوة .
(عبدالملك بن مروان)

في الصميم

● صحيح أنني تحدثت كثيرا في ذلك المساء مع أناس مزعجين ، وذلك خشية أن أضطر إلى الاستماع .

« ريفارول »

● إذا أنت توقفت عن ترديد الأكاذيب عني ، أعدك بألا أقول الحقيقة عنك أبدا

« ماري ديماريه »

● إن أسوأ ما في الأكاذيب والإشاعات التي تنشرها حولك الصحف ، هي أنها غالبا ما تكون حقائق لا تقبل الشك أو الجدال .

« جان أنوي »

قاموس الظرفاء

رب العمل : هو الشخص الذي يتأخر عن الوصول إلى العمل عندما تبكر أنت بالوصول ، ويبكر بالوصول عندما تتأخر .

سائق سيارة الأجرة : هو ذلك الشخص الذي يتقاضى أجرا مقابل نقل الناس من راحة المنزل إلى تعب العمل .

الصديق المخلص : هو الشخص الذي يعرف حقيقتك ولا يصارحك بها .

من القلب

اعتقاد خاطيء

● قال الجراح الكبير لمساعده الشاب : قل لي : كيف كانت العملية الجراحية ؟ أرجو أن تكون ناجحة .

فشحبت ملامح الشاب وتمتم : هل قلت : إنها عملية جراحية ؟ اعتقدت أنها عملية تشريح .

هل تعرف ؟

● كان انجليزيان يتبادلان رواية النكات ، فقال أحدهما : اسمع يا عزيزي ، هل تعرف نكتة الدليل السياحي الفرنسي الذي كان يدل السياح على جمجمتين لجان دارك قائلا : إن الأولى كانت لها وهي فتاة صغيرة ، والثانية وهي امرأة فاتنة ؟

فأجابه الآخر : كلا يا عزيزي ، اروها لي .

صحيح ولكن :

● الأول : أنا أعشق مدينة لندن ، وأدين لهذه المدينة بأهدأ ساعات حياتي وأجملها .

الثاني : ولكنك لم تزر لندن .

الأول : صحيح ، أنا لم أزرها ، لكن زوجتي تقضي فيها شهرا كاملا كل سنة .

ضحكات عربية

كريم

قال ابن حسان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكثر ، وكان مفرط البخل شديد الفخر . فقال له يوما أخوه : ويحك ، أنا فقير معيل ، وأنت غني خفيف الظهر ، لاتعينني على الزمان ، ولا تؤاسيني ببعض مالك ، ولا تتفرج لي عن شيء ، والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك .

فأجابه : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحتسب ، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم . يا هؤلاء ! أفرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟

ضحكات عالمية

الوحيد

● قال الشاعر الفرنسي كاتول منديس مهاجما الكاتب المسرحي فكتوريان صاردو : إنه لا يستحق هذا النجاح .

فرد عليه أحدهم : أعتقد أنك تتحامل عليه ، فإن الجمهور يحب مسرحياته كثيرا .

فقال كاتول : الجمهور ؟ إنه الوحيد الذي يحبه .

الصلعة

لصديقنا في رأسه صحراءُ
جفت فلا عشبٌ بها أو ماءُ
وكأنها الميدانُ مِنْ بَعدِ الوَغى
في الجميع لما به أحياءُ
تزداد مَاَمرّ الزمانُ مساحةً
وصديقنا من كبرها يستاءُ
ولقد سمعناه يقولُ ودمعهُ
يجري فيُعمي مقلتيه بكاءُ
كم من دواً للشعر قد جربته
يوماً فراحَ سُدى وظلّ الداءُ
يا حسرتي ذهب الشبابُ وكان لي
فيه مآثر جمة غراءُ
أما الحسانُ الفاتناتُ فليس لي
مع صلعتي في وصلهن رجاءُ
قلنا له : مهلاً فلم هذا البُكا
واسمعْ ففي هذا الكلام عزاءُ
أوليس للإنسان في إحرازها
شرفٌ وعلكَ مثلها العلماءُ
فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا علا
أفما لديكم غير ذاك دواءُ ؟

التي توازعت هذه الطوائف ، فاتخذ الفرنسيون جانب الموارنة فيما برز البريطانيون بمظهر المدافع عن الدروز ، فظهر الخلاف الدرزي الماروني على أشده في جبل لبنان ، فيما راحت الدولة العثمانية تستغل الأزمات الاقتصادية التي أصابت الحرفيين المسلمين في دمشق لتأجيج النعرات الطائفية بين المسيحيين والمسلمين .

الخلاف الماروني الدرزي في جبل لبنان

ولقد شكل الوجود المصري في بلاد الشام ضربة شديدة لبريطانيا التي راحت تسعى لجمع الأضداد ، فاستطاعت في نهاية الأمر تأليب الموارنة والدروز والشيعة على حكم الأمير بشير الشهابي الثاني وحليفه ابراهيم باشا . وهكذا اجتمع المتمردون في بداية صيف عام ١٨٤٠ ضد الحليفين اللذين استطاعا القضاء على التمرد .

ولكن في شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه قصفت البوارج الأوربية مدينة بيروت بالمدافع ، ونزلت قوات بريطانية ونمساوية في مدينة جونية حيث انضمت إليها عصابات الثوار التي خرجت من مخابئها . وما أن دخل شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٤٠ حتى كان القائد المصرى الكبير يسحب قواته من البلاد ، وبعد أيام غادر الأمير بشير الثاني لبنان على ظهر بارجة بريطانية منفيا الى مالطة .

وما أن تسلم خلفه الأمير بشير الثالث زمام الأمور حتى عاد الزعماء الدروز الذين أجبروا على ترك البلاد في أواخر الحكم المصرى ، وبدءوا يطالبون بالحقوق والأراضي التي خسروها في العهد السابق . ولم ير الأمير الجديد بدًّا من معارضة مطالب الزعماء الدروز ، فأدّى ذلك الى تفاقم العداوة بين الطرفين ، وفي أوائل عام ١٨٤١ توالت الحوادث بين الدروز والموارنة في منطقة دير القمر ، وانتصر فيها الموارنة فأضمر الدروز الانتقام .

وتدخل العثمانيون للتوسط في ظاهر الأمر ، ولكنهم راحوا يوسعون الخلاف بين الطائفتين ، ففي الوقت الذى كانوا يسعون فيه لإقناع المسيحيين بفوائد حكمهم المباشر كانوا يشجعون الدروز على نهب قُراهم وممتلكاتهم . وبعد ذلك أجبروا الأمير بشير الثالث على مغادرة البلاد ، وتمكنوا من بسط سلطتهم المباشرة على جميع أراضي لبنان ، ومن ثم نصبت الدولة العثمانية عمر باشا النمساوى حاكما على الجبل . وكان قناصل الدول الكبرى يشكلون مؤتمرا صغيرا دائما في بيروت ، فلم يرق لهم الحكم العثماني المباشر فبدءوا يتدخلون في كل أمر فلم يجد عمر باشا بدًّا من الاستعانة بالموارنة ضد الدروز ، فاعتقل زعماءهم الذين ثاروا عليه واستطاع هزيمتهم بعد أن ضمن حياد الموارنة ، فتدخلت الدول العظمى ، وبعد مداولات عديدة صدر القرار بتقسيم جبل لبنان الى منطقتين ، احداهما في الشمال ويتولى شؤونها قائمقام ماروني ، والأخرى في الجنوب يتولاها قائمقام درزى ، على أن تكون الكلمة الأخيرة في القضايا الهامة لوالي صيدا (الذي كان يشرف على مدينة بيروت آنذاك) وأصبح طريق بيروت دمشق حدا فاصلا بين القائمقاميتين .

وهكذا عاش الجبل في جو من الهدوء النسبي حتى عام ١٨٦٠ ، فأتاح ذلك بروز التناقضات الطبقية بين الفلاحين الموارنة ومشايخهم وأمرائهم من الملّاكين الكبار . ولقد وجد الاقطاعيون الموارنة بعد أن طردهم فلّاحوهم في كسروان في يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٥٩ ملجأ لدى الاقطاعيين الدروز الذين خشوا من ثورة مماثلة عليهم من قبل فلّاحيهم فراحوا يستعيدون الذكريات القديمة المؤلمة ويؤججون النعرات الطائفية من الفلاحين بين كلا الطرفين ، فانقلب الصراع الطبقي الى صراع طائفي . وما أن جاء ربيع عام ١٨٦٠ حتى كان الطرفان يتبجحان باستعدادهما للقتال الذى اندلع فجأة من خلال عدة أحداث طائفية في زحلة ودمشق .

وقبل الحوادث ، كانت أنباء الفتنة الطائفية في لبنان قد وصلت الى استانبول ، وشاعت أخبارها في البلدان الأوربية ، فأراد السلطان عبد المجيد استباق ردود الفعل وتلافي ذيولها بسرعة قبل تدخل الدول الأجنبية ، فأرسل فرقة من الجيش مع وزير خارجيته فؤاد باشا مزوداً بصلاحيات واسعه . وعندما وصل الوزير الى بيروت أمر باعتقال والي صيدا خورشيد باشا ووالي دمشق أحمد باشا ، وتم اعدامهما بعد محاكمة سريعة .

ثم انتقل فؤاد باشا الى دمشق وأمر بالقاء القبض على عدد كبير من الناس واعدام ١١١ شخصا من المتهمين ، كما تم اعتقال أعضاء مجلس الولاية وعدد آخر من أعيان دمشق وعلمائها ونفيهم الى قبرص وتركيا ، على الرغم من أن المحاكمات لم تثبت اشتراكهم أو ضلوعهم في الحوادث ، مما يشير بوضوح الى أن الدولة العثمانية هدفت أيضا الى تلقين الدمشقيين درسا بليغا مفاده أن لا تطمحوا الى أي حكم مستقل وذاتي في المستقبل ، (وتوجد وقائع عديدة تشير الى الظلم الذى عاناه أبناء دمشق على أيدى الحكام الأتراك لا مجال لذكرها هنا) .

التمسك بالهوية العربية

وهنا لابد لنا أن نتساءل : هل كانت لدى أهالي دمشق طموحات وطنية وعربية ؟ كان أعيان دمشق في المدينة القديمة يشعرون بقدرتهم على التصرف المستقل عبر نظام اقتصادى واجتماعي متماسك ألفوه منذ قرون طويلة .

وكانت صدمتهم من تطبيق الاصلاحات شديدة ، لأنها اقترنت بتغلغل الأجنبي عبر قنصلياته ووكلائه التجاريين . فلقد احتكر أبناء الطوائف غير الاسلامية تجارة بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكانوا واسطة نفوذ الرأسمالية الأوربية في الشرق العربي . وكانت العائلات التي اغتنت أكثر من سواها هي العائلات المسيحية التي ارتبطت بشكل كامل بالسوق التجارية الأوربية ، وبالمقابل تأثرت الحرف والصناعات المحلية في المدن الشامية ، خاصة مدينة دمشق ، من منافسة البضائع الأوربية فتوقفت أعمالها مما دفع بأصحابها الى الفقر والافلاس والى اثارة الحقد والنقمة والبغضاء عندهم .

وكان الأعيان ، من الأشراف وأبناء الأسر الدينية العريقة ، يقومون بدور الوسيط بين الحكام والمحكومين . وكان يعيش معهم في المدينة الحرفيون والباعة الذين اعتادوا على نمط واحد من الحياة ، فلم يحاولوا تحسين وتطوير إنتاجهم ليواكب جودة وتقدم البضائع الغربية . وكانت الحرفة هي التي تضمن استمرار التقاليد العامة وتقاليد الأحياء الخاصة التي يخضع لها الحرفيون في علاقاتهم الاجتماعية والعائلية ، وكانوا بشكل أو بآخر تحت رعاية السلطة الدينية القديمة . وعندما هزت الصناعات الغربية أركان المجتمع القائم خسرت دمشق منافذها التقليدية ، بل انها خسرت نفسها وكل ما يمت الى وجودها الذاتي بصلة،فالعدو داهمها في عقر دارها . وكان رفض الغرب هو الرد الأول عبر رفض وكلائه التجاريين . ولقد كان ذلك في رأى الأعيان والعلماء الحرفيين دفاعا عن الوجود والنفوذ ولقمة العيش .

ومن جهة أخرى امتزج الفكر الديني بالنزعة الوطنية لدى أبناء دمشق ايذانا برغبتهم في التحرر من حكام استانبول . وكانوا عبر التمسك بالمواقع والدفاع عن المصالح يبحثون عن هويتهم العربية الشاردة ولسان حالهم يقول : نحن لسنا أتراكا ، نحن عرب ، وإن كنا عثمانيين ! ولقد رفضوا التبعية للأجنبي ، أي أجنبي ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا أو تركيا ، فمنذ مطلع القرن التاسع عشر ساهموا في صد الغزو الفرنسي عن بلاد الشام ، وحطموا جميع القنصليات الأجنبية في عام ١٨٦٠ . وقد ثاروا على والي دمشق التركي محمد سليم باشا في عام ١٨٣١ ، وقتلوه

هو وجميع أعوانه ، ولم تتناسب تلك الثورة بعنفها وقوتها مع مطلبهم المتواضع بالغاء ضريبة عقارية وجدوها مجحفة بحقهم .

وكانت الأنباء تبشر بقرب مجيء ابراهيم باشا المصري فاستقبلوه بترحاب كبير في عام ١٨٣٢ . وكان استقبال الدمشقيين للأمير عبد القادر الجزائري الذي اختار مدينة دمشق لسكناه في عام ١٨٥٥ بالغا حد الروعة . فلقد عبّروا بذلك عن نزعتهم العربية العميقة أمام البطلين العربيين الكبيرين فشعروا إزاءهما بالعزة والكرامة مقابل إحساسهم الدائم بالقهر والإذلال أمام الأتراك .

بزوغ الفكر القومي العربي

وكان من النتائج السريعة للأحداث الطائفية ، أن تنبه عرب بلاد الشام من مسلمين ومسيحيين الى ما يحاك لهم في الظلام لمنع التقائهم على أساس رابطة العروبة ، فجاءت الخطوات الأولى في هذا السبيل من العرب المسيحيين الذين تبلور لديهم شعور عربي أصيل بدا على مستوى تذوق اللغة العربية ، وعلى مستوى السعي لتحقيق نوع من التضامن يتخطى الحدود الطائفية ، وضمن مفهوم جديد يهدف الى تنمية الحس القومي العربي واجراء نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة .

وفي هذا السياق نذكر عددا من المثقفين والمتعلمين من أمثال أحمد فارس الشدياق وناصيف وابراهيم اليازجي وبطرس وسليم البستاني وأديب اسحق وفرنسيس فتح الله مرّاش وغيرهم كثيرون .

ومن أهم ما تم على أيديهم أو أيدي بعضهم نشوء الجمعية العلمية السورية في بيروت في عام ١٨٤٩ (وكانت كلمة سورية تشمل في معناها لبنان وفلسطين وسورية الحالية) ، وظهور تيار ثقافي يمكن أن نصفه بالتيار الوطني العلماني الذي يعتمد المبدأ الوطني وينبذ الطائفية ويتميز بإحياء اللغة العربية وجعلها أداة طيّعة لاستيعاب العلوم والمفاهيم الحديثة ونشرها في البلاد .

وكان السيد بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) أول من ألف في الخمسينيات دائرة معارف عربية تبدى اهتماما ملحوظا باللغة العربية ، كما راح ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) يلقي في الجمعية العلمية السورية في عام ١٨٦٨ قصيدته المشهورة :

تنبهوا واستيقظوا أيها العرب
فلقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وكانت القصيدة مشبعة بروح التمرد ، وقد دعا السوريين فيها الى الوحدة لإسقاط الحكم التركي :

لنطلبن بحد السيف مأربنا
ولن يخيب لنا في جنبه أرب

ولعل لأحمد فارس الشدياق (١٨٠١ - ١٨٨٧) المولود في لبنان ولفرنسيس فتح الله مرّاش (١٨٣٦ - ١٨٧٣) المولود في حلب ، وأديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) المولود في دمشق ، الفضل الأول في التنبيه الى الفرق الشاسع بين الظلم في الوطن الذي ينتمون إليه والحرية السياسية التي يتمتع بها الغربيون . أما فيما يتعلق بالأمة فإن النزعة القومية العربية واضحة في كتاباتهم وأشعارهم ، وقد تألم هؤلاء الثلاثة للنزعات الطائفية التي مزقت بلاد الشام ما بين عامي (١٨٤١ ، ١٨٦٠) فاستحال عليهم الشعور بأن الدين هو الرابطة الوحيدة ، فراحوا ينادون بالرابطة العربية .

ولم تكن فكرة العروبة من وحي أو من صنع العرب المسيحيين وحدهم ، فلقد كان الشعور بالانتماء العربي موجودا قبل الاسلام ، وكان واضحا إبان اندفاعات الاسلام الأولى عندما قام العرب الأوائل بانشاء الدولة العربية الاسلامية من الأندلس حتى تخوم الهند . والجدير بالذكر أن الاسلام لم يحارب المبدأ القومي ولم ينظر العلماء المسلمون الى فكرة الأمة العربية على أنها شيء غريب منافس للدين أو مناقض له ، وذلك اقتداء

بقول الرسول العربي عليه السلام : « أيها العرب ، الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي »

وهكذا نمت فكرة الأمة العربية مع نمو فكرة الاسلام ، بل انها وقعت في القرن التاسع عشر أيام الفكرة العثمانية ؛ تناظرها وتناقشها وتتصدى لها وتطالب بحقها منها ، ثم تعدها مغتصبة للخلافة الاسلامية ، وخاصة عندما شرعت النزعة الطورانية التركية تكشر عن أنيابها في أواخر القرن التاسع عشر ، حتى الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين ساعية الى تتريك الولايات العربية القريبة من عاصمة الدولة العثمانية كبلاد الشام والعراق .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) من بين أئمة الاسلام في زمانيهما، ومع ذلك أعلنا صراحة تفضيل العرب المسلمين على الأتراك المسلمين ، فلقد كان موقفهما وقولهما بأن العرب هم مادة الاسلام وهم أحق بالخلافة من الأتراك ، يفصح عن إيمان أصيل بحق العرب في تنظيم حياتهم سياسيا على أساس وجود الأمة العربية . وفي كتاب « طبائع الاستبداد » وجّه عبد الرحمن الكواكبي كلامه الى الناطقين بالضاد من العرب المسيحيين قائلا : « ياقوم أدعوكم الى تناسي الأحقاد والإساءات وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين (يشير الكواكبي الى موقف الدول الأوربية في تشجيع واثارة هذه الأحقاد) يا هؤلاء : نحن ندير شؤوننا ، نتفاهم بالفصحى ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعزاء ، أدعوكم وأخص منكم النجباء فلنبصر ولنتبصر فيما آل إليه المصير . . » .

وقد تابع السيد نجيب عازورى العربي الماروني أفكار الكواكبي ورضا وأعطاها تعبيرا أوضح وأكثر تحديدا في كتابه الذى نشره بالفرنسية سنة ١٩٠٥ « يقظة الأمه العربية » ، حيث انطلق في نظرته من واقع العرب عند الفتح الاسلامي ، وبأن سياسة العرب هي سياسة التحرير لا القهر ، بينما « الأتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يحرضون أولئك على هؤلاء » . وكان يتحدى دوما الأتراك بقوله بأن « النبي عربي والقرآن عربي ولغة السماء عربية » ، ويتبنى نجيب العازورى فكرة خلافة عربية روحية يشمل سلطانها الديني العالم الاسلامي كله ، وتكون لها سلطة زمنية في الحجاز ، والى جانب الخلافة الروحية تقوم امبراطورية عربية تمتد من وادى دجلة والفرات الى السويس ومن البحر الأبيض المتوسط الى بحر عُمان ، تحكمها ملكية دستورية حرة وسلطان عربي . □

● اشترى الإمام الشافعي رضي الله عنه جارية فلما كان الليل أقبل على الدرس ، والجارية تنتظره ، فلم يلتفت إليها ، فذهبت إلى النخاس ، وقالت : حبستموني مع مجنون . فبلغ ذلك الشافعي فقال : من عرف قدر العلم وضيعه أو توانى في تحصيله حتى فاته فهو المجنون .

تجربـــة محمّد عـلي التحديثية

بقلم الدكتور : أحمد عُلبي

لسنا مسرفين إنْ قلنا إن محمد علي هو المؤسس الحقيقي والباني الفعلي لمصر الحديثة . ثم لا غرابة أن يلتفت محمد علي أول الأمر الى الجيش ، فهذا الجيش أمسى بالياً ، ولهذا سَهُلَ على بونابرت القضاء عليه . والدولة الحديثة ، المتطلعة ، لا يستقيم لها الأمر من غير جيش منظّم . وأدرك محمد علي تقدّم الأوروبيين في هذا الميدان ، لذا طَمَحَ الى أن يبني جيشا مصريا عصريا على النمط الأوروبي ، فاستعان بأساتذة إيطاليين وفرنسيين لتنظيم الجيش . كما شيّد محمد علي أسطولا حربيا وأسطولا تجاريا بعد ذلك ، وما يستتبع من ترسانات وأحواض . ولهذا كله لم يكن غريبا أن تكون الطغمة العسكرية إحدى ركائز النظام الجديد . إن الاستعانة بالعناصر الأجنبية أملت الحاجة الى مدرسة الألسن . ثم إن التطور الذي عصف بمصر ، وقد التفتت شطر الغرب ، دعاها الى إرسال البعوث الى أوروبا ابتداء

حزيران ١٨١٢ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] أن يلعب دوراً [illegible]
المصرية. ومعظم طلبة بعوث محمد علي [illegible]
إنما قصدت الغرب لتشرب الأمور [illegible]
العسكرية، والمدنية، والصناعة الحربية، والكيمياء، والميكانيك، والطب، والزراعة، والطباعة، والترجمة. ويبلغ من توطد صلات مصر الثقافية بفرنسا أن أنشأ محمد علي مدرسة مصرية في باريس، كانت الغاية منها تدريس الطلاب الفرنسية، توطئة لتلقيهم التعليم العالي هناك.

محمد علي باني مصر الحديثة

وهذا، فبخلاف ما يعتقد بعض الباحثين، لم يكن هم محمد علي، خلال حكمه المديد (١٨٠٥-١٨٤٨)، محصوراً في الجيش القوي فقط، وإنما كان هذا الرجل الطموح يتشوف الى بناء دولة حديثة. وإلا فما معنى أن ينشيء محمد علي ديوان المدارس، وأن يؤسس المدارس الكبرى على أنواعها، ويأتي لها بالأساتذة من إيطاليا وفرنسا وانكلترا؟ ولهذا نظم محمد علي الادارة، وقد «مصّرها» بواسطة بيروقراطية منتقاة تعوّل على الكفاءات، واستعان بالأقباط في هذا السبيل. ثم إن الدولة ليست جيشا وجهازا حكوميا فقط، إنما مشاريع ومؤسسات وتخطيط للمستقبل. وهذا ما نهض به محمد علي عندما حكم مصر حكما قارب نصف قرن، فأتاح له هذا الزمن، مع ما عرف عنه من حس «برغماتي» يحتاجه أي حاكم حقيقي، أن يحقق الكثير من مطامحه في البناء الاقتصادي، بالاضافة الى ما تقدم من البناء الثقافي، المتمثل بالتعليم العالي على أوسع نطاق، وباعداد «الكوادر» العلمية الكفوءة والمتفوقة. وهكذا وجدنا محمد علي يصب اهتمامه على الأرض، ومصر بلد زراعي في المقام الأول، فيعنى بالتوسع في مشروعات الري ويطور أساليبه، وذلك لزيادة المساحة الصالحة

[illegible]
وذلك لأن [illegible]
الذين كانوا [illegible]
المصرية، [illegible]
بالتركية. ولكن محمد علي [illegible]
وجد أن لا [illegible] التركية [illegible]
على العربية فقط لغة [illegible]
وبواسطة العربية تمت حركة النقل [illegible]
لثمرات هذه الحركة دار دولاب المطبعة [illegible]
الكتب المترجمة. وإن الذين ينعون على محمد علي تركيته، عليهم أن يتذكروا أن محمد علي هو الذي أحيا العربية في مصر وكرسها لغة رسمية وسائدة، وبلغ به الأمر أنه فرض الأزياء العربية على من يعملوا في خدمته من الافرنج كما ألزمهم بتعلم العربية. ثم إن محمد علي أول من استقل بمصر عن الدولة العثمانية. وإن الحملة التي أرسلها الى سوريا، وقادها ابنه ابراهيم باشا، وكاد أن يهدد بها الأستانة نفسها، هذه الحملة التي أرهبت أوروبا، فسارعت الى نجدة «الرجل المريض» المتمثل بتركيا، ذات دلالة تاريخية بالغة. كان محمد علي يستشرف الأفق العربي، ونخال أن جمال عبد الناصر في عصرنا لم يكن بنأى بالأساس عن نفس الاستشراف.

مصر «تتأورب»

كانت مصر «تتأورب»، فأعضاء البعوث عادوا اليها بروح جديدة، كما أن الأوروبيين قصدوا مصر

وقرب الشرق من الغرب . إذ في عهد اسماعيل شقت قناة السويس ، ولكن ترتب على وجود هذا المعبر المالي العظيم أن أصبحت مصر موضع تنازع وتدخل أجنبي ، وذلك نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي ازداد عقب شق القناة خطورة ، وهي التي تقف أصلا على طريق الهند . وخال اسماعيل أن الجُبّة تصنع الراهب ، فقد سفح الأموال ، من غير وعي أو تحوّط ، في مظاهر أوروبية كثيرة غير مجدية ، وطلبا للزينة والبذخ والترف ، فكان أن أودى بمصر الى الافلاس المالي . فأصبح التدخل الأجنبي ، لادارة شؤون مصر عبر الدائنين الأوروبيين ، جهارا نهارا ، مما استفزّ الحركة القومية التي نهضت رافعة الشعار الغالي : مصر للمصريين . وحمل الأدب أصداء هذا النهوض الوطني . كما أن أبناء الفلاحين المصريين قد شرعوا يدخلون الجيش ، ووصل بعضهم الى المناصب الكبرى ، فوقف أحمد عرابي على رأس الوطنيين الوقفة الشهيرة في ساحة عابدين ، مناوئين الضباط الأتراك والجراكسة ، وذلك في عهد الخديوي توفيق الذي خلف اسماعيل عقب إقالته سنة ١٨٧٩ . فاستعان توفيق بالانكليز ليقضي على وثبة الجيش ، مما أفضى الى الاحتلال الذي ظل جاثما على صدر مصر منذ سنة ١٨٨٢ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

كان عليه السابقون . وفي العصر الحديث ، إثر انحطاط سياسي مديد ، طرأت علينا ، في عصر النهضة ، العملية نفسها ، وكان الغرب ، هذه المرة ، هو القطب الجاذب ونقطة الدائرة ، وفي المرحلتين العباسية والنهضوية دهمتنا الدهشة ، وهي رد فعل طبيعي حيال مظاهر تتبدى « عجيبة » لمن كان متخلفا عن ركبها . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، المعاصر للحملة الفرنسية على مصر ، يعبر في كتاباته أوفى تعبير عن دهشة الانسان الشرقي المتخلف أمام الحياة الغربية والتقدم الغربي . وجاء محمد علي فانتقل من حيز الدهشة الى حيز الاقتباس العملي والأخذ الناشط : فكان الجيش العصري ، وكانت البعوث ، وكانت مدرسة الألسن ، وكانت الترجمة للعلوم العملية التي تساعد على تنشئة الاختصاصيين وعلى القيام بالمشاريع التطويرية التي تبدل التركيب التحتي للمجتمع . أما ترجمة الآداب فتأتي دائما في مرحلة تالية ، لأنها تتصل بالحياة الروحية والترف الثقافي . ومع ذلك يبقى هناك فارق ذو شأن بين المرحلتين العباسية والنهضوية . فقد تأثر العرب في زمنهم العباسي بغيرهم ، وكانوا أقوياء سياسيا ويديرون شؤون امبراطورية عظمى . في حين أن عرب النهضة قد أناخ عليهم العثمانيون قرونا ، فأفقدوهم مناعتهم التراثية ، وضؤل العلم بينهم كثيرا ، وغدوا في الواقع عالة على التاريخ لا حَمَلَة

له . ومن هنا ندرك كيف أن الثقافة الفرنسية اكتسحتهم في هذه المرحلة الحديثة ، فهم بلا إصلاح فكري ، وبلا استقلال سياسي ، وكيانهم الاجتماعي انحدر نحو الجمود ، بحيث ان العملية التطويرية في أبسط تجلياتها تحتاج عندهم الى إذن وفتوى .

ويتضح هذا التخلف ، الراسخ الجذور ، من تجربة محمد علي وما قوبلت به من مقاومة ، ناجمة أساساً من غربة أصحابها عن التطور في أبسط مفاهيمه . نعرف مثلاً أن محمد علي أسس المدارس العليا ، ومن أقدمها وأجلها وأشهرها المدرسة الطبية المصرية في أبي زعبل والمستشفى الملحق بها ، وذلك سنة ١٨٢٦ ، وتم نقلها بعد ذلك إلى قصر العيني سنة ١٨٣٧ . والمدرسة والمستشفى اقترن اسمهما بالدكتور كلوت بك ، وهو فرنسي أسسها وأشرف عليها ودرّس فيها الجراحة . وكان الأساتذة الأطباء الذين تولوا التدريس من الفرنسيين ، أما الذين عملوا في الجيش المصري فكانوا من الفرنسيين والإيطاليين . وبعد مضي عشر سنوات ، على تأسيس هذا المركز العلمي ، تخرج منه أربعمائة وعشرون طبيباً وصيدلياً . ولا بأس أن نذكر ههنا أن الأمير بشير الشهابي الكبير الذي كانت تربطه بمحمد علي علاقة تحالفية ، أوفد بعثة لبنانية إلى قصر العيني لدراسة الطب . ثم إن الذين قاموا بنقل العلوم الحديثة إلى العربية ، أو عمدوا إلى التلخيص ، أو التأليف فيها ، كانوا من تلاميذ المدرسة الطبية المصرية . وذلك أن لغة التدريس المعتمدة في هذه المدرسة كانت العربية ، لكن في بداية العمل كان يصحب الأستاذ الفرنسي ترجمان ، لأن محمد علي رغب في العمل فوراً ، فلم ينتظر حتى يتعلم الطلاب الفرنسية ، أو حتى يتعلم الأساتذة العربية ، أو حتى يتم نقل الكتب اللازمة إلى العربية . وهؤلاء التراجمة الذين توسطوا بين الأساتذة والطلاب ، كانوا من اللبنانيين والمغاربة والأرمن . وكان الناس البسطاء يستهولون أن يغدو المصري طبيباً ، ولكن الدكتور كلوت بك أفلح في أن يجعله كذلك ، معولاً على جهده العلمي [illegible] لسماه . وهذه المدرسة [illegible] في الشرق العربي ، وتبعتها بعد أربعين سنة [illegible] الكلية السورية الانجيلية في بيروت (أي الجامعة الأمريكية) . ولكن الدكتور كلوت بك واجهته المصاعب ، فلا تدريس للطب من غير تشريح ، والقوم يأبون هذا . فتم في البداية تشريح الكلاب ، ثم عمدوا إلى تشريح جثث الأقباط وجثث العبيد .

ولجأوا إلى المدافن المهجورة يستعينون بالجماجم والعظام منها . وتم لهم أخيرا الاذن بتشريح من يتوفون لديهم في مستشفى قصر العيني . وفي عهد محمد علي وفدت الأوبئة على مصر ، غير مرة ، لا سيما الطاعون والكوليرا ، وكانت تترك ضحاياها بعشرات الآلاف . وحاول الدكتور كلوت بك إقناع الناس والجند باللقاح الواقي ، ولكنهم خافوا ورفضوا . فكان أن لقح كلوت بك نفسه ، خلال حفلة جامعة دُعي اليها الأطباء والصيادلة والأعيان وكبار الموظفين ، وذلك ليقنعهم جميعا بجدوى التلقيح . وأضاف محمد علي سنة ١٨٤٢ إلى مدارسه الكبرى فرعا طبيا للنساء لتخريج القوابل ، وهيّأ لهذا الغرض مستشفى خاصا . ولكن المصريات لم يعجبهن هذا الجديد الطارىء ، فكان أن استعان محمد علي بالجواري الحبشيات لتحقيق مأربه . وقد يقول قائل إن الأمر رهن بالتقاليد ، وهي ضاربة عميقا في أرض المجتمع ، ولكن ما رأي المسوّغين إذا ما أفدناهم أن محمد علي عندما أراد شق شارع مستحدث وسط القاهرة ، بعد أن ازدحمت بالأعمال التجارية والمركبات وعسُر السير عبْر الأزقة الضيقة القديمة العهد ، فإنه على الرغم مما عُرف عنه من جرأة وعزم ، استفتى العلماء قبل المباشرة فيه ، فكان أن جاءت فتواهم تدعوه إلى جعل هذه السكة الجديدة ذات عرض يسمح بمرور جملين محملين بغير مشقة ، فكان أن قدّر الأمر بثمانية أمتار . إن التخلف عنيد ، لكن التقدم ، عندما يقف وراءه رجال أشدّاء نظير محمد علي ، هو عنيد أيضا وجسور .

تيارات حضارية في الحياة الثقافية

وبينما ظلّ التعليم كما كان عهد محمد علي مقتصرا على الأزهر ، لم يتح له أن يتطور ، شأن ما يتعلق بالحكام الكبار الذين عرفتهم مصر . فهذا الشرح المعروف عن اللغة العربية أيام العثمانيين ، لكنه انتهى مع الوقت إلى التحنّف ، وانقطع عن المصادر التراثية الأولى ، وهذا العلم فيه يعوّل على المتون النثرية أو الشعرية المتأخرة زمنيا ، ولا يفعل العلماء سوى أن يعمدوا إلى شرحها مرة ومرة فيما يدعونه الحاشية والتقرير . وبفعل هذا الركود العقلي أمسى الأزهر محافظا متزمتا ، وصار مع الزمن قطبا معبّراً عن العقلية القديمة التي وقفت تنازع الجديد في الفكر والأدب والحياة . وهذا الجديد تمثّل بالتيار الذي تنبّه لآثار الحملة الفرنسية ، ولإصلاحات محمد علي ثم إسماعيل ، ورأى في الغرب موئل التقدم والحداثة وبناء الدولة العصرية . وهو التيار الذي أضحى الغرب بآدابه متنفّس تطلعاته الروحية . وهكذا نهضت حركة ترجمة للآداب الأوروبية ، والفرنسية منها والانكليزية بخاصة ، والروسية أيضا ولكن نقلا عن اللغتين المتقدمتين ، ودخل العربية موليير وكورناي وشكسبير وتولستوي وتشيخوف . وإذا بمئات المسرحيات والقصص والروايات الغربية تطرح نفسها على الجمهور العربي . وتبدّت العربية مطواعةً في عملية نقل هذه الآداب والأفكار والمشاعر .

وهذا التيار « المتغرّب » المناوىء للأزهر ، هو الذي توّج سعيه الثقافي ، في مطلع هذا القرن العشرين ، بافتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ ، وكانت على النمط الأوروبي في برامجها وطريقة تدريسها للأدب والتاريخ والفلسفة . ولقد توالى على منابر الجامعة المصرية أعلام المستشرقين من إيطاليا وفرنسا ، يعلّمون فيها ما ألفوه في بلادهم من علم منهجيّ مصوغ في قالب تأليفي متناسق متكامل ، بل إن بعضهم ، وهم قلّة نادرة ، قد كتبوا بالعربية . ولعل خير مثال باهر على هذا الجمع الرائع بين التأليف العلمي المشرق ، والعربية الرفيعة الصافية ، هو كارلو نلّينو في محاضراته التي صدرت بعد ذلك في كتاب « تاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بني أميّة » .

لقد ترك الغرب في الحياة الثقافية العربية آثارا عميقة . وليس الإشكال في أننا أخذنا عن الغرب وتتلمذنا له ، فالتواصل الحضاري قانون إنساني نتبيّنه في الحضارات كافة . فهذه اليابان أخذت وتخطّت ، وشرع الغرب نفسه يلحق بها لاهثاً ليفيد من تجربتها الفريدة . في حين أننا أخذنا كلّ شيء عن الغرب ، علماً وثقافة وأدوات ومأكلاً وملبساً ونمط حياة ، ومازلنا راسفين في أغلال التأخر . بل إننا بالقياس إلى التقدم الغربي العاصف ، نمشي ربما إلى الخلف ، وتزداد الهوّة اتساعا بيننا وبينه ، عِوَضَ أن تضيق . كنا في نهضتنا عيالاً على الغرب ، وما برحنا نقتفي أثره في مختلف مرافق حياتنا . ولسنا نطمح إلى « الاستقلال » الناجز عنه ، لأن العالم المعاصر يعيش في الواقع حضارة كونيّة ذات أنماط متقاربة ، وهي أنماط مستقاة ومستلهَمَة من الحضارة الغربية على الأخص . وبالتالي فالمرتجى ألا نظل « متسوّلين » عند باب هذه الحضارة الغربية ، وإنما يجب أن نشارك فيها ، ولو بقدر يسير جداً . □

سداد وحكمة

● أوصى لقمان بن عنقاء بن بيرون ابنه فقال : يابني ، كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته ، ومن الكريم إذا أهنته ، ومن العاقل إذا هجرته ، ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن الفاجر إذا خاصمته .

هل يستطيع المسرح أن يعلّم دون أن يكون ثقيلا مملا ؟ وهل يمكنه أن يعلم دون أن يقلل من قيمة الموضوع الذى تعالجه المسرحية ؟ وهل بوسعها أن تبقى - بعد أداء رسالتها التعليمية - عملا يتصف بالصدق الفني أو النضج الأدبي فلا تتحول إلى محاضرة في الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو الايديولوجيا ؟

المسرحية التعليمية والتغيير

بقلم : الدكتور حسن عباس

المسرحية التعليمية - كما تدل عليها تسميتها - تحاول تلقين المشاهد أفكارا ومبادىء وحقائق معينة من خلال العرض المسرحي ، وهي في كل ذلك تعلّمه كيف يعمل على تغيير العالم في صورته التي رآه عليها بريخت . ولكننا عندما نصف مسرحية ما بقولنا إنها مسرحية تعليمية ، نكاد نصدر عليها حكما بالموت ، فليس هناك من الناس من يسره الجلوس إلى مقاعد الدرس حتى وإن كانت أرائك مريحة في صالات عرض فخمة . فالمسرحية - بما هي تعليمية - لا بد لها من أن تؤدى رسالة ما ، أو أن تبث دعاية ما ، وهي في كلتا الحالتين تتسم بالعبوس والتجهم ، وأسوأ من ذلك انها تدعي لكاتبها تفوقا وامتيازا عقليين يبيحان له الوقوف أمام حشد من الناس معلما وناصحا ومرشدا ، فذلك ينأى بالمسرح عن الاعتقاد السائد الذى يرى فيه مكان ترفيه وتسلية .

بريخت والمسرحية التعليمية

قد يقال ان بريخت لجأ إلى المسرحية التعليمية ليبث من خلالها ايديولوجية جديدة اعتنقها والتزم مبادئها بعد ان عكف على دراسة الماركسية والاقتصاد في السنوات التي امتدت من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٠ ، وهذه الايديولوجية تبدو جلية واضحة في معظم المسرحيات التعليمية التي كتبها . قد يقال ذلك ، ولكن كتابات بريخت للمسرح التعليمي وعنه ، تريبا ان ليس هناك - من كتاب المسرح - من كتب بمثل الحماسة وقوة الدافع الأخلاقي اللتين تكمنان وراء الرغبة في توجيه الفن المسرحي نحو غايات تعليمية . لقد كان بريخت على بينة من كل كلمة يكتبها ، وكان يريد لهذه المؤسسة ذات التأثير الواسع - المسرح - أن تكون في خدمة الثقافة الجماهيرية ، كما أراد لها أن تكون وسيلة امتاع ومعافة في آن معا .

يتساءل بريخت لقد أصبحت خشبة المسرح تثقف ، فالنفط . والتضخم ، والحرب ، والصراع الاجتماعي ، والعائلة ، والحنطة ، والمتاجرة بالحيوانات المعدة للذبح، كل ذلك أصبح مادة للعرض المسرحي . . لقد أصبح المسرح حقل نشاط للفلاسفة ، اولئك الذين (لا يسعون إلى توضيح العالم فقط) بل إلى تغييره أيضا ، فظهرت الفلسفة على خشبة المسرح ، وبهذه الصور ظهر الاتجاه الوعظي ،فإلى أين ذهبت التسلية ؟

إن وضع التعليم في مواجهة التسلية أمر يسيء إليهما معا ، ذلك ان كلا منهما ـ في العمل الفني الصادق ـ يكمل الآخر . ويختلف مفهوم التعليم باختلاف الفئات الاجتماعية ، فهناك من الناس من ينظر إلى الأشياء في البيئة الاجتماعية على انها كل جامد صلد لم يعد قابلا للتغيير ، وإن ما هو متاح من متع العيش فيه ما يكفي . إن مثل هؤلاء الناس قد خاب فيهم الظن ، وفقد الأمل ، فليست البنية الاجتماعية هي التي تستعصي على التغيير ، بل إن إرادتهم الواهنة هي التي تعجز عن احداثه . « لكن هناك فئات أخرى لم تذق طعم الفطائر . إنهم يريدون أن يدركوا كل شيء مهما كلف الأمر ، (وهم) يعرفون انهم (ضائعون) ان لم يتعلموا ، ويمثل هؤلاء أحسن التلاميذ ، وأكثرهم تعطشا للمعرفة . إن مثل هذه الاختلافات توجد أيضا بين الشعوب والأقطار . » فالرغبة في المعرفة تمليها ظروف اجتماعية أيضا وليست وقفا على الميول الفردية .

بين العلم والفن

ويرى بريخت أن هناك من التعليم ما يجلب سعادة النضال ، ولو لم يوجد مثل هذا التعليم لفقد المسرح . ويتساءل « . . ما هو العنصر المشترك بين العلم والفن ؟ إننا نعرف جيدا أن العلم يمكن أن يكون مسليا ، ومع ذلك ، فليس كل ما يسلي يمكن أن يقدم على خشبة المسرح . »

ليس الفن ـ في العصر الحديث ـ بمعزل عن العلم مهما بدا البون شاسعا بين هذين الفرعين من فروع النشاط الانساني . وعلى الرغم من ان كلا منهما يمارس تأثيرا خاصا ، وبأسلوب خاص فان الكاتب المسرحي ـ وهو فنان ـ لا يستطيع العمل بعيدا عن منجزات العلم كالإنارة المتطورة ، وآلية المسرح التي بلغت شأوا كبيرا من التقدم التقني ، فضلا عن حاجته إلى العلوم المساعدة في إيضاح حالة ما ، كعلم النفس إذا كانت الشخصية تتحدث عن الغرائز ، أو الدوافع ، أو كعلم الاقتصاد إن كان الموقف يتطلب تشريحا لطبقات اجتماعية من حيث دخولها ومكاسبها وطرائق عيشها . يقول بريخت « ومهما بلغت كمية المعرفة العلمية التي يتضمنها العمل الفني ، فان هذه المعرفة يجب أن تتحول إلى فن . إن امتلاكها ـ هو الذى يمنح تلك السعادة التي يثيرها العمل الفني . »ويضيف بريخت في « حوارية شراء النحاس » إلى ذلك قوله : فلكي يبدع المرء عملا فيه الكثير من الإلتباس ، والكثير من التعقيد ، كما هو شأن المسرحية التي تحاول عرض حياة الناس الإجتماعية ، فان المعرفة التي (تمده بها) تجربته المعاشية ليست كافية على الاطلاق . فبدون معونة الاقتصاد والسياسة ، لا يمكننا أن نفهم أنماط السلوك عند معاصرينا .

التعليمية والتجريب

والمسرح التعليمي تجريبي أيضا . لقد مر المسرح الأوربي الجاد بمرحلة من التجريب أسهمت فيها أجيال عديدة ، ولم تصل إلى غايتها بعد . كانت تلك التجارب في خطين متوازيين يتداخلان أحيانا ، فكان أحدهما يعزز جانب التسلية ، وكان الآخر يعزز جانب التعليم . ولما كانت التسلية تستهلك بسرعة ، فقد دأبت تلك التجارب في سعيها للعثور على مؤثرات جديدة .

● بريخت

ويضرب بريخت أمثلة على تلك التجارب التي قام بها كل من انطوان ، وبرام ، وستانسلافسكي ، وغوردون كريج ، ورينهارت ، وبسكاتور . ويعتقد أنهم بتجاربهم قد أغنوا وسائل المسرح التعبيرية بما أدى إلى زيادة في قدرته على التسلية .

أما على الجانب التعليمي فقد كان لجهود بسكاتور أثر كبير في تعزيز جانب التعليم في المسرح . ويقول بريخت ـ كما ورد في نظرية المسرح الملحمي ـ إنه قد أسهم بنفسه في كل تجارب بسكاتور التي لا يستثنى منها تجربة واحدة لم تهدف إلى تأكيد القيمة التعليمية . كانت جهود بسكاتور وانتفاعه بكل ما استحدث في التقنية من تطور يهدفان إلى عرض الموضوعات المعاصرة على خشبة المسرح . وكانت تجاربه قد قضت على الروتين تقريبا ، وتغلغلت على نحو منظم في أعماق الطريقة الفنية التي يتبعها كتّاب المسرح ، وإلى أساليب الأداء عند الممثلين حتى وصلت إلى عمل المصمم المسرحي .

ويقوّم بريخت تجربته الذاتية ، فيقول إن العناصر التعليمية في مسرحية « اوبرا القروش الثلاثة » لم تكن نابعة من مجمل العمل ، فقد كانت تناقض سير الحدث وتقطعه مما يحول دون الاندماج فيه ، وكان يأمل أن تكون الأجزاء المفعمة بالوعظ الأخلاقي ، والأغاني التعليمية مسلية قدر الإمكان . وهي تسلية تختلف عن نوع التسلية التي تقدمها المسارح التقليدية . إن المتعة الناجمة عن التعليم تتوقف على طبيعة الطبقة الاجتماعية ، كما أن الذوق الفني يتوقف على الموقف السياسي الذى يعود إليه الفضل في أن يقبل المتفرج ما يرى ، أو ينفر منه . ولو أخذنا بنظر الاعتبار ذلك العدد من الناس الذى جاء إلى الحفلة بدوافع سياسية ، فاننا نرى ـ في مرحلة تالية من التجارب ـ أن أي استزادة في عنصر التعليم ، ستؤدى في الحال إلى إضعاف جانب التسلية . « لقد تحول المسرح إلى جامعة شعبية . » لقد جعل بريخت العقلاني من كتاباته المسرحية تجارب تخضع لسيطرة عقلية تامة ، وكانت الغاية المرجوة منها هي الكشف العلمي عن طبيعة العلاقات والتحولات الاجتماعية .

دور التقنية الحديثة

وللتمثيل دور مهم في المسرح التعليمي . إن التمثيل الإنفعالي الذى يؤثر على أعصاب المشاهد يهدد قيمة التعليم في العرض ، لذلك يحبذ بريخت اللجوء إلى ممثلين من الدرجة الثانية لأنه « كلما مُست أعصاب الجمهور كان أقل استعدادا لتقبل التعليمية ، وهذا يعني أنه كلما دفع الجمهور إلى الإنفعال (المشاركة والتأثر) كان أقل قدرة على ملاحظة الارتباطات المتبادلة بين الأشياء ، وأقل قدرة على التعلم . وكلما قدم له المزيد من التعليمية كانت حصيلته من المتعة الفنية أقل . »

لقد أدى التطور المتواصل في الجانب التقني إلى امتزاج وظيفتي التسلية والتعليم ، ولو ان كل الجهود أصرت على أن تقدم فكرة اجتماعية لاستطاعت في نهاية المطاف أن تصل بالمسرح إلى حالة يستطيع معها ـ بمساعدة الوسائل الفنية ـ أن

يقدم صورة عن العالم ، وأن يكوّن نماذج للحياة الاجتماعية للناس كفيلة بمساعدة المشاهد على فهم وسطه الاجتماعي ، واستيعابه بالعقل والعاطفة .

كنا قد أشرنا إلى أن التعليم ثقيل على نفوس رواد المسرح ممن يقصدونه طلبا للمتعة والتسلية ، فكيف يستطيع بريخت بمسرحه التعليمي اجتذاب هؤلاء الناس ، واغرائهم بالجلوس ؟ إنه يستطيع ذلك بالموسيقا التي تؤلف لمسرحية بعينها ، وبالديكور الخاص الذي برع فيه صديقه كاسبر نيهر ، وبالرسوم التي أتقنها جورج غروس ، ثم بكل وسائل المسرح الملحمي وأدواته .

دواعي الظهور

ويجدر بنا الآن أن نسأل : ما الذى دعا إلى ظهور المسرحية التعليمية في أدب بريخت المسرحي ؟ ثم ما الذى دعا إلى ظهورها في الأدب المسرحي العربي ؟

كانت المانيا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات قد تعرضت لأسوأ أزمة اقتصادية مرت بها ، وهي الأزمة التي ابتدأت في نيويورك وعمّ أثرها المدمر أقطار أوربا الغربية كافة . فقد أغلقت المصانع أبوابها ، وانتشرت البطالة بين العمال ، وعمّ الاضطراب قطاعات واسعة أخرى من الشعب الألماني ، ودق ناقوس الخطر ، لقد وضعت تلك الأزمة مصير المانيا موضع تساؤ ل : إلى أين ؟ بل وضعتها عند مفترق طرق جعلت القوتين الرئيسيتين : اليمين واليسار تتسابقان إلى الإنفراد بالسلطة كل على حساب الأخرى . أما اليمين النازى فقد ألقت الرأسمالية الألمانية والعالمية بثقلها وراءه ، وعملتا على إيصاله إلى السلطة ، وأما اليسار فقد تآزر فيه الشيوعيون والاشتراكيون في عمل مشترك .

في ظل هذا السباق الرهيب الذى لم يكن يخلو من العنف والقتل وإراقة الدماء ، دارت رحى المعركة ، واستخدمت فيها كل الأسلحة ، وكان المسرح بين تلك الأسلحة - بوصفه أداة تثقيف جماهيرى وتوعية وتحريض - وقد انعكست الضراوة التي اتسمت بها معركة الوصول إلى السلطة على كتاب المسرح أنفسهم ، لقد أدت مجريات الأحداث على هذا النحو إلى تحديد صارم في المواقف ، فقد رجفت قلوب ، وزلت أقدام ، وتراجعت قيم ومثل ، ولنا في كتاب الحركة التعبيرية التي انفرط عقدها في النصف الثاني من العشرينيات ، مثال ذو دلالة ، فقد اندفع كتابها في اتجاهات مختلفة كل بحسب الضغوط التي مارسها أحد طرفي الصراع عليه ، اتجه برونن - صديق بريخت - ويوست إلى اليمين ، واتجه بيشر وفولف إلى صفوف الشيوعيين ، وفر كثيرون خارج المانيا بعد وصول النازيين إلى السلطة .

ضيقت أجهزة الحكم القائم آنذاك على قوى اليسار وكتابه ادراكا منها لما للمسرح من دور خطير في التوعية والتوجيه ، فمنعت المسرحيات ذات التوجيهات المضادة من أن تعرض على خشبة المسرح الرسمية . يقول الدكتور عادل قرشولي : « ونتيجة لهذا الوضع الناشيء عن تنامي حدة الصراع الطبقي ، لم يجد الكتاب الثوريون أمامهم سوى الحركة المسرحية العمالية ، وفرق الهواة ، فتوجهوا إليها ، وربطوا مصائرهم بمصائرها . كانت هذه الفرق تتكون بدرجة رئيسية من ممثلين شبان ، وعمال ثوريين يتمتعون باستقلال اقتصادى ولا يضطرون للدخول في مساومات ايديولوجية مع مالكي المسارح الكبيرة لأن أدواتهم لم تكن أكثر من ديكور بسيط ، ومكبر صوت ، ولأن مسرحهم لم يكن سوى الشارع والمقهى ومسارح النوادى البسيطة . »

ولم يكن أمام بريخت ازاء تلك التطورات جميعا إلا أن يهجر ما اصطلح على تسميته « الجهاز البرجوازى » ، ويتجه إلى صيغة المسرح

التعليمي وعيا منه بالدور الاجتماعي للمسرح ، وتقديرا لإمكانياته الدعائية . ولا بد لنا من الاشارة إلى أن بريخت كان قد أطلق على المسرح القائم آنذاك اسم « المسرح المطبخي » وهي تسمية تدل على رفضه له شكلا ومضمونا ، وقد تحمل تبعة هذا الرفض .

أما في الوطن العربي فقد شقت المسرحية التعليمية طريقها أيضا بوصفها أداة تثقيف وتوعية ، إن الأسباب التي أدت إلى ظهورها هنا مماثلة في دوافعها العامة للأسباب التي أدت إلى ازدهارها هناك ، وإن اختلفت التفاصيل ، كلتاهما ظهرت في ظروف نضالية قاسية ، وكلتاهما ارادت للعرض المسرحي أن يجمع المتعة إلى الدرس في توظيف جديد للمسرح يسهم من خلاله في حركة النضال العربي ، باحثا في العقبات التي تعترض سبيلها ، متقصيا للأسباب والعلل ، مقترحا لها الحلول .

مادة للتعليم

وقد عصفت بالوطن العربي أحداث جسام في العقود التي توسطت هذا القرن ، اشتدت معها المقاومة العربية للاحتلال الأجنبي ولكل أشكال الهيمنة التي يبسطها ، وأخذت الأهداف تتضح شيئا فشيئا حتى تبلورت في الدعوة إلى التحرر والوحدة ، وإقامة مجتمع عربي تسوده العدالة الإجتماعية بحيث غدت هذه الدعوة شعارا ترفعه حركة التحرر العربي ، وتحدد به معالم الطريق ، بيد أن هناك صعابا شتى كانت تحول بين الدعوة إلى تحقيق الهدف ، وبلوغ الهدف ذاته منها ما أوجده الاحتلال وظروف التجزئة ، ومنها ما أورثته قرون التخلف . فكم من الصعاب ظلت تحول دون التحرر حيث كان السعي إليه يصطدم بجيوش أجنبية ، وبفئات اجتماعية مهيمنة ربطت مصيرها بمصير الاحتلال ، وتشابكت مصالحها بمصالحه . فكانت لا تقل عداء ونقمة على الثائرين العرب ونكالا بهم منه .

وكم وقفت الاقليمية ودعوات الانفصال ، والإبقاء على التجزئة التي يتبناها المنتفعون بها حائلا دون بلوغ هدف الوحدة ! وكم وقفت قوى الاقطاع والرأسمالية العربية في وجه الدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية !

كل تلك كانت مواد خصبة أمام كتاب المسرح ، يخرجون منها بالدروس التي ينبغي للمواطن العربي حيثما وجد أن يعيها أملا في تذليل تلك الصعاب ، وبلوغ الأهداف الكبار . على ان الشكوى من الظلم الاجتماعي وما يستتبعه من صراع طبقي احتلت مكانا بارزا في المسرح العربي المعاصر تعليميا كان أم غير ذلك . لقد أدرك الكتاب العرب الصلة الوثيقة بين المواطن الحر الذى يملك شبرا من الأرض يدافع عنه ، والوطن الحر . وهذا هو الدرس الذى تكفلت بايضاحه ـ فضلا عن دروس أخرى ـ مسرحيات تعليمية عربية كثيرة منها « باب الفتوح » لمحمود دياب ، و « العطش » لنور الدين فارس وغيرها

● لاتتهافت على اللئيم فتتهم في مروءتك ، ولا على الغني فتتهم في عفتك ، ولا على الجاهل فتتهم في فطنتك .

(شوقي)

● لاتبذل نصحك عفواً ، وإذا سُئلتَ أن تشير فاختصر

(جورج واشنطن)

بقلم : محمود المراغي

(١ = ٩) .. !

قد يبدو عنوان هذا المقال غريبا ، قد يبدو كخطأ رياضي غير مقصود ، ولكن التفاصيل تقول : « بل هذه هي الحقيقة » .

يقول آخر تقرير عن وضع السكان في العالم (١٩٨٨) أصدره صندوق الأمم المتحدة للسكان : إن البلدان الصناعية تضم (٢٥) بالمائة من السكان ، لكنهم يستهلكون :

** (٧٥٪) من الطاقة المستخدمة في العالم كله .

** (٧٩٪) من كل أنواع الوقود التجاري (لأن هناك بالطبع أنواعا من الطاقة غير تجارية وتستخدم بشكلها البدائي) .

** (٨٥٪) من كل إنتاج الخشب

** (٧٢٪) من كل إنتاج الصلب .

وإذا اختزلنا ذلك - للتبسيط - في رقم أو رقمين ، فإننا نقول : إن ربع سكان العالم - وهم سكان الدول الصناعية - يستهلكون ثلاثة أرباع الطاقة وعددا من المواد الأولية الأساسية وبالتحديد : الصلب والخشب .

واستطرادا للأرقام يكون ثلاثة أرباع سكان العالم ، وهم سكان الدول غير الصناعية ، يستهلكون ربع هذه الأشياء فقط .

وباستخدام بسيط لعلم الحساب تصبح المعادلة واضحة ، وهي أن إنسان الشمال يستهلك تسعة أضعاف إنسان الجنوب !

يعني ذلك - ودون استخدام مؤشرات أخرى كالدخل القومي ، أو سلع الترفيه ، أو ادوات الثقافة - أن إنسان الشمال يتمتع بمستوى معيشي يفوق إنسان الجنوب تسع مرات « على الأقل » ، ونقول « على الأقل » لأن البون شاسع في جوانب أخرى ويفوق التسعة أضعاف ، ومثال ذلك : الالكترونيات والعقول الالكترونية وغيرها من أدوات حضارة لم تنتشر بالقدر نفسه في الدول غير الصناعية .

البون شاسع ، لكن ذلك ليس الوجه الوحيد للأرقام .

العالم يتغير

لقد شهد العالم تغيرات أساسية في الفترة الماضية :

* أصبح واضحا أن هناك استنزافا للموارد ، فما اختزنته الأرض في ملايين السنين ، واستطاعت الطبيعة أن تحيله من مواد عضوية مختزنة في باطن الأرض إلى نفط ، على سبيل المثال ، جرى تكوينه عبر زمن طويل قد يكون آلاف السنين أو عشرات أو مئات الآلاف ، وربما عبر ملايين السنين من التاريخ غير المكتوب ، هذا المخزون حين تم اكتشاف النفط انهال عليه الانسان ، وكاد يستنزفه ليصبح قصة تاريخية في علوم الطاقة ، ولينتقل العالم لأشكال أخرى !

الشيء نفسه يحدث في مخزون العديد من المعادن التي لا تدخل باب «الثروة المتجمدة» .

بل ، والشيء نفسه يحدث في الغابات التي

عاشت عشرات الآلاف من السنين فإذا بها تنحسر .

إنسان القرن العشرين التهم بحضارته المادية الكثير من الموارد ومازال يلتهم .

* الغريب أن يحدث ذلك في ظل تقدم تقني ضخم ، تصور معه الإنسان أنه استطاع أن يقدم بدائل كافية ، فها هي مواد مصنوعة تحل مكان الخشب ومكان الحديد ، وها هي الطاقة النووية والطاقة الشمسية وطاقة الرياح تزحف لتحل ـ تدريجيا ـ مكان الطاقة التقليدية : الخشب والفحم ، النفط ومشتقاته ، الغاز والكهرباء .

وحين بدأ العالم الصناعي يتوسع في صناعة الحاسوب « الكمبيوتر » ، وحين أصبح العقل المصنوع بديلا ـ في بعض الحالات ـ للعقل الانساني وبديلا لجهده اليدوي والعضلي ، حين أصبح العامل يقوم ـ بفضل الكمبيوتر ـ بإنتاج قدر ما كان ينتجه ألف عامل ، حين حدث ذلك قيل : إن ذلك أيضا سوف يؤثر على استخدام الموارد ، فلم نعد ـ في كثير من الأحيان ـ بحاجة إلى آلات ضخمة بكل ما تحتاجه من صلب ومعادن وطاقة للتشغيل ، فقد أصبحت هناك قوى غير منظورة قادرة على تشغيل الآلات واستخراج المنتجات .

حدثت ثورة في العالم ، وكان التوقع : انحسار استهلاك المواد التقليدية .

* في الوقت نفسه أيضا ، صحا العالم على قضية اسمها التلوث ، وأدرك أن الشمال ـ بتقدمه الصناعي الهائل ـ أكثر خطورة على البيئة . فنواتج الصناعة تخرق ما يعرفه العلميون باسم طبقة « الأوزون » وتعرض العالم لأشعة تصيب الانسان بالسرطان والأرض بالبوار . وهذه النواتج تقدم ما يعرف بالأمطار الحمضية التي أتلفت البحيرات والأنهار في الشمال ، إلى آخر قائمة « علم التلوث » ، إن جاز التعبير .

وكان التوقع انحسار أشكال من الاستهلاك » ، وألوان من الحضارة المادية درءا للتلوث المتزايد .

نتائج أخرى

على الرغم من كل هذه المتغيرات ، وعلى الرغم من المؤتمرات التي تنعقد ، والاتفاقيات التي تبرم ، مازال نمط استخدام المواد الأولية ـ كما تقول الأرقام السابقة ـ شبه ثابت ، ومازال الصلب دعامة للصناعة الأوربية والأمريكية واليابانية ، ومازال الخشب يتربع على سوق الصناعة ، ومازال الشمال يحتكر النسبة العظمى من المادتين ، بجوار احتكاره للنسبة الكبرى من استهلاك الطاقة أيضا .

يعني ذلك أن الصلب مازال ـ وعلى الرغم من كل البدائل والتحولات ـ عماد الحضارة المادية وأدواتها ، من السيارة إلى القطار ، ومن القطار إلى الآلة ، ومن الآلة إلى صناعة التشييد التي تزحف فيها أشكال البناء من الشكل التقليدي الى الهياكل والأقفاص الحديدية !

العالم يتقدم ويخترع ويبتكر ، لكنه مازال يعتمد ـ كما كان في القرن الماضي ـ على الصلب والخشب والطاقة التقليدية في معظمها .

والأهم هو تلك الدلالة التي تمس مستوى المعيشة ، فنسبة (١ : ٩) ، تعني أن إنسان الشمال يتمتع بمأكل ومشرب وملبس ومسكن وأداة انتقال وأداة ترفيه ووسيلة علاج وتثقيف ، أفضل من إنسان الجنوب بعدة أضعاف .

إنه الفارق بين إنسان الكوخ ، وانسان ناطحات السحاب . بين إنسان الغابة وإنسان الحاسوب « الكمبيوتر » . إنه الفارق أيضا بين الذين يبحثون عن الماء والطعام في غابة أو سهل ، والذين يطيرون إلى الكواكب الأخرى بحثا عن المعرفة ، وربما عن موارد جديدة يلتهمها العالم .

هل يزول ذلك الفارق في يوم ما ؟ □

العربي
عيونك
على العالم

مسلمو بريطانيا

مواطنون
أم مغتربون

استطلاع : صـلاح حزين
تصـوير : فهـد الكـوح

لم يصل الفتح الإسلامي يوما إلى بريطانيا أما الإسلام فقد وصل ، دخل إلى هناك مع ملايين المهاجرين من دول آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط ومع الزمن ، كان على هؤلاء أنْ يجيبوا عن تساؤل لم يطرح عليهم من قبل ، هو : كيف يمكن للشخص أن يكون مسلماً ، ومواطناً بريطانياً ، في الوقت نفسه ؟!

كان اليوم جمعة ، وشمس لندن تختفي وراء غيوم داكنة ، تدفعها الريح عن وجهها دقائق معدودة ، تعود بعدها ثانية وراء الغيوم ، حتى تجد لها فرصة أخرى تبزغ فيها من جديد ، وتخفف لسعة البرد المثقلة بالرطوبة ، لكن هذا الصراع غير المنظور بين الشمس والغيوم ، لم يثن سكان لندن المسلمين عن التوافد على مسجد المركز الثقافي الإسلامي في العاصمة البريطانية ، لإقامة صلاة الجمعة . وبينما كنت أنا مشغولاً بمراقبة تلك المعركة في السماء بين عناصر الطبيعة ، كان زميلي المصور منهمكاً بالتقاط الصور للمصلين الذين بدءوا بالتوافد على المركز الذي لا يبعد كثيراً عن وسط لندن التجاري .

بدأ المصلون يتوافدون بأعداد قليلة ، اثنان ، ثلاثة ، ثم عندما اقترب موعد الصلاة بدءوا بالتوافد جماعات ، تعددت ألوانهم ، واختلفت أعمارهم وأزياؤهم ، أطفال وشبان وكهول وشيوخ ، رجال ونساء ، سود وبيض وسمر ، بعضهم ارتدى الملابس الأوروبية العادية ، وبعضهم الآخر ارتدى زي بلاده القومي ، فكان هناك البرنس المغربي والجلابية المصرية والعمامة السودانية والملابس الإفريقية المزركشة ، والهندية والباكستانية الفضفاضة ، وكانت الكوفية الفلسطينية ، هي الأكثر انتشاراً ، ليس غطاء للرأس فقط ، بل وشاحاً يلف الرقبة والكتفين ، ليقيهما من البرد ، وليدل على هوية غير بريطانية على الأقل .

ازداد وقع الخطى سرعة مع خطبة الجمعة التي بدأت بالعربية ، ثم تليت بالإنجليزية ، وعند نهايتها كان مسجد المركز الضخم قد فاض بالعابدين . استوت الصفوف ، وأقيمت الصلاة ، ثم انفض المصلون منتشرين عبر البوابة التي وقفت قرب مدخلها عربة ، كانت تبيع مواد غذائية ، يرتبط استخدامها بالمناسبات والأعياد الدينية الإسلامية ، مثل قمر الدين والعرقسوس .

انتشر المصلون ودخلت أنا إلى مكتب الدكتور علي مغرم الغامدي ، مدير المركز الثقافي الإسلامي ، مبتدئاً استطلاعنا حول مسلمي بريطانيا . ومن مكتبه الذي لم تنقطع فيه الحركة ، بين داخل ، وخارج ، ومستفسر ، وطالب استشارة أو مساعدة ، حصلت على بعض المعلومات الأساسية بشأن المراكز الإسلامية ، وعلى بعض العناوين المهمة ، وأرقام الهواتف الضرورية لي في استطلاعي المتشعب .

وكان السيد فيصل الصباح ، الملحق الإعلامي في سفارة الكويت بلندن قد أمدنا ببعض الوثائق والقصاصات المهمة حول الموضوع . ومن خلال هذه المعونة المشكورة بدأنا التحرك في أرجاء بلاد الانجليز ، بحثاً عن الجذور الإسلامية في الجزر البريطانية .

قال لي الدكتور الغامدي : « لم تكن هنا في رمضان لسوء الحظ ، لقد كان المركز خلية نحل لا تهدأ ، ففي رمضان « تنفتح » أوقات الدوام ، فتصبح أي ساعة في النهار ، وأي وقت في الليل ، والمكاتب المختلفة التي تراها الآن ، لا

تنقطع فيها الحركة ، ولا يتوقف مكتبي عن استقبال المراجعين والمهنئين وأصحاب الشؤون المختلفة » . وكنت أرى بنفسي الحركة الدائبة في الغرف التي انتشرت على جانبي الممر الذي يفضي إلى قاعة الوضوء والمسجد ، وإلى الطابق الثاني من المسجد الذي خصص للسيدات . ومن تلك الغرف كانت تأتي أصوات المراجعين والمستفسرين عن مواعيد ، والمستشيرين في قضية دينية ، فيما اصطف بعضهم بجانب رف من الكتب الجديدة التي صدرت في لندن حول العرب أو المسلمين ، بإحدى اللغتين العربية أو الإنجليزية . وانبعثت من سرداب المبنى رائحة طعام ، عرفت أنه يقدم مجاناً للمحتاجين من المسلمين في بلاد الإنجليز .

ودعت الدكتور الغامدي بعد حديث لم يتشعب كثيراً . في الخارج كانت الغيوم والشمس ما تزال تصطرع ، فيما رسخت قبة المسجد النحاسية فوق البناء المربع الكبير ، وانتصبت المئذنة متجهة نحو السماء .

خرجت أبحث عن المسلمين الذين أصبحوا جالية لها حضورها ، وأسأل عن قضاياهم ومشكلاتهم وطموحاتهم ، وعن حياتهم وطقوسهم في العبادة والحياة والممات ، وعن الكيفية التي يحافظون بها على ثقافتهم وممارساتهم الدينية في مجتمع غير مسلم ، وعن مدى تقبلهم للقوانين البريطانية ، ومعظمها وضعية ، ومدى حماية القوانين البريطانية لهم كجماعة دينية بريطانية أو غير بريطانية . أتعرف على مدى استيعاب المجتمع البريطاني لهم ، ومدى انتمائهم هم لوطنهم الجديد ، بعد أن غادروا أوطانهم الأصلية ميممين شطر الجزر الشمالية البعيدة . هل ذاب هؤلاء في المجتمع الجديد ، وأصبحوا جزءاً منه ، أم حافظوا على هوياتهم الوطنية ، وثقافتهم الدينية ، وسط هذا المحيط الجديد ؟ لم تكن المهمة سهلة إذن ، كما لم تكن الحركة سهلة أبداً .

المدن الرئيسية التي تضم مراكز إسلامية في الجزر البريطانية

البـــدايات

كانت البداية في نهايات القرن الماضي ، عندما بدأت أعداد قليلة من المسلمين المنتمين إلى الدول الخاضعة للحكم الاستعماري البريطاني بالتوافد على بريطانيا لأسباب مختلفة ، بعضهم جاءوا موظفين لدى الأقسام المهتمة بشؤون بلادهم ، وبعضهم الآخر جاءوا عمالاً في المصانع البريطانية ، وكان معظم هؤلاء من شبه القارة الهندية ، ولكن كان هناك مسلمون من شرق إفريقيا وجنوب إفريقيا ، ومن جزر الهند الغربية ، وكان هناك إيرانيون وماليزيون وأتراك من قبرص خاصة

وفي بدايات هذا القرن جاءت جالية يمنية ، قليلة العدد ، عمل معظم أفرادها في المصانع البريطانية في مانشستر وبرمنغهام وبرادفورد ، وغيرها من المدن الصناعية البريطانية ، ومدن

○ (الى أعلى) مصلون في مسجد المركز الإسلامي بلندن - (أسفل) درس ديني بمسجد برمنغهام

○ برج بناية تحول
إلى مئذنة مسجد
بيرمنغهام

الساحل الشرقي ، لتكون النواة الأولى للجالية العربية المسلمة هناك ، وتلاهم بعد ذلك مهاجرون عرب من مصر والعراق والمغرب وفلسطين وليبيا وتونس .

غير أن « الجالية المسلمة » لم تبدأ بالتوافد على البلاد بأعداد كبيرة إلا في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من هذا القرن ، وهي الفترة التي بدأت فيها البلدان الإفريقية والآسيوية بالتحرر من نير الاستعمار القديم ، بعد أن أفلت شمس الامبراطورية البريطانية في أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦م ، فسافر كثيرون من أبناء المستعمرات من بلدانهم إلى بلاد المستعمر السابق ، قبل أن يغلق أبواب بلاده في وجوههم ، لذا فإن « الجالية المسلمة » جالية حديثة جدا ، كما أن أفرادها ينتمون في غالبيتهم الساحقة إلى الطبقات الفقيرة ، فمعظم هؤلاء كانوا عمالاً وموظفين صغاراً ، ولم يكونوا مثقفين أو أصحاب ثروات أو تجاراً . ولعل هاتين الحقيقتين هما الأكثر تأثيراً على أوضاع الجالية المسلمة هناك ، فمثل هذا المستوى الاجتماعي المتواضع ، ومثل هذا الزمن القصير من الهجرة ، لم يتيحا للجالية أن تذوب تماماً داخل المجتمع البريطاني ، ولم يتيحا لأفراد هذه الجالية أن يكوّنوا الثروات ، ويتسلقوا السلم الاجتماعي إلى الطبقات العليا ، بل لم يتيحا لهم في كثير من الأحيان إتقان اللغة الإنكليزية ، فظلت اللكنات الأصلية واضحة بقوة في حديث الغالبية العظمى من أفراد الجالية المسلمة هناك .

وهذا يفسر أيضاً عدم بروز شخصيات مؤثرة في الحياة البريطانية العامة ، حيث الطبقات والفئات المختلفة في المجتمع البريطاني قوية مستقرة وراسخة ، لا تسمح لأحد باختراقها ، وهذا لا يعني بالطبع عدم وجود استثناءات في هذا المجال ، مثل وجود تجار كبار ، وبعض نجوم المجتمع والفن والأدب ، إلا أنها تبقى استثناءات لا تشكل حالة أو ظاهرة عامة . وعلى

○ يوسف اسلام مغني الروك السابق .

مستوى الجالية نفسها فإن قصر عمرها منعها من التكاثف والترابط والتنسيق بين أطرافها واختيار « قياداتها » ، للعمل كقوة واحدة محددة الأهداف والطموحات ، وهذا بدوره أثر على وضعهم القانوني كجالية دينية ، أو « أقلية دينية » ، كما تصفهم بعض الصحف البريطانية ، فمازالت كثير من حقوقهم الدينية مهضومة ، مما دفع صحيفة التايمز اللندنية إلى نشر مقالة لأستاذ التاريخ في جامعة بريستول ، جون فنسنت ، يرد فيها بحدة على ما قاله وزير الداخلية البريطاني ، دوغلاس هيرد ، في خطاب له في مسجد برمنغهام في فبراير الماضي ، من أن القانون البريطاني ينطبق على الجميع ، وقال فنسنت : إن هذا غير صحيح في مجال قانون « التجديف » أو السخرية من الأديان غير المسيحية ، وأضاف : « إن المحاكم مفتوحة بالنسبة للمسيحيين في هذا المجال ، أما بالنسبة للمسلمين فهي ليست كذلك » .

ويقول الدكتور الغامدي : إن هناك الكثير من القوانين البريطانية التي لا تنصف المسلمين ،

مثل قوانين الهجرة التي تعوق كثيراً منهم عن استقدام أقاربهم أو الزواج منهم وإحصارهم لبريطانيا . كما أنهم يعانون من بعض مظاهر التمييز العنصري ، وينظر كثير من الإنجليز لهم باعتبارهم جزءاً من عالم ما وراء البحار ، وليس باعتبارهم مواطنين بريطانيين . فمثلاً ، في الوقت الذي تحصل فيه المدارس المسيحية أو اليهودية على إعانات من الدولة ، لا تحصل « المدارس الإسلامية » على مثل هذه الإعانة ، ونحن هناك كانت قضية «مدرسة زكريا الاسلامية العليا للبنات » في مدينة « باتلي » الشمالية ماتزال مثارة من جانب إدارة المدرسة وزعماء الجالية المسلمة في المدينة الواقعة في يوركشير الغربية . السلطات البريطانية ترفض تقديم العون لمدرسة مسلمة للبنات ، في بلد التعليم فيه مختلط ، وإدارة المدرسة والجالية تصران على أن من حق الفتيات المسلمات أن يدرسن في مدارس غير مختلطة ومن حق المدرسة أن تحصل على المعونة أسوة بباقي المدارس البريطانية . ومازالت « المعركة » مستمرة منذ عامين .

وليست هذه غير أمثلة بسيطة على بروز مثل هذه القضايا إلى السطح ، فما الذي حدث أخيراً حتى تثور مثل هذه القضايا الان ، وليس قبل ذلك ؟

لقد حدثت أخيراً أشياء كثيرة ، تبدأ في بريطانيا ، وتنتهي في أطراف الشرق المسلم .

الوطني والديني

مع بداية الثمانينيات كان الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين قد بدأ يشق طريقه في شعاب المجتمع البريطاني . ولأن أفراد الجيل الأول مازالوا على ارتباط وثيق بثقافتهم وديانتهم ، بل بأوطانهم وأقاربهم في تلك الأوطان ، نتيجة لثورة الاتصالات ، وما أتاحت لهم من الإمكانيات ، فقد أرادوا لأبنائهم من الجيل الثاني نشأة ، للدين فيها مكان رئيسي ، ولثقافاتهم الوطنية دور في تكوينهم . ومع بداية الثمانينيات أيضاً كانت بعض البلدان الإسلامية تزداد ثراء ونفوذاً ، وعلاقاتها تزداد رسوخاً مع الغرب حيث يقيمون ، كما كانت الحركات السياسية المرتكزة على أسس دينية تحقق انتشاراً واسعاً في بلدان الشرق المسلم ، وهي البلدان التي أتى منها هؤلاء ، فبدأ صدى تلك الأفكار يتردد هناك أيضاً في أوساط الجالية التي أصبحت بريطانية

ونشأت علاقة بين الشرق ومسلمي بريطانيا ، الشرق يتبرع بالمال لبناء المساجد والمراكز ، و « الجالية » تزداد قوة وارتباطاً بهم . وعادت للظهور كثير من الأفكار التي تنظر لمجتمعات الغرب باعتبارها مجتمعات مادية غير مسلمة ، ليتطرف فيها بعضهم بعد ذلك ويعتبرها مجتمعات « كافرة » ، و « معادية للإسلام » ، فهي لذلك مرفوضة من جانبهم . لكن الحقيقة الأهم أن هؤلاء أصبحوا مواطنين بريطانيين بالحياة والتجنس والمصالح والامتيازات التي يقدمها لهم النظام البريطاني الغربي ، فكيف يحل هذا الإشكال ؟ كيف يحافظ المسلمون في بريطانيا على هويتهم الثقافية والدينية التي تكونت في بلدانهم الأصلية وعلى « امتيازاتهم » التي يكفلها لهم النظام البريطاني الذي يقدم لهم الكثير من الحقوق غير المتوافرة في بلدانهم الأصلية ، مثل حقوق الإنسان الأساسية ، والحق في التعبير والاحتجاج والتنظيم وغيرها ؟

إن محاولة حل هذا الإشكال هي أساس تحرك « الجالية المسلمة » في بريطانيا ، فهي لم تعد جالية صغيرة ، بل ازدادت بفعل عوامل كثيرة ، لتزيد على المليونين ، وليصبح الإسلام الديانة الثانية في بريطانيا بعد المسيحية . لذا فمنذ بداية الثمانينيات ازداد عدد المراكز الإسلامية والمساجد ، ليصبح ٣٨٧ بين مسجد ومركز إسلامي ، وليتسع دور هذه المراكز والمساجد من أماكن للصلاة والعبادة إلى أماكن لإلقاء دروس في الثقافة الدينية ، ولتعليم اللغة العربية واللغات

○ المركز الإسلامي بلندن - (يسار) مسجد شرق لندن ، أقدم مسجد في بريطانيا - (أسفل) متحدث يحمل مصحفاً بهايد بارك .

الأخرى التي ينطق بها المسلمون في بريطانيا ، مثل الأوردية والبنغالية والبنجابية ، لـلأطفال والشيوخ والنساء .

ولكن لفت نظرنا أن الجزء الأكبر من هـذه المساجد ليس ذا قباب ومآذن ، بل هو في الغالب منازل حولت إلى مساجد للصلاة . وفي منطقة « بريكلين » بشرقي لندن تم تحويل مبنى كان في السابق كنيساً لليهود إلى مسجد ، وفي برادفورد كان مسجد أبي بكر مصنعاً للغاز .

وفي الفترة نفسها ، أي في الثمانينيات ، نشطت حركة إنشاء المدارس الإسلامية ، سواء تلك المستقلة ، أو التي تدرس المناهج البريطانية ، بالإضافة إلى اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، أو المدارس التي تفتح فصولها داخل المساجد والمراكز ، حيث يتلقى الطلاب دروساً في الدين والقرآن واللغة العربية .

وفي مدينة ديوزبري أنشئت عام ١٩٨٢ جامعة تعليم الإسلام ، أو معهد الدراسات الإسلامية « لتهيئة شباب متعلم ، متزن ، عارف ، مطبقين الإسلام ومفيدين في مجتمع متعدد القوميات » كما ورد في كتيب خاص بالجامعة حصلنا عليه أثناء زيارتنا لمسجد ديوزبري الكبير في المدينة .

وفي الثمانينيات أيضاً ازداد التنسيق بين المراكز والمساجد ، غير أن درجة التنسيق في كل أنحاء بريطانيا ليست على المستوى المطلوب ، والسبب ، كما يقول د. علي الغامدي. ان « هذه المراكز لا تملك صفة قانونية مستقلة لكل منها ، لذا فإن كل مجموعة من المنظمات تحاول إيجاد مظلة لها ، لكنها في العادة مؤقتة ، وهي تقوم على الاختيار التام ، ولا شيء ملزم لها أو تجاهها » .

واليوم ، هناك مساجد كبيرة ، أو مراكز إسلامية ، في جميع مدن المملكة المتحدة الرئيسية : لندن ، مانشستر ، برمنغهام ، برادفورد ، كارديف ، غلاسكو ، سكاربورو ، وغيرها .

١٠٠ ألف جنيه من كويتي

في شارع وايتشابل ، في شرقي لندن ، يقوم مسجد شرق لندن ، وهو أقدم مسجد في بريطانيا . بناء يضرب لونه إلى البني ، قبة ومئذنة ترتفعان فوق البناء المربع الذي ضم إلى جانب المسجد مصرفاً اسمه « بنك البركة » .

ومن المعروف أن شرقي لندن هي المنطقة الفقيرة من العاصمة الواسعة ، والجالية المسلمة تتكون في غالبيتها من الباكستانيين والبنغلاديشيين والصوماليين ، ذوي الحالة الاجتماعية المتواضعة أو الفقيرة .

حين وصلنا إلى أقدم مسجد في بريطانيا ، لم يكن هناك غير الحارس رحمان خان ، ولكن بعد قليل وصل أمين الصندوق صلاح الدين حليم الذي كثيراً ما يتردد على المسجد في أوقات فراغه ، فهو لا يتلقى مرتباً . بل هو مثل كل أعضاء مجلس إدارة المسجد يعمل مجاناً « في سبيل الله » على حد تعبيره . وعندما عرف أنني قادم من الكويت ، ذكر لي أنه كان جالساً في أحد الأيام بمكتبه الذي يقع إلى يمين المدخل الرئيسي للمسجد ، حين دخل عليه شخص من الكويت ، وبدأ يتحدث معه حول المسجد والمشكلات التي يواجهها ، وحين شرح له أمين الصندوق حاجة المسجد إلى المال ، بادر الكويتي بدفع مبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني على الفور .

وقبل أن يأخذني السيد حليم في جولة بأرجاء المسجد الفسيح ، بدأ يروي لي قصة بناء أقدم مسجد في بريطانيا . قال حليم : إن هذا البناء ليس هو البناء الأصلي للمسجد ، وعاد بي إلى الوراء ، إلى عام ١٩١٠ ، عندما اتفقت مجموعة من الشخصيات المسلمة المقيمة في بريطانيا في ذلك الحين ، وقرروا إقامة مسجد في هذا الجزء من لندن ، فاستأجروا غرفة صغيرة لإقامة شعائر صلاة الجمعة فيها .

وفي عام ١٩٤٠ اشترت الجمعية ثلاثة بيوت

في منطقة « ستيبني » وحولتها إلى مسجد . وهكذا تم بناء أول مسجد في لندن . لكن مجلس بلدية لندن الكبرى طالب بالمبنى عام ١٩٧٥ ، فانتقل المسجد مؤقتاً إلى بعض البنايات المجاورة حتى يتم بناء هذا المسجد . وهو على الرغم من بنائه الجديد ظل يحمل اسم المسجد القديم ، « مسجد شرق لندن » .

إلى اليسار قامت مكتبة متواضعة لبيع الكتب الدينية الأساسية ، ودفاتر يستخدمها التلاميذ والطلاب الذين يحضرون للمسجد لتلقي الدروس الدينية ، وإلى اليمين مكاتب لأعضاء المجلس الذين يتطوعون لأداء هذه الأعمال ، وبالقرب منها قامت أماكن الوضوء ، وبعد ذلك قاعة الصلاة ، يتوسطها منبر جميل الزخرفة . وصعد بي صلاح الدين حليم إلى دور علوي ، توازي مساحته نصف مساحة المسجد ، وتطل عليه ، وقال : « هذه القاعة خاصة بالنساء » . ومقابل قاعة النساء وقاعة الرجال انتشرت غرف صغيرة ، امتلأت بمقاعد الدراسة ، وبعض مستلزمات التدريس ، إنها فصول الدراسة التي يتلقى فيها التلاميذ دروساً بلغات بلادهم

○ الدكتور علي الغامدي مدير المركز الإسلامي بلندن .

الأصلية ، وكذلك في لغة القرآن والثقافة الدينية العامة .

وخلال جولتنا في المسجد بدأ بعض المصلين والتلاميذ يتوافدون بكثرة . ولاحظت أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا أفارقة ، وقبل أن أسأل بادرني السيد حليم قائلا : إن هذا الوقت خاص بالجالية الصومالية ، حيث يجتمع أفراد الجالية في حلقات لتلقي الدروس في المسجد ، وينتظم التلاميذ الصغار في فصولهم ليتعلموا لغة بلادهم الأصلية وثقافتهم الخاصة

وأثناء جولتنا كان عدد المتوافدين لسماع درس ديني من الجالية الصومالية قد أصبح كافياً . اختار هؤلاء ركناً من أركان المسجد ، وتحلقوا حول الشيخ محمد عثمان عقال الذي جلس متكئاً على الحائط وألقى درساً دينياً باللغة الصومالية ، تخللته استشهادات بآيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث بالعربية . وأجاب عن بعض الأسئلة والاستفسارات قبل أن ينفض المجلس ، لذلك اليوم بالنسبة لهم ، ويبدأ درس جديد للجالية النيجيرية ، فالوقت موزع بين مختلف الجاليات المسلمة القاطنة في تلك المنطقة .

وقال السيد حليم : في صلاة العيد يحتشد هذا المسجد بما يقرب من ٥ آلاف من المصلين ، وكثيراً ما نكرر صلاة العيد ٥ أو ٦ مرات بسبب الازدحام الشديد وضيق المكان . وأضاف وهو يودعني : « إن كل هذه الخدمات تحتاج إلى مال ، وحين اكتمل بناء المسجد طالبنا المتعهدون بالمصروفات الاضافية التي دفعوها أثناء إنشاء المسجد ، وهو مبلغ ليس بسيطاً ، فهو يعادل نصف مليون جنيه استرليني ، وقد حكمت لهم المحكمة بذلك . إننا لا نملك هذا المبلغ . وهناك مكتبة ومخزنان و « بنك البركة » الذي نحصل على إيجاره الشهري ، وهذه كلها تدر علينا بعض المال ، إلا أنه لا يكفي لتسديد هذا المبلغ ، وكل ما نرجوه هو أن توجه عبر مجلتكم نداء للتبرع لتسديد هذا المبلغ » فوعدت .

○ مسجد برمنغهام المركزي .
(يمين) قارىء القرآن .
(أسفل) حي تسكنه أغلبية مسلمة بيرمنغهام .

فيما بعد تجولنا في عدد من المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة في المدينة البريطانية الثانية . وكان المشهد واحدا تقريبا : بيوت صغيرة متوازية ، إهمال ، فقر ، رجال ملتحون ، نساء محجبات . ذهبنا الى استون وشارع ترينتي وموسلي ، ومن هناك الى شارع بلغريف ، حيث يقوم مركز برمنغهام الإسلامي .

قبل أن يأخذني السيد عبد الرزاق مغل ، سكرتير المركز ، في جولة بقاعات المسجد العديدة وأجزائه المختلفة ، دعانا الى مكتبه ، حيث بدأ يشرح لنا بعض المصاعب والمشكلات التي تواجه المسلمين هناك ، لكنه لم ينس أن يشير الى بعض الطموحات والمشروعات المستقبلية التي ينوون تنفيذها .

قال السيد مغل : لأننا المركز الرئيسي للمسلمين في بريطانيا فإن لنا اتصالات مع جميع المراكز الإسلامية الأخرى ، ونحن نشارك في جميع المناسبات والاحتفالات الإسلامية . وأضاف : إن المسلمين هنا يعانون من البطالة التي تعاني منها بريطانيا كلها ، وهذا أمر جديد ، لم يكن يواجهنا في السابق ، مما يضيف أعباء جديدة على المركز الذي يحاول المساهمة في حل هذه المشكلة أمام غلاء الأسعار المخيف .

يضم المركز مكتبة وقاعة للمطالعة ، وقاعتين للصلاة ، إحداهما للرجال ، والأخرى للنساء ، وهناك قاعة للطعام ، تقدم الشاي والقهوة وبعض الوجبات الخفيفة للمصلين بعد الصلاة . ويشرف المركز على عدد من المدارس التي تقدم فيها الدروس الإسلامية الخاصة ، بالإضافة الى المناهج البريطانية . ودعاني السيد مغل للنهوض معه لزيارة مدرسة الهجرة التي تقع في الطابق الأرضي من البناء .

السيد محمد عبد الكريم ثاقب قال لي : إن هذا المقر مؤقت ، فالمدرسة التي فتحت أبوابها منذ ثمانية شهور ستنتقل الى مقر مستقل ، أفضل تجهيزا بالنسبة للتلاميذ الذين ينقصهم الكثير من التسهيلات والتجهيزات في هذا المقر المؤقت . وأضاف : إنه كان من المفروض أن يتم الانتقال منذ مدة ، لكن قلة المال حالت دون ذلك ، فالإيجارات مرتفعة جداً في المدرسة التي لا تعد نموذجية بسبب وضعها المؤقت ، ويقوم عدد من المدرسين بإعطاء دروس في الديانة الإسلامية واللغة العربية والتجويد ولغة الأوردو ، وهي مواد إجبارية ، وذلك إضافة الى المناهج البريطانية . وتغطي المدرسة المرحلة الابتدائية ، وجزءا من المرحلة الثانوية التي لم تكتمل فصولها الدراسية .

والسيد ثاقب الذي يتحدث بلغة عربية سليمة ، هو مدير المدرسة ومؤسسها ، وهو يشرف على ١٥ شخصا بين مدرس ومدرسة وسائق وفني ومسؤول عن نظافة-الفصول والحجرات ، كلهم يعملون في المدرسة .

وداخل الفصول جلس التلاميذ ومعظمهم شرقيو الملامح ، وجلست الفتيات الصغيرات المحجبات يستمعن الى شرح من المدرس بانتباه قطعه دخولنا . وبينما كان المصور منهمكا بأخذ الصور ، كانت نظرات الفضول الطفلية تغلب على نظرات الانتباه لما يقوله المدرس . وحين غادرنا المركز وودعنا السيد ثاقب لاحظت أن بعض التلاميذ الصغار مازالوا يلاحقوننا بنظرات الفضول ، فهم لا يرون مثل هذا النوع من الزائرين كل يوم .

مساجد ومساجد

إن مايلفت النظر في مساجد بريطانيا هو ذلك الدور الذي تقوم به ، ليس بوصفها أمكنة للصلاة فقط ، بل باعتبارها مراكز للعديد من الأنشطة المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، ففيها تبرم عقود الزواج ، وفيها تتم الصلاة على الأموات وتجهيزهم قبل دفنهم ، وفيها تقام الاحتفالات بالأعياد الإسلامية ، وفيها تلقى الدروس

والمحاضرات الدينية ، سواء الدورية منها أوتلك المتعلقة بالمناسبات الدينية ، ويساهم بهذه الأنشطة ـ بما في ذلك التدريس ـ عدد من كبار العلماء ورجال الدين والمختصين . لذا فإننا عندما قمنا بزيارة المسجد الجامع الواقع في شارع كوفنتري ببرمنغهام لم نلاحظ أي اختلاف جوهري في دور أو نشاط المسجد المذكور ، على الرغم من الاختلاف في البناء ، فهذا المسجد عبارة عن منزل ضخم يجري العمل على توسيعه ، ولكن ليس به قبة أو مئذنة .

قبل أن نغادر برمنغهام قمنا بجولة في المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة ، ومررنا بعدد من المساجد التي لم تكن أكثر من منازل متواضعة ، يفتح أبوابها حراس سمر البشرة ملتحون ، تزول عن وجوههم الدهشة من تطفل الطارق الغريب لمجرد قول « السلام عليكم » ، وبها يودع الزائر العابر الذي لايريد أكثر من « مشاهدة » ما يجري داخل المسجد .

مسلمون في كل مكان

لاشيء يميز مدينة برادفورد الشمالية من حيث الأبنية وتصميمها وهندستها البريطانية التي تهتم بالعراقة قدر اهتمامها بالحداثة ، لكنك تبدأ باكتشاف المسلمين في برادفورد بمجرد ركوب سيارة أجرة من محطة القطار التي تتوسط المدينة ، فمعظم سائقي سيارات الأجرة مسلمون من باكستان أو بنغلاديش . وطوال تجوالنا في المدينة ليومين متتاليين لم نشاهد سائق سيارة أجرة واحد من غير هذين البلدين ـ الاستثناء أن يكون السائق مسلما هنديا ـ هل هي الصدفة ؟ لم نستعجل الإجابة ، وإن عرفناها بعد اليوم الأول من التجوال .

من بين ٤٠٠ ألف شخص ، هم سكان مدينة برادفورد الصناعية ، هناك ٦٠ ألف مسلم ، وفي إحصاء آخر ـ بريطاني ـ ٨٠ ألف مسلم ، وهي

○ السيد فيصل الصباح
الملحق الإعلامي بسفارة الكويت في لندن

نسبة كبيرة جدا . ومعظم هؤلاء يباشرون الأعمال الخدمية الوسيطة : تجارة صغيرة أو متوسطة ، مصالح بسيطة ، مخازن ، مطاعم ، أو العمل على سيارات الأجرة . الأفضل بينهم من حيث الأوضاع الاقتصادية هم الباكستانيون الذين يملك بعضهم المحلات والبقالات والمطاعم ويملك بعضهم مصانع للنسيج .

قمنا بجولة في المدينة ، طفنا بحي مانتغهام ، وهو واحد من عدة أحياء يقطنها المسلمون . زرنا بعض المساجد والمراكز والمدارس الإسلامية . لم نجد ما تختلف به هذه المساجد عما شاهدناه في لندن وبرمنغهام ، سوى تصميم مسجد شيربريدج الذي بدا بموقعه القائم على مفترق طريق صاعداً مثل كنيسة ضخمة ، لكن الدهشة تبددت عندما أخبرنا حارس المسجد أنه كان بالفعل كنيسة تم تحويلها الى مسجد ومدرسة إسلامية ، حملت اسم الكلية الإسلامية .

أما المساجد الأخرى فهي في معظمها منازل عادية ، حولت الى مساجد ومدارس إسلامية ودور للعبادة .

○ (يمين) في مكتبة مسجد برمنغهام المركزي - (يسار - أعلى) قاعة الصلاة بمسجد شرق لندن - (أسفل) مقبرة بروكوود الإسلامية .

مجلس المساجد

الجديد المختلف بالنسبة لبرادفورد هو درجة التنسيق الكبيرة بين المساجد والمدارس والمراكز الإسلامية فيها . ويتم هذا التنسيق عبر « مجلس المساجد » الذي ينظم العلاقة بين المساجد بعضها ببعض ، وبين المساجد والحكومة البريطانية والجهات الرسمية الأخرى ، وهذا المجلس الذي يرأسه السيد شبر أعظم هو مجلس منتخب من قبل لجان المساجد والمدارس في برادفورد . وقبل عام ١٩٨١ ، أي عام تأسيس المجلس ، كان لكل مسجد أو مدرسة لجنة تعنى بشؤونه أو تشرف عليه ، وكان هناك تنسيق بين هذه اللجان ، إلا أن تطوراً نوعياً طرأ على درجة التنسيق بين هذه اللجان ، عندما تم تأسيس المجلس ، ليكون الهيئة الوحيدة التي تنطق باسم المساجد والمدارس الإسلامية . وهى بهذه الصفة الآن مصدر لجميع المعلومات الخاصة بالإسلام والمسلمين في مدينة برادفورد .

السيد لياقت حسين ، الأمين العام للمجلس

السيد عبدالرزاق مغل .
مدير المركز الإسلامي في برمنغهام .

يقول : إن هناك كثيراً من حقوق المسلمين في هذا البلد مهضومة ، هناك حقوق لنا كمواطنين بريطانيين ، أهمها حق الاحتجاج والاعتراض ، أما حقوقنا « كمسلمين » فهي ناقصة ، فنحن نجد أن لنا الحق في رفض تنشئة أبنائنا نشأة غير إسلامية ، أو تلقي تربية تفتقد القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية . وقد وجدنا أن المسلمين ليس لديهم من يلجأون إليه سوى القانون البريطاني ، والقانون البريطاني يعاني من ثغرات كثيرة بالنسبة لحقوق المسلمين .

ويقول السيد فقير محمد مدير المجلس : إننا هنا لنرعى مصالح جميع المسلمين ، في هذه المدينة وخارجها ، ونحن حلقة الوصل مع جميع الأقسام والإدارات الحكومية ، ونقوم بهذا العمل بالتعاون الوثيق مع المنظمات والهيئات الإسلامية الأخرى . وفي حال بروز مشكلات من أي نوع تتعلق بالإسلام أو المسلمين ، فإننا نتحاور معا ، ونتخذ القرارات بما لا يتعارض مع القانون البريطاني الذي نحتكم إليه ، وذلك كما يطلب الإسلام من المسلمين ، أي أن يحترموا قوانين البلد الذي يعيشون فيه أينما كانوا ، فالمسلمون مستقرون هنا ، وهم مواطنون بريطانيون ، وأولادهم ولدوا ونشأوا في هذا البلد ، وتعلموا في مدارسه ، وكل ما يريدونه أن يبقى أولادهم مسلمين .

وقبل أن أغادر مقر المجلس بشارع كليرمونت ببرادفورد ناولني السيد فقير محمد كتيباً عن المجلس وتركيبته وأهدافه . وقد لاحظت أنها لم تقتصر على الأمور الدينية فقط ، بل تتضمن العديد من المسائل الدنيوية أيضا ، مثل تقديم المشورة المتعلقة بقضايا الرعاية الصحية والاجتماعية ، ومكافحة البطالة ، والتعليم ، والحقوق المدنية والاجتماعية ، وقضايا الإسكان والهجرة والجنسية ، وتقديم خدمات الترجمة عند التعامل مع الهيئات الحكومية . ويتضمن أيضا مساعدة المسلمين في قضايا تتعلق بالتعامل مع

السجون والشرطة ، وكذلك قضايا الشباب والشيوخ والنساء وكل ما يمس الحياة اليومية .

ويشرف المجلس على مراكز نهارية لكبار السن ، حيث يقوم هؤلاء ببعض الأعمال والمهارات اليدوية التي قد تنفعهم في حياتهم .

وضع مختلف

في مدينة ديوزبري كان الوضع مختلفا بعض الشيء . توجهنا على الفور الى ضاحية سافيل تاون ، حيث يوجد الجامع الذي يقال إنه الأكبر في أوربا كلها . أنزلنا سائق سيارة الأجرة المسلم في باحة المسجد الكبير . وعلى صوت السيارة التي كانت تهم بالمغادرة ، خرج إلينا من باب المسجد

شاب ، تلاه شابان آخران ملتحيان ، وقد ارتديا ملابس تدل على هوية آسيوية . سألونا بحذر واضح عما نريد ، قلنا لهم إننا بعثة صحفية من مجلة « العربي » ، نقوم باستطلاع عن المسلمين في بريطانيا ، وإننا نرغب في مقابلة أي مسؤول ليعطينا معلومات حول المسجد ونشاطه ، وحول الجالية المسلمة في ديوزبري وأنشطتها ومشكلاتها ، وإن أمكن التقاط بعض الصور للمسجد . قال الشاب : إن هذا المسجد للدعوة الإسلامية ، وإن من يأتي إليه من الدعاة أو من حفظة القرآن ، واعتذر لأن المسؤول المخول بالحديث عن المسجد غير موجود ، وعرضت عليه أن يتحدث هو فاعتذر بأدب بعد أن استشار أحد زميليه ، وسألته إن كانت لديه أي معلومات مكتوبة حول المسجد ، فدخل وعاد اليّ بكتيب صغير ، وقال : إننا دعاة ، والدعوة تخرج من القلب مباشرة وليس لدينا أي شيء مكتوب سوى هذا الكتيب الذي يحتوي على أهداف « جامعة تعليم الإسلام » ، وعلى شروط الدراسة في المعهد وطريقة سيرها . ولما طلبت منه أخيرا السماح لنا بتصوير المسجد ومدرسة البنات العليا المجاورة له ، اعتذر أيضا وقال : إن التصوير ممنوع . ثم دخل وأحضر لي بعض الصور لعليّ « أستفيد » منها . وعندما قلت له : إن مجلتنا تعتمد أساسا على الصورة المباشرة الخاصة بها ، وإننا نود إن نأخذ الصور بأنفسنا ، اعتذر مرة أخرى بعربية ذات لكنة آسيوية ، ووقف ، ووقفنا وانقطع الحوار ، وكان لابد لنا أن نغادر .

واتجهنا نحو شوارع المنطقة التي يقطنها المسلمون أساسا ، الشوارع والأزقة المنظمة على الطريقة البريطانية الشهيرة ، خالية إلا من عجوز ملتح هنا ، أو سيدة أو فتاة محجبة هناك . وبعد الظهيرة بقليل كان موعد انصراف المدارس قد حل ، فامتلأت الشوارع بالطالبات اللواتي ارتدين ملابس تتراوح بين الطويلة المحتشمة وبين النقاب . وعندما حاول زميلي المصور التقاط صور لهن تحاشت بعضهن عين « الكاميرا » ، بينما سار بعضهن الآخر غير مباليات بنا . وكان علينا بعد ذلك ، وبعد أن أخذنا صورا للمسجد عن بعد ، أن نمضي عائدين الى مدينة « باتلي » التي كانت مدرستها الإسلامية الشهيرة ، مدرسة زكريا الإسلامية العليا للبنات ، قد أغلقت أبوابها .

ومن هناك الى برادفورد ، ثم الى لندن من حيث بدأنا رحلتنا .

مسلمون انجليز

ليس مسلمو بريطانيا بالضرورة أناسا قدموا الى الجزر البريطانية من « ماوراء البحار » ، كما يقول الانجليز . فخلال سنوات الوجود الإسلامي في بريطانيا اعتنق الإسلام عدد من البريطانيين الأصليين . وأمام غياب أي إحصاء يتعلق بالمسلمين فإن عدد هؤلاء غير معروف ،

وإن كان يقدر ببضع مئات ، وكثيراً ما ينظم هؤلاء أنفسهم في جماعات ليست لها صفة رسمية ، بل هي جماعات تلتقي لتتناقش وتتحاور

○ (يمين ، أعلى) مسجد ديوزبري - (اعلى) سافيل تاون ، حي المسلمين في ديوربري (أقصى اليمين) مركز مدينة برادفورد - (يمين) كنيسة تحولت إلى مسجد في برادفورد

في شؤون الإسلام ، وفي سبل دعم منظماته المختلفة داخل بريطانيا ، ودعم الجمعيات والمؤسسات والتنظيمات الدينية في أنحاء العالم الأخرى . وتعمل هذه الجماعات تحت أسماء مختلفة ، مثل « جمعية المسلمين البريطانيين » ، و« جمعية النساء البريطانيات المسلمات » ، وهكذا . ومن أبرز الشخصيات البريطانية التي اعتنقت الإسلام مغني الروك البريطاني السابق « كات ستيفنز » الذي اتخذ لنفسه اسم يوسف إسلام ، وأستاذ علم النفس في جامعة برادفورد عبد الرشيد سكينر .

ويرأس يوسف إسلام مجلس إدارة مدرسة إسلامية في لندن ، اسمها المدرسة الابتدائية الإسلامية ، ويصدر عنها نشرة فصلية بعنوان « الإسلامية » ، يساهم فيها السيد إسلام ببعض المقالات ذات الطابع الإسلامي .

وفيما عدا ذلك فإنه يقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويقدم المساعدات للتنظيمات الدينية الإسلامية ، سواء كانت سياسية أو ثقافية في الخارج . أما بالنسبة للغناء فهو ملتزم الآن بالغناء بمصاحبة الدف فقط ، ويقدم ألحانا لكلمات دينية تتعلق بالإسلام والدين الإسلامي لا غير .

عندما ذهبنا الى « المدرسة الابتدائية الإسلامية » في بروندزبري بارك بشمال لندن كان يوسف إسلام يرأس اجتماعا للمدرسين ، وحين انفض الاجتماع لم يكن بقي على صلاة الجمعة سوى وقت قليل ، وكان علينا خلال هذه المدة البسيطة من الوقت أن نتحدث إليه ، لا عن أسباب إشهاره إسلامه ، ومتى وكيف ، بل عن نشاطه الحالي . قال يوسف إسلام إنه الآن يكرس جهوده لثلاثة أنواع من النشاط ، هي التعليم والدعوة والعون الإسلامي . وأضاف أن الدعوة تلتقي بشكل أو بآخر مع السياسة ، ومن هنا يأتي النشاط ذو الطابع السياسي مثل تقديم المعونة للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وأولئك الذين يعيشون في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ .

أرقام وحقائق :

يزيد عدد المسلمين في بريطانيا على مليوني نسمة ، وعلى الرغم من أن بعضهم ينزل بالرقم إلى ١,٥ مليون ونصف مليون ويصل به آخرون إلى ٣ ملايين ، فإن الأرجح أن يكون العدد مليونين . ويبدو أن من يعتمدون رقم ٣ ملايين يضيفون إلى المسلمين الحاصلين على الجنسية البريطانية الطلبة والموظفين وغيرهم من العاملين في بريطانيا كمغتربين ، ممن لم يحصلوا على الجنسية البريطانية .

وليست هناك إحصائية معتمدة لعدد المسلمين هناك بعد ، ولا توجد أي مواد مكتوبة وموثقة ، تتضمن المعلومات الأساسية عنهم ، كما أخبرني الدكتور علي الغامدي ، ولكن يقدر عدد سكان برمنغهام المسلمين بين ١٠٠ ـ ١٥٠ ألف نسمة . وفي برادفورد بين ٦٠ ـ ٨٠ ألف نسمة ، وفي منطقة شرق لندن وحدها هناك ٥٠ ألفا . ويوجد في برمنغهام ٦٠ مسجدا ومركزا إسلاميا ، وفي برادفورد ٣٨ مسجدا ومركزا . ويحضر الدروس الدينية في المركز الثقافي الإسلامي بلندن ١٥ ألف تلميذ ، ويحضر الاحتفال بعيد الفطر في المركز نفسه نحو ٦٠ ألف شخص .

وقبل أن أبدأ بالاستطلاع كنت أعرف أن المركز الثقافي الإسلامي بلندن هو الأكبر في بريطانيا ، وعندما ذهبت إلى برمنغهام قيل لي : إن مسجد برمنغهام هو المسجد المركزي ، وهو الأكبر . وفي ديوزبري قيل لي : إن المسجد هناك هو الأكبر في أوربا كلها . وكان علي بعد ذلك أن أستنتج أن مركز لندن الإسلامي هو الأكبر من حيث الأهمية والإمكانيات والدور الذي يلعبه ، وأن مركز برمنغهام الإسلامي أهم المراكز في الشمال ، بينما قاعة الصلاة بمسجد ديوزبري هي الكبرى . والله اعلم .

○ السيد لياقت حسين
أمين مجلس المساجد ببرادفورد

تذكروا الميتين

أثناء حديثي مع أحد سائقي سيارات الأجرة في مدينة برادفورد ، قال السائق المسلم : إنني الآن في نهاية حياتي العملية ، فأنا أشرف على الستين . وعندما يحين موعد تقاعدي فإنني سأعود الى باكستان ثانية ، حيث سأقضي هناك شيخوختي ، وعندما أموت أدفن هناك . وفي تحقيق واسع عن المسلمين في بريطانيا نشرته صحيفة الديلي ميل البريطانية ، في فبراير الماضي ، قال المحرر : إن تكلفة نقل الجثمان الى باكستان تعادل حوالي ٣ آلاف جنيه استرليني ، وأضاف المحرر : إنه مع ذلك يطلب كثير من المسلمين البريطانيين أن يدفنوا في أرض أوطانهم الأصلية ، وهي فكرة يعارضها مسلمون آخرون ، فبالنسبة لهم ، مادام هؤلاء اختاروا بمحض إرادتهم الجمع بين الهوية البريطانية ، والدين الإسلامي أصبحت بريطانيا هي وطنهم الذي يولدون فيه ، وفيه يعيشون ويموتون ويدفنون .

توجهنا الى مدينة سروكوود جنوبي لندن ، حيث تقوم المقبرة الإسلامية . ومقبرة بروكوود هي في الأساس مقبرة لقتلى الجيشين الأميركي والكندي في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولكن جزءا من المقبرة اقتطع ليكون مكانا يدفن فيه المسلمون . دخلنا البوابة التي لم تكن مقفلة على أي حال ، الى المقبرة التي شقتها طريق ترابية عريضة الى نصفين ، تركت مقبرة قتلى الحرب البريطانيين والأميركيين والكنديين معزولة عن مقابر المسلمين .

أتراك ، هنود ، باكستانيون ، وعرب من العراق ، واليمن ومصر ، وفلسطين ، وجدوا مكانا للراحة الأبدية في تلك البلاد .

القبور لها سمات الأحياء ، قبور بنيت فوقها القباب ، وقبور أحاطت بها جدران من الرخام ، كتبت عليه الآيات القرانية ، ومعلومات عن صاحب القبر ، وقبور أخرى من الحجارة ، وقبور غيرها غطتها الزهور ، فيما نما العشب على بعض القبور ، بحيث لم نعد نعرف إن كنا نسير فوق التراب أم فوق أديم أجساد إخوتنا الميتين ، الذين لم تبخل عليهم الأرض الغريبة بحفرة توارى فيها أجسادهم .

وعلى تلة ارتفعت بجانب الطريق المؤدي الى القسم الخاص بقتلى الحرب الأميركيين والكنديين ، انتصبت شاهدة حملت اسم الشهيد ناجي العلي ، رسام الكاريكاتير الفلسطيني ، وفي الطريق المقابل ، لفت نظري رسم لعلم أحمر وسيف ونجوم ، وعندما اقتربت منه قرأت على الشاهدة اسم زوجة الإمام يحيى حميد الدين ، إمام اليمن الأسبق .

عندما أذن الرحيل كانت مجموعات من الناس ، ارتدى معظمهم الملابس السوداء ، مازالوا ينظفون قبور أقاربهم ، ويضعون عليها الزهور ، ويسقون زهورا غيرها بالماء ، في لمسة وفاء إنسانية لا تشوبها شائبة .

○ الواجهة الجنوبية لمنزل من أعمال حسن فتحي

العمارة للفقراء

بقلم : الدكتور عبدالرحيم ابراهيم أحمد*

إذا كان قيام أي تجمع بشري يرتبط بالأرض الخصبة والماء العذب والمناخ المعتدل، فإن المأكل والمشرب والملبس والمسكن، ظلت عناصر أساسية وضرورة ملحة على مدار الساعة لاستمرار الإنسان وتكاثره وإنتاجه. ومن هنا كانت النظرية التي يعرضها هذا المقال

* مدرس تاريخ عمارة - كلية الفنون الجميلة - جامعة [illegible] - جمهورية مصر العربية

المسكن واحد من ضرورات الحياة ، وهو العامل الحاسم في تحديد مستوى المعيشة وكيفيتها . فلا عجب إذن أن تكون معظم أعمال المعماريين والفنانين والمسئولين عن الاسكان وجهودهم منصبة على الحلول المثالية ، بهدف الوصول إلى حل لمشكلة الاسكان ، وجعلها تتناسب مع الحالة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان نفسه ، مع عدم إغفال ظروف البيئة .

بين الأمس واليوم

تعددت النظريات الهندسية والمعمارية من أجل بناء مسكن رخيص للإنسان ، رخيص في تكاليفه المادية سواء في الخامات أو في استخدام الأيدي العاملة . وبعيد عن التكاليف الباهظة في إقامة العمائر الضخمة وطرق إنشائها وتزويقها . ونحن هنا نتكلم عن المسكن الرخيص للفقير ، فالغني لن يزعجه أي ارتفاع في التكاليف .

ومن خلال مقولة أن البيت يسكنه واحد ويبنيه عشرة ، فإن ما يثقل على الحكومات المختلفة في العصر الحديث هو كيفية إيواء الملايين من الأسر الفقيرة وخاصة في العالم الثالث .

ولعل أهم تجربة في هذا الشأن خرجت من فوق أرضنا العربية ، وبفكر عربي خالص ، وبتأثير من التراث العربي . وأعني بها تلك التجربة التي قدمها المهندس المعماري العالمي « حسن فتحي » .

وما أحوجنا في الوطن العربي إلى دراسة نظرية ذلك المهندس المصري المولد ، ليس من أجل الاستفادة منها فقط ، بل من أجل المحافظة على التراث الحضاري كقيمة ثقافية ، فالشارع العربي اليوم يختلف تماما عن شارع الأمس ، إذ يمتلىء اليوم ضجيجا وصخبا وصراخا وغبارا وزحاما وتلوثا. ومع هذا فقد تغيرت عمارتنا بشكل كبير متأثرة بنظريات معمارية غريبة عنا . فبالأمس كان الشارع العربي أقل ضجيجا وزحاما وتلوثا ، ومع

ذلك كان أسلافنا يفتحون غرف الدار عن صحن داخلي مكشوف، بعيدا عما كانوا يعدونه ضجيجا وتلوثا ، ناهيك عن الابتعاد عن نظرات العابرين والرغبة في ستر داخل البيت عن مشاغل البيئة .

أهم من ذلك كله هو « العمارة للفقراء » الذين يمثلون الغالبية العظمى من سكان العالم الثالث . ويعد « حسن فتحي » أحد الرواد الكبار والقلائل في العالم الذي اقترح ونفذ ما يمكّن الفقير من امتلاك مسكن صحي ملائم من خلال النظر إلى ظروف البيئة . وقد ذاعت نظريته وانتشرت ، وأخذ بها العديد من الدول من أجل حل مشكلة اسكان الفقراء . ومن خلال النظر إلى أفكاره يمكن أن نصنفّها على النحو التالي :

أولا : رفض الاستعارة

المقصود هنا ليس رفض الاستعارة فقط ، بل والتمسك بالعمارة التي تصوغها البيئة المحلية ، وهو يقصد بالاستعارة من جهة محددة هي أوربا . ويرى أن احترام البيئة أمر مهم . ويجب أن تكون العمارة متناسبة معها من حيث الاستخدام والذوق العام . ولذا فمن الواجب دراسة البيئة قبل البدء في التعمير .

ويقصد بالبيئة تلك الظروف المحيطة التي تؤثر في النمو والحياة . والبيئة التي تهمنا في هذا المجال يمكن تقسيمها إلى نوعين .

أ ـ البيئة من صنع الخالق العظيم ممثلة في الجبال والأودية والأنهار والبحيرات والمسالك والدروب . . الخ .

ب ـ البيئة الحضارية وهي التي يتدخل الإنسان في صنعها من حيث المنشآت والطرق الممهدة عبر البيئة التي من صنع الخالق سبحانه وتعالى ، وغير ذلك كثير .

وللبيئة دور مهم في عمليات التصميم ، إذ تجب مراعاة العوامل الجوية ومواد البناء المتوفرة ، ثم مراعاة خصائص الإنسان الذي سيعيش فيها من النواحي « الفسيولوجية والسيكولوجية » . ومن هنا كانت العمارة التي تصلح في المدن تختلف عنها في الواحات ، إذ لكل بيئة عمارة تناسبها وذلك اعتماداً على العوامل نفسها السابق ذكرها « الجو والبيئة الطبيعية » ، فهي التي توجد الفروق الأساسية في تشكيل حياة الإنسان . وإذا ما أدرك المعماريون هذا الفرق بين منطقة وأخرى ، فإن ذلك وبلا شك سوف يساعد على تنمية الشخصية في العمارة التي تعد من أهم أركان الثقافة .

ولا يقف الأمر عند المناخ الطبيعي وحده واتجاه الأشعة ، ومساقطها ، بل يعدوه إلى المنظر الطبيعي الذي يعد من العناصر المهمة في تحديد شكل العمارة التي كانت انعكاسا للبيئة ، مما دعا بعض المعماريين إلى إطلاق صفة الصدق في التكوينات المعمارية التي كانت نتيجة طبيعية لتفاعل الإنسان مع البيئة . وحيث إن البيئات تختلف الواحدة عن الأخرى فقد جاءت حصيلة هذه التفاعلات مختلفة من بلد إلى آخر ، مما جعل المعماريين يبحثون عن تصميمات تناسب كل بيئة تكون نابعة من وجدان تلك الجماعة دون ما تكلف ، حتى لو جاءت لنا بطرز معمارية متميزة محببة إلى نفوس أهلها ، والتي أصبحت سمة لهم ، وأصبح الطراز بمثابة الشعار لتلك الجماعات . على أن الشعور بالجمال في العمارة يعد أمرا نسبيا يختلف فيه الحكم من فرد إلى آخر ، ومع ذلك فإن الشيء الجميل يتطلب استيفاء عدة شروط حتى يكتسب هذه الصفة .

والمعنى الإجمالي عند « حسن فتحي » هو أن الجمال المعماري في المبنى ، إنما هو صفة تعبيرية تنتج التأثير بالشكل في الشعور ، بالتوافق بينه وبين القوى العاملة على تكوينه . ويمكن القول بأن الطبيعة لم تقصد خلق الجمال ، إنما الإنسان هو الذي يصف هذه الأشياء بتلك الصفة من واقع إحساسه بتوافق الشكل .

ثانيا : الاعتماد على الخامات المحلية

ينادي « حسن فتحي » بضرورة الاعتماد على الخامات والموارد من البيئة نفسها ، وفي تجربته في مصر كانت الحجارة والطين هما الأساس في تجربته ، وكذلك فإن عدم الإسراف يعود بفوائد كثيرة أهمها احترام الطبيعة من حيث الأحوال والأبعاد . وتتماشى مع المنظر المحيط بما فيه من منشآت ، بحيث تبدو العمارة في النهاية في ترابط عضوي يؤلف ثبتا واحدا ، لا اختلاف فيه ولا نشاز .

واستخدام المواد المحلية يحل بعض المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها العالم الثالث على وجه العموم ، وبعض من وطننا العربي على وجه الخصوص ، إضافة إلى أن الروح الفنية الأصيلة سوف تفرض نفسها على العمل المعماري بدون شك « عندئذ » .

والمتأمل لتلك النظرية عند « حسن فتحي » يجد أنها تتراوح بين زوايا ثلاث متساوية في مثلث واحد،عمادها الانسان ، والمعمار ، والفن . إذ لابد من المحافظة على توازنها كشرط أساسي لنجاح العمل العمراني ، الانسان بكل متطلباته الفطرية والنفسية والعصبية ، والمعمار بمتطلباته الإنشائية والهندسية والثقافية والحضارية ، والفن بكل متطلباته الجمالية والبصرية والتطبيقية .

ثالثا : التمسك بالبعد الحضاري

لابد من التمسك بالبعد الحضاري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة والمستمد من الطابع الفني والقومي الذي خلفته العصور السابقة ،

ولا شك أن مستحدثات العصر ليست هي كل شيء ، بل انها كثيرا ما تكون عاملا مساعدا على طمس جمال البيئة ، وخير الأمثلة الدالة على هذا الطمس هو استراحة الملك فاروق « آخر ملوك مصر » ، وفندق مينا هاوس « بمنطقة الهرم » حيث جاءت الإضافات عليهما خالية من اللمسات الجمالية والفنية ، الأمر الذي أدى إلى طمس كل معالم الجمال السابقة في العمارتين .
ومثال آخر هو عمارة الجدران الزجاجية التي هي أحدث النظم المعمارية المعاصرة،والتي تهدف إلى انفتاح المبنى على المنظر الخارجي مما دفع بالفراغ المحدود بالجدران للتسرب إلى الخارج مصطحبا معه العمارة كلها ،ولا ننسى أن العمارة هي الفراغ المحصور بين الجدران وليس الجدران نفسها ،من هنا ، أصبحت العمارة كشخص وجد نفسه عاريا في وسط البيئة .

« حسن فتحي » المعماري المفكر

إن « حسن فتحي » المعماري صاحب نظريات أصيلة في فن العمارة الريفية والصحراوية،فجعلها أقرب إلى البساطة والتلقائية ، ولكنه أخضعها لتقاليد العمارة الإسلامية بوجه عام . أما عن « ياغته المعمارية للمدينة ، فكانت تعتمد كليا على تقاليد وعظمة العمارة الإسلامية في الاستفادة من الخامات المحلية ، وفي تصميم السقوف على شكل قبو ، وبذلك امتزجت كل جهود الشد والانحناء والقص ، واقتصرت على جهود الضغط . والطوب الأخضر يتحملها بكل يسر ، وهي أساليب معمارية كانت مستخدمة في « النوبة » في مصر .

ولقد ثبت أن المواد الأولية المحلية هي أكثر المواد ملاءمة للبنيان من حيث التكاليف . وهذا بالضبط ما تحقق في قرية « القرنة » التي بناها بالبر الغربي لمدينة الأقصر بصعيد مصر . وقد جاءت القرية مؤكدة ذلك الطابع القومي في شخصيتها وبساطتها ، الأمر الذي نقل فكرتها ونظريتها وعمارتها من المحلية الى العالمية .الأمر الذي دفع باسم المعماري « حسن فتحي » إلى العالمية باعتباره خبيرا في مشروعات الإسكان الريفي ، وتبنت « هيئة اليونسكو » أبحاثه وتم تنفيذ العديد منها في أمريكا وآسيا وأفريقيا . أما لماذا لم ينجح

○ المعماري الفنان حسن فتحي ولحظة تأمل

مشروع قرية « القرنة » ، فتلك قصة أخرى ، إذ أن سكان « القرنة » كان لهم رأي آخر . . فإفشالها يعود إلى ذلك الارتباط بين حراس الآثار الفرعونية و « المافيا » العاملة في تهريبها ـ إذ أن سكان القرنة وجدوا أن بيوتهم تقوم فوق المقابر القديمة فأخذوا يكشفونها قبرا بعد آخر ويبيعون ما يعثرون عليه ، ولما جاءت مصلحة الآثار وكلفت « حسن فتحي » ببناء « القرنة » ، كان من الطبيعي أن يرفض السكان ترك الكنز الذي هو أسفل بيوتهم القديمة . ولقد بنى بيوت القرية من الحجر والطمي التي كانت أرخص المواد وأفضلها لسكنى المناطق الحارة ، أما عن التكاليف فهي لا تكاد تذكر إذا ما قيست بأسعار البناء في عام ١٩٤٦ تاريخ البدء في بناء القرنة أو عام ١٩٥٣ تاريخ الانتهاء منها .

نظرية اسكان الفقراء كتجربة سجلها في مؤلفه العلمي الكبير باسم « العمارة للفقراء » الذي نشره باللغة الإنجليزية لعدم وجود ناشر مغامر ينشره بالعربية ، وقد ترجم هذا المؤلف لخمس لغات غير الانجليزية ، هذا بخلاف ٢٨ بحثا وكتابا آخرين .

ولم تكن « القرنة » هي التجربة الوحيدة . فلقد كان تصميم المباني الريفية عام ١٩٣٧ بالوجه البحري بمصر هو أول التصاميم ، ثم استخدم القباب فوق المباني الطينية في قرية « بهتيم » وفي الواحات المصرية وعلى السواحل . وكانت له تجربة فريدة أيضا في واحة باريس المصرية في الصحراء الغربية .

ولقد تنبهت الدول الأخرى لنظرية العمارة للفقراء ، فاستعانت به في التخطيط والإشراف لإقامة عمائر الفقراء في بعض الأقطار العربية والافريقية والآسيوية ، بل في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إذ أقام بها قرية « دار السلام » في « نيومكسيكو » بتكاليف لم تتجاوز ثلث تكاليفها الحقيقية إضافة إلى المحافظة على الطراز .

المعارضة القوية

ولقد واجهت نظريته معارضة شديدة من أصحاب المصالح ، وهؤلاء الذين تتأثر أعمالهم مباشرة نتيجة الاستغناء عن الخامات المستوردة أو المقاولين وأصحاب الأعمال . كلهم تحالفوا ضده في وطنه مما أكسبهم نصرا مؤقتا . على الرغم من أنه كان يكسب الجولة الأولى دائما . فكانت المؤامرات والتحالفات تتقدم لتضغط ضده وتنتصر في النهاية . ومن هنا انتقل بنظريته للغرب وللشرق ونجح هو ونظريته نجاحا باهرا .

إن العمارة للفقراء لن تنسى ذلك المناضل من أجل انتصارها ، والذي وهب نفسه لتلك النظرية في طول العالم وعرضه.ومازال ـ على الرغم من أن المرض والشيخوخة أقعداه ـ يعطي لتلاميذه فكرة عن طرق ووسائل البناء للفقراء . □

د. لطيفة الزيات ● أمينة النقاش

● كان اشتغال النساء بالسياسة نادرا في زماني.

● غلبت الجانب العقلي في حياتي سنين طويلة على الجانب الوجداني.

● أرى أنه ليست هنالك مشكلة في أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها ندا للرجل.

● شعار مساواة الرجل بالمرأة يحتاج إلى مجهود النساء لإثبات الأهلية

مئات الآلاف من الفتيات اللاتي يعملن ويتعلمن ويكتبن في الصحف وينشرن في دور القضاء وقاعات المحاكم ، بل ويحملن حقائب وزارية ، لا يتصورن كيف كان وضع المرأة في الوطن العربي منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت نسبة الأمية وسط النساء أربعة أضعاف نسبتها بين الرجال ، وكانت المرأة محرومة من العمل والتعلم والتفكير ، ومحظور عليها اختيار أي شيء ابتداء من لون ملابسها حتى شخص زوجها . ومئات الآلاف من النساء لا يذكرن الرائدات اللواتي بدأن التمرد وبدأن الدق على جدران « الشرنقة » داعيات لنيل المرأة حقوقها الانسانية والطبيعية ، ووقف التمييز العنصري الرجولي ضدها .

وهذه محاولة للاقتراب من العالم الخاص والعام لواحدة من رائدات الحركة الوطنية المصرية ، والحركة النسائية بوجه خاص هي الدكتورة لطيفة الزيات ، استاذ الأدب الانجليزي بكلية البنات جامعة عين شمس ، والناقدة ، والروائية والصحفية والمناضلة من أجل حرية الوطن وحرية المرأة .

الحوار الذي أجرته معها الزميلة أمينة النقاش محاولة لاستكشاف العوامل الذاتية والعامة التي دفعت بها الى هذا الطريق الشاق والصعب ، وللتعرف على الجهد الكبير الذي بذلته لكي تثبت أهليتها ، وبالتالي أهلية المرأة لأن تحصل على حقوقها .

سألت الدكتورة لطيفة الزيات :

* في الظروف التي أحاطت بنشأتك ، هل كان هناك « شرنقة » أسرية . حولك ، أم اجتماعية ، أم الاثنتان معاً ؟

- بالقطع ، شأني في ذلك شأن أي فتاة مصرية أو عربية . فمنذ أن بلغت من العمر عشر سنوات ، بدأ الحجر على حركتي يظهر بشكل واضح ، وأخذ هذا الحجر شكل منعي من الحركة ، وكان الطريق الوحيد المسموح لي بقطعه هو الطريق من المنزل الى المدرسة وبالعكس . الشرنقة ليست تقييداً لحركة الدخول والخروج فحسب ، بل أشد وطأة من ذلك . فالشرنقة هي السعي الدؤوب لصب الفتاة في قالب معين هو القالب المرضي عنه والمرغوب فيه .

وبالنسبة لي فقد كنت طفلة شديدة الحيوية ، ومن المدهش أن هذه الحيوية ، كانت مصدر إزعاج دائم لوالدي الذي كان يرى في الهدوء والصمت والرقة ، مرادفاً للفتاة المثالية . وهكذا تولت والدتي مهمة ترويضي وصبي في القالب الاجتماعي المقبول والمرضي عنه بالنسبة للمرأة . وأخذت عملية الترويض شكلاً ملحوظاً في كل كبيرة وصغيرة من حياتي . فطريقتي في الجلوس لا تعجب والدتي ، وطريقة كلامي لا تروقها ، وصمتي في حضور الضيوف لا يرضيها ، وكلامي معهم خروج عن السلوك المألوف ، وارتفاع صوتي « قلة أدب » وانخفاضه غير مرغوب فيه وهكذا .

واستهدفت عمليات الترويض - التي أعتقد أن كل فتاة عربية تمر بها في عمر الصبا - صبّي في القالب المطلوب اجتماعياً ، ودفعي لاهتمامات محددة غير مسموح لي بتجاوزها :

الاهتمام بزينتي ، وإجادة العزف على البيانو ، والرسم في أحيان أخرى .

الخروج من الشرنقة

* وكيف خرجت من هذه « الشرنقة » الى عتبات الدراسة ؟

ـ قد يدهشك القول أن الحظ لعب دوراً مهماً في هذه الزاوية من حياتي . فبعد حصولي على الابتدائية أراد والدي أن ألزم البيت ، ورفض فكرة دراساتي ، ولكن من حسن حظي أن شقيقيّ عبد الفتاح الزيات ومحمد عبد السلام الزيات ـ وكانا يكبرانني في السن ـ رفضا ذلك ، ولعبا دوراً في اقناع والدي . وكان محمد هو الذي سارع بنفسه الى تقديم أوراقي في المدرسة الثانوية ، وكانت هي المرحلة التالية للابتدائية آنذاك ، وأنا أدين له بالكثير .

اختيار أم مصادفة

* لم يكن التعليم اذن قرارك بل قرار آخرين ؟

ـ بل هو قراري في الأساس ، وآزرني في مواصلته آخرون لسبب بسيط هو أن المدرسة بالنسبة لي لم تكن مكاناً للتعلم فحسب ، بل مهرباً من الشرنقة الأسرية التي تسعى دوماً لتقييد حركتي ، وميداناً لانطلاقي التلقائي ، ومجالاً لكشف قدرتي في التعبير الحر عن نفسي .

* هل كانت دراستك للأدب في الجامعة اختيارا أم محض مصادفة ؟

ـ بل هي اختياري . والدليل على صحة ذلك أنني في الجامعة التحقت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وكان هدفي الواضح من الالتحاق بهذا القسم هو أن أتعلم الكتابة الإبداعية ، ولما كان يغلب على الدراسة في هذا القسم آنذاك قواعد النحو والمحسنات اللغوية لم أجد فيه ضالتي . وفي العام الثاني من دراستي في قسم اللغة العربية حولت أوراقي منه الى قسم الأدب الانجليزي ، ولقد دفعني إلى اتخاذ هذا القرار ـ فضلاً عن رغبتي في تعلم كيف أكتب ابداعاً ـ تشجيع د. لويس عوض الذي كان يدرس الأدب الانجليزي في السنة الأولى بالجامعة . فقد استبشر بي خيراً واقترح علي الانتقال إلى قسم اللغة الانجليزية ، حيث مجال الدراسات الأدبية أكثر اتساعاً . كنت فتاة خجولة الى حد كبير حين دخلت الجامعة ، ولكن في السنة الثانية من دراستي حدث تغير كبير حيث بدأت ممارسة العمل السياسي الوطني .

* وما هو التغير الذي طرأ عليك ؟

ـ تغير لا يصدق . فقد انتقلت من فتاة تخجل ـ إذا دخلت قاعة مكتبة الجامعة ـ من أنظار روادها ، الى فتاة تخطب في الجماهير الحاشدة .

فالجامعة كانت المجال الذي فجر كل قدراتي ، ساعد على ذلك أن الفترة التي التحقت فيها بالجامعة كانت فترة من أعظم الفترات في تاريخ مصر ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت كل حركات التحرر الوطني في العالم تتطلع لنيل استقلالها ، وكانت الفاشية قد اندحرت ، وأصبح يسود العالم مزج من التفاؤل والأمل بالحاضر وبالمستقبل .

* هل مجرد التحاقك بالجامعة هو الذي أحدث هذا الانقلاب ؟

ـ بالقطع لا . فمن المؤكد أنني لو التحقت بالجامعة ، واكتفيت بكوني طالبة دون ممارسة العمل السياسي لبقيت كما كنت ، فتاة منغلقة على نفسها خجولة تحمل جسدها الممتلىء كما لو كانت تحمل وزرا ، وكان العمل السياسي الجماهيري هو الذي حررني من مخاوفي ومن خجلي ومن حيائي ، وشكل نقلة هامة في حياتي ودفعني وعيري وأعاد صناعتي ، وخلق مني إنسانة جديدة

لا تمرد ولا استهواء

* ما هي الدوافع الحقيقية لقرار اشتغالك بالعمل العام . هل كانت تمرداً أم رغبة في كسر المألوف ؟

ـ لا هذا ولا ذاك. يؤكد ذلك تتبع الظروف التي نشأت فيها فقد ولدت عام ١٩٢٤ في أعقاب اندلاع ثورة عام ١٩١٩ ، وكبرت والناس من حولي يحتفلون بذكرى قائد الثورة سعد زغلول ، ومارست لعبة « نط الحبل » وأنا أسمع الصبية تغني :

« يا مصر ما تخافيشي ، احنا ولاد الكشافة ، وأبونا سعد زغلول وأمنا صفصف هانم » مشيرين بذلك الى السيدة صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول ، التي شاركته كفاحه ، وكانت تتزعم بدورها حركة الاحتجاج على الاحتلال البريطاني

ويضاف الى ذلك أنني غلّبت لسنوات طويلة في حياتي الجانب العقلي على الجانب الوجداني ، وأهدرت سنين عديدة وأنا أكبل نفسي وجدانياً ، فكان من الطبيعي بعد ذلك أن يأتي وقت في حياتي أُغلِّبُ فيه الجانب الوجداني كاملاً على حساب الجانب العقلاني ، فأترك الاهتمام العام وأنصرف بكليتي لكوني امرأة .

● هل كان الخطأ في الحالة الأولى أم في الثانية ؟

ـ في الحالتين . فمن وجهة نظري لا بد أن يكون هناك توازن مستمر بين الجانب العقلاني والوجداني للمرأة ، لأن ترجيح كفة إحداهما على الأخرى يفسح المجال لأخطاء كثيرة للانسان بشكل عام ، رجلاً كان أم امرأة .

● هل تعتقدين أن المرأة حيث هي امرأة مأساة ؟

ـ لا شك أن أعباء كثيرة تقع على عاتق المرأة في الحياة ، حيث يطلب منها القيام بأدوار عدة لا تطلب من الرجال ، فعليها أن تكون أمّاً وزوجة ناجحة في إدارة بيتها ، وامرأة فاضلة تغفر كل الأخطاء ، ونتيجة للظروف التي تنشأ فيها النساء في مجتمعنا فإن قيوداً غير مرئية تفرض عليهن ، أخطرها أن يبقى الرجل هو البند الأول في حياة المرأة ، في حين تكون هي البند الثاني في حياة الرجل . والنتيجة حين تنكسر المرأة عاطفياً تنكسر كلياً ، بينما إذا تعرض الرجل لنكسات عاطفية يستطيع أن يستكمل مشواره على اعتبار أن العمل هو القيمة الأولى في حياته .

وإذا كان التراث الطويل من التنشئة الخاطئة للمرأة هو المسئول عن ذلك ، فلا شك أن المرأة نفسها تتحمل جزءاً من المسئولية عن تلك الأوضاع .

● هذا عن الجانب العام ، فماذا عن الجانب الشخصي ؟

ـ أنا شخصياً لا أعتقد أن وجودي كامرأة يعد مأساة فأنا متصالحة تماماً مع حقيقة أنني امرأة ، ولم أقاس كثيراً من تلك الحقيقة إلا في الحدود التي ذكرتها ، بل إني أحب كوني امرأة . وليس لدي هذا الشعور الدائم المقلق والموجود لدى الكثيرات اللواتي يبدين وكأنهن يردن إثبات شيء ما . فليس لدي حاجة لمثل تلك المشاعر .

ففي أعماقي أشعر أن عقلي لا يقل عن عقل أي رجل ، وأن تفكيري لا يقل اتزاناً عن تفكيره ، كما أن قدراتي العقلية لا تقل عن قدرات كثير من الرجال وربما تفوق بعضهم . وأعتقد أن هذا يرجع لعملي السياسي الجماهيري في الجامعة الذي منحني الاحساس بالندية مع أقراني من الرجال .

● هل أفهم من هذا أنك ترين أن المرأة لكي تحقق وجودها لابدّ أن تزاول العمل السياسي ؟

ـ لا ليس كذلك . فالأساس أن تفعل المرأة شيئاً خارج ذاتها وخارج جدران منزلها ، وأن يكون لها دور في مجتمعها أوسع من دورها في نطاق الأسرة ، حتى لو عن طريق الاهتمام بالجمعيات الخيرية . بل إن الاهتمام بقضايا الوطن حتى لو لم يتبعه أي فعل ، هو دور ولون من ألوان التحقق أيضاً . وتلك كانت الفكرة الرئيسية لروايتي « الباب المفتوح » والقائمة على أن الانسان لا يعثر على ذاته الحقيقية إلا إذا فقدها أولاً في شيء أكبر من تلك الذات وهو الوطن .

لست عدوة للرجـــال

● كيف ترين الأجيال الجديدة من الفتيات التي تسعى لكسر القيود حول حركتها . . . هل تشجعينها أم ترثين لحالها ؟

ـ الحقيقة أنني أؤمن أنه ليس هناك جهد إلاّ وله ثماره . فكل جيل ينهض ويتقدم على ما حققه الجيل الذي سبقه . والآن حين أنظر حولي أرى أنه ليست هناك مشكلة أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها نداً للرجل ، وأن تعتقد أنها في أعماقها كذلك . ولم يكن هذا في جيلي شائعاً ، ولكنه أصبح كذلك الآن بحكم الحركة والمقاومة التي خاضتها أجيال سابقة ، والتضحيات التي قدمتها على هذا الطريق أجيال الأمس فلقد أتاحت لامرأة اليوم أن تتمتع بنديّة للرجال لم تكن تتمتع بها من قبل .

● هل تعتقدين أن شعار مساواة الرجل بالمرأة ، يحتاج إلى جهد من النساء لإثبات الأهلية أكثر من مجرد طرحه كشعار ؟

ـ لا شك في ذلك . فالمرأة لكي تثبت أنها جديرة

بالمساواة يجب أن تعمل بقدر ما يعمل الرجل ، وأن تسعى للتحقيق بمقدار ما يسعى هو ، وأن تخلص لعملها بقدر ما يخلص هو لعمله .

ولكن هذا لا ينفي ـ بالنسبة لي ـ أنني أجد قضية حرية المرأة قضية مجتمعية في المقام الأول ، ولن تحل مشاكل المرأة إلا في سياق حل مشاكل المجتمع ككل . أمة لا يتمتع فيها الرجال بالحرية من الغرابة بمكان أن نرتب أسبقية لحرية المرأة على حرية الرجل .

* ما مدى مسئولية المرأة عن هذا الانبعاث الرهيب لدعاوى عودتها للمنزل وحرمانها من العمل ؟

ـ هي مسئولة في حالة استجابتها لتلك الدعاوى ، فلا يهمني أن يصرخ أحد في هذا الاتجاه أو ذاك مطالباً بعودتي للمنزل ، طالما أرفض هذه العودة ، وطالما لم يصل هو الى الحكم ليجبرني على ذلك . والمشكلة هنا تكمن في استجابة المرأة لهذه الدعوات ، ومن المؤسف أن يكون لاستجابة النساء جذور اقتصادية هامة تتمثل في أزمة المواصلات وقلة دور الحضانة وارتفاع أسعارها . مما يجعل استجابة المرأة لترك العمل ممكنة .

وعلى العموم فالضرر الذي يترتب على عودة المرأة العاملة للمنزل هو ضرر محصور في النساء العاملات والفلاحات وصغار الموظفات ، ليس اختياراً أو ترفاً ولكنه احتياج اقتصادي حقيقي . ليس هذا فحسب ، بل إن الظروف الاقتصادية القاسية لترفع الى ساحة العمل بعض نساء الطبقة الوسطى ، ممن لم يكن من المتصور أن يعملن ليضمن دخلاً إضافياً للأسرة .

* وما هو تفسيرك لبروز هذه الظاهرة ؟

ـ الانبعاث الرجعي لأفكار عودة المرأة للمنزل مرتبط بتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فاذا ما حلت تلك الأزمات اختفت هذه الأفكار . وفي مصر ارتبطت الظروف المناوئة لعمل المرأة باقرار سياسة الانفتاح الاقتصادي التي كان من بين نتائجها إحداث فوارق شاسعة في الدخول بين المواطنين ، ومعاناتهم الدائمة من حالات الغلاء المتصاعدة ، وتدني قيمة العمل واحتقارها ، والإعلاء من الثراء والاقتناء باعتبارهما القيمة الوحيدة المعترف بها ، بعد أن تراجعت النظرة الى العمل باعتباره قيمة انسانية راقية . وفي جيلي كان الشائع بين الفتيات أن الزواج لا بد أن يكون قائماً على الحب ، وفي هذا الجيل أصبحت الثروة والقدرة المالية هي الشرط الأول للزواج ، فمعظم الفتيات يحلمن بزوج ثري ينفق عليهن دون حاجة إلى عملهن ! .

الخروج عن المألـــوف

* لماذا اقتصر انتاجك الابداعي على رواية « الباب المفتوح » والمجموعة القصصية « الشيخوخة » وقصص أخرى ؟

ـ لأنني ببساطة لست كاتبة محترفة ، وعندما يكون لدي شيء جديد أريد أن أوصله للقارىء آنذاك أكتب . فالكتابة بالنسبة لي هي عملية تواصل ومحاولة للوصول الى الآخرين ، وكسر العزلة والشعور بالانتماء . فحين يستجيب القراء لما أكتب أشعر أني انتميت من جديد ، ولم أعد وحدي .

* هل كانت روايتك « الباب المفتوح » ، كما كانت رحلتك في الحياة ، خروجاً على المألوف ؟

ـ نعم كانت كذلك . فقد وصفها النقاد بأنها أول رواية طويلة تكتب في مصر ، كما وصفوها بأنها من أدب الواقعية الاشتراكية . وكانت خروجاً على المألوف لأنها لم تكن مجرد رواية نسائية تقليدية تصرخ فيها المرأة مطالبة بحريتها ، بل تربط بين ما هو خاص وما هو عام ، بين قضايا الفرد والمجتمع .

* وأين ليلى بطلة « الباب المفتوح » من الدكتورة لطيفة الزيات ؟

ـ ليلى ليست أنا ، بل إني تعمدت أن أجعل منها كل فتاة عادية ، وعبرها نقلت الرسالة التي احتوتها الرواية ، وهي أن الفناء في الوطن هو أرقى أنواع التحقق الانساني . □

التجليات (٣ أجزاء)

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

كثيرة جدا هي القضايا والتساؤلات التي يثيرها كتاب « التجليات » للروائي جمال الغيطاني !

من أهمها :

إلى أي جنس أدبي ينتمي هذا الكتاب ؟ هل هو سيرة ذاتية ، أم رواية ، أم هو كتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية والرواية في وقت معا ؟

لماذا آثر الكاتب صيغة « التجليات » ، ليكون كل تجل منها بمثابة الوحدة المعمارية التي يتشكل من تكويناتها المتنوعة بناء هذا الكتاب ؟

أكان هذا الاختيار مجرد جزء من بحث الكاتب الدائب عن أساليب فنية ، تستلهم تراثنا الروحي والفكري والفني ، وتؤكد على خصوصيتنا الثقافية ؟

أم أن « التجليات » كانت هي الصيغة الأقرب والأصدق للتجربة الروحية والفكرية الأساسية لبطل السيرة الذاتية في توقه الحارق إلى الفكاك من أسر النسبي والاقتراب من المطلق ! في سفره الدائم من الجزئيات إلى الكليات ، يطلب « لحظة تبقى ولا تفنى » ومن أعماقه تنطلق تلك الصرخة : « ما من يقين باق »!

هل كانت « التجليات » هي الصيغة الفريدة من خلال « الأسفار ، والمواقف والرؤى والمقامات والأحوال » ، لجمع شتات ذلك النثار البالغ الدقة والرهافة من تفاصيل الحياة اليومية ، ومن أحداث التاريخ الكبرى ، ومن دفتر أحوال الواقع والخيال ، مثل (ظهور عبدالناصر بعد موته في ميدان الدقي ، ومشاركته مع الأب قبل مئات الأعوام في موقعة كربلاء إلى جوار سيد الشهداء ، ومثل نظرة غروبية في عين الأم ، وتنهيدة خافتة تنفلت من صدر أب مثقل بما لا يمكن البوح به) ، بحيث تكتسب هذه التفاصيل من تجمعها في هذه السياقات الجديدة عبر « الأسفار والأحوال والمقامات » دلالات أكثر غنى ، وتخلق تجانسا وجمالا فنيا ، لم تكن تملكه وهي مجرد شذرات في فضاء الذاكرة ، تائهة في أبعاد الزمان والمكان ، يستحيل نظمها في تتابع زمني أو مكاني !؟

هل كانت التجليات هي أداة الكاتب التي لا أداة سواها ، ليتيح لقارئه أن يرى كيف أن معاناة أب بسيط ، قادم من أعماق الصعيد ، في حياته اليومية في مدينة القاهرة عصرنا هذا ، وتضحياته لينقذ أبناءه من الجحيم الذي يحترق فيه كل يوم ، هي الوجه الآخر المألوف والواقعي والجزئي لمعاناة شخصيات عظيمة مضمخة بعبق التاريخ البعيد والقريب ، تحتل مكانة سامقة في سلم البطولة والتضحية ، كشخصية سيد الشهداء الإمام الحسين ؟! فنرى في إطار واحد صورة المثال والواقع كوجهين لعملة واحدة !

هل كانت التجليات ، وهي الطريق الذي اختاره البطل للبحث في نشأته الأولى والثانية ، ليعرف ما لم يكن يعرف ؟ هل كانت هذه المعرفة وسبل تحصيلها ليكتب سيرته الذاتية هي سبيله الذي لا سبيل سواه ، ليعرف طريق السفر من النسبي للمطلق ، من المحدود إلى اللامحدود ، فيقع في المحظور ، ويجتز دليله في السفر « ابن عربي » عنقه ، وتنقسم ذاته حين يصطدم بالحدود القصوى لقدرته على أن يعرف ، فيعود جريحا ومثخنا ، لينجح بعد عودته إلى العالم الأرضي في أن يعقد صلحا داخل ذاته بين المحدود واللامحدود ، تسترد ذاته من خلاله وحدتها بقبول التناقض والتعايش معه في نهاية الجزء الثالث من « التجليات » ، ويكون بذلك قد ألغى في عمله بعض الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية التي تركز غالبا على مسيرة حياة إنسان ، وبين الرواية التي تعنى غالبا بما يحدث من تطور أو تغير في حياة إنسان ، عبر بيئة اجتماعية وثقافية في زمان ومكان محدودين ؟!

وإذا كان « التجلي » هو الوحدة المعمارية في هذا الكتاب ، فكيف صمم الكاتب « تجليات » الجزء الأول والثاني والثالث ، بما يحقق التجانس داخل الجزء الواحد ، ثم التجانس بين كل الأجزاء ؟ وكيف لعب تصميم البناء في هذه الرواية دوره في تحقيق الوظائف الفنية والفكرية للتجليات كما ألمحنا إلى بعضها في هذه المجموعة من التساؤلات التي بدأنا بها هذا المقال ؟

بين السيرة والرواية

إذا كان الكاتب قد آثر أن يخلص من حيرة تصنيف كتابه ، فاكتفى بأن يسميه كتاب « التجليات » ، فقد لا يملك من يكتب عن التجليات مثل هذا الترف ، والأصعب أنه لا يملك بالمقابل تصنيفا سهلا وجاهزاً ، فالكتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية أهمها ، فيه تلك المتابعة الأمينة من خلال رؤية الراوي لجوانب من حياة بطل السيرة ، تبدأ رحلتها حتى قبل ميلاده ، وتمضي معه إلى ما يبدو أنه يعيشه في الجزء الثالث من مرحلة تصالح مع ذاته ، ولكن إذا كانت حياة الكاتب تمثل المجرى الرئيسي في تلك المسيرة ، وإذا كانت أزمته الروحية التي قادت رحلته من النسبي إلى المطلق ، تمثل القوة

الحواس وقدرة العقل البشري المحدود بحدودها ، تصبح هذه التجليات طريقة البطل « الراوي » لمغالبة أزمته النفسية ، لاستعادة الأب الذي يتهدد النسيان البشري ملامحه في ذاكرة الابن ، وربما يتهدد تاريخه أيضا ، ولكننا مع بداية رحلة البحث عن الأب ، نجد أن الأزمة النفسية التي ظهرت في صورة شعور عميق بالذنب ، ورغبة في استعادة وجه الأب الذي يتهدده النسيان ، تكشف عن أبعادها الروحية والوجودية في موقف الإنسان أمام لغز الزمن والتغير . . !

في بداية التجليات تقول له رئيسة الديوان الطاهرة :

- ماذا يحيرك ؟
- تبدل الأحوال !
- ثم ماذا ؟
- تحيرني الأشياء في تفرقها وتجمعها ، في اختلافها واتفاقها ، الطاعة والعصيان ، الحياة والموت ، الوصول والفوت ، البداية والنهاية ، الظاهر والباطن !».

وهكذا تصبح رحلة البحث عن ملامح الأب التي توشك أن تضيع ، البحث عن جوانب مجهولة أو ظاهرة من حياته ، هي التي تضع أيدينا على سر ذلك الشعور العميق بالذنب الذي تبدأ منه الرحلة ، إن هذه الرحلة تكشف عن عمق المعاناة التي عاشها هذا الأب ، لكي يصل ابنه إلى ما وصل إليه ، وقصة هذه المعاناة كما عاشها الأب ، وكما عايشها الابن في طفولته ، هي التي تقود رحلة البطل خلال تجلياته إلى استدعاء معاناة كل الآباء الروحيين له ، معاناة سيد الشهداء الإمام الحسين في كربلاء ، ومعاناة جمال عبدالناصر بعد أن يتم القبض عليه إثر ظهوره المفاجيء في ميدان الدقي بعد أعوام من وفاته ، ومعاناة رفاق طريقه ابراهيم الرفاعي ومازن أبو غزالة !!

ومع سقوط حدود الزمان والمكان ، حيث تمتزج تفاصيل المعاناة في الماضي البعيد والقريب ، بتفاصيل في الحاضر ، عبر صيغة التجليات ، يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المعاناة واحدة ، وأن الشجاعة التي يحتاجها العدل لكي يظهر واحدة ، وأن ثمن العدل فادح في كل العصور ، ويكتشف الراوي ونكتشف معه أن قانون الزمن ، قانون التحول والتغير ، ينال طلاب العدل وصناع الظلم جميعا ، وتصبح الرغبة في إيقاف الزمن ، لتدارك قصور أو تقصير بشري رغبة في أن ندرك لغز التغير في الزمن !

لغز الوجود ، وهكذا تسفر الأزمة النفسية في بداية التجليات عن أزمة روحية ووجودية كبيرة ، وتصبح رحلات « الأسفار والرؤى والمواقف والمقامات والأحوال » هي طريقة الراوي ليكتنه أسرار الطريق ، من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي إلى المطلق ، يقول الراوي

« عليّ إدراك ما بين الظل والأصل ، التشبث بما يفلت وينأى دائما ، وتعجز القدرة الإنسانية عن إدراكه أو اللحاق به ».

وعبر رحلة التجليات يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المطلق يتجلى في الجزئي ، بقدر ما يكون الجزئي طريقنا إلى المطلق . يقول الراوي لدليله (ص ٢٢١ من الجزء الثالث) :
« أصلي أدرك جوهر الخفي الذي لا يرى ، من يبدلنا دون أن ندري ، أدرك أصلي (يقصد ذاته في مرحلة من التجليات) أنه محيط بنا ، متغلغل فينا تغلغل طعم الثمرة في الثمرة ، فإذا توجه النظر فإليه فإن تم السمع فمنه . . ».

في (ص ٢٨٢) يقول الدليل للراوي وهو يتركه :

« منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك ، فمنذ أن تمت المصالحة مع ذاتك لم يعد بك من حاجة إلى دليل . . ».

وهكذا تصبح عشرات التفاصيل التي تقدم

لنا جوانب من مسيرة حياة الراوي بكل أبعادها تجسيدا مستمرا لحيرته الإنسانية مع التحول والتبدل ، وتعبيرا عن مراحل حواره العميق ، وهو النسبي مع المطلق !!

التجليات كتقنية

قد يلاحظ القارىء أن بناء هذه السيرة الروائية يقوم على حبل مجدول من تقاطع مستمر لرحلتين ، رحلة يمكن أن نقول إنها رحلة تاريخية هي الجزء الذي تعرضت له السيرة من حياة الراوي ، والكاتب لا يقدم هذا الجزء وفق تسلسله الزمني أو المكاني ، ولكنه يلتقط من نثار أحداثه ومواقفه وصوره وكلماته ، ما يناسب كل وحدة من وحدات التجليات : الأسفار والمواقف والرؤى والمقامات والحالات . . .) .

والرحلة الثانية رحلة معرفية ـ إذا صح التعبير ـ تعتمد الحدس والواقع والخيال جميعا ، وهي تنطلق من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي في اتجاه المطلق ، وتتخذ من نثار الأحداث والمواقف والصور والكلمات والروائح والأصوات كما تجمعت في كل وحدة من وحدات التجليات (الأسفار والمقامات والحالات) . . الخ .

تتخذ منها نقطة انطلاقها من النسبي إلى المطلق . . !

ومن خلال تقاطع الرحلتين يصبح التاريخ أداة للمعرفة ، كما يصبح هذا النوع من المعرفة مضيئا لتاريخ إنسان وتاريخ مجتمع ، والآن كيف قامت التجليات بدورها ووظائفها من خلال هذا البناء ؟؟

التجليات : وحدات جديدة . . دلالات متجددة :

في الجزء الأول من التجليات ، وعبر مواقف « التأهب » و « الظمأ » و « الحنين » ، و « الندم » ، و « الشدة » . . الخ ، يمزج الكاتب عبر كل تجل من « تجليات » الراوي بين صور ولحظات وأحداث يختارها من نشأة الأب في قرية « جهينة » في الصعيد ، وكيف سافر إلى القاهرة هربا بحياته من محاولات عمه أن يقتله بعد أن قتل أمه ليرث قطعة أرض وبضع نخلات كانت لها .

ومن معاناة هذا الأب في مدينة القاهرة وتقلبه ـ وهو الذي لا يعرف كيف يقرأ عنوانا ـ بين مهن قاسية ، حمال ، خباز ، سقاء . . الخ .

وبين صور ولحظات وأحداث من خروج سيد الشهداء الإمام الحسين من مكة إلى كربلاء تلبية لنداء الحق ونداء أنصاره ثم حصاره فيها من جيش يزيد .

وصور ولحظات مما حدث لعبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، وإلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، وصور مما حدث للراوي في عصر عبدالناصر من اعتقال وتحقيق وسجن . . !

إن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح لهذا المزيج الحي من الصور والأحداث أن تتدفق في كل موقف بما يناسب وحدة هذا الموقف ، ففي موقف « الظمأ » نجد الأب الذي كان يعمل سقاء في مدينة القاهرة يملأ قربته من نهر بعيد ، ليخترق بها الحصار المضروب حول سيد الشهداء في كربلاء ، ليقدم للمحاصرين الظمأى جرعة ماء ، إن صيغة التجليات هي وحدها التي تجعل القارىء يشعر بأن معاناة إنسان بسيط في حياته اليومية ، وما يقع عليه من ظلم قد لا نراه من طول ما ألفناه ، هذه المعاناة هي التي كانت تقود رحلة سيد الشهداء إلى كربلاء !

كما أن صيغة التجليات هي التي تجعل الراوي خلال تجليه في هذا الموقف يقول متحدثا عن الظمأ وهو في رحلة نموه الذاتي من النسبي إلى المطلق :

« إن الظمأ نوعان ، نوع حسي ونوع معنوي ، وان هذا الأخير غير متناه ، فقد يكون إلى الرمن الذي ليس في المتناول ، أو إلى رائحة

عبرت حواسنا في زمن قصي ، وقد يكون الظمأ لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض . . ».

كما أن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح للقاريء في موقف « الندم » أن يعيش بعمق ندم الراوي ، لأنه لم يذهب لزيارة أبيه في مقر عمله في آخر مرة كان يمكنه أن يزوره فيها هناك ، حين تمتزج هذه الخبرة بندم أنصار الإمام الحسين بعد تخاذلهم عن نصرته في كربلاء . . تصبح الخبرة الشخصية طريقنا لمعايشة الخبرة العامة بعمق أكثر ، وتتوهج الخبرة العامة بحرارة الشخصي !

وفي موقف «التنقل والترحال» نلتقي بالضابط « منير » الذي كان يحقق مع الراوي في مرحلة من حياته ، وأهان أمه إهانة لم يستطع ردها ولم يستطع نسيانها ، نلتقي به وهو يحقق مع عبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، ونلتقي به أيضا وهو يمارس دوره الخسيس نفسه في الكوفة ، فينصح بتغيير أمير الكوفة النعمان ، وتولي ابن زياد مكانه ، ثم يسعى لتقديم المزيد من خدماته ليزيد بن معاوية .

إن صيغة التجليات هي التي تجعلنا هنا نرى مع الراوي كيف يولد الخوف في كل العصور ، وكيف يولد الخذلان والتشتت ، وكيف أن للخديعة الملامح نفسها مهما تبدلت أقنعتها في الزمان والمكان ؟!

وهكذا من مثل هذه التجليات تصبح الرحلة من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي إلى المطلق ، مفتوحة أمام الراوي وأمام القاريء في وقت واحد !!

حادثة واحدة ، وزوايا متعددة

سوف يلاحظ القاريء أن الحادثة الواحدة ، أو الشخصية الواحدة ، قد يتعدد ظهورها في تجليات مختلفة عبر الأسفار أو الرؤى أو المواقف أو المقامات أو الأحوال ، مثل شخصية خلف

بك ، وهو الموظف الكبير الذي حنا على والد الراوي ، وأجرى رزقه في وظيفة حكومية أنقذته من قسوة العمل اليومي الذي يجيء يوما ويغيب أياما ، إن علاقة الأب بهذا الموظف تستمر إلى آخر يوم من أيام حياة الأب ، وهي علاقة من نوع فريد ومعقد ، وقد تعدد تجليها للراوي في الكثير من المقامات والأحوال ، ولكنها في كل مرة كانت تتجلى من زاوية جديدة ، فتعطي معنى مختلفا عن شخصية الأب أو شخصية الابن أو شخصية خلف بك نفسه أو عن ظروف المجتمع ، ولكنه يتفق مع وحدة المقام أو الرؤيا أو السفر ، وينطبق المنهج نفسه على حادثة القبض على الراوي ، وتحقيق الضابط منير معه ثم سجنه ، يتكرر تجلي هذه الخبرة دون أن تتكرر دلالتها ، فهي في كل مرة تلقي أضواءها على جوانب جديدة ، مرات على جوانب من

شخصية الراوي ، ومرة على الأم ، وعلى الأب ، وعلى المجتمع ، فحين يذهب الأب لطلب مساعدة من شخصية كبيرة كان ابنه على صلة بها ليعمل على إخراجه من السجن ، يجد أن الشخصية الكبيرة نفسها قد تم القبض عليها في الوقت نفسه !

إن اختلاف زاوية النظر للحادثة الواحدة هو ما يبرر تكرارها في تجليات مختلفة ، وهو في الوقت نفسه تأكيد لأهمية وحدة الرؤية في المقامات أو الأحوال ، حيث تصبح هذه الوحدة هي طريق الراوي والقارىء للانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن النسبي إلى المطلق .

من النسبي إلى المطلق وبالعكس

قد يكون من المناسب أن نكتفي بالإشارات السابقة للتعرف على الطريقة التي قدم بها الكاتب الرحلة التاريخية للراوي من خلال التجليات ، ولعله قد حان الوقت لنقترب من طريقته في تقديم لمحات عن الرحلة المعرفية من الجزئي إلى الكلي أو من النسبي إلى المطلق من خلال التجليات كذلك ، وفي الواقع أن منحنى هذه الرحلة المعرفية وإيقاعاتها هي التي تشكل الرابطة الحيوية بين الأجزاء الثلاثة للتجليات . . . !

في الجزء الأول الذي يكون سيد الشهداء الإمام الحسين فيه هو دليل الراوي في تجلياته ، يصل الراوي إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه قدرته في طريق البحث عن المطلق ، يكاد يتلمس معاني وحدة الوجود ووحدة الكائنات في تجلي « السفر إلى البدايات والنهايات » .

« في منازل الرؤى ومنازل الأصوات » « ويصطدم بسقف القدرة الإنسانية في موقف الندم فيعاقبه الإمام الأكبر ابن عربي بجز عنقه على إصراره على أن يعيد الزمن إلى الوراء . . » .

ويكون هذا الحدث بمثابة إنذار له بأنه ضل طريقه في بحثه عن المطلق ، إن انفصال رأسه عن جسده كان رمزا لوقوعه في أسر اغتراب الوعي عن الواقع . . !

في الجزء الثاني من التجليات يعيش الراوي من خلال تجلياته تجربة اغترابه عن وطنه ، وعيشه مع زوجته وابنه في المدن الأوربية ، غربة الوعي تمتزج بغربة الواقع ، غريب يلتقي بغرباء ، فلا عجب حين يرى في علاقته « بلور » في المدينة الأوربية وحبه لها حبا لذاته ، فهي مثله غريبة وتبحث عمن يشفي جراح غربتها . . . !

ولا عجب حين يرى في مقامات هذا الجزء غربة أمه حين تركت قرية « جهينة » لتعيش مع أبيه في غربة لا منجاة لها منها سوى اللواذ بزوجها وأولادها ، ولكنه من خلال مقامات « الاغتراب » و « القرب » و « هذاب » « يزداد اقترابا من الواقع ومن المجتمع ، وكأنه يبحث عن الكلي وعن المطلق في الجزئي وفوق أرض الواقع وبصحبة دليله الإمام الأكبر ابن عربي هذه المرة . . » .

في الجزء الثالث يعود إلى مدينة فاس في المغرب ، وكان قد بدأ منها رحلة تجلياته ، ويكون دليله في هذه المرة « جمال عبدالناصر » ، بما يعنيه ذلك من اقتراب إلى الوطن وإلى أرض الواقع ، وكأن على كل منا أن يبحث عن المطلق فيما حوله وفيمن حوله ، إنه يرى في تجلياته هذه المرة أمه في مرحلة أخرى من حياته ، في مرحلة كانت هي فيها قد بدأت تعالج جروح غربتها ، وتتلاءم مع واقعها في مدينة القاهرة ، وفي هذا الجزء تتجلى له الجهات الأربع من حول السطح الذي كان يعيش في حجرة منه مع أبيه وأمه ، تقترب التجليات هنا من قلب المجتمع ، تبحث عن المطلق في النسبي ، وتلتئم ذات الراوي ، ويودعه دليله قائلا : « من الآن أنت دليل ذاتك ، لم تعد بك من حاجة إلى دليل . . » . □

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

هل الشقاق طبع في العرب ؟*

بقلم : ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونغضب ، عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب ، ولاسيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ، ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة ، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين .

إننا ننفعل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية ، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمنة الحاضرة ، ولا نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم ، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها .

فلنبدأ أولاً بقضية الاختلافات الدينية . ولنستعرض ما حدث منها في أوربا طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة . نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عمقا مما حدث في الوطن العربي خلال الأزمنة المذكورة ، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها .

أحصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الأوربية خلال القرون المذكورة ، استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة ، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى ، استقصوا أخبار الحروب الأهلية والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الاوربية ، حتى في فرنسا التي تظهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم ، قلّبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة ، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة أخرى ، فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الاوربية كانت - بوجه عام - أوسع نطاقاً ، وأكثر تنوعاً ، وأشد عنفاً من التي حدثت في الوطن العربي .

أما الاختلافات السياسية ، فأمرها يحتاج إلى بحث أشمل ، وتفكير أعمق : فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء : أن العرب انتشروا - بعد الهجرة النبوية - بسرعة خارقة ، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً ، ففتحوا خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

* من رده على سؤال للاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ، نشر في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ .

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت إليه الدولة العربية في أوائل القرن الثامن للميلاد . تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الأطلسي إلى شواطىء نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح شمالاً إلى جبال البرنس والألب ، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس ،وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط المناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور .

وقولوا لي : أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف ، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب ، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات ؟

وإذا انتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا أحوالها الماضية ـ طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة ـ وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفا .

ولنأخذ فرنسا مثلاً ، فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القومي المتين ، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب .

وألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاما فقط ! إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة .

إننا ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد ، نظرة إجمالية ، فندرك خطوطها الاساسية العامة ، دون أن نتعمق في تفاصيلها الفرعية . ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب ، نظرة تفصيلية ، فنطلع على كثير من تفاصيله ، دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية .

إن تواريخ الدول الأوربية تبدو لنا جبالا مرتفعة شامخة ، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الاوربيين ، ومن الخارج ومن البعد . فإذا توغلنا فيها ، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان على الرغم من منظرها الخارجي العام .

وأما تواريخ الأقطار العربية ، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة ، لأننا ننظر اليها بنظر الاخباريين القدماء ، ومن داخلها . فلنغير موقفنا منها ، ولننظر إليها من بعد ـ نظرة تسمو على التفرعات ـ فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة ، على الرغم مما فيها من وهاد ووديان .

ونرجع إلى السؤال الأصلي : هل الشقاق طبع في العرب ؟

هذا ما حدث ، وما يحدث ، وما سيحدث في كل من الأمم ، وفي جميع أدوار التاريخ .

لا ريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها أخيراً كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الاخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جداً .

غير أنه يجب علينا أن نعلم العلم اليقين أن أسباب ذلك لا تعود إلى طبائع أمتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بل إنما تعود إلى أخطائنا نحن ، وإلى أحوال ماضينا القريب . إني لن أحاول في هذا المقام أن أحلل وأسرد الأسباب التي أدت إلى نكباتنا الأخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن أبحث عن الأشخاص الذين يجب أن يعتبروا مسؤولين عن هذا الفشل وتلك النكبات . ومع هذا سأقول بلا تردد : إن أهم الأسباب ـ في نظري ـ هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم وتمثل روح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي .

غير أني أرى أن هناك سبباً آخر ربما كان أبعد أثراً وأشد خطراً من كل ذلك . هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم إقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم

إن الأمم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات ، فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه ، فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين . □

[illegible] رقم ٣٦ ، فاندهشت . تصورته [illegible] « روبوتا » وضعوه في المقعد خلف السائق ، وراء عجلة قيادة ثانية ، ليقوم بدور سائق احتياطي إذا لزم الأمر ، إذا أصابت السائق الحقيقي - على سبيل المثال - سكتة قلبية أو دماغية مفاجئة ، أو اختلت ردود الأفعال البشرية لدى السائق البشري ، نتيجة سهو أو توتر . تصورت ذلك ، وغذّى تصوري سابق انشغالي بغرابة ما أقرؤه عن الحاسوبات من الأجيال القادمة ، تلك العقول الالكترونية القادرة على التصرف الذاتي الحر ، وعلى الابتكار ، وعزّزت هيئته الفريدة تصوري ذلك ، فقد كان رشيقا كتماثيل عرض الملابس في الواجهات الزجاجية ، وعيناه الملونتان صافيتان صفاء يوشك أن يكون زجاجيا خلف زجاج نظارته الطبية الصقيلة ، بينما ملابسه شبه الرسمية منشاة ومكوية بعناية ، والقبعة جديدة تماما فوق رأسه المنتصب . جلسته مشدودة ، وشاربه دقيق أصفر كأنه مرسوم ، وابتسامته خفيفة ثابتة ، وأصابعه طويلة نحيفة بيضاء طولها ملفت للنظر ، وكذلك نحافتها ، وبياضها . وقد تسمرت أمامه دقيقتين أو أكثر دون حراك ، ثم مرت بي لحظة من شك ، خفت خلالها أن [illegible] لحظة المفاجأة ولحظة الشك ، [illegible] الجنونية في ما يحدث أمامي ، [illegible] قهقهت كما لم أقهقه أبدا ، وأنا أضرب جبهتي براحتي ضاحكا من نفسي أيضا . وكانت قهقهتي هذه هي التي قادتني إلى الرجل أو قادته إليّ .

دعاني بإشارة آمرة مرحة إلى الجلوس في المكان الخالي بجواره ، ولم يكن هناك بد من طاعته ، على الرغم من إدراكي الآخذ في الاستضاءة والتحدد بأنه ليس إلا مجنونا هاربا أو خارجا من مصحة للأمراض العقلية ، يمارس جنونه في انطلاق وإن كان ذلك بهدوء شديد ورقة يوشكان أن يكونا لطفا بالغا وأناقة الكترونية . فقد كان يلعب دور السائق من خلف ظهر السائق الحقيقي ، وبعجلة قيادة يعلم الله من أين جلبها ، يحملها مرتكزة على إحدى ركبتيه ، وتكاد تبدو - لمن لايتمعن فيها - كأنها عجلة قيادة مكررة داخل الحافلة ، تدور بنفس القدر ، وفي الوقت نفسه الذي تدور فيه عجلة القيادة الحقيقية .

وكان يعلق بجيب قميصه (ميكروفونا) صغيرا ، ينتزعه عند الوقفات (ليذيع) أسماء محطات الوصول عند فتح الأبواب ، وأسماء

[illegible] لأنظر إليه مباشرة عيني بعينه ، فلو كان واردا أنه إنسان آلي «روبوت» على هذه الدرجة من التطور التي تجعله يتمرد على إدارة البشر ، أو تلك التي تجعله يؤثر إلى حد ما وراء طبيعي ، فإن ما لا يمكن أن يكون لأي إنسان آلي هو هذه الدرجة من حرارة الجلد البشري وملمسه اللذين أحسستهما بينما كانت أصابعي تتلمس أصابعه . وما لايمكن أن يكون لأي إنسان آلي هو هذا القوام من اللحم الانساني على العظام الانسانية ، وهو ما تبينته بينما كانت يدي تجس ذراعه . وإن كان صفاء عينيه يوحي بصفاء زجاجي لعدسات (آلة تصوير) مطورة ، تقوم بدور عيني الانسان الآلي ، فإن مثل هذا الصفاء يشبه عيون البشر الذين يضربهم السل في بعض مراحله ، أو تضربهم بعض أنواع انفلات العقول . ثم رعشة الانفعال البشري هذه التي راحت تنفضه عندما نهض السائق معيدا فتح الأبواب وملتفتا إليه وهو يصرخ : « اسمع ، [illegible] الحافلة الكبيرة رقم [illegible] في شارع « شيرباكوفا » كسابق عهده . □

منتدى العربي

هندسة الشخصية الإنسانية أو تقنية السلوك البشري

بقلم : اسماعيل الملحم*

مع تعقد حركة المجتمعات وتطورها ، بدأت ظاهرة استخدام العلوم للتنبؤ بالسلوك الجماعي للبشر ، ومحاولات التحكم فيه ، وضبط ردود أفعال الأفراد . وأصبحت هناك مؤسسات علمية كاملة تدرس وتبحث وتقترح ، كيف يصبح المواطنون وديعين مسالمين هادئين ، لا يثيرون اعتراضا ، ولا يبدون تذمرا ، وقد دخل السلوك البشري إلى المختبر وأصبح الصراع مع كيفية التحكم فيه إلى آخر مدى ممكن .

التقدم الذي أحرزته العلوم الإنسانية عامة ، وعلم النفس خاصة ، أخذ يطرح على الإنسانية مشروعات تقنية جديدة ، تتصل بسلوك الفرد البشري أو الجماعة البشرية بصورة مباشرة .

وبات من المألوف أن نقرأ أو نسمع عن طريقة أو طرائق في تكوين الشخصية الإنسانية ، أو هندستها وفق نماذج محددة سلفا . وأخذت مثل هذه الاتجاهات تقلق علماء الأخلاق الذين يخشون من المخاطر التي قد تنجم عن التدخل في سلوك الكائن البشري ، وعمليات تشكيل سلوكه . فبالإضافة إلى المخاطر التي يحذر منها المشتغلون والمهتمون بقضايا الإنسان والمجتمع جرّاء تقدم التقنية وطغيانها ، فإن الخوف يستبد

* كاتب وباحث تربوي من القطر العربي السوري

بهم من التدخلات المباشرة في سلوك الانسان ، وخاصة بعد تقدم ماصار يعرف في الدراسات النفسية بعلم « التعلّم » ، وما أنتجه هذا العلم من نظريات ، أخذت طريقها للتطبيق في المجال التربوي ، ومجال الإعلام ، ووسائل الاتصال المختلفة الأخرى .

تدخل للسيطرة

وتشتد هذه المخاوف وتتعاظم صيحات التنبيه والإنذار ، نتيجة تبني بعض الدول والمؤسسات في مشاريعها الرسمية لهذه المقاربات لتنفيذ سياساتها ، وتحقيق أهدافها في برمجة السلوك البشري ، بحيث يصبح أداة من الأدوات التي تسمح لها بإحكام سيطرتها وهيمنتها ، وزيادة استغلالها لمقدرات الأفراد والشعوب من جهة ، ولإحكام سيطرتها ونفوذها بحيث تسلس لها القيادة ، ولا تجد الأصوات الأخرى لها أنصارا في كبح سلطتها ، أو التقليل من سطوتها من جهة أخرى .

هذا مع العلم ، أن محاولات التأثير على سلوك الناس ، وهندسة تحركاتهم وتفاعلاتهم قديمة قدم الاستغلال وشهوة التسلط وممارسة القهر على الآخرين في هذا الكون ، فحيث تطمع السلطة إلى استمرار منهجها وزيادة سيطرتها تحاول أن تبتكر الوسائل والأساليب التي في ظنها تساهم في جعل أفراد المجتمع الواحد نسخا متشابهة لأنموذج محدد تريده . هذا ما كان يتمناه (نابليون بونابرت) من النظام التربوي الفرنسي في أيامه ، وما كانت تطمح إليه التربية الإسبارطية في العصور القديمة ، وما عملت جاهدة على تحقيقه الأنظمة الفاشية والنازية في العصر الحديث .

ولكن هذه الاتجاهات باتت أخطر في العصر الحاضر ، لما أضحت البشرية تمتلكه من وسائل تقنية متقدمة ، وتطور علمي مذهل . إذ أن دعوات تشكيل السلوك وهندسة الشخصية الإنسانية ، أخذت تجد لها مقدمات تشجعها على تحقيق دعاويها في المقاربات العلمية التي توصلت إليها العلوم الإنسانية المختلفة . ويقف دعاة المدرسة السلوكية في علم النفس في المقدمة في هذا المجال ، لشدة تفاؤلهم في الدور الذي تلعبه عناصر البيئة المادية والاجتماعية في تكوين الشخصية ، ونفيهم إلى حد بعيد لدور العوامل الوراثية . فما تزال الكتب المدرسية تردد مقولة (واطسن ، عالم النفس الأمريكي الشهير) في كتابه (السلوكية) ، الصادر عام ١٩٣٠ التي قال فيها :

« لو وضع تحت تصرفي اثنا عشر وليدا يتمتعون بصحة جيدة وبنية سليمة ، وطلب مني أن أعلمهم بالطريقة التي أعتقد أنها المثلى للتعلّم ، فإني قادر بطريقتي هذه ، بحيث يصبح أي من هؤلاء الأطفال مختصا في المجال الذي اختاره له . كأن يكون طبيبا أو محاميا أو فنانا أو . . . ، بغض النظر عن مواهبه ، أو ميوله ، أو قدراته ، أو مهنة أبيه ، أو أي من أسلافه ، أو الجنس الذي ينتمي إليه » .

ويعتقد واطسن ومن أتى بعده من مدرسته ، أو ممن تأثروا بها بأن السلوك الإنساني ما هو إلا ردود أفعال ، أو استجابات لمنبهات أو مثيرات البيئة ، التي لا يقتصر تأثيرها على الدفع فقط ، وإنما هي تختار وتصطفي ، ودورها الاصطفائي هذا ذو أثر فعّال في تشكيل سلوك الفرد وحفظه . فالرغبة في تغيير سلوك شخص ما ، أو تعديله ، لا تحتاج سوى تغيير ظروفه البيئية . ويكون هذا الأمر ميسورا كلما ملكنا فهم العلاقة بين السلوك والبيئة بشكل أفضل .

دور البيئة في تحديد السلوك

فالإنسان ـ كما يقول (جيلبرت سلدز) ـ ابن الظروف : « فلو غيّرنا بيئات ثلاثين طفلا من أبناء قبيلة (الهوتنتوت) ـ وهم شعب يعيش في

جنوب افريقيا ـ وثلاثين طفلا من أبناء ارستقراطيي انكلترا ، فسيصبح الارستقراطيون (هوتنتوت) من كل النواحي العملية ، كما سيصير الهوتنتوت محافظين صغارا » .

ومع تقدم الأبحاث السلوكية ، أخذ يتردد كثيرا الحديث عن تقنية سلوكية . ويعد (ف . ب . سكنر) رائد هذه التسمية ، كما أن أصحاب نظريات أخرى في التعلّم من أمثال (أ . ر.جثرى) و (ى . ل . ثورندايك) من خبرائها . ففي مقدمة كتابه (ما وراء الحرية والكرامة) ، يقول (سكنر) :

« ما نحتاجه تقنية للسلوك ، إذ لا يكفي أن ندعو إلى استخدام التقنية مع تفهم أعمق للقضايا الإنسانية . فتقنية الفيزياء وعلم الحياة لا صلة لهما بقضايا انسانية ، مثل انهيار النظم التعليمية ، أو سخط الجيل الصاعد ، وما شابه ذلك » .

ولم يبخل (سكنر) ، المرة تلو المرة ـ عبر تجاربه المستمرة ـ في تقديم الأسس التي يقوم عليها ضبط السلوك وتشكيله ، مشيرا إلى أهمية ذلك في قدرتنا على حل مشكلاتنا كافة ، راسما بذلك الطريق التي يرى أنها الأصلح للتحكم بالسلوك البشري الذي لاتقتصر آثاره على الإنسان كفرد فحسب ، وإنما على الجماعات البشرية أيضا . واضعا نصب عينيه قيام تقنية للسلوك الإنساني تحكم كل تطورات الحياة بجميع جوانبها . وفي تجديده لأهداف هذه التقنية يقول :

« إذا ما استطعنا ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي نضبط بها مسار سفينة الفضاء ، أو تحسين الزراعة ، فإنه سيصبح ممكنا حل مشكلاتنا بسرعة . » وإن قيام علم النفس يقتصر على دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي ـ كما يقول واطسن ـ ذلك السلوك الذي يمكن إخضاعه للملاحظة والمشاهدة والقياس وذلك كفيل به ليكون علما موضوعيا محددا .

أما السلوك الذي هو موضوع هذا العلم ، فينظر إليه على أنه نوع من المخرجات التي يستتر خلفها العديد من العوامل ، ومن بينها العامل الاجتماعي دائما .

ويتحدد السلوك بالعامل الاجتماعي ، إذ يقوم الوسط الاجتماعي باستمرار ، بنوع من التحكم في استجابات (ردود أفعال) الفرد إزاء المنبهات الخارجية المختلفة .

وما على علم السلوك ـ في هذا المجال ـ إلا أن يأخذ بالمسار الذي انتهجته العلوم الطبيعية ، بحيث يلتفت مباشرة إلى العلاقة ما بين السلوك والبيئة ، دون إضاعة للجهد والزمن ، في البحث عن الحالات الذهنية الوسيطة ، أو السابقة للسلوك أو المرافقة له ، لأن هذه الحالات لاتتعدى كونها حالات مزعومة .

فكل مناحي السلوك ، وفقا لذلك ، يجرى تفسيرها من خلال العلاقة المعروفة (مثير واستجابة) دون النظر إلى الحالات الوسيطة بينهما . وعلى هذا الأساس ، يرى السلوكيون ، أن النبوغ ـ مثلا ـ ما هو إلا نتاج بيئة اجتماعية سابقة . حتى أولئك الذين يبرزون باعتبارهم ثوريين ، هم كلهم تقريبا نتاج تقليدي للنظم التي يطيحون بها . فهم ـ مثلا ـ يتكلمون اللغة ، ويستخدمون المنطق والعلم ، ويتقيدون بكثير من المبادىء القانونية والأخلاقية ، ويستخدمون المهارات العملية والمعرفة التي أعطاها لهم المجتمع . حتى أن ما يبدو في سلوكهم أنه استثنائي،مهما كان مثيرا في ذلك ، علينا أن نبحث عن أسبابه في تاريخهم المزاجي الغريب الخاص ، أما أن تعزى إسهاماتهم المبدعة فقط إلى شخصياتهم التي تصنع المعجزات ، باعتبارهم رجالا مستقلين ، فهذا بالطبع ليس تفسيرا صحيحا على الإطلاق . بكل هذا الوضوح يفسر (سكنر) السلوك الابداعي .

فمع وصف الظاهرة والتشديد على الرغبة في

ذلك ، فإن السلوكيين يتخذون من ذلك خطوة للتنبؤ بالسلوك ، ليس هذا فحسب ، وإنما يبحثون عن إمكانية ضبط السلوك وإخضاعه لعملية التحكم .

التحكم في سلوك شخص ما أو ضبطه مرتبط بتغير الظروف . وهذا يتطلب فهما دقيقا للعلاقة بين السلوك ـ موضوع البحث ـ وبين البيئة . على هذا الأساس يؤكد (سكنر) ، أن التعلم وزيادة الطاقة على العمل والانتاج لا يكونان بنفخ روح الافتخار والكرامة ، وإنما باكتشاف الخطأ في ظروف المتعلم أو المتدرب .

وهذا يعني أيضا معرفة بالبيئة وقوانينها كمقدمة ضرورية لأي فعل يهدف إلى ضبط السلوك والتحكم به ، فالتغيرات في المثيرات يترتب عليها تغيرات في الاستجابة .

دور الثقافة كنتاج اجتماعي

والثقافة بحكم أنها تتضمن طرائق العيش في مجتمع ما ، وتنشئة الأطفال ، وأساليب جمع الطعام وانتاج ما يتعلق به عن طريق الزراعة والصناعة ، ونوع المساكن ، واللباس ، والألعاب ، وكيفية التعامل بين أفراد المجتمع ، وأساليب حكمهم ، إنما تفسر بتأمل الظروف التي أنتجتها بحيث شكلت عادات أو أنماطا سلوكية لها خصوصياتها وثباتها النسبي .

ويسمي السلوكيون الأنماط السلوكية ، والظروف والطوارىء الاجتماعية التي تولد فيها (أفكار الثقافة) . أما التدعيمات ـ التعزيزات ـ التي تظهر فيها هذه الطوارىء والظروف ، فتسمى (قيم الثقافة) . وعلاقة الثقافة مع البيئة علاقة تكيفية ، فهي تخضع باستمرار لعملية اصطفاء . وفحص الممارسات الثقافية لجماعة ما ، يعود تاريخه إلى حوادث عرضية . ثم إن أي ثقافة من الثقافات لا تكون دائما في حالة توازن دائمة ، لأن الظروف في تغير مستمر . تتغير البيئة المادية نتيجة انتقال الناس من مكان لآخر ، ونتيجة تغير في المناخ ، أو حينما تستهلك الموارد الطبيعية ، أو تتحول إلى استعمالات أخرى ، أو عندما تصبح غير قابلة للاستعمال .

وتتغير البيئة الاجتماعية وذلك بتغير حجم الجماعة ، أو باتصالها بجماعات أخرى ، أو بانقطاعها عن جماعة كانت على علاقة معها ، أو عندما تصاب المؤسسات المتحكمة بالقوة أو بالضعف .

ولكن السلوك لا يتشكل نتيجة علاقة المثير بالاستجابة ، بل من خلال عمليات التدعيم أو التعزيز . أي ما يعقب الاستجابة (أو الأداء) ، مما يؤدي إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة أو نقصانه . إذ أن الأحداث المجزية بعد الاستجابة تؤدي إذا أحكم ترتيبها إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة . وهو ما يسمى (التدعيم أو التعزيز) ، وللتدعيم الذي يلعب دورا رئيسا في تشكيل السلوك: قوانينه التي تحكم بالسلوك ، وتضبطه ، وذلك من خلال قانون (اقتران زمني بين الاستجابة والتدعيم) . ولذلك شروط محدودة ، منها أن يحصل التدعيم في دائرة انتباه الفرد ، وأن يكون هذا الأخير في حاجة إليه . فالسيطرة السلوكية تتم بوساطة الكبح المفروض بظروف التدعيم والتقوية ، أو بوساطة العقاب الذي يحث على الاقلاع عن سلوك ما ، ويتخذ العقاب شكل اللوم أو التوبيخ . ولكن لذلك حدودا لأن السلوك المعاقب قد يتكرر عندما تزول الطوارىء العقابية ، مع الإشارة إلى أن التدعيم السلبي الذي يأخذ شكل العقاب ، قد ينجح في جعل المتعلم يقلع عن سلوك ما ، ولكنه قد يدفعه إلى سلوك ذي طابع عدواني أو عصابي تدميري .

وقد أرجع (جون لوك) منذ أكثر من قرنين كراهية الكتب والمطالعة عند بعض الناس إلى تلك العقوبات التي كانوا يتعرضون لها . فالكتب التي كانوا يخطئون في قراءتها هي سبب الضرب ، فعزفوا عن حبها ، وعمموا ذلك على سائر

الكتب . وهذا يفسر أيضا - حسب رأي جون لوك - إعراض بعض الناس أو عدم استطاعتهم الشرب من الأكواب الجميلة والنظيفة لأسباب مشابهة ، إذ أن ارتباط بعض الأفكار بالأشياء تجعل هذه الأشياء منفرة .

وهذا العقاب قد يدفع بالمعاقب إلى تغيير البيئة إلى بيئة لا يعاقب فيها السلوك نفسه . أو أنه قد يلجأ في سبيل تغيير احتمالات حدوث السلوك الذي استحق العقاب إلى التحكم بإحداث تغيرات فيزيولوجية ، كتناول المهدئات ، أو قمع هذا السلوك بتدعيم قوي إيجابي لأي سلوك آخر قد يحل محله .

أما بالنسبة للتدعيم الإيجابي الذي يتخذ شكل المكافآت ، فإنه حدث ذو تأثير قوي في ضبط السلوك . ويكون بمكافأة الاستجابات التي تقترب في البداية من الاستجابة النهائية المرغوب فيها . ويكون التدعيم في البدء قويا ، بتدعيم أي ميل في الاتجاه الصحيح ، بعد ذلك لا تدعم سوى الاستجابات المحددة في ذلك الاتجاه .

وقد أوضح (سكنر) أهمية التدعيم في إنعاش حياة الناس ، أن إهماله يؤدي للعذاب في قوله :

« إن المعاقبين في العذاب في جحيم دانتي ، هم أولئك الذين عاشوا دون أن يتلقوا أي لوم ودون مديح » .

ويتراوح التدعيم الإيجابي عادة بين كلمات الاستحسان والتشجيع وكيل المديح ، وبين المكافأة المادية . وقد يلعب أي حدث آخر دور المدعم بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن الملاحظات التي تؤكدها أبحاث التعلّم ، أن الاستجابة المدعمة إيجابيا يكون تكرارها أكثر حدوثا من تلك الاستجابات التي لا تتلقى التدعيم المناسب لها مما يؤدي بها الأمر لما يُعرف في كتب علم النفس بالانطفاء . ولكن بعض الاستجابات التي تثبت إلى حد ما ، في سلوك الفرد نتيجة للتدعيم قد تختفي نتيجة عدم الممارسة .

فطريقة تقديم التدعيم ينبغي لها أن تجري وفق منهج محدد ، لتكون فعاليتها أشد في تشكيل السلوك أو ضبطه والتحكم به .

وكما قلنا في البداية ، يرى السلوكيون أن غالبية سلوك الراشدين هو سلوك متعلم . لذلك فإن تقنية السلوك البشري يجب أن تجري وفق منهج مرسوم ، لا أن تترك للمصادفات .

وهكذا فقد ساهمت نظريات ضبط السلوك والتحكم به في تطوير عمليات التعلم والعلاج النفساني ، وفي بعض حالات العلاج الجسماني . ولكنها - كأي مقاربة علمية - سيف ذو حدين ، بالإضافة إلى مساهمتها في تحسين ظروف التكيف البشري ، فإنها قد تكون لها آثارها التدميرية عندما تبتعد أفعال المستخدمين لها ، وأهدافهم عن قيم اخلاقية أرست دعائمها نضالات البشرية المستمرة منذ أقدم العصور . وفي هذا المجال تندرج الطرائق المتطورة التي ينهجها البعض في عمليات غسل الدماغ ، ودفع المجتمعات - بخاصة المتخلفة منها - إلى مبارحة القيم والأهداف التي تشكل أساس تماسكها ووجودها ، وترويج عادات المجتمع الاستهلاكي وقيمه بدلا منها . □

يبكـــون وهم ظالمون

● قال الشعبي : كنت جالسا عند شريح القاضي ، إذ دخلت امرأة تشتكي زوجها وهو غائب ، وتبكي بكاء شديدا ، فقلت : ما أراها إلا مظلومة ، قال وما علمك ؟ قلت : لبكائها .
قال : فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون !!

صورة نادرة للشمس أقوى مصدر للضوء

العلاج بالضوء

بقلم : الدكتور وليد السباعي

مع الانجازات العلمية المبهرة في ميدان العلاج ، واكتشاف الدواء وتصنيعه ، يزداد الاتجاه للعلاج بالأعشاب ، والطب الطبيعي ، واستخدام عناصر الطبيعة التي كان يستخدمها الأقدمون في مقاومة الأمراض وعلاجها ، ومنها الضوء الذي تبين أن له فوائد علاجية كثيرة رخيصة .

يعد ضوء الشمس من أقدم العوامل الفيزيائية في العلاج الطبيعي ، فقد عرفت تأثيره كثير من الشعوب القديمة ، كالآشوريين والمصريين القدماء ، وهم أول من استعمل حمامات الشمس والطين ، ثم اليونانيين والرومانيين . أما أكبر مدرسة لذلك فقد كانت في مدينة هليوبوليس ، أو مدينة الشمس التى استغلها هيبوقراط (٣٤٠ ـ ٣٧٧ ق . م) لعلاج سرعة التام الجروح وجبر الكسور ، وتخفيف الألم . وفي القرون الوسطى منعت الكنيسة الناس من تعريض أجسامهم للشمس لكثر مرض الخرع . وفي عام ١٨٠٠ اكتشف هرتسل الأشعة تحت الحمراء ، وبعده بعام اكتشف ريتر

الأشعة فوق البنفسجية . وهكذا مرورا بقانون نيوتن ، وقانون ماكسويل ، ثم نظرية بلانك التي أكملها العالم اينشتاين عام ١٩٥٠ تتكامل النظرية حول تحول المادة إلى طاقة وبالعكس .

الفوتون والموجة الكهرومغناطيسية :

وحدة الاشعاع الكهرومغناطيسي هي الفوتون الذي يتكون أثناء اصطدامات الذرات أو الجزئيات بعضها ببعض ، فيحدث تغير في مسار الالكترونات ، فتتحول الطاقة الحركية للألكترونات إلى فوتونات ، وعند التصادم يخرج الفوتون من مصدر الضوء بسرعة (٣٠٠,٠٠٠) كم في الثانية ، في الفراغ .

وللفوتونات خلال نفاذها في الوسط الخارجي خواص الموجة الكهرومغناطيسية . والضوء طاقة تنتشر على شكل موجة كهرومغناطيسية ، وكلما قصر طول الموجة كانت ذبذبتها أكبر وبالعكس ، وتختلف بعض الأمواج الكهرومغناطيسية عن بعضها بالذبذبة وطول الموجة والصفات والتأثير ، ونحصل بترتيبها على الطيف الكهرومغناطيسي ، أي سلسلة إشعاعات الطاقة الضوئية حسب الذبذبة وطول الموجة .

منابع صناعية للأشعة فوق البنفسجية

وسوف نتناول هنا العلاج بالاشعاعات فوق البنفسجية والمرئية وتحت الحمراء ، وهي الأمواج الكهرطيسية ذوات الأطوال التي تتراوح بين (١٥٠) نانومترا وحتى (٣٠٠٠) نانو متر .

وأقوى مصدر طبيعي لكل أنواع الطاقة الضوئية هو الشمس وما عداها فإن كل جسم محمى لدرجة الاحرار يمكنه إرسال ضوء ، وذلك منذ اللحظة التي تصل فيها درجة حرارته (٢٧٣) درجة مئوية . وفي درجة (٣٠٠ - ٥٠٠) مئوية نراه يشع إشعاعا أحمر ، وفي (١٠٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أصفر ، وفي أكثر من (١٢٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أبيض وفي كل درجة حرارة تصدر إشعاعات بأطوال مختلفة :

أولاً : تحت الحمراء الطويلة ، ثم الأقصر . وعند الاشعاع الأحمر تصدر الأشعة المرئية ، وتحت الحمراء . وعند الاشعاع الأبيض تحت الحمراء والمرئية وفوق البنفسجية . ونظرا لصعوبة تحديد الجرعة الشمسية وقوتها ، واختلاف أحوال الطقس فإننا عادة نستخدم منابع صناعية ضوئية فنحصل على الأشعة تحت الحمراء حينما نحميها لدرجة الاحرار ، فإذا ما سخنت إلى أكثر من (٣٠٠٠) درجة مئوية حصلنا على فوق البنفسجية .

والموجات الكهرومغناطيسية تخضع للقوانين الفيزيائية المعروفة نفسها : كالانحراف ، والانعكاس والامتصاص والفلترة ، وأن الجزء النشيط بيولوجيا هو الجزء الذي يمتصه الجسم فقط ، وهذا يعتمد على طول الموجة ، والذبذبة ، والزاوية التي يقع فيها الضوء على الجسم ، ومدة التأثير ، وشدته ، والامتصاص والنفاذية ، ووضعية الجسم ، والحساسية الخاصة لكل جسم . وبهذا فلكل أشعة تأثير مختلف « بيولوجيا » « وفيزيولوجيا » عن الأخرى . فالأشعة فوق البنفسجية تخترق الجلد مسافة عدة أجزاء من المليمتر ، والمرئية تدخل عدة مليمترات ، وتحت الحمراء عدة سنتيمترات .

الأشعة المرئية :

اكتشف العالم نيوتن أنه بمرور أشعة الشمس خلال الزجاج تتحلل إلى حزم من أشعة ضوئية مختلفة ، لكل منها طولها وخواصها ، وبهذا فالأشعة

المرئية من الضوء ، تتألف من سبعة ألوان أساسية مؤتلفة تكوّن الضوء الذي نراه ، وهي البنفسجي ، والأزرق الغامق ، والأزرق ، والأخضر ، والأصفر ، والبرتقالي ، والأحمر . ونسمي هذه الألوان طيف الشمس الذي يبلغ طوله الموجي من (٩٠ - ٧٧٠ نانومترا) ، وخارج هذه الأطوال فإن العين البشرية لا تميز الأشعة التي لها إشعاع قوي جدا ، ونثبت وجودها بالتجارب فقط .

ولاستمرار الحياة على كوكب الأرض كان من الضروري جدا وجود الأشعة المرئية وغير المرئية ، فالمرئية ضرورية للنمو وعمليات التمثيل الخلوي للنباتات ، ولا يخفى على أحد أهمية أشعة الشمس للانسان والحيوان والنبات ، وهنالك العديد من الأمراض التي تحدث بسبب نقص التعرض للشمس ، كالخرع ، وازدياد القابلية للاصابة ببعض الأمراض السارية . . الخ .

الجزء المرئي من الأشعة يخترق الجسم من ١ - ١٠ ملم . ولكل نوع من الطيف تأثيره الخاص به ، فالأصفر والبرتقالي لهما تأثير مهيج للأعصاب ، بينما للأزرق والبنفسجي تأثير مهدىء . والأخضر يكثر عمليات البناء ، بينما الأصفر والبنفسجي يكثران عمليات الهدم الخلوي . أما الأزرق والأحمر فيساعدان على تقليل الألم ، والبنفسجي منفرداً يقلل النبض ، بينما البنفسجي والأزرق يساعدان على التئام الجروح وتهدئة الألم . وبالحرارة الواصلة لأعماق النسج ترتفع القدرة المناعية للجسم ، وتتسارع العمليات الحيوية فيه ، وتتحسن الدورة الدموية ، ويكثر نشاط غدد التعرق ، وتهدأ الأعراض الجلدية التي تحدث نتيجة الحصبة والجدري ، أما الأزرق فيستعمل في الطب النفسي والعصبي ، خصوصا عند آلام الأعصاب . . الخ ، إضافة لاستعمالاته في طب العيون للتشخيص .

أما الأشعة فوق البنفسجية فهي أشعة باردة غير مرئية نشيطة كيماويا وفعالة ، لها أشكال ثلاثة (A.B.C) أهمها « B » وبتأثيرها يحمر الجلد ، ثم يكتسب لونا برونزيا ، ولها تأثير قوي على البكتيريات ، ونحصل عليها من الشمس أو من مصادر صناعية ، بلمبات من زجاج الكوارتز والأرغوان أو بخار الزئبق . وأحيانا نضطر لاستعمال موصلات دقيقة لاستعمالها داخل الأنف أو الحلق أو الأذن أو الاعضاء المفرغة والنسائية .

وبتأثيرها يتحول الفيتامين D إلى فيتامين D3 وهو ما يثبّت الكلس في العظام ، أي تقوية تكلّس العظم . وتحسّن زمن التخثر ، وتقلل تهيج العضلات وتحسن قابلية غشاء الخلية لامتصاص الأشعة ، وتحويل الكولوايد ، وتكثّر الهموجلوبين وهو أهم عناصر المقاومة في الجسم ، وتزيد نشاطة ، وتفتح الشهية ، وتحسن النوم ، وتقلل التوتر والقلق .

هذه التأثيرات تحدث بسبب تغير أماكن الذرات ، وتغير التعادل الكهربي للذرة ، وتحول الالكترونات إلى مدار آخر .

التأثير والاستخدام

احمرار الجلد ، واكتساب اللون البرونزي . واكثار قدرة التجدد للخلية ، والاسراع في تشكيل النسج التالفة ، والقضاء على البكتيريات ، ولذلك تستخدم في حالات الجراحة ، والمختبرات ، وفي التعقيم ، بما في ذلك تعقيم الحليب .

وفي كل مكان يمكن أن تتكاثر فيه البكتيريات كصالات الانتظار ، والمستشفيات والمستوصفات ، وصالات الولادة ، ومصحات السل ، والصيدليات ، وفي الصناعات الغذائية ، والكيماوية والصيدلانية الخ .

وتأثيرها الانعكاسي يتم عن طريق المنعكسات الجلدية والعضوية ، وخلال مناطق « هيد » في الجلد ، وتصل للأعضاء الداخلية . فنلاحظ هبوط الضغط الشرياني (١٠ - ٣٠) مليمتراً زئبقيا ، وتحسين الدورة الدموية في الأعضاء واكثار إفرازات المعدة .

أما تأثيرها العام فهو . إكثار نسبة الهيموغلوبين ، وعدد الكريات الحمراء والبيضاء ، وتغير PH نحو الأساسي ، وتغير نسبة أنزيمات الدم والكولسترول والكالسيوم والفوسفور ، وكثرة ترسب الكالسيوم في العظام ، وكثرة افراز حمض البول وطرحه . . الخ .

وتستخدم الأشعة المرئية في علاج القروح والجروح التي لا تندمل ، والأمراض الجلدية : كحب الشباب ، واكزيما داء المنطقة ، والدمامل ، وبسوريازا (أكثر من ٣٠ مرضا جلديا) ،

والروماتيزم الاستحالي وخارج المفصلي : اللومباغو ، وأوجاع العضلات ، وارتروز المفاصل والظهر ، وفبرو زيت ، والنقرس ، والأمراض العصبية : آلام الأعصاب ، والعصب الوركي ، وما بين الأضلاع ، والتهاب الأعصاب ، والأمراض النسائية . قلة فرز الحليب عند الأم ، وعدم انتظام الدورة الشهرية ، والتهاب المبيض المزمن (تقلل الورم والألم) ، والربو القصبي ، والخرع ، وتحلحل العظام ، وبطء النمو ، والتعظم ، وخروج الأسنان ، وللجسم المنهك بعد مرض صعب ، وفقر الدم ، والتسمم بأول اكسيد الكربون ، والسل خارج الرئة (سل العظام والغدد والمفاصل والأعضاء ...

[illegible]

الأشعة تحت الحمراء .

أشعة غير مرئية حرارية ، نحصل عليها من الشمس أو من المنابع الاصطناعية ، تنفذ خلال الزجاج

ومن مؤثراتها الفزيولوجية أنها تؤثر على سطح

[illegible]

ويستعمل لعلاج أمراض الروماتزم ، وأوجاع الأعصاب ، وبعد الاصابات الرياضية أو إصابات العمل ، والتمهيد قبل العلاج الحركي والتدليك والتشريد الدوائي ، والتهاب الجيوب بعد إفراغها (مع فلتر) ، والرشح ، والتهابات الجلد

والحروق ، وتهدئة الألم ، خصوصا آلام الوجه الشديدة .

أما في التشخيص فتستعمل في كشف التهابات الأعضاء ، خصوصا الجهاز الحركي ، ومراكز التقيح ، وأمراض الأوعية الدموية ، والدوالي ، والجلطة ، والنزيف والكتل الورمية والسرطانات .

ولها استعمالات كثيرة جدا ، في مركبات الفضاء ، والتصوير الأرضي من الفضاء ، والأجهزة الاستراتيجية ، وجهاز التحكم عن بعد . وفي التلفاز .

ويمنع استعمالها في حالات الالتهاب القيحي المفتوح ، وسرطان الجلد ، وارتفاع الحرارة ، وقصور القلب ، وتصلب الشرايين ، وارتفاع الضغط ، والنزيف والسل الرئوي النشط ، والجلطة ، ومرض بازيدو ، والتعب الشديد العام والانحلال .

العلاج بالشمس :

بما أن طبقة « يونوسفر » الجوية تمتص كل ما هو ضار بالانسان والحياة كالأشعة الكونية الضارة وغيرها ، فإن ما يصل إلينا نافع دون شك ، بشرط أن تكون جرعاته مدروسة ، أما الجرعات الكبيرة ، والتعرض الطويل لأشعة الشمس فهو ضار جدا ، وأحيانا مميت . ويختلف تأثيرها حسب الفصل والوقت واليوم ، ونظافة الهواء ، ورطوبته ، والغيم ، والارتفاع عن سطح البحر ، ومدة التعرض . . . الخ . وبما أنه لا يمكن التحكم بالجرعة ينصح بالتعرض لأشعة الشمس بالتدريج ومراعاة الغرض الذي نتعرض من أجله للشمس ، وهل هو علاجي أم لمجرد الصحة العامة .

وأفضل الأوقات لاستخدامها علاجيا من ٧ - ١٠ صباحا والسادسة مساء ، وفي غير أيام الصيف من الساعة ١٠ صباحا إلى ٤ مساء . ويجب ألا تتشمس بعد تناول الطعام مباشرة ، وإنما بعده بساعتين على الأقل ، ويجب تغطية الرأس ، ودهن الجسم بمادة واقية . ووضع نظارات غامقة ، والحرص الشديد على الأطفال . وإذا لاحظت قلة شهية أو ارتفاعاً في الحرارة أو قلقا ليليا، أوقف التعرض للشمس كما يجب عدم تعريض من تقل أعمارهم عن سنة للشمس مباشرة .

ونبدأ بالتعرض مدة خمس دقائق ، ثم نزيد كل يوم حتى نصل إلى أقل من ٣ ساعات ، وبعد ذلك نذهب للسباحة ثم نستلقي في الظل ، ويجب الاحتراس الشديد من الحروق الجلدية أو الاصابة بضربة الشمس التي تؤدي إلى الوفاة .

ومن تأثيرات العلاج بالشمس فزيولوجياً ، زيادة قدرة الجسم العامة وتقويتها ، وزيادة النشاط وتحسين النوم والشهية وتقليل التعب ، وزيادة القدرة الدفاعية للجسم ضد الأمراض ، ومرونة الجلد ، واكتسابه لونا برونزيا وزيادة صلابته وتقويته ، وتقوية العضلات وزيادة كفاءتها ، وتحسين تبادل الغازات ، وتقوية التنفس وتنشيط انتاج الهيموغلوبين ، وعدد الكريات ، وتعديل العلاقة بين الكالسيوم والفوسفور ، والمساعدة في التئام الجروح ، وتقليل الألم .

ويستفاد من التعرض للشمس والرمل والهواء الحار وممارسة السباحة والرياضة على شاطىء البحر أو البحيرة في علاج الخرع ، وقلة التعظم ، والتخلخل العظمي ، وبعد الأمراض الصعبة ، وفقر الدم ، والجروح والقروح والدمامل ، وسل العظام والغدد ، وكل أنواع السل خارج الرئة ، والروماتيزم بأنواعه المفصلية وغير المفصلية خصوصا الاستمالي منه . ويمنع استعمالها في حالات الأشعة فوق البنفسجية نفسها . □

ما يبكيك ؟

● بكى أحد الصالحين يوما ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة .

أسندتُ رأسي على العشب الطري لكي

أصغي إليها في عروقِ الأرضِ ينصبُّ

فحاصرتني مُدَى الأشواكِ جائعةً

وأيقظتْ في دمي نيرانَها الشُّهبُ

صرختُ : يانبعُ ، قلبي جمرةٌ خفقت

لهن يرقُّ لها إشراقُكَ العذبُ ؟

فجاوبتني مياهُ النبعِ هامسةً

انهضْ عن العشبِ يطفىءْ جمرَكَ الحبُّ

وطُفْ بروحِكَ في أُفقٍ له لغةٌ

تسمو بها النفسُ لا شوكٌ ولا كَرْبُ

واشربْ من الصفوِ إذْ يأتيكَ مُؤتلقاً

والحُسْنُ في وجهِهِ يحْلُو به القربُ

واستنهض الروحَ بالآمالِ تطلقُهَا

وَانْشُرْ جناحيكَ ، إنَّ المُرْتقى صَعْبُ

اعداد : يوسف زعبلاوي

العضلات الكهربائية البديلة
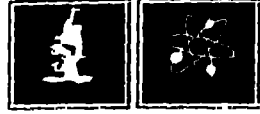
يولد الطفل أحياناً مفتقراً إلى طرف واحد من أطرافه أو أكثر ، والذراع هو العضو الذي يفتقر إليه أولئك الأطفال التعساء ، وقد درج الطب على معالجة هذه الحالات بالخطاف الذي يذكرنا بالقراصنة . وقد وجدوا في هذا الخطاف سلاحاً فتاكاً يمكنهم من التغلب على خصومهم في معارك الأيدي التي طالما خاضوها في البر والبحر . ولعلنا لا نذكر في مخيلتنا قرصاناً إلاّ ونذكر يده الحديدية الخطافة ذات الرأس الحاد المقوس ، فضلاً عن ساقه الخشبية

على أن الطب تقدم كثيراً في أمريكا وفي غيرها ، - يث لم يعد الخطاف يليق بالمستوى الرفيع الذي أحرزته الخدمات ا. ة في السنوات الأخيرة . فهو لا يغني عن اليد في أعمالها كلها أو أكثرها . ويسيء إلى الطفل نفسياً أكثر مما ينفعه ،.وحسبك الكآبة التي يولدها في نفسيته تبعاً لسخرية الناس من خطافه ، وتذكر الاحصاءات أن طفلاً واحداً من كل ٢٥٠٠ طفل يولد ناقص الأطراف في الولايات المتحدة الأمريكية .

من هنا حظي الابتكار الجديد بأقصى الترحيب ، حقاً لقد استغرق تطوير الأذرع والعضلات الكهربائية (myoelectric arms) سنوات عديدة ، ولعل في النتيجة النهائية ما قد يبرر الجهود التي بذلت في سبيلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أفلام « السينما » و « الفيديو » التي راجت قبل بضع سنين والتي دارت أحداثها حول القوة الخارقة التي تمتع بها البطل (ستيف أوستن أو غيره) بفضل الذراع الكهربائية .

تعتمد الذراع ذات العضلة الكهربائية على بطارية صغيرة ، وأقطاب كهربائية صغيرة (electrodes) ، ومن شأن هذه الأقطاب - التي تلامس نصف الذراع الذي جاء به الطفل من بطن أمه، بل قل العضلة العاملة فيه أن تقويها ١٠٠٠ مرة ، وترسلها إلى نصف الذراع الآخر ذي العضلة الكهربائية ، وذلك بواسطة البطارية التي تعمل بدورها على تشغيل محرك صغير معد لفتح الطرف الكهربائي وإغلاقه ، ولا يخفى أن الإشارات التي تلتقطها الأقطاب يبدأ توليدها في المخ ، فهو يرسل إلى عضلة الذراع الطبيعية ما يثيرها ، فتتقلص العضلة وتفرز مادة كيماوية قادرة على توليد الكهرباء

وتتميز هذه الأذرع الكهربائية بأنها تثبت على المرفق بواسطة تجويف أو محجر Socket ملائم تماماً ، ودون حاجة إلى الأشرطة أو الكابلات التي لا غنى عنها لتركيب الخطاف ، والتي غالباً ما تسبب تقوساً في العمود الفقري تبعاً لاضطرار الطفل إلى الالتواء بظهره وكتفيه كلما أراد استعمال خطافه .

على أن الذراع الكهربائية ليست بلا سلبيات ، فهي بحاجة إلى استبدالها بأخرى أكبر حجماً لتلائم الطفل الذي ينمو ويكبر ، ويستحسن أن يجري هذا الاستبدال مرة كل (١٠) شهور ، ولو ذكرنا أن قيمة الذراع الواحدة تتراوح بين ١٠ - ١٥ ألف دولار ، لتجلت لنا مشكلة هذه الذراع التي قد لا يقوى على حلها إلّا القلة من الناس ، وهذا في الوقت الحاضر فحسب ، إذ أنهم ماضون في الولايات المتحدة في إنشاء مصرف للأطراف الجديدة يسمح باستبدال الصغير منها بأكبر وبتكلفة قليلة .

وتجدر الإشارة إلى أن الذراع الكهربائية الجديدة بحاجة إلى ما يكسوها ، ولو نظرت إلى يدها لبدت لك أشبه بيد الهيكل العظمي ، لذلك كان القفاز البلاستيكي الذي طوروه من أجلها بمثابة الجزء الذي لا يتجزأ منها .

ويكسو القفاز اليد ويغطي نحو ½ الذراع الكهربائي ، وهو ذو أظافر وبراجم ، ويتميز - إذا كان قفاز كبار - بما يشبه الأوردة والطبقات الجلدية ، وهو رخيص الثمن نسبياً (٤٧ دولاراً للقفاز الواحد) .

بقي أن نذكر أن الذراع الكهربائية سهلة الفك والتركيب ، إذ المفروض بها أن تفك قبل النوم ، ثم تركب عند اليقظة ، ولولا سهولة فكها وتركيبها لما أقبل الناس عليها ، حتى في الحالات التي لا يكاد يبلغ عمر الطفل فيها سنة أو دون ذلك .

■■□□

ارتخاء الجفون ليس وقفاً على أهل اليابان

● ارتخاء جفون العين آفة مزعجة ولا ريب ، وهو إما وراثي أو مكتسب . والوراثي منه يصيب في الغالب كلتا العينين في آن واحد ، وهو مرتبط بما قد تتعرض له نواة العصب البصري الثالث من نمو غير سوي ، ويكثر هذا الارتخاء الوراثي في الشعوب التي تعيش في منأى عن الغير - كاليابان - وفي الجماعات التي تحرص على زواج الأقارب .

أما الارتخاء المكتسب فغالباً ما يصيب عيناً واحدة دون الأخرى ، وقد يصيب الكبار ، فيكون سببه - في الغالب - قصوراً في امدادات الدم ، أو جلطة صغيرة في منطقة نواة العصب البصري الثالث التي ذكرنا . وقد يصيب الصغار ، وعندئذٍ يكون السبب أحد احتمالات كثيرة ، نذكر منها ضيق الأوعية ، والعصب البصري الذي قد يتعرض لتلف بسبب حادث أو مرض .

وقد يكون الارتخاء حاداً ، بحيث يتعذر على المرء النظر مالم يرفع رأسه

سلامة البشرية في سلامة البيئة

هل من تعارض بين حماية البيئة والتنمية ؟

● تجري أعمال ترميم البيئة في أمريكا على نحو منقطع النظير ، والمقصود هنا إبطال أثر التنمية الزراعية والصناعية ، والرجوع بعقارب الساعة إلى الوراء ، أو إن شئت إبطال التقدم والعودة إلى التخلف . إنه الإنقلاب في المثل العليا الذي أحدثه الوعي البيئي ، والذي أدى إلى معارضة المشاريع الإنشائية ، كاستصلاح الأراضي ، وتجفيف المستنقعات من أجل الزراعة ، والتحطيب من اجل شق الطرق وتعبيدها ، كل هذه المفاهيم التي كانت مثلا عليا في الستينيات أصبحت معاول هدم ودمار في الوقت الحاضر ، وذلك وفق ما تمليه مفاهيم ومصلحة البيئة ، وهي مصلحة البشرية العليا التي نضحي في سبيلها بسائر المصالح الأخرى ، بما في ذلك المصالح القومية والسياسية ومصلحة النمو والازدهار الاقتصادي أيضا .

على أن الذي يتولى أعمال ترميم البيئة هذه ليس وكالة البيئة الحكومية ، ولا هيئات حماية البيئة الأهلية ، كهيئة أصدقاء الأرض مثلا ، أو هيئة السلام الأخضر ، وكلها هيئات طوعية خيرية تعمل ما تعمل دون أجر وبلا مقابل ، فالذي يمارس أعمال ترميم البيئة في الولايات المتحدة إنما هي شركات تسعى إلى جني الأرباح ، وتشبه في ذلك شركات البناء والتعمير أو المقاولين ، ولكنها تشبه أيضا الهيئات العلمية والجامعات والمختبرات بقدر ما تنطلق بأعمالها تلك على أسس علمية وتجارب وأبحاث، وبقدر ما تعتمد في ذلك كله على علماء ، إن لم نقل على كبار العلماء والمختصين في القارة الأمريكية كلها .

وحسبنا الإشارة هنا إلى بعض الأعمال الترميمية التي قامت بها ومازالت تقوم شركات - تجارية - علمية ، إن جاز لنا التعبير .

المستنقعات والأراضي البص : لقد فقدت الولايات المتحدة منذ استقلالها ٥٠٪ من أراضي البص فيها (Wetlands) ، وهي تفقد نصف مليون فدان من هذه الأراضي سنويا . فمن أجل الزراعة ، وبقصد الاستصلاح الزراعي أقبل المستعمرون الأوائل على التحطيب ، وقطع أشجار الأرز التي كانت منتشرة قبل مجيئهم من أوربا إلى العالم الجديد .

وهكذا فقدت المستنقعات والأراضي المبتلة مزاياها ، فغطاها البوص الذي بلغ في ارتفاعه أحيانا ١٥ قدما . وأدى ذلك إلى تشريد الأحياء البرية لا سيما البط البري .

وجاءت سنة ١٩٨٥ وإذا بإحدى شركات الترميم البيئي تباشر أعمال العودة بعقارب الساعة إلى الوراء ، وذلك في « نيوجرسي » على وجه التحديد ، وبإشراف أحد علماء الكيمياء المختصين واسمه « جاربش » (Garbisch) ، فمضت في حفر الأقنية لضمان وصول المياه العذبة إلى المنطقة ، وقد حرمتها منها سدود حيوان القدس ، ولضمان وصول ماء المحيط المالح ، مرة بين الحين والحين أثناء المد ، ومضت أيضا في إقامة المرتفعات التي تتطلبها أعشاش البط البري ، ثم مضت في زراعة حشيش المستنقعات (سبارتينا) على نطاق واسع ، والأعشاب المعروفة باسم (Pickerelweed) وكذلك بطاطس البط ، ونجحت الشركة حتى الآن في إعادة تكوين حوالي ٢٠٠ مستنقع، وفي إعادة البط والعصافير إلى مواطنها في المنطقة .

ويمكن القول بأن الشركة قد أنجزت حتى نهاية ١٩٨٨ حوالي ٥٠٪ من أعمال الترميم التي التزمت بها مقابل ٤ ملايين دولار

الغابات الاستوائية : مازالت الغابات الاستوائية في العالم الجديد ماضية في التحول إلى مراع أو سافانا ، أو تربة تالفة ، بسبب التعرية ، ويصدق هذا ـ بخاصة ـ على المناطق الشمالية الغربية في كوستاريكا ، حيث باشرت إحدى شركات الترميم أعمال إعادة الغابات وكائناتها البرية إلى ما كانت عليه ، ويتولى الاشراف على هذه الأعمال العالم جـ رن Janzen عالم البيولوجيا من جامعة بنسلفانيا ، وهو يقول إن أعماله الطموحة تلك : « ستحقق في غضون مائة عام ما قد لا تستطيع الطبيعة تحقيقه في ٥٠٠ عام » .

■■□□

علاج لسرطان المعدة في الثوم والبصل

● مازال الثوم والبصل يحظيان باهتمام الأطباء والعلماء في كل مكان . فقد نشرت مجلة المعهد الوطني للسرطان في الصين دراسة شملت ١٧٠٠ رجل صيني ، وأجريت الدراسة بقصد الكشف عن مخاطر سرطان المعدة في منطقة « ساندونج » حيث نسبة الوفيات ـ بسبب سرطان المعدة - مرتفعة .

أما النتيجة التي تمخضت عنها الدراسة فهي أن تناول الثوم والبصل يتناسب تناسباً عكسياً والإصابة بسرطان المعدة ، ناهيك بالموت بسبب هذا الورم الخبيث .

وتجدر الإشارة إلى أن ممثلين عن معهد السرطان الوطني الأمريكي قد انتشروا في مراكز السرطان في « بكين » وغيرها من مدن الصين . وأجروا مقابلات واستجوابات مع ٦٨٥ مريضاً من المصابين بسرطان المعدة ، و ١١٣١ رجلاً معافى من تلك الأورام ، وثبت لهم أن الذين يتناولون المزيد من الثوم والبصل في منأى عن الإصابة بسرطان المعدة ، فهم أقل عرضة للإصابة بنسبة لا تقل عن ٤٠٪ □

عندما تزور بادية الأردن ، فما من سبيل أمامك إلا السير على خطين متوازيين . فالتاريخ بأحداثه وآثاره ومعالمه يسير متوازيا مع البداوة بإنسانها وخيامها ومراعيها ، لا تستطيع أن تفصل أيا من الخطين عن الآخر . فهما يمتدان جنبا الى جنب حينا ، ويلتقيان في اختلاط غريب حينا اخر ، منذ عاش البدوي الأصيل على هذه الأرض قبل خمسة آلاف سنة . واستقبل العديد من العصور والحكام على مدى التاريخ .

التاريخ يتغير وتتوالى أحداثه ، وتتدرج معها آثاره ومعالمه ، ولكن الأرض تظل هي نفس الأرض ، والبادية هي نفس البادية ، والانسان هو نفس الانسان .

حين يكون هدفنا هو استطلاع ما يجري في بادية الأردن ، وما يشهده إنسانها من تحولات ، فإن علينا أول الأمر أن نتعرف على تلك الأرض ، التي يعرفها الناس باسم البادية . فهذا الاقليم الصحراوي الذي يشكل امتدادا للصحراء العربية ، يشتمل على أكثر من ثلثي مساحة الأردن . ويضم صحراء مرصعة بالأحجار السوداء في أجزائه الشمالية والشمالية الشرقية ، تمثل الامتداد الواسع للحمم البركانية والبازلت من جبل الدروز في سوريا ، مع جبال وتلال في الأجزاء الجنوبية ، تنتشر فيها الصخور الرملية والجرانيت ، وكل ذلك يشرف على مساحات سهلية منبسطة تتخللها أودية تصب جميعا في الداخل ، حيث منخفضات واسعة تطل عليها تلال ترتفع قليلا عما يجاورها .

في هذا الاقليم الصحراوي نخترق أنحاء البادية الأردنية في الشمال والوسط والجنوب ، لنتعرف على الأرض ، والانسان ، والتاريخ .

« الفيديو » في بيت الشعر

وقف الرجل حاملا كاميرا الفيديو ، وراح يسلط عدستها في ثبات على أعضاء بعثة التليفزيون اليابانية ، الذين افترشوا الطنافس القطنية واستندوا على جدران البيت الحجرية ، وهم يحتسون الشاي المخلوط بالميرامية والزهورات البرية ، بينما كان مصور البعثة يقوم بالتقاط صور مزرعة الزيتون والتين والفاكهة الممتدة على مساحة خضراء لا يكاد يشملها البصر . وعاد المصور ، ووقف يحملق في ذهول الى البدوي الشيخ ، ثم انقض عليه ليأخذ الكاميرا من بين يديه وهو يصيح في زملائه :

- أهكذا تحافظون على كاميراتي التي تركتها في عهدتكم ، وتدعون هذا البدوي يعبث بها ليفسدها ؟ .

ومع حيرة رجال البعثة المذهولين من تصرف زميلهم ، سلط الشيخ عدسة الكاميرا على وجه المصور الياباني وهو يقول في بساطة :

- لا تنزعج ، إنها آلة تصويري ، والصور التي التقطتها لكم بهذه الكاميرا الحديثة ستكون أفضل من كل ما صورته أنت بكاميراتك .. !

وتلعثم المصور بعد أن سقطت عيناه على أجهزته فوجدها كاملة كما تركها ، ولم يجد أمامه إلا أن يعتذر للشيخ وهو يقول :

- لم أتصور قط أن البدو قد تطوروا إلى هذا الحد ، فاعذرني يا شيخ جليل على جهلي !

بالكاميرا التليفزيونية نفسها راح شيخ العشيرة البدوي جليل الزوايدة يصورنا نحن أعضاء بعثة « العربي » وحولنا عدد من أحفاده وأبنائه الثلاثين الذين أنجبهم من زوجاته الثلاث . وأخذ ينقل العدسة بيننا وبين أشجار مزرعته « بالديسي » غير بعيد من سيارته المرسيدس وعربة « البيك آب » المليئة بأكياس حصاد الزيتون المعد للنقل الى المعصرة . !

ولمحنا الشيخ ونحن ننقل بصرنا من بيته الحجري المستلقي وسط الأشجار الخضراء ، والذي لا يختلف كثيرا عن أي فيلا عصرية ، الى « بيت الشعر »

الأسود الذي أقيم غير بعيد عن المزرعة ، وابتسم الشيخ في بساطة وهو يقول :

- إننا لا نهجر ماضينا وعاداتنا وتقاليدنا ، وإذا كنا قد أصبحنا نقيم في بيوت مبنية من الحجر ، إلا أننا لا نستغني عن بيت الشعر ، فهو رباطنا بماضينا وهو موئلنا ومقامنا كلما ضقنا بهذه البيوت الحجرية الخانقة .

ويأخذ الرجل بأيدينا الى بيت الشعر ونحن نتابع وصفه له وكأنه يتغزل فيه وهو يتحسس جوانبه .

البيت منسوج من شعر الماعز الأسود الذي يتم نسجه محليا في شقاق ، كل شقة أو قطعة منها بعرض حوالي نصف متر ، وتقوم النساء بخياطة هذه الشقاق بعضها إلى بعض لتشكل بيتا طويلا متوازي الأضلاع .

وعند نصبه يتم فرشه على الأرض أولا ، ثم تدق الأوتاد وتمد الحبال من حوله ، ثم تولج الأعمدة على طول خط المتن مما ينتج عنه خط طولي ضيق من الظلة فوق الرءوس . وتغلق المقدمة والمؤخرة بستائر من النسيج ذاته حيث تتدلى حول البيت تماما من السقوف العليا الى الأرض . ويتم تقسيم داخل البيت إلى قطاعات بقواطع فى الوسط بحيث يكون ثلث البيت تقريبا « محرما » للنساء . بينما يخصص الباقي للضيوف فيما يسمى بالمضيف . وصدر البيت مفتوح أو مرفوعة ستائره لمواجهة النسيم البارد . وفي الشتاء ينصب بيت الشعر في انحناءة واد ضيق محمي بالتلال من جميع الجهات ، محاط بالأشجار والجذوع اليابسة التي تزود البدوي بحطب النار . وفي المدن والقرى التي تحضرت وتقيم عشائرها في بيوت الحجر أو الطوب الترابي ، مايزال البدو يحتفظون ببيوت الشعر للإقامة فيها في فصل الربيع . عندما تتوافر المراعي على مسافة بعيدة من القرية أو المدينة . فيأخذ بعض أفراد العائلة مواشيهم ويخيمون مع أغنامهم لمدة شهر أو يزيد .

البادية أحيلت إلى التقاعد

كان المعروف أن بيت الشعر هو أحد أربعة أركان للبداوة ، هي الصحراء ، والبدوي ، والقطعان ، وبيت الشعر . وكانت متابعة هذه الأركان الأربعة هي ما نستهدفه ونحن ننطلق لاجتياز بادية الأردن ،

● خريطة المملكة الأردنية الهاشمية بإقليمها الصحراوي الذي يمثل البادية

ولكن الصورة التي شهدناها كانت تستبعد هذا التعريف للبداوة بعد أن أصبح التطوير والتحضير والتوطين والتحديث هي السمات الغالبة . فمنذ منتصف الخمسينيات وبداية الستينيات أخذت البداوة بصورتها التقليدية تتلاشى ، ونكاد نقول إنها بدأت مرحلة الإحالة إلى التقاعد . حول هذا المعنى قال لنا الدكتور أحمد عويدي العبادي الذي تخصص في دراسة البادية . وأبى إلا أن يرافقنا في جولتنا . لقد تغيرت نظرية تعريف البداوة ، وأصبحت الآن تقوم على مثلث من ثلاثة أضلاع . الضلع الأول هو الروحية وأعني بها الشعور الذاتي للانسان البدوي ، والضلع الثاني هو البيئة الطبيعية المحيطة به بكل ثوابتها ومتغيراتها . والضلع الثالث هو نمط حياته اليومية الأكثر تغيرا وترددا بحيث إن الكثير من العادات القديمة تلاشت وانتهت واندثرت بسبب عدم الحاجة اليها . وبرزت معطيات جديدة في الحياة الاجتماعية وفي الحياة اليومية استدعتها ظروف الحياة الجديدة . واستدعت قيام عادات جديدة . وكانت القفزة الرئيسية ترتبط بمطالع عام ١٩٧١ . لقد كان الأردن في ذلك الوقت يمر بطفرة اقتصادية ارتفع فيها المنحنى البياني لدرجة لا يتصورها العقل ، واستمر

ذلك حتى عام ١٩٨٥ حيث ثبت الخط البياني ، ثم بدأ يتراجع بعد ذلك العام بما يسمى العودة الى الظروف الطبيعية الجديدة التي تغيرت معها العادات القديمة .

فقد تلاشى ركوب الجمل لقطع المسافات أو للانتقال من مكان إلى آخر . وأصبحت السيارة الخاصة أو « البيك آب » هي الوسيلة ، السيارة استلزمت ظروفا جديدة ، فالإبل كانت تحتاج للعلف والمرعى بينما السيارة تستلزم وجود البنزين وقطع الغيار والزيوت والطرق المعبدة ومحطات الوقود ، كما أن وجود السيارة سهل أن يكون هناك مذياع مما يتيح الاتصال بالعالم الخارجي . إذن نمط الحياة تغير ، فالبدوي الذي كان يستخدم المرسال لابلاغ الخبر أصبح يستخدم الهاتف ، والذي كان يمتلك قطيعا من الماشية أصبح يستهدف أن يحصل ابنه على شهادة علمية عالية . وأنا أضرب بذلك مثلا بسيطا جدا ، فأنا بدوي ، رعيت في بداية عمري الغنم والابل وأنا حافي القدمين ، وكنت أقيم بشكل دائم مع أهلي وأبناء عشيرتي « الحوارث من بني عباد » في بيوت الشعر ، بكل ما يستلزمه هذا النمط من الحياة . الآن معي دكتوراه من كمبردج ببريطانيا وأقوم بالتدريس في الجامعة بدرجة استاذ ولي ٣٦ مؤلفا ، وأخي راشد جراحة النخاع العظمي في الأردن ، وقد أجرى حوالي ١٥ عملية جراحية عالية . وبقية إخوتي مهندسون وأطباء كانوا من قبل يعيشون حياة البداوة ، في وادي السير .

كانت هذه هي نقطة الانطلاق التي أردنا أن تكون بداية جولتنا ، ففي وادي السير ـ حيث منطقة إقامة أبناء قاسم العويدي أحد أفخاذ عشيرة بني عباد ـ توجد دار مرافقنا ، وهي مناسبة لنشهد التحول الذي يحدثنا عنه على الطبيعة .

حوار في وادي السير

انطلقت بنا السيارة من عمان في طريقنا إلى وادي السير . . على طول الطريق الذي ترتفع على يمينه التلال العالية ، وتهبط على يساره الوديان ، كنا نشاهد غابات خضراء من أشجار الزيتون حلت كلها محل أشجار البطم والبلوط التي تم اقتلاعها لاستصلاح الأرض وتحويلها الى مزارع للخضراوات والفواكه ، بعد أن انتقلت عشائر البدو الرحّل الى الزراعة بدلا من الرعي ، وصاروا مزارعين مستقرين ، وعملوا في مهنة الفلاحة التي كانوا يحتقرونها من قبل ، ويتأففون من ممارستها . ولعل مازاد اقتناعهم بهذا التحول خصوبة التربة مع توافر الأمطار والآبار ، بالاضافة إلى قربهم من المدينة التي تؤمن لهم بيع منتجاتهم وشراء حاجاتهم .

تحت خيمة من خيام الشعر المتناثرة على أطراف وادي السير ، والمطلة على المزارع الخضراء بعيدا عن البيوت الحجرية ، جمعنا لقاء مع مجموعة من شيوخ وشباب عشائر بن عباد . ودار الحديث وتلاحمت الآراء وتوالت المعلومات . . .

قال الشيخ : المجتمع الأردني الأصلي هو مجتمع العشيرة التي كانت في مرحلة من المراحل مرحلة بداوة بدائية ، قضية البداوة الآن تكاد تكون قد انتهت ، ونحن نعيش حياة تحضر كاملة .

هز الدكتور أحمد رأسه وقال : إن أكبر دليل على ذلك أنكم شاهدتم بأنفسكم ذلك البدوي الذي يعيش بجانب بيت الشعر ، وعنده الناقة والعنزة ، ومع ذلك فإن عنده (موتور) الكهرباء (وموتور) المياه ، وعنده أيضا كاميرا الفيديو ، وبالتالي فعنده القدرة على الجمع ما بين العصرية المتطورة وبين التقليدية المتناهية . فالانسان البدوي لديه قدرة المزج ليجمع بين الجانبين .

قال أحد الشباب : نحن نتوجه الآن نحو شيئين مهمين : الأول هو تحسين الذات ، بمعنى الاتجاه إلى الدراسة والعلم وتحسين الوضع المادي ، من خلال الوظيفة ، ومن خلال المساعدات الحكومية ، ومن خلال العمل . والشيء الثاني هو التجذير في الأرض ، فصاحب الأرض أصبح يستغلها ويحفر فيها البئر ويمد لها القناة ، وهو يقوم بزراعتها لأن الزراعة ـ وبخاصة تلك الشجيرات التي تراها حولنا مثل العنب والتين ـ مجدية ومربحة جدا .

قال فتى آخر : هناك نقطة مهمة جدا في حياة ابن العشيرة وهي الغيرة ، فالناس تغار من بعضها البعض ، من ينفذ مشروعا يجد أن عشرين أو ثلاثين يقلدونه ، ثم يقلدهم مائتان وثلاثمائة ، ثم ألفان وثلاثة آلاف وهكذا دواليك . فأنت تجد البيوت الخضراء قائمة في الصحراء مثلما هي في الغور . لقد

أصبحت الحياة هكذا في متناول أيدي البدو كلهم .

قال الشيخ : الحقيقة أن كلمة البداوة قد اختفت منذ بداية الثمانينيات ، معنى البداوة لم يعد موجودا لا في البيئة ولا في المجتمع . إنما هناك مع ذلك التركيبة العشائرية وهي التركيبة السائدة . انظروا أمامكم الى هذه السهول تروا مئات البيوت الحجرية ، ولا يظهر بينها سوى بيوت شعر قليلة متباعدة ، قبل عشرين أو ثلاثين سنة كان في هذا المكان عشرون أو ثلاثون بيتا من بيوت الشعر ، الآن كما ترون ليس فيه سوى هذا البيت الذي نجلس فيه .

من يكره الحلال

واصلت السيارة الصعود بنا من وادي السير إلى عراق الأمير في الطريق الى السويسة . البيوت الحجرية المتناثرة يعلو كلا منها سخان شمسي إلى جانب هوائي التلفاز وموتور الكهرباء بينما في المزرعة حول كل بيت تمتد الصوبات حيث الزراعة المغطاة للخضر والفواكه . مشهد الوادي الأخضر صورة رائعة من الجمال ، بينما تطل على الجوانب الجبال والوديان تعلو بعضها أبنية حجرية أكثرها قصور يقضي فيها أصحابها فترات الصيف حيث أجمل البقاع في الأردن مناخا ونسيما . وكان من النادر أن نرى بيتا لا توجد أمامه سيارة أجرة أو خاصة أو نصف نقل . أبدا لم تعد هذه هي صورة البادية التي نعرفها . لقد أحيلت البداوة بالفعل الى التقاعد . . !

بقرب مزار « بلال بن رباح » الذي يقال إنه مات ودفن في السويسة ، التقينا ببدوي عجوز كان قد انتهى من الزيارة وقراءة الفاتحة ، ثم وقف يتأمل الوادي أسفل المزارع في حسرة ، أردنا أن نبدأ معه الحديث فقلنا له :

ـ الخضرة على سفوح التلال رائعة والأعشاب تنمو بشكل كثير كبير

قال وهو يتأفف : وما فائدة هذا العشب إذا لم توجد مواش ترعاه ؟

قلت : وهل تحب الماشية ؟

قال : إنها الحلال . . ومن يكره الحلال ؟

قال له مرافقنا : وهل رعيت في حياتك أو اقتنيت الأنعام ؟

قال نعم . كلاهما

وسألناه . وكيف ؟

قال كان عندي مائتا رأس من الغنم وسبعون نعجة ، إلاأن زواج الأولاد وذهابهم للوظيفة بعد إكمال دراستهم وتقدم السن بي قد قلّل من « الوالي » ؟

نظرت الى مرافقنا متسائلا هل كان هنا ولاة ؟

قال . الوالي هو من يرعى شئون القطيع ولعدم وجود من يقومون بهذه الرعاية بعد أن تركه الأبناء الى المدينة اضطر الى بيعها .

ونظر إلينا البدوي الشيخ وهو يقول . أحلف لكم برأس بلال الذي خرجت من مزاره الآن ، أنني أتحسر كلما رأيت مرعى جيدا وأتمنى على الله أن يتحول الى صوف وزبدة ولبن . !

نساء بني حميدة

الصورة التي شاهدناعليها وادي السير والسويسة كانت مخالفة تماما لما شاهدناه في منطقة عشائر بني حميدة .

كان الدكتور هاني الخصاونة وزير الإعلام حين استقبلنا بحفاوته قد أشار علينا بخط السير لزيارة معالم البادية وقال :

ـ صحيح أنكم ستشاهدون على الطبيعة جوانب متطورة من معالم البادية ، وستلمسون بأنفسكم مدى النقلة الحضارية والتحديثية في حياة البدو . ولكني مع هذا أوصيكم بألا تضيعوا فرصة زيارة مشروع بني حميدة للصناعات التقليدية في مكاور فهناك ستشهدون صورة رائعة للعمل الاجتماعي

وهكذا كان اتجهنا أولا الى جبل اللويبدة حيث مؤسسة إنقاذ الطفل التي تتولى إدارة التجربة وتشرف عليها الملكة نور الحسين

في البداية نتعرف على مشروع بني حميدة من الآنسة غادة حبش :

المنطقة التي ينفذ فيها المشروع ، تقع في مكاور حيث مجموعة من أفخاد عشائر بني حميدة هم العقايدة والشورة فقبل حوالي عشر سنوات استقرت ٤٠٠ عائلة من بدو هذه العشيرة مع قطعانهم على سفوح جبل مكاور . وعلى الرغم من أنهم نصبوا بيوت

● نساء بني حيدة صورة نموذجية للعمل الاجتماعي التعاوني، وحين تتحدث «أم خلف» الى مندوب العربي فإنها تؤكد وهي تغزل الصوف وتنسج البسط أن العائد المادي الذي يتيح زيادة الدخل لأسرتها ليس وحده ما يهمها .. فهناك ربح أهم وهو المحافظة على التراث البدوي التقليدي حتى لا يضيع مع الزمن .

الشعر على السفوح إلا أنهم لم يستخدموها إلا في فترات الصيف أثناء رعي الأغنام ، بينما بنوا مساكن بسيطة لإقامتهم الدائمة من الأسمنت والحجر ، وبدأوا يرسلون أبناءهم الى المدارس الحكومية القريبة . ولكن تحولهم من حياة الترحل إلى التحضر لم يكن سهلا ، فشح الأمطار وقسوة الأرض لم تشجعهم على الزراعة ، واضطر رجال العشيرة الى القيام بأعمال يدوية ضئيلة ، أو المغادرة إلى مناطق أخرى يجدون فيها عملا ، تاركين نساءهم وأبناءهم أياما وشهورا . وكان على النساء القيام برعاية شئون أنفسهن وأبنائهن خلال فترات الغيبة الطويلة للرجال .

وفي سبتمبر من عام ١٩٨٥ زارت المنطقة لجنة من المؤسسة التعاونية لإنقاذ الطفل التي تساهم فيها اليونيسيف ، وشاهدت مقدار معاناة هذه الأسر البدوية التي تقضي أيامها في شظف من العيش . وكانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذها هي إمدادها بدخل معقول لمواصلة تحمل أعباء الحياة . وهكذا تم تنفيذ مشروع لتشغيل الأمهات في الصناعات التقليدية التي تتيح لهن دخلا يقيم أودهن ويسهل لهن رعاية أطفالهن .

تقول السيدة (ربيكا سالتي) مديرة المؤسسة : سألنا أنفسنا كيف نستطيع مساعدة هؤلاء الأمهات ؟ وشاهدنا أمامنا مشهدين : الصوف الذي يغطي ماشيتهن ، والبسط التي تغطي أراضي بيوتهن . حينئذ وجدنا الاجابة .

فالنساء البدويات يستطعن غزل الصوف . وقد عودتهن حياة البداوة على نسج بيوت الشعر وجوانب الخيام ، وأسرجة الخيول ، والحقائب والطنافس والبسط والأشغال اليدوية التقليدية . وما ينقصهن هو تزويدهن بأصواف ملونة ، وتقديم الإمكانات التي تتيح لهن الإنتاج وبيع هذه المنتجات .

هكذا كان مولد المشروع الذي ذهبنا لمشاهدة أروع مظاهر نجاحه عندما قمنا بزيارة أمهات بني حميدة في قراهن الإحدى عشرة المتناثرة على سفوح جبل مكاور . .

صحبتنا السيارة الجيب الخاصة بالمؤسسة ، يقودها المشرف التنفيذي على المشروع هايل الحنيطي ، ومعه المشرفة على التصنيع نهى منصور ، ومعها بعض احتياجات التشغيل ورسوم التصاميم الجديدة المطلوبة للتنفيذ .

مكاور ورأس المعمدان

الطريق إلى مكاور ومشاهد البادية على امتدادات الوديان والسفوح والجبال تستحق التسجيل ، في البداية سرنا على سفح جبلي فوق طريق متعرج وسط الوادي المزروع بالقمح تارة والزيتون تارة أخرى ، حتى وصلنا إلى تلة عالية فيها خزان ماء بجوار خرائب أثرية هي بقايا « الدير » يسكنها بدو من أفخاذ الربطة والفقهاء من الحمايدة ، يعيشون على الزراعة التي تتيحها لهم مياه الخزان . وتدل المؤشرات على سفوح التل الأثري القديم أنها كانت أرضا عامرة بالكروم والسكان ، كما تعج التلة بالكهوف والآبار التي ماتزال قادرة على الاحتفاظ بالماء حتى الآن . وتوجد دور قديمة من الطين والحجر تستخدم الآن للتخزين .

ونصل إلى جبل مكاور في النهاية . الجبل بارتفاع ٧٣٠ مترا عن سطح البحر ، و١٢٢٥ مترا عن سطح البحر الميت المطل عليه ، ونقف لنطل أمامنا إلى القلعة التي تشرف من الجانب الآخر على الغور وعلى جبال جنوب فلسطين والقدس .

يقول مرافقنا وهو يشير الى قمة الجبل : إن الاعتقاد السائد هو أنه في هذه القلعة حدثت مأساة قطع رأس النبي يحيى « يوحنا المعمدان » بعد أن سجنه هيرودس ، ولذلك تسمى « المشنقة » . ويقال لنا : إن من الصعب الوصول الآن إلى الجبل لوعورة الطريق إليه . ولكن الحفريات الأثرية أكدت وجود القلعة عليه حيث اكتشفت آثار قديمة وأسوار وبنايات ، وقد كان يحيط بالجبل عدد من الكهوف التي كان بنو حميدة يسكنونها في الشتاء ويستخدمونها لإيواء الحيوانات . .

حديث أم خلف

ونغادر المكان لنواصل سيرنا إلى قرى بني حميدة ونلتقي بنسائها ونشاهدهن أثناء قيامهن بالعمل . .

قالت لنا « أم خلف » وهي تجلس مادة ساقيها أمام النول اليدوي وتنسج بساطا طويلا بديع الألوان : شاركت في المشروع منذ بدايته . فقد دعت مديرة

المؤسسة عددا من نساء بني حميدة ممن يجدن الغزل والنسج ، وأبدين استعدادا للعمل . وكانت هذه هي أول مرة في حياتنا نحضر مثل هذا الاجتماع لمناقشة إمكانية مشاركتنا مع غرباء في الغزل والنسج . كنا حذرات وغير مقتنعات بالعمل الذي يمكن أن يشغلنا عن رعاية أبنائنا . ولكن المديرة قالت لنا بعد أن بدأت وعدد من زميلاتي نستجيب للفكرة : نحن كلنا أمهات وكلنا نريد أن نهتم بأطفالنا ، فالعمل لن يتم خارج بيوتكن ، ونستطيع أن نجلب إليكن الأجهزة والأدوات اللازمة الى البيوت ، فتنجزن العمل وتقمن في الوقت نفسه برعاية أبنائكن وأفراد أسركن .

تواصل أم خلف قائلة : اقتنعت بالفكرة وعرضت أن أضع نفسي تحت التجربة ، فقد كانت لي خبرة جيدة في غزل ونسج حاجاتنا في بيت الشعر . وتبعتني خمس نساء أخريات ، وأمدتنا المؤسسة بالأنوال وبدأنا نعمل داخل بيوتنا . وخرجت من بين أيدينا أعمال تقليدية كثيرة كانوا يشترونها منا بالثمن على الرغم من أنهم يحضرون لنا الخيوط الصوفية ويصبغونها ، ويمدوننا بالرسوم والتصاميم ولا نتكلف أي عبء إلا العمل وحده . وأنا أحصل كل شهر على ما يتراوح بين ستين وثمانين دينارا حسب الكمية التي أنجزها وأسلمها للمشرف التنفيذي والمستشارة الفنية التي توجهنا وتساعدنا باستمرار .

في بيت آخر وجدنا أسرة بكاملها تشارك في العمل . الأم تسلمت بكرات الغزل الملونة التي جلبتها المشرفة وبدأت تعد مغزلها . ابنتها الكبرى كانت تجلس على النول وتنهي نسج سرج ملون وإلى جانبها بعض طنافس لنسجها وحياكتها لتسليمها الى المشرفة لتحصيل قيمتها . الأخت أمامها وعاءان فوق النار تسقط فيهما كرات غزل بيضاء تسلمتها لصباغتها ، فهي إحدى أربع فتيات يتولين صباغة الصوف بالألوان . الابنة الصغرى لجأت إلى ركن مطل على التلة تستذكر دروسها استعدادا للامتحان بينما إخوتها الصغار يتقافزون ويلعبون دون أن يعطلوا أحدا أو يشغلوه عما يؤديه من عمل .

قالت لنا المشرفة نهى منصور : مراحل العمل تبدأ منذ شراء الصوف الخام محليا ، ثم نعطيه للنساء هنا فيقمن بغزله ثم تبدأ عملية الصباغة . وحسب التصميم الذي نكون قد جهزناه نحضر كمية الصوف اللازمة للمفرش أو البساط ونضعها في أكياس ، كل كيس منها لاحدى نساء الأسر اللاتي يقمن بالنسج ونعطي الإنتاج عندما نتسلمه منهن أرقاما ونرسله الى المؤسسة التي يقدر المتخصصون فيها قيمة كل قطعة . أما البيع فتتولاه المؤسسة وخاصة بعد أن أصبح الإنتاج متميزا ، وبدأ السائحون والزوار وأعضاء السفارات الأجنبية يشترون القطع التي تعبر عن الفنون الشعبية والصناعات التقليدية الأردنية .

وأضاف هايل الحنيطي : الانتاج الذي تقدمه نساء البادية في بني حميدة يعبر عن التراث الشعبي والتقاليد البدوية الأصيلة ، تنقل من الماضي الى الحاضر للاحتفاظ بهذا التراث حتى لا يضيع مع الزمن بالاضافة إلى إتاحة الفرصة للنشاط الاجتماعي وزيادة الدخل الأسري الذي يعين البدوية على العمل والانشغال به ، كما يتيح لها فرصة الحصول على عائد مادي يزيد من دخل الأسرة هذا الانتاج التراثي يباع محليا في مدن الأردن كما يسوق في الخارج العمل يجري في القرى تحت إشراف إحدى الفتيات المتعلمات من نفس العشيرة ، تقوم بتدريبهن وتعليمهن الرسوم والمخططات المطلوبة ويتولين بعد ذلك تدريب النساء ، ومتابعة العمل

إن عدد النساء العاملات المشاركات في مشروع بني حميدة يبلغ ٣٧٥ امرأة بالاضافة إلى ١٧ مشرفة وعاملة في التحضير والإعداد والأعمال المكتبية ، وكلهن من نفس العشيرة ومن بنات نفس النساء . .

حمامات ماعين

وننطلق عائدين من بني حميدة لنمر في طريق عودتنا بإحدى معالم البادية الأردنية المثيرة . حمامات ماعين . .

فمن قمة جبل بازلتي على مسافة سبعة وثلاثين كيلومترا من مأدبا ، تنحدر شلالات من المياه المعدنية الكبريتية الحارة تصل سخونتها من ٥٥ الى ٦٠ درجة مئوية . هذه المياه استقطبت الباحثين عن الاستجمام والمتجمعين منذ أكثر من ألفي سنة عندما كان الملك هيرودس الأدومي يطلب الشفاء في حمامات زرقاء ماعين وينابيعها المعدنية الحارة .

● الفجوة .. في داخل مغارة أصحاب الكهف، حيث قضوا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا. وعلى الجانبين حفرت في الصخر قبورهم التي دفنوا فيها قبل إغلاق الكهف عليهم «الصورة العليا» أما الى اليسار فيبدو قصران من القصور الأموية الصحراوية، قصير عمرة، ثم قصر الحرانة.

● الشيخ عتيق بوربعين من عشيرة الزلابية ، يأبى إلا أن يواصل العيش بأسلوب البدو، متنقلا في صحراء وادي رم (أعلى) . وشيخ عشيرة البدول سلامة الفقير أمام بيت شعره في البتراء (أسفل) .

وكانت الشلالات تتساقط من أنحاء كثيرة ، ويبدو أن أغلبها ناله الجفاف إذ لم يبق منها إلا شلالان يتساقط الماء منها بغزارة ، ويتمدد المستحمون تحت مصب الشلال الرئيسي للاستمتاع والاستشفاء بالمياه المعدنية الحارة . أصبحت الحمامات الآن من أشهر المتجعات المعدنية في الشرق الأوسط ، ويؤمها الناس من الداخل والخارج للراحة والاستجمام . وقد قامت الحكومة بتطوير هذا الموقع السياحي المهم وتزويده بالمرافق والمنشآت حيث أقيم فندق ومجموعة من الشاليهات والمطاعم ، وأمكنة خاصة للاستحمام في مياه الشلالات والينابيع .

قال لنا أحد أبناء البادية المتحضرين التقيناه بعد أن قضى عدة أيام للإستجمام : إن البدو الذين يعيشون قرب هذه الحمامات يأتون إليها مرة كل سنة على الأقل حيث ينصبون خيامهم على مسافة غير بعيدة منها ، كما أن العشائر المقيمة في بيوت الحجر في القرى القريبة منها يأبون أن يدعوا الاستمتاع بها للسائحين فيشاركونهم بالزيارة والاستجمام في مياهها . وهم يسمونها حمامات « سليمان بن داهود » اعتقادا منهم بأن سليمان الحكيم أقام هنا حماماته . وكان البدو قبل سنوات يعتقدون أن الجن تسكن في ينابيع المياه ، وأن بعض الجن المقيمين في منابع المياه « مؤمنون » لذلك قدسوا بعض تلك الينابيع ، واستشفوا بها وكرموها بالذبائح ، وبخاصة مياه زرقاء ماعين ومياه عين زارة التي تبعد عنها بحوالي ٤ كم ويسمونها « عين الحياة » .

حين كنا نطل على مياه البحر الميت في طريق عودتنا من حمامات ماعين ، رحت أقلب صفحات كتاب « معلمة التراث الأردني » لروكسي بن زايد العزيزي حيث أورد إجابة لأحد طلاب الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية ، حين سئل عن ما هي « عين الحياة » فقال : « في معتقداتنا البدوية الشعبية أن الله خلق بحيرة كانت في مكان البحر الميت ، ماؤها عذب مقطر والغرض منها أن يشرب ماءها كل كائن بلغ الشيخوخة لاستعادة شبابه ، لكن آدم وحواء لما أخطآ حول تلك البحيرة تحولت إلى بحر ميت لا يعيش فيه حي ولا يمكن شرب مائه . ولما تكاثرت جرائم بني آدم أمطرهم الله نارا وكبريتا وأبقى البحيرة المنتنة شاهدا على قدرة الله . ورفع البحيرة الأولى التي فيها « مية الروح » أو « مياه الحياة » الى السماء الاولى . يمر عليها الانسان الصالح بعد موته ويشرب منها فترد له الحياة وينتظر الدينونة . . . ! »

مغارة أهل الكهف

ونترك « مياه الحياة والخلود » لنلتقي بإحدى العبر السماوية لمعنى الحياة والبعث . . أصحاب الكهف .

فعلى مسيرة حوالي ١٣ كم جنوب شرقي عمان ، وعند منطقة « الرجيب » في « خربة السوق » التي تسمى « الجويفر » نصعد الى ربوة مرتفعة عن الطريق العام ، يقوم على جانبها كهف منحوت في الصخر ، على مدخله لوحة كتب عليها « كهف أهل الكهف ، قبور بيزنطية ، وردت قصتهم في القرآن الكريم » . وأمام مدخل المغارة الذي يرتفع ١٩٠ سم نقف عند بقايا شجرة زيتون أحيطت بسياج ، ذكرت في كتاب ابن اسحق الثعالبي .

قال لنا الامين على الكهف الشيخ عبدالله حمد الشوبكي : « هذا المدخل كان عليه قبل ذلك باب من الصخر حين أغلق على أصحاب الكهف بعد موتهم ، وهذه الزيتونة كانت قائمة في زمنهم لما دخلوه وبقيت حتى زماننا . وقد صدرت الأوامر بقطعها بعد أن وجد أن بدو المنطقة يقسمون بها ويقدسونها ويتبركون بملامستها » .

ونحني رءوسنا لندخل من باب الكهف مارين بالعتبة التي تسمى « الوصيد » وكان يرقد عليها « كلبهم » كما جاء في القرآن الكريم . يبلغ عمق الكهف حوالي ثمانية أمتار ، وفي صدره الفجوة التي اتخذها أصحاب الكهف مرقدا لهم حين دخلوه هاربين بإيمانهم من طغيان الملك دقيانوس . في الجدار الخلفي للفجوة عرضت مجموعة من الآثار التي وجدت في الكهف عند اكتشافه ، فيها قطع نقد رومانية وبقايا أوان فخارية وجمجمة كتب تحتها أنها الفك الأعلى لرأس الكلب الذي كان يحرس أصحاب الكهف . الجدران مليئة بالخطوط والنقوش الثمودية واليونانية القديمة والكوفية . في ركن الجدار الأيمن توجد كوة تتجه نحو الجنوب الغربي توصل من قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء . على الجانبين من الفجوة في ساحة الكهف نحتت قبور محفورة في

الصخر ، أربعة على اليمين وأربعة على اليسار ، يقول لنا الشيخ الشوبكي إن حفرها تم بأمر الملك البيزنطي الذى بعثوا في عهده ثم ماتوا وكان عددهم سبعة بينهم الراعي الذي كان معم وثامنهم كلبهم . ولكن قبل أن يغلقوا عليهم الكهف تدارك الملك الأمر حين قال له رجاله إنه لايجوز دفن الكلب مع الصالحين ، لأن الملائكة لاتدخل مكانا فيه كلب ، فتركوا الكلب خارج ساحة الكهف ، ودفن على الوصيد ، أي عتبة الباب .

أدلة قرآنية

قال لنا عالم الآثار الذي صحبنا أن اكتشاف الكهف وتحقيق المكان قام به الأثري رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار ، حيث ابتدأ الحفر في ١٠ يونيو ١٩٦٣ وانتهى منه في ٣١ اغسطس في نفس العام . وقد سجل ذلك التاريخ على لوحة ثبتت عند الجدار الأيمن وكتبت تحتها الآية الكريمة « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » (الكهف)

وقد كان علينا أن نرجع الى من يمكن أن يفتينا حول انطباق ما جاء في القرآن الكريم على كهف الرجيب . فقال لنا الدكتور عبدالعزيز كامل الذي زار المنطقة مرتين : قرأت عن الكهف قبل الزيارة ، وراجعت ما كتب الزملاء الأردنيون الذين قاموا بالحفر العلمي ، وتولوا مناصب مسئولة في دار الآثار ، كما أعانني الإخوة في وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية والمقدسات الاسلامية على القيام ببعض القياسات والأرصاد العلمية الوثيقة الصلة بتفسير هذه الآية ، والتي تذكر بتفصيل حركة الشمس طلوعا وغروبا وعلاقة أشعتها بالكهف ومن فيه وهم في فجوة منه .

فالكهف في موقع من المناطق الجبلية في الأردن كثيرة الكهوف ، وفي تصوري أن الفتية ـ والله أعلم ـ اختاروا كهفا منه ، وأكثروا من الذهاب اليه وعرفوه واطمأنوا له . هو مكان إيواء ، وهو غير بعيد من المدينة بحيث استطاعوا هم أن يذهبوا إليه راجلين ، واستطاع أحدهم بعد الاستيقاظ أن يذهب راجلا إلى المدينة ليحضر الطعام . وقد درست قبل ذلك عددا من الكهوف التي نسب إليها أهل الكهف ، وأهمها في إفسوس وطوروس فاستبعدتها لأنها ذات فتحات لا تتفق في سقوط الشمس عليها مع ما جاء في الآيات الكريمة ، ولكن ذلك ينطبق على كهف الرجيب ، أي الفتحة الجنوبية ، ويقع على خط عرض ٣٢ درجة شمالا تقريبا وعند زيارة الكهف ورصد الفتحة وجدت أنه لم يكن نحو الجنوب الجغرافي مباشرة وإنما كان نحو الجنوب الغربي وكان وقت الزيارة في الأصيل وشعاع من الشمس الهادئة يدخل باب الكهف . فإذا كنت في الكهف وطلعت الشمس وكانت الفتحة نحو الجنوب العربي تزاورت الشمس عن الكهف ذات اليمين وتمر أشعة الشمس بقوتها أمامك تكشف المرائي والآفاق وحين تتوسط السماء لا تدخل الكهف ثم عندما تميل الى الغروب تدخل بعض أشعتها في فجوة الكهف وشمس الأصيل هادئة غير قوية كشمس الصباح . ثم هناك الفتحة أو الكوة الموصلة بين قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء ومن فوقها صخرة . ومن الممكن قفل الكوة أو إطلاق الهواء فيها حسب حاجة من بالكهف . هذه الفتحات العمودية معروفة في كثير من الأقطار المعتدلة والمدارية ، والذين استخدموا هذا الكهف أفادوا من الفتحة إن كانت على عهدهم وهذا هو الأقرب ، أو أفاد منها من جاءوا من بعدهم وأفادوا من الكهف إقامة أو عبادة أو استراحة على طريق الرحلة

ونعود الى ما قاله مكتشف الكهف رفيق الدجاني في كتابه « اكتشاف كهف أهل الكهف » : كهف الرجيب ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم ، وياقوت الحموي في معجم البلدان ، كما ذكره البيروني في كتابه « الآثار الباقية » وغيرهم وإذا كان المسلمون منذ صدر الاسلام ، هم في شك من مكان أهل الكهف ، فإن حفريات الرجيب ألقت ضوءا مرجحا لهذا الكهف في الأردن على الكهوف الأخرى وبقايا الكنيسة (أو المسجد) فوق كهف الرجيب تماما كما جاء في القرآن وعلامات الصليب على الحجارة واضحة وكذلك على الحجارة التي كانت تغطى المدفن . وقد ظهرت في الكهف عند الحفر ثمانية مدافن أساسية منحوتة في الصخر ، وهي بيزنطية استدل عليها من الزخرفة التي عليها ومن النقود

● واجهة «خزنة فرعون» في قلب البتراء (الصفحة المقابلة) والجرة في وسط الطابق الثاني كانت هدفا لرصاص البدو الطامعين في الذهب . والى أعلى يجلس البدوي متأملا سفوح الجبل . بينما أحد أبناء بادية البدول منهمك في صناعته التقليدية يملأ الزجاجات الصغيرة بالرمال الملونة مشكلا منها لوحات فنية رائعة يتلهف عليها السائحون .

النحاسية التي عثر عليها أثناء الحفر ، ومن قطع الفخار أيضا . وقد أعيد ترميم الفجوة في عهد الأمويين ، وكانت جدرانها من الحجارة فهدمها الأمويون وبنوها بشكل أقواس إسلامية وشكلوا مكان سقوط أشعة الشمس .

وقد ثبت أن المسلمين الأوائل بنوا المسجد فوق جدران الصومعة تماما دون تغيير في المساحة وأضافوا المحراب الى الحائط الجنوبي وهو حائط القبلة . وأقدم تاريخ للمسجد يرجع الى عهد عبدالملك بن مروان .

القصور الصحراوية في البادية

على طول بادية الوسط الممتدة من منطقة زيزيا الى منطقة البويضة في لواء إربد ، تحتل عشيرة بني صخر أقوى العشائر الأردنية مساحات واسعة عامرة بالمزارع وبالخضرة والمراعي الشاسعة بإبلها وماشيتها . وهي عشائر تتوزع بين المدينة والقرية والحياة البدوية وشبه البدوية تزاوج بين بيت الشعر وبيوت الحجر المقامة على أحدث أنماط العمران والتقنية . على مشارف هذه المنطقة نجد أنفسنا مع بداية الخط الأثري المتوازي مع البادية . حيث يأخذنا مرافقنا الى القصور والحمامات الصحراوية المنتشرة في ربوع البادية الواقعة الى الشرق من عمان . وتنسب هذه القصور الى الأمويين الذين عملوا على إقامة منشآت لها علاقة بجمع مياه الامطار وخزنها وأبرز ما شهدناه من هذه القصور قصير عمرة بلوحاته الجدارية الملونة وحماماته وكذلك قصر المشتى وقصر الخرانة .

ولاشك أن القصور الصحراوية في البادية الأردنية معالم بارزة على جانب من الأهمية لأنها أكثر الأبنية فخامة وأصالة من العصر الاسلامي المبكر . .

قلاع على سيف البادية

الخط المتوازي الذي يسير جنبا الى جنب مع البداوة هو المعالم الأثرية التي تمتد بطول البادية الأردنية من الشمال الى الجنوب وفي الشرق والشمال الشرقي والتي كانت أغلب مغاراتها أماكن إقامة بديلة للبدو الى جانب بيوت الشعر .

الآثار والقلاع كما زرناها توجد على طول ما يسمى بسيف البادية ، وهي سلسلة الجبال الشرقية لنهر الأردن بدءا من قلعة الربض في عجلون وقلاع عمان وحصبان ثم ذيبان ثم قلعة الكرك والشوبك ومعان والعقبة . هذه القلاع موغلة في القدم منذ أن كانت الشعوب والأمم والدول تقوم في شرق الاردن . فقبل الميلاد قامت اربع ممالك هي مملكة الأدوميين وعاصمتها بصيرة بجانب الطفيلة ، ومملكة المؤابيين وكانت عاصمتها الكرك ثم ذيبان قرب منطقة عشائر بني حميدة ، ومملكة العمونيين وعاصمتهم عمان ، ومملكة الحشبوسيين وعاصمتهم الحصبان ، ثم مملكة البيسانيين وعاصمتهم في منطقة شمال الأردن ، وفيما بعد جاء الأنباط وجَعلوا عاصمتهم البتراء . تعاقبت هذه الأمم على الأردن باعتبارها منطقة ممر ومستقر ، وبالتالي نقطة التقاء للمنطقة الصحراوية من الشرق والجنوب والبوابة العسكرية الرئيسية لمنطقة شمال الجزيرة العربية ، والبوابة الشرقية للمنطقة الخضراء وهي فلسطين والشام وكذلك مصر . من هنا فإن جميع الدول التي سيطرت على فلسطين حاولت أن يكون لها قلاع في شرق الأردن لكي تحمي نفسها من هجمات البدو ، سواء بدو الأردن أنفسهم أو بدو الجزيرة العربية ، بما فيهم بدو الخليج العربي وبدو منطقة العراق عندما كانوا يأتون الى هذه المنطقة . ولذلك فإن هذه القلاع الكثيرة في بادية الأردن تشكل خط المواجهة سواء بالنسبة للأمم الخضراء مع الصحراء أو بالنسبة للأمم الصحراء مع الخضراء .

البتراء . . والعرب الأنباط

على ان الأبرز من العواصم والقلاع في بادية الاردن هي البتراء التي كانت عاصمة الانباط ، وهم البدو القادمون من شبه الجزيرة العربية ، ويبدأ بهم تاريخ البادية العربية الأردنية . .

الأنباط كانوا قبيلة كبيرة ذات زعامة قوية جاءت من شمال شبه الجزيرة العربية ، وحطت رحالها عند عيون وادي موسى جنوب الأردن كمصدر دائم للماء ، علاوة على توافر الكلأ والأشجار في المنطقة ، وهو ما تعتمد عليه حياة ماشيتهم الكثيرة ، وهكذا أقاموا بالمنطقة حيث طيب الهواء والماء والخيرات في أرض صالحة للزراعة ، فتعايشوا مع الأدوميين حتى

تمكنوا بالتدريج من السيطرة على المنطقة ودفع الأدوميين الى جنوب فلسطين ، واتخذوا البتراء كمكان مقدس لدفن موتاهم ، ثم حولوها فيا بعد الى عاصمة لأول مملكة بدوية عربية .

في آثار البتراء « المدينة الوردية »،عاصمة العرب الأنباط القدامى ، كانت لنا وقفة وجولة لا نستطيع أن نتجاهلها ، وبخاصة أنها كانت المستقر الأول للبادية الأردنية التي جئنا لاستطلاعها .

لا نكاد نترك فندق « الفورم » القائم على مدخل المدينة حتى نجد أنفسنا ننحدر تدريجيا نحوالوادي ، لنواجه في طريقنا الى باب المدينة المسمى « بالسيق » بثلاث كتل ضخمة مقطوعة من الصخر يطلق عليها اسم « صخور الجان » قال لنا عنها مرافقنا السياحي نيازي أنها قبور نبطية مبكرة لم يكتمل حفرها ، كما نجد إلى يسارنا ضريح المسلات في أسفله قاعة الاحتفالات الجنائزية . المسلات عددها أربع ذات تأثيرات مصرية واضحة .

وندخل « السيق » وهو مدخل المدينة وطوله ألف ومائتا متر وعرضه في بعض الأماكن لا يزيد عن مترين وارتفاع جدرانه الصخرية يتراوح بين ثمانين ومائة متر . ونطل حولنا في ذهول الى أجمل اللوحات الطبيعية .

فهذا المدخل عبارة عن شق ضيق وعميق بين صخور جبلين شاهقين تتراكب فيه الألوان بين الأبيض والأصفر والأحمر المخملي والبنفسجي ، وفيه آثار قنوات محفورة بالصخر لجلب المياه من عين موسى الى وسط المدينة .

أرضية السيق رصفت بحجارة ضخمة لا يزال بعضها قائما حتى الآن . قطعنا الطريق سيرا على الاقدام على أرضية كلها من كسر الحجارة التي يصعب السير عليها ، ولهذا يلجأ أغلب السائحين الى قطع المسافة فوق ظهور الخيول . على جانبي السيق محاريب صغيرة حفرت في الصخر تمثل الإله « ذو الشرى » إله العرب الأنباط . وما نكاد نصل نهاية هذا الممر الضيق حتى نقف أمام أجمل مكان أثري في البتراء « خزنة فرعون » !

الخزنة بناء حفر في صخرٍ رملي لونه وردي فاتح ، وهو عبارة عن واجهة قبر بالغة الروعة تزينها الأعمدة والتماثيل المنحوتة في الصخر الوردي يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي . أما سر التسمية فيرجع إلى أن بدو المنطقة اعتقدوا بأن فرعون وضع كنوزه في الجرة الموجودة في الصندوق الشعر ليبعدها عن أيدي الطامعين فيها . وهذه الجرة كانت هدفا لرصاص البدو الذين أغراهم المال . أما البناء نفسه فقد قال لنا مرافقنا إن تاريخه يعود إلى ملك الأنباط الحارث الثالث (٨٤ ـ ٥٦ ق.م) الذي كلف ببنائه مهندسين وفنيين يونانيين ذوي مهارة في الفن الهليني . وهو يتكون من طابقين ، الأسفل واجهة من ستة أعمدة من الطراز الكورنثي تحمل فوقها سطحا نقش عليه رسمان لأبي الهول ورسم آخر لأسد وفهد . وعلى الجانب الأيمن نرى رجلا حافي القدمين يقود جملا . وعلى اليسار حية تحاول لدغ رجل في قلبه . وأما الطابق الثاني فيتكون من ثلاث أسطوانات تحمل الوسطى الجرة وفوقها تمثال للإلهة إيزيس ، وتزين شرفة الطابق رسوم الزهور والثمار والنسور وصورة لنساء مقاتلات يسمونهن « الامازونات » كن يقطعن الثدي الأيمن ليسهل عليهن استعمال القوس في الحرب ، وهن يبدون رافعات سلاحهن من البلطات فوق رءوسهن

داخل المدينة يحتاج لحديث طويل . ولكن المهم هو المسرح الروماني وآثار الشوارع المرصوفة والمعابد والحمامات والمنازل والبوابة التذكارية ، ثم قصر البنت وهو من أهم المعابد الموجودة في البتراء وغير منحوت في الصخر ، وقد زخرفت جدرانه الخارجية بالزخارف الجصية الملونة ، وغطيت جدرانه الداخلية بالرخام . وهناك أيضا المحكمة والدير والمذبح وقلعة الحبيس وقبر النبي هارون وهو يحتاج لبلوغه الى تسلق الصخور الوردية الملونة

أجداد العشائر البدوية

إن مدينة البتراء ذات جمال طبيعي لا يتوافر في أي مكان في العالم ، فالألوان المختلفة في الصخور التي تزيدها جمالا أشعة الشمس ، استغلها العقل العربي البدوي النبطي لكي يجعل منها مكانا رائعا لكل من يهوى الجمال وأما طرقها الوعرة والضيقة والمتعرجة التي أوجدتها الطبيعة فتنبثق منها الموسيقا الخالدة عندما تمر بها الرياح العاصفة أو النسيم الناعم .

بدو البدول

في قرية البيضاء ، وفي بيت شيخ عشيرة البدول ، رحب بنا الشيخ سلامة عيد الفقير ، ودار حديث طويل عن التحول والتغير الذي طرأ على تقاليد البادية وعاداتها . قال : قبلنا الاستقرار ، ولكننا ما نزال على عاداتنا وتقاليدنا ، الكرم العربي والضيافة وحسن المعشر واحترام الجار ومساعدة المظلوم والمحتاج كلها لم تتغير . وحين تحضرنا كان ذلك عن اقتناع لأننا نريد أن نعلم أولادنا ، وكذلك حتى تأتينا الكهرباء ونحصل على الماء . لم نتحضر لننسى عاداتنا أوتقاليدنا ، لا وإنما لكي نلحق بركب الحضارة .

بالنسبة لتعليم البنات كنا نعارضه ، وعندما أخرجنا من البتراء الى قرية البيضاء سنة ١٩٨٤ لم تكن لدينا بنات تتعلم في المدارس ، وكان اختلاط البنات لأقلية من العائلات التي دخل أبناؤها الجيش ، وعرفوا التعليم في المدن .

هنا في البيضاء حصل تجاوب بيننا وبين الحكومة التي أقامت مدرسة خاصة للبنات حولها سور وتدرس فيها معلمات . وبعد أن كان عدد البنات في العام الأول لا يتجاوز ١٥ تلميذة أصبح الآن يتجاوز مائة . فنحن نحب العلم لأن العلم هو الطريق الصحيح الى الحياة الصحيحة ، وأصبح الجميع يوافقون على التعليم وعلى التطور والازدهار والتقدم . لكن مسألة الاختلاط التي تتم في الجامعة مثلا نحن ضدها ، فكيف تجلس ابنتي مثلا مع شاب غريب عنها ، وكيف أقبل أن تذهب إلى رحلات مشتركة مع الشباب ؟ لا هذا غير ممكن . ولكن من يدري ربما نخضع مع المزيد من التطور للأمر الواقع ، وأولادنا يمكن أن يتغيروا أكثر منا كما تغيرنا نحن عن آبائنا .

فهل تغيرت أيضا تقاليد الزواج ؟

أفضل هذه المرة أن تكون الاجابة بنفس ألفاظه البدوية إلا ما يحتاج الى تبسيط . قال شيخ البدول :

« كان الزواج على المحبة ، إذا أردت أن تأخذ بنتي غصب ، أفرض عليك مهرا كبيرا ، وإذا أردت أن أعطيها لك فممكن حتى ولو على ملوة غليون . ممكن نكون قاعدين على شرب قهوة وأقول لك والله انت بتعز علي وأنا بأعز عليك ونفسي أعطي بنتي لابنك . فمن المعزة التي بيننا تقول لي : خدها هدية ماوراها جزية . ممكن تجيب لي عشر معزات وخمس نعاج وكذا . مرت فترة لم نكن نعرف فيها قاضي الشرع . إنما على سنة الله ورسوله وهذه هي القاعدة عندنا اليوم . كل الاختلاف هو أن قاضي الشرع الآن يكتب على ورق أبيض . أبي كان قاضي الشرع في عشيرتنا . وكانت المرأة حين تختلف مع زوجها تحضر لأبي . يقول لها شو بدك ؟ تقول أنا داخله وبدي هذا الرجل مش رافضاه . لكن ينقصني طعام وما عندي شي ألبسه . بدي حقوقي . كانت حقوق المرأة عندنا هي حمار وكلب و١٠ معزات وعجل وسكر وشاي وبيت شعر . كان أبي ينادي الزوج ، إذا استجاب كان بها ، إذا رفض يطلقها منه ، كان حكم القاضي عندنا أشد من حكم المحكمة ، ممكن المحكمة تأجل ، لكن عندنا كان الحكم فورا . في القديم لم يكن هناك مهر ، ولا مؤجل . كانت البنت لما يجبروها على الزواج من شخص لا تريده تشرد عنه يعني تهرب منه . ولو تريد شخصا وليس عنده شيء إنما يكون رجلا شهما تأخذه . وكان الشاب يخطف البنت خطفا . ولكن الخاطف عندما يهرب بها يكون معه شخص آخر . يعني لو أنت خطفت بنتي وأخذتها لوحدك ممكن أذبحك . إنما إذا خطفتها ومعك آخر يشفع لك ، فهو يعتبر حارسا عليها وأنك لم تمسها ، وذلك طبعا صيانة للعرض . . ! »

في وادي رم

نسمع أشياء أخرى عن تقاليد البادية حين نذهب إلى « وادي رم » .

وادي رم من أكبر الأودية في جنوب بادية الأردن ، وتمثل فيه أروع المظاهر الجيولوجية المتكونة من صخور رائعة شاهقة . الميزة الرئيسية هنا أن كل شيء فيها من صنع الطبيعة ، ولا دخل للانسان في تكوين لوحاتها الطبيعية ، مناظر الجبال والصخور تثير العجب ، فالصخور فيها مواد معدنية مختلفة تشكل ألوانا متباينة . فعند الشروق وقبيل الغروب تنعكس أشعة الشمس على الجبال فتتباين الألوان على الصخور فتراها مرة سوداء ، ومرة أخرى بنية ، ومرة فاتحة ومرة زهرية . فالصور التي تلتقط لسفح الجبل تختلف ألوانها حسب اختلاف أوقات النهار .

الوادي جميل فريد في جماله يملأ النفس بالاعجاب، ويبعث فيها المهابة والجلال، وزيارته في الواقع تجربة مثيرة.

كان أحد أهدافنا في وادي رم أن نلتقي بالشيخ عتيق أبو ربعين من عشيرة الزلابية. فعشيرته ما تزال تعيش بالاسلوب البدوي لم تغير من طبيعتها إلا القليل، وهو يأبى إلا أن يعيش متنقلا في صحراء الوادي ومعه بيت شعره وأسرته وماشيته.

مضت بنا السيارة الجيب يقودها مرافقنا السياحي (جمال أصحاب) عبر تلال وكثبان تغطي أرضيتها حجارة صوانية وأودية مليئة بالأشجار الصحراوية في النهاية نجد أنفسنا في مواجهة حائط جبلي يمتد يمينا ويسارا نصبت تحت سفحه خيمة سوداء ترعى حولها الماشية. هنا نلتقي البدوي الشيخ بأعوامه الثمانين التي يحملها فوق كتفيه. استقبلنا وأجلسنا على الطنافس الممتدة داخل بيت الشعر والنار مشتعلة في وسطه، وفوقها دلاية القهوة. كان الشيخ يقلب الأحطاب المشتعلة بملعقة طويلة قال حين سألناه عنها: هذه يد المحماسة التي نحمص بها البن على النار، وهي نفسها ما كان يستخدمه «المبشع» حين يجري الاحتكام الى النار بما يسمى «البشعة». فحين تكون القضية أمام القاضي غامضة ولا يعترف المتهم بارتكاب جرمه يحتكم الى «البشعة» وحين نسأله كيف كانت تجري عملية البشعة يجيب: يجلس المبشع على الأرض بجانب النار ويضع يد المحماسة المسطح في قلب الجمر ثم يجلس المتهم بجانبه بينما يجلس بقية الخصوم والشهود يشاهدون ما يجري.

ويستغرق تسخين الملعقة وقتا طويلا بينما يواصل المبشع استخراجها وهي حمراء ثم ينظر إليها ويقلبها ثم يضعها ثانية في النار. ويتم هذا كله أمام ناظري المتهم، وخلال هذه الفترة فإن المبشع يتحدث باستمرار طالبا إلى المتهم إظهار حقيقة الجريمة التي ارتكبها مبينا له مدى خطورة حرق النار. بينما يراقب المبشع ملامح وجه المتهم أثناء ذلك وأخيرا تصبح الملعقة جاهزة، فيطلب من المتهم أن يمد لسانه حيث يقوم المبشع بوضعها على اللسان بسرعة ثم ينتظر بضع دقائق يطلب بعدها من المتهم أن يمد لسانه ثانية أمام الناس. وإذا ظهرت البثور على اللسان فإن ذلك يعني تجريم المتهم. وإذا بقي لسانه سليما فذلك يعني براءته ومن الناحية العملية فإن المتهمين يفقدون أعصابهم أثناء رؤيتهم للملعقة فيعترفون

أما في ضوء المعطيات العصرية وحركات التنوير فإن ملعقة «البشعة» لم تعد مستخدمة بشكل عام بين العشائر الاردنية. وعلى الرغم من أن القانون الصادر عام ١٩٧٣ قد منع اللجوء الى البشعة، فإن بعض قضاة العشائر والبدو قد استمروا بالاعتماد عليها واللجوء اليها عندما تقتضي الضرورة.

يارب بدّله

أراد مرافقنا ونحن نمضي أن يخفف عنا وعورة الطريق في مسيرة العودة الطويلة، فراح يستعيد حكايات «العزيزي» عن الزواج والنساء وقال هل سمعتم عن حكاية «يارب بدّله»؟ إنها عبارة معروفة عند النساء في البادية، فإذا تمنت المرأة أن تتخلص من زوجها من غير أن تتكشف أمنيتها أو يعلن أنها ناشز، لبست ثوبها عند النوم مقلوبا وراحت تردد في سرها «يارب بدّله» وتظل تفعل ذلك أربعين ليلة متتالية، وتلقي كل ليلة في حفرة تخفيها حصاة الى أن تتم الأربعين حصاة وتقول النساء إن الذي يحدث هو واحدة من اثنتين. أن يموت الزوج، أو تطلق الزوجة !

ومن بين الحكايات التي يروونها أن المرأة المحبة إذا أرادت إرغام شخص ما على حبها تلجأ الى امرأة وصلت إلى سن اليأس فتأخذ رأس هدهد ودجاجة سوداء وشمعتين صغيرتين وتذهب ليلا الى قبر ميت دفن حديثا، فتنبش قبره وتدفن الدجاجة السوداء ورأس الهدهد وخمس ريشات من حواف جناحي الهدهد وتشعل الشمعتين في منحري الميت وهي تقول «فلان يحب فلانه»، ونكرر ذلك في جلسة واحدة أربعين مرة ثم تسوي القبر كما كان. وقد سمعت أن رجلا مات له أخ يحبه، ولشدة حزنه لم يستطع أن ينام فذهب ليقضي ليله ساهرا عند قبر أخيه، وعندما اقترب شاهد نورا قريبا من القبر، فلما قصده أحست المرأة بافتضاح أمرها، فنهضت من عند القبر ونفضت شعرها وهي تصرخ صراخا شديدا، ولشدة ما اعترى الرجل من الرعب والذهول، قضى بقية حياته مجنونا، وأصبح يعرف عند البدو بمجنون البادية □

عن النسور والعقبان

بقلم : الدكتور محمد رشاد الطوبي*

مع أن النسور والعقبان ترد أسماؤها في كثير من الأحيان مرتبطة بعضها ببعض ، إلا أن هناك اختلافات واضحة فيما يتعلق بطبائع تلك الطيور أو طريقة معيشتها ، كما أن هناك أيضا بعض اللبس وعدم الوضوح فيما هو متداول بين عامة الناس عن تلك الطيور ، فقد يقال مثلا عن الطيارين البواسل الذين يخوضون غمار الحرب دفاعا عن أوطانهم إنهم « نسور الجو » . والأصوب من ذلك أن يقال عنهم إنهم « عقبان الجو » ، وهو ما سوف يظهر بوضوح في هذا المقال .

---

* استاذ علم الحيوان بكلية العلوم ـ جامعة القاهرة ـ عضو مجلس العلوم الأساسية بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

■ العقبان هي أقوى الطيور وأكثرها شجاعة على الاطلاق ، وهي تتغذى على الحيوانات التي تنقض عليها في سرعة خاطفة من الجو مباشرة ، ولا يقتصر غذاؤها على الحيوانات الوديعة كالماعز والخراف والغزلان ، بل يمتد أيضا إلى بعض الحيوانات المفترسة مثل الكلاب البرية والذئاب والثعالب وبنات آوى وغيرها ، وقد تنشب بينها معارك طاحنة ، وعندئذ تلجأ العقبان إلى فقء عيون تلك الحيوانات إذا كانت المعركة في غير صالحها ، وذلك يكون تمهيدا للتغلب عليها وكسب المعركة ، وهي لا تتغذى على الفرائس التي تصيدها في أماكن صيدها ، بل تحملها بين مخالبها لتطير بها إلى أماكن أخرى آمنة ، ثم تبدأ في التهامها . ولا يفوتني التنويه بأن من بين ضحايا تلك الطيور بعض الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم في الخلاء ، وقد سجلت عدة حالات من هذا القبيل وخصوصا في الهند .

وتمتاز العقبان بحدة الإبصار ، وبمخالب طويلة حادة ومدببة ، كما أن مناقيرها غليظة ملتوية ، وتنتهي بصنارة عمودية حادة ، ومن أهم صفاتها الخارجية أن الرأس والعنق مغطيان بالريش ، وهناك عدة أنواع من العقبان منها العقبان الذهبية وملك العقبان والعقبان السفعاء الكبرى والعقبان المسيرة وغيرها .

كاسر العظام

أما النسور (VULTURES) فهي طيور مسالمة ، لا تهاجم الحيوانات أو الطيور الأخرى ، ولكنها تقنع بأجساد الحيوانات الميتة التي تعد غذاء أساسيًا لها ، ولذلك فهي في الواقع من « آكلات الجيف » ، فإذا وقعت على جسد حيوان ميت فإنها تستمر في نهشه حتى تمتلىء حوصلتها الكبيرة ، فلا تكاد تستطيع الطيران ، وهي تتمتع بإبصار حاد ، لكن مخالبها ضعيفة قليلة التقوس ، تنتهي بأطراف غير مدببة ، وهي أكبر حجماً من العقبان ، وتختلف عنها في أن الرأس والعنق عاريان من الريش غالبا أو يغطيهما زغب دقيق ، وتوجد منها أنواع كثيرة ، نذكر منها الرخمة المصرية (ويطلق عليها أحيانًا اسم النسر المصري) ، والنسر الأسمر والنسر ذا الأذن ، والنسر الأسود والنسر ذا الذقن (كاسر العظام)

ومما يدعو إلى الدهشة والإعجاب أن كثيرا من الكتاب العرب الأقدمين الذين اهتموا بدراسة الحيوان مثل الجاحظ والدميري والقزويني وغيرهم كانوا على معرفة طيبة بالاختلافات الموجودة بين النسور والعقبان ، فيما يتعلق بالصفات الخارجية والطبائع السائدة في كل منها ، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ورد في كتاب الدميري « حياة الحيوان الكبرى » عن « النسر » كنموذج لتلك المجموعة من الطيور التي سبق ذكرها ، وكانت الأوصاف التي أوردها الدميري كما يلي :

ـ « النسر طائر معروف ، وسميّ نسرا لأنه ينسر الشيء ويبتلعه ، والنسر ذو منسر ، وليس بذي مخلب ، وإنما له أظفار حداد كالمخالب ، وهو من أطول الطير عمرا ، ولذا قالت العرب : « أعمر من نسر » . وهو حاد البصر ، يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ ، وهو أشد الطير طيرانا ، وأقواها جناحا ، وهو شره نهم رغيب ، إذا وقع على جيفة امتلأ منها ، ولم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة بعد طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح ، وليس في سباع الطير أكبر منه جثة » .

وهو وصف لا يحتاج إلى شرح أو تعليق ، أما ما أورده الدميري في كتابه عن العقاب فهو كما يلي :

« العقاب طائر معروف ، وقال في الكامل العقاب سيد الطيور ، والنسر عريفها ، والعقاب حاد البصر ، ولذلك قالت العرب : « أبصر من عقاب » ، كما قيل أيضا « أمنع من عقاب الجو » ، والعقاب من ذوي المخالب ، وإذا صادت شيئا لا تحمله على الفور إلى مكانها ، بل تنقله من موضع إلى موضع ، ولا تصعد إلا على الأماكن المرتفعة ، وهي أشد الجوارح حرارة ، وأقواها حركة ، وأيبسها مزاجا ، وهي خفيفة الجناح سريعة الطيران ، تتغدى بالعراق ، وتتعشى باليمن ، ومن شأنها أن جناحها لا يزال يخفق . قال عمرو بن حزام :

(لقد تركت عفراء قلبي كأنه
جناح عقاب دائم الخفقان) » .

وكان العرب كثيرا ما يطلقون على العقاب كلمة العنقاء ، وهو ذلك الطائر الأسطوري الذي كان محورا لكثير من القصص والخرافات ، ومن ذلك ـ

رتبة الصقريات تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، وهي تشترك في صفاتها وطباعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما .

على سبيل المثال ـ ما ورد في شعر أبي العلاء المعري :

(أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فعاند من تطيق له عنادا)

كما ذكر العقاب أيضا في شعرنا المعاصر ، ومن ذلك مثلا بيت الشعر الذي بدأ به شاعرنا الكبير أحمد شوقي إحدى قصائده الرائعة ، وتلك هي القصيدة التي أنشدها احتفالا بأول رائد للطيران في الشرق العربي ، حيث يقول فيها :

(أعقابٌ في سماء الجو لاح
أم سحاب فر من هوج الرياح؟)

وقد جاء في « كتاب الحيوان » للجاحظ أن العقاب يطلق عليه أيضا اسم « العنقاء المُغرِب » لأنه يجيء من مكان بعيد ، ومن الأقاصيص التي ورد ذكرها في هذا الكتاب الشامل ، أنه قيل لأعرابي : « لو خيرك الله أن تكون شيئا من الحيوان أيّ شيء كنت تتمنى أن تكون ؟ » قال الأعرابي : « عقاب » ، قيل « ولم تمنيت ذلك ؟ » قال : « لأنها تبيت حيث لا ينالها سبع ذو أربع ، وتحيد عنها سباع الطير » .

● عن النسور والعقبان

وقال أعرابي اخر : « أما علمت أن الشدة والشجاعة ، والبأس والقوة من الحيوان في ثلاثة أصناف العقاب في الهواء ، والتمساح في ساكن الماء ، والأسد في مساكن الغياض » .

الصقريات

وتنتمي كل من العقبان والنسور على اختلاف أنواعها إلى رتبة كبيرة يطلق عليها علماء الحيوان اسم « رتبة الصقريات » (Falconiformes) وتحتوي تلك الرتبة بالاضافة إلى النسور والعقبان على جميع الطيور المفترسة التي تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، والتي يطلق عليها اسم « جوارح الطير » ، ومنها الصقور العديدة كالبازي والباشق والبيدق والدراع والشاهين والحر وصقر الغزال (وقد أطلق عليه هذا الاسم لاشتهاره بصيد الغزلان حيث يستخدمه البدو في هذا الغرض) ، ومن الصقريات أيضا الحدأ المختلفة كالحدأة المصرية التي هي من طيور مصر الأوابد ، والحدأة السوداء ، والحدأة الحمراء وهما تهاجران في موسم الشتاء من شمال أوربا إلى كثير من بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط .

وتشترك تلك الصقور والحدأ في كثير من صفاتها وطباعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما ، فهي ـ على سبيل المثال ـ حادة الإبصار ، سريعة الطيران ، ولها مخالب حادة ملتوية ، كما أن المنقار ينتهي بصنارة حادة عمودية ، وأرجلها مكسوة بالريش حتى الأصابع ، وهي عادة لا تعيش في جماعات ، بل تكون فيما بينها أزواجا متآلفة ، وقد تستمر العشرة بين الذكر والأنثى طوال الحياة .

ومن الصقريات أيضا ما يعرف « بالعقاب المنسوري » ، وهي تمتاز عن غيرها من طيور تلك الرتبة بأنها تعيش بالقرب من سواحل البحار ، وتتغذى على ما تصيده من الأسماك ، وهي تستخدم في عملية الصيد أقدامها المجهزة بأشواك كبيرة حادة لا تستطيع الأسماك الإفلات منها على الاطلاق ، وفي بعض الأحيان لا تستطيع تلك الطيور تخليص مخالبها من جسم السمكة إلا بصعوبة فائقة ، فإذا كانت السمكة كبيرة الحجم فربما سحبت الطائر

العقاب الذهبي طائرا في السماء ومعه صيده .

معها إلى الأعماق ، حيث يموت غرقا ويكون مصيره الهلاك .

الأنواع الكبيرة من « الصقريات كالنسور والعقبان والرخم تبني لنفسها أعشاشا كبيرة الحجم فوق قمم الجبال أو الأشجار العالية ، حتى تكون في مأمن من الهجوم عليها ، واختطاف البيض منها . أما الطيور الصغيرة فتقنع بالأماكن الآمنة بين الصخور ، أو في تجويفات الأشجار ، وأحيانا فوق الأرض مباشرة بين النباتات المتشابكة في الغابات والأدغال ، ويتم بناء تلك الأعشاش من الأعواد الجافة وفروع الأشجار وغيرها ، ثم تقوم الطيور بعد ذلك بتبطينها من الداخل بالقش أو الصوف أو الشعر أو الريش لتكون مهدا لينا .

وتضع الأنثى في معظم الأنواع بيضة واحدة أو بيضتين ، ولكن هناك أنواعا قليلة تضع عددا أكبر من ذلك ، يصل أحيانا إلى ثماني بيضات ، وتستمر حضانة البيض فترة تتراوح بين ٣ ـ ٦ أسابيع حسب النوع ، وبعد الفقس لا تخرج الأفراخ الصغيرة من العش ، بل تبقى بداخله فترة طويلة نسبيا ، وقد تصل إلى أربعة أشهر ، تقوم الطيور الكبيرة خلالها بإطعامها والحفاظ عليها حتى تكبر ويشتد عودها .

وتعد بعض الأنواع من تلك الطيور كالنسور والعقبان من الحيوانات المعمرة ، فقد يمتد عمر الفرد منها إلى مائة عام ، وقد سجلت فعلا بعض الحالات في حدائق الحيوان وصل عمر الطائر فيها إلى هذه السن ، وهو رقم كبير بالنسبة لأعمار الطيور الأخرى . □

مجلة الأسرة والمجتمع

■ دَوْر الأهـل في اختـيـار المهـنـة المناسـبة لأولادهم

دور الأهل في اختيار المهنة المناسبة لأولادهم

بقلم : الدكتورة هدى طحلاوي*

هل ينشأ أولادنا ويكبرون وهم على معرفة بإمكانياتهم الذهنية والعملية بحيث يكونون قادرين على اختيار مهنهم بأنفسهم ؟ أم أنهم يظلون منذ سني المدرسة الابتدائية وحتى مرحلة متقدمة من العمر بحاجة لتوجيه وإرشادات الأهل ؟ المقال التالي محاولة للإجابة عن هذين التساؤلين المهمين .

إن عصرنا الحاضر هو عصر العلم بكل ما فيه من اكتشافات ومخترعات حديثة ، أدهشت الناس وبهرت عيونهم فافتتنوا بمنتجاته واختراعاته ، وركضوا وراءها بكل ما يملكون من قوة ، تاركين خلف ظهورهم كل ما خلفته عصور التخلف والجهل الماضية ، وسعى الناس حثيثاً إلى ما فقدوه هم ليجدوا العوض لهم بأولادهم فدفعوا بهم دفعاً إلى العلم وتخصصاته ، بجميع درجاته ظناً منهم أنهم بذلك ينالون أربهم ورغباتهم ، معتبرين أولادهم عجينة طرية ، يستطيعون صبها في القالب الذي يريدون حتى تجف وتأخذ الشكل المطلوب . فمن أراد لولده مهنة الطب حمله على دراسة الطب بشتى الوسائل ، وإن كان كارهاً لهذه المهنة ، وكذلك يختار له ما شاء من المهن .

ولكن النتيجة المخيبة للآمال صفعت الجميع ، وكانت الكارثة ، وهي فشل غالبية أبناء هذا الجيل ، وصار في مجتمعنا جيل من

* طبيبة وكاتبة من القطر العربي السوري .

الشباب يغرق في الكسل والبطالة حتى أذنيه فهل من منقذ ؟!

تعالوا معنا أيها الآباء نستعرض معا تطور الانسان منذ الطفولة وحتى الشيخوخة ، ونرى كيف أن لكل إنسان طباعاً خاصة وشخصية تميزه له ، وكل شخص مقتنع تماما بطريقته في الحياة وبآرائه ، ولا يسير في طريق إلا برغبته وأهوائه.

نحن وأولادنا

تعالوا نتعرف على حقيقة أدوارنا تجاه هؤلاء الأشخاص الذين هم قسمتنا وحصتنا في هذه الحياة ، أولادنا ، ماذا نقدم لهم ؟ وإلى أي حد يحق لنا التدخل في حياتهم ؟

لا شك أن حنان الأبوين والمربين ضروري لنمو الطفل بجسده وروحه قلبا وقالبا ، ولا غنى للأطفال عنه . إذ يولد الطفل ضعيفا ، لا يعي ولا يفهم شيئا مما يفهمه الانسان البالغ ، وهو غير قادر على تأمين ضرورات حياته إذ لا بد من مرب مساعد له في هذه المرحلة حتى تقوى مداركه ، ويشتد عوده ، وهنا يجب أن نفهم أننا لسنا نحن الذين نعلمه كل شيء ، ونقوي جسده وساعده بإرادتنا . ولكن من الضروري أن نعرف أن الطفل إذا قدمت له المساعدة كي يحيا فإن تطوره سيمر بمراحل لا بد منها ، ولا نستطيع نحن التدخل فيها . وهذه المراحل متقاربة بين كل الأطفال ، ودرست من قبل علماء متخصصين ، وضعوا لها جداول خاصة للمقارنة بين الطفل الطبيعي وغيره . فمثلا هناك جداول خاصة لتطور الأطفال الطبيعيين من حيث الوزن والطول ومحيط الرأس ومحيط الصدر ، وكذلك جداول للتسنين (لمواعيد بروز الأسنان) وجداول للنطق ، وعدد الكلمات في مختلف مراحل الطفولة الأولى ، وهكذا نستطيع أن ننظم جداول كثيرة لمعرفة التطور الروحي والحركي ومعدل الذكاء عند الطفل ، وكل هذه الدراسات مبنية على أن الإنسان خلق هكذا ، يتطور وينمو تبعا لأسلوب رغم أنوفنا . فهل سمع أحدنا ؟ عند بعض الآباء طريقة في التربية تجعل الطفل يتكلم فيها بعمر شهر ، ويمشي بعمر شهرين ويصبح رجلا بعمر سنة ؟!

هنا نقف خطة متفقين على أن وظيفة الأهل والمربين في البداية هي مراقبة تطور نمو الطفل وبذل ما في وسعهم من رعاية وحنان لتغذية جسمه وروحه ولزرع بذور الأخلاق التي سيتمسك بها مستقبلا ، وثمار هذه البذور التي نزرعها تتأثر في المستقبل بعدة عوامل : بالتربة الموجودة أصلا في ذات الطفل ، وبالسقاية والرعاية المقدمتين من الأهل ، ثم بالعوامل المحيطية في مجتمع الطفل ثالثا .

وخير مثال وشاهد على ما سبق هو أنه في الأسرة الواحدة لا يوجد ولد يشبه أخاه أبدا مع حرص الأهل على مساواة أولادهم في التربية .

دورنا كآباء

والآن ، لنتابع المسير في ملاحظة تطور الطفل ودورنا فيه كآباء . عندما يتجاوز الطفل مرحلة الطفولة الأولى ومرحلة ما قبل المدرسة ، أي السنة الخامسة من عمره تقريبا ، فإننا نكون أمام انسان أصبح يميز بين الخير والشر ، ويفهم حوائجه بنفسه ويمارس هواياته المحببة ، ويعبر عما بداخله ، وماذا يحب وماذا يكره ، ففي هذه المرحلة يحتاج الطفل للقيادة والتوجيه نحو الطريق الصواب ، ويتقبل القيادة ، ولكنه يسرع بأسلوب مريح ومقنع ، إذ يكثر من الأسئلة ويحاول تقليد الآباء وإقناع نفسه بالسبيل الذي سيسلكه ضمن إطاره الصغير وعالمه المحدد ، و

هذه المرحلة تبدأ قابليته وقدرته على التعلم . ولكن معدل الذكاء يختلف بين طفل وآخر . ويجب إلحاقه بمدرسة للتعليم تدرب حافظته بالأغاني والأناشيد ، وعد الأرقام وكتابة أحرف الأبجدية ، واكتساب التأقلم مع الجماعة . ويجب على الأهل الاشراف على ما يتعلمه الطفل وتثبيت معلوماته ، وتنميتها كدور مساعد للمدرسة ، وهنا يبدأ دور التمايز بين الأطفال المجدين منهم والمقصرين والكسالى . وظاهرة الكسل هذه يجب أخذها بعين الاعتبار لمعرفة أسبابها . فإن كان السبب ضعف معدل الذكاء عند الطفل وجبت مراعاته بشكل خاص ، وتعليمه ببطء وتكرار أكثر ، وفرزه مع أمثاله عن الأطفال المجدين حتى لا يكونوا عائقا لهم ولمدرسيهم ، وإن كان سبب كسلهم قلة العناية والاهتمام بهم وجب المزيد من الاهتمام ، وخاصة في المراحل الأولى للتعليم حتى لا يعتاد الطفل الكسل . فإن التشجيع والعناية يقعان على عاتق المدرسة والبيت معا .

عند مفترق الطرق

في مرحلة المدرسة الأولى التي تسمى المرحلة الابتدائية ، يتلقى الأطفال جميع العلوم الأساسية الضرورية في حياتنا العملية ، كالقراءة والكتابة والحساب الضروري فقط في إدارة شؤوننا ، وكذلك التاريخ الضروري عن مجتمعنا خاصة والعالم من حولنا بشكل عام ، وجغرافية القطر الذي نسكنه تفصيلا، وجغرافية العالم موجزا ، والقانون الذي يحكمنا : ماذا يحرم وماذا يحلل ؟ والحقوق والواجبات المشروعة فيه ! وبهذا يكون كل فرد في المجتمع مؤهلا لأن يحيا حياة واعية وناجحة مهما كان عمله مستقبلا .

أما عند انتهاء المرحلة الابتدائية فيتم الوصول إلى المفترق الرئيسي . مفترق كبير تتشعب منه الطرق . إنه مركز الانطلاق الذي يمكن تشبيهه بمركز الدائرة والطريق إلى محيطها ، فكل الخطوط المستقيمة تصل مركزها بمحيطها وما أكثرها ولا يمكن حصرها .

عند مفترق الطرق هذا يجب التفكير كثيرا قبل سلوك أي طريق ، لأنه من الصعب التراجع من منتصف الطريق لسلوك طريق غيره . هنا يجب على الأهل أن يكونوا أذكياء وواعين للتنبؤ بالطريق المناسب لولدهم ، ويجب أن يشاركوه الاختيار فلا يختارون له وحدهم ، ولا يتركونه يسير كيف يشاء ، لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد ، كما انه قليل الخبرة في تدبير شؤونه بنفسه ، ولكنه يعبر عما يحب ، ويبدي ارتياحه وانسجامه لبعض الأعمال ، وبعض التخصصات ، وما على الأهل إلا فهم هذه الأمور وتحقيقها لولدهم . ولكن بعد تشذيبها وتنظيمها بإطارها الجميل الصحيح ، دون النظر إلى نوع اختيار ولدهم ، هل أعجبهم أم لا ، طالما أن عمل ابنهم في المستقبل سيكون ذا فائدة للمجتمع ، ويعينه على كسب قوته . وهذا النوع الهادف من العمل هو الذي يتدخل فيه الآباء لإقناع أولادهم بالعمل والقيمة الاجتماعية . ويجب اقناع الطفل في كل خطوة يخطوها ، فهو إنسان ، والانسان عاقل بالفطرة . الحجة والعقل عنده هما الأساس في كل شيء ، حتى ولو كان صغيرا جدا . فإذا كان للطفل عقله وإدراكه اللذان يأبيان إلا أن يلمس المدفأة الساخنة ، حتى يعرف لماذا يطلب أهله منه الابتعاد عنها ، فكيف بمن هم أكبر عقلا وسنا ؟ لذا أولا : يجب أن يكون العمل مفيدا ، وثانيا : يجب تحقيق النجاح في هذا العمل وتوفير السبل اللازمة لذلك ، وللأهل دور كبير في هذا ، وذلك بحض ولدهم على التفاني والاخلاص في العمل ، وتعليمه تنظيم أوقات عمله وراحته . ويجب ألا يعمل فوق طاقته ، وأن يستفيد من

أوقات الراحة ، ويترك حرا في ممارسة ما يحب من الهوايات خارج أوقات العمل . إذ يجب أن يكون لكل انسان عمل نافع وهواية يتسلى بها في أوقات الفراغ ، وليس من الضروري أن تكون الهواية ذات فائدة للمجتمع ، المهم أن لا تكون ضارة له أو أن تسر صاحبها .

حب العلم وتقديسه

إلى هنا نستطيع القول : إنه مهما كان العمل الذي سيقوم به كل فرد يصل هذه المرحلة في المجتمع ، فإن ما تلقاه من علوم أساسية تكفي لأن يحيا حياة طيبة ولا يحتاج للمزيد من التفاصيل في العلوم ، سواء كانت أدبية أو علمية ، إلا الذين يرغبون بهذا المزيد ويبدون الشغف في حب العلم وزيادة الاطلاع ، هؤلاء يجب تشجيعهم بتوفير الجو الملائم لهم للدراسة ، ومحاولة إجابتهم على اسئلتهم ، وجلب ما يلزمهم من كتب يحبون قراءتها ، ودفاتر يسطرون عليها انطباعاتهم وأفكارهم ، ونحاول تعريفهم على أهل العلم ، ليتبادلوا معهم الآراء والأفكار والكتب ، وهذا لا يوجد عند كل البشر .

حب العلم لا يفهمه إلا المتعلمون بإرادتهم وهواياتهم ، وهم حفنة قليلة من البشر ، ومتطلبات الحياة تقتضي وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولكن ليس من الضروري أن يكون كل افراد المجتمع علماء ، لأنهم أولا لن يكونوا هكذا نظراً لاختلاف مستوى الأشخاص . وثانيا لأن المجتمع لا يستطيع العيش [illegible] شأنه ، ولا بد من وجود الاختصاص [illegible] لتأمين متطلبات الحياة [illegible] المهندس ، التاجر ، العامل [illegible] يحتاجها المجتمع هي [illegible] الاعمال الضرورية التي يجب إنجازها لتأمين المعيشة اللائقة للمجتمع . من [illegible] وتنظيف الطرقات ، وتأمين المأكل والملبس بكل أنواعه ، وتأمين المواصلات المريحة في تنقلاتنا ، وتوفير الماء والدواء الضروري ، وأكبر مثل على ذلك تحضير رغيف الخبز حتى في عصر الآلة كما يقال : إن كثيرا من العمال يعملون ويتعاونون لإنجاز الخبز فقط فكيف ببقية متطلبات الحياة !

تمايز البشر

ومن الجدير بالذكر هنا ، أنه لا بد من وجود تمايز بين البشر ، ليس تمايزا عرقيا أو دينيا وإنما تمايز الإنسان المبدع ، والطموح المتفرغ للعمل عن غيره . ولا بد أن يصبح أعلى شأنا من بعض أفراد المجتمع حوله ، وهذا من سنة الكون وفطرته ، إذ لا بد في المجتمع من وجود الرئيس والمرؤوس ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، وخلاصة القول : إن دور الأهل يتحدد في البداية بالإشراف على تعليم أولادهم العلوم الأساسية الضرورية في الحياة العملية ، والتي سبق ذكرها آنفاً ، ثم في تشجيع أولادهم على المضي قدما في العمل الذي يحبون والذي سيحمل الخير لهم وللمجتمع . فإن كانت الاستزادة من التعليم واللحاق بركب العلماء تحقق ذلك بالاختصاص الذي يحب ، وإن كان عملا نافعا للمجتمع بدأه منذ الصغر عند انتهاء تعليمه الأساسي ، لأنه كان في مدرسته أكثر استعدادا لتعلم المهن وأكثر احتمالا وصبرا لتنفيذ متطلبات المهنة ، فإنها تشب وتكبر معه ليطرحها مستقبلا في مجتمعه ◻

التشبيهات والألعاب التربوية

تقنية مهملة في التربية العربية

بقلم : الدكتور أنور طاهر رضا

يقدم الكاتب عرضا لتقنية مستخدمة في الغرب بشكل متطور ، هي تقنية استخدام التشبيهات والألعاب في مجال التربية ، ويدعو التربويين العرب إلى الاستفادة من هذه التقنية وتطويرها .

ما زالت التربية والتعليم في الوطن العربي مبنيين على أسس تقليدية قديمة تمتاز التربية هذه باعتمادها على العنصر الأساسي فيه ، وهو المعلم الذي يلجأ عادة الى إلقاء الدرس مستعينا بالطباشير والكلام ، وببعض الصور البسيطة التي تزول شيئا فشيئا بمرور المراحل الدراسية ، حتى اذا ما وصلنا الى التعليم الجامعي فإنه يقتصر في كثير من الأحيان على المحاضرة المجردة ، التي ربما لا يسمعها أحد ، أما مشاركات الطلبة في هذا النوع من التعليم فتكون على أقلها في العادة .

لقد أثيرت تساؤلات كثيرة حول جدوى تعليم يكون فيه دور الطلبة سلبيا . وقد حصلت تحولات كبيرة في التربية في الغرب ، ولعل أهم هذه التحولات الانتقال من الطرائق التي تتمركز حول المعلم الى تلك الطرائق التي تتمركز حول الطالب . تكون مشاركات الطلبة في مثل هذا النوع من التعليم أساسية ، حتى يساير التعليم ميولهم واتجاهاتهم ، ويتصف بالفردية التي تتماشى مع قابلياتهم الخاصة .

تعريف وتمييز :

إن التقنيات التربوية التي تتعامل مع كل ميدان من ميادين التربية إنما تستهدف أصلا التصميم والتقييم والتطوير للمناهج التعليمية ، وخبرات التعلم ، وحل ما يتصل بهما من

المشكلات التي تنبع من التطبيق، وهي بمحاولاتها هذه تحسن عملية التدريس، وتثير الابتكار، وتخلص الطلبة من الوتيرة الواحدة التي تسير عليها طريقة الإلقاء. إن التشبيهات والألعاب التربوية ميدان من ميادين التقنيات التربوية التي تعد بحد ذاتها تجديدا في ميدان التربية.

لقد لقيت التشبيهات والألعاب التربوية اهتماما كبيرا في الستينيات والسبعينات من هذا القرن في البلدان المتقدمة. فما المقصود بالتشبيهات والألعاب التربوية؟ وما أوجه الخلاف والتشابه بينهما؟ وماذا يمكن أن نحقق بواسطتهما؟ ولماذا كل هذا التأكيد عليهما؟

ليس من السهولة أن نرسم حدودا فاصلة، ونضع قوانين ومبادىء للفصل بين التشبيهات والألعاب التربوية، طالما أن أنواعا كثيرة منهما تشترك في عناصر مهمة ومحددة. تصمم التشبيهات والألعاب التربوية عادة لتدريس مادة يمكن تدريسها بطريقة أخرى، على أن دوافعها أقل.

الألعاب التربوية :

يعرف «ابت» الألعاب التربوية بالطريقة العامة التالية: «أي نوع من المنافسة، أو [illegible] حتى [illegible] الطلبة [illegible] من شروط وقوانين، من أجل [illegible] هدف معين. ويحرز [illegible] حتى [illegible].

[illegible] عدد من العناصر [illegible] من توافرها في اللعب. [illegible] فيها تتضمن منافسة وعلى أنواعها من [illegible] من الفرد نفسه. وفيها تتضمن في العادة عدد من الطلبة [illegible] ما يقسمون إلى فرق [illegible] سير اللعب حسب شروط محددة أو قوانين تم الاتفاق عليها. والخروج عن هذه الشروط والقوانين يعد إخلالا باللعب، ولربما يؤدي إلى خسارة.

إن فكرة التعلم من خلال اللعب في المدرسة الابتدائية قديمة قدم المدرسة نفسها، على أن التشبيهات والألعاب التربوية قد بدأتا تستخدمان حديثا في كل من المرحلتين الثانوية والجامعية. [illegible] هذه بعض الألعاب التربوية التي تستخدم في المراحل الدراسية المختلفة في البلدان المتقدمة. نعرضها كنماذج من أجل تحويرها أو كتابة ما يماثلها من حيث المبدأ، أو استحداث غيرها. إن لعبة (مزرعة هيرد فوردشاير) لعبة بسيطة منظمة، توفر أفكارا

أساسية عن عملية الزراعة ، واتخاذ القرارات التي تتضمنها يستخدم هذا اللعب على مستوى طلبة المرحلتين الابتدائية والثانوية . (الصفحة الاولى) لجريدة مثال بسيط آخر تستعرض المحددات الاضافية والعمل ضد الوقت وتستخدم هذه اللعبة في المدارس الثانوية الانكليزية في مواقف متعددة ، لطلبة تتراوح أعمارهم بين ١٤ - ١٨ سنة و (ازمة تزيم) هي مثال آخر عن حرب بين قطرين ، وتركز حول العلاقات الدولية وتصلح هذه اللعبة لطلبة العلوم السياسية في الجامعة

التشبيهات التربوية :

تستخدم الكتاب العرب في ميدان التربية عددا من التعابير ، للدلالة على كلمة Simulation الاجنبية لقد استخدمت كلمة التمثيليات او المسرحيات لهذا الغرض . وواقع الحال ان التشبيهات تختلف عن التمثيليات والمسرحيات ، لأن كل صغيرة وكبيرة محددة في التمثيليات والمسرحيات ، ولا يحق للممثل ان يغير فيها اي تغيير ، فدوره مرسوم مسبقا ، وما سيحدث يكون عادة ما في التمثيلية او المسرحية . اما التشبيهات فان الخطوط الأساسية فيها هي التي تكون عادة مرسومة ، ويواجه الطلبة بمواقف جديدة ، وعليهم ان يسلكوا طريقا محددا ويتخذوا القرارات المناسبة التي تستند على معلوماتهم السابقة إذ ليس هناك تكرار لأشياء سابقة ، بل اشكال لقرارات جديدة

يعرف « بربون » التشبيهات التربوية بانها « محاولة اعطاء مظهر شيء ، او اعطاء تأثير شيء آخر » . ان التشبيهات التربوية لا تتصمم بالضرورة المنافسة ، وقد صممت لتزويد الطلبة بخبرات ، لا يمكن تزويدهم بها بأي طريقة أخرى ، او أن هذه الطرائق ليست ملائمة للتزويد بهذه الخبرات .

يتضمن التشبيه دائما نموذجا يكون صورة مبسطة من الواقع ، إذ أن النموذج يقلل من التعقد الموجود في مواقف الحياة الواقعية . وتؤخذ عادة من الواقع تلك الأجزاء الأساسية فقط لأهداف التعلم .

تمثيل الدور .

يتضمن هذا النوع من التشبيه عنصر التمثيل ، وربما تكون النسبة في معظم تشبيهات التمثيليات ، هي ان لتمثيل الدور هدافا تربويه مهمة اخرى والغاية عادة من تصميم هذا النوع من التشبيه ، تزويد المشتركين بالخبرات الشخصية التي يستحيل تزويدهم بها بطريقة اخرى وقد يكون تمثيل الدور ضروريا لتزويد المشارك بالخبرة . كما يحدث عادة في تمثيل دور اعضاء البرلمان ، او تكون الأدوار الفردية ثانوية ، ولكن جمعها يخلق خبرة عامة للمشتركين ، كما يحدث في حالة تمثيل دور إقرار الأولويات

هناك نوع خاص من تمثيل الدور الذي يطلق عليه أوراق في السلة او الملف . وقد صممت هذه التشبيهات من اجل تطوير مهارات اتخاذ القرارات لدى طلبة كلية الادارة وهنا يواجه المتدرب سلة تتضمن الرسائل والمذكرات ، والقرارات المالية وغير المالية التي تحدث في هيئة المؤسسة المذكورة ، والتي يمكن ان تقدم الى مدير المؤسسة في يوم اعتيادي . ويتوقع من الطالب الذي يلعب دور المدير ان يدرس جميع هذه الأوراق ، ويصدر أوامره ، ويرسل الرسائل ، ويجري الاتصالات الهاتفية ، ويخطط للاجتماعات القادمة ، كأنه في موقف وظيفة حقيقية .

هو.. هي

البيوت أسرار

● أعرف أن البيوت أسرار، لكنني لا أعرف ما هي حدود الأسرار، ولا أستطيع أن أفرق بين ما يمكنني قوله أمام زوجي وما يمكنني قوله وما يمكنني قوله أمام الناس، وما أستطيع مناقشته أمام أبنائنا وما لا أستطيع. والسبب في ذلك زوجي الذي عقد هذه الأمور البسيطة أمامي، بحيث لم أعد أعرف ما أخفي وما أظهر من شؤوننا العائلية أمام الأهل والجيران والأصدقاء، بل وأمام الأبناء أيضا.

نشأت في بيئة بسيطة متواضعة. والدي حرفي ناجح في حدود حرفته، ووالدتي ربة بيت مدبرة وذكية ولبقة، ولم تكن تتردد في مناقشة شؤون البيت والأبناء والعمل، بل حتى بعض شئون جيراننا وأقاربنا، مع والدي، على مسمع ومرأى منا، ولم يكن أحد منا يشعر بالحرج إذا ما حاسبه والدي على خطأ ما، ولم تكن والدتي ترى مانعا من سرد تفاصيل عمل سلبي قام به أحدنا على مسمع من والدي وباقي أفراد العائلة، ولم أسمع والدي يوما يطلب منا الصمت، أو يقاطعنا، أو يطلب منا النهوض لكي يستمع إلى ما يريد، وممن يريد، على انفراد كما يفعل زوجي في أحيان كثيرة.

لكن زوجي يتصرف بعكس ذلك تماما، فهو لا يحب الاستماع إلى ما يسميه الثرثرة بأسرار الناس، ولا يطيق رؤيتي أتحدث بصوت منخفض مع احدى صديقاتي على انفراد ويشعر بالضيق اذا وجدني أتحدث مع بعض جاراتنا على فنجان من القهوة أو الشاي، لكن أكثر ما يزعجه، حديثي عن مشكلاتنا أمام الأطفال، أو محاسبة أحد أبنائنا أمام الآخرين، مع أن المشكلة قد تكون عادية، لا تحتاج إلى كل هذا التكتم. فإذا قلت له: إن هذه هي الحياة، أجاب بأنها قد تكون كذلك، لكنها خطأ وإن قلت له: إن ما نتحدث عنه في الغالب أسرار صغيرة، لا يضير أحدا كشفها، قال: إن الأسرار أسرار. وإذا قلت له: إن من حق أولادنا علينا أن يعرفوا أن الحياة ليست بلا مشاكل، وأن من الأفضل لنا أن نعالج أخطاء بعض أبنائنا علنا، ليتعظ أبناؤنا الآخرون يقول: إن هذا يعقد الأطفال، ويدمر نفسياتهم، ويضعف ثقتهم بأنفسهم. ومع أنني لا أقتنع بما يقول إلا أنني أضطر للصمت، حتى لا ينفجر الخلاف المدوي في منزل الأسرار.

هي...

أســـرار البـيـوت

● زوجتي تعرف أن البيوت أسرار ، لكنها لا تقتنع بهذه المقولة كما يبدو ، وكثيرا ما تكون هذه الحقيقة سببا مباشرا في تعكير صفو منزلنا الهادىء الذي يغلب الانسجام على العلاقات بين أفراده ، والذي نادرا ما سمع أحد عن مشاكل داخله ، أو عرف شيئا من أسراره . وإن حدث ذلك فإن زوجتي هي السبب في الغالب . وعلى الرغم من أنني لا أكف عن الطلب إليها ألا تطرح مشاكلنا أمام أهلها ، أو أمام الجيران ، فإنها ترد ببساطة وتلقائية بأن ما تقوله لا يعتبر من الأسرار ، بل هو أمر عادي في كل البيوت ، وبين أفراد جميع الأسر . فإذا قلت لها : إن للآخرين أن يتصرفوا بأسرارهم كما يشاءون ، ولنا نحن أن نحافظ على أسرارنا ، ردت بأنها ستحاول . ولكي تخفف من غضبي تضيف بتلقائية تامة بأنها طوال حياتنا الزوجية ظلت تحاول ذلك ، إلا أنها لم تنجح . وإذا قلت لها : إن الثرثرة « مع » جاراتنا على فنجان قهوة أو شاي أمر يحرجني ، ويزعجني ، ترد قائلة : إن ما تقوله هي لا يساوي شيئا مقارنة بما تقوله صديقاتها عن حياتهن الأسرية . وقبل أن تصل الأمور حدا يكدر صفو علاقتنا الروحية التي قامت على حب واختيار تامين تعدني بأنها لن تقول شيئا ، وأنها ستستمع أكثر مما تتكلم ، أو على حد تعبيرها « تشتري ولا تبيع » .

وإذا ما انتهينا من مشكلة الثرثرة بأسرار العائلة مع الصديقات والأصدقاء أبدأ مع زوجتي في مشكلة أخرى ، هي الحديث العلني عن مشاكلنا الخاصة أمام أبنائنا . فإذا قلت لها : إن هذا يهز صورتنا أمام الأطفال أجابت : إن سماع هذا منا نحن أفضل من سماعه من الجيران أو الأقارب . وجادلت بأن معرفة الأخطاء ومناقشتها أفضل من التستر عليها والتعامي عنها .

إن بيتا بلا أسرار ليس بيتا على الإطلاق ، وإن إنسانا لا سر له إنسان لا وجود له ، وإن شؤون المنزل الخاصة أمر يجب أن يناقش داخل المنزل ، وليس على فنجان من القهوة ، وإن طفلا ينشأ في جو مثل هذا طفل مشوه الكيان . وهذا ما لا تريد زوجتي الاعتراف به ، على الرغم من وعودها المتكررة بذلك ، والتي أعتقد أنها ناتجة عن حبها لي أكثر مما هي ناتجة عن اقتناعها . وتلك هي المشكلة .

هو ..

مرض البقع البيضاء

الدكتور: حسن فريد أبو غزالة

أصيبت ابنتي الصغيرة عندما كانت في السادسة من عمرها بمرض في منطقة العجان (بين الفخذين) بطفح أبيض اللون مع حكة شديدة.

وعلى الرغم من مراجعة العديد من الأطباء واستعمال الكثير من الأدوية لم أجد نفعا. وقد مضت على ذلك أربع سنوات، ولم أتبين اسمه تماما. وقد قيل لي إنه مجهول السبب.

فهل لكم أن تصفوه لي، وأن تعرفوني بطبيعته وعلاجه؟

السيدة/ نورية أحمد/ ولنجتون - استراليا

قد يسميه بعض مرض الخزاز الأبيض. كما يسميه بعض آخر باسم الخزاز المتصلب. وهو مرض شيبع أكثر ما يشيع بين الإناث، وبخاصة في مرحلة ما قبل البلوغ، وفي مرحلة ما بعد انقطاع الطمث التي تعرف باسم سن اليأس، ومع هذا فهو مرض لا يستثني أحدا ولا عمرا.

أعراض المرض وعلاماته: يشكو المريض من حكة في موضع الإصابة، وبخاصة منطقة العجان فيما بين الفخذين، حيث فتحة الشرج والأعضاء التناسلية، إذ ينتشر طفح متفاوت الحجم، مختلف الأشكال، على هيئة حبيبات بيضاء عاجية اللون، يحيط بها دائرة حمراء. هذه الحبيبات المتناثرة في مبدأ الأمر تلتئم وتتماسك، ثم يصيب المنطقة ضمور، ثم يصبح في كل حبيبة انخساف تملؤه سدادة قرنية الملمس.

ثم تتطور الحالة، فتظهر بعض الحويصلات، ويتلون الجلد، ويتجعد. ولا يعرف الطب سببا مباشرا للإصابة، وإن كان بعض ينادي بوجود خلل هرموني عند الإنسان المصاب.

على أي حال فالمرض حميد العاقبة على الرغم من طول مدة الإصابة التي تتخذ صورة مزمنة.

وإن الأطباء لم يستقروا على سبب يجمعون عليه، فالعلاج ما زال اجتهاديا. إذ يستعمل بعض عقاقير الكورتيزون، سواء منه الدهانات الرخيصة أو الأقراص التي تؤخذ بالفم. كما أن بعضا آخر قد يلجأ إلى الهرمونات الأنثوية وفيتامين (سي). ولا أحد يميل إلى الاستئصال الجراحي، إلا إذا داخله الشك في وجود تغيرات سرطانية خبيثة، ويخشى منها على حياة المريض.

مساحة ود!

قال المغني

جلس المغني على كرسيه في منتصف المسرح . العود في يده ، ومكبر الصوت « الميكرفون » أمامه ، وخلفه وقف الموسيقيون ، وبدأ الاحتفال . كان صوت المغني عاديا جدا ، لكن كان هناك أكثر من شيء غير عادي في الاحتفال عموما ، فالكلمات التي اختيرت من قصائد لكبار الشعراء العرب لم تكن شيئا عاديا ، والأداء الذي لم يعتمد على الصوت الجميل لم يكن عادياً ، كما لم يكن عاديا تمكن المغني من خلق علاقة مع جمهور الحاضرين ، وتحويلهم من شخصيات، سلبية بحكم وجودها في ذلك الجزء من القاعة الذي يفترض فيه التلقي ، إلى جمهور مشارك في أداء الغناء الذي سيطر على جو القاعة من بداية الاحتفال حتى نهايته ، من أول القاعة حتى آخرها

غنى الجمهور واقفا ، وغنى جالساً ، وضبط بتصفيق الأيدي ودق الأرجل إيقاعا جميلا بلا آلات موسيقية . غنى المغني وصفق الجمهور ، وغنى الجمهور وصفق المغني ، واشترك الجمهور والمغني في غناء استفاد من أصوات أنين المجروحين ، ومن هتافات المتظاهرين ، ومن غناء عمال البحر والصيادين ، ومن ترانيم الأمهات لأطفالهن في الليالي الحزينة .

كان كل شيء في الاحتفال جديداً ، من كلمات الأغنيات إلى ملابس المغني العادية المتواضعة ، إلى العلاقة التي نشأت بين المغني والجمهور ، واستمرت طوال مدة الاحتفال . كان ما رأيته غناء « وليس طربا » ، وما قام به الجمهور مشاركة في الاحتفال وليس تلقياً .

صورة جديدة للغناء تختلف عما ألفناه منذ سنين ، حين كان يقف « المطرب » على المسرح ببذلته السوداء اللامعة وقميصه الأبيض ذي الأزرار الذهبية ، ويبدأ باستعراض إمكانياته الصوتية أمام جمهور أتى ليستمع ويصفق لمهارات « المطرب » ، حتى ينتهي الاحتفال ، فليس مسموحا ضمن تقسيم الأدوار بين المطرب والجمهور بأكثر من هذا .

وما فعله مارسيل خليفة ، بهذه الطريقة الاحتفالية الغامرة ، فعله فنانون آخرون في مصر والعراق وفلسطين والمغرب ، كل بطريقته الخاصة . أما الهدف فهو إعادة الاعتبار للعلاقة بين المغني والجمهور الذي حضر ليحتفل ، لا ليشاهد حفلا ، وليتحول من متفرج ومستمع سلبي الدور ، إلى مشارك في عرس أو تظاهرة صاخبة ، أو أغنية حب دافئة ، أو أنة حزن دفينة ، فمهمة « المغني » أن يغني مع الحاضرين ولهم ، وليس ليطربهم بإمكاناته الصوتية مهما كانت كبيرة . □

صلاح حزين
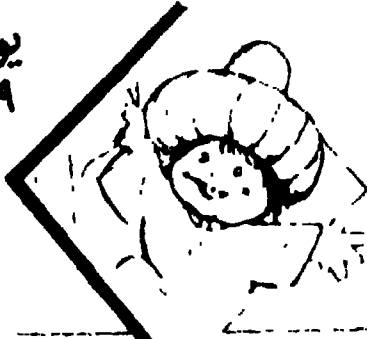
صدر العدد الجديد
العربي الصغير
مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
يونيو
١٩٨٩
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
في هذا العدد
استطلاع "الفنون الشعبية".
همام .. "قصة بالرسوم".
دعوة لزيارة "سلطنة عمان".
ذات الهمة "الحلقة السادسة".
شجرة الدر "مسلسل تاريخي".
من أيام الطفولة .. بهجت عثمان.
إضافة للأبواب الثابتة
اسلاميات
كمبيوتر
٨ صفحات
لأخيك الصغير واختك الصغيرة
دائرة معارف العربي الصغير
نتيجة مسابقة العدد ٣٩
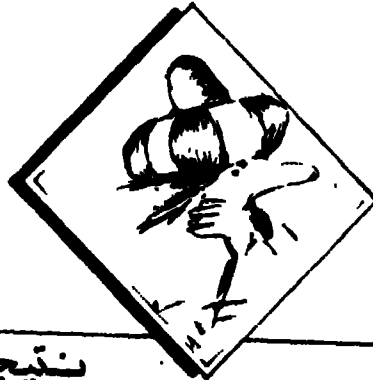
بقلم : الدكتور حسن عباس

كلمات نتحاشى استعمالها وهي صحيحة

لا نحسب أن الادعاء القائل بأن الفصحى لغة ، والعامية لغة أخرى يستقيم أمام النظرة الفاحصة المتبصرة ، فنحن إذا نحينا الدخيل من اللهجات أمكننا إرجاع أكثر المفردات الدارجة على ألسنة العامة إلى أصولها العربية الفصيحة . والتحريف الذي يلحق الكلمة حتى تتحول من كلمة فصيحة إلى أخرى عامية لا يجاوز القلب أو التخفيف أو التضعيف أو نحو ذلك ، ولكن الصحيح الثابت هو أن الفصحى والعامية تمثلان مستويين من مستويات الخطاب ، لا لغتين مختلفتين ، فإن بينهما من الوشائج وصلات القربى ، ما لا يغفل .

ولقد أتيحت للفصحى فرصة للظفر بالعامية ، حين عم استعمال ما يمكننا أن نسميه « الفصحى الميسرة » ، أو « الفصحى المعاصرة » ، عن طريق الصحافة العلمية والأدبية والسياسية منذ قرن ونيف ، وقد ساعد ظهور هذا المستوى الميسر من الفصحى على اقتباس أنواع أدبية جديدة ، لعل اقتباسها كان متعذراً في ظل الأساليب التي كان يحلو لأصحابها أن يزينوها بالسجع والبديع والجزل الفخم من الألفاظ ، بل وبالغريب الحوشي منها ، مما لم يعد له وجود إلا في معاجم اللغة . ومن هذه الأنواع التي استحدثت في أدبنا العربي . الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . ثم ساعد ظهور الإذاعتين المسموعة والمرئية على شيوع هذه اللغة ، فعم انتشارها ، حتى غدت تطرق أسماع الجماهير صباح مساء ، ومن الجماهير من لم يُقِم أي شكل من أشكال العلاقة مع الكتاب أو الكلمة المكتوبة حيثما وجدت .

وهكذا قدر لهذه الفصحى الميسرة أن تغدو لغة الأدب الحديث ، ولغة الصحافة على تعدد ألوانها ، بل ولغة الحديث اليومي لدى الأوساط التي أتيحت لها مستويات مرموقة من التعليم والثقافة . ومن هنا ندرك أن انتشار التعليم ، وازدياد حظ الناس منه ، جديران بإحلال الفصحى المعاصرة محل العامية ، أو التخفيف من غلواء الأخيرة وإغراقها في المحلية على أي حال

وليس كل كلام العامة حوشيا ، ينفر منه الذوق الأدبي ، ويأباه الحس الفني ، بل إن فيه كلاماً فصيحاً ، حسب الناس أنه عامي لكثرة دورانه على الألسنة ، وجاوزه الذوق العام لطول الإلف والعادة . ولكنه يظل فصيحاً على الرغم من الحلة الشعبية التي يرتديها .

كنا في العدد الماضي (٣٦٦) قد وقفنا على جانب من تلك الألفاظ العامية الفصيحة ، كما

أوردهـا الدكتـور محمد داود [illegible]
« ألفـاظ عامية فصيحة » ، [illegible]
جانب آخر من تلك الألفاظ والعبث

* **الطيِّب** : ومن تلك الألفاظ قول الناس فـلان رجـل طيِّب ، ويحسبهـا بعض الناس عـامية ، وهي عـربية فصيحـة ، فالطيب من الناس من تخلى عن الرذائل وتحلى بالفضائل

* **طيِّب** : تستعمـل هـذه الكلمـة كثيـراً للتصـديق عـلى الكـلام ، أو لـوصفـه ، أو لاستحسـان بعضـه ، أو للتهكم من بعضـه الآخر . والكلمة عـربية فصيحـة . ومع ذلك نتجنبها في الكتابـة ، وشيع عنها عند ترجمة للكلمـة المماثلة في اللغـات الأجنبية فكلمـة طيب معناها كلام طيِّب . وطاب الشيء طيبـا وطيبـة : جاد وحسن ، ومعنـاها زكـا وطهُر والطيِّب هو ماخلا من الأذى والخبث ، وكل ما تستلذه الحواس والنفس .

* **طهـارة المولـود** : نتحاشى عبـارة « طهّر المولود » أو يوم طهارتـه ، ونستعمل بـدلاً منها ختنه ختانا ، خشية الانزلاق إلى العامية ، ولكن العبـارة الأولى صحيحة فصيحـة . شأنها شـأن الأخرى .

* **الطقطقة** : يقولـون في الكلام : فقـرات ظهري تطقطِق ، أو أن الأرض الخشبية كـانت تطقطق وهو سائر عليها ، وهي فصيحة ، فلفظه طقّ هي حكـايـة صـوت الحجـر أو الحـافـر ، والطقطقة فعلةٌ مثل الدقدقة ، معناها صوّت ، أو كثر صوته ، أو تفرقع ، وهي تكرار طقّ

* **العتب عـلى النظر** : عبـارة يقولهـا الناس حين يعتذرون عن عدم رؤية شيء ، والأصل صحيح ، فالعتب هـو النقص والفساد ، وهـو أيضاً الشدة والأمر الكريه ، وكأنهم يقـولون : عفوا فالنقص في البصر .

* **العَتَمَة** : ويقولون جاء في العتمة ، ولم أره في العَتْمة (وينطقها العامة أحياناً بتسكين التاء) وهي فصيحة ، فعتمة الليـل ظلام أولـه بعد زوال نور الشفق

* **عجَزنا وعجّزت** [illegible] عجَزنا ، أو عجز فلان ، أو عجّزت [illegible] صـارت [illegible] والعجوز هو [illegible] عجّزت تستعمل في الكلام وخصوصا في الكتابة وفي الكلام الفصيح . مع أنها فصيحة فعجّزت المرأة معناها صارت عجوز وعجوزة ، وهذا الاستعمال الدارج ، وكلها فصيحة

* **حريج** يقولون . هو حريج كمية كذا ، ويتحاشاها في الفصحى ، ويقول حريج ، مع أن كلتيهما فصيحتان

* **البيّاع** يتحاشى الناس استعمال كلمـة البيّـاع في اللغـة الفصيحـة ، ويستعملون « البائع » ، مع أن كلتيهما فصيحتان ، ولا حرج في استعمالهما

* **البير** تسهيلا للبئر ، وهي فصيحة فالعرب أبدلوا الهمـزة لعين علة للتخفيف (من شفاء العليل لابن حجر) .

* **بطن الثوب** بطّن الثوب وأبطنه جعل له بطانة ، وهي فصيحة . والبطانة هي ما يُبطن به الثوب ، وهي خلاف ظهـارته (بطائنها من استبرق) « قرآن كريم »

* **الأنف** يقولون فلان أنف ، يعنون أنـه متكـبر أو متعـالٍ ، وهي فصيحـة والأصـل أنف . وأنِف منـه أنفاً وأنفـةً معناهـا استنكف واستكبر ، والأنفة هي النخوة والغضب

* **أين ؟** يقـولـون من اين ؟ (بتخفيف الهمـزة) ، ولا عـار عليهـا وينطقـونها وكأنها « منين ؟ » ، كما يقـولـون في اين ؟ بـالتخفيف أيضاً فينطقونها وكأنها « فين » ؟

* **الرُّمْرَمةُ** يقولـون فلان رمرام ، وأكله رمرمة ، يعنون أنه يقبل على الأكل بلا تمييز أو مراعاة لنوعيته ، وهي فصيحة فرمرم الرجل وغيرها معناها أكل ما سقط من الطعام ولم يتوق قذره وفي حديث الهرة (حبستها فلا أطعمتها ولا أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض) . □

لو أن أرضي حرة!

للشاعر ابن حمديس

تروي كتب الأدب - ويؤكد الشاعر نفسه - أن المعتمد بن عباد لم يأنه بابن حمديس عندما جاء اشبيلية ، فقد أقام فيها زمناً قانطاً قنوطاً ، أوشك معه أن يعود إلى بلاده . وقد نوه ابن حمديس بذلك في مقدمة القصيدة (٣٤٤) من ديوانه الذي حققه الدكتور إحسان عباس فقال :

« أقمت في أشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبأ بي ، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي ، فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : أجب السلطان ، فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني ، وقال لي : افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها ، فإذا بكور زجاج على بعد ، والنار تلوح من بابيه ، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتهما قال لي أجز :

انظرهما في الظلام قد نجما فقلت : كما رنا في الدجنة الأسد

فاستحسن ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية ، وألزمني خدمته».

لم تلبث نشوة الأيام الجميلة التي عاشها على مقربة من حاكم أشبيلية أن تتبدد . فبعد سقوط الجزيرة - جزيرة صقلية - وضياع الوطن مات والد ابن حمديس ، وقد ضاعف من حزنه وألمه أن يموت والده وهو غريب عن بلده ، عاجز عن أداء الواجب . ورثاه بقصيدة مؤثرة أعاد فيها إلى الذاكرة مشاعرهما الفياضة يوم الفراق .ثم مات عدد من أهله وأصدقائه وهم يدافعون عن الجزيرة ، وكان أشد ما يؤلمه في فقده لهم أنهم غابوا دون أن يتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة عليهم .

وعلى الرغم مما تركته تلك الأحداث من أثر في نفس ابن حمديس - وفي مقدمتها ضياع صقلية - فقد صمد لها ، وظل ينعم بالعيش - إلى حين - في ظل المعتمد بن عباد ، ويؤكد له في مدائحه أنه متماسك صامد بفضل رعايته له وحدبه عليه . ولم يكن يعلم أن الأيام تتربص بصاحبه وولي نعمته ، فما إن انتهت معركة الزلاقة المشهورة التي أبلى فيها حاكم أشبيلية بلاءً حسناً حتى اعتقله المرابطون الذين دخلوا الأندلس بقيادة ابن تاشفين ، وانتهت بذلك أسطورة المعتمد بن عباد رجل الدولة والشاعر الأديب ، واقتيد إلى « أغمات » في المغرب حيث ظل سجيناً هناك حتى وافاه الأجل .

بسقوط دولة ابن عباد أقفر قصره ، وانفض الشعراء والأدباء من حوله ، وتفرق جمعهم ، إلا قِلّة منهم ظلت على الوفاء ، وفي مقدمة هؤلاء يقف ابن حمديس أميناً مخلصاً ، فقد دأب على زيارته في

سجنه ، وظل يمدحه أسيراً كما كان يمدحه سلطاناً ، بل إنه رأى في نكبة المعتمد نكبة له ، وفي ضياع ملكه ضياعا للوطن الثاني الذي كاد ابن حمديس يطمئن إليه . لذلك أمسك عن مدح المرابطين فلم يقترب منهم أثناء ارتحاله في المغرب وانتقاله من مدينة إلى أخرى جوّاباً ضائعاً لما يقرب من أربعين عاماً ، وامتدح ـ لضرورات العيش ـ من كانوا دونهم ، وأقل منهم شأناً . ومن مدائحه هذه القصيدة التي يشكو فيها الزمان وسوء الحال أكثر مما يمدح

تدرّعتُ صبري جُنّةً للنوائب ... فإن لم تُسالمْ يا زمان فحارب
عجمتَ حصاةً لا تلين لعاجم ... ورُضتَ شَموساً لا يذلّ لراكب
كأنك لم تقنع لنفسي بغربةٍ ... إذا لم أُقلّب في بلادِ المغارب
[بلادٍ جرى فوق البُلادة ماؤها ... فأصبح منه ناهلاً كلُّ شارب]
فَطِمْتُ بها عن كلّ كأسٍ ولذّةٍ ... وأنفقتُ كنزَ العمر في غير واجب
يبيت رئاس العضب في ثني ساعدي ... مُعاوضةً من جيد غيداء كاعب
أتحسبني أنسى ، وما زلت ذاكراً ، ... خيانةَ دهري أو خيانة صاحبي
تَغذّى بأخلاقي صغيراً ولم تكنْ ... ضرائبُه إلّا خلاف ضرائبي
ويا رُبّ نَبْتٍ تعتريه مرارة ... وقد كان يُسقى عذب ماء السحائب
علمتُ بتجريبي أموراً جهلتها ... وقد تُجهل الأشياء قبل التجارب
بصادقِ عزْمٍ في الأماني يُجلّني ... على أملٍ من همّة النفس كاذب
ولا سَكَنٌ إلا مناجاة فكرةٍ ... كأني بها مُستحضرٌ كلَّ غائب
ولما رأيت الناس يُرْهَب شرهم ... تجنّبتُهمْ ، واخترتُ وحدةَ راهب
أحَقّ خيالٍ كنت أحظى بزوره ... له في الكرى عن مضجعي صدُّ عاتب
فهل حال من شكلي عليه فلم يَزرْ ... قضافةُ جسمي وابيضاض ذوائبي
ولو أنّ أرضي حُرّةٌ لأتيتُها ... بعزمٍ يعُدّ السيرَ ضربةَ لازب
ولكنّ أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسْر في أيدي العلوجِ الغواصب
أحين تفانى أهلها طوْعَ فتنةٍ ... يضرّم فيها ناره كلُّ حاطب
ولم يرحمِ الأرحامَ منهم أقاربٌ ... تروّي سيوفاً من نجيعِ أقارب
حُماةٌ إذا أبصرتَهمْ في كريهةٍ ... رضيتَ من الآساد عن كلّ غاضب
إذا ضاربوا في مأزق الضرب جرّدوا ... صواعقَ من أيديهمْ في سحائب
أولئك قومٌ لا يُخاف انحرافُهمْ ... عن الموت إن خامتْ أسودُ الكتائب
إذا ما غزَوْا في الرّوم كان دخولُهمْ ... بطونَ الخلايا في مُتون السّلاهب
يموتونَ موتَ العزّ في حَوْمةِ الوغى ... إذا مات أهلُ الجبن بين الكواعب
حَشَوْا من عجاجاتِ الجهادِ وسائدا ... تُعَدّ لهم في الدّفن تحت المناكب
فغاروا أفولَ الشهب في حُفَرِ البلى ... وأبقوْا على الدنيا سواد الغياهب
ألا في ضمانِ الله دار بنوطسٍ ... ودرّتْ عليها مُعصرات الهواضب
أمثّلها في خاطري كلّ ساعةٍ ... وأمْري لها قَطْرَ الدّموع السواكب
أحنّ حنين النيبِ للموطنِ الذي ... مغاني غوانيه إليه جواذبي
ومن سار عن أرضٍ ثوى قلبُه بها ... تمنّى له بالجسم أوبة آيب

تستأثر صقلية بالكثير من شعر ابن حمديس ، وفي هذه القصيدة ـ على وجه التحديد ـ يتحول حب الشاعر لصقلية وحنينه إليها إلى ما يشبه الثورة على الزمان وعلى الناس ، وهو موقف طبيعي منتظر ، فقد قالها في مدح أمير المهدية في المغرب في أواخر القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) وكان قد غادر الأندلس بعد نكبة المعتمد بن عباد،وفي تلك الأثناء سقطت صقلية ودخلها الروم ، فثارت ثائرة الشاعر على النحو الذي تبديه أبيات القصيدة .

في غمرة اليأس والغضب يخاطب الشاعر زمانه قائلاً : « كنت من قبل قد لبست ثوب الصبر لأخفي به المصائب والمحن ، أما الآن فليس أمامك إلا أن تسالم ـ أيها الزمن ـ أو أن تنازلني القتال . فإن شئت أن تقاتل فقد عجمت حصاة صلبة لا تلين ، وركبت حصاناً عنيداً حروناً لا يذل لراكب . ألم تقنع بما أصابني من اغتراب بتّ على أثره أجوب بلاد المغرب ، مبدداً العمر في شقاء بعد أن كنت في وطني أعب من كأس الحياة ولذائذها عباً ؟ هنا يبيت السيف في ثني ساعدي ، وهناك كانت يدي تطوق عنق غادة جميلة » .

ويروق للشاعر أن يسترسل في ذكر السيوف ، ويقول : إن له فيها مآرب كمآرب موسى في عصاه ،ولكنه ينحّي جانباً فكرة حرب الزمان وما يستتبعها، ولعله قد رجح لديه أن تكون هناك خيانة صاحب فضلاً عن غدر الزمان ، فقد علّمتْه التجربة ما كان يجهله من قبل ، فكثيراً ما يسقي ماء المطر العذب نباتاً ، ولكن ذلك النبات ينمو وفيه مرارة ، وهذا هو شأن بعض الصحاب الذين تمحضهم ولاء وودا ، ولا تجني منهم غير الإساءة .

يقول الشاعر : كنت حين قدمت أمنّي النفس بالآمال ، وقد خابت آمالي بعد أن رأيت الناس يبادرون بشر يثير الرهبة ، فتجنّبتهم واخترت وحدة أشبه بوحدة الراهب ، ليس هذا فحسب ، بل إن طيفاً كان يزورني في المنام صدّعني هو الآخر .

على هذا النحو يصور ابن حمديس حياة الوحدة والوحشة والغربة عن الناس والوطن .

ولو لم تكن أرضه محتلة لما تريث وانتظر ، بل لسار إليها بعزم

ولكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج العواصب

وهذه الصرخة التي تمتزج بالألم والحسرة تخفي الكثير من الشكوى ، ولكن الشاعر لا يقف طويلاً عند مأساة ضياع بلاده ، بل يؤثر تعداد فضائل قومه ، وذكر بلائهم في قتال العدو ، فذلك أولى بالانصاف وأدعى إلى الطمأنينة .

إنهم على هذا القدر من البأس والاقدام والتضحية والقوة ، فكيف ضاعت صقلية إذن ؟ إذا نحينا جانباً مسئولية أبناء صقلية أنفسهم في ضياع الوطن لأن ابن حمديس لا يقف عندها طويلاً ، فهو يصفها بالتفاني في الفتنة (أحين تفانى أهلها طوع فتنة) فإن سبباً لم يعلنه الشاعر ولم يتطرق إليه ـ أنفة وكبرياء ـ يكمن في تخلي المسلمين عن وطنه عندما دعت دواعي الجهاد كما يرى الدكتور إحسان عباس (العرب في صقلية) : « . . إنه لا يتفجع على وطنه ليستصرخ الناس ويستنجدهم ، ويهيب بهم للعمل من أجل وطنه باسم الدين أو باسم الجهاد . . هو ناقم حقاً ولكن على من ؟ . . كان شعوره الداخلي يحدثه أن هنالك مسئولية أكبر تقع على عاتق المسلمين الذين تخلوا عن صقلية حين كانت في حاجة إلى نصير ، ولكن عوامل نفسية من القوة لم تُخلِ بينه وبين الافصاح عن هذا الشعور ، فذهب ليتحدث عن غدر الصاحب وخيانته . . وهو مندهش مستغرب من السلبية المطلقة التي واجه المسلمون بها ضياع وطنه . . . » .

وهذا تأويل صائب لا يسع المرء معه وهو يرى أجزاء من الوطن العربي تسلب وتغتصب إلا أن يقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! □

تجربة وفكر مع الطبيعة

بقلم : طارق الحجي

يعد « هنري ديفيد ثرو » امتدادا لمدرسة جان جاك روسو التي كانت تدعو إلى البساطة في الحياة والعلاقات الانسانية ، واستلهام غايات الطبيعة وتأثيراتها في مواجهة التعقيد الشديد الذي شمل مناحي الحياة نتيجة للتقدم المدني والمادي . كان ذلك في القرن الثامن عشر ، ترى ماذا يقول لو شاهد ما وصلت إليه البشرية اليوم ؟

هو أحد أقطاب الفكر الأمريكي في القرن الماضي ، وإن حاول البعض تجاهل آثاره الفكرية ، فان في كل جيل من الأجيال الامريكية فئة من ذوي العقول النيرة الذين يجدون في أفكاره ومبادئه ضالتهم المنشودة .

دخل هنري ثرو عالم الفكر والأدب منذ صباه ، ولكنه بعد اكتمال رجولته لم بنظر إلى هذا الأدب على أنه مجرد شعر وقصائد وروايات ، كما فعل كثيرون غيره فنالوا الشهرة والمكاسب ، بل عده تراثا إنسانيا يتكامل عبر العصور والأجيال فيضيء الطريق إلى المعرفة والعلوم لتتوصل البشرية بفضله إلى حياة فاصلة ترفع مكانة الإنسان ، هكذا عرف ثرو الأدب وهكذا أراده طوال حياته ، فكانت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها وطبّقها في حياته اليومية ، تعد غريبة على المجتمع الأمريكي الذي كان في طور النمو والتوسع على أسس رأسمالية تستغل طاقات البشر والطبيعة لمصالح طبقة معينة .

حيــاته :

ولد هنري ثرو في مدينة « كونكورد » القريبة من بوسطن بولاية « ماسشيوستس » الأمـريكية سنة (١٨١٧) في أسرة متوسطة الحال ، وقد نشأ منذ طفولته في تلك البيئة التي تحيط بها الغابات الخضراء ، والأنهار الجارية ، والطبيعة بكل مـا فيهــا من جمـال وتنــاسق ، مما زرع في نفسـه ولعه المبكر بكل ما في الطبيعة من سحـر وجمال ونظام بديع التناسق ، وكائنات متعددة الأنواع ، فكان أسير هذه الطبيعـة ، وما فيهـا من أسرار وألغاز طوال حيـاته والتي تعامل معها بأسلوب العالم والمفكر المتأمل .

أنهى ثـرو المراحـل الأولى من تعليمـه بكـل اجتهاد ، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بجـامعة « هـارفـرد » في بـوسـطن سنـة (١٨٣٣) التي أنهى دراستـه فيهـا بتفـوق سنـة (١٨٣٧) ، حيث أشبع رغبته وولعه الشديـدين بالاطلاع والقـراءة في مختلف النواحي الفكـرية بكل جد واهتمام ، وقد درس بتعمّق موضوعات مختلفة كثيرة منها الأدب الإنجليزي والكلاسيكي والفلسفة الشرقية واليونانية ، وتـاريخ البشـرية بالإضافة إلى كل من اللغة اللاتينية والإغريقية .

حصـل ثرو عـلى أعـلى درجـات التعليم في زمانه ، فكان من الطبيعي أن يلتحق بعمـل أو وظيفة تؤدي به إلى مركز مرموق في مجتمعه ، بعد أن أثبت تفوقه بكل جدارة ، ولكن تأثره العميق بما اطلع عليه من علوم وآداب تحمل بين طيّاتها أفكـارا فلسفية عميقـة عن الوجـود والـطبيعـة والإنسـان ، هذا بـالإضافـة إلى تعلقه الشـديد فكريا ونفسيا بكل ما في الطبيعة من جمال وجلال جعله يتجه اتجاهـا فريـدا يخرج بـه عن الإطار المألوف في المجتمع .

لقد وجد أن المجتمع الأمريكي يدفع بأفراده إلى الانغماس في كل ما هو مادي ، ويشق مظاهر الترف والإسراف ، بينما يعاني الكثير منهم الفقر والجهل .

كـما لاحظ أن الاتجـاه المـادي للمجتمـع الأمريكي يشكل خـطرا على البيئـة وكل مـا في الطبيعة من عناصر وكائنات، وبهذا فهو من أوائل الذين نادوا بالحفاظ على التوازن في الطبيعة وحماية البيئة المحيطة بالإنسان . لهذه الأسباب وغيرها وجـد ثرو نفسـه يبتعد تـدريجيا عن نمط الحيـاة الأمريكية ، ويقف منها موقف الناقد والـرافض لمظاهرها الخادعة .

كان ثرو كثير الاطلاع والقراءة ، واسع الأفق والثقافة ، وضع مبادئه موضع التنفيذ ، والتـزم بهـا ، فعاش حيـاة بسيطة متـواضعة ، وقضى معـظم وقتـه بـالـدراسـة والكتـابـة ، وإلقـاء المحاضرات داعيا الناس إلى إصلاح مجتمعهم ، وأسلوب حياتهم ، والعناية بالبيئة من حولهم ، والتقرب إلى الطبيعة ، وعدم مساس عناصرها ، ومواردها بأي ضرر لأنها مصدر مقومـات الحياة البشرية .

قضى ثـرو سنوات حيـاتـه يـدعـو إلى هـذه المبادىء بكل وسيلة ، وقد شارك بنشاط في حركة فكرية كانت تدعو إلى الإصلاح الاجتمـاعي ، كان من بين أفرادها خيرة أدباءعصره ، وكان أحد زعمـائهـا الأديب الأمـريكي « رالف والـدو إمرسون » الذي كان جارا لثرو وصديقا مقـربا منه . وكان إمرسون الذي ذاع صيته ، وله مكانة رفيعة في المجتمع الأمريكي أكبر سنا من ثرو ، فكانت علاقتهما علاقة أخوية صادقـة ، وكانت هذه الحركة تدعو لبناء مجتمع أمريكي على أسس إنسانية عادلة تشمل مختلف النظم الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية .

ولقد كان لثرو مواقف مشرفة كثيرة ، خاصة خلال الفترة الأخيرة من حياته القصيرة ، وأهمها موقفه الجريء من مسألة الرق في أمريكا ، إذ كان من أوائل الدعاة المخلصين لتحـرير السـود من عبوديتهم في المجتمع الأمريكي ، هذا بالإضافة إلى مـوقفه من حـرب الـولايـات المتحـدة مـع

المكسيك التي عدها ثرو عدوانا اثما على دولة مستقلة .

تجربته مع الطبيعة :

أراد ثرو أن يقوم بتجربة يضع فيها بعض أفكاره موضع التطبيق ، فعزم عام ١٨٤٥ على الاعتزال بمفرده على ضفاف بحيرة تسمى « والدن » ، تحيط بها الغابات بالقرب من بلدته التي كان يتردد عليها في خلواته ونزهاته منذ صباه ، فقرر بناء كوخ صغير بيديه ، واتخذ بجانبه مساحة صغيرة من الأرض ، ليزرع بعض ما يحتاجه من غذاء ، وهكذا عاش قريبا من الطبيعة التي طالما أعجب بها . وقد سجّل ثرو الكثير من أفكاره وآرائه خلال هذه الفترة التي دامت أكثر من عامين،وقد قضاها بالدراسة والتأمل والكتابة .

وقد ذكر في سجلاته أن تكاليف بناء كوخه بلغت أقل من ثلاثين دولار ! وهو مبلغ بسيط مع أن قيمة الدولار في زمنه أكبر بكثير مما هي عليه اليوم ، كما ذكر تكاليف حياته اليومية ومصاريفه القليلة ، لكي يبرهن أنه من الممكن نبذ حياة التبذير والاسراف ، والاكتفاء بحياة البساطة والكفاف . وقد أكدّ مرارا أن هذه الفترة التي قضاها بعيدا عن المدينة نسبيا ، هي أسعد سنوات حياته ، كما أكد أن المدينة أو المجتمع في كثير من الحالات أكثر وحشية من الغاب .

أنهى ثرو عزلته سنة (١٨٤٧) ، بعد أن وضع أفكاره ومبادئه تحت التجربة الفعلية ، واقتنع بنتائجها ، وقد خرج منها بكتابه الشهير الذي سماه « والدن » على اسم تلك البحيرة التي عاش على ضفافها ، وشهد ما في الطبيعة من روائع عبر فصولها المتوالية ، وسجل فيه بأسلوبه الرائع ، مختلف أفكاره وتأملاته لكل ما يتعلق بالانسان والوجود والطبيعة ، وآراءه بما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسيطر على المجتمع .

نظم سيئة وفاشلة :

يعد ثرو من أوائل المفكرين الذين رفعوا أصواتهم ضد كل ما في الحياة الأمريكية ، من مظاهر الاسراف والمدنية الزائفة ، وأكد دائما على رفضه لجميع مظاهر الترف والاستغلال التي تؤدي إلى انحلال كل من الفرد والمجتمع ، وقد سجّل ثرو أغلب آرائه في كتابه « والدن » الذي يعد مشعلا للرأي الحر الهادف في الولايات المتحدة .

كان يرى أن الولايات المتحدة عبارة عن أرض عذراء ، تفيض بالخيرات والثروات بما يكفي كل فرد فيها ، فلا تعاني الطبقات الدنيا في المجتمع من الفقر والجهل ، ولكن طمع الانسان وسوء الاستغلال سيؤدي بالبلاد إلى الخراب ، وعد أن الشعار المرفوع منذ القرن الماضي الداعي إلى الحياة المترفة ، ورفع مستوى الحياة مجرد شعار زائف يحمل بين طياته أضرارا بالغة لكل من الفرد والمجتمع .

لقد انتقد ثرو الأوضاع الاجتماعية ، وأسلوب الحياة الأمريكية دون هوادة ، وشمل

كوخ ثرو

نقده النظم السياسية والاقتصادية المتبعة ، وعدها نظماً سيئة وفاشلة يتم تطبيقها لصالح فئة معينة من أصحاب النفوذ وليس للصالح العام . وقد عارض الحكومة في عدة مناسبات مما أدى إلى إدخاله السجن في إحدى المرات .

وله خطبة شهيرة يحض فيها الناس على الاحتجاج ضد السلطة عندما تسيء استعمال قوانين البلاد .

ومن أهم آرائه أن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد ، وتنمية وعيه وادراكه ورفع مستواه الفكري والروحي ، وهذا من مسئولية وواجب كل فرد في المجتمع . وكان يحث الناس دائماً على الرقي فكرياً وروحيا والترفع عن الماديات وكل ما هو مبتذل ، فقد كان يرى حياة الناس من حوله مشبعة بصور الرياء والتكلف ، بينما تخلو من الابداع والتأمل والتآخي ، وتؤكد أن الفرد في المجتمع الأمريكي ، يعيش حياة لا معنى لها ولا هدف ، يتحول فيها الانسان إلى مجرد آلة ، أو دمية تتحرك لا وعي لها ولا إدراك .

وقد وصف ثرو الحكومة الأمريكية بأنها آلة كذلك ، وبأنها منظمة سياسية لا ضمير لها ، وذلك عند مطالبته بتحرير السود من العبودية ومناداته بايقاف الحرب مع المكسيك .

العصيان المدني واجب :

نفر ثرو من مجتمعه وما فيه من رياء وتناقضات ، فآثر الاطلاع والكتابة والتقرب إلى الطبيعة ، والقيام برحلات إلى مناطق نائية ، وقد حالت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها طوال حياته من الالتزام بعمل أو وظيفة ما ، فكرس وقته للكتابة التي عدها عمله الخاص ، وإن لم يجن منها ما يكفي لسد حاجته ، إذ لم تشتهر كتبه ، ويبرز اسمه إلا بعد وفاته وهو في الخامسة والأربعين .

وقد بلغت كتاباته ستة آلاف صفحة بعد طباعتها ، وتم نشرها بعد وفاته في أربعة عشر مجلداً تضم كل ما كتبه ، بالإضافة إلى محاضراته وخطبه التي ألقاها في الأندية الثقافية والمناسبات المختلفة .

ويعد كتابه « والدن » الذي ترجم إلى عدة لغات خلاصة لأفكاره ومبادئه ، كما يعكس شخصيته النادرة بكل وضوح ، وهو كتاب ممتع يحض القارىء على التفكير والتأمل ، صاغه ثرو صياغة بديعة بأسلوب سلس مميز ، واختار فصوله من مجمل ما كتب أثناء عزلته على ضفاف بحيرة « والدن » ، واستعرض على صفحاته آراءه الخاصة المتعلقة بمختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وعلاقة الانسان بالبيئة والطبيعة ، وأوضح فيه أن حياة الانسان مطمورة تحت أثقال التقاليد والمجتمع والحكومة والكنيسة ، بكل ما فيها من تناقضات ومساوىء . وأن الانسان لا يجرؤ على الإفلات من هذه القيود ، ولا يمكنه الخلاص والارتقاء إلى عالم أو مجتمع أفضل .

ولثرو خطبة شهيرة بعنوان « العصيان المدني » وقد تم نشرها ضمن مؤلفاته بعد وفاته ، وفيها يدعو إلى الاحتجاج بدون عنف ضد السلطة ، عند ارتكابها أي خطأ ، ومقاومة أي اضطهاد أو سلطة غير عادلة ، وإحدى وسائل هذه المقاومة التي دعا إليها وطبقها ، هي رفض دفع الضرائب الحكومية التي من أجلها أدخل السجن ، لكن أطلق سراحه بعد أن دفع أحد أقربائه ما عليه من ضرائب في اليوم التالي دون علمه ، ويقال : إن كلاً من المفكر الروسي الكبير تولستوي والمهاتما غاندي تأثرا بأفكار ثرو التحررية ، وعملا بها .

وفاته :

توفي ثرو سنة ١٨٦٢ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين ، بعد أن قضى حوالي سنتين على فراش المرض ، وفي جنازته ألقى إمرسون خطبة لتكريمه أثنى فيها على مبادئه الإنسانية ، وأفكاره المتحررة ومواقفه الشجاعة ودعوته المستمرة إلى حياة فاضلة كريمة . □

مختارات من الشعر العربي الحديث

تأليف : الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي
عرض وتعليق : جمال وردة

قد يعرف القارىء الغربي بعض شعرائنا المشهورين ، وربما يعرف بعض المختصين تطور شعرنا الحديث منذ قرن من الزمان . لكن القارىء الغربي لم يعرف هذا التطور من خلال نصوص شعرية ، تمثل أهم التيارات وأبرز الأسماء قبل صدور هذا الكتاب .

كتاب الشهر

في عام ١٩٨١ تحقق الحلم الذي طالما راود الشاعرة الدكتورة « سلمى الخضراء الجيوسي » ، وذلك بتدشين مشروع مؤسسة « بروتا » الذي يهدف الى نشر ترجمات لمختارات من الإبداع العربي الى الانجليزية . وتشرف على هذا المشروع الدكتورة الجيوسي التي عرفناها شاعرة وناقدة وأستاذة في أكثر من جامعة عربية وأمريكية .

وكانت السيدة الجيوسي قد سبقت هذا المشروع بسنوات ، حيث ترجمت عديداً من القصائد العربية الى الانجليزية ، وترجمت بعض القصائد الانجليزية الى العربية . أما المؤسسة نفسها فقد أصدرت من خلال منشوراتها الدورية عديداً من الأعمال الثقافية العربية المترجمة ، كان من ضمنها رواية إميل حبيبي « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل » ، ورواية « الصبار » لسحر خليفة ، ورواية « الحرب في بر مصر » ليوسف القعيد .

من الخليج لما قبل المحيط :

أما هذا المجلد الشعري الذي تقدمه لنا اليوم ، فقد اشتمل على عشرات الأسماء من شعرائنا المعاصرين ، وقد تم إعداده والتحضير له مع دار المأمون العراقية للطباعة والنشر . وقد أرادت من خلاله أن يكون سجلا حافلا لشعراء العربية في القرن العشرين ، مع التركيز على شعراء الخمسينيات حتى السبعينيات . وهي الحقبة الزمنية التي رصدتها الدكتورة الجيوسي . فإذا كان النصف الأول من القرن العشرين هو فترة البذور ، فلا شك أن النصف الثاني هو فترة الحصاد والنضج . لقد كان الهدف من هذا الكتاب أيضا رصد الجديد الواعد الذي ترى فيه نجوما جديدة سوف تشع في سماء الشعر العربي الجديد مستقبلا ، ولعل هذه المهمة المزدوجة قد لاقت كثيرا من الصعوبات في عملية الانتقاء والاختيار والرصد . فليست هي مجرد تسجيل لأسماء مشهورة عرفها تاريخ الأدب ، بقدر ما كانت إعادة تقييم فني ونقدي لهؤلاء الرواد الطلائع في الشعر العربي المعاصر . أما بالنسبة للشعراء الشبان فقد كانت العملية أكثر تعقيدا . إن العدد الكبير من الشعراء في الساحة العربية قد جعل عملية الانتقاء مريرة وصعبة ، لأن الدكتورة الجيوسي أرادت أن يكون الاختيار شاملا ، يغطي كل الاتجاهات والمشارب والأساليب شكلا ومضمونا وايديولوجيا . ولكننا نلاحظ أن رقعة الاختيار قد امتدت من الخليج حتى وسط الشمال الافريقي فقط ، من خليفة الوقيان ، والعدواني ، وسعاد الصباح ، وعلي الشرقاوي ، وقاسم حداد ، إلى شاعرين أو ثلاثة من تونس ، وكأن الشعر العربي قد توقف على أسوار تونس لا يقوى على صعود ذرا الأطلس وشواطئه . فليس هناك سوى شاعر واحد من المغرب ، أما الجزائر أو ليبيا فلم يترحم لأي من شعرائها . قد يكون العذر هو ندرة النصوص العربية أصلا ، ولكن المجلد نفسه كان سبقا أدبيا للنصوص العربية نفسها ، فليس هناك كتاب عربي واحد ضم هذه النخبة الكبيرة من الشعراء العرب من قبل .

لقد اجتهدت الدكتورة الجيوسي بالنسبة

لشعراء ما قبل الخمسينيات ، لتكون التغطية شاملة لكل المدارس الشعرية المعروفة آنذاك من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية إلى المدرسة الرمزية .

ثم تأتي الصعوبات الفنية التي تلاقيها الترجمة لمثل هذه الأعمال الفذة ، فشاعر مثل شوقي تعتمد قصائده على قواعد البلاغة والبيان وجزالة اللفظ ، فكيف ستكون قصائده إذا جردت من هذا ؟ كذلك القصائد الجديدة التي تعتمد البساطة اللغوية المتناهية ، كيف سيتم نقلها بنفس الشحنة العاطفية أو التوتر الشعري المصاحب ؟ لا شك أن الترجمة الشعرية معقدة وحساسة جدا ، وقد اتبعت الدكتورة الجيوسي اسلوبا جديدا يعتمد على مرحلتين ـ حيث يقوم في المرحلة الأولى شاعر عربي بترجمة القصيدة العربية إلى الانجليزية ، ثم يقوم شاعر انجليزي بصياغة النص المنقول مرة أخرى ـ لقد توصلت الكاتبة إلى الحقيقة القائلة : بأنه لا يجوز أن يترجم الشعر إلا الشعراء أنفسهم .

فالشعر كالموسيقا له لغة واحدة مهما تعددت اللهجات . ولعل الدكتورة الجيوسي قد استفادت من التجربة السويدية في نقل شعرها وأدبها الى اللغة الانجليزية بنفس الطريقة !! .

الدكتورة سلمى الجيوسي

مع بداية القرن العشرين كان الشعر العربي متخلفا عن مواكبة الشعر العالمي ، وبعيدا عن أمجاد العصور الذهبية القديمة ، لا شك أن أربعة قرون من السبات والركود قد أثرت على انطلاقه ، ولقد بدأت معركة التحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر . ولا شك أن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تتطلب جهدا أكبر للتغيير والتحديث .

لقد بدأت بواكير النهضة الأدبية العربية في لبنان نثرا ثم في مصر شعرا . بعد حملة « نابليون » وادخال الطباعة ثم البعثات التي كانت تذهب إلى أوربا أيام محمد علي باشا ، لقد نشطت الصحافة والطباعة ، وبدأ القارىء العربي يتعرف على تراثه الأدبي القديم ، فنشأت الكلاسيكية الجديدة مع ماصاحبها من جزالة اللفظ وقوة التعبير والمحسنات اللفظية التي أصبحت فيما بعد قيدا على حرية التعبير للجيل اللاحق .

فجاء الرد عن طريق أدباء المهجر بزعامة جبران ، وايليا أبي ماضي ، وميخائيل نعيمة، لقد ثاروا ضد صرامة وتقليدية المدرسة الكلاسيكية فاتحين الطريق أمام المدرسة الرومانسية التي انضم إليها ابراهيم ناجي وعلي محمود طه في مصر ، والبشير التيجاني في السودان ، وأبو القاسم الشابي في تونس ، والياس أبو شبكة في لبنان .

لقد أثرت هذه المدرسة في الشعر العربي بالصور المبتكرة ، والمفردات الجديدة مع قضايا شعرية جديدة كالحلم والحرية ورفض القيود . لقد كانت المدرسة الرومانسية ثورة على القيم القديمة البالية ، وعلى التخلف بكافة أشكاله وصوره . وعلى الرغم من عمرها القصير في الأدب العربي المعاصر إلا أنها استطاعت أن تهز المفاهيم الاجتماعية والسياسية من الأعماق ، وأن تخوض معركة التحديث بنجاح أكيد . وعلى الرغم من أن كثيرا من النقاد يربطون الحركة

الرومانسية أصلا بالفشل السياسي لثورة ١٩١٩ الوطنية المصرية ، إلا أن الشعر السياسي في العشرينيات والثلاثينيات كان كلاسيكيا ، في حين كان الرومانسيون يتناولون في أسفارهم الهموم والأشجان الفردية البحتة . وحين أفلست الرومانسية عن التعبير عن المتغيرات الطارئة ، وتاهت في أروقة الخيال والحلم والطبيعة بعيدا عن هموم الواقع واشكالاته ، استدعت الظروف استنباط أساليب جديدة للتعبير الشعري ، خصوصا بعد أن عرفت الثقافة الغربية طريقها الى القارىء العربي عن طريق الترجمة والصحافة ، وبهذا فتحت الطريق أمام المدرسة الرمزية في الثلاثينيات التي سعت الى تطهير الشعر من النزعة الخطابية المباشرة ، والعقلانية الباردة ، والتراثية الكلاسيكية التي تجاوزتها الأيام ، وكذلك من هشاشة وخياليّة المدرسة الرومانسية .

لقد كان « سعيد عقل » استاذا للمدرسة الرمزية الجديدة حيث قدم قصيدته « المجدلية » عام ١٩٣٧ يصور خلالها لقاء بين السيد المسيح ومريم المجدلية ، وقد بدا تأثره واضحا بالشاعر الفرنسي « بول فاليري » ، ثم جاءت النكبة الفلسطينية لتفجّر كل شيء . إن الجمالية الرمزية لم تعد كافية ، فكان لابد من البحث عن صور شعرية أكثر التصاقا بالواقع المأساوي ، فكان الالتزام والواقعية من عناصر القصيدة العربية الجديدة .

لقد استطاع الشعر العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين ، أن يواكب العصر ويتطور معه ويحقق الكثير من الانجازات الفنية .

بعد النكبة

لقد تجاوزت عملية التحديث الشكل الشعري التقليدي ـ فلم يعد البيت الواحد حكرا على الصدر والعجز ، كذلك الوزن والقافية ـ لقد بدأت بالفعل ثورة في شكل القصيدة العربية فظهر الشعر الحر ، والقصيدة النثرية ، وقصيدة التفعيلة الواحدة ، وأصبح الشعر أكثر سلاسة وبساطة معتمدا بالدرجة الأولى على الصورة الشعرية والموسيقا الداخلية للقصيدة نفسها .

لقد بدأ الشعر الحر تاريخيا عام ١٩٤٩ حين نشرت « نازك الملائكة » ديوانها « شظايا ورماد » ثم بدأ الشعر المنثور بالظهور ، ومع أن هذا الأسلوب كان قد بدأ سابقا أيام جبران وأمين الريحاني ، إلا أنه لم يسلك طريقه بشكل رسمي إلا في الخمسينيات والستينيات ، ومن رواد هذه المدرسة كان الشعراء توفيق صايغ ، أنسي الحاج ، محمد الماغوط ، وشوقي أبو شقرة .

ثم أصبح هذا الأسلوب أكثر تطورا وتعقيدا حين دخل الحلبة الشاعران ادونيس ويوسف الخال .

لقد قلنا إن النكبة الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية الأولى للشعب العربي ، قد لعبت الدور الأكبر في تثوير وتغيير المنهج الشعري العربي .

لقد بدأ الشعراء ينظرون للحياة واللغة نظرة جديدة مغايرة ، لقد اتخذ الشعر العربي بعد النكبة بعدا جديدا أكثر حدة وعنفا وهجوما على الماضي بكل أعمدته التقليدية البارزة ، لقد تركوا التراث جانبا وأخذوا يستلهمون الشعر

الثوري العالمي من أمثال : لوركا - نيرودا - اراجوان - ناظم حكمت - ايلوار ، وكذلك فرسان التجديد في الشعر الانجليزي من أمثال « إليوت » ، و « اديث سيتويل » . إن روح التغيير قد سادت الفترة المذكورة كلها إن هذه التجربة قد أثرت الشعر العربي وجعلته أكثر نضجا ، إن شعراء الخمسينيات قد احتازوا بنجاح معركة التحديث بكل ما فيها من تحديات وجراحات وانتصارات .

ودخلت الاسطورة شعرنا العربي الجديد تأثرا « بإليوت » و « سيتويل » في تموزيات السياب ، وبعليات خليل حاوي ، وطائر الفينيق عند أدونيس وبروميثيوس عند البياتي .

أساطير ترمز جميعا إلى تجدد الحياة بعد اقتحام الموت .

لقد لاحظنا أن الكتاب قد خلا من ترجمة بعض القصائد التي لعبت دورا مهما في حياة صاحبها ، واكتفى بترجمة قصائد أخرى قد تكون أقل أهمية ، فقد اكتفى ببعض مقاطع من قصيدة « مهيار الدمشقي » لأدونيس ، ولم تترجم قصيدته « صقر قريش » التي تصور انسلاخا وجدانيا وايديولوجيا للشاعر نفسه ، في المكان والجغرافيا من الشام إلى الأندلس ، كما في القصيدة ، أو من الشام إلى بيروت ، كما هو حال الشاعر آنذاك ، وخلت الترجمة من بعض مقاطع « مجدلية » سعيد عقل و« حسر » خليل حاوي .

كما خلا المجلد تماما من أسماء مرموقة في عالم الشعر في فلسطين ولبنان ومصر والعراق ، فقد أهمل واحد من أبرز الشعراء الفلسطينيين ، هو « معين بسيسو » ، بينما ترجمت قصائد لشعراء لا أهمية لهم ، وترجمت قصائد أجيال الخمسينيات والستينيات في العراق ، واستثني شاعر مهم ينتمي لجيل السبعينيات مثل « هاشم شفيق » .

لكن الدكتورة الجيوسي وعدت بجزء ثانٍ من هذا المجلد ، يضم البقية الباقية من فرسان الشعر العربي المعاصر .

وأخيرا أعترف بأنني لم أستطع التعرف على هوية بعض القصائد الشهيرة حين طالعتها بثوبها الانجليزي المزركش ، وبنكهتها الأمريكية العصرية . لعل عملية التحلية المكررة للمياه تفقدها بعض عناصرها ، وبعض ملوحتها مثلا ! فتخرج إلينا زجاجات المياه عذبة نقية ، لكنها ليست معدنية من باطن الأرض ، ولكن العزاء أن هذه القصائد ليست لنا ، بل لقارىء أجنبي ، يتلهف لمعرفة أي شيء عن ثقافتنا وشعرنا ، ولعل هذه النافذة من خلال مشروع الترجمة هي خير موصل لهؤلاء القراء العطاشى . فهنيئا مريئا لهم شرابنا الزلال غير المملّح . □

الطريقة الوحيدة

نشب خلاف بين ثلاث نساء ، انتهى برفع الأمر إلى القاضي جحا ، ووقفن أمامه متظلمات يتكلمن في وقت واحد .

ولما لم تفلح نصائح جحا لهن بالتريث ليسمع شكوى كل منهن على حدة قال لهن :

فلتتكلم أولا أكبركن سنا .

فسكتن كلهن على الفور !

العالم والعرب سنة ٢٠٠٠

تأليف : الدكتور محمد جابر الأنصاري

عرض : رافع عبد الرحمن

هل ستكون صورة العالم في القرن المقبل هي نفس صورته الحالية ؟ !

يجيب المؤلف بالنفي ، ويمضي خطوة أبعد في محاولة لرسم ملامح هذه الصورة على المستويين العربي والعالمي .

يلقي المؤلف في الفصل الأول من الكتاب نظرة شاملة عامة على المشهد العالمي المستقبلي ، من موقع الطائر المحلق في الجو ، وتخبرنا « نظرة الطائر في آفاق القرن الحادي والعشرين » أن القوتين العظميين ـ أمريكا وروسيا ـ بحكم أزماتها الاقتصادية والاجتماعية الداخلية تضطران إلى التقليل من تدخلها في الشؤون العالمية ، وهذا يخفف ضغطها على شعوب العالم الأخرى ، ويترك لهذه الشعوب شيئا من الحرية في التحرك والتحكم في المصير .

وتبرز أوربا كقوة محايدة ، وتصبح أكثر قربا من شعوب العالم الثالث ، وأكثر تفهما لها ، وتفاهما معها .

غير أن القوة الدولية المهمة ـ قوة المستقبل ـ ستكون القوة الصفراء (اليابان ، الصين ، كوريا ، فيتنام) التي ستتولى قيادة الحضارة في وقت غير بعيد .

أما المنطقة العربية الإسلامية ، فتوشك أن تحسم أمرها في صيغة حضارية ، واستراتيجية جديدة ، تؤكد خصوصيتها واستقلالها بين القوى ، وبإمكانها التحالف مع قوة الشرق الجديدة لضرب النفوذ الغربي الجاثم عليها .

وتحت عنوان «آلام نهاية القرن العشرين، ميلاد جديد؟»، يشير الدكتور محمد جابر الأنصاري إلى شريط المجاعة الأفريقية، والتسمم الآسيوي الهندي، والمذبحة اللاتينية في السلفادور وأمريكا الوسطى، ومشاهد خطف الطائرات وغير ذلك متسائلا: «من الغاب البدائي إلى الغاب الإلكتروني»؟ «ماذا حدث ويحدث في هذا العالم؟ ويقول: إن الأزمة اليوم في الغايات، أو في القيم النهائية العليا السائدة التي تحدد لعالمنا غاياته، وان النظام العالمي السائد بقيمه ومنطلقاته وركائزه الأساسية وروحيته وذهنيته الحاضرة، إن لم يكن قد أفلس، فهو في طريقه إلى الإفلاس.

ويرى المؤلف أن الخروج الصيني على الماركسية سيؤدي في النهاية إلى قيام نوع من التحالف الأصفر بين القوة التقنية اليابانية، والقوة البشرية الصينية الكثيفة، بشكل سيقلب الموازين في عالم اليوم المضطرب، وسيقف هذا التحالف على قدم المساواة مع السوق الأوربية المشتركة، والحلف الأطلسي وحلف وارسو، وينقل العصب الاستراتيجي للعالم إلى المحيط الباسيفيكي، ثم يرث تدريجيا قسطا مهما، مما لتلك الأحلاف الغربية البيضاء من نفوذ في العالم.

ويشير إلى أن انتقال مركز الجذب العالمي من قوة بيضاء إلى قوة صفراء، لن يغير في حد ذاته مما تعاني البشرية من ويلات، ولن يحقق بالضرورة ما تتطلع إليه من خلاص.

قرن التفوق الأصفر

في القسم الأول من الفصل الثالث رسالة وجهها المؤلف لمثقفي اليابان، يشير فيها إلى أن المعاناة متشابهة بين اليابانيين والعرب من حيث إغفال دورهم الحضاري والفني والإنساني، ومحاولة تحويل صورتهم في مرآة الغرب-المهتم أساسا بالنزعة المادية الاستهلاكية - إلى مجرد ظاهرة من ظواهر الاقتصاد والمال، وأن هذه المعاناة المتشابهة بيننا لهي مدعاة لتوجهنا معا إلى إحياء صلاتنا الثقافية والانسانية، وبعثها لأنها الأساس الجوهري في التعاون بين الأمم قبل تبادل البضائع والمنافع المادية.

وهو يدعو اليابانيين إلى أن يصل صوتهم الياباني الصميم والأصيل - في الابداعات الفنية والثقافية الخاصة بهم - إلى بلادنا مع أجهزة «الكمبيوتر والحاسبات والفيديو».

وبالمقابل يدعوهم إلى طرب الغوص الخليجي وحداء الصحراء، ومشاهدة فولكلور البحر والبادية والتعرف على مالدينا من أدب جديد وثقافة جديدة.

وفي القسم الثاني يتناول المؤلف ما يجرى في اليابان والصين وكوريا والهند مشيرا إلى أن الاعتبارات التي تدعو الوعي العربي الاستراتيجي وا حضاري إلى تفهم القوة الشرية الصاعدة وتدارسها، هي أن هذه القوة تقدم بديلا آخر للعرب في التعامل الدولي، بديلا متحفصا من الانحيازات الدينية والتاريخية والأيديولوجية التي يعاني منها العرب في تعاملهم مع قوى الحضارة الغربية، كما أن التجارب اليابانية والصينية والكورية والهندية على اختلافها وتباينها، تمثل في نهاية الأمر محاولات ناجحة لأمم شرقية، للحفاظ على خصوصيتها وشخصيتها الحضارية الذاتة مع استيعاب مقومات القوة الحقيقية في الحضارة الحديثة. ويشير الدكتور الأنصاري إلى أن عرب الخليج والجزيرة العربية هم المعنيون بالدرجة الأولى بدراسة هذه الظواهر بحكم مالهم من علاقات تاريخية وتجارية مع الشرق الآسيوي

ويدعو إلى إقامة مركز علمي للدراسات الآسيوية محددا الملامح العامة للتجارب الآسيوية التي لابد أن يتعمقها المركز المأمول وهي: أن تلك الأمم الشرقية قد انطلقت من مبدأ وحدتها القومية، وأنها متمسكة بأصالتها وتقاليدها

وشخصياتها التاريخية المتميزة ، وقد تمكنت تلك الأمم من استيعاب القدر الجوهري من التحديث وامتلاك زمام القوة التقنية والعلمية والاقتصادية منذ أن باشرت عملية التوحيد ، كما أن كل أمة حققت النهضة والتحديث حسب طريقتها الخاصة ، وباكتشاف قوانين خصوصيتها التاريخية والحضارية .

ثم ينتقل المؤلف إلى « العرب أمام التجربة اليابانية والقوة الصفراء » ، فيلخص أسباب صعود النهضة في اليابان ، وتعثر النهضة عند العرب . فالأمة اليابانية أقبلت على التحديث بوحدة قومية متماسكة ، بينما واجهت الأمة العربية التحدي منفصلة متصارعة ، والأمة اليابانية دخلت مسيرة النهضة بأقل قدر من الصراع بين المجددين والمحافظين ، بل اندمج مجددوها ومحافظوها في نفس شخصيات الرجال الذين قادوا النهضة ، بينما انقسم المجددون والمحافظون إلى معسكرين متصارعين في مراحل النهضة العربية ، ثم انقسم كل معسكر إلى معسكرات متنازعة . واليابان وقفت من الغرب موقف التلميذ ، بينما وقف العرب منه موقف الزبون . كما أن التقاليد اليابانية تقدس العمل ، بينما ورثت المجتمعات العربية نظرة غير إيجابية وخاصة إلى العمل المهني والصناعي الذي هو أساس النهضات الحديثة .

ويرى المؤلف أن القول : بأن تعرض العرب لمؤامرات الاستعمار « واسرائيل » قد يفسر تخلفهم ، قول غير مقنع مشيرا إلى أن اليابان تعرضت لضربة نووية نهضت بعدها أقوى مما كانت .

ثم يقدم المؤلف في الفصل التالي دراسة تلقي الضوء على جذور التربية اليابانية وخصائصها المميزة ، ويخلص إلى أن أبرز خصائص النظام التربوى الياباني هي : أن ذلك النظام يستمد أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته واحتياجات وطنه ، وأنه استمد انطلاقته من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة ، وأن التعليم في اليابان يعد خدمة وطنية عامة ، وواجبا قوميا ، يتجاوز أي جهد فردي أو فئوي خاص ، وأنه يمثل عامل التوحيد المهم لعقل الأمة وضميرها ، وأن اليابان لم تأخذ بالنزعات الليبرالية والسيكولوجية الغربية المتساهلة في التوجيه الفكري للأجيال وفي ضبط سلوكها العملي والأخلاقي ، ولم تأخذ ببريق الدراسات النظرية الغربية من فلسفات وحقوق وإنسانيات ، وأنها استطاعت أن تجمع بين شعبية التعليم وأستقراطيه العلمية والفكرية ، ولم تؤخذ باللغات الأجنبية المتقدمة ولم تنبهر بها ، وعلى الرغم من مركزية التوجيه في النظام التربوي ، فإنه يقوم على مرونة ، ولا مركزية ملحوظة في تنظيم وزارة التربية والعلوم والثقافة . ومهنة التدريس في اليابان مهنة مربحة اقتصاديا حتى بالقياس إلى القطاع الخاص ، كما ان اليابان لم تندفع وراء نزعة تحويل الثقافة العامة إلى مَنْشط من مناشط الإعلام .

آخر المستجدات

في بداية فصل الختام يشير الكاتب إلى ظهور كتابين سيرمزان إلى طبيعة مناخ التفكير الحضاري الاستراتيجي المستقبلي الذي يسود الآن نهاية القرن العشرين ، وسيمتد بأثره وإرهاصاته إلى عقود عديدة من القرن المقبل . هذان الكتابان هما « قيام القوى العظمى وسقوطها بين ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ » للبرفيسور بول كنيدى و « إعادة البناء » للرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف .

ويقول : إن الكتابين يحاولان معا ـ كل بطريقته ـ إنقاذ ما يمكن انقاذه من القوى العظمى ، التي يتوجه كل منهما إلى مخاطبتها أملا في إعادة الحيوية إليها ، بعد أن أخذت تتضح للعيان بوادر فقدان القوتين معا مكانة الصدارة الفريدة التي تمتعتا بها حتى وقت قريب .

وهذه التحولات التي يشهدها الاتحاد السوفيتي في عهد غورباتشوف ستؤثر على أوربا الشرقية ، كما سيؤثر فيها توجه دول أوربا الغربية نحو الوحدة . فحركة الوحدة الأوربية يمكن أن ينجم عنها مزيد من استقلال أوربا الشرقية عن « الشقيق » الروسي مع البحث عن صيغة ايديولوجية معتدلة .. « وسيبقى في صلب التفاعل بين أوربا الشرقية وأوربا الغربية محور انبعاث الوحدة الألمانية . إن مسألة إعادة توحيد ألمانيا ستكون من أدق القضايا وأكثرها حرارة وإثارة في العقد الأخير من هذا القرن ، والعقود التالية من القرن الحادي والعشرين » .

مؤشرات المستقبل العربي :

ما هي أبرز مؤشرات المستقبل العربي كما يراها د . الأنصاري ؟ إنها الانتفاضة الفلسطينية « الإبداع » الاستراتيجي الفلسطيني في الوطن العربي الذى قد لا يقل أهمية في ضوء المستقبل عن الإبداع الياباني والصيني « فالانتفاضة وعد مفتوح للمستقبل العربي . وكما كانت بدايتها مدهشة ، فإنها تحمل البذور لأن تكون تطوراتها ونتائجها جيدة مدهشة » .

والمؤشر الثاني هو تحرك « منحى » الأوضاع العربية الى « موضع ما » . فوق قعر الهاوية التي انحدرت إليها الأوضاع العربيه في السبعينيات والثمانينيات ، لقد بدأت حركة الواقع العربي في الصعود إلى أعلى في مجالات عديدة ، وعلى المسؤولين والمثقفين والمواطنين العرب التكاتف والعمل لدفع المؤشر إلى فوق .

وضمن « سطرة الطائر » يوجز المؤلف المشكلات الجدية التي تنتظر العرب على طريق المستقبل : انخفاض أسعار النفط وتأثيرات ذلك ، ازدياد الاعتماد على الاستيراد من الخارج في مجال توفير الغذاء ، وأزمة الأمن المائي العربي .

وهناك ثلاث مهام مستقبلية عربية ، أولها · الاتحاد قوميا ، والوحدة ليست مجرد مطلب سياسي ، بل · مطلب حضاري وشرط ضروري لاستيعاب حضارة العصر .

وثانيها تجديد الإسلام مع الحفاظ على جوهره ليستوعب روح العصر ، وكلمة السر هي « الإسلام ـ العروبة ـ العصر » في مندمج عضوي واحد وثالثها تحول التوجه العام الى مشروع حضاري عربي إسلامي بمعالم واضحة وبرامج محددة ، ومواقف متبلورة تجاه مختلف تحديات العصر وقضايا الحياة .

وفي نهاية الكتاب نجد فصولا مختارة عن التجربة اليابانية ترجمها المؤلف عن اللغة الفرنسية ، وهي من كتاب « اليابان » العملاق الثالث « لروبير غيلان » ثم ينبه الدكتور الأنصاري القارىء إلى « أن هذا الحديث ينحصر في التحليل الفكري الحضاري المقارن ، وعلينا أن نجربه بوعي كامل ، لكي نتجنب أي نوع من الترويج للمصالح الاقتصادية والسياسية لليابان أو غيرها » . □

مختــــارات

اسم الكتاب : كلمة طيبة
المؤلف : د . عبدالعزيز كامل
الناشر : ذات السلاسل - الكويت
عدد الصفحات : ٣١١ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

لوحات قلمية للكاتب ، يضمها بين دفتي كتاب واحد ، ويوجهها إلى الشباب . والكتابة للشباب تختلف عن الكتابة للكهول التي يترك المرء نفسه فيها على سجيتها ، وهو مدرك أن الكهل يتابعه ، ولديه خلفية عريضة من القراءة والتجربة ، كما يقول المؤلف ، أما للشباب فالأمر يحتاج إلى التبسيط والتحديد .

ولقد تنوعت موضوعات الكتاب ، ففيها الكتابة عن القرآن والسنة وعن القدس الشريف ، وعن الكويت ، وعن الناس البسطاء والأتقياء في مصر ، وعن الشباب ، كل هذه الموضوعات يتناولها الكاتب بعلمه الغزير وثقافته الواسعة وقلمه المميز الرقيق .

□□□

اسم الكتاب : الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية
المؤلف : د . عبدالوهاب المسيري
الناشر : المطبعة الفنية - القاهرة - مصر
عدد الصفحات : ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

الكتاب لواحد من أهم الكتّاب العرب في الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، وهو يقدم في كتابه الجديد دراسة علمية في الإدراك ، فيبدؤها بفصل كامل ، يناقش فيه منهجيا أهمية النماذج المعرفية في تحديد إدراك الإنسان ، وخطورة التبعية الإدراكية ، ثم يطرح فكرة أن الانتفاضة ليست تعبيرا عن اليأس ، وإنما هي تعبير عن تجلّ عربي لامتلاء نفسي ، واكتشاف للذات ، ثم يعرض بعد ذلك لأزمة الصهيونية ، وأهمية دراستها لفهم الانتفاضة ، طارحا فكرة أزمة الشرعيتين : الشرعية الصهيونية أمام يهود العالم وأمام الصهاينة أنفسهم ، وشرعية وجود الصهاينة في أرض العرب ، ثم يعرض لبعض جوانب الأزمة الصهيونية ، وكيفية استجابة الفلسطينيين لها .

□□□

اسم الكتاب : الباراسايكولوجي . ظواهر وتفسيرات
المؤلف : سامي أحمد الموصلي
الناشر : شركة دار السلام للنشر والتوزيع - بغداد
عدد الصفحات : ١٧٧ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

يتعرض الكتاب لدراسة بعض الظواهر الخارقة وتفسيرها من وجهة نظر علماء « الباراسايكولوجي » . و « الباراسايكولوجي » اصطلاح معناه « ما يجاور علم النفس » ، وهو علم يدرس الظواهر المستغلقة على الفهم ، والخارقة للطبيعة والغريبة وغير المألوفة ، ويحاول أن يجد لها التفسير العلمي والفكري المناسب ، ثم يتعرض الكاتب لبعض الظواهر الخارقة ، مثل التخاطر والتنبؤ والتلباثي ، وغيرها من الظواهر غير المألوفة .

اسم الكتاب : قيامة عبدالقهار عبدالسميع
المؤلف : حسن يوسف
الناشر : الأهالي للطباعة والنشر ـ دمشق
عدد الصفحات : ١٤٠ صفحة من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨

اثنتا عشرة قصة للقاص الكاتب السوري حسن يوسف ، وهي آخر ما أنتجه ، ويعود فيها إلى عالمه الخصيب الخاص جدا ، ليغوص في عمق الواقع الشعبي ، فيلتقط جوهر العلاقات الإنسانية بكل ما فيها . وأبطاله صورة صادقة عن واقع متأزم ، لهم رائحة الأرض ولهجة البيئة . يقدمهم الكاتب بأسلوب رشيق ، مفعم بالبساطة والسخرية والعمق .

□□□

اسم الكتاب : قراءات في حرب الخليج
المؤلف : منذر الموصلي
الناشر : دار العروبة ـ بغداد
عدد الصفحات : ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

يقسم الكاتب دراسته على عشرة أبواب ، يناقش فيها أفكاراً وقضايا تتعلق بحرب الخليج ، فيبدؤها بدراسة عن ايران (الجغرافيا والديموغرافيا) ، ثم ايران في تاريخها الفارسي والاسلامي ، ثم ينتقل إلى عرض العلاقات العربية الفارسية في العصر الحديث . وبعد ذلك يناقش الثورة الايرانية ، ويعرض بعد ذلك لمطامع ايران ومصالحها الاقليمية ، ثم يقدم عرضا تاريخيا للخليج العربي ، وقصته في الصراع بين العرب وايران . ويستعرض الكاتب في الباب الثامن الموقف الدولي من حرب الخليج ، وفي الباب الذي يليه يعرض لسياسة التسلح في حرب الخليج وسوق السلاح الدولية ، وأخيرا يعرض الدور « الاسرائيلي » في الصراع العربي الايراني .

□□□

اسم الكتاب : المغرب العربي الكبير . نداء المستقبل
المؤلف : د . مصطفى الفيلالي
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٨٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

يواجه المغرب العربي تحديا كبيرا ، يهدد اقتصادياته ، بعد أن أغلق أمامه سوق أوربا بعد دخول اسبانيا واليونان والبرتغال للسوق الأوربية المشتركة وإجراءات توحيد أوربا . هذا التحدي الذي يواجه المغرب يستلزم مواجهته بالوحدة كسبيل وحيد ، يقيم في القسم الأول تجربة التعاون المغربي ، وأجهزته ، والدراسات التي تمت ، وأجهزة التعاون المغاربي ، ومستويات القرار ، ويخصص الكاتب القسم الثالث لدراسة التحديات المعاصرة أمام المغرب ، فيناقش التحديات الخارجية والداخلية . وأخيرا يعرض الكاتب للمستقبل البديل ، فيناقش افتراضات التغيير ، والبناء المغاربي المقترح ، وجدلية الأهداف والغاية . □

في خدمة الأمّيين

دخل الكاتب آرثر ميللر ذات يوم إلى مطعم ، لم يكن قد دخله من قبل ، فلما أحضر له الخادم قائمة الطعام ، ردّها إليه وقال : إنني أعتمد على ذوقك فأحضر لى ما تختاره أنت .

وعندما فرغ الأستاذ من تناول الطعام ، أخذ يظهر للخادم إعجابه بحسن اختياره ، فقال الخادم : إني هنا ياسيدى ، في خدمة الذين لايعرفون القراءة والكتابة .

١

- كتاب « القانون في الطب » وكتاب « القانون المسعودي » يعدان في طليعة الكتب التي تركها لنا السلف الصالح ، فقد كان للأول شأن كبير في العلوم الطبية ، وكان للثاني شأن كبير في علم الفلك ، وكان مؤلف الكتاب الأول ابن سينا ، فمن هو مؤلف الكتاب الثاني ؟

* الخوارزمي
* ابن قتيبة الدينوري
* البيروني

٢

- بطليموس عالم فلك يوناني شهير ، في القرن الثاني الميلادي . ترى أين عاش ؟

* في أثينا
* في الاسكندرية
* في اسبارطة

٣

- يتردد اسم « المجسطي » كثيرا في كتب التراث ، لا سيما ما اتصل منها بعلم الفلك . ترى ما المجسطي ؟

* كتاب ألفه العالم اليوناني المعروف بطليموس ، وقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة .
* جهاز صنعه علماء الفلك المسلمون لقياس أبعاد النجوم .
* المجسطي اسم أطلقه العلماء المسلمون على أحد بحار القمر .

٤

- من المعروف أن جاليليو تراجع عن الأخذ بالنظام « الكوبرنيكي » ، وقد صرح بذلك علناً . ترى لماذا فعل ذلك ؟

* لاقتناعه بصحة النظام البطليموسي .

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٧

[illegible]

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

* الإجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الإجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة - الرمز البريدي [illegible] - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٧ » . آخر موعد لوصول الإجابات [illegible] ١٩٨٩ . الرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي بالكامل - ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي

العدد ٣٦٧

* رضوخاً لضغط محاكم التفتيش ، وحفاظاً على حياته .
* جاليليو لم يتراجع عن الأخذ بالنظام « الكوبرنيكي » ، بل ظل متمسكاً به حتى النهاية .

* حرص على عدم نشر كتابه أثناء حياته ، تجنبا لانتقام الكنيسة منه .
* نشر كتابه باسم مستعار انطلى على الكنيسة ، وعلى محاكم التفتيش ، إلى ما بعد موته .

- لم يكن جاليليو مخترع التلسكوب الأول في التاريخ ، فمن الذي ابتكر هذا الجهاز المهم ؟
* نيوتن
* كوبرنيكوس
* هانس ليبرشي ، الهولندي .

- من هو الفلكي الذي فقد أنفه الطبيعي في مبارزة ، فاستبدله بأنف صناعي مذهب ؟
* بطليموس .
* كوبرنيكوس .
* تيكو براهي .

- التلسكوبات البصرية نوعان : عاكسة ، وكاسرة . ترى من هو مخترع التلسكوب العاكس ، علماً بأن ليبرشي وجاليليو هما مخترعا التلسكوب الكاسر ؟
* اسحق نيوتن
* كوبرنيكوس
* جوتنبرغ

- أي التلسكوبين أقوى : التلسكوب الروسي المقام على جبال القفقاس أم التلسكوب الأمريكي المقام على جبل بالومار في كاليفورنيا ، علماً بأن التلسكوبين من نوع واحد ، وهو التلسكوبات العاكسة ؟

- نيكولاوس كوبرنيكوس ، عالم فلك شهير ، كان رائداً للانقلاب الذي تعرض له علم الفلك في العصور الحديثة ، والذي حلت الشمس بموجبه محل الكرة الأرضية كمركز ثابت للنظام الشمسي ، وأصبحت الأرض كوكباً سياراً ، يدور حولها . ترى ما العقوبة التي أنزلتها عليه محاكم التفتيش بسبب تعاليمه الفلكية التي خالف بها بطليموس ؟

* كان كوبرنيكوس من رجال الكنيسة ، لذلك أغفلت محاكم التفتيش محاكمته .

- يقال : إن « تلسكوب الراديو » مكبر فوق كونه مقرباً ، أي أنه يمكنك من رؤية أجرام السماء بوضوح فائق . فهل هذا صحيح ؟ وما أكبر « تلسكوب راديو » في العالم ؟
* تلسكوب باركز في استراليا .
* تلسكوب اريكيبو في بورتوريكو .

- ما اسم الجهاز الذي تمكن علماء الفلك المسلمون به من قياس ارتفاع الأجرام السماوية ؟
* الاسطرلاب .
* المنظار المكبّر .
* المقراب . □

مــــارس ١٩٨٩م

١ توفالوا «Tuvalu» : هي الجزر التي يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية ، وعاصمتها فونا فوتي ، ومساحتها ٢٦ كم٢ ، نعم ستة وعشرون كيلومترا مربعا فقط وعدد سكانها (٨١٠٠) نسمة ، وتقع هذه الجزر الصغيرة في المحيط الهادي .

٢ يوجد في ايسلندة مالايقل عن ٧٠٠ نافورة ماء ساخن وتعتمد البلاد على هذه النوافير الطبيعية لتأمين ٧٥٪ من التدفئة المركزية التي لاغنى عنها في تلك البلاد الباردة ، وقد سميت العاصمة (ريكيافيك) نظرا لكثرة البخار المتصاعد من نوافيرها الطبيعية الساخنة .

٣ الجزر المقصودة في السؤال هي مجموعة جزر (تونجا) ، وهي جزر بركانية ومرجانية ، لايقل عددها عن ١٥٠ جزيرة ، اكتشفها الهولنديون سنة ١٦١٦ ، وزارها الكابتن كوك سنة ١٧٧٣ ، وقد سماها آنداك الجزر الصديقة ، وتقع جزر (تونجا) ضمن جزر (بولينيزيا) في جنوب المحيط الهندي ، وهي صغيرة ، تبلغ مساحتها ٧٤٧ كم٢ ، وسكانها (١٠٩,٠٠٠) نسمة ، وعاصمتها (نوكو ألوفا) .

٤ يبلغ عدد الجمهوريات في العالم ١٢٤ جمهورية ، ومعنى هذا أن ٤٦ دولة من مجموع الدول المستقلة (١٧٠) ليست جمهورية . والجدير بالذكر أن بين هذه الدول غير الجمهورية ١٨ ملكية ، و ١٦ دولة تنعم باستقلال محدود ضمن الكومنولث البريطاني .

٥ جزيرة هاواي بل جزرها تقع في شمال المحيط الهادي ، على بعد مقداره نحـو ٣٧٠٠ كم إلى الغرب من فرانسيسكو ، وقد اكتشفها كوك سنة ١٧٧٨ ، وسماها جزر ساندويش ، لكن الجزر التي بقيت مستقلة طوال القرن ١٩ مالبثت أن طلبت الانضمام إلى الـولايات المتحـدة ، والتخـلي عن استقلالها .

٦ سبب ذلك أن الكونجرس الأمريكي أعطى تكساس الحق في أن تجزىء نفسها ، لتصبح خمس ولايات بدلا من ولاية واحدة ، في أي وقت تشاء ، وذلك عندما انشقت عن المكسيك ، وانضمت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٤٥ .

٧ هناك مجموعتان يطلق على كل منهما اسم جزر «كريسماس» ، وتقع إحدى المجموعتين في المحيط الهندي ، إلى

الجنوب الغربي من جزيرة جاوة ، وتقع الثانية في المحيط الهادي ، والمجموعة الأولى تحكمها استراليا ، بينما تحكم بريطانيا مجموعة جزر «كريسماس» الثانية التي تقع في المحيط الهادي .

٨ بانجول هي عاصمة غامبيا ، الدولة الافريقية الصغيرة الفقيرة ، المجاورة للسنغال ، تبلغ مساحتها ١١,٢٩٥ كم٢ ، وعدد سكانها (٧٧٧,٠٠٠) نسمة

٩

الأسماء القديمة		الأسماء الجديدة
جرينلند	=	كالاليت لونات
داهومي	=	بنين
ڤولتا العليا	=	بوركينا فاسو
زامبيا	=	روديسيا الشمالية
هندوراس	=	بليز
روديسيا الجنوبية	=	زيمبابوي

١٠ عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ٥٩ قطرا ، وهكذا يصبح مجموع الدول المستقلة وغير المستقلة في العالم ٢٢٩ .

١١ بلومان هي عاصمة بليز (هندوراس سابقا) .

تاساو	ـ البهاما
ثيمفو	ـ بوتان
فادوز	ـ ليختنشتاين
أولان باتور	ـ منغوليا

١٢ مقاطعة كولمبيا «District of Columbia» هي التي تتعادل ، وعاصمتها واشنطن دي سي من حيث المساحة التي تبلغ ٦٩ ميلا مربعا ، ومن حيث عدد السكان البالغ عددهم $\frac{٣}{٤}$ مليون نسمة أو أكثر قليلا .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩

الجائزة الأولى : محمد أحمد حجاج / المحلة الكبرى ـ جمهورية مصر العربية

الجائزة الثانية : دكتور جودت باسيل دبسيه / الصفاة ـ الكويت

الجائزة الثالثة : محمد عمر سالم عبد الله / كريتر / عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ عبد الرحمن محمد هايل الصلوي / صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية

٢ ـ حمودة قاسم حمودة / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية

٣ ـ أروى عبد الغني محمود / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية

٤ ـ عمار العموري / مركز بريد توزر / الجمهورية التونسية

٥ ـ صفاء رفيق آغا / دير الزور / الجمهورية العربية السورية

٦ ـ رأفت عبد العظيم أبو العز أحمد / الدوحة / دولة قطر

٧ ـ محمد سليمان الجبوري / بغداد / الجمهورية العراقية

٨ ـ عبد الغني بوفلدة جعيجع / حمام الضلعة / الجمهورية الجزائرية

اتسم اللقاء الأخير بين العملاقين السوفيتيين : جاري كاسباروف بطل العالم الحالي ، وأناتولي كاربوف بطل العالم الأسبق ، في نطاق بطولة الاتحاد السوفيتي الخامسة والخمسين ، بكثير من الأثارة والتشويق ، فقد كان محبو اللعبة وهواتها ينتظرونه بلهفة بالغة . لعب كاربوف برصانته وهدوئه المعهودين ، في حين انتهج كاسباروف خط المخاطرة والمغامرة المأثور عنه . وانتهت المباراة بينهما بالتعادل الذي عرضه كاربوف في النقلة الثلاثين وتلقفه كاسباروف بالترحاب لاقتناعه بصعوبة الفوز .

وكانت نقلة كاسباروف الرابعة مخيبة لتوقعات جميع المراقبين ، وقد أثارت كثيراً من الجدل والتعليق بين كبار الأساتذة ومنهم نيكيتين مدرب كاسباروف الذي قال : « لم يخطط أي منا لهذه النقلة أثناء التحضير ، بل فاجأنا بها كاسباروف أثناء اللعب ، وهي نقلة مؤثرة ، وإن كانت تجافي قانون المنطق الذي يرجع الى أن كاسباروف يحاول الابتعاد عن اللعب النظامي ، لإبعاد كاربوف عن الطريق الممهد » . أما الأستاذ الدولي يوري أفرباخ فقال : « إن كاسباروف يخرج عن قواعد الافتتاح المعروفة ، وهو مالا أقره ، فأنا من أنصار الأسلوب الكلاسيكي . ويبدو أن كاسباروف بنظره الثاقب يرى مالا نراه ، فيبيح ذلك لنفسه » .

ومن أجمل التعليقات ما قاله آرتور يوسوبوف : « إن مهارة كاسباروف وكاربوف تذهلني ، فعلى الرغم من أنهما قد التقيا أربع مرات متتالية حتى الآن ، إلا أنهما يلعبان كل مباراة جديدة بينهما كما لو كانا يلعبان معاً لأول مرة ، وبالحماسة والإبداع المعهودين فيهما ، وهو أمر يدعو لكل إكبار » .

وفي ختام اللقاء التقى الخصمان اللدودان حول الرقعة ، وأخذا يدرسان الدور ، ويحللانه ، كما لو كانا صديقين حميمين ، وقد نسيا كل ما كان بينهما من خصومة . وإليكم الدور الذي نحن بصدده .

□ كاربوف	■ كاسباروف
١ . د ٤	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	هـ ٦
٣ . ح - جـ ٣	ف - ب ٤
٤ . و - جـ ٢	ت(نقلة مبتكرة)

د ٥ أو جـ ٥ هي المعهودة للحد من سيطرة الأبيض على الوسط

● مسألة العدد ٣٦٧

مات ٣

من إهداء ظافر البكري (كشمير)

٥ . أ٣	ف×جـ٣
٦ . و×جـ٣	ب ٦
٧ . هـ ٣	ف-ب ٧
٨ . ب ٣	د ٥
٩ . ح-و٣	ح ب-د٧

الموقف نظريا في صالح الأبيض

١٠ . ف-هـ٢	د×جـ٤
١١ . ب×جـ٤	جـ ٥
١٢ . ت	ر جـ٨
١٣ . ف-ب٢	جـ×د٤
١٤ . هـ×د٤	ب ٥
١٥ . جـ ٥	أ ٦
١٦ . أ ٤	ح-د٥
١٧ . و-د٢	ب ٤

نقلة غير متوقعة ف-جـ٦ أفضل نظرّياً

١٨ أ ٥	و-جـ٧
١٩ ر(و)-جـ١	و-و٤
٢٠ ف-و١	ر(و)-د٨ (الشكل)
٢١ . و×و٤	ح×و٤
٢٢ ر أ٤	ح-د٥
٢٣ ح-د ٢ الدور مايزال في صالح الأبيض	
٢٣ . .	ر-جـ١٧ (رائعة)
٢٤ . ر(أ)-أ١	ح-ب٨!
٢٥ ح-جـ٤	ف-جـ٦
٢٦ . ح-د٦	ر-أ٧
٢٧ و ٣	ح-هـ٧
٢٨ . ر-جـ٤	ح-د٥
٢٩ ر(جـ) جـ١	ح-هـ٧

٣٠ . ر-جـ ٤ تعادل بتكرار النقل بالاتفاق

□□□

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ صفاء محمد عثمان ـ الجيزة / ج م ع
٢ ـ علي السعدي ـ دمشق / سوريا
٣ ـ توفيق علي العمر ـ شبوة / اليمن الجنوبي
٤ ـ نورس حسام حسين ـ النخيل / رأس الخيمة / الإمارات
٥ ـ أسامة علي قاسم ـ جدة / السعودية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حسام عبدالهادي محمد ـ بغداد / العراق
٢ ـ نور الدين الهاشمي ـ طرابلس / ليبيا
٣ ـ المنجي القصير ـ المطرية / تونس
٤ ـ فرسان طه الشهايلة ـ عمان / المملكة الاردنية الهاشمية
٥ ـ وليد سعد الله ـ هوليوود / أمريكا

١ . و-د٤	ر-ب٢
٢ . م-د٣	أ٣
٣ . م-هـ٣	م-ب١
٤ و-د١ (مات)	

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

تحية لأطفال الحجارة

● إخوتي العرب ، بكل ما يعنيه الود من معان سامية أكتب عن وطني الضائع ، عن فردوسنا المسلوب ، عن فلسطين وقضيتنا المصيرية ، عن الانتفاضة وأحداثها المشرفة ، وثورة أهلنا في فلسطين المحتلة ، وهي تقرب من نهاية عامها الثاني ، ولازالت على شدتها ونضالها البطولي ، تثير العالم بما فيها من مواجهة وصمود . إن من حق شعبنا الفلسطيني البطل أن يكتب عنه الكثير ، من حق أطفالنا الذين يرمون الحجارة بكل جسارة وصمود أن يظهروا للعالم أبطالا ، من حق أمهاتنا الفلسطينيات وشيوخنا وشبابنا الذين يقفون في وجه الرصاص الغادر الذي يمزق الأحشاء ويقتحم القلوب ،ويصمدون أمام الغاز السام الذي يخترق صدورهم ، من حقهم أن يطلع العالم على حقوقهم الشرعية وقضيتهم ونضالهم . إن الشعب العربي الفلسطيني البطل في الداخل يحتاج إلى مساندة وتوعية من أصحاب الفكر والقلم ، وتسليط الضوء عليهم يعطيهم نوعا من المساندة والدعم المعنوي الذي هم في أمسّ الحاجة إليه .

إخوتي العرب ، إن شعبنا الفلسطيني يفرض وجوده على العالم بما يقوم به من بطولات رائعة ، وملاحم خالدة ، فليس من الممكن أن ننسى أمًّا تجهض بسبب الغازات السامة ، أو الضرب المبرح الذي تتعرض له ، أو طفلا يموت برصاص المحتل ، أو شيخا يهان لدفاعه عن أرضه أو منزله ، فأصحاب الأرض يأبون الذل والإهانة .

القارئة : نسرين طه

حمص / سوريا

□■□

حشرات مفيدة للإنسان

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● تحية طيبة وبعد ،

لدى اطلاعي على العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ من « العربي » ، لفت انتباهي مقال (حشرات تأكل حشرات) ، للدكتور خالد رويشد .

لقد تمكن الدكتور - كاتب المقال - من إيجاز بعض المعلومات ، ورأيت من واجبي أن أضيف على ما ذكره بعض المعلومات ، كي يعم الفائدة والنفع .

يبدأ الحديث عن حشرة أسد المن ، وهي حشرة شرهة ذات جسم هزيل ، ضعيفة القوام ، بطيئة الحركة ، رقيقة الجلد . والطور اليافع منها يطلق عليه اسم

على هذه الصفحات ... نرحب بنشر ملاحظات وتعليقات قرائنا الأعزاء عما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

(الذباب ذو العيون المذهبة) . نرى في أغلب الأحيان أن الأنثى تضع البيض الأبيض اللون متعلقا بالسيقان النباتية الطويلة ، أو ملتصقاً بأوراق الأشجار والأعشاب ونباتات المحاصيل الحقلية المتنوعة ويأتي دور هذه الحشرة الكبير المهم للإنسان لتمكنها من تخليصه من أعداد كثيرة من الآفات الزراعية الخطيرة

(ثانيا) فرس النبي - وهي حشرة ضخمة الحجم ، من فصيلة الحشرات ، مشبكة الأجنحة ، وتضم حوالي ١٨٠٠ نوع

والملفت للنظر أنها جميعها آكلة لحوم أما أماكن وجودها ففي جميع الأقاليم الدافئة في العالم . أضف إلى ذلك أن فريستها ليست نوعاً واحداً ، بل أنواع كثيرة .

ثالثا - الرعاشات ، وهي مخلوقات حشرية بنية اللون أو خضراء ، ذات أجسام رقيقه ، وطيران بطيء لها رأس كبير ، فيه عيون ولرأسها زوج من قرون الاستشعار القصيرة ، وثلاثة أزواج فمية وهي من أخطر الكائنات الطاغية في عالم « ما تحت الماء » ، كما أن هناك أنواعا أخرى من الحشرات مثل الذباب السارق ، والذباب الحائم ، والخنافس

القارىء - ماجد مصطفى أحمد
ادلب - سوريا

□■□

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● تحية صادقة من تونس الخضراء إلى الكويت بلد العروبة والمجد ، إني من المنكبين على قراءة مجلتكم بانتظام ، لما ألمسه فيها من العمل الجاد لإثراء الثقافة والمعرفة في الوطن العربي ، وإنني معجب جداً بالمستوى الرفيع لمجلتكم ، وهي من المجلات التي لها صدى كبير لدى المثقفين في تونس وكل أقطار المغرب العربي الكبير . وحرصاً مني على شمولية « العربي » وإلمامها بكل المعارف الإنسانية ، فإنني أقترح توسيع الباب الخاص بالعلوم ، ليشمل بعض المواضيع المهمة التي لم تنل حظها من الإعلام ، وعلى الأخص موضوع الاتصالات الفضائية عبر الأقمار الصناعية .

القارىء : محمد بن أحمد الهمامي

كلية العلوم - تونس

حوار القراء

● القارىء : سليم هاني منصور - زحلة ، بلبنان - يبدى إعجابه الشديد بصفحة «مساحة ود» . ويقترح أن تعطى الفرصة للقراء لكتابة هذه الصفحة .

● القارىء : غياث جباخنجبي - من دمشق ، سوريا - لديه مشاريع علمية وقصص عن الخيال العلمي ، يرغب في تطويرها .

نقول له : إن هناك جهات علمية كثيرة في الوطن العربي يمكن أن تراسلها ، وتعرض عليها هذه الأفكار ، كما يمكنك مراسلة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أو معهد الأبحاث العلمية في الكويت . وستجد كل الاهتمام .

● القارىء : الشيخ محمد الأمين حاجب - إمام مسجد ماوسل ، في مدينة ساناويس ، بجمهورية السنغال - يقترح على المجلة زيارة منطقته ، والقيام باستطلاع مصور ، كي يلتفت المسلمون إلى ظروفهم الصعبة التي يمرون فيها .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١									■	
٢				■						
٣					■					
٤										■
٥		■		■						
٦					■	■		■	■	
٧		■								
٨					■					
٩			■				■			■
١٠	■									

كلمات أفقية :
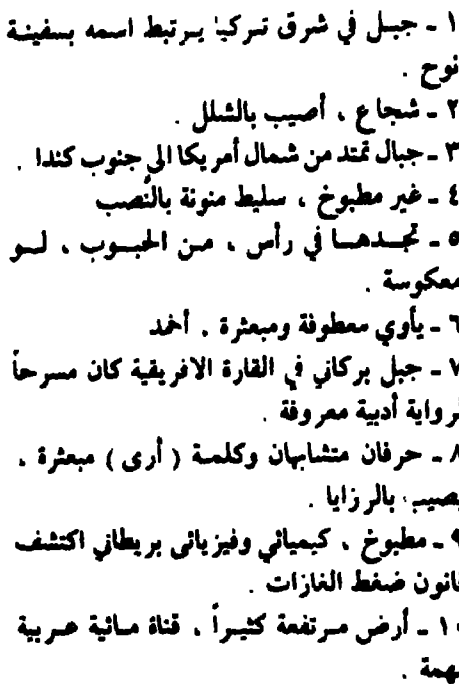
١ ـ سلسلة جبلية كبرى تمتد من نيومكسيكو الى الاسكا

٢ ـ قديم أو عتيق ، جبل في اليونان كان يعتبر مقراً للآلهة في القديم .

٣ ـ لغة ، يُسَوِّف .

٤ ـ سلسلة جبلية واقعة بين فرنسا واسبانيا .

٥ ـ سلسلة من الجبال تقع في ايران .

٦ ـ سلسلة جبلية تمر في مراكش والجزائر .

٧ ـ بحر واسع يتفرّع من المحيط الأطلسي .

٨ ـ أباح السرّ ، سلسلة جبلية في جنوب تركيا .

٩ ـ جبل قليل الارتفاع ، قارب من جذوع الأشجار ، هيئة الملابس .

١٠ ـ سلسلة جبلية تخترق معظم بلاد أوربا .

كلمات عمودية :

١ ـ جبل في شرق تركيا يرتبط اسمه بسفينة نوح .

٢ ـ شجاع ، أصيب بالشلل .

٣ ـ جبال تمتد من شمال أمريكا الى جنوب كندا .

٤ ـ غير مطبوخ ، سليط منونة بالنصب

٥ ـ تجدها في رأس ، من الحبوب ، لو معكوسة .

٦ ـ يأوي معطوفة ومبعثرة . أخذ

٧ ـ جبل بركاني في القارة الافريقية كان مسرحاً لرواية أدبية معروفة .

٨ ـ حرفان متشابهان وكلمة (أرى) مبعثرة . يصيب بالرزايا .

٩ ـ مطبوخ ، كيميائي وفيزيائي بريطاني اكتشف قانون ضغط الغازات .

١٠ ـ أرض مرتفعة كثيراً ، قناة مائية هربية مهمة .

● حل مسابقة العدد الماضي ـ مايو ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ن	و	ب	ل	■	م	د	■	ه	ش
٢	ح	ا	ث	ز	ة	ن	و	ب	ل	■
٣	ي	ن	ر	ن	■	ش	■	ا	■	ن
٤	ب	د	■	م	ا	ا	ب	س	ل	ك
٥	م	ر	م	■	م	■	ر	ت	و	ش
٦	ح	ي	و	ا	ن	■	ن	ر	ت	■
٧	ف	ك	ص	■	ا	ل	د	ب	ر	ي
٨	و	ح	ل	ه	■	م	ل	ا	ك	م
٩	ظ	ى	ل	■	ف	و	ل	ك	ب	ر
١٠	■	د	ي	ا	ر	■	و	■	ح	ن

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

يونيو ١٩٨٩م

تأليف
الدكتور حسين فهيم

الكتاب ١٣٨

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٧ يونيو ١٩٨٩

افتتاحيات الهادئ

تأليف : جون ويدمان
تقديم : د. عبدالوهاب المسيري
ترجمة : د. عبدالوهاب المسيري ومحمود حلمي
مراجعة : د. عبدالواحد لؤلؤة
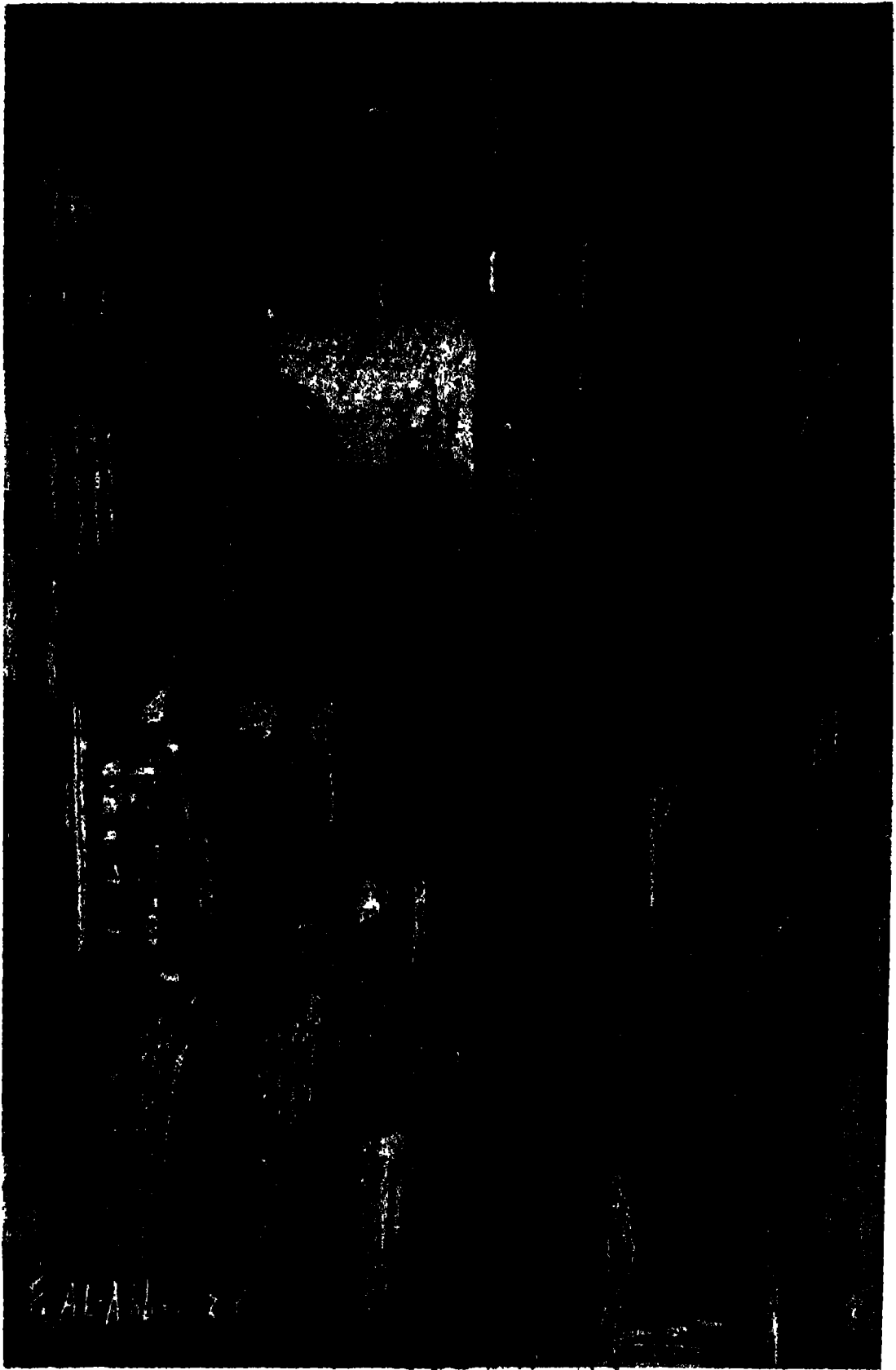
سوق قديم - للفنان الكويتي فاضل العبار

أ ١